الباب الثاني في فنون الإنشاء

فنونُ الإنشاء سبعةٌ: وهي المُكاتباتُ، والمناظراتُ، والأمثالُ، والأوصافُ، والمقامات، والرّواياتُ، والتاريخُ.

الفن الأول: في المكاتبات والمراسلات

المكاتبةُ وتعرَفُ أيضاً بالمراسلة هي مخاطبةُ الغائبِ بلسان القلم. وفائدتها أوسع من أن تُحْصر من حيث إنها تُرْجُمانُ الجنان، ونائبُ الغائب في قضاء أوْطاره[١] ورِباطُ الوداد مع تباعد البلاد.

وطريقة المكاتبة هي طريقةُ المخاطبة البليغة مع مُراعاة أحوال الكاتب والمكتوب إليه والنّسبة بينهما[٢] وخواصُّها خمسٌ: السذاجةُ، والجلاءُ، والإيجازُ، والملاءمةُ، والطّلاوَةُ[٣].

فالسذَاجةُ تجعلُ الكلامَ فِطرِيّاً سليماً من شَوائب التكلُّفُ منزّهاً عن زُخرف[٤] القول بعيداً عن بهرَجة[٥] الكلام.

والجلاء هو العدُولُ عن الكلام المغلَق والتّشابيه المُستبعدةِ والتّراكيبِ الملتبسةِ إلى الكلام المُهذَّب الصَّريح. والإيجاز تنقيحُ الرسالةِ من حشو الكلام وتطويل الجُمل فيبرزُها وَافيةَ الدّلالةِ على المقصود مقْتصرة على المحسّناتِ القريبة

---

(١) الأوطار: الحاجات.

(٢) قال إبراهيم بن محمد الشيباني: إذا احتجت إلى مخاطبة أعيان الناس أو أوساطهم أو سوقتهم فخاطب كلا على قدر أبهته وجلالته وعلو مكانته وانتباهه وفطنته. ولكل طبقة من هذه الطبقات معان ومذاهب يجب عليك أن ترعاها في مراسلتك. فلا تكتب لمن أصيب في ماله أو في عياله كما تكتب لمن فرغ باله ووفر ماله. قال آخر: إن بلاغة الرسالة تستفاد من ملاحظة مقامات الكلام وأوقاته ومراعاة أحوال المخاطبين بالنسبة إلى المتكلم. واعلم أن لكل مقام مقالاً.

(٣) بثليث الطاء. (٤) مزورة. (٥) العدول عن الجادة المقصودة.

المنال[١]. والملاءمة تنزّلُ الألفاظ والمعاني على قدرِ الكاتب والمكتوب إليه فلا تُعطي خيرَ الناس رفيعَ الكلام ولا رفيعَ الناس خيرَ الكلام. على أنها تجعلُ الرسالةَ وتعابيرها مُستعذبةَ الأوْضاعِ حَسْنَةَ الارتباط يأخذُ بعضُها بأزمّة بعضٍ. والطَّلاوةُ تكسو الكلام رونقاً وإشْرَاقاً بجوْدة العبارة وسلامة المعاني وسلاسة الألفاظ[٢] وتجعلهُ بذلك أحسنَ موقعاً عند سامعه.

أبواب الرسائل

تنقسمُ الرسائلُ باعتبار موضوعها إلى **ثلاثة أقسام**: **الأولُ**: الرسائلُ الأهلية. **والثاني**: الرَّسائلُ المُتداولة. **والثالث**: الرّسائلُ العِلميَّة.

الكلام على الرسائل الأهلية

الرّسائلُ الأهليّةُ وتُعرَفُ برسائل الأشواق. هي ما دارَت بينَ الأقارب والأصدقاءِ وأسفَرَت[٣] عن مكنون[٤] الودَاد وسَرَائر الفؤاد. ولا حرَجَ على الكاتب إذا بسَطَ فيها الكلامَ على أحواله وأخفَى السُّؤالَ في أحوال أصحابه. وتَتَفرّدُ هذه الرَّسائلُ بأن يُطلِقَ الكاتبُ فيها العِنانَ للأقلام ويتجافى عن الكلفَة ويَعدلَ عن الانقباض. وقد قيل: «الأنسُ يُذهِبُ المهابةَ والانقباضُ يُضيّع المودَّة». هذا، ولا بدّ من مرَاعاة مقتضى الحال والاعتصام بركْن الفِطنَةِ آخذاً بقول أبي الأسوَد الدُّؤَلِي:

[الكامل]

لا تُرْسلنّ رسالةً مشهورةً لا تستطيعُ إذا مضت إدراكها

وإلى هذا الباب ترجعُ مكاتباتُ الأشواق والتعارُف قبل اللقاء والهدايا والاستعطافِ والاعتذار وغير ذلك. ولنذكرْ شذرات من أقوال الكتاب[٥].

---

(١) ولا بعد مناقضاً للإيجاز ما يستدعيه المقام من البسط في الموضوع إما تعزيزاً للمعنى وإمّا حذراً من الإبهام أو دلالة على عواطف القلب أو رغبة في تفكيه الخواطر. قال الأقدمون: «خير الكلام ما قلّ ودل ولم يطل فيمل».

(٢) سهولتها. (٣) كشفت. (٤) مستور.

(٥) قد أفردنا للرسائل الأهلية كتاباً خاصاً أسميناه «إنشاء المكاتبات العصرية والمراسلات العربية» وطبعناه عدة طبعات متوالية سنة ١٣٣٨هـ فارجع إليه إذا شئت. ولهذا نختصر في هذا الكتاب أبواب الرسائل ونذكر ما تمس إليه الحاجة فقط

الفصل الأول: في الشوق

كتب أبو منصور الثَّعالبي النّيسابوري المتوفى سنة ٤٢٩هـ:

شوقي إليك رهينُ قلبي، وقَرين صدْري، والزّعيم[١] بتعليق فكري، وتفريق صَبري، سَميرُ ذكري، ونديمُ فكري. زادي في سفري، وعتادي[٢] في حضَري، لا يستقلُّ به صدري ولا يقوَى عليه صبري. يكادُ يكون لزاماً، ويعدُّ غراماً، لا يرْحل مقيمهُ، ولا يُصرف غريمهُ، استخفَّ نفسي واستفزّها، وحرّك جوانحي وهَزّها، شوقٌ أخذ بسَمع خاطري وبصَره، وحال بين مَوْرد[٣] قلبه ومصدَره[٤]، شوقٌ قد استنفذَ جلدي[٥]، وملك خلَدي[٦]، شوق براني بَرْي الخلال[٧] ومحقني محْقَ الهلال، شوق تركني حرَضا[٨] وأوسعَني مضَضا[٩]، أراني الصبرَ حسْرةً والوَجد يمنة ويسرة، شوق يزيد على الأيام[١٠] توقُّداً وتأجُّجاً وتضرُّماً وتوهُّجاً. نار الشوق حشوُ ضلوعي، وماءُ الصبَّابة ملء جُفوني، أنا من لَواعج الشوق بين غمائم لا تمطر إلا صواعقَ وسَمائم[١١] قد قَدحتْ في كبدي مِن الحرقة بهذه الفرقة ما يفوت أيسرُه حدّ الشكايَةِ، ويجوز أضعفهُ كُنْه الكناية. شوقُ الرّوض الماحل[١٢] إلى الغيث الهاطل.

وكتب في تشبيه الشوق:

ما الأعرابية حنَّتْ إلى نجد وأنَّتْ من وَجد بأشدّ منّي كلفاً[١٣] وأتمّ منّي شغفاً. أنا في شِدّة الشوق إليك كالعَطشان كُشِفَ له عن ماءٍ عَذْب، ومُنع منهُ بمانع صَعْب. شوق لو أُلقيَ على الكواكب بعضُه لما سارت أو كلّفت الأفلاك ثقله لما دارتْ. شوق لو فُرّق على القلوب الخالية لاشتغلتْ، ولو قُسّم على الأكبادِ الباردة لاشتعلتْ. أنا أشتاقُك مع كل صباح طالع، وضياءٍ شارق، ونجم طارق[١٤].

---

(١) الرئيس. (٢) ما أعددته لحوادث الدهر. (٣) موضع الورود.
(٤) الرجوع. (٥) القوة. (٦) القلب.
(٧) الضعف. (٨) مريضاً. (٩) وجعاً.
(١٠) بضم الهمزة وكسرها: الدخان. (١١) الرياح الحارة.
(١٢) المجدب. (١٣) كلفاً مصدر كلف من باب فرح: التغير.
(١٤) الآتي ليلاً.

وكتب في أثر الفراق:

وَجدٌ يتكرّر على كرّ الجديدين[١]، ويستغرقُ ساعات الملوَين[٢]. قد تحمّلت مع يسير الفرْقةِ عظيمَ الحرْقة، ومع قليل البُعد كثيرَ الوجد. قد أنثنيتُ بجسم نَاحل، وصِرْتُ من صَبري على مَراحل، فأرَّقْتني[٣] وفرّقتَ جميع صَبري وٱستصحبت فريقاً من قلبي فرقَّت به بين عيني والرُّقاد[٤] وجنبي والمهاد[٥]، ما أُعوّلُ إلا على العويل[٦] لو كان يُغني، ولا أستنصِرُ غيرَ الوَجد لو كان يجدي[٧]. يَدي لا تُساعدُني وخَطّي لا يشبهُ في الدّقّة إلا بدَني، لولا حَصانةُ[٨] الأجلِ لخَرجتْ رُوحي على عَجل. فارقْتَني فَتفرَّقَ عنّي شملُ أنْس منتظِم، وتمكّن مني بَرَحُ شوق مضْطرِم. فارَقْتني ففرَّقْتَ بين الرُّوح والبدَن، وتركتني والنّزاعَ في قَرن[٩]. قد صرتُ حليف وحشة وإن كانتُ ثَاوِياً[١٠] في وطن، وقرينَ كُرْبة وإن كنتُ بين جيرَةٍ وسكَن:

[الطويل]

عسى الدَّهرُ يُدنينا ويُدني دِيارَكُمْ ويَجمعُ ما بيني وبَينكُمو الشَّملا
فأشكو تباريحَ الغرام إليكُمو وحَرَّ جَوىً تُبلي عِظامي وما يُبلى

وكتب البسطامي المتوفى سنة ٣٣٢هـ:

[مخلَع البسيط]

قَلبي بنار الهوَى مُعذّبْ شوْقاً إلى حضرة المهذّبْ
شوقاً إلى ماجدٍ كريمٍ يخطرُ لي ذكرُهُ فأطرَبْ

وبعدُ فالعبدُ يُنهي من لوَاقح[١١] شوْقهِ ولوَافح[١٢] توْقه[١٣] إلى شُهود ذاتكم الجميلة ومُشاهدة صفاتِكم الجليلة، لينشَق عَرْفكم[١٤] الفائح وبُخورُ عرفكم[١٥] الفاتح. مدّ الله سبحانهُ وتعالى ظِلّكم وأدَرَّ وَبْلكم[١٦] وطلّكم[١٧].

---

(١) الليل والنهار. (٢) الليل والنهار أيضاً. (٣) أسهرتني.
(٤) النوم. (٥) مكان النوم. (٦) رفع الصوت بالبكاء.
(٧) ينفع. (٨) حفظ.
(٩) قرن: مصدر قرن من باب فرح: التقى. (١٠) مقيماً.
(١١) الرياح. (١٢) الرياح الحارة. (١٣) الشوق.
(١٤) الريح الطيبة. (١٥) نبت يقال له الثمام طيب الرائحة.
(١٦) المطر الكثير. (١٧) الندى.

[الوافر]

أُحِبُّ الوَعدَ منك وإن تمادى وأقنَعُ بالخيالِ إذا ألَمَّا
عسى الأيام تَسْمَحُ لي بوصلٍ وتأخذُ لي من الهِجرَان سِلما

والجنابُ منذُ طوى عنّا أبوابَ مُلاقاته، وزَوى منّا أطايبَ أوقاته، قَبض العبدُ عِندَ مقاله وخفضَ لسانَ حاله.

[الطويل]

شكوتُ وما الشكوى بمثلي عادةٌ ولكن تفيضُ العينُ عند امتلائها

فجلسَ الفراقُ بعظيم حجابه، وأليم عذابه، على ذُرْوَةِ[1] عرشَه، وافترَسَ بقوَّة بطشه، وصار للسرّ جاراً، وأوْقد للحرْب ناراً جهاراً.

[البسيط]

طوْعاً لقاضٍ أتى في حُكمهِ عَجَبا أفْتى بسَفْكِ دَمي في الحلّ والحرَمِ

وهذه حالَتُهُ المُفصِحُ عنها مقالَتُهُ:

[الكامل]

إنَّ الأمورَ إذا التوَتْ وتعقَّدتْ جاء القضاءُ من الكريم فحلّها
فلعلّ يُسْراً بَعدَ عُسْر علّها ولعلّ مَنْ عَقدَ العقودَ يُحلّها

فلعلّ غرُوسَ التّمني قد أثمرتْ، وليالي الحظّ قد أقمرت:

[الوافر]

سألتُ أحبّتي ما كان ذَنبي أجابوني وأحشائي تَذوبُ
إذا كان المُحبُّ قليلَ حَظّ فما حسناتُهُ إلّا ذنُوبُ

فرَعى الله أياماً لاحتْ[2] فيها أقْمارُ غُروزها[3]، وفاحتْ فيها أطرازُ طروزها من بَهاءِ سَمائها على منار ضيائها، من ذات جلالها وصفات دَلالها، في جنات عواطفها وحَنَّاتِ تعاطُفها فإن كنتُ لا أطرُقُ[4] رَحْبَ[5] فِنائكم[6] فقد أطرُقُ بابَ ثنائكم.

---

(١) بضم الذال وكسرها أعلاه.
(٢) ظهرت. (٣) مراده ما تخرجه الأغصان من النوار.
(٤) آتي ليلاً. (٥) المتسع. (٦) بكسر الفاء: متسع البيت.

[الطويل]

لئن غيّبتني عن ذُراك حوادثٌ فليس ثنائي عن فِناك بغائبِ

وكتب عبدُ الرّحمن محمد بن طَاهر المتوفى سنة ٩٣١هـ:

كتبتُ ـ أعزَّك الله ـ عن ضمير اندَمجَ[١] على سرّ اعتقادك دُرّه، وتبلّجَ[٢] في أُفُق ودَادك بَدْره، وسالَ على صَفحات ثنائك مِسكهُ، وصَار في رَاحتي سنائك[٣] ملكُهُ. ولما ظفرْتُ بفلان حمَّلته من تحيّتي زهراً جنيّاً، يوافيك عَرْفُهُ ذكيّاً، ويوَاليك أُنسهُ نجيّاً[٤]، ويقضي من حقّكَ فرضاً مأتيّاً[٥]. على أنّ شخصَ جلالك لي ماثلٌ[٦] وبين ضلوعي نازلٌ، لا تملّه خاطر، ولا يَمسُّه عَرضٌ دَاثر[٧]، إن شاء الله عزَّ وجلّ.

وكتب أبو الفضل بن العَميد المتوفى سنة ٣٦٠هـ:

قد قَرُبَ ـ أيّدَك الله ـ مَحلُّكَ على تراخيه، وتصاقَبَ مُسْتَقَرُّك على تَنائيه؛ لأن الشّوقَ يُمثّلك، والذّكرَ يُخيّلك. فنحنُ في الظاهر على افتراق، وفي الباطن على تَلاق، وفي النسبة مُتباينونَ، وفي المعنى مُتوَاصلون. ولئن تفارقتِ الأشباحُ لقد تعانقتِ الأرواحُ.

وكتب بديع الزّمان الهمذَاني المتوفى سنة ٣٩٨هـ:

يعِزّ عليّ ـ أطال الله بقاء مولاي ـ أن ينُوبَ في خدمته قلمي عن قَدمي، ويسعدَ برؤيته رَسولي دون وصولي، ويَرِدَ مَشْرَعَة الأُنس به كتابي قبل رِكابي. ولكن ما الحيلةُ والعوائق جمّة.

[مجزوء الكامل]

وعليّ أن أسعى وليـ ـس عليّ إدراكُ النجاحِ

وقد حضرْتُ دارَه وقبلْتُ جدَارَه وما بي حُبُّ الحيطان ولكن شَغفاً بالقُطّان. ولا عِشقُ الجُدران ولكن شوقاً إلى السكان.

[الوافر]

أمرُّ على الدّيار ديار سلْمى أُقبّلُ ذا الجِدَارَ وذا الجدَارَا

(١) خفي واستتر. (٢) أضاء. (٣) رفعتك.
(٤) مناجياً. (٥) آتياً. (٦) متمثل.
(٧) هالك.

وما حبُّ الدّيارِ شَغَفن قلبي ولكنْ حبُّ منْ سكنَ الديارَا

وحين عدت العَوادي عنهُ، أمليتُ ضمير الشوق على لسانِ القلم، مُعتذراً إلى مؤلايَ على الحقيقة عن تقصير وقع، وفتُور في الخدمة عَرَض، ولكنّي أقولُ:

[المديد]

إن يكن تَرْكي لقصدِك ذنباً فكفى أن لا أراك عقابا

وكتب أبو محمد عبد الله البَطلْيوسيّ المتوفى سنة ٥٢١هـ:

يا سيدي الأعلى، وعمادي الأسنى، وحسنةَ الدّهر الحسنى، الذي جلّ قدره وسار مسير الشّمس ذكرهُ، ومَنْ أطال الله بقاءه لفضل يُعلي منارَه وَعِلْم يُحيي آثاره. نحن ـ أعزّك الله ـ نَتدَانى إخلاصاً وإن تناءَينا أشخاصاً، ويَجمعنا الأدَب وإن فرّقنا النَسب، فالأشكالُ أقاربُ، والآدابُ مناسب، وليس يضرّ تنائي الأشباح إذا تقارَبت الأرواح.

[الطويل]

نَسِيبِيَ في رَأيي وعلمي ومذْهَبي وإن باعدَتْنا في الأُصول المناسب

وكتب بديع الزّمان الهمذَاني المتوفى سنة ٣٩٨هـ:

أراني أذكرُ «مولاي» إذا طلَعت الشّمس، أو هبّتِ الريح، أو نجَمَ النّجم، أو لمع البرْقُ، أو عَرَض الغيثُ، أو ذُكرَ اللّيث، أو ضَحك الرّوض. وأنَّى[1] للشّمس مُحيَاه[2]، وللرّيح رَيّاهُ[3]، وللنّجم حُلاه وعُلاه، وللبرْق سناؤه[4]، وسناه[5] وللغيث نِدَاه[6]، ونَداه[7] في كلّ صالحة ذكراه، وفي كلّ حادثة أراه. فمتى أنساه؟ واشدَّةَ شوقاه، عسى الله أن يجمعني وإياه.

وكتب الشيخ إبراهيم اليازجي المتوفى سنة ١٣٢٤هـ:

ما زِلتُ أُدافعُ النّفسَ عمّا تتقاضاني من شكوى أشواقها، وفي الشكوى شِفاء، واستنْزال أثرٍ من لدنُك تتعلّل به مسافة البيْنِ[8]، إلى أن يمُنَّ الله باللقاء. ومن دون

---

(١) أي من أين. (٢) وجهه. (٣) ريحة طيبة.
(٤) الرفعة. (٥) بالقصر: الضوء.
(٦) بضم النون وكسرها: اشهر الصوت. (٧) العطاء.
(٨) البعد.

obeikandi.com

إجابتها مشادِهُ[١] قد شَغلت الذّرْع[٢]، وشواغلُ قد أفرغَ منْ دونها الوُسْع، إلى أن غلَب جَيش الوَجد على معاقل الصّبر، وزَاحَم مَناكب العدْواء، حتى ضرَب أطنابه[٣] بين الحجاب[٤] والصّدر. فاتخذتُ هذه الرُّقعة أُزْجيها[٥] إليك وفيها من وِقر[٦] الشّوْق ما ينوءُ[٧] برسولها، ومن رِقّةِ الصّبابة ما يكاد يطيرُ بها. أو يخلفها، فيُصافحُ الأعتابَ قبل وصولها، راجياً لها أن تُتَلقّى بما عُهدَ في سيدي من الطلاقة والبِشْر، وأن لا يَضنّ[٨] عليها بما عوّدني من تمهيد العذْر، ويَصلُني من بعدها بأنبائه[٩] الطّيبة عائدة عنه بما يكون للناظر قرّة وللخاطر مسرّة، إن شاء الله تعالى بمنّه وكرمه.

وكتب أيضاً:

وَافاني كتابُك العزيزُ فأهلاً بأكرم رسول جاء ببينات الإخلاص والوفاء مصدّقاً لما بين يديه من ذِمّة الوداد والإخاء. يتلو عليَّ من حَديث الشّوْق ما شهدَ بصحّتهِ سُقْمي، وهتَفَ مؤذّنهُ في كل مِفصَل من جسمي، ويذكرني من عهدك ما طالما أذكرَنيه البرْقُ إذا لمعَ، والبدرُ إذا طلع، والقُمْرِيُّ[١٠] إذا سجعَ. وإنما عَداني عنك ما أنا فيه من مُجاذبة الشّواغل ومُساوَرة[١١] البلابل[١٢].

[الطويل]

وفي القلب ما في القلب من شجَن الهوَى تَبدّلت الحالاتُ وهو مقيمُ

وأنا على ما بي من غلّ البنان[١٣] وشُغل الجنان[١٤]، وما زالت أنباؤُك[١٥] عندي لا يخْطِئُني بريدُها، ولا ينقطع عنّي وُرُودها، أُهنّئ النفس منها بما تتمنّى لك من سلامة لا يَرِثّ[١٦] لها شِعار، وإقبالٌ لا يعترضهُ بإذن الله إدبار. وقُصارى المأمول في كرمك أن تُعاملَني بما سبقَ لك من جميل الصِلّة، إلى أن يمُن الله بالاجتماع ويغني بالعيان عن السّماع ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾[١٧].

(١) مشاغل.
(٢) بسط اليد.
(٣) الحبل يشد به سرادق البيت.
(٤) لحمة رقيقة بين الجنبين.
(٥) أرفعها.
(٦) بكسر الواو: الحمل الثقيل.
(٧) يثقل به.
(٨) أي لا يبخل.
(٩) أخباره.
(١٠) طير من جنس الحمام يقال للأنثى قمرية وللذكر ساق أحمر.
(١١) الموثبة.
(١٢) الأحزان.
(١٣) الأصابع.
(١٤) القلب.
(١٥) أخبارك.
(١٦) لا يبلى.
(١٧) فاطر: ١٧.

obeikandl.com

وكتب أبو العباس الغسَّاني المتوفى سنة ٤٩٨هـ:

سِرْ إلى مجلسٍ يكادُ يسيرُ شوقاً إليك، ويطيرُ بأجنحةٍ مِن جوَاه حتى يحلّ بين يديك. فلله دَرُّ[١] كماله إنْ طلعْتَ بدراً بأعلاه، وجمالهِ إن ظهرت غرّةً بمُحيّاه. فهو أُفُقٌ قد حوى نجوماً تتَشوَّق إلى طلوع بدرها، وقَطْرٌ قد اشتمل على أنهارٍ تتشوّقُ إلى بحرِها، لنَـتمدَّ منها إن مننتَ بالحضور، وإلا فيا خيبة السُّرور.

وكتب الصاحب بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥هـ:

مَجلِسُنا، يا سيدي، مفتقِرٌ إليك، معوّلٌ في شوقه عليك، ولقد توَرّدت خدودُ بنفسجهِ، وفَتقت فأُرة[٢] نارَنجِهِ[٣]، وانطلقت ألْسُنُ الأوْتار، وقامت خطباءُ الأطيار، وهبّتْ رياح الأقداح ونفَقَت[٤] سوق الأنس والأفراح. وقد أبتْ راحتُهُ أن تصفوَ إلّا أن تتناولها يُمناك وأقسم غناؤُه لا طيبَ حتى تعِيَهُ أُذُناك. ووَجنات أُتْرُجّه قد احمرّت خَجَلاً لإبطائك. وعيونُ نَرجسه قد حدَقتْ[٥] تأميلاً للقائك. ونحنُ لغيبتك كعقد ذهبت وَاسطته[٦]، وشبابٍ قد أُخذتْ جُدّته[٧]، وإذا غابت شَمسُ السّماء عنّا، فلا أن تدنو شمس الأرض منّا. فإنْ رَأيتَ أن تحضر لتتصل الوَاسطة بانعِقد، ونحصُلَ بك في جنّة الخُلد، فكن إلينا أسرَع من السّهم في مَمرّه، والماءِ إلى مقرّه؛ لئلا يخبُثِ من يوْمي ما طاب، ويعودَ من نَوْمي مَا طَار.

وكتب أبو بكر الخوَارْزمي المتوفى سنة ٣٨٣هـ:

كتابي، وأنا بما يبلُغني من صَالح أخبارِ «السيد» مُغتبطٌ مسرُور، وبما يعرفهُ الزمانُ وأهله من اعتضادي[٨] به مَصون مَوْفور، والله على الأولى محمودٌ وعلى الأخرى مشكور.

التطفّلُ وإنْ كانَ محظوراً في غير مواطنه، فإنهُ مباحٌ في أماكنه، وهو وإن كان في بعض الأحوال يَجمعُ عاراً وَوِزْراً، فإنهُ في بعضها يجمع فخراً وذخراً. ورُبّ فعلٍ يُصابُ بهِ وقتهُ فيكونُ سنَّة، وهو في غير وقته بِدْعة. وقد تطفّلت على «السيد»

(١) كلمة تعجب. (٢) فجآت المسك. (٣) ثمر معرب باريك.
(٤) راجت. (٥) تاقت.
(٦) الجوهرة التي في وسطه وهي أجوده. (٧) الطريقة.
(٨) استعانتي.

بهذه الأحرُف أخطبُ بها موَدّته إليهِ، وأُعرضُ فيها موَدّتي عليهِ، وأسألهُ أن يرسم لي في لساني وقلبي رَسْماً، ويختم عليهما ختْماً، فقد جَعلتُهما باسمه، وقَصرْتهما على حُكمهِ وسأضعهُما تحت خَتْمه، وبرئتُ إليه منهما، وصِرْتُ وكيله فيهما، فَهُما على غيرهِ حِمىً[١] لا يُقْرَب، وبَحيرةٌ[٢] لا تحلَبُ ولا تُركب، ولمَا نظرتُ إلى آثار السيد على الأحرار، ونُشرَتْ طِرَاز محاسنه من أيدي القاصدين والزُّوّار، ورأيتُ نفسي غُفْلاً[٣] من سِمَة[٤] مودّته، وعُطْلاً[٥] من جمالِ عِشْرَتهِ، حَمَيْتُها من أن يحْمى عليها وِرْدٌ موْرود، ويُحسَرَ[٦] عنها ظلٌّ على الجميع ممدود. وعجبتُ من:

[الطويل]

سَحَابٌ خطاني جُوْدُه[٧] وهو صيِّبٌ[٨] وبحرٌ عَداني سَيلهُ وهو مُفْعَمُ[٩]
وبَدْرٌ أضاءَ الأرض شرْقاً ومغرباً ومَوْضعُ رجْلي منهُ أسوَدُ مُظلمُ

وكتب الشيخ حمزة فتح الله المتوفى سنة ١٣٣٦هـ:

مولايَ، أمّا الشّوْقُ إلى رؤيتك فشديدٌ. وسَلْ فؤادك عن صديق حَميم[١٠] ووِدّ صَميم[١١] وخُلّةٍ لا يزيدُها تعاقُبُ المَلَوَين[١٢] وتألق[١٣] النّيرَين[١٤] إلّا وُثُوقاً في العُرَى، وإحكاماً في البناءِ، ونماءً في الغِرَاس، وتَشييداً في الدّعائم[١٥]. ولا يَظُنن سيدي أن عدمَ ٱزدياري[١٦] ساحته الشريفة، وٱجتلائي طلعتَهُ المُنيفة، لتقاعُس[١٧] أو تقصير، فإنّ لي في ذلك معذرة اقتضت التأخيرَ. والسيد ـ أطال الله بقاءه ـ أجدَرُ[١٨] مَنْ قَبِلَ معذِرةَ صديقه، وأغضى عن رَيْثٍ[١٩] ٱستدعته الضّرُورة.

وبعدُ، فرجائي مِنْ مقامكم السّامي أن لا تكونَ معذرتي هذه عائقاً لكم عن زيارتي. فلكَمْ مِنَناً طوَّقْتمونيها ولكُمْ فيها فضلُ البُدَاءَة، وعليَّ دوامُ الشُّكران والسّلام.

---

(١) محظور.
(٢) الشاة التي إذا نتجت عشرة أبطن شقوا لها أذنها فكانت حراماً عليهم لحمها ولبنها وركوبها.
(٣) من لا علامة عليه.
(٤) العلامة.
(٥) من لا حلي عليها.
(٦) يكشف.
(٧) المطر الشديد.
(٨) ذو المطر.
(٩) الممتلئ.
(١٠) القريب الذي يهتم لأمره.
(١١) الخالص.
(١٢) الليل والنهار.
(١٣) اللمعان.
(١٤) الشمس والقمر.
(١٥) الأركان.
(١٦) زيارتي.
(١٧) التأخير.
(١٨) أحق.
(١٩) البطء.

وكتب المرحوم محمد بك دياب المتوفى سنة ١٣٣٩هـ:

كتابي إليكَ، وقد طَال بيَ الانتظَار، وشَوْقي يجلُّ عن الكَيف والانحصار. فشخصُكَ دائمُ المُثول[١] أمام إنساني[٢]، وعن سِوَاك من الأخلّاءِ ألهاني وأنسَاني. فللَّه أيامٌ قضَيناها، وليال من الدّهرِ آختلسنَاها[٣]، كان السّرور فيها ضارباً خيامه، والأنس نَاشراً أعلَامه، طُويَ بِساطها وكأنَّ الأمرَ ما كان، غيرَ أنها زَرَعت بفؤادي شجرة الأشجان[٤] لكن عودها حليفُ أوْبتك[٥]، وتجدّدها رَهين إشارتك. فمتى يقرُبُ المَزار، وتَنجلي سُحب الأكدار. فاضربْ لعَوْدك أجَلاً، فالعود لا شكّ أحمد، واكتبُ بقُرْبك وَصْلا، فالوصلُ أضمن للعهد. وعهدي من خُلُقك الوَفاء وحُسْنُ الولاء، فلا تجعل صَفْقة[٦] شوقي إليك خُسراً، بل هَبْني بعد العسر يسراً.

وكتب وفاء أفندي محمد المتوفى سنة ١٣١٩هـ:

أمّا بعدَ سلامي عليك فهذا كتابي إليك، يُنبئُك[٧] عنّي وعن شَوقي وعن وُدّي[٨]. ولا أزيدك عِلماً أني ما كتبتُه من دَواة، ولا أجريتُ عليه قلما، ولكنها دُموعٌ وشَوقٌ سالتْ على القرطاس، وجرَتْ على حركات الخواطر والأنفاس، وهَبَّتْ عليه حَرارةُ كبدي بالأشواق، ووَجدي بالفِرَاق، فبينما هي عَقيقةٌ حمراء إذْ صارتْ فحمَة سوداء.

ألا وإن كتَابي هو قلبي ولساني. أما تراه على رِقّته، ولُطف عبارته، وصدْق طوّيته، بين يديك مقبلاً عليك، يَنْشرهُ الشوقُ ويَطويه، لا يُخفي أمراً ولا يَكتمُ عنك سرّاً، وتلك صفاتُ لساني وقلبي معك. فما الذي أبتغيه بَعدُ وقد بعثتُ إليك بالأصغرَين[٩]، وما أنا إلا بهذين نعمْ، أرجو بقَاك ممتّعا بنعماك، لأكونَ على الدّوام محلَّ نظرك. والسلام.

وكتب مؤلف هذا الكتاب:

كتَابي لديك يَصفُ شوقي إليك، ولا يَخفى عليك فمُذْ فارَقتني فرّقت بينْ أنسي

---

(١) القيام منتصباً.
(٢) إنسان عيني: هو ما يرى في السواد.
(٣) انتهزنا فرصتها.
(٤) الأحزان.
(٥) رجوعك.
(٦) أصلها لعقد البيع.
(٧) يخبرك.
(٨) بتثليث فائه: الوقوف.
(٩) القلب واللسان.

ونفسي، بل بين روحي وجسمي. ولا تعجَب إذا كنت أغدو وأروح، فالطّير يمشي من الألم وهو مذبوح. وإني أشكو إليك من ألم الوَحشة غراماً لا يشعرُ بهِ إلا مَن ذَاق حُلوَ أنسك، وعَرَفَ مقدار نفسك، وشاهدَ جمال لُطفِك، ورأى كمالَ أدبك وظَرْفك. ولقد أودَعَ الله في شخصك نوراً لعيني، وفي حديثك سرُوراً لفؤادي، وفي صفاتك ترويحاً لروحي، وفي كَرم خُلقِك تفريحاً لنفسي.

[المتقارب]

إذا وَصف الناسُ أشواقَهم فشَوْقي لوجهك لا يُوصفُ

فعندي لك من المحبّة والشّوق والتلهُّف والتَّوْق مالا يصِفهُ الواصفون، ولا يُعبّر عن حَقيقتهِ العارفون.

[البسيط]

الشّوق فوق الذي أشكو إليكَ وهل تَخفى عليك صبَاباتي وأشواقي

فيا شوْقي إلى لُقياك ووَالهفي على جمَال محيّاك. قيَّدتَ أملي عن سواك، وبهرْت ناظري بنظرة سنَاك، وكسرتَ جيش قَرَاري، وتركتَني لا أُفرّق بين ليلي ونهاري.

[الوافر]

فؤادي والهوى سِلْمٌ وحرْبُ وسُلْواني أقَام على الجِيادَهْ
وشوقي كاملٌ ما فيهِ نَقصٌ فلستُ عليهِ أطمَعُ في الزّيادَهْ

فَليت شعْري ماذا أصنعُ في شوقٍ أنا مدفوعٌ إليهِ من صادق حُبّي، بعواملَ صادَفت منّي قلباً خالياً فتمكّنت بالتّعارُف ولم تدَع للسُّلْوان سبيلاً.

[الطويل]

عرفتُ هواهُ قبل أن أعْرِفَ الهوى فصادَفَ قلباً خالياً فتمكَّنا

إِي ورَبّي، إنّ شَوقي إليك شوقُ الظمآن إلى برد الشّراب، وحنيني لك حنين الشيخ إلى زمن الشّباب، فما الإبلُ وقد حنت إلى أعطانِها، والغربَاءُ وقد أنَّت إلى أوْطانها، بأعظم منّي حنيناً ولا أكثر أنينا.

[الوافر]

ولكنّ التّفرُّق طالَ حتى توقّدَ في الضُّلوع له حريقُ

فكلّما تخطرُ ببالي في أيّ وقتٍ من الأوْقات يُمثّل لي التّذكر منك محاسن ولطائفَ تجذِبني ميلاً إليك، وتُطربني شغفاً بك واغتباطاً بإخائك، فلا عجَبَ أن كان شوقي لرؤيتك عظيماً لأنه كما قيل: «من كرَم الرّجل حنينهُ إلى أوطانه وشوقهِ إلى إخوانه».

[الخفيف]

يا خَلاصَ الأسيرِ يا صحّة المُد نِف يا زَوْرَةً على غيرِ وعدِ
يا نجاةَ الغريقِ يا فرْحةَ الأو بَةِ يا قفْلةً أتتْ بَعد بُعدِ
ارْضَ عنّي فدَتْكَ نفسيَ أنّي لك عبدٌ أذَلُّ من كلّ عبدِ

ناشدْتُك الله أن ترفُقَ بحالي، وتُعيدَ وصالي. وارْع الودّ القديم، وأبدلْ شقاء محبّك بالنعيم، واغمد سيف ظُلُماتِ القطيعة المسلول، وأوفِ بالعهد ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾[1].

(١) الإسراء: ٣٤.

الفصل الثاني: في التعرف قبل اللقاء

وكتب أبو منصور الثعالبي النّيسابوري المتوفى سنة ٤٢٩هـ:

نحنُ في الظّاهر على افتراق، وفي الباطن على تلاق. نحن نَتناجى بالضّمائر، ونتخاطبُ بالسّرائر إذا حَصَلَ القُرْبُ بالإخلاص، لم يُضرّ البُعدُ بالأشخاص. أنا أُناجيك بخواطر قلبي وإن كان قد غاب شخصُك عنّي، إنْ أخطأتْكَ يدي بالمكاتبة، ناجاك سرّي بالمواصلة. رُبّ غائبٍ بشخصه حاضرٌ بخلوصِ نفسهِ، إن تراخى اللقاء فإنّنا نتلاقى على البِعاد، ونتلافى[١] نظر العين بالفؤاد.

وكتب أيضاً:

أنا أشتَاقك كما تُشتاق الجنان وإن لم تتقدّم لها العينان. أنا وإن كنت مِمَّنْ لا يُسعدُ بلقائك فقد اشتمَل عليّ الأنسُ ببقائك، والشّوق إلى محاسنك التي سارت أخبارها، ولاحت آثارُها، لا زالت الأيام تكشفُ لي من فضلك، والأخبار تعرض عليّ من عقلك، ما يشَوّقني إليك وإن لم أرَك، ويزيدني رغبة في ودّك وقد سمعتُ خبرك.

وكتب الشيخ حمزة فتح الله المتوفى سنة ١٣٣٦هـ:

كما أنّ شَغَفَ[٢] الجَنَان[٣] بالحسن والإحسان تكون داعيتهُ المُشاهدة وتسريح الأنظار في مُحيّا الكمال ومُجتلى الجمال، فتَرى العينُ من تلك الغُرّة ما يملؤها قرّة، فكذلك السماعُ يَسْتدعي هذا الشّغفَ فيتأثرُ الفؤاد بما يُشنّفُ[٤] الأُذن مما تهديه إليهِ طرَائف[٥] الأخبار، حتى كأنّ حاستي السّمع والبصر في ذلك صِنْوَان[٦]، بل أخَوَان في هيكل هذا الجُثْمانِ[٧].

وقد يعلمُ السيدُ ـ أطال الله بقاءَه وأدام ارتقاءَه ـ أن ذلك الأمرَ (أي الشغَفَ بالسماع) ليس بالحديث العهدِ ولا القريبِ الجُدّة[٨] بل هو أمرٌ عرِفَ قديماً أن

---

(١) نتدارك.
(٢) دخول الحب في غلاف القلب.
(٣) القلب.
(٤) يزين.
(٥) المتملحة.
(٦) هما فرعا النخلة.
(٧) بالثاء وبالسين: الجسم.
(٨) الحظوة.

يَهديَ السّماع إلى سُوَيداءِ القلب لاعجَ[١] الحبّ سَعَّرَه[٢] من الأنباءِ[٣] عَرْفٌ[٤] شميمٌ[٥]، فتهيمُ[٦] بمجرَّد استنشاق ذلك الشّميم[٧]، حتى يقول الشاعرُ العرَبي: «والأذْنُ تَعشَقُ قبلَ العين أحياناً».

أجلْ[٨]، والقُدْوة في هذا المعنى، والأسُّ[٩] لذلك المبنى قوله ﷺ: «**إنِّي لَأَشُمُّ نَفَسَ**[١٠] **الرَّحْمٰنِ مِنْ قِبَلِ اليَمنِ**» لما أمْلَتْه العناية الربّانيّة والملك الرّوحاني على قلبهِ الشّريف من نبأ[١١] القرَني[١٢] أُوَيس[١٣] ولم يكن رآه بعدُ.

ألا وإنّ محاسن السيد الأجلّ لما سارت بها الركبان وأثنى عليها كلّ لسان، ما بين أخلاقٍ أبهى من الرّوض النّضير[١٤] وأعراق أشهى من عُذَيب النّمير[١٥]، قد احتلّت من فؤادي لا أقول منزلاً رَحيباً ولا وادياً خصيباً، بل منزلة شمّاء[١٦] ودارَة[١٧] علْياء، وأوْجاً[١٨] بطوالعها السعيدة يُسْعد ويلوح بها من ذكراه كلّ حين فَرْقد[١٩]. فلم أنشَبْ[٢٠] أن قدّمتُ كتابي هذا لمولاي بين يدي اللّقاءِ علّه أن يسمحَ به الزّمانُ وتُسْفر[٢١] عنه اللّيالي والأيام، ليُتَاح[٢٢] لي ريَ الفؤاد بما أرويه من حديث زَيد الخيل الذي سمّاه رسول الله ﷺ زيد الخير وقال له: «ما وُصِفَ لي أحدٌ فرأيته إلّا وجدته دون ما وُصف لي سِواك. وإن فيك خَصْلتين يُحبُّهما الله: الحلم والأناة». مقتدياً بالإمام محمودٍ جار الله في تقديم هذا الحديث الشريف على ما أنشده إياه الشريفُ بنُ الشجري أوّل ما لقَيه وكانا قد تحابّا بالسّماع.

---

(١) المتردد. (٢) أوقده. (٣) الأخبار.
(٤) الريح الطيبة. (٥) مشموم. (٦) تذهب.
(٧) المرتفع. (٨) حرف جواب مثل نعم. (٩) الأصل.
(١٠) كناية عن الوحي. (١١) الخبر.
(١٢) نسبة إلى قرن قبيلة.
(١٣) هو سيد التابعين أويس بن عامر قتل في وقعة صفين مع علي كرم الله وجهه وخبره قوله ﷺ: «يأتيكم أويس بن عامر مع أعداد اليمن من مراد ثم من قرن كان به برص فبرئ منه إلا موضع درهم وله والدة هو بار بها ولو أقسم على الله لأبره».
(١٤) الحسن. (١٥) الماء الزاكي. (١٦) مرتفعة.
(١٧) داراً. (١٨) علواً. (١٩) النجم.
(٢٠) لم أزل. (٢١) تكشف. (٢٢) يعطي.

[البسيط]

كانت مُساءلةُ الرُّكبان تُخبرُنا عن جابر بن رباحٍ أطيبَ الخبرِ
حتى اجتمَعنا فلا والله ما سمِعت أذْني بأحسن مما قد رَأى بَصري

وكتب حفني بك ناصف المتوفى سنة ١٣٣٧هـ:

يعلم الله ما عنْدي من الشّوق إلى لقاء السيّد وإن لم يرَه البَصَر، والشوقُ إلى شهوده وإن لم يكتحِل بإثْمِدِ[١] محاسنِهِ النّظر، والشّغفُ بسماع الحديث منه كما سمعتهُ عنه. فقد سبَقَتْ ذكرى محاسنه إلى السّمع ووصل خبرُ لطائفة إلى النفس. وما المرءُ إلا ذكرُه ومآثرُهُ. وحسدَت العينُ عليه الأذُنَ، ووَدّت لو أنها السابقةُ إلى اجتِلاءِ رَقائقه وشهود حقائقه: «فللعين عشقٌ مثلُ ما يَعشَقُ السّمعُ».

لا جَرَمَ أن ما تعارَفَ من الأرواح ائتلَف، وما تَناكر منها كما قيل اختلَف. ونحنُ ـ وإن بَعُدَتْ بيننا الشُّقَّةُ[٢] ولم يَسْبق لنا باللّقاء عهدٌ ـ فلُحْمةُ[٣] الأدب تجمعُنا ووَحدَةُ الوجهة تضمّنا. ولُحْمة الأدب أقوَى من لُحْمة النّسب، وجامعةُ الوِجهة فوق اجتماع الوُجوه. وقد رأيتُ أن أزْدَلف[٤] إليك بالمكاتبة وأترسّلَ إلى شرَف التعرُّف بالمُرَاسلة، حتى إذا لم يبقَ في الصّبر على الافتراق مسكةٌ[٥]، ولبَّى الجسم دعوة الرُّوح فاندفعَ إلى طلب الاجتماع، أكون قد مهّدْت له سَبيلاً ووطّأت[٦] له طريقاً، فلا تبْهُرني[٧] فرْحةُ اللُّقيا ولا يغرَّني[٨] طرَب الظّفر «فمن فَرَح النّفس ما يقتُل، ومن نَشْوة[٩] الرّاح[١٠] ما يُزْهقُ الأرواح».

فإن رَأى السيّد أن يكاتب عبده ويُعتِقهُ من رِقّ الفرقة عجّلَ بجواب هذا الكتاب، لِيَعلم العبدُ أن نميقتَهُ صادفَتْ[١١] قبولاً وأن وَسيلَتهُ اتخذَتْ لسيّده سبيلاً، قَرّب الله زمن اللّقا وقصّر أمد النّوَى[١٢] حتى أنشُد في الخِتام:

[البسيط]

تطابَقَ الخُبْرُ في عَلْياك والخَبَرُ وصدّقَ السمعَ في أوصافِكَ البَصَرُ

---

(١) كحل بالحجاز. (٢) بالضم والكسر: الناحية. (٣) قرابته.
(٤) أتقرب. (٥) قوة ولا عقل. (٦) بالتخفيف والتشديد: هيأت.
(٧) لا تغلبني. (٨) لا يعلوني. (٩) بفتح النون وكسرها: السكر.
(١٠) الخمر. (١١) وجدت. (١٢) البعد.

وكتب أحمد أفندي سمير المتوفى سنة ١٣٢٩هـ:

يعلم سيدي أن المودَّة لا تُباع ولا تُشرَى، وإنما هي نتيجةُ الاجتماع والتّعارُف. وقد خُلق الإنسان مُضطَرّاً إليهما لأن انتظامَ العُمران عليهما موقوفٌ. ولهذا شهد العيان بأن المنفرد بأعماله المتبدّ بآرائه عُرْضة للخطأ مَظنّةٌ لعدَم الثّقة. بخلاف ما إذا كان الاشتراكُ في الفكر قاعدة العمل. فلا بُدّ أن الصوابَ يَتمحّضُ منهُ لضُعف التَّفرد وقُوّة الاجتماع إذ لا جرَمَ أن المرء كما قيل: «قليلٌ بنفسه كثيرٌ بإخوانه». وقد سمعتُ عن السيّد وقرأت من آثاره المأثورة ما حبَّبه إليّ وشاقني للتّعرُّف به، لنَشترِكَ في منفعة تبادلِ الأفكار، فإني لا أكتفي بمجرَّد السمّاع ولا أقول: «إنّ الأذُن تَعشقُ قبلَ العين» فإنما هي جارحةٌ صغيرَةٌ، ولكن كلّي ميّال إليه مُحِبٌّ لاستجلاء مِرْآه عالمٌ أني إذ دخلتُ إلى مودّته من باب التّلاقي لا أجد دهري.

[الطويل]

يُقرّب منّي كلَّ شخصٍ كرهته ويُبْعِدُ عنّي مَنْ إليه أميل

فإن لم يتيسَّر أن يراني أو أراه فلْيُسْعِدْني ببِضْعة أسطُر تضْمنُ لي رضاه عن هذه المعرفة التَّرسُّلِيَّة لنتراءى بأعيُن الطُّرُوس[1] قبل أعين الرُّؤوس، ونتجاذَبَ أحاديث المراسَلة إن عزَّت المقابَلة. وقد وَقفتُ عليه خالصَ وُدّي واْخترتُهُ من بين رجال العصر سَعيا لكسب المعالي بمعرفته ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ[2]﴾[3] و﴿لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[4].

[الطويل]

عن المرْء لا تسألْ وسلْ عن قَرينه فكلُّ قرين بالمُقارنِ يَقتدي

وكتب الشيخ أحمد مفتاح المتوفى سنة ١٣٢٩هـ:

لم أكن فيما أكتبه لك إلّا سارياً في ليل التعارف على ضياءِ خِلَالك[5] التي أملاها عليَّ لسان المدح الذي شرَّق وغرَّب وطبَّقَ الأرضَ صيتهُ. وإني وإن لم أكن أسْعِدْتُ من قبلُ باجتلاء طلعتك الزاهرة واْجتناء مُفاكهتك الغضّة[6]، فقد دلّني على اللّيث زَئيره[7] وعلى البحر خَريره[8]، وعلى العقل أثَرُهُ وعلى السيف إثْرُهُ[9]. ولئن

(١) الصحائف. (٢) مرهون. (٣) الطور: ٢١.
(٤) النجم: ٣٩. (٥) مصادقتك وإخائك. (٦) اللينة.
(٧) صوته. (٨) صوته. (٩) جوهره.

لم تجمَعْنا لُحمة[١] النّسب فقد جمعتنا حِرْفَةُ الأدب، أو لم يضمنّا قبلُ مَصيفٌ ومُرْتبَع فالطّيورُ على أشكالها تَقَع، وشِبْه الشيء مُنْجذِبٌ إليه، وأخو الفضائلِ هو المعوَّلُ عليه.

وهذه الرُّقعةُ وإن وَصفَتْ لك بعضَ ما أنا مَطويٌّ عليه من التَّهافُت على رُؤيتك والمَيلِ إلى صداقتك، فقلّما تنوبُ عن المّشافَهة أو تقضي حاجات في النفْس طالما تَرَدَّدَ صداها. وفي ظني أن سيدي يَوَدُّ ما أوَدُّه وعمّا قليل يُسفر صُبحُ اللّقاء ونتجاذَب أهدابَ المعرفةِ. وأرى من سيدي فوق ما توسّمته وسمعتهُ ويرى مني ما يُرْضيه. والسلام.

وكتب الشيخ طه محمود المتوفى سنة ١٣٢٥هـ:

أيها السيد العزيز الجناب الغزير الآداب، قد علمتَ ولا أزيدك علماً ـ زادك الله ولا نقصك ـ أن الإنسان كما اشتق اسمُهُ من الأنس، كذلك جُبل عليه مسمّاه، وأن المجتمعَ الإنساني عِقْدٌ يَتحّلى به صدرُ الزّمان نظامُهُ التآلف واسِطَتُهُ[٢] التّعارُف. فهذان الأمران هما قُطْب المدار في هذه الدار لهذا العالَم من لدُن آدم، وليس إلا بهما يحسُن الحال وينْعَم البال، وتَدُرُّ ضروعُ المنافع وتتفَجَّرُ عيونُ الفوائد. ومن ثَمَّ كان أوْفرُ الناس حظّاً من مَغْنَم الإنسانيّة مَنْ يألف ويؤلف، ولا خير فيمن لا ولا. وناهيك بخُلُق امتنَّ الله به على عباده إذ قال عزَّ مِن قائل: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾[٣].

ذلك «أيها السيد» هو الذي بعثني أن أكتب إليك أستفتح باب مَودَّتكَ بمفتاح الترسُّل وأستصبحُ في سبيل صُحبتِك بمصباح التَّوسُّل، لا أُبالي بما يُنْسَبُ إليّ ويُنتَقمُ عليّ ممن عسى أن يقول: ما لك ولهذا الفضول، وكيف تتطفل على مأدبُة أدبية لم تُدْعَ إليها؟ وهل هذا منك إلا أشبه بالتَّبرُّج[٤] لغير خاطب؟ أيها المنتقدُ، هوّن عليك ما تجد فلو علمتَ أن ظلّ الآداب شامل ودعوَة المودّة الجَفَلى[٥] لا

(١) القرابة.
(٢) الجوهرة التي في وسط العقد وهي أجوده.
(٣) سورة الحجرات: الآية ١٣.
(٤) إظهار المرأة زينتها للرجال.
(٥) العامة للجماعة.

يذادُ[١] عنها واغل[٢]، لأسرَعتَ معي إلى الوُغول[٣] ولم ترَ في التّودُّد إلى أهل الفضل من فُضول، وأيُّ عيبٍ على النكرة في التّحلّي بحلية المعرفة ومُصاحبة الأعلام؟ أمَا سمِعتَ قولَ القائل:

[الوافر]

بصُحبَتِكَ الكرامَ تُعَدُّ منهم وتأمنُ من مُلِمّات الزّمان

وكيف أضعُ نفسي بحيث يقول الأول:

[البسيط]

دَعِ المكارمَ لا ترْحَلْ لِبُغْيَتِها[٤] واقعد فإنك أنت الطاعمُ الكاسي

وشتّان ما بين الرّجُلَيْن: رجلٍ يهوَى المكارمَ وبنيها ويبتغي المناقبَ وذَويها، ويقِفُ نفسهُ على مسألةٍ يَعلمهُا وفضيلةٍ يتحلّى بها، وآخرَ يَبذلُ وجهه المصون في ملءِ الحقائب[٥] والبُطون.

هذا، وقد رجوْتُ أن أكونَ الرّجلَ الأوّل بصُحبتك «أيها السيد». فكم رُويَ لنا من أحاديث فضائلك الصّحاح وتُلِيَ علينا من آيات شمائلك الحِسان، ما[٦] أشخَصَ إليك القلوبَ قبل قوالبها، وأوْفَد عليك الأرواح قبل أشباحها، وأعجلَني أن أكتُبَ إليك بهذا الرَّقيم ألتمسُ بالتعرُّفِ إلى جانبك الكريم، ما التمسَ الكليمُ من صحبة ذي الوجه النّضْر[٧] أبي العباس الخضر. وإني وإن كنت والحمد لله ممن آمنوا بالغيب، وليس عندي في صِدق هذه الآيات مِرْية[٨] ولا ريب، بَيد[٩] أن للضُحبة فضلاً لا يُنكر وللمُؤاخاة مزية لا يَتَمَارى[١٠] فيها اثنان. فإذا ورد على السيد كتابي هذا وانشرَحَ صدرُهُ ـ شرَح الله صدرَه ـ إلى إجابة سُؤلي وارتاحتْ نفسه إلى اصطناعي، كتب إلى عبده بما يكون آية جلِيّة على ارتياحهِ لتحقيق هذه الأمنية.

[الكامل]

حتى أقولَ لوَجه آمالي ابتَهِجْ لأوَلّينّك قِبلةً ترضاها

---

(١) لا يطرد. (٢) المتطفل. (٣) التطفل.
(٤) بكسر الباء الطلب، وبضمها الحاجة. (٥) الزكائب.
(٦) ما: نائب فاعل روى. (٧) الحسن. (٨) شك.
(٩) غير. (١٠) لا يختلف.

وكتب المرحوم محمود بك أبو النصر المتوفى سنة ١٩٣٠م:

إنسانَ العين وعينَ الإنسان المودَّة ـ وصل الله بأجفان الأشواق أهدابها وفتحَ لنا أبوابَها ـ أمرٌ عزيز المُرْتقى على مَنْ يَصطفي صديقه ويَرعى حقوقَهُ. وإنّي اصطفيتُك على الناس برسالتي هذه، وعهدي بكرم سَجَاياك أن تُصافحَها براحة القبول، وتتّخذَها فاتحةَ وُدّ طارت به إليك رياحُ فضلك بعدما مَثّلَتْ آياته لك في القلوب معنىً ظهرَتْ في مرآة الأعيُن صُورتُهُ.

[البسيط]

فإن أبَيْت وِدادي غيرَ مكترثٍ فعنْكَ ما دُمتُ حيّاً لا أرى بدَلا

وحاشاك عن مثل ذلك الإباء ونحن وإن لم تَحظَ أشباحنا باللّقاء، فأرواحنا من قبلُ جنود وأعيينا شهود. فإن أنتَ منَحتني وِلاءً خالصاً وإخاءً صادقاً «وإلا فهَبني امرأً هالكاً»، ولا إخالُك تَرْضاه. وإن كنتُ المتطفّلَ على مائدة موَدّتك فلي نفسُ أديبٍ لا ترى العزَّ إلا في التّرامي على ذُرا الكمال لا زلتَ على مَرْقى الجلال. والسلام.

وكتب الفاضل السيد محمد البيلاوي:

سيدي، إنّ مكارمَ الأخلاق ومعاليَ الهِمَم ممّا تَسترقُ القلوبَ وتسترقُ العقول، وتمتلكُ الأروَاحَ وإنْ لم تَتلاقَ الأشباحُ. فإني مذْ سَرَى إليّ النَّسيم بأخلاقكم الغَرَاء[1] وابتسمَ لي ثَغرُ هذا العَصر عن آثارِكم الزّهراء، وتواتَرَتِ الأخبار بحكم للفضل وأهلهِ وارتياحكُم للعلم وذويه وأنا مشغوف الفؤاد بالتعرُّف بسيادتكم مشغولُ البال بالتوسل إلى رِياض مودَّتكم. ولعلمي أنّ للصَّداقة حقوقاً وللمُصاحبة شرُوطاً، رُبما صَعبت على مَن حاوَلها وعزّت على من أراد الوَفاء بها، كنتُ أرَى الوَحدة أولى والانفرادَ بي أسلَمَ. ولكن ما زالتْ تَنِمي[2] إليّ أحاسن شمائلكم المشرّفة وتتوارَدُ على مسامعي محاسنُ سيرِكم المطهّرة، فَينمو الوَجدُ ويَزداد الشّوق «والأذن تَعشقُ قبلَ العين أحياناً». وما كنتُ أجدُ سبيلاً للتّعرُّف ولا سبباً للتودُّد، ولا تجسرُ نفسي على المراسلة ٱبتداءً، إلى أن رأيتُ سيّدي قد اهتمَّ للأدب فأعلى مَنارَه ونظر للإنشاء فرفعَ مقدارَه، ونصر دولتَه وأحيا صَولته، وأعادَ شبَابه وفَتحَ لأدباءِ هذا

(١) البيضاء، ويقصد الشريفة.

(٢) تزيد.

العصر بَابَه فعلمتُ أنّ الدّهر قد سَاعدني والفُرْصةَ قد أمكنتني مِنْ مُصافحة أمَّلتُ ومُصافاةٍ ما أرَدتُ، مِن اجتناء ثمار موَدّة سيدي والتّعرُّف بهِ والتمسّك بأهداب فَضائله والتَّزوّد من آدابه. فإنّ الأدَبَ أحسنُ ما يُستَصْبحُ بأنوارِه[١] وأشرَف ما يتسابَق لاقتِطَاف أثمارِه[٢]، ويُحْمَدُ التّطفّل على موائده ويُمدَحُ التّنافس في التِقاطِ فَرَائد فَوَائده. فجعلت طلب الانتظام في سلك أرباب الأقلام وَسيلة لوُرُود عَذْب وِدَاده ونَمير[٣] التّعرُّف به. فإنْ رأى سَيدي أن يَعُدّ نفسَ حُرّ في عدَاد معَارفه ويقابلَ رسالَتَهُ بما اشتهرَ من لَطائفهِ، حتى يتمتع بالرّؤية الأبصار كما تمتّعت المسامع بطِيب الأخبار، كنتُ مُديمَ الشكر لأفضالِهِ مُستمرَّ الثّناء على كماله.

وكتب الشيخ عبد الكريم سلمان المتوفى سنة ١٣٣٦هـ:

أما بعدُ، فهذه أوَّلُ رسالةٍ أكتُبُها إلى مَنْ لم تَكن لي به جامعةٌ جِسْمِيّة، ولم تضمّني وإيّاه حفْلةُ تعارُف شَخصيّة. وهي وإن كانت في عُرْف غَيري تُعدُّ هُجوماً أو تُحسُّ فُضولاً، إلّا أني أعتقدُ أنها أُوفِدَتْ على كريم يُكْرِمُ وِفادَتها وَيَتَقَبّل به ما يهديه إليه من زعيم تحيَّة وجليل إجلال، ويجتلي من خلالها إرادة ودّ ورجاء ولاءٍ وبُغية فَضل ورغبةً في إخاء، فيُحلّها منهُ محلّ القبول ويدرَأ[٤] عنها وَصمةَ[٥] الفُضول.

إنّ لسيدي آثاراً شاهدناها فاستفدناها، ومآثر سمعناها فروياها أو تناقلناها، ولا مرية[٦] في أن ما غاب عنّا منها أكثر مما وعينا وأوفى مما سمعنا. ونحن ـ والله يعلم ـ طلّاب كمال ومتجعو إفضال[٧]، ورواد[٨] ما خصب من فيحاء العلوم. وقد توسّمنا[٩] في السيد ـ أطال الله بقاه ـ طلبتنا ووجدنا لديه ضالتنا، فحثثنا إلى رحابه مطيّة المكاتبة. ولنا أمل كبير في نوال المأمول لعلّه يجنح[١٠] إلى مقابلة المثل بالمثل، فيكتب لأخيه بعض كليمات يعرف منها أنه قبل الإخاء ومال إلى مقتضى طبعه من الوفاء. ولا أظنُّ ذلك إلّا وقد كان في أقرب ما يكون من الزّمان، فإن الأرواحَ ما تعارف منها ائتلف كما برهنه الأصحاب في معاشرتهم خلَفاً عن سلف.

---

(١) أضوائه. (٢) أزهاره. (٣) الزاكي.
(٤) يدفع. (٥) العار. (٦) بضم الميم وكسرها: الشك.
(٧) طالبو معروف. (٨) طالبون له. (٩) تفرسنا.
(١٠) بتثليث النون: يميل.

وكتب مؤلف هذا الكتاب:

[البسيط]

لقد سمِعنا بأوْصافٍ لكم كمُلَتْ فَسرَّنا ما سَمِعناهُ وأحيانا
من قبل رُؤْيتكم نِلنا محبّتكم والأُذْن تَعْشَقُ قبلَ العين أحياناً[1]

سيدي ومولاي:

لقد بَلغني عنك في وفائك وفضلك ما يَدعوني لخَطب ودّك، ويُرَغّبني في إخائك ويُحبّبني في التّوسل إلى معرفة جنابك، وإن لم تجْمعنا جامعة شَخصيّة ولم تضمّنا حفلة تعارف ذاتية. إلا أنَّ أحاديثَ فضائلك الصّحاح أوفدت عليك الأرْواح قبل الأشباح، والولاء والإخلاص قبل الأجسام والأشخاص. ولا غرَابةَ في ذلك فإنّ من سُنّة الله في خلقهِ أن يُؤلّف بين الأرواح وأمثالها. وإنَّ لله ملائكة يسوقون الأشكال إلى أشكالها، وشبهُ الشيء منجذبٌ إليهِ، وأخو الفضائل هو المعوّل عليه.

[البسيط]

إنّ القلوبَ لأجنادٌ مجنّدةٌ لله في الأرض بِالأهواء تعترفُ
فما تعارفَ منها فهو مُؤتلفٌ وما تناكرَ منها فهو مُختلفُ

فلذا اصطفيتك لنفسي واخترتكَ لمودّتي وأُنسي، نَتناجى بالضّمائر ونتخاطب بالسّرائر، وإن بَعُدنا في الظّاهر فربّ غائبٍ بنفسهِ حاضر بخلوصِ نفسه.

[البسيط]

فإنْ أبَيْتَ ودادي غيرَ مُكْتَرثٍ فعنك ما دُمت حيّاً لا أرى بَدلا

وحاشاكَ عن مثل هذا الإباء والهجرِ والجفاءِ.

[الطويل]

لكلّ امرئ شكلٌ من النّاس مِثله وكلّ امرئ يهوَى إلى مَن يُشاكلهُ

ناشدتك الله أن تقبلَ مِنّي الإخاء وتضمن لي الوفاء، وأنا أرْضى بك من الدنيا نصيباً وأختارك من العالمين حبيباً.

---

(١) أحيانا الأولى: جعلنا أحياء، وأحياناً الثانية: جمع حين.

الفصل الثالث: في رسائل الهدايا

كتب سعيد بن حميد المتوفى سنة ١٠٥هـ يوم النيروز إلى بعض أهل السلطان:

أيها السيد الشريف:

عِشتَ أطولَ الأعمار بزيادةٍ من العمر مَوْصُولةٍ بفرائضِها من الشّكر، لا يَنقضي حقُّ نِعمةٍ حتى يُجدّدَ لك أخرى، ولا يَمرُ بك يوم إلّا كان مُقَصّراً عما بعدَهُ موفياً عمّا قبله.

إنّي تصفّحتُ أحوال الأتباع الذين يَجبُ عليهم الهدايا إلى السّادة، والتمست التأسّي بهم في الإهداء وإن قَصَّرَتْ بي الحالُ عن الواجب، فوجدتُ أنّي إنْ أهديتُ نفسي فهي مِلْكٌ لك لا حَظَّ فيها لغيرك. ورَمَيتُ بطَرْفي إلى كرائم مالي فوجدتُها منك فإن كُنتُ أهديتُ منها شيئاً فإنّي لَمُهْدٍ ما لَك إليك. ونَزَعتُ إلى مَوَدَّتي فوجدتُها خالصةً لك قديمةً غيرَ مستحدَثَة، فرأيت إنْ جعلتُها هديّتي أني لم أجدّد لهذ اليوم الجديد بِراً ولا لُطفاً، ولم أميّز منزلةً من شكري بمنزلةٍ من نعمتك، إلا كان الشّكر مُقَصِّراً عن الحقّ والنّعمة زائدةٌ على ما تبلُغه الطّاقة. فجعلتُ الاعترافَ بالتّقصير عن حقِّك هديةً إليك والإقرارَ بالتّقصير عمَّا يَجبُ لك بِرّاً أتوسَّل به إليك، وقُلتُ في ذلك:

[الكامل]

إن أهد مالاً فهو واهبهُ ... وهو الحقيقُ عليه بالشكْرِ
أو أُهد شكري فهو مُرتهنٌ ... بجميل فعلكَ آخرَ الدّهرِ
والشّمس تستغني إذا طلعتْ ... أنْ تستضيء بسُنَّة[1] الدّهرِ

وكتب حفني بك ناصف المتوفى سنة ١٣٣٧هـ:

الهدية في نظر الأصفياء جليلةٌ وإن كانت في نفسها قليلةً، ومكانَتُها خطيرةٌ وإن كانت يَسيرةً، وسنةٌ حسنةٌ اجتَمعت على فَضلها الألسنَة:

(١) الوجه.

[الكامل]

مضَت الدّهورُ وأمرُها مُحْتَدِمٌ وتعاقبتْ بمديحها الأيامُ

اللّهمّ إلّا أنْ لَبستْ جِلبَابَ[١] الرّياءِ وَوَلَجتْ[٢] أبواب الارْتشاءِ. ولا مِرَاءَ[٣] إنَّ الأَوِدَّاءَ من ذلك بُراءٌ.

[الكامل]

لا يبْتَغون سِوى الوَفاءِ وما لهم غيرُ البقاءِ على الصَّفاءِ مَرَام

وما زَالت الهديّةُ شِعارَ الأصدقاء وعُنوان تَذْكارِ الوَلاءِ وَكم جدّدتْ بين الأصحاب عهود التحابّ.

[الكامل]

وتَعهّدت وِدّاً فعادَ شتيتُهُ ولشَمْلِهِ بعد البَدَادِ[٤] نِظامُ

قد وصلتني يد العصا فحبَّذا الإهداءُ وأهلاً بتلك اليدِ البَيضاءِ. وليست هذه أوَّل أياديك عليَّ ولا أكبرَ عارِفةٍ جاءت من نَاديك إليَّ، وقد أمِنْت بها النُّوب[٥] واعتضْدْت[٦] بها على تفريق شَمل الكُرَب.

[الكامل]

فإذا طَغا[٧] بحر الهموم ضربتُهُ بعصايَ فاجتازت[٨] به الأقدامُ

تنفلقُ بها من الأيام صُخُور فتنبجِسُ[٩] منها عيونُ السّرور، وتلْقَف ما يصنعُ الأعداء فتذهبُ بسحر البَغْضاءِ. وإذا اشتدّ هَجير[١٠] الوحشة نشرَتْ ظِلَال أُنسها أو عصى فرعوْن الدَّهرَ رَاعتْهُ[١١] ببَأْسها[١٢].

[الكامل]

فكأنَّمَا أوصى الكليمُ[١٣] لنَا بها حتى يَرَى آياته الأقوامُ

وقد فكّرْتُ ماذا أُقابلُ به طُرْفَتكَ[١٤] وأتلقّى به تُحْفَتَكَ، إلى أنْ هَداني الله أنّ

---

(١) القميص. (٢) دخلت. (٣) جدال.
(٤) التفريق. (٥) جمع نوبة المصيبة. (٦) استعنت.
(٧) علا. (٨) سلكت. (٩) تنفجر.
(١٠) حرها. (١١) أزعجته. (١٢) بشدتها.
(١٣) سيدنا موسى عليه السلام. (١٤) إحسانك.

يدَ المُنعم إنما تُقابَلُ بالأفواه، ليُعَزَّزَ القبولُ بالقُبَل ويؤدّي الرّسمُ باللَّثم، فأرسلت إليك فم سِجْارة وجعلته لهذا المعنى إشارَة وقلت:

[الكامل]

مَولايَ كم فاضَتْ يمينُكَ بالنَّدى[١] حتى غدَوْتُ غريقَ بَحر الأنعُمِ
والشكرُ أوْجبَ أن أقبّلَ راحَها فَكنَيتُ عن هذا بإهداءِ الفَمِ

وقد علمت أن المنظَرَ البهيج يتمُّ بالتَّدبيج[٢]، فاخترْتُ أن يكون مَبدؤه كاللَّيل إذا عسْعَس[٣] ومُنتهاه كالصُّبح إذا تنفّسَ[٤]، إيذاناً[٥] بزوال الشُّرُور بالسُّرُور ورَمزاً إلى الخُروج من الظّلمات إلى النُّور.

وكتب المرحوم محمود بك أبو النصر:

[مجزوء الكامل]

يا أيها المولى الذي عمَّت أياديهِ الجميلهْ
اِقْبَلْ هديّةَ مَنْ يَرى في حَقّكَ الدُّنيا قَليلهْ

غُرّة وَجه السُّعود وقُرّة عين الوُجود الأمير الجليل يا جليلَ الفضَائل إليك تُوجّهُ الآمال ويا جَميلَ الشّمائل بسَاحتِك تحُطُّ الرّحال. تلك هي السّاحة الفَيْحاء[٦] والثّيمة[٧] الحسناء، والهمّة العَلياء واليد البيضاء، والأعمالُ التي تُضرَبُ بها الأمثال، كم من نِعَم أسدَيتَها[٨] ومكارمَ أوْليتَها وعلوم أحييتَها. فأنتَ المصدرُ والمورِدُ والمقصِدُ والموْعد. إليك أقدّم تلك الهدّية المرضيّة، وأرفعُ ذلك الكتابَ المُستطابَ مشفِعاً في قَبوله كرَم سجاياك وعِظَمَ مزَاياك. وإني وإن كنتُ أعلمُ أنّ مقامك العليّ يجلُّ عن أن يُرفعَ إليه مثلهُ فقد عَرفناك مُتواضعاً في عُلاكَ قَريباً مع اعتِلاك.

[الوافر]

دَنَوْتَ تواضعاً وعلوْت مَجْداً فَشأنَاك انخفاضٌ وارتفاعُ

(١) العطاء. (٢) التزين. (٣) أقبل بظلامه.
(٤) أضاء. (٥) إعلاما. (٦) الواسعة.
(٧) الخلق. (٨) أعطيتها.

كذاك الشّمس يَبْعُدُ أن تُسامى[١] ويدْنو الضّوْءُ منها والشّعاعُ

وحاشَاك أن أُهديَ للقمَر نُوراً أو للشمس ضِياءً، أو أبعثَ بِبُنيَّة القَطْر[٢] إلى ذلك البَحر ولكنّني أحببتُ أن يحظَى بلثْم بنَانِك[٣] وينالَ من كرمك وإحسانِك وقد عَهدْناك تهتزُّ للمكارم ٱهتزاز الصّارم[٤] وترتاح لإسداء الجميل كما يرتاح للكرمِ النزيل، وللشفَاءِ العليلُ، وما هو إلا من نُور فكرك مقتَبس[٥] فعساه يَحظى بالقَبول فأبْلُغ غاية المأمول، والسلام.

وكتب الأستاذ عبد الله بك الأنصاري المتوفى سنة ١٩٣٢م:

ذالمولى ـ أدَامَ الله وُجودَه مُمَتعاً بهدايا الأيام وتُحف الأعوام ـ طَالَما أوْفَد[٦] من الرّفد[٧] إليّ، ووجّه من الخيرَات ما أفعَم[٨] يديّ حتّى أصبحتُ ولهُ الفضل وَالمِنّة أجرُّ ذُيولَ النّعماءِ[٩] عَلَى غَبْرَاء[١٠] البأساءِ[١١]، وأجتَلي[١٢] معارفَ السّراء بعَوارفه البيضاءِ التي لا يوازيها ثَناءٌ وحمدٌ، ولا يُوازنُها عَطاءٌ ورفْد، ولا يُطاوِلُها سماءٌ وبَحر، ولا يُغالِبها بؤسٌ وفقْر. وإن لي من آلاءِ[١٣] السيد ـ حفظه الله وأدام عُلَاه ـ ما أيْنعَ وأزْهر وأوْرَقَ وأثمر حَدَائقَ قامتْ لشكره عيدانُها، وسجدَت لفضله أغصانُها وترَنّمت طرَباً وتَمايلَتْ عجباً بنفَحاتٍ هي عَرْفُهُ[١٤]. وبركاتٍ هي عُرفُهُ ولي أملٌ في جنابه وأنا سليل[١٥] نِعمتهِ، وعهدِي بأخلاقه وأنا ابنُ مودّته أن يُمنّ بقبول ما أهديتهُ وهو من مال نفسهِ وثمرة غرْسه (بَاكورة تُفاحٍ) يرفعُها إجلالٌ وإعظام وتصحبُها تحيّةٌ وسلام.

وكتب الشيخ أحمد مفتاح المتوفى سنة ١٣٢٩هـ:

الهديّة ـ غمرَك الله بالمعروف ـ تَبسطُ يد المودَّة وتدُرُّ بها أخلاف[١٦] القُرب وتغرسُ بين المُتحابّين من الائتلاف بقدر ما تَقطع بينهما من شجر الخلاف. وأما أنا فيما أهديه إليك إلا كمستَبْضع[١٧] تمراً إلى أرض خَيبَر[١٨] أو كالواهب الماءِ

---

(١) تفاخر. (٢) المطر. (٣) الأصابع.
(٤) السيف القاطع. (٥) مأخوذ. (٦) أرسل.
(٧) العطاء والصلة. (٨) ملأهما. (٩) بالفتح: النعمة.
(١٠) الأرض. (١١) الداهية. (١٢) انظر إليها مجلوة.
(١٣) نعمة. (١٤) بالفتح: الريح الطيبة. (١٥) الولد.
(١٦) جمع خلف بالكسر: الضرع. (١٧) جاعله بضاعة. (١٨) موضع بالحجاز.

للبحر، والضّوْءِ للبدر، والمُلْكِ لسليمان[١]، والمال لقارُون[٢]، والحلم لأحنف[٣]، والذكاء لإياس[٤]، والتفسير لابن عبّاس[٥]. وما ذاك إلا كتابٌ، كما تراه، ضرَبَ في الإحكام بسهم ووعى من الأحكام ما خلتْ منهُ مُفْعمات[٦] الأسفار[٧] ومُوجَزَاتُ الرّسائل، فهو كما قيل: «كلُّ الصّيد في جوْفِ الفَرا»[٨].

[المتقارب]

تزين معانيهِ ألفاظُهُ وألفاظُهُ زائنات المعَاني

على أني وإن تطفلت عليك وسقت لك هذا الكتاب مزدلفاً[٩] إلى جانبك الرَّحْب ومقامِك الأسنى، فقد أصبتُ كبدَ الصّواب ووضعته حيث يعرفهُ أهلوه ويتقبّلهُ من باذِله عالموه. علماً بأنك عِمادُ العلوم وأساس الفضائل لا تُغَادرُ[١٠] شارِدة إلا وَعيتَها ولا نادِرةً إلا روَيتها وإلا.

[البسيط]

لو كان يُهدى عَلَيّ قدري وقدركمو لكنْت أُهدي لك الدُّنيا وما فيها

وكتب مؤلف هذا الكتاب إلى أستاذه الحكيم الشيخ محمد عبده:

سيّدي ومولَاي، أطال الله بقَاك ورفَعَ في الدّارين عُلاك.

الهَدِيّة مفتاح بابِ المودَّة وعُنوان تذْكارِ المحبّة، يتسابقُ إليها كرام السّجايا[١١] ويتسارَع إلى إحياء شعائرها عُشاق المزايا، حرْصاً على حِفظ عهود الوِداد والتآلُف وإذهاباً لوحْشة التّقاطُعِ والتّخالف.

---

(١) ابن داود النبي عليهما الصلاة والسلام.

(٢) من قوم موسى عليه السلام أعطاه الله من الكنوز ما لم يعطه لغيره.

(٣) هو أبو بحر صخر بن قيس تابعي كبير يضرب به المثل في الحلم توفي سنة ٦٧هـ.

(٤) هو أبو وائلة بن معاوية بن مرة المزني يضرب به المثل في الذكاء توفي سنة ١٢٢هـ.

(٥) هو أبو العباس عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي ابن عم رسول الله ﷺ صحابي يلقب ترجمان القرآن توفي سنة ٩٨هـ.

(٦) مملوآت. (٧) الكتب.

(٨) حمار الوحش. ومعناه كل ما عداه دونه قاله النبي عليه الصلاة والسلام تطميناً لرجل خرج يصطاد مع أصحابه فلم يصب غير الحمار الوحشي.

(٩) متقرباً. (١٠) لا تترك. (١١) الأخلاق.

[الوافر]

هدايا النّاس بعضهُمُ لبعضٍ تُولّد في قلوبهمُ الوصالا
وتزْرع في القلوب هوًى ووِدّاً وتكسوك المهابة والجلالا

ولقد وجدتكَ إماماً حكيماً وفيلسوفاً عليماً، تُقدِّرُ الأعمالَ حقّ قدرِها وتضَع الأشياء في مَواضعها سبّاقاً إلى نشر العلوم والمعارف في المشارق والمغارب.

[الكامل]

يبقى الثّناء وتنفَد الأموالُ ولكل دهرٍ دولة ورجالُ
ما نالَ محمدةَ الرّجال وشكرَهم إلّا الصّبور عليهم المفضالُ

سيدي ومولاي؛

أهديك كتابي «جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب» جمع فأوْعى من الآداب والحِكَم ما خلتْ منهُ الأسفار[1] فهو بلا شك ولا مِرَا كلُّ الصّيد في جوْف الفَرَا.

[المتقارب]

تزين معانيهِ ألفاظه وألفاظه زائنات المعاني

على أني وإن تطفّلت عليك ووضعت كتابي هذا بَين يديك، فقد ولَجْت الأمور من الأبواب وأصبْت كبد الصّواب، حيث يعْرف الفضْل من الناس ذووه، ويتقبّله بقبولٍ حسن عالموه.

[الكامل]

شكراً وحمداً إن قبلت هديتي وجعلت لي فضلاً على أقراني

فبتنازلك بقبوله يكون الإقبال عليه جليلاً ويعجز لساني عن أن أشكرك شكراً جزيلاً والسلام.

وكتب مؤلف هذا الكتاب إلى المرحوم سعد باشا زغلول يهديه كتابه «جواهر الأدب، في أدبيات وإنشاء لغة العرب»:

مؤلاي، أطالَ الله بقاءك في أهنإ عيشةٍ وأرْغَدِها، وأتم نعمة وأسعَدِها، وأعمّ

(١) الكتب الكبيرة.

عافيةٍ وأزيدِها، وأولاك من الآلاء بأمدِّها مزيداً، ومن السلامةِ بأسْبلِها سِتراً، ومِنَ السرور بأوفَره حظّاً، ومِنَ العزِّ بأشدهِ ركناً، والعمرِ بأبْعدِهِ مدىً، تولاك المَوْلى بحفظِهِ وحياطته، وحَرسَكَ تحت جناح السلامةِ بكلاءتِهِ ورِعايتِهِ.

إن الله تعالى قد خصك بالعزِّ المنيع، والشرف الرفيع، والخُلْقِ السنّي، والفخرِ البَهيّ، والرَّأي والحزم، والبَلاغةِ والفَهْمِ، والبراعةِ والكمالِ، والبذلِ والنّوال، والجود والإفضال، والحمد والثناء، والكرم والوفاء، والمذهب الجميل، والقدْرِ الجليل.

فأنت أدام الله كَرامتك، وأكرمَ حياطتك ـ معدن الفضائل وزَين المحافل غياث اللاجئ إليك، وسند المعوّل عليك. لا يُجْحد فضلك ولا يُنسى ذِكرك، عَرْفُك شائع، وجودك واسع، ومعروفك ذائع، وفَضْلك شامل، ولُبُّك كامل. سِلْمٌ لأوْليائك، حَرْبٌ لأعدائك، سَحائبُ كفَّيْك تُمْطِر ديمَ الإنعام، وشآبيبُ يَديك تفوق أفعالَ الكرام، زَادَكَ اللهُ أيُّها الرئيسُ عقلاً إلى عقلك، وفخراً إلى فخرِك، وفضلاً إلى فضلك، وطَوْلاً إلى طَوْلك، وسُؤْدَداً إلى سؤُددك، إنه لطيف كريم.

لمَّا رأيْتُك ـ أدام الله عُلوّكَ ـ، وأجزلَ من كلِّ خيرٍ حظك وقسمك ـ تغني على التوَسّلِ إليك بكريم أخلاقك، وشريف أعْراقك، جعلتُ كرَمك ذريعتي إليك، لِما دلني من فضلك عليك، وكفى بهِ عن اللبيبِ شاهداً، وإلى الكريم قائداً، فأطمَعني فيك ما رأيْت من جودِك وسماحتك، وحُسن بِشْرِك وطلاقتك، ولئن أمَّلتك عند الشدائد، ودفعتُ بكَ صَوْلة النوائب ورَجوْتك لكشف الملمّات، والحوادث الطّارِقات، واسْتغثتُ بِسَيبك وجدواك على غير شافع، أطمعُ في شفاعته إليك، أو مُتوسل في ما لديك، فإني أقول كما قال الشاعر:

[البسيط]

من غير ما سبب يُدْني كفى سبباً ... للحُرّ أن يجتَدي حُرّاً بلا سببِ

ولما كانت الوسيلة إلى السادات، وأهل الأخطار والمَروءَات، إنما هي وكيد حُرْمة أو قديم خدمة. وكنتُ صفراً من ذلك كُلّه، غير داخل في جملة أهله، توسلتُ بكتابي «جواهر الآداب في أدبيّات وإنشاء لُغة العرب»، إذ كان المتوَسّل

بها على ثقة ممن عَرف قدرها، لأن الآداب عند ذوي الكرم، أعطفُ من صلة الرّحم، وهو سببٌ بين الكرام موصول ينزعون إليه، وحق يتعاطفون عليه، وفيه قال الشاعر:

[الخفيف]

أدبٌ بَـيْـنـنـا تـوَلّـد مـنـه نـسـب والأديـبُ صِـنْـوُ الأديـب

وقال الآخر:

[البسيط]

حـقُّ الأديـب وإنْ لَـمْ يُـدْنِـه نـسـبٌ فَرْض عـلى كـلّ مَنْ أَمْـسى لـهُ أدبُ

وقد ضمّنتُ كتابي هذا من الآداب أظرفها، ومِنَ الأشعار أفضلها وأجملها، وجعلتُه سبباً أمُتُّ به إليك، وهدية أضَعُها بين يدَيك. فتنازلُ دولتكم بشرف القبول، يكون غاية مطلوبي، ونهايةَ المأمول.

openkandil.com

الفصل الرابع: في رسائل الاستعطاف والاعتذار

كتب أبو منصور الثعالبي النيسابوري المتوفى سنة ٤٢٩هـ:

الكريم إذا قدرَ غفرَ، وإذا أوْثق أطلق، وإذا أسرَ أعتقَ. قد هربت منك إليك واستعنتُ بعفوك عليك، فأذقْني حَلاوة رضاك عنّي كما أذقْتني مَرارة انتقامك منّي. الحر كريم الظّفر إذا نال أقال[١]، واللئيمُ إذا نال استطال[٢]. قد هابك من استتر ولم يُذنب إليك من اعتذر. تكلُّفُ الاعتذار بلا زَلّة[٣] كتكلُّف الدّواء بلا علّة. مولاي يوجبُ الصَّفحَ عند الزلّة[٤] كما يلتزم البذْل عند الخَلّة[٥]. مولاي يُوليني صفِحةَ صفحه ويؤتيني العفوَ من عفوه. زَلْتُ وقد يزلُّ العالمُ الذي لا أساويه، وعثِرتُ وقد يعثر الجوادُ الذي لا أجاريه. لا تُضيّقن عنّي سعة خُلُقك ولا تكدّرن عليَّ صفوَ ودّك. ما لي ذنبٌ يضيق عنهُ عفوُك ولا جُرمٌ يتجافى تجافي تجاوزك وصفحك. والسّلام.

وكتب عبد الله بن معاوية المتوفى سنة ١٣٤هـ إلى أبي مسلم:

من الأسير في يديه بلا ذنْب إليه ولا خلاف عليه.

أما بعد، فقد أتاك الله حفظ الوصيَّة ومنحك نصيحة الرعيّة وألهمك عدل القضية، فإنك مُستوْدع الوَدائع ومولى الصّنائع. فاحفظْ ودائعك بحسن صنائعك. فالودائع عارية والصّنائع مرْعية. وما النّعم عليك وعلينا فيك بمنْزورٍ ندَاها ولا بمبلوغ مداها فنبّه للتفكير قلبك واتّق الله ربّك، وأعْط مِنْ نفسك من هو تحتك ما تحبُّ أن يعطيك من هو فوقك من العدل والرّأفة والأمن من المخَافة. فقد أنعم الله عليك بأن فوّض أمرنا إليك فاعرفْ لنا لين شكر المودّة واغتفار مسّ الشدَّة، والرّضا بما رَضيت والقناعة بما هوَيت. فإنّ علينا من سمْكِ الحديد وثقْله أذًى شديداً مع معالجة الأغلال وقلّة رحمة العمّال الذين تسهيلهم الغلظة وتيسيرهم الفظاظة، وإيرادهم علينا الغموم وتوجيههم إلينا الهموم، زيارتهم الحراسة وبشارتهم الإياسة.

---

(١) ترك. (٢) تملك وتمسك. (٣) بالفتح: السقطة.
(٤) بالفتح: الغلطة. (٥) بفتح الخاء: الحاجة والفقر.

فإليك بعد الله نرْفع كرْبة الشكوى ونشكو شدّة البلوى. فمتى تُملْ إلينا طرفاً وتُولنا منك عطْفاً، تجدْ عندنا نصحاً صريحاً ووداً صحيحاً لا يضيّع مثلك مثله ولا ينْفي مثلك أهله. فارعَ حرمة مَنْ أدْركَ بحرمته واعرف حُجَّة مَنْ فلجت بحجّته. فإنّ الناس من حوضك رواء ونحنُ منه ظِماءٌ يمشون في الأبراد ونحنُ نحجلُ في الأقياد بعد الخير والسَّعة والخفْض والدّعة، والله المستعان وعليه التكلان.

وكتب بدر الدين محمد بن حبيب الحلبي المتوفى سنة ٧٩٩هـ:

رِفقا بمَنْ ملك الوَجدُ قِيادَه وعطفاً على منْ أذابَ الشوقُ فؤاده، مُتيَّمٌ[١] أقلقَه فرطُ صُدودك ومُغرَمٌ أغراه بحبّك قول حسودكَ، وسَقيمٌ لا شفاء له دون مَزارك ومقيمٌ على عَهدكَ ولو طالت مُدّة نفارك. إلامَ هذا التّنَائي[٢] والنُّفور وعلامَ ياذا القدّ العادل تجُور؟ لقد تَضاعفَ الأسفُ والأسى وتطاولَ التّعلّل بعلَّ وعسى.

[السريع]

هَبْني تخطّيتُ إلى زَلّة ولم أكن أذنبتُ فيما مضى
أليسَ لي من بعدها حرمةٌ توجبُ لي منك جميلَ الرّضا

ولست ألوذ إلّا بباب نعمَك ولا أعتمد في محْو الإساءة إلّا على حلْمك وكرمك. وما جلَّ[٣] ذنبٌ يضافُ إلى صَفْحِك ولا عظُم جرمٌ[٤] يُسند إلى عفوك، ومثلُك من يُقيل العَثَرات ويتجاوز عن الهفوات.

[الوافر]

وكنت أظنُّ أن جبال رضوَى[٥] تزول وإنَّ وُدَّك لا يزولُ
ولكنّ القلوب لها أنْقلابٌ وحالاتُ ابن آدم تسْتحيلُ

طالما آنَسْتَني بقرْبك ودَنوْتَ منّي مفارِقاً ظباءَ سِرْبك، وأنجزْت وُعودي وأطلعت نجوم سُعودي.

[الطويل]

وكنتُ إذا ما جئتُ أدنيت مجلسي ووجهُكَ من ماء البَشاشةِ يقطُرُ

---

(١) مستعبد ذليل. (٢) التباعد. (٣) ما عظم.
(٤) ذنب. (٥) جبل بالمدينة.

فمن ليَ بالعين التي كنتَ مرَّة إليَّ بها في سالف الدَّهر تنظُرُ

قيّدت أملي عن سِواك وبهَرتَ ناظري بنظرة سناك[١]، وكسرتَ جيش قرَاري وتركتني لا أُفرّقُ بين ليلي ونهاري، أحُو حولَ الدّيار، وأعومُ في بحر الأفكار، وأتَمسك بعَطف عِطْفك، وأتعلّق بأذيال مكارمك ولُطفك. أمَا علمتَ أنَّ الكريمَ إذا قدرَ غفرَ، وإذا صدَرَتْ منْ عبده زَلّة أسبَلَ عليها رداء العفو وسترَ، وإنَّ شفيعَ المُذْنب إقراره ورفض خطيئته عند مولاه استغفارُه

[الطويل]

ومَنْ كان ذا عُذْرٍ لديك وحُجّة فعذْريَ إقراري بأن ليس لي عذْرُ

لهفي على عيش بسُلاف[٢] حديثه سَلَف، وأوقاتٍ حلَتْ ثم خلَتْ وأوْرثت التّلف، وآها لأيام بطيبِ أنسك مضَت وبرُوقِ ليالٍ لولا قُربك ما أومضت[٣].

[الكامل]

كنتُ أعرفُ في الهوى مقدارَها رَحَلَتْ وبالأسف المبرّح عَوَّضَت

كيف السّبيلُ إلى إعادة مثلها وهيَ التي بالبُعدِ قَلبي أمرَضَت

فجُدْ بالتّدَاني واسمَحْ بنيل الأماني، وألنْ قلبَك القَاسي وعُدْ عن التّنائي والتّناسي، وارْعَ الوُدّ القديم وأبدلْ شقاءَ مُحبّكَ بالنّعيم، ولا تَعْدِل عن منهاج المَعدلة وسلّم فقد أخذَت حقّها المسألةَ، وأغمد سيفَ حيفٍ[٤] صيّرته مسلولاً وأوفِ ﴿بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾[٥].

وكتب أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥هـ:

ليسَ عندي ـ أعزّك الله ـ سببٌ، ولا أقدرُ على شفيعٍ إلا ما طبعك الله عليه من الكرم والرَّحمة والتأميل الذي لا يكون إلّا من نتَاج حُسْن الظنّ وإثبات الفَضل بِحَال المأمُول. وأرجو أن أكونَ من الشّاكرين فتكون خيرَ مُعتب[٦] وأكونَ أفضل شاكر. ولعلّ الله يجعل هذا الأمر سبباً لهذا الإنعام، وهذا الإنعامَ سبباً للانقطاع إليكم والكونِ تحت أجنحتكم[٧]، فيكونَ لا أعظم بركة ولا أنمى بقيّة من ذنبٍ

(١) ضوئك. (٢) الخمر. (٣) ما لمعت.
(٤) الجور. (٥) الإسراء: ٣٤. (٦) مسرّ بعد إساءة.
(٧) حمايتكم.

أصبحتُ فيه. وبمثلك ـ جُعلت فِداك ـ عاد الذّنبُ وسيلة والسيّئةُ حسنةً، ومثلكَ من ٱنقلب به الشرُّ خيراً والغُرم[١] غنما[٢].

من عاقب فقد أخذ حظّه وإنما الأجرُ في الآخرة وطيبُ الذّكر في الدنيا على قدر الاحتمال وتجرُّع المرائر. وأرجو أن لا أضيعَ وأهْلِكَ فيما بَيْنَ كرمِك وعَقلك. وَما أكثرَ من يعفُو عمَّنْ صغُرَ ذنبهُ وعظُم حَقُّه. وإنّما الفضلُ والثناءُ العفوُ عن عظيم الجُرم ضعيف الحُرْمة. وإن كان العفوُ العظيمُ مُسْتطرِقاً[٣] من غيركم فهو تِلَادٌ[٤] فيكم، حتى ربّما دعا ذلك كثيراً من الناس إلى مُخَالفة أمركم، فلا أنتم عن ذلك تَنكُلُون[٥] ولا على سالف إحسانكم تَنْدَمُون. ولا مثلكم إلّا كمثل عيسى ابن مريم حين كان لا يمرُّ بملأ من بني إسرائيل إلّا أسمعوه شرّاً وأسمعهُم خيراً، فقال له شِمعُون الصّفار[٦]: ما رأيتُ كاليوم كلّما أسمعوك شرّاً أسمعتهم خيراً. فقال: كلّ امرئ يُنْفِقُ مما عنده وليس عندكم إلّا الخير ولا في أوعيتِكم إلّا الرّحمة. وكلّ إناء بالذي فيه ينضحُ.

وكتب ابن مكرّم إلى بعض الرؤساء:

نَبَتْ[٧] بي غرَّة الحَدَاثة فرَدّتني إليك التّجربة وأفادتني الضّرورة ثِقة بإسراعك إليّ وإنْ أبطأتُ عنك، وقبولك لعُذْري وإنْ قصَّرْتُ عن واجبك. وإنْ كانت ذنوبي سدَّت عليَّ مسالك الصّفحِ عنّي فراجع فيّ مَجْدَك وسُؤدَدَك[٨] وإني لا أعرفُ موقفاً أذلَّ من موقفي لولا أن المخاطبة فيه لك، ولا خُطَّة أدنا من خُطّتي لولا أنها في طلب رضاك. والسلام.

وكتب أبو بكر الخوارزمي المتوفى سنة ٧٤٠هـ:

[الرمل]

لو بغير الماء حلقي شرق كنت كالغصان بالماء اعتصاري

كيف يقدِر ـ يقي الله السيّد على الدّوام ـ مَنْ لا يهتدي إلى أوْجه الدَّاء؟ وكيف يُدَاري أعداءه من لا يَعرف الأصدقاء من الأعداء؟ وكيف يعالج علّة القَرْحة العمياء، أم كيف يَسري بلا دليل في الظّلماء، أم كيف يخرُجُ الهارب من بين

(١) ما يلزم أداؤه.
(٢) الغنيمة.
(٣) مستحدثاً.
(٤) المال القديم.
(٥) تجنبون.
(٦) هو أحد حواريّي عيسى عليه السلام.
(٧) أبعدتني.
(٨) السيادة.

الأرض والسّماء؟ الكريمُ إذ قدَرَ غفَر، وإذا أوْثقَ أطلق، وإذا أسَرَ أعتَقَ ولقد هَربتُ من السيّد إليه وتسلّحت[١] بعفوه عليه وألقيت رِبْقةَ[٢] حياتي ومماتي بيديه، فلْيذِقْني حلَاوةَ رِضاهُ عنّي كما أذاقَني مرَارةَ ٱنتقامه منّي، ولْتَلُح[٣] على حَالي غُرَّة عَفوه كما لاحتْ عليها مواسمُ[٤] غَضبه وسطْوه. ولْيعلم أن الحُرّ كريمُ الظّفر إذا نال أقال، وإن اللئيم لئيمُ الظّفر إذا نال ٱستطال. وليغتنم التّجاوُز عن عَثرات الأحرار ولْينتهز[٥] فُرَص الاقتدَار، ولْيحْمد الله الذي أقامه مُقام مَنْ يُرْتجى ويُخْشى وركَّبَ نِصابه في رتبة شابَ الزمانُ ومجدها فَتي وأخلَقَ العالَمُ وذِكرُها طريّ. ولْيعتقدْ أنه قد هَابه مَنْ استتر ولم يُذْنب إليهِ من ٱعتَذَر، وإنَّ مَن رُدّ عليه عُذْرُه فقد أُخرج إلى الشّجاعة بعد الجُبن وأخرجَ ذَنبهُ إلى صَحن اليَقين من سُترَة الظّنّ. وفَّق الله السيّد لما يحفظه عليه قلوبَ أوليائه، وعصمَه ممَّا يزيدُ به في عدد جَماجم أعدَائه.

وكتب بعضهم إلى رئيسه:

وجدتُ ٱستصغارك لعظيم ذنبي أعظمَ بقدر تجاوُزك عنّي. ولعَمري ما جلَّ ذنبٌ يُقاسُ إلى فضلك، ولا عظُمَ جُرْمٌ يضافُ إلى صفحك ويعوَّل فيه على كرم عفوك وإن كان قد وسعه حلمك فأصبحَ جليلُهُ عندك محتقراً وعظيمهُ لدَيك مستصغراً، إنّه عندي لفي أقبح صُور الذنوب وأعلى رتب العُيوب. غير أنه لوْلا بوادر[٦] السُّفهاء لم تُعْرَفْ فضائل الحلماء، ولوْلا ظُهور نقص بعض الأتباع لم يَبن جمال الرُّؤساء، ولوْلا إلمامُ الملمّين لبطل تطوُّلُ المتطوّلين بالصفح. وإنّي لأرجو أن يمنَحك الله السّلامة بطلبك لها ويُقيلَك العَثراتِ بإقالتك أهلَها، وما علمت أني وقفت منك على نعمة أتدبَّرُها إلّا وجدتها تشتمل على فائدةِ فضل تتبعها عائدةُ عَقل.

وكتب فقيد اللغة الشيخ إبراهيم اليازجي المتوفى سنة ١٣٠٦هـ:

بِم يعتذرُ إليك من لا يَرى لنفسه عذْراً؟ وكيف يَستَتر مِنْ عَتْبك من لا يستطيعُ لذَنبه سَتراً؟ بل كفاني من العَتْب تعنيفُ نفسي على ما ألقيت عليها من تبعةِ تقصيري، وما حُلْتُ به مِن التّفريط بينها وبين معاذيري. والله يعلم ما كانَ تقصيري شيئاً أرَدْته، ولا

(١) استعنت. (٢) العروة التي يربط بها، والمراد بها الزمام.
(٣) تظهر. (٤) العلامات. (٥) يغتنم.
(٦) جمع بادرة وهي الحدة عند الغضب.

كان تفْريطي أمراً قَصدْتهُ. ولكنّها الأيام إن صاحبتها لَمْ تَصْحَب وإنْ عاتبتها لم تُعْتِبْ. فلقد عبرَتْ بي هذه البُرهةُ كلّها وأنا بين شواغلَ لا يَشْغَلُها عنّي شاغل وبلابلَ[١] قد اختلط حابِلها بالنّابل، فنَازعتُها هذه النُّهزة[٢] اليسيرة أُجدّدُ فيها التّذكرَةَ إلى أنْ يَمُنَّ الله بصلة الحبْل واجتماع الشّمل، وأستَنزِلُ أحرُفاً من خطّك يَكتحِلُ بها النّاظر ويأنَس إليها الخاطِر، متوقّعاً بعد ذلك أن أبقى بين يدي مودَّتك مذكوراً وإلّا يكون عجزي لديك شيئاً منظوراً، وأنْ تجريَ بي على عادة حلْمِك إلى أن يَجمعَ الله الشّتيتين ويُغني العين[٣] عن الأثر بالعين[٤]، إن شاء الله تعالى، والسلام.

وكتب ايضاً:

وافاني كتابُك العزيز والنفسُ نَازعة[٥] إلى ما يزيلُ نِفارَها والقَريحةُ[٦]، تائقةٌ[٧] إلى ما يشحذُ[٨] غرارها[٩]، فكان روضة باسمة[١٠] الكمائم[١١] فائحة النّسائم، قد ردّت على النفس انبساطَها وأحيَت البادِرةَ فاستأنَفت نَشاطها. فأنا منهُ ما بين وشْي[١٢] يخجلُ طراز العبْقَرِيّة[١٣] وزُخرُف[١٤] دُونَه نَضرةٌ[١٥] السّابريّة[١٦]، تناجيني منه رشاقةُ[١٧] ألفاظ تفضحُ قُدودَ[١٨] الحِسان وغضاضَةُ[١٩] أنفاسٍ يغارُ منها وَرْدُ الجِنان، ورِقّة خطاب يشِفُّ[٢٠] عن ودّ صفيّ ولطف خفيّ[٢١] وكرَمٍ وفيّ، وعَتبٍ أعذب من الماء القَراحِ[٢٢] وأَرقّ من نَسماتِ الصّبا في الصّباح، حتى لقد حبّب إلى تقصيري وشفع عند نفسي في قبول معاذيري. على أنّ ما عندي من الوَلاء

---

(١) هموم. والحابل قيل ناصب الحبالة للصيد، وقيل سدى الثوب ـ والنابل قيل صاحب النبال وقيل لحمة الثوب. ولفظ المثل: اختلط الحابل بالنابل. هو مثل يضرب في ارتباك الأمر.

(٢) بضم النون: الفرصة. (٣) الباصرة. (٤) الذات.

(٥) مشتاقة. (٦) الملكة التي يقتدر بها على استنباط العلم بحدة الطبع.

(٧) مشتاقة. (٨) يحده وأصله لحد السكين.

(٩) بكسر الغين. والمراد أن الملكة مشتاقة إلى ما يجعلها قوية مصيبة.

(١٠) ضاحكة. (١١) الزهر. (١٢) نقش الثوب.

(١٣) تبلغ الغاية في الحسن. (١٤) كمال الحسن. (١٥) الحسن.

(١٦) ثياب رقيقة جيدة وأصلها للدروع السابورية نسبة إلى سابور كورة بفارس بينها وبين شيراز ستة عشر فرسخاً.

(١٧) لطافة. (١٨) جمع قد: القامة. (١٩) الحسن.

(٢٠) يحكي. (٢١) ظاهر فهو من الأضداد. (٢٢) بفتح القاف: الخالص.

لا يَعتريه، معاذَ الله، وَهن[١] ولا يُخلقه[٢] تمادِي زمن أو ترامِي وطَن. ولكنّ صُرُوفَ الأحداث[٣] قد قصّرت الجُهد[٤] وصرفت جواد العزيمة عن القد. والله يعلم أنّي لو نَزلتُ على حكم نَوازل الدّهر ولم أدافع طلائعها بما بقي من ساقةِ[٥] الصّبر لما كان في هِمّتي إلا كسرُ اليَراع[٦] وهجرُ المحابرِ والرّقاع[٧]. وحسبي من العذر ما أعرفُه مِن حلمِك المألوف وما ألفتهُ منْ كرَمِك المعروف.

والله أسأل أن يُبقيك لي من الدّهر نصيباً ويمتّعني بلقائك قريباً بمنّه وكرمِهِ.

وكتب أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى بالبصرة سنة ٢٥٥هـ:

أما بعدُ فنِعم البَديل من الزلّة الاعتذار وبئس العوَضُ من التّوبة الإصرارُ. فإنه لا عِوضَ من إخائك ولا خلَف من حُسن رأيك. وقد انتقمت منّي في زلّتي بجفائك فأطلق أسيرَ تشوُّقي إلى لِقائك. فإنّني بمعرفتي بمبلَغ حِلمك وغاية عفوِك ضَمنتُ لنفسي العفوَ من زَلّتها عندَك وقد مسّني من الألم ما لم يشفِهِ غير مواصلتك.

وكتبت زبيدة زوجة الرشيد المتوفاة سنة ٢١٦هـ إلى المأمون:

كلّ ذنبٍ، يا أمير المؤمنين، وإن عظُم صغيرٌ في جنب عفوك، وكلّ إساءة وإن جلّت يسيرة لدَى حلمِك. وذلك الذي عوّدكَه الله أطال مدّتك وتمم نعمتَك وأدام بك الخير ودفع عنك الشّر والضّير.

وبعد فهذه رُقعة الوَلْهى التي ترجُوك في الحياة لنوائبِ الدَّهر، وَفي الممات لجميل الذّكر. فإن رأيتَ أن ترحمَ ضَعْفي واستكانتي وقلّة حِيلتي وأن تصلَ رَحِمِي وتحتسِبَ فيما جعلك الله له طالباً وفيه راغباً، فافعل. وتذكّر مَن لو كان حيّاً لكان شفيعي إليك.

وكتب إليها المأمون جواب المواساة الآتي:

وصلت رُقعَتُك، يا أمّاه، أحاطك الله وتولّاك بالرّعاية[٨] ووقفت عليها وساءني ـ شهد الله ـ[٩] جميع ما أوضحتِ فيها، لكنّ الأقدار نافذة[١٠] والأحكام جارية

---

(١) ضعف. (٢) لا يبليه. (٣) كلاهما مصائب الدهر.
(٤) بفتح الجيم وضمها: الطاقة. (٥) آخره. (٦) الأقلام.
(٧) الرقاع بكسر الراء مفردها رقعة، وبضمّها القطعة من الورق التي تكتب.
(٨) يعني: حفظك الله وصانك برعايته.
(٩) جملة معترضة يقصد بها تأكيد ما يقول.
(١٠) يعني: ما قدره الله لا بد أن يكون.

والأمور متصرّفة والمخلوقون في قبضتها لا يقدرون على دفاعها[١]، والدُّنيا كلّها إلى شتات[٢] وكلّ حيّ إلى ممَات والغدر والبغي حتف الإنسان[٣] والمكر راجع إلى صاحبه.

وقد أمرت بردّ جميع ما أخذ لك ولم تفقدي ممّن مضى إلى رحمة الله إلا وجهه وأنا بعد ذلك لك علي أكثر ممّا تختارين[٤] والسلام.

وكتب بعضهم:

إنّي وإن جَنيتُ على نفسي وخرجتُ عن حدّ الأدب فيما يجب على العبد لسيّده، فإني عبدُ نعمتك وصنيع إحسانك. وذنبي وإن عظُم وضاق باب التّوبة عن قبول المعذرة، فالعفو عنه بعض حسناتِك التي فُطِرت عليها، والإغضاء عني سرٌّ من أسرارك التي تميلُ إليها. فاجعل العفوَ عنّي قُرْبةً إلى مولى الموالي، واترك العبدَ عتيقَ مكارِم الأخلاق. وإلا فضَعْ سيفَ نقمتك في نَحر عبد نعمتِك وأنت حِلٌّ من دم أراقه أهله أو آل أمرُهُ إلى وارثٍ لا يَسعهُ إلا النّزول عن المُطالبة به، ألا وهو مقامُ جلالتكم السّامي.

وحاشاك أن تُعدمَ الصّادق في خدمتك بهفوة لم يقصِدها وذنبٍ أقلع عنه.

وعلى كلّ فالعبدُ بين يديك وأمرُه منك وإليك، فقد ألقي إليك مقاليد الأجل فافعل ما تشاء واتّق الله عزَّ وجلَّ.

استعطاف أم جعفر[٥] بن يحيى للرشيد لأجل يحيى زوجها:

قال سهل بن هارون:

كانت أم جعفر بن يحيى أرضعت الرشيد مع جعفر[٦] وربته في حجرها وغذته

(١) يعني: أن المخلوقات مستلمة لأحكام الله وأقداره. (٢) مآلها التفرق.
(٣) يعني: أن البغي فيه هلاك الباغي.
(٤) يعني: أقوم لك بجميع ما تحبين وزيادة.
(٥) ذكر صاحب العقد أن اسمها فاطمة بنت محمد بن الحسين بن قحطبة، وذكر الطبري أن اسمها زينب بنت منير، وذكر ابن خلكان أن اسمها عتابة وكذا صاحب نجباء الأبناء، وذكر بعضهم أن اسمها عادة والله أعلم.
(٦) كذا ذكر صاحب العقد وقال الطبري إنها أرضعته مع الفضل ويؤيده قول سليمان الأعمى يرثي جعفراً ويستعطف الرشيد للفضل: [**الوافر**]

أمين الله في الفضل بن يحيى رضيعك، والرضيع له ذمام

برِسْلها[١] وكان الرشيد يشاورها مظهراً لإكرامها، والتبرك برأيها. وأن آلى وهو في كفالتها ألا يحْجُبَها ولا استشفعهُ لأحد إلا شفَّعها وآلت أم جعفر أنْ لا دخلت عليه إلا مأذوناً لها، ولا شَفَعت لأحد مقترف ذنباً؛ فكم أسير فكتْ، ومُبهم عنده فتحت، ومُـْتغلق[٢] منه فرَّجت. فلما قَتلَ ابنها جعفراً وحبس يحيى زوجها وسائرَ أهل بيته طلبت الإذن عليه، ومَتت[٣] بوسائلها إليه، فلم يأذن لها ولا أمر بشيء فيها؛ فلما طال بها خرجت كاشفة وجهها، واضعة لِثامَها مُحتفية في مشيتها، حتى صارت بباب قصر الرشيد، فدخل عبد الملك الفضل الحاجب فقال: ظئر[٤] أمير المؤمنين بالباب، في حالة تقلب شماتة الحاسد، إلى شفَقَة أم الواحد. فقال الرشيد: ويحك يا عبد الملك، أوَ ساعية؟ قال نعم يا أمير المؤمنين، حافية. قال: أدخلها يا عبد الملك فرب كَبِدٍ غذتها، وكُرْبة فرَّجتها، وعورة سَترتها. فدخلت، فلما نظر الرشيد إليها داخلة مُحْتفية قام مُحْتفياً حتى تلقاها بين عَمَد المجلس وأكَب على تقبيل رأسها ومواضع ثدييها ثم أجلسها معه فقالت: يا أمير المؤمنين أيَعدو علينا الزمان؟ ويجفونا خوفاً لك الأعوان؟ ويُحْرِدك[٥] علينا البهتان، وقد ربيتك في حِجري، وأخذت برضاعك الأمان من عدوّي ودهري؟ فقال لها: وما ذلك يا أمَّ الرشيد؟ فقالت: ظئرك يحيى وأبوك بعد أبيك، ولا أصفه بأكثر مما عرفه به أمير المؤمنين من نصيحته وإشفاقه عليه وتعرّضه لِلحتْف في شأن موسى أخيه[٦]، فقال لها: يا أُمَّ الرشيد أمرٌ سَبَق وقضاء حُمَّ[٧] وغضب من الله نفذ، قالت: يا أمير المؤمنين ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ[٨] ﴿٣٩﴾﴾[٩]. قال: صدقتِ، فهذا مما لم يمحه الله. فقالت: الغيب محجوب عن النبيين فكيف عنك يا أمير المؤمنين؟ فأَطْرَقَ الرشيد مَليّاً ثم قال:

---

(١) الرسل: اللبن.
(٢) المـتغلق.
(٣) مت إليه: توسل بقربة أو نحوها.
(٤) الظئر: المرضعة.
(٥) أحرده: أغضبه.
(٦) تشير إلى ما كان أراده الهادي وهو موسى بن المهدي من حرمان أخيه الرشيد الخلافة من بعده ونقلها إلى ولده واحتيال يحيى بن خالد في رد الهادي عن عزمه باذلاً في ذلك جهده.
(٧) حم الأمر: قضى ونفذ.
(٨) أم الكتاب: أصله أو اللوح المحفوظ.
(٩) الرعد: ٣٩.

[الكامل]

وإذا المنية أنْشبَتْ أظفارها ألفيْتَ كلَّ تَميمة لا تنفع[١]

فقالت بغير روية: ما أنا ليحيى بتميمة يا أمير المؤمنين وقد قال الأول:

[الكامل]

وإذا افتقرتَ إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال

هذا بعد قول الله عز وجل ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٢].

فأطرق مليّاً ثم قال: يا أم الرشيد أقول:

[الطويل]

إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكد إليه بوجهٍ آخر تُقْبِلُ

فقالت: يا أمير المؤمنين وأقول:

[الطويل]

سَتَقْطَع في الدنيا إذا ما قطعتني يمينَك فانظر أي كف تَبَدل[٣]

قال هارون: رَضَيْتُ، قالت: فهبه لي يا أمير المؤمنين فلقد قال رسول الله ﷺ: «من ترَك شيئاً لله لم يوجده[٤] الله لفقده» فأكب هارون مَليّاً ثم رفع رأسه يقول: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ﴾[٥]. قالت: يا أمير المؤمنين ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾[٦] واذكر يا أمير المؤمنين أليَّتك[٧]: ما استشفعتك إلا شَفَّعْتني. قال: واذكري يا أم الرشيد أليتك أن لا شفعتِ لمقْترِف ذنباً فلما رأته صَرح بمنعها، ولاذ[٨] عن مَطْلَبها أخرجت حقّاً من زُمُرُّدَة[٩] خضراء فوضعته بين يديه. فقال الرشيد: ما هذا؟ ففتحت عنْه قفْلاً من ذهب، فأخرجت منه خَفْضَه وذوائبه وثناياه قد غَمَسَتْ جميع ذلك في المسك. فقالت: يا أمير المؤمنين

---

(١) التميمة: ما يعلق للأولاد من كتابة أو غيرها دفعاً للعين أو للمرض.
(٢) آل عمران: ١٣٤.
(٣) البيتان من قصيدة معن بن أوس الآتية في باب العتاب. (٤) أوجده: أحزنه.
(٥) الروم: ٤. (٦) الروم: ٤ ـ ٥. (٧) الألية: الحلف.
(٨) لاذ، يلوذ: راغ وانحرف. (٩) الزمرد: من الأحجار النفسية.

أستشفع إليك، وأستعين بالله عليك وبما صار معي من كريم جَمَدك، وطيِّب جوارحك ليحيى عبدك.

فأخذ هارون ذلك فلَثَمه ثم استعبر[١] وبكى بكاءً شديداً وبكى أهل المجلس. فلما أفاق رمى جميع ذلك في الحق وقال لها: لحسن ما[٢] حفظت الوديعة، فقالت: وأهل للمكافأة أنت يا أمير المؤمنين. فسكت وأقفل الحق ودفعه إليها وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾[٣]. قالت: والله يقول: ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾[٤]. ويقول: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾[٥] قال: وما ذلك يا أم الرشيد؟ قالت: أو ما أقسمت لي أن لا تحجبني ولا تَمتَهنني[٦]؟ قال: أحب يا أم الرشيد أن تشتريه مُحَكَّمة[٧] فيه. قالت: أنْصَفت يا أمير المؤمنين وقد فعلت غيرَ مُستقبلة لك ولا راجعة عنك. قال: بِكَم؟ قالت: برضاك عمن لم يُسْخِطك. قال: يا أم الرشيد، أما ليَ عليك من الحق مثل الذي لهم؟ قالت: بلى يا أمير المؤمنين أنت أعزِ عليّ، وهم أحب إليّ. قال: فَتَحكمي في تَمْنيَةٍ[٨] بغيرهم قالت: كلا. قد وهبتكه وجعلتك في حِلٍّ منه وقامت عنه وبَقيَ مَبْهوتاً ما يُحيرُ[٩] لفظة.

قال سهل بن هارون: وخَرَجَتْ فلم تَعد، ولا والله ما رأيت لها عَبْرة، ولا سمعت لها أَنَّةً.

استعطاف إبراهيم بن المهدي[١٠] للمامون

أمر المأمون بإبراهيم بن المهدي فأدْخل عليه فلما وقف بين يديه قال: هيه[١١] يا إبراهيم! فقال: يا أمير المؤمنين وليُّ الثأر مُحكم في القصاص ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ

(١) استعبر: جرت عبرته وهي الدمعة قبل أن تفيض.
(٢) ما مصدرية.
(٣) النساء: ٥٨.
(٤) النساء: ٥٨.
(٥) النحل: ٩١.
(٦) امتهنه: ابتذله وأهانه.
(٧) يقول: أحب أن تطلبي ما تشائين إزاء هذا القسم.
(٨) التمنية والمنية: بمعنى واحد.
(٩) يقال: هو لا يحير جواباً أي: لا يرد.
(١٠) كان إبراهيم بن المهدي أخو الرشيد لأبيه قد ادعى الخلافة بعد قتل الأمين وقبل عودة المأمون من خراسان إلى بغداد، وأعانه على ذلك كثير من أهل بغداد، ثم خلع وغلب على أمره فاختفى حتى ظفر به المأمون. وكان إبراهيم بارعاً في الأدب حسن الغناء جيد الشعر توفي سنة ٢٤٢هـ في خلافة أخيه المعتصم.
(١١) هيه: مثل إيه للاستزادة أو للاستنطاق فهي اسم فعل.

لِلتَّقْوَىٰ﴾[1] ومن تَنَاوله الاغترار بما مُدّ له مِن أسباب الشّفاء أمكن عادية الدهر من نفسه وقد جعلك الله فوق كلّ ذي ذنب، كما جعل كلّ ذي ذنب دونك فإن أخذتَ فبحقّك، وإن عفوتَ فبفضلك. ثم قال:

[مجزوء الكامل]

ذنبي إليك عظيمٌ وأنتَ أعظمُ منهُ
فخُذْ بحقّك أو لا فاصفح بفضلك عنْهُ
إن لم أكُنْ في فعالي من الكرام فكُنْهُ

فقال المأمون: شاورت أبا إسحاق[2] والعبَّاس في قتلك فأشارا به، فقال: فما قُلْتَ لهما يا أمير المؤمنين؟ قال المأمون: قلتُ لهما نَبْدؤه بإحسان، ونَسْتَأمره[3] فيه، فإن غيَّر، فالله يُغَيّر ما بِهِ.

قال: أمَّا أن يكونا قد نصحا في عظيم بما جرتْ عليه السِّياسة، فقد فعلا وبلَّغا ما يلزمُهُما وهو الرأي السَّديدُ، ولكنَّك أبيت أن تَسْتَجْلِب النصر إلا من حيث عَوَّدَكَ الله، ثم ٱسْتَعْبَرَ باكياً.

فقال له المأمون: ما يُبْكيك؟ قال: جَذلاً إذ كان ذنبي إلى من هذه صفته في الإنْعام، ثم قال: إنه وإن كان قد بلغ جُرْمي استحلالَ دمي فحِلم أمير المؤمنين وفضله يبلِّغاني عفوه، ولي بعدهما شفاعة الإقرار بالذنب، وحَق الأبوة بعد الأب.

فقال المأمون: يا إبراهيم لقد حُبِّبَ إلي العفو حتى خفتُ أن لا أوجر عليه. أما لو علم الناس ما لنا في العفو من اللذَّة لتقربوا إلينا بالجنيات. لا تَثْرِيبَ[4] عليك، يغفر الله لك، ولو لم يكن حَق نَسَبك ما يُبَلِّغ الصفحَ عن جُرمك لبَلَّغك ما أملت حسنُ تنصُّلِك، ولُطْف تَوَصُّلِك.

ثم أمر بِرَدِّ ضياعه وأمواله. فقال إبراهيم:

---

(١) البقرة: ٢٣٧.

(٢) أبو إسحاق هو المعتصم بن الرشيد، والعباس هو ابن المأمون. ولقد أحسن إبراهيم في تصويب رأيهما؛ لأن ذلك أنجع في طلب الرضا وأبلغ في دفع المكروه من الازدراء عليهما في رأيهما.

(٣) أصل الاستمار: المشاورة. والمراد هنا التجربة.

(٤) التثريب: اللوم والتعبير بالذنب.

[البسيط]

رددتَ مالي ولم تبخل عَليَّ به وقبل ردِّك مالي قد حَقَنْتَ دمي[1]
وقام عِلْمك بي فاحتج عندك لي مقامَ شاهد عدل غيرِ متّهمِ
فلو بذلت دمي أبغي رضاك به والمال حتى أسُلّ النعل من قَدَمي
ما كان ذاك سوى عارية سلفت لو لم تَهَبْهَا لكنت اليوم لم تُلَمِ

استعطاف إسحاق بن العباس للمأمون

قال المأمون لإسحاق بن العباس: تَحْسِبُني أغفلت أمر ابن المهدي وتأييدك له وإيقادك لناره؟ فقال: والله يا أمير المؤمنين لَأجرام قريش إلى رسول الله ﷺ أعظم من جُرمي إليك، ولرحمي بك أمْتن من أرحامهم، وقد قال لهم كما قال يوسف ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ لإخوته: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾[2]. وأنت يا أمير المؤمنين أحق وارث لهذه الأمة في الطَّول، ومُمْتَثِل[3] لخلال العفو والفضل.

قال: هيهات! تلك أجرام جاهلية عفا عنها الإسلام وجُرْمك جُرم في أسلافك وفي دار خلافتك.

قال: يا أمير المؤمنين فوالله لَلْمُسْلم أحق بإقالة العَثْرَة وغفران الذنب من الكافر وهذا كتاب الله بيني وبينكم إذ يقول: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾[4] والناس يا أمير المؤمنين نسبة دخل فيها المسلم والكافر والشريف والمشروف.

قال: صدقت، وَرَتْ[5] بك زِنادي، ولا بَرِحْتُ أَرَى من أهلك أمثالك.

---

(١) حقن الدم: صانه.
(٢) يوسف: ٩٢. (٣) امتثل طريقته: تبعها فلم يعدها.
(٤) آل عمران: ١٣٣ ـ ١٣٤.
(٥) ورت بك زنادي، ووقدت بك زنادي: مثلان يقالان لمن أنجدك أو أرشدك والمراد بهما الدعاء.

استعطاف الفضل[١] بن الربيع للمامون

قال المأمون للفضل بن الربيع لما ظفر به: يا فضل، أكان من حقي عليك وحق آبائي ونعمهم عند أبيك وعندك أن تَثْلِبني[٢] وتَسُبّني وتحَرِّضَ على دمي؟! أتحب أن أفعل بك ما فعلته بي؟

فقال: يا أمير المؤمنين، إن عذري يحقدكَ إذا كان واضحاً جميلاً، فكيف إذا أخْفَتْهُ العيوب! وقَبَّحَتْه الذنوب! فلا يضيق عَنِّي من عفوك ما وسع غيري منك، فأنت كما قال الشاعر[٣] فيك:

[الطويل]

صَفُوحٌ عن الأجرام حتى كأنَّه من العفو لم يَعْرِف من الناس مجرما
وليس بمبالي أن يكون به الأذى إذا ما الأذى لم يَغْشَ بالكره مسلما

استعطاف تميم بن جميل للمعتصم

كان تميم بن جميل السّدوسي[٤] قد خرج بشاطئ الفرات، واجتمع إليه كثير من الأعراب، فعظم أمره، وبَعُدَ ذكره، ثم ظُفِرَ به، وحُمِل مُوثقاً إلى باب المعتصم، فقال أحمد بن أبي دؤاد: ما رأيتُ رجلاً عاينَ الموت، فما هَالهُ[٥] ولا شَغَله عما كان يجب عليه أن يفعله إلا تميم بن جميل، فإنه لما مَثُلَ بين يدي المعتصم، فأُحْضِرَ السيف والنَّطع[٦]، وأوقف بينهما، تأمّله المعتصم ـ وكان جميلاً وسيماً ـ فأحَبَّ أن يَعْلم أين لسانه وجَنانه من منْظره، فقال: تكلم يا تميم.

---

(١) هو الفضل بن الربيع بن يونس حاجب الرشيد ثم وزيره بعد نكبة البرامكة. ثم وزير الأمين في خلافته. ويقال: إنه هو الذي أوغر صدر الرشيد على البرامكة حسداً لهم على منزلتهم. وفيه يقول أبو نواس: **[السريع]**

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالَم في واحد

توفي الفضل سنة ٢٠٨هـ.

(٢) ثلبه: تنقصه وصرح بعيبه. قال الشاعر: **[الرجز]**

لا يحسن التعريض إلا ثلبا

(٣) القائل هو الحسن بن رجاء. (٤) سدوس: بطن من بني شيبان ثم من بني بكر.

(٥) هاله: أفزعه.

(٦) النطع: بساط من الجلد يفرش تحت من يراد قتله حتى لا يسقط دمه على الأرض.

فقال: أمَّا إذا أذِنْتَ يا أمير المؤمنين فأنا أقول: الحمد لله ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ۝٨﴾[1] جَبر بك صدع[2] الدين، ولَمَّ بك شَعَث[3] المسلمين، وأوضح بك سبل الحق، وأخْمَدَ بك شهاب الباطل. إن الذُّنُوب تُخْرِس الألسنة الفصيحة وتُعْيي الأفئدة الصحيحة، ولقد عظمت الجريرة وانقطعت الحجة، وساء الظن، ولم يبق إلا عفوك أو انتقامك، وأرجو أن يكون أقربهما منك وأسرعهما إليّ أشبههُما بك أولاهما بكرمك، ثم قال على البديهة:

[الطويل]

أرى الموت بين السيف والنطع كامناً ... يُلاحظني من حيثما أتَلَفَّتُ
وأكبرُ ظني أنك اليوم قاتلي ... وأي امرئ مما قضى الله يُفْلِتُ؟[4]
وأيُّ امرئ يأتي بعذر وَحُجَّةٍ ... وسيف المنايا بين عينيه مُصْلَتُ[5]
وما جزعِي من أن أموت وإنني ... لأعْلم أن الموت شيء مُوَقَّتُ
ولكن خلفي صِبْيةٌ قد تركتُهُم ... وأكبادهم من حسْرة تتفتتُ
كأني أراهم حين أُنْعى إليهم ... وقد خَمَشُوا[6] تلك الوجوه وصوَّتوا
فإن عِشْت عاشوا خافضين بغبطة ... أذود الرَّدى عنهم وإن مت مُوِّتوا[7]
وكم قائلٍ لا يُبْعِدُ الله رُوحَه ... وآخر جَذْلان يُسَرُّ وَيَشْمَتُ

فتبسَّمَ المعتصم وقال: كاد والله يا تميم أن يسبق السيف العَذَل، قد وهبتك للصبية، وغفرت لك الصَّبوة[8]. ثم أمر بفك قيوده وخلع[9] عليه.

وكتب أبو عثمان بن بحر الجاحظ المتوفى بالبصرة سنة ٢٥٥هـ:

وكتب الجاحظ إلى ابن الزيّات يستعطفه وكان قد تنكر وتلون عليه.

---

(١) السجدة: ٧ و٨. (٢) الصدع: الشق في الحائط ونحوه.
(٣) الشعث: انتشار الأمر والأشياء المتطرفة.
(٤) أفلت: تخلص ونجا. (٥) أصلت السيف: استله من غمده.
(٦) خمش وجهه: لطمه وهو من باب ضرب ونصر.
(٧) موتوا: كثر فيهم الموت. (٨) الصبوة: الزلة وجهلة الشباب.
(٩) خلع عليه خلعة: منحه بعض ثيابه وقد يراد به مطلق العطاء.

obeikandl.com

أعاذَك الله من سُوءِ الغضَب وعصمَك[١] من سَرَف[٢] الهوى، وصَرَف[٣] ما أعارَك من القُوَّة إلى حُبّ الإنصاف[٤] ورَجّحَ في قلبك إيثار[٥] الأناة. فقد خِفتُ أيّدك الله أن أكونَ عندك من المنسوبين إلى نَزَقِ[٦] السُّفهاء ومُجانبة سُبُلِ الحكماء.

وبعد فقد قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت:

[الطويل]

وإنّ امرَأ أمسى وأصبَحَ سالماً من النّاس إلا ما جَنَى لسَعيدُ

وقال الآخرُ:

[السريع]

وَمَنْ دعا الناس إلى ذَمِّهِ ذَمّوه بالحقّ وبالباطلِ

فإن كنت اجترأت[٧] عليكَ ـ أصلَحَكَ الله ـ فلم أجترئْ إلا لأنَّ دوامَ تَغافُلِكَ عنّي شبيهٌ بالإهمال الذي يورثُ الإغفالَ، والعفوُ المتتابعُ يُؤْمن من المكافأة. ولذلك قال عُيَيْنة بن حِصْن بن حُذيفة لعثمان رحمه الله: «عُمرُ كان خيراً لي منك أرْهبَني فاتَّقاني وأعطاني فأغناني». فإن كنتَ لا تهَبُ عِقابي ـ أيّدكَ الله ـ لِخدْمةٍ فَهبْهُ لأياديك عندي، فإن النعمة تَشفَع في النّقمة. وإلّا تفعَلْ ذلك لذلك فعُدْ إلى حُسن العادة، وإلّا فافعلْ ذلك لحُسْن الأحدوثة، وإلا فأتِ ما أنتَ أهلُه من العفو دون ما أنا أهلُه من استحقاق العقُوبة فسبحان مَنْ جعلك تعفو عن المُتعمّد وتَتجافى عن عقاب المُصرّ، حتى إذا صِرْتَ إلى مَن هفْوَته ذُكرٌ وذَنْبه نسيَانٌ، ومَنْ لا يعرِف الشّكر إلّا لك والإنعام إلّا منك هجَمتَ عليه بالعقوبة.

واعلم ـ أيدك الله ـ أن شين غضبك عليّ كَزَيْن صفحك عنّي، وأنّ موْت ذِكري مع انقطاع سبَبي منك كحياة ذكرك مع اتّصال سَبَبي بك[٨]. واعلم أن لك فِطْنةَ عليم وغَفْلة كريم، والسلام.

---

(١) حفظك. (٢) مجاوزة الحد. (٣) وجّه.
(٤) جعله راجحاً. (٥) اختيار. (٦) طيش.
(٧) أقدمت وهجمت.
(٨) التشبيه في هاتين الفقرتين من قبيل قولهم في التفضيل: العسل أحلى من الخل. يقول: إن مقدار قبح الغضب كمقدار حسن الصفح وإن مقدار موت الذكر عند الانقطاع مثل مقدار حياته عند الاتصال.

استعطاف رجل من أهل الشام للمنصور

يا أمير المؤمنين، من انتقمَ فقد شفى غيظه وانتصف، ومن عَفَا تفضل، ومن أخذ حقه لم يجب شكره، ولم يذكر فضله، وكظم الغيظ حلم والتشفي طَرَفٌ من الجزع، ولم يَمْدح أهل التقوى والنهى من كان حليماً بشدة العقاب ولكن بحسن الصفح والاغتفار وشدة التغافل.

وبعد: فالمعاقب مستودع لعداوة أولياء المذنب[١] والعافي مُسْتدْعٍ لشكرهم آمن من مكافأتهم، ولئن يُثْنى عليك باتساع الصدر خير من أن توصف بضيقهِ، على أن إقالتك عثراتِ عباد الله موجبة لإقالة عثرتك من ربهم موصولة بعفوه، وعقابك إياهم موصول بعقابه. قال الله عز وجل: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾[٢].

روح بن زنباع يستعطف معاوية:

أراد معاوية معاقبة رَوْح بن زِنباع، فقال: يا أمير المؤمنين أنشُدُك الله تعالى ألا تَضع مني خَصيصة أنت رَفعتها، أو تَنقُص مني مَريرةً[٣] أنت أبرَمْتها[٤] أو تشْمِت بي عَدواً أنت كَبَتَّه[٥]، وحاسداً بك وقَمْتَه[٦] وأسألك بالله إلا أرْبى حِلمك على خطئي وصفحك على جهلي. فقال معاوية:

إذا الله سَنّى[٧] عَقْد شيء تيسرا

وعفا عنه. وقد ألمَّ المتنبي بقول رَوْح إذ يقول:

[الطويل]

أزِل حَسَدَ الحُسَّاد عني بكَبْتهم ... فأنتَ الذي صيرتهم لي حُسّداً

إذا شدّ زِنْدي حُسنُ رأيك في يدي ... ضربتُ بسيفٍ يقطع الهام مغمدا

---

(١) الأولياء: الأهل والأقارب.
(٢) الأعراف: ١٩٩.
(٣) المريرة: الحبل الشديد الفتل.
(٤) أبرم الحبل: أجاد فتله، والأمر: أحكمه.
(٥) كبته: أذله وغاظه وصرعه لوجهه.
(٦) وقمه: قهره.
(٧) سنّى الشيء: فتحه وسهله، وهذا شطر بيت وهو:

[الطويل]

وأعلم علماً ليس بالظن أنه ... إذا الله سنّى عقد شيء تيسرا

كتب ابن الرومي يستعطف القاسم بن عبيد الله[١]:

تَرَفع عن ظُلمي إن كنت بريئاً، وتفَضّل بالعفو إن كنتُ مُسيئاً، فوالله إني لأطلبُ عفْوَ ذنب لم أجْنِه، وألتمسُ الإقالةَ ممّا لا أعرفُه، لِتزْداد تَطوُّلاً[٢] وأزدادَ تَذللاً. وأنا أعيذُ حالي عندك بكرمك من وَاشٍ يكيدها، وأحْرُسها بوفائك من بَاغٍ يُحاول إفسادها، وأسأل الله أن يجعلَ حَظّي منك بقدر وُدّي لك، ومَحلّي من رَجَائك بحيثُ أستحقُّ منك. والسلام.

وكتب إليه:

لو كان في الصّمت موضع يَسعُ حالي لخَفّفْتُ عَن سَمْع الوزيرِ ونظره، ولم أشغَل وجهاً من فكره، وما زالت الشكوى تُعربُ عن لسان البَلوى. ومن اختلّت حالتهُ كان في الصّمت هَلكته[٣]، وقد كانَ الصبر يَنْصُرني على ستر أمري حتى خذَلني.

استعطاف للخوارزمي:

[الرمل]

لَوْ بغير المَاء حَلْقِي شرق كنْتُ كالغصَّان بالماء اعْتِصَارِي[٤]

كيف يَقْدِر ـ أبقى الله السيد! ـ عَلَى الدّوَاءِ مَن لا يهتدي إلى أوْجُه الدّاء؟ وكيفَ يُدَاري أعداءه مَن لا يعرفُ الأعداء من الأصدِقاء؟ أم كيف يَسرِي بلا دليل في الظلماء؟ أم كيف يَخْرُجُ الهاربُ مِنْ بين الأرض والسماء؟ الكريم ـ أيَّدَ الله مولاي ـ إذا قَدرَ غفر، وإذا أوْثقَ أطلقَ، وإذا أسَر أعْتق، ولقد هَرَبت من الشيخ إليه، وتَلحت بعفوه عليه، وألقيْتُ رِبْقة[٥] حَياتي ومماتي بيديه، فلْيذِقْني حلاوة رضاه

---

(١) هو القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب وبيته بيت وزارة وكتابة وأدب فقد كان وزيراً ابن وزير. أما الكتابة فهو فيها معرق لأنه يرثها عن ثمانية آباء متعاقبين منذ خلافة يزيد بن معاوية وكان عظيم الهيبة شديد الإقدام سفاكاً للدماء وهو الذي دس لابن الرومي السم في الطعام خوفاً من لسانه، توفي سنة ٢٩١هـ وعمره نيف وثلاثون.

(٢) التطول: الإنعام. (٣) الهلكة: الهلاك.

(٤) الشرق بالماء كالغصة بالطعام، والاعتصار معالجة الغصص بشرب الماء قليلاً قليلاً، والبيت لعدي بن زيد العبادي الشاعر الجاهلي من قصيدة يستعطف بها النعمان بن المنذر يقول: إن الإنسان إذا غص بالطعام عالجه بالماء فماذا يصنع إذا كانت غصته بالماء نفسه!

(٥) الربقة: العروة التي يربط بها، والمراد بها الزمام.

عني كما أذاقني مرارة انتقامه مني، ولتلح[١] على حالي غرّة[٢] عفوه كما لاحت عليها مواسم[٣] غضبه وسطوه، وليعلم أن الحر كريم الظفر إذا نال أقال، وأن اللئيم لئيم الظّفر إذا نال استطال[٤]. وليغتنم التجاوز عن عثرات الأحرار، ولينتهز فرص الاقتدار، وليحمد الله الذي أقامه مقام من يرتجى ويخشى، وركب نصابه في رتبة شاب الزمان ومجدها فتى، وأخلقَ العَالمُ وذكرُها طريّ، وليعتقد أنه قد هابه من استتر، ولم يذنب إليه من اعتذر، وفّق الله تعالى الشيخ لما يحفظ عليه قلوب أوليائه، وعصمه مما يزيد به في جماجم أعدائه.

كتب سعيد[٥] بن حميد يعتذر:

أنا من لا يحاجك عن نفسه، ولا يغالطك عن جرمه، ولا يلتمس رضاك إلا من جهته، ولا يستدعي برّك إلا من طريقته، ولا يستعطفك إلا بالإقرار بالذنب، ولا يستميلك إلا بالاعتراف بالجرم.

نَبَتْ بي عنك غرّة الحداثة، وردتني إليك الحنكة[٦]، وباعدتني منك الثقة بالأيام، وقادتني إليك بالضرورة، فإن رأيت أن تستقبل الصّنيعة بقبول العذر، وتجدد النعمة باطّراح الحقد، فإن قديم الحرمة وحديث التوبة يمحقان ما بينهما من الإساءة، وإن أيام الحياة وإن طالت قصيرة، والمتعة بها وإن كثرت قليلة.

كتب أبو علي البصير يعتذر:

أنا أحد من أسكنته ظلك، وأعقلته حبلك[٧]، وحبوته بلطيف برّك وخاص عنايتك، وانتصف بك من الزمان، واستغنى بإخائك عن الإخوان، فهو لا يرغب إلا إليك، ولا يعتمد إلا عليك، ولا يستنجح[٨] طلبه إلا بك، وقد كان فرط مني قول إن تأوّلته[٩] لي أراك وجه عذري وقام عندك بحجتي فأغناني عن توكيد الأيمان

---

(١) لاح: ظهر. (٢) الغرة: بياض في وجه الحيوان والمراد هنا الأثر.
(٣) المواسم: العلامات. (٤) استطال: تطاول واعتدى.
(٥) هو من أولاد الدهاقين، كاتب شاعر مترسل حسن الكلام فصيح، أخذ عن الإمام الأعرابي ويؤخذ عليه أنه كثير الأخذ لكلام غيره.
(٦) الحنكة: خبرة التجارب. (٧) وصلته وقيدته بزمام مودتك.
(٨) استنجح حاجته وتنجّحها: تنجزها وطلب نجحها.
(٩) أول الكلام وتأوّله: فسره.

على حسن نيّتي، وإن تأولته عليّ أحاق[١] بين لائمتك[٢] وحبـني على أسوأ حال عندك. وقد أتيتك معترفاً بالزّلة، مستكيناً[٣] للمَوجدة[٤] عائذاً بالصفح والإقامة، فإن رأيت أن تقر عيناً قرت بنعمتك عندي، ولا تسلبني ما ألبستني، وأن تقتصر من عقوبتي على المكروه الذي نالني بسبب عتبك عليّ، وتأمر بتعريفي رأيك بما يطامن[٥] هلعي وتسكن إليه نفسي ويأمن به روعي[٦]، فعلت إن شاء الله.

وكتب البديع إلى القاسم الكرخي يعتذر:

يعزّ عليَّ ـ أطال الله بقاء الشيخ الرئيس! ـ أن ينوب في خدمته قلمي، عن قدمي، ويسعد برؤيته رسولي، دون وصولي، ويرد شِرْعة[٧] الأنْسِ به كتابي قبل رِكَابي، ولكن ما الحيلة والعوائق جَمَّة:

[مجزوء الكامل]

وَعَلـيَّ أنْ أسْعَى ولـيـ ـس عـلـيَّ إدراك النَّجَاح

وقد حضرت داره وقبلت جِدَاره، وما بي حب الجدران، ولكن شَغَفاً بالقُطّان، ولا عشق الحيطان ولكن شوقاً إلى السكان[٨]، وحين عَدَت[٩] العوادي عنك أمليت ضمير الشوق على لسان القلم معتذراً إلى مولاي على الحقيقة عن تقصير وقع، وَفُتُور في الخدمة عرض، ولكني أقول:

[المديد]

إن يكن تركي لقصدك ذنباً فكفى أن لا أراك عقابا

---

(١) أحاق: نزل. (٢) اللائمة: اللوم.

(٣) استكان: خضع، وهو من الكون فوزنه: افتعال بزيادة الألف للإشباع كما قالوا في انظر (انظور) ويرى بعض الناس أنه من الكون وليس بوجيه، لأن المعنى لا يعينه.

(٤) الموجدة: الغضب.

(٥) يطامن: يخفض ويخفف.

(٦) الروع: القلب وهو أيضاً الفزع والخوف.

(٧) الشريعة والشرعة والمشرعة: مورد الشاربة من الماء.

(٨) ألم البديع هنا بقول الشاعر:

أمرُّ على الديار ديار ليلى أقبِّل ذا الجدار وذا الجدارا

وما حبُّ الديار شغفن قلبي ولكن حبُّ من سكن الديارا

(٩) منعت الموانع.

الكلام على الرسائل المتداولة

هذه الرّسائل تتفرع إلى ثلاثة أقسام:

فالأوّل يشتمل على الرّسائل التجارية والطلب والشكر والاعتذار.

والثاني على رسائل النّصح والملامة والإخبار والتّهنئة والتعزِية والأجوبة.

والثالث على رسائل الوصاة والشفاعات.

الفصل الثاني[1]: في رسائل حسن التقاضي والطلب

كتب أبو العيناء المتوفى سنة ٢٨٢هـ إلى عبيد الله بن سليمان:

أنا ـ أعزَّك الله ـ وعيالي زَرْعٌ مِنْ زَرعك إن أسقيتهُ رَاعَ[2] وزَكا وإن جَفَوْتَهُ ذَبُلَ وذَوَى[3]. وقد مَسَّني منك جفاءٌ بَعْد برّ وإغفال بعد تعاهد، حتى تكلَّم عدوٌّ وشمِتَ حاسدٌ ولعبت بي ظنونُ رِجالٍ كنتُ بهم لاعباً ولهم مُخْرِساً:

[الرمل]

لا تُهنّي بعدَ أن أكرَمْتني وشديدٌ عادةٌ مُنتزعَهْ

وكتب الوزير عبد الخالق باشا ثروت:

إليكَ، يا مَنْ قد ٱستأسَرَ النُّفوس بكرمِه وٱسترق الأحرارَ بجميل صُنْعه وأوْلى النّعم والخيرات وأسدَى المعروفَ والمبرّات، أرفعُ كتاباً تبعثه إلى ناديك العالي عو ملُ الحاجة وتُزْجيه[4] إلى ساحتك دَواعي الشدّة، آملُ أن يكون تَذْكرة بأمري و﴿ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[5] وتذكرةً بحالي وإنَّ ﴿ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[6]. فقد كان سيدي ـ رفعَ الله قدره وأعلى مرتبتَه ـ وعدَني ومثله منْ يتمسَّك من الوفاء بِالعُرْوَة[7] الوُثقى، ويقطعُ حبلَ الإخلاف بسيف الوَفاء، ويُطرّز خلعة الوَعد بوَشْي

---

(١) والفصل الأول في الرسائل التجارية التي أغفلناها في كتابنا هذا لأن لها مؤلفات خاصة بها فارجع إليهما إذا شئت.

(٢) نما وزاد. (٣) ذبل. (٤) تدفعه.

(٥) الذاريات: ٥٥. (٦) التوبة: ١٢٠. (٧) من الحبل الوثيق المحكم.

العطَاء، أن يُرْسل لي مِنْ خيرَاته ويُوليني من آلائهِ وحسنَاته ويُضاعف لي من مِنَنه ويَزيدَني من عطائه ما أَشُدُّ به أزْري[١] على الزَّمان وأُطاوِلُ به نوائب الحَدَثان[٢] فقد بارزني الدّهر بسُيوفه ورَماني بسهامه وأنَاخ[٣] عليَّ بكلاكِلهِ[٤]. وقد طال الأمدُ[٥] على حَاجتي عند سيّدي ـ أطالَ الله بقاءَه ـ حتى شاب غُرَاب شبَابها وصاح بجانب لَيلها، فخِفتُ أن تكون هبَّتْ عليها ريحُ النّسيَان وعَصَفَتْ[٦] بها عَاصِفة[٧] الحِدْثان[٨]، فكتبتُ إلى سيدي ومولاي تلك الرُّقعة أستعجلُ بها بِرَّهُ وأستدِرُ بها ضِرْعَ عطائه، عِلماً بأنَّ التَّعجِيلَ يُكبّرُ العَطيَّة وإن كانت صغيرة، ويُكثرها إن كانت يَسيرَةً. فعَسى أن يكون قد لاح نجمُ النَّجاح وهبّ نسيمُ الفلاح، فيرسلُ سيدي إليّ سحابَ كرَمه ويُمطرُني من غِياث فضله، فَترِفُ[٩] غُصونُ آمالي بعدَ ذُبولها وتضحكُ وُجوه مطالِبي بعد عُبوسها. وأملي في ذلك فسيحٌ فإنَّ سيدي من أكرم النَّاس نَسَباً وأشرفهم حَسَباً، ومثلُهُ جديرٌ[١٠] بحفظ العَهد وإنجاز الوَعد. فإن رأى سيدي أن يُخفّفَ ثقل الحاجة عني ويَردَّ ما سَلَبه الدّهر منّي، بقطرَةٍ من بحر عَطائه ومِنَّةٍ[١١] من بعض آلائه[١٢]، ويَجبُرَ ما كسرهُ الفقرُ من جنَاحي ويردَّ عنِّي النَّوائب التي لا تفتأ[١٣] تتوَلَّاني، عقدتُ لساني على مَدْحه ووَقفتُ نفسي على شكرِهِ، فيُحْرِزَ من الله أجراً جزِيلاً ومني شكراً جميلاً. إن شاء الله بمنّه وكرمه.

وكتب احمد بك رافت:

السيد الكاملُ ـ أدامَ الله عَلَاءه وأطَال بقاءَه وجعله مَوْئل[١٤] الكرم ومُسْدي النّعَم ـ قد غمرَني بنعمائه وطوّقني بآلائهِ، حتى قصَرْتُ حمدي عليه وأمسكتُ لساني عن الشكر إلا إليه. وكان مِنْ مِنَنِهِ علَيّ وأيَاديه البيضاء لديّ أن وَعدَني أنه يُقلّدُني في أوّل العام وَظيفةً عالية ومرتبةً سامية، فاخضَلَّ[١٥] روض الأمل بعد ذبوله وبزغ[١٦] كوكبُهُ

---

(١) ظهري.
(٢) بفتح الحاء والدال أو بكسر الحاء وسكون الدال: حوادث الدهر.
(٣) مال. (٤) مصائبه. (٥) الغاية.
(٦) اشتدت. (٧) الريح. (٨) حوادث الدهر.
(٩) تتلألأ. (١٠) حقيق. (١١) نعمة.
(١٢) أفضاله. (١٣) تستمر. (١٤) ملجأ.
(١٥) صار نديا. (١٦) طلع.

بعد أُفوله[١] وٱتسع نطاقُهُ[٢]، واستبشَرَ القَلبُ بنيل أُمنيَّته والحصُولِ على طِلْبته، وٱشتدَّ أزري[٣] عَلَى مُقارعة كتائب[٤] الزّمان وقَوِيَ جَنَاني عَلَى صدّ جُيوش الحِدْثان. وما زالَتْ بي الأيام حتى حانَ أوّلُ العام وما تحقَّقَ الوعدُ أو أُوفي العهدُ، ومثلُ السيد مَنْ إذا وَعدَ وَفى أو تعهَّد أوْفى.

[الطويل]

أفي دين ذي المعروف يَجمُلُ أنني تَنُوءُ بيَ البُؤْسى ويُثقلُني العُسرُ
وأنتَ الذي أعطى المكارِمَ حقّها ولم يحْك جدْواك السّحابُ ولا البَحرُ
فعجّلْ فخيرُ البرّ يُحْمَدُ عاجلاً وأوْفِ فوَعدُ الحُرّ دِين به الحُرُّ

هذا، ولكنّني رجعتُ وحكّمتُ العقلَ فعذَرتُ السيد، وحملتُ ذلك على أنه إنما لم يُعجَلْ بإنجاز وَعده وإيفاء عهده إلَّا لتقليد عبده وظيفةً أسمى ومرتبةً أعلى، عَلّهُ يستدرك ما فات ويُحسِنُ إلى عبده فيما هو آت.

وكتب الفاضل عبد العزيز بك محمد:

عهدي بالسيد الجليل ـ أدامهُ الله مصدراً للمكارم تُشْتَقُّ منهُ صِفاتُها ومظهراً للفضائل تتجلّى فيه آياتها ـ سَبَّاقاً إلى غايَات المجد دَرَّاكاً لمطالب الحمد، أرْيَحِيّاً[٥] لا يَصبو[٦] إلَّا إلى إسداءِ[٧] المِنَن، جَواداً لا يطمع طرفه في بثّ عوارفه إلى ثَمن ما أمّه[٨] أسيرُ فاقة[٩] إلّا وألْفَى[١٠] لديه كهفاً منيعاً وجاهاً رفيعاً، وما قصَدَه ذُو حاجةٍ إلّا وصدَر[١١] عن موْرِد[١٢] فضله شادياً[١٣] بثنائه مُعْلِناً بوَلائِه.

وإنَّ لي إلى السيد حاجةً إن لم يُسْعف بقضائها فيا حسرَة نفسي وطولَ شقائها. وليست هذه بأوَّل مرَّةٍ استمحتُ[١٤] فيها عالي مُرُوءَته وٱستَمطَرْتُ صيّبَ[١٥] همَّته، فإنهُ طالما طوّقني قلائدَ نِعَمهِ وأرسل عليَّ مِدْرار[١٦] كرمه. فليجْرِ في هذه أيضاً على عادته ويُقَابِلْني بما عوَّدني من كرَامته. ومعاذَ الله أن أسأله ما ليس في وُسعه أو أن أستقضيَه شيئاً يَحرصُ على منعه، ولكنّني:

---

(١) غيبته. (٢) ثوبه. (٣) ظهري.
(٤) الجيوش. (٥) يرتاح للعطاء. (٦) لا يميل.
(٧) إحسان. (٨) قصده. (٩) فقر. (١٠) وجد.
(١١) رجع. (١٢) مكان الورود. (١٣) مترنماً.
(١٤) سألته العطاء. (١٥) السحاب. (١٦) ما يدر بالمطر.

[البسيط]

أُريد بسطةَ كفٍّ أستعينُ بها على قضاء حقُوق للعُلَى قِبَلِي

والذي يكفُلُ لي تلك البَسطة أن يُقلّدني سيدي وظيفةً مناسبةً لحالتي حتى تكون لي دِرْعاً أتَّقي بها مَهانة الفَقر وسيفاً أكفُّ به عَوادي الدَّهر. وما لي والأقسام عليه في إنالتي هذه البُغية بنفيس وقتٍ قضيتُه في خدمة العلم واقتناء أبكاره وطويل عَناءٍ تحمَّلته في مزاولة[١] الأدب واكتشاف أسرَاره، ونفسٍ ارتاضَت[٢] بالفَضْل وآثرتْ[٣] غُصَّة الفَقر على مِنَّة البَذْل. وله من سنيَّات[٤] الفضائل[٥] وعليَّات الفَواضل[٦] وجليَّات المآثر وجليلات المفاخر، ما لو أُقسِم به عليه في إنالة أعزّ المطالب لألزمه كرمُ سجَاياه بِرَّ ذلك القَسَم وإجابة دَواعي الهِمَم. وإنك لفاعل إن شاء الله تعالى.

وكتب فقيد الأدب حسن أفندي توفيق العدل المتوفى بلندن سنة ١٣٢٢هـ:

كتابي إلى ربّ النّعماء واليدِ البَيضاء وقد أصبحتُ كما قال الحريري: «خاوِيَ[٧] الوفاض[٨] باديَ[٩] الأنفاض[١٠]، لا أملكُ بُلغة[١١] ولا أجد في جرابي مُضغة[١٢] قد التَوى عليَّ أمري وثَقُلَ من حاجتي ظهري، مدَّ الاحتياج إليَّ أَطنابَه[١٣] وسَرْبلَني[١٤] الافتقارُ إهابَه[١٥]، والدُّنيا مكدّرة بأحداثها[١٦] وقُصورُها مُنغصّة بأجداثها[١٧]، نعيمها يَضفُو[١٨] ولكن لا يَصفو».

وأنت ـ كما أعلم ـ مُفَرّجُ كُرْبتي ومُنْقذي من شدّتي، بطُرفة[١٩] من طُرف رِفدك[٢٠] ولَمْحةٍ من لمحات بِرّك[٢١]. فإن استدرَرْتُ[٢٢] حَلوبة[٢٣] مَالِك فقد لاذ

(١) معاناته. (٢) تمرنت. (٣) اختارت.
(٤) عاليات. (٥) جمع فضيلة: الدرجة العالية.
(٦) جمع فاضلة: النعمة الجميلة. (٧) خالي.
(٨) بكسر الواو: جراب الزاد. (٩) ظاهر.
(١٠) فناء الزاد والمال. (١١) بضم الباء: المؤنة القليلة.
(١٢) القليل القليل ممّا يؤكل. (١٣) حبال الخيمة. (١٤) ألبسنيه قميصاً.
(١٥) جلده. (١٦) مصائبها. (١٧) قبورها.
(١٨) يكثر. (١٩) بنعمة. (٢٠) عطائك.
(٢١) إحسانك. (٢٢) استحلبت. (٢٣) ما تحلب.

obeikandl.com

غيري بجاهك. ما يَمَّمْت[١] غيرَك، وكيف يَقصد النَّهر من جاوز البحرَ ويحتاجُ إلى النّجم من يَسْري في ضوءِ البدر، فأستهِزُّ عطف[٢] جُودك وأستمطرُ سحاب كرمك. كيف وأنت قِبلة المعروف وملاذُ الملهوف، إليك تُشدُّ الرّحال وبك تُناط الآمال، أولياؤُكَ منك في ظِلّ ممدود وهنَاء وسُعود. أفأنت الشّمس عمّت بالإشراق أو الغيث والَى الاندفاق. لكن:

[المجتث]

مَنْ قاسَ جَدْواك يوماً بالسُّحبِ أخطأ مدْحَك
فانُّحبُ تُعطي وتَبكي وأنت تُعطي وتضحك

نَسَبُ الكرم بك عَريقٌ وروض المجد أنيقٌ. أصلٌ راسخٌ وفرعٌ شامخ، تهتزّ للمكارم اهتزاز الحُسام وتَثبُتُ أمامَ الشّدائد بثَغْرٍ بَسام.

[الطويل]

تراه إذا ما جئتهُ مُتَهَلّلاً كَأَنّك تعطيه الذي أنتَ سائلهُ

حكّمتَ الآمالَ في أموالك واستَعبدت الأحرار بفعالك. ينَابيع الجُود من أناملك تَتفجَّر وربيع السّماح بك ضاحكٌ لا يَضجَر.

فلا زِلْتَ مولايَ ممتّعاً بشرف سجاياك وشِيمك مُستمداً الشكر من غِرَاسِ نعمك، ولا زالَت الأنام تنتفع بتلك الشّيَم وتجْني ثِمارَ ذلك الكرم، ودُمتَ للمكارِم بدرَ تِمّ لا يناله خُسوف وشمسَ فضلٍ لا يَلْحقُها كسوف. أطال الله لك البقاءَ كتطول يديك بالعطاء، آمين.

استمناح رجل لعبد الملك بن مروان:

وفَدَ رجل من بَني ضَبّة على عبد الملك بن مَرْوان فقال:

[الكامل]

والله مَا نَدْري إذَا ما فاتَنا طَلَبٌ إليكَ من الذي نَتَطلَّبُ؟
فلقد ضَرَبْنا[٣] في البلاد فلم نَجْد أحداً سِوَاك إلى المكارِم يُنسَبُ
فاصْبر لعادتنا التي عوّدتنا أوْ لا، فأرشدنا إلى مَنْ نذهبُ؟

(١) ما قصدت. (٢) جانب. (٣) ضرب في الأرض: سافر.

فقال عبد الملك: إليّ! إليّ! وأمر له بألف دينار، ثم أتاه في العام المقبل فقال:

[الطويل]

يَربُّ[١] الذي يأتي من الخير أنه إذا فعلَ المعروف زاد وتَمَّما
وليس كبانٍ حينَ تَمّ بناؤه تَتَبّعه بالنقْض حتى تَهدّما

فأعطاه ألفي دينار. ثم أتاه في العام الثالث فقال:

[الطويل]

إذا استمطروا كانوا مَغَازير[٢] في الندى يَجودُون بالمعرُوفِ عوداً على بَدْءِ

فأعطاهُ ثلاثة آلاف دينار.

استمناح العتّابي لأحد أصدقائه

كتب كلثوم[٣] بن عمرو العتّابي إلى صديق له:

أمَّا بَعْدُ ـ أطال الله بقاءك، وجعله يمتد بك إلى رضوانه والجَنَّة ـ فإنك كنت عندنا رَوضةً من رياض الكَرم، تبتهج النّفوس بها، وتستريح القلوب إليها، وكُنا نُعفيها من النُّجعة[٤] استماماً لزَهْرتها، وشَفقة على خُضْرتها، وادّخاراً لثمرتها، حتى أصابتنا سَنَةٌ كانت عندي قطعةً من سِني يوسف، واشتد علينا كَلَبها[٥]، وغابت قِطَّتها وكذَبتنا غُيُومُها، وأخْلفَتنا بُروقُها، وفقدنا صالح الإخوان فيها، فانْتَجَعْتُك،

(١) رب: زاد وأصلح.

(٢) أغزر المعروف: جعله غزيراً. والمغازير لا يكون إلا جمعاً لمغزار أو مغزير من صيغ المبالغة ولم أجدهما في اللسان والقاموس، وفي المخصص سحابة مغزار: غزيرة فيكون جمعاً لمغزر.

(٣) من سلالة عمرو بن كلثوم صاحب المعلقة، وكان شاعراً مترسلاً بليغاً مطبوعاً متصرفاً في فنون الشعر من شعراء الدولة العباسية ومن شعره في الشكر: [المتقارب]

فلو كان للشكر شخص يبين إذا ما تأمله الناظر
لمثلته لك حتى تراه لتعلم أني امرؤ شاكر

وله مع الرشيد والمأمون والبرامكة أخبار ونوادر.

(٤) النجعة: طلب الكلأ من موضعه.

(٥) الكَلَب: القحط وبلاء الشتاء ومرض يصيب الكلاب.

وأنا بانْتِجاعي إيَّاك شديد الشَّفَقة عليك، مع عِلمي بأنك موضع الرَّائد[١]، وأنك تُغَطِّي عين الحاسد، والله يعلم أني ما أعُدُّك إلا في حومة[٢] الأهل، واعلم أن الكريم إذا استحيا من إعطاء القليل ولم يُمكنه الكثير لم يُعْرف جودُه ولم تَظهر هِمَّته. وأنا أقول في ذلك[٣]:

[البسيط]

إذا تَكَرَّمْت عن بذل القليل ولم ... تَقْدِر على سَعَةٍ لم يَظْهَر الجودُ
بُثَّ النَّوال ولا تَمْنَعك قِلَّته ... فكلّ ما سَدّ فقراً فهو محمودُ

قيل: فشاطره جميع ماله.

استمناح أعرابية لعبد الله بن أبي بكرة:

دخلت أعرابيَّة على عبد الله[٤] بن أبي بَكْرَة بالبصرة، فوقفت بين السّماطين[٥] فقالت: أصلح الله الأمير وأمْتَع به. حَدَرَتْنَا إليك سَنَةٌ اشتدَّ بلاؤها، وانكشف غِطاؤها، أقودُ صِبية صغاراً، وآخرين كباراً، في بلدة شاسعة، تخفِضُنا خافضة، وتَرْفعُنا رافعة، لِملمَّاتٍ من الدَّهر أذهَبنَ لحمِي وبَرَينَ عَظْمِي وَتَركنَني وَالهَةً[٦] أدُور بالحضيض، وقد ضاق بيَ البلدُ العريض. فسألتُ في أحياء العرب، مَن الكاملةُ فضائلهُ، المُعْطي سائله، الكافي نائله؟ فدُلِلْتُ عليك ـ أصلحك الله تعالى! ـ وأنا امرأة من هَوازن[٧]، قد مات الوالد، وغاب الرافِد وأنْتَ بعد الله غِياثي ومنتهى أمَلي، فاصنع بي إحدى ثلاث خصال: إمَّا أن تَرُدَّني إلى بَلدي، أو تُحْسِنَ صَفِدي[٨]، أو تُقيمَ أودِي[٩].

---

(١) الرائد: الطالب. (٢) الحومة هنا: الجماعة والطائفة.
(٣) كذا ذكر القالي في أماليه وقد حذفنا من روايته ثلاثة أبيات قليلة الاتصال بالغرض. هذا والمعروف أن هذه الأبيات لشاعر يسمى حماد عجرد أو لبشار بن بُرد لا للعتابي، وتبعة هذا على القالي.
(٤) هو ابن أخي زياد بن أبيه. (٥) السماط: الصف.
(٦) الوالهة والولهى: الشديدة الحزن.
(٧) هوازن قسم من قيس، وعبد الله بن أبي بكرة نسبه في ثقيف وهم من هوازن فهي تريد أن تميله بعاطفة القرابة.
(٨) الصفد: العطاء. (٩) الأود: الاعوجاج.

فقال: بل أجمَعُهن لك، ولم يزل يجري عليها كما لم يجرِ على عياله حتى ماتت!

استمناح حكيم فارسي للمهلب:

قال الهيثم بن عَديّ: قدم حَكيمٌ من حُكماء أهل فارس على المُهلّب فقال: ـ أصلح الله الأمير! ـ ما أشْخَصَتْني الحاجَةُ، وما قَنِعْتُ بالمُقام، ولا أرضى مِنْك بالنَّصْف إذ قمتُ هذا المقام.

قال: ولِمَ ذلك؟ قال: لأن الناسَ ثلاثة: غَنيٌّ وفقير ومُستزيد؛ فالغَني مَن أعطي ما يستحقّه، والفقير من مُنع حَقه، والمستزيد الذي يطلب الفضل بعد الغِنى. وإني نظرت في أمرك فرأيتُ أنك قد أدَّيت إليّ حقي، فتاقت نفسي إلى استزادتك، فإن منعتني فقد أنْصفْتني، وإن زدتني زادت نعمتك عليَّ.

فأعْجب المهلب كلامُه وقضى حوائجه.

تلطف رجل من أهل الشام في استمناح المنصور:

قدم رجل من أهل الشام على أبي جعفر المنصور فتكلم معه كلاماً حسناً، فقال له أبو جعفر: حاجتك؟ فقال: يُمْلِك الله يا أمير المؤمنين.

قال: حاجتك، فإنه ليس كلَّ ساعة يمكنك هذا ولا تُؤمر به. فقال: والله ما أستقْصر عمرك، ولا أخَاف بُخلك، ولا أغتنم مالكَ، وإن سؤالك لشرَفٌ، وإن عطاءك لزَينٌ، وما بامرئ بَذل وجهه إليك نقْصٌ ولا شَينٌ. فأمر له المنصور بمنحة سنيَّة.

وقد ألمَّ الرجل في أكثر معانيه بقول أمَية بن أبي الصّلت يستمنح عبد الله بن جُدْعان[1] القرشي:

[الطويل]

عطاؤك زَين لامرئ إنْ حبوتهُ ببذل وما كلّ العطاء يَزينُ
وليْسَ بشين لامرئ بذل وجهه إليك كما بعض السُّؤال يشِينُ

(١) عبد الله بن جدعان من تيم رهط سيدنا أبي بكر الصديق وهو جواد مشهور، وكان أمية مداحاً له منقطعاً إليه توفي أمية بين يدي الإسلام.

ومن ألف الاستمناح قول أمية يخاطب ابنُ جُدْعان أيضاً:

[الوافر]

أأذكر حاجتي أم قد كفاني ... حِبَاؤك إن شيمَتك الحباءُ
وعلمك بالأمور وأنت قَرم ... لك الحسب المهذَّب والسَّنَاءُ[1]
كريم لا يُغَيِّرُه صباح ... عن الخُلْق الجميل ولا مَسَاءُ
تُبَاري الرِّيح مكْرُمة وَمجْداً ... إذا ما الكلبُ أجْحَره الشِّتاءُ[2]
إذا أثنى عليك المرء يوماً ... كفاه مِن تَعَرُّضه الثناءُ[3]

استمناح عبد العزيز بن زرارة لمعاوية:

قال العتْبي: وفدَ عبدُ العزيز بن زرارة على معاوية، فلما أذِن له وقف بين يديه وقال: يا أمير المؤمنين! لم أزل أهزُّ ذوائب[4] الرحال إليك، إذ لم أجد مُعَوّلاً إلا عليك. أمْتَطي الليل بعد النهار، وأَسِمُ[5] المجَاهل بالآثار يَقُودُني إليك أمَل وَتَسوقني بَلْوَى، والمجتهد يعْذَر، وإذ قد بَلَغتك فقطني[6]. فقال معاوية: احْطُط عن راحلتك.

ولما وَلّى الخليفةُ المُهتَدِي سُليمانَ[7] بن وَهْب وزارته قامَ إليه رجلٌ من ذوي حُرْمته فقال: أعزّ الله الوزير! ـ أنا خادمك المؤمّل لِدَوْلتِك، السعيد بأيامك، المنطوي القلب على وُدّك، المنشُور اللسان بمدحك، المُرْتَهَن بشكر نعمتك، وقد قال الشاعر:

[البسيط]

وفَيْتُ كلّ صديق وَدّني ثمناً ... إلا مُؤمّل دوْلاتي وأيّامي

---

(١) القرم: الفحل والسيد، والسناء: الشرف، والسناء: الضوء.
(٢) أجحره: ألجأه.
(٣) يقول: إنك لا تجشم المحتاج مؤونة السؤال لأنك تستغني بثنائه عن استجدائه.
(٤) الذوائب: جمع ذؤابة وهو الجلدة المعلقة على آخرة الرحل.
(٥) وسم الأرض كوعد: ترك فيها أثراً.
(٦) قطني: اسم الفعل بمعنى يكفيني، ومثلها قدني.
(٧) سليمان بن وهب من كبار وزراء الدولة العباسية، وقد تقدم ذكر ابنه عبيد الله وحفيده القاسم. توفي سليمان سنة ٢٧٢هـ.

فـإنَّـنـي ضـامـن أن لا أكـافـئَـه إلا بـتـسـويـغـه فـضـلـي وإنـعـامـي[١]

وإني لكما قال القيسي[٢] : ما زلت أمتطي النهار إليك وأستدل بفضلك عليك، حتى إذا جن الليل فغض البصر، ومحا الأثر، قام الرجل يدني سائر أملي والنفس راغبة والاجتهاد عاذر وإذ قد بلغتك فقدني. فقال سليمان: لا عليك فإني عارف بوسيلتك محتاج إلى اصطناعك وكفايتك، ولست أؤخر عن يومي هذا توليتك ما يحسن عليك أثره، ويطيب لك خبره.

وكتب رجل من أهل البصرة إلى أخ له:

أما بعد: فإنه يسهل علي طلب الحاجة أمران فيك، وأمران لي، وأمر من قبل الله وبه تمامها، فأما اللذان فيك فاجتهادك في النجح، ومبالغتك في الاعتذار، وأما اللذان لي فإني أضيق عليك بعذري، ولا أصون عنك شركي، وأما الذي من قبل الله عز وجل فإيماني بأن كل مقدر كائن. والسلام.

وكتب المرحوم السيد مصطفى لطفي المنفلوطي:

أنا إن سألتك حاجتي ـ أعزك الله! ـ وبسطت إليك يد رجائي فقد طرقت باب المكارم، واستمطرت غيث المراحم، ورجوت واحد الدهر همة وحزماً، ونادرة الوجود كرماً وفضلاً. فإن أنجزتها فليست أولى الهمم، ولا واحدة النعم، فلكم سبقت إليّ منك أياد تخرس دونها ألسنة الشكر، وتضيق بها جرائد[٣] الحصر. ولقد مثلت ـ أيدك الله! ـ بين أن أستشفعَ إليك بذوي الجاه عندك، والزلفى[٤] لديك، وبين[٥] أن أكِل ذلك إلى كرمك وفضلك وما طبعت عليه نفسك الشريفة من خلال الخير وسجايا البر، فرأيت أن الثانية بك أحرى وبفضلك أجدر. والسلام.

---

(١) سوّغه: أناله.

(٢) يريد بالقيسي عبد العزيز بن زرارة المتقدم لأنه من بني عامر ثم من قيس، وقدْ ذكر عبارته بمعناها لا بلفظها.

(٣) الجرائد: جمع جريدة وهي السفة وكان يكتب فيها، فالمراد الصحائف.

(٤) الزلفى: القربة والمنزلة.

(٥) كرر الكاتب بين توكيداً، وهو جائز مسموع وأنا أستحسنه إذا طال ما قبل المعطوف كما هنا.

استمناح الصابئ[١] لأحد الرؤساء

وكتب أبو إسحاق الصابئ إلى بعض الرؤساء:

قد جرت العادة ـ أطال الله بقاء الأمير! ـ بالتمهيد للحاجة قبل موردها وإسلاف[٢] الظنون الداعية إلى نجاحها. وسالك هذه السبيل يسيء الظن بالمسؤول، فهو لا يلتمس فضله إلا جزاء، ولا يستدعي طوله إلا قضاء. والأمير بكرمه الغريب ومذهبه البديع، يُؤثر أن يكون السلف له، والابتداء منه، ويوجب على المهاجم برغبته إليه حق الثقة به. فالحمد لله الذي أفرده بالطرائق الشريفة، ووحده بالخلال المنيفة، وجعله عين زمانه البصيرة، ولمعته[٣] الباقية المنيرة.

وكتب محمد بن عياد إلى جعفر بن محمد وزير المعتز وكان يتقرب إليه:

ما زلت ـ أيدك الله تعالى! ـ أذم الدهر بذمك إياه، وأنتظر لنفسي ولك عقباه، وأتمنى زوال من لا ذنب له، إلى عاقبة محمودة تكون بزوال حاله، وأترك الإعذار[٤] في الطلب على الاختلال[٥] الشديد ضناً بالمعروف عندي إلا عن أهله، وحباً لرجائي إلا عن مستحقه.

ومن أرقّ الاستماحة[٦] ما كتبه عبيد الله بن طاهر إلى سليمان بن وهب:

[الطويل]

أبى دهرنا إسعافنا في نفوسنا وأسعفنا فيمن نُحب ونكْرِم
فقلتُ له: نُعْماك فيها أتمها ودَعْ أمرَنا إن المهِم المقَدّمُ

فأعجب سليمان بلطف طلبه في تهنئته وقضى حوائجه.

وقال الأعرابي لرجل: ما اتهمت حسن ظني بك، منذ توجه رجائي نحوك، ولا قعدت بجد قاتل[٧] باعتمادي عليك، ولا استدعتني رغبة عنك إلى من سواك، ولا أراني الاختيار غيرك عوضاً منك.

---

(١) الصابئ: هو أبو إسحاق إبراهيم بن هلال كاتب ديوان الإنشاء عند الخليفة وعند عز الدولة بن بويه وهو معدود من رجال الكتابة توفي سنة ٣٨٤هـ.
(٢) الإسلاف: التقديم.
(٣) اللمعة: البقعة والقطعة من الجسد تبرق.
(٤) أعذر: بالغ.
(٥) الاختلال: الاحتياج.
(٦) الاستماحة: الاستمناح.
(٧) الجد: الحظ. والقاتل: المخطئ.

obeikandl.com

وكتب البديع الهمذاني في بابه إلى بعض أصحابه:

لك ـ أعزك الله! ـ عادة فضل، في كل فضل، ولنا شبه مقت، في كل وقت، ولعمري إن ذا الحاجة مقيد[١] الطلعة، ثقيل الوَطأة، ولكن ليسوا سواء.

الفصل الثالث: في رسائل الشكر

كتب أبو منصور الثّعالبي المتوفى سنة ٤٢٩هـ:

الشكر تُرْجُمان النية ولسانُ الطّوِيَّة، وشاهدُ الإخلاص وعُنوان الاختصاص. عندي من إنعامه وخاصّ بره وعامّه، ما يستغرق منه الشكر ويستنفذُ قُوّة النَّشر، شكر الأسير لمن أطْلَقَهُ والمملوك لمن أعتقهُ، شكر كأنفاس الأحباب في الأسحار أو أنفاس الرياض غبّ الأمطار.

وكتب الحسن بن وهب المتوفى سنة ٤٨٢هـ:

مَن شكركَ على دَرجةٍ رفعتهُ إليها أو ثَرْوَة أقدَرتَهُ عليها، فإنّ شكري لك على مُهجَةٍ أحييتَها وحشاشةٍ أبقيتَها، ورَمَق أمسكتَ به وقُمتَ بين التّلف وبينه. فلكلّ نِعمة من نِعَم الدُّنيا حَدٌّ تنتهي إليه ومدى تَقِفُ عندَه وغايةٌ من الشكر لا يَسْمو إليها الطَّرْف، خَلَا هذه النّعمة التي فاقت الوَصف وأطالتِ الشكر وتَجاوَزَت قدْره.

وأنتَ من ورَاء كلّ غاية رَددتَ عَنّا كيد العدُوّ وأرغمْتَ أنف الحسود. فنحن نَلْجأُ منك إلى ظِلّ ظَليل وكنَف[٢] كريم. فكيف يَشكرُ الشّاكر وأين يبلُغُ جُهْد المجتهد؟

وكتب الأمير أبو الفضل الميكالي المتوفى سنة ٤٣٦هـ:

فأمّا الشكرُ الذي أعارَني رِداءَهُ وقلّدَني طَوْقه وسناءَه[٣] فهيهات أن ينتَسب إلّا إلى عاداتِ فضله وأفضاله أو يَسيرَ إلّا تحتَ رَايات عُرْفه[٤] ونوَاله[٥]. وهو ثوبٌ لا يَحلَى بذكرهِ طِرازهُ واسمٌ له حقيقته ولسواه مَجازُه. ولو أنه حين ملَك رِقّي بأياديه وأعجَزَ وُسْعي عن حقُوقِ مكارمه ومساعيه خلّى لي مذْهب[٦] الشكر ومَيدانَهُ ولم

---

(١) المقيت والمقوت: البغيض والمكروه.

(٢) جانب. (٣) رفعته. (٤) معروفه.

(٥) عطائه. (٦) مذهب: سبيل أو طريق.

يُجاذْبني زمامهُ وعنَانَه لتعلَّقْت في بُلوغ بعض الواجب بعُرْوَة طَمع ونهضْتُ فيه ولو على وهْنٍ وظَلَع[١]. ولكنّه يَأْبى إلَّا أن يَسْتوْلي على أمد الفضائل ويَتَسَنَّم[٢] ذُرا[٣] الغوارب[٤] منها والكواهل[٥]، فلا يَدَعُ في المجد غَايةً إلَّا سَبقَ إليها فارِطاً[٦] وتخلَّف سِواه عنها حَسيراً[٧] ساقطاً، لتكون المعالي بأسرها مجموعةً في مُلكه منظومةً في سلكه خالصةً له من دعوَى القَسْم وشِركه[٨].

وكتب أستاذي الحكيم الشيخ محمد عبده[٩] يشكر للمرحوم حافظ بك إبراهيم تعريبه كتاب «البؤساء»:

لو كان لي أن أشكرك لظنّ بالغتَ في تحسينهِ أو أحمدَك لرأي لك فينا أبدعتَ في تزيينهِ. لكان لقلمي مطمَعٌ أن يدنُوَ من الوَفاءِ بما يوجبهُ حقّك ويجري في الشكر إلى الغاية كما يطلبهُ فضلُك. لكنّك لم تَقِف بِعُرْفك[١٠] عندنا بل عمّمت بهِ مَنْ حولَنا وبسطتَه على القَريب والبعيد من أبناء لُغتنا. زَفَفْتَ إلى أهل اللغة العربية عَذْراء من بنات الحكمة العَرْبيّة سَحرتْ قومَها ومَلكتْ فيهم يَومها، وَلا تَزال تُنبّه منهم خامداً وتَهُزُّ فيهم جامداً بل لا تنفك تُحيي من قلوبهم ما أماتتْه القَسْوة وتقُوم من نفُوسهم ما أعوزت فيه الأسْوة[١١]. حِكمة أفاضها الله على رَجل منهم فهدى إلى التقاطها رَجُلاً منَّا، فجرَّدها من ثوبها الغريب وكساها حُلّةً من نَسْج الأديب، وجلاها للنَّاظر وحلّاها للطَّالب، بعد ما أصْلَحَ من خَلْقها وزَان منْ مَعارفها، حتى ظَهرت مُحبّبة إلى القلوب، رَشيقة[١٢] إلى مؤانسة البصائر، تَهشّ[١٣] للفَهم

---

(١) الوهن والظلع: كلاهما الضعف. (٢) يعلو
(٣) أعالي. (٤) جمع غارب: ما بين الظهر والعنق.
(٥) جمع كاهل: ما بين الكتفين. (٦) سابقاً. (٧) كليلاً.
(٨) مشاركته.
(٩) هو الأستاذ الإمام المرحوم مفتي الديار المصرية سابقاً ولد سنة ١٢٥٨هـ وتوفي سنة ١٣٢٣هـ وكتب هذا المكتوب شكراً لمترجم كتاب «البؤساء» وقد نظم قصيدة أثناء مرضه منها: [الطويل]

ولست أبالي أن يقال محمد ابل أو اكتظت عليه المآثم
ولكن ديناً قد أردت صلاحه أحاذر أن تقضي عليه العمائم

(١٠) المعروف. (١١) بالكسر والضم: القدوة.
(١٢) لطيفة. (١٣) بفتح التاء: تصل إليه بسهولة.

وتَبَش[١] للّطف المذُوق وتُسابِق الفكرَ إلى موطن العلم، فلا يكادُ يلْحظُها الوهم إلا وهي من النّفس في مكان الإلهام.

حاوَلَ قومٌ من قبلك أن يَبْلُغوا من ترجمة الأعجم مَبْلغك فَوَقَف العجز بأغلبهم عند مبتدأ الطّريق، ووصل منهم فريق إلى ما يحبُّ من مَقصِده ولكنّه لم يُعْن بأن يُعيد إلى اللغة العربية ما فقدت من أساليبها ويردَّ إليها ما سلبهُ المعتَدون عليها من متانة التَّأليف وحُسْن الصّياغة وارتفاع البيان فيها إلى أعلى مراتبه. أمّا أنت فقد وفّيْت من ذلك مالا غاية لمزيدٍ من بعده ولا مَطمَع لطالب أنْ يَبْلُغ حده.

ولو كنتُ ممن يقول بالتَّناسخ لَذهَبْتُ إلى أن روح «ابن المُقَفّع» كانت من طيّبات الأرواح، فظهرتْ لك اليوم في صورَة أبدَع ومعنى أنفع. ولعلك قد سَنَنْتَ بطريقتك في التّعريب سنّة يعمل عليها من يحاوله بعد ظهور كتابك، ويحملها الزّمان إلى أبناء ما سُتقبَلُ منه، فتكون قد أحسنت إلى الأبناء كما أجملتَ في الصُّنع مع الآباء، وحكَمت لدنه العربية أن لا يدخلها بعدُ مِن العُجْمة ما هو في أسماء الأماكن والأشخاص لا أسماء المعاني والأجناس. ومثلي مَنْ يَعْرف قَدْر الإحسان إذا عَمَّ ويُعلي مكان المعروف إذا شمَل، ويتمثّل في رأيه الحكيم العربي أبا العلاء المعري بقوله:

[الوافر]

ولو أني حُبِيتُ الخلدَ فرْداً لَمَا أحببتُ بالخُلْدِ انفرادا
فلا هَطَلت علي ولا بأرضِي سَحائبُ لَيْسَ تنتظِم البِلَادَا

فما أعجزَ قلمي عن الشكر لك وما أحقّك بأن ترضى من الوَفاء باللقاء!

وكتب أيضاً في الشكر مع توثيق المودة إلى بعض أصحابه:

لكَ في قلوبنا من المودّة ما يزكيه سنَاؤك وفي منَاطقنَا من الحمد ما يُوجبه كمالُكَ وفي صُدورنا من الإجلال ما يرفعهُ بَهاؤك، وما بينَنا من المودَّة لا تحدُّه مُدة ولا تخلُق له جِدَّة نعيذُه من حَاجة للتّجْديد واستدعَاء للمزيد. فلا المواصَلة تُربيه ولا المجاهلة تُوهِيه. نَعَمْ إن ما يحفظ لك في الأنفس هو تجلّي فضلك ومثالُ علائِك ونُبلك، وذلك الخالدُ بخلودِ الأرواح البَاقي في تفَاني الأشباح.

---

(١) بفتح الباء: من البشاشة.

وبَعدُ: فقَد تلقيتُ منك كتاباً يبوحُ بسرّ المحبّة وينشر طيّ الصّداقة فيه تِبيان وُجدانِك ممّا وَجَدْنا وتأثّركَ على ما فقدنا، فكان نبأ عما نعلمُ وقضاء بما نحكمُ، ولكن شكرْنا لك فضلَ المرَاسلة وأريحيّة المجاملة، والله يتولّى إيفاءك مثوبةً تكافئُ وفاءك.

وكتب أيضاً في الشكر لآخر:

لو كان في الثّناء ومُلازمةِ الدّعاء وحفظِ الجميل والقيامِ بالخدمة جُهدَ المستَطيع ما يَفي بشُكرِ مَنْ يفتتح باب المحبّة ويَبدأ بصنائع المعرُوف، لكنت ـ والحمد لله ـ من أقدر النّاس عليه. ولكنْ أنّى يكونُ في ذلكَ وفاءٌ والمحبة سِرُّ نظام الأكوان، والإحسانُ قِوامَ عَالَمَ الإمكان، والقائمُ على كُنْهِ جميعهِ قَيُّومُ السَّموات والأرض، والمفتتِحُونَ لأبواب العرف على هذه النسبة الجليلة منه فليس لي إلا أن ألجأ إلى الله في مكافأة فضلكم على ما كان منكم أيام الإقامة بينكم، ثم أُسَلّي نفسي عن عجزي بما أَتَخَيَّلُ أن كرمكم سيروي:

[المتقارب]

سيكفي الكريم إخاءُ الكريم ويقنع بالودّ منه نوالا

وبعدَ هذا أرجو عفوكم عن التّقصير في المبادرة إلى المكاتبة لأنّي شُغلت بما شغلني عن نفسي، ولكن زالت العوارض ـ والحمد لله ـ وفاتني لهذا العذر تهنئتكم بالعيد. وإنما للمؤمن في كل يوم بربّه عيد، فنهنّئكم برضاء الله عنكم وتقبّله صالح الأعمال منكم. وسلامي على نجلكم ومن ينتمي إليكم.

الفصل الرابع: في رسائل النصح والمشورة

كتب بديع الزمان الهمذاني المتوفى سنة ٣٩٨هـ:

[مجزوء الكامل]

اسمَعْ نصيحةَ ناصِحٍ جَمَعَ النَّصيحَة والْمِقَه[1]
إيّاك واحْذرْ أنْ تكو نَ مِنْ الثّقَاتِ عَلى ثِقَه

(١) المحبة.

صدَقَ الشاعرِ وأجاد. وللثّقات خيانة في بعض الأوقات: هذه العَينُ تُريك السَّرابَ[١] شَراباً وهذه الأذُنُ تُسْمِعُك الخطأ صوَاباً. فلست بمعذور إن وَثِقْت بمحذور. وهذه حالةُ الواثق بعَينه السامعِ بأُذُنه. وأرى فلاناً يكْثِر غشْيانك[٢] وهو الدنيءُ دُخْلَتُهُ[٣] الرَّديءُ جُملَتُهُ النّيِّئ وُصلَتُهُ الخَبيثُ كلِمتُهُ، وَقد قاسَمتَه في زِرّك[٤] وجعلتَه موضعَ سرّك، فأرني موضعَ غلطك فيه حتى أُريك موضعَ تَلَافيه[٥] أفظاهرُهُ غَرَّك أم باطنهُ سَرّك؟

يا مولاي، يُورِدُك[٦] ثم لا يُصدِرُك[٧]، ويُوقِعُك ثم لا يَعذُرُك. فاجتنِبه ولا تَقرَبه. وإن حضر بابَك فاكنُسْ جنابَك[٨]. وإن مسّ ثوبك فاغسلْ ثيابك. وإن لَصِقَ بجلدِك فاسلُخْ إهابك، ثم ٱفتتح الصَّلاة بلَعْنهِ، وإذا ٱستعذت بالله من الشَّيطان فَاعْنِهِ[٩].

وكتب الإسكندر المقدوني إلى أستاذه الحكيم أرسطو يستشيره فيما يفعله بأبناء ملوك فارس بعد أن قتلهم آباءهم وتغلّب على بلادهم:

عليكَ أيُّها الحكيمُ منا السّلامُ. أمّا بعدُ، فإنَّ الأفلَاك الدَّائرةَ والعلل السَّماويّة وإنْ كانتْ أسْعدَتْنا بالأُمور التي أصبَح الناسُ لنا بها دائنين فإنّا مُضْطَرُّون إلى حكمتك غيرُ جاحدينَ لفضلك والاجتباء[١٠] لرأْيك، لما بَلَوْنا منْ إجْدَاء[١١] ذلك علينا وذُقْنا منْ جَنَى[١٢] مَنْفعته حتى صارَ ذلك وبنُجُوعه[١٣] فِينا وَترسُّخِه في أذهاننا كالغِذَاء[١٤] لنا. فما نَنْفكُّ نُعَوّل عليه ونـْتمِدُّ منه استِمدادَ الجدَاول من البِحَار، وقَد كان مما سَبَقَ إلينا من النَّصر وبلَغنا من النّكاية في العَدوّ ما يَعْجِزُ القولُ عن وَصفه والشّكُر على الإنعام بهِ.

وكان منْ ذلك أنَّا جَاوَزْنا أرضَ سُورِية والجزِيرةَ إلى أرْض بابل وفارس، فلمَّا نزلنا بأهلها لم يكن إلَّا ريثَمَا[١٥] تَلقَّانا نفرٌ منهم يرأس مَلِكَهُم هديّة وطلباً للحُظْوة

(١) ما تراه نصف النهار عند اشتداد الحر كالماء يلصق بالأرض وهو مثل في المخادع والكاذب.
(٢) إتيانك. (٣) بتثليث الدال: نيته. (٤) قوام القلب.
(٥) تداركه. (٦) يوصلك إلى مكان ورود الماء.
(٧) لا يرجعك. (٨) الفناء والناحية. (٩) اقصده.
(١٠) الاختيار. (١١) إعطاء. (١٢) ما يجنى ويؤخذ من الثمر.
(١٣) بتأثيره. (١٤) بكسر الغين ما يتغذى به. (١٥) مقدار ما.

عندنا فأمرْنا بصلْب من جاء به وشُهْرَته لسوء بلائه وقلَّة ٱرْعِوَائه وَوَفائه، ثم أمَرْنا بجمع مَنْ كان هنالك من أولاد ملوكهم وأحرَارهم وذَوي الشّرَف منهم، فرأينا رجالاً عظيمةً أجسامُهُم وأحلامهُم[١]، حاضرة ألبابُهم وأذهانُهم، رَائعة[٢] مناظرُهم ومناطِقُهُم دَليلاً على أنَّ وَرَاء ذلك ما لم يكُن معهُ سبيلٌ إلى غلبتهم لولا أنَّ القضاءَ أدَالنا منهُم وأظهرَنا[٣] عليهمْ. ولم نَرَ بعِيداً من الرأي في أمرهم أنَّ نَسْتَأصِلَ[٤] شَأفَتَهُم[٥] ونَجْتَثَّ[٦] أصْلَهم ونُلْحِقَهمْ بمن مضَى من أسلافهمْ لِتَسْكنَ القلوبُ بذلك إلى الأمن من جَرائرِهم[٧] وبوائقهم[٨]، فرأينا أن لا نَعْجل ببادِرة[٩] الرَّأي في قتلهم دون الاستظهار بمَشُورَتك فيهم.

فارفَع إلينا رأْيَكَ في ما استَشرْناك فيه بَعْد صِحَّته عندك وتقْليبك إيَّاه بِجَليّ نظرِك.

والسَّلام على أهل السلام فلْيكنْ علَينا وعليك.

فكتب أرسطو المتوفى قبل الميلاد سنة ٣٢٢ إلى الإسكندر المقدوني:

إنّ لكلّ تُرْبة ولا محالةَ قسماً من كل فَضيلةٍ، وإنّ لِفارِس قِسْمها من النَّجْدة والقوّة. وإنك إنْ تقْتل أشرافَهم تُخلّف الوُضعاء منهم على أعقابهم وتورث سفلَتهم[١٠] منَازل علْيتهم وتُغلّب أدنِياهم على مراتب ذَوي أخطارهم. ولم تُبْتل الملوكُ قط بِبلاء هو أعظمُ عليهم من غَلبةِ السّفلة وذُلّ الوُجُوه. وٱحذر الحذر كلّه أن تُمكّن تِلك الطّبقة من الغَلبةِ فإنّهم إن نجا منهم ناجٍ على جُندك وأهلِ بلادك دهمهمْ ما لا رَويّة فيه ولا منفعة معه. فانصرفْ عن هذا الرّأْي إلى غيرِهِ وٱعمِدْ إلى مَنْ قبلك من العُظَماء والأحرار فوزّع بينهم مملكتَهم وألزِمْ ٱسم الملك كلّ مَنْ وَلّيتَه منهم ناحية، واعقد التَّاجَ على رأسه وإن صَغُرَ مُلكُه فإن المُتَسَمّي بالملك لازمٌ لاسمهِ والمعقودَ له التَّاجُ لا يخضَعُ لِغيره، ولا يلبث ذلك أن يُوقع بين كلّ ملك

(١) جمع حلم بكسر الحاء: العقل، وبضمها: المنام. (٢) زائدة.
(٣) جعل لنا الكرة عليهم. (٤) نقطع. (٥) عداوتهم.
(٦) نقتلع. (٧) كناية عن شرورهم. (٨) الدواهي.
(٩) ما يظهر عند الغضب.
(١٠) بفتح السين وكسر الفاء: السقاط من الناس وبعض العرب يخفف فينقل كسرة الفاء إلى السين.

منهم وصاحبه تَدابُراً وتغالباً على المُلك وتفاخُراً بالمال والجُند حتى ينسوْا بذلك أضغانهم عليك، وتعود بذلك حربهمْ لك حرْباً بينهم. ثُمَّ لا يزدادُون بذلك بصيرةً إلَّا أحدثُوا هنالك اَستِقامةً لك فإن دنوْتَ منهم كانوا لك، وإن نأيتَ عنهم تعزّزُوا بك حتى يثبَ كلٌّ منهم على جاره باسمك. وفي ذلك شاغلٌ لهم عنك وأمَانٌ لأحداثهم بعدَك (وإن كان لا أمانَ للدّهر) وقد أدّيتُ للملك ما رأيتُهُ حظّاً وعليّ حقاً. والملكُ أبعدُ رَويَّةً وأعلى عَيناً فيما اَستعان بي عليه.

والسلام الذي لا انقضاء له ولا انتهاء ولا غايةَ ولا فناءَ فليكُنْ على الملك.

ومن رسالة للإمام علي المتوفى سنة ٤٠هـ:

دع الإسرافَ مُقتصداً واذكُرْ في اليومِ غَداً وأمسِكْ منَ المَال بقدْر ضرُورتك وقدّم الفَضْل[١] ليوْم حاجتك. أترجو أن يُعطيك الله أجرَ المتواضِعين وأنت عندَهُ من المتكبّرين؟ أو تطمعُ وأنت مُتمرّغ في نعيم تمنعه الضّعيف والأرْملة أن يُوجبَ[٢] لك ثواب المتصدّقين؟

وإنما المرءُ مَجْزيٌ بما أسلف[٣] وقادمٌ على ما قدّم. والسلام.

وكتب أيضاً كرم الله وجهه إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما:

أما بعدُ: فإنَّ المرءَ قد يَسُرُّه دَرَك ما لم يكن ليفْوتَه ويسُوؤُهُ فوْتُ ما لم يكن ليُدْركه. فليكنْ سرُورك بما نِلْتَ من آخرتك، وليكن أسَفكَ على ما فاتَ منها وما نِلْت من دنْياك فلا تُكْثر فيه فرحاً، وما فاتك منها فلا تَأْسَفْ عليه جزعاً وليكن همُّك فيما بعد الموت.

وكتب بطل الوطنية السيد عبد الله النّديم المتوفى سنة ١٣١٤هـ:

لا حوْلَ ولا قوَّة إلَّا بالله اشتَبَهَ المراقِبُ باللّاهِ[٤]، واستْبدِلَ الحُلْوُ بالمُرّ وقدّمَ الرّقيقُ على الحُرّ، وبيعَ الدُّرُّ بالخزَف والخزُّ بالخشْف[٥]، وأظهرَ كلُّ لئيمٍ كبْره

(١) ما فضل عندك من مال وأعمال فقدمه.
(٢) أن ومدخولها مجرور بحرف جر محذوف متعلق بتطمع.
(٣) قدمه في سالف أيامه.
(٤) باللاهي: الذي يكون ملهياً.
(٥) بفتح الخاء أو بضمها: الرديء من الصوف.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً﴾(١) سمعاً سمعاً فالوُشاة إن سعوا لا يعقلوا ﴿وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾(٢) فكيف تشترون منهم القار(٣) في صفة العَنبر و﴿قَدْ بَدَتِ(٤) الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾(٥) وكيف تسمعُ الأحباب لمن نَهَى منهم وزَجَر ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ(٦) مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ(٧) ﴿٤﴾﴾(٨) عَجِبْتُ لهم وقد دخلُوا دارنَا ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾(٩) ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾﴾(١٠) فقابلوهم بنبَال الطّرْد في الأعناق ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ(١١) فَشُدُّوا الْوَثَاقَ(١٢)﴾(١٣) أيدخلون بما لا ينفَع ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾(١٤) سيعلمون مقام الهُبوط والعُروج(١٥) ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾﴾(١٦) ويقولون إذا لم يَجِدُوا ملاذاً ﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾(١٧) فإنهم عزمُوا على الإقامة مُدّة ولو أرادُوا الخرُوج لأعدُّوا لهم عُدّة(١٨)، وأنت يا عزيز العليا ووحيد الدُّنيا قد بيّنتُ لك فِعلهم ﴿فَبِمَا(١٩) رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾(٢٠) ولكنهم طَمِعوا في عميم طَوْلك(٢١) ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا(٢٢) غَلِيظَ الْقَلْبِ(٢٣) لَانفَضُّوا(٢٤) مِنْ حَوْلِكَ﴾(٢٥) أتراهم يعقلُون كلامَك أم يَفهَمون؟ ﴿لَعَمْرُكَ(٢٦) إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ(٢٧) ﴿٧٢﴾﴾(٢٨). لهم قلوبٌ لا يَدْرُون بها للحَسَد قراراً ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾(٢٩) وإني قد شيّدْتُ(٣٠) لك بقلبي حِصْناً(٣١) صَعباً(٣٢) ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ(٣٣) وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ

---

(١) آل عمران: ١٣.
(٢) آل عمران: ١٨٨.
(٣) الزفت.
(٤) ظهرت.
(٥) آل عمران: ١١٨.
(٦) الأخبار.
(٧) النهي بشدة.
(٨) القمر: ٤.
(٩) يوسف: ١٠٥.
(١٠) الأنبياء: ١٢.
(١١) أكثرتم القتل فيهم.
(١٢) ما يربط به.
(١٣) محمد: ٤.
(١٤) النور: ٣٦.
(١٥) الطلوع.
(١٦) ق: ٤٢.
(١٧) الأنبياء: ٩٧.
(١٨) ما أعده الإنسان لحوادث الدهر من المال والسلاح.
(١٩) فبرحمة وما التوكيد وبالدلالة على أن لينه ما كان إلا برحمة من الله.
(٢٠) آل عمران: ١٥٩.
(٢١) إحسانك.
(٢٢) سيئ الخلق.
(٢٣) قاسيه.
(٢٤) لتفرقوا.
(٢٥) آل عمران: ١٥٩.
(٢٦) لحياتك واللام لتوكيد الابتداء والخبر محذوف تقديره تسمى.
(٢٧) يتحيرون.
(٢٨) الحجر: ٧٢.
(٢٩) الكهف: ١٨.
(٣٠) زينت.
(٣١) موضعاً حصيناً.
(٣٢) لا يقدر أحد أن يدخله والمراد المبالغة في تحصين المحبة.
(٣٣) لا يقدرون أن يعلوا ظهره لارتفاعه ونعومته.

نَقْبًا[١] ﴿٩٧﴾[٢] نسيت بالعاذل[٣] جميلَ الصَّوْت[٤] وأنكره ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ[٥]﴾[٦]. رَميتَ أيها العاذلُ بسيف الغَدْر في نحرك، ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ﴾؟ فإن لم ترْجعْ عن السّحر وفعله ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾[٧] كيف يسعى العاذلُ بين النَّدِيم وإلْفِهِ ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾[٨].

فيا سادتي دَعُوني من المُعْجِبِ والمُطرِب ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾[٩] واجعلوا سيف ثباتِكم للعُذّال مَسْلولا ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾[١٠] فإنهم إن قالوا كذَب النّديم أو بَطر ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾[١١] ﴿٢٦﴾[١٢] وها قد صار أمرُ الحزبين عندك جليّاً ﴿أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا[١٣]﴾[١٤] أتظُنُّ عهد العاذل عند غضبك لا يُنكث[١٥] مثلهُ ﴿كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾[١٦] على أنه لكم عدُوٌّ كبير ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾[١٧] فإنه جمع لقتالِكَ الأولاد والأحفاد[١٨] ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ[١٩] فِى ٱلْأَصْفَادِ[٢٠] ﴿٣٨﴾﴾[٢١] تركوا أمر الله واشتغلوا بما يرْضونه ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾[٢٢].

وظنّي إن وصل إليك كتابي أنهم يُطْرَدُون ويُرْدَعون ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾﴾[٢٣] أيُعجبُك إذا مشى هذا اللّاه ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ[٢٤] لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ[٢٥]﴾[٢٦].

وإنك وإن فرِحتَ بعلم ما يَجْهلون ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾[٢٧]. فإن قلتَ إن اجتماعي بهم لأجل الصَّدقة أو شيء من هذا القبيل ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ

---

(١) خرقاً لصلابته وسمكه. (٢) الكهف: ٩٧. (٣) اللائم.
(٤) الذكر الجميل ولا يستعمل الصوت بهذا المعنى إلا في الجميل.
(٥) أنساني ذكره. (٦) الكهف: ٦٣. (٧) طه: ٥٨.
(٨) الأحقاف: ٢١. (٩) البقرة: ١٧٧. (١٠) الإسراء: ٣٤.
(١١) المتكبر. (١٢) القمر: ٢٦. (١٣) مجلس القوم.
(١٤) مريم: ٧٣. (١٥) لا ينقض.
(١٦) الأعراف: ١٧٦. (١٧) الذاريات: ٥٠. (١٨) أولاد الأبناء.
(١٩) مشدودين. (٢٠) القيود. (٢١) ص: ٣٨.
(٢٢) التوبة: ٧٧. (٢٣) الأنبياء: ٩٥. (٢٤) لاوي عنقه تكبراً.
(٢٥) عن دين الله. (٢٦) الحج: ٩. (٢٧) الأنعام: ٣٣.

وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ (١) عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ (٢) وَفِى ٱلرِّقَابِ (٣) وَٱلْغَٰرِمِينَ (٤) وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ (٥) وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ (٦)﴾ (٧) على أنهُ لا تحلُّ الصَّدقة لذَميم (٨) ﴿هَمَّازٍ (٩) مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ (١٠) ﴿١١﴾﴾ (١١) وطباعهم كما تعلم منكرة مستقذره ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ (١٢) مُّسْتَنفِرَةٌ (١٣) ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ (١٤) ﴿٥١﴾﴾ (١٥).

وقد قال وفائي: خاطِبْ عزيزك هذه المرّة وإن لم يَعمَلْ فيك فكراً ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰ (١٦) ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٤﴾﴾ (١٧). فقال لساني: إن الودّ هو الرّسول المأمون ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا (١٨) يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ (١٩) فقلتُ: سيرُوا مع المحبَّة ذات الفُتُوَّة (٢٠) ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ (٢١) وقولوا له عند الغَاية قد جئنَاك بآية ولا تهابوا الجيشَ وإن كبر ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ (٢٢) ﴿٤٥﴾﴾ (٢٣) ولا تظنُّوا من ظاهر الأمر حلولَ البَلوى ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ (٢٤) ٱلدُّنْيَا (٢٥) وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ (٢٦)﴾ (٢٧) بل قاتلوهم قتال المستَشهدين ﴿وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (٢٨).

وإذا اشتَبكَ القتالُ فليَدُبَّ كلٌّ منكم على مولاه (٢٩) ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ (٣٠) لِلسَّلْمِ (٣١) فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ (٣٢) فسيرُوا ودَعُوا الأولاد والجُنة (٣٣) ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ

---

(١) السعاة الذين يقبضون الصدقات بأمر الحاكم.
(٢) أشراف من العرب كان النبي ﷺ يستألفهم للإسلام.
(٣) المكاتبون من العبيد.
(٤) من تحملوا الدين.
(٥) الفقراء في الجهاد.
(٦) المسافر المنقطع عن ماله.
(٧) التوبة: ٦٠.
(٨) القبيح والمراد قبيح الفعال ذميم الخصال.
(٩) عياب يعيب الناس.
(١٠) ساع بالنميمة والفساد.
(١١) القلم: ١١.
(١٢) جمع حمار.
(١٣) نافرة.
(١٤) الأسد.
(١٥) المدثر: ٥٠ ـ ٥١.
(١٦) يتطهر من الذنوب.
(١٧) عبس: ٣ ـ ٤.
(١٨) معيناً.
(١٩) القصص: ٣٤.
(٢٠) الكرم والتسامح.
(٢١) النحل: ٩٢.
(٢٢) الظهر.
(٢٣) القمر: ٤٥.
(٢٤) بضم العين وكسرها جانب الوادي.
(٢٥) القربى.
(٢٦) البعدى.
(٢٧) الأنفال: ٤٢.
(٢٨) التوبة: ١٢٣.
(٢٩) صاحبه.
(٣٠) مالوا.
(٣١) الصلح.
(٣٢) الأنفال: ٦١.
(٣٣) المراد بها هنا النساء وأصلها لما تغطي بها المرأة وجهها.

مِن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾[١] ولا تسألوا عن المِيرَة[٢] من أصله ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً[٣] فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾[٤] فإن الله قد أثاركم[٥] لقتال العُذَّال العائبين ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ[٦] فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾[٧]. واحملُوا عليهم فإنهم متى طُعنوا في جنُوبهم ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾[٨] ﴿وَطَبَعَ[٩] اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[١٠] ولا تُدْبروا إذا رأيتموهُمْ قُدَّامكم[١١] ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[١٢].

وإن أخذتم أسرَى فقاتلوا أنصارَها ﴿فَإِمَّا مَنًّا[١٣] بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ[١٤] أَوْزَارَهَا[١٥]﴾[١٦] فإن أطعتم رُفعتم وأصلح الله بالكم ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾[١٧].

وسأتْلو في خُطبتكم عند قدومكم سالمين ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ[١٨] الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾[١٩].

وكتب أستاذنا الإمام الحكيم الشيخ محمد عبده المتوفى سنة ١٣٢٣هـ:

عرَض لي ما منَعني منْ قرَاءة الجرائد نحوَ أسبوعٍ وكنتُ أسمعُ فيه بحادثة (ميت غَمر) من بعض الأفواه أظنّها من الحوادث المُعتاد وُقوعها، حتى تمكَّنتُ من مُرَاجعة الجرائد ليلةَ الخميس الماضي فإذَا لهبُ ذلك الحريق يأكل قلبي أكلهُ لجُسومِ أولئك المساكين سكان (ميت غمر)، ويصهَرُ[٢٠] من فُؤادي ما يصهَره من لحومهم، حتى أرِقْتُ[٢١] تلك الليلةَ ولم تُغمّض عينايَ إلَّا قليلاً. وكيفَ ينامُ من يبيتُ يتقلَّبُ في نعم الله وَلهُ هذا العدَدُ الجمُّ من إخوةٍ يتقلَّبون في شدَّة البأساء[٢٢]. فأردت أن أُبادرَ بما أستطيع من المعونة، وما أستطيعهُ قليلاً لا يغني من الحاجة ولا يكشفُ البلاء. ثم رأيتُ أن أدعُو جمْعاً من أعيان العاصمة ليُشاركُوني في أفضَل

---

(١) آل عمران: ١٣٣.
(٢) جلب الطعام.
(٣) فقراً.
(٤) التوبة: ٢٨.
(٥) نشركم.
(٦) يصرفهم ويذلهم.
(٧) آل عمران: ١٢٧.
(٨) التوبة: ٨٧.
(٩) كناية عن إعماء بصائرهم.
(١٠) التوبة: ٩٣.
(١١) سابقيكم.
(١٢) محمد: ٧.
(١٣) تمنون عليهم بإطلاقهم من غير شيء.
(١٤) أهل الحرب.
(١٥) أثقالها من سلاح وغيره.
(١٦) محمد: ٤.
(١٧) محمد: ٣٨.
(١٨) أهلكوا عن آخرهم.
(١٩) الأنعام: ٤٥.
(٢٠) يذيب.
(٢١) سهرت.
(٢٢) الضرر والفقر.

أعمال البرّ في أقرب وقْت. وكان ذلك يومَ السّبت، فحضَر منهم سابِقُون وتأخَّر آخرون وكتبَ بعضهم يعتذرون، فشكرَ الله سعيَ من حضرَ وجزَى خيراً مَن اعتَذَر وغَفَر لمنْ تأخّر.

على أنّهُ ليسَ الحادثُ بذي الخطْبِ اليسير فالمُصابون خمسةُ آلاف وبَضْعُ[1] مئين منهمُ الأطفالُ الذين فقَدوا عائليهم[2]، والتجارُ والصنّاعُ الذين هلكَتْ آلاتهم ورؤوسُ أموالهم ويتَعذّر عليهم أن يبتَدئوا الحياة مرّة أخرى إلّا بمعونةٍ من إخوانهم، وإلّا أصبحوا متلصّصين أو سائلين، والذين فقدوا بيوتهم ولا يجدون ما يأوُون إليهِ ولا مال لَهُم يُقيمون ما يؤويهم من مثل بيوتهم المتخرّبة. لهذا رَأيتُ ورَأى كلٌّ من تفكَّرَ في الأمر أن يُجْمَعَ مبلغٌ وافرٌ يتمكّنُ به من تخفيف المُصاب عن جميع أولئك المنكوبين.

وكتب أيضاً في الغرض المذكور:

قد بلغكم وَلا ريْبَ من أخبار الجرَائد ما عليه أهلُ (ميت غمر) بعد الحريق الذي أصابَ مدينتهم. فهم بلا قُوتٍ ولا ساترٍ ولا مأوى. فليتصوّر أحَدُكُم أنَّ الأمرَ نَزَلَ بساحته أفما كان يتمنّى أن يكونَ جميعُ الناس في معونته؟ فلْيُطالِبْ الآن كلٌّ مِنّا نفسَهُ بما كان يُطالبُ به الناسَ لوْ نزل به ما نزَل بهم، ولينفق مما لهُ ما يدفعُ الله به عنهُ مكروهَ الدّهر... فأرجو من همتكم أن تَدفعوا شيئاً منْ مالكم في مُساعدَة إخوانكم، وَأن تَبْذُلُوا ما في وُسْعِكم لِحَثّ مَنْ عندكم على مُشاركتِكم في هذا العمل. والسلام

الفصل الخامس: في رسائل الملامة والعتاب

كتب بديع الزمان الهمذاني المتوفى سنة ٣٩٧هـ:

[الطويل]

لَئِنْ ساءَني أنْ نلْتِنِي بِمَسَاءَةٍ لقدْ سَرَّني أنّي خطَرْتُ بِبالكِ[3]

(١) بكسر الباء أو بفتحها ما بين الثلاث إلى السبع. (٢) من ينفقون عليهم.

(٣) هذا البيت لعبد الله بن عبيد الله أحد بني عامر المشهور بابن الدمينة من قصيدة والخطاب لمؤنث.

الأمير ـ أطالَ الله بقاءَهُ ـ في حاليْ برّهِ وجفَائه مُتفضّل، وفي يَوميْ إدنائه إبْعاده مُتَطوّل. وَهنيئاً له من حِمانا ما يَحُلُّه[١] ومن عُرَانا ما يَحِلُّه[٢] ومن أغراضنا ما يتَحلّه.

بلغني أنه ـ أدام الله عِزّه ـ استزادَ[٣] صنيعه[٤] فكنت أظنني مجنياً[٥] عليه مُساءً إليه، فإذا أنا في قرارة الذنْب ومَثارَة[٦] العتْب. ولَيْت شعْري[٧]، أيُّ محْظُورٍ[٨] في العثْرَة حضرْته أو مفروضٍ مِن الخدمة رَفضتُهُ[٩] أو واجبٍ في الزّيارة أهْملْتُهُ؟ وهل كنت إلّا ضيفاً أهداهُ منزَعٌ[١٠] شاسِع[١١] وأدَّاه أمَلٌ واسِع، وحداه[١٢] فضلٌ وإن قلَّ وهداه رَأْيٌ وإن ضلّ؟ ثم لم يُلْق إلَّا في آل ميكال رحله[١٣] ولم يصلْ إلّا بهم حبله، ولم ينظمْ إلَّا فيهم شِعره ولم يقف إلَّا عليهم شكْره.

ثم ما بَعدَت صُحْبةٌ إلّا دنتْ مَهانة، ولا زادتْ حُرْمةٌ إلَّا نقصَتْ صيانة، ولا تضاعفتْ منَّةٌ إلا تراجعت منزلة. ولم تزَل الصّفة بنَا حتى صار وابل[١٤] الإعظام قَطْرَه وعاد قميص القيام صَدْرَه[١٥]. ودخلتُ مجلسه وحَوْله من الأعداء كتيبةٌ[١٦] فصار ذلك التقْريبُ ازْوِراراً[١٧] وذلك السّلَام اختصاراً، والاهتزاز إيماءً والعبارةُ إشارة. وحين عاتبته آملُ إعتابه[١٨]، وكاتبته أنتظرُ جوابه وسألته أرجو إيجابه أجاب بالسكوت، فما ازددْتُ له إلّا وَلاءً، وعليه ثناءً، ولا جرم[١٩] إنّي اليومَ أبْيضُ وَجه العَهد واضحُ حُجَّة الودّ، طويلُ لِسان القول رَفيعُ حكم العُذْر. وقد حمَّلتُ فلاناً من الرّسالة ما تجافى القلمُ عنه والأميرُ الرئيس ـ أطال الله بقاءه ـ يُنْعمُ بالإصغاء لما يُوردُه مُوَفَّقاً إن شاء الله تعالى.

---

(١) ينزل فيه. (٢) يفكه. (٣) زاد.
(٤) معروفه وإحسانه. (٥) المؤاخذة بجنايته. (٦) مكان الثوران.
(٧) ليتني أشعر وأخبر بالحقيقة والواقع. (٨) ممنوع.
(٩) أبطلته. (١٠) مصدر ميمي بمعنى البعد.
(١١) البعيد. (١٢) ساقه ودفعه.
(١٣) ما يأخذه المسافر من الأثاث وحوائج السفر.
(١٤) المراد به الكثير من الإنعام وأصله المطر الكثير.
(١٥) ثوب يلبس فيغطي الصدر
(١٦) جماعة. (١٧) انحرافاً. (١٨) إزالة عتبه وملامته.
(١٩) كلمة كانت في الأصل بمنزلة لابد ولا محالة فجرت على ذلك وكثرت حتى تحولت إلى معنى القسم وصارت بمنزلة حقاً.

وكتب أيضاً إلى القاسم الكرخي المتوفى سنة ٤٠٠هـ:

أنا، وإن لم ألقَ تطاوُل الإخوان إلَّا بالتّطوُّل وتحامُل الأحرار إلا بالتَّحمُّل، أُحاسبُ مولاي ـ أيّده الله ـ على أخلاقة ضَناً[١] بما عَقَدْتُ يدي عليه من الظنّ به والتّقدير في مذهبه. ولولا ذلك لقلت: في الأرض مجالٌ إن ضاقت ظلَالك[٢] وفي الناس واصلٌ إن رثَّتْ[٣] حبالُك وآخذُه بأفعاله.

فإن أعارني أُذناً واعية ونفساً مُراعية، وقلباً متّعظاً، ورُجوعاً عن ذهابه، ونُزُوعاً[٤] عن هذا الباب الذي يقرَعه[٥] ونُزولاً عن الصُّعود الذي يفْرعه[٦]، فرَشْتُ لمودّته خُوَان[٧] صدري وعقَدتُ عليه جوامع خصري ومجامع عُمْري[٨]. وإن رَكِب من التّعالي غير مركبه[٩] وذهب من التّغالي في غير مذهبه[١٠] أقطعته خُطّة[١١] أخلاقه وولّيتهُ جانب إعراضه.

[المديد]

لا أذود[١٢] الطّير عن شجرٍ قد بلوت المُرّ من ثمره

فإني، وإني كنت في مُقتبل السّن والعُمر، قد حلبتُ شطْري الدّهر وركبتُ[١٣] ظهري البرّ والبحر[١٤]، ولقيتُ وفْدَي[١٥] الخير والشرّ، وصافحتُ يَدي النّفْع والضّرّ، وضربت إبطي العُسر واليُسر، وبلوْتُ طَعْمي الحلْو والمُرّ، ورَضعْت ضَرْعي العُرْف والنُّكر[١٦]، فما تكاد الأيام تُريني من أفعالها غريباً وتُسمعني من أحوالها عجيباً، ولقيتُ الأفراد وطرَحتُ الآحاد[١٧]، فما رأيت أحداً إلّا ملأت

---

(١) بكسر الضاد وفتحها حرصاً. (٢) أماكن الظل. (٣) بليت وذابت.
(٤) انتهاء وتركاً. (٥) يدقه بيده ليفتح له.
(٦) يصعده ويعلوه.
(٧) بضم الخاء أو بكسرها ما يؤكل عليه الطعام ومراده تمكين مودته من صدره.
(٨) مراده التمسك بمودته مدة حياته. (٩) مراده وإن تكبر.
(١٠) طريقه. (١١) الطريقة مراده أنه يتركه وإن أخذ في غير طريق طباعه.
(١٢) لا أطرد. (١٣) مراده مر به من خيره وشره وجرب نفعه وضره.
(١٤) مراده أنه جرب الأمور في البر والبحر.
(١٥) الوفد: الجماعة التي ترد على الأمير أو غيره ومراده أنه عرف الخير والشر.
(١٦) المعروف والنكر ضده.
(١٧) هذا والذي قبله كله بمعنى أنه جرب الأيام واختبرها من أول نشأته.

حافَتي[١] سمعه وبصره وشغلتُ حيّزي[٢] فكره ونظره، وأثقلتُ كتِفَه في الحزن وَكفّته في الوَزْن، ووَدّ لو بادرَ القِرْن[٣] صحيفتي[٤] أو لقيَ صفيحتي[٥]، فما لي صغُرْتُ هذا الصّغر في عينه وما الذي أزْرَى[٦] بي عنده حتى احتجب وقد قصدتهُ ولزمَ أرضه وقد حضرتهُ.

أنا أُحاشيه[٧] أن يجهل قدرَ الفضل أو يجحدَ فضل العلم أو يمتطيَ[٨] ظهرَ التّيهِ[٩] على أهليه، وأسأله أن يختصني من بينهم بفضل إعظام إن زلَّتْ بي مرَّةً قدمٌ في قصده. وكأني به وقد غضب لهذه المخاطبة المُجْحفة[١٠] والرُّتبة المُتحيّفة[١١]، وهو في جنب جفائه يسير فإن أقلع[١٢] عن عادته ونزع عن شيمته[١٣] في الجفاءِ، فأطال الله بقاءَ الأستاذ الفاضل وأدام عزّه وتأييدَهُ.

وكتب أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى بالبصرة سنة ٢٥٥هـ:

والله، يا قُلَيب، لولا أنّ كبدي في هوَاكَ مقرُوحةٌ[١٤] ورُوحي مجْرُوحة لساجَلْتُكَ[١٥] هذه القَطيعة ومادَدْتُك حبلَ المُصارَمة[١٦]. وأرجو أن الله تعالى يديل[١٧] صبري من جفَائك فيرُدّك إلى موَدّتي وأنْف القِلى[١٨] راغم، فقد طال العهد بالاجتماع حتّى كدْنا نتناكرُ عند الالتقاء، والسلام.

وكتب أبو بكر الخوارزمي المتوفى سنة ٣٨٣هـ إلى تلميذه:

كتابي، وقد خرجتُ من البلاء خرُوج السّيف من الجلَاء[١٩] وبُرُوز البدر من الظّلماء، وقد فارَقَتني المِحْنةُ[٢٠] وهي مُفارقٌ لا يُشْتاقُ إليه، ودّعتني وهي مُوَدّعٌ لا يُبكي عليه. وَالحمدُ لله تعالى على محنَةٍ يُجلّيها ونعمةٍ يُنيلها ويُواليها. كنتُ أتوَقعُ

---

(١) جانبي.
(٢) ناحيتي.
(٣) القرن: الكفء عند ملاقاة الأبطال.
(٤) كتابي.
(٥) وجهي، معناه: تمني لقائي.
(٦) حط من قدري وشأني.
(٧) أنزهه.
(٨) يركب.
(٩) الكبر والعجب.
(١٠) من الإجحاف وهو الذهاب بالشيء.
(١١) من التحيف وهو الظلم والجور.
(١٢) رجع.
(١٣) خلقه.
(١٤) مجروحة.
(١٥) معناه: لمقابلتك.
(١٦) المقاطعة.
(١٧) الغلبة والنصر.
(١٨) صاحب البغض.
(١٩) صقله بإزالة ما عليه حتى يرى له لمعان.
(٢٠) البلية.

أمس كتابَ مولَاي بالتّسْلية واليومَ بالتّهنية فلم يكاتبني في أيام البُرَحاء[١] بأنها غمّته ولا في أيام الرّخاء بأنها سرَّته. وقد اعتذرت عنه إلى نفسي وجادلتُ عنه قلبي، فقلتُ: أما إخلالُهُ بالأولى فلأنّه شَغَلُه الاهتمامُ بها عن الكلام فيها، وأما تغافلُه عن الأخرى فلأنّه أحَبّ أن يُوَفّر عليَّ مرتبةَ السَّابق إلى الابتداء ويقتصِرَ بنفسه على محل الاقتداء لتكون نعَمُ الله سبحانه عليَّ مَوْفُورة من كلّ جِهة ومحفوفَةً بي من كلّ رُتبة.

فإن كنتُ أحسنتُ الاعتذارَ عن سيّدي فليَعْرِف لي حقّ الإحسان وَلْيكتُبْ إليّ بالاستحسان، وإن كنتُ أَسأتُ فليُخْبرني بعذرِهِ فإنه أعرف منّي بسرّه ولْيرْضَ منّي بأنّي حاربتُ عنهُ قَلْبي واعتذرتُ عَن ذنبه حتى كأنّه ذنبي، وقلتُ: يا نفسُ اعْذُري أخاك وخُذي منه ما أعطاك فمع اليوم غَدٌ والعودُ أحمد.

وكتب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر المتوفى سنة ٨٠هـ:

أمّا بعدُ: فقد عاقني الشّك في أمرك عن عزيمة الرّأي فيك. وذلك أنك ابتدأتني بلُطف عن غير حِبرة، ثم أعْقبته جفَاء من غير ذَنْب، فأطمَعني أوَّلُك في إخائك وأيأسني آخرك من وَفائك. فسُبحان من لو شاء لكشف بإيضاح الرأي في أمرك عن عزيمة الشّك فيك، فاجتمعنا على ائتلاف وافترقْنَا على اخْتلاف. والسلام.

وكتب صديقي الأوفى زعيم الوطنية الشيخ عبد العزيز جاويش:

سيدي، ما لي أرَاك كمن نَسيَ الخلِيط[٢] وتجرّد في الصُّحْبة عن المحيط والمَخِيط؟ فإذا ما صادفْتُك[٣] صدَفتَ[٤] أو أنصفْتك ما نصفت[٥]. أتظن أني قعيدَةُ ببيتك[٦] أو رَهين كيْتك وذَيْتك[٧]؟ فوحقك إذا آنَسْتُ[٨] من يدي ملَلاً أو من قدَمي كلَلاً[٩] لنَجزْتُها[١٠] البتات[١١] وكلّتْ بنَقصها الذّات. ولو أني آنستُ من الزّاد فترَة[١٢] أو من الشّرَاب عُسْرَة لَطُعمت الطّوَى[١٣] واستقيتُ الجوَى[١٤]. فكيف

---

(١) شدة الأذى. (٢) الصاحب. (٣) وجدتك.
(٤) أعرضت. (٥) كلاهما بمعنى ساعدتك وأعتك.
(٦) المرأة التي في البيت.
(٧) كلاهما بمعنى كذا وكذا والمراد أني لست رهين قولك أفعل كذا وكذا.
(٨) عملت. (٩) أعياء وضعفاء. (١٠) قضيتها.
(١١) القطع المستأصل. (١٢) ضعفاء وقلة. (١٣) الجوع.
(١٤) الحرقة.

أُداعبُ[١] وتُصاعب، وأُحالف وتُخالفُ، وأُواصلُ وتُفاصلُ، وأُجالبُ وتُجانبُ؟ لبِئْسَتْ مطيتك التي اقتدَعْتَ[٢]، وشِرْعتك[٣] التي شرَعْتَ[٤]. فوالله لولا أنّ الحبّ حادث لا يتّقى بالتُّرُوس ومعنىً لا يدِبُّ إلا في النفوس وسهامٌ لا تُرْمى إلا من قَسِيّ الحواجب ونحوٌ أوّله المعيّةُ وآخره الجوازم، لما افترَستِ الظّباء الصّيد الأسودَ[٥] ولا ملكتِ الأحرار العبيد. ولولا أني كَرَعت[٦] من صَابه[٧] والتَحَفتُ ببرْدة أوْصابه[٨] لتعوّذْتُ منك (بسورة الفلق) ونبَذْتك[٩] نَبْذ الرّداء الخلَق[١٠] ولهان عليّ أن أدَعك أو أُسمِعك.

[الوافر]

تَمرُّون الدّيارَ ولن تَعُوجوا[١١] كلامكُمُو عليّ إذاً حرامُ

غير أن لي نفْساً شَبت على الحبّ فلم أفْطِمها، وتقادعتْ[١٢] على نارِه فلم أعصمْها، حتى بَلَغ السيلُ الزُّبى[١٣] وتَبدّدَت[١٤] النّفْسُ أيدي سَبا[١٥]، إلا حُشاشَةً غفَلَ عنها الوَجدُ. وبقيّة رَمقٍ ألْفيتُها[١٦] من بَعد، وكلما رأيتُ منك الشّطَط[١٧] واعتِسَاف[١٨] الخططِ[١٩] عمَدْت إلى أن أثني[٢٠] من رسَنِها[٢١] وأذُودَ[٢٢] عن عطَنها[٢٣]، وشخَصت إلى المكافحة والمكافأة، وأن لا أكيلك إلّا مثلاً ولا أسقيك إلا وَشَلاً[٢٤] ولا أزيدك إلّا فَشلاً.

---

(١) أمازح. (٢) دفعت. (٣) مكان الماء.
(٤) دخلت. (٥) دفعت.
(٦) بكسر الراء وفتحها: شربت بفمي.
(٧) مائه المر وأصله عصارة شجر مر.
(٨) أمراضه. (٩) رميتك. (١٠) القديم البالي.
(١١) لن تقيموا. (١٢) تسابقت.
(١٣) مثل يضرب لما جاوز الحد.
(١٤) ذهبت، وهو مثل يقال: تبددوا أيدي سبا، وأيادي سبا معناه ذهبوا متفرقين.
(١٥) هم الذين ذهبت جناتهم وغرق مكانهم وقد ذكرهم الله في القرآن قال: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ إلى آخر الآيات.
(١٦) وجدتها. (١٧) تجاوز الحد. (١٨) الميل عن الطريق المألوف.
(١٩) الأمور. (٢٠) أرد. (٢١) زمامها.
(٢٢) أمنع. (٢٣) مكانها.
(٢٤) الماء القليل في هذا الموضع والماء الكثير في غيره.

[السريع]

ولست أجزيك الجزاء الذي على وفاء الصُّنعْ لا بَخْسِهِ
وليس الذي يبكي صاحباً مَن إذا أُهين لا يبكي على نَفسِهِ

على أني بالرَّغم أُصبحُ في نهارٍ أحلك[١] من ليل وأُمسي في ليل أشقّ على النّفس من ويْل.

[الطويل]

وليلٍ كموْج البحر أرْخى سُدُوله[٢] عليّ بأنواع الهمُوم ليَبتلي[٣]

فإن تخلّصتُ من لقائك فإلى الشَّقاء، وإذا لجأتُ من عَسفك فإلى العناء، وإذا استجرتُ بفراقك فقد استجرتُ بالنّار من الرّمضاء[٤]. وكأنك لم تدْرِ أن دولة الحُسْنِ سَرِيعةُ التّقويض[٥] وأنه لابُدّ من هُبوط القمر إلى الحضيض ولسوْف تُبلى بعارض[٦] بَيدَ[٧] أنه غير مُمْطر وبساعةٍ مُقبلُك فيها مُدْبر، وستُصْبحُ عمّا قريب قد عَفَتْ[٨] رُسومُك[٩] ولم تجد في سوق الصحبة مَنْ يَسومك. والعاقلُ من لا يختالُ بنفسه ولا يَبني على غير أُسّه[١٠]، فإنك ما نضَتْ[١١] لُؤلؤَةُ مَبسَمِك ولا نضُرَت[١٢] صُورَةُ مِعصَمك[١٣]، ولا شئتَ فخُلِقت كما تشاءُ ولا اتّخَذْتَ عند الله عهداً وهذا الوفاءُ، ولكنَّ مثلك مَنْ أفرَغهُ الله في القالَب الذي اختار وجعله مَرتع النُّفوس ومَسرحَ الأبصار. وإنّي أيها العزيز قد تقدَّمتُ إليك.

[الوافر]

ولي أملٌ قطعتُ به اللّيالي أراني قد فَنيتُ به ودامَا

فلا تحرمني من سَائغ العفو وسابغِه ولا تجعلني ﴿كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾[١٤].

---

(١) أشد سواداً. (٢) أستاره. (٣) ليختبرني.
(٤) الأرض الحارة. (٥) التفرق.
(٦) السحاب الذي يعترض في الأفق.
(٧) غير أنه. (٨) درست وذهبت. (٩) أثارك.
(١٠) أساسه. (١١) ما ظهرت. (١٢) لا حلت.
(١٣) موضع السوار من اليد. (١٤) الرعد: ١٤.

[الكامل]

فأشدُّ ما لُقيتُ من ألم الجوَى[١] قُربُ الحبيب وما إليه وُصولُ

كالعيسِ[٢] في البيْداء يقتلها الظَّما[٣] والماءُ فوقَ ظهورها محمُولُ

فاعمل في يومِك لغدِك واستجِز غيرَك ببسط يدك، ولا تأخذني بجرم الجاني المُتلبّس ولا تبتَغ منّي صَحيفة المُتلمّس[٤]. بيد أني أنشدُك الذي بَلى العاشق بالمعشوق وكلفه في الحبّ بعض الأنوق[٥]، وسهَّد[٦] طرفه بنواعِس العُيون وَخوّل[٧] للحُسن ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[٨] كما قَرَن الهوى بالنّوى[٩] والقلبَ بالجوى[١٠]، وقَضَى على المحبّ ونشر العشق فلم يحتجب. ما الذي أغرَى بك إلى الاعتساف وعدم الإنصاف ألينُ الأعطاف أم فُتورُ[١١] الأجفان أم تكسُّر الكلام أم هَيْفُ القَوام؟

لقد شددتَ أزْرك[١٢] والله بضِعاف واستسمنْتَ تلك العِجاف. وهل حدا[١٣] إلى قطيعتي بك أنّي خشِن الملمَس رَثُّ الملْبَس ولم أُمنَحْ[١٤] كما مُنِحت نَضْرَة[١٥] ولم ألبس بُرقُع البياض وَالحُمرَة؟ فاعلم أنك إنْ نظرتني بعين الرّضا ورَحمتَ فؤاداً يتقلَّب منك على جَمْر الغَضا[١٦] فستجدُني صديقَك الذي لا يُبطِرهُ الوَفاء ولا يَثنيه الجَفاء، أملَك لك من لسان وأطْوَعُ لأمرك من بنان. أكتب فأينَ لعبد الحميد الكاتب قلَمي، وَأشعُرُ فأين الشّعراء إلّا تحت عَلمي، وأبذُل فأين حاتِم[١٧] من كرمي، وأحلُمُ فأين أحْنَفُ[١٨] من حِلْمي؟

---

(١) الحزن.

(٢) الإبل البيض يخالط بياضها شقرة أو ظلمة خفية. (٣) العطش.

(٤) الطالبة مرة بعد أخرى.

(٥) الأنوق العقاب ولفظ المثل (هو أعز من بعض الأنوق) مثل يضرب للمحال أو لما لا سبيل إليه.

(٦) أسهره. (٧) ملكه. (٨) يس: ٨٢.

(٩) البعد. (١٠) الحرة. (١١) ذبولها.

(١٢) طهرك. (١٣) ساق إلي. (١٤) أعطى.

(١٥) حسناً. (١٦) شجر خشبه فيه صلابة.

(١٧) أبو عدي حاتم بن عبد الله بن سعد الطائي وبه يضرب المثل في الكرم، من شعراء الجاهلية.

(١٨) أحنف بن قيس يضرب به المثل في الحلم.

[الطويل]

وحسبك فخراً أن يجود بنفسه على رغب من ليس يأمل في الشكر
ومن يحتمل في الحب ما فوق كاهلي[١] فحسبك حلماً أن يقيم على الهجر

فإن أَصَخْتَ[٢] إلى الدّاعية[٣] ووعيت كلماتٍ لا تَسْمَع فيها لاغية[٤]، فإليك الجزاءُ وعليّ الوفاءُ وإلا فالفِرَار إلى الموت أمرٌ يَسير والقبرُ للعشاق قليلٌ من كثير.

وكتب معاوية إلى ابنه يزيد يؤنبه ويعاتبه:

أما بعد فقد أدت ألسنة التصريح إلى أُذن العناية بك، ما فَجَعَ الأمل فيك وباعد الرّجاء منك، إذ ملأت العيون بهجة، والقلوب هيبة، وترامت إليك آمالُ الراغبين، وهمم المنافسين، فسخت بك فتيان قريش، وكهول أهلك، فما يسوغ لهم ذكرك إلا على الجرّة المُهَوِّعة[٥] والكظ الجشء[٦]. اقتحمت البوائق[٧] وانقدت إلى المعاير، واعتضتها من سمو الفضل، ورفيع القدر.

فليتك ـ يزيد ـ إذا كنت لم تكن، سررت يافعاً ناشئاً وأثقلت كهلاً ضائعاً[٨]، فواحَزناً عليك يزيد! ويا حرّ صدر المثكل بك. ما أشمت فتيان بني هاشم! وأذل فتيان بني عبد شمس عند تفاوض المفاخر ودراسة المناقب! فمن لصلاح ما أفسدت ورتق ما فتقت؟ هيهات!! خمشت[٩] الدربة[١٠] وجه التصبر بك، وأبت الجناية إلا تحدراً على الألسن، وحلاوة على المناطق، ما أربح فائدة نالوها، وفرصة انتهزوها! انتبه يزيد للعظة، وشاور الفكرة، ولا تكن إلى سمعك أسرع منها إلى عقلك، واعلم أن الذي وطأك وسوسة الشيطان، وزخرفة السلطان مما حسن قبحه واحلولى عندك مرّه، أمرٌ شَرَكك فيه السواد[١١] ونافسكه الأعباد، فأضعت به من قدرك، وأمكنت به من نفسك ـ فمن لهذا كله؟

---

(١) ما بين الكتفين. (٢) استمعت.
(٣) مراده الواشي العاذل. (٤) اللغو في الكلام.
(٥) الجرة: ما يفيض به البعير فيأكله ثانية، وكذا غيره من النَّعم. والمهوعة: من هوعه أي: قيأه وهذا تمثيل، أي: أنهم يستقلون ذكرك.
(٦) الكظ: الامتلاء من الطعام، والجشء: الكثير، وهذا تمثيل أيضاً.
(٧) البوائق: جمع بائقة وهي الداهية. (٨) الضائع والضليع: القوي.
(٩) خمش: لطم. (١٠) الدربة: التجربة. (١١) السواد: العامة.

واعلم يا يزيد أنك طريد الموت، وأسير الحياة، بلغني أنك اتخذت المصانع والمجالس للملاهي والمزامير كما قال تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾[١]، وأجهرت الفاحشة حتى اتخذت سريرتها عندك جهراً.

اعلم يا يزيد أن أول ما سلبكه السكر معرفة مواطن الشكر لله تعالى على نعمه المتظاهرة وآلائه المتواترة، وهي الجرحة العظمى، والفجعة الكبرى ترك الصلوات المفروضات في أوقاتها، وهي من أعظم ما يحدث من آفاتها، ثم استحسان العيوب، وركوب الذنوب، وإظهار العورة وإباحة السر، فلا تأمن نفسك على سرك، ولا تعقد[٢] على فعلك، فما خير لذة تعقب الندم، وتعفي[٣] الكرم؟

وقد توقف أمير المؤمنين بين شطرين من أمرك لما يتوقعه من غلبة الآفة واستهلاك الشهوة، فكن الحاكم على نفسك، واجعل المحكوم عليه ذهنك ترشد إن شاء الله تعالى، وليبلغ أمير المؤمنين ما يرُد شارداً من نومه، فقد أصبح نصب[٤] الاعتزال من كل مؤانس ودريئة[٥] الألسن الشامتة، وفقك الله، فأحسِن.

وكتب أعرابي لابنه وسمعه يكذب:

يا بني عجبت من الكذاب المشيد بكذبه، وإنما يدل على عيبه، ويتعرض للعقاب من ربه، فالآثام له عادة، والأخبار عنه متضادة، إن قال حقاً لم يصدق، وإن أراد خيراً لم يوفّق، فهو الجاني على نفسه بفعاله، والدال على فضيحته بمقاله، فما صح من صدقه نسب إلى غيره، وما صح من كذب غيره نسب إليه. فهو كما قال الشاعر:

[مجزوء الكامل]

حَسْبُ الكذوب من المها ... نة بعض ما يُحْكى عليه
فإذا سمعت بكذبةٍ ... من غيره نُسِبَتْ إليه

---

(١) تقدم شرح غريب الآية في خطبة قطري.
(٢) يقول: تفقد بالشراب الإرادة والعزيمة.
(٣) تعفي: تذهب.
(٤) النصب هنا: الغرض والهدف.
(٥) الدريئة: التي يتعلم الرامي الطعن والرمي عليها.

obeikandl.com

وكتب المرحوم حفني بك ناصف إلى سماحة السيد توفيق البكري:

كتابي إلى السيّد المّند، ولا أُجَشّمُه[١] الجوابَ عنه فذلك ما لا أنتظرهُ منه وإنما أسأله أن يَنْشَط إلى قراءته ويتنزّل إلى مطالعته، وله الرَّأيُ بعد ذلك أن يحاسِبَ نفسه أو يزكّيها ويَحكم عليها أوْ لها.

[الطويل]

فقد تنفعُ الذكرى إذا كان هجرُهمْ ... دَلالاً فأما إنْ مَلالاً فلا نَفْعا

زُرْتُ السيّد ويعلم الله أنَّ شوقي إلى لِقائه كحرصي على بقائه وكلَفي بشُهُوده كَشغفي بوُجُوده. فقد بَعُدَ والله عَهد هذا التَّلاق وطال أمدُ الفِراق، وتصرَّم الزَّمان وأنا من رُؤيته في حِرمان، فسألتُ عنه فقيل لي إنه خرج لتشييع[٢] زائر وهو عمّا قليل حاضر. فانتظرتُ رُجُوعه وترقَّبت طُلوعه ولم أزل أعُدُّ اللحظات وأستطيلُ الأوقات حتى بَزَغت الأنوار وارتجَّ صحنُ الدَّار وظهر الاستبشارُ على وجوه الزوّار. وجاء السيّد في مَركبه وجلَالة محتِده[٣] ومنْصبه فقُمنا لاستقباله وهنمنا[٤] بكماله، فمرّ يتعرف وُجُوه القوم حتى حازاني وكبُر على عينه أن يَراني، فغادَرَني[٥] ومن على يَساري وأخذ في السّلام على جاري. وجرَّ السلام الكلام وتكرَّر القُعود والقيام، وأنا في هذه الحال أوهم جاري أني في داري، وأُظْهِرُ للنَّاس أن شِدّة الأُلفة تُسقِط الكُلْفة. ومر السيّد بعد ذلك من أمامي ثلاث مرّات ومن الغريب أنه لم يَسْتَدرِك ما فَات.

[الوافر]

تمرّون الديارَ ولم تَعوجُوا ... كلَامكُمُو عليَّ إذَنْ حرَامُ

وكنتُ أظنّ أن مكانتي عندَ السيد لا تُنكَر وأن عَهْدي لديه لا يخْفَر[٦]، فإذا أنا لسْتُ في العِير[٧] ولا في النّفير[٨]، وغيري عند السيّد كثيرٌ وذهاب صاحبٍ أو أكثرَ عليه يسيرٌ.

---

(١) لا أكلفه. (٢) لتوديع.
(٣) أصله من جهة النسب. (٤) تكلمنا بصوت خفي. (٥) تركني.
(٦) لا ينقض. (٧) الجماعة. (٨) الجماعة أيضاً.

[الطويل]

ومن مَدّتِ العَلْيا إليه يَمينَها فأكبر إنسان لديه صَغيرُ

ولا أدّعي أنّي أُوازي السيد ـ صانه الله في علوّ حسبه ـ أو أدانيه في علمه وأدبه، أوْ أُقاربه في مناصبه ورُتبه، أو أُكاثره في فضّته وذَهبه. وإنما أقول: ينبغي للسيد أن يميّز بين من يزوره لِسَماع الأغاني والأذكار وشهود الأواني على مائدة الإفطار، وبين من يزُورُه للسلام وتأييد جامعة الإسلام؛ وأن يُفرّق بين مَن يتردّد عليه استخلاصاً للخلاص ومَنْ يتردّد إجابة لدَعوة الإخلاص، وأن لا يشتَبه عليه طلّاب الفوائد بطُلّاب العوائد، وقُنّاص[١] الشّوارِد[٢] بنُقَباء الموالد، ورُوَّاد الطُّرَف[٣] بأرْباب الحِرَف.

[الطويل]

فما كلُّ مَنْ لُقِّيتَ صاحبُ حاجةٍ ولا كلُّ مَن قابلتَ سائلُك العُرْفا[٤]

فإن حَسُنَ عند السيّد أن يُغْضي عن بعض الأجناس فلا يحسُنُ أن يُغضي عن جميع الناس. وإلا فلِماذا يَطوف على بعض الضُّيوف ويُحيّيهم بصُنوف من المعروف ويتخطّى[٥] الرّقاب «الصرُّوف»[٦] ويخترق لأجله الصُّفوف فإن زعم السيّد أنه أعلمُ بتصريف الأقلام فليس بأقدَم هجْرَةٍ في الإسلام وإن رأى أنه أقدرُ مني عَلَى إطرائه[٧] فليس بمُمكنٍ أن يتخذه من أوليائه.

[البسيط]

ولا أرُومُ بحمد الله منزلةً غيري أحقُّ بها منّي إذا رَاما

وإنما أصونُ نفسي عن المهانة والضّعة ولا أُعرّضها للضّيق وفي الدُّنيا سعَة.

---

(١) جمع قناص بفتح القاف: الصائد.
(٢) المتفرقات والمراد طالبو متفرقات العلوم.
(٣) جمع طرفة وهي ما ترى مليحة والمراد أهل المراتب العالية.
(٤) المعروف.
(٥) يتجاوز.
(٦) هو الدكتور يعقوب صروف المتوفى في آخر يوليه سنة ١٩٢٧م وهو أحد أصحاب مجلة المقتطف وجريدة المقطم اليومية.
(٧) الثناء عليه.

[الطويل]

وأُكرمُ نفسي إنّني إن أهنتها وحقّك لم تكرم على أحد بَعدي

فلا يُصَعّر[١] السيد من خدّه فقد رضيتُ بما ألزمني من بُعده، ولا يَغُضَّ[٢] عنّي عينه فهذا فراقٌ بيني وبينه. وليتّخِذني صاحباً من بَعيد ولا يكلّمني إلى يوْم الوَعيد.

[الطويل]

كلانا غنيٌّ عن أخيه حياتَهُ ونحن إذا مِتْنَا أشدُّ تَغانيا

ومنّي على السيد السلام على الدَّوام، ومُباركٌ إذا لَيس جديداً وكلُّ عام وهو بخير إذا استقْبَلَ عيداً، ومَرْحى[٣] إذا أصاب، وشيَّعته[٤] السّلَامة إذا غاب، وقدوماً مباركاً إذا آب[٥]، وبالرّفاء والبنين[٦] إذا أعْرَس[٧]، وبالطّالع المسعود إذا أنجب[٨]، ورحمه الله إذا عطَس، ونومُ العافية إذا نعَس، وصحَّ نومه إذا استيقظ، وهنيئاً إذا شرب، وما شاء الله كان إذا رَكِب، ونَعِمَ صباحه إذا ٱنفجَرَ الفجْر، وسَعد مَسَاؤه إذا أذن العصر، وبَخٍ بَخٍ[٩] إذا نثر، ولا فُضَّ[١٠] فُوهُ إذا شَعُرَ[١١]، وأجاد وأفاد إذا خَطبَ وأطرَب وأغرَب إذا كتب، وإذا حَج البيتَ فحجّاً مبرُوراً، وإذا شيّعَ جنَازَتي فسَعياً مشكوراً. والسلام.

وكتب القاضي الفاضل إلى أخيه عبد الكريم يؤنّبه على إيذائه علم الدين بن النحاس:

سبب إصدار هذه المكاتبة إلى الأخ ـ أصلحه الله! ـ إعلامه ما صح عندي من الأحوال التي أخفاها، والله مبديها، في حق عَلم الدين.

وبالله أقسمُ لئن لم تداوِ ما جرحت وتستدرك ما فعلت، وتمحُ ما أثبتّ، وتستأنف ضدّ القبيح الذي كتبتَ به وشافهت، وتعتذرُ بالجميل فيما قاطعت الله به وبارزت، ليكوننّ

---

(١) لا يميل خده كبراً وخيلاء. (٢) لا يغمض.
(٣) كلمة تقال عند الإصابة في الرمي مدحاً للمصيب.
(٤) ودعته. (٥) رجع.
(٦) كلمة تقال لمن تزوج، معناها: بالالتئام وجمع الشمائل.
(٧) تزوج. (٨) ولد له.
(٩) كلمة تقال عند الرضا والإعجاب بالشيء أو عند الفخر والمدح وكررها للمبالغة.
(١٠) لا كسرت أسنانه. (١١) قال الشعر.

الحديث مني بغير الكتاب، ولأزيلنّ السبب الذي قدرت به على مضرّة الأصحاب، وما أشد معرفتي بأن الطباع لا تتغير، وبأنك ستحوجني بعد هذا الكتاب إلى ما لا يتأخر، وبالجملة فاستدرك بفعلك لا بإيمائك لي وتنصلك إلي.

[المنسرح]

فالدَّم في النَّصْلِ شاهدٌ عجب

وويل لمن كانت غنيمته من الأيام عقد القلوب على البغضاء، وإطلاق الألسنة بالمذام، ولولا أنني شريكك في كل ما تستوجبه من الناس، لألقيت حبلك على غاربك وتركتك، وما اخترت لنفسك، ولكن كيف بمن يرمي وليس برام؟

ولكن سكوت الناس عن قبيحك مقابلة لجميل كثير مني، فإذا أنت لا تنفق إلا من كيسي، فأشفق على نفسك، إن كنت تنظر في غد، وعلى بيتك، إن كنت تنظر في أمس، وعلى مكانك مني، إن كنت لا تنظر إلا في اليوم، ولا تجاويني إلا بلسان الرجل شاكراً لك، فإنه وإن كان (والله) ما ذمك فقد ذمتك به عنه وما أظن أن تذكر أنني كتبت إليك كتاباً، ولا كنت أوثره، ولولا حافظ غليظ ما كتبته، ولولا علمي أن الكثير مما قيل عنك في أمر الرجل هو القليل مما فعلته لأضربن من هذا كما أضربت عن غيره وستعرفك الأيام ما كنت تجهل.

والله يأخذ بناصيتك إلى رضاه ويغمد سيف جليلتك من مقلتك، والسلام.

الفصل السادس: في رسائل الشكوى

كتب الأمير أبو الفضل الميكالي المتوفى سنة ٤٣٦هـ:

إنما أشكو إليك زَماناً سلب ضِعف ما وَهب، وفَجّع بأكثر مما متّع وأوحش فوق ما آنس، وعنّف في نزْع ما ألْبسَ. فإنه لم يُذِقنا حَلَاوة الاجتماع حتى جرّعنا مَرَارة الفرَاق وَلم يمتّعنا بأُنسِ الالتقاء حتى غَادَرَنا[1] رَهْنَ التلهُّف والاشتياق. والحمد لله تعالى على كل حالٍ يسوءُ ويَسرّ ويَحلو ويَمُرّ، ولا أيأسُ من رُوح[2] الله

(١) تركنا. (٢) من رحمة الله.

في إباحة صُنعٍ[١] يجعل رَبعه[٢] مُناخي[٣] ويقصر مدّة البعاد وَالتراخي، فَأُلاحظ الزّمان بعين رَاض ويقبل إليَّ حظي يعد إعراض، وأستأنف[٤] بعزّته عيشاً عَذب الموارد[٥] والمناهل[٦] مأمون الآفات والغوائل[٧].

وكتب عبد الحميد بن يحيى المتوفى سنة ١٣٢هـ إلى أهله وهو منهزم مع مروان[٨]:

أما بعدُ: فإن الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالكُرْه والسُّرُور، فمن ساعدَه الحظ فيها سكَنَ إليها ومَنْ عَضَّته[٩] بنابِها ذَمّها ساخطاً عليها وشكاها مُستزيداً لها. وقد كانت أذَاقَتنا أفاوِيقَ[١٠] اسْتَحْلَيناها ثم جَمحَت[١١] بنا نافرةً ورَمحتْنا[١٢] مُوَلّيةً فملحَ عَذْبها وخَشنَ لينها، فأبعَدَتْنا من الأوطان وفرّقتنا عن الإخوان. فالدار نازحة[١٣] والطيرُ بارِحَة[١٤].

وقد كتبت والأيامُ تَزيدُنا منكم وإليكم وَجداً فإن تَتِمّ البليّةُ إلى أقصى مُدّتها يكن آخِرُ العَهْد بكم وبنا، وإنْ يَلحقنا ظُفْرٌ جارحٌ من أظْفارِ من يليكم نَرْجع إليكم بِذُلّ الإسار[١٥] والذُّلُّ شرٌّ جار.

نسأل الله الذي يُعزُّ من يشاءُ ويذِلُّ من يشاء أن يهب لنا ولكم أُلْفَةً جامعة في دارِ آمنَةٍ، تجمعُ سلامةَ الأبدان والأديان، فإنه ربّ العالمين وأرحمُ الراحمين.

---

(١) المعروف. (٢) داره.
(٣) مكان النوم ومراده أنه لا ييأس من معروف يحظى به مدة حياته.
(٤) أجدد. (٥) أمكنه إتيان الماء.
(٦) المواضع التي فيها الماء والمراد أنه يجدد عيشاً هنيئاً لا حزن معه. (٧) الدواهي.
(٨) هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم بن أبي العاص الأموي آخر ملوك بني أمية المعروف بالجعدي قتل سنة ١٣٢.
(٩) كناية عن تسلطها عليه بنوائبها ومصائبها.
(١٠) ألبانها والمراد نعيمها وخيراتها. (١١) أسرعت غالبة إيانا.
(١٢) طعنتنا برمحها والمراد مصائبها. (١٣) بعيدة.
(١٤) البارح من الطير ما يمر من اليمين إلى الشمال والعرب تتشاءم به وذلك أنه كان من عادتهم إذا أرادوا أمراً عمدوا إلى الطير فأطاروها فإن طارت شمالاً يتشاءمون ويرجعون وتسمى بارحات، وإن طارت يميناً تفاءلوا باليمين ومضوا في أمرهم وتسمى سانحات.
(١٥) الأسر وهو القبض على الرجل وأخذه أسيراً.

وكتب أستاذنا الحكيم الشيخ محمد عبده وهو مسجون بسبب الحوادث العرابية:

[البسيط]

تقلّدَتني اللّيالي وهي مُدْبرةٌ كأنني صارِمٌ في كفّ مُنْهَزِم

عزيزي (هذه حالتي) اشتدّ ظلامُ الفتن حتى تجسّم بل تَحجّر، فأخذت صخوره من مَركز[١] الأرْض إلى المحيط[٢] الأعلى، واعترضت ما بين المشرِق والمَغرب، وامْتَدَّتْ إلى القُطبَيْن[٣]، فاستحجرتْ في طبقاتها طباعُ النّاس إذ تغلّبتْ طبيعتها على الموادّ الحيوانية أو الإنسانية، فأصبحت قلوب الثّقلَيْن[٤] ﴿كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾[٥]، فتبارك الله أقدرُ الخالقين.

انتثرتْ نجوم الهُدى وتَدَهْوَرَت[٦] الشّموس والأقمار، وتَغيّبت الثّوابت النّيّرَة، وفَرَّ كل مُضِيءٍ مُنهزِماً من عالَم الظّلام، ودارتِ الأفلاكُ دَورَةَ العكس ذاهبةً بنيّراتها إلى عوالِمَ غيرِ عالمنا هذا، فوَلّى معه آلِهَةُ الخير أجمعين، وتمحَّضتِ السُّلطة لآلِهَةِ الشرّ فقلبُوا الطّباع وبدَّلوا الخلقَ وغيَّروا خَلق الله وكانوا على ذلك قادرين. رأيتُ نفسي اليومَ في مهمةٍ[٧] لا يأتي البصرُ على أطرَافه في ليلة داجِية[٨] غُطِي فيها وجهُ السّماء بغَمام سوءٍ فتكاثف[٩] رُكَاماً ركاماً[١٠]، لا أرى إنساناً ولا أسمعُ ناطِقاً ولا أتوهّم مُجيباً، أسمعُ ذِئاباً تَعوِي وسِباعاً تزأر[١١] وكلاباً تنبَح[١٢]، كلّها يطلُب فَرِيسةً واحدة هي ذاتُ الكاتب. والتفّ على رجلي تِنّينان[١٣] عظيمان وقد خويَتْ[١٤] بطون الكلّ وتحكّم فيها سلطان الجوع ومن كانت هذه حالهُ فهو لا ريبَ من الهالِكين.

---

(١) وسط دائرتها.

(٢) الدائرة المحيطة بالكرة الأرضية.

(٣) الشمالي والجنوبي وهما طرفا محور الأرض والمحور هو القطر الوهمي الذي تدور عليه الأرض من المغرب إلى المشرق أثناء حركتها.

(٤) الإنس والجن. (٥) البقرة: ٧٤. (٦) أدبرت.

(٧) مفازة بعيدة. (٨) مظلمة. (٩) كثر وتراكم.

(١٠) السحاب المتراكم. (١١) بفتح عينه أو بكسرها تصوت.

(١٢) بفتح عينه أو بكسرها تصوت. (١٣) تثنية تنين الحية العظيمة.

(١٤) خلت.

تقطّع الأملُ وانفصمَت[١] عُرْوةُ الرّجاءِ، وانحلّت الثّقة بالأولياء، وضلّ الاعتقاد بالأصفياء، وبطَلَ القولُ بإجابة الدّعاء، وانفَطر[٢] من صَدْمةِ الباطل كَبِدُ السّماء، وحقَّتِ على أهل الأرض لعنةُ الله والملائكة والأنبياء وجميع العالمين.

سقَطت الهِمم وخربت الذّمم، وغاض[٣] ماءُ الوفاءِ وطُمستْ معالم الحقّ وحُرّفت الشّرائع وبُدّلت القوانين ولم يَبق إلّا هوىً يتحكم وشهواتٌ تُقضَى وغيظٌ يَحْتدِم[٤] وخشُونة تُنفذ «تملك سُنّة القدرِ» ﴿أَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾[٥].

ذَهب ذوُو السُّلطة في بُحور الحوَادث الماضية يَغُوصون لطلب أصدافٍ من الشُّبَهِ ومقذُوفاتٍ من التهم وسواقطَ من اللَّمَم[٦] ليُموّهُوها[٧] بمياه السفّسَطةِ ويُغشُّوها بأغشيةٍ من معادن القُوّة، ليُبْرزوها في معرض السَّطوة ويَغشُّوا بها أعين النّاظرين. لا يطلبُون ذلك لِغامضٍ يُبيّنونه أو لمستور يَكشِفونه أو لِحقّ خفيّ فيُظهرُونه أو خَرْقٍ بدَا فيرْقَعُونه أو نظامٍ فاسد فيُصلحونه. كلا. بل ليُثبتوا أنهم في حبس من حبَسُوا غيرُ مُخطئين. وقد وجدوا لذلك أعواناً مِن حُلفاء الدَّناءَة وأعداءِ المُروءَة وفاسدي الأخلاق وخُبثاءِ الأعراق[٨] رَضوا لأنفسهم قول الزّور وافتراء البهتان واخْتلاقَ الإفك[٩] وقد تقدّموا إلى مجلس التحقيق بتقاريرَ محشُوَّةٍ من الأباطيل ليكونوا بها علينا من لشَّاهدين.

كلُّ ذلك لم تأخذني فيه دهشَة ولم تحلّ قلبي وَحْشةٌ، بلْ أنا على أتمّ أوصَافي التي تَعلمُها غيرُ مُبال بما يصدُرُ به الحكم أو يُبْرِمهُ القَضاءُ، عالماً بأنّ كل ما يسوقه القَدَر وما ساقهُ من البلاء فهو نتيجةُ ظلْمٍ لا شُبْهَةَ للحقّ فيه، لأنّ الله تعالى يعلم، كما أنت تعلم، أنني بريءٌ من كل ما رمَوني به، لو اطّلعت عليه لولّيتَ منه رُعباً وكنتَ من الضاحكين.

نَعم حَنقني الغم وأحمى فؤادي الهمّ، وفارقني النَّوم ليلةً كاملَة عندما رأيتُ اسمك الكريم واسمَ بقيةِ الأبناء والإخوان المساكين تُنسب إليهم أعمال لم تَكن وأقوال لم تَصدُر عنهم لقد زجّهم في المجونين.

---

(١) انقطعت. (٢) انشق. (٣) ذهب.
(٤) يتحرك ويشتد. (٥) يوسف: ٥٢.
(٦) المتقارب من الذنوب واللمم أيضاً طرف من الجنون.
(٧) من التمويه وهو التلبيس. (٨) الأخلاق. (٩) الكذب.

لكن اطمأن قلبي وسكن جأشي[١] عندما رأيتُ تواريخ التقارير متقادمة. ومع ذلك لم يصلكم شررُ الشرّ فرجوْتُ أنّ الحكومة لم تُرِدْ أن تفتح باباً لا يَذرُ[٢] الأحياء ولا الميِّتين.

قدم فلانٌ وفلان تقريريْن جعلا تَبعَاتِ الحوادث الماضية على عُنقِي، ولم يتركا شيئاً من التّحْريف إلّا قالاه، وذكَرا أسماءكم في أمور أنتم جميعاً أبعدُ الناس عنها. لكن لا حَرَج عليهما فإني أراهما من المجانين. ولم أتعَجَّب من هذين الشخْصين إذ يَعملَان مثل هذا الذنب القبيح ويرتكبان هذا الجُرم[٣] الشّنيع، ولكن أخذني العجب «كلّ العجب غاية العجب بالِغْ ما شئت في عجبي» إذ أخبرني المُدافع عنّي بتقريرٍ قدّمه فلان الذي أرسلت إليه السّلام وأبْلغته سُروري عندما سمعت باستخدامه، وأنا في هذا الحبسِ رَهين.

إلى هذا الوقت لم يصِلْني التقرير ولكن سيَصل إليّ، إنما فيما بلغني أنه شهادةٌ بأقبح شيء لا يَشْهَدُ به إلّا عدوٌّ مبين. هذا اللّئيم الذي كنت أظن أنهُ يَألم لألمي ويأخذه الأسفُ لحالي ويَبذُلُ وُسعَه إن أمكنه في المُدَافعة عنّي، فكم قَدّمت له نفعاً ورفعتُ له ذِكراً وجعلت له منزِلةً في قلوب الحاكمين. كم سمعني أُقاومُ هجاء الجرائد وأُوسِعُ محرّرِيها لوْماً وتقرِيعاً وأهزأُ بتلك الحركات الجنونيّة، وكان هو عليّ في بَعض أفكاري هذه من اللّائمين. كان يَنْسُبُ فلاناً لِسوءِ القَصد اتّباعاً لرأي فلان وأعارِضه أشدّ المُعارَضة، ثم لم أنْقُض له عهداً ولم أبخَسْ له وُدّاً. وحقيقةً كنت مسروراً لوُجوده موظّفاً. فما بالهُ أصبح من النّاكثين؟ آه ما أطيبَ هذا القلبَ الذي يُملي هذه الأحرُف، ما أشدّ حفظهُ للوَلاء، ما أغيرَه على حقُوق الأوْلياء، وما أثبتَهُ على الوَفاء، ما أرقّهُ على الضّعَفاء، ما أشدَّ اهتمامهُ بشؤون الأصدقاء، ما أعظَمَ أسفَهُ لمصائب مَنْ بينهم وبينَهُ أدنى موَدّة، وإن كانوا فيها غيرَ صادقين. ما أبعدَ هذا القلبَ من الإيذاء ولو للأعداء، ما أشدّه رعايةً للودّ، ما أشدّه مُحَافَظَةً على العهد ما أعظمَ حِذْرَه من كلّ ما تُوبّخُ عليه الذّمم الطّاهرة، ما أقواه على العمل الحقّ، والقولِ الحقّ، لا يطلُبُ عليه جَزاء، وكم اهتمّ بمصالح قومٍ وكانوا عنها

(١) اضطراب القلب عند الفزع. (٢) لا يدع ولا يترك. (٣) الذنب.

غافلين. هذا القلبُ الذي يُؤلمونَه بأكاذيبهم هو الذي سرَّ قلوبهم بالتّرْقِية، وملأها فرحاً بالتّقدُّم ولَطّف خواطرَهم بحُسْن المُعامَلة، وشرَح صدورَهم بلطيف المجامَلة، ودافع عنهم أزماناً، خصوصاً هذا اللئيم.

أفَنَشْرَحُ الصُّدُورَ وهم يُحرجُون، ونشفي القلوب وهم يُؤلمون، ونُفْرِحُها وهم يحزنون؟ تالله ﴿قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾[١] هذا القلبُ ذابَ مُعظمهُ من الأسف على ما يلمّ بالهيئة العموميّة من مصائب هذه التقلّبات، وما ينشأُ عنها من فساد الطّباع الذي يجعل العموم في قَلَق مُسْتديم.

وما بَقِيَ من هذا القلب فهو في خوفٍ على من يَعرِفهم على عهد موَدّته، فإن تسلّلوا جميعاً بمثل هذه الأعمال أصبحوا من مودَّته خالين واتّخذُوه وقايةً لهم من المَضرّة وجعلوهُ تُرْساً يعرّضونَهُ لتَلَقّي سِهام النّوَائب التي يتوَهّمون تَفْويقَها إليهم كما اتخذوه قبلَ ذلك سَهْماً يُصيبون به أغراضَهم، فينالون منها حظُوظهم. فقد أراحوا تلك البقية من الفكر فيهم، والله يتولّى حسابَهم ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾[٢].

آه ما أظُنُّ أن تلك البقية تستريحُ من شاغل الفكر في شُؤون الأحبّة وإن جاروا في تصرُّفهم.

إنّ طبيعة هذا القلب لَطبيعةُ ناعم الخَزّ إذا اتصل بذي الودّ «وإن كان خشناً» فصعْبٌ أن يفصل ولو مزّقته خشونَته، وإن هذا القلبَ في علَاقةٍ مع الأودّاء كالضِّياء مع الحرَارة أيّما حادث يحْدث وأيّما كيماويّ يُدَقّق لا يجد للتّحليل بينهما سبيلاً، وأظُنُّك في العلم بثبوت تلك الطبيعة فيه كنت من المتحقّقين.

وكتب حافظ بك إبراهيم إلى الأستاذ الإمام الحكيم الشيخ محمد عبده[٣]:

كتابي إلى سيّدي وأنا من وعده بين الجَنّة والسَّلْسبيل[٤] ومن تِيهي[٥] بهِ فوق النَّثْرَة[٦] والإكليل[٧]، وقد تعجَّلْتُ السُّرور وتسَلّقْتُ الحُبور[٨] وقطعتُ ما بيني وبين النَّوَائب.

---

(١) الأنعام: ١٤٠.
(٢) الأنعام: ٦٢.
(٣) يشكو إليه حاله.
(٤) عين في الجنة.
(٥) عجبي.
(٦) كوكبان متقاربان بينهما قدر شبر وفيهما لطخ بياض كأنه قطعة سحاب.
(٧) من منازل القمر أربعة أنجم مصطفة.
(٨) الفرح ومعنى تسلق تسور أي: أتى الفرح من غير بابه. ويروى تسلفت بالفاء.

[الطويل]

وبشّرْتُ أهلي بالذي قد سمعتهُ فما مِنْحَتي[١] إلّا ليالٍ قلائلُ
وقلت لهم للشيخ فينا مشيئةٌ فليس لنا من دهرنا ما نُنازلُ[٢]

وجمعتُ فيه بين ثقة الزُّبيدي[٣] بالصَّمْصامة[٤] والحارثِ بالنَّعَامة[٥]، فلم أقل ما قال الهُذَلي[٦] لصاحبه حين نَسي وعْدَه[٧] وحجب رفْدَهُ[٨]: «يا دارَ عاتكة التي أتغزَّل»، بل أناديه نداءَ الأخيذَةِ[٩] في عَمُّوريّة[١٠] شجاع الدّولة العبَّاسية وأمُدُّ صوتي بذكر إحسانه مدَّ المؤذّن صوْته في أذانه، وأعتمدُ عليه في البُعد والقُرْب اعتمادَ المَلّاح[١١] على نجْمة القُطب[١٢].

[الطويل]

وقال أُصَيْحابي وقد هالني النَّوى[١٣] وهالَهمُ أمري متى أنتَ قافل[١٤]
فَقُلْت إذا شاء الإمامُ فأوْبتي[١٥] قَريبٌ وربعي[١٦] بالسَّعَادَة آهلُ

---

(١) بليتي. (٢) نضارب لأن الشيخ كفانا صدمات الدهر.
(٣) أو ربيعة عمرو بن معدي كرب ينتهي نسبه إلى قحطان. صحابي من شجعان الجاهلية والإسلام، وزبيدي نسبة إلى زبيد بضم الزاي قوم من اليمن.
(٤) اسم سيف عمرو. (٥) اسم فرس للحارث بن عباد البكري شيخ من العرب.
(٦) نديم الخليفة أبي جعفر المنصور العباسي كان لا يكلم الخليفة إلا جواباً.
(٧) وعده ولم يوف ولما مر على دار عاتكة بنت عوف قال الهذلي: هذه دار عاتكة التي يقول فيها الشاعر: يا دار عاتكة إلخ. . فعجب الخليفة كيف بدأه بالكلام على غير عادة ثم نظر الملك في قصيدة الشاعر فوجد فيها (وأراك تفعل ما تقول) فتذكر الخليفة الوعد.
(٨) عطاءه.
(٩) الأسيرة يريد بها امرأة من بني هاشم أسرها الروم فنادت وامعتصماه تعني المعتصم من خلفاء بني العباس فوصل الخبر إلى المعتصم فقال: لبيك! لبيك! وهمّ فحاربهم وخلصها.
(١٠) بلدة من بلاد الروم.
(١١) الملّاح: ربّان السفينة، البّحار.
(١٢) كوكب في السماء تدور عليه الكواكب وهو ثابت مكانه ينظر إليه صاحب السفينة فيعرف الجهة التي هو قاصدها.
(١٣) البعد. (١٤) راجع. (١٥) رجعتي.
(١٦) داري.

وها أنا متماسكٌ حتى تنحسر[١] هذه الغَمْرة[٢] وينطَويَ أجَلُ تلك الفترَة[٣]، وينظُرَ لي سيدي نظرةً تَرفَعني من ﴿ذَاتِ[٤] ٱلصَّدْعِ[٥]﴾[٦] إلى ﴿ذَاتِ[٧] ٱلرَّجْعِ[٨]﴾[٩] وتردّني إلى وَكْري[١٠] الذي فيه درجْت[١١] ردّ الشّمس قَطْرَة المُزن[١٢] إلى أصلها ورَدّ الوَفيّ الأمانات إلى أهلها.

[الطويل]

فإن شاءَ فالقُرْبُ الذي قد رَجوته وإن شاءَ فالعزُّ الذي أنا آمِلُ
وإلّا فإني قافُ رؤْبةَ[١٣] لم أزل بقيد النَّوَى حتى تَغولَ الغَوَائلُ

فلقد حَللتُ السُّودان حلولَ الكليم[١٤] في التّابوت[١٥] وَالمُغَاضِبِ[١٦] في جَوف الحوت بين الضّيق وَالشدّة والوَحْشةِ وَالوَحدَةِ. لا، بل حلول الوَزير[١٧] في تنُّور العذاب والكافر في مَوْقِف الحساب، بين ناريْن نار القيظ[١٨] ونار الغيظ.

[الطويل]

فناديت باسم الشيخ والقيظ جَمرهُ يذيب دماغ الضّب والعقل ذاهلُ
فصِرت كأني بينَ رَوْضٍ ومنهَلٍ تدبُّ الصّبا فيه وتَشدُو البَلابلُ

واليوم أكتب إليه وقد قَعَدت همَّة النَّجْمين وقصرتْ يد الجَديدَيْن[١٩] عن إزالة ما في نفس ذلك الجبّار العنيد. فلقد نَمَا ضِبٌّ[٢٠] ضِغْنهِ[٢١] عليّ وبدرَت[٢٢] بوادِرُ[٢٣] السُّوءِ منه إليّ، فأصبحت كما سرّ العدوّ وساء الحميم[٢٤] وآلامِي كأنها

(١) تنكشف. (٢) الشدة.
(٣) يريد المدة التي بينهما. (٤) الأرض. (٥) الشق.
(٦) الطارق: ١٢. (٧) السماء. (٨) صوت الرعد.
(٩) الطارق: ١١. (١٠) يريد وطنه وأصله عش الطائر.
(١١) مشيت. (١٢) المطر.
(١٣) رجل من العرب كان أكثر رويّ أراجيزه على القاف الساكنة.
(١٤) سيدنا موسى عليه السلام. (١٥) الذي وضعته أمه فيه وألقته في البحر.
(١٦) سيدنا يونس بن متى عليه السلام.
(١٧) محمد الزيات وزير الخليفة مروان الحمار أدخله التنّور الذي اصطنعه لتعذيب من يأمر بتعذيبه.
(١٨) شدة الحر. (١٩) الليل والنهار. (٢٠) بكسر الضاد الغيظ.
(٢١) حقده. (٢٢) أسرعت.
(٢٣) جمع بادرة الحدة عند الغضب. (٢٤) القريب الذي يهتم لأمره.

جلود أهل الجحيم، كلما نضِجَ منها أديمٌ تجدَّد أديم[١]، وأمسيت وملك آمالي إلى الزّوال أسْرَع من أَثر الشّهاب في السّماء، ودولة صبري إلى الاضْمحلال أحثُّ[٢] من حَبَابِ[٣] الماء، فنظرت في وجوه تلك العباد وإني لفارس العين والفؤاد فلم تقف فِراستي على غير بابك.

وإني أهديك سلاماً لو امتزج بالسَّحاب واختلط منه باللُّعاب لأصبحتْ تَتَهادَى[٤] بقَطره الأكاسِرة[٥]، وأمستْ تدَّخِر منه الرّهبان في الأديِرَة، ولأغنَى ذَات الحِجابِ عن الغالية[٦] والمَلاب[٧].

ولا بِدْع إذا جادَ السّيد بالرّدّ فقد يُرى وجه المليك في المرآة وخيَال القَمر في الإضاءة، وَإن حال حائلٌ دون أُمْنية هذا السائل فهو لا يذمّ يومَك ولا ييأسُ مِن غدك، فأنت خير ما تكون حين لا تظنّ نفسٌ بنفس خيراً. والسلام.

الفصل السابع: في رسائل العيادة

كتب ابن الرومي المتوفى سنة ٢٨٤هـ إلى بعضهم:

أذِنَ الله في شِفائك وتلقَّى داءَك بدوائك، ومسَحَ بيد العافية عليك ووجَّه وَفْدَ السلامة إليك وجعلَ علّتك ماحِيةً لذنوبك مضاعفةً لثوابك.

وكتب أبو بكر الخوارزمي المتوفى سنة ٣٨٣هـ:

وصل كِتَابك، يا سيّدي، فسرني نظَري إليه ثم غمّني اطلاعي عليه، لما تضمّنه مِن ذكر علّتك، جعل الله أوّلها كفّارةً وآخرها عافيةً ولا أعدمك على الأولى أجراً وعلى الأُخرى شكراً.

وبِودّي لو قرب عليّ متناوَل عيادتك فاحتملت عنك بالتعهّد والمساعدة بعضَ أعباءِ[٨] عِلّتك، فلقد خصّني من هذه العلّة قِسمٌ كقِسْمك ومَرض قلبي لمَرَضْ جِسْمك. وأظن أني لو لقيتك عليلاً لانصرفت عنك أنا أعَلّ منك، فإني بحمد الله

(١) الخلد.
(٢) أسرع.
(٣) ما يرى على وجه الماء من الفقاقيع.
(٤) نجعله هدية.
(٥) الملوك.
(٦) الطيب.
(٧) الزعفران.
(٨) جمع عبء الثقل.

تَعالى جَلْدٌ[١] على أوْجاعِ أعضائي غير جَلْدٍ على أوجاع أصدقائي. شَفاك الله وعافاك.

الفصل الثامن: في رسائل التهاني

كتب في التهنئة بميلاد الأولاد أبو منصور الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩هـ:

أهلاً وسهلاً بعقيلة[٢] النساء وأمّ الأبناء وجَالبةِ الأصهار والأولاد الأطهار.

[الوافر]

ولو كانَ النّساء كمِثل هذِي لفُضّلتِ النّساءُ على الرّجالِ
فما التأنيث لاسم الشمس عَيْبٌ ولا التَّذكير فَخْرٌ للهلالِ

والله يُعرّفُك البركة في مَطلَعها والسّعادةَ بموْقِعها. فالدُّنيا مُؤنثة والنّاس يخدمُونَها والذّكورُ يعبدونها. والأرض مؤنثة ومنها خلِقت البَريّة وفيها كَثرت الذّريّة. والسّماءُ مؤنثّة وقد زينت بالكواكب وحُلّيت بالنّجوم الثّواقب[٣]. والنّفس مؤنّثة وهي قِوام الأبدان ومِلاك الحيَوان. والحياة مؤنّثة ولولاها لم تَتصرّف الأجسام ولا تحَرّك الأنام. والجنّة مؤنّثة وبها وُعدَ المتقون وفيها تنعّم المرْسلون. فهنيئاً هنيئاً ما أُوليتِ وأوْزَعَكِ[٤] الله شكر ما أُعطيتِ، وأطال بقاءكِ ما عُرف النّسْل وما بَقيَ الأبَد.

وكتب بديع الزمان الهمذاني المتوفى سنة ٣٩٨هـ إلى الدّاوردي يهنئه بمولود:

حقاً لقدْ أنجز الإقبال وَعْدَه ووافقَ الطّالعُ سعده، وإنّ الشأنَ لفيما بعدَه وحبذَا الأصلُ وفَرعهُ وبُورك الغيثُ وصَوبه[٥] وأينَعَ الرَّوضُ ونَورُهُ[٦]. وحبّذا سماءٌ أطلعت فَرقَداً، وغابةٌ[٧] أبْرزتْ أسداً، وظَهْرٌ وافقَ سنداً، وذِكْر يَبقى أبداً، ومجْد يُسْمَى ولداً، وشرفٌ لُحمةٌ وسُدَى[٨].

---

(١) شديد. (٢) كريمتهن.
(٣) المضيئات. (٤) أقدرك. (٥) مطره وهو هنا كناية عن الولد.
(٦) زهرة الشجرة وهو كناية عن الولد أيضاً.
(٧) موضع الأسد الذي يألفه والمراد أصوله.
(٨) كلاهما من لحمة الثوب وسداه وهو كناية عن الصرف ظاهراً وباطناً.

[مجزوء الرجز]

أنجَب[١] كلٌّ مِنْ والديه به إذْ نجلاه فَنِعمَ ما انجلا
فألفياه[٢] شِهابَ ذَكاءٍ وبدْرَ عَلَاءٍ.
وَوَجدَاهُ ابنَ جلَا[٣] أَبْيَضَ[٤] يُدَّعى الجفَلَى[٥]
لمثلهِ أولَى فلا إذَا النَّديُّ[٦] احتفلا

وكتب في التهنئة بالقدوم أبو منصور الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩هـ:

أُهنِّئُ سيدي ونفسي تَطيب بما يَسّر الله من قدومه سالماً وأشكرُ الله على ذلك شكراً دائماً. جعل الله قدومَك مقروناً بالخيرَة التامَّة العامة، والكفاية الشّاملة الكامِلة.

غيبةُ المكارِم مَقرونةٌ بغَيبتِكَ وَأوْبة النّعَم موْصُولةٌ بأُوبتِكَ. فوَصل الله قدومَكَ من الكَرامة بأضعاف ما قرَن به مَسِيرك من السلامة، وهنَّاك بإيابك وبلَّغك غاية محابّك. ما زِلتُ بالنيّة معك مسافراً وباتصال الذّكر والفكر ملاقياً، إلى أن جمع شمْل سُرُوري بأوْبتك وسكَنَ نافرُ قلبي بعوْدتك.

وكتب أيضاً في التهنئة برمضان:

ساق الله إليك سعادةَ إهلاله وعرَّفك برَكة كماله. لقَّاك الله فيه ما ترجوه ورقَّاك إلى ما تُحبُّ في ما تتْلُوه جعلَ الله ما يطول من هذا الصوم مقروناً بأفضل القَبُول مُؤذناً بدَرْك البُغية ونجْح المأمول، ولا أخلاك من برّ مرفوع ودعاء مسمُوع. قابل الله بالقبول صيامَك وبعظيم المثوبة تَهجدك وقيامك. أعاد الله إلى مولاي أمثاله وتقبَّل فيه أعماله وأصلحَ في الدّين والدُّنيا أحواله وبلَّغه منها آمالَه. سعدَ الله مولاي بهذا الشهرِ ووفَّاه فيه أجزل المثُوبة والأجرِ.

---

(١) ولداه كريماً. (٢) وجداه. (٣) واضح الأمر.
(٤) نقي العرض شريفاً. (٥) دعاهم بجماعتهم وعامتهم.
(٦) مكان اجتماع الناس والاحتفال هو التجمع «أي لمثله نصوغ التهاني أولى فلا يحسن أن تصاغ لغيره». [البسيط]

بشرى فقد أنجز الإقبال ما وعدا وكوكب المجد في أفق العلا صعدا

وكتب أبو الفرج الببغاء المتوفى سنة ٣٩٨هـ تهنئة:

سيّدي، أيّده الله، ارفعُ قدراً وأنْبهُ ذِكراً، وأعظمُ نُبْلاً وأشهرُ فضلاً من أن نهنّئه بولاية وإن جلَّ خطرها وعظُم قدْرُها. لأنّ الواجبَ تهنئةُ الأعمال بفائِض عَدْله والرَّعِيَّةِ بمحمُود فِعله، والأقاليمِ بآثارِ رِيَاستهِ والولايات بَسِمَات سياسته. فعرّفه الله يُمْنَ ما تولّاهُ ورعَاه في سَائر ما استرعاهُ، ولا أخلاه من التّوفيق فيما يُعانيه والتَّسديد فيما يُبرِمهُ ويُمضِيه.

وكتب المرحوم الشيخ حمزة فتح الله المتوفى سنة ١٣٣٥هـ:

أي جهابذَة[١] الكِنانة[٢] بَالَ الجُنانة[٣] ميَاه الإجَّانة[٤] أبناء تلك اللُّغى صناديدَ هذه الوَغى، إليكم يُساقُ الحديثُ في القدِيم والحديث عن هذا النّبأ العظيم والمجد الصَّميم. ما لي أرَى في لغتنا الشريفة ـ ويعلمُ أولو النهى أيةٌ هي من اللغات أحق بهذا النّبْر[٥] أَن يُصْرفَ إليها عند الإطلاق ـ هُبوباً غِبَّ خمول، وتَرَّة[٦] بعد تحول، ونُوراً عَقيب أُفول، وَنَوْراً إثرَ ذُبول، وصَباً وَراءَ قَبول، وعدلاً ولا حَيف[٧] وقوَّة ولا ضعف، وما يشاء المُطرِي[٨] في هذا القبيل من العَطف. آمنت بالقدر المقدور والبَعث والنشُور كذلك يُحيي الله الموتى. أليس رجلٌ واحدٌ أسفرَت[٩] عنه عناية التّوْفيق فألقتْ إليه المقاليد[١٠]؟ بَلى[١١] ولكنه الواحد الذي يقول في مثله صاحب بني ميكال:

[الرجز]

والنـاس ألـفٌ منـهـمُ كـواحـدٍ وواحـدٌ كـالألـف إن أمـرٌ عَـنَـى[١٢]

بي[١٣] ورَبّ تلك البَنيَّة[١٤] بارئ[١٥] نَسَم البَرِيّة إنه لرجُلُ البلاد رجلُ الحزم والسّداد. ألم ترَ جَنَانه[١٦] وحنَانه وبنانَه[١٧] وبيانَه عوامل رَفعٍ لهذه اللّغة، لغةِ

---

(١) الحذاق ذوو النقد.
(٢) ما يوضع فيها السهام والمراد أنهم نقادون للمسائل.
(٣) بضم الجيم: الترس التي يتقى بها.
(٤) الإجانة بالكسر: إناء تغسل فيه الثياب وما حول الغراس شبه الأحواض، جمعه: أجاجين.
(٥) اللقب الرفيع. (٦) امتلاء الجسم بالسمن. (٧) الظلم والجور.
(٨) المادح. (٩) ظهرت. (١٠) المفاتيح.
(١١) كلمة جواب تثبت المنفي. (١٢) أهم الناس وأقلقهم.
(١٣) جواب مثل نعم. (١٤) بفتح الباء وزن غنية: الكعبة. (١٥) خالق.
(١٦) قلبه. (١٧) أنامل أصابعه.

الفُرْقان[١] ، لغة الأوْطان، لا بل أمضَى مِنَ العَوامل، حتى ظلّتْ آدابُها فرائض؟ وقد كانت وما بالعَهْدِ من قِدم نوافلَ ومن حُليها أجيادُ[٢] اللّهجاتِ عَواطلُ، اللهمّ إلَّا بقيَّة ثَمْد قدْ مُنيتْ[٣] صُحُفُها الأوَدُ[٤] ، ففقدت الجَلْد والجَلَد[٥] . وبعدَ أن رَاجَ سُوق الرّطانة[٦] ونضَبَ[٧] ماءُ الإبانة وخبَتْ[٨] أنوارُ البلاغة وزَوَتْ[٩] أنوارُ[١٠] النّباغة، وكَسَدَ البيانُ وقُوّض[١١] منه البُنْيان، وأصبحت العربيّة لقىً[١٢] مُلْقاةً وبِضاعةً مُزْجاةً[١٣] ، فأيّهذا اليَراع[١٤] لا أُقِلّ من نَفَثات في صَوْغ كُلَيْمات تَقدُرُ هذه النعمة قَدْرَها ويَمْنحُها[١٥] شُكرَها . ويْحَك[١٦] هُبّ[١٧] مِنْ سِنَتِك[١٨] في حِلْيَةِ مِقتِك[١٩] ، وانْض[٢٠] حُسامَك[٢١] واشْحذْ كَهامَك[٢٢] ، وانشُلْ[٢٣] كِنانَتَك[٢٤] وأعْمَلْ بنَانَتَكَ[٢٥] ، وصُغْ إن اسْتَطعْتَ تهانِئ غُرّاً بل عقوداً درّاً بل أنجُماً زُهْراً مِشتاراً[٢٦] ، من خلايا ذلك الأرْي[٢٧] الشّهِيّ[٢٨] النّدِي الذّكيّ، ما جَرَسَتْ[٢٩] نَحلُهُ الشّيحَ[٣٠] والخُزَامَى[٣١] ، وأطايِبَ الثّمار وأزاهِيَ الأزهار، تُهديهنّ أولئك المصاقِعُ[٣٢] شكراناً لتلك النّعم، تَجْميعاً لشواردها وتقييداً لأوابدِها[٣٣] ، كما شبهها رسولُ الله ﷺ وهو الصادق المَصدوق وإشفاقاً عليها من الجِماح[٣٤] بعد ذلك

---

(١) القرآن الشريف.
(٢) الأعناق. (٣) اختبرت.
(٤) الأود: الكد والتعب، ومراده اعتنى الناس بها لا عن بذل جهد.
(٥) القوة. (٦) كل لسان يخالف العربية. (٧) غار وذهب.
(٨) خفيت. (٩) ذبلت. (١٠) جمع نور بالفتح: الزهر.
(١١) نقض. (١٢) بالقصر: مطروحة. (١٣) قليلة.
(١٤) القلم. (١٥) نعطيها. (١٦) كلمة رحمة.
(١٧) استيقظ. (١٨) نومك. (١٩) محبتك.
(٢٠) سله عن غمده. (٢١) السيف القاطع.
(٢٢) شحذه: حده. والكهام بفتح الكاف: السيف الكليل.
(٢٣) استخرج ما فيها من النبال.
(٢٤) الجراب الذي توضع فيها النبل والسهام. (٢٥) إصبعك.
(٢٦) كثير الشراء. (٢٧) العسل. (٢٨) ما يشتهى.
(٢٩) أكلت. وأصله جرس الشيء جرساً لحسه بلسانه. (٣٠) نبت طيب الرائحة.
(٣١) بضم الخاء. نبت زهره أطيب الأزهار. (٣٢) جمع مصقع: البليغ.
(٣٣) لغرائبها. (٣٤) الذهاب بسرعة.

الارْتياح. فإليكم بَني هذه اللغة كتابي هذا تَهنئةً بتلك النَّهْضَة العَربية في إبّانٍ كما تعلمون وجهُهُ مُكفَهِرّ[١] وبدنهُ مُقشعرّ، وثناءً على العناية التوفيقية والعزمة الرّياضية.

على أنّ لهذا المولى الوزير سوى ذلك أيادي[٢] مبْرورَة ومساعي مشكورة، أكْسَبتِ الوَطنَ وأهليه نَهَضات أقالَته كثيراً من العَثَرات.

لكنّني آثرْتُ[٣] تلكُم النهضة العربيّة بتَهْنئتكم بها، أي بَني جِلْدَتي[٤] وإخوانَ حِرْفتي، لكونها فيما أخال لا بل فيما أتيَقّنُ أولو الحِجا[٥] أعظمَ النّهضات وأيْمَنَ[٦] ما اجتازُه[٧] الوطن من العقبات. لو كان في نِطاقِ الإمكان زيادة البيان في هذا الشّأن لأسهبْتُ[٨] وأوْسعْتُ وأطرَيتُ[٩] وأطنبْتُ، ولو لم يكن في تلك النّهضة، إلّا أن حياة الأُمة حياة لُغتِها فحسْبُ لكفاك وشفاك وأغناك وكان ذلك قصاراك[١٠] وحمَاداك[١١].

وكتب الأستاذ محمود بك أبو النصر:

إنسان عين الفضائل عزيزي فلان المحترم.

نُورٌ على نور وشفاءٌ لما في الصُّدُور شِفاؤكَ أيها العزيز من ذلك الرَّمد قد أنجزَ الإقبالُ ما وَعد، وآبتهَجت النُّفوس وتزَيَّنتِ الطُّروس؛ واهتزّت الأقلام وأعلنتْ بالسلَام.

[البسيط]

ولاح فجرُ التّهاني بالبشَائر إذ حَيّتْ فأحيَتْ رُبوعَ الفَضْل والأدب

وكيف لا! وأنت واحدُ الكُتّاب وإنسانُ عين الآداب، رَمِدْتَ فرَمِدَتْ، وشُفيتَ فاهتزّتْ وَرَبتْ، وقد كان طرْفها كليلاً وفؤادُها عليلاً. واليوْمَ زال العَناء وحقّ الهناء ووافى الشّفاء، فكان برْداً وسلاماً على القلوب وقميص يوسف في أجفان يعقوب.

---

(١) متعبس.
(٢) نعماً من ذلك الوزير الخطير مصطفى باشا رياض المتوفى سنة ١٣٣١هـ.
(٣) اخترت. (٤) بني عشيرتي. (٥) العقل.
(٦) أكثر بركة. (٧) سلكه. (٨) لأكثرت الكلام.
(٩) مدحت. (١٠) معناه مبلغ جهدك وغايتك.
(١١) غاية ما تحمد إليه.

[الكامل]

فلك الهناء بصحّةٍ ميمونةٍ أبداً على مرّ الدُّهور تدُوم

وإنّ الله ما قضى بما قد قضى إلا لِيُعَرّف سيدي مكانته من القلوب، ومنزلته من الفضل. وهذه حُلل العافيةِ قد خُلعت عليك، وثياب السّلامة سيقتْ إليك، فوافى السرور وعمّ الحُبور والله يبلّغُك بالصحّة والأعمال منتهى الآمال، والسلام.

وكتب الوزير عبد الله باشا فكري المتوفى سنة ١٣٠٨هـ في تهنئة العيد:

هذا يومٌ نَشَرَ البِشْرُ فيه أعلامَه، وأضاءت الدُّنيا وازدانت الآفاق ببَهجة هذا العيد السّعيد، وأخذَ الأحبَّةُ يتهادَوْن رسائلَ البشائر فيما بينهم، وكلُّ حزْبٍ فَرِحون بما لدَيهم بما أوْدَعَ فيهم من روابطِ المحبّةِ وعواملِ الاتحاد السّارية في النفوس. أمّا أنا فعيدي وبهجةُ نفسي وسرُورُ فؤادي دوامُ إقبال الزّمان عليك بوجه النّصر وعَوْدُ أعياد السُّرُور على جنابك الرَّفيع، فمثلُك تَشْرُقُ الدُّنيا بطلعتهِ وتفرَحُ الأعيادُ برُؤيته.

[الكامل]

وأرَى الحياةَ لذيذةً بحياته وأرَى الوُجودَ مُشرَّفاً بوجودِهِ

لو أنّني خُيّرْتُ من دهري المُنى لاخترْتُ طولَ بقائه وخلودِهِ

أعاد الله عليك أيها الأخُ أمثالَهُ وأمثال أمثالهِ في صَفاء وهَناء.

الفصل التاسع في رسائل التعازي والتأبين

كتب أبو منصور الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩هـ:

خبرٌ عزّ عليَّ مُستَمعهُ وأثّرَ في قلبي موقعه. خبرٌ تستاء[١] له المسامِع وترتجّ منه الأضالع. خبرٌ يَهُدُّ الرّواسي[٢] ويَفْلقُ الحجرَ القاسي. كادت له القلوبُ تطير والعقولُ تَطيش والنُّفوسُ تَطيح[٣]. خبرٌ يُشيب الوَليدَ ويُذيب الحديد.

قد كادَ من الحُزن أن تنْقبضَ الألسنُ عن هذا النّعي الفادِح[٤] وتخرَس، وتقْصُرَ الأيدي عن التَّعزية بهذا الرُّزْء[٥] الفادح وتَيْبسُ.

---

(١) تتألم وتتأثر من أجله. (٢) الجبال. (٣) تهلك.

(٤) الذي يثقل الناس ويهمهم. (٥) المصيبة.

وكتب أبو الفضل بديع الزمان الهمذاني المتوفى سنة ٣٩٨هـ:

إذا ما الدّهر جرّ على أُناسٍ مَصَائِبَهُ أناخَ بآخرينا
فقل للشّامِتين بنا أفيقوا سيَلْقى الشّامِتُون كما لَقينَا

أحسنُ ما في الدّهر عمومهُ بالنوائِب وخصوصهُ بالرَّغائب. فهو يدعُو الجَفَلَى[١] إذا ساء ويخصّ بالنِّعمة إذا شاء. فليفكر الشَّامتُ، فإن كان أفْلَتَ[٢] فله أن يشمَت. ولينظر الإنسانُ في الدّهر وصُرُوفهِ والموتِ وصُنُوفه، من فاتحة أمره إلى خاتمةِ عمره، هل يجدُ لنفسه أثراً في نفسه، أم لتدبيره عَوْناً على تصويره، أمْ لعَمله تقديماً لأمله، أم لِحَيله تأخيراً لأجله؟ كلّا، بل هو العبد لم يكن شيئاً مذكوراً خُلِقَ مقهوراً، فهو يَحْيا جَبراً ويَهلكَ صَبراً. وليتأمّلِ المرءُ كيف كان قَبلاً فإن كان العدمُ أصلاً والوجودُ فَضْلاً فليعلم الموتَ عَدْلاً...

والموتُ ـ أطال الله بقاء مولاي ـ خَطْبٌ قد عَظُم حتى هان وأمرٌ قد خشُن حتى لانَ، ولعلّ هذا السَّهم قد صارَ آخر ما في كِنانَتها[٣] وأزْكى[٤] ما في خِزانتها. ونحنُ معاشرَ التَّبَع نتعلَّم الأدبَ من أقواله والجميلَ من أفعاله، فلا نَحُثُّه على الجميل وهو الصّبر ولا نُرْغبهُ في الجزيل وهو الأجر. فَلْيَرَ فيهما رايه.

وكتب أيضاً:

يا سيدي، المُصاب، لَعَمْرُ الله، كبيرٌ وأنت بالجزَع جَدير، ولكنَّك بالصبر أجْدَر، والعَزَاء عن الأعزة رُشْد كأنهُ الغيّ، وقد مات المَيّتُ فليَحْيَ الحيّ.

وكتب فقيد اللغة الشيخ إبراهيم اليازجي المتوفى سنة ١٩٠٦م:

أشباحٌ ترُوح وتجيء، وآجالٌ تمـي وتَغتَدِي، وأنفاسٌ تتقطّعُ من دونها حزناً وأسفاً وَعَبَراتٌ تتفطّرُ وَجداً ولهفاً. وما عَمَدَت الأقدار إلى استنزاف مدْمع ولا أرادت الأيام إيلامَ مُوجَع، إنما هي سُنّةُ الخَلق: كونٌ يليه زوال وعقْدٌ يَسبقُه انحلال. وإن لكلّ شيء أجلاً موْقوتاً، وإن لكلّ أجل سبباً مقدُوراً، وإنّ الإنسانَ

(١) يدعو الناس بعامتهم وجماعتهم.
(٢) أطلق وخلص وسلم من نوائب الدهر.
(٣) الجراب الذي توضع فيه السهام.
(٤) أطهر وأنفس لأنه لا يحزن إلا ما كان نفيساً.

لفي كلّ ذلك شاهدٌ يسمعُ لاهياً ويُبصر ساهياً، وليس في يده أن يسترد ماضياً ولا أن يُردّ آتياً.

ولقد ودِدت أن أُعزّيك لولا ما يغالبني على العزاء من كبدٍ حرّى ومُقْلة شكرَى وزَفرة تَترى، ثم ودِدت أن أبكيك لولا أني بكيتُ حتى لم أدع للبكاء من واد، وأحيَيتُ لياليّ بالنّوح حتى ما بالنّجم سُهاد. ثم لم يزدني البكاء على سُقم جَسَدي ولم يزدني النَّوح على صفر يدي إلّا من كَبدي، وإن الأقدارَ سِهامٌ إذا انطلقت لم تُرَدّ، وإن المُتَطلّعَ إلى الفائت لطويل شُقة الكَمَد، وإن الخُطوبَ لهي هي وإنما تتفاوت عند الجَلَد.

[الطويل]

وإن الحصى عند الجَزُوع ثقيلةٌ وضَخْم الصّفا عند الصّبور خفيف

والله المسؤول في إطالة بقائك قُرّة للعيون وجبراً لخاطر المحزون بمنّه وكرمه.

تأبين الأحنف[١] بن قيس:

مات الأحنفُ بن قيس بالكوفة فمشى مصعب بن الزبير في جنازته بغير رداء[٢] وقال قوم: مات سيد العرب. فلما دفن قامت امرأة على قبره فقالت: لله درك[٣] من مجنّ[٤] في جَنن ومُدرج في كفن، فنسأل الذي فَجَعنا بموتك وابتلانا بفقدك أن يجعل سبيل الخير سبيلك، ودليل الرشد دليلك، وأن يُوسِع لك في قبرك، ويغفر لك يوم حشرك، فوالله لقد كنت في المحافل شريفاً، وعلى الأرامل عطوفاً، ولقد كنت في الحي مُسَوّداً، وإلى الخليفة موفداً، ولقد كانوا لقولك مستمعين، ولرأيك متبعين.

ثم أقبلت على الناس فقالت: ألا إن أولياء الله في بلاده، شهود عباده، وإني لقائلة حقاً، ومثنية صدقاً، وهو أهل لحُسن الثناء، وطيب البقاء، أمل والذي كنت

---

(١) اسمه الضحاك وكان سيد تميم في عهده معروفاً بالعقل والدهاء والعلم والحلم إضافة إلى ثبات جنانه وحسن بيانه. وحياته مملوءة بجلائل الأعمال وكريم الفعال توفي سنة ٦٧هـ.

(٢) كانت عاداتهم في جنائز العظماء.

(٣) الدر: اللبن والعمل، ولله درك: كلمة تعجب.

(٤) أجنه: ستره والجنن: القبر ومن بدائع العربية أن مادة (ج ن ن) تدل على الستر كالجن والجنون والجنة والمجن والجنان والجنين.

من أجله في عِدَّة ومن الحياة إلى مُدَّة، ومن المقدار إلى غاية، ومن الآثار إلى نهاية، الذي رفع عملك، لمّا قضى أجلك، لقد عشت حميداً مودوداً ومت سعيداً مفقوداً[١]. ثم انصرفت وهي تقول:

[الكامل]

لله دَرك يـــا أبـــا بـــحـــر ماذا تـغـيـب مـنـكَ فـي الـقـبـرِ
لله درك أيَّ حـــشـــو ثـــرَى أصـبـحـت مـن عُـرْف ومـن نـكـرِ
إن كـان دهـر فـيـك جـدّ لـنـا حـدثـانَـهُ ووهـت قـوى الـصـبـرِ[٢]
فـلـكـمْ يـد أسـديـتـهـا ويـد كـانـت تـرُد جـرائـر الـدهـرِ

ثم انصرفت فسئل عنها فإذا هي امرأته وابنة عمه[٣] فقال الناس: ما سمعنا كلام امرأة لا أصدق و لا أبلغ منه.

تابين الإسكندر:

لما جُعل الإسكندر في تابوت من ذهب تقدم إليه أحد الحكماء فقال: كان الملك يخبئ الذهب وقد صار الآن الذهب يخبؤه. وتقدم إليه آخر والناس يبكون ويجزعون فقال: حرَّكنا بكونه.

وتقدم إليه آخر فقال: كان الملك يعظنا في حياته وهو اليوم أوعظ منه أمس[٤]. وتقدم إليه آخر فقال: قد طاف الأرضين وتملكها ثم جعل منها في أربعة أذرع. ووقف عليه فقال: ما لك لا تُقِلّ عضواً من أعضائك وقد كنت تستقلُّ مُلك العباد؟

وقال آخر: مالك لا ترغب بنفسك عن ضيق المكان وقد كنت ترغب بها عن رحْب البلاد؟

---

(١) يقولون: مات فلان غير حميد ولا فقيد أي: غير مكترث لفقدانه. فقولها: مفقوداً تريد يحزن الناس فقدك.

(٢) حدثان الدهر: نوائبه.

(٣) ذكر صاحب بليغات النساء أن اسمها بنت هشام المنقروية.

(٤) أخذ أبو العتاهية هذا المعنى فقال: [الوافر]

وكـانـت فـي حـيـاتـك لـي عـظـات وأنـت الـيـوم أوعـظ مـنـك حـيـا

الفصل العاشر: في رسائل الأجوبة

كتب الوزير عبد الله باشا فكري المتوفّى سنة ١٣٠٨هـ:

سيّدي، سلّمك الله وحيّاك وأسعدني برؤية مُحَيَّاك، وزاد عزّك وعُلْياك وحرسَ دينك ودنياك، وجمعني على بَساط المسرَّة وإيّاك ولا حرمني دوام لُقياك، ولا بَرِح الدّهر مُبتَسم الثّغر بمحاسن معاليك مُباهياً أعصار الأوائل بأيامك ولياليك، محلّياً أجياد المفاخر بزواهر لآليك.

ورَد عليّ كتابك الكريم مورد إعزاز وتكريم، فَبلّ ما في الجوانح من الصّدى وأنعشني ولا انْتعاش الزّهر بمُباكرة النّدى، وجلا عليَّ من البلاغة رَوْضاً غَضّاً وأَدار لديَّ صَفْواً من سُلَاف المحبّة محضاً، وهزّني هزّة النّشوان شوْقاً وطرباً واستفزَّني بمعجز آياته الحسان عُجباً وعَجباً، ونثر عليّ من محاسن لفظك الحُرّ وكلماتك الغُرّ ما يُخجلُ الدَّراري ويفضَح الدُّرُ.

[الطويل]

كلامٌ كَسَتْهُ بهجةُ الحُسْن رَوْنقاً هو السّحر لا بل جلَّ قدراً عن السّحر

وكتب أيضاً وهو بالأستانة العليّة في يوم برد كثير الأمطار:

كتبتُ إليك والأمطارُ ساجمة[١] بطلّها[٢] ووَبْلها[٣]، وعَسَاكر البرْد والبرَد هاجِمةٌ بخيلها ورجْلها[٤]، والسّماءُ مُتلفّعةٌ بأذيال السّحاب وكأنّ الشّمس خافت من الطلِّ فتوارت بالحجَاب، والجوُّ مِسكيّ الرّداء عنبريّ الأرجاء، كأنه وعليه ثوب الغيم مزْرُورٌ قَد وَجِل[٥] من صَوْلة البرد فلبس فرْوة السَّمُور، والغمام قد أَناغَ على الأُفُقِ بكَلاكِلِه[٦] وهزّ من البرْق بيض مناصله[٧]، ونشرَ في الجوّ طرائق مطَارِفه[٨]، وجاد على الأرض بتَلِيدِهِ[٩] وطارِفه وثقلَ على كاهل الهَواء كالطير بلَّ جناحَه بالماء، وقرُب حتى كاد يُمسك باليدين ويُعتصر بالراحتين، أو كأنه مرْآةٌ مذهَّبةٌ تبدو

(١) سائلة. (٢) الندى. (٣) المطر الكثير.
(٤) المشاة على أرجلهم. (٥) خاف. (٦) بجماعاته.
(٧) سيوفه. (٨) ثياب من خزٍّ مربعة والمراد أنه كثر حتى غطى السماء.
(٩) المال القديم والطارف ضده والمراد كثرة مطره.

وتَخفَى أو جُذْوةٌ[١] متلهّبةُ تُوقدُ وتُطفَى، والرّعدُ يُهدِّدُ بزواجر زماجره الـحَائب فيُبكيها، والطير يتلو سُطُور النّدى في طُرُوس الثرى[٢] فيُميلها، ويُطربُ بأفنانِ[٣] الألحان أفنان[٤] البَان فَيُعليها ويثُنيها، ويقرأ على رؤوس الأغصان أورادَه الحسان فيُقريها ويَرقيها، وقوسُ السّماء يرمي بسهام وَبْله[٥] جنوب الشّقائق[٦] فيُصميها[٧] ويدْميها والرِّيح تمسحُ أخلافَ[٨] الغمائم فتُمريها[٩] وتُرْضعُ بدَرِّها بنات النّبات في حُجُور أراضيها فتُرَبّيها وتربيها، وترضّعُ بدرّها يتجان القضبان وتارة تجعله عقوداً في تراقيها[١٠] أو دموعاً في أماقيها، وكأنّ الحرّ خافَ من بنادق البَرْد ومدافع الرّعد ففرّ إلى مصر ونواحيها، وأصبح نزيلَ مَنْ فيها لكَرَم أهليها، وكأنّ غيرها بخلت عليه فلم تقبله عندها ضيفاً أو غَلط الناس في حساب الفصُول فظنُّوا شتاها صيفاً.

وكتب المرحوم حفني بك ناصف إلى الشيخ علي الليثي:

وصل يا مولاي إلى هذا الطَّرَف ما خصّصت به العبدَ من الطُّرَف، «قفصٌ» من عنَب كاللؤلؤ في الصّدَف تتألق عناقيده كأنها من صناعة النجف. ولَعَمْرُ الحقّ إنها تُحفة مِن أحلى التُّحف لا يعثرُ على مثلها إلّا بطريق «الصُّدَف». فقابلناه لَثْماً بالأفواه ورشفاً بالشّفاه، واحتَفَينا[١١] بقدُومه كلّ الاحتفاء ولم نُفرّط في حَبَّةٍ عند اللّقاء، بل حَلّلناه له الحُبَى[١٢] وقلنا له أهلاً وسهلاً ومرحباً، وأوْسعناه عضّاً ولثْماً وتناولناه تَجْميشاً[١٣] وضَمّاً وحفظنا في صدورنا سرَّه المكنون وطويناه في غضُون[١٤] البُطون، فطربتْ من تعاطيه الأرواح ولا غَرْوَ فهو أصل الرّاح[١٥]. وانتَشَيْنا[١٦] ولم نحصل وِزْراً وثَمِلْنا[١٧] ولم نَذُقْ طَعْماً مرّاً. فهو كبيان مُهديه سِحْرٌ ولكنه حلالٌ ولَعِبٌ إلا أنه كمال. فإن أكْـبَـتِ الشُّمولُ شاربَها قوّة في الجنان

(١) بتثليث الجيم: الجمرة. (٢) الأرض. (٣) جمع فنن: الغصن.
(٤) الأغصان الناعمة. (٥) المطر الكثير. (٦) شقائق النعمان: نبت أحمر.
(٧) يرميها، ومراده أنه يرميها بالمطر حتى تزهو فتحمر.
(٨) جمع خلف بالكسر: الضرع.
(٩) مرى الناقة يمريها: إذا مسح ضرعها لتدر اللبن. (١٠) أعناقها.
(١١) بالغنا في إكرامه وأظهرنا الفرح والسرور. (١٢) الحبال.
(١٣) المغازلة والملاعبة. (١٤) طيات البطون.
(١٥) الخمرة. (١٦) سكرنا. (١٧) سكرنا أيضاً.

ونَفَحت[١] ذائقها طلاقة في اللّسان، فقد سَرَتْ في أجسامنا من حرارته شجاعةٌ «ليثيّة» ودبّت في كلامنا من مذاقتهِ فصاحةٌ «علويّة»، وخَلُصَتْ إلينا منه فوائدُ لا يحيط بها العلم ونَجَمتْ[٢] عنه منافع ليس يصْحبُها إثمٌ. فإن زعم الأولون أن في الخمر معنىً ليس في العنَب، فقد تغيّر الحال في هذه الهديّة وانقلبَ، وانكشف للمتأخرين حقيقةُ الأمر أنّ في العِنب معنىً ليس في الخمر.

وكان الأحرَى بهذا العنب أن يُناط[٣] بالنُّحور أو تُزَيَّن به الصُّدور، فما هو إلا اللؤلؤُ لكنّه سَلِمَ من سِجْن البحار، وما هو إلّا الدُّرُّ لكن ليس فيه صُغَار[٤].

[المتقارب]

ومَنْ كنتَ بحراً له ياعليّ لا يَلتقطُ الدُّرُ إلّا كُباراً

وما ضرّه أن ضمّهُ القَفَص حصَّةً من الحصص، فإن كريم الطير يُودَعُ في الأقفاص والقلب ليس له من حنايا الضُّلوع خلَاص. فلا بِدعَ أن تستقلّ في حبَّاته حبَّاتُ القلوب ويُسْتَمْلَحَ في جنب حَلَاوَتهِ رُضابُ[٥] المحبوب. وكأنّ الثريا لما أخذَتْ شكلَهُ فغَرَ[٦] الهلال فاهُ لعُنْقودها يُريد أكلهُ. فهو يطارِدها في السَّماء ويأخذ عليها الطريق من الوَراء، وهي تجري من الأمام مخافة الالتهام. هذا لمجرّد تشابه في الشكل، فكيف بالثريّا لو أشبَهَتْهُ حلاوةً وريّاً[٧]. فلله تلك العناقيدُ ما أشدّ تألقَها وأصفَى ماءها وأحسن رَوْنقها، من كل عنقودٍ تخاله عمودَ الصُّبح أحاطتْ به الدَّراري أو غُصنَ البان تعلَّقت به القماري.

فسَقَى الغيثُ أرضاً أنبَتَتْه، ولا ثَلَّ[٨] الدّهر عُرْوشاً حملته، وأرْضاً عرّفتنا بأثمارها حَلاوة الجنَّة وأبرَزت لنا لمحة من محاسنها المتكنَّة، وأنْسَانا عِنَبها ذكرَى دمشْق[٩] وأزْمير وأنبأنا غارِسُها أن مصر خيرُ مُستَقرّ ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[١٠]، وعروساً كالعروس تَتيه[١١] في الحلْي والملبُوس تحسُدها المجرَّة[١٢] في السّماء،

(١) أعطت. (٢) ظهرت. (٣) يعلق.
(٤) بضم الصاد: الصغير.
(٥) ريقه. (٦) فتح. (٧) منظراً حسناً.
(٨) لا هدم. (٩) عاصمة الشام سميت باسم بانيها دمشاق بن كنعان.
(١٠) فاطر: ١٤. (١١) تبختر.
(١٢) نجوم كثيرة لا تدرك بمجرد البصر وإنما ينتشر ضوءها فيرى كأنه بقعة بيضاء.

وتوَدُّ لو تكون لها هذه البهجةُ والرُّواء[١]. لا زال مولاي يهدى ويُهدي وصنائعه تُعيد في ثنائه وتبدي.

وأجابه المرحوم الشيخ علي الليثي:

وأمّا بعدُ: فقد وصل كتاب القاضي الفاضل فأرَّجَ الأرجاء بلطيف فواضله وشريف الفضائل. وما كنت أظُنُّ أن يحصلَ من زبيبة خماره حتى رأيت الفاضل سبكه في قوالبَ شتَّى وصاغه، وأتى بما أدهش اللُّبُ من أساليب البلاغة، فتارةً عقْداً على النُّحُور وتارةً في ميادين الطلب تُطارِدُه البدُور، وآونة دُرّاً مكبّراً ومرَّة خمراً مُعنبراً، وساعة دوالي «نجفَه» وساعة غُصناً تعلَّق به الهزَار[٢] وأَلِفه.

[الوافر]

تكاثرَتِ الظّباءُ على خراشٍ فما يدْرِي خراشٌ ما يصيدُ

عجباً لك أيها الفاضل، هذا مع اشتغال بالك وإقبالك على ما لديك من مراعاة عدلك واعتدالك. فكيف لو تفرَّغت لهذا الأمر، ولإراحة النفس اعتصرتَ من العنقود قدحاً من خمر، وامتطَيْتَ[٣] طرَف اليراع منتهجاً مناهج الطّرْس ودَبجتَ[٤] بياض صفحاته بمحاسن حلى النفس[٥]؟

فللّه أنت من بليغ بلغ ما يريد وقلد فَرَائدَ آدابه كلّ جيد، وأفاد السِّحْرَ منثوراً في فواصله وأقام بعوامل أقلامه تثقيفَ عوامله، وأوجب علينا الشهادة له بالسبق فأذعنا مسلمين والحقُّ أحقّ. هذا ولولا أن يقال فلان جفا وما احتفل بكتاب أخيه ولا اَحتفى[٦]، وإن كان شيبي يُلزمُني ذلك كما أن شباب (البيك) يسلُك به أقوم الممالك، لَمَتَرْتُ عِيبيّ وما أشرْت ورأيتُ طَيِّي خيراً لي ممّا نشرت، وجعلتُ كتاب سيّدي في عنقي أمانة تَمِيمَةً[٧] ورَوَّحتُ النفس تيمُّناً بمسّ[٨] آياته الكريمة، وقلتُ كفاني ما أحاط بالعنق من قلائده حيثُ العبد لا يبلغ في الفخامة كمال سيّده.

[الوافر]

وهبْني قلتُ هذا الصُّبح ليلٌ أيعمى العالَمون عن الضّياء

---

(١) بضم الراء: حسن المنظر.
(٢) بفتح الهاء: طائر يقال له العندليب.
(٣) علوت.
(٤) نقشت.
(٥) بكسر النون: الحبر.
(٦) ولا سأل.
(٧) ما تكتب وتعلق في عنق الصبية للحرز.
(٨) تبركاً.

لا زالت بُرُد الترَسُّل بيننا مستمرّةً ومُدَد التوَصُّل على جَناح التّقرب مُستقرّة، ولا بَرح الجنابُ في كلّ بداية يترقى كما يحب من غاية إلى غاية. والسلام.

الفصل الحادي عشر: في رسائل الوصايا والشفاعات

من وصية عمر بن الخطاب لسعد بن أبي وقاص في غزوة الفرس:

إن هذا الأمر لم يكن نَصرهُ ولا خذْلانُه بكَثرَةٍ ولا قلّة وهو دين الله الذي أظهرَه وجُنْدُه الذي أعَدّه وأمَدّه، حتى بلغ ما بلغ، وطَلَعَ حيثُما طَلع ونحن على موْعد من الله والله مُنْجِزٌ وعده وناصرٌ جُنده. ومكان القيّم بالأمرْ مكان النّظام من الخَرَز يَجْمَعهُ ويضمّه، فإذا انقطع النّظام تفرّق الخرز وذهبَ ثم لم يجتمع بحذافيره أبداً.

والعرَب اليوْمَ وإن كانوا قليلاً فهمْ كثيرُون بالإسلام عزِيزُون بالاجتماع. فكن قُطْباً واْستَدر الرّحى بالعرَب، وأصلهِمْ دُونك نارَ الحرْب، فإنك إن شخصتَ من هذه الأرض انقضتْ عليك العرَب من أطرافها وأقطارِها، حتى يكون ما تَدَعُ وراءَك من العَوْرات أهمّ إليك مما بين يديك.

إن الأعاجم إن يَنظرُوا إليك غداً يقولوا: هذا أصل العرب، فإذا قطَعتُموه استرحْتُم فيكون ذلك أشدّ لكَلبِهم عليك وطمَعِهم فيك. فأمّا ما ذَكرْت من مَسيرِ القوْم إلى قتال المسلمين فإن الله سُبحانه هو أكْرَه لمَسيرهم منك وهو أقدر على تغيير ما يَكْرَه. وأما ما ذكرْت من عَدَدهم فإنَّا لم نكن نُقاتِل فيما مضى بالكثْرَة وإنما كنّا نُقاتل بالنّصر والمَعُونة.

من وصية للنبي عليه الصلاة والسلام:

أمّا بعدُ: فقد جعل الله لي عليكم حقاً بولاية أمْرِكم، ولكم عليّ من الحقِّ مثل الذي لي عليكم. فالحقُّ أوسعُ الأشياء في التّواصُف وأضيقُها في التنَاصُف، لا يَجْري لأحد إلا جَرَى عليه ولا يجْري عليه إلا جرى له. ولو كان لأحد أن يَجْري له ولا يجري عليه لكان ذلك خالصاً لله سبحانه دون خلْقه، لقُدْرته على عباده ولِعَدله في كل ما جَرَت عليه صُرُوف قضائه. ولكنّه جعل حقه على العباد أن يُطيعوه، وجعل جزاءهم عليه مُضاعفة الثّوَاب تَفَضلاً منه وتوَسُّعاً بما هو من المَزيد

أهلهُ، ثم جعل سبحانه من حقُوقه حقُوقاً افترَضها لبعض الناس على بعض، فجعلها تتكافأُ في وُجوهها ويُوجب بعضُها بعضاً وَلا يُسْتَوجب بعضها إلا ببعض.

وأعْظَمُ ما افترَض سبحانه من تلك الحُقُوق حقّ الوالي على الرعيّة، وحقّ الرّعيَّة على الوالي فريضة فرضها سبحانه لكلّ على كلّ، فَجَعَلَهَا نظاماً لأُلْفَتهم وَعِزّاً لدينهم. فليست تصْلح الرّعية إلَّا بصَلَاح الوُلاة، وَلا تصْلح الوُلاة إلَّا باسْتقامة الرّعيَّة.

فإذا أدّت الرّعيَّة إلى الوالي حقه وأدّى الوالي إليها حَقّها، عَزَّ الحقُّ بينهم وقامت مناهج الدّين واعْتَدَلت معالم العَدْل وَجَرَت على أذْلالِها السُّنَنُ، فصلح بذلك الزمان وطُمع في بقاء الدولة، ويئسَتْ مَطامعُ الأعْدَاء.

وَإذا غَلَبتِ الرعيَّةُ واليها، وَأجحفت الوالي برعيّته اخْتَلَفَتْ هنالك الكلِمة، وظَهَرَت معالم الجَوْر، وكثُر الإدْغال في الدّين، وتركت محاج السُّنَن، فعمل بالهوى، وعطّلَت الأحكام، وكثرَتْ علَلُ النُّفوس فلا يُسْتوْحش لعظيم حقٍّ عُطّل وَلا لعظيم حقّ عطل وَلا لعظيم باطلٍ فُعل. فهنالك تَذِلُّ الأبْرَار وتَعزّ الأشْرار وتَعظُم تَبِعاتُ الله عند العباد.

فعليكم بالتّناصُح في ذلك وحسْن التعَاونُ عليه، فليس أحد وإن اشتد على رِضاء الله حرْصُه وَطال في العمل اجتهادُه، ببالغٍ حقيقةَ ما الله أهله من الطاعة. ولكن مِن واجب حقوق الله على العباد النّصيحة بمبلغ جهْدهم والتعاوُن على إقامة الحق بينهم، وليس امْرُؤٌ وإن عَظُمت في الحقّ منْزلَته وتقدّمتْ في الدّين فضيلته، بفَوْقَ أن يُعان على ما حمَّله الله من حَقّه، ولا امْرؤ وإن صَغّرَتْه النفوس واقْتَحَمَتْه العُيون بدون أن يُعين على ذلك أوْ يُعانَ عليه.

فأجابهُ عليه السلام رَجل من أصحابه بكلام طويل يكثِرُ فيه الثّناء عليه ويَذْكر سمْعه وطاعتَه، فقال عليه السلام: إن مِنْ حقّ مَن عَظم جلالُ الله في نفسه وَجَلّ موضِعهُ من قَلْبه، أنْ يَصغُرَ عنده لِعِظم ذلك كلُّ ما سواه. وإنّ أحقّ مَنْ كان كذلك لَمَنْ عظُمت نعمَةُ الله عليه ولُطْفُ إحسانه إليه فإنه لم تَعْظم نعمةُ الله على أحد إلَّا ازْداد حَقُّ الله عليه عِظماً، وإن مِن أخَفِ حالاتِ الوُلاة عند صالح الناس أن يُظَنَّ بهم حُبُّ الفخر ويُوضَعَ أمْرُهم على الكِبَر.

وَقد كَرِهْتُ أن يكون جالَ في ظَنكم أنّي أُحِبّ الإطْرَاء واستماع الثّناء، ولَسْتُ بحمد الله كذلك، ولو كنت أُحِبّ أن يقال ذلك لتركتُه انحطاطاً لله سبحانه عن تَناوُل ما هو أحق بهِ من العظَمة والكبرياء. وربما اسْتَحْلى النّاسُ الثناءَ بعد البَلاء، فلا تثْنُوا عليّ بجميل ثَناء لإخْرَاجي نفسي إلى الله وإليكم من التَّقيّة في حقوقٍ لم أفْرُغْ مِن أدائِها، وفرائضَ لابُدَّ من إمضائها. فلا تكلّموني بما تكَلّمُ بهِ الجبابرة، ولا تحفّظوا مني بما يتحفظ به عند أهل البادِرة، ولا تخالطوني بالمصانَعة، ولا تَظّنُوا بي استثقالاً في حقّ قيل لي ولا التماس إعْظام لنفسي. فإنه من اسْتَثْقَلَ الحقَّ أن يقالَ له، أو العدلَ أن يعْرَض عليه، كان العمل بهما أثقلَ عليه. فلا تكفُّوا عن مقالةٍ بحقٍ أو مشورة بعدْل، فإنّي لَسْت في نفسي بفَوْقَ أنْ أُخْطئ ولا آمنُ ذلك من فعْلي، إلّا أن يكْفي الله من نفسي ما هو أملك به مني. فإنما أنا وأنتم عبيدٌ مملوكون لرَبّ لا ربَّ غيره يملك منَّا ما لا نَملك من أنفسنا، وأخْرَجنَا ممَّا كنَّا فيه إلى ما صلُحْنا عليه، فأبْدَلَنا بعد الضلالة بالهُدَى وأعطانا البصيرة بعد العَمى.

ومن وصية له عليه السلام وصّى بها جيشاً بعثه إلى العدو:

فإذا نَزَلتم بَعدُوّ أو نزَل بكم، فليكُنْ مُعسكَرُكم في قبيل الأشْراف وسفاح الجبال أو أثناء الأنهار، كيما يكون لكم ردْءاً ودونكم مَرَدّاً. ولتكُنْ مُقاتلَتُكُم منْ وجهٍ واحد أو اثنين، واجعلوا لكم رُقَباء في صَياصي الجبال ومَناكب الهضاب، لئلا يأتيكم العدو من مكان مخافةٍ أو أمْن. واعلموا أن مُقدّمة القوم عيونُهم وعيونَ المقدّمة طَلَائعهم. وَإيّاكم والتّفَرُّق فإذا نَزَلتم فانزلوا جميعاً، وإذا ارتحلْتم فارْتَحلوا جميعاً. وإذا غَشِيكم الليلُ فاجعلوا الرّماح كَفّة، ولا تَذُوقوا النّوم إلا غِراراً أو مَضْمضة.

ومن وصية له عليه السلام كان يكتبها لمن يستعمله على الصدقات:

انطلق على تَقْوَى الله وحده لا شريك له. ولا تَرُوعَنَّ مسلماً ولا تجْتازَنَّ عليه كارهاً ولا تأخذَنَّ منه أكثر من حقّ الله في ماله. فإذا قَدِمْتَ على الحيّ فانْزِلْ بمائهم من غير أن تُخالط أبياتهم، ثم امْض إليهم بالسكينة والوَقار، حتى تقومَ بينهم فتُسَلّم عليهم ولا تَخْدِج بالتحية لهم، ثم تقول: عبادَ الله أرْسَلَني إليكم وليُّ الله وخليفتهُ لآخذَ منكم حقّ الله في أموالكم، فهل لله في أموالكم من حقّ فتُأدُّوه إلى وَليّه؟ فإن

قال قائل: لا، فلا تُرَاجعْه. وإن أنْعَمَ لك مُنْعِم فَانْطلِق معه من غير أن تُخيفَه وتُوعِدَه أو تَعْـِفه أو تُرْهقه. فَخذْ ما أعْطاك من ذهب أو فضة، فإن كان له ماشية أو إبل فلا تدْخُلها إلا بإذنه، فإنَّ أكثرَها له. فإذا أتَيْتها فلا تَدْخُلْ عليها دُخول مُتَسَلطٍ عليهِ، ولا عَنيف بهِ، وَلا تَنْفّرنّ بَهيمة، ولا تُفْزِعنَّها ولا تَسوءَنَّ صاحبها فيها، واصْدَع المالَ صَدْعين ثم خيّره فإذا اختار فلا تَعَرَّضنَّ لما اختاره ثم اصدع الباقي صدعين، ثم خيّره، فإذا اختار فلا تَعَرَّضَنّ لما اختاره.

فلا تَزال بذلك حتى يَبقى ما فيه وَفاءٌ لحق الله في ماله، فاقبضْ حقّ الله منه. فإن اَستقَالَكَ فأقلهُ، ثم اَخلطْهما ثم اَصنع مثل الذي صنعت أوَّلاً حتى تأخذ حقّ الله في ماله. ولا تأخذَنَّ عَوْداً ولا هَرِمة ولا مَكسورة ولا مَهْلوسة ولا ذاتَ عوارٍ، ولا تأمَنَنَّ عليها إلا مَنْ تثِق بدينهِ رافقاً بمال المسلمين حتى يوَصّلهُ إلى وليّهم فيَقْسمه بينهم. ولا توَكّل بها إلَّا ناصحاً شفيقاً وأميناً حفيظاً غير مُعنّف ولا مُجْحِف ولا مُلْغِب ولا مُتْعب.

ثم اَحدُر إلينا ما اَجتمع عندك نصيّره حيثُ أمرَ الله، فإذا أخذها أمينُك فأوْعِزْ إليه أنْ لا يَحُول بين ناقةٍ وبين فَصيلها، ولا يمْصُر لبَنها فيضُرّ ذلك بوَلَدِها، ولا يَجْهَدَنَّها رُكوباً، ولْيعْدِل بين صواحِبتها في ذلك وبينَها. وليُرَفّه على اللَّاغب، ولْيستأْن بالنَّقِب والظَّالع ولْيُورِدْها ما تمُرُّ به من الغُدُر ولا يَعدل بها عن نَبْتِ الأرض إلى جَوادّ الطُرق، ولْيُرَوّحْها في الساعات، ولْيُمهلْها عند النّطاف والأعشاب حتى تأتينا بإذن الله بُدْناً مُنقيات غيرَ متعبات ولا مجهودات، لنقسمها على كتاب الله وسُنَّة نبيّه ﷺ فإن ذلك أعظم لأجرك وأقرَب لرُشْدك إن شاء الله.

وقال عليه السلام وقد سمع رجلاً يذّم الدّنيا:

أيها الذّامُّ للدّنيا المغترُّ بغرُورها المخْدُوع بأباطيلها ثم تذُمّها، أتغترُّ بالدُّنيا ثم تذُمّها؟ أنت المتجرّم عليها أمْ هي المُتجَرّمة عليك؟ متى اَسْتهوَتْك أمْ متى غَرّتْك؟ أبمصارع آبائك من البلى أم بمَضاجع أُمهاتِك تحت الثَّرَى؟ كم عَلَّلْت بكفّيْك، وكم مرّضْتَ بيدَيك تَبغي لهم الشّفاء وتَسْتَوْصف لهم الأطبّاء؟ لم يَنْفع أحدَهم إشفاقُكَ، ولم تُسْعَف بطَلَبَتِك، ولم تَدْفَعْ عنه بقُوّتك، وقد مثُلتْ لك به الدُّنيا نفسك وبمَصرَعهِ مصرَعك. إن الدُّنيا دارُ صدْق لمَنْ صَدّقها، ودارُ عافيةٍ لمَنْ فهم عنها، ودارُ غنًى

لمَنْ تزَوّد منها، ودارُ موْعظةٍ لمن اتّعظ. بها مَـْجد أحبّاء الله، ومصلَّى ملائكة الله، ومهبط وَحي الله، ومَتْجَرُ أولياء الله اكتـسبوا فيها الرّحمة ورَبحوا فيها الجنّة. فَمنْ ذا يَذُمّها وقد آذَنت بيْنها، ونادتْ بفراقها، ونعَتْ نفـسها وأهلَها، فمثّلت لهم ببلائها البلاء، وشوّقتْهم بسرُورها إلى السُّرُور. راحتُ بعافية، وٱبتكرَتْ بفَجيعة، ترْغيباً وترهيباً وتخويفاً وتحذيراً، فَذَمّها رِجالٌ غَدَاةَ النَّدَامة، وحمِدها آخرون يوم القيامة، ذكّرَتْهم الدُّنيا فتذكّرُوا، وحدَّثتهم فصدّقوا، ووَعَظتهم فاتّعظوا.

عهد الإمام علي المتوفى سنة ٤٠هـ لمالك بن الحارث الأشتر النَّخعِي حين ولاه مصر وجباية خراجها وجهاد عدوها وإصلاح أهلها وعمارة بلادها:

اعلم، يَا مالكُ، أني قد وجَّهتُك إلى بلاد قد جَرَت عليها دُوَلٌ قبلك من عَدلٍ وجَوْر، وأنّ النّاس يَنظُرُون من أُمورِك في مثل ما كُنتَ تنظر فيه من أمور الوُلَاة قبلك، ويقولون فيك كما كُنتَ تقول فيهم. وإنما يُسْتدَلّ على الصّالحين بما يجري الله لهم على ألسنة عباده. فليكن أحبَّ الذخائر إليك ذخيرة العَمل الصالح، فامْلِك هواك، وشُحّ بنفـسك عما لا يَحِلّ لك، فإن الشُّحَّ بالنفس الإنصاف منها فيما أحبّت أو كرِهت، وأشعرُ قلبَك الرحمة للرعيَّة والمحبّة لهم واللطف بهم. ولا تكوننّ عليهم سَبُعا ضارِياً تَغتنم أكلهم، فإنهم صِنْفان: إمّا أخٌ لك في الدّين، وإما نظيرٌ لك في الخَلْق. يَفرُط منهم الزّلَل وتَعرض لهم العِلَل، ويُؤْتَى على أيديهم في العَمْد والخَطأ، فأعطهم من عفوِك وصفْحِك مثل الذي تُحبُّ وترْضى أن يُعطيك الله من عفوِه وصفحهِ فإنك فوْقَهم ووَالي الأمر عليك فوقك، والله فوْق من ولّاك، وقد استكفاك أمرَهم وابتلاك بهم.

ولا تَنْصِبنّ نفسك لحرْب الله فإنه لا قِبَلَ لك بنقمته، ولا غنىً بك عن عفوه ورحمته، ولا تَنْدمنَّ على عفوٍ، ولا تَبجَّحَنّ بعقوبة، ولا تُسرِعنّ إلى بادرَة وجدتَ عنها مَندوحة، ولا تقولنَّ إني مُؤمّرٌ آمُرُ فأُطاع، فإن ذلك إدغالٌ في القلب، ومنهَكة للدّين، وتقرُّبٌ من الغير.

وإذا أحدَث لك ما أنت فيه من سلطانك أبَّهة أو مخيلةً، فانظر إلى عِظَم ملك الله فوقك وقُدْرته منك على ما لا تَقدِر عليه من نفسك، فإن ذلك يُطامنُ إليك من طماحك، ويكف عنك من غَرْبك، ويُفيء إليك من بما عَزَب عنك من عقلك.

وإيّاك ومُسَاماة الله في عظمته، والتّشبُّه به في جبرُوته، فإن الله يُذِلُّ كلّ جبَّار، ويُهين كلّ مُخْتال.

أنصفِ الله وأنصفِ النّاس من نفسك ومنْ خاصة أهلك ومن لك فيه هوَى من رعيَّتك، فإنك إن لم تَفْعَلْ تَظلم، ومَنْ ظلمَ عباد الله كان الله خَصمه دون عبَاده، ومنْ خَاصمهُ الله أدحض حُجّته وكان الله حَرْباً عليه حتى ينزع ويتوب. وليس شيءٌ أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامةٍ على ظلم، فإن الله سميعٌ دعوة المظلومين، وهو للظالمين بالمِرْصاد.

وليكُنْ أحبَّ الأمور إليك أوْسطها في الحقّ وأعمُّها في العدْل وأجمعها لرِضاء الرّعيّة. فإن سخطَ العامة يُجْحِفُ برضاءِ الخاصّة، وإن سخْط الخاصَّة يُغتَفرُ مع رِضاءِ العامّة. وليس أحدٌ من الرّعيّة أثقلَ على الواالي مؤونة في الرّخاء، وأقلّ معونةً في البلاء، وأكرَه للإنصاف، وأسأل بالإلحاف، وأقلّ شكراً عند الإعطاء، وأبطأ عذْراً عند المنع، وأخفّ صبراً عند مُلِمَّات الدّهر، من أهل الخاصّة. وإنما عِماد الدّين وجماع المسلمين والعُدّة للأعداء العامةُ من الأمة، فليكُنْ صفوُك لهم وميلُك معهم. وليكنْ أبعَد رعيَّتك منك وأشنأهم عندك، أطلبَهم لمَعايب النّاس. فإن في الناس عُيوباً الوالي أحقُّ مَنْ سترَها، فلا تكشِفن عمّا غاب عنك منها، فإنما عليك تطهير ما ظَهَرَ لك، والله يحكُم على ما غاب عنك. فاستُر العورة ما ٱستطعت يَسْتر الله منك ما تُحبُّ سَتْرَهُ من رعيّتك.

أطلق عن النّاس عُقْدَة كلّ حِقْد، وٱقطَعْ عنك سبَب كلّ وَتْرٍ، وتَغَاب عن كلّ ما لا يصحُّ لك، ولا تَعْجَلَنَّ إلى تصديق ساع فإن السّاعي غاشّ وإن تشبّه بالنَّاصحين. ولا تُدْخلَنّ في مشورَتك بخيلاً يَعدل بك عن الفضل ويَعِدُك الفقر، ولا جبَاناً يُضعِفك عن الأمور، ولا حَريصاً يُزَيّن لك الشّرَه بالجَوْر، فإنّ البُخْل والجُبن والحِرْص غَرَائزُ شتَّى يجمعُها سوءُ الظّنّ بالله.

إن شرَّ وَزَرائك مَنْ كان قبلك للأشرار وَزيراً ومَنْ شَرِكَهم في الآثام، فلا يكوننَّ لك بِطانةً فإنهم أعوان الأثمَة وإخوان الظّلَمة، وأنت واجدٌ منهم خيرَ الخَلَف ممن له مثلُ آرائهم ونَفاذهم، وليس عليه مثل آصارِهم وأوْزارِهم، ممن لا يُعاوِن ظالماً

على ظُلمه ولا آثماً على إثمه. أولئك أخفّ عليك مؤونة وأحسن لك مَعُونةً، وأحنى عليك عَطْفاً وأقلّ لغيرِك إلْفاً. فاتخذ أُولئك خاصّة لخَلَوَاتِك وحَفَلاتك. ثم ليكنْ آثَرَهم عندك أقوَالُهم لك بمُرّ الحق، وأقلّهم مساعدةً فيما يكون منك مما كرِه الله لأوليائه واقِعاً ذلك من هواك حيث وقعَ.

والْصق بأهل الوَرَع والصِّدْق ثم رُضهم على أن لا يُطْرُوك ولا يُبَجّحوك بباطلٍ لم تفْعله، فإن كثرة الإطراء تحْدِث الزّهْو وتدْني من العزَّة. ولا يكونَنَّ المُحْسن والمُسيءُ عندك بمنزلةٍ سواء فإن في ذلك في ذلك تزْهيداً لأهل الإحسان في الإحسان، وتدْريباً لأهل الإساءة على الإساءة، وألزِم كلّا منهم ما ألزَمَ نفسه. واعلم أنه ليس شيءٌ بأدعى إلى حُسْن ظنّ والٍ برعيّته من إحسانه إليهم وتَخفيفه المؤونات عليهم وترْك استكْرَاهِ إيّاهم على ما ليس له قِبَلَهَمْ. فليكُنْ منك في ذلك أمرٌ يجمعُ لك حُسْن الظنّ برعيَّتك، فإن حُسن الظن يقطَعُ عنك نَصَباً طويلاً. وإن أحقّ مَنْ حسُن ظنّك به لَمنْ حسُن بلاؤك عنده، وإن أحقّ مَنْ ساء ظنُّك به لمَن ساء بلاؤك عنده. ولا تنْقُضْ سُنة صالحة عمل بها صدُور هذه الأمة واجتمعت بها الأُلْفة وصلَحَتْ عليها الرّعية ولا تُحدثنَّ سنة تضُرُّ بشيء مما مضى من تلك السُّنن، فيكون الأجر لمَنْ سنّها والوِزْر عليك بما نَقضتَ منها.

وأكثرْ مدارسة العلماء ومناقَشة الحكماء في تثبيت ما صلَح عليه أمرُ بلادك، وإقامة ما استقام به الناس قبلك. واعلم أن الرعيّة طبقاتٌ لا يصلح بعضها إلا ببعض، و لا غنىً ببعضها عن بعض. فمنها جُنود الله، ومنها كتَّاب العامة والخاصّة ومنها قُضاة العدْل، ومنها عمال الإنصاف والرفق، ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس، ومنها التجار وأهل الصناعات، ومنها الطّبقة السفلى من ذوي الحاجة والمسكنة. وكلاً قد سمى الله سهمه، ووضع على حده فريضة في كتابه أو سنة نبيه ﷺ عهداً منه عندنا محفوظاً.

فالجُنود بإذن الله حصون الرّعية وزَين الوُلاة وعز الدّين وسبُلُ الأمْن، وليس تقوم الرّعية إلا بهم. ثم لا قِوَام للجنود إلا بما يُخرج الله تعالى لهم من الخرَاج الذي يَقْوَوْن به في جهاد عدُوّهم، ويعتمدون عليه فيما يصلحهم، ويكون من وراء حاجتهم. ثم لا قِوام لهذين الصّنفين إلّا بالصّنف الثالث من القضاة والعُمال

والكُتَّاب، لما يُحكِمون من المعاقد ويجمعون من المنافع ويُؤْتمنون عليه من خواصّ الأمور وعوامها. ولا قِوام لهم جميعاً إلا بالتُّجار وذوي الصناعات فيما يجتمعون عليه من مَرَافقهم، ويُقيمونه مِن أسواقهم، ويكْفُونهم من التَّرفّق بأيديهم ما لا يَبْلغ رِفق غيرهم.

ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة الذين يَحُقُّ رِفدُهم ومَعُونتهم وفي الله لكلّ سعةٌ، ولكلّ على الوالي حقّ بقدر ما يصلحه. وليس يخرج الوالي من حقيقة ما ألزمه الله من ذلك إلا بالاهتمام والاستعانة بالله وتوطين نَفْسه على لزومه الحقّ والصبر عليه فيما خفَّ عليه أو ثَقُلَ. فَوَلّ مِنْ جُنُودك أنصحهم في نَفْسك لله ولرسوله ولإمامِك، وأطهَرَهُمْ جَيْباً وأفْضلهم حِلماً ممن يُبْطئ عن الغَضَب ويَسْتريح إلى العذْر ويَرْأف بالضُّعفاء ويَنْبُو على الأقوِياء ممن لا يُثيره العُنْف ولا يقْعد به الضّعْف. ثم الصَقْ بذوي المروءات والأحسَابِ، وأهل البُيوتات الصّالحة والسّوابق الحسَنة، ثم أهل النّجْدة والشّجاعة والسّخاء والسّماحة، فإنهم جِماعٌ من الكَرَم وشُعَب من العرْف. ثم تَفقّد من أمورهم ما يتفقّده الوالدان من ولدهما، ولا يتَفاقَمنّ في نفسك شيء قَوْيتهم به، ولا تحْقَرنَّ لُطْفاً تتعَاهدهم به وإن قلَّ، فإنه داعيةٌ إلى بذْل النصيحة لك وحُسْن الظَّنّ بك.

ولا تدَع تفَقُّدَ لطيفِ أمورهم اتكالاً على جسيمها، فإن اليسير من لُطْفك مَوْضِعاً ينتَفعُون به وللْجَسيم موْقعاً لا يسْتغنُون عنه. وليكن آثر رُؤوس جُندك عندكَ مَنْ واساهم في مَعُونته وأفْضَل عليهم من جِدته بما يسَعُهُمْ ويَسَع مَنْ وراءهم من خُلُوق أهْلهم حتى يكون همُّهم هَمّاً وَاحِداً في جهاد العدوّ، فإن عَطْفك عليهم يُعطّف قُلُوبَهم عليك. وإن أفضَل قُرَّة عين الولاة استقامة العدل في البلاد وظهور موَدة الرَّعية. وإنه لا تَظهر مودّتُهم إلَّا بسلامة صدورهم، وَلا تصحّ نصيحتهم إلا بحيطتهم على وُلاة أمورهم وقلّة استثقال دُولهم وترْك استبطاء انقطاع مُدَّتهم، فافْسَحْ في آمالهم وواصل في حسن الثَّناء عليهم وتعديل ما أبلى ذوو البلاءِ منهم، فإن كثرة الذّكر لحُسْن فعالهم تهُزُّ الشجاع وتُحرّضُ الناكلُ إن شاء الله تعالى.

ثم اعْرِف لكلّ امرئٍ منهم ما أبْلى ولا تُضيفَنَّ بلاء امرئٍ إلى غيره، ولا تُقصّرَنَّ به دون غاية بلائه، ولا يدْعُونَّك شرفُ امرئ إلى أن تُعظّم من بلائه ما كان صغيراً،

ولا ضعَةُ امرئٍ أن تستصغر من بلائِه ما كان عظيماً. وارْدُدْ إلى الله ورسوله ما يُضلِعك من الخُطوب ويشْتبه عليك من الأمور، فقد قال الله سبحانه لقوْم أحَبَّ إرشادهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[1] فالرَّد إلى الله الأخذ بمُحكَم كتابه، والرّدّ إلى الرسول الأخذ بسنته الجامعة غير المُفرَّقة.

ثم إختر للحكم بين الناس أفضل رعيّتك في نفسك ممّن لا تضيق به الأمور، ولا تُمَحّكُه الخُصُوم، وَلا يتمادى في الزّلّة، ولا يحصر عن الفيء إلى الحقّ إذا عَرَفه، ولا تُشرف نفسهُ على طَمع، ولا يكتفي بأدْنى فهم دون أقصاه، أوْقَفهم في الشُّبهات، وآخَذَهم بالحُجَج وأقَلَّهم تبَرُّماً بمراجعة الخصْم، وأصبرَهم على تكشيف الأمور، وأصرَمَهُم عند اتّضاح الحكم، ممن لا يَزْدهيه إطرَاء ولا يستَميله إغْرَاء وأولئك قَليل. ثم أكثِرْ تعاهُد قَضائه، وأفسَحْ له في البَذْلِ ما يزيح علّته وتَقلّ معه حاجتهُ إلى الناس، وأعْطه من المنزلة لدَيك ما لا يْطمع فيه غيرُه من خاصتك لتأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك. فانظُرْ في ذلك نَظَراً بليغاً، فإنّ هذا الدّين قد كان أسيراً في أيدي الأشرار يُعْمل فيه بالهوى وتُطْلب به الدُّنيا.

ثمَّ انْظُرْ في أمور عمَّالك فاستعملهم اختباراً ولا تُوَلّهم مُحَابَاةً وأثَرَةً، فإنهم جماعٌ من شُعَب الجَوْر والخيانة، وتوخّ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البُيوتات الصالحة والقِدَم في الإسلام، فإنهم أكرمُ أخْلاقاً وأصَحُّ أعْرَاضاً وأقلُّ في المطامع إشرافاً وأبلغ في عواقب الأمور نَظراً. ثم أسْبغ عليهم الأرزاق فإن ذلك قوّة لهم على اسْتصلاح أنفسهم، وغنىً لهم عن تناوُل ما تحت أيديهم، وحجَّة عليهم إن خالَفُوا أمْرَك أو خانوا أمانتَك. ثم تَفَقّدْ أعمالهم وابْعث العيون من أهل الصّدق والوَفاء عليهم، فإنّ تعاهُدك في السرّ لأمورهم حَدْوةٌ لهم على استعمال الأمانة والرّفق بالرَّعية.

وتحَفَّظ من الأعوان فإن أحدٌ منهم بسط يدهُ إلى خيانة اجتَمَعَتْ بها عليه عندك أخبار عُيونك، اكتَفيتَ بذلكَ شاهداً، فَبَسَطْت عليه العُقوبة في بدنه وأخذْتَهُ بما

(١) النساء: ٥٩.

أصاب من عمله، ثم نَصبته بمقام المذلّة ووَسمته بالخيانة وقَلّدته عارَ التُّهمة. وتَفقَّدْ أمرَ الخراج بما يُصلح أهله فإنّ في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سِواهم، ولا صلاح لمن سِواهم إلّا بهم، لأن الناس كلهم عيالٌ على الخراج وأهْله.

وليكن نظرُك في عمارة الأرض أبلغَ من نظرك في استجلاب الخراج، لأن ذلك لا يُدرَك إلّا بالعمارة. ومَن طلبَ الخراج بغير عمارة أخرَب البلاد وأهلك العباد ولم يستَقم أمره إلّا قليلاً. فإن شكَوْا ثقَلاً أو علّة أو انْقطاع شرْب أو بالّةً أو إحالة أرض اعْتَمرها غرَقٌ أو أجحَف بها عَطش، خَفّفتَ عنهم بما ترْجُو أن يَصْلُح بهِ أمرُهم. ولا يثْقُلنّ عليك شيءٌ خفّفْتَ بهِ المؤونةَ عنهم، فإنه ذخر يَعُودُون به عليك في عمارة بلدِك وتزْيين ولايتك، مع استِجلابك حسنَ ثنائهم وتَبَجُّحك باستفاضة العدل فيهم، مُعتَمداً فضل قُوّتهم بما ذخَرْت عندهم من إجمامك لهم والثقة منهم بما عَوّدتهم من عدْلك عليهم في رِفقك بهم، فربّما حدَثَ من الأمور ما إذا عُوّلَ فيه عليهم من بَعدُ احتملوه طيّبة أنفسُهُم به. فإنّ العُمران يحتمل ما حمّلته، وإنما يأتي خراب الأرض من إعْواز أهلها، وإنما يُعْوَز أهلها لإشراف أنفس الوُلاة على الجمع وسوء ظنهم بالبقاءِ وقلّة انتفاعِهم بالعبَر.

ثم انظر في حال كُتّابك فوَلّ على أمورِك خيرَهم، وأخصص رَسائِلك التي تُدْخل فيها مكائدَك وأسرارَك بأجمعهم لوُجوه صالِح الأخلاق، ممّن لا تبْطره الكرامة فيجترئ بها عليك في خلافٍ لك بحضرة مَلأ، ولا تُقّصر به الغَفلة عن إيراد مكاتبات عمّالك عليك وإصدار جواباتِها على الصّواب عنك فيما يأْخذ لك ويُعطى منك، ولا يضعف عقداً اعتَقده لك، ولا يعجز عن إطلاق ما عُقد عليك، ولا يجهل مبلغ قدر نفسه في الأمور، فإن الجاهل بقدر نفسه يكون بقدر غيره أجهلَ. ثم لا يكن اختيارُك إيّاهم على فِراستك واستنامتك وحسن الظن منك، فإن الرجال يَتَعرَّفون لِفِراسات الولاة بتَصَنُّعهم وحسْن خدمتهم، وليس وراء ذلك من النّصيحة والأمانة شيء. ولكن اختبرهم بما وَلُوا للصالحين قَبلك. فاعْمِدْ لأحسنهم في العامة أثراً، وأعرَفهم بالأمانة وجهاً، فإن ذلك دليلٌ على نَصيحتك لله ولمن وُليتَ أمرَه، واجعل لرأس كلّ من أمورك رأساً منهم لا يَقْهره كبيرُها ولا يتَسلَّطُ عليه صغيرُها. ومهما كان في كتّابك من عيب فتغابَيْتَ عنه أُلزِمْتَهُ.

ثم استَوْص بالتُّجَّار وذوي الصناعات، وأوْص بهم خيراً المُقيم منهم والمُضطرب بمالهِ والمترَفّقُ ببدنهِ، فإنهم موادّ المنافع وأسباب المرافق وجُلّابها من المَباعد والمطارح في برّك وبحرك وسهلك وجبلك، وحيث لا يلتئم النّاس لمواضعها ولا يجترئون عليها، فإنهم سِلْمٌ لا تخافُ بائقته وصُلحٌ لا تُخشى غائلته. وتَفقّدْ أمورهم بحضرتك وفي حواشي بلادك. واعلم مع ذلك أن في كثير منهم ضيقاً فاحشاً، وشُحاً قبيحاً، واحتكاراً للمنافع، وتحكماً في البِياعات، وذلك بابُ مضرّة للعامَّة وعَيبٌ على الوُلاة. فامْنع مِنَ الاحتكار فإن رَسول الله ﷺ مَنَعَ منه. ولْيكن البيع بيعاً سَمْحاً بموازين عدْلٍ وأسعَارٍ لا تُجْحِف بالفريقين من البائع والمُبْتاع، فمن قارَف حكْرَةً بعد نَهْيك إيَّاه فَنَكّلْ به وعاقب في غير إسرافٍ.

ثم الله الله في الطبقة السُّفلى من الذين لا حيلة لهم، والمساكين والمحتاجين وأهل البُؤْسَى والزمنى، فإنّ في هذه الطبقة قانِعاً ومُعتَرّاً، واحفظ الله ما استَحْفَظك من حقّه فيهم واجعل لهم قسْماً من بَيت مالك وقسماً من غَلّات صَوَافي الإسلام في كلّ بلد، فإنّ للأقصى منهم مثلَ الذي للأدنى، وكلٌّ قد استُرْعِيتَ حقّه فلا يَشْغَلَنَّكَ عنهم بَطَرٌ فإنك لا تعْذَر بتَضييعِك التافهَ لإحكامك الكثيرَ المُهم. فلا تشخص همك عنهم، ولا تُصعِّر خدَّك لهم، وتفقَّدْ أمورَ مَنْ لا يصلُ إليك منهم ممن تَقْتحمه العيون وتحتقره الرجال، ففرّغ لأولئك ثقتك من أهل الخَشْيةِ والتواضع، فليَرْفع إليك أمورَهم، ثم اعمل فيهم بالأعذار إلى الله سبحانه يوم تلْقاه، فإن هؤلاء من بين الرعيَّة أحوَج إلى الإنصاف من غيرهم، وكلٌّ فاعذِرْ إلى الله في تأديةِ حقه إليه. وتعهَّدْ أهل اليتْم وذَوي الرّقة في السن ممن لا حيلة له ولا ينصبُ للمسألة نفسه، وذلك على الوُلاة ثقيل، والحقّ كلُّه ثقيل، وقد يُخفّفه الله على أقوام طلبوا العاقِبة فصبّروا أنفسهم بصدْق موْعُود الله لهم.

واجعل لذوي الحاجات منك قسْماً تُفرّغُ لهم فيهِ شخصَك، وتجلس لهمْ مجلِساً عاماً، فتتواضع فيه لله الذي خلقَك، وتُقعِد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشُرَطك حتى يكلّمك متكلّمهم غيرَ مُتَتعتع. فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول في غير مَوْطنٍ: «**لَنْ تُقدَّسَ أُمّةٌ لا يُؤْخَذُ للضّعيفِ فيها حَقُّهُ مِنَ القويّ غَيْرَ مُتَتَعْتعٍ**» ثم احتمل الخُرْق منهم والعيّ، وسنّح عنهم الضّيق والأنف يَبسط الله

عليك بذلك أكناف رحمته، ويوجبْ لك ثواب طاعتِهِ. وأعط ما أعطيتَ هنيئاً وامْنع في إجمال وإعذار.

ثم أمورٌ من أمورك لا بُدّ لك من مباشرَتها، منها إجابةُ عُمّالك بما يَعْيا عنه كتّابك، ومنها إصدار حاجات الناس يوْمَ ورودها عليك مما تَحرج به صدُور أعوانك. وامْض لكلّ يوم عمَلَهُ فإن لكلّ يوم ما فيه. واجعلْ لنفسك فيما بينك وبين الله تعالى أفضل تلك المواقيت وأجزَلَ تلك الأقسام، وإن كان كلّها لله، إذا صَلَحتْ فيها النّية وسلِمت منها الرعية.

وليكن في خاصَّة ما تُخْلِصُ لله به دِينك إقامة فرائضه التي هي له خاصّة، فأعطِ الله من بدَنك في ليلك ونهارك، ووَفّ ما تقرَّبْت به إلى الله سبحانه من ذلك كاملاً غيرَ مثلُوم ولا منقوص، بالغاً من بدَنك ما بَلغ. وإذا قمتَ في صلاتك للنَّاس فلا تكونَنّ مُنَفِّراً ولا مضيّعاً، فإن في الناس من به العِلة وله الحاجة. وقد سألتُ رسولَ الله ﷺ حين وجَّهني إلى اليمن: كيف أُصلي بهم؟ فقال: «**صلِّ بِهم كَصلاةِ أَضْعَفِهم وكُنْ بالمُؤمنينَ رَحيماً**»

أما بعدُ: فلا تُطوّلنّ احتِجابَك عن رعيتك، فإن احتجابَ الولاة عن الرعية شُعْبة من الضّيق، وقلّة علم بالأمور، والاحتجاب منهم يَقطع عنهم علم ما احتَجَبوا دونه. فيصغُرَ عندهم الكبير ويعظم الصغير، ويَقبُح الحَسَن ويَحسنُ القبيح، ويُشاب الحقَ بالباطل. وإنما الوالي بشَرٌ لا يَعرف ما تَوَارى عنه الناس به من الأمور، وليست على الحقّ سماتٌ نعرفُ بها ضرُوب الصدق من الكذب، وإنما أنت أحد رَجُلين: إما امرُؤٌ سخَتْ نفسك بالبذْل في الحقّ، ففيم احتجابك من واجب حقّ تُعطيه! أو فعل كريم تُسديه؟ أو مبتَلىً بالمَنْع فما أسرَع كفّ الناس عن مسألتك إذا أيِسُوا من بَذْلِكَ، مع أن أكثر حاجات الناس إليك مما لا مَؤُونة فيه عليك من شَكاة مَظْلَمة أو طلب إنصافٍ في مُعاملة. ثم إن للوالي خاصة وبطانة فيهم استئثار وتَطاوُلٌ وقلّة إنصاف في مُعاملة. فاحسِم مادّة أولئك بقَطع أسباب تلكَ الأحوال، ولا تُقْطِعنَّ لأحد من حاشيتك وخاصتك قطيعة، ولا يَطمَعَنَّ منك في اعتقاد عُقدَة تضُرُّ بمنْ يَليها من الناس في شِرْبٍ أو عمَلٍ مشترَك يحمِلون مؤُونتَه على غيرهم، فيكون مَهْنأُ ذلك لهم دونكَ وعَيبهُ عليك في الدُّنيا والآخرة. وألزِم الحق مَنْ لزمه

من القريب والبعيد، وكن في ذلك صابراً محْتسِباً، واقعاً ذلك من قَرَابتك وخاصّتك حيث وقَعَ، وٱبتَغ عاقِبته بما يَثقُلَ عليك منه، فإن مغَبَّة ذلك محمودة. وإن ظَنتِ الرعية بك حَيْفاً فأصحِرْ لهم بعُذْرِك، وأعدِل عنك ظُنونهم بأصحارك، فإن في ذلك رياضةً منك لنفسك، ورفقاً برعيَّتك، وإعذَاراً تبلُغُ به حاجتك من تقويم على الحقّ.

ولا تَدْفَعنّ صلْحاً دعاك إليهم عدُوّك ولله فيه رضا، فإن في الصّلح دَعةً لجُنودك وراحةً من همومك، وأمْناً لبلادك. ولكنّ الحذَر كلّ الحذر من عدُوّك بعد صلحه، فإن العدُوّ رُبما قارَب ليَتغفّل. فخذ بالحزم واتّهم في ذلك حُسْن الظنّ، وإن عقَدْت بينك وبين عدُوّك عُقْدَةً أو ألبستَهُ منك ذِمّة، فَحُطْ عهدَك بالوفاء وارْع ذِمَّتك بالأمانة واجعل نفسك جُنة دون ما أعطيتَ، فإنه ليس من فرائض الله شيءٌ الناسُ أشدُّ عليه اجتماعاً مع تفرُّق أهوائهم وتشتّت آرائهم من تعظيم الوَفاء بالعهود وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين لما اسْتوْبلُوا من عوَاقب الغَدْر، فلا تَغدرَن بذمّتك، ولا تَخيسَن بعهدك، ولا تختلنّ عدوّك، فإنه لا يجترئ عَلَى الله إلّا جاهل شقيّ. وقد جعَل الله عهده وذمّته أمناً أفْضاه بين العباد برحمتهِ، وحصناً يكُنُون إلى منعتهِ، ويَسْتفيضون إلى جوَاره فلا إدْغالَ ولا مُدَالسة ولا خِدَاع فيه. ولا تَعقدْ عَقداً تجوز فيه العلل، ولا تعوّلنَّ على لحن قوْل بعد التأكيد والتوْثقة، ولا يدعونَك ضيق أمرٍ لزمك فيه عهد الله إلى طلب انفِسَاخه بغير الحقّ، فإن صبرَك على ضيق أمرٍ ترجو انفرَاجه وفضلَ عاقبته خيرٌ من غدْر تخاف تَبعته، وأن تُحيط بك فيه من الله طلبةٌ فلا تستَقيلُ فيها دُنياك ولا آخرتك.

إياك والدّماء وسفَكَها بغير حلّها، فإنه ليس شيءٌ أدعى لِنقْمة، ولا أعظم لتَبعة، ولا أحرَى بزَوال نِعمةٍ وانقطاع مدَّة من سَفك الدّماء بغير حقّها، والله سبحانه يتوَلّى الحكم بين العباد فيما تَسَافكوا من الدماء يوم القيامة فلا تقوّين سلطانك بسفك دم حرام، فإن ذلك مما يضعِفه ويُوهُنه، بل يزيلهُ ويَنْقلهُ. ولا عذْر لك عند الله ولاَ عنديّ في قتْل العَمْد، لأن فيه قَود البدن. وإن ابتُليت بخطأ وأفرط عليك سوْطك أو سيفك أو يدك بعقوبة فإن في الوكزَة فما فوْقها مقتلةً، فلا تطمَحَنْ بك نَخْوَةُ سلطانك عن أن تؤدّي إلى أوْلياء المقتول حقهم.

وإيّاكَ والإعجاب بنفسك والثّقة بما يعجبك منها وحُبَّ الإطراء، فإن ذلك من أوْثق فُرَص الشَّيطان في نفسه ليَمْحَقَ ما يكون من إحسان المحسنين.

وإيّاك والمنّ على رعيتك بإحسانك أو التّزيد فيما كان من فعلك، أو أن تَعدَهم فتُتبع موْعدَك بخلفك، فإن المنَّ يُبطل الإحسان، والتزيّد يذْهب بنور الحقّ، والخلف يوجبُ المقت عند الله والناس، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾[1].

وإيّاك والعَجلة بالأمور قبل أوانها أو التّسقط فيها عند إمكانها، أو اللّجاجة فيها إذا تنكّرَت، أو الوهن عنها إذا استوضحت. فضع كلّ أمرٍ موضعه، وأوقع كلّ عمَلٍ موقعه. وإيّاك والاستئثار بما الناس فيه أُسوَةٌ، والتغابي عمّا يُعنى به مما قد وَضح للعيون، فإنهُ مأخوذٌ منك لغيرك، وعما قليلٍ تنكشف عنك أغطية الأمور ويُنتصَف منك للمظلوم. وَامْلِكْ حميّة أَنفك وسورةَ حدّك وسَطْوة يدك وغربَ لسانك، واحترس من كل ذلك بكفّ البادرة وتأخير السطوة حتى يسكن غضبك فتملك الاختيار، ولن تحكم ذلك من نفسك حتى تكثُر هُمُومك بذكر المعَاد إلى ربك. والواجب عليك أن تتذكّر ما مضى لمَنْ تقدَّمك من حكومة عادلة، أو سُنَّة فاضلة، أو أثر عن نبينا ﷺ، أو فريضة في كتاب الله، فتَقتدي بما شاهدت مما عَملنا به فيها. وتجتهد لِنفسك في اتباع ما عهدتُ إليك في عهدي هذا، واستَوثقتُ به من الحجة لنفسي دليلَك، لكيلا يكون لك علّة عند تَسرُّع نفسك إلى هواها.

وأنا أسأل الله بسعَة رحمته وعظيم قدرته على إعطاء كل رَغبة، أن يُوفّقني وإيّاك لما فيه رضاه من الإقامة على العذر الواضح إليه وإلى خلقه، من حُسن الثناء في العباد وجميل الأثر في البلاد، وتمام النّعمة وتضعيف الكرامة وأن يختم ليولك بالسّعادة والشّهادة ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾[2] والسلام على رسول الله ﷺ وآله الطّيبين الطّاهرين.

وكتب أبو بكر الصديق في ٧جمادى الثانية سنة ١٣هـ إلى بعض قوّاده:

إذا سرت فلا تُعنّف أصحابك في السّير ولا تُغْضِبُهم وشاور ذوي الآراء منهم واستعمِل العدْل وباعدْ عنك الجَورَ، فإنه ما أفلَح قوْمٌ ظلَموا ولا نصرُوا على عدُوّهم و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا[3] فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ[4] ۝١٥﴾

(١) الصف: ٣.
(٢) التوبة: ٥٩.
(٣) مجتمعين لكثرتهم يزحفون.
(٤) الانهزام.

وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا[١] لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا[٢] إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[٣] وإذا نُصرتم عليهم فلا تقتُلوا شيخاً ولا امرأة ولا طفلاً، ولا تحرِقوا زرْعاً، ولا تقطَعوا شجَراً، ولا تَذْبحوا بهيمة إلّا ما يلزمكم للأكل، ولا تَغدُروا إذا هادنتم[٤]، ولا تنقُضوا إذا صالحتم. وستَمُرُّون على أقوام في الصّوامع رُهبان ترَهَّبوا لله فدَعُوهم وما انفردوا إليه وارْتضَوْهُ لأنفسهم، فلا تهدموا صوامعَهم ولا تقتُلوهم. والسلام.

وكتب عمر بن الخطاب المتوفى في ٢٦ ذي الحجة سنة ٢٢هـ إلى بعض قوّاده:

أمّا بعدُ: فأني أُوصيك ومَنْ معك من الأجناد بتقوى الله على كلّ حال. فإن تقوَى الله أفضلُ العُدَّة، على العدُوّ وأقوَى المكيدة في الحرْب. وأن تكون أنت ومَنْ معك أشدّ احتراساً من المعاصي منكم من عدُوّكم، فإن ذُنوبَ الجيش أخوفُ عليهم من عدُوّهم، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوَّة لأن عددنا ليس كعددِهم ولا عُدّتنا كعُدَّتهم. فإن استوَينا في المعصيةِ كان لهم الفضلُ علينا في القوَّة، «وإلّا نُنصرْ عليهم بطاعتنا لم نغلبهم بقوَّتِنا».

واعلموا أن عليكم في سيركم حَفَظَةً من الله يعلمون ما تفعلُون، فاستَحْيُوا منهم، واسألوا الله العوْن على أنفسكم كما تسألونهُ النّصرَ على عدُوّكم.

وأقِمْ بمن معك في كلّ جُمعةٍ يوماً وليلةً حتى تكون لهم راحةٌ يحيون فيهما أنفُسَهم ويرمُون أسلحتهم وأمتعتهم، ونَحّ منازَلهم عن قُرَى أهل الصّلح والذّمّة، فلا يدخلْها من أصحابك إلّا مَنْ تَثِقُ به. وليكن منك عند دُنوّك من ارض العدُوّ أن تكثر الطّلائع وتُبث السّرايا بينك وبينهُم، ثم أذْكِ أحراسَك على عسكرك وتيَقَّظ من البيَات جُهدَك، والله وليّ أمرك ومَنْ معك ووليّ النّصر لكم على عدُوّكم.

وكتب أبو الفضل بديع الزّمان الهمذاني المتوفى سنة ٣٩٨هـ إلى ابن أخته:

أنتَ وَلدي ما دُمتَ والعلمُ شأْنُك، والمدرسة مكانك، والمِحبَرة حليفك، والدَّفترُ أليفك، فإن قصَّرت ـ ولا أخالك ـ فغيرِي خالك، والسلام.

---

(١) متعطفاً. (٢) منضماً إلى جماعة يستنجد بهم.
(٣) الأنفال: ١٥ ـ ١٦. (٤) صالحتهم.

ومن وصية ابن سعيد المغربي المتوفى سنة ٩٦٧هـ لابنه وقد أراد السفر:

[السريع]

أُودِعُكَ الرَّحمنَ في غُرْبتِكْ ... مُرْتقباً رُحماهُ في أوْبَتِكْ

فلا تُطِل حبل النّوَى إنّني ... والله أشتاق إلى طَلعتك

وَاختَصِرِ التّوْدِيع أخذاً فما ... لي ناظرٌ يقوَى على فُرْقتك

واجعل وَصاتي نُصبَ عين ولا ... تبرَح مَدَى الأيام من فكرتك

خلاصة العُمر التي حُنّكتْ ... في ساعةٍ زُفّتْ إلى فِطنتك

فللتّجاريب أُمور إذا ... طالَعتها تَشْحذُ من غَفلتك

فلا تَنَمْ عن وعيها ساعةً ... فإنّها عَوْنٌ إلى يقظتك

وكلّ ما كابدتهُ في النّوَى ... إيّاك أن يكسِرَ منْ هِمتك

فليس يُدرى أصلُ ذي غُرْبة ... وإنما تُعْرَفُ من شيمتك

وَامْشِ الهُوَيْنا مُظهراً عِفّةً ... وابغ رِضا الأعيُن عن هيئتك

وانطق بحيثُ الغِيُّ مُسْتَقبحٌ ... واصمُتْ بحيث الخيرُ في سكتك

ولِجْ على رِزْقك من بابه ... واقْصدْ له ما عِشْتَ في بكْرَتك

ووفّ كُلّاً حَقّه وَلْتَكُن ... تكْبِر عند الفخْر من حِدّتك

وحيثما خيَّمت فاقصد إلى ... صُحبة مَنْ ترجُوه في نصرتك

وللرَّزايا وَثْبَةٌ ما لها ... إلا الذي تذْخَرُ من عُدَّتك

ولا تَقُل أسلمُ لي وَحدتي ... فقد تُقاسي الذلَّ في وَحدَتك

ولتجعَلِ العَقْلَ محكّاً وخُذْ ... كُلّاً بما يَظْهر في نقْدتك

واعتبرِ الناسَ بألفاظِهم ... واصْحَبْ أخاً يَرغَبُ في صحبتك

كم من صديقٍ مُظهرٍ نُصْحَهُ ... وفكْرُهُ وَقْفٌ على عَثرتك

إيّاك أن تقْربه إنهُ ... عَوْنٌ مع الدّهر على كُرْبتك

وانمُ نُمُوَّ النبْت قد زارَه ... غِبُّ النَّدى واسمُ إلى قُدْرتك

ولا تُضيّعْ زَمَناً مُمْكناً تذكارُهُ يُذكي لَظَى حسرتك
والبِرُّ مَهْما استطَعْتَ لا تَأْتِهِ فإنهُ جَوْرٌ على مُهجتك

يا بُنيّ الذي لا ناصحَ له مثلي ولا مَنصُوح لي مثلهُ، قد قدّمت لك في هذا النّظم ما إن أخطرت بخاطرك في كلّ أوانٍ رجوْتُ لك حسن العاقبة إن شاء الله تعالى، وإن أخفَ منه للحفظ وأعلق بالفكر وأحقَّ بالتقدّم قولُ الأوَّل:

[المتقارب]

يزينُ الغَريبَ إذا ما اغْتربْ ثلاثٌ فمنْهنّ حُسْن الأَدب
وثانيةٌ حُسن أخْلاقهِ وثالثةٌ اجتنابُ الرّيَب

واصْغَ يا بنيَّ إلى البيت الذي هو يتيمة الدَّهر وسُلَّم الكَرَم والصَّبْر.

[الكامل]

ولو أنَّ أوطانَ الدّيارِ نَبَتْ بِكمُ لَمَكنتُمُ الأخلاقَ والآدابا

إذ حُسن الخُلق أكرَمُ نزِيل، والأدَبُ أرحبُ منزل ولْتَكنْ كما قال بعضهم في أديب مُتغَرب: وكان كلما طَرَأ على مَلك فكأنه معهُ وُلد، وإليه قصدَ، غيرَ مستَريب بدَهْره، ولا مُنكرٍ شيئاً من أمره.

وإذا دَعاك قلْبُك إلى صُحْبة من أخَذ بمجامع هَواه فاجعل التّكلُّف لهُ سُلّماً، وهُبّ في رَوض أخلاقهِ هُبُوب النّسيم، وحُلَّ بطرفه حُلولَ الوسن، وانْزِل بقلبه نزولَ المسَرَّة حتى يَتمكّنَ لك ودَادُه ويخلص فيك اعتقادُه، وطهّر من الوُقوع فيه لسانَك وأغلِق سمعك. ولا تُرَخّص في جانبِهِ لِحُودٍ لك منه يُريد إبعادك عنه لمنفعة، أو حسودٍ له يَغارُ لتَجمُّله بصُحبتك. ومع هذا فلا تَغترّ بطول صُحبته ولا تَتَمهَّد بدوام رقْدته، فقد يُنَبّهُهُ الزمان ويتغيّر منه القلب واللّسان، وإنما العاقل مَن جعل عقْله مِعياراً، وكان كالمرآة يلْقى كلّ وجهٍ بمثاله. وفي أمثال العامة: «مَنَ سَبقَك بيَوم فقد سَبقَك بعَقل»، فاحْتَذِ بأمثلة مَنْ جَرّب، واستمع إلى ما خَلَّد الماضُون بعد جهدهم وتَعبهم من الأقوال، فإنها خُلَاصة عُمْرهم وزُبْدة تجاربهم ولا تتكل على عقلك فإنَّ النظر فيما تَعب فيه النّاسَ طُول أعمارهم وابتَاعُوه غالياً بتجاربهم، يُرْبحُك ويَقَع عليك رَخيصاً. وإن رأيت مَنْ له عقل ومُرُوءة وتجْربة فاستَفدْ منهُ ولا تُضيّع قوله ولا فعله، فإن فيما تلْقاه تَلقيحاً لعقلك وحَثّاً لك واهتداء.

وليس كل ما تَسْمع من أقوال الشعرَاء يحْسُن بك أن تَتَّبعه حتى تتَدبّره، فإن كان موافقاً لعقلك مُصلحاً لحالك فَراعِ ذلك عندك، وإلّا فانبِذه نَبْذَ النّوَاة، فليس لكلّ أحد يتبسّم، ولا كل شخص يكلّم، ولا الجود مما يعمّ به ولا حسن الظنّ وطيب النفس مما يعامل به كلّ أحد، ولله درّ القائل:

[الطويل]

وما لي لا أوفي البريّة قسطها على قدر ما يعطي وعقلي ميزان

وإياك أن تعطي من نفسك إلّا بقدر، فلا تعامل الدّون بمعاملة الكفء، ولا الكفء بمعاملة الأعلى. ولا تضيع عمرك فيمن يعاملك بالمطامع ويثيبك على مصلحة حاضرة عاجلة بغائبة آجلة، ولا تجْفُ الناسَ بالجملة، ولكن يكون ذلك بحيث لا يلْحَق منه مَلل ولا ضجَر ولا جِفاء. فمتى فارَقْتَ أحداً فعلى حُسنى في القوْل والفعل، فإنك لا تدري هل أنت راجعٌ إليه؟ فلذلك قالَ الأول:

[الطويل]

ولمّا مضى سلمٌ بكيت على سلمٍ

وإيّاك والبيتَ السائر:

وكنتَ إذا حللتَ بدارِ قومٍ رَحلتَ بخزْيةٍ وتركتَ عارا

واحرص على ما جَمعَ قول القائل: «ثلاثةٌ تُبْقي لك الوُدَّ في صَدر أخيك: أن تَبْدَأهُ بالسلام، وتُوسّع له في المجلس، وتدعوه بأحبّ الأسماء إليه». واحذَرْ كل ما بَيّنه لك القائل: «كل ما تغرسهُ تجنيه، إلا ابن آدم فإذا غَرَسَته يقلعك». وقول الآخر: «ابن آدم ذئب مع الضَّعف أسدٌ مع القُوَّة». وإيّاك أن تثبت على صحبة أحد قبل أن تُطيل اختبارَه. ويحكى أن ابن المُقفَّع خطب من الخليل صُحْبته فجاوبه أنَّ الصُّحبة رِقّ ولا أضع رقّي في يدَيك حتى أعرف كيف ملكتك. واستَمْلِ مِنْ عين مَن تُعاشره، وتفقّد في فَلتات الألسن وصفحات الأوجه، ولا يحملك الحياءُ على السكوت عما يضُرُّك أن لا تُبيّنه، فإنَّ الكلام سلاح السّلم، وبالأنين يُعرف ألَمُ الجُرح. واجعل لكل أمرٍ أخذت فيه غايةً يجعلها نهاية لك.

[المنسرح]

وخذْ من الدّهر ما أتاك به من قَرّ عَيناً بعيشه نفعه

إذ الأفكار تجلب الهُموم وتضاعِفُ الغموم، وملازمة القطُوب عنْوان المصائب والخُطوب، يستريب به الصاحب، ويَشمت العدُوّ والمُجانب، ولا تضرّ بالوَساوس إلّا نفْسك لأنَّك تنصر بها الدّهر عليك، ولله درّ القائل:

[الوافر]

إذا ما كنتَ للأحزان عَوْناً عليك مع الزمان فمن تلوم؟!

مع أنه لا يُردّ عليك الغائبَ الحُزْن ولا يَرْعوي بطُول عتْبك الزّمن.

ولقد شاهَدْت (بغِرناطَة) شخصاً قد ألفته الهُموم وعشقتْه الغُموم، ومن صَغرِهِ إلى كِبرَه لا تراه أبداً خِلياً من فِكْرةٍ حتى لُقّب «بصدْر الهمّ». ومن أعجب ما رأيتهُ منه أنهُ يتَنكّد في الشّدَّة ولا يتَعلَّل بأن يكون بعدَها فرَج، ويتنكّد في الرَّخاء خوفاً من أن لا يدوم. ويُنشد:

[المتقارب]

توقّعْ زوالاً إذا قيلَ تَمَّ

وينشد:

[الكامل]

عند التّناهي يَقصُر المُتطاوِل

وله من الحكايات في هذا الشان عجائب. ومثل هذا عُمرُه محور يَمرّ ضياعاً. ومتى رفعَك الزّمانُ إلى قوم يذمُّون من العلم ما تُحسِنه حسَداً لك وقصداً لتصغير قدرك عندك وتزهيداً لك فيه. فلا يحْملك ذلك على أن تزهد في علمك وتركن إلى العلم الذي مدَحوه، فتكونَ مثلَ الغُرَاب الذي أعجبهُ مشيُ الحَجَلة فرَامَ أن يتعلّمهُ فصعُبَ عليه، ثم أراد أن يَرجع إلى مشيه فنَسيه، فبقيَ مخبَّل المشي كما قيل:

[الكامل]

إن الغُرَاب وكان يمشي مِشْيَةً فيما مضى من سالف الأجْيالِ
حَسَدَ القَطا وأرادَ يمشي مَشْيَها فأصابه ضرْبٌ من العُقّالِ
فأضلَّ مِشيَتَه وأخطأ مشيها فلذاك كنَّوْهُ (أبا مِرْقال)

ولا يُفسد خاطرَكَ منْ جعل يذمُّ الزّمان وأهلَه ويقول: ما بَقي في الدُّنيا كريم ولا فاضل ولا مكان يُرتاح فيه. فإن الذين تراهم على هذه الصّفة أكثر ما يكونون ممن صَحبه الحرْمان، واستحقتْ طَلْعتهُ للهوان وأبرموا على الناس بالسُّؤال فمقَتُوهم، وعَجزُوا عن طلَب الأمور من وُجوهها فاستراحوا إلى الوُقوع في الناس، وأقاموا الأعذار لأنفسهم بقَطع أسبابهم. ولا تُزِلْ هذين البيتين من فكْرك:

[مجزوء الرمل]

لِنْ إذا ما نلتَ عزّاً فأخو العزّ يلينُ
فإذا نابَك دهرٌ فكما كنتَ تكونُ

والأمثالُ تُضرَب لذي اللّبّ الحكيم وذُو البَصر يمشي على الصراط المستقيم والفطنُ يقنع بالقليلِ ويستدِلُّ باليَسير والله سبحانهُ خليفتي عَليك لا رب سواه.

وصية هارون الرشيد لمعلم ولده الأمين:

يا أحمرُ، إن أمير المؤمنين قد دَفع إليك مُهجة نفسه وثمرَة قلبه، فَصَيّر يَدَك عليه مبسوطةً وطاعتَه لك واجبةً، فكُنْ له بحيث وَضعك أميرُ المؤمنين. أقرئْهُ القرآن، وعرّفه الأخبارَ، ورَوّه الأشعارَ، وعلّمْه السُّنَنَ، وبَصِّرْه بمواقع الكلام وبدئه، وامنعهُ من الضَّحك إلّا في أوْقاته، وخُذْ بتعظيم بني هاشم إذا دخلوا عليه، ورَفْع مجالِس القُوَّاد إذا حضرُوا مجلسه. ولا تمرنَّ بك ساعةٌ إلّا وأنت مغتنمٌ فائدةً تفيده إيّاها من غير أن تُحزِنَه فتُميتَ ذهنَهُ، ولا تُمعنْ في مُسامحته فيتحلي الفراغَ ويألَفُهُ، وقَوِّمهُ ما استطعت بالقُرْب والملاينة، فإن أباهما فعليك بالشّدّة والغلظة.

وصية بعض نساء العرب إلى ابنها وقد أراد السفر:

قال أبانُ بن تغلب وكان عابداً من عبّاد أهل البصرة:

شهدت أعرابيةً وهي توصي ولداً لها يريد سفراً وهي تقول له: أي بُنيَّ، اجلس أمنحك وصيّتي وبالله توفيقُك فإن الوصيّة أجدى[1] عليك من كثير عقلك.

قال أبان: فوقفت متمعاً لكلامها متحناً لوصيتها فإذا هي تقول: أي بُنيّ إيّاك والنميمة فإنها تزرعُ الضّغينة وتُفرّقُ بين المحبّين. وإيّاك والتّعرضَ للعيوب

(١) أنفع.

فتُتّخذ غرضاً[١] وخَليقٌ ألّا يثبتَ الغرض على كثرة السّهام. وقلّما اعتَورت[٢] السّهام غرضاً إلا كلَمَتْهُ[٣] حتى يَهي[٤] ما اشتدّ من قُوَّته. وإيّاك والجُودَ بدينكَ والبُخلَ بمالك. وإذا هززتَ فاهزز كريماً يَلنْ لهزّتك، ولا تهزز اللئيم فإنه صخرةٌ لا ينفجر ماؤها. ومثّلْ لنفسك مثال ما استحسنت من غيرك فاعملْ به، وما استقبحتَ من غيرك فاجتنبهُ، فإن المرء لا يرى عيب نفسه. ومن كانت مودّته بشْرُهُ وخالف ذلك منهُ فعلهُ، كان صديقاً منهُ على مثل الرّيح في تصرّفها. والغدر أقبح ما تعامل به الناس بينهم. ومَنْ جمع الحِلْم والسّخاء فقد أجاد الحلّة رِيطتَها وسِرْبالها.

نصيحة حل لهشام بن عبد الملك:

خرج الزهريُّ يوماً من عند هشام بن عبد الملك، فقال: ما رأيتُ كاليوم، ولا سمعتُ كأربع كلمات تكلم بهن رجل عند هشام. دخل عليه فقال: يا أمير المؤمنين احفظ عني أربع كلمات، فيهن صلاح ملكك واستقامة رعيتك، قال: ما هُنَّ؟ قال: لا تعد عِدة ولا تثق من نفسك بإنجازها، ولا يَغُرَّنك المرْتقى، وإن كان سهلاً إذا كان المنحدر وعراً، واعلم أن للأعمال جزاء فائق العواقب، وأن للأمور بغتات[٥]، فكن على حذر.

قال عيسى بن دأب: فحدثتُ بهذا الحديث المهديَّ وفي يده لقمة قد رَفَعَها إلى فيه فأمسكها وقال: ويحك! أعد عليَّ، فقلت: يا أمير المؤمنين: أسغ[٦] لقمتك، فقال: حديثك أعجبُ إليَّ.

نصيحة أعرابي لسليمان بن عبد الملك:

قال أعرابيٌّ لسليمان بن عبد الملك: إني أكلّمك يا أمير المؤمنين بكلام فاحتمله، فإن وراءه إن قبلته ما تحبه، قال: هاته يا أعرابي فنحن نجود بسعة الاحتمال على مَنْ لا نأمن غَيْبَتَهُ، ولا نرجو نصيحته، وأنت المأمون غيباً الناصح جيباً[٧].

---

(١) هدفاً يرمى فيه. (٢) تداولت. (٣) جرحته.
(٤) يضعف. (٥) البغتات: جمع بغتة وهي الفجأة.
(٦) أساغ اللقمة: ابتلعها.
(٧) فلان ناصح الجيب: يراد به قلبه وصدره أي: أمين، قال الشاعر: [الطويل]

وحصنت صدراً جيبه لك ناصح

قال: فإني سأطلق لساني بما خرسَتْ عنه الألسن تأدية لحق الله تعالى، إنه قد اكتنفك رجال أساؤوا الاختيار لأنفسهم، وابتاعوا[١] دنياك بدينهم، ورضاك بسُخْط ربهم، وخافوك في الله، ولم يخافوا الله فيك. فهم حرب للآخرة وسلم للدنيا، فلا تأمنهم على من ائتمنك الله عليه، فإنهم لم يألوا[٢] الأمانة تضييعاً، والأمة كسفاً وخسفاً، وأنت مسؤول عما اجترموا، وليسوا مسؤولين عما اجترَمْتَ، فلا تصلح دُنياهم بفساد آخرتك، فإن أعظم الناس عند الله غُبْناً مَنْ باع آخرته بدنيا غيره.

فقال سليمان: أما أنت يا أعرابي فقد سَلَت لسانك وهو سيفك، قال: أجل، يا أمير المؤمنين! لك لا عليك.

نصيحة فتاة لأبيها:

قالت أعرابيةٌ تنصح أباها بمجانبة السّرف: حبس المال أنفع للعيال من بذل الوجه في السؤال، فقد قل النوال، وكثر النّجال[٣]، وقد أتلفت الطارف والتّلاد[٤] وبقيت تطلب ما في أيدي العباد، ومن لم يحفظ ما ينفعه، أوشك أن يسعى فيما يضره.

نصيحة البديع الهمذاني لوارث مال:

كتب البديع إلى بعض إخوانه يعزيه وينصح له:

وصلت رقعتك، يا سيدي، والمصاب لَعَمْرُ الله كبير، وأنت بالجزع جدير ولكنك بالصبر أجدر، والعزاء عن الأحبة رشد كأنه الغَيّ، قد مات الميت فليحي الحي؛ فاشدُدْ على مالك بالخَمْس[٥]؛ فأنت اليوم غيرك بالأمس، قد كان ذلك الشيخ رحمه الله وكيلك، تضحك ويبكي لك، وقد موّلك[٦] مما ألف بين سراه[٧]

---

(١) ابتاع: اشترى.

(٢) لا يألو ألواً: قصر. يقال لا آلوك نصحاً لا أقصره. وقال تعالى: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ [آل عمران:١١٨]. أي: لا يقصرون في خبالكم وفسادكم.

(٣) النجال: جمع نجل وهو الولد.

(٤) الطارف: المستحدث من المال وغيره. والتلاد: جمع تليد وهو عكس الطارف.

(٥) يريد بالخمس الأصابع وهي مؤنثة في الأكثر.

(٦) موله: اتخذ له مالاً.

(٧) السرى: سير الليل.

وسيره، وخلفك فقيراً إلى الله غنياً عن غيره، وسيعجم[١] الشيطان عودك، فإن استلانك رماك بقوم يقولون: خير المال ما تتلفه بين الشراب والشباب، وتنفقه بين الحباب[٢] والأحباب، والعيش بين القِداح والأقداح[٣] ولولا الاستعمال لما أريد المال؛ فإن أطعتهم فاليوم في الشراب وغداً في الخراب، واليوم واطربا للكأس، وغداً واحَرَبا[٤] من الإفلاس.

يا مولاي، ذلك الخارج من العُود يسميه الجاهل نَقراً، والعاقل فقراً، وذلك المسموع من النّاي[٥] هو في الآذان زَمْر، وفي الأبواب سَمْر، وإن لم يجد الشيطان مَغْمزاً في عودك من هذا الوجه، رماك بآخرين يمثلون الفقر حذاء عينك، فتجاهد قلبك، وتحاسب بطنك، وتناقش عِرْسك[٦]، وتمنع نفسك وتبوء في دُنياك بوِزْرِك، وتراه في الآخرة في ميزان غيرك، لا_ ولكن قصداً بين الطريقَيْن، وميلاً عن الفريقين لا منع ولا إسراف، والبخل فقر حاضر، وضَيْر عاجل، وإنما يبخل المرء خيفة ما هو فيه.

[الطويل]

ومن يُنفِق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقر

فليكن لله في مالك قسم، وللمُروءة قسم، فَصِلِ الرحم ما استطعتَ وقدّر[٧] إذا قطعت، فلأن تكون في جانب التقدير، خير من أن تكون في جانب التبذير.

وصية الرياحي لقومه:

قال الرّياحي في خطبته بالمربد[٨]:

يا بني رياح، لا تُحَقّروا صغيراً تأخذون عنه، فإني أخذت من الليث بسالته، ومن الحمار صبره، ومن الخِنزير حرصه، ومن الغُراب بُكورَه، ومن الثعلب

(١) عجم العود: عضه ليعرف مبلغ صلابته.
(٢) حباب الماء والشراب: فقاقيعه التي تطفو كأنها القوارير.
(٣) القداح: سهام الميسر واحدها قدح كقرد. والأقداح: جمع قدح، كجبل وهو وعاء الشراب.
(٤) الحرب: أن يسلب الرجل ماله، وقد حرب ماله أي: سلب ومن هذا قولهم: واحرباه.
(٥) الناي: آلة للزمر، فارسي معرب، وقد تهمز ياؤه، وقد جمعوه على نايات.
(٦) العرس: الزوجة.
(٧) التقدير: التروية والتفكير في تسوية الأمر.
(٨) المربد: الجرين، ثم صار علماً على موضع بالبصرة.

رَوغانه[١]، ومن السنّور ضَرَعه[٢]، ومن القرد حكايته، ومن الكلب نُصرته، ومن ابن آوى حذره، ولقد تعلمت من القمر سير الليل، ومن الشمس ظهور الحين بعد الحين.

وصية ذي الأصبع لابنه:

لمّا احْتَضَرَ ذو الأصبع العُدواني[٣] دعا ابنه أسيداً فقال له: يا بُني، إن أباك قد فني وهو حيّ، وعاش حتى سئم العيش، وإني موصيك بما إن حفظته بلغت في قومك ما بلغته: ألن جانبك لقومك يحبُّوك وتواضع لهم يرفعوك، وابسُط لهم وجهك يطيعوك، ولا تستأثر عليهم بشيء يُسوِّدوك، وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم يكرمك كبارهم، ويَكبر على مودّتك صغارهم.

واسمح بمالك وأعزِز جارك[٤] وأعن مَن استعان بك. أكرم ضيفك وأسرع النهضة في الصريخ[٥] فإن لك أجلاً لا يدونك. وصن وجهك من مسألة أحد شيئاً، فبذلك يتمّ سُؤدَدُك.

وصية عبد الله بن شداد[٦] لابنه:

قال الكلبي: لما حضرَت عبد الله الوفاة دعا ابناً له يقال له محمد فقال: يا بني، إني أرى الموت لا يُقلِع، وأرى من مضى لا يرجع، ومن بقي فإليه يَنزَع[٧]، وإني موصيك بوصية فاحفظها. عليك بتقوى الله العظيم، وليكن أولى الأمور بك شكر الله، وحسن النيَّة في السر والعلانية، فإن الشكور يزداد والتقوى خير زاد، وكن كما قال الحطيئة:

[الوافر]

ولست أرى السعادة جمع مال ولكنّ التّقيّ هو السعيد

(١) الروغان: الميل عن الشيء لتجنب الضرر.
(٢) الضرع: الخضوع.
(٣) هو حرثان بن الحارث، خطيب حكيم، شاعر فارس، وهو أحد المعمرين في الجاهلية.
(٤) الجار: المجاور والذي أجرته من أن يظلم.
(٥) الصريخ: صوت المستغيث وهو أيضاً المغيث واحداً أو أكثر.
(٦) هو عبد الله بن شداد بن الهادي الليثي كان من رجالات العراق ومن ذوي المكانة عند الحجاج، ثم خرج عليه مع ابن الأشعث، ويقال إنه قتل سنة ٨٣هـ.
(٧) نزع إليه كجلس: اشتاق.

وتقوى الله خير الزاد ذخراً وعند الله للأتقى مزيد
وما لا بُدَّ أن يأتي قريبٌ ولكن الذي يمضي بعيدُ

أي بُنيّ، لا تزهَدَنّ في معروف، فإن الدهر ذو صُروف، والأيام ذات نوائب، على الشاهد والغائب، فكم من راغب قد كان مرغوباً إليه، وطالب أصبح مطلوباً ما لديه. واعلم أن الزَّمان ذو ألوان، ومن يصحب الزمان يَرَ الهوان وكن، أي بُنيّ، كما قال أبو الأسود الدؤلي:

[الطويل]

وعدّ من الرحمن فضلاً ونعمة عليك إذا ما جاء للعُرْف[١] طالبُ
وإن امرأ لا يُرْتجى الخير عنده يكن هيّناً ثقيلاً على من يصاحبُ
فلا تمنعنْ ذا حاجة جاء طالباً فإنك لا تدري متى أنت راغبُ
رأيت الْتِوا[٢] هذا الزمان بأهله وبينهم فيه تكون النوائبُ

أي بُنيَّ، كن جواداً بالمال في موضع الحق، بخيلاً بالأسرار عن جميع الخلق، فإن أحمد جود المرء الإنفاق في وجه البِرّ، وإن أحمد بخل الحر الضّن بمكتوم السِّر، وكن كما قال قيس بن الخطيم[٣] الأنصاري:

[الطويل]

أجُود بمكنون التِّلاد وإنني بسِرِّك عمّن سالني لضنين[٤]
إذا جاوز الاثنين سر فإنه ينثّ وتكثير الحديث قمين[٥]
وعندي له يوماً إذا ما ائتمنتني مكان بسوْداءِ الفؤاد مكين[٦]

أي بُنيَّ، وإن غُلِبت يوماً على المال، فلا تدع الحيلة على حال، فإن الكريم يحتال، والدنيَّ عيال، وكن أحسن ما تكون في الظاهر حالاً، وأقلَّ ما تكون في

(١) العرف: المعروف.
(٢) التوا: مصدر التوى وقصره للضرورة. والتوى به الزمان: اعوج. وألوى به: أهلكه.
(٣) شاعر من أهل يثرب وبينه وبين حسان بن ثابت مناقضة.
(٤) سهل الشاعر همزة سأل للوزن.
(٥) قطع همزة اثنين للضرورة. ونثّ الحديث: أفشاه.
(٦) سوداء الفؤاد أو القلب وسويداؤه وأسوده: حبته.

الباطل مالاً، فإن الكريم من كرمت طبيعته، وظهرت عند الإنفاد[١] نعمته، وكن كما قال ابن خذاق[٢] العَبْدي:

[الوافر]

وجدتُ أبي قد أوْرثه أبوه خلالاً قد تُعد من المعالي[٣]
فأكرم ما تكون عليَّ نفسي إذا ما قلّ في الأزمات مالي
فتحْسُن سيرتي وأصون عِرْضي ويَجمل عند أهل الرأي حالي
وإن نلتُ الغنى لم أغلُ فيه ولم أخصُص بجفوتيَ الموالي[٤]

أي بُنيَّ، وإن سمعت كلمة من حاسد، فكن كأنك لست بالشاهد، فإنك إن أمضيتها حيالها[٥] رجع العيب على من قالها، وكان يقال: الأريب العاقل هو الفطن المتغافل[٦]، وكن كما قال حاتم الطائي:

[الوافر]

وما من شِيمتي شتْم ابن عمي وما أنا مُخْلِف من يرتجيني
وكلمة حاسد في غير جُرم سمعت فقلت مُرِّي فانفذيني[٧]
فعابوها عليّ ولم تؤني ولم يَعرق لها يوماً جبيني
وذو للونين يلقاني طليقاً وليس إذا تغيب يأتليني[٨]
سمعت بعيبه فصفحت عنه محافظة على حَسَبي ودِيني

أي بُنيّ، لا تؤاخ امرأً حتى تعاشره، وتتَفقد موارده ومصادره، فإذا استطعت

---

(١) الإنفاذ: الفقر. (٢) اسمه يزيد وهو شاعر قديم.
(٣) نقلت حركة الهمزة من أورث إلى الواو، وحذفت هي للوزن، والخلال: جمع خلة وهي الخصلة.
(٤) غلا في الأمر غلواً: جاوز الحد. والموالي: الأقارب. يقول: إن كثر مالي لم أجف أقاربي.
(٥) حيال ظرف في معنى إزاء، أي: تركتها تذهب في طريقها إلخ.
(٦) في معنى قول الشاعر: [الكامل]
ليس الغني بسيد في قوم لكن سيد قوم المتغابي
(٧) نفذه: جازه.
(٨) ائتلى كألا أي: قصر. يقول: إذا غاب عني فلن يقصر في نكايتي.

obeikandi.com

العشرة، ورضيت الخبْرة[١]، فواجِه على إقالة العثرة، والمواساة في العُسرة وكن كما قال المُقنّع الكندي[٢]:

[الكامل]

أُبْلُ الرجالَ إذا أردت إخاءهم وتوسَّمن فعالهم وَتَفقَّد
فإذا ظفرت بذي اللِّبابة والتقى فبه اليَدَين قَرينَ عين فاشدد[٣]
وإذا رأيت ولا محالة زلة فعلى أخيك بفضل حلمك فاردد

أي بنيّ، إذا أحببت فلا تفرط، وإذا أبغضت فلا تشطط[٤]، فإنه قد كان يقال: أحببت حبيبك هوْناً مّا[٥] عسى أن يكون بغيضك يوماً مَا، وأبغض عدوك هوناً مّا عسى أن يكون حبيبك يوماً ما. وكن كما قال هدبة[٦] بن الخشرم العذري:

[الطويل]

وكن معْقلاً للحلم واصفح عن الخنا فإنك راءٍ ما حييتَ وسامعُ
وأحبب إذا أحببت حباً مقارباً فإنَّك لا تدري متى أنت نازعُ[٧]
وأبغض إذا أبغضت بغضاً مقارباً فإنك لا تدري متى أنت راجعُ

الفصل الثاني عشر: في رسائل التنصل والتبرؤ

كتب أبو الحسن علي بن الرّومي المتوفى سنة ٢٨٤هـ إلى القاسم بن عبيد الله:

ترَفّع عن ظُلْمي إن كنتُ بريئاً، وتفضّل بالعفو إن كنتُ مُسيئاً. فوالله إني لأطلُبُ عفو ذنبٍ لم أجنه، وألتمسُ الإقالة مما لا أعرِفه، لتزدادَ تطوُّلاً وأزداد تذلّلاً. وأنا

(١) الخبرة، وبغير هاء: العلم بالشيء كالاختبار.
(٢) هو محمد بن عمرة، والمقنع لقب شاعر رصين المباني حكيم المعاني من شعراء الدولة الأموية.
(٣) اللبابة: مصدر لب أي: صار ذا لب وهو العقل؛ وكل ما قبل «فاشدد» من الشطر الثاني معمول له وتكررت الفاء للربط ـ وكذا في البيت التالي.
(٤) شط وأشط: جاوز الحد.
(٥) الهون: الرفق، وما: إما زائدة، وإما صفة لهوناً مثلها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾ [البقرة: ٢٦].
(٦) هو شاعر من شعراء الدولة الأموية جيد البديهة وهو القائل: [الطويل]

ولست بمفراح إذا الدهر سرني ولا جازع من صرفه المتقلب
ولا أتمنى الشر والشر تاركني ولكن متى أحمل على الشّر أركب

(٧) نزع عن الأمر نزوعاً: انصرف وانتهى عنه.

أعيذ حالي عندك بكرمك من واشٍ يكيدُها، وأحرسها بوفائك من باغ يحاوِلُ إفسادها، وأسأل الله تعالى أن يجعل حظّي منك بقدر وُدّي لك، ومَحلّي من رجائك بحيث أستحقّ منك.

وكتب أبو الوليد أحمد بن زيدون المتوفى بأشبيلية سنة ٤٦٣هـ:

يا مولاي[١] وسَيدي[٢] الذي وِدادي له[٣]، واعتمادي[٤] عليه، واعتدادِي[٥] به، وامتدَادي[٦] منه، ومن أبقاهُ الله ماضِيَ[٧] حَدّ العَزْم[٨]، وَاريَ[٩] زَنْد[١٠] الأمَل[١١]، ثابتَ[١٢] عَهْدِ[١٣] النّعْمَة، إنْ سَلَبتني[١٤] ـ أعَزَّكَ[١٥] الله ـ لِباسَ[١٦] نَعمائك، وعطَّلتني[١٧] من حُلَى[١٨] إيناسِك[١٩]، وأظمأتني[٢٠] إلى بُرود[٢١] إسعافك[٢٢]، ونَفَضْتَ[٢٣] بي كفَّ حِياطَتك[٢٤]، وغَضَضْتَ[٢٥] عني طرْفَ[٢٦]

---

(١) المولى: له معان كثيرة الأليق منها هنا السيد أو المنعم ومنها العبد أيضاً. قال أبو تمام: [الكامل]

مولاك يا مولاي صاحب لوعة ... في يومه وصبابة في أمسه
دنف يجود بنفسه حتى لقد ... أمسى ضعيفاً أن يجود بنفسه

(٢) السيد: من ساد على قومه وارتفع، وهو أخص مما قبله وذكر لمزيد الاستعطاف.
(٣) محبتي.
(٤) اتكالي.
(٥) عدتي ليوم حاجتي
(٦) مزيد خيري.
(٧) قاطع.
(٨) قوة الإرادة، أي: لا يعزم على أمر إلا أمضاه.
(٩) الوري: خروج النار من الزند وقت الاقتداح.
(١٠) مقدحة.
(١١) الرجاء.
(١٢) متمكن ومتوثق.
(١٣) ميثاق. أي: أن نعمته ثابتة ومحفوظة عليه أبداً، وأن محبته مقصورة عليه وأنه هو الملتجأ إليه، وأنه يطلب من الله أن يبقيه وعزمه سيف قاطع وأمله نور لامع وخيره غيث متتابع. وإنه لحسن افتتاح وبراعة استهلال.
(١٤) انتزعت مني.
(١٥) أعزك الله: جملة اعتراضية الغرض منها الدعاء لسيده بالعزة والإشارة إلى ما يستلزمه سلب اللباس من المذلة وتنبيهاً له على ذلك.
(١٦) ما يواري الجسم، أي: جردتني من نعمك المحيطة بي.
(١٧) العطل: في الأصل خلو جيد المرأة من القلائد.
(١٨) ما يتحلى به.
(١٩) أنسك. أي: حرمني من لذيذ أنسك.
(٢٠) أعطشتني.
(٢١) بارد.
(٢٢) إنجادك.
(٢٣) طرحت.
(٢٤) أحاطتك، أي: طرحتني من كف حوزك لي.
(٢٥) خفضت.
(٢٦) نظر. أي: خفضت طرف وقايتك عني فتركتني غرضاً لصائبات الحوادث.

حمايتك، بَعدَ أن نظر الأعمى إلى تأميلي[١] لك، وسمع الأصمُّ ثَنائي[٢] عليك، وأحسَّ الجمادُ باسْتحمادِي[٣] إليك، فلا غَرْوَ[٤]، قد يَغَصُّ[٥] الماءُ شاربهُ، ويقتلُ الدواءُ المُسْتَشفي به، ويُؤْتى الحذر[٦] من مأمَنه[٧]، وتكونُ مَنِيَّةٌ[٨] المُتَمنّي في أُمنِيّته[٩]، والحين[١٠] قد يسبِقُ جُهْدَ[١١] الحَرِيص.

[الكامل]

كلُّ المصائبِ قد تمرُّ على الفتى وتهون غَير شماتةِ[١٢] الحُسَّادِ

---

(١) التأميل: أمر معنوي لا يشاهد وإنما ذلك مبالغة في شدة التلبس والاتصاف به.

(٢) مدحي. مبالغة في انتشار مدحه.

(٣) حمدي. مبالغة في تأثير حمده. يشير إلى تعداد ما حل به من المصائب وأحدق به من كل جانب ألا وهو تجريده من نعم الأمير المحيطة به إحاطة الثياب، وحرمانه من الإنس بذلك الجناب، وإعطاشه إلى سريع إغاثته، وإخراجه من محيط دائرته، وصرفه عنه نظر ملاحظته، خصوصاً بعد أن صير تأميله فيه جسماً مخترعاً. ولذا رآه الأعمى وجلا مدحه بما جذب إليه الآذان فدخلها بدون استئذان، ولذا سمعه الأصم وبذل قصارى جهده في حمده حتى كان مؤثراً في كل الكائنات، ولذا أدركه الجماد. وفيه من المبالغة ما في قول المتنبي: [ابسيط]

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم

وإنما أكثر من تعداد مصائبه ليكون ذلك أدل على توجعه وتألمه، وأسرع لتلبية ندائه، وأمكن لجلب الصفاء وإزالة الجفاء.

(٤) فلا عجب. الفاء واقعة في جواب إن من قوله: إن سلبتني.

(٥) غصصت بالماء أغص غصاً إذا شرقت به وأغصصته أنا.

(٦) المتيقظ. (٧) من حيث لا يتوقع الضرر. (٨) موت.

(٩) ما يتمناه. (١٠) الهلاك. (١١) طاقة.

(١٢) الفرح في بلية الغير. يقول: إن انتزعت مني ما أعطيت، وأحللت بي من المصائب ما أحللت بعد غلوي في الثناء عليك والتجائي في كل الأمور إليك، فليس ذلك بالأمر العجيب، ولا بالنادر الغريب، بل كثير النظائر والأمثال. فالماء الذي به زوال الغصص قد يكون هو المغص، وإن الأمنية قد تكون فيها المنية. وهو يشير في عبارته إلى قول بعضهم: [الكامل]

قد كنت عدتي التي أسطو بها ويدي إذا اشتد الزمان وساعدي
فرميت منك بغير ما أملته والمرء يشرق بالزلال البارد

وإلى قول الآخر: [البسيط]

تجري الأمور على وفق القضاء وفي طي الحوادث محبوب ومكروه
فربَّما سرّني ما بتّ أحذره وربما ساءني ما بت أرجوه

والبيت الذي ذكره لابن أبي عيينة.

وإني لأتجَلَّدُ[١] وأُري للشَّامتين أني لرَيبِ[٢] الدَّهر لا أتَضعضَعُ[٣]، فأقول: هل أنا إلا يدٌ أدماها[٤] سِوَارها[٥]، وجبينٌ عَضّ به إكليله[٦]، ومَشْرَفيٌّ[٧] ألصَقَهُ بالأرض صاقِلُهُ[٨]، وَسمْهَرِيٌّ[٩] عَرضَهُ على النّار مُثقِّفه[١٠]، وعبدٌ ذهب به سيّده مذْهب الذي يقول:

[الكامل]

فقسَا ليزدجِرُوا[١١] ومَن يَكُ حازماً قليقْسُ أحياناً على مَنْ يرْحمُ

هذا العَتَبُ[١٢] محمودٌ عواقبُهُ، وهذه النَّبْوَةُ[١٣] غمْرةٌ[١٤] ثم تنجَلي[١٥]، وَهذه النكبةُ[١٦] سحابة صَيف عن قليل تَقْشَعُ[١٧]، ولن يُريبَني[١٨] من سيّدي إن أبطأ سَيبهُ[١٩] أو تأخّر غير[٢٠] ضَنين غَناؤُه[٢١]، فأبطأ الدّلاءِ فيضاً[٢٢] أملؤُها، وأثقَلُ

---

(١) أتكلف الصبر والقوة. (٢) ريب الدهر نوائبه.

(٣) أتزلزل هذا حل بيت لأبي ذؤيب الهذلي وهو: [الكامل]

وتجلدي للشامتين أريهم أني لريب الدهر لا أتضعضع

(٤) أسال دمها. (٥) نوع من الحلي يلبس في الساعد.

(٦) تاجه. (٧) سيف.

(٨) جاليه. (٩) رمح. (١٠) مقومه.

(١١) يمتنعوا. يخاطب نفسه ويسليها ويضرب لها الأمثال ويمنيها ويسهل عليها ما تعانيه، ويحببها فيما تعانيه، مع مزيد استعطاف قلب سيده واستجلاب رحمته حيث لم يستهجن فعله وعمله معه. فقد نزل نفسه منزلة يد الحسناء التي أجرى دمها السوار، والجبين الذي أثر فيه تاج الافتخار، والسيف الذي وضعه على الترب صاقله لصقله لا لهوانه، والرمح الذي وضعه على النار مثقفه لتعديله لا لإحراقه، والعبد الذي قسى سيده رحمة به وإحساناً لا استخفافاً به وهواناً. والبيت لأبي تمام.

(١٢) اللوم. (١٣) الجفوة. (١٤) شدة.

(١٥) تكشف. (١٦) المصيبة.

(١٧) تقلع. يقول: أرجو أن يكون هذا اللوم خاتمة الجفاء وفاتحة الألفة والصفاء، وأن هذه الجفوة شدة وتحول وسحابة لا تلبث أن تزول. يشير إلى قول المتنبي: [البسيط]

لعل عتبك محمود عواقبه وربما صحت الأجسام بالعلل

وإلى المثلين العربيين: «غمرات ثم تنجلي»، و«سحابة صيف عن قليل تقشع». والأول يضرب في حصول اليسر بعد العسر، والثاني في سرعة التغير.

(١٨) يجعلني شاكاً. (١٩) عطاؤه.

(٢٠) غير ضنين: احتراس يريد به حمل سيده على العطف ودفع ما يتوهم من أن التأخير للإيقاع به.

(٢١) نفعه.

(٢٢) الفيض: صعود الماء على الضفة. والمراد هنا مجرد الصعود، أي: أن أبطأ الدلاء صعوداً أكثرها امتلاء.

السّحائب مَشياً أحفلُها[١]، وأنفعُ الحيا[٢] ما صادف جدباً[٣]، وألذُّ الشَّراب ما أصابَ غَليلاً[٤]، ومَع اليوم غَدٌ و﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾[٥] له الحمدُ على اهتبالهِ[٦] ولا عتبَ عليه في اغْتِفاله[٧].

[الطويل]

فإن يكون الفعلُ الذي ساءَ واحِداً فأفعالُهُ الّلائي سَررْنَ أُلوفُ

وأعود فأقول: ما هذا الذّنبُ الذي لم يَسَعْهُ عَفوُكَ، والجهلُ الذي لم يأتِ من ورائِه حِلْمُك، والتّطاوُل[٨] الذي لم يَسْتغرقْه تَطَوُّلُك[٩]، والتَّحَامُلُ[١٠] الذي لم يَفِ بهِ احتمالُك[١١] ولا أخلو من أن أكونَ بريئاً؟ فأين عَدلك؟ أو مُسيئاً فأين فضلُك؟

[الكامل]

إلَّا يكن ذنبٌ فعدْلُك واسعٌ أو كان لي ذنبٌ ففضلُك أوسع

[الطويل]

فهَبْني مُسيئاً كالذي قُلت طالباً قصاصاً[١٢] فأين الأخذ يا عزّ[١٣] بالفَضْل

---

(١) أملؤها. (٢) المطر. (٣) الأرض التي لا نبات بها.

(٤) العطش بحرارة. لما ذكر أن هذا العتب محمود العاقبة وأن ما حل به عن قريب يزول، ورأى أن تأخير الرحمة به وعدم إنقاذه من ورطته ربما يوهم الريبة في محمدة العاقبة، دفع ذلك معتذراً عن سيده في هذا التأخير معللاً بقوله: فأبطأ الدلاء فيضاً أملؤها، وأثقل السحائب مشياً أحفلها، وغير ذلك مما يدل على أن في التأخير ما ينعم البال ويقر الأعين ثم ختم بما عبارته هو أمثل في التسلية وأدعى للتصبر من حيث يقول: ومع اليوم غد ولكل أجل كتاب.

(٥) الرعد: ٣٨. (٦) اغتنامه.

(٧) تغافله. وهو تركه على ذكر منه بعد أن اعتذر عن سيده بما اعتذر أخذ يمدحه على إيقاعه به وتغافله عنه عله أن يرأف به ويعطف عليه. والبيت للمتنبي.

(٨) الكبر. (٩) فضلك. (١٠) التكليف بما لا يطاق.

(١١) الاحتمال كالحمل إلا أنه في الأمور العظيمة قال النابغة الذبياني: [الطويل]

فحمّلت براً واحتملت فجارا

(١٢) عقاباً.

(١٣) اسم امرأة. رجع بعد أن عود نفسه في مخاطبة الأمير الصبر والانتظار التفت منه إلى في ضميره من بقايا العتب فقال يستفهمه مريداً بذلك إلزامه بالصفح عنه بتصغير ذنبه وتكبير عفو سيده. فكأنه يقول: ما هذه الحركة التي زلزلت طودك، وما هذه الجيفة التي عكرت بحرك؟ ولم لا يشملني كرمك وجودك مع أن فضلك وعدلك أكبر شفيع للعاصي والمطيع؟ وذكر البيتين تأييداً لما قاله في نثره، والأول للبحتري والثاني مأخوذ من قول الحماسي: [الطويل]

هبيني ظلوماً نلته بمساءة قصاصاً فأين الأخذ يا عز بالفضل

حنانَيك[١] قد بلَغ السيّلُ الزُّبَى[٢]، ونالني ما حَسْبني به وكَفَى، وما أراني إلّا لو أُمرتُ بالسُّجُود لآدَم فأبيتُ[٣] واستكبرتُ. وقال لي نوحٌ اركب معنا فقلت سآوي[٤] إلى جبل يَعصمُني[٥] مِنَ الماء، وأمرتُ ببناءِ صَرْحٍ[٦] لعَلّي أَطَّلع إلى إله موسى، وعكفْتُ[٧] على العجْل، واعتديت[٨] في السّبتِ، وتعاطيت[٩]

(١) تثنية حنان وهو الرحمة.

(٢) جمع زبية وهي حفرة تحفر لصيد الأسد في مكان مرتفع لا يعلوه الماء فإذا وصل إليه السيل كان مجحفاً. يريد بذلك مزيد استرحام سيده من حيث يقول له: حنانيك أي رحمة بعد رحمة أطلبها منك فإن الذل والهوان قد وصلا إلى النهاية، والصغار والاحتقار قد بلغا الغاية. وقوله: بلغ السيل الزبى، مثل عربي يضرب في بلوغ الشيء غايته.

(٣) امتنعت. ولقد أحسن كل الإحسان وتلطف ما شاء في عطف قلب سيده وطلب العفو عما اجترح من جريمته بأبلغ عبارة وأدق إشارة، مبدعاً وصف ما لاقاه من العقاب والنكال، وأنه لو قسم على ذوي الذنوب من الأولين والآخرين لكان كافياً لتكفير تلك الذنوب جزاء وفاقاً، ملمحاً إلى ذوي الذنوب المشهورة ووقائع الآثام الماثورة، فقال: وما أراني الخ يشير إلى ذنب إبليس وهو امتناعه واستكباره عن السجود لآدم من حيث أمره الله بذلك فـ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤] و﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

(٤) سألجأ.

(٥) يحفظني. يشير إلى ذنب ابن نوح وهو مخالفته لأبيه من حيث قال له لما عم الطوفان وصعد السفينة هو ومن آمن معه: ﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[هود: ٤٢] فخالف أباه وقال: سآوي الخ.

(٦) قصر. يشير إلى ذنب فرعون وهو إنكاره الإله وادعاؤه أنه هو الإله الحقيقي وذلك حينما أتاه موسى عليه السلام بالإيمان بالله فقال فرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا﴾ [القصص: ٣٨].

(٧) واظبت. يشير إلى ذنب بني إسرائيل وهو عبادة العجل، وذلك أنه لما ذهب موسى عليه السلام لميقات ربه قام رجل صائغ من قبيلة يقال لها سامرة كانت تعبد البقر وقال لبني إسرائيل: إن الحلي الذي استعرتموه من المصريين وبقي معكم بعد غرقهم لا يحل لكم، فادفنوه حتى يأتي موسى ويرى رايه فيه. ففعلوا، فأخذه وصاغه عجلاً ووضع فيه القبضة التي أخذها من أثر حافر فرس الحياة، فرس جبريل عليه السلام، فصار العجل يمشي وكأنه يخور، فقال لبني إسرائيل: هذا إلٰهكم وإلٰه موسى نسيه وذهب ليطلبه، فافتتن به كثير منهم واتبعوه.

(٨) جاوزت. يشير إلى ذنب بني إسرائيل وهو انتهاك حرمة السبت، وذلك أنهم نهوا عن الاصطياد فيه وكانت الحيتان تأتي فيه بكثرة رافعة خراطيمها حتى تغطي الماء ولا تأتي في غيره، فتحيلوا بعمل حيضان متصلة بالبحر فإذا جاءت عشية الجمعة فتحوا الاتصال فتدخل الحيتان في الحيضان فيأخذونها يوم الأحد. ولما أمهل الله عقوبتهم استحلوا الصيد يوم السبت فحاق بهم العذاب.

(٩) تعاطى. قام على أطراف أصابع رجليه ثم رفع يديه وضرب.

فعقَرْتُ[١] وشَربت من النَّهر الذي ابتُلي[٢] بهِ جُيوش طالوت، وقُدْتُ الفيل لأبْرَهَةَ[٣] وعاهدتُ[٤] قُريشاً على ما في الصّحِيفَة، وتأوَّلت[٥] في بَيْعة العَقَبَة[٦]، واستنفرتُ إلى العِير[٧] بِبَدْر، وانخذلت[٨] بثُلث الناس يوم أُحُد[٩]،

---

(١) عقر البعير بالسيف فانعقر أي: ضرب به قوائمه. يشير إلى ذنب قدار وهو قتل ناقة صالح عليه السلام وذلك أن امرأة يقال لها عنيزة لها مال وبنات حسان وأخرى يقال لها صدوق بنت المحيا صاحب أوثانهم، كان زوجها أسلم وأنفق ماله على صالح وأتباعه. وكانتا من أشد الناس عداوة لصالح فدعت صدوق مصدعاً لنفسها على قتل الناقة، ودعت عنيزة قداراً على ذلك أيضاً. فذهبا وتبعهما أشقياء ثمود وكمن كل منهما في أصل صخرة، ولما مرت ضربها مصدع فأصاب ساقها فشد عليها قدار بسيفه فأبان عرقوبها ثم نحرها.

(٢) اختبر. يشير إلى ذنب معظم جيوش طالوت عليه السلام وهو مخالفتهم له حينما اقترحوا عليه قلة الماء، فقال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٤٩] فخالفوا وشربوا إلا قليلاً منهم.

(٣) كان عامل اليمن من قبل النجاشي. يشير إلى ذنب أبرهة وهو ذهابه لهدم الكعبة. وسبب ذلك أنه بنى كنيسة في صنعاء ليصرف الناس عن الكعبة. فأتى رجل كناني ولوثها بالعذرة، وأتى أقوام من تجار قريش وأضرموا ناراً بجانبها فهبت الريح فأحرقتها. فغضب النجاشي لذلك، وقام أبرهة وأخذ الفيلة وفي مقدمتها فيل النجاشي المسمى محموداً ليهدم الكعبة إرضاء له، ولما وصل إليها وجه الفيل نحوها فأبى، فوجهه إلى اليمن فقام مهرولاً، وبعد ذلك ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤﴾ [الفيل: الآيتان ٣و٤].

(٤) أعطيتهم عهداً وميثاقاً. يشير إلى ذنب قريش وهو اتحادهم على عدم نصر الدين. وذلك أنهم لما رأوا أن الدين أخذ في النمو، وأن حمزة وعمر أسلما، تعاقدوا على مهاجرة بني هاشم وبني عبد المطلب، وعلى قطع العلائق بينهم تماماً، وكتبوا بذلك صحيفة وعلقوها في جوف الكعبة تأكيداً لذلك.

(٥) تأولت: خالفت.

(٦) طريق وعر في الجبل. يشير إلى ذنب من نقض بيعة العقبة. وبيعات العقبة ثلاث، ولم يتأول فيها أحد. فذكره لها على سبيل الفرض، أي: هب أني خالفت الإجماع وتعديت الحد وفعلت ما لم يفعله أحد.

(٧) العير بالكسر: الإبل التي تحمل الميرة. يشير إلى ذنب ضمضم الغفاري وهو استنهاض قريش لأبي سفيان. وذلك أن أبا سفيان كان آتياً من الشام في عير، فذهب عليه السلام لقتاله. فشعر بذلك أبو سفيان فاستأجر ضمضماً المذكور ليخبر قريشاً، فذهب وصرخ ببطن الوادي واقفاً على جمل قد جدعه وحول رحله وشق قميصه قائلاً: يا معشر قريش، اللطيمة اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد وأصحابه. لا أرى أن تدركوها، الغوث الغوث. فتجهزوا جميعاً وذهبوا إليه وحصلت الواقعة الشهيرة المسماة بغزوة بدر الكبرى وفيها انتصر النبي عليه السلام انتصاراً باهراً.

(٨) خذله: ترك عونه ونصرته.

(٩) أحد: جبل بالمدينة. يشير إلى ذنب أبي بن سلول رأس المنافقين، وهو رجوعه من الجيش هو ومن معه من المنافقين. وذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام لما خرج إلى أحد ومعه ألف من

وتخلّفت[١] عن صَلاة العصر في بَني قُريظة[٢]، وجئْتُ بالإفك[٣] على عائشَة الصّديقة، وأنِفْت[٤] عن إمارة أُسامة، وزعمتُ أنّ خِلَافة أبي بكر كانت فلتَةً[٥]، ورَوَّيْت رُمْحي من كَتِيبة[٦] خالد، ومزّقت[٧] الأديمَ[٨] الذي بارَكتْ يدُ الله عليه،

= أصحابه لقتال أعدائه كان من رأي أبي أن يمكث النبي في المدينة، فأبي عليه السلام قبول رأيه موافقاً لمعظم الصحابة فرجع هو ومن معه من المنافقين وقال أطاعهم وعصاني.

(١) تخلّفت: تأخرت.

(٢) طائفة من اليهود. يشير إلى حادثة بني قريظة. وذلك أنه عليه السلام بعد رجوعه من غزوة الخندق قال: من كان سميعاً مطيعاً فليصل العصر في بني قريظة. فبعض الصحابة أخذ بظاهر الحديث وصلى العصر هناك بعد مغيب الشمس، والبعض الآخر رأى أن المقصود هو الإسراع، فصلى في الطريق. ولما اختلف الفريقان في تعيين المصيب ترافعا إليه عليه السلام فحكم بإصابتهما. وإذاً تكون عبارته كناية عن فداحة التخلف عن الذهاب.

(٣) الكذب: يشير إلى ذنب مسطح وحسان ومن معهما في مجاهرتهم بالسوء لزوجه عليه السلام. وذلك أنه لما ذهب عليه السلام إلى غزوة بني المصطلق كانت معه السيدة عائشة حيث كانت قرعتها. ففي العودة ذهبت السيدة لقضاء حاجتها، ففاتها الركب ولم ينظروا في هودجها. فمر صفوان وكان قد تأخر لأمر ما، فأركبها بعيره وقاده. فأشاعوا هؤلاء ما أشاع فبرأها الله تعالى بالآيات البينات.

(٤) استكبرت. يشير إلى بعض الصحابة من حيث استكبروا على أسامة. وذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام جهز جيشاً ليذهب به إلى الشام، وقال له: سر إلى مقتل أبيك. فتكلم قوم وقالوا: أيأمر هذا الغلام على المهاجرين الأولين؟ فغضب عليه السلام لذلك وخرج في مرضه عاصباً رأسه، وصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه وقال ما معناه: لئن طعنتم في أسامة فقد طعنتم في أبيه من قبل وإنه لأهل لها فاستوصوا به خيراً.

(٥) أي من غير إحكام ولا روية. يشير إلى ذنب الشيعة وهو اعتقادهم أن علياً هو الأحق بالخلافة ومن سواه غاصب ويقولون ما تقدم. وفي حديث عمر (أن بيعة أبي بكر كانت فلتة وفي الله شرها) فقيل المراد بالفلتة الخلسة أي أن الإمامة يوم السقيفة مالت الأنفس إلى توليها وكثر فيها التشاجر فانتزعها واختلسها أبو بكر اختلاساً، ومثل هذه البيعة مهيجة للشر والفتنة، فعصم الله تعالى من ذلك ووقى.

(٦) جيش. يشير إلى ذنب أبي شجرة السلمي وهو فتكه بجيش خالد في حرب الردة ويشير إلى قوله في ذلك: [الطويل]

ورويت رمحي من كتيبة خالد وإني لأرجو بعدها أن أعمّرا

(٧) مزّقت: قطعت.

(٨) الجلد. يشير إلى ذنب أبي لؤلؤة وهو قتل عمر عليه السلام. وذلك أن أبا لؤلؤة طلب منه أن يخفف عنه جعل سيده، فقال له: إنه ليس بكثير وإنك لصانع مجيد وأريد أن تصنع لي رحى. فقال: سأصنع لك رحى يسمع دويها أهل المشرق والمغرب، وكمن له حتى طعنه في صلاة =

وضحيّت بأشْمط[١] عنوان السّجود به، وبذلتُ لِقطام[٢]:

[الطويل]

ثلاثة آلافٍ وعبدٌ وقَيْنَةٌ[٣] وضربٌ عليّ بالحُسَامِ المُسَمَّمِ

وكتبت إلى عُمر بن سعد أن جَعْجعْ[٤] بالحُسين، وتمثّلت عندما بلغني من وقعة الحرّة[٥]:

[الرمل]

ليت أشياخي ببدْرٍ شَهِدوا جِزْع الخزرج من وَقع الأسل

= الصبح ومات بسبب ذلك. ويشير إلى ما قاله بعضهم في رثائه: [الطويل]

جزى الله خيراً من إمام وباركت يد الله في ذلك الأديم الممزق

(١) مختلط شعر الرأس. يشير إلى ذنب بعضهم وهو قتل عثمان عليه السلام. وذلك أنه وفد عليه كثير من الجهات يشكون عماله، فأرضاهم وأرسل محمد بن أبي بكر والياً على مصر. فبينما هو ذاهب إذ رأى عبداً على هجين يستحثه، فأحضره وفتشه فوجد معه كتاباً من الخليفة إلى عامل مصر يقول فيه: إذ أتاك محمد ومن معه فتحيل في قتلهم. فرجع محمد وأعطى الجواب الخليفة فأقر به خط كاتبه وهذا ختمه وعبده وهجينه، وأنه لم يرسله. فطلب منه أحد أمرين: الاعتزال أو إعطاء كاتبه الحكم فأبى. فحصلت الفتنة وحاصروه إلى أن قتل. ويشير إلى ما قاله بعض نعاته: [البسيط]

ضحوا بأشمط عنوان السجود به يقطع الليل تسبيحاً وقرآناً

(٢) قطام: اسم امرأة.

(٣) جارية. يشير ذلك إلى ذنب ابن ملجم وهو قتل علي كرم الله وجهه. وذلك أن هذه المرأة أعجبته لنضارتها فأراد أن يتزوجها فطلبت ما في البيت فقال لها: لك ما طلبت، وقال البيت وبعده: [الطويل]

فلا مهر أغلى من علي وإن غلا ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم

(٤) ضيق. يشير إلى ذنب عبيد الله بن زياد وهو تحريضه على قتل الحسين. وذلك أنه أبى مبايعة يزيد وأراد الذهاب إلى الكوفة من حيث إنهم طلبوا مبايعته. فأخبر يزيد عامله هناك عبيد الله ابن زياد بذلك، فأرسل لقتاله عمر بن سعد. ولما أبطأ جهز له شمراً وكتب عبيد الله له ما تقدم، فانتشبت الحرب بينهما وانتهت بقتله رضي الله عنه.

(٥) أرض بظاهر المدينة كانت بها الواقعة بين عقبة بن مسلم وأهل المدينة. يشير إلى ذنب يزيد وهو تشفيه من أهل المدينة. وذلك أنه أرسل عقبة بن مسلم إلى محاربة أهل المدينة وإباحتها ثلاثة أيام، فقتل وأسرف وأباح. فلما بلغ يزيد ذلك قال ابن الزبعرى المذكور مظهراً للضمير المستتر وهو كراهة الأنصار والمهاجرين.

ورَجمت[١] الكعبة، وصلبت العائِذ[٢] على الثّنية[٣]، لكان فيما جرَى عليّ[٤] ما يحتمل أن يكون نَكالاً[٥] ويُدْعى ولو على المجاز عِقاباً.

[المتقارب]

وحسبُك من حادث بامرئٍ ترى حاسديهِ له راحمينا

فكيف ولا ذنبَ إلا نميمةٌ[٦] أهداها كاشِحٌ[٧]، ونبأ[٨] جاء به فاسقٌ، وهم الهمّازُون[٩] المشّاؤون[١٠] بنميم، والوَاشُونَ[١١] الذين لا يلبثون[١٢] أن يَصْدَعُوا[١٣] العصا، والغُوَاة[١٤] الذين لا يترُكون أديماً[١٥] صحيحاً، والسُّعاة[١٦] الذين ذكرهم الأحنفُ بن قيس فقال: «ما ظنُّك بقومٍ الصّدقُ محمودٌ إلا منهم!؟»

---

(١) رجمت: رميت بالحجارة.

(٢) العائذ: المتلجئ.

(٣) طريق العقبة. يشير إلى ذنب الحجاج وهو رجمه الكعبة وصلبه عبد الله بن الزبير. وذلك أنه لما حاربه التجأ عبد الله وأصحابه إلى الكعبة، فنصب الحجاج المنجنيق عليها ورجمها. وبعد ما انتصر عليه صلبه منكساً وآلى أن لا ينزله إلا إذا شفعت أمه فيه. فبعد سنة مرت أمه وقالت: أما آن لهذا الفارس أن يترجل؟ فاعتبر قولها شفاعة وأنزله. ومن قولها لابنها يوم مقتله: يا بني، لا تقبلنّ منهم خطة تخاف منها على نفسك الذل مخافة القتل، فوالله لضربة بالسيف في عزّ خير من ضربة بالسوط في مذلة، فقال لها: إنما أخاف المُثلة. قالت: يا بني إن الشاة لا يضرها سلخها بعد ذبحها.

(٤) جرى عليّ: حصل لي.

(٥) عذاباً. يريد أني لو أتيت بهذه الذنوب كلها لكان ما حصل لي من التعذيب والإهانة والذل والاستكانة كافياً لتمحيص هذه الذنوب. وكيف لا؟ وقد صرت في حالة يرثي لها العدو والحبيب والبعيد والقريب، وذلك أدل على طلب الرحمة وأحكم في الاستعطاف. والبيت الذي ذكره للعتبي.

(٦) النميمة: نقل الكلام للإفساد.

(٧) مضمر العداوة. «أهداها كاشح» كناية عن حسن سبك هذه النميمة، وأنه معتن بها كما يعتني بالهدية الأمير.

(٨) نبأ: خبر.

(٩) الهمازون: المغتابون.

(١٠) المشاؤون: النمامون.

(١١) الواشون: الذين يزينون الحديث للإفساد.

(١٢) لبث بالمكان: أقام به.

(١٣) يصدعوا: يشقوا.

(١٤) الغواة: المضلون.

(١٥) أديماً: جلداً.

(١٦) المفسدون. يريد بذلك أنه بنى الإهانة والإبعاد والصد والإعراض على أوهن الأسباب وأضعفها، وهو سعي النمام وخير الفاسق وتزيين الغواة والذين يشقون عصا الألفة ويمزقون =

[الطويل]

حَلفت فلم أترك لنفسك رِيبةً ... وليسَ وَرَاءَ الله للمرءِ مذهبُ

والله ما غَشَشتُك بعد النصيحَة، ولا انحرفت[٢] عنك بعدَ الصّاغية[٣] إليك، ولا نصَبْتُ[٤] لك بعد التّشيّع فيك، ولا أزمعتُ[٥] يأساً منك، مع ضمان تكفّلتْ به الثّقة عنك، وعهدٍ أخذه حُسن الظّنّ عليك. ففيمَ عَبَثَ[٦] الجفاءُ بأذمتي[٧]، وعاثَ[٨] العُقوق[٩] في مَوَاتي[١٠]، وتمكّن الضّياع[١١] من وسائلي[١٢] ولم ضاقَتْ مذاهبي[١٣] وأكْدَت[١٤] مطالبي، وعلامَ رَضِيتُ من المركب[١٥] بالتّعليق[١٦]؟ بل من الغَنيمةِ بالإيَاب[١٧]؟ وأنّى غلبني الغلب[١٨] وفجر[١٩] على العاجز الضّعيف ولَطمتني[٢٠] غير ذَات سوار؟

وما لك لم تمنع من قبل أن أُفترس؟ وتدركني ولما أمزّق[٢١]؟

= أعراض الناس. ويلمح في عبارته إلى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ [الحجرات: ٦] وإلى قول كثير عزة: [الطويل]

ولا يلبث الواشون أن يصدعوا العصا ... إذا هي لم يصلب على البرى عودها

(١) شبهة. يريد حلفت فلم أترك شبهة في نفسك من براءتي، وليس بعد الله من يصدق القسم به حتى أقسم به وأذهب إليه. والبيت للنابغة الذبياني من اعتذارياته للنعمان.

(٢) انحرفت: ملت. (٣) الصاغية: الأصغاء.

(٤) الناصبي في العرف من كان عدواً لعلي وهو ضد الشيعي.

(٥) خفت. يقول: أقسم بالله أني مقيم على النصح لك ثابت على الميل إليك، ولم أتخذ مذهب الناصبية مذهباً، ولم يستفزني اليأس منك وتلعب بي أيدي الأهواء. قال: ثقتي بك وحسن ظني فيك قد ضمنا لي أن أطرد اليأس بالرجاء في عفوك. وهذا الكلام من الاستقصاء البديعي بمكان فإنه استوفى جميع عوارض المحبة بحيث لم يبق لقائل قول لو ولا ليت استجلاباً للرحمة وطلباً للعفو.

(٦) عبث: لعب وهزل. (٧) أذمتي: حرماني. (٨) عاث: أفسد.

(٩) العقوق: ضد البر. (١٠) مواتي: وسائلي. (١١) الضياع: الهلاك.

(١٢) وسائلي: ما أتقرب به. (١٣) مذاهبي: طرقي. (١٤) أكدت: ردت.

(١٥) المركب: الركوب. (١٦) التعليق: المراد تعليق الأمتعة.

(١٧) الإياب: الرجوع. (١٨) الغلب: المغلوب مراراً. (١٩) فجر: اجترأ.

(٢٠) لطمتني: ضربتني على وجهي براحتها.

(٢١) أقطع. يستفهم عن سبب إفساد الجفاء والعقوق لما قدمه من وسائل الرضا حتى ضاقت عليه المذاهب وامتنعت عليه المطالب، وحتى رضي من عظيم الأمر بصغيره، ومن الغنيمة بالرجوع =

أم كيف لا تَضْطَرِمُ[١] جَوانحُ[٢] الأكفاء[٣] حسَداً لي على الخُصوص بك، وتنقطع أنفاسُ[٤] النّظراء[٥] مُنافسةً[٦] لي على الكرامة فيك، وقد زَانَني اسمُ خدمتك، وزَهاني[٧] وَسْمُ[٨] نعْمتِك، وأبليت[٩] البلاء الجميل في سماطك، وقمت المقامَ المحمود على بِسَاطك؟

ألستُ المُوَالي[١١] فيك غُرّ قَصائد هي الأنجمُ اقتادت مع الليل أنجما
ثناءٌ يظلُّ الرّوض منه منوّراً ضُحىً ويخال الوَشْي[١٢] فيه مُنمنمَا[١٣]

= سالماً، واجترأ عليه كل ضعيف، وغلبه من كان له غلاباً، وظلمه من لم يكن له كفؤاً. وقد ضمن عبارته من الأمثال ما هو كالسحر الحلال «أولها» أرضى من المركب بالتعليق، يضرب في القناعة بإدراك بعض الحاجة، و«ثانيها» رضيت من الغنيمة بالإياب، يضرب في القناعة بالسلامة، وهو مأخوذ من قول امرئ القيس: [الوافر]

لقد طوفت في الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب

وثالثها ورابعها مأخوذان من قوله أيضاً: [الطويل]

فإنه لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب

وقد صحفه ابن زيدون وهو تصحيف حسن، وخامسها «لو ذات سوار لطمتني» قاله حاتم حينما لطمته جارية وكانت العادة لبس السوار للحرة. والثلاثة تضرب عند العجز والذلة. ويشير إلى قول المثقب العبدي: [الطويل]

فإن كنت مأكولاً فكن خير آكل وإلا فأدركني ولما أمزق

وفي هذا الاستفهام تحضيض له على إنجاده وسعة إنقاذه.

(١) تضطرم: تتقد. (٢) جوانح: أضلاع. (٣) الأكفاء: الأمثال.
(٤) أنفاس: جمع نفس. (٥) نظراء: جمع نظير. (٦) منافسة: رغبة شديدة.
(٧) الزهو: الكبر. (٨) وسم: علامة. (٩) أبليت: جربت.
(١٠) السمط: الصف من الناس. (١١) الموالي: المتابع.
(١٢) الوشي: ضرب من الحرير ذو ألوان.
(١٣) ثوب موشى بألوان فيها البياض. لقد أتى ابن زيدون من كلام السحر وسحر الكلام بما يكبو دونه قلم البليغ. وذلك من الاعتراف لسيده بأنه قد أوقد النار في قلوب الحساد والنظراء بتعهده له بالأنعام، وصلته بالصلات، حتى أنطق لسانه فيه بالمدائح التي طلعت من الليل أنجما، والثناء الذي أزهرت به الرياض ووشيت به حلل الفضل. والبيتان من قصيدة للبحتري يعاتب بها الفتح بن خاقان.

obeikandl.com

وهل لبس الصّباحُ إلّا بُرْداً[١] طرَّزته[٢] بفضائلك، وتقلّدتْ[٣] الجَوْزاءُ[٤] إلّا عِقْداً فصَّلتهُ[٥] بمآثرك، واستملى[٦] الربيعُ إلا ثناءً أملأته في محاسِنك، وبثَّ[٧] المسكُ إلّا حديثاً أذعته[٨] في محامدك. «ما يومُ حَليمةَ بسِرّ» وإن كنت لم أكسك سليباً[٩]، ولا حليتك عُطْلاً، ولا وَسمتك غُفْلاً[١٠]، بل وجدت آجرّاً[١١] وجِصاً[١٢]، فبنيت ومكان القول ذا سَعَةٍ فقلت حاشَا[١٣] لك أن أُعَدّ من العامِلة الناصبة[١٤]، وأكونَ كالذُّبالَة[١٥] المنصُوبة تُضِيءُ للنَّاس وهي تحترِقُ فلك المثلُ الأعلى[١٦] وهو بك وبي وفيك أولى. ولَعَمْرُك[١٧] ما جهلت أنَّ صريح الرأي[١٨]

(١) برد: رداء. (٢) طرّزته: علّمته. (٣) تقلدّت: لبست.
(٤) الجوزاء: برج. (٥) تفصيل العقد: جعل خرزة بين كل لؤلؤتين.
(٦) استملى: طلب الإملاء. (٧) بثّ: نشر.
(٨) أشعته. والمعنى أن فضائلك التي نشرتها في مدائحي ظهرت للعين ظهور الصباح حتى إنه لم يضيء إلا بسببها. وإن عقد الجوزاء لم يحسن في مرآى العين إلا لكوني فصلته في محامدك، وكذلك الربيع لم تتضوع الأزهار بنشرها فيه إلا لكونه استملى من الثناء المملوء بمحاسنك، ثم أثبت أن ما تقدم حقائق ثابتة بقوله: ما يوم حليمة بسر، وهو مثل عربي يضرب في فشو الأمر وانتشاره.
(٩) سليباً: مسلوباً. (١٠) غفلاً: عادم العلامة. (١١) آجر: الطين المحروق.
(١٢) الجير. أراد دفع ما يتوهم من أنه يتفضل عليه بإذاعة المحاسن ونشر المدائح، وأنه اخترع له هذه السجايا والخلال حيث يقول له: إني لم أمدحك إلا بما هو فيك من خصائص الخصال وجميل الخلال، وإنما أنا صغتها في القالب الذي يلفت الأنظار ويجلي صدأ الأفكار.
(١٣) حاشا: تنزيهاً لك. (١٤) الناصبة: من النصب وهو التعب.
(١٥) الذبالة: الفتيلة.
(١٦) الصفة العليا. بعد أن عمل جهد المستطاع في الثناء عليه أراد أن يتمّيله بلطف ليجعل لعمله فائدة ونتيجة، فنزهه عن أن يجعل مثله معه كمثل الكفار حيث عملوا وتعبوا في الدنيا فيما لم يعد عليهم منه فائدة في الأخرى. ويشير إلى قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾ [الغاشية: ٢ ـ ٤] وإلى قول العباس بن الأحنف: [المنسرح]

صرت كأني ذبالة نصبت تضيء للناس وهي تحترق

وبالغ في التلطف بقوله: فلك المثل الأعلى والصفة العليا من التجاوز والصفح وأنت أولى من صفح عن زلة المسيء، وأنا أولى من ادخرت مودته بالصفح عنه. وما أحسن قوله: وهو بك الخ، كأنه يقول: هو بك أولى وهو بي كذلك، إذا كان فيك فكلا الحالين مخصوص بك. وما ألطف ما ينسب إلى الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه في الإمام أحمد بن حنبل: [الكامل]

قالوا يزورك أحمد وتزوره قلت الفضائل لا تفارق منزله
إن زرته ففضله أو زارني فبفضله فالفضل في الحالين له

(١٧) لعمرك: وحياتك. (١٨) صريح الرأي: سديده.

أن أتحوَّل إذا بلغتني الشّمس، ونبا بي المنزل[١]، وأصفح[٢] عن المطامع التي تقطَع أعناق الرجال، فلا أستوطئ العَجْز[٣] ولا أطمئنّ[٤] إلى الغُرُور[٥]. ومن الأمثال المضروبة: خامري[٦] أُمّ عامر[٧].

وإني مع المعرفة أن الجلاء[٨] سِباءٌ[٩] والنُّقْلَةَ[١٠] مُثْلةٌ[١١].

[الطويل]

ومن يَغترِبْ عن قومه لم يزل يَرى مصارعَ مَظلُوم مجرا ومسحبا
وتُدْفن منه الصالحات وإن يُسِئْ يكن ما أساء النار في رأس كَبكبا

عارفٌ أن الأدب الوطنُ لا يُخشى فراقهُ، والخليط[١٣] لا يتوقّع زِياله[١٤]، والنَّسيب[١٥] لا يَخفى، والجمال لا يُجفَى[١٦].

---

(١) نبا بي المنزل: لم يوافقني.
(٢) أصفح: أعرض.
(٣) أستوطئ العجز: أجده ليناً سهلاً.
(٤) أطمئن: أميل.
(٥) الغرور: ما يغتر به من متاع الدنيا.
(٦) خامري: استري.
(٧) كنية الضبع. يقسم بحياة سيده أنه ما جهل أن سديد الرأي وجوب التحول عن مقام الإهانة متى شعر بلحاقها به، كما أنه لم يجهل أن الطمع مورد الهلكة وذريعة الخذلان ومقطع أعناق الرجال، وأنه كان عليه أن يرحل ولا يستهل العجز ولا يميل إلى الغرور. ولكن خابت آماله وانعكست أحواله، فكان الغرور نصيبه والأمل قائده فاغتر كما اغترت الضبع بقول القائل: خامري أم عامر، يشير إلى قول أبي تمام: [الطويل]

وأن صريح الرأي والحزم بامرئ إذا بلغته الشمس أن يتحولا

وإلى المثل العربي «العجز وطيء» يضرب لمن استلان فراش العجز وقعد عن طلب المكاسب وقوله: خامري الخ مثل يضرب لمن عرف الدنيا وتقلباتها ثم يميل إليها ويغتر بها.
(٨) الجلاء: الخروج عن الوطن.
(٩) سباء: أسر.
(١٠) النقلة: الانتقال.
(١١) مثلة: تنكيل.
(١٢) كبكب: جبل.
(١٣) الخليط: المخالط.
(١٤) زياله: مفارقته.
(١٥) النسيب: ذو النسب.
(١٦) لا يهجر. بعد أن بين لسيده أنه لا يجهل أن الصواب التحول، أراد أن يبين له أنه يعرف أيضاً أن الانتقال فيه التمثيل والنكال، وأن الغربة كربة والنوى توى، وأن حسنات الغريب مهجورة وسيئاته منشورة، فقال: إني مع معرفتي بأن خروجي من وطني أسر لي ودفن لمحاسني وانتقالي منه إلى غيره مع عدم معرفة أهل هذه الجهات بما أنا متحل به من العلوم والآداب والكمالات، تنكيل بمحاسني وتضييع لبهجة كمالاتي، فيجهل قدري وتهضم حقوقي وتدفن

ثم ما قِران[١] السّعد بالكواكب أبهى أثراً ولا أثنى خطراً[٢] من اقتران غِنى النّفس به وَانتظامها نسقاً[٣] معه، فإنّ الحائز[٤] لهما الضّارب بسَهْم فيهما، «وقليلٌ ما هُم»[٥]، أينما توجّه وردَ منهلَ[٦] برّ، وحطَّ في جنَاب[٧] قبول، وضُوحِك قَبل إنزال رَحْلِه، وأعطى حكم الصبيّ على أهله.

[الطويل]

وقيلَ له أهلاً وسهلاً ومرحباً فهذا مَبيتٌ صالحٌ ومقيل

غير أن الوطن محبوبٌ والمَنْشأ مألوفٌ، واللّبيب يَحِنّ إلى وَطنهِ حنين النّجيب[٨] إلى عَطَنِهِ[٩]، والكريمُ لا يجفُو أرضاً بها قَوَابله[١٠]، ولا يَنْسَى بلداً فيها مَراضعه، قال الأول:

= مني الصالحات وتشاع على قلتها السيئات. إني لا أعد ذلك البناء هو الوطن الحقيقي بل وطني الذي أعول عليه إنما هو الأدب وهو ملازم لي أينما حللت وارتحلت، فلا أخشى فراقه، وهو سميري الملازم لي فلا أتوقع غيابه، وإن النيب أينما حل فهو معروف، والجمال أينما وجد فهو مألوف وحيث هو كذلك، فلا يخشى من الانتقال بأساً ولا من التحول ضيما. والبيتان للأعشى. والنقلة مثلة: مثل مولد.

(١) قران: مصاحبة. (٢) خطراً: قدراً.

(٣) النسق من الكلام وغيره: ما جاء على نظام واحد. (٤) الحائز: الجامع.

(٥) قليل ما هم: يريد بذلك التعريض لسيده بأنه لا نظير له في أخلاقه وآدابه.

(٦) منهل: عين.

(٧) ناحية. بعد أن بين أن الأدب كبير النفع عظيم الفائدة حتى جعله وطناً في الغربة وفرجة عند الكربة، بين أنه يكون أكبر نفعاً وأعظم جدوى إذا صاحبه غني النفس، قال: المتحلي بحلاهما القابض على زمامهما أينما يمم فالسعد قرينه، والناس أهله يقبلون عليه من كل جانب، ويعظمونه كل التعظيم لأول وهلة أو مجرد نظرة، ويعطونه حكم الصبي على أهله يفعل ما يريد كالسيد بالعبيد، ويقولون له: لقيت أهلاً ونزلت مكاناً سهلاً رحباً فأنس ولا تستوحش، وكن كما تحب وتختار، فأنت رب الدار. وقوله: ما قران السعد الخ أخذه من قول البستي: [الخفيف]

وأتم الأشياء نورا وحسناً بكر شكر زفت إلى صهربر
ما قران السعد بالحوت أبهى منظراً من قران بر وشكر

وقوله: أعطى حكم الصبي الخ، عبارة كانت تقولها العرب في مدح من نزلوا عنده وأكرمهم، وأصل البيت المذكور: فقلت له أهلاً وسهلاً ومرحباً فهذا مبيت صالح وصديق.

(٨) النجيب من الإبل: الفحل الكريم.

(٩) العطن: مبرك الإبل حول الماء.

(١٠) قوابل: جمع قابلة، وهي من تتلقى المولود عند خروجه.

[الطويل]

أُحبّ بلادَ الله ما بين مَنْعجٍ[١] إليّ وسلمى أن يصوبَ سحابُها
بلاد بها حلّ الشّباب تمائِمي[٢] وأوّل أرضٍ مسّ جِلْدي ترابُها

هذا إلى مُغَالاتي[٣] بعقد جوارك، ومُنافَستي[٤] بلَحْظَةٍ من قُرْبك، واعتقادي أن الطّمع في غيرك طَبَعٌ[٥]، ولا غنى ممن سِواك عنَاءٌ، والبَدَل منك أعور، والعوض لَغَاءٌ[٦] وكلُّ الصّيْد في جَوْفِ الفَرَا[٧].

[الكامل]

وإذا نظرتُ إلى أميري زَادَني ضنّاً بهِ نَظري إلى الأُمَرَاء
وفي كلّ شجرٍ نار وأستمجدُ المَرْخ والعَفَار[٨]، فما هذه البراءةُ ممّن

---

(١) منعج: اسم مكان.

(٢) جمع تميمة وهو ما يعلق للطفل حفظاً له. بعد أن بين له أن سديد الرأي الانتقال وأنه لا يخاف عاقبة ذلك لأدبه وغنى نفسه، أراد أن يبين له السبب الحامل على المكث، فقال إن الوطن محبوب والمنشأ مألوف. [البسيط]

ما من غريب وإن أبدى تجلده إلا سيذكر عند الغربة الوطنا

ولا غرو فهو أول ارض وجد بها، وأول تربة تضمخ بها جسده، وأول بقعة نما فيها فكره، وأول جهة قضى فيها الشباب مآربه مع إخوان وأحباب وخلال وأتراب. فإذا تذكر هذه الجهات تخيل له رغد العيش وحسن الحال، ورأى أغصان شبابه تميد على تلك الأوطان وتتمايل مع النسيم تمايل البان، فيحن إليها حنين الغريب إلى وطنه. وإنه ليس من كرم الأصل وشرف. لمحتد أن يهجر الإنسان قوابله ومراضعه لما لهن عليه من الخير العميم والفضل الجسيم أثناء الصغر، فالواجب عليه أن يصلهن في أبان الكبر حتى يجنين ثمرات أتعابهن ويسررن بحسن معاملته لهن. والبيتان لبعض الأعراب.

(٣) مغالاتي: مجاوزتي الحدود.

(٤) منافستي: رغبتي فيك على وجه المباراة.

(٥) طبع: دنس.

(٦) لغاء: خسيس.

(٧) الفرا: حمار الوحش.

(٨) نوعان من الشجر سريعا الوري. واستمجد: استفضل، وقيل اقتدح على الهوينا. بعد أن بين محبة الوطن وألفة المنشأ وسبب ذلك الطبيعي، أراد أن يبين للأمير أن ذلك ليس هو السبب الوحيد الحامل لي على المكث بل انضم إليه ما هو أشد منه تأثيراً وأعظم خطراً، ألا وهو شدة محبتي لجوارك وحظوتي بقربك، وأنت أكرم من حفظ للجوار حرمته وأوضح محجته. واعتقادي بأن الطمأنينة إلى غيرك غرور، والثقة بخلافك خذلان، وعدم رضائي بسواك بدلاً ولا بغيرك عوضاً. وكيف استبدل السمين بالغث، والتعب بالراحة، أم كيف أنظر إلى غيرك من الأمراء وغيرك فيك؟ [السريع]

=

يَتَولّاك[١] والميلُ عمّن لا يَميلُ عنك. وهلّا[٢] كان هواك[٣] فيمن هواه فيك ورضاك فيمن رضاه لك.

[البسيط]

يا من يعزُّ علينا أن نُفارقهم وِجْدَانُنا كلَّ شيء بعدكم عدمُ

أعيذُك ونفسي من أشيم[٤] خُلّبا[٥] وأستمطرَ جهاماً[٦] وأكدُمُ[٧] في غير مَكدّم وأشكو شكوى الجريح إلى الغربان والزخَم[٨]، فما أبْسَتُ[٩] لك إلّا لتَدُرّ، ولا حركت لك الحُوار إلا لِتَحنّ، ولا نبَّهتك إلّا لأنام.

ولا سرْيتُ إليك إلّا لأحمدَ السُّرى[١٠] لديك.

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

نعم، وإن اشتركوا معك في اللقب إلا أنهم لم يشتركوا معك في كمال الأدب. وفي كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار في ذلك من استمالة القلب ما يدهش اللب. وقد جمعت هذه العبارة من الأمثال ما يزري باللآل ـ فأولها: «رب طمع يجر إلى طبع». وثانيهما: «كل الصيد في جوف الفرا» وهو يضرب لمن يفضل نفسه على اقرانه. وثالثها: «البدل منك أعور» يضرب لكل ما لا يرتضى به. وأصله أن يزيد بن المهلب لما صرف عن خراسان بقتيبة بن مسلم الباهلي وكان شحيحاً أعور قال الناس هذا بدل أعور. ورابعها: «رضي من الوفاء باللفاء» يضرب لمن يرضى بالقليل من الكثير. وخامسها «وفي كل شجر نار وأستمجد المرخ والعفار» يضرب في تفضيل بعض المشتركين في صفة على بعض.

(١) يتولاك: مضارع تولاه صار وليه.
(٢) هلّا: كلمة تحضيض.
(٣) ميل النفس. بعد أن بين له أنه لا يرضى بما سواه وأنه يفضل جواره على ما عداه وهو مع ذلك لمعرض عنه ولا يميل إليه، رجع ينكر عليه ذلك بطريق الاستفهام كما هو الأدب من حيث يقول: كيف تتبرأ مني وأنا أواليك وتميل عني وتهجرني وأنا لا أميل إلا إليك، وهلا هويت من يهواك ورضيت من يرضاك. والبيت للمتنبي.
(٤) شام البرق نظر: إلى سحابته أين تمطر.
(٥) خلّب: البرق لا غيث معه.
(٦) الجهام: السحاب لا ماء فيه.
(٧) أكدم: أعض.
(٨) الزخم: طائر ضعيف.
(٩) الإبساس: الرفق.
الحوار: ولد الناقة.
(١٠) السير ليلاً. يطلب منه أن يجعل لأعماله نتيجة يجني ثمرتها، وأن يكون سيده غارس دوحتها، وأن لا يجعله كالمستجير الماء من الصخر والمستجير عند كربته بعمرو والمستمطر الجهام والناظر إلى البرق الخلب، بل يرسل عليه عطفه مدراراً، وأن يصل رحم الجوار بعد القطيعة، ويقر عيناً أضرها سهاد الجفوة، وأن يحمد إليه سراه ويحسن عقباه. ولقد رصّع عبارته بجواهر الأمثال وصاغها في قالب غريب المثال يشير فيها إلى قول ابن معد يكرب: [الرمل]

وإنّك إن سَنيت[١] عقْد أمري تيسّر، ومتى أعْذَرت[٢] في فك أسْري لم يتعذّر، وعلمك محيط بأن المعروف ثمرة النّعمة، والشّفاعة زكاةُ المُرُوءَة، وفَضْل الجاه[٣] يعوذ به صدقهُ.

[الكامل]

وإذا امْـرُؤٌ أهـدى إلـيـك صـنـيـعـةً مـن جـاهـه فـكـأنّـهـا مـن مـالـه

لعلّي ألقي العصا بذُراك[٤] وتَسْتقرُّ بي النّوَى[٥] في ظلّك، وأستأنِف[٦] التأدب بأدبك، والاحتمالَ على مَذهبك، فلا أُوْجِدُ للحاسد مَجَالَ[٧] لحظهِ[٨]، ولا أدَعُ للقادح[٩] مساغَ[١٠] لفْظهِ.

= لا تـهـنـي بـعـد إكـرامـك لـي فـشـديـد عـادة مـنـتـزعـة
لا يـكـن بـرقـك بـرقـاً خـلـبـاً إن خـيـر الـبـرق مـا الـغـيـث مـعـه

وإلى المثل العربي: «كدمت في غير مكدم» يضرب لمن يطلب شيئاً من غير أهله، وإلى قول المتنبي: [البسيط]

ولا تـشـك إلـى خـلـق فـتـشـمـتـهـم شكوى الجريح إلى العقبان والرخم

وإلى الأمثال العربية: «الإبساس قبل الإيناس» وهو يضرب في الرفق، و «حرك لها حوارها تحن» وهو يضرب في استنهاض الهمة، و«نبه لها عمراً ثم نم» يضرب فيمن يعتمد على غيره، و«عند الصباح يحمد القوم السرى» وهو يضرب عند حمد العاقبة.

(١) سنيت: سهلت. (٢) أعذرت: بالغت في طلب العذر.

(٣) المنزلة. يقول لسيده: إني ما كلفتك أيها السيد بارتكاب متون الأهوال ولا بمعاناة الأحوال، ولا بعدنجوم السماء ولا رمال الدهناء هو أمر يكبر في عين سائله ويصغر عند باذله، وهو في يدك وقبضتك وأنت قادر عليه، وإن سهلت عسيره سهل، وإن التمست لي المعذرة انتفت الصعوبة. وأنت تعلم ـ زادك الله علماً ـ أن النعمة شجرة ثمارها المعروف، وأن المروءة مال زكاتها الشفاعة، وشفاعة اللسان أفضل زكاة الإنسان، وبذل الجاه رفد المستعين. وأيد ذلك بالبيت بعده. وقوله: إن سلبت مأخوذ من قول بشار: [الطويل]

فـبـالله ثـق أن عـز مـا تـبـتـغـي وقـل إذا الله سـنّـى عـقـد أمـر تـيـسـرا

(٤) الذّرا: كل ما استترت به. (٥) النوى: ما ينويه المسافر من قرب أو بعد.

(٦) استأنف: ابتدئ. (٧) جال: طاف.

(٨) لحظه: نظره. (٩) القادح: الطاعن.

(١٠) ساغ الشراب: سهل مدخله في الحلق. يقول: أرجو من سيدي أن يعفو عن ذنبي وتقصيري ويلبي ندائي هذا كي أسكن في ظلك وكنفك ولا أذهب إلى غيرك، وتكون غاية آمالي ومنتهى أسفاري، وأتوب عما كنت مرتكبه ومتمسكاً به مما لا يرضيك، وأتخلق بأخلاقك وأتمسك =

والله مُيَسّرك من إطلابي [1] بهذه الطّلبة [2]، وإشكائي [3] من هذه الشَّكْوى، بصنيعةٍ تُصيبُ مِنها مكان المصْنع، وتَسْتودِعها أحفظ مُسْتودع، حَسبَما أنت خَلِيقٌ له وأنا منك حَرِيٌّ [4] به، وذلك بيدهِ وهيّن عليه.

مقطوعات منثورة

كتب رئيس جمهورية تركيه إلى إحدى الدول الأوربية:

أيها الوزير الأفخم: إن لفظ «تقسيم تركيا» إفكٌ لا يفوه بهِ عاقل ولا يَتصوّره إنسان، تكاد تَنْفطر له السماء دَهْشة وترتجُّ له الأرضُ وحْشة، بل تَخِرُّ دونه الجِبال وتنفكّ عنده الآمال، كأن أوروبا تستطيعه ولكنها لم تفعله، ولن تفعله ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [6] فقل: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [7].

تقسيم تركيا: كلمةٌ لسيت أكبر من أوروبا فقط بل هي أكبر من منظومة هذا العالم الشّمسي الذي تراه، أو تسمع به إن كنت لا تراه، فلا يليقُ أن يفوه بهِ إلا فمُ القدرة الإلهية القائم ﴿عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [8] ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [9].

= بطريقتك وأحذو حذوك وأتبع مذهبك، وبذلك لا يجد عدوي في مدار لحظه ولا الطاعن ما يسوغ من لفظه. وقوله: لعلي ألقي الخ، حل بيت للمعز بن أوس وهو: [الطويل]

وألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عيناً بالإياب المسافر

(١) إطلابي: إسعافي. (٢) الطلبة: ما أطلبه.

(٣) إشكائي: إزالة ما أشكوه. (٤) خليق: جدير.

(٥) حقيق. يقول لسيده: والحمد لله الذي سهل لك مطلبي وإسعافي وإزالة ما أشكوه من آلام السجن بمعروف تبذله لأهله وتحفظه عند أمين لوقته حسبما يقتضيه كرم أخلاقك وجميل صفاتك، وأنا أحق الناس به لمودتي لك وإخلاصي في ولائك وما ذلك عليك بعزيز. [الكامل]

إن الصنيعة لا تكون صنيعة حتى تصيب بها مكان المصنع

(٦) الإسراء: ٨٨. (٧) آل عمران: ٢٦. (٨) الرعد: ٣٣.

(٩) يوسف: ٢١.

تقسيم تركيا: ربما يكون ولكن متى يكون؟ يكون حينما يتحلّى وَجهُ البسيطة بدمائنا الطاهرة الزكية، يوم ترى الأرض لابسة تلك الحُلَّة الأرْجُوَانية الثّمينة، حيث تتمشّى الدّماء على فيروزج الفَضاء محاطة كواكب الوجود بكتائب جنود العدم المطلق. لا أرض لمن تُقِلّ ولا سماء لِمَن تُظلّ، ولا قائم موجود ولا دائم مقصود، هنالك تتحدَّث شياطين الخيال في أندية المحال، بحديث ذلك التقسيم المشؤوم ولا من سميع ولا من مجيب. فالوَيْلُ ثم الويل يوم ذلك التَّقسيم الموهوم، والثُّبور ثُم الثّبور إذا تنزلَت السماءُ بقضاءِ ذلك الهول المقسوم. إن في ذلك لبلاغاً لقوم يتفكرون.

وكتب ابن العميد المتوفى سنة ٣٦٠هـ في شكر صديق له على مراسلته إياه:

وصل ما وصلتني به[١] ـ جعلَني الله فداك[٢] ـ من كتابك، بل نعمتك التامَّة ومنَّتك العامة[٣]، فقرَّت عيني بوروده[٤]، وشفيت نفسي بِوفُوده[٥] ونشرته فحكى نسيم الرياض غِبّ المطر[٦] وتنَفُّسَ الأنوار في السّحر[٧]. وتأمَّلْتُ مفتَتحه وما اشتمل عليه من لطائف كلِمك وبدائع حكمك[٨]، فوجدته قد تحمَّل من فنون البرّ عنك[٩] وضروب الفضل منك[١٠]، جدّاً وهزلاً[١١] ملأ عيني وغمر قلبي[١٢] وغلب فكري وبهر لبي[١٣]، فبقيت لا أدري أسموط درّ خصصتني بها[١٤] أم عقود جوهر منحتنيها[١٥]، ولا أدري أجدّك

(١) ورد إليّ كتابك الذي ربطتني به معك.
(٢) أي: وضعني الله مكانك في كل مكروه حتى تخلص منه.
(٣) أي: الذي ورد إليّ هو خطابك الذي أعده بمنزلة نعمتك العمومية وجميلك الشامل.
(٤) فاطمأن قلبي بوصوله إليّ. (٥) وطابت نفسي بمجيئه إليّ.
(٦) ونشرته أي: فتحته فحكى نسيم الرياض، غب المطر أي: أشبه الريح التي تهب من البساتين بعد ما نزل المطر عليها.
(٧) وأشبه تفتح الأزهار في أواخر الليل.
(٨) أي: وتدبرت في صدره وفي الكلمات اللطيفة التي أودعتها فيه والحكم البديعة التي نثرتها فيه.
(٩) أي: شاهدت منه أنواعاً من الإكرام أثبتها فيه.
(١٠) وأصنافاً من الأفضال دونتها فيه.
(١١) من الأمور الهامة الجدية والأمور المفرحة المازحة.
(١٢) ملأ عيني يعني: صرفها عن النظر إليّ بغير إحسانك. وغمر قلبي أي: لم يدع له منصرفاً إلى غير إفضالك.
(١٣) وغلب فكري أي: استحوذ على عقلي. وبهر لبي أي: راع عقلي وسباه.
(١٤) أي: عقود درّ قصرتها عليّ. (١٥) منحتنيها أي: أعطيتنيها.

أبلغ وألطف، أم هزلك أرفع وأظرف. وأنا أوكّل بتتبّع ما انطوى عليه نفساً لا ترى الحظ إلا ما اقْتَنَيْتُهْ منه[١] ولا تعدّ الفضل إلا فيما أخذتُهُ عنهُ، وأمتّع بتأمله عيناً لا تقَرُّ إلا بمثله ممّا يصدُر عن يدك ويردُ من عندك، وأعطيه نظراً لا يملّه وطَرفاً لا يطرِف دونه[٢]، وأجعله مثالاً أرتسمه وأحتذيه[٣]، وأمتع خلقي برونقه وأغذّي نفسي ببهجته، وأمزج قريحتي برقّته وأشرح صدري بقراءته. ولئن كنت عن تحصيل ما قلته عاجزاً وفي تعديد ما ذكرتهُ متخلّفاً، لقد عرفت أنهُ ما سمعت بهِ من السّحر الحلال.

وكتب السيد توفيق البكري في سفرته إلى الأستانة العليّة:

كتابي إلى السيّد الأجلّ وأنا أحمد الله إليه وأدعوهُ أَن يُديم النّعمة والسلامة عليه. وبعدُ، فلما اعتزمتُ على الرّحلة هذا العام إلى قبّة السلام ودار خلافة الإسلام، وفارقت مصر وساكنها وأرباضها[٤] ومواطِنَها، رَكبت سفينة عَدَوْليّة[٥] إلى الثّغُور الفرنجيّة، فَجرَتْ في خِضَمّ[٦] عجّاج مُلْتطم الأمواج، له دَوِيٌّ من جَرجَرَة[٧] الآذِيّ[٨] أخضر الجِلْد كأنه إِفْرَنْد[٩] تصطَخِبُ[١٠] فيهِ النّينانُ[١١] وتَجري في جوْفه الدّعاميصُ[١٢] والحيتان، إذا مازجه الأصيلُ[١٣] بالعشيّ خِلْتُهُ كُسّرت[١٤] عليهِ الحُليّ أو مُزِجَ بالرّحيق[١٥] القُطْرُبُّلي[١٦] وَإن لاحت بهِ نجومُ السّماء خلتهُ صفائح من فضَّة بيضاء سُمّرتْ بمسامير صغار من نُضار[١٧]. وأخذت السفينةُ تشُقُّ عُبابه[١٨]

(١) اكتسبته.
(٢) الطرف: العين. ويطرف: يطبق جفناً على الآخر.
(٣) أرسمه في فكري وأقتدي به.
(٤) مساكنها.
(٥) نسبة إلى قرية عدولي بالبحرين أو نسبة إلى صانعها والمقصود أنها أضخم سفينة.
(٦) البحر. (٧) الصوت. (٨) الموج.
(٩) جوهر السيف. (١٠) تختلط أصواتها. (١١) جمع نون: الحوت.
(١٢) جمع دعموص: دودة لها رأسان ترى في الماء إذا قل.
(١٣) الوقت بعد العصر حتى تغرب الشمس.
(١٤) ردت ووضعت. (١٥) الخمر.
(١٦) بضم القاف وتسكين الطاء وضم الراء وتشديد الباء الخمر المنسوب إلى قطربل قرية بين بغداد وعكبرا مشهورة بالخمر.
(١٧) الذهب. (١٨) بضم العين الموج.

وتَفلُق حَبابه[١]، بين ريح رُخاء[٢] أو زعزَع[٣] هَوْجاء[٤]، فهي تارةً في طريق مُعبّد[٥] وَرَميثٍ[٦] مُسَرَّد[٧]، وطوراً فوقَ حزن[٨] وقرْدَد[٩] أو على صرْح[١٠] مُمرّد[١١].

وكان معنا في الفُلك رَهط من العَرب والتّرْك، فكنَّا نتواردُ معهم في جوائب[١٢] الأخبار وطُرف[١٣] الأحاديث والأسمار[١٤]، ما يُزرى[١٥] بالمنهل العَذْب واللّؤلؤ الرّطب، إلى أن يميلَ ميزان النّهار وَتَغْرَق ذُكاء[١٦] في البحار، ويُمسيَ الكونُ من السّواد في لَبُوس[١٧] حديد أو لِباس حِداد، وتَبْرُق نجومُ السّماء في أكناف الظّلماء، كأنها سِكاك[١٨] دِلاص[١٩] أو فلقُ رَصاص أو عُيون جراد أو جمرٌ في خلال رَماد، أو دُرٌّ في بحْر، أو ثُقوب في قبَّة الدَّيْجُور[٢٠] يَلوحُ منها النُّور، ويبدو الهلال كأنهُ خنْجَرٌ من ضياء يشقُّ طياليس الظّلماء، أو قلادة أو دُمْلج[٢١] غادةٍ[٢٢] أو سِنانُ[٢٣] لواه الضرَّاب، أو الليل فيلٌ وهو ناب، فنأخذ مجلساً نَمْمه[٢٤] الكافور وأرضُهُ عنبر مَذرُور[٢٥] رُقِمتْ فيه زَرابيُّ مبثوثات[٢٦] ومنابذ[٢٧] وحُسبانات[٢٨]، وأنماطٌ[٢٩] مفروشة وبُسْط منقوشة.

---

(١) بفتح الحاء ما يعلو الماء.
(٢) بضم الراء الريح اللينة. (٣) بفتح الزاءين الريح الشديدة.
(٤) بفتح الهاء الريح القوية تقلع الأشجار والبيوت.
(٥) مذلل وسهل. (٦) الأرض السهلة. (٧) منتظم لا صعوبة فيه.
(٨) الأرض الصعبة. (٩) الأرض المرتفعة الغليظة.
(١٠) القصر. (١١) مرد البناء ملسه حتى صار ناعماً.
(١٢) الأخبار الطارئة. (١٣) المحاسن.
(١٤) الأحاديث وأصله لأحاديث الليل.
(١٥) يعيب ويحقر. (١٦) بضم الذال ممنوعة من الصرف اسم للشمس.
(١٧) بفتح اللام الدرع. (١٨) جمع سك: المسمار.
(١٩) بكسر الدال الذي يبرق ويلمع. (٢٠) الظلام.
(٢١) بكسر الدال وزن درهم أو بضمها مع ضم اللام حلي للنساء يلبسنه في أيديهن.
(٢٢) المرأة الناعمة لينة الأعطاف. (٢٣) حديدة الرمح.
(٢٤) نسيمه. (٢٥) منثور. (٢٦) منثورات.
(٢٧) جمع منبذة وزن مكنسة الوسادة التي يتكأ أو ينام عليها.
(٢٨) جمع حسبانة الوسادة الصغيرة التي يتكأ عليها أيضاً.
(٢٩) جمع نمط ثوب من صوف يطرح على الهودج ذو لون من الألوان.

openkanal.com

[الكامل]

بُسْطٌ أجادَ الرسمَ صانعُها وزها عليه النّقشُ والشّكلُ
فيكاد يُقطَفُ من أزهارها ويَكاد يسقُطُ فوقها النّحلُ

وحولهُ شموع تَزْهَر وأضواءٌ تَبْهر[١]، وقد دارتْ عليه سُقاةٌ[٢] كجُمَّاع[٣] الثّريا[٤] بأقداح الحُمَيّا[٥]، وأكوابٍ[٦] الفانيذِ[٧] المَروَّق وقوارِيرِ[٨] الجُلّاب[٩] المصفّق[١٠] ثم تجيء قَيْنَةٌ[١١] في يدها نايٌ كأنه صُور إسرافيل يُحيي الرُّفات[١٢] ويُنشِر[١٣] الأموات، حتى إذا بدَا الضّياءُ كابتسام الثّغة اللّمياءِ[١٤]، دخلنا المضْجَع لنهْجَع، وهُلَّمَّ جَرّاً[١٥] في أيامنا الأخرى.

وكتبت السيدة وردة اليازجية المتوفاة سنة ١٣٠٠هـ إلى السيدة عائشة تيمور:

سيّدتي مولاتي:

أُعرض أنني بينما أنا ألْهجُ بذكر ألطافكم السَّنيَّة وأَتَنسَّمُ شذَا أنفاسكم العبْقَريّة، وأترقّبُ لقاء أثرٍ من لَدُنكم يَعلل به الخاطر ويكتحل بإثمد مِداده النّاظر، وصلتْني مكاتبتكم فَجَلَتْ عن العين أقْذاءها وردّت إلى النّفس صَفاءها، فتناوَلْتُها بالقلب لا بالبَنان وتصفَّحتُ ما في طيّها من سحر البَيان، فقلت:

[البسيط]

هذا الكتابُ الذي هامَ الفؤاد به يا ليتني قلَمٌ في كَفّ كاتبه

(١) تزهر وتبهر كلاهما بمعنى تضيء ويليها منع.
(٢) جمع ساق.
(٣) بالضم ما جمع وانضم بعضه إلى بعض ومراده الغلمان.
(٤) سبعة كواكب منضمة بعضها إلى بعض.
(٥) الخمر والمراد الشراب.
(٦) جمع كوب: الكوز المستدير الرأس لا عروة له أو لا خرطوم.
(٧) نوع من الحلوى فارسي معرب بانيد.
(٨) جمع قارورة ما يوضع فيه الشراب من الزجاج.
(٩) ماء الورد فارسي معرب.
(١٠) المروق الصافي.
(١١) المغنية.
(١٢) الحطام البالي والمراد الأموات.
(١٣) يحييها.
(١٤) فيها لمى وهو سواد الشفة.
(١٥) معناه اتصال الأمر واستدامته.

openkanal.com

ولَعَمْري إنه كتاب حَوَى بدائع المنثور والمنظُوم وتحلّى من درر الفصاحة فأخْجلت لديه دَراري النّجوم. وقد تطفّلتُ على مقامكم العالي بهذا الجواب ناطقاً بتقصيري وضمَّنتُهُ من مَدح سجاياكم الغرّاء وما يشفع لدى مكارمكم في قبول معاذيري. لا زلتم للفضل معدناً وذُخراً وللأدب كنزاً وفخراً.

وكتبت السيدة عائشة تيمور المتوفاة سنة ١٣١٣هـ إلى السيدة وردة اليازجية:

أستهلُّ براعةَ سلامٍ حَمَل الشّوقُ رِسالَته وتقلّدَ الشّفَقُ ما نشقَتْ ناشقةُ عَرْفِ الوداد كفالَته، ولو رَضيتُ المجال في صدْق المقال، لنطَقَ بخالص الوَفاء مِدادُ حروفه وأقام بأداء التّحيَّة العَاطِرة قَبلَ فضّ خِتام مظْرُوفه.

ولعَمْري قد توَّجتْه أزهار الثناءِ بلآلئ غَراء كلّلتْهُ زواهر الوَفاء من خالص الوِدَاد إلى حضرة من لا تَزالُ تَسْتَرْوِحُ الأسماعُ بنسيم أنبائها صَباح مساء، وتَتَشَوقُ الأرواح إلى استطلاع بدرِ إنسانها الكامِل أطرافاً وآناءَ، ومما زادَني شَوْقاً إلى شَوْق حتى لقد شبَّ فيه طِفل الشّفق عن الطّوْق، اجْتلائي حديقة «الورْد» القُدْسيّة ونافجة الأدَب المكيّة. فيا لها من حَديقة رَمقتها أحدَاقُ الأذهان فاقْتبست نَوراً ونُوراً وانْتشقتْها مَسامُّ الآذان فشَملت طرباً وسُروراً. منذ سرَّحتُ في أرجاءِ تلك اليانعة إنسانَ العيون وشرحت بأفكار البصيرة أسرار ذلك الدُّرّ المَصون، لم أزل بين طَرَب أتوَشّح بِوِشاحه وأدَب أتعجّبُ من حسن اختتامه وافتتاحه، وجعلتُ أغازلُ من نرْجس تلك الرَّوضة عيوناً ملكت منّي الحوَاس وهَصَرَتْ من غُصون ألفاتِها كلّ مُمْشُوقٍ أهيف ميّاس، وأتأدّبُ في حضرة وَردها خوفاً من شَوكة سلطَانها، وأن حياتي بجميل الالتفات ضاحكةٌ عن نفيسِ جُمانِها، وإذا بالياسمين الغضّ قد ألقى نفسه على الثّرَى، ونادى بلسان الإفصاح: هل لهذه النّضرة نظيرة يا تُرى؟ فأشار المنثور بكفّه الخطيب أن لا نظير لتلك الغادة، ونَطَقَ الزَّنبَقُ بلسان البيان: لا تكتُموا الشَّهادة. فعند ذلك صفَّق الطيرُ بأكفّ الأجنحة وبَشَّر، وجَرَى الماءُ لإذاعة نبأ السُّرور فعَثر بذَيْل النَّسيم وتكَسَّر، وتمايَلتْ أغصانُها المُورقةُ لسماع هذا الحديث، وأخَذتْ نَسَماتُها العاطرة في السَّيرِ الحثيث، إذاعةً لتلك البشائر في العشائر ونَشراً لهذه الفضائل التي سارتْ مسير المثَل السّائر، فقُلْتُ بلسانِ الصّادق الأمين بعد تحقق هذا النّبأ اليقين: هكذا هكذا تكون الحديقةُ وإلّا، وكذلك كذلك لتُكْتَب الفضائل وتُمْلى.

[الطويل]

وحَدَّثتَني يا سعدُ عنهم فزدْتني غَراماً فزدْني من حَديثك يا سعدُ

فتحمّل عني، أيّها الصّديق، تحيَّة إلى ربَّة هاتيك الحديقَة، واشرح لديها حديث شغفي بفضْلها الباهرِ على الحقيقة. وأعتذرُ عن كتابي هذا فقد جاءَ يمشي على اسْتحياء، وكلَّما حرّكه الشّوْق يُبطئُهُ الحياء. وكيف وقد حلّ في مَنيع الفضائل والمقام الذي لم يَدَعْ مقالاً لقائل، فكأني إنما أهدي التّمَر إلى هجر وأمنَحُ البحرَ الخِضمّ بالمطَر. أدام الله مَعالي تلك الحضْرَة وزادَها في كل حال بَهجة ونُضْرَة، ما لاح جبينُ هلال وبلغ غاية الكمال.

وكتب السيد عبد الله النّديم المتوفى سنة ١٣١٤هـ:

أُستاذي وقدْوَتي ومَلاذي وعُمدتي،

رَبَّيتَ فأحْسَنْتَ، وغذّيت فأسْمنتَ مؤدِّباً ليثاً، ولِنْتَ فسوَّدتَ، وجُدتَ فعوّدتَ مُهذَّباً غيثاً، وعلّمت فأفهمت، وأشرتَ فألهمتَ غرض سَهْمك، وقد نِلْتَ ما أمَّلتَ فيمَنْ عليه عوَّلت بحُسْن فَهْمك.

[الرجز]

غلامُك الشّهيرُ بالنّديم مَنْ صار في البيان كالنّسيم

وكيف لا يكونُ لساني قوسَ البديع وكلامي السّهم السّريع وأنتَ باريه ورَاميه؟ أم كيف لا يكون مقامي الحصنَ المَنيع وقدْري العزيز الرّفيعَ وأنت مُعليه وبانيه؟ فوجْهُ جمال العلم أنتَ غُرَّته وإنسَانُ عَينِ العلمِ أنت قُرَّته، وحاليه وجاليه، وجَبينُ العقل أنت طُرّته وكتابُ الفَضْل أنت صُورته، وطاليه وتاليه:

[الطويل]

على بابك العالي من الفضْل رايةٌ على رأْس أرباب المعارفِ تخفُقُ
فعلمك جنّاتٌ وحلمك جُنّةٌ وكُلّك خيرَاتٌ وغَيثُك مُغدقٌ
أرى غصنَ من يدْعُو إلى الفضل نفسه مِنَ الفضْل عُرْياناً وغُصْنك مُورقٌ
إذا رُمت إنشاءً فَعَن صِدْق فِكْرةٍ تهادى بأبكارٍ وغيرُك يسرقُ

وكتب أيضاً في التّودّد:

بينما أنا راكبٌ لُجَّة بحر الفِكر مُجدّ في طلب فريدة بكر، تارةً أغوصُ ومَرَّةً أسبَحُ وآونةً أقفُ وطَوْراً أصفَحُ، لا يقرُّ لي قرَار ولا يُمكنني الفرار، ولا بقْصر عن طَرْح شِباكي ذراعٌ ولا يُطوَى لـفيتي شِرَاع، كلّما أدركني المَلل هاجت عليَّ رِياحُ الأمل، حتى دَخلتُ في بحرٍ عَجَّاج مُتلاطم الأمواج، فاقتحمت هذا المركَبَ الصّعب وتُهتُ بين الجزائر والشّعب، فتعلّقتْ أفكاري بالسّواري والحِبال، وبتُّ بليلة نجومها كواحل لا يُرى فيها بَرّ ولا سواحل، وقلتُ: اشتدادُ الأمر يَسْتدعي ضدّه ولا يأتي الفرَجُ إلا بعد الشدّة. وعينيك ما سلّ سيفها عل مَفْرَق مَسَاها حتى سمعت ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾[1]. فكان من تمام حظّي وسعُودي أن تركت لُجّة اليَمّ ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾[2]، وانصرَف خوفي وارتباكي وبادرتُ بطرح شِباكي، فإذا هي قد مُلئتْ بأصداف الجوْهر وعلقت بها شجَرَة العنبر، فتفتّح الصَّدف عن دُرّ يستخدمُ الأقمار، وفاح العنبرُ بما أذهب شذى الأزهار.

[البسيط]

وصرت ما بينها كسرى الزّمان له ... شمسٌ تُنادمهُ في مجلس عطرِ
ونلت أقصى أمان كنت آمُلها ... الأُنس في خلدي والنُّور في نظري

ولما جلوْتُ الطّرف بما فيها من الظَّرْف، ووقعت عندي الموْقع الحسن أردت أن أسومَها بثمن، فإذا هي دُرّة يتيمة لا يقدر لها أحدٌ على قيمة، فاستهديتها من ربّها لشغفي بحبّها، وجعلتُ القلب لها كنزاً والفؤادَ لها حِرْزاً، ألا وهي محبَّة العزيز الحافظ أبدعِ مرئيّ وأبلغِ لافظ.

وكتب إبراهيم بك المويلحي المتوفى سنة ١٣٢٣هـ يعزّي محمود باشا البارودي:

[الخفيف]

أنت يا فوق أن تعزى عن الأحـ ... ـباب فوق الذي يعزّيك عقلا
وبألفاظك اهتدى فإذا عزا ... ك قال الذي له قُلت قبلا
وقتلت الزّمان علماً فما يغـ ... ـرب قولاً ولا يجدد فعلا

(١)هود: ٤١. (٢)هود: ٤٤.

نعَم، إنّك يا «محمود» الخصال و«سامي» الفعَال، لأنتَ الشهم المُجرِّب لصُرُوف الحَدَثانِ والعالم الخبيرُ بأحوال الزّمان. قد أعدَدْتَ لنوازل المقدُور نزُلاً من الصّبر الماجور، وصرفت ضَيف الشُّجُون والهُموم إلى قُرى الفضائل والعلوم، وأخذت بسُنَّة المَّلف الصالح في مُقابلة الخطوب الفَوادح. وأنت لا شك عندنا آخذٌ فيما دهمك اليوم من المُصاب العظيم بسيرة ذاك الفَيلسوف الحكيم.

بينما هو جالسٌ يوماً في الدّرس بين تلاميذه إذ جاءه من أخبَره بأن ابنه الوحيد مات، وهو رَطب الشّباب غضّ العُمر، فلم يتولَّه الفَزع ولم يظْهر عليه الاضطرابُ، ولم يَبدُ على وجههِ الكدَر، وما زاد على أن استرجَع واستمرّ في قراءة درسه كما كان. فلمَّا انتهى منه بادره أحدُ الحاضرين من أصحابه ممَّن حيّرَتهم الدّهشة في أمره يسأله: كيف لم يسلبْه الحُزْنُ ثوبَ الثَّبات بُرهةَ مُفاجأته بالخبر؟ فقال له: «لو فاجأتني النَّازلةُ على غِرَّة منّي لجزعتُ وحزنت، ولكنّي ما زِلتُ أُقدِّرُ لابني مُنذُ يومِ ولادتهِ حُلولَ أجله في كلّ يوم من أيام حياته. ولمثل هذا اليوم كنتُ أعدّه من زمانٍ طويلٍ وكان كلما مضى عام من أعوامه اعتبرْتهُ خِلْسَة اختلسْتُها من الدّهر، حتى مضى على هذه العارية عشْرُون عاماً فشُكري لله اليَوْمَ على أن أبقاها في يدي طُولَ هذه المدّة يوم مقام الحُزْن عندَ غيري لدى استردادها».

وعن النبيّ ﷺ: «**إذا ماتَ وَلدُ العَبدِ قالَ الله تعالى للملائكةِ: أقَبضتُم ولدَ عَبْدي؟ فيقولونَ: نَعَمْ. فيقولُ: أقبضتُمْ ثمرَةَ قلبه؟ فيقولونَ: نَعم. فيقولُ الله تعالى: ماذا قالَ عَبدي؟ فيقولونَ: حَمدَك واستَرْجَعَ. فيقولُ الله تعالى: ابنُوا لعبدي بيتاً في الجنَّةِ وسمُّوه بيتَ الحَمْدِ**».

وأنت يا محمود ـ صلواتُ الله عليك ورحمتهُ لقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾[1]. أولُ من يَمتثل لحكم القضاء ويَسْترجعُ عند نُزول البلاء، ويعملُ بأدب الدّين في التجلُّد والتَّصبُّر، ويأخذُ بسيرة الحكماء في التّدبُّر والتَّبصر.

(١) البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧.

[الطويل]

ومن كان ذا نفس كنفسك حرةٍ ففيه لها مغن وفيها له مل

وكتب سهل[١] بن هارون المتوفى سنة ٦٤٩هـ في البخل:

بسم الله الرحم الرحيم

أصلح الله أمركم، وجمع شملكم وعلّمكم الخير، وجعلكم من أهله. قال الأحنف ابن قيس: معشر بني تميم؛ لا تُسرعوا إلى الفتنة، فإن أسرع الناس إلى القتال، أقلّهم حياء من الفِراء. وقد كانوا يقولون: إذا أردت أن ترى العيوبَ جَمّة، فتأمل عياباً. فإنه يَعيب الناس بفضل ما فيه من العيب. ومن أعيب العيب أن تَعيب ما ليس بعيب، وقبيح أن تَنْهى مُرْشِداً، وأن تُغْرَى بِمُشْفق، وما أردْنا بما قلنا إلا هدايتكم وتقديم فاسدكم، وإبقاء النعمة عليكم، وما أخْطَأنا سبيل حُسن النِّية فيما بَيننا وبينكم، وقد تعلمون أنَّا ما أوْصيناكم إلا بما اخترناه لكم، ولأنفسنا قَبْلكم، وشُهرْنا بهِ في الآفاق دونكم، ثم نقول في ذلك ما قال العبد الصالح لقومه ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[٢] فما كان أحقّنا منكم في حُرمتِنا بكم، أن ترعْوا حق قصدنا بذلك إليكم على ما رَعيْناه من واجب حقكم، فلا العُذْر المبسوط بَلَغْتم، ولا بواجب الحرمة قمتم، ولو كان ذكر العيوب يراد به فخر، لرأينا في أنفسنا عن ذلك شُغْلاً.

عبتموني بقولي لخادمي: أجيدي العَجين فهو أطيب لطَعْمه، وأزْيدُ في رَيْعه[٣] وقد قال عمرُ بن الخطاب (رضي الله عنه): «املكوا[٤] العجين، فإنه أحد الريْعينِ».

وعبتُموني حين خَتمتُ على ما فيه شيءٌ ثمينٌ من فاكهة رَطبَة ونقِيّة، ومن رُطبة غريبة، على عَبْدٍ نَهِم، وصَبي جَشِع، وأمَة لكْعاء[٥]، وزوجةٍ مُضيعة.

---

(١) هو من أبناء الفرس وكان من رجالات البلاغة والعلم والحكمة في دولتي الرشيد والمأمون قد وضع كتاباً حاكى به كتاب «كليلة ودمنة» وسماه «ثعلة وعفرة» وكان قيم بيت الحكمة «مدير دار الكتب» في عهد المأمون.

(٢) هود: ٨٨.

(٣) الريع: النماء والزيادة.

(٤) إملاك العجين: إنعام عجنه.

(٥) اللكعاء: الحمقاء.

وعبتُموني بالختم، وقد خَتَم بعض الأئمة على مِزود سَويق[١] وعلى كِيس فارغ. وقال: «طينة خير من طَيّة»[٢] فأمسكتم عمن ختم على لا شيء، وعبتُمْ من ختم على شيء.

وعبتُموني أن قُلت للغلام: «إذا زدتَ في المرَق فزدْ في الإنضاج، ليجتمع مع التأدّم باللحم طيب المرق». وعبتُموني بخَصْف[٣] النعل، وبتصدير[٤] القميص، وحين زَعمت أن المَخْصُوفة من النعل أبقى وأشد وأشبه بالشد، وأن الترقيع من الحزم، والتفريط من التضييع، وقد كان رسول الله ﷺ يَخْصِف نعله ويُرقِّع ثوبه، ويقول: «**لو أهدي إليَّ ذِرَاع لقبلت، ولو دعيت إلى كُراع لأجَبت**»

وقالت الحكماء: لا جديد لم يَلبَس الخَلِق، وبعث زياد رجلاً يرتاد لهُ مُحَدِّثاً واشترط عليه أن يكون عاقلاً، فأتاه به موافقاً، فقال له: أكُنت به ذا معرفة؟ قال: لا. ولكنِّي رأيته في يوم قائظ، يَلْبَس خلقاً، ويلبس الناس جديداً. فتَفَرست فيه العقل والأدب. وقد علمت أن الْخَلِق في موضعه، مثل الجديد في موضعه، وقد جعل الله لكل شيء قَدْراً، وسما به موضِعاً، كما جعل لكل زمان رجالاً،ولكل مقام مقالاً. وقد أحيا الله بالسم، وأمات بالدواء، وأغص بالماء.

وقد زَعموا أن الإصلاح أحد الكاسبين، كما زعموا أن قلة العيال أحد اليسارين. وقد جبر الأحنف بن قيس يد عنز، وأمر مالك بن أنس بفرك النعل. وقال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): ومن أكل بيضة فقد أكل دجاجة؛ ولبس سالم بن عبد الله جلد أضْحية. وقال رجل لبعضِ الحكماءِ: أريد أن أهدي إليك دجاجَة، فقال: إن كان لابد فاجعلها بَيوضاً.

وعِبْتموني حين قلت: من لم يَعرف مواضع السَّرف في الموجود الرخيص لم يَعرف مواضعَ الاقتصاد في الممتنع الغالي. ولقد أتيت بماء للوضوء على مبلغ الكفاية وأشدّ من الكفاية، فلما صرت إلى تفريق أجزائه على الأعضاء، وإلى

(١) المزود: وعاء الزاد. والسويق: شراب يتخذ من الحنطة أو الشعير.
(٢) طينة: من طان الشيء أ ي ختمه بالطين، وطية: من الطوى وهو الجوع.
(٣) خصف النعل: خرزها.
(٤) تصدير القميص: أن يجعل لصدره بطانة.

التوفير عليها من وَضيعة[1] الماء، وجدت في الأعضاء، فضلاً عن الماء، فعلمت أنْ لوْ كنت سَلكت الاقتصادَ في أوائله لَخَرج آخره على كفاية أوّله، ولكان نصيب الأوّل كنصيب الآخر فعتموني بذلك وشَنّعتم عليّ، وقد قال الحسن وذكر السرف: «أمّا إنه ليكونُ في الماء، والكلأ» فلم يرْض بذكر الماء حتى أردفَه الكلأ.

وعتموني بأن قلت: لا يَغترّن أحدكم بطول عمره، وتَقْويس ظهره، ورقّة عظمه، ووهْن قوّته، وأن يرى نحوه أكثر ذرِّيّته! فيدعون ذلك إلى إخراج ماله من يده، وتحويله إلى ملك غيره، وإلى تحكيم السَّرف فيه، وتسليط الشهوات عليه، فلعله يكون مُعَمّراً وهو لا يدري، وممدوداً له في السن وهو ولا يشعرُ. ولعله أن يُرْزق الولدَ على اليأس، ويَحْدُث علي من آفات الدهر ما لا يخطُر على بال ولا يُدْركه عقل، فيتردّه ممن لا يرده، ويظهر الشكوى إلى من لا يرحمه، أصْعبَ ما كان عليه الطَّرب، وأقبَح ما كان به أن يُطلب فعِبْتُموني بذلك. وقد قال الأول: «اعمَلْ لدُنياكَ كأنكَ تعيش أبداً، واعمَلْ لآخرتك كأنكَ تموتُ غداً».

وعتموني بأن قلت: بأن السَّرَف والتبذير إلى مال المواريث، وأموال الملوك، وإلى ما يُعَرّض فيه بذهاب الدين، واهتِضام العِرْض، ونَصْب البَدن واهتضام القلب، أسرع؛ وأن الحفظ للمال المكتب، والغنى المجتَلب، أقرب؛ ومن لم يَحْسِب نفقته لم يحْسِب دخله، ومن لم يحْسِب الدخل فقد أضاع، الأصل ومن لم يعرف للغنى قدره فقد أوذن بالفقر، وطاب نفساً بالذّل.

وعبْتُموني بأن قلت: إنّ كَسْب الحلال، يضمَن الإنفاق في الحلال، وإن الخَبيث يَنزع إلى الخبيث، وإن الطيّب ينزع إلى الطيب، وإن الإنفاق في الهوى حجاب دون الهُدى، فعِبتم عليّ هذا القول، وقد قال معاوية: لم أرَ تبذيراً قط إلا وإلى جَنْبهِ تضييع، وقد قال الحسن: إن أردتم أن تَعرفوا من أين أصابَ الرجل ماله، فانظروا في ماذا يُنْفِقه، فإن الخبيثَ إنما ينفقُ في السرف. وقلت لكم بالشَّفقة عليكم، وحُسْن النظر منّي لكم، وأنتم في دار الآفات، والحْوَائج غير مأمونات فإن أحاطت بمال أحدكم آفة لم يَرْجِع إلا إلى نفسه، فاحذروا النِّقم باختلاف الأمكنة فإن البلية لا تجري في الجميع، إلا بموت الجميع. وقد قال عمر بن الخطاب

(١) الوضيعة هنا: النقص.

(رضي الله عنه) في العبد والأمَة والشَّاة والبعير: فرّقوا بين المنايا. وقد قال ابن سيرين لبعض البَحْريين: كيف تَصْنَعون بأموالكم؟ قالوا: نُفَرقها في السفن؛ فإن عَطِبَ بعض سلم بَعض، ولولا أن السلامة أكثر ما حَمَلْنا أموالنا في البحر، قال ابن سيرين: «تحْسبها خرْقاء وهي صَناع»[١].

وعبتموني بأن قلت لكم عند إشْفاقي عليكم: إن للغنى لسُكراً، وللمال لنزْوة[٢]، فمن لم يحْفظ الغنى من سكره، فقد أضاعه، ومن لم يرْتبِط المالَ بخوف الفقر فقد أهمَله. فعبتموني بذلك، وقد قال زيد بن جَبَلة: ليس أحد أقصر عقلاً من غنيٍّ أمِنَ الفقر، وسُكر الغنى أكثر من سُكر الخمْر، وقد قال الشاعر في يحيى بن خالد بن برْمَك:

[الطويل]

وَهُوبٌ تِلادَ المالِ فيما ينوبُهُ مَنوعٌ إذا ما مَنْعُهُ كان أَحْزُما

وعبتموني حين زعمتم أني أقدم المال على العلم، لأن العلم به يفاد العلم، وبه تقوّم النفس، قبل أن تعرف فضل العلم. فهو أصل، والأصل أحقّ بالتفضيل من الفرع. فقلتم: كيف هذا؟ وقد قيل لرئيس الحكماء: الأغنياء أفضَل أم العلماء؟ قال: العلماء. قيل له: فما بال العلماء يأتون أبواب الأغنياء أكثر مما يأتي الأغنياء أبواب العلماء ؟ قال: ذلك لِمعْرفة العلماء بفضل المال، وجهل الأغنياءِ بحق العلم. فقلت: حالهما هي القاضية بينهما: وكيف يَسْتَوي شيء حاجةُ العامة إليه، وشيء يغني فيه بعضهم عن بعض؟ وكان النبي ﷺ يأمرُ الأغنياء باتخاذ الغَنَم، والفقراء باتخاذ الدّجاج. وقال أبو بكر (رضي الله عنه): إني لأبغض أهل بيت يُنفِقون نفقة الأيام في اليوم الواحد. وكان أبو الأسود الدُّؤلي يقول لولده: إذا بَسط الله لك الرزق فابْسط، وإذا قبض فاقبِض.

وعبتموني حين قلت: فضل الغنى على القوت إنما هو كفضل الآلة تكون في البيت إذا احتيج إليها استُعمِلت، وإن اسْتغني عنها كانت عُدَّةً. وقد قال الحُصيْن بن المُنذِر: وَدِدْت أنّ لي مثل أُحُدٍ ذهباً لا أنتفع منه بشيء. قيل له: فما كنت تصنَع به؟ قال: لكثرة من كان يخدُمُني عليه، لأن المال مخدوم. وقد قال بعض

(١) هذا مثل يضرب لمن تظن فيه الغفلة وفطن يقظ. (٢) النزوة: الثورة أو الوثبة.

الحكماء: عليك بطلب الغِنَى، فلو لم يكن فيه إلا أنه عِزّ في قلبك وذلّ في قلب عَدُوّك، لكان الحظّ فيه جسيماً والنفع فيه عظيماً.

ولسنا ندع سيرة الأنبياء، وتعليم الخلفاء، وتأديب الحكماء، لأصحاب اللهو، ولستم عليّ تردّون ولا رأيي تفَنِّدون. فقَدّموا النظر قبل العزم. وأدرِكوا مالكم قبل أن تُدْرِكوا مآلكم. والسلام عليكم.

الكلام على الرسالات العلمية

الرّسالات العلمية هي مقالاتٌ في المطالب العِلمية أو المسائل الأدبية. وإنّما سمّيت بالرّسالات لأن أصحابَها يُرْسلونها إلى مَن اقترحها عليهم ويسلك فيها صاحبها مناهِج الاسترسال والمخاطبات البَليغة. وقد أفردنا لها كتابنا «أسلوب الحكيم في منهج الإنشاء القويم» فارجع إليه إن شئت.

obeikandl.com

الفن الثاني: في المناظرات

للمُناظرة ثلاثةُ شروط:

الأول: أن يُجْمع بين خَصمين مُتضادّين أو متباينين في صفاتهما بحيث تظهر خواصُّهما بالمقابلة كالربيع والخريف، والصيف والشتاء.

والثاني: أن يأتي كلٌّ من الخصمين في نُصرته لنفسه وتَفنيد مزاعم قِرْنه بأدلّة من شأنها أن تَرفَع قَدْره وتَحطّ من مقام الخَصم بحيث يميل بالسّامع عنه إليه.

والثالث: أن تُصاغ المعاني والمراجعات صوغاً حسَناً وتُرَتَّبَ على سياقٍ مُحكم ليزيد بذلك نشاطُ السّامع وتَنْمى فيه الرّغبة في حل المشكل.

ولنذكر لك عليها شذرات من أقوال الكتاب فنقول:

مناظرة النُّعمان بن المنذر وكسرى أنوشروان في شأن العرب:

رَوى ابن القُطامي عن الكَلْبي قال: قدم النُّعمان بن المنذر على كسرى وعنده وفود الرُّوم والهند والصّين فذكروا من ملوكهم وبلادهم. فافتخر النّعمان بالعرب وفضّلهم على جميع الأمم لا يَسْتثْني فارسَ ولا غيرها.

فقال كسرى وأخَذَتْه عزّة المُلْك: يا نعمان لقد فكَّرْتُ في أمْر العرب وغيرهم من الأمم، ونظرت في حالة من يَقْدم عليّ من وفُود الأمم. فوجدت للرُّوم حظّاً في اجتماع أُلفتها وعِظم سُلْطانها وكثرة مدائنها ووَثِيق بُنْيانِها، وأنّ لها دِيْناً يُبيّن حلَالَها وحرامها ويردّ سَفِيهَهَا ويقيم جَاهها. ورأيت الهند نحواً من ذلك في حِكْمَتِها وطبّها، مع كثرة أنْهار بلادِها وثمارها وعجيب صناعتها وطِيب أشجارها ودقيق حِسَابها وكثرة عَدَدها. وكذلك الصّين في اجتماعها وكثرة صناعات أيديها وفُرُوسيّتها وهِمتّها في آلة الحرب وصناعة الحديد، وأن لها مُلكاً يَجْمَعُها. والتُرْك والخَزَر على ما بهم من سوء الحال في المعَاشِ وقِلّة الرّيف والثّمار والحُصُون وما هو راس عمارة الدنيا من المساكن والملابس، لهم ملوك تَضُمّ قَوَاصيهم وتدبّر أمْرهم. ولم أرَ للعرب شيئاً من خصال الخيْر في أمر دين ولا دنيا ولا حزم ولا

قوّة. ومع أن مما يَدُلّ على مهَانتها وذُلّها وصغَر هِمَّتها محلَّتهم التي هم بها مع الوحوش النّافرة والطير الحائرة يقتلون أولادهم من الفاقة ويأكل بعضهم بعضاً من الحاجة، قد خرجوا من مَطَاعِم الدنيا وملابسها ومشَارِبها ولهْوِها ولذَّاتها. فأفْضل طعام ظَفر به ناعِمهمْ لحومُ الإبل التي يعافها كثير من السّباع لِثقلها وسوء طعمها وخوف دائها، وإن قرى أحَدُهم ضيفاً عَدَّها مكرُمَةً، وإن أُطعم أكلة عدَّها غنيمة، تنْطق بذلك أشعارهم وتفتخر بذلك رجالهم ما خلا هذه التّنوخية التي أسّس جَدي اجتماعَها وشدّ مملكتها ومَنعها من عَدُوّها، فجرى لها ذلك إلى يومنا هذا. وإن لها مع ذلك آثاراً ولبُوساً وقُرَى وحصُوناً وأُموراً تُشْبه بعض أمور الناس (يعني اليمن). ثم لا أراكم تَـتكينون على ما بكم من الذلّة والقلّة والفاقة والبُؤْس حتى تفتخروا وتُرِيدوا أن تَنْزِلوا فوق مراتب الناس.

قال النعمان: أصلح الله الملك، حقٌّ لأمة الملك مِنها أن يَسْمُو فَضلها ويعْظُمَ خطْبها وتعلُو درجتها. إلَّا أن عندي جَوَاباً في كل ما نطق به الملك في غير ردّ عليه ولا تكذيب له، فإن أمنني من غضبه نَطقْتُ به.

قال كسرى: قُلْ فأَنْت آمن.

قال النعمان: أمّا أمتك أيها الملك فليست تُنازعُ في الفضل لموضعها الذي هِيَ به من عقولها وأحلامها وبسْطة محلّها وبحبوحة عِزّها، وما أكرمها الله به من ولاية آبائك وولايتك. وأمَّا الأُمم التي ذكرْتَ فأيّ أمّة تقرنها بالعَرَب إلا فضلتها.

قال كسرى: بماذا؟

قال النعمان: بعزّها ومَنعتها وحُسن وجُوهها وباسها وسخائها وحِكْمة ألْسنتها وشدَّة عقولها وأنفتها ووفائها. فأما عِزّها ومَنعَتها فإنها لم تَزَل مُجَاوِرَة لآبائك الذين دوّخوا البلاد وَوطّدوا المُلْك وقادوا الجنْد، لم يطْمَع فيهم طامع ولم ينَلْهُم نائل، حُصُونُهم ظهور خيْلهم ومِهَادُهم الأرْض وسُقُوفُهم السماء وجنتهم السُّيوف وعدّتهم الصّبْر، إذْ غَيْرُها من الأُمم إنّما عِزُّها الحِجَارة والطّين وجَزائر البُحُور. وأما حُسْن وُجُوهها وألْوَانها فقد يُعْرَف فَضْلهم في ذلك على غيرهم من الهند المُنْحَرِفة، والصّين المُنْحَفة، والتُّرْك المشَوَّهة، والرُّوم المُقشَّرة.

وأما أنْسابُها وأحسابُها فليـــت أُمّة من الأمم إلا وقد جهلت آباءها وأصُولَها وكثيراً من أوّلهّا، حتى إنّ أحدَهم لَيُسْأل عَمَّن وراء أبيه دُنْيا فلا يَنْسبُه ولا يَعْرِفه. وليس أحد من العرب إلا يسمّي آباءه أباً فأباً. حَاطُوا بذلك أحْسَابَهم وحَفِظوا به أنْسَابهم، فلا يدخل رجل في غير قومه ولا يَنْتـــب إلى غير نَسبه ولا يُدْعى إلى غير أبيه.

وأما سخاؤها فإنّ أدْنَاهُم رَجُلا الذي تكون عنده البَكْرة والنَّاب عليها بَلَاغَةُ في حمُوله وشِبعه وريّه، فيَطْرُقُهُ الطارِق الذي يكْتَفي بالفَلْذة ويَجتزي بالشَّرْبة فَيَعْقرها له، ويَرْضى أن يَخْرُج عن دُنْياه كلّها فيما يكسِبه حُسْن الأحدُوثة وطيّبَ الذِّكر.

وأما حكْمة ألسِنَتهم فإن الله تعالى أعطاهم في أشْعارهم ورَوْنَق كلَامهم وحُسْنه ووَزنه وقَوَافيه، مع معرفتهم بالأشياء وضربهم للأمثْال وإبلاغهم في الصّفات، ما ليس لشيء من ألسنة الأجناس. ثم خَيْلُهم أفْضل الخَيْل، ونِساؤهم أعفّ النساء، ولِباسهم أفضل اللّباس، ومَعدِنُهُم الذّهب والفضّة، وحجارة جبالهم الجزع، ومَطَاياهم التي لا يُبْلغ على مِثْلِها سَفَرٌ ولا يُقْطَع بمثلها بَلَدٌ قَفْرٌ.

وأما دِينها وشَرِيعتها فإنهم مُتَمسكون به حتى يبلغ أحَدُهم من نُسكِهِ بدينهِ أنّ لهم أشْهُراً حُرُماً، وبَلَداً مُحَرَّماً، وبَيتاً محْجُوجا يَنسكون فيه مَنَاسِكَهُم ويذْبَحُون فيه ذَبائحهم، فَيَلْقى الرَّجُل قاتلَ أبيه أو أخيه وهو قادر على أخذ ثَأْرِهِ وإدْرَاك رَغْمه منه فيَحْجزه تَكَرَمه ويمنعه دينه عن تناوله بأذى.

وأما وَفاؤها فإن أحدَهم يلحَظ اللّحْظة ويُومئ الإيماءَ فهي وَلْتٌ (أي عَهْد) وعُقْدَة لا يحُلُّها إلا خُرُوج نفسَه. وإن أحدَهم يَرْفع عُوداً من الأرض فيكون رَهناً بدينه فلا يَغْلق رَهْنه ولا تُخْفر ذِمّته. وأن أحدَهم ليبلغه أن رجلاً اسْتجَار به، وعَسى أن يَكون نائِياً عن دَارِهِ، فيُصاب فلا يَرْضى حتى يُفْني تِلك القَبيلة التي أصابته أو تَفْنى قبيلته لما أُخْفِر مِنْ جوَاره. وإنه ليلجأ إليهم المجرمِ المحْدث من غير معرفة ولا قرَابة فتكون أنْفسهم دون نفسه وأمْوالهم دون مَالِهِ.

وأما قولك أيها الملك يَئِدون أوْلَادهم فإنما يفْعَله من يفعله منهم بالإناث أنفَة من العار وغَيْرة من الأزْواج.

وأما قولك إنّ أفْضل طَعامِهِم لحوم الإبل على ما وَصَفْت منها فما تركوا ما دُونَها إلّا احتِقاراً له فعَمدُوا إلى أجَلّها وأفْضلها، فكانت مَراكِبهم وطَعامَهم، مع أنّها أكثر البَهائم شُحُوماً وأطْيَبُها لُحوماً وأرَقّها ألباناً وأقَلّها غائلة وأحلاها مَضْغة. وإنه لا شيء من اللُّحْمان يُعالج ما يُعالج به لحْمُها إلّا استبان فضْلُها عليه.

وأما تَحارُبُهم وأكْل بعضهم بعضاً وتَرْكهم الانقياد لِرَجل يسوسهم ويَجْمَعهم، فإنما يَفْعل ذلك من يَفْعله من الأمم إذا أنِسَتْ من نَفْسها ضعْفاً وتَخَوَّفتْ نُهوض عدُوّها إليها بالزَّحف. وإنّه إنما يكون في المملكة العظيمة أهلُ بَيْتٍ واحدٍ يُعْرَف فَضْلُهم على سائر غيرهم فَيُلْقون إليهم أُمورَهم ويَنقَادُون لهم بأزِمَّتِهِم.

وأما العرب فإن ذلك كثيرٌ فيهم حتى لقد حاوَلُوا أن يَكُونوا مُلوكاً أجمعين مع أنفتهم من أدَاء الخَرَاج والوَطْث (أي الضَّرْب الشديد بالرّجل على الأرض) بالعَسْف.

وأما اليمن التي وَصفَها الملك، فإنما أتَى جَدّ الملك إليها الذي أتاه عند غلبة الجيش له على مُلْكٍ مُتّسق، وأمْرٍ مجْتمع، فأتَاه مسْلُوباً طَريداً مُسْتَصْرِخاً. ولولا ما وُتر به من يليه من العرب لمَال إلى مجَال، ولوَجَد مَنْ يُجِيد الطعّان، ويَغْضَب للأحرار من غَلَبة العبيد الأشْرَار.

قال: فعجب كسرى لَما أجابه النعمان به، وقال: إنك لأهْلٌ لَموْضِعك من الرياسة في أهل إقْليمك. ثم كَسَاه من كسوته وسرَّحه إلى موضعه من الحِيرة.

فلما قَدم النعمان الحِيرة وفي نفسه ما فيها ما سمِع من كسرى مِن تنقُّص العَرَب وتهجين أمرِهم، بعثَ إلى أكْثم بن صَيفي وحاجب بن زُرارة التّمِيمِيّين، وإلى الحارث بن ظالم وقيس بن مسعود البَكْرِيَّيْن، وإلى خالد بن جعفر وعلقمة بن عُلَاثَة وعامر بن الطُّفَيل العامريّين، وإلى عَمْرو بن الشّرِيد السّلَمي وعمرو بن معدِ يكرِبَ الزَّبيدي والحارث بن ظالم المُرّيّ.

فلما قَدِموا عليه في الخَوَرْنَق قال لهم: قد عرفتم هذه الأعاجم وقُرْب جِوَار العرب منها، وقد سمعتُ من كسرى مقالات تَخَوّفْت أن يكون لها غَوْرٌ أو يكون إنما أظْهَرَها لأمْر أراد أن يتّخذ به العرب خَوَلا كبعض طَماطِمَتِهِ في تأدِيَتهم الخَرَاج

إليه، كما يَفعل بملوك الأُمَم الذين حَوْلَهُ ـ فاقتصّ عليهم مقالات كسرى وما ردّ عليه ـ فقالوا: أيّها الملك، وفقك الله ما أحسن ما رَدَدْتَ وأبلغ ما حَجَجْتَه به. فمُرْنا بأمْرك وآدْعُنا إلى ما شئت.

قال: إنما أنا رَجُلٌ منكم وإنما مَلَكْتُ وَعَزَزْت بمَكانكم وما يُتخَوّف من ناحيتكم، وليس شيء أحبَّ إليّ مما سَدّد الله به أمْركم وأصلح به شانكم وأدام به عِزّكم. والرأي أن تسِيروا بجماعتكم أيّها الرِّهْطُ وتنطلِقوا إلى كسرى، فإذا دخلتم نَطَق كلُّ رجل منكم بما حضره ليعلم أن العرب على غير ما ظَنّ أو حدَّثَتْه نفسُهُ. ولا يَنْطِق رجل منكم بما يُغْضِبه؛ فإنه ملك عظيم السلطان كثر الأعوان مُتْرف معْجب بنفْسه. ولا تَنْخزلوا لَه انخزال الخاضع الذّليل ولْيكن أمْرٌ بين ذلك تظهر به دَماثةُ حُلُومِكم وفضل منزلتكم وعظيم أخطاركم. وليكن أول من يبدأ منكم بالكلام «أكْثم بن صَيفي»، ثم تتابعوا على الأمر من منازلكم التي وَضعْتكم بها. فإنما دعاني إلى التّقْدمة إليكم عِلْمي بميل كلّ رجل منكم إلى التقدُّم قبْل صاحبه. فلا يَكونَنّ ذلك منكم، فيَجِدَ في آدابكم مَطْعناً، فإنه ملك مُترَف وقادِر ومُسَلّط.

ثم دعا لهم بما في خزائنه من طرائف حُلَل الملوك كل رجل منهم حُلّة، وعَمّمه عِمامة، وخَتّمه بياقوته، وأمر لكل رجل منهم بنَجيبة مهْريّة وفرسٍ نجيبة، وكتب معهم كتاباً:

أما بعد: فإن الملك ألقَى إليّ من أمر العرب ما قد علم وأجبْته بما قد فهم مما أحْبَبْتُ أن يكون منه على عِلْم ولا يَتلَجْلَج في نَفسه أن أمّة مِن الأمم التي احتجزت دُونه بمملكتها وحمَت ما يليها بفضل قُوَّتها، تبلُغُها من الأمور التي يتَعَزّزُ بها ذَوُو الحَزْم والقُوّة والتدبير والمكيدة. وقد أوْفدْت أيُّها الملك رَهْطاً من العرب لهم فضل في أحسابهم وأنسابهم وعقولهم وآدابهم. فلْيَسْمع الملِك وليُغْمِضْ عن جفَاء إنْ ظهر من مَنْطقِهم، ولْيكرمْني بإكرامهم وتعجيل سراحهم. وقد نَسَبْتهم في أسفل كتابي هذا إلى عشائرهم.

فخرج القوم في أهْبَتِهم حتى وقفوا بباب كسرى بالمدائن فدفعوا إليه بكتاب النعمان فقرأه، وأمر بإنزالهم إلى أن يجلس لهم مجلساً يسْمَع منهم.

فلمّا أن كان بعد ذلك بأيام، أمر مَرازِبَته ووُجُوه أهل مملكته فحضروا وجلسوا على كراسي عَن يمينه وشماله، ثم دعا بهم على الولاء والمراتب التي وصفهم النعمان بها في كتابه، وأقام التّرجُمان ليؤدّي إليه كَلامَهم، ثم أذن لهم في الكلام.

فقام أكثم بن صَيفي فقال: إن أفضل الأشياء أعاليها، وأعلى الرجال ملُوكها، وأفضَل الملوك أعمُّها نفعاً، وخيرُ الأزْمنة أخْصَبُها، وأفضل الخُطَباء أصْدَقها.

الصّدق منجاة، والكذب مَهْوَاة، والشَّرّ لجاجة، والحَزْم مَرْكب صعْب، والعَجْز مرْكب وطيء. آفَةُ الرّأي الهوى، والعَجْزُ مفتاح الفَقْر، وخير الأمور الصَّبْر. حُسْن الظّنّ ورْطة وسوء الظنّ عِصْمَة. إصلاح فساد الرّعيّة خير من إصْلَاح فَسَاد الرّاعي. مَنْ فسَدَتْ بِطَانَتُهُ كان كالغَاصّ بالماء.

شَرُّ البلاد بلاد لا أمير بها. شَرُّ المُلُوك من خَافه البَريء. المَرْء يَعجز عن لا مَحَالة. أفضل الأولاد البرَرة. خير الأعْوَانِ من لم يُرَاء بالنّصيحة. أحقّ الجُنُود بالنّصر من حَسُنَتْ سريرته. يكْفيك من الزّاد ما بَلّغَك المَحلّ. حسْبُك مِنْ شَرّ سَمَاعه. الصّمْتُ حِكَم وقَليلٌ فاعِله. البَلَاغة الإيجاز. مَنْ شدّد نَفّرَ، ومن تَرَاخى تألّف.

فتعجب كسرى من أكثم ثم قال: ويحك، يا أكثم، ما أحكمك، وأوثق كلَامَك! لولا وَضْعُك كلامك في غير موضعه. قال أكثم: الصّدْق يُنْبئ عنك لا الوعيد. قال كسرى: لو لم يكن للعرب غيرك لكفى. قال أكثم: رُبَّ قَوْل أنْفَذُ منْ صَوْل.

ثم قام حاجب بن زرَارة التّميمي وقال: وَرَى زَنْدُك، وعَلَتْ يدُك، وهِيْبَ سُلطَانُك. إن العرب أُمّة قد غَلُظَتْ أكْبادُها، واستحْصَدَت مِرّتُها، ومنُعَت درَّتها. وهي لكَ وامقةٌ ما تألّفْتَها، مُسْترسِلةٌ ما لايَنْتها، سامعة ما سامحْتَها. وهي العَلْقَمْ مرَارة، وهي الصّابُ غضَاضة، والعسل حلاوة، والماءُ الزُّلَال سَلاسَة. نحْنُ وفودُها إليك وألِفَتْها لديك، ذِمّتنا محْفوظة وأحسابُنا ممْنوعة، وعَشَائرنا فينا سَامعة مُطيعة إن نؤُوب لَكَ حَامِدِين خيراً فلك بذلك عمُوم محْمدَتنا وإن نَذُمّ لم نُخَصَّ بالذَّم دُونها. قال كسرى: يا حاجب ما أشبه حجَر التّلال بألوان صَخْرها. قال حاجب: بل زَئير الأُسْد بصَوْلَتها. قال كسرى: كفى ذلك.

ثم قام الحارث البكري فقال: دامت لك المملكة باستكمال جزيل حظّها وعُلوّ سَنائها. من طال رِشَاؤه كثُرَ متحهُ[١]، ومن ذهب مالهُ قَلّ مَنحهُ. تَنَاقُل الأقاويل يُعَرّف اللُّبَّ. وهذا مقام سَيُوجف[٢] بما تَنْطق به الرَّكْب وتَعرف به كُنْه حالِنا العَجَم والعرب. ونَحْن جيرانُك الأدْنَون وأعْوَانُك المُعينون. خيولُنا جمّة وجُيوشنا فَخْمة. إن اسْتَنْجَدْتَنَا فَغَيْر رُبُض، وإن استَطرَقْتَنا فَغَير جهض، وإن طلبتنا فغير غُمض. لا ننْثَني لذُعر ولا نتَنكّر لدَهر. رِماحُنا طِوَال وأعْمارنا قصار.

قال كسرى: أنْفُسٌ عزيزة وأمّةٌ ضعيفة.

قال الحارث: أيها الملك، وأنّى يكون لضعيف عزّة أو لصغير مِرَّة[٣]؟

قال كسرى: لو قصُرَ عُمرُك لم تَسْتَوْلِ على لِسَانك نفسُك.

قال الحارث: أيها الملك، إن الفارس إذا حمَل نَفْسَه على الكَتِيبة مُغرّراً بنفسه على الموت فهي مَنِيَّةٌ استَقْبَلها وجِنانٌ استَدْبَرها. والعرَب تَعْلَم أنّي أبْعَث الحرب قُدُماً وأحبسها وهي تَصرّفُ بها[٤]، حتى إذا جاشَتْ نارُها وسَعَرَتْ لَظَاها وكَشَفَتْ عنْ ساقِها جَعَلْتُ مقَادَها رُمْحي، وبَرْقَها سَيْفي، ورَعْدَهَا زئيري. ولم أُقصّر عن خَوْض خَضْخَاضها حتى أنْغَمِسَ في غمَرات لُجَجِها، وأكون فلْكاً لِفرساني إلى بحبوحة كبْشها فأَسْتَمْطِرُها دَما وأتْرُك حُماتها جَزَر السّباع وكل نَسْرٍ قَشْعَم.

ثم قال كسرى لمن حضره من العرب: أكذلك هو؟

قالوا: فعالهُ أنطَق منْ لسانهِ.

قال كسرى: ما رأيتُ كاليوم وفَداً أحْشَد ولا شُهوداً أوْفَد.

ثم قامَ عمرو بن الشّريد السُّلَمي فقال: أيها الملك نَعِم بالُك ودَامَ السُّرور حالُك. إنّ عاقبة الكلام متَدَبَّرة وأشكال الأُمور مُعتبرة. وفي كثيرٍ ثِقْلة وفي قليل بُلْغة. وفي الملوك سورة العزّ وهذا منطقٌ له ما بعدهُ. شَرُفَ فيه مَنْ شَرُف وخمل فيه من خَمل. لم نأتِ لضَيْمك ولم نَفِد لسُخطِك ولم نتعرَّض لرفدك. إن في أمْوالنا مُنتقَداً وعلى عزّنا مُعتمداً. إن أوْرَينا ناراً أثْقَبْنَا، وإن أَوَدَ دهْرٌ بِنَا اعتدلنا. إلا أنّا مع هذا لجِوَارك حافظون، ولِمَنْ رامك كافحُون، حتى يُحْمَد الصَّدر ويُسْتَطاب الخبَر.

---

(١) المتح: الاستقاء. (٢) أوجفته: أجريته. (٣) مرة: قوة.
(٤) بها: أي: بالحرب.

قال كسرى: ما يقوم قصْدُ منطقك بإفراطك، ولا مدْحُك بذِمّك.

قال عمرو: كفى بقليل قصْدي هاديا وبأيْسَر إفراطي مُخْبِرا، ولم يُلَمْ مَنْ غَرَبت نفْسُه عمَّا يعلم ورَضي من القَصد بما بلغ.

قال كسرى: ما كلُّ ما يَعرِف المرء يَنْطق به، اجلس.

ثم قامَ خالد بن جعفر الكلابي فقال: أحْضَرَ الله الملك إسعاداً، وأرْشده إرْشاداً. إنّ لكُلّ مَنْطق فُرْصة ولكلّ حاجة غُصّة، وعيُّ المَنْطق أشدُّ مِن عِيّ السُّكوت، وعِثَار القوْل أنكأ منْ عِثار الوعْث. ما فرصة المَنطق عندنا إلا بما نَهْوى، وغُصَّةُ المنطِقَ بما لا نَهْوى غيرُ مُسْتَساغة، وتَركي ما أعلم مِنْ نفسي ويُعْلَمُ منْ سمْعي أنّني له مُطيق أحَبُّ إليّ من تكلفي ما أتَخَوَّف ويُتخوّف مني. وقد أوْفدنا إليك ملكُنا النّعمان وهو لك مِنْ خير الأعوان، ونِعْم حامِل المَعْروف والإحسان. أنفسنا بالطاعة لك باخعَةَ ورقابنا بالنَّصيحة خاضِعة، وأيدِينا لك بالوفاء رهِينة.

قال كسرى: نَطَقْتَ بعقل وسَمَوْت بفضل وعَلَوْت بنُبل.

ثم قام علقمة بن عُلاثة العامري فقال: نَهجَتْ لك سُبل الرشاد وخضعت لك رِقاب العِباد. إنَّ للأقاويل مَناهج، وللآراء موالج، وللْعوِيص مَخارج. وخير القوْلِ أصْدَقه، وأفضَل الطَّلب أنجَحهُ. إنَّا وإن كانت المحَبَّة أحْضَرَتْنا والوِفادة قرّبتنَا، فليس من حَضَرك منَّا بأفضل ممَّنْ عزب عنك. بلْ لوْ قِسْت كلَّ رجل منهم وعلِمت منهم ما علمنا، لوجدت له في آبائهِ دنيا أندَاداً وأكفاء، كلّهم إلى الفَضل مَنسوب، وبالشرف والسُّؤدَد موصوف، وبالرّأي الفَاضل والأدب النافذ معروف، يَحمي حِماه ويُروى نداماه ويذود أعداه، لا تَخْمدُ ناره ولا يَحتَرِز منه جارهُ.

أيّها الملك، من يَبلُ العرب يَعرف فَضلهم. فاصطنع العرب، فإنها الجبال الرّواسي عزّاً والبحور الزّواخر طميا، والنجوم الزّواهر شُرفا والحصى عدداً. فإنْ تعرِف لهم فضْلَهم يُعزّوك، وإن تستصرخهُم لا يَخْذُلوك.

قال كسرى، وخشِي أن يأتيَ منهُ كلَام يحْمِله على السّخطْ عليه: حسْبُك، أبْلَغْت وأحسَنت.

ثم قام قيس بن مسعود الشَّيْبَاني فقال: أطابَ الله بك المراشد وجنَّبك

المصائب ووقَّاك مكروه الشدائد. ما أحَقَّنا إذ أتَيناك بأسماعك مالا يُحنِق صدْرك ولا يَزْرع لنا حِقداً في قلبك.

لم تُقدم أيُّها الملك لمُساماة ولم ننتسب لمُعاداة، ولكن لتعلم أنت ورعيّتك ومَنْ حضرك من وُفود الأُمَم، أنّا في المَنْطِق غَيْرُ مُحْجمين وفي الناس غير مُقصّرين. إن جُورِينا فغير مسْبوقِين، وإن سومِينا فغير مَغلوبين.

قال كسرى: غَيْرَ أَنّكم إذا عاهَدْتم غيرُ وافين، وهو يُعرّض به في تركه الوفاء بضَمانهِ السَوَاد.

قال قيس: أيها الملك ما كُنْتُ في ذلك إلّا كَوافٍ غُدِرَ به، أو كحافر أخْفر بذمَّتهِ.

قال كسرى: ما يكون لِضَعيف ضَمان ولا لذليل خِفارة.

قال قيس: أيها الملك، ما أنا فِيما أُخْفِر من ذمّتي أحقُّ بِإلزَامي العارَ مِنك فيما قُتِل من رَعِيّتك وانْتهك من حُرْمتك.

قال كسرى: ذلك لأنّ من ائتَمن الخانة واسْتَنْجد الأثَمة نالَهُ من الخطأ ما نالَني، وليس كلّ الناس سَواءً. كيف رأيت حاجِبَ بن زُرارةَ لِمَ يُحْكم قُواه فَيُبْرِم وَيعْهَد فَيُوفي ويَعدُ فَينْجِز.

قال: وما أحَقّه بذلك وما رأَيْتُه إلّا لي.

قال كسرى: القوْمُ بُزْلٌ[1] فَأَفْضَلُها أشَدّها.

ثم قام عامر بن الطفيل العامري فقال: كَثُر فُنون المَنْطِق، وليس القول أعْمى من حِنْدِس الظَلْماء، وإنما الفَخْر في الفِعَال والعجْز في النّجْدَةِ، والسُؤدَد مُطاوَعةُ القُدْرة. وما أعْلَمَك بقَدْرنا وأبْصَرَك بفَضْلنا وبالحرَى، إن أدالَتِ الأيّام وثابَتِ الأحْلام أن تُحْدِث لنا أُموراً لها أعْلام.

قال كسرى: وما تلك الأعلام؟

قال: مُجْتَمَع الأحياء من ربيعة ومُضَر على أمر يُذْكر.

---

(١) بُزل: جمع بازل وهو البعير في سن ست سنوات.

قال كسرى: وما الأمرُ الذي يُذْكر؟

قال عامر: ما لي علم بأكثر مما خَبّرني به مُخَبِّرِ.

قال كسرى: مَتَى تكاهنت يا ابن الطّفيل؟

قال: لست بكاهن ولكنّي بالرُّمْح طاعِن.

قال كسرى: فإن أتاك آت من جهَة عيْنِك العَوْراءِ ما أنْت صانع؟

قال: ما هَيْبَتي في قَفاي بِدُون هَيْبَتي في وجْهي، وما أذْهَب عيْني عَيْث ولكن مُطاوَعةُ العَبَث.

ثم قام عمرو بن مَعْد يَكربَ الزّبيدي فقال: إنما المَرْءُ بأصْغَرَيْه قَلبِهِ ولِسانه. فبلاغ المَنْطِق الصّوَاب وملاك النّجْدة الارْتِياد، وعَفْو الرّأي خيرٌ من استِكْرَاه الفِكْرة، وتَوْقِيف الخِبْرة خَيْرٌ من اعتِساف الحَيْرة. فاجتَبِذْ طاعَتَنا بلَفْظِك، واكتَظِم بادرتَنا بحلمِكَ وألِنْ لنا كنَفَك يَسْلَس لك قِيادنا. فإنّا أناس لم يُوَقِّسْ صَفَاتَنا قِراعُ مَناقيرِ مَن أراد لَنا قَضْماً، ولكن مَنَعنا حمانا مِن كُلّ من رام لنَا هَضْماً.

ثم قام الحارث بن ظالم المُرِي فقال: إنّ من آفة المَنْطِق الكَذِب، ومِن لُؤم الأخلاق المَلَق ومِن خَطَل الرَأي خِفّة المَلِك المُسَلط. فإن أعْلَمْناك أنّ مُواجهَتَنَا لَك عن ائتِلاف وانقيادنا لك عن تَصاف، ما أنْتَ لِقَبول ذلك مِنّا بِخَليق ولا للاعتماد عليه بحَقيق. ولكن الوَفاء بالعُهُود وإحكام ولْث العُقُود، والأمرُ بَيْنَنا وبَيْنك مُعتدِل ما لمْ يأت مِن قِبَلك مَيل أو زَلَل.

قال كسرى: من أنت؟

قال: الحارث بن ظالم.

قال: إنّ في أسماء آبائِكَ لَدَليلاً على قِلّة وفائِك، وأن تكون أوْلى بالغدر وأقرب من الوزر.

قال الحارث: إن في الحقّ مَغضَبة والسرّ في التغَافل. ولنْ يسْتوجب أحَدٌ الحِلْم إلا مع القُدْرة. فلْتُشْبِه أفْعالَك مجْلِسَك.

قال كسرى: هذا فَتَى القوم.

ثم قال كسرى: قد فهِمْتُ ما نَطَقَتْ به خُطباؤكم وتَفنّن فيه متكَلّموكم. ولولا أنّي أعلمُ أنّ الأدَب لم يُثقّف أودَكَم ولم يُحكم أمركم، وأنّه ليس لكم ملك يَجمَعكم، فتْطقون عنده مَنْطق الرَّعيَّة الخاضعة الباخعة، فنطقْتُمْ بما استوْلى على ألْسِنتكم وغلب على طباعكم، لم أجِزْ لكم كثيراً مما تكلّمتم به. وإني لأكرهُ أن أجبه وُفُودي أو أحنق صُدُورهم، والذي أُحبّ من إصلاح مُدبرّكم وتألُّف شوادّكم والإعذار إلى الله فيما بيني وبينكم. وقد قبلتُ ما كان في مَنطقكم من صَواب، وصفَحْت عما كان فيه من خلل. فانصرفوا إلى مَلككم فأحسنوا مُوازرته والتزموا طاعته وارْدَعوا سُفهاءكم وأقيموا أودَهم وأحسنوا أدَبهم، فإن في ذلك صَلاح العامّة.

رُوي عن الكلبي أنه قال: كان كسرى يحفِل بالعرب ويستأنِسُ بمُشاهدتهم ويرغب في سماع محادثاتهم ومُفاخرتهم ومُنافرَاتهم، ولم يدّخر وُسعاً إلا بذَله للحصول على ذلك.

ومما اتّفق له أن النُّعمان بن المنذر، كان بمجلسه يوماً فقال له: هل في العرب من قبيلة تشرُف على قبيلة؟ قال: نعم. قال: فبأي شيء؟ قال: مَنْ كانت له ثلاثة آباء متوالية رؤساء، واتصل ذلك بِمَزِيّة رابعة فبيته أشرف بيت، وإليه تنسب القبيلةُ، وبه تعلو عَلَى غيرها. قال: أحضر مَنْ هذه صِفتهم.

فطلبهم النُّعمان فلم يصبهم إلا في آل حُذَيفة بن بدر، وآل ذي الجدّين، وآل الأشعث بن قيس بن كِنْدة. فأحضرهم في جملة من عشائرهم. فعقد لهم كسرى مجلساً عامّاً حضره الحكّام والعدول والأعيان. ثم قال: ليتكلّم كلّ منكم بمآثر قومه وليصدُقْ. فانتصب حُذيفة بن بدر قائماً وكان ألسَن القوم: قد عَلمت العرب أن فينا الشَّرفَ الأقدم والفخرَ الأعظم. فقيل له: لمَ ذاك يا أخا فزَارة؟ قال: ألسنا الدَّعائم[1] التي لا تُرام والعزّ الذي لا يُضام. فقيل له: صدقت. ثم قام شاعرهم فقال:

[الطويل]

فَزارةُ بيتُ العزّ والعزّ فيهِمُ فزارةُ بدرٍ حسْبُ بدر نِضَالُها[2]

(١) الأركان. (٢) محاماتها ودفاعها.

لها العِزّةُ القَعْساء[١] والحسبُ الذي ... بناهُ لبَدرٍ في القديم رِجالُها
فهيهات قد أعيا القُرون التي مَضت ... مآثِرُ بدرٍ مجدُها وفِعالُها
وهل أحدٌ إن مدّ يوماً بكفّه ... إلى الشّمس في مجْرَى النُّجوم ينَالُها!؟
فإن يصلُحوا يَصلُحْ لذاك جميعُنا ... وإن يَفْسُدوا يَفسُد على الناس حالُها

ثم قام الأشعَث بن قيس فقال: لقد علمت العرب أنّا نُقاتل عديدها الأكثر، ونقْهر جمْعَها الأكبر، وأنَّا غياث اللّزْبات[٢] وبُنَاة المَكْرُمات. فقيل له: لِمَ يا أخا كِندَة؟ قال: لأنّا ورِثنا مُلك كِندة فاستَظللنا بأفيائهِ وتقلَّدْنا مَنكبه الأعظم وتوسَّطنا بحبوحه[٣] الأكرم. ثم قام شاعرهم فقال:

[الطويل]

إذا قِسْتَ أبياتَ الرّجال ببيتنا ... وجدْت لَهُ فضلاً على مَنْ يفاخرُ
فمن قال كلّا أو أتانا بخُطّةٍ ... يُنافرُنا يوماً فنحن نُخاطِرُ
تَعالَوُا فعدّوا يعلم الناس أيُّنا ... له الفضل فيما أوْرَثتْه الأكابرُ

ثم قام بسطام بن قيس فقال: قد علمت العربُ أنّا بُناةُ بيتها الذي لا يزول، ومَغرَسُ عزّها الذي لا يحول. فقيل له: ولِمَ يا أخا شيبان؟ قال: لأنَّا أدركهم للثّار وأضربهُم لِلْملك الجَبَّار، وأقوَلُهم للحقّ وألدُّهم للخَصم. ثم قام شاعرهم فقال:

[الطويل]

لَعَمْري بِسْطامٌ أَحقُّ بِفضلها ... وأوّلُ بيت العزّ عزُّ القبائلِ
فَسائلْ، أبْيتَ اللّعْن، عن عزّ قومها ... إذا جدَّ يوم الفخرِ كلُّ مناضِلِ[٤]
فيخبرك الأقوامُ عنها فإنها ... وقائع جَدّ لا ملاعِبُ هازِلِ
ألسنا أعزَّ الناس قوماً وأُسرَةً ... وأضرَبهم للكبش يومَ التّخاذلِ
وقائع عزّ كلّها رَبعيّةٌ[٥] ... تذِلُّ لهم فيها رقابُ المحافلِ
إذا ذُكرَتْ لم ينكر الناس فضلَها ... وعاذَ بها من شَرّها كلُّ قائلِ

(١) الرفيعة.
(٢) بتسكين الزاي: الشدائد.
(٣) وسطه.
(٤) المجادل.
(٥) نسبة إلى قبيلة ربيعة.

وإنّا ملوك الناس في كلّ بلدةٍ إذا نَزَلَت بالناس إحدى النّوَازِل

ثم قامَ حاجب بن زُرارة التّميميّ فقال: قدْ علمت العرب أنّا فرع دعامتها وقادَةُ زحفها. فقيل له: لِمَ ذلك يا أخا بني تميم؟ قال: لأنّا أكثرُ الناس عديداً وأنجبُهُم طُرّاً وليداً، وأعطاهم للجزيل، وأحملهُم للثقيل. ثم قام شاعرهم فقال:

[الطويل]

لقد علمت أبناء خِندِفَ أنّا لنا العزُّ قِدْماً في الخطوب الأوائلِ
وأنّا كِرامٌ أهلُ مجد وثروَةٍ وعِزّ قديم ليس بالمُتضائلِ
فكم فيهمُ من سيّد وابن سيّد أغرّ نجيبٍ ذي فعال ونائلِ
فسائلْ أبَيْتَ اللّعنَ[1] عنّا فإنَّنا دعائِمُ هذا النَّاس عند الجلائلِ

ثم قام قيس بن عاصم المنّعدي فقال: لقد علم هؤلاء أنّا أرفعهم في المكرمات وأثبتهم في النّائبات. فقيل له: لِمَ يا أخا بني سعد؟ قال: لأنّا أدركهم للثّأر، وأمنعهم للجار، لا نتّكل إذا حملنا، ولا نُرَام إذا حللنا. ثم قام شاعرهم فقال:

[الطويل]

لقد علمت قيسٌ وخندفُ أنّنا وجُلُّ تميم والجموعُ التي تَرَى
بأنّا لُيُوثُ البأسِ في كلّ مأزقٍ إذا جُزَّ بالبيض الجماجم والطلى
وأنا إذا دَاعٍ دعانا لِنَجدةٍ أجبنا سِراعاً في العلائم مَن دعا
فهيهات قد أعيا الجميع فِعالهم وفاتوا بيوم الفخر مَسعاة من سعى

فقال كسرى حينئذٍ: ليس منهم إلّا سيّد يصلح لموضعه. ثم أعظَمَ صِلاتهم أجمعين وردّهم إلى أقوامهم معظَّمين.

مناظرات المهدي لأهل بيته ومشاورته لهم في حرب خُرَاسان:

هذا ما تَرَاجَع فيه المهدي ووزراؤُه، وما دار بينهم من تدبير الرأي في حرب خُراسان أيّامَ تحاملت عليهم العُمّال وأعْنَفَت، فحمَلَتْهم الدّالة وما تقدَّم لهم من

(١)أبيت اللعن: بغضته ومنعته، والمعنى أنك لا تفعل ما يوجب لعنك بل تفعل ما تحمد وتمدح عليه.

المَكانة على أن نَكَثوا بيعَتَهم ونَقَضوا مَوْثِقَهُم، وطَردُوا العُمَّال والْتَوْوا بما عليهم من الخَراج. وحمَل المَهْدي ما يُحبُّ من مصلحتهم ويَكْرَه من عَنَتِهم على أن أقال عَثْرَتَهم، واغْتَفَرَ زَلَّتهم، واحتَمل دالَّتَهم تَطوُّلاً بالفضل واتّساعاً بالعفو وأخْذاً بالحُجَّة ورِفْقاً بالسّياسة. ولذلك لم يَزَل مُذ حَمَّلَه الله أعْباء الخلافة وقَلّدَه أُمورَ الرَّعِيَّة، رفيقاً بمَدار سلطانه بصيراً بأهل زَمانه، باسِطاً للمَعْدَلة في رعِيّتِهِ تَسْكن إلى كَنَفه وتَأْنس بعفْوه وتَثِق بحِلْمه. فإذا وَقَعَت الأقْضية اللّازمَة والحقوق الواجبة، فليس عنده هَوادة ولا إغضاء ولا مداهَنة أَثَرَةً للحق وقياماً بالعدل وأخْذاً بالحَزْم. فدَعَا أهلَ خُراسان الاغتِرارُ بحلْمِهِ والثّقة بعفوه أن كَسَّرُوا الخَرَاج وطَرَدُوا العُمّال وسألوا ما ليس لهم من الحق، ثم خَلطوا احتجاجاً باعتذار وخُصومة بإقرار وتَنصُّلاً باعتِلال.

فلما انتهى ذلك إلى المهدي خرج إلى مجلس خَلَائه وبَعَث إلى نَفَرٍ من لُحْمته ووُزرائه، فأعلَمَهم الحال واستفهم للرّعية، ثم أمر المَواليَ بالابتداء، وقال للعباس بن محمد: «أي عَمّ» تَعَقّبْ قوْلَنا وكُن حَكَماً بَيْننا. وأرْسَل وَلَدَيْه مُوسَى وهارُون فأحضَرَهما الأمر وشاركَهما في الرّأي، وأمَرَ محمد بن اللَّيث بحفْظ مُرَاجَعَتهم وإثبات مَقَالتهم في كتاب.

فقال سلّام صاحب المظالم: أيُّها المهدي، إن في كل أمر غاية ولكل قوم صناعة اسْتَفْرَغت رأيَهم واستَغْرَقَتْ أشغالَهم واسْتَنْفَدتْ أعمارَهم، وذَهَبُوا بها وذَهبتْ بهم، وعُرِفوا بها وعُرِفت بهم. ولهذه الأمور التي جَعَلَتْنا فيها غاية وطَلَبْتَ مَعُونتنا عليها، أقوام من أبناء الحَرْب، وساسةِ الأمور، وقادَة الجُنود، وفُرسان الهَزاهِز وإخوان التَّجارِب، وأبطال الوقائع، الذين رشَّحَتْهم سِجَالُها وفيَّأتهم ظِلالُها وعَضَّتْهُم شدَائدُها وفرَمَتْهُم نَوَاجِذُها. فلو عَجَمْتَ ما قِبَلهم وكَشَفْتَ ما عندهم، لوَجدْتَ نَظائر تُؤَيّد أمرَك، وتَجارِبَ تُوَافِق نظرَك، وأحاديث تُقوّي قَلْبك. فأمّا نَحْن معاشرَ عُمَّالك وأصْحاب دَوَاوينك فحسَنٌ بنَا، وكثيرٌ منّا أن تقوم بِثقْل ما حمَّلْتنا من عَمَلك، وأسْتَوْدَعتنا من أمانَتِك، وشَغلتَنا من إمْضاء عدْلك، وإنْفاذِ حُكمكَ وإظْهار حَقّك.

فأجابه المهدي: إنّ في كل قوْمٍ حِكمَة ولكُلّ زمان سِياسَةً، وفي كُل حال تدْبيراً يُبْطِل الآخرُ الأوّلَ، ونحن أعلم بزماننا وتدبير سلطاننا.

قال: نَعَمْ أيُّها المهدي أنْتَ متَّبَع الرّأي، وَثيق العُقْدَة، قَوِيُّ المُنَّة، بليغ الفِطْنة، معْصُوم النيّة، مَحْضور الرّوِيَّة، مؤيَّد البديهة، موَفّق العَزِيمة، مُعَان بالظَّفر مَهْدِيّ إلى الخَيْر. إن هَمَمْتَ ففي عزْمك مَوَاقع الظّنّ، وإن اجتَمَعْت صدَع فعْلك مُلْتبس الشّكّ. فاعزم يَهْدِ الله إلى الصواب قَلْبَك، وقُلْ يُنْطِق الله بالحقّ لسانَك، فإن جُنودك جَمَّة، وخزَائنك عامرة، ونفسك سخية، وأمرك نَافِذ.

فأجابه المهدي: إنّ المشاورة والمُناظرة بابا رحمة ومفتاحا بركَة، لا يَهْلك عليهما رأيٌ، ولا يَتَغَيَّل مَعهُما حزْم. فأشيروا برأيكم وقولوا بما يَحضرُكم، فإني من ورائكم وتوفيقُ الله من وراء ذلك.

قال الربيع: أيُّها المَهْدِي، إنّ تصاريف وُجُوه الرَّأي كثيرة، وإن الإشارة ببعض مَعَاريض القول يَسيرة. ولكن خراسان أرضٌ بَعيدة المسافة مُتَراخية الشقَّة مُتَفَاوتة السّبيل. فإذا ارْتَأَيْتَ من مُحْكم التدْبير ومُبرَم التّقدير ولُباب الصّواب، رَأياً قد أحكَمه نَظَرُك وقلَّبه تدْبيرك، فليس وراءَه مَذْهَب طاعن ولا دُونه معلقٌ لخُصومة عائب، ثم أجَبْتَ البُرُد بهِ وانطوت الرسل عليه، كان بالحَرَى أن لا يصل إليهم مُحْكَمَهُ إلا وقد حدث منهم ما ينقضه. فما أيْسَرَ أن ترجع إليك الرسل، وتَرِدَ عليك الكتب بحقائق أخبارهم، وشوارد آثَارهم، ومصادر أُمورهم، فتحْدث رأياً غيره وتبتدع تدبيراً سواه، وقد انفرجت الحُلق وتحلّلت العقَد، واسترخى الحِقَاب، وامتدّ الزمان، ثم لعلمك موقع الآخرة كمصدر الأولى. ولكن الرأي لك، أيها المهدي، وفَّقك الله أن تصرف إجالة النظر وتقليب الفِكر فيما جَمَعْتنا له واستشرتنا فيه من التدبير لحَرْبهم والحِيَل في أمْرهم، إلى الطَّلب لرَجُل ذي دين فاضل وعقل كامل ووَرَع واسع، ليس موصوفاً بهوى في سواك، ولا مُتَّهماً في أثَرة عليك، ولا ظَنِيناً على دُخْلةٍ مكروهة، ولا مَنْسوباً إلى بدْعة محْذورة، فيَقْدَح في مُلكك ويُريض الأُمور لغَيرك ثم تُسْند إليه أمورهم وتفوّض إليه حرْبَهم، وتأمره في عَهدك ووصيتك إيَّاه بلزوم أمرك ما لَزِمه الحَزم، وخلاف نَهْيك إذا خالفه الرأي عند استحالة الأُمور، واشتداد الأحوال التي يَنْقَضُّ[1] أمْرُ الغائب عنها، ويَثْبُتُ رأيُ الشاهد لها.

(١) ينقض: ينهدم.

فإنه إذا فعل ذلك فواثب أمْرهم من قريب وسَقط عنه ما يأتي من بعيد، تَمَّت الحيلة وقَوِيت المَكيدة ونَفَذَ العَمل وأُحِدَّ النظر إن شاء الله.

قال الفضل بن العباس: أيُّها المهديّ إن وَليّ الأمور وسائس الحروب رُبما نَحَّى جُنودَه وفرّق أموَالَه في غير ما ضِيقِ أمْرٍ حَزَبَهُ ولا ضَغْطةِ حالٍ اضْطَرَّتْه، فيقعد عند الحاجة إليها وبعد التَّفرقة لها عَديماً منها فاقداً لها لا يثِق بقوّة، ولا يَصول بعدة، ولا يَفْزَع إلى ثِقَة. فالرأي لك، أيها المهدي، وفقك الله، أن تعَفْي خزَائنك من الإنفاق للأموال، وجُنُودَك من مُكابدة الأسفار ومُقارعة الأخطار وتغرير القتال، ولا تُسْرع للقوم في الإجابة إلى ما يطلبون، والعطاء لما يسألون، فيَفْسُدُ عليك أدَبهُم، وتُجرّئ من رَعِيّتك غَيْرَهم. ولكنِ اغزُهم بالحيلة، وقاتِلهم بالمكيدة، وصارِعهم باللّين، وخاتلْهم بالرّفْق، وأبْرِق لهم بالقول، وأرْعِد نحوهم بالفِعل، وابْعث البُعُوث، وجنّد الجنود، وكَتّب الكتائب، واعقد الألْوية، وانصِب الرّايات وأظْهِر أنك مُوَجّهٌ إليهم الجيوش مع أحْنق قُوادك عليهم، وأسْوئهم أثراً فيهم. ثم أدسسُ الرُّسل، وَأَثْبِتِ الكُتب، وضَعْ بَعْضهم على طَمَع من وَعْدك، وبَعْضاً على خَوْفٍ من وعيدك، وأوْقد بذلك وأشْباهه نِيرَان التّحاسُد فيهم، واغرِس أشجار التَّنافُس بينهم، حتى تملأ القلوب من الوَحشة، وتَنْطَوِي الصدور على البِغْضة ويَدخل كلّاً من كلّ الحَذَر والهَيْبَة. فإن مَرام الظَّفَر بالغيلة، والقتال بالحيلة، والمُناصبة بالكتب، والمُكايَدة بالرُّسُل، والمُقارَعة بالكلام اللطيف المُدْخَل في القلوب، القوِيّ المَوْقع من النفوس، المَعقود بالحُجَج، المَوْصول بالحيَل، المبْني على اللين الذي يستميل القلوب ويسترقّ العقول والآراء، ويستميل الأهواء ويستدعي المُوَاتَاة، انْفَذ من القتال بظُبَات السُّيوف وأسنَّة الرّماح. كما أنَّ الوالِيَ الذي يستنزل طاعة رعيته بالحِيَل، ويُفرّق كلمةَ عَدُوّه بالمُكايدة، أحكمَ عَمَلاً وألطَفَ منْظَراً وأحْسَنُ سياسةً من الذي لا يَنَال ذلك إلا بالقتال والإتلاف للأموال والتَّغرير والخِطارِ. وليعلَم المهدي أنه إن وَجَّه لِقِتالهم رجلاً لم يَسِرْ لقتالهم إلّا بجنود كثيفة تخرج عن حال شديدة وتُقْدِم على أسفار ضيّقة وأموال مُتَفَرّقة وقُوّاد غَشَشَة إن ائتمنهُم اسْتنْفدُوا ماله وإن اسْتَنْصَحَهم كانوا عليه لا لهُ.

قال المهدي: هذا رأيٌ قد أسفر نُورهُ وأبرق ضَوؤُه وتَمثّل صوابهُ للعيون ومَجُدَ حقه في القلوب ولكن ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[1]. ثم نظر إلى ابنه عليّ فقال: ما تقول؟

قال عليّ: أيُّها المهدي، إن أهل خُراسان لم يَخلعُوا عن طاعتك ولم يَنْصبُوا من دونك أحداً يقدَح في تَغيير ملكك ويُريض الأمور لفساد دولتك، ولو فَعَلوا لكان الخَطْبُ أيْسَر والشأن أصْغَر والحالُ أدَلّ، لأن الله مع حقّه الذي لا يخْذِله، وعند مَوعده الذي لا يُخلِفه. ولكنهم قوم من رعيتك وطائفة من شيعتك الذين جعلك الله عليهم والياً، وجعل العدل بينك وبينهم حاكماً. طَلبوا حَقاً وسألوا إنصافاً. فإن أجبتَ إلى دعوتهم ونَفَّسْتَ عنهم قبل أن يتَلاحم منهم حال أو يَحدُث مِنْ عندهم فَتْق، أطَعْتَ أمرَ الرّب وأطفأت ثائرَة الحرب، ووَفّرتَ خزائن المال وطَرَحْتَ تَغْرير القتال، وحمل الناسَ محمَل ذلك على طبيعة جودك وسجيّة حلْمك، وأسجاع خَليقتك ومَعدَلة نَظَرك، فأمنْتَ أن تُنْسَبَ إلى ضُعْف وأن يكون ذلك فيما بقي دُرْبَةً. وإن منعْتم ما طلبوا ولم تُجِبْهم إلى ما سألوا، اعْتدلَتْ بك وبهم الحال وساوَيتهم في ميدان الخطاب.

فما أرَبُ المهدي أن يَعْمِد إلى طائفةٍ من رعيته مُقرّين بمَمْلكته، مُذْعنين بطاعته، لا يُخرجون أنفسهم عن قدرته ولا يُبرّئونها من عبوديته، فَيُمَلّكهُم أنْفُسَهم ويَخْلَع نفسه عنهم ويَقف على الحِيل معهم، ثم يجازِيهم السوءَ في حدّ المُنازعة ومِضْمار المُخاطرة.

أيُريد المهدي ـ وفّقه الله ـ الأموالَ؟ فَلَعَمْري لا يَنالُها ولا يَظْفُر بها إلا بإنفاق أكثر منها مما يَطْلُب منهم وأضعاف ما يَدّعي قِبَلَهم. ولو نالَها فَحُمِلَتْ إليه أو وُضِعت بخَزائطها بين يديه، ثم تجافى لهم عنها وطال عليهم بها، لكان مما إليه يُنْسَب وبه يُعْرَف من الجود الذي طَبَعَه الله عليهِ وجعَلَ قرّة عينه ونَهْمةَ نفسه فيه.

فإن قال المهدي: هذا رأيٌ مستقيم سديد في أهل الخَراج الذين شكَوْا ظُلْمَ عُمالنا وتحامُلَ وُلاتَنا، فأمَّا الجنود الذين نَقَضوا مواثيقَ العهود وأنْطَقوا لسان

(١) يوسف: ٧٦.

الإرْجاف وفَتَحُوا بابَ المَعْصِية وكَسَّروا قَيْد الفِتْنَة، فقد ينبغي لهم أن أجْعلَهم نَكالاً لغيرهم، وعِظَةً لِسواهم، فيعلم المهدي أنه لو أتي بهم مَغْلولين في الحديد مُقَرّنين في الأصفاد، ثم اتَّسَع لِحَقْن دِمائِهِم عَفْوُهُ ولإقالةِ عَثْرَتِهم صَفحُهُ، واسْتَبْقاهم لما هم فيه من حِزْبه، أو لمن بإزائهم من عدُوّه، لما كان بدْعاً من رَأيه ولا مُسْتَنْكراً من نظره.

لقد عَلِمت العرب أنه أعْظَمُ الخُلفاء والملوك عَفْواً وأشَدُّها وَقْعاً وأصْدَقها صَوْلة، وأنه لا يتعاظمهُ عَفْو ولا يتكاءدُه صَفْح. وإن عَظم الذَّنْب وجلّ الخطب فالرّأيُ للمهدي ـ وفّقه الله تعالى ـ أن يَحُل عُقدة الغيظ بالرّجاء لِحسْن ثواب الله في العَفْو عنهم، وأن يَذْكر أولى حَالاتهم وضيْعة عِيالاتهم، بَرّاً بِهم وتَوسُّعاً لهم، فإنهم إخوان دولته وأركان دَعْوته وأساس حَقّه، الذين بعِزَّتهم يَصُول وبحجّتهم يقول. وإنما مثلهُم فيما دَخَلوا فيه من مساخِطه وتعرَّضوا له من معاصيه وانْطَوَوْا فيه عن إجابته، ومِثلهُ في قلّة ما غَيّر ذلك من رأيه فيهم، أو نُقل من حَاله لهم، أو تغيَّر من نعمته بهم، كمثل رجلين أخَوَين مُتناصِرَين مُتَوازِرَيْن أصابَ أحدهما خبَلٌ عارضٌ ولهوٌ حادث، فنَهض إلى أخيه بالأذى وتحامل عليه بالمكروه، فلم يَزدد أخوه إلّا رِقّةً له ولطْفاً به واحتِيالاً لِمُداواة مَرضه ومراجعة حاله، عَطْفاً عليه وبرّاً به ومرْحَمةً له.

فقال المهدي: أمّا عليٌّ فقد كَوى سمت اللّبَان، وفضَّ القلوب في أهل خراسان و﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾[1] فقال: ما تَرى يا أبا محمد؟ يعني موسى ابْنَه.

فقال موسى: أيها المهدي، لا تـكُنْ إلى حلَاوة ما يَجْري من القول على ألْسِنَتهم وأنت تَرى الدماء تَسيل من خَلل فِعْلهم. الحالُ من القوم يُنادي بِمَضْمرة شَرّ وخَفِيّة حِقْد، قد جعلوا المعَاذِير عليها سِتْراً، واتَّخَذوا العلل من دونها حجَاباً، رجاء أن يُدافعوا الأيام بالتَّأخير والأُمور بالتَطويل، فيكْسِروا حِيلَ المهدي فيهم ويُفْنوا جنوده عنهم، حتى يتلاحم أمرهم وتتلاحق مادَّتهم، وتَسْتَفْحل حرْبهُم وتمتمرّ الأمور بهم، والمهديّ من قولهم في حال غَرّة ولباس أَمنة، قد فتَرَ لها

(١) الأنعام: ٦٧.

وأنِس بها وسَكَن إليها. ولولا ما اجتَمعتْ به قلوبهم وبَردتْ عليه جلودهم من المُنَاصبة بالقتال والإضمار للقِراع، عن داعية ضلال أو شيطان فساد، لَرهبوا عواقب أخْبار الوُلاة وغبّ سكون الأمور. فَلْيَشْدُد المهدي ـ وفقه الله ـ أزْرَه لهم ويُكَتّب كَتائبه نحوَهم، ولْيَضَع الأمر على أشَدّ ما يَحْضره فيهم. ولْيُوقِنْ أنه لا يُعطيهم خُطّةً يريدُ بها صلاَحَهم إلا كانت دُرْبة إلى فسادهم، وقُوَّة على مَعصيتهم، وداعيةً إلى عوْدتهم، وسبباً لفَساد من بحضْرته من الجنود، ومَنْ ببابه من الوُفود الذين أقَرَّهم وتِلكَ العادة، وأجراهم على ذلك الأرب، ولم يَبْرَح في فَتْق حادِث وخلاف حاضر لا يَصلُح عليه دين، ولا تستقيم به دُنيا. وإن طَلَب تغييرَه بعد استحكام العادة واستمرار الدُرْبَة، لم يَصل إلى ذلك إلّا بالعُقوبة المُفرطة والمَؤُونة الشديدة. والرأيُ للمهدي ـ وفقه الله ـ أن لا يُقيل عَثْرَتَهم ولا يَقْبَل مَعْذِرَتهم حتى تَطَأهم الجيوش، وتأخُذهم السيوف، ويَستحرّ بهم القتل، ويحدق بِهِم البلاء، ويُطْبق عليهم الذلّ. فإن فعل المهدي ذلك كان مَقْطَعةً لكلّ عادة سوء فيهم، وهزيمة لكل بادرة شرّ فيهم. واحتمالُ المهدي في مَؤونة غزوتِهِم هذه تَضَع عنه غزَواتٍ كثيرة ونفَقَات عظيمة.

قال المهدي: قد قال القوم فاحكُم يا أبا الفضل.

فقال العباس بن محمد: أيها المهدي، أما المَوالي فأخَذوا بفُروع الرأي، وسَلَكوا جَنَبات الصّواب، وتَعَدّوا أمُوراً قَصَّر بنَظَرهم عنها أنه لم تأتِ تَجارِبُهُم عليها.

وأما الفضل فأشار بالأموال أن لا تُنْفق، والجنود أن لا تُفَرّق، وبأن لا يَعطى القومُ ما طَلبُوا، ولا يبْذَل لهم ما سألوا. وجاء بأمرٍ بيْن ذلك استصغاراً لأمرهم واستِهانةً بحَربِهم. وإنما يَهِيج جَسيماتِ الأمور صِغارُها.

وأما علي فأشار باللّين وإفراط الرّفق وإذا جَرّد الوالي لمن غَمِط أمره وسَفِه حَقّه اللينَ بحتاً والخَيْرَ مَحْضاً، لم يخلِطْهما بشِدّة تَعْطِف القلوب عن لِينِهِ ولا بِشَرّ يَحْبَسُهم إلى خيره. فقد مَلَّكَهُم الخَلْع لعُذْرِهم ووسّع لهم الفُرجة لِثَنْي أعناقهم. فَإن أجابوا دعوته وقبلوا لينه من غير خوف اضطّرهم ولا شدّة، فَنزْوَةٌ في رؤوسهم

يستدعون بها البلاء إلى أنفسهم، ويَستَصرخون بها رأي المهدي فيهم. وإن لم يَقْبلوا دعوتَه ويسرِعوا لإجابته باللّين المحض والخير الصُّراح، فذلك ما عليه الظنّ بهم والرأيُ فيهم وما قد يُشْبه أن يكون من مِثْلِهم، لأن الله تعالى خَلَق الجنة وجَعل فيها من النعيم المقيم والمُلك الكبير ما لا يَخْطُر على قلب بَشَر ولا تُدْرِكُهُ الفكر ولا تَعْلمه نَفْس، ثم دعا الناسَ إليها ورغّبهُم فيها. فلولا أنه خَلَق ناراً جَعَلها لهم رحمة يسوقُهُم بها إلى الجنة لما أجابوا ولا قَبِلوا.

وأما موسى فأشار بأن يُعْصَبوا بشدةٍ لا لين فيها، وأن يُرْمَوْا بشرّ لا خير معه، وإذا أضْمر الوالي لِمَنْ فارقَ طاعتَه وخالف جماعتَه، الخوفَ مُفرداً والّشرَّ مجرَّداً ليس معهما طمع ولا لين يَثْنيهم، اشتدت الأمور بهم وانقطعت الحال منهم إلى أحد أمرين: إما أن تدْخُلهم الحميّة من الشِدَّة والأنَفة من الذّلَّةِ والامتعاضُ من القَهر فيدعوهم ذلك إلى التّمادي في الخلاف والاستبسال في القتال والاستسلام للموت، وإما أن يَنْقادوا بالكُره ويُذعِنوا بالقهر على بِغْضةٍ لازمة وعداوة باقية تُورِث النّفاق وتُعْقِب الشّقاق، فإذا أمْكنتَهُم فُرْصة أو ثابَت لهم قُدرة أو قَويَت لهم حالٌ عاد أمْرهم إلى أصْعب وأغْلظ وأشد مما كان.

قال في قول الفضل: أيها المهدي أكفَى دليل وأوضح بُرهان وأبْين خبر، بأن قد أجْمَع رأيه وحَزْم نَظَرُه على الإرشاد بِبعثة الجيوش إليهم وتوجيه البُعوث نحوَهم، مع إعطائهم ما سألوا من الحق وإجابتهم إلى ما سألوه من العدل.

قال المهدي: ذلك رأيٌ.

قال هارون: ما خُلطت الشدة، أيها المهدي، باللّين فصارت الشدة أمَرَّ فِطامٍ لما تكْرَه، وعاد اللين أهْدَى قائدٍ إلى ما تُحِبّ. ولكن أرَى غير ذلك.

قال المهدي: لقد قلتَ قولاً بديعاً وخالفتَ فيه أهل بيتك جميعاً، والمرء مُؤتَمَن بما قال وظَنين بما ادّعى حتى يأتي ببيّنة عادلة وحجة ظاهرة، فاخرُج عما قلت.

قال هارون: أيها المهدي، إنّ الحَرْب خُدعة والأعَاجم قوْمٌ مكرة. وربما اعْتَدَلت الحال بهم واتَّفَقَتِ الأهواء منهم، فكان باطن ما يُسِرُّون على ظاهر ما

يُعْلِنون. وربما افترقت الحالان وخالَف القلبَ اللسانُ، فانطوى القلبُ على محجُوبة تبطن واسْتَـرَّ بمَدْخولة لا تُعْلَن. والطبيب الرفيق بطبّه البَصير بأمره العالِم بمُقَدَّم يدِهِ وموضع ميسِمه، لا يَتَعَجّل بالدواء حتى يَقَع على فة الداء. فالرأي للمهدي ـ وفقه الله ـ أن يَفِرّ بَاطن أمرهم فَرّ المُـنّة، ويَمخَضَ ظاهرَ حالهم مخْض السّقاءِ، بمُتابعة الكُتب ومُظاهَرَة الرُّسُل وموَالاة العُيون، حتى تُهْتَك حُجُب عيونهم وتكْشَف أغْطِيةُ أمورهم. فإن انفَرَجَت الحال وأفضَت الأمور به إلى تغيير حال أو داعية ضلال اشتملت الأهواء وانْقادَ الرجال إليه وامْتَدّت الأعناق نحوه بِدين يعتقدونه وإثْم يـتَحِلّونه، عَصَبَهُم بشدّة لا لينَ فيها، ورماهم بعُقُوبة لا عَفْوَ معها. وإن انْفَرَجَتِ العُيون واهْتُصِرَت السُّتور ورُفِعَتِ الحُجُب، والحال فيهم مَريعة والأمور بهم معتدِلة، في أرزاق يطلبونها وأعمال يُنكرونها وظُلامات يَدَّعونها وحقوقٍ يسألونها بماتَّةِ سابِقَتِهِم ودالّة مُناصَحَتِهِم، فالرّأي للمهدي ـ وفقه الله ـ أنْ يتّسع لهم بما طَلَبوا، وَيَتَجافى لهم عما كرِهوا، ويَشْعَب من أمرهم ما صَدَعوا، ويَرْتَقَ من فتقهم ما قطعوا، ويُوَلّي عليهم من أحَبّوا، ويُداوي بذلك مَرَض قلوبهم وفساد أمورهم. فإنما المهدي وأمتُهُ وسواد أهل مملكته، بمنزلة الطبيب الرفيق والوالد الشفيق والراعي المُجَرِّب، الذي يحتال لمرَابض غنمه وضَوَالّ رعيته، حتى يُبْرِئ المريضة من داء عِلّتها ويَرُدّ الصحيحة إلى أُنْس جَماعَتها.

ثم إن خراسان بخاصة الذّين لهم دالّة محمولة وماتة مقبولة ووسيلة معروفة وحقوق واجبة، لأنهم أيدي دولته وسيوف دعوته وأنصار حقه وأعوان عدله، فَلَيْس من شأن المهدي الاضطِغان عليهم ولا المؤاخذة لهم ولا التَّوْغير بهم ولا المكافأة بإساءتهم، لأنّ مبادَرة حسم الأمور ضعيفةٌ قبل أن تَقْوَى، ومُحَاولَة قَطْع الأصول ضئِيلةٌ قبل أن تَغْلظ، أحْزَمُ في الرأي وأصحّ في التدبير من التأخير لها والتّهاون بها حتى يلتئم قليلها بكثيرها وتجتمع أطرافُها إلى جُمْهورها.

قال المهدي: ما زال هارون يَقَع وقع الحيا حتى خرَج خرُوج القِدْح من الماء، وانْسَلّ انسلال السيف فيما ادّعى. فدعوا ما سَبَق موسى فيه فإنه هو الرّأي وثنّى بعده هارون. ولكن مَن لأعنّة الخيل وسياسة الحرب وقادة الناس إن أمعن بهم اللّجَاج وأفرطت بهم الدالة.

قال صالح بن علي: لسنا نَبْلُغ، أيُّها المهدي، بدوام البَحْث وطول الفكْر أدْنَى فِرَاسة رَأيك، وبَعضَ لَحَظات نَظَرك وليس يَنْفضّ عنك من بُيُوتات العرب ورجال العجم، ذو دِين فاضل ورأي كامل وتدبير قوي تُقلّده حَرْبك وتستودعه جُندَك، ممن يحتمل الأمانة العظيمة ويَضطَلع بالأعباء الثَّقيلة. وأنْتَ بحمد الله مَيْمون النَّقيبة مبارك العَزِيمة، مخْبور التَّجارب محمود العواقب، معصوم العَزْم، فليس يَقَع اختيارُك ولا يقع نَظَرُك على أحد تولّيه أمرَك وتُسْند إليه ثَغرك إلّا أراكَ الله ما تُحِبّ وجَمَع لك منه ما تريد.

قال المهدي: إنّي لأرجُو ذلك لقديم عادة الله فيه وحُسْن مَعُونَته عليه، ولكني أحِبّ المُوَافقة على الرَّأي والاعتبار للمشاورة في الأمر المُهِم.

قال محمد بن الليث: أهل خُراسان، قَوْمٌ ذَوُو عزة ومَنعَة وشياطين خدعة. زُروع الحَمِيّة فيهم نابتة وملابس الأنفة عليهم ظاهرة. فالرّوِيّة عَنهم عازبة والعَجلة عنهم حاضرة، تسبق سيولهم مَطَرَهم، وسُيوفُهم عَذَلهم، لأنَّهم بين سِفلة لا يعْدو مَبْلَغ عُقولهم مَنْظر عيونهم، وبين رُؤساء لا يُلْجمون إلّا بشدّة ولا يُفْطمون إلّا بالمُرّ. وإن ولّى المهدي عليهم وضيعاً لم تَنْقَدْ له العُظماء. وإن ولّى أمرَهم شريفاً تحامل على الضُّعفاء، وإن أخَّر المهدي أمرَهم ودافَع حرْبَهم، حتى يُصيب لنفسه من حَشَمه ومَواليه، أو بني عَمّه أو بَني أبيه، ناصحاً يتّفق عليه أمْرُهم، وثِقَة تجْتمع له أمْلاؤهم بِلا أنَفَة تَلْزمهُم ولا حَمِيّة تَدْخُلهم ولا مُصيبة تُنَفّرهم، تَنَفّست الأيام بهم وتراخت الحال بأمرهم. فدَخل بذلك من الفساد الكبير والضّياع العظيم مالا يَتلافاهُ صاحبُ هذه الصفة وإن جدّ، ولا يَسْتَصْلِحُه وإن جهَد، إلا بَعْد دَهْر طويل وشر كبير. وليس المهدي ـ وفقه الله ـ فاطِماً عاداتهم، ولا قارعاً صفَاتهم، إلّا بمثْل أحد رَجُلين لا ثالث لهما ولا عدْلَ في ذلك إلّا بهما:

أحدُهما: لسان ناطق موصول بسَمْعك، ويدٌ مُمثّلة لِعَينك، وصَخْرة لا تُزَعزَع وبهمَّةٍ لا تُثْنَى، وبازِلٌ لا يُفْزِعه صوْتُ الجُلْجُل، نقيّ العِرْض، نَزيه النَّفس، جَلِيل الخَطَر، قد اتّضَعَتْ الدُّنيا عن قَدْره وسَما نحو الآخرة بهمّته، فَجَعل الغَرَض الأقْصى لِعَينه نُصْباً، والغَرَض الأدنى لِقَدَمه مَوْطئاً، فليس يَقْبَل عَمَلاً ولا يَتَعَدّى أملاً، وهو رأس مَواليك وأنْصَح بَني أبيك. رجل قد غُذِّي بلطيف كرامتك، ونَبَتَ

في ظلّ دَولتك، ونَشَأ على قوائم أدَبك. فإن قَلّدته أمْرَهم وحَمّلْتَه ثِقْلَهم وأسْنَدْت إليه ثَغْرهم، كان قُفلاً فتحه أمْرُك وباباً أغْلَقَه نَهْيُك. فجعل العَدْل عليه وعليهم أميراً، والإنصافَ بينَه وبينهم حاكِماً. وإذا حَكَم المنْصفَة وسلك المَعْدلَة، فأعطاهم ما لهُم وأخذ منهم ما عليهم، غرَس في الذي لك بين صُدورهم، وأسكن لك في السُّوَيْدَاء داخلَ قلوبهم طاعةً راسِخةَ العُروق، باسِقَةَ الفُروع، مُتماثِلة في حَواشي عوَامّهم، مُتَمَكّنة من قلوب خواصّهم، فلا يبقى فيهم رَيْبٌ إلّا نفَوْه، ولا يلزمهم حق إلّا أدّوه، وهذا أحدُهما.

والآخرُ: عودٌ من غَيْضتِك، أو نَبْعةٌ من أرُومَتِك، فتيّ السّن، كَهْلُ الحِلْم، راجح العقل، محمود الضَّرَامة، مأمون الخِلاف، يجَرّد فيهم سَيفَه، ويبسط عليهم خَيْرَه بقدر ما يستَحِقون وعلى حسب ما يَسْتَوْجِبون. وهو «فُلان»، أيها المهدي. فـَلْطه ـ أعَزك الله ـ عليهم ووَجّهْهُ بالجيوش إليهم، ولا تَمْنعكَ ضرَاعةٌ سِنّه وحَداثة مَوْلِده، فإن الحِلْم والثّقَةَ مع الحَدَاثةَ خَيْرٌ من الشّكّ والجَهْلِ مع الكُهولة. وإنما أحْداثُكمْ أهلَ البيت، فيما طبعكم الله عليه واختَصّكم به من مكارم الأخلاق ومحامد الفَعال ومَحاسن الأمور وصواب التدبير وصَرَامة الأنفس، كفِراخ عِتاق الطّيْر[1] المُحكِمة لأخْذ الصَّيد بِلَا تَدْريب والعارِفَة لوُجوه النّفَع بلا تأديب، فالحلم والعلم والعزم والحزم والجود والتُّؤَدَة والرّفق ثابتٌ في صُدُوركم، مَزْروع في قُلوبكم، مُسْتَحكم لكم، متكامل عندكم، بطبائعَ لازمة وغَرائز ثابتة.

قال معاوية بن عبد الله: أَفتاءُ[2] أهل بيتك، أيها المهدي، في الحلم على ما ذُكر، وأهلُ خراسان في حال عزّ على ما وُصِف. ولكن إن ولّى المهدي عليهم رجُلاً ليس بقديم الذّكْر في الجنود، ولا بنَبيه الصوت في الحروب، ولا بطويل التّجربة للأمور، ولا بمعروف السياسة للجيوش والهيبة في الأعداء، دخل ذلك أمرانِ عظيمان وخَطران مَهُولان: أحدُهما: أن الأعداء يغْتَمِزونها منه، ويحتقرونها فيه، ويجترئون بها عليه في النهوض به، والمقارعة له، والخلاف عليه، قبل الاختبارِ لأمره، والتّكشفِ لِحاله،

(١) عتاق الطير: الجوارح منها.
(٢) أفتاء: أصحاب الفتوة من الشبان، جمع فتى كيتيم وأيتام.

والعلم بطِباعه. والأمر الآخر أن الجُنود التي يقود، والجيوش التي يسوس، إذا لم يختبروا منه البأس والنّجْدة، ولم يعرفوه بالصّيت والهَيْبَة، انكسرت شجاعتهم، ومَاتت نَجْدَتهم، واستأخرت طاعتهم إلى حين اختيارهم ووقوع معرفتهم. وربما وقع البَوار قبل الاختيار. وبباب المهدي ـ وفقه الله ـ رجل مَهيب نَبيه حَنيك صَيّتٌ له نَسَب زاكٍ وصَوْت عالٍ، قد قاد الجيوش وساد الحُروب، وتألّف أهل خراسان، واجتمعوا عليه بالمِقَة[1] ووثقوا به كل الثّقة. فلو ولّاه المهدي أمْرهم لكفاه الله شرَّهم.

قال المهدي: جانَبْتَ قَصد الرمِيّة وأبَيْتَ إلّا عَصَبيّة، إذ رَأيُ الحَدَث من أهل بيتنا كرأي عَشرة حُلَمَاء من غيرنا. ولكن أين تركتم وليّ العهد؟

قالوا: لم يَمْنَعْنَا من ذكره إلّا كوْنُهُ شَبيه جدّه، ونَسيج وحْدِهِ، ومن الدّين وأهلِهِ، بحيث يَقْصُر القول عن أدنى فضله. ولكن وَجدْنا الله عزّ وجل حَجَب عن خلْقه وَسَتَرَ دون عباده، عِلْم ما تختلف به الأيام، ومعرفة ما تجري عليه المقادير، من حوادث الأمور، ورَيْب المَنون المُخْترِمة لخَوالي القُرون ومَواضي المُلوك. فكرِهْنا شُسُوعَه عن مَحلّة المُلْك، ودار السلطان، ومَقَرّ الإمامة والوِلاية، وموضع المدائن والخزائن، ومستَقَرّ الجُنود ومعدِن الجود، ومَجْمَع الأموال التي جعلها الله قُطْباً لدار المُلْك، ومَصْيَدة لقلوب الناس، ومثَابة لإخوان الطّمَع، وثُوّار الفِتن، ودواعي البِدَع، وفُرسان الضّلال، وأبناء الموت، وقُلنا: إن وجَّه المهدي وليَّ عَهْده فحدث في جيوشه وجنوده ما قد حدث بجنود الرسل من قله، لم يستطع المهديُّ أن يُعْقبهم بغيره، إلّا أن يَنْهَدَ إليهم بنفس. وهذا خَطَر عظيم وهَوْل شديد إن تنفّست الأيام بمقامه واستدارت الحال بإمامه، حتى يقع عوض لا يستغنى عنه، أو يحدث أمر لابد منه، صار ما بعده مما هو أعظم هولاً وأجل خطراً له تبعاً وبه متصلاً.

قال المهدي: الخطْب أيسَرُ مما تَذْهَبون إليه، وعلى غير ما تَصِفون الأمْرَ عليه. نحن أهل البيت نَجْري من أسباب القضايا ومواقع الأمور على سابق من العلم ومحتوم من الأمر، قد أنْبَأتْ به الكُتب ونبّأتْ عليه الرُّسل. وقد تَناهى ذلك بأ[illegible]

(١) المقة: المحبة.

إلينا وتَكامل بحذافيره عندنا، فيه نُدَبّر، وعلى الله نتوكل. إنه لابد لوليّ عهدي، ووليّ عهد عَقبي بعدي، أن يقود إلى خراسان البعوث ويتوجّه نحوها بالجنود.

أما الأول فإنه يُقدّم إليهم رسله ويُعْمِل فيهم حِيلَه، ثم يخرج نَشِطاً إليهم، حَنِقاً عليهم، يريد أن لا يَدَع أحداً من إخوان الفتَنِ ودواعي البدَع وفُرْسان الضلال إلّا تَوَطّأهُ بحرّ القتل، وألبَسَه قِنَاعَ القهر، وقلّد طَوق الذلّ، ولا أحداً من الذين عملوا في قصّ جناح الفِتْنة وإخماد نار البدْعة ونُصْرة ولاة الحقّ، إلا بما أجْرَى عليهم من ديمَ فَضْله وجدَاول نَهْله. فإذا خرج مُزْمِعاً به، مُجْمِعاً عليه، لم يَسِرْ إلّا قليلاً حتى تأتيه أن قد عَمِلَت حيَلُهُ، وكَدحتْ كُتُبه، ونَفَذَت مكايده، فهدأت نافرة القلوب، ووقَعَتْ طائرة الأهواء، واجتمع عليه المختلفون بالرضى. فيميل نظراً لهم وبرّاً بهم وتعطُّفاً عليهم، إلى عَدُوّ قد أخاف سبيلهم، وقطع طريقهم، ومنع حُجَّاجَهم بيتَ الله الحرام، وسَلَب تُجَّارَهم رِزْقَ الله الحلال.

وأما الآخرَ فإنه يوجّه إليهم، ثم تُعقَدُ له الحجة عليهم بإعطاء ما يطلبون وبذل ما يسألون. فإذا سَمحت الفِرَق بقَرَاباتها له، وجنحَ أهل النّواحي بأعْناقهم نحوه، فأصْغَتْ إليه الأفئدة، واجتمعت له الكلمة، وقدِمت عليه الوفود، قَصدَ الأول ناحية نجعَتْ بطاعتِها، وألْقت بأزمَّتِها، فألبَسها جَناح نِعْمته، وأنْزلَها ظِلّ كرامته، وخصَّها بعظيم حِبائه. ثم عمَّ الجماعة بالمَعدَلة وتعطّفَ عليهم بالرحمة، فلا تبقى فيهم ناحيةٌ دانية ولا فِرْقة قاصِية إلَّا دَخَلَت عليها بَرَكتُهُ، ووصَلَتْ إليها مَنْفَعَته، فأغنَى فقيرَها، وجبرَ كسيرها، ورفَع وضيعها، وزاد رفيعها، ماخلا ناحيتَيْنِ:

ناحيةً يَغْلِب عليها الشقاء وتَستميلهم الأهواء، فتَستخِفّ بدَعْوته وتُبطئ عن إجابته، وتَتَثَاقَل عن حَقّه، فتكون آخِرَ مَنْ يَبْعث، وأبطأ مَن يُوجه فَيصْطَلي عليها مَوْجودَه، ويبتغي لها علة لا يَلْبِث أن يَجِدَّ بحقّ يلزمهُم وأمْرٍ يجب عليهم، فَتَلْحِمهم الجيوش وتأكلهم السُّيوف، ويَتَحرُّ بهم القتْل ويُحيط بهم الأسر، ويُفنيهم التَّتبُّع حتى يُخرّب البلاد ويتيم الأولاد.

وناحيةً: لا يبسُط لهم أماناً و لا يَقْبل لهم عهداً ولا يجعل لهم ذِمَّةً، لأنهم أوّلُ من فَتح باب الفُرْقة وتَدرَّع جلْبابَ الفتنة، ورَبض في شَق العَصا، ولكنّه يَقتُل

أعْلاَمَهم ويَأسر قوَّادهم، ويطلب هُرَّابهم في لُجج البحار وقُلل الجِبال وحميل الأوْدِية وبطون الأرض تقتيلاً وتغليلاً وتنكيلاً، حتى يَدَع الديار خراباً والنساء أيامَى. وهذا أمرٌ لا نعرف له في كُتبنا وقْتاً ولا نُصَحّح منه غَيرَ ما قلْنا تفسيراً.

وأما «موسى وليّ عهدي» فهذا أوانُ تَوَجُّهه إلى خراسان وحوله بجُرْجان. وما قضى الله له من الشُّخوص إليها والمقام فيها خيرٌ للمسلمين مَغَبَّةً، وله بإذن الله عاقبة من المقام بحيث يغمر في لجج بحورنا ومدافع سيولنا ومجامع أمواجنا، فيتصاغر عظيم فضله ويتذاءب مشرق نوره، ويتقلل كثير ما هو كائن منه، فمن يصحبه من الوزراء ويختار له من الناس؟

قال محمد بن الليث: أَيُّها المهدي، إن وليّ عهدك أصبح لأُمتك وأهل مِلّتك عَلَماً قد تَثَنّتْ نحوه أعناقها ومدّتْ سَمْتُه أبصارَها. وقد كان لقُرْب داره منك ومحلّ جِواره لك، عُطْل الحال غفل الأمرْ واسِعَ العُذْر. فأما إذا انْفرَد بنفسه وخلا بنَظَره وصارَ إلى تدبيره فإن من شأن العامة أن تَتَفَقَّد مَخَارج رأيه وتَسْتَنْصِت لِمَواقع آثاره، وتَسْأل عن حوادِث أحواله في بِرّه ومَرْحَمته، وإقْساطه ومَعْدَلته، وتدبيره وسياسته، ووزرائه وأصحابه. ثم يكون ما سَبَقَ إليهم أغْلَبَ الأشياء عليهم وأمْلَكَ الأُمور بهم، وألْزَمَها لقلوبهم وأشدَّها استمالةً لرأيهم وعَطفاً لأهوائهم. فلا يفْتأ المهدي ـ وفقه الله ـ ناظراً له فيما يُقَوّي عَمد مَمْلكته ويُسدِّد أركان ولايته ويَتجمع رضاء أمته، بأمر هو أزْيَنُ لحاله وأظْهَر لجماله وأفضلَ مَغَبَّة لأمره، وأجل موقعاً في قلوب رعيته وأحمد حالاً في نفوس أهل ملّته. ولا أدفعَ مع ذلك باستجماع الأهواء له، وأبْلَغ في استعطاف القلوب عليه، من مَرْحَمة تظْهر من فعْلِهِ ومَعْدَلة تنتشر عن أثَرِهِ، ومَحَبّةٍ للخير وأهْلِهِ، وأن يختار المهدي ـ وفقه الله ـ من خيار أهل كل مِصْر أقواماً تَسْكن العامة إليهم إذا ذُكِروا وتأنس الرعيةُ بهم إذا وُصفوا، ثم تُسَهّل لهم عِمَارَة سُبُل الإحسان وفتْح باب المعروف كما قد كان فُتح له وسُهّل عليه.

قال المهدي: صدقت ونصحت.

ثم بعث في طلب ابنه موسى فقال: أي بُنَيّ، إنك قد أصْبَحَت لسْت وجوه العامة نُصْباً ولمَثْنَى أعطاف الرعية غايةً، فحَسَنَتُك شاملة وإساءتك نائبة، وأمرُك

ظاهر. فعليك بتَقوى الله وطاعته، فاحتمِلْ سُخْط الناس فيهما ولا تَطْلُبُ رِضاهُم بخلافهما. فإن الله عز وجل كافيك من أسْخَطه عليك إيثارُك رِضاه، وليس بكافيك من يُسْخِطه عليك إيثارُك رضا مَن سواه.

ثم اعلم أن لله تعالى في كل زمان فَترةً من رسله وبَقايا من صَفْوة خَلْقه وخبايا لنُصرة حقّه، يُجَدِّد حَبْل الإسلام بدعواهم ويُشَيد أركانَ الدّين بنْصرتهم، وَيتّخذ لأولياء دينه أنْصاراً وعلى إقامة عَدْله أعْواناً، يَسُدُّون الخَلل ويُقيمون المَيل، ويَدْفعون عن الأرض الفساد. وأن أهل خراسان أصبحوا أيدي دولتنا وسُيوف دَعْوتنا، الذين نَسْتَدْفع المكَاره بطاعتهم ونَصْرف نزُولَ العظَائم بمناصَحَتِهْم، ونُدَافع ريبَ الزمان بعَزَائمهم ونُزاحم رُكْن الدهر ببصائِرهم. فَهُمْ عِماد الأرض إذا أَرْجَفَتْ لُفَفُها وخوْف الأعداء إذا برزت صفحتها، وحصون الرعية إذا تضايقت الحال بها، قد مضت لهم وقائع صادقات ومواطن صالحات، أخْمَدَت نيرانَ الفِتن، وقَسَمتْ دواعي البِدَع، وأذَلّت رِقاب الجَبّارين. ولم يَنْفكُوا كذلك ما جَرَوا مع ريح دولتنا وأقاموا في ظلّ دَعْوَتنا واعتصموا بحبل طاعتنا، التي أعز الله بها ذَاتَهم ورَفَع بها ضَعَتَهم، وجعلهم بها أرباباً في أقطار الأرض وملوكاً على رقاب العالمين بعد لباس الذُّلّ وقِناع الخوف وإطباق البلَا ومُحالَفة الأسَى وجَهْد البأس والضرّ.

فظاهِرْ عليهم لِباسَ كَرَامتك وأنْزِلْهم في حدائق نعمتك. ثم اعْرف لهم حقّ طاعتهم، ووسيلة دالَّتهم، وماتّة سابِقَتهم، وحُرْمة مُناصَحتهم، بالإحسان إليهم والتَّوسعة عليهم، والإثابة لمُحسنهم والإقالة لمُسيئهم أي بُنَيّ، ثم عليك العامة فاستدْع رِضاها بالعَدْل عليها، واستجلِبْ مَوَدّتها بالإنصاف لها. وتَحَسّن بذلك لرَبّك، وتَوَثّق به في عين رعيتك، واجعلْ عُمّال العذْر ووُلاةَ الحُجَج مُقَدِّمة بين عملك ونَصَفَةً منك لرعيتك. وذلك أن تأمر قاضيَ كُلّ بَلَد وخيار أهل كل مصر أن يختاروا لأنفسهم رَجُلاً تُوَلّيه أمْرهُمْ، وتَجْعَل العدَل حاكماً بَينَه وبَيْنَهم. فإن أَحْسَنَ حُمِدتَ، وإن أساء عُذِرتَ. هؤلاء عُمّال العُذْرَ ووُلاة الحُجَج فلا يَسْقُطَنَّ عليك ما في ذلك إذا انْتشَر في الآفاق وسَبَقَ إلى الأسماع، من انعقاد ألْسِنة المُرْجِفين وكَبْتِ قلوب الحاسدين، وإطْفاء نيران الحُرُوب وسلامة عواقب الأُمور.

ولا يَنْفكّنّ في ظِلّ كرامتك نازلاً وبِعُرَى حَبْلك مُتعَلّقاً رجلان: أحدُهما كريمة من كرائم رِجالات العَرَب وأعْلام بُيُوتات الشّرَف، له أدب فاضل وحلْم راجح

ودِين صحيح؛ والآخرُ له دِين غيرُ مَغْمُوز وَمَوْضِع غير مَدْخول، بصيرٌ بتَقْليب الكلام وتَصْريف الرأي وأنْحاء العَرَب وَوَضْع الكُتُب، عالم بحالات الحروب وتصاريف الخُطوب، يَضَع آداباً نافعة وآثاراً باقية من مَحَاسِنِك وتحْسِين أمرك وتَحْلية ذِكْرك، فَتَسْتَشِيرُهُ في حرْبك وتُدْخِله في أمرك. فرَجُلٌ أصبْتَه كذلك فهو يأوي إلى مَحَلَّتي ويَرْعَى في خُضْرة جِناني، ولا تدَعْ أن تختار لك من فقهاء البُلْدَان وخِيار الأمْصار أقواماً يكونون جيرانك وسُمّارك وأهلَ مُشَاورتك فيما تُورِد، وأصحابَ مُناظَرتك فيما تُصْدِر. فَسِر على بركة الله، أصْحَبَك الله من عونه وتوفيقه دليلاً يَهْدِي إلى الصواب قلْبَك وهادِياً يُنْطِق بالخير لسانَك.

وُفُود بكّارة الهلاليّة على مُعاوية:

استأذَنَت بَكَّارة الهلالية على معاوية بن أبي سفيان فأذن لها وهو يومئذٍ بالمدينة، فدخلت عليه وكانت أسنّت وعشيَ بصرها وضعُفت قُوّتُها، تَرْعَشُ بين خادمين لها. فسلّمت وجلَست، فرَدَّ عليها معاوية السّلام وقال: كيف أنتِ يا خالةُ؟ فقالت: بخير يا أمير المؤمنين. قال: غَيَّرَكِ الدَّهر، قالت: كذلك هو ذو غِيَرٍ من عاش كبر ومن مات قُبِر. فقال عمر بن العاص: هي والله القائلة يا أمير المؤمنين:

[الكامل]

يا زيد دونك فاحتفر من دارنا سيفاً حُساماً في التّراب دفينا
قد كنت أذْخَرُهُ ليوم كريهة فالآن أبرزه الزمان مصونا

قال مَروان: هي والله القائلة يا أمير المؤمنين:

[الكامل]

أترى ابن هند للخلافة مالكا هيهات ذاك وإن أرَاد بعيدُ
مَنّتك نفسك في الخلاء ضلالةً أغراك عمرو للشّقا وسعيدُ

قال سعيد بن العاص: هي والله القائلة:

[الكامل]

قد كنت أطمع أن أموت ولا أرى فوق المنابر من أميّة خاطبا
فالله أخّر مُدّتي فتطاولت حتّى رأيت من الزّمان عجائبا

فـي كـل يـومٍ لا يـزال خـطـيـبـهُـم بـيـنَ الـجـمـيـع لآل أحـمـد عـائـبـا

ثم سكتوا فقالت: يا معاوية، كلامك أعشى بصري وقصّر حجّتي. أنا والله قائلة ما قالوا، وما خفي عليك مني أكثر. فضحك وقال: ليس يمنعنا ذلك من برّك، اذكري حاجتك. قالت: أما الآن فلا.

مناظرة السيف والقلم لزين الدين عمر بن الوردي المتوفاة سنة ٧٤٩هـ:

لمَّا كانَ السّيْفُ والقلمُ عُدَّتي العمل وَالقَوْلِ، وعمْدَتَي الدُّوَلِ، فإن عَدِمَتهُما دوْلةٌ فلا حوْل، ورُكْنيْ إسنَاد المُلْك المعربين عنِ المَخفُوضِ والمَرْفوعِ، ومُقَدِّمَتَيْ نتيجَة الجَدَل الصادِرِ عَنْهُما المحمولُ والموضوعُ، فكّرْتُ أيُّهما أعظمُ فخراً وأعلى قدْراً. فجَلستُ لهُما مجلِسَ الحَكَم والفَتْوى، ومثَّلتهُما في الفِكرِ حاضرَيْنِ لِلدّعوى، وسوّيتُ بين الخَصْمين في الإكرام، واستَظقتُ لسانَ حالِهما لِلكلامِ.

فقال القلم: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾[1] ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤﴾[2] أمّا بعدَ حمدِ الله بارِئ القلمِ ومُشرّقه بالقَسَم، وجاعلَه أول ما خَلَقَ، وجمّلَ الورَق بغُصْنه كما جَمّل الغُصْنَ بالوَرَقِ، والصلاةِ على القائلِ جفّتِ الأقلامُ، فإن القلَم قصبُ السّباقِ، والكاتبُ بسبعَةِ أقلام مِنْ طبقاتِ الكُتّاب في السبْع الطّباقِ، جرَى بالقَضاءِ والقدَر ونابَ عن اللِّسَان فيما نَهى وأمرَ. طالمَا أرْبَى على البيض والسُّمْر في ضِرابِها وطعانها، وقاتَل في البعدِ والصَّوارِمُ في القُرْب ملء أجفانِها. وماذا يُشْبهُ القلم في طاعةِ ناسِهِ ومشْيِهِ لهمْ على أُمّ رأسه؟

قال السَّيْف: بسْم الله الخافضِ الرّافِع ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ﴾[3] أمّا بعدَ حمدِ الله الذي أنْزلَ آية السّيْفِ، فعظَّمَ بها حُرمة الجرْح وآمَن خيفةَ الحيْف، والصلاةَ عَلَى الذي نَفَّذَ بالسَّيْفِ سُطُور الطُّرُوس وخدمته الأقلام ماشيةٌ على الرُّؤوس، وعلى آله وصحْبِه الذينَ أُرْهفَتْ سيُوفهم وبُنِيَتْ بها على كسْرِ الأعداءِ حُرُوفُهُمْ، فإنّ السَّيْف عظيمُ الدّوْلة شديدُ الصَّوْلةِ، محَا أسطَارَ البلاغةِ وأسَاغَ ممنوعَ الإساغةِ، من اعتَمدَ على غيرِه في قَهْرِ الأعداءِ تَعِبَ، وكيف لا، وفي حدِّهِ الحدُّ بينَ الجدّ واللّعبِ؟ فإنْ كانَ القلمُ شاهداً فالسَّيْفُ قاضٍ، وإن اقتَربتْ

(١) هود: ٤١. (٢) الشمس: ٣ ـ ٤. (٣) الحديد: ٢٥.

مُجادَلتهُ بأمرٍ مُستقبل قطعه السَّيفُ بفِعْلٍ ماضٍ، بهِ ظَهَرَ الدّينُ وهو العُدّة لقَمْعِ المُعْتدين. حمَلتْه دُونَ القلم يَدُ نَبِيِّنا، فَشَرَفَ بذَلك في الأمَم شَرفا بيّناً. الجنّةُ تَحْت ظِلَالِهِ، ولاسِيَّما حينَ يَسَلُّ فترَى وَدْقَ الدَّم يَخْرُج من خِلالِهِ. زُيّنتْ بزِينة الكَواكب سَماءُ غمْده وصدَقَ القائلُ: السَّيف أصدَقُ إنباءً من ضدّه. لا يَعْبثُ به الحاملُ ولا يتناوله كالقلم بأطرافِ الأنامِل، ما هوَ كالقلم المُشبّه بقَوْمٍ عُرُّوا عن لُبوسِهِم، ثُمّ نُكّسُوا كما قيلَ على رؤوسهمْ، فكأن السَّيف ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾﴾[1] أو كَوكَبٍ راشق، مُقَدَّراً في السَّرْدِ فهو الجَوْهرُ الفرْدُ، لا يُشرَى كالقلم بثَمنٍ بَخس، ولا يَبْلى كما يَبْلى القلم بسوَادٍ وطَمسٍ. كَمْ لقائمهِ المُنْتَظرِ من أثرٍ في عَين أو عين في أثرٍ، فهوَ في جرَاب القَوْم قِوامُ الحرب ولهذا جاءَ مطْبُوع الشّكْل داخِلَ الضّرْب.

قال القلمُ: أَوَمَنْ ينشَّأُ في الحِلْيةِ وهو في الخصام غيرُ مُبينٍ، يُفاخرُ وهو القائمُ عن الشّمال وأن الجالس على اليَمين؟ أنا المخصوص بالرَّأي وأنتَ المخصوصُ بالصّدَى. أنا آلةُ الحياةِ وأنتَ آلةُ الرّدى، وما لِنْتَ إلّا بعدَ دُخول السَّعير وما حدّدت إلَّا عن ذَنْبٍ كبيرٍ. أنت تَنفَعُ في العمرِ ساعة وأنا أفني العُمرَ في الطّاعةِ. أنت للرَّهَبِ وأنا للرَّغبِ، وإذا كانَ بَصَرُكَ حديداً فبصري ماءُ ذهب. أينَ تَقليدُكَ من اجتهادي؟ وأينَ نَجَاسَةُ دَمِك من تطهير مِدَادي؟

قال السَّيفُ: أمِثلُك يُعبّرُ مِثلي بالدّماءِ؟ فطالما أمَرتُ بعض فِراخي وهي السّكينُ، فأصبحت من النَّفاثاتِ في عُقَدِكَ يا مِسكينُ. فأخلَت مِن الحياةِ جُثمانَك، وشقّت أنفَك وقطعت لسَانك.

وَيلك! إن كنت للديون فَحَاسِبٌ مهمومٌ، أو للإنشاءِ فخادِمٌ لمخدوم، أو للبليغ فساحرٌ مذمومٌ. أو للفقيه فناقص في المعلوم. أو للشاعر فسائلٌ محرومٌ، أَو للشاهد فخائفٌ مسمومٌ، أو للمُعلّم فللحيّ القيُّوم. وأمّا أنا فلي الوجهُ الأزهرُ، والحلية والجوهرُ، والهيبةُ إذَا أُشهر، والصُّعودُ على المِنبرِ. ثم إنّي مملوكٌ كمالِكٍ، فإنَّكَ كنَاسِكٍ، أسلك الطّرائقَ وأقطعُ العلائقَ.

قال القلمُ: أمّا أنا فابنُ ماءِ السماءِ، وأليفُ الغدير وحليفُ الهواءِ. وأمّا أنت فابنُ النّار والدُّخَّان، وباترُ الأعمارِ وخَوَّان الإخوانِ. تَفصُل مالا يُفصَلُ، وتقطعُ ما

(١) الطارق: ٦.

أمرَ الله بهِ أن يُوصلَ. لا جرم شُمّرَ السّيفُ وصقُلَ قفاهُ، سقي ماءً حميماً فقُطّع مِعاهُ. يا غُرابَ البَيْنِ، ويا عُدّةَ الحَيْنِ، ويا مُعتلّ العَين، ويا ذا الوجهَين، كم أفنْيت وأعدَمتَ، وأرملتَ وأيْتَمتَ.

قال السّيف: يا ابن الطّين، ألمستُ ضامِراً وأنت بِطين؟ كم جرَيتَ بعكسٍ، وتصرَّفت في مكس، وزَوّرتَ وحرَّفت، ونكّرتَ وعرَّفتَ، وسطَّرتَ هجواً وشتماً، وخلَّدت عاراً وذماً. أبْشِر بِفرْط روعتك، وشدَّة خيفتك، إذا قستَ بياض صَحِيفَتِي بسوادِ صحيفتكَ، فألِنْ خطابَكَ فأنتَ قصيرُ المدّة، وأحسنْ جوابَك فعندي حِدّةٌ، وأقلل من غلظتِكَ وجَبهِك، واشتغل عن دَمٍ في وجهي بمِدَّة في وجهك. وإلّا فأدنَى ضَربَةٍ منّي تَرومُ أرُومتَك، فتستأصِل أصلَكَ وَتَجتثُّ جُرْثومتك. فسَقْياً لِمنْ غابَ بك عن غابِك، ورعْياً لمن أهابَ بك لسلْخ إهابك.

فلمّا رأى القَلَمُ السّيفَ قدِ احتَدّ، ألانَ لهُ من خطابهِ ما اشتَدَّ وقال: أمَّا الأدَبُ فيؤخذُ عنّي، وأمّا اللطْفُ فيُكْتَسبُ منّي، فإنْ لِنْتُ لِنْتَ، وإن أحسنتُ أحسنتَ. نَحنُ أهلُ السّمعِ والطّاعةِ، ولهذا نُجْمَعُ في الدّواةِ الواحدةِ مِنّا جماعَة، وأمّا أنتُمْ فأهلُ الحدّة والخلاف، ولهذا لَمْ يَجْمعوا بين سيفينِ في غلافٍ.

قال السّيفُ: أمكْراً ودَعوَى عِفّةٍ؟ لأمرِ ما جَدعَ قصيرٌ أنْفهُ. لو كُنت كما زَعَمتَ ذا أدَبٍ، لمَا قابلتَ رأسَ الكاتب بعُقدَة الذّنب، وأنا ذُو الصّيت والصّوْت، وغرارَي لسان مَشْرَفيّ يَرْتَجلُ غرائِب الموت. أنا من مارجٍ من نارٍ، والقلمُ من صلصال كالفخّار. وإذا زَعم القلمُ أنّه مِثلي أمَرْتُ من يدُق رأسهُ بنعلي قال القلمُ: صَهْ فصاحب السّيف بِلا سعادةٍ كأعزلَ.

قال السّيف: مَهْ فقلمُ البليغِ بغير حظّ مغزَل.

قال القلم: أنا أزكى وأطهرُ.

قال السّيفُ: أنا أبهى وأبْهر فتَلا ذُو القلم لقلمه: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾[1] فتَلا صاحِب السّيف لسيفه: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾[2]. فتَلا ذُو القلمِ لقلمه: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾[3]. قال: أمَا وكِتَابي المَسْطور، وبَيتي

(١) الكوثر: ١. (٢) الكوثر: ٢. (٣) الكوثر: ٣.

المعمور، والتّوراة والإنجيل، والقُرْآن ذي التّجيل، إن لم تَكُفّ عنّي غرْبك، وتُبْعد مِنّي قُرْبَك، لأكتُبَنّك من الصُّمّ البُكمِ، ولأُسَطّرنّ عليك بقلَمِي سِجلاً بهذا الحُكم.

قال السّيفُ: أمَا ومتني المَتين، وفَتحي المبين، ولسانيَّ الرَّطبين، ووجهيَّ الصُّلبين، إن لم تَغِب عَن بياضي بسوادك، لأَمْسَحَنّ وجهك بمدادك، ولقد كسّبتَ من الأسَد في الغابة، تَوقيحَ العين والصَّلابةَ، مع أني ما ألوتُكَ نصحاً، أفَنضربُ عنكم الذّكرَ صفحاً؟

قال القلم: سَلم إليّ مع من سَلَّم، إن كنت أعلى فأنا أعلم، وإن كنت أَحلى فأنا أحلمُ، وإن كنتَ أقوى فأنا أقومُ، أو كنتَ ألوى فأنا ألوَمُ، أو كنتَ أَطْرى فأنا أطْرَبُ، أو كنتَ أغلى فأنا أغلبُ، أو كنتَ أعْتَى فأنا أعتبُ، أو كنتَ أقضى فأنا أقضبُ.

قال السَّيفُ: كيف لا أفضلُك والمَقَرُّ الفُلانيُّ شَادُّ أزري؟

قال القلمُ: كيف لا أفْضلُك وهو عزَّ نَصرُه وليُّ أمري؟

قال الحَكَمُ بين السَّيفِ والقلم: فلما رأيْت الحُجّتَين ناهضتين، والبيّنتين بَيّنتين مُتعارضَتين، وعلمتُ أنّ لكل واحد منهما نِسبةً صحيحةً إلى هذا المَقَرّ الكريم، وروايةً مُسندةً عن حديثه القديم لَطّفْتُ الوسيلةَ، ودَقّقت الحِيلةَ، حتى رددتُ القلمَ إلى كِنّهِ، وأغمدتُ السّيفَ فنام ملء جَفْنهِ. وأخّرْت بينهما التَّرجيحَ، وَسَكَتُّ عمَّا هو عندي الصّحيحُ، إلى أن يحكم المقَرُّ بينهما بِعلمه، ويُسَكّنَ سورة غضبهما الوافر ولجاجِهما المَديد ببسط حلمِهِ.

مناظرة للآمدي بين صاحب أبي تمام وصاحب البحتري:

صاحب أبي تمّام: كيف يجوز لقائل أن يقول إنّ البُحتريّ أشعر من أبي تمّام، وعن أبي تمّام أخذ وعلى حَذْوه احتذى ومن معانيهِ استقى، حتى قيل الطائي الأكبر والطائيُّ الأصغر.

صاحب البُحتري: أما الصّحبة له فما صحبه ولا تلمذَ له ولا روى ذلك أحد عنهُ، ولا نقله ولا رأى قطّ أنهُ محتاج إليهِ. ودليل ذلك الخبرُ المستفيض من اجتماعهما وتعارفهما عند (أبي سعيد محمد بن يوسف الثَّغري) وقد دخل عليهِ البُحتري بقصيدته التي أوّلها:

أفـاقَ صـبّ مـن هـوى فـأفـيـقـا

[الكامل]

وأبو تمام حاضرٌ. فلما أنشدها عَلقَ أبو تمّام منها أبياتاً كثيرة. فلما فرغ من الإنشاد أقبل أبو تمام على محمد بن يوسف فقال: أيها الأمير ما ظننت أن أحداً يُقدم على أن يسرق شعري ويُنشده بحضرتي حتى اليوم. ثم اندفع ينشد ما حفظه حتى أتى على أبيات كثيرة مِن القصيدة. فبُهت البُحتري ورأى أبو تمّام الإنكار في وجه أبي سعيد. فحينئذٍ قال له أبو تمّام: أيها الأمير، والله ما الشَّعرُ إلا له، وإنهُ أحسن فيه الإحسان كلّه. وأقبل يقرّظه ويصف معانيه ويذكر محاسنه ولم يقنع من محمد بن يوسف حتى ضاعف له الجائزة.

فمن كان يقول مثل هذه القصيدة التي هي من عين شعره وفاخر كلامه قبل أن يعرف أنَ تمام، جديرٌ به أن يستغني عن أن يصحبَهُ أو يتتلمذ له أو لغيره من الشّعراء. على أنني لا أنكر أنهُ استعار بعض معاني أبي تمّام لقرب البلدين وكثرة ما كنا يطرق سمع البُحتري من شعره. وليس ذلك بمقتض أن يكون أبو تمام أستاذ البُحتري، ولا بمانع أن يكون البُحتري أشعرَ من أبي تَمام. فهذا «كُثَيّر» قد أخذ من «جَميل» واستقى من معانيه، فما ر أينا أنَّ أحداً قال: إنَّ «جميلاً» أشعرُ منهُ، بل هو عند أهل العلم بالشّعر والرّواية أشعرُ من جميل.

صاحب أبي تمّام: إنّ البُحتري نفسه يعترف أن أبا تمّام أشعرُ مِنهُ. فقد سُئل عنه وعن أبي تمَّام فقال: إن جيّده خيرٌ من جَيّدي وجيّدُ أبي تمّام كثيرٌ.

صاحب البُحتري: إن كان هذا الخبر صحيحاً فهو للبُحتري لا عليه لأن قوله هذا يدلُّ على أنَّ شعر أبي تمام كثير الاختلاف وشعرَهُ شديد الاستواء، والمستوي من الشّعرِ أولى بالتّقدمة من المختلف من الشّعرِ. وقد اجتمعنا نحن وأنتم على أنّ أبا تمام يعلو علواً حسناً وينحطُّ انحطاطاً قبيحاً، وأن البُحتري يعلو بتوسّط ولا يسقط، ومن لا يسقط ولا يُسفّ أفضل ممن يسقط ويسفّ.

صاحب أبي تمام: إنَّ أبا تمام انفرد بمذهب اخترعه وصار فيه أوّلاً وإماماً متبوعاً وشهر به، حتى قيل هذا مذهب أبي تمام، وطريقة أبي تمام، وسلك الناس نهجه واقتفوا أثره وهي فضيلة عَرِي عن مثلها البُحتري.

صاحب البُحتري: ليس الأمرُ على ما وصفت، وليس أبو تمام صاحبَ هذا المذهب ولا بأول فيه ولا سابق إليه، بل سلكَ فيه سبيل مُسْلم بن الوليد واحتَذَى حَذْوهُ، وأفرطَ في ذلك وأسرفَ حتى زالَ عن النّهج المعروف وسُنَنِ المألوف. بل إنّ مُسْلماً غيرُ مُبتَدع له، ولكنه رأى هذه الأنواع التي وقع عليها اسمُ البديع مُتفرّقة في أشعار المتقدمين، فقَصَدها وأكثر في شعره منها، ولكنهُ حَرص على أن يضعها في مواضعها. ولم يَسلم مع ذلك من الطّعن عليه حتى قيل إنهُ أوّل من أفسد الشعرَ. فجاء أبو تمام على أثره واستحسن مذهبه، وأحبّ أن يجعل كل بيتٍ من شعره غير خال من هذه الأصناف، فسلك طريقاً وعراً واستكره الألفاظَ والمعَاني استكراهاً، ففسد شعره وذهبت طَلاوته ونَشف ماؤه. فقد سقط الآن احتجاجكم باختراع أبي تمام لهذا المذهب وسبقه إليه. وكلُّ ما في المسألة أنهُ استكثر منهُ وأفرط، فكان إفراطهُ فيهِ من أعظم ذُنوبه وأكبر عيُوبه.

أما البحتري فإنه ما فارق عمودَ الشعر وطريقته المعروفة على كثرة ما جاء في شعره من الاستعارة والتجنيس والمُطابقة، فكان انفرادُهُ بحسن العبارة وحَلاوة اللّفظ وصِحّة المعنى والبعد عن التّكلف والتّعمل، سبباً في إجماع الناس على استحسان شعره واستجادته وتداوله. ونَفَاقُ شعر الشاعر دليلٌ على علوّ مكانتهِ واضطلاعه بما يلائم الأذواق، ويُلامس القلوب من أساليب الكلام ومنَاهجه.

صاحب أبي تمام: إنّما أعرض عن شعر أبي تمام مَنْ لم يفهمه لدِقّة معانيه وقُصور فهمهِ عنه. أما النُقّاد والعلماء فقد فهموه وغرفوا قدره، وإذا عرفت هذه الطّبقة فضيلته لم يضُرّه طعْنُ مَنْ طعنَ بعدها عليه.

صاحب البُحتري: لا يستطيع أحدٌ أَن يُنكر منزلة ابن الأعرابي وأحمد بن يحيى الشّيباني ودُعبل بن الخزاعي من الشعر ومنزلتهم من العلم بكلام العرب. وقد علمتم مذهَبهم في أبي تمام وازدِراءهم بشعره حتى قال دُعبل: إن ثُلث شِعره محال[1] وثلث مسروق وثلث صالح، وقال: ما جعل الله أبا تَمّام من الشّعراء، بل شعره بالخطب والكلام المنثور أشبه منه بالشعر. وقال ابن الأعرابي في شعر أبي

(١) المحال: الفاسد.

تمام: إن كان هذا شعراً فكلام العرب باطلٌ. وهذا محمد بن يزيد المبرِّد ما علمناه دوّن له كبيرَ شيءٍ.

صاحب أبي تمام: إن دعبلاً كانَ يشنأ أبا تمّام ويحسده على ما هو معروف ومشهورٌ فلا يقبل قول شاعر في شاعر. وأما ابنُ الأعرابي فكان شديدَ التَّعصُّب عليهِ لغرابة مذهبِهِ، ولأنهُ كانَ يرِدُ عليه من معانيهِ مالا يفهمهُ ولا يعلمهُ. فكان إذا سُئل عن شيء منها يأنف أن يقول لا أدري فيعدل إلى الطّعن عليهِ. ولا مانع أَن يكون جميع من تذكرونه على هذا القياس.

صاحب البُحتري: لا عيب على ابن الأعرابي في طعنهِ على شاعر عدل في شعره عن مذاهب العرب إلى الاستعارات البعيدة المُخرجة للكلام إلى الخطأ والإحالة. والعيبُ في ذلك يلحق أبا تمام إذ عدل عن المحجّة إلى طريقة يجهلها ابن الأعرابي وأمثاله من المضطلعين بالسليقة العربية.

صاحب أبي تمام: إن العلم في شعر أبي تمام أظهر منه في شعر البُحتري، والشاعر العالم أفضل من الشاعر غير العالم.

صاحب البحتري: كان الخليل بن أحمد عالماً شاعراً، وكان الأصمَعِي شاعراً عالماً، وكان الكسائي كذلك، وكان خلف بن حيّان الأحمر أشعرَ العلماء، وما بلغ بهم العلم طبقةً من كان في زمانهم من الشُّعراء غيرِ العلماء. والتّجويدُ في الشعر ليست علّتهُ العلم. والشائع المشهور أنّ شعر العلماء دون شعر الشُّعراء. وقد كان أبو تمام يعمل على أن يدل في شعره على علمه باللغة وكلام العرب.

أما البُحتري فلم يقصد هذا ولا اعتمده، ولا كان يعدّه فضيلةً ولا يراه علماً. بل كان يرى أنه شاعرٌ لابدَّ له أن يقرّب من فهم سامعه، فلا يأتي بالغريب إلّا أن يتّفق له في اللفظة بعد اللفظة في موضعه من غير طلبٍ له ولا حرص عليهِ. على أن هذا العلم الذي تُؤثرون بهِ أبا تمام لم ينفعهُ فقد كان يلحن في شعره لحناً يضيقُ العذرُ فيه، ولا يجد المتأوّل له مخرجاً منه إلَّا بالحيلة والتَّحمل الشديد.

صاحب أبي تمام: لسنا نُنكر أن يكون صاحبُنا قد وهِم في بعض شعره وعدل عن الوجه الأوضح في كثير من معانيهِ. وغير غَريب على فكر نَتج من المحاسن ما

نتج، وولَد من البدَائع ما وَلَد، أن يلحقهُ الكلال في الأوقات والزللُ في الأحيان. بل من الواجب لمن أحسن إحسانَهُ أن يُسامَحَ في سهوه ويُتجاوز له عن أخطائه. وما رأينا أحداً من شعراء الجاهلية سلم من الطَّعن، ولا من أخْذ الرّواة عليهِ الغلطَ والعيب. وكذلك ما أخذتهُ الرّواة على المحدثين المتأخرين من الغلط والخطأ. واللّحن أشهر من أن يحتاج إلى أن نبرهنَهُ أو ندلّ عليهِ، وما كان أحدٌ من أولئك ولا هؤلاء مجهول الحق ولا مجحود الفضل، بل عفا إحسانهم على إساءتهم وتجويدهم على تقصيرهم.

صاحب البحتري: أما أخذ السّهو والغلط على من أخذ عليهم من المتقدمين والمتأخرين ففي البيت الواحد والبيتين والثلاثة. أما أبو تمام فلا تكاد تخلو له قصيدة واحدة من عِدّة أبيات يكون فيها مفسداً أو مُحيلاً أو عادلاً عن السّنن، أو مستعيراً استعارةً قبيحة، أو مخطئاً للمعنى بطلب الطّباق والتَّجنيس، أو مبهماً يسوء العبارة والتَّعقيد حتى لا يُفهم ولا يوجد له مخرج.

صاحب أبي تمام: إنكم تنكرون على أبي تمام من الفضل ما يعترف به البُحتري نفسه، فقد رثَاه بعد موته رثاءً اعترف فيهِ له بالسّبق وفضَّله على شعراء عصره.

صاحب البحتري: لمَ لا يفعل البحتري ذلك وقد كان هو وأبو تمام صديقين مُتحابين وأخوين متصافيين يجمعهما الطَّلب والنَّسب والمكتب، فليس بمنكر ولا غريب أن يشهد أحدهما لصاحبه بالفضل ويصفهُ بأحسن ما فيهِ ويَنحله ما ليس فيهِ، على أن الميت خاصة يُعطى في تأبينه من التَّقريظ والوصف وجميل الذّكر أضعاف ما كان يستحقّهُ.

صاحب أبي تمام: كيفما كان الأمر لا تستطيعون أن تدفعوا ما أجمع عليه الرُّواة والعلماء أن جيد أبي تمام لا يتعلق بهِ جيد أمثاله. وإذا كان جيده بهذه المكانة، وكان من الممكن إغفال رديئه واطّراحه كأنه لم يقله، فلا يبقى ريب في أنه أشعر شعراء عصره والبُحتري واحد منهم.

صاحب البحتري: إنما صار جيدُ أبي تمام موصوفاً ومذكوراً لِنُدرته ووقوعه في تضاعيف الرّديء فيكون له رونق وماء عند المقابلة بينه وبين ما يليهِ. وجيد البُحتري كجيد أبي تمام إلا أنه يقع في جيدٍ مثله أو متوسط فلا يفاجئ النفس منه ما يفاجئ من جيّد صاحبه.

مناظرة بين الليل والنهار لمحمد أفندي المبارك الجزائري:

لما أسفر النهار عن بياض الغُرَّة قابله الليل بسواد الطُّرة، ثم صار الهزْل جَداً واشتدّ النزاع بينهما جِدّاً، فاستنجد كلٌّ منهما أميرَه وأفشى له سرّه وضميره، وإذا بالليل حمَلَ على النّهار فصبغَ حُمْرَة ورْدتِه بِصُفرة البَهار، وخطَرَ يجرُّ ذُيول تيهه وعُجبه مُرصّعاً تيجان مَفَاخره بدُررِ شُهبه. ثم قال: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١﴾[1] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ۝٢٦﴾[2]. ففتح باب المناقشة في هذا الفصل، وعقد أسباب المنافسة بِقوله الفَصْل «فإن الحرب أولُها كلام»، ثم تنجلي عن قتيل أو أسير بكلام. ولما بَلَغَ الليل غايتَه بَزَغَ الفجر ورَفَعَ رايتَه، وقال إذْ جال في مُعتَرَك المنايا: «أنا ابن جَلَا وطَلَّاع الثَّنايا». فتقدّم في ذلك الميدان وجَلّى تَالياً قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾[3]، ثمّ استوى على عرش السّنا والسناء، وأطلع شُموس طلعته في الأرض والسماء، فأعْرَبَ عن غوامض الرقائق والحقائق، وأغرَب في نَشر ما انطَوى من الأسرار والدقائق. وما انحدر من مِنبره حتى أيّد دعوى خَبرِه بشاهد مَخبره. فانتدب إليه «الليل» ومال عليه كلّ الميل وقال: أحمَدُ مَنْ جعلني خلوة للأحباب وجلوة لعرائس العرفان ونفائس الآداب، وخلَقني مثوَى لراحة العباد ومأوَى لخاصّة النُسّاك والعُبّاد. ولله درُّ من قال فأجاد:

[الخفيف]

أيُّها الليل طُل بغير جُنَاح ... ليس للعين راحةٌ في الصباحِ
كيف لا أبغض الصَّباح وفيه ... بَان عَنّي نور الوجوه الصِّباحِ

أَتَرَدّدُ على أرباب المجاهدة بفنون الغرائب، وأتودّدُ إلى أصحاب المشاهدة بعيون الرغائب. تدُور في ساحتهم بدورُ الحسن والبَهاء وتُدَارُ من راحتهم كؤوس الأنس والهناء، فَتُحيّيهم نغمات السَّمَر وتُحْييهم نسمات السّحر فأحيانُ وصلي بالتَّهاني مُقمرةٌ وأفنان فضلي بالأماني مُثمرةٌ. وحسبي كرامة أنّي للناس خير لباس أقيهم بلطف الإيناس من كل باس، ومَن واصَل الإدلاج وهجرَ طيبَ الكرَى قيل له: «عند الصباح يحمد القومُ السُّرَى».

---

(١) الليل: ١. (٢) النازعات: ٢٦. (٣) الليل: ٢.

[الطويل]

وما الليلُ إلا للمُجِدّ مَطيّةٌ ومَيدانُ سبقٍ فاستبق تبلغ المُنَى

ففتن بمعاني بديعه، البديع وتفنّن في أفانين التّصرْيع والتّرْصيع. ثم أتمّ خطبته بالتماس المغفرة والعفو، واستعاذ بالله من دَواهي الغفلة ودواعي اللّهو.

فوثب إليه النهار وصال عليه صَولَة ملك قهّار، وصَعدَ على منبره ثانياً وقد أضحى التّيهُ لِعَطْفِهِ ثانياً. فأثنى على مَنْ جَلّى ظُلمةَ الحجاب وتَحلى له باسمه النُّور وتَوَّجَهُ بسورَة من الكتاب، وزانه بأبْهى سراج وهّاج فأوضح بسناه السّبيل والمنهاج. ثم صاح: أيها الليل هلا قَصَّرت من إعجابك الذّيل. ولئن دَارت رَحى الحرب واستعرَت نار الطّعن والضَّرب، فَلأَسبِيَنّ مخدراتك وهي عن الوجوه حاسرة وأنت تتلو يومئذٍ ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾[1]. فما دعاك إلى حَلْبة المُفاضلة، وما دهاك حتى عرّضت بنفسك للمناضلة؟ وهل دأبك إلا الخِداع والمكْر وترقّب الفرصة وأنت داخل الوكر؟ أما حَضّ القرآنُ على التعوّذِ ﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾[2] وندب ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾[3] فبربّي يستعاذ من شرِّك ويستعان على صنوف صروف غَدْرك. وهَبْ أنك تجمع المحبّ بالحبيب إذا جار عليه الهوى وحار الطبيب، فكم يقاسي منك في هاجرة الهَجْر ويئن أنِين الثّكلى حتى مطلع الفجر؟

[الطويل]

يبيتُ كما بات السليمُ مُسهّدا وفي قلبِهِ نار يَشبُّ لها وَقدُ

فيساهر النجوم ويساور الوُجوم وقد هاجت لواعج غرامه وتحركت سواكن وجده وهُيامه. فأنشد وزفيره يَتَصَعَّد:

[الكامل]

أَقضي نهاري بالحديث وبالمُنَى ويَجمعُني والهمُ بالليل جامعُ

نهاري نهار الناس حتى إذا بدا ليَ الليلُ هزّتني إليك المضاجعُ

على أن العاشق الواله يشكو منك في جميع أحوالِهِ. فكم قطع آناءَك بمواصلة أنينه متململاً من فرط شوقه وحنينه، فلمَّا أن حُظيَ بالوصال تمثل بقول من قال:

---

(١) النازعات: ١٢. (٢) الفلق: ١. (٣) الفلق: ٢ ـ٣.

[البسيط]

الليلُ إن واصَلَتْ كالليل إن هَجَرَتْ أشكو من الطُّول ما أشكو من القِصَرِ

ولئن افتخرتَ ببدرك الباهر الباهي، فإنما تُباري ببعض أنواري وتباهي. وهل للبدْر عند إشراق الشّمس من نور، أو لطلعة حسنه من خدور البطون ظهور؟ ومَن ادّعى أنك تساويني في الفضل والقدْر، أو زَعَم أن الشمس تقتبس من مِشكاة البدر؟ ومتى استمدّت الأصول من الفُروع؟ «وما أغنى الشُّموسَ عن الشموع»! فبي تنجلي محاسنُ المظاهِر الكونيّة، وتتحَلّى بجواهر الأعراض اللّوْنية. وأنّى يخفَى حسني وَجَمالي على مُشاهد، أو يفتقرُ فضلي وكمالي إلى شاهد، وعِرضي عارٍ عن العار وجميعُ الحسن من ضيائي مُستعار.

[الوافر]

وليس يصحُّ في الأذهان شيءٌ إذا احتاج النَّهار إلى دليل

أما كفاك بيّنةٌ وزادك ذكرى وتبصرة قوله تعالى: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾(١) و﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾(٢) وأين منزل أهل الغفلة من منزل أهل اليقظة والحضور؟ وإن كنت مَغْنَى الأُنس والأفراح تَفعل بعقول الناس فعل الرّاح، فهل حسبت أن السُّكون خير من الحركة وقد أجمع العالم على أن «الحركة بَرَكة»؟ فإن لي بكل خطوة حظوة وليس لجوادي كبوةٌ ولا لِصارمي نَبوة وإن صرّحْتَ للذين يبيتون لربّهم سُجدّاً وقياماً معرّضاً بكل غافل لاه في كل مجالٍ ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾(٣) وأين من احتجب بظلمات بعضها فوق بعض، ممنْ أضحى ينظر بِعين الاعتبار وفي ملكوت السموات والأرض؟ وقد أتحفني الله بالصّلاة الوُسطى فأوتر بها صلواتي، وشَرع فيها الإسرارَ لأسرار اختصّتْ بها أهل جلوَاتي. وكفاني شرفاً ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾(٤) فمآثري مأثورةٌ في القديم والحديث، ومَفاخِري منثورَةٌ في الكتاب والحديث، ومحاسني واضحةٌ لأولي الأبصار، وهل تخفَى الشّمس في رابعة النَّهار؟

---

(١) الإسراء: ١٢. (٢) الرعد: ١٦. (٣) النور: ٣٧.
(٤) البقرة: ١٨٥.

فاكفُفْ عن الجدال وأمْسِك ولا تجعَل يوْمَك مثل أمْسك. وسالِمْ مَنْ لَيس لك عليه قُدرَة فقد قيل: «ما هلَك امرُؤ عَرَف قَدْرَه». أقول قوْلي هذا وأستغفِرُ الله من آفة العُجْب والكِبرياء.

ولمّا ٱنهارَ رُكن النهار، ابْهارَّ الليل وتبرْقعَ بالاكْفِهْرار، فَسدّ ما بين الخافقين بسَواده، وطَفِقَ يَرْمي بسهام جداله في جلاده، وقدّم بين نجواه سورة القَدْر، آية على ما حازه من كمال الرّفعة والقَدْر، وثنّى بقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾[1] فأشار إلى الحبيب حين تجلّتْ له قُرّة عينه ليلاً، ثُم قال: سُحْقاً لك أيها النهار فقد أسّسْتَ بُنْيانك على شَفا جُرُف هارٍ تُناضِلُني، ومِنّي كان انسلاخُك وظُهورك وتُفاضلني، وبي أُرّخَتْ أعوامُك وشهورُك. ألم يأنِ لك أن تخشع للذّكر[2] فتعترِف لي برُتبة التّقديم في الذّكر[3] وكيف تُعيِّرني بلون السّواد، وهل يَقبُح السّواد إلا في الفؤاد؟ أم كيف تَعيبُني بالخداع «والحرْب خُدْعة» وليس الشيء في موْطنه بغرِيب ولا بِدْعة. أما تشهد العوالِم من هيبتي حيَارَى ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾[4]. فكم أرّقتُ[5] ملوكاً أكاسرة وأرَقتُ[6] دماء أُسودٍ كاسرة! وكم أوْرَيتُ نار الوَغى تحت العَجَاج وقد ٱزورَّت اللّحاظ واغبرّت الفِجاج! فأنا البطل الذي لا يُصطَلى بناره ولا يأخذُ منه الموْتورِ بثأره. وافتخارك علي بالصّلاة الوُسطى ليس إنصافاً منك ولا قِسْطاً، وهبْ أنك انفرَدتَ بتلك الصلاة الجليلة فأين أنت مما أُوتيته من الصّلات الجزيلة؟ أما كان افتراض الصّلاة في ليلة العروُج فما بالُك تدّعي الارتقاء إلى هذه البُرُوج؟

[الطويل]

وما أعجَبَتْني قطّ دعوى عَرِيضة ولو قام في تصديقها ألفُ شاهِد

وأمّا افتخارك عليّ بفضل شهر رمضان وما نزل فيه من السّبع المثاني والقرآن، فهل صحّ لك صيامه إلا بي بَدْءاً وختاماً وقد تميزّتُ عليك بفضيلة إحيائه تَهَجُّداً وقياماً؟ على أني محلّ النّيَّة «ونيّة المرء خير من عمله» لأنها بمثابة الرّوح له وبها

(١) الإسراء: ١. (٢) الذكر: القرآن. (٣) الذكر هنا: الشرف.
(٤) الحج: ٢. (٥) أرّقت: أسهرت. (٦) أرقت: أسلت.

يحظى الرّاجي ببلوغ أمله. هذا وإني أتكفّل للصّائم بمد يد الرّاحة ووافر الأجر حتى يتبيَّن له الخيْطُ الأبيض من الخيط الأسوَد من الفجر. وكيف تفتخر بالكتاب المنزّه في مزاياه عن المشاركة، والله تعالى يقول فيه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾[1] وهل في مطالع سُعودك أشرقت بدور العيْدين، أم على جَناح جنْحِك أُسْريَ بنور طلعة الكونين، ثم عُرج به عليه الصلاة والسلام إلى منزلة قاب قوْسين؟ وهل في تجلّيات أسحارك يقول الرّبّ: هل من سائل؟ فيُناجيه العبد متضرّعاً إليه بقلبٍ خاشع ودمع سائل.

ومما اختصصتُ بهِ من الفضائل والمفاخر أنه في دولتي وُلدَ سيّد الأوائل والأواخر وناهِيكَ بليالي شهر الله رجب وكيف لا! وفي طالِعها السّعيد حملت آمنة بسيّد العجَم والعرب.

فطلع النهار طلوع الأسد من غابه، وكسّر جيوش الدُّجى حين كشّرَ عن نابه، وشَمّرَ للحرب العوان غيرَ ناكلٍ ولا وَانٍ، ناشراً في الأُفق رايته البيضاء وأسِنّته لامعة بين الخَضْراء والغَبراء، وقال: والذي كساني حُلَل الملاحة وأطلق لساني بالبلاغة والفصاحة، لأمْحُونّ سطور الدُّجى من طُروس الوُجود، ولأُثبِتَنّ حسن أحوالي في مقامات أهل الشُّهود. فإني معرُوفٌ بالوَفاءِ وصدق الخبر موصوف بالصّفاء الذي لا يشوب صفوَه كدر. كيف يُباهيني «الليل» بمكارم الأخلاق ومحاسن الشّيم، وأنا أتحدّث بنعم الله وهو موسوم بكُفران النّعم؟ ألسْتُ مَظهرَ الهداية والدّلالة وهو مَظهر الغواية والضلال؟ فكم أرْشدْتُ من أضلّه وأعزَزْتُ مَنْ أهانه وأذلّه! وكم أظهْرتُ منه عيباً كان غيباً فابْيَضّتْ عَيْنُهُ حزناً ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾[2].

[المتقارب]

ومَنْ جَهَلَتْ نفسُهُ قدرَه رأى غيرُهُ منه مالا يَرَى

وكيف يزعمُ هذا العبد الآبق أنه لسيِّده في حَلْبة الشرَف سابق وقد قال الواحد القهار ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾[3]. إن هو ـ وايْمُ الله ـ إلا كافر وبشموسِ أنوار الشهادةِ غيرُ ظافر. لو كان من السُّعداءِ لفاز بدارِ النّعيم، ولولا شقَاؤه لما شابَهُ

(١) الدخان: ٣. (٢) مريم: ٤. (٣) يس: ٤٠.

سوادُ طبَقات الجحيم. وماذا يُؤمّله من الجزاء ويَرجوه ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾[1] أما دَرى أن صحيفته سوْداء مُظلمة وصحيفتي تُفْصِح عن نَفْس مؤمنة بالله مُسلِمة؟ وأنى يرَقى كتابُهُ إلى عِليين وهو من ظلمات الحجاب في سِجّين. ثم أقبل عليه وأنشد مشيراً إليه:

[السريع]

يا مُشبِهاً في فعله لَوْنَه لم تَعْدُ ما أوْجبتِ القِسْمَهْ
خُلقك من خَلْقك مُسْتَخْرَجٌ والظُّلمُ مُشْتقٌّ من الظُّلْمَهْ

وقال: كيف تدّعي فوق حالك، وأيُّ فضل لمَن مَنْظرُهُ أسوَد حالِك؟ أما علمت أم الظّاهر للباطن عُنوان، كما أن اللّسان عن الجنان ترْجُمان؟ قال أفضل الخلق: «**ابتَغُوا الخيرَ عند حِسان الوُجوه**»، وقال الشاعر:

[المنسرح]

لا تَسْأل المرءَ عن خَلائِقِهِ في وَجهِهِ شاهدٌ من الخَبَر

فأنا مفتاح خزائن الأرزاق، وبي يُستفتح بابُ الكريم الرّزّاق. وكفاني دليلاً على الفضل والكمال «إن الله تعالى جميلٌ يُحبُّ الجمال». لقد سمِعتُ أقاويلك التي قدّمتها بين يديك وزَعمتَ أنها حجّة عليك[2]، ولا جَرَمَ أن «لسانَ الجاهلِ مِفتاحُ حَتْفِهِ وكم من باغ قتل بصارم بَغيه وحتفه». أما انسلاخي منك فمن أملح المِلَح لي والغُرَر وهل تَحقُّ لأصناف الأصداف أن تُنافِس نفائس الدُّرر؟ أليسَت «تَلِدُ الأمةُ رَبّتَها حرّة نجيبة»؟. وقد قالوا: «إن اللّيالي حَبالى يلِدْنَ كل عَجيبة». وأمَّا تقدُّمك علَيّ فمِن العادة تقدُّم الخدم بين يدي السّادة.

[الكامل]

أو ما ترى أن النبيّ محمداً فاقَ البريّة وهو آخِرُ مُرْسَل

على أنه «أوّلُ ما خلَقَ الله النور» كما وَرد عن جابر في خبره المأثور.

وأمّا تَحلي صفوَتك بتجلّي الحقّ تعالى في السَّحر، فليس إلا لمن أحيا أحيانك بالمجاهدة والسّهر. وأمّا زهوك بقصّة ظهور سيد ولد آدم الذي هو نتيجة مقدمات

(١) آل عمران: ١٠٦.

(٢) هكذا بالأصل، والأصح أن يقال: وزعمت أنها حجة لك مع أنها حجة عليك.

الكون وزبدة العالم، فهل وقع اتّفاق الرواة على ذلك؟ وأنى لك هذا وصبح طلعته يمحو سوادك الحالك؟ وأما خبر الإسراء فعنّي روته الأمّة[١] ثم بلغه الشاهد للغائب بعد أمة[٢]، فما لاحت أسراره إلا بمطالعي ولا زاحت أستاره إلا بِطوالعي. وما أشرت إليه من بقيّة معانيك التي أضاءت بها في الخافقين نجوم معاليك، فأنت أين من يوم عرفة الذي عرفه بأبهى الخصائص من عرفه؟ وأين أنت من يوم عاشوراء الذي يعظم فيه الشكر والصبر على السراء والضّراء؟ وناهيك بسمو شأن العيدين فما أجلها من موسمين سعيدين؟ وكيف تفاخرني بساعة تبدو منك مرة في كل عام، ولي في كل أسبوع أمد تمتدّ فيه موائد الجود والإنعام؟ فأخبار أخياري سارت بها الركبان وماست بنسيم رقتها معاطف البيان، وقدري فوق ما تصفه الأسن وعندي ﴿مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾[٣]. فدع عنك قول الزّور والمين «فقد بين الصّبح لذي عينين».

ولما أفاض النهار في حديث يُفضح الأزهار، أبدع في كنايته وتلويحه، وأعرب في تعريضه وتصريحه، ابتدَرَ إليه الليل وأجلَب عليه بالرَّجل والخيلِ، وامتطى جوداه الأدهم واعتَمَّ بعمامةٍ سوداءَ وتَلثّم، فأنسَى بفَتكاته عَنْتَرَة بني عَبس حين أَمسى يتوعَّد عمارة بالقتل والرّمس. ثم نشرَ في الأفُق ذوائبه السُّود وعبس وبسر فأسر بسطوته الأسود، وقال: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾﴾[٤] لأسبيَنَّ رُوميّ النهار ولأجعلَنَّهُ عِبرة لذوي الاعتبار. فلقد تَزَيَّا المملوك بزي الملوك، وادَّعى مقام الوُصول إلى صاحب السّير والسُّلوك. أما كفاه ازدِرائي وتحقيري حتى حكَم بتضليلي وتكفيري؟ كم أسبَلتُ على عوْراته ذيلَ سِترِي وهو لا يُبالي بهتك أستاري؟ وكم أوْدعتُ مكنون سِرّه في خِزانة سرّي وهو يبوح بمصون أسراري؟ أُفّ له من فاضح، أما يكفيه ما فيه من المفاضح؟

[الطويل]

أنَمُّ بما استَوْدَعْتُهُ من زُجاجةٍ يُرَى الشّيءُ فيها ظاهراً وهو باطِنُ

كيف احتَجَّ لتقدُّمه بحديث جابر مع أن ما رَواه لِكسْرى أعظمُ جابر؟ فإنه برهَنَ على تقدُّمي عليه لو أدرَك سِرَّ ما أومأ إليه. وعَلَامَ جَعل السّواد على النقص علامة،

(١) الأمة: أهل الدين. (٢) الأمة: الحين من الدهر، أي: مدة أو وقت.
(٣) الزخرف: ٧١. (٤) الانشقاق: ١٦ ـ ١٨.

وهو مُشْتَقٌّ من السؤْدَد لَدى كلّ عَلَّامة؟ أما دَرَى أني حُزْتُ من الكمال الحظّ الأوْفر، حتى تحلَّى ببديع وَصْفي العنبرُ والمِسْكُ الأذفُر:

[البسيط]

إن كنتُ عبداً ففي حُرّةٌ كرَما أو أسوَد الخَلْق إني أبيض الخُلُق

وهل يُزْرِي بالخال سوادهُ البارع؟ أو يُغري بالبرَص بياضه النّاصع؟ وفي بياض المشيب عِبرَة وأيُّ عبرة، فَكَمْ أجرَى من الآماق أعظم عَبرَة!

[الطويل]

له منظرٌ في العين أبيضُ ناصع ولكنه في القلب أسود أسفَعُ

ومَنْ عاب نَعْت الشَّباب وفضّل وصفَ الشّيب فقد غاب عن شُهودِ العَيب وعالَم الغيب «فما كلُّ بيضاءَ شَحمة ولا كلُّ حمراءَ لحمة». ولمَّا أنْهَى مقالَه ومَلّ مقامه شمّرَ للرّحلة أذيَاله وقوّض خيامه فتهلَّل وجه الصَّباح وهلّل بذكر ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾[1] وازدهاه السُّرُور والابتهاج كأنه رَبُّ السَّرير والتّاج.

[مجزوء الرمل]

فكأن الصُّبح لمّا لاحَ من تحت الثُّرَيّا
مَلِكٌ أقبَل في التا ج يُفدَّى ويُحَيّا

وبَرَز إلى المبارزة من بابها إذ كان من فرسانها وأربابها، فسَلَب «الليل» لباسَه وأذَاقهُ شِدته وبأسَه، وقال له: ايها المعجبُ بنفسه المغرب في نَقْشه صحيفة زُوِرِهِ بنِقسِه[2]، «ما كلّ سوداءَ تَمْرَة ولا كل صَهْباء خَمْرَة». ألم تعلم أيُّنا أبْهَى مُحَيّا، وشَتّان ما بين الثّرَى والثُّرَيّا؟ أين سوادك من بياضي، وما زهرُ نجمك إن تتلألأ زهرُ رِياضي؟ وكم أطلعتُ بدُوراً في مواكب السَّيّارة فأضحتْ تزهو بجمالها على الكواكب السَّيّارَة! وهل لك مثل الغزالة التي انفَرَدَت في الملَاحة لا مَحَالة؟ فأنا الذي ضاءَ صباح الصَّباحة من مُحيَّاه، وضاعَ عبير العنبر من نشر أنفاسِهِ وطيب رياه، ولولايَ ما عُرف الحسن والجمال ولا سعى على وجه الأرض بدر الكمال.

فوجم الليل لبراعة تلك العبارة وبلاغة ما لاح له من الرّمز والإشارة، ثم وثبَ للمقال كأنما أنشط من عِقال، وقال: «رُبَّ ملوم لا ذنب له» ومظلوم خيَّب الدّهر

(١) الأنعام: ٩٦. (٢) النّقس: المداد، الحبر الذي يكتب به.

أمله. فإلى متى يسوؤني النهار وحتى ما يسومني عذاب النّار؟ طالما أعرته أذناً صمّاء وعيناً عمياء، وهو لا يَنثني عن المُقابلة ولا يَرعوي عن المحارَبة والمُقاتلة. أما تعلم، أيها المُغتر ببياضك، أن السّواد حلية أهل الزُّهد والصّلاح؟ وهل يسترقّ الأُسودَ إلّا سُودُ أحداق الملاح؟ بيد أن الحرُّ لا يُبالي بالجمال الظّاهر، وإنما يُباهي بالفعل الجميل والقلب الطّاهر، فإن تفاوتُ المراتب بحسب تفاوُت المناقب.

[الطويل]

وما الحسنُ في وجه الفتى شرفاً له إذا لم يكن في فعله والخلائق

وكم أعدَدتُ للأنس مقاعد وفي الأمثال: «ربّ ساعٍ لقاعد». فإن ظِلّي ظليل ونسيمي عليلٌ بليل، تهدَأ بي الأنفاس وتسكن الأعضاءُ والحواسّ. فقام النّهار يَعْثُرُ في ذيله وقد كَفْكَفَ واكِفُ سَيْلِهِ. فما لَبِثَ أن تنفّسَ الصّباح، وأظهر من سَنَاه ما أخفَى ضَوءَ المصباح، ورَفرَف بجناحه الأبيضِ على الدُّجى، فاقتَنَصه من وَكره بعدما سكن وسَجا.

[الخفيف]

فكأن الصّباح في الأُفْق بازٌ والدُّجى بين مخْلَبَيْهِ غُرابُ

وقال: تبّاً لك أيها اللّيل فلقد أُوتيتَ من المَيْن أوفَر نَيل. أيُّ حديث لك صحيح وضعْتُهُ، وأيُّ حقّ لك صريح أضعْتُهُ؟!

[السريع]

عليك بالصّدق ولو أنه أحرقَكَ الصّدْقُ بنار الوَعيدْ
وابْغ رضا الله فأبغَى الوَرَى مَن أسخط المَوْلى وأرضى العَبيدْ

نعم، لك في السّمر خبرٌ مرفوعٌ، بيد أنه مكروه في السُّنّة موضوع. قد اشتهرْت لكن بأقبح الأوصاف، وعدَلتَ لكن عن سبيل العدل والإنصاف تكتم عن المرءِ ما يُردّيه ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾[1]. وفي المثل: «الليلُ أخفى للوَيل»، فما أصْعَبَ مراسك قبل افْترار سُهيل. وهل يترنّم بذكرك إلّا غافل؟ وأنّى يَغترّ بك عاقلٌ ونَجْمك آفل؟ وكيفي تفتخر عليّ وأنت تفتقرُ إليّ؟

(١) الأحزاب: ٣٧.

ولما سَلَبَ «النّهار» بأساليب بيانه العُقول سكت «الليل» مَليّاً ثم أنشأ يقول:

[الطويل]

فعينُ الرّضا عن كلّ عيبٍ كليلةٌ كما أنّ عينَ السُّخْط تُبْدي المَساويا

كيف أتصدّى للكذب وأترَدّى باللّهْو واللّعب، وأنا المنعوتُ باللّطْف والظَّرْف والموْسومُ بالصّمْت وغَضّ الطّرْف؟ كيف أُورثُ الغُرور وأوثِرُ الغفلة على الحضور، وأنا الدَّاعي إلى ذكر الله وَحده والسّاعي في ردّ الكثرَة الوَهميّة إلى عين الوحدة، وأنا الموصوف بالسَّتر الجميل والمعروُف بشكر المعروف والجميل. وهل أحجُبُ البَصَر عن شهود عالَم الكثَافة إلَّا لأكشف لعين البصيرَة عن عالم اللَّطَافة؟ وبذلك يَتحقق العبد بفَنائه عن وجوده فيمدُّه الرَّبُّ تعالى بسرّ بقائه من خزائن جُوده.

ثم قال «النهار للّيل» وقد هجم عليه هُجوم السّيل: أيّها المدَّعي مقام الدَّعوَة إلى الله وهو في حال الغفلة عن موْلاه لاه، كيف تسنَّمْتَ ذُرْوَة هذا المنْبر كأنك تكتُبُ بالمِسْك وتخْتُم بالعنبر؟ لقد أطَلْتَ فيما «لا طائل تَحتَهُ»، ولا معنى، فكم ذا «أسمَعُ جعْجَعةً ولا أرَى طحْناً». فلو كنتَ ممن انتخب غُرر الشّيَم وانتقَى لاتَّعظت بقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾[1]. فتنبّه من غفلتك أيها «الليل» قبل أن تدعو بالثُّبُور والوَيل، وإلَّا فَرَّقت طلائع سوَادك أيّ تفرِيق، ومَزّقت سوابغ ظلامك أيّ تَمزيق، «فما كلُّ مَرَّة تَسْلَم الجَرّة».

فاسودّ وجه الليل وانقَلَبَ «بحَشَفٍ وسُوء كَيْل» وندم على مُناضَلة النّهار ندامة الفرَزدَق حين فارَق النّوّار[2] «ولمّا سقط في يدِهِ» ورُزئَ في عَدَة وعُدَده، ترَدّى بالسّواد ولبس ثياب الحِداد، ثم لاحَ هلاله للعين كمِنجلٍ صيغَ مِن لُجَيْن:

---

(١) النجم: ٣٢.

(٢) بنت مجاشع زوج الفرزدق طلقها في مجلس عبد الملك بن مروان. وذلك أن الفرزدق قال في المجلس وعنده جرير: النوار طالق ثلاثاً إن لم أقل بيتاً لا يستطيع جرير أن ينقضه أبداً. فقال عبد الملك: ما هو؟ فقال: **[الطويل]**

فإني أنا الموت الذي هو واقع بنفسك فانظر كيف أنت مزاوله

فقال جرير: أم حرزة طالق منه ثلاثاً إن أكن نقضته وزدت عليه. فقال عبد الملك: هات. فأنشد: **[الطويل]**

أنا الدهر يفنى الموت والدهر خالد فجئني بمثل الدهر شيئاً يطاوله

فقال عبد الملك: فضلك والله يا أبا فراس وطلق عليك.

[السريع]

أُنْظُرْ إلى حُسْنِ هلالٍ بدا يجْلُو سنا طَلعتِهِ الحِنْدِسا
كمِنْجَلٍ قد صيغ من فضّةٍ يحصُدُ من زَهرِ الدُّجى نَرجِسا

وقال: مَنْ يَنصفني من هذا الجائر ويَنصِتُ لي فأبُثُّهُ شكوَى الواله الحائر؟ فحتّامَ أُعاني حدَّ الظُّبا «وقد بلغ السّيل الزُّبى».

[البسيط]

وكنتُ كالمُتَمَني أن يَرَى فَلَقاً من الصَّباح فلمّا أن رآه عَمِي

فانتبه طرف النهار وأزدهر سراجه أيّ أزدهار، وشرع يَتلو سورة النُّور بكمال الابتهاج والشمسُ تَرْقُمُ آية جماله بالذّهب الوهَّاج.

[البسيط]

وقابل الصُّبحُ جنح الليل فارْتَسَمَتْ سُطورُه البيضُ في ألواحه السُّود

ثم قال: أيها «الليل» البهيم ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾[1] كيف تدّعي أنك مظلوم وتشتكي من جَوْري وأنت الظّلوم. وَهْب أني قاتلْتُك ظُلماً فأنت البادي، وهل قابلتك إلّا لما واجهتَني به في المبادي؟ وها أنا بَرْهَنْتُ على فضلي بشهودٍ عُدُول ليس للمُنْصِفِ عن تَزكِيَة شهادتهم عُدُول. فاستَقِلْ من دعوى المجد والفخر فَقَد ﴿حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾[2] ووضَحَ الفَجر. وإن أبيت سُلوك مَحجَّتي ولم تتضح لك أدِلَّة حجّتي، فهلُمَّ إلى حضرة الأمير ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[3].

فأنكر «الليل» زعمَه التّفرُّد بالفضل وادّعاءَه، وأجاب في عرْض أمرِهما على الأمير دعاءه، وقال: على الخبيرِ سقطت وعند ابن بجَدَتِها حَطَطت.

وكتب أيضاً مناظرة بين الأرض والسماء:

جالت السّماء في ذلك المِضمار وصالَت ونوّهتْ برفيه قدرها، وقالت: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾[4]، ومَنَحَ أشرف الخلْق إليَّ مُرُوجاً، وقدَّمني في الذّكر في مُحكم الذّكر، وشرّفني بحُسن القَسَم وأتحفني بأوفر القِسَم، وقدَّسني من

(١) يوسف: ٩٥. (٢) يوسف: ٥١. (٣) فاطر: ١٤.
(٤) الفرقان: ٦١.

النَّقائِص والعُيوب وأطلعني على الغوامض والغيوب. وقد ورَد أن الرَّبَّ ينزِل إليّ كلّ ليلة، فيُولي مَنْ تعرّض لنَفَحاته برّه ونَيْلهُ. فيا لها من تُحفة جليلة ومِنحة جزيلة، يحقُّ لي أن أجرَّ بها ذُيول العزَّة والافتخار. وكيف لا! والوجود بأسره باسطٌ إليّ أيديَ الذّلة والافتقار. فلي العزُّ الباذخ والمجدُ الأثيل الشَّامخُ، لتفرُّدي بالرّفْعة والسّمُو وعُلُوّ المنزلة دُون غُلوّ.

فقالت لها الأرض: وَيْكِ لقد أكثرت نزْراً وارتكَبتِ بما فُهْتِ به وِزْراً. أمّا إنه لا يَعْجَبُ بنفسه عاقل ولا يأمَنُ مَكرَ رَبه إلّا غافل. ومن ادّعى ما ليس له بقوله أو فعله، فهلاكه أقرَب إليه مِنْ شرَاك نَعله. وقد قيل: «من سَعادة جدّك وقوفك عند حدِّك»، ومَنْ فعلَ ما شاء لَقَى ما ساء. وما كفاك أن خطرْت في ميادين التّيهِ والإعجاب، حتى عرَّضت لشْمي «إن هذا لشيءٌ عُجاب». وهل اختصّك الله بالذّكرِ، أو أقسَمَ بك دُوني في الذّكر، أو آثَرك بالتّقديم في جميع كلامه القديم، حتى تَرَديت بالكبرياء وتعدّيت طَوْرَ الحياء؟

[الوافر]

إذا لم تخشَ عاقبة الليالي ولم تَسْتَحِ فاصنَعْ ما تشاءُ
فلا وأبيك ما في العيش خيرٌ ولا الدُّنيا إذا ذهب الحياءُ

وكيف تَزدَرِين أهلي بالذنوب والمعاصي وَأنت تعلمين أن الله هو الآخذ بالنّواصي؟

فقابلتْها «السماء» بوجهٍ قد قَطّبَتْه ومجَنّ قد قَلَبَتْهُ، وقالت لها في الحال: أيتها القانعةُ بالمُحال ما كنت أحسبُ أنك تجترِئينَ على مبارزة مثلي، وتنكرينَ عليَّ ما ترنّمْتُ به من شواهد مَجْدِي وفضلي. وهل خِلْتِ أن التّحدُّث بالنّعم مما يلام عليه مع أنهُ أمرٌ مندوبٌ إليه؟ ومن أمثال ذوي الفطنةِ والعقل «ليس من العدل سُرْعةُ العَذْلِ» ولِمَ جَحدْتِ ظهورَ شمس كمالي وهل لك من الفَضائل والفواضِل كما لي؟ ولكنّ لك عندي عُذْراً جلياً وإن كنت ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾[1].

[البسيط]

قد تُنْكِرُ العَيْنُ ضوء الشّمس من رَمَدٍ ويُنْكِرُ الفَمُ طَعمَ الماء من سَقَمِ

(١) مريم: ٢٧.

ولو رأيت ما فيك من المساوي عياناً، لما ثَنيت إلى حَلبة المُفاخرة عِناناً. فأنّى تفوزين بأشرَف الأقدار وأنتِ موضِعُ الفَضلات والأقذار؟ وما هذا التَطاوُلُ والإقدام ووجهك موطئُ النّعال والأقدام؟ إنْ هذا إلّا فعل مكابر، دعوَى عريضةٌ وعجزٌ ظاهِر. وهل يحقّ للكثيف أن يتعالى على اللّطيف؟ أم ينبغي للوضيع أن يتعالى على الرفيع!

فقالت لها «الأرض» أيتها المُغترّة بطوالع أقمارها والمعتزّة بلوامع أنوارها، «ما كل بيضاءَ شحمة ولا كل حمراء لحمة»، فَبِمَ تزعمين أنك أتقى منّي وأنقى ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[1]، وأنت واقفةٌ لي على أقدام الخدمة جَارية في قضاء مأربي بحب الحكمة، قد كفّلَك الحقُّ بحَمل مَؤُونتي وكلّفك بمساعدتي ومعونتي، ووكّلك بإيقاد سراجي ومصباحي، ووكّلَك إلى القيَام بشؤوني في ليلي وصباحي. وليس عُلوُّكِ شاهداً لك بالرتبة العليّة فضلاً عن أن يوجبَ لك مقامَ الأفضلية. «فما كلّ مرتفع نجد ولا كلّ متعاظم ذو شرَف ومجد».

[البسيط]

وإنْ علانِيَ من دوني فلا عجبٌ لي أُسوةٌ بانحطاط الشّمس عن زحَلِ

فمن أعظم ما فقْتُ به حسناً وَجمالاً وكِدْتُ بأخْمصيّ أطأ الثُّرَيّا فضلا وكمالاً، تكوينُ الله مِنّي وجودَ سيِّد الوُجود، فأفرغ عليَّ به خُلَع المكارم والجُود، فهو بدر الكمال وشمسُ الجمال.

[الوافر]

وأجملُ منك لم تَرَ قَطُّ عينٌ وأكملُ منك لم تَلِدِ النّساء

خُلِقْتَ مُبَرّءاً من كلّ عَيْبٍ كأنّكَ قد خُلِقت كما تشاءُ

فأثرِمْ به من نبيّ أسرّني بهِ وأَرْضى، كيف لا! ولولاه ما خَلَقَ سماءً ولا أرضاً، وجعلني له مسجداً وطَهوراً وأقَرّ بهِ عَيْني بُطوناً وظهوراً.

فأبْرَقت «السّماءُ» وأرْعدَتْ، وأرغَتْ وأزبدَت، وقالت: إن لم تَتَخَطّيْ خُطّةَ المكابَرة وتَتَخَلّيْ عن هذه المُثابرَة، لأغرِقَنّك في بحرِ طُوفاني أو أحرقَنّك بِصواعق

(١) الشورى: ٣٦.

نيراني. وهل امتَطيتِ السّماكين أو انتعَلتِ الفَرْقَدَيْن حتى تفتخري عليّ وتشيرِي بالذّمّ إليّ؟ وتلك شهادة لي بالكمال وقد صدَق من قال:

[الكامل]

وإذا أتـتْـكَ مَـذَمّـتـي مـن نـاقـصٍ فـهـيَ الـشّـهـادة لـي بـأنـي كـامِـلُ

أمَ حَسِبْتِ أن لك في ذلك حجّة فخَاطَرْت بنفسكِ في رُكوب هذه اللُّجة، وكنتِ كالباحث عن حَتْفه بِظلْفه والجادِع مارِن أَنْفِهِ بكَفّه.

[البسيط]

لـكـلّ داءٍ دواءٌ يُـسـتَـطـبُّ بـه إلّا الـحـماقـةَ أعـيـتْ مـنْ يُـدَاوِيـهـا

أمّا دعواكِ أني واقفةٌ لك على أقدام الخِدْمة، فهي مما يوجِبُ لي عليكِ شكر الفَضل والنّعمة. فلو تفكّرْتِ أن خادم القوْم هو السّيّدُ والمَولى، وعَرَفت الفاضل من المفضول، أو تدَبّرْتِ أن «اليدَ العُليا خير من اليد السُّفْلَى»، لاستَقَلْتِ من هذا الفُضول. فإن في قيامي بشؤونك أوضحَ أمارَة. وأمّا قوْلك: مني سيّد الوُجود ومن اصطفاهم لحضرَته الملكُ الودُود، فإن كنت تفتخرين بأشباحهم الظّاهرة فأنا أفتخرُ بأرواحهم الطّاهرَة. أما علمتِ أنها في مَلكوتي تَغدُو وترُوح وبوارِدَي[1] بَسطي وقَبضي تشْدُو وتنوح؟ فأنا أوْلى بهم وأحرى بالافتخار بحزْبهم.

فمّا سمعت الأرض من السّماء مقالة تقطُرُ من خلالها الدّماءُ أطرَقت لمحة بارِقٍ خاطِف أو نَغْبةَ[2] طائرٍ خائف، ثم قَنّعتْ رَأسُها وصَعدت أنفاسها وقالت: لقد أكثرْتِ يا هذه من اللّغط وما آثَرْتِ الصّواب على الغَلَط. فعلامَ تهزَئين بي وتَستخفّين بحَسَبي ونَسبي؟ وإلامَ تنقُضين عُرَى أدِلّتي ولا تعامليني بالّتي؟ وحتّام تُقابليني بأنواع التأنيب، ولِم لا تقفي على حقيقتي بالتنقير والتّنقيب؟ أحَسِبتِ أن الجسم ما خُلقَ إلا عَبَثاً، ولَا كان للنّفس النّفيسة إلا جَدَثاً، وفي مَيدانه تتسابقُ الفُهوم وتُدْرَكُ عوارف العلوم، وبه تترَقّى الأرْواح في مرَاقي الفلاح؟ وكيف لا يكون مقدساً من كلّ غيّ ومَيْنٍ وهو لا يفْتُر عن تسبيح بارئِهِ طرْفة عَيْنٍ؟ وإلى متى أنتِ عليَّ مُتحامِلة وعن آية العدْل والإحسانُ متماحلة، وأنا لكِ أسمعُ من خادم

(١) وارد: طريق.

(٢) النغبة: الجرعة.

وأطوَعُ من خاتم؟ على أن لي من الفضائل ما ثبتَ بأصحّ البراهين والدَّلائل. أما فِيَّ بُقْعةٌ من أشرَف البقاع على الإطلاق لضمّها أعضاءَ مَن تَمَّمّ الله به مكارِمَ الأخلاق؟ وفيَّ رَوضةٌ من رياض الجنّة كما أفصَحَتْ عن ذلك ألْسِنَةُ السّنة؟ ومنّي الكعبة والمشْعَرُ الحرام والحَجَرُ وزَمْزَمُ والرُّكْنُ والمقام وعليّ بُيوتُ الله تُشَدُّ إليها الرّحال و﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ ﴿رِجَالٌ﴾[1] وأخرجَ منّي طيّبات الرّزق فأكرَم بها عِباده وأتمّ نعمتَهُ عليهم، فجعلَ الشُّكر عليها عِباده. وناهيك بما اشتملتُ عليه من الرّياض والغِياض ذات الأنهار والحِياض التي تَشفي بنسيمها العليل وتَنْفي ببرْد زُلالها حرّ الغَليل.

[الكامل]

لِمَ لا أهيمُ على الرّياضِ وطِيبها وأظلُّ منها تحت ظِلٍّ صافِي
والزّهرُ يضحكُ لي بثَغْرٍ باسم والنهرُ يلقاني بقلب صافِي

فأسفرتْ عن بدر طلعتها السماء وهي تَزْهُو في بُرُد السّنا والسّناء وقالت تُناجي نفْسها عندما رَقَّ السّمَر: حتّامَ أُرِيها السُّهى وتُريني القمر؟ ثم عطفتْ عليها تقول وهي تَسْطو وتصول: أيتها المتعديّة لمُفاضلتي والمتصدّية لمُناضَلتي، متى قِيسَ التُّرب بالعسْجد أو شُبّه الحصَى بالزَبَرْجد؟ إن افتخرتِ بِشَرَفِ هاتيك البِقاع التي زها بها منك اليَفاع والقاع، فأين أنت من عرش الرحمن الذي تعكفُ عليه أرواحُ أهل الإيمان؟ وأين أنت من البيت المَعْمور والكرسي المكلل بالنُّور؟ وكيف تفتخرين عليّ بروضةٍ من رياض الجنة وَهي عليَّ بأسرِها فضلاً مِنَ الله ومِنّة؟ أم كيف تزعمين أنه كُتِبَ لك بأوْفَر الحُظوظ وعندي القلم الأعلى واللوح المحفوظ؟ وأما ازدهاؤك بالحياض والأنهار والرياض المبْتهجةِ بِوُرُود[2] الوَرْدِ والأزهار، فليت شِعري هل حَويت تلك المعاني إلا بنفحات غُيوثي وأمطاري؟ أم أشرقتْ منك هاتيك المغاني إلا بِلَمحات شموسي وأقماري؟ فكيف تباهينني بما منحتك إيَّاه وعطّرتُ أرجاءك بأريج نَشره وريَّاه؟ ويا عجباً منك كلّما لاحَ عليَّ شِعار الحزن خطَرت في أبهة حُلّة من حُلل الملاحة والحُسْن، وإن افترَّت ثُغُورُ بدُورِ أُنسي وقرَّت

(١) النور: ٣٦ ـ٣٧.
(٢) وردت الشجرة وروداً إذا أخرجت وردها.

ببديع جمالي عينُ شمسي، زَفَرْتِ زفْرَة القَيْظ وكِدْتِ أن تتميّزي من الغيظ. ما هذا الجفاء يا قليلة الوفاء؟ وهل صفتْ أوقاتُك إلا بوجودي، أو طابت أوقاتك إلا بوابل كَرمي وجُودي؟ ولو قطعْتُ عنك لَطائف الإمداد لخلعتِ ملابس الأنس ولبِستِ ثياب الحِدَاد، أو حجبتُ عنك الشّموسَ والأقمار لما مَيزّتِ بين الليل والنهار. فهلَّا كنت بفضلي معترِفة حيث إنك منْ بحر فَيْضي مُغترفة؟

فنَزَعت «الأرض» عن مُقاتَلَتها وعلمت أنها لا قِبلَ لها بمُقابلتها، وحين عجزت عن العَوْم في بحرها واسْتسْلَمت تمائمها لِسحرها، بسطت لها بِساط العتاب مُتمثّلةً بقول ذي اللُّطف والآداب.

[الوافر]

إذا ذَهَبَ العِتاب فليس ودٌ ويَبقى الودُّ ما بقِي العِتابُ

ثم قالت: اعلَمي أيّتها الموسومةُ بسلَامة الصدر الموصوفة بسموّ المنزلة وعلوّ القدر، إن الله ما قارن اسمي باسمك وَلا قابل صورة جسمي بجسمك، إلّا لمناسبة عظيمة وألفةٍ بيننا قديمة. فلا تُشْمِتي بنا الأعداء وَتُسيئي الأحبّاء والأوِدّاء، فإن ذلك من أعظم الرّزايا وأشد المِحَن والبلايا.

[الكامل]

كلّ المصائبِ قد تمُر على الفتى فتهون غيرَ شماتَةِ الأعداءِ

ألا وإن العبد محلّ النّقص والخلل، وهل يسُوغ لأحدٍ أن يُبَرّئَ نفسه من الزَّلل؟ ومَنْ يسلمُ من القَدْح ولو كان أقوَمَ من القِدْح[1].

ومَنْ ذَا الذي تُرضى سَجاياه كلُّها كفى المرء فضلاً أن تُعَدَّ معايبُهْ

هذا، وإنّ لي مفَاخرَ لا تُنكر وَمآثرَ لا تنكر تجلُّ عن أن تُحْصر. كما أنّك في الفضل أشهرُ من نارٍ على عَلَم، وأجلُّ من أنْ يُحصى ثناءً عليك لسانُ القلم. فإلى متى ونحنُ في جِدالٍ وجلاد نتطاعن بأسِنَّة ألسنَة حِداد؟ وهل ينبغي أن يَجُرَّ بعضُنا على بعضٍ ذيلَ الكِبر والصَّلَف؟ ولكن عفا الله عمَّا سَلَف. وهذه لعمري حقيقة أمري، فانظُري إليّ بعين الرّضا، وأصفحي بحقّك عمّا مضى.

---

(١) القدح: بكسر القاف السهم قبل أن يراش ويركب نصله.

ولمّا سمعت السَّماءُ هذه المقالة التي تجْنحُ إلى طلبِ السّلم والإقالة، قالت لها: مآربُ لا حفَاوةَ، ومشربٌ قد وَجدْتُ له حلاوة. وما ندَبتِ إليه من المودّة والألْفة فلأمر ما جَدَعَ قصيرٌ أنفه. ولو لم تلْقِي إليّ القِياد لعاينتِ منّي ما دونه خرْط القَتَاد. ولكن لا حَرَج عليك ولا ضيْر فإنك قد اخترْت الصُّلْحَ والصُّلْحُ خير. وكيف جعلتِ العِتَابَ شَرْطاً بين الأحباب أوَ ما سمعت قول بعض أولي الألباب.

[الطويل]

إذا كنتَ في كلّ الأمور معاتباً صديقك لم تَلْق الذي لا تُعاتبُهْ
وإن أنت لم تشربْ مراراً على القذَى ظَمئْتَ وأيُّ الناس تَصفُو مشارِبُهْ

وها أنا رادّةٌ إليك عوائد إحساني وموائدَ جُودي وأمتناني، فقَرّي عيناً وطيبِي نفساً وتيهي ابتهاجاً وأنساً، وأبشري ببُلوغ الوَطَر وزوالِ البُؤْس والخَطَر. فجدتِ الأرض شكراً وهامَت نَشْوَةً وسُكراً، وتهلَّل وجهُها سُروراً وامتلأت طرَباً وحبُوراً.

مناظرة بين فصول العام لابن حبيب الحلبي المتوفى سنة ٤٠١هـ:

قال الرَّبيع: أنا شابُّ الزَّمان ورَوْح الحيوان وإنسانُ[١] عين الإنسان. أنا حياةُ النُّفوس وزِينةُ عَرُوس الغُرُوس، ونُزْهة الأبصار ومنْطِقُ الأطيار، عَرْفُ[٢] أوقاتي ناسِم وأيامي أعيادٌ ومواسِم، فيها يَظهرُ النَّبات وتُنْتشرُ[٣] الأموات، وتُرَدُّ الوَدائع وتتحرَّك الطّبائع، ويَمْرَحُ[٤] جنيب[٥] الجَنوب[٦] ويَنزِحُ[٧] وَجِيبُ[٨] القلوب، وتَفيضُ عيونُ الأنهار ويَعتَدِل اللّيل والنَّهار. كم لي عِقدٌ مَنظوم وطِرَازُ وَشْي مرقوم، وحُلّةٌ فاخرة وحِلَيَةٌ ظاهرة، ونَجمُ سعد يُدْنى راعيَه من الأمل وشمسُ حُسن تنْشِدُنا[٩]: يا بُعد ما بين بُرْج الجَدْي[١٠] والحَمَل[١١]. عساكري منصورة وأسلحتي

(١) ما يرى في السواد. (٢) الريح الطيبة. (٣) تحيا.
(٤) ينشط
(٥) مجنوب. والجنوب ريح تخالف الشمال مهبها من مطلع سهيل إلى مطلع الثريا.
(٦) ريح تخالف الشمال ومنه إذا جاءت الجنوب جاء معها خير كثير.
(٧) يبعد ويذهب. (٨) كثرة خفقانها. (٩) تغنّينا.
(١٠) نجم إلى جنب القطب يدور مع بنات نعش تعرف به القبلة يقال له جسدي الفرقد.
(١١) برج في السماء من البروج الاثني عشر التي نمر بها.

مشهورة: فمن سيف غُصن مُجَوْهر، ودِرْع بنفسج مُشهَّر، ومغفرِ[١] شقيقٍ[٢] أحمر، وتُرْس بَهار يَبْهر، وسَهم آس يرْشُقُ فينشَق، ورُمح سَوْسَن[٣] سِنانه أزرق، تحرسها آيات وتَكتَنِفُها ألويةٌ ورايات. بي تحمرُّ من الوَرد خُدُوده، وتهتز من البَان قدودُهُ، ويخضرُّ عِذار الرّيحان، ويَنتبه من النرْجس طَرْفه الوَسْنان[٤]، وتخرج الخبايا من الزّوايا، ويَفترُّ ثَغر الأقْحُوان[٥] قائلاً أنا ابن جلَا وطَلّاع الثنايا.

[الخفيف]

إنّ هـذا الـرّبـيـع شـيءٌ عـجـيـب يُضحك الأرض من بكاء السماءِ
ذهــبٌ حـيـثـمـا ذهَـبـنـا ودُرٌّ حـيـث دُرنـا وفـضّـةٌ فـي الـفـضـاءِ

وقال الصّيف: أنا الخلُّ الموافق، والصَّديق الصّادق، والطَّبيب الحاذق. أجتهد في مصلحة الأحباب وأرفع عنهم كُلْفة حَمل الثّياب، وأخفّف أثقالهم وأوَفّر أموالهم، وأكفيهم المؤونة وأجزل لهُم المعونة، وأغنيهم عن شراءِ الفِرا وأحقّقُ عندهم أن كلّ الصَّيد في جوْف الفَرا. نُصِرْتُ بالصَّبا وأُتيتُ بالحكمة في زمن الصِّبا. بي تَتَّضحُ الجادّة[٦] وتَنْضج من الفواكه المادّة، ويَزْهُو البُسرُ والرطَب ويَنصلحُ مِزاج العنب، ويَقوَى قلب اللّوز ويَلين عطف التّين والموز، ويَنعقد حبُّ الرُّمان فيقمع الصفراء ويسكن الخَفَقان، وتخْضب وجَنَات التُّفّاح ويَذهب عَرفُ[٧] السّفرجل مع هُبوب الرّياح، وتَسْوَدُّ عُيون الزّيتون وتخلُقُ تِيجان النَّارنج واللّيمون. مواعدي منقودة وموائدي مَمدودة. الخير موجود في مقامي والرّزق مقسوم في أيامي.

الفقيرُ ينْصاع[٨] بملءِ مُدّه وصاعهِ والغنيُّ يَرْتَعُ في رَيْع مُلكه وإقطاعه، والوحش تأتي زُرافات وَوُحْدَاناً[٩] والطّير تغْدُو خِماصاً وترُوحُ بطاناً[١٠].

---

(١) زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس.
(٢) شقائق النعمان وهو نبت أحمر الزهر مبقع بنقط سوداء كبيرة.
(٣) نبات طيب الرائحة.
(٤) النعسان، الغفلان.
(٥) البابونج: نبت طيب الريح حواليه ورق أبيض ووسطه أصفر.
(٦) الطريق.
(٧) رائحته الطيبة.
(٨) ينتقل راجعاً مسرعاً.
(٩) جماعات.
(١٠) تذهب جائعة وترجع ممتلئة.

[الطويل]

مَصيفٌ لهُ ظِل ظليلٌ على الوَرَى ومَنٌّ حلَا طمعاً وحَلَّلَ أخلاطا
يُعالج أنواع الفَوَاكهِ مُبْدِياً لِصحَّتِها حِفظاً يُعجّز بقراطا[1]

وقال الخريف: أنا سائق الغيوم وكاسر جيش الغُموم وهازِم أحزاب السّموم[2]، وحادي نجائب السَّحائب وحاسرُ نقاب المناقب. أنا أصدُّ الصّدَى[3] وأجود بالنّدي، وأُظْهرُ كل معنى جَليّ وأسمو بالوسميّ[4] والولي. في أيامي تُقْطَفُ الثّمار وتصفو الأنهار من الأكدار، وَيَتَرَقْرَق[5] دمع العيون وَيَتَلوّن وَرَق الغُصون. طَوْراً يُحاكي البَقْم وتارةً يُشبه الأرقم، وحيناً يَبدُو في حُلته الذّهبيّة فيجذِبُ إلى خُلّته القلوب الأبيَّة. وفيَّ يَكفي الناس هم الهَوَامّ ويَتَساوى في لذّة الماء الخاصّ والعامّ. وَتقدُمُ الأطيارُ مُطرِبَةً بنشيشها رافلةً في الملابس المجدّدة من رِيشها، وتُعصَرُ بنتُ العُنقود وتوثَقُ في سجن الدّنّ بالقُيود، على أنها لم تَجترِح إثماً ولم تعاقبْ إلا عُدواناً وظُلماً. بي تَطيبُ الأوقات وتحصُلُ اللّذّات وتَرِقُّ النَّسمَات وتُرمى حصَى الجمَرَات، وتسكُنُ حرارة القلوب وتكثرُ أنواع المطعوم والمشرُوب. كم لي من شجرةٍ أكلُها دائم وحملُها النّفع المتعدي لازم، ووَرقها على الدوام غير زائل وقُدود أغصانها تُخجِل كلّ رُمح زابل.

[الخفيف]

إن فَصلَ الخريف وافى إلينا يَتَهادى في حُلّةٍ كالعروسِ
غيره كان للعيون رَبيعاً وهو ما بيننا رَبيعُ النُّفوس

وقال الشتاء: أنا شيخُ الجَمَاعة ورَبُّ البضاعة والمُقابَلُ بالسَّمع والطاعة. أجمعُ شمل الأصحاب، وأسدلُ عليهم الحجاب، وأُتحفهم بالطَّعام والشّراب، ومن ليس له بي طاقةٌ أغلق من دونهِ الباب. أميل إلى المُطيعِ، القادر المُستطيع، المُعْتضِدُ بالبُرود والفرَا، المتمسّكِ من الدِّينار بأوْثَقِ العُرَى. وَمَنْ يَعشُ عن ذكري ولم يمتثِل أمري،

(١) بقراط: الحكيم اليوناني، وهو لفظ يوناني معناه ناسك الصبح.
(٢) الريح الحارة. (٣) العطش.
(٤) المطر الذي يأتي في الخريف، والولي المطر الذي يأتي بعده.
(٥) ترقق الدمع في العين: تحرك.

أرَجَفْتُهُ بصوت الرّعد وأنجَزْتُ له من سيف البرق صادق الوعد، وسرتُ إليه بعساكر السّحاب ولم أقنْع من الغنيمة بالإياب. معروفي معروف، ونَيْل نيلي موصوف، وَثمار إحساني دانيةُ القُطوف. كم لي من وابل طويل المَدَى وجَود وافر الجدا، وقَطر حلا مذاقه وغَيث قيد العُفاة إطلاقُهُ، ودِيمةٍ تُطْرِبُ السمَع بصوتها وحياً ﴿يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾[1]. أيامِي وَجيزة وأوقاتي عزيزة، ومجالسي معمورةٌ بِذَوي السّيادة، مغمورَة بالخير والميرِ والسعادة. نُقلُها يأتي من أنواعه بالعجب ومناقِلُها تسمحُ بذهب اللَّهب، وراحُها تنعشُ الأرواح وسقاتُها بجفُونهم السّقيمة تفتن العقول الصّحاح. إن رُدتها وجدْتَ مالاً ممدوداً، وإن زُرتها شاهدتَ لها بنين شهوداً.

مناظرة بين البر والبحر لبعض الأدباء:

قال البَرّ: يا صاحب الدُّر ومعدن الدُّر، أطرقت رياضي ومزقت جوري وأحواضي، وأغرقت جُثَتي ودَخَلْتَ جنتي، وتلاطمت أمواجك على جُنّتي، وأكلت جزائِري وجروفي وأهلكت مرعى فصيلي وخرُوفي، وأهزلت ثَوري وحَملي، وفَرسي وجَملي، وأجريت سُفنك على أرْض لم تجر عليها ولم تمِل طرف غرابها إليها. وغرست أوتادها على أوتاد الأرض وعرّست في مواطن النفل والفرض، وجعلت مَجرى مراكبك في مَجرى مراكبي ومشى حُوتُك على بطنه في سعد أخبية مضاربي، وغاص ملاحك في ديار فرحي وهاجرت من القرى إلى أم القرى وحملت فلاحي أثقاله على القرى. وَقد تلقيتك من الجنادل بصدري وحملتك إلى برزخك على ظهري، وقبلت أمواجك بثَغري، وخلقت مقياسي فرحاً بقدومك إلى مصري. وقد جُرت وعدلت وفعلت ما فعلت فلعلّك تغيض ولا يكون ذهابك عن ذهاب بغيض، أوْ تفارق هذه الفجاج وتختلط بالبحر العجاج. وإن لم تفعل شكوناك إلى من أنزلك من السماء وأنعم بك علينا من خزائن الماء.

[الطويل]

إذا لم تكن ترحم بلاداً ولم تُغِث عباداً فمولاهم يغيث ويرحمُ
وإن صَدَرتْ منهم ذُنُوبٌ عظيمةٌ فعَفْوُ الذي أجراك يا بحرُ أعظمُ
نمدُّ إليه أيْدِياً لم نَمدّها إلى غيره والله بالحال أعلمُ

(١) الروم: ٥٠.

قال البحر: يا بَرُّ، يا ذا البِرّ ومنبت البر، هكذا تخاطب ضيفَك وهو يخصب شتاءك وصيفك. وقد ساقني الله إلى أرضك الجُرُز ومعدن الدرّ والخرز، لأُبْهج زرعها وخيلَها واخرج أبَّها ونخيلها، وأُكرِم ساكنك وأُنزل البركة في أماكنك، وأُثبت لك في قلب أهلك أحكام المحبة، وأُنبِتَ بك لهم في كل سُنْبُلة مائة حبة، وأُحيّيك حياة طيبة يَبتَهجُ بها عُمْرَك الجديد ويَتْلُو ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[1] ألسِنَةُ العبيد، وأطهّرك من الأوساخ وأحْمِل إليك الإبْليز فأطيبك به من عَرَقِ السّباخ. وأنا هديّة الله إلى مصرِك وملكُ عصرك القائمُ بنصرك، ولولا بَرَكاتي عليك ومسيري في كل مَسْرَى إليك، لكنتَ وادياً غير ذي زرْع وصاديا غير ذي ضَرْع.

سَرَيت أنا ماءُ الحياة فلا أذى ... إذا ما حَفِظْتُ الصّحب فالمالُ هيّنُ
فكن خَضراً يا بَر واعلمْ بأنني ... إلى طينك الظمآن بالرّيّ أحسنُ
وأسعى إليه من بلادٍ بعيدةٍ ... وأحسنُ أجري بالتي هي أحسنُ
إذا طاف طوفاني بمقياسك الذي ... يُسرُّ بإتيان الوفاءِ ويُعلنُ
فَقُم وتلقّاه ببسطتك التي ... لروضتها فَضلٌ على الروض بَيّنُ

ولعمري لقد تلطّفَ البَرُّ في عتابه وأحسن ودَفع البحرُ في جوابه بالتي هي أحسن، وقد اصطَلحا وهما بحمد الله أخوان مُتضافران على عمارة بلاده، ونشر الثرْوَة ونموّ الخيرات بين عباده. فالله تعالى يُخصب مرعاهما ويحرُسهما ويَرْعاهما.

مناظرة بين الهواء والماء لبعض الأدباء:

قال الهواء: الحمد لله الذي رفع فلك الهواء على عنصر التراب والماء.

أما بعد: فأنا الهواء الذي أؤلف بين السّحاب وأنقُلُ نسيم الأحباب، وأهُبُّ تارةً بالرّحمة وأُخرَى بالعذاب. وأنا الذي سُيِّرَ بي الفُلكُ في البحر كما تَسيرُ العِيس في البِطاح، وطارَ بي في الجوّ كلّ ذي جنَاح. وأنا الذي يضطربُ مِنّي الماء اضطراب الأنابيب في القَنَا، إذا صفوْتُ صفا العالَم ولكن له نَضرَة وزَهواً وإذا تكدّرتُ انكدَرَت النّجوم وتكدّر الجوّ، لا أتلوّن مثل الماء المتلوّن بلون الإناء. لولايَ ما عاش كلُّ ذي نفس، ولولايَ ما طاب الجوُّ من بخار الأرض الخارج منها

(١) البقرة: ٧٣.

بعدما احتبس، ولولايَ ما تكلَّم آدميٌّ ولا صَوّت حيوان ولا غرّد طائرٌ على غُصن بان، ولولايَ ما سُمع كتابٌ ولا حديث، ولا عُرِف طيب المسموع والمشموم من الخبيث. فكيف يُفاخرني الماءُ الذي إذا طال مُكثه ظهر خُبثُهُ، وعَلتْ فوْقه الجِيفُ وانحطّت عنده اللآلئُ في الصدف؟

فقال الماء: الحمد لله الذي خلَقَ كلّ حيّ. أمَّا بعد: فأنا أوّل مخلوق ولا فخر وأنا لذة الدُّنيا والآخرة ويوْم الحشر، وأنا الجوهر الشّفَّاف المشبّه بالسَّيف إذا سُلّ من الغِلاف، وقد خلق الله فيّ جميع الجواهر حتَّى اللآلئ، والأصداف، أُحيي الأرض بعد مماتها، وأخرج منها للعالم جميع أقواتها، وأكسو عرائس الرّياض أنواع الحُلل وأنثرُ عليها لآلئ الوَبْل والطّلل، حتى يُضْرَبَ بها في الحُسْن المَثل كما قيل:

[البسيط]

إن السّماءَ إذا لم تَبْك مُقْلتُها لم تَضحك الأرض عن شيء من الزَّهر

فكيف يُنكِرُ فضلي مَنْ دَبّ أو دَرَج، وأنا البحرُ الذي قيل عنهُ في الأمثال: «حدّث عن البحر ولا حرَج» وأمّا أنت أيها الهواء فطالما أهلَكْتَ أُمماً بسُمومك وزَمهريرِك، ولا تقومُ جنّتك بسعيرك.

وأما قولك: لولاي ما عاش إنسان ولا بقيَ على الأرض حيوان، فجوابُهُ: لو شاءَ الله تعالى لعاش العالم بلا هواء كما عاش عالَم الماء في الماء. وأنشدُك الله أمَا رأيتَ ما حباني الله به من عظيم المِنّة حيثُ جعلني نهراً مِن أنهار الجنّة؟ أنا أرفعُ الأحداث وأُطهّرُ الأخباث، وأجْلُو النّظر وأزِيلُ الوضَر. أمَا رأيتَ الناسَ إذا غِبتُ عنهم يَتَضَرّعون إلى الله بالصّومْ والصّلَاة والصَّدَقة والدُّعاء، ويَسألونه تعالى إرسالي من قِبَل السّماء؟

واعلَمْ أنّني ما نِلْتُ هذا المقامَ الذي ارتفعتُ به على أبناءِ جنسي إلا بانحطاطي الذي عَيّرْتَني به وتواضُعي وهَضمْ نَفْسي.

وقد كثر بينهما النزاع والجدال حتى حكم بينهما أمير فقال:

إن كلّا منكما محقّ فيما يدعيه. فما أشبهكما في السّماء بالفرقدين وفي الأرض بالعينين. إلا أن مرآة الحق أرتني فضيلة تفضل بها أيها الماء أخاك الهواء، وحققت لي بأنكما لستما في الفضل سواء: وهي: «إن الله تعالى خلق آدم من الماء، فاعترف لأخيك بالفضل والذكاء».

مناظرة بين الجمل والحصان للمقدسي المتوفى سنة ٨٧٥هـ:

قال الجمل: أنا أحملُ الأحمال الثّقال، وأقطَعُ بها المراحِل الطّوال، وأكابدُ الكلال، وأصبِرُ على مُرَ النّكال، ولا يَعترِيني من ذلك مَلَال، وأصُول صوْلة الإدلال. بل أنقادُ للطّفل الصّغير ولو شئتُ استصعبت على الأمير الكبير. فأنا الذَّلول وللأثقال حمول، لستُ بالخائن ولا الغلول ولا الضّائل عند الوُصول أقطعُ في الوُحول ما يَعجزُ عنه الفحول وأُصابر الظلماء في الهواجر ولا أحول. فإذا قَضيتُ حقّ صاحبي وبَلغْتُ مآربي ألقيتُ حَبلي على غارِبي، وذهبتُ في البوادِي أكتسِبُ من الحلال زادي، فإن سمعتُ صوْت حادي سَلَّمتُ إليه قيادي، وواصَلتُ فيه سُهادي، وطلّقتُ طِيبَ رُقادي ومدَدْتُ إليه عُنُقي لبلوغ مُرادي. فأنا إن ضلَلت فالدَّليل هادي، وإن زَللتُ أخذ بيدي مَنْ إليه انقيادي، وإن ظَمئتُ فذِكر الحبيب زادي، وأنا المسخرُ لكم بإشارةِ ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾[1] فلم أزَل بين رِحلة ومقام حتى أصِل إلى ذلك المَقام.

فقال الحصان: أنا أحمل على كاهلي فأجتَهدُ به في السيْر، وأنطَلقُ به كالطير أهجُم هجومَ اللّيل وأُقْتَحمُ اقتحام السيّل، فإن كان طالباً أدركَ فيَّ طلَبه وإن كان مطلوباً قَطَعتُ عنه سبَبه، وَجَعَلتُ أسبابَ الردى عنه مُحْتجِبة، فلا يُدركُ مِنّي إلا الغُبار ولا يسمَعُ عنّي إلّا الأخبار وإن كان الجمل هو الصّابر المجرّب فأنا السّابق المقرَّب، وإن كان هو المقتصد اللّاحق فأنا المقرَّب السّابق. فإذا كان يوم اللّقاءِ قَدمتُ أقدامَ الواله وسبقتُ سَبقَ نباله، وذلك مُتخلّفٌ لثقل أحماله. وإن أوثَقَ سائسي قَيدي وأمِنَ قائدي كيدي، أُوثقْتُ بشكالِي لكيلا أحُول على أشكالي، وألجمتُ بلجامي كيلا أغفلَ عن قيامي وانْتَعَلَت الحديدَ أقدامي كيلا أكِلَّ عن إقدامي. فأنا الموعودُ بالنَّجاة المعدُودُ لِنيل الجاه، المشدودُ للسَّلامة المقصود للكرامة. قد أجزل النعم على إنعامه وأمضي بالعناية الأزليّة أحكامه، فإن الخيرَ معقود بنواصي الخيل إلى يوم القيامة. خُلِقتُ من الريح وأُلهمت التّسبيح، وما بَرح ظَهري عزّاً وبَطْني كنزاً وصَهْوتي حِرزاً. فكم رَكِضْتُ في ميدان السّباق وما أبديت عَجزاً، وكم حَزَزْتُ رؤوس أهل النّفاق حزّاً وكم أخليت منهم الآفاق ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾[2].

---

(١) النحل: ٧.

(٢) مريم: ٩٨.

الفن الثالث: في الأمثال

المَثَل عبارة عن تأليف لا حقيقة له في الظاهر وقد ضُمّن باطنُهُ الحكم الشّافية وهي ثلاثة أقسام: مُفْتَرَضَةٌ ممكنة، ومُخترعةٌ مستحيلة، ومختلطة.

فالأمثال المفترَضة الممكنة هي ما نُسِبَ فيها النُّطق والعمل إلى عاقل[1].

والمخترَعة المستحيلة ما جاءت على ألسنة الحيوانات والجَمَادات، فيُعزى لها النطق والعمل لإرشاد الإنسان.

والمختلطة ما دار فيها الكلام أو العمل بين النّاطق وغير الناطق.

وشروط المثل أربعة:

الأول: أن تكون روايته خالية من كل تعقيد ليفضي المقصود منه إلى ذهن السامع.

الثاني: أن لا يكون مُسهَباً مُمِلاً.

الثالث: أن يُبْهِج السّامع بطَلاوته ويُفَكّه فِكْرته بِهزل كلامه وابتكار معانيهِ ويَضبطَ عقله في فهم الرّوَاية المختلفَةَ وفَضّ مُشكلها.

الرابع: أن يُورَدَ بصورةٍ مُحْتملة.

وفوائد المثل جمّة: منها نُزهة البال وترويح الخاطر، ومنها استقصاء الحكم.

وهي قديمة العهد جِدّاً ولا يعرف اسم أول مَنْ تكلّمَ بها، وكما تكون نثراً تكون نظماً.

ولنذكر لك من الأمثال ما طاب وراق فنقول:

---

(١) وتختلف عن الحكاية من وجهين الأول أن لها مغزى، والثاني كونها غير واقعة وإن كانت في حيز الإمكان.

أمثال القرآن الكريم

أمثال القرآن الشريف قسمان: ظاهر مصرّح به، وكامن لا ذكر للمثل فيه.

أما أمثاله الظاهرة فكقوله تعالى في شأن المنافقين:

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ(١) مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾(٢). وقوله تعالى في شأن الذي ينفق أمواله ابتغاء مرضاة الله والذي ينفقها رياءً:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ(٣) عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ(٤) فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ(٥) لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ(٦) أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ(٧) وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ(٨) فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾(٩) وقوله تعالى في تمثيل الحق والباطل:

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا(١٠) رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ(١١) وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾(١٢).

---

(١) مطر.
(٢) البقرة: ١٧ ـ ٢٠.
(٣) حجر أملس.
(٤) مطر شديد.
(٥) صلباً نقياً من التراب.
(٦) مكان مرتفع.
(٧) مطر خفيف.
(٨) ريح شديد.
(٩) البقرة: ٢٦٤ ـ ٢٦٦.
(١٠) ما يعلو على وجه الماء من قذر ونحوه.
(١١) باطلاً مرمياً به.
(١٢) الرعد: ١٧.

وقوله تعالى في تمثيل الحكمة وضدها:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ[1] مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾[2].

وقوله جل شأنه في حال الكفار وما يعبدون من دون الله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾[3] وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾[4]. وقوله تعالى في أن عمل الكافر يذهب هباءً تذروه الرّياح:

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ﴾[5] وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ[6] بِقِيعَةٍ[7] يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ[8] يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ۚ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾[9]. وقوله تعالى في أن الدنيا ظلّ زائل وخيال باطل:

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا[10] تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ﴾[11] وقوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا[12] ۖ﴾[13].

---

(١) قطعت من أصلها. (٢) إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٦. (٣) الحج: ٧٣.
(٤) العنكبوت: ٤١. (٥) إبراهيم: ١٨.
(٦) شعاع يرى مثل الماء حين اشتداد الحر نصف النهار.
(٧) جمع قاع وهو الأرض المستوية. (٨) عميق.
(٩) النور: ٣٩ ـ ٤٠. (١٠) يابساً متفرقة أجزاؤه. (١١) الكهف: ٤٥.
(١٢) فتاتاً. (١٣) الحديد: ٢٠.

وأما أمثاله الكامنة فهي الآداب البارعة والحكم الباهرة فمن ذلك قوله تعالى:

في الصّدق:

١ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾[١].

٢ ـ ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْۚ﴾[٢].

٣ ـ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾[٣].

في الصبر والثبات:

١ ـ ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[٤].

٢ ـ ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾﴾[٥].

٣ ـ ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[٦].

٤ ـ ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ﴾[٧].

٥ ـ ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾﴾[٨].

في العلم والاسترشاد:

١ ـ ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾[٩].

٢ ـ ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[١٠].

٣ ـ ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ﴾[١١].

٤ ـ ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[١٢].

في الاتحاد والوئام بعد الخصام:

١ ـ ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾[١٣].

---

(١) التوبة: الآية ١١٩.
(٢) المائدة: الآية ١١٩.
(٣) مريم: الآية ٥٤.
(٤) البقرة: الآية ١٥٥.
(٥) المعارج: الآية ٥.
(٦) لقمان: الآية ١٧.
(٧) يوسف: الآية ١٨.
(٨) المزمل: الآية ١٠.
(٩) فاطر: الآية ٢٨.
(١٠) العنكبوت: الآية ٤٣.
(١١) الزمر: الآية ٩.
(١٢) النحل: الآية ٤٣.
(١٣) آل عمران: الآية ١٠٣.

obeikandl.com

٢ ـ ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾(١).

٣ ـ ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾(٢).

في العفو:

١ ـ ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾(٣).

٢ ـ ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾(٤).

٣ ـ ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾(٥).

٤ ـ ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾(٦).

في الوفاء:

١ ـ ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾(٧).

٢ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾(٨).

في الاقتصاد:

١ ـ ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾(٩).

٢ ـ ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾(١٠).

٣ ـ ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾(١١).

في الأمر بالمعروف:

١ ـ ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾(١٢).

٢ ـ ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾(١٣).

٣ ـ ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾(١٤).

---

(١) الأنفال: الآية ٤٦.
(٢) النحل: الآية ٩٢.
(٣) الحجر: الآية ٨٥.
(٤) آل عمران: الآية ١٣٤.
(٥) الشورى: الآية ٤٠.
(٦) المائدة: الآية ٩٥.
(٧) الإسراء: الآية ٣٤.
(٨) النساء: الآية ٥٨.
(٩) الإسراء: الآية ٢٩.
(١٠) الإسراء: الآية ٢٧.
(١١) الأعراف: الآية ٣١.
(١٢) الأعراف: الآية ١٩٩.
(١٣) آل عمران: الآية ١٠٤.
(١٤) المائدة: الآية ٢.

obeikandl.com

٤ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾(١).

برّ الوالدين والقريب والجار والصاحب:

١ ـ ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾(٢).

٢ ـ ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾(٣).

٣ ـ ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾(٤).

في النصيحة:

١ ـ ﴿إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾(٥).

٢ ـ ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾(٦).

٣ ـ ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾(٧).

في الشكر:

١ ـ ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾(٨).

٢ ـ ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾(٩).

٣ ـ ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾(١٠).

٤ ـ ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾(١١).

في الإغضاء والتغافل واللين:

١ ـ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾(١٢).

---

(١) النحل: الآية ٩٠. (٢) الإسراء: ٢٣، ٢٤. (٣) الأنفال: الآية ٧٥.
(٤) النساء: الآية ٣٦. (٥) القصص: الآية ٢٠. (٦) الأعراف: الآية ٦٨.
(٧) الأعراف: الآية ٧٩. (٨) إبراهيم: الآية ٧. (٩) سبأ: الآية ١٣.
(١٠) النمل: الآية ٤٠. (١١) آل عمران: الآية ١٤٤. (١٢) النساء: الآية ٦٣.

obeikandl.com

٢ - ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[١].

٣ - ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[٢].

٤ - ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾﴾[٣].

٥ - ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾[٤].

٦ - ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾[٥].

٧ - ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾[٦].

في المدح:

١ - ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[٧].

٢ - ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾[٨].

٣ - ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾[٩].

٤ - ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾[١٠].

٥ - ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾[١١].

٦ - ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾[١٢].

٧ - ﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ﴾[١٣].

٨ - ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾[١٤].

٩ - ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾[١٥].

١٠ - ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾[١٦].

١١ - ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾[١٧].

١٢ - ﴿وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾[١٨].

---

(١) يوسف: الآية ٩٢.
(٢) المؤمنون: الآية ٩٦.
(٣) المزمل: الآية ١٠.
(٤) آل عمران: الآية ١٥٩.
(٥) يوسف: الآية ٧٧.
(٦) الفرقان: الآية ٦٣.
(٧) يوسف: الآية ٣١.
(٨) الإنسان: الآية ١٩.
(٩) يوسف: الآية ٥٤.
(١٠) النمل: الآية ١٦.
(١١) القلم: الآية ٤.
(١٢) المطففين: الآية ٢٦.
(١٣) آل عمران: الآية ٣٤.
(١٤) مريم: الآية ١٤.
(١٥) النساء: الآية ٥٩.
(١٦) البيّنة: الآية ٧.
(١٧) المائدة: الآية ١١٩.
(١٨) ص: الآية ٤٨.

obeikandi.com

١٣ - ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾[١].

١٤ - ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾[٢].

١٥ - ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[٣].

١٦ - ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾[٤].

في التبرئة والتنزيه:

١ - ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾[٥].

٢ - ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾[٦].

٣ - ﴿فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾[٧].

في حسن الخلق:

١ - ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ﴾[٨].

٢ - ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾[٩].

٣ - ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾[١٠].

٤ - ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[١١].

٥ - ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[١٢].

في الكذب والزور:

١ - ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾[١٣].

٢ - ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾[١٤].

٣ - ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾[١٥].

٤ - ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾[١٦].

---

(١) الفتح: الآية ٢٩.
(٢) الفتح: الآية ٢٦.
(٣) الأنعام: الآية ٩٠.
(٤) القصص: الآية ٢٦.
(٥) يوسف: الآية ٥١.
(٦) النور: الآية ٢٦.
(٧) الأحزاب: الآية ٦٩.
(٨) الأنعام: الآية ١٢٨.
(٩) غافر: الآية ٦٤.
(١٠) فاطر: الآية ١.
(١١) المؤمنون: الآية ١٤.
(١٢) النمل: الآية ٨٨.
(١٣) المجادلة: الآية ٢.
(١٤) ص: الآية ٧.
(١٥) الكهف: الآية ٥.
(١٦) البقرة: الآية ٧٩.

obeikandl.com

٥ - ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾[١].

٦ - ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾[٢].

في الخيانة ونقض العهد:

١ - ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ﴾[٣].

٢ - ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ﴾[٤].

٣ - ﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾[٥].

٤ - ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ﴾[٦].

٥ - ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾[٧].

٦ - ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾[٨].

في السخرية والغيبة والنميمة والجهر:

١ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ﴾[٩].

٢ - ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ﴾[١٠].

٣ - ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ﴾[١١].

٤ - ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾﴾[١٢].

٥ - ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾[١٣].

في القتل والانتحار:

١ - ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾[١٤].

٢ - ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾[١٥].

---

(١) البقرة: الآية ٥٩.
(٢) الأنعام: الآية ٢٤.
(٣) البقرة: الآية ١٠٠.
(٤) الأعراف: الآية ١٠٢.
(٥) التوبة: الآية ١٢.
(٦) الفتح: الآية ١٠.
(٧) النساء: الآية ١٠٧.
(٨) يوسف: الآية ٥٢.
(٩) الحجرات: الآية ١١.
(١٠) الحجرات: الآية ١٢.
(١١) النساء: الآية ١٤٨.
(١٢) الهمزة: الآية ١.
(١٣) المطففين: الآية ٣٠.
(١٤) الإسراء: الآية ٣١.
(١٥) الإسراء: الآية ٣٣.

obeikandl.com

٣ ـ ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[١].

٤ ـ ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾[٢].

في الزنا:

١ ـ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾[٣].

٢ ـ ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[٤].

في الخمر والميسر:

١ ـ ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾[٥].

٢ ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾[٦].

في البخل وحب المال:

١ ـ ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾[٧].

٢ ـ ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٨].

٣ ـ ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾﴾[٩].

٤ ـ ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾[١٠].

في الربا:

١ ـ ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾[١١].

٢ ـ ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾[١٢].

---

(١) البقرة: الآية ١٩٥. (٢) النساء: الآية ٢٩. (٣) الإسراء: الآية ٣٢.
(٤) النور: الآية ٣٣. (٥) البقرة: الآية ٢١٩. (٦) المائدة: الآيتان ٩٠، ٩١.
(٧) محمد: ألآية ٣٨. (٨) التوبة: الآية ٣٤. (٩) الهمزة: الآيتان ٢، ٣.
(١٠) الفجر: الآيتان ١٩، ٢٠. (١١) البقرة: الآية ٢٧٥. (١٢) البقرة: الآية ٢٧٦.

obeikandi.com

في العجب والكبر:

١ ـ ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾(١).

٢ ـ ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾﴾(٢).

٣ ـ ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾(٣).

٤ ـ ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾(٤).

٥ ـ ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾(٥).

٦ ـ ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾(٦).

في الاستبداد والأثرة:

١ ـ ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾(٧).

٢ ـ ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾(٨).

٣ ـ ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾(٩).

في التفرق والاختلاف:

١ ـ ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾(١٠).

٢ ـ ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾(١١).

٣ ـ ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾(١٢).

٤ ـ ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾﴾(١٣).

في الجبن والفرار:

١ ـ ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾(١٤).

٢ ـ ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾(١٥).

---

(١) القصص: الآية ٣٩.
(٢) القيامة: الآية ٣٣.
(٣) الحج: الآية ٩.
(٤) الزمر: الآية ٦٠.
(٥) غافر: الآية ٥٦.
(٦) لقمان: الآية ١٨.
(٧) الأعراف: الآية ١٣١.
(٨) النور: الآية ٤٩.
(٩) غافر: الآية ٢٩.
(١٠) الحشر: الآية ١٤.
(١١) المؤمنون: الآية ٥٣.
(١٢) مريم: الآية ٣٧.
(١٣) الذاريات: الآية ٨.
(١٤) الأحزاب: الآية ١٣.
(١٥) المنافقون: الآية ٤.

obeikandl.com

٣ ـ ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾(١).

فيمن يأمر بما لا يفعل ويعلم ولا يعمل:

١ ـ ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾(٢).

٢ ـ ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾(٣).

٣ ـ ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾(٤).

في الغفلة:

١ ـ ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾(٥).

٢ ـ ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾﴾(٦).

٣ ـ ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾﴾(٧).

٤ ـ ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾(٨).

٥ ـ ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾(٩).

٦ ـ ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾﴾(١٠).

في إنكار الجميل:

١ ـ ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾(١١).

٢ ـ ﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾(١٢).

٣ ـ ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾(١٣).

٤ ـ ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾﴾(١٤).

٥ ـ ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾﴾(١٥).

---

(١) الأحزاب: الآية ١٩. (٢) البقرة: الآية ٤٤. (٣) الصف: الآية ٢.
(٤) الجمعة: الآية ٥. (٥) الحجر: الآية ٧٢. (٦) الذاريات: الآيتان ١٠، ١١.
(٧) الصافات: الآية ١٣. (٨) الماعون: الآيتان ٤، ٥. (٩) مريم: الآية ٣٩.
(١٠) الرّوم: الآية ٧. (١١) يونس: الآية ١٢. (١٢) المؤمنون: الآية ٧٥.
(١٣) الشّورى: الآية ٢٧. (١٤) العلق: الآيتان ٦، ٧. (١٥) عبس: الآية ١٧.

في الذم والإهانة والتهكم والتحقير:

١ ـ ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ (١).

٢ ـ ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥﴾ (٢).

٣ ـ ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠﴾ (٣).

٤ ـ ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ (٤).

٥ ـ ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ (٥).

٦ ـ ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ۝٧﴾ (٦).

٧ ـ ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ (٧).

٨ ـ ﴿سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ (٨).

٩ ـ ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ (٩).

١٠ ـ ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ (١٠).

١١ ـ ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ۝٤٩﴾ (١١).

١٢ ـ ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ۝١٤﴾ (١٢).

١٣ ـ ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ (١٣).

١٤ ـ ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٤).

١٥ ـ ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ (١٥).

١٦ ـ ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ (١٦).

١٧ ـ ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ (١٧).

١٨ ـ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ (١٨).

---

(١) يوسف: الآية ٧٧.
(٢) الطّارق: الآية ٥.
(٣) الحاقة: الآية ٣٠.
(٤) هود: الآية ٩١.
(٥) الأعراف: الآية ٣٨.
(٦) الغاشية: الآية ٧.
(٧) يس: ألآية ١٨.
(٨) الجاثية: الآية ٢١.
(٩) غافر: الآية ١٠.
(١٠) الرّحمن: الآية ٤١.
(١١) الدخان: الآية ٤٩.
(١٢) الذّاريات: الآية ١٤.
(١٣) الحج: الآية ١٨.
(١٤) الإسراء: الآية ٨٥.
(١٥) النّجم: الآية ٣٠.
(١٦) الأعراف: الآية ١٧٦.
(١٧) الجمعة: الآية ٥.
(١٨) البينة: الآية ٦.

obeikandl.com

١٩ ـ ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾[١].

٢٠ ـ ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾[٢].

٢١ ـ ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾[٣].

٢٢ ـ ﴿لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾[٤].

٢٣ ـ ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾[٥].

٢٤ ـ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾[٦].

٢٥ ـ ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾[٧].

٢٦ ـ ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾[٨].

في الضالين والمضلين:

١ ـ ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾[٩].

٢ ـ ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾[١٠].

٣ ـ ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[١١].

٤ ـ ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾﴾[١٢].

٥ ـ ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾[١٣].

٦ ـ ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾[١٤].

فيمن عميت بصيرتهم وأضلهم هواهم:

١ ـ ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾[١٥].

٢ ـ ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[١٦].

---

(١) القلم: الآيات١١ ـ١٣.
(٢) القصص: الآية ١٨.
(٣) الكوثر: الآية ٣.
(٤) آل عمران: الآية ٧٧.
(٥) النحل: الآية ٧٦.
(٦) المجادلة: الآية ١٩.
(٧) المجادلة: الآية ١٦.
(٨) النساء: الآية ٧٨.
(٩) الصافات: ٦٩، ٧٠.
(١٠) محمد: الآية ٢٥.
(١١) الأنعام: الآية ١١٩.
(١٢) الصافات: الآية ٧١.
(١٣) الأعراف: الآية ٢٠٢.
(١٤) الأحزاب: الآية ٦٧.
(١٥) الأعراف: الآية ١٧٩.
(١٦) الحجّ: الآية ٤٦.

obeikandl.com

٣ ـ ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾[١]؟!

في قرناء السوء، والغاوين والنهي عن إتباعهم:

١ ـ ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[٢].

٢ ـ ﴿يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾[٣].

٣ ـ ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾[٤].

٤ ـ ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٥].

٥ ـ ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾[٦].

٦ ـ ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾[٧].

٧ ـ ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾[٨].

في التنبيه على الخطأ والضلال:

١ ـ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾[٩].

٢ ـ ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾[١٠].

٣ ـ ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾[١١].

٤ ـ ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾[١٢].

٥ ـ ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾[١٣].

٦ ـ ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾[١٤].

٧ ـ ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[١٥].

في المنافقين والمرائين:

١ ـ ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾[١٦].

---

(١) الجاثية: الآية ٢٣.
(٢) الكهف: الآية ٢٨.
(٣) الحج: الآية ١٣.
(٤) هود: الآية ١١٣.
(٥) يونس: الآية ٨٩.
(٦) الأعراف: الآية ٢٠٢.
(٧) الزخرف: الآية ٣٨.
(٨) الفرقان: الآية ٢٨.
(٩) الصّافات: الآية ١٥٤.
(١٠) التكوير: الآية ٢٦.
(١١) البقرة: الآية ٦١.
(١٢) النجم: الآية ٢٢.
(١٣) يوسف: الآية ٩٥.
(١٤) إبراهيم: الآية ١٨.
(١٥) الكهف: الآية ١٠٤.
(١٦) آل عمران: الآية ١١٨.

obeikandl.com

٢ - ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾[١].

٣ - ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾[٢].

٤ - ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾[٣].

٥ - ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[٤].

٦ - ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾[٥].

٧ - ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾[٦].

٨ - ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾[٧].

٩ - ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾[٨].

١٠ - ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾[٩].

في تمثيل أعمال المرائين والمنافقين:

١ - ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾[١٠].

٢ - ﴿أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾[١١].

٣ - ﴿أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾[١٢].

في الإنذار والوعيد:

١ - ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[١٣].

٢ - ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[١٤].

٣ - ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾[١٥].

---

(١) آل عمران: الآية ١١٩.
(٢) الفتح: الآية ١١.
(٣) التوبة: الآية ٨.
(٤) التوبة: الآية ١٠٧.
(٥) آل عمران: الآية ١٢٠.
(٦) النساء: الآية ١٤٣.
(٧) التوبة: الآية ٤٧.
(٨) التوبة: الآية ٤٨.
(٩) التوبة: الآية ٥٦.
(١٠) البقرة: الآية ٢٦٤.
(١١) إبراهيم: الآية ١٨.
(١٢) النور: الآية ٣٩.
(١٣) البقرة: الآية ١٧٨.
(١٤) الأنعام: الآية ٥.
(١٥) الأنعام: الآية ٦٧.

obeikan.com

٤ ـ ﴿وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾(١).

٥ ـ ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾(٢).

٦ ـ ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾(٣).

٧ ـ ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾(٤).

٨ ـ ﴿ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾(٥).

٩ ـ ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾(٦).

١٠ ـ ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾(٧).

١١ ـ ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾(٨).

١٢ ـ ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾(٩).

١٣ ـ ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾(١٠).

١٤ ـ ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾(١١).

١٥ ـ ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾(١٢).

١٦ ـ ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾(١٣).

١٧ ـ ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾(١٤).

١٨ ـ ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾(١٥).

١٩ ـ ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾(١٦).

٢٠ ـ ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾﴾(١٧).

٢١ ـ ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾(١٨).

---

(١) الأنفال: الآية ١٩.
(٢) الأعراف: الآية ٧١.
(٣) الأنفال: الآية ٢٥.
(٤) الأنفال: الآية ٧٣.
(٥) هود: الآية ٦٥.
(٦) هود: ٨٣.
(٧) إبراهيم: الآية ٥٢.
(٨) المؤمنون: الآية ٤٠.
(٩) الشعراء: الآية ٢٢٧
(١٠) مريم: الآية ٧٥.
(١١) هود: الآية ٩٣.
(١٢) الطارق: الآيتان ١٤،١٣.
(١٣) الحجر: الآية ٣.
(١٤) القمر: الآية ٢٦.
(١٥) القمر: الآية ٤٥.
(١٦) التغابن: الآية ٧.
(١٧) القمر: الآية ٤.
(١٨) فصلت: الآية ٤٠.

obeikandl.com

٢٢ ـ ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾(١).

٢٣ ـ ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾(٢).

٢٤ ـ ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾(٣).

٢٥ ـ ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾(٤).

٢٦ ـ ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ۝٥٩﴾(٥).

٢٧ ـ ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ۝١٢١ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ۝١٢٢﴾(٦).

٢٨ ـ ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾(٧).

٢٩ ـ ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ۝٤٥﴾(٨).

٣٠ ـ ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ۝٤٦﴾(٩).

٣١ ـ ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾(١٠).

٣٢ ـ ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾(١١).

٣٣ ـ ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾(١٢).

٣٤ ـ ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾(١٣).

٣٥ ـ ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ ۝٨٨﴾(١٤).

٣٦ ـ ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ۝١٦﴾(١٥).

٣٧ ـ ﴿أَوَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾(١٦).

٣٨ ـ ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١﴾(١٧).

٣٩ ـ ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾(١٨).

---

(١) الملك: الآية ٢٩.
(٢) المرسلات: الآية ٧.
(٣) غافر: الآية ٤٤.
(٤) التوبة: الآية ٨٢.
(٥) الذاريات: الآية ٥٩.
(٦) هود: الآيتان ١٢١، ١٢٢.
(٧) النبأ: الآيتان ٤، ٥.
(٨) إبراهيم: الآية ٤٥.
(٩) المرسلات: الآية ٤٦.
(١٠) النمل: الآية ٣٧.
(١١) طه: الآية ٦٤.
(١٢) التوبة: الآية ٨٥.
(١٣) ق: الآية ٢٢.
(١٤) ص: الآية ٨٨.
(١٥) القلم: الآية ١٦.
(١٦) القصص: الآية ٧٨.
(١٧) القيامة: الآية ١١.
(١٨) السجدة: الآية ٢٢.

obeikandl.com

٤٠ ـ ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١).

٤١ ـ ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾(٢).

في الحياة الزوجية:

١ ـ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾(٣).

٢ ـ ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾(٤).

٣ ـ ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ ۚ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾(٥).

٤ ـ ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾(٦).

٥ ـ ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾(٧).

٦ ـ ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾(٨).

٧ ـ ﴿وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾(٩).

في آداب النساء:

١ ـ ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾(١٠).

٢ ـ ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾(١١).

٣ ـ ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾(١٢).

٤ ـ ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾(١٣).

٥ ـ ﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾(١٤).

---

(١) الأعراف: الآية ١٨٢.
(٢) النمل: الآية ٢٧.
(٣) الروم: الآية ٢١.
(٤) البقرة: الآية ٢٣٧.
(٥) النساء: الآية ٣٥.
(٦) البقرة: الآية ٢٢٨.
(٧) النساء: الآية ١٢٨.
(٨) النساء: الآية ١٩.
(٩) الطلاق: الآية ٦.
(١٠) النور: الآية ٣١.
(١١) الأحزاب: الآية ٣٣.
(١٢) النساء: الآية ٢٥.
(١٣) الأحزاب: الآية ٣٢.
(١٤) الأحزاب: الآية ٣٢.

obeikandl.com

في الصلح والسلم:

١ ـ ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ﴾[١].

٢ ـ ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ﴾[٢].

٣ ـ ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ﴾[٣].

٤ ـ ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾[٤].

٥ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾[٥].

الناس بخير ما تباينوا:

١ ـ ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ﴾[٦].

٢ ـ ﴿وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ﴾[٧].

في الحثّ على الصدقة والنهي عما يبطلها:

١ ـ ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ﴾[٨].

٢ ـ ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾[٩].

٣ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾[١٠].

٤ ـ ﴿قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ﴾[١١].

٥ ـ ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ﴾[١٢].

٦ ـ ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ﴿١٠﴾﴾[١٣].

في التحية والاستئذان:

١ ـ ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ﴾[١٤].

---

(١) الأنفال: الآية ١.
(٢) الحجرات: الآية ١٠.
(٣) النساء: الآية ١٢٨.
(٤) الأنفال: الآية ٦١.
(٥) البقرة: الآية ٢٠٨.
(٦) هود: الآيتان ١١٨، ١١٩.
(٧) الزخرف: الآية ٣٢.
(٨) البقرة: الآية ٢٦١.
(٩) آل عمران: الآية ٩٢.
(١٠) البقرة: الآية ٢٦٤.
(١١) البقرة: الآية ٢٦٣.
(١٢) البقرة: الآية ٢٧٢.
(١٣) الضحى: الآية ١٠.
(١٤) النساء: الآية ٨٦.

obeikandi.com

٢ - ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾[١].

٣ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾[٢].

٤ - ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾[٣].

٥ - ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾[٤].

في آداب المشي:

١ - ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾[٥].

٢- ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾[٦].

٣ - ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾[٧]

في التلطف والدعوة والطلب:

١ - ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾[٨].

٢ - ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[٩].

٣ - ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾[١٠].

٤ - ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾[١١].

٥ - ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾[١٢].

٦ - ﴿فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾[١٣].

في الشّورى:

١ - ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾[١٤].

٢ - ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[١٥].

---

(١) هود: الآية ٧٣.
(٢) النور: ٢٧.
(٣) النور: ٢٨.
(٤) النور: ٦٢.
(٥) لقمان: الآية ١٩.
(٦) الإسراء: ٣٧.
(٧) الفرقان: ٦٣.
(٨) هود: ٨٨.
(٩) غافر: ٣٨.
(١٠) الكهف ٦٦.
(١١) النازعات: ١٨.
(١٢) الشعراء: ١٠٧.
(١٣) مريم: ٤٣.
(١٤) آل عمران: ١٥٩.
(١٥) الشورى: ٣٨.

obeikandl.com

٣ ـ ﴿أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾[١].

في الشفاعة:

١ ـ ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ﴾[٢].

في الخطأ والاضطرار:

١ ـ ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ﴾[٣].

٢ ـ ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ﴾[٤].

في المسؤولية عن العمل:

١ ـ ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ﴾[٥].

٢ ـ ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾[٦].

٣ ـ ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[٧].

٤ ـ ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ ۖ﴾[٨].

٥ ـ ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ﴾[٩].

في الجهاد:

١ ـ ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[١٠].

٢ ـ ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾[١١].

٣ ـ ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[١٢].

٤ ـ ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾[١٣].

---

(١) النمل: ٣٢.
(٢) النساء: ٨٥.
(٣) الأحزاب: ٥.
(٤) البقرة: الآية ١٧٣.
(٥) الأنعام: ١٦٤.
(٦) النجم: الآية ٣٩.
(٧) الطور: الآية ٢١.
(٨) الإسراء: الآية ١٣.
(٩) المائدة: الآية ١٠٥.
(١٠) الأنفال: الآية ٦٠.
(١١) البقرة: الآية ١٩٣.
(١٢) النساء: الآية ٩٥.
(١٣) البقرة: الآية ٢٥١.

obeikandl.com

في الأيمان:

١ ـ ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾(١).

٢ ـ ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾(٢).

٣ ـ ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾(٣).

في الكلام والاستماع:

١ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾(٤).

٢ ـ ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾(٥).

٣ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾(٦).

٤ ـ ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾(٧).

٥ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾﴾(٨).

٦ ـ ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ﴾(٩).

٧ ـ ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾(١٠).

في الجدل والمناظرة:

١ ـ ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾(١١).

٢ ـ ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾(١٢).

في تباين المذاهب وتفاوت الدرجات:

١ ـ ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾(١٣).

٢ ـ ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾(١٤).

---

(١) المائدة: الآية ٨٩.
(٢) البقرة: الآية ٢٢٤.
(٣) النحل: الآية ٩١.
(٤) إبراهيم: ٢٤، ٢٥.
(٥) إبراهيم: الآية ٢٦.
(٦) الزمر: الآية ١٨.
(٧) البقرة: الآية ٨٣.
(٨) الأحزاب: الآية ٧٠.
(٩) القصص: الآية ٥٥.
(١٠) الفرقان: الآية ٧٢.
(١١) العنكبوت: الآية ٤٦.
(١٢) النحل: الآية ١٢٥.
(١٣) المائدة: الآية ٤٨.
(١٤) البقرة: الآية ١٤٨.

obeikandl.com

٣ ـ ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾(١).

٤ ـ ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ﴾(٢).

٥ ـ ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾(٣).

٦ ـ ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾(٤).

٧ ـ ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾(٥).

وبضدها تتميز الأشياء:

١ ـ ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾(٦).

٢ ـ ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾(٧).

٣ ـ ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾(٨).

٤ ـ ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾(٩).

٥ ـ ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾(١٠).

٦ ـ ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١١).

في الحث على العمل والسعي والتنافس والمهاجرة:

١ ـ ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾(١٢).

٢ ـ ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾(١٣).

٣ ـ ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾(١٤).

٤ ـ ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾(١٥).

في الجزاء على العمل:

١ ـ ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾(١٦).

---

(١) الإسراء: الآية ٨٤.
(٢) النحل: الآية ٧١.
(٣) الصافات: الآية ١٦٤.
(٤) يوسف: الآية ٧٦.
(٥) الجن: الآية ١١.
(٦) المائدة: الآية ١٠٠.
(٧) التوبة: الآية ١٠٩.
(٨) هود: الآية ٢٤.
(٩) فاطر: الآية ١٢.
(١٠) الملك: الآية ٢٢.
(١١) الزمر: الآية ٩.
(١٢) الأنعام: الآية ١٣٢.
(١٣) المطففين: الآية ٢٦.
(١٤) النساء: الآية ٩٧.
(١٥) الملك: الآية ١٥.
(١٦) الروم: الآية ٤١.

٢ ـ ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾[١].

٣ ـ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾[٢].

٤ ـ ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾[٣].

الجزاء من جنس العمل:

١ ـ ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾[٤].

٢ ـ ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾[٥].

٣ ـ ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾[٦].

٤ ـ ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[٧].

٥ ـ ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[٨].

٦ ـ ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾[٩].

٧ ـ ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[١٠].

٨ ـ ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾[١١].

٩ ـ ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾[١٢].

١٠ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[١٣].

١١ ـ ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾[١٤].

١٢ ـ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾[١٥].

١٣ ـ ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾[١٦].

---

(١) الإنسان: الآية ٢٢.
(٢) الزلزلة: الآيتان ٧، ٨.
(٣) النجم: الآيتان ٣٩ـ٤١.
(٤) الأنفال: الآية ٦١.
(٥) التوبة: الآية ٧.
(٦) النحل: الآية ١٢٦.
(٧) الشورى: الآية ٤٠.
(٨) البقرة: الآية ١٩٤.
(٩) الرحمن: الآية ٦٠.
(١٠) يونس: الآية ٢٦.
(١١) البقرة: الآية ١٥٢.
(١٢) الإسراء: الآية ٨.
(١٣) الرعد: الآية ١١.
(١٤) البقرة: الآية ٤٠.
(١٥) هود: الآية ١١٧.
(١٦) النبأ: الآية ٢٦.

obeikandl.com

شبيه الشيء منجذب إليه:

١ - ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ﴾[١].

في الإفساد والبغي والنهي عنهما:

١ - ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾[٢].

٢ - ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ﴾[٣].

٣ - ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[٤].

٤ - ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾[٥].

في المفسدين المكابرين:

١ - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾[٦].

٢ - ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾[٧].

٣ - ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾[٨].

في غرور الظلمة واستدراجهم:

١ - ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ﴾[٩].

٢ - ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾[١٠].

٣ - ﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾[١١].

٤ - ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ﴾[١٢].

٥ - ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾[١٣].

٦ - ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾﴾[١٤].

٧ - ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾[١٥].

---

(١) النور: الآية ٢٦.
(٢) الأعراف: الآية ٥٦.
(٣) القصص: الآية ٧٧.
(٤) ص: الآية ٢٤.
(٥) المائدة: الآية ٢.
(٦) البقرة: الآيتان ١١، ١٢.
(٧) الكهف: الآية ١٠٤.
(٨) المجادلة: الآية ١٨.
(٩) الأنعام: الآية ١١٢.
(١٠) النساء: الآية ١٢٠.
(١١) فاطر: الآية ٤٠.
(١٢) إبراهيم: الآية ٤٢.
(١٣) الأعراف: الآية ١٨٣.
(١٤) المؤمنون: الآية ٥٤.
(١٥) مريم: الآية ٨٤.

obeikandl.com

٨ ـ ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١].

٩ ـ ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾[٢].

في سوء عاقبة الظالمين والشماتة بما يصيبهم:

١ ـ ﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ۝١١٩﴾[٣].

٢ ـ ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾[٤].

٣ ـ ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٥].

٤ ـ ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾[٦].

٥ ـ ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾[٧].

٦ ـ ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾[٨].

٧ ـ ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٣٤﴾[٩].

٨ ـ ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾[١٠].

الإعراض عن الدعوة:

١ ـ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾[١١].

٢ ـ ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ۝٥١﴾[١٢].

٣ ـ ﴿ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣﴾[١٣].

في التدخل في ما لا يعني والنهي عنه:

١ ـ ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾[١٤].

٢ ـ ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾[١٥].

٣ ـ ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ﴾[١٦].

---

(١) الأعراف: الآية ١٨٢.
(٢) الحجر: الآية ٣.
(٣) الأعراف: الآية ١١٩.
(٤) الحج: الآية ١١.
(٥) يونس: الآية ٣٩.
(٦) سبأ: الآية ١٩.
(٧) النحل: الآية ٢٦.
(٨) النحل: الآية ٢٦.
(٩) النحل: الآية ٣٤.
(١٠) الكهف: الآية ٤٢.
(١١) لقمان: الآية ٧.
(١٢) المدثر: ٥٠، ٥١.
(١٣) المدثر: الآيتان ٢١ ـ ٢٣.
(١٤) الإسراء: الآية ٣٦.
(١٥) المائدة: الآية ١٠١.
(١٦) المائدة: الآية ١٠٥.

obeikandl.com

٤ ـ ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾[١] .

٥ ـ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾[٢] .

في الكرم والإكرام والضيافة:

١ ـ ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾[٣] .

٢ ـ ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا﴾[٤] .

٣ ـ ﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾[٥] .

٤ ـ ﴿فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا﴾[٦] .

٥ ـ ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾[٧] .

٦ ـ ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[٨] .

في التعزية وتهوين الخطب:

١ ـ ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٩] .

٢ ـ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾[١٠] .

٣ ـ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾[١١] .

٤ ـ ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[١٢] .

٥ ـ ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾[١٣] .

٦ ـ ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾[١٤] .

٧ ـ ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾[١٥] .

٨ ـ ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾[١٦] .

٩ ـ ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾[١٧] .

---

(١) هود: الآية ٤٦ .
(٢) آل عمران: الآية ١٢٨ .
(٣) الحجر: الآية ٤٦ .
(٤) الطور: الآية ١٩ .
(٥) النساء: الآية ٤ .
(٦) مريم: الآية ٢٦ .
(٧) الواقعة: ٢٠، ٢١ .
(٨) الحشر: الآية ٩ .
(٩) النحل: الآية ٨ .
(١٠) آل عمران: الآية ١٨٥ .
(١١) الرحمن: الآية ٢٦ .
(١٢) القصص: الآية ٨٨ .
(١٣) الشرح: الآيتان ٥، ٦ .
(١٤) يوسف: الآية ٨٧ .
(١٥) فاطر: الآية ٨ .
(١٦) النحل: الآية ١٢٧ .
(١٧) يونس: الآية ٦٥ .

obeikandl.com

١٠ ـ ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾[١].

في الكيل والميزان:

١ ـ ﴿۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾[٢].

٢ ـ ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾[٣].

في النهي عن الرشوة:

١ ـ ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾[٤].

٢ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾[٥].

في مال اليتيم ومتاعه:

١ ـ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[٦].

٢ ـ ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾[٧].

٣ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾[٨].

٤ ـ ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾﴾[٩].

في صك الدَّين وإنظار المعسر:

١ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾[١٠].

٢ ـ ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾[١١].

في الأحكام والحكام:

١ ـ ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾[١٢].

---

(١) الطلاق: الآية ٧.
(٢) الشعراء: ١٨١ ـ ١٨٣.
(٣) المطففين: ١ ـ ٣.
(٤) البقرة: الآية ١٨٨.
(٥) النساء: الآية ٢٩.
(٦) الأنعام: الآية ١٥٢.
(٧) النساء: الآية ٢.
(٨) النساء: الآية ١٠.
(٩) الضحى: الآية ٩.
(١٠) البقرة: الآية ٢٨٢.
(١١) البقرة: الآية ٢٨٠.
(١٢) النساء: الآية ٥٨.

obeikandi.com

٢ ـ ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾(١) .

٣ ـ ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾(٢) .

٤ ـ ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾(٣) .

في اتهام الأبرياء:

١ ـ ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾(٤) .

٢ ـ ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَـٰذَا سُبْحَـٰنَكَ هَـٰذَا بُهْتَـٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾(٥) .

٣ ـ ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾(٦) .

٤ ـ ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(٧) .

في المكابرة في الحق والمعاندة:

١ ـ ﴿وَيُجَـٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾(٨) .

٢ ـ ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ﴾(٩) .

٣ ـ ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ﴾(١٠) .

٤ ـ ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾(١١) .

٥ ـ ﴿يُجَـٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾(١٢) .

٦ ـ ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(١٣) .

٧ ـ ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾(١٤) .

في الحقّ والباطل:

١ ـ ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾(١٥) .

---

(١) الأنعام: الآية ١٥٢ .
(٢) المائدة: الآية ٨ .
(٣) البقرة: الآية ٤٢ .
(٤) النساء: الآية ١١٢ .
(٥) النور: الآية ١٦ .
(٦) النور: الآية ١٥ .
(٧) النور: الآية ١١ .
(٨) الكهف: الآية ٥٦ .
(٩) النمل: الآية ١٤ .
(١٠) الزخرف: الآية ٥٨ .
(١١) التوبة: الآية ٣٢ .
(١٢) الأنفال: الآية ٦ .
(١٣) البقرة: الآية ١٤٦ .
(١٤) الأنعام: الآية ٤٦ .
(١٥) الأنفال: الآية ٨ .

obeikandi.com

٢ ـ ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ (١).

٣ ـ ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (٢).

٤ ـ ﴿قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ (٣).

٥ ـ ﴿ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ﴾ (٤).

٦ ـ ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ﴾ (٥).

٧ ـ ﴿لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾ (٦).

٨ ـ ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ (٧).

٩ ـ ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ (٨).

في أداء الشهادة:

١ ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ (٩).

٢ ـ ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ (١٠).

٣ ـ ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ (١١).

٤ ـ ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟﴾ (١٢).

٥ ـ ﴿وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ (١٣).

٦ ـ ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ (١٤).

٧ ـ ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ (١٥).

في الخبر اليقين:

١ ـ ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ (١٦).

---

(١)يوسف: الآية ٥١. (٢)الرعد: الآية ١٧. (٣)غافر: الآية ٧٨.
(٤)يونس: الآية ٣٥. (٥)يونس: الآية ٣٢. (٦)الزخرف: الآية ٧٨.
(٧)الأعراف: الآية ١١٨. (٨)الفرقان: الآية ٣٣. (٩)النساء: الآية ١٣٥.
(١٠)البقرة: الآية ٢٨٣. (١١)النساء: الآية ٦. (١٢)البقرة: الآية ٢٨٢.
(١٣)البقرة: الآية ٢٨٢. (١٤)الأنبياء: الآية ٥٦. (١٥)يوسف: الآية ٨١.
(١٦)النجم: الآية ١٧.

obeikandi.com

٢ ـ ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾[١].

٣ ـ ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾[٢].

٤ ـ ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾[٣].

٥ ـ ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[٤].

في الاستنكار والعجب:

١ ـ ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾[٥].

٢ ـ ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝٨٩﴾[٦].

٣ ـ ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾[٧].

٤ ـ ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾[٨].

٥ ـ ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾[٩].

٦ ـ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾[١٠].

في المحاماة والدفاع عن الأثمة:

١ ـ ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ۝١٠٩﴾[١١].

٢ ـ ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾[١٢].

٣ ـ ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾[١٣].

٤ ـ ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾[١٤].

في التحدي وعدم المبالاة:

١ ـ ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾[١٥].

---

(١) الأعراف: الآية ٧.
(٢) الكهف: الآية ١٣.
(٣) النمل: الآية ٢٢.
(٤) فاطر: الآية ١٤.
(٥) الشعراء: الآية ١٦٨.
(٦) مريم: الآية ٨٩.
(٧) الكهف: الآية ٧١.
(٨) الكهف: الآية ٧٤.
(٩) المؤمنون: الآية ٢٤.
(١٠) هود: الآية ٧٢.
(١١) النساء: الآية ١٠٩.
(١٢) النساء: الآية ١٠٧.
(١٣) المائدة: الآية ٢.
(١٤) القصص: الآية ١٧.
(١٥) طه: الآية ٧٢.

obeikandl.com

٢ ـ ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾﴾[١].

٣ ـ ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾[٢].

٤ ـ ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[٣].

٥ ـ ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾[٤].

في النجوى والمؤامرة:

١ ـ ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾﴾[٥].

٢ ـ ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾[٦].

٣ ـ ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾[٧].

في الظن والشك:

١ ـ ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾[٨].

٢ ـ ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾[٩].

٣ ـ ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾[١٠].

٤ ـ ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ﴾[١١].

٥ ـ ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾[١٢].

٦ ـ ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾[١٣].

في التبرّؤ والتنصّل:

١ ـ ﴿فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾[١٤].

٢ ـ ﴿أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[١٥].

---

(١) المرسلات: الآية ٣٩. (٢) هود: الآية ٥٥. (٣) البقرة: الآية ١١١.
(٤) الأنعام: الآية ١٤٨. (٥) طه: الآية: ٦٢. (٦) النساء: الآية ١١٤.
(٧) الزخرف: الآية ٨٠. (٨) النجم: الآية ٢٨. (٩) هود: الآية ١١٠.
(١٠) إبراهيم: الآية ٩. (١١) النجم: الآية ٢٣. (١٢) يونس: الآية ٣٦.
(١٣) الحجرات: الآية ١٢. (١٤) الأنفال: الاية ٤٨. (١٥) يونس: الآية ٤١.

obeikandl.com

٣ ـ ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾[١] .

في موقف الظلمة والمجرمين أمام العدالة:

١ ـ ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾﴾[٢] .

٢ ـ ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾[٣] .

٣ ـ ﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾[٤] .

٤ ـ ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾﴾[٥] .

٥ ـ ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾[٦] .

٦ ـ ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾[٧] .

٧ ـ ﴿لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ﴾[٨] .

في حيرة المجرمين وإشفاقهم عند ظهور الحق:

١ ـ ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾[٩] .

٢ ـ ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾[١٠] .

٣ ـ ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾[١١] .

في الإفحام والإلزام:

١ ـ ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾[١٢] .

٢ ـ ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾[١٣] .

٣ ـ ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾[١٤]

في اليأس والتيئيس:

١ ـ ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾[١٥] .

---

(١) إبراهيم: الآية ٢٢. (٢) الصافات: الاية ٢٤. (٣) المرسلات: الآية ٣٨.
(٤) يونس: الآية ٢٨. (٥) الحاقة: الآية ٣٠. (٦) الصافات: الآية ٩٢.
(٧) الصافات: الآية ٢٥. (٨) ق: الآية ٢٨. (٩) القصص: الآية ٦٦.
(١٠) النمل: الآية ٨٥. (١١) الكهف: الآية ٤٩. (١٢) الإسراء: الآية ١٤.
(١٣) الجاثية: الآية ٢٩. (١٤) الكهف: الآية ٤٩. (١٥) يوسف: الآية ٤١.

obeikandl.com

٢ ـ ﴿فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ (١).

٣ ـ ﴿فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ﴾ (٢).

٤ ـ ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ (٣).

٥ ـ ﴿لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ﴾ (٤).

في إمضاء الأمر:

١ ـ ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ (٥).

٢ ـ ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ (٦).

٣ ـ ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ (٧).

٤ ـ ﴿فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ﴾ (٨).

في حال المجرمين وهم يعذبون:

١ ـ ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ (٩).

٢ ـ ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ (١٠).

٣ ـ ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ (١١).

٤ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ (١٢).

في الشيب والكبر والضعف:

١ ـ ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ (١٣).

٢ ـ ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ (١٤).

٣ ـ ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ﴾ (١٥).

---

(١) ص: الآية ٣. (٢) الطور: الآية ١٦. (٣) هود: الآية ٣٧.
(٤) التحريم: الآية ٧. (٥) آل عمران: الآية ١٥٩. (٦) مريم: الآية ٢١.
(٧) الصافات: الآية ١٠٢. (٨) البقرة: الآية ٦٨. (٩) السجدة: الآية ٢٠.
(١٠) هود: الآية ١٠٦. (١١) إبراهيم: الآية ١٧. (١٢) النساء: الآية ٥٦.
(١٣) مريم: الآية ٤. (١٤) مريم: الآية ٨. (١٥) يس: الآية ٦٨.

obeikandl.com

٤ - ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾[١].

جزع الناس ومظاهرهم عند البلاء:

١ - ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾[٢].

٢ - ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾[٣].

٣ - ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾[٤].

٤ - ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾[٥].

٥ - ﴿فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾﴾[٦].

في صفات الإنسان الفطرية:

١ - ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[٧].

٢ - ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾[٨].

٣ - ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾[٩].

٤ - ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾[١٠].

٥ - ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾[١١].

٦ - ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾[١٢].

٧ - ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾[١٣].

٨ - ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾[١٤].

في الخوف:

١ - ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾[١٥].

٢ - ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾[١٦].

---

(١) النحل: الآية ٧٠. (٢) إبراهيم: الآية ٤٣. (٣) الحج: الآية ٢.
(٤) مريم: الآية ٩٨. (٥) عبس: الآيات ٤٠ ـ ٤٢. (٦) القلم: الآية ٢٣.
(٧) إبراهيم: الآية ٣٤. (٨) الكهف: الآية ٥٤. (٩) الأنبياء: الآية ٣٧.
(١٠) الروم: الآية ٣٠. (١١) النساء: الآية ٢٨. (١٢) العلق: الآيتان ٦، ٧.
(١٣) المعارج: الآيات ١٩ ـ ٢١. (١٤) عبس: الآية ١٧. (١٥) القصص: الآية ١٨.
(١٦) القصص: الآية ٢١.

obeikandi.com

٣ ـ ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ (١).

٤ ـ ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ (٢).

٥ ـ ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ (٣).

٦ ـ ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ (٤).

٧ ـ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ (٥).

٨ ـ ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ (٦).

٩ ـ ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ (٧).

في التضجر والتحسر وإظهار الضعف:

١ ـ ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ (٨).

٢ ـ ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (٩).

٣ ـ ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ (١٠).

٤ ـ ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ (١١).

٥ ـ ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ (١٢).

٦ ـ ﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾﴾ (١٣).

٧ ـ ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾ (١٤).

في النفس الأمارة بالسوء:

١ ـ ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ (١٥).

٢ ـ ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ (١٦).

---

(١) الكهف: الآية ١٨.
(٢) الزمر: الآية ١٦.
(٣) الذاريات: الآية ٢٨.
(٤) طه: الآية ٤٥.
(٥) الشعراء: الآية ١٢.
(٦) ص: الآية ٢٢.
(٧) الحجر: الآية ٥٢.
(٨) الكهف: الآية ٦٢.
(٩) النساء: الآية ٧٣.
(١٠) مريم: الآية ٢٣.
(١١) القصص: الآية ١٥.
(١٢) القمر: الآية ٨.
(١٣) الحاقة: الآية ٢٧.
(١٤) الشعراء: الآية ١٣.
(١٥) النساء: الآية ٧٩.
(١٦) يوسف: الآية ٥٣.

obeikandi.com

في الخجل والاستحياء:

١ ـ ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾[١].

٢ ـ ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾[٢].

في النسيان:

١ ـ ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾[٣].

٢ ـ ﴿فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾[٤].

٣ ـ ﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾[٥].

٤ ـ ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾[٦].

٥ ـ ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾[٧].

٦ ـ ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾[٨].

٧ ـ ﴿لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ﴾[٩].

في الرؤيا والأحلام:

١ ـ ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[١٠].

٢ ـ ﴿أَفْتُونِى فِى رُءْيَىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾[١١].

٣ ـ ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾[١٢].

٤ ـ ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾[١٣].

٥ ـ ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾[١٤].

الفرح بزوال المكروه:

١ ـ ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾[١٥].

---

(١) القصص: الآية ٢٥.
(٢) النحل: الآية ٥٩.
(٣) الكهف: الآية ٦٣.
(٤) طه: الآية ١١٥.
(٥) المائدة: الآية ١٣.
(٦) البقرة: الآية ٢٣٧.
(٧) الكهف: الآية ٢٤.
(٨) الأعلى: الآية ٦.
(٩) الكهف: الآية ٧٣.
(١٠) يوسف: الآية ٣٦.
(١١) يوسف: الآية ٤٣.
(١٢) يوسف: الآية ٤٤.
(١٣) يوسف: الآية ٤٥.
(١٤) يوسف: الآية ١٠٠.
(١٥) الأحزاب: الآية ٢٥.

obeikandl.com

٢ ـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾[١].

٣ ـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٢].

٤ ـ ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾[٣].

٥ ـ ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾﴾[٤].

٦ ـ ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾[٥].

٧ ـ ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾[٦].

في النعيم والسرور والقصور وما حوت:

١ ـ ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾[٧].

٢ ـ ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾[٨].

٣ ـ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾[٩].

٤ ـ ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾[١٠].

٥ ـ ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾[١١].

٦ ـ ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾﴾[١٢].

٧ ـ ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾[١٣].

في الجبال والبحار والسفن والأمواج:

١ ـ ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾[١٤].

٢ ـ ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾[١٥].

٣ ـ ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾[١٦].

٤ ـ ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾[١٧].

---

(١) فاطر: الآية ٣٤.
(٢) المؤمنون: الآية ٢٨.
(٣) الأنعام: الآية ٤٥.
(٤) الأعراف: الآية ١١٨.
(٥) آل عمران: الآية ١٧٤.
(٦) غافر: الآية ٤٥.
(٧) المطففين: الآية ٢٤.
(٨) الإنسان: الآية ١٩.
(٩) عبس: الآيتان ٣٨، ٣٩.
(١٠) الغاشية: الآيات ١٣ ـ ١٦.
(١١) الرحمن: الآية ٥٤.
(١٢) الإنسان: الآية ١٥.
(١٣) الكهف: الآية ٣١.
(١٤) فاطر: الآية ٢٧.
(١٥) هود: الآية ٤١.
(١٦) هود: الآية ٤٢.
(١٧) النّور: الآية ٤٠.

obeikandl.com

٥ - ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾[١] .

٦ - ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾[٢] .

٧ - ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾﴾[٣] .

في المطر والبرق والرعد والريح:

١ - ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَـٰرِ﴾[٤] .

٢ - ﴿هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾[٥] .

٣ - ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٦] .

٤ - ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾[٧] .

في البساتين والرّوح والريحان:

١ - ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾[٨] .

٢ - ﴿فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾﴾[٩] .

٣ - ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾[١٠] .

في التفكر والنظر والاستدلال على الخالق:

١ - ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾[١١] .

٢ - ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[١٢] .

٣ - ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[١٣] .

٤ - ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾[١٤] .

٥ - ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾[١٥] .

---

(١) طه: الآية ٧٨.
(٢) هود: الآية ٤٣.
(٣) الرحمن: الآية ٢٤.
(٤) النور: الآية ٤٣.
(٥) الأحقاف: الآية ٢٤.
(٦) الأحقاف: الآية ٢٤.
(٧) الأعراف: الآية ٥٧.
(٨) الإنسان: الآية ١٤.
(٩) الرحمن: الآيتان ١١، ١٢.
(١٠) الواقعة: ٢٨ ـ٣٣.
(١١) الأنعام: الآية ٣٨.
(١٢) النمل: الآية ٨٨.
(١٣) الروم: الآية ٢٧.
(١٤) لقمان: الآية ٢٨.
(١٥) غافر: الآية ٥٧.

obeikandl.com

٦ - ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾[١].

٧ - ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾[٢].

٨ - ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾[٣].

٩ - ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾﴾[٤].

١٠ - ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾[٥].

١١ - ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ﴾[٦].

١٢ - ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾[٧].

في العظة والعبرة:

١ - ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾[٨].

٢ - ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾[٩].

٣ - ﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾[١٠].

٤ - ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾[١١].

٥ - ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾﴾[١٢].

٦ - ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾[١٣].

٧ - ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[١٤].

٨ - ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ﴾[١٥].

في نعم الله وفضله:

١ - ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ﴾[١٦].

---

(١) الدخان: الآية ٣٨.
(٢) الذاريات: الآية ٢١.
(٣) عبس: الآية ٢٤.
(٤) الطارق: الآية ٥.
(٥) نوح: الآيتان ١٧، ١٨.
(٦) الإسراء: الآية ١٢.
(٧) الحج: الآية ٥.
(٨) ق: الآية ٣٧.
(٩) الحشر: الآية ٢.
(١٠) هود: الآية ١١٤.
(١١) الحاقة: الآية ١٢.
(١٢) النازعات: الآية ٢٦.
(١٣) آل عمران: الآية ١٣.
(١٤) البقرة: الآية ٢٦٩.
(١٥) يوسف: الآية ١١١.
(١٦) البقرة: الآية ١٧٨.

obeikandl.com

٢ ـ ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[١].

٣ ـ ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾[٢].

٤ ـ ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[٣].

٥ ـ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾[٤].

ما استأثر الله بعلمه:

١ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾[٥].

في العمل لوجه الله لا لجزاء الناس:

١ ـ ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾[٦].

٢ ـ ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾[٧].

وصف الدنيا وتحقير متاعها:

١ ـ ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾[٨].

٢ ـ ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾[٩].

٣ ـ ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[١٠].

في التحذير من النفس والشيطان وغرور الدنيا:

١ ـ ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾[١١].

٢ ـ ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾[١٢].

٣ ـ ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾[١٣].

في التسليم بقضائه تعالى وقدره:

١ ـ ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾[١٤].

٢ ـ ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾[١٥].

---

(١) البقرة: الآية ١٨٥. (٢) هود: الآية ٦. (٣) إبراهيم: الآية ٣٤.
(٤) الرعد: الآية ٦. (٥) لقمان: الآية ٣٤. (٦) الإنسان: الآية ٩.
(٧) الشعراء: الآية ١٠٩. (٨) النساء: الآية ٧٧. (٩) محمد: الآية ٣٦.
(١٠) آل عمران: الآية ١٨٥. (١١) البقرة: الآية ٢٦٨. (١٢) يوسف: الآية ٥٣.
(١٣) لقمان: الآية ٣٣. (١٤) التوبة: الآية ٥١. (١٥) الأنعام: الآية ١١٢.

٣ ـ ﴿لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾[١].

٤ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾[٢].

٥ ـ ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[٣].

٦ ـ ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾[٤].

٧ ـ ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾[٥].

٨ ـ ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾[٦].

٩ ـ ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾[٧].

١٠ ـ ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾[٨].

في الترغيب في التقوى والإحسان:

١ ـ ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[٩].

٢ ـ ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[١٠].

٣ ـ ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[١١].

٤ ـ ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[١٢].

٥ ـ ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[١٣].

في الاعتماد على الله والتوكل:

١ ـ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾[١٤].

٢ ـ ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾[١٥].

٣ ـ ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[١٦].

٤ ـ ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[١٧].

٥ ـ ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾[١٨].

---

(١) الأنفال: الآية ٤٢.
(٢) الطلاق: الآية ٣.
(٣) الأعراف: الآية ٥٤.
(٤) الرعد: الآية ٢٦.
(٥) القصص: الآية ٦٨.
(٦) الروم: الآية ٤.
(٧) الشورى: الآية ٥٣.
(٨) الأنبياء: الآية ٢٣.
(٩) الأنعام: الآية ١٦٠.
(١٠) هود: الآية ١١٤.
(١١) الحجرات: الآية ١٣.
(١٢) الزخرف: الآية ٣٢.
(١٣) يونس: الآية ٢٦.
(١٤) النحل: الآية ٩.
(١٥) إبراهيم: الآية ٢٠.
(١٦) آل عمران: الآية ١٧٣.
(١٧) يوسف: الآية ٨٦.
(١٨) النجم: الآية ٥٨.

obeikandl.com

٦ ـ ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ (١).

في الموت وعدم تخلف الآجال:

١ ـ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ (٢).

٢ ـ ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ (٣).

في التوبة والإنابة:

١ ـ ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ (٤).

٢ ـ ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ (٥).

٣ ـ ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ (٦).

في الدعاء والتضرع إلى الله تعالى:

١ ـ ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ (٧).

٢ ـ ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ (٨).

٣ ـ ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ (٩).

٤ ـ ﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ (١٠).

٥ ـ ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ (١١).

٦ ـ ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾﴾ (١٢).

في فضل القرآن الكريم:

١ ـ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ (١٣).

٢ ـ ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ (١٤).

٣ ـ ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ (١٥).

---

(١) يوسف: الآية ١٨. (٢) آل عمران: الآية ١٨٥. (٣) الرعد: الآية ٣٨.
(٤) النساء: الآية ١٧. (٥) النساء: الآية ١٨. (٦) النساء: الآية ١١٠.
(٧) البقرة: الآية ٢٨٦. (٨) آل عمران: الآية ٣٨. (٩) آل عمران: الآية ١٩٣.
(١٠) الإسراء: الآية ٨٠. (١١) الكهف: الآية ١٠. (١٢) طه: الآيتان ٢٥، ٢٦.
(١٣) القمر: الآية ١٧. (١٤) الإسراء: الآية ٩. (١٥) الأعراف: الآية ٢٠٤.

obeikandl.com

في الإنباء والاستنباء:

١ ـ ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾[١].

٢ ـ ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٥٠﴾[٢].

٣ ـ ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾[٣].

٤ ـ ﴿مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾[٤].

٥ ـ ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ۝١٧﴾[٥].

في الكتب والكتابة والرسالة:

١ ـ ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾[٦].

٢ ـ ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾[٧].

٣ ـ ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾[٨].

٤ ـ ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾[٩].

في الاقتراب والدنو:

١ ـ ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾[١٠].

٢ ـ ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾[١١].

٣ ـ ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ۝٥٧﴾[١٢].

٤ ـ ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾[١٣].

٥ ـ ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾[١٤].

في الضعف والعجز:

١ ـ ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ۝٤٥﴾[١٥].

---

(١) النبأ: الآيات ١ ـ٣.
(٢) الصافات: الآية ٥٠.
(٣) التحريم: الآية ٣.
(٤) التحريم: الآية ٣.
(٥) البروج: الآية ١٧.
(٦) النمل: الآية ٢٨.
(٧) القصص: الآية ٥١.
(٨) البيّنة: الآية ٣.
(٩) الحاقة: الآية ١٩.
(١٠) القمر: الآية ١.
(١١) هود: الآية ٨١.
(١٢) النجم: الآية ٥٧.
(١٣) النجم: الآية ٩.
(١٤) الإسراء: الآية ٥١.
(١٥) الذاريات: الآية ٤٥.

obeikandl.com

٢ ـ ﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾[١].

٣ ـ ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾﴾[٢].

٤ ـ ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾[٣].

٥ ـ ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾[٤].

٦ ـ ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾[٥].

٧ ـ ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾﴾[٦].

٨ ـ ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾[٧].

في البلاء وما يصاب به الناس:

١ ـ ﴿فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾[٨].

٢ ـ ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾[٩].

٣ ـ ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ﴾[١٠].

٤ ـ ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾[١١].

٥ ـ ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾[١٢].

٦ ـ ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾﴾[١٣].

٧ ـ ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾[١٤].

في الاغترار بالمظاهر:

١ ـ ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾[١٥].

٢ ـ ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾[١٦].

٣ ـ ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾[١٧].

---

(١) الكهف: الآية ٩٧.
(٢) الشعراء: الآية ٢١١.
(٣) الكهف: الآية ٦٧.
(٤) العنكبوت: الآية ٤١.
(٥) الحج: الآية ٧٣.
(٦) الطارق: الآية ١٠.
(٧) النساء: الآية ٢٨.
(٨) يونس: الآية ٢٤.
(٩) الصافات: الآية ١٠٦.
(١٠) الأحقاف: الآية ٢٥.
(١١) الذاريات: الآية ٤٢.
(١٢) الحاقة: الآية ٧.
(١٣) الزلزلة: الآية ٢.
(١٤) الفيل: الآية ٥.
(١٥) المنافقون: الآية ٤.
(١٦) النور: الآية ٣٩.
(١٧) البقرة: الآية ٢٧٣.

obeikandl.com

٤ - ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾[١].

٥ - ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾[٢].

في البشرى والتهنئة:

١ - ﴿يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ﴾[٣].

٢ - ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ﴾[٤].

٣ - ﴿بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾[٥].

٤ - ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾[٦].

ما يقال عند الظَّفَر بالحاجة:

١ - ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾[٧].

٢ - ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾﴾[٨].

٣ - ﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾[٩].

٤ - ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾[١٠].

في الامتنان بالنعم:

١ - ﴿۞ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾[١١].

٢ - ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾[١٢].

٣ - ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾[١٣].

٤ - ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾[١٤].

٥ - ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾[١٥].

في التحدث بالنعمة:

١ - ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾[١٦].

---

(١) الحشر: الآية ١٤.
(٢) الكهف: الآية ١٨.
(٣) يوسف: الآية ١٩.
(٤) الحديد: الآية ١٢.
(٥) الحجر: الآية ٥٥.
(٦) الذاريات: الآية ٢٨.
(٧) النمل: الآية ٤٠.
(٨) الصافات: الآية ٦٠.
(٩) الحجرات: الآية ٨.
(١٠) الكهف: الآية ٦٤.
(١١) الشرح: الآية ١.
(١٢) الضحى: الآيات ٦ـ ٨.
(١٣) البقرة: الآية ٤٠.
(١٤) طه: الآية ٥٤.
(١٥) الإسراء: الآية ٧٤.
(١٦) مريم: الآية ٣٢.

obeikandl.com

٢ ـ ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾[١].

٣ ـ ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾[٢].

في التأمين والطمأنينة:

١ ـ ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾[٣].

٢ ـ ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[٤].

٣ ـ ﴿أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾[٥].

٤ ـ ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[٦].

٥ ـ ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ﴾[٧].

٦ ـ ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[٨].

٧ ـ ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾[٩].

٨ ـ ﴿لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾[١٠].

٩ ـ ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾[١١].

---

(١) الصافات: الآية ٥٧.
(٢) الضحى: الآية ١١.
(٣) طه: الآية ٢١.
(٤) القصص: الآية ٢٥.
(٥) القصص: الآية ٣١.
(٦) البقرة: الآية ٢٦٠.
(٧) طه: الآية ٦٨.
(٨) القصص: الآية ٢٧.
(٩) القصص: الآية ٧.
(١٠) هود: الآية ٨١.
(١١) آل عمران: الآية ١٣٩.

obeikandl.com

أمثال مختارة للعرب

إن من البيان لسِحراً[١].
إن البلاء مُوَكل بالمنْطق[٢].
إن الموصّينَ بَنُو سَهوان[٣].
إن الشقيَّ وافد البَراجم[٤].
إن البُغاث بأرضنا يَسْتَنسِر[٥].
إن الجبانَ حتفُه مِن فوقه[٦].
إن المعافيَ غيرُ مخدوع[٧].
إن في الشر خياراً.
إن الحديدَ بالحديد يُفلحُ.
إن الشفيق بسوء ظَن مُولَع[٨].
إن وراء الأكمَةِ ما وراءها.
إن العصا من العُصَيَّة[٩].
إن العَوان لا تُعَلّمُ الخمرة[١٠].
إن الغنيّ طويلُ الذيل مياس[١١].
إن الليلَ طويلٌ، وأنت مُقمر[١٢].
إن العصا قُرعَت لذي الحِلْم[١٣].
إن الحبيب إلى الإخوان ذو المال.
إن الهزيل إذا شبعَ مات[١٤].
إن غداً لناظرهِ قريب.
إن أخاكَ مَن آساكَ[١٥].

---

(١) يضرب في استحسان المنطق.
(٢) يضرب لمن أسيء إليه.
(٣) يضرب لمن يسهو عن طلب شيء أمر به.
(٤) البراجم: بطن من تميم، يضرب لمن يوقع نفسه في هلكة طمعاً.
(٥) يضرب للضعيف يصير قوياً.
(٦) يضرب في أن الحذر لا ينجي من القدر.
(٧) يضرب لمن يخدع فلا ينخدع.
(٨) يضرب لمن يفشي على نفسه أمراً مستوراً.
(٩) يضرب في مشاكلة الفرع للأصل.
(١٠) العوان: المرأة النصف، والخمرة: لبس الخمار. يضرب في استغناء المجرب عن الإرشاد.
(١١) أي: لا يستطيع ذو الغنى أن يكتمه.
(١٢) يضرب للأمر بالتصبر في طلب الحاجة.
(١٣) يضرب لمن إذا نبه انتبه.
(١٤) يضرب فيمن استغنى فتجبر على الناس.
(١٥) يضرب في الحث على مراعاة الإخوان.

إنك لا تجني من الشوك العنب. أتتك بحائن رجلاه.

إنما أكلت يوم أكل الثور الأبيض. إن يبغ عليك قومك لا يبغ عليك القمر[١].

إن كنت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً[٢]. إن ترد الماء بماء أكيس[٣].

إحدى حظيات لقمان[٤]. أكل عليه الدهر وشرب[٥].

إنه ليعلم من أين تؤكل الكتف[٦]. آكل لحمي ولا أدعه لآكل[٧].

إيّاك وما يعتذر منه. إذا زل العالم زل بزلته عالم.

أنت تئق وأنا مَئِقٌ فمتى نتفِق[٨]. إيّاكِ أعني واسمعي يا جارة[٩].

إذا حان القضاءُ ضاقَ الفَضاءُ. أُم الجبان لا تفرح ولا تحزن.

إذا جاءت السنة جاء معها أعوانُها[١٠]. إن حالت القوْسُ فسهْمي صائبٌ[١١].

ألا من يشتري سهراً بنوم[١٢]. إذا ما القارظ العنزي آبا[١٣].

إن كنتَ كَذوباً فكن ذكوراً[١٤]. إنما يُحمَل الكلُّ على أهل الفضل[١٥].

إذا تخاصم اللصان ظهر المسروق[١٦]. إذا تفرقت الغنم قادتها العنز الجرباء.

---

(١) يضرب للأمر المشهور.
(٢) يضرب للمداهي الشديد يبلى بمن هو أدهى منه وأشد.
(٣) يضرب للأخذ في الأمور بالاحتياط.
(٤) يضرب في الشر يصدر عمن عرف به، وحظيات لقمان: سهامه (وفي القاموس خطأ)
(٥) يضرب لمن طال عمره.
(٦) يضرب في المجرب المحنك.
(٧) يضرب في الرجل ينصر قرينه وإن كان عدوه.
(٨) التئق: السريع إلى الشر، والمَئق: السريع إلى البكاء. يضرب للمختلفين أخلاقاً.
(٩) يضرب لمن يخاطب شخصاً وهو يريد غيره تعريضاً.
(١٠) السنة القحط وأعوانها الجراد والأمراض، يضرب في تجمع الشدائد.
(١١) حالت القوس: زالت عن استقامتها. يضرب فيمن زالت نعمته ولم تزل مروءته.
(١٢) يضرب لمن غمط النعمة وكره العافية.
(١٣) يضرب في امتداد البعد والغيبة.
(١٤) يضرب للرجل يكذب ثم ينسى فيناقض نفسه.
(١٥) الكل: الثقل.
(١٦) يضرب في القوم يختلفون فيسود فيهم الأشرار.

obeikandl.com

إذا عابَ البزّاز ثوباً فاعلم أنه من حاجته[١]. إذا أردت أن تطاع فسلْ ما يُستطاع.

إن يكن الشغلُ مجهدةً، فإن الفراغ مفسدة. إذا قدم الإخاء سمح الثناء.

بلغ السيلُ الزُّبى[٢]. بعضُ الشر أهون من بعض[٣].

بلغ الـكين العظم[٤]. باقعة من البواقع[٥].

إبْدأهُم بالصُّراخ يَفِرُّوا[٦]. أبدى الصريخ عن الرِّغوة[٧].

بَعض الجدَب أمرأ للهزيل[٨]. بنانُ كفّ ليس فيها ساعد[٩].

بعد البلاء يكون الثّناء. أبلغ من قُسّ.

أبخل من مادر. أبصرُ من زرقاء اليمامة.

أبصرُ من غراب. أبقى من الدهر.

أبقى من وحْيٍ في حجر[١٠]. أبينُ من فلق الصُّبح.

أبْكر من غُراب. ترْكُ الذَّنب أيْسر من طلب التَّوبة.

تَجوع الحُرَّة ولا تأكلُ بثدْيِيها[١١]. تَسألني برامتين سَلجَما[١٢].

تجَشَّأ لقمانُ من غيرِ شبع[١٣]. تضربُ في حديد بارد.

---

(١) البزّاز: بائع الثياب.
(٢) الزبى: جمع زبية وهي أعلى الجبل، يضرب لمن جاوز الحد.
(٣) يضرب في الشرين يختار أهونهما.
(٤) يضرب لمن جاوز الحد.
(٥) الباقعة: الداهية. يقال في الرجل يكون داهياً منكراً.
(٦) يضرب في الظالم يتظلم ليـكت عنه.
(٧) يضرب عند انكشاف الأمر وظهوره.
(٨) يضرب فيمن لا يحسن احتمال الغنى بل يطغى فيه.
(٩) يضرب فيمن له همة ولا قدرة له على بلوغ ما في نفسه.
(١٠) الوحي: الكتابة.
(١١) أي لا تكون مرضعاً، يضرب في صيانة الرجل نفسه عن خسيس المكاسب.
(١٢) السلجم: اللفت، يضرب لمن يطلب شيئاً في غير موضعه.
(١٣) يضرب لمن يدعي ما ليس يملك.

obeikandl.com

تلدغ العقربُ وتصيء[١].
تطلبُ أثراً بعد عَيْن[٣].
اتخذ الليلُ جملاً[٥].
التثبتُ نصفُ العفو.
أتبع السيئةَ تمحها.
تضرَّع إلى الطبيب قبل أن تمرض[٨].
التقديرُ أحدُ الكاسبين.
جزاء سنمار.
جوِّع كلبك يتبعك[٩].
جانيك منْ يجني عليك[١١].
جاؤوا على بَكرة أبيهم[١٣].
أجبنُ من صافر، ومن نعامة[١٤].

تركتهم في حَيْص بَيص[٢].
تسمع بالمعيدي خيرٌ من أن تراه[٤].
ترى الفتيان كالنخل وما يدْريك ما الدخْل[٦].
تقطِّع أعناق الرجال المطامع.
اتق شر من أحسنتَ إليه[٧].
تجري الرِّياحُ بما لا تشتهي السفنُ.
التدبير نصف المعيشة.
اسمعُ جعجعةً ولا أرى طحناً.
جاوز الحزامُ الطبيين[١٠].
جليسُ السوء كالقيْنِ[١٢]، إن لم يُحرق ثوبك دَخَّنَه.
أجودُ من حاتم، ومن كعب بن مَامة.
أجهلُ من فراشة.

---

(١) يضرب لمن يظلم ويتظلم. وصاءت العقرب: صوّتت.
(٢) يضرب فيمن وقع لا مخلص له منه.
(٣) يضرب فيمن ترك الشيء ثم طلبه بعد ذهابه.
(٤) يضرب فيمن منظره دون مخبره.
(٥) أي: أدلى واجبه من العمل ليلاً.
(٦) يضرب لذي المنظر لا خير فيه.
(٧) يضرب في مقابلة الإحسان بالإساءة.
(٨) يضرب فيمن يعد ولا يفي.
(٩) يضرب فيما ينبغي أن يعامل به اللئيم.
(١٠) يضرب في تفاقم الأمر.
(١١) أي: لا تزر وازرة وزر أخرى.
(١٢) القين: الحداد.
(١٣) أي: جاؤوا جميعاً.
(١٤) الصافر من الطيور بغاثها وضعافها.

obeikandi.com

أجمعُ من نملة.

حنّ قِدْح ليس منها[٢].

حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق[٣].

الحديث ذو شجون[٤].

أحَشفاً وسوء كيلة[٥].

الحبارى خالة الكرَوان.

أحمق من هَبَنّقةَ ومن جُحا.

أحكم من لقمان.

أحفظُ من الشَّعبي.

خالِفْ تذكر.

خير المال عينٌ خرَّارة في أرض خوَّارة[١٠].

أخوَنُ من ذِئب.

أدهى من قيس بن زُهير، ومن عمرو بن العاص.

ذهبوا أيدي سبأ[١٢].

حالَ الجريضُ دون القريض[١].

حسبك مِن شرٍ سماعه.

حُبُّك الشيء يُعمي ويُصم.

حافظ على الصديق ولو في الحريق.

الحكمة ضالة المؤمن.

الحاجة تفْتُقُ الحيلة[٦].

أحلم من الأحنَف.

أحذرُ من غراب، ومن ذِئب، ومن ظليم[٧].

خذْ من جذع ما أعطاك[٨].

خَرْقاءَ وجدت صوفاً[٩].

أخطبُ من سحبان، ومن قس.

دون ذا وينفقُ الحمار[١١].

الذئب خالياً أسَدٌ.

---

(١) الجريض: الغصة والقريض: الشعر. يضرب في الأمر يتيسر حين لا ينفع.
(٢) يضرب في الرجل يفتخر بقوم ليس منهم أو يتمدح بما ليس فيه.
(٣) يضرب في المقالة السيئة وما يخشى منها.
(٤) الشجون: الفنون. يضرب في الحديث يتذكر به غيره.
(٥) يضرب في الجمع بين خصلتين مكروهتين.
(٦) يضرب في مناسبة أحد الشيئين للآخر.
(٧) الظليم: ذكر النعام.
(٨) جذع: اسم رجل. يضرب في اغتنام ما يجود به البخيل.
(٩) الخرقاء: التي لا تحسن العمل، يضرب لمن يفسد عمله بسوء تصرفه.
(١٠) الخوارة: الأرض التي يعمل فيها لين وسهولة.
(١١) يضرب في المبالغة في المدح بغير احتياج إليه.
(١٢) أي: تفرقوا تفرقاً لا اجتماع معه كما تفرقت سبأ.

obeikandl.com

ذكرتني الطعن وكنت ناسياً[١]. رَمتني بدائها وانسلت[٢].

رماه الله بثالثة الأثافي[٣]. رُب قول أشد من صَوْل[٤].

رُب أخٍ لك لم تلِدْه أمك. رجع بخُفّي حنيْن[٥].

رُب رمية من غير رام. الراوية أحدُ الشاتمين[٦].

رب كلمة سلبت نِعمةً. رُب مَلوم لا ذَنب له.

رُب زارع لنفسه حاصدٌ سِواه. أروى من ضَبٍّ[٧].

أرق من النّسيم ومن رقراق السّراب ومن غِرقئ البيض[٨].

الزيتُ في العجين لا يضيع[٩]. زَكاة النعم المعروف.

أزكنُ من إياس. أزْهى من طاوس[١٠].

سبَق السَّيف العَذْل[١١]. أساء سَمْعاً فأساء إجابةً.

سكتَ ألفاً ونطق خُلفاً[١٢]. سرِق السَّارِق فانتحر[١٣].

السليمُ لا ينام ولا يُنيم[١٤]. سحابةُ صيفٍ عن قليل تقشّع.

---

(١) يضرب في تذكر الشيء بغيره.
(٢) يضرب فيمن يعيّر صاحبه بعيب هو فيه.
(٣) الأثافي: جمع أثفية وهي الحجر توضع عليه القدر، وهما اثنتان وثالثتهما الحبل، والمراد بها الداهية العظيمة.
(٤) يضرب عند الكلام يؤثر فيمن يواجه به.
(٥) يضرب في الخيبة.
(٦) هذا كقولنا شتمك من بلغك.
(٧) تزعم العرب أن الضب لا يحتاج إلى شرب الماء بفتح فاه للهواء فيكون في ذلك ريه.
(٨) الغرقئ: القشرة الرقيقة الملتزمة ببياض البيضة.
(٩) يضرب في الإحسان إلى الأقارب.
(١٠) الزهو: العجب.
(١١) يضرب في الخطأ يلام فاعله بعد وقوعه.
(١٢) الخلف: الرديء من القول.
(١٣) يضرب لمن تنتزع من يده ما ليس له فيجزع عليه.
(١٤) السليم: الملدوغ، يضرب فيمن لا يستريح ولا يريح غيره.

obeikandl.com

شرّ الرأي الدُّبَريُّ[١].

شُخْبٌ في الإناء وشُخْبٌ في الأرض[٢].

شنشنةٌ أعرِفُها من أخْزَم[٣].

شرٌّ من الموت مَا يُتمنى معه الموت.

أشأم من البَسوس، ومِن أحمر عاد، ومن غراب البين[٤].

أشكر من كلب.

صَدقني سنّ بَكره[٥].

صادف دَرْء السّيل دَرْءاً يَصدعه[٦].

صدرك أوسَع لِسرّك.

أصدقُ من قطاة[٧].

أصعبُ من رَد الشُّخْب في الضَّرع.

ضرب أخماساً لأسداس[٨].

أضيَقُ من ظِلِّ الرمْح.

أضعف من بعوضة.

أضبطُ من نملة.

أطرقْ كرا إنّ النعامة في القرى[٩].

أطولُ صُحْبة من الفرقَدَين.

أطمعُ من أشعب.

طبيبٌ يُداوي الناس وهو مريضٌ.

طفيليّ ومُقترِح.

ظِئر رَؤُوم خيرٌ من أُمّ سَؤوم[١٠].

عِند الصباح يَحْمَدُ القوم السرَى[١١].

عند جُهينة الخبرُ اليقين[١٢].

عرض عليه خَصلتي الضّبُع[١٣].

عِش رَجباً ترَ عجباً.

---

(١) الدبري: ما يسنح بعد فوات الفرصة.

(٢) الشخب: ما خرج من الضرع ممتداً من اللبن، يضرب فيمن يصيب مرة ويخطئ أخرى.

(٣) الشنشنة: الطبيعة والعادة يضرب في مشابهة الفرع لأصله في الشَّر.

(٤) البسوس هي المرأة التي هاجت بسببها حرب بكر وتغلب، وأحمر هو أحمر ثمود، وهو الذي عقر الناقة فحل العذاب بثمود من جراء عمله.

(٥) يضرب في الإنسان يقول الحق على غير قصد منه.

(٦) هذا كمن قال: لا يفل الحديد إلا الحديد.

(٧) لأن صوت القطاة واحد لا يتغير.

(٨) يضرب فيمن يريد الشيء ويظهر غيره.

(٩) الكرا: الكروان، يضرب فيمن يتكلم بما لا يقدر عليه.

(١٠) الظئر: الحاضنة والرؤوم: العطوف.

(١١) يضرب في تحمل التعب رجاء الراحة.

(١٢) يضرب في الرجل يعرف الشيء على وجهه كقولهم: على الخبير سقطت.

(١٣) تزعم العرب أن الضبع صادت ثعلباً وخيرته بين أن تأكله وأن تمزقه، يضرب فيمن يسوم غيره مالا خيار فيه من البلاء.

obeikandl.com

أعط القوس باريَها. أعرض ثوب الملبس.

العَوْدُ أحمد. عند الامتحان يُكرم المرءُ أو يُهان.

أعز من كليب وائل. أعيى من باقل.

أعدى من الظليم، ومن الشَّنْفَرى، ومن السليك.

أعقُّ من ذِئبة. أعقدُ من ذنب الضَّبِّ.

أعجزُ ممَّن فتل الدخانُ[١]. غدّة كغدّة البعير وموت في بيت سلوليّة[٢].

غَثُّك خيرٌ من سَمين غيرك. في الصيف ضيَّعت اللبن[٣].

في بيته يؤتى الحكم. في كل شَجَر نار، واستمجدَ المرْخ والعَفار[٤].

أفرسُ من بسطام. أفتك من عمرو بن كلثوم.

قطعت جهيزة قول كل خطيب[٥]. وقد أنصف القارة من راماها[٦].

قبل الرِّماء تملأ الكنائن[٧]. أقتلوني ومالكاً[٨].

القولُ ما قالت حذام. كان كرَّاعاً فصار ذراعاً[٩].

كلامٌ كالعسل، وفعلٌ كالأسل[١٠]. كل فتاةٍ بأبيها معجبةٌ[١١].

كطالب القرْن جُذِعت أذنه[١٢]. كمُجير أمّ عامر[١٣].

---

(١) يضرب فيمن إذا سألته عن أمر أبهم الجواب.
(٢) سلول: قبيلة ذليلة، يضرب في اجتماع خصلتين من الشر.
(٣) يضرب لمن يطلب شيئاً قد فوته على نفسه.
(٤) المرخ والعفار شجرتان قويتا النار يضرب في تفضيل بعض الشيء على بعض.
(٥) يضرب لمن يقطع على الناس ما هم فيه بحماقة يأتي بها.
(٦) القارة: قبيلة من أبرع الناس في المراماة.
(٧) يضرب في الاستعداد للأمر قبل الشروع فيه.
(٨) يضرب فيمن يريد بصاحبه المكروه وإن ناله هو منه ضرر.
(٩) يضرب في الذليل يصبح عزيزاً.
(١٠) الأسل: الرماح.
(١١) يضرب في عجب الرجل رهطه وعشيرته.
(١٢) أصل المثل في النعام، ويضرب في طلب الأمر يفضي بصاحبه إلى التلف.
(١٣) أم عامر: الضبع وقد أكلت من أجارها. يضرب في الذي يجزى على إحسانه بالسوء.

كيف أعاودك وهذا أثر فأسك[١].

كالمستجير من الرَّمضاءِ بالنار.

لو خُيِّرْتُ لاخترت.

لعلَّ له عُذراً وأنت تلومُ.

لكل مقامٍ مَقال.

لا تَعدَمُ الحسناءُ ذاماً[٥].

لا ناقتي فيها ولا جملي.

لا يفلُ الحديد إلّا الحديد.

لا تجزَعنَّ من سُنّةٍ أنت سرْتها.

ما يوم حليمة بِسِر[٩].

مَرْعىً ولا كالسعدان[١٠].

مِنك أنفكَ وإنْ كان أجْدع[١١].

من مأمنه يؤتى الحذر.

مُكرهٌ أخوك لا بطل[١٢].

كأنَّ على رؤوسهم الطير.

لو ذات سوار لطمتني[٢].

لو ترِك القطا ليلاً لنامَ[٣].

لأمْرٍ ما جدَع قصير أنفه.

لا مخبأ لِعطر بعد عروس[٤].

لا تهْرِفُ بما لا تعرِفُ[٦].

لا في العير ولا في النَّفيرِ[٧].

لا تأمن الأحمق وبيدِهِ سكين[٨].

ما وراءُك يا عِصام.

ما أشبه الليلة بالبارحة.

ما كل بَيْضاءَ شَحْمَةٌ.

من استرعى الذئب ظلم.

مواعيد عرقوب.

أمنعُ من عُقاب الجو.

---

(١) يضرب فيمن لا يفي بالعهد.
(٢) يضرب في الوضيع يقع منه العدوان.
(٣) يضرب فيمن حمل على مكروه من غير إرادته.
(٤) يضرب فيمن لا يدخر عنه نفيس.
(٥) يضرب في الشيء الحسن لا يخلو من عيب.
(٦) يضرب لمن يتعجل في مدح الشيء قبل تمام معرفته.
(٧) يضرب في الوضيع ليس فيه شيء من خلال الشرف.
(٨) يضرب في عسف الجاهل إذا قدر.
(٩) حليمة بنت مالك غسان، يضرب للأمر المشهور الذي لا يكاد يجهل.
(١٠) السعدان: نبت من أنفع الأعشاب للإبل، يضرب في الشيء يفصل على أشكاله وأقرانه.
(١١) يضرب فيمن يلزمك خيره وشره.
(١٢) يضرب فيمن يحمل على ما ليس من شأنه.

obeikandl.com

نَفسُ عصام سَوَّدت عصاماً[١].

أندَمُ من الكُسَعيّ.

أوَردها سعد وسَعدْ مشتمل[٤].

هُما كفرَسيْ رهان.

اليومَ خمرٌ وغداً أمر[٦].

نعيمُ كلب في بُؤس أهله[٢].

وافقَ شنٌّ طبقة[٣].

أوْفى من السَّمؤَل، ومن الحارث بن عباد.

يَداك أوْكتا وفُوك نفخ[٥].

(١) يضرب في سؤدد الرجل نفسه.

(٢) يضرب في التابع. كالخادم يشغل سادته بمصيته فيغنم ما قدر عليه من أموالهم.

(٣) يضرب في تمام المشاكلة والاتفاق.

(٤) يضرب للمقصر في الأمر.

(٥) يضرب لمن يجني على نفسه.

(٦) يضرب في تقلب الأيام.

obeikandl.com

الفن الرابع: في الأوصاف

الوصف[١]: عبارَة عن بيان الأمر باستيعاب أحواله وضروب نعوته الممثّلة له وأصولُهُ ثلاثة:

الأوّل: أن يكون الوصف حقيقياً بالموصوف مفرزاً له عمّا سواه.

الثاني: أن يكون ذا طلاوة ورَونق.

الثالث: أن لا يخرج فيه إلى حدُود المبالغة والإسهاب، ويكتفي بما كان مناسباً للحال. وأنواعه كثيرة ولكنّها ترجع إلى قسمين: وهما وصف الأشياء ووصف الأشخاص، أما الأشياء الحرِيّة بالوصف فهي كالأمكنة والحوادث الخطيرة ومناظر الطبيعة.

وأمّا وصف الأشخاص فيكون بوصف الصُّورة أو الطبع أو بوصفهما معاً.

ولنذكر لك فِقَراً جارِية على ألسنة البُلغاء في صِفات شتى، ثم نتبعُها بمقالات في الوصف نَثراً ونَظماً.

وصف البُلْدان

بَلْدَةٌ كأنها صُورة جنة الخُلد مَنقوشة في عُرْض الأرض، بلدةٌ كأن محاسِنَ الدُّنيا مجموعةٌ فيها ومَحْصورة في نواحيها، بلدةٌ ترابُها عَنْبر وحَصْباؤُها عقِيق، وهوَاؤها نَسيم وماؤها رَحِيق، بلدة مَعشوقة السُّكنى رَحْبة المثْوى[٢] كَوكبها يَقْظان وجوُّها عُرْيان، يومُها غَدَاةٌ وليلُها سَحَر، بلدة واسعة الرُّقْعة طَيّبة البُقْعة، واسطة البلاد وسُرَّتها ووجهُها وغُرَّتها.

وصف القِلَاع

قَلعة حلّقت[٣] بالجوّ تُناجي السَّماء بأسرارها، قلعة تَتوشّحُ بالغُيوم وتجتَلي النُّجوم، قلعةٌ مُتناهيةٌ في الحصَانة مُمتنِعة عن الطَّلب والطالب منصوبة على أضيَق

---

(١) أحسن طريقة للإجادة في الوصف أن ترسم أولاً في بدء وصفك نظراً عاماً لمجمل الأمر الذي تحاول وصفه ثم تأخذ بإيراد مختلف الأجزاء قسماً فقسماً. وذلك إما على تتابع ورود هذه الأجزاء، وإما بتقديم أهم الأجزاء أو إيثار ما كان يراه الكاتب أشد مناسبة لغايته.

(٢) الإقامة. (٣) ارتفعت

المَسالك وأوعر المَناصب، لم تَزِدْها الأيّام إلا نبوّ[١] أعطاف واستِصْعابَ جوانبَ وأطراف، قد ملّ الملوكُ حصارَها ففارَقُوها عن طِماح[٢] منها وشِمَاس[٣]، وسَئِمَتِ الجُيوش ظِلّها فغادرَتْها[٤] بعد قُنُوط ويأس، فهي حمى لا يُراع[٥] ومَعْقِلٌ لا يُستطاع، كأنّ الأيام صالحتها على الإعفاءِ من الحوادث والليالي، وعاهدتها على التسليم من القَوَارع[٦].

وصف الدّور

دارُ قَرارٍ تُوسِعُ العين قُرّة والنّفْسَ مَسرَّةً، كأنّ بانيها استسلف الجنّة فَعُجّلتْ له، دارٌ تخجلُ منها الدُّور وتَتقاصر عنها القصور، دارٌ قد اقترَن اليُمْن[٧] بيُمناها واليُسْرُ بيُسَراها، الجُموم منها في حَضَر والعُون على سَفَر، دارٌ دارَ بالسعد نَجمُها، وفاز بالحسن سَهمُها، يَخدُمُها الدّهر ويأوِيها البَدر ويَكنُفُها النّصر، هي مَرْتَع النَّواظر ومُتنفَّس الخواطر، أخذَتْ أدواتِ الجِنان وضحِكت من العَبْقَرِيّ[٨] الحِسان.

وصف الدّيار الخالية

دارٌ لَبِسَت البِلى وتَعطّلت من الحِلَى، صارتْ من أهلها خالية بعدما كانت بهم حالية، قَدْ أنفدَ البَيْن سُكّانَها وأقعد حِيطانَها، دار شاهدُ اليأس منها يَنْطقُ وحبلُ الرّجاءِ فيها يَقْصُرُ، كأن عُمْرَانها يُطوَى وخرَابَها يُنْشَر، أركانها قِيامٌ وقُعود وحِيطانُها رُكّع وسُجود.

[الطويل]

بَكَتْ دارُهم من بَعدهم فتهلَّلت دُموعي فأيَّ الجازِعين ألومُ
أمُسْتَعْبِراً يَبكي على اللّهو والبِلى أم آخرَ يَبكي شجْوَه فيَهيم؟

وصف أيام الرَّبيع

يومٌ جلابيبُ غيومه رِوَاق[٩] وأرْدِيَةُ نَسيمه رِقاق، يومٌ سماؤه فاختيّة وأرضُهُ

(١) بعدا. (٢) كبر وفخر. (٣) إباء وامتناع.
(٤) تركتها. (٥) لا يفزع ولا يخاف فيها أحد.
(٦) الحوادث والنوائب. (٧) البركة. (٨) البسط المعجب شكلها.
(٩) الكساء المرسل على مقدم البيت من أعلاه إلى الأرض.

طاوُوسِيّة، يوم مُمَسّك السّماء مُعصفَرُ الهواء مُعَنْبرُ الرّوض مُصنْدَلُ الماء، يومٌ تَبسَّم عنه الرّبيع وتبرّج عنه الرَّوضُ المَريع، يوم كأنّ سماءَه مُجِدٌّ تتَباكى وأرضهُ عَرُوسٌ تتَجلَّى، يومٌ دَجْنُهُ[١] عاكف وقطْره واكِف[٢].

وصف الرياض

روضةٌ رقّت حواشِيها وتأنّق واشيها[٣]، روضة كالعُقُود المنظمة على البُرُود المُنْمَنَمة، روضة قد راضَتْها كفُ المطر ودَبّجتْها أيدي النّدَى، رِياضٌ كالعرائس في حَليْها وزَخارفها والقِيانِ[٤] في وَشيْها ومَطارفها، باسطةٌ زرابيَّهَا وأنْماطَها، ناشرة بُرودَها ورِياطها[٥]، زَاهية بِحمرَائها وصفَرائها، تائِهةٌ بِعيدانِها وغُدَرانها، كأنما احتفَلت لِوفْد أوْ هِي من حبيبٍ على وَعْد، روضة قد تَضوَّعت[٦] بالأرَج[٧] الطيّب أرْجاؤها، وتَبرَّجَت[٨] في ظُلَل الغَمام صَحراؤها، وتَنافحتْ بنوافح المسك أنوارُها، وتعارَضَت بغَرائب النُّطق أطيارها، بُسْتانٌ أنهارُهُ محفُوفة بالأزهار وأشجاره مُوقَرةٌ بالثّمار، أشجارٌ كأنّ الحورَ أعارَتْها قُدُودَها وكسَتْها بُرُودَها وحلّتها عُقُودها، شقائق كتيجان العَقيق على رُؤوس الزُّنوج كأنها أصداغ المِسك على الوَجنات المُورَّدة، كأنّ الشقيق جامٌ[٩] من عقيق أحمر مُلئَتْ قَرارته بمسك أذْفر، الأرض زُمُرُّدة والأشجار وشي والماء سيوفٌ والطيور قِيان[١٠]، قدْ غرّدت خطباءُ الأصيار على مَنابر الأنوار والأزهار.

وصف طول الليل والسهر وما يعرض فيه من الهموم والفكر

ليلةٌ قُصّ جنَاحُها وضلّ صبَاحُها، ليالٍ ليْستْ لها أسحارٌ وظُلُمات لا يتخلّلُها أنوار، ليلٌ ثابتُ الأطناب[١١] بطيءُ الغوارب طامِحُ الأمواج وافي الذّوائب. باتَ بليلةٍ ساورَته[١٢] فيها الهُموم وسامَرَته النّجُوم، واكتَحَلَ السُّهاد وافترَشَ القَتاد. اكتحل بماء

(١) الغيم. (٢) سائل. (٣) حائكها وناقشها.
(٤) جمع قين: المغنية.
(٥) جمع مطرف: رداء من خز مربع فيه أعلام. والزرابي: البسط. والأنماط: الأثواب التي تطرح على الهوادج. والرياط: الأثواب الرقاق.
(٦) تحركت. (٧) نفحة ريح الطيب. (٨) تزينت.
(٩) إناء، كأس. (١٠) مغنيات. (١١) حبال الخيمة.
(١٢) شغلته وقاومته.

السَّهرَ، وتملْملَ على فِراش الفِكر. قد أقضَّ مِهاده[١] وقلِقَ وسادُه. همُوم تُفرّق بين الجَنْب والمهاد وتجمَعُ بين العَين والسُّهاد.

وصف انتصاف الليل وتناهيه وانتشار النور وأفول النجوم

قد اكتَهَل[٢] الظّلام. قد نَصَفْنا عُمْرَ اللّيل واستَغْرَقْنَا شبَابه. قد شاب رأسُ اللّيل. كادَ يَنِمّ النّسيمَ بالسّحر. قد انكشفَ غِطاءُ اللّيل وستْرُ الدُّجى. هرِمَ اللّيلُ وشَمطتْ ذَوائِبُهُ، قُوّضَتْ[٣] خِيامُ اللّيل وخَلَع الأُفق ثوبَ الدُّجى. تبسّم الفجر ضاحكاً مِنْ شَرْقه ونَصَبَ أعلامَه على منازل أُفْقه، اقْتَنَص بَازي الضُّوء غُرابَ الظلام، وفَضّ كافورُ النُّور من الغَسق مِسْك الختام. طُرّز قميصُ الليل بغُرّة الصُّبح. باحَ الصُّبحُ بسِرّه، خَلَع اللّيل ثِيابَه وحدَرَ[٤] الصّبحُ نِقابه. بَثّ الصُّبحُ طلائعه. تبرقع اللّيل بغُرَّة الصُّبح. أطار مُنادي الصُّبح غُرابَ اللّيل. عُزلَت نَوَافج اللّيل بجامات الكافُور، وانهَزَم جَيشُ الظّلام عن عَسكر النُّور. مالت الجَوْزَاءُ[٥] للغروب وولّت مواكبُ الكواكب وتناثرتْ عقود النُّجوم، وَوَهَى نِطاق الجوزاء وانطفأ قِنديل الثُّريَّا.

وصف طلوع الشمس وغروبها

بدَا حاجبُ الشمس. ألْقت الغزَالة[٦] لُعابَها وضَرَبَت الضُّحى أطنَابَها. انتشرَ جنَاح الضوء في أُفق الجَوّ. استوَى شبابُ النّهار على رَونق الضّحى. بلغت الشّمس كَبِدَ السّماء. قام قائمُ الهاجِرَة ورَمت الشّمس بجمَرَات الظُّهر. اصفرَّت غِلالةٌ[٧] الشّمس وصارت كأنها الدّينارُ يلمع في قَرار الماء. نفَضتْ تِبراً على الأصيل وَشدَّت رَحلها للرّحيل جَنَحت الشّمس إلى مغارِبها. دَلكَتْ[٨] دَلُوح[٩] واغبرّ لَوْحُ اللُّوح[١٠]. تصوّبت الشّمس للمَغيب. تضيَّفت للغُرُوب فآذن جَنبُها بالوُجوب[١١]. شاب النَّهار وأقبلَ شابُ الليل. اسْتَتَر وجهُ الشَّمس بالنّقاب وتَوارت بالحِجاب. كان هذا الأمرُ من مَطلع الفلق إلى مجمع الغَسَق.

---

(١) خشن وترب.
(٢) صار كهلاً تشبيهاً بالرجل الكهل وهو من جاوز الأربعين سنة.
(٣) هدمت. (٤) أنزل. (٥) برج في السماء.
(٦) الشمس. (٧) الثوب الرقيق. (٨) غربت.
(٩) السحابة. (١٠) لوح واللوح كلاهما بين السماء والأرض.
(١١) وجبت الشمس وجيباً ووجوباً: غابت.

وصف الرعد والبرق

قامَ خطيبُ الرَّعد، نَبضَ[١] عِرْق البَرْق، سحَابة ارتجزَت[٢] رُعُودُها وذهبتْ ببرُوقها بُرُودُها. نَطق لسانُ الرَّعد وخفَقَ قلبُ البرق، فالرّعد ذُو صَخَب[٣] والبَرق ذو لِهَب. ابْتسم البرق عن قَهقهة الرّعد، زأرتْ أُسود الرّعد ولمعت سيُوف البَرق. رَعدَت الغَمائم وبَرقت، وانحلّت عُرى السماء، فَطبّقت هَدَرت رَواعدُها وقَرُبت أباعدُها وصَدقَتْ مواعدُها.

وصف مقدمات المطر

لَبست السَّماء سِربالها وسَحَبت السّحائبُ أذيالهَا. قد احتجبَتِ السَّماء في سُرادِق الغَيم. لبسَ الجَوّ مُطْرَفَه[٤] الأدكن[٥]. باحَتِ الرّيح بأسرَار النّدَى. ضُربت خَيمة الغَمام. ابتلَّ جناح الهواء واغْرورَقَت مُقْلة السّماءِ هبّت شَمائلُ الجنائب لتأليف شَمْل السَّحائب. تألَّفت أشْتات الغُيوم وأُسْبِلت الستور على النجُوم.

وصف الثلج والبرد وأيام الشتاء

سدَّ الشّتاء رِواقه وألْقى أرْواقَه[٦] وحَلَّ نِطاقَه، أناخَ بنَوازِله وأرْسَى بكلاكِله وكلَحَ بوجهه وكَشرَ عن أنْيابه. قد عادت الجبال شيباً ولبِست من الثُّلوج ملاءً قَشيباً[٧]. شابتْ مَفارِق البرُوج بتراكم الثُّلوج. ألمّ الشّيب بها وابيَضت لِممُها[٨]. بَرْدٌ يُقَصْقِص[٩] الأعضاء ويَنقُضُ الأحشاء. برد يُجمّدُ الرّيق في الأشْداق والدّمع في الآماق. يوْم كأن الأرضَ شابتْ لِهوْله. يوْم فِضّيُّ الجِلْباب مِسْكيّ النّقاب. عَبُوسٌ قَمْطرير[١٠]، كَشرَ عن ناب الزَّمهرير، وفَرشَ الأرضَ بالقوارير[١١]. يوْم أرضهُ كالقوَارير اللّامعة وهواؤه كالزَّنابير اللّاسعة.

---

(١) تحرك. (٢) تداركت أصواتها. (٣) ذو صوت شديد.
(٤) رداء من خز مربع. (٥) المائل إلى السواد.
(٦) جمع روق وهو والرواق بمعنى. (٧) جديداً.
(٨) جمع لمة: الشعر الذي يجاوز شحمة الأذن. (٩) يكسر ويضعف.
(١٠) شديد مظلم. (١١) جمع قارورة: الإناء من الزجاج.

وصف المطر والماء والسحاب والغدران

ماءٌ إذا مَسَّتْه أيدي النّسيم[١] حكى سلاسلَ الفضّة. غَديرٌ ترقْرَقت[٢] فيهِ دُموع السّحائب وتواترَت عليه أنفاس الرّياح الغرائب. انحَلّ عَقْدُ السَّماء وانهلّ دمعُ الأنواء[٣]. انحلّ سِلْك القَطْر عن دُرّ البَحر. سحابةٌ تحدُو من الغُيوم جمالاً وتمُد من الأمطارِ حِبالاً سحابة تُرْسلُ الأمطار أمواجاً والأمواج أفواجاً. سحابةٌ يَضحك من بُكائها الرَّوضُ وتَخضَرُّ من سوادها الأرضُ. سحابةٌ لا تَجِفُّ جُفونُها ولا يَخِفُّ أنينُها. دِيمة[٤] رَوَّت أديم[٥] الثرى[٦] ونبّهتْ عُيون النَّوْر من الكَرَى[٧]. سحابة رَكِبت أعناق الرّياح وسَحّتْ كأفواه الجِراح. مَطرٌ كأفواه القِرَب.

وصف القيظ وشدّة الحر

حرٌّ يُشبه قلب الصَبّ ويُذيبُ دِماغ الضَّبّ[٨]. قَوِيَ سلطان الحرّ وبُسِط بِساطُ الجمر. أوقَدتِ الشَّمس نارَها وأذكت[٩] أُوَارها[١٠]. حَرٌّ يلْفح حرّ الوَجْه. هاجِرة كأنّها من قلوب العُشّاق إذا اشتعلت فيها نارُ الفِراق. هاجرة تَحكي نار الهَجر وتُذيب قلبَ الصَّخر. حَرٌّ يهرُبُ لهُ الحِرباء[١١] من الشمس. قد صَهَرَت[١٢] الهاجرة الأبدَان وركِبت الجنَادِب[١٣] العيدَان. حرٌّ يُنضِجُ الجُلُود ويُذيب الجلمُود. أيام كأيام الفُرقة امتدَاداً وحرٌّ كحرّ الوَجد اشتداداً. هاجِرة[١٤] كالسّعير الهاجم يَجُرُّ أذيال السّمائم[١٥].

وصف الشيب

ذَوَى[١٦] غُصنُ شبَابه. بدَتْ في رأسه طَلائع المَشيب. أقمرَ ليلُ شبَابه. ظهَرَتْ غُرّة القَمر، وأومَض[١٧] البرقُ في ليل الشّعر. رُمي فاحِمُ الفَوْدِ[١٨] بضِدّه، واشْتَعَل

---

(١) شابته. (٢) تحركت. (٣) جمع نوء: المطر.
(٤) المطر بلا رعد. (٥) وجه الأرض. (٦) التراب.
(٧) النوم. (٨) حيوان بري. (٩) أوقدت.
(١٠) نارها.
(١١) حيوان يستقبل الشمس ويدور معها كيفما دارت ويتلون ألواناً بحر الشمس.
(١٢) أذابت. (١٣) الجراد. (١٤) شدة الحر عند الزوال.
(١٥) الرياح الحارة. (١٦) ذبل. (١٧) برق ولمع.
(١٨) معظم شعر الرأس ممل يلي الأذن.

المُبيض في مُسْوَدّه. لَمع ضَوْءُ فرْعه وتَفرَّق شَمل جمعه. علاه غُبارُ وقائع الدّهر. بينا هو راقدٌ في ليل الشّباب أيْقَظَهُ صُبحُ المَشيب. طوَى مَرَاحِل الشّباب وأنفق عُمرَه بغيرِ حساب. جاوَز مِنَ الشّباب مَراحِل وَوَرَدَ من الشَّيبَ مَناهِل. فَلَّ[١] الدَّهرُ شبا شبَابَه ومحا مَحاسنَ رُوائه. طار غُراب شَبابه. انتهى شَبابُهُ وشاب أترابُهُ. استبدَل بالأدهم[٢] الأبلق[٣]، وبالغُراب العقْعَق[٤]. استعاضَ[٥] من الغُراب بقادمةِ النَّسْر. أسفرَ صُبحُ المشيب. علته أهْبَة الكبر. نفَض جُبّة الصّبَا وتولى داعِيَة الحِجا[٦]. الشَّيب زُبْدةٌ مَخَضَتْها الأيام، وفِضّة مَحَصتْها التّجارب. سرَى في طريق الرُّشد بمصباح الشَّيب. الشَّيب خِطام المَنيّة. الشَّيب نذِير الآخرة.

وصف آلات الكتابة: الدواة، المداد والأقلام

الدّواة من أنفع الأدوات وهي للكتابة عَتَاد[٧] وللخاطِرِ زِناد. غديرٌ لا يَردُ غير الأفهام ولا يُمْتَح[٨] بغير أرْشِيَة[٩] الأقلام. غديرٌ تَفيضُ ينابيعُ الحِكمة من أقطاره، وتنشأُ سُحُبُ البلاغة من قَرَاره.

مِدادٌ كسواد العين وسُوَيداءِ القَلب وجَنَاح الغُراب، ولُعابِ اللّيل وألوان دُهْم الخيل. مدادٌ ناسَب خافيةَ الغُراب واستعارَ لونَه من شَرْخ[١٠] الشّباب.

أقلامٌ جمَّة المحاسن بَعيدةٌ من المَطاعن. أنابيبُ ناسبت رِماح الخَطّ في أجناسِها، وشاكلَتِ الذَّهبَ في ألوانها، وضاهت الحديد في لمَعانها. أقلام كأنها الأميال استواءً والآجالَ مَضاءً، بطيئةُ الخَفَى قَوِيّة القُوَى. قلم لا يَنبُو[١١] إذا نَبَت الصفاح ولا يُحجِمُ[١٢] إذا أحجمَت الرّماح. قلمٌ يسكُتُ واقفاً ويَنطقُ ساكتاً.

وصف الخطباء

جلَوْا بكلامهم الأبْصار العليلة وشَحَذُوا بمواعِظهم الأذهان الكَليلة، ونَبّهوا القلوب من رَقدَتها ونقَلُوها عن سُوءِ عادتها، فشَفَوْا من داءِ القسْوة وغباوَة الغَفلة،

---

(١) هزم. (٢) الأسود. (٣) الأبيض وأصله للرخام.
(٤) طائر على قدر الحمامة. (٥) جعله عوضاً. (٦) العقل.
(٧) ما يعده الإنسان لحوادث الدهر. (٨) لا ينزع.
(٩) حبال الدلاء. (١٠) ريعانه. (١١) لا يبعد.
(١٢) لا يتأخر.

وداوَوْا من العِيّ الفاضح ونهجوا لنا الطّريق الواضح. خطيبٌ لا تَنالُهُ حُبْسة ولا تَرْتهنُهُ لُكْنة، ولا تتمشَّى في خِطابه رُتَّة[١] ولا تَتحيَّف[٢] بيانَهُ عُجمة ولا تَعترضُ لسانَه عُقدة. خطيبٌ جواهرُ نَفَثاتِهِ صِحاح، وعرائس أفكاره صِباح. خطيبٌ تزينت بدُرَر ألفاظه عقود المُلَح، لا عيب فيه إلا أن لفظَهُ عَطَّل الياقوت والدُّرّ. خطيبٌ مِصْقَع يَنْثُرُ لسانُهُ اللُّؤلؤَ المكنون. هو الخطيبُ المِصقعُ الذي أشخص بآيات خُطبه الزّاجرة عيونَ القوم وأبكاها. هو الخطيب المصقعُ الذي تتلاعب بالعقول مَعانيه، ويُصاغ الدُّرُّ من لفظ فيه. هو الخطيب الذي تهتَزّ له المَنابر وتنقادُ إليه كلمات السّحر مُتسابقةً آخذاً بعضُها برقاب بعض.

وصف العُلماء

بَدرُ العُلوم اللائح وقَطرُها الغادي والرّائح، وثَبيرُها[٣] الذي لا يُزْحَم ومُنيرُها الذي ينجلي به ليلُها الأسحَم[٤]. أمّا فُنون الأدب فهو ابن بَجدَتِها[٥] وأخو جُملتها وأبو عُذْرتها ومالِك أزِمَّتها، تُستخرَج الجواهرُ من بحوره، وتحلّى لمَعَات الطُّروس بقلائد سُطوره. وتآليفه عَقائلُ أصبح الدّهر من خُطّابها. له بدائع مائساتُ[٦] الأعطافِ، بحرُ البيانْ الزّاخر. شيخ المعارف وإمامُها ومَنْ في يديْه زِمامُها، لديه تُنشَدُ ضَوالُّ الأعراب وتُوجَد شوارِد اللغة والإعراب، مالك أعِنَّة العُلوم وناهج طريقها والعارِف بترْصيعها وتنميقها، الناظم لعُقودها، الرّاقم لبرُودها، المُجيد لإرْهافها[٧]، العالم بجلائها وزَفافها، مَلَك رِقّ الكتابة والإنشاء وتَصرّف في فُنون الإبداع كيف شاءَ عالم يَتفَجَّر العلم من جوانبه وتَنطق الحكمة من نواحيه. صاحبُ المصنَّفات التي دلَّت على وَفْرة إطلاعه وغزَارة مادته وحُسن بيانه. لك يترُك معنى مُغلَقا إلّا فَتح صيَاصِيه[٨]، ولا مُشْكِلاً إلا أوضحَ مَبانيه.

وصف البلغاء

فلانٌ يَحوكُ الكلامَ على حسبِ الأماني ويَخيطُ الألفاظَ على قُدُود المعاني، يجتَني من الألفاظ أنوارَها ومن المعاني ثمارَها، يَعبَث[٩] بالكلام ويَقودُهُ بالين

(١) العجمة. (٢) بمعنى تنقص. (٣) المثابر المواظب.
(٤) السود. (٥) العالم بها المتقن لها. (٦) متبخترات، مائلات.
(٧) لدقتها ولطفها. (٨) جمع صيصة: الحصن المنيع. (٩) يلعب.

زِمام، حتى كأنّ الألفاظ تتحاسد في التَّسابقُ إلى خواطره والمعاني تتغايَر في الانْثِيال[١] على أنامله، بليغٌ نَسَق[٢] من جواهر كلامه أكالِيلَ دُرّ ما لمَنْظومها سِلْك. بليغٌ تَفكُّ سِهامُ أفكاره الزّرَد. ناظمُ سِلكِ البلاغة وقائدُ زِمام البَرَاعة، إذا أوْجزَ أعجز وإذا شاءَ أطال وأطلق من البلاغة العِقَال. إذا أذْكَى سراج الفِكر أضاءَ ظلامَ الأمر. يَسْتنبِطُ حقائق القلوب ويَستخرجُ ودائع الغُيوب.

وصف الشُّعراء والمنشئين ومحاسن النَّظم والنّثر

مَقْذِفُ حَصَى القَرِيض وجماره ومَطلِع شُموسه وأقماره، نَثرُهُ سِحر البيان ونظمُهُ قطعُ الجُمان، طَلعت شمس الأدب من أُفُق أشعاره وتفجَّرت ينَابيعها من خِلاَل آثاره. شاعرٌ توقَّدَت جمرات أفكاره. شاعرٌ عرائس أفكاره صِبَاح إن نَثَر فالنُّجوم في أفلاكِها، أو نظمَ فالجواهرُ في أسلاكها. أخذَت بمَجامع القلوب كَلِمه، إذا كَتبَ انتَسَب إليه السّحر أصحَّ انتساب ونَسَق المُعجزاتِ نَسْقَ حساب، وأرَى البدائعَ بيضَ الوُجوه كريمَةَ الأحساب. إن نَثرَ رأيت بحراً يَزْخَر وإذا نظَم أزْرَى بنَظم العُقُود وأتى بأحسنَ من رَقْم البُرُود. إذا كَتبَ ملأ المَهارِق[٣] بَياناً وأرَى السّحرِ عياناً. هو الكاتب الذي تحسُدُ أرقامُ الطّراز سطور قلمه، ويوَدّ التّبر لو كان مِدَاد كلمه. هو الكاتب الذي تَنقاد إلى يَرَاعه[٤] دَقائق المعاني صاغرَة بِزِمام.

نَثرٌ كنثْر الوَرد، ونظمٌ كنَظم العِقْد. نثرٌ كالسّحر أو أدَق، ونظمٌ كالماء أو أرَقُّ، نَثر كما تَفتَّح الزَّهر، ونظم كما تنفّس السَّحَرُ. رسالةٌ تضحك عن غُرَرٍ وزَهرٍ، وقصيدةٌ تنطوِي على حِبَر ودُرر. كلامٌ كما هبّ نَسيم السّحرِ على صفحات الزّهر. كتابٌ مَطلعُهُ مطلع أهلة الأعياد ومَوْقِعه موْقِع نيل المُراد. كتاب حَبِته يطير من يدي لخِفّته ويَلْطُفُ عن حِسّي لقِلّتِهِ. صحائف انطوَت المحاسن تَحت رَق مَنشورِها، وصدَحتْ حَمائم البلاغة على أغصان سُطورها. صحائِف تنُوب عن الصّفائح، وقراطيسُ تَزُفُّ إلى الأسماع عرائس القرائح، صَحَائفُ ألبسَها الحِبْرُ أثواباً من الحبر[٥]، ودَبّجها[٦] صَوْبُ[٧] الفِكر لا صَوْب المَطر.

---

(١) الانصباب. (٢) نظم.
(٣) جمع مهرق: ثوب حرير أبيض ينقى الصمغ وبصقل ثم يكتب فيه. (٤) أقلامه.
(٥) الحبرات التي تلبسها النساء المصريات إذا خرجن. (٦) نقشها. (٧) المطر.

وصف الأمراء والأشراف

فلانٌ من شَرَف العُنصُر الكريم ومَعدِنِ الشَّرَف الصَّميم[١]. أصلٌ راسخ وفرع شامخ[٢] ومَجد باذِخ[٣]، قد رَكّبَ الله دَوْحتَه[٤] في قَرَارة المجد وغرَس نَبْعته[٥] في مَنبِت الفَضل، والمجدُ لسان أوصافه والشّرف نَسَبُ أسلافه. دَوحة رَسَبَ[٦] عِرْقها، وبَسَقَ[٧] فَرْعُها، وطاب عُودُها، واعتدَل عمُودها، وفيأت ظلالها، وتهدّلتْ[٨] ثِمارها، وتفرّعت أغصانها، وبرَدَ مَقيلُها[٩].

أمير جيشُهُ الهِمَم، دوحة مجده ورِيفَةُ[١٠] الظّل وَرِيقة[١١]. أمير لا عيبَ في نَدَاه[١٢] إلا أنه يَستَعبِدُ كلّ حُرّ. هو غرّةُ الجمال وصورة الكمال، عِقْد المنَاصب بِهِ نَضيد.

أمير عبِقَتْ من شمائله نَسَمات النَّدّ، وقطرَت من سَلسبيل أوصافه مياهُ المجد. جامعُ ما تفرق من شَمِل الفَضائل. ناظمُ ما انتثر من عِقْد المآثر. أنارَت بهِ نجومُ المعالي وشموسُها. له شَرَف باذِخ تُعقَد بالنّجوم ذَوائبه. ألقتْ إليهِ الرّئاسة مقاليدَها[١٣] وملّكتهُ طريفَها وتَليدَها[١٤]. أمير تفرّع من دَوْحةِ سناءٍ[١٥]، وتحدّر من سلالة أكابر، ورُقاة أسِرَّة ومنابر. مُرتضع ثَدْي المجد، ومُفترشُ حِجر الفضل.

لهُ صدْرٌ تضيقُ به الدَّهناء[١٦] وتفزعُ إليه الدَّهماء[١٧]. له في كل مَكرُمةٍ غُرّةُ الإصْباح، وفي كل فضيلة قادِمَة الجنَاح. لهُ صُورة تَسْتنْطق الأفواهَ بالتّسبيح، ويتَرَقرقُ فيها ماءُ الكَرَم، وتُقرأ فيها صَحيفة البِشر. ينابيع الجود تَتَفجّر من أنامله، وربيع السّماك يضحَك من فَواضِله.

---

(١) الخالص. (٢) المرتفع. (٣) العالي.
(٤) الشجرة العظيمة. (٥) الشجرة أيضاً. (٦) نبت.
(٧) ارتفع. (٨) تدلت. (٩) مكانها.
(١٠) ممتدة متسعة. (١١) مورقة.
(١٢) عطائه. وهذا نوع من أنواع البديع يسمى تأكيد المدح بما يشبه الذم كقول بعضهم: **[الطويل]**

ولا عيب في معروفهم غير أنه يبين عجز الشاكرين عن الشكر

وفي الحقيقة ليس بعيب بل هو نهاية في المدح.
(١٣) مفاتيحها. (١٤) حديثها وقديمها.
(١٥) مجد ورفعة. (١٦) الفلاة الواسعة. (١٧) جماعة الناس.

لهُ أخلاقٌ خلِقنَ من الفضل، وشِيَمٌ تُشام[١] منها بَوارق المجد. أَرج[٢] الزَّمانُ بفضله، وعَقِم النّساء عن الإتْيان بمثله. مالُهُ للعُفاة[٣] مُباح، وفَعالُه[٤] في ظُلمة الدّهر مِصباح. مناقب تشدَخُ[٥] في جبينها غُرّة الصّباح، وتتهادَى أنباءَها[٦] وُفُودُ الرّياح. سألتُ عن أخْباره فكأنّي حرَّكت المسك فَتيقاً أو صبّحت الرّوضَ أنيقاً[٧]، هو رائِشُ[٨] نَبْلِهم، وَنَبْعَة[٩] فضلهم، وواسطةُ[١٠] عِقْدهم.

لهُ همّة علا جنَاحُها إلى عنان النّجم، وامتدَّ صباحُها من شرقٍ إلى غرب. همّتُهُ أبعَدُ من مَنَاط[١١] الفرقَد، وأعلى من مَنْكِبِ الجَوزاء[١٢]. موضعُهُ من أهل الفضل موضعُ الواسِطة من العِقدِ، وليلة التّمّ من الشّهر، بل ليلة القدر إلى مَطلع الفَجر. هَطَلت عليَّ سَحائبُ عِنايته، ورَفْرَفت حَوْلي أجنحة رِعايته. قد استَظْهرتُ على جَوْر الأيام بعدله، واستترتُ من دَهري بِظِلّه. قد غَرّقَتني نِعمُهُ حتى استنفدَتْ شُكرَ لساني ويدي. تتابعتُ نعمه تتابُع القَطر على القَفْر، وتَرادفتْ مِننُه ترادُف اليُسر إلى ذي الفَقر.

لهُ أيادٍ قد عمَّت الآفاق وطوَّقت الأعناق، أيادٍ قد حَبَسَتْ عليهِ الشّكر واستَعبدت لهُ الحُرَّ. مِننٌ تَوالت تواليَ القَطر، واتَّسعتْ سَعة البرّ والبَحر، وأثقَلت كاهل الحُرّ.

وصف القلم والخط

القلمُ أحدُ اللسانين، وهو المُخاطِب للغيوب بسَرائر القلوب، على لُغاتٍ مختلفةٍ، من معان مَعقولة بحرُوف معلومة، متباياناتِ الصُّورَ مختلفات الجهات، لِقاحُها التّفكّر ونِتاجُها التدبُّر، تَخْرَسُ منفردَات وتنْطِقُ مُزدوجات، بلا أصواتٍ مسموعة ولا ألسُن محدودة، ولا حركات ظاهرة، خلا قلمٍ حَرّف باريهِ قطّته لتعلّق المِدَاد به، وأرهَفَ جَانبيهِ ليرُدّ ما انتشر عنه إليهِ، وشقّ رأسه ليحتبس المداد عليه.

---

(١) تنظر. (٢) فاحت منه رائحة طيبة. (٣) الطالبون للعطاء.
(٤) بفتح الفاء كرمه. (٥) تفلق. (٦) أخبارها.
(٧) معجباً. (٨) السهم ذو الريش. (٩) الشجرة.
(١٠) ما تكون وسط العقد وهي أحسنه. (١١) محل علاقته.
(١٢) برج في السماء.

فهُنالك استمدّ القلمُ بِشَقّه ونَثر في القرطاس بخَطه حُروفاً أحكمَها التّفكّر، وأوْلى الإسماع بها الكلام الذي سَداه العقل، وألحمه اللّسان، ونَهَستهُ اللّهواتُ، وقطّعته الأسنان، ولَفِظتْهُ الشّفاه، ووعته الأسماع عن أنحاء شتّى من صفات وأسماء.

قال البُحتري

[الطويل]

طِعانٌ بأطراف القوافي كأنه طِعانٌ بأطراف القَنا المُتكَسِّر

وقال ابن المقفّع: «القلم بريد القلب: يُخبرُ بالخَبر، ويَنظر بلا نظر».

وقال أبو دُلَف: «القلم صائغُ الكلام يفرغ ما يجمعهُ العلم».

وقال الجاحظ: «الدواة منْهَل، والقلم ماتح، والكِتاب عَطَن».

وقال سهل بن هارون: «القلم أنف الضَّمير، إذا رعف أعْلَنَ وأبان آثاره».

وقال عمرو بن مسعدة: «الأقلامُ مطايا الفِطَن».

وقال المأمون: «لله دَرّ القلم كيف يَحوك وَشْيَ المملكة».

وقال جالينوس: «القلم طبيب المنْطق».

وقال أحمد بن عبد الله: «القلم رَاقدٌ في الأفئدة مُسْتيقظ في الأفواه».

وقيل: «عُقول الرجال تحت أقْلامها».

وقال آخر: «القلم أصمّ يَسْمع النَّجْوى، وأخرسُ يفصح بالدّعوى. وجاهل يعْلَم الفَحْوى».

وقال أحمد بن يوسف: «عبرات الأقلام في خدود كتبها أحسن من عبرات الغواني في صُحون خدودها».

وقال أيضاً: «القلمُ لسان البَصر يُناجيه لما استتر عن الأسماع؛ إذا نَسَج حُلله وأودعَها حكمه».

وقال العتابي: «الأقلام مطايا الأذهان».

وقال عبد الحميد: «القلمُ شجرةٌ ثمرتها الألفاظ، والفكر بحر لُؤلُؤه الحكمة».

وقيل: «بِريٌّ القلم تروي القلوب الظَّمِئة».

وقال ابن أبي دؤاد: «القلم سفير العقل، ورسوله الأنبل، ولسانه الأطول، وترجمانه الأفضل».

وقال أيضاً: «القلم الدنيا والآخرة».

وقال آخر: «بنَوْءِ القلم تصوّب الحكمة».

وقال ابن ميثم: «من جلالة شأن القلم أنه لم يكتب الله تعالى كتاب قط إلا به».

وقالوا: «القلم قَسيمُ الحكمة».

وقال يحيى بن خالد البرمكي: «الخط صورة رُوحها البيان، ويدها السُّرعة وقدمُها التَّسْوية، وجوارحها معرفة الفصول».

ووصف أحمد بن إسماعيل خطاً حسناً فقال: «لو كان نباتاً لكان زَهْراً؛ ولو كان مَعدناً لكان تِبراً، أو مَذاقاً لكان حُلواً، أو شراباً لكان صفواً».

وقال إقليدس: «الخَطُّ هَندَسة روحانيّة، وإن ظهرت بآلةٍ جسمانية» أخذه النَّظام فقال: «الخط أصلٌ في الرّوح وإن ظهر الجَسد».

وقال بعض الملوك اليونانية: «أمرُ الدِّين والدُّنيا تحت شيئين: قلَم وسيف، والسّيفُ تحت القَلَم».

وقال أفلاطون: «الخَطُّ عِقالُ العَقل».

وقال أرسطاطاليس: «القلمُ العِلَّة الفاعلة والمِداد العلّة الهيُولانيّة، والخَط العِلةُ الصُّورية، والبَلاغة العِلة السّامية».

سُئل بعض الكُتّاب عن الخط: مَتى يستحق أن يوصَفَ بالجودة؟ فقال: «إذا اعتدلت أقسامُه، وطالت ألفُه ولامُه، واستقامت سطوره، وضاهى صُعوده حُدوره، وتفتّحت عُيونه، ولم تُشبه راءَهُ نونه، وأشرقَ قرطاسه، وأظلمت أنفاسُه، ولم تختلف أجناسُه، وأسْرَع إلى العيون تَصَوُّره، وإلى العقُول ثمرُه، وقُدِّرت فُصُوله، وانْدَمجت وُصولُه، وتناسَبَ رقيقُه وجليله، وخرج عن نمطِ الورَّاقين، وبَعُد عن تصَنُّع المحبِّرين، وقام لكاتبه مَقام النِّسْبة والحِلية».

وقالوا: «القَلم أحدُ اللِّسانين، والعمُّ أحد الأبوين، والتَّثبُّت أحد العفوين، والمَطلُ أحد المَنعَين، وقلة العيال أحد اليَسارين، والقناعة أحد الرِّزقين، والوعيد أحد الضّرْبين، والإصلاح أحد الكَسبَين، والرّواية أحد الهاجيين، والهجر أحد الفِراقين، واليأسُ أحد النُّجحين، والمزاح أحد السَّبابين».

وقال آخر: «مَساقُ الدُّنيا بسين وقافٍ فيقال سق» يريد السيف والقم.

وقال آخر: «القلم لِسانُ اليد».

حدثني يحيى البحتري قال: حدثنا أبي عن ابن الترجمان ـ وكان الواثِقُ أنفذهُ إلى ملك الرُّوم بهدايا ـ قال: وافقت لهم عيداً، فرأيتُهم قد علّقوا على باب بيعتهم كتاباً بالعربية منشورة، فسألتُ عنها: فقيل: هذه كُتب المأمون بخط أحمد بن أبي خالد الأحول، استَحسنوا صوره وتقديره فجعلوه هكذا.

فحدّثتُ أنا بهذا الحديث أبا عُبيد الله محمد بن داود بن الجرّاح فقال: هذا حق، قد كتب سليمان بن وهب كتاباً إلى ملك الروم في أيام المُعتمد فقال: ما رأيتُ للعرب شيئاً أحسنَ من هذا الشكل، ولستُ أحسِدُهم على شيء حَسدي إياهم عليه، والطّاغية لا يقرأ العربي، وإنما راقَه اعتداله وهَندستُه وحُسْنُ مَوقعه ومراتبه.

وقال هشام بن الملك لأعرابي: انظر، كم على هذا الميل من عدد الأميال، وكان الأعرابي لا يحسنُ أن يقرأ فمضى ونظر ثم عاد فقال: رأيتُ كرأس المِحجنِ مُتّصلاً بحلقة صغيرة، تتبعه ثلاثة كأطباء الكلبة، تفضي إلى هنة كأنها رأس قَطاة بلا منقار. ففهم بوصفه أنها خمسة.

حدثني يعقوبُ بن بيان الكاتب قال: قال بعضُ الكُتّاب: «القلمُ الرّديءُ كالولد العاقِّ».

وقالوا: «رَداءَةُ الخط إحدى الزّمانتين، كما أن حسنَه إحدى البَلاغتين».

حدثني طلحة بن عبد الله قال: اعتذر رجل إلى محمد بن عبد الله بن طاهرمن شيء بلغه عنه، فرأى خطه قبيحاً، فوقع في رقعته: «أردنا قَبولَ عُذرك، فاقتَطعنا عنه ما قابلنا من قبح خطّك ولو كنت صادقاً في اعتذارك لساعدتك حركةُ يدك، أو ما علمت أنّ حسن الخطّ يُناضل عن صاحبه بوضوح الحُجّة، ويُمكّن له دَرك البغية»؟

وكان أبو هَفّان عبد الله بن أحمد المُهتزمي من أقبح النّاس خطاً، وكان يَبْتدئ الخطّ من رأس الوَرَقة ويعوِّج سطوره حتى يبقى آخر سطر في الورقة كلمةً واحدةً فَرثاه يحيى بن عليّ فقال في مَرْثيَّته:

[الخفيف]

مَـع خـطّ كـأنّـه أرجُـل الـبـط أو الـحـطّ فـي ذوي الـفـتـيـان

قالوا: «رَداءة الخط زَمانة الأديب».

نظر عبد الله بن طاهر إلى خطّ بعض كُتّابه فلم يرضه، فقال: «نحّوا هذا عن مرتبة الديوان فإنه عليل الخط، ولا يُؤمن أن يُعدي غيره».

أنشدني العنزي الحسن بن علي في قبح الخط:

[المجتث]

جـزعـت مـن قُـبـح خـطـي وفـيـه وضـعـي وحـطّـي
رجـعـتُ مـن بـعـد حـذقـي إلـى تـعـلـم حُـطّـي

حدثنا أبو العباس الرّبعي قال: حدثنا الطلحي قال: حدثني أحمد بن إبراهيم قال: دخل على الرّشيد أعرابي فأنشده أرجوزة ـ وإسماعيل بن صبيح يكتب بن يديه كتباً، وكان أحسنَ الناس خطاً، وأسرعهم يداً ـ فقال الرشيد للأعرابي: صف هذ، فقال له: ما رأيتُ أطيش من قَلمه، ولا أثبت من حلمه، ثم قال:

[الطويل]

لـه قـلـمٌ بُـؤسـي ونـعـمـي كـلاهـمـا سـحـابـتـه فـي الـحـالـتـيـن درورُ
يـنـاجـيـك عـمّـا فـي ضـمـيـرك لـحـظُـه ويـفـتـح بـاب الـنّـجـح وهـو عـسـيـرُ

فقال الرّشيد: «قد وَجب لك يا أعرابي عليه حقّ، وهو يقضيك إياه، وحق علينا فيه نحن نقوم به، ادفعوا إليه دِيَةُ الحر» فقال له: «على عبدك دية العبد».

جاء يوماً عبد الله بن المُعتز في المسجد الجامع إلى أبي العباس أحمد بن يحيى ليسلم عليه، فقام له وأجلسه مكانه، فداس ابنُ المعتزّ قلماً فكسره، فلما جلس قالَ لمن حوله:

لـكَـفِّـي ثـارٌ عـنـد رجْـلـي لأنـهـا أثـارتْ قـتـيـلاً مـا لأعـظـمـه جـبـرُ

فعجب الناس من سرعة بديهته.

وأهدى رجل إلى إبراهيم بن المدبر قلماً وكتب إليه:

قد وجّهت إليك أعزّك الله بمفاتح العوم، بادٍ جمالُها، تام كمالها، فهي كما قال الشاعر:

[المديد]

ليس فيها ما يقالُ له ... كملت لو أن ذا كَمُلَا
كلّ جزءٍ من محاسنها ... كائنٌ من حسنه مَثلا

وقال أحمد بن إسماعيل:

[الخفيف]

وإذا نَمْنَمتْ بَنانك خطّاً ... مُعرباً عن إصابة وسَدادِ
عجبَ الناس من بياض مَعانٍ ... يُجتنى من سواد ذاك المِدادِ

حدثنا أحمد بن يزيد المُهلّبي قال: حدثني أبو هفّان، قال: سألت ورّاقاً عن حاله فقال:

«عَيشي أضيقُ من محبَرةٍ، وجِسْمي أدقُّ من مِسطرةٍ، وجاهي أرقُّ من الزجاج، ووَجهي عند النّاس أشدّ سواداً من الحبر، وحظي أحقرُ من شقّ القلم، وبَدَني أضعف من قصبة، وطعامي أمرّ من العَفْص، وسوءُ الحال ألزمُ من الصبغ» فقُلت له: عَبّرتَ عن بلاء بِبلاء[1].

وسُئِل ورّاقٌ عن حاله فقال:

[المتقارب]

إذا كنتُ بالليل لا أكتُب ... وطول النهار أنا ألعبُ
فَطَوْراً يُبطلني مَأكلٌ ... وطوراً يبطلني مشْربُ
فإن دام هذا على ما أرى ... فبيتي أولُ ما يخربُ

(١) ومثله قول قائلهم: [مجزوء الرجز]

تباً لرزق نازل ... من شق هذي القصبه
تباً له، تباً له ... ما أتعبه، ما أتعبه

وصف الكِتَاب

الكِتابُ نِعْم الأنيس في سَاعة الْوَحدة، ونِعم المعرفة في دار الغُربة. ونعم القرين والدّخيل، ونعم الزّائر والنّزيل. وِعاءُ ملئَ علماً وظَرفاً، وإناءٌ مُلئَ مزحاً وجِداً. وحبذا بستانٌ يُحمل في خُرْج، وروضٌ يُقلّبُ في حِجر. هل سمعت بشجرة: ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾[١] بألوان مختلفة وطعوم متباينة؟

هل سمعت بشجرة لا تذْوَى، وزهر لا يُتوَى[٢]، وثمر لا يَفْنى؟ ومَنْ لك بجليس يفيد الشيء وخلافه، والجنس وضدَّه، يَنطق عن الموتى، ويُترجم عن الأحياء، إن غضبت لم يغضب وإن عَرْبَدت[٣] لم يَصخَب[٤].

أكتَمُ من الأرض، وأنَمُّ من الريح، وأهوى من الهوى، وأخدعُ من المُنَى، وأمتع من الضّحى، وأنطق من سَحبان وائلٍ، وأعيا من باقل[٥].

هل سمعت بمعلّم تَحلّى بِخلال كثيرَة وجَمعَ أوصافاً عَديدةً؟ عَرَبِيّ فارسيّ يُونانيّ هِنديّ سِنديّ رُوميّ، إن وَعظَ أسمع، وإن ألهَى أمتع، وإن أبْكى أدمعَ، وإن ضرب أوجَع. يُفيدُك ولا يَستفيدُ منْك، ويَزيدُك ولا يَستزيدُ منك. إن جَدّ فعِبْرة، وإن مَزَح فنُزْهة. قبرُ الأسرار ومخزَن الوَدائع، قَيدُ العُلوم وينبوع الحِكم ومَعدِنُ المكارم ومؤنِس لا يَنَامُ. يُفيدك علْم الأوّلين، ويُخبرك عن كثير مِن أخبار المتأخّرين. هل سمعت في الأوّلين، أو بلغك أنّ أحداً من السّالفين، جَمَعَ هذه الأوصاف مع قِلّة مؤونته؟ وخِفّة محمِله، لا يرْزَؤك[٦] شَيئاً من دُنياك؟

نِعم المدَّخَرُ والعُدّة[٧] والمُشتَغَل والحرفة. جليس لا يُطْريك[٨]، ورَفِيق لا يُملّك، يُطيعُك في اللّيل طاعتَه في النّهار، ويُطيعك في السّفر طاعتَه في الحضَر.

---

(١) إبراهيم: ٢٥. (٢) لا تذبل وبابه رمى ورضى. وقوله يتوى: يهلك.
(٣) عربد الرجل ساء خلقه عند السكر. (٤) لم يصوت.
(٥) رجل من إياد به يضرب المثل في العي، ومن عيه أنه اشترى ظبياً فحمله على عنقه فسئل عن ثمنه فحل عنه يديه وفتح أصابعه وأشار بها وأخرج لسانه يريد أنه بأحد عشر درهماً، ولم يلهم أن يخبر عن سعره بلسانه فصار عيه مثلاً.
(٦) لا ينقصك.
(٧) ما يعده الإنسان لحوادث الدهر من سلاح وغيره.
(٨) لا يمدحك.

إن أطلت النّظر إليه أطال إمتاعك[١]، وشَحذ[٢] طِباعك، وبَسط لسانك، وجَوّد بيانك، وفَخّم ألفاظَك. إن ألّفته خلّدَ على الأيام ذكرَك، وإن دَرسته رَفع في الخلق قَدرَك، وإن نَعَتَّهُ نَوّه عندهم باسمك. يُقعدُ العبيدَ في مقاعد السادات، ويُجلِسُ السُّوقة في مجالس المُلوك. فأكرِم به من صاحب، وأعزِزْ به من مُوافق.

وصف عاصفة لجلال الدين السيوطيّ المتوفى سنة ٩١١هـ

أتى عارض في ليلة الجمعة التاسعة من جُمادى الآخرة كانت فيه ظُلُمات مُتَكاثفة وبُرُوق خاطفة ورِياح عاصفة، فقَويتْ أهويتُها واشتدّ هُبُوبُها، فتدَافعت لها أعِنّة مُطلِقات وارتفعَت لها ضَواعِق مُصعِقات، فرَجفَت لها الجُدران واصطفقت وتلاقت على بُعدها واعتنقت، وثَارَ بين السّماء والأرض عَجاج فقيل لعلّ هذه على هذه أطبقت. وتحسب أن جهَنّم قد سَال منها وادٍ، وعدا منها عادٍ. وزَادَ عَصف الرّياح إلى أن انطفأت مَصابيح النّجوم، ومزّق أديم السماء ومَحَا ما فوقه من الرّقوم، لا عاصم من الخطف للأبصار، ولا ملجأ من الخطب إلا مَعاقل الاستغفار. وفرَّ النّاس نساءً ورجالاً، ونفروا من دُورهم خِفافاً وثِقَالا، لا يستطيعون حِيلةً ولا يهتدون سبيلاً. فاعتصَمُوا بالمساجد الجامعة، وأذعنُوا للنّازلة بأعناق خاضعة، ووجُوه عانية، ونفوسٍ عن الأهل والمال سالية، ينظرُون مِن طرْف خَفيّ، ويتوقّعُون أيَّ خَطْبُ جليّ. قد انقطعت من الحياة عُلقهم وعَميت عن النّجاة طُرُقهم، ووقعت الفِكرة فيما هم عليه قادمون، وقامُوا إلى صلاتهم وودُّوا أن لو كانوا من الذين هم عليها دَائمون. إلى أن أذِن الله في الرّكود، وأسعَفَ الهاجدين بالهجُود، وأصبَحَ كلٌ يُسلّم على رَفيقه، ويُهنّئه بسلامة طريقه، ويرى أنه بُعِث بعد النّفخة، وأفاق بعد الصّيحة والصّرخة، وأن الله قد ردّ له الكرّة، وأدَّبه بعد أن كاد يأخذه على غرّة. ووردت الأخبار بأن كسرت المرَاكب في البِحار، والأشجار في القِفار، وأُتلِفَ خلق كثير من السُّفار، ومنهم من فرَّ فلم يَنفعه الفرار.

---

(١) انتفاعك. (٢) أحدَّها وأقواها.

وصف العلم لبديع الزمان الهمذاني المتوفّى سنة ٣٩٨هـ:

العلم شيءٌ بعيد المَرام، لا يُصادُ بالسّهام، ولا يُقسَم بالأزلام[١]، ولا يُرى في المنام، ولا يُضبَط باللّجام، ولا يُكتَب للّئام، ولا يُورث عن الآباء والأعمام.

وزَرْعٌ لا يَزكو[٢] إلّا متى صادف من الحَزْم ثَرَى طيّباً، ومن التّوفيق مطراً صيّباً، ومن الطّبع جوّاً صافياً، ومن الجهد رَوْحاً[٣] دائماً، ومن الصّبر سقياً نافعاً.

وغَرَضٌ لا يُصاب إلا بافتراش المَدَر[٤]، واستناد الحجَر، وردّ الضّجَر، ورُكوب الخَطَر، وإدْمانِ السّهَر، واصطِحابِ السّفَر، وكثرةِ النَّظر، وإعمالِ الفِكر.

وصف رجل لخصْمِه

كان أحمد بنُ يوسُف[٥] مُتصرّفاً عن غَسّان بن عُباد، وجرتْ بينهما هَنات[٦] بحضرة المأمون، ثم قال المأمون يوماً لخاصة أصحابه: «أخبروني عن غسان بن عباد، فإني أريده لأمر جَسيم» وكان قد عزَم على تقليده السِّنْدَ. فتكلم كلّ بما عنده في مدحه، فقال أحمدُ ابن يوسف: هو يا أمير المؤمنين رَجلٌ محاسنه أكثرُ من مسَاويه، لا يتَطرق[٧] إلى أمرٍ إلا تقدّم فيهِ، ومهما تُخوِّف عليه فإنه لن يَأتي أمراً

---

(١) الأزلام: جمع زلم بفتح الزاي أو ضمها مع فتح اللام، وهي سهام لا نصل لها ولا ريش كان العرب إذا أرادوا القمار أحضروا جزوراً فنحروها وقسموا لحمها إلى ثمانية وعشرين قسماً، ثم أتوا بعشرة أزلام فرسموا على واحد منها خطاً وعلى الثاني خطين، وعلى الثالث ثلاثة، وهكذا إلى السابع. فيكون عليه سبعة وهو المسمى بالقدح المعلى، وتبقى ثلاثة غفلاً لا يرسم عليها شيء ثم يضعون الجميع في خريطة ويدخل رجل يده فيها فيخرج زلماً باسم واحد من المقامرين. فإن كان مرسوماً له عليه شيء أخذ من أقسام اللحم بقدره، وإن كان غفلاً غرم عن الجزور. والمقصود من هذه العبارة أن العلم لا ينال بطريق البحث والمصادفة كما ينال اللحم المقسوم.

(٢) يزكو: ينمو ويطيب.

(٣) الروح بفتح فسكون نسيم الروح.

(٤) المدر: قطع الطين اليابس، وافترش المدر: نام عليه.

(٥) كاتب بليغ من كتاب المأمون، وكان بارعاً في الرسائل، ويكنى: أبا جعفر.

(٦) الهنات: جمع هنة، وقد تجمع على هنوات، والمراد: أمور.

(٧) تطرق إلى الأمر: ابتغى إليه طريقاً.

يُعْتَذرُ منه لأنه قَسَم أيامَه بين أفعال الفَضْل، فجعَل لكلّ خلق نوبة[١] إذا نظرتَ في أمره لم تَدر أيّ حالاته أعجب: أما هَداه إليه عَقْله؟ أمْ ما اكتسبه بأدبه؟ فقال له المأمون: لقد مدحتَه على سُوء رأيك فيه.

قال: لأني يا أمير المؤمنين كما قال الشاعر:

[الوافر]

كفى ثمناً لما أسديتَ أنّي نَصحتُك في الصّديق وفي عَدائي
وإني حين تَنْدبُني لِأمر يكون هَواك أغلبَ مِن هوائي[٢]

وصف أَبي دُلَف لعبد الله بن طاهر

دَخل أبو دُلف[٣] على المأمون بعد الرِّضا عنه، فسألهُ عن عبد الله بن طاهر[٤] فقال: خَلفته يا أميرَ المؤمنين أمينَ غَيب، نَصيحَ جَيب[٥]، أسداً عاتياً قائماً على بَراثنه، يَسْعَد به وليّك، ويشقى به عَدوّك، رَحْبَ الفِناء لأهل طاعتك، ذا بأسٍ شديد لمن زاغ عن قصد محجَّتك، وقد فقَّهه الحزم، وأيقظه العزم، فقام في نحْر الأمور على ساق التشمير، يبرمها بأيْدِه[٦] وكيده، ويفُلها بحدّه وجِدّه، وما أشبهه في الحرب إلا بقول العباس بن مرْداس:

[الوافر]

أكرُّ على الكتيبة لا أُبالي أحَتْفي كان فيها أم سواها

---

(١) النوبة: الفرصة والدولة والمرة، جمعها نوب كغرف.

(٢) يريد هواي، ومده للضرورة.

(٣) أبو دلف ـ كعمر ـ هو القاسم بن عيسى البكري من قواد المأمون ثم المعتصم، وكان جواداً شجاعاً، وفيه يقول الشاعر: [المديد]

إنما الدنيا أبو دلف بين ناديه ومحتضره
فإذا ولى أبو دلف ولت الدنيا على أثره

توفي سنة ٢٢٦هـ.

(٤) هو عبد الله بن طاهر بن الحسن، من كبار ولاة المأمون ولي مصر مدة سنتين تقريباً. قال صاحب كتاب أدب الخواص: إن البطيخ العبدلاوي الموجود بالديار المصرية منسوب إليه، ا.هـ.

(٥) يقال: هو ناصح الجيب، أي: القلب والصدر.

(٦) الأيد: القوة.

فقال قائل: ما أفصحه على جلِيَّته! فقال المأمون: إن بالجبل[١] قوماً أمجاداً[٢] كراماً أنجاداً[٣]، وإنهم لَيُوَقُّون السيف حظه يوم النِّزل، والكلام حقه يوم المقال.

وصف أَعرابي رجلاً فقال: إن سألَ ألحف، وإن سُئل سوَّف، وإذا وعد أخلف، وإذا صَنَعَ أتلف، وإذا همَّ بالفعل الجميل توقف. ينظر بنظر الحسود، ويُعْرِض إعراض الحقود.

بينما هو خِلّ ودود. إذ هو خَلٌّ وَدُود. فناؤه شاسع، وضيفه جائع، وشرّه شائع[٤]، وسرّه ذائع، ولونه فاقع[٥]، وجفنه دامع، وديارِه بَلاقع، رديء المَنْظر، سَيِّئُ المَخْبَر، يبخل إذا أيسر، ويَهلَع[٦] إذا أعسر، ويكذِب إذا أخْبر، إن عاهَد غَدرَ، وإن خاصَم فجر، وإنْ خُوطِبَ نَفَر.

وصف الإمام العادل

كتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لما وَلِي الخلافة إلى الحسن بن أبي الحسن البصري أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل فكتب إليه الحسن:

اعلم يا أمير المؤمنين، أن الله جعل الإمام العادِل قوَامَ كلّ مائل، وقَصْد كلّ جائرٍ، وصلاح كلّ فاسد، وقُوَّة كلّ ضعيف، ونصفَة كلّ مظلوم، ومَفْزَع كلّ ملهوف.

والإمام العادل يا أمير المؤمنين، كالرَّاعي الشفيق على إبله، الرَّفيق الذي يَرْتَاد لها أطيَب المَرْعَى، ويَذُودُها عن مَراتع المهْلكة، ويَحميها من السّباع، ويَكنُفُها من أذَى الحرّ والقَرّ.

---

(١) الجبل: بلاد بين أذربيجان وعراق العرب وخوزستان وبلاد الديلم.

(٢) الأمجاد ـ جمع ماجد أو مجيد، كأشهاد في شاهد وشهيد ـ والماجد والمجيد: الحسن الخلق السمح.

(٣) الأنجاد ـ جمع نجد بكسر الجيم أو ضمها ـ وهو الشديد البأس، ومن كلام علي: أما بنو هاشم فأنجاد أمجاد.

(٤) فناء البيت: الساحة أمامه، وجمعه أفنية والشاسع: البعيد، والجملة كناية عن أنه بخيل، لأن من عادة البخيل عندهم أن يبني خباءه بعيداً عن الحي حتى لا يُقصد، قالت الفارعة: [البسيط]

ولا يحل إذا ما حل منتشياً يخشى الرزية بين الماء والبادي

(٥) الفاقع: الشديد الصفرة، وربما أكد به الأبيض.

(٦) الهلع: أشد الجزع.

والإمام العادل يا أمير المؤمنين، كالأب الحاني على وَلده يَسْعى لهم صغاراً ويُعلّمهم كباراً يكتسب لهم في حياته ويدخر لهم بعد مماته، والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأمّ الشفيقة البَرّة الرّفيقة بولدها، حمَلَتْه كُرْهاً، ووضعتْه كرْهاً، ورَبَّتْه طِفلاً، تَسهرَ بسهَره، وتسْكُن بسُكونه، تُرْضعُهُ تارةً وتَفطِمه أخرى، وتَفرَح بِعافيته وتَغتَمّ بِشكايته.

والإمام العادل يا أمير المؤمنين، وصيّ اليَتامى، وخازن المساكين، يُرَبّي صغيرَهم، ويَمُون كبيرهم. والإمام العادل يا أمير المؤمنين، كالقلب بين الجوانح تَصلح الجوانح بِصلاحه وتفسُد بفساده. والإمام العادل يا أمير المؤمنين، هو القائم بين الله وبَين عباده، يَسمع كلام الله ويُسْمِعُهُمْ، ويَنظر إلى الله ويُريهِم، ويَنقاد إلى الله ويَقودهم.

فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما مَلّكك الله كعبد ائتَمنَه سيّده واستَحفظه ماله وعيالَه، فبدّد المال وشَرَّد العِيال فأفقَر أهلَه وفرّق ماله.

واعلم يا أمير المؤمنين، أن الله أنزل الحدُود ليَزْجُرَ بها عن الخبائث والفواحش، فكيف إذا أتاها مَنْ يَليها؟ وأن الله أنزَل القِصاص حياةً لعباده، فكيف إذا قتَلهم مَنْ يَقْتصّ منهم؟

واذكرْ يا أمير المؤمنين، الموتَ وما بَعده، وقِلّة أشياعِك عنده وأنصارك عليه، فتزَوّدْ له ولِمَا بَعدَه من الفزَع الأكبر.

واعلم يَا أَمير المؤمنين، أن لك منزِلاً غيرَ منزِلك الذي أنت فيه، يطول فيه ثَوَاؤك ويُفارِقُك أحبّاؤك، يُسْلمونك في قَعْره فريداً وحيداً، فتزَوّد له ما يَصْحَبَك ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾[1].

واذكر يا أمير المؤمنين ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾﴾[2] فالأسرار ظاهرة، و﴿ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾[3].

فالآن يا أمير المؤمنين وأنت في مَهَل قبل حُلول الأجل وانقطاع الأمَل، لا تحكُم يا أمير المؤمنين، في عباد الله بحُكم الجاهلين، ولا تَسلُك بهم سبيل

(١) عبس: ٣٤ـ٣٦. (٢) العاديات: ٩ ـ ١٠. (٣) الكهف: ٤٩.

الظّالمين، ولا تُسلّط المُستكبرين على المستضعفين، فإنهم لا يَرْقُبون في مؤمنٍ إلّا ولا ذِمَّةً، فتبُوء بأوْزارك وأوْزارٍ مع أوْزارك، وتحمل أثقالك وأثقالاً مع أثقالك، ولا يَغُرَّنّك الذينَ يتنعمّون بما فيه بؤسُك، ويأكُلون الطّيّبات في دُنياهم بإذهاب طيّباتِك في آخرَتك. ولا تَنْظُر إلى قُدْرتك اليومَ، ولكن انظر إلى قُدْرتك غداً، وأنت مأسورٌ في حبائل الموت، وموْقوف بين يدي الله في مَجْمع الملائكة والنّبيّين والمرسلين، وقد عَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ.

إني يا أمير المؤمنين، وإن لم أبْلُغْ بِعظتي ما بَلَغهُ أولو النُّهى من قَبلي، فلم آلُك شفقةً ونُصحاً. فأنزلْ كتابي إليك كمُدَاوِي حبيبه يَسقيه الأدوية الكَريهة لِمَا يَرْجو له في ذلك من العافية والصحّة، والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

وصف عمرو بن العاص مصر لسيدنا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب

مصر تُرْبةٌ غَبْراء وشجرَة خضراء، طولها شهر وعرضها عشر[١]، يَخُطّ وسطَها نهر ميمون الغدَوات مُبارك الرّوحَات، يجرِي بالزّيادة والنّقصان كجريْ الشّمس والقمر، له أوان تَظهر به عيُونُ الأرض ويَنابيعها. حتى إذا أُصلح عَجاجه وتعظّمت أمواجه، لم يكن وُصول أهل القُرَى إلى بعض إلا في خِفاف القوارِب[٢] وصغار المراكب. فإذا تكاملتْ زِيادته نكص[٣] على عَقبَيْهْ كأوّل ما بدَأ في شدّته وطَما[٤] في حِدَّته، فعند ذلك يخرُج القوم ليَحرثوا بطون أوْديَته ورَوابيه، فيبذُرُون الحَبّ ويَرْجوْن الثِّمار من الرّبّ. حتى إذا أشرَق وأشرَف سقاه من فوْقه النَّدَى وغذّاه من تحته الثّرى، فعند ذلك يدُور حِلابه ويُغَنّى ذُبابُه. فبينما هي، يا أمير المؤمنين، دُرّة بيضاء إذ هي عنبَرةٌ سوداء، فإذا هي زَبَرجَدَةٌ خضراء، فتبارك الله الفعال لمَا يشاء.

وصف حرب لأبي منصور الثّعالبي النّيسابوري المتوفى سنة ٤٢٩هـ

عندما دارَت رَحى الحرب، صَمَتت الألسنة، ونطَقَت الأسِنّة، وخطَبَت السُّيوف على منابر الرّقاب، وأُقدَمت الرّماح على الخِطَطِ الصّعاب، وتلاصَقَت القنَا

(١) أي عشر ليال لأن عادة العرب السير في الليل.
(٢) السفن الصغيرة.
(٣) رجع.
(٤) ارتفع.

والقنابل[١]، وتَعانقت الصَّوارِمُ[٢] والمناصل، وبَلغَت القلوب الحنَاجر، وأدركت السّيوفُ المناحر، وضاق المجال، وتحكَّمت الآجال. فلا ترَى إلا رؤوساً تُنْدَر[٣]، ودِماءً تَهْدُر، وأعضاءً تتطايَر وتتناثر، وأجساماً تتزايل وتتمايل، حتى ثمِلَت الرّماح من الدّماء، فتعثّرَت في النُّحور، وتكسّرت في الصُّدور، فَرَجموا الأعداءَ من جَوَانِبهم، وتمكَّنوا من فَضّ مَواكبهم.

وصف المطر شعراً لأبي الفضل المكيالي المتوفى سنة ٤٣٦هـ

مع مقدمة لعمر بن علي المطوعي في وصف ذلك المطر نثراً.

حكى عُمَرُ بْنُ عَليّ المَطْوَعِيّ قال: رَأى الأميرُ السيدُ أبو الفضل عبدُ الرحمن بْنُ أحمدَ ـ أدام الله عزه ـ أيَّامَ مُقَامِهِ بجوَيْن[٤] أن يطالع قرية من قُرى ضِيَاعِهِ[٥] تُدعى بجاب على سبيل التّنَزُّهِ والتَّفَرُّجِ، فكنت في جملة من استصحبه إليها من أصحابه. واتَّفَقَ أنْ وصلنا والسماءُ مُصْحِيَة[٦] والجوُّ صاف لم يُطَرَّزْ ثوبهُ بعلَم الغمام[٧]، والأفقُ فَيْرُوزَجٌ لم يعبق به كافور السَّحاب[٨]. فوقع الاختيارُ على ظلّ شجرة باسِقةِ الفروع[٩] متسعةِ الأوراق والغصون، قد سترت ما حَوَاليْها من الأرضِ طُولاً وعَرْضاً، فنزلنا تحتها مُسْتَظِلّين بسَماوة أفْنانها[١٠] مستترين من وَهجَ الشمس بستَارَة أغصانها[١١]، وأخذنا نتجاذب أذيال المذاكرة[١٢] ونتسالب أهْدَابَ المُنَاشَدَة

---

(١) القنا: الرماح. والقنابل: جمع قنبل ما بين الخمسين فصاعداً من الخيل.
(٢) السيوف القاطعة، وكذا المناصل.
(٣) تسقط.
(٤) كورة بخراسان وبلدة بسرخس (بلاد فارس)
(٥) الضياع: جمع ضيعة وهي العقار والأرض المغلة.
(٦) مصحية: لا غيم فيها.
(٧) عبارة عن خلو الجو من السحاب.
(٨) أي لونه مثل لون الفيروزج وهو الزرقة. ولم يعبق به: لم يلصق به. والكافور: طيب يستخرج من شجر كبير، ولون هذا الطيب يصير أبيض بعد عملية تعمل فيه. والمعنى أنه لا يرى شيء من السحاب في الأفق.
(٩) باسقة الفروع: طويلتها.
(١٠) الأفنان: الغصون. وسماوتها: يعني أوراقها العريضة المتلاحمة تلاحماً يجعلها تشبه السقوف.
(١١) وهج الشمس: شدة حرها وتوقدها.
(١٢) عبارة عن تذاكرهم.

والمُحَاوَرة[١] . فما شعرنا بالسماء إلا وقد أرْعَدَتْ وَأبْرَقَتْ[٢] وأظْلَمَتْ بَعدما أشْرَقَتْ، ثم جادت بِمطر كأفْوَاهِ القِرَب فأجَادَتْ[٣] وحكت أنامِلَ الأجْواد بل أوْفت عليها وزادت[٤] ، حتى كاد غيْثها يَعُودُ عَيثاً[٥] ، وهمّ وَبْلها أن يستحيلَ وَيْلاً[٦] . فصَبَرْنا على أذَاها وقلنا: «سحَابَة صَيْف عَنْ قَليلٍ تَقشعُ»[٧] ، فإذا نحنُ بها قد أمْطَرَتْنَا بَرَد الثُّغورِ، لكنها من ثُغُور العَذَاب[٨] . لا من الثُّغُور العِذَاب[٩] فأيقَنَّا بالبلاء وسلَّمنا لأسْبَابِ القضاء[١٠] . فما مرَّت ساعةٌ من النهار حتى سمعنا خرير الأنهار[١١] ، ورأينا السيْلَ قد بلغ الزُّبَى[١٢] ، والماء قد غَمَر القِيعان وَالرُّبا[١٣] . فبادرنا إلى حِصْنِ القرية لائذين من السَّيل بأفْنيَتها[١٤] ، وعائذين من القَطْر

(١) عبارة عن تناشدهم الأشعار وتحاورهم بعضهم مع بعض تحاوراً أدبياً.

(٢) يقال: رعدت وبرقت أي جاءت بالرعد والبرق، وأرعدت وأبرقت يعني تهددت بالرعد وتوعدت بالبرق.

(٣) جادت: تكرمت، وأجادت: أحسنت.

(٤) حكت: شابهت. وأنامل الأجواد: المقصود أيدي الكرام، ومحاكاتها لأيدي الكرام: يعني مشابهتها لأيديهم في السخاء وأوفت وزادت: بمعنى واحد.

(٥) الغيث: المطر. والعيث: الإفساد.

(٦) الوبل: المطر الشديد العظيم القطرات. والويل: الشر.

(٧) أي: لا تمكث إلا قليلاً وتذهب.

(٨) البرد: قطرات المطر المتجمدة التي تنزل على الأرض كالحب في شكل الثلج أو الجليد، تشبه به أسنان الغواني وثناياها عند افترار الثغور. الثغور: جمع ثغر وهو ما يرى من الأسنان من فتحة الشفتين. وثغور العذاب: فتحاته.

(٩) لا من الأسنان العذبة الريق.

(١٠) وخضعنا لأحكام المقادير.

(١١) يعني جرى الماء بشدة حتى صار يسمع له صوت كصوت مياه الأنهار.

(١٢) السيل: الماء العظيم الذي يتجمع من المطر ويسيل بشدة. والزبى جمع زبية وهي الأرض المرتفعة ارتفاعاً عظيماً بحيث لا يعلوها الماء عادة، أو حفرة تحفر فيها لتصاد فيها الأسد.

(١٣) الربا: جمع ربوة وهي الأرض المرتفعة. والقيعان: جمع قاع وهو الأرض السهلة المطمئنة التي انفرجت عنها الجبال والآكام.

(١٤) فبادرنا: أسرعنا. والحصن الموضع الحصين المنيع الذي لا يوصل إلى جوفه. ولائذين: متحصنين. والأفنية: جمع فناء وهو المتسع أمام الدار.

بأبْنِيَتها[١] وأثوابُنا قد صَنْدَل كافورَهَا ماءُ الْوَبْل[٢]، وغَلَّف طِرازَهَا طينُ الوَحل[٣] ونحن نحمد الله تعالى على سلامة الأبدان وإن فَقدْنا بياض الأكْمَامِ والأرْدَان[٤]، ونشكره على سلامة الأنفس والأرواح شُكْرَ التاجر على بَقَاءِ رأس المال إذا فُجع بالأرْبَاح[٥]. فبِتنا تلك الليلةَ تحت سماء تَكِفُ ولا تَكُفّ[٦]، وتبكي علينا إلى الصباح بأدمع هوَام[٧] وأرْبَع سِجَام[٨]. فلما سُلّ سيفُ الصُّبْح من غمد الظلام[٩]، وصُرِفَ بوالي الصَّحْو عَامِلُ الغمام[١٠]، رأينا صوابَ الرَّأْيِ أن نُوسِعَ الإقامة بها رفضاً[١١]، ونتَّخذ الارتحال عنها فرضاً. فما زلنا نطوي الصحارَى أرضاً فأرضاً إلى أن وافينا المُسْتَقَرَّ ركضا[١٢]. فلما نفضنا غُبَارَ ذلك المسير[١٣] الذي جعلَنا في رِبْقَةَ الأسير[١٤]، وأفْضَيْنَا إلى ساحة التَّيسير[١٥] بعدما أُصِبْنَا بالأمر العسير، وتذاكرنا ما لَقينَا من التَّعب والمَشقَّة في قطع ذلك الطّريق وطيّ تلك الشُّقَّة[١٦]، أخذ الأمير السيد ـ أطال الله بقاءه ـ القلم فعلّق هذه الأبيات ارتجالاً:

---

(١) عائذين: ملتجئين. والقطر: ما نزل من ماء المطر. والأبنية: المباني.

(٢) صندل: استعمله متعدياً بمعنى جعل لون الصندل أحمر ضارباً إلى السواد. والكافور والوبل تقدم معناهما.

(٣) غلف الشيء: جعل له غلافاً أي حجاباً وستراً والطراز: رسم الثوب. والمعنى: أن رسم الثوب ستره الطين المتناثر من الوحل.

(٤) الأردان: أصول الأكمام.

(٥) أي أوجع بعدم الأرباح وفقد المكاسب.

(٦) تكف: تقطر. ولا تكف: لا تنقطع.

(٧) هوام: جمع هام من همى يعمي بمعنى سال.

(٨) لعله يريد أربع نواح يقطر منها الماء كثيراً.

(٩) أي: الصبح الشبيه بالسيف، والظلام الشبيه بالغمد. (١٠) أزال الصحو الغمام.

(١١) أي: أن نرفض الإقامة بها رفضاً باتاً.

(١٢) وافينا: أتينا. والمستقر: المكن. وركضاً يعني عدواً وجرياً على الأقدام.

(١٣) يعني: لما أزلنا وسخ هذا السير، بمعنى استرحنا.

(١٤) الربقة: عروة تجعل في حبل مع عرى أخرى ويربط في هذا الحبل (ويسمى الربق) أولاد الضأن والمعز والبقر.

(١٥) أفضينا: وصلنا. والساحة: رحبة بين الدور. والتيسير: اليسر والتسهيل.

(١٦) وطي تلك الشقة أي قطع تلك المسافة.

[المتقارب]

دَهَتْنا السَّماءُ غَدَاة السَّحاب ... بغَيْثٍ عَلَى أُفْقِهِ مُسْبِلِ(١)
فَجَاءَ بِرَعْدٍ لَهُ رَنّةٌ(٢) ... كَرَنةِ ثَكلَى وَلَمْ تُثكلِ(٣)
وَثَنّى بوَبْلٍ عَدَا طَوْرَهُ(٤) ... فَعَادَ وَبَالاً عَلَى المُمْحِلِ(٥)
وَأشْرَفَ أصْحَابُنا مِنْ أذَاهُ ... على خَطَرٍ هَائِلٍ مُعْضِلِ(٦)
فَمن لاَئِذٍ بِفَنَاءِ الجِدَارِ(٧) ... وَآوٍ إلى نَفَقٍ مُهْمِلِ(٨)
وَمِنْ مُسْتَجِيرٍ ينادِي الْغرِيقَ ... هُنَاكَ ومِنْ صَارِخٍ مُعْوِلِ(٩)
وجادَتْ عَلَينا سماءُ السُّقُوفِ ... بدَمْعٍ منَ الوَجْدِ لَمْ يُهْمِلِ(١٠)
كأنَّ حَرَاماً لَهَا أن يَرَى ... يَبِيساً مِنَ الأرْضِ لَمْ يبْلَلِ(١١)
وأقْبَلَ سَيلٌ لَهُ رَوْعَةٌ(١٢) ... فأدْبَرَ كُلٌّ عَنِ الْمُقْبِلِ(١٣)
يُقَلّعُ ما شاءَ منْ دَوْحَةٍ(١٤) ... ومَا يَلْقَ منْ صَخْرَةٍ يَحْمِلِ(١٥)

---

(١) الغداة: أول النهار. يعني دهمتنا السماء في أول النهار الذي كان فيه غيم. والغيث: المطر. والمسبل: الهاطل. يعني دهمتنا السماء بمطر هاطل على الأفق الذي كان السحاب مخيماً عليه.
(٢) له رنة أي: دوي وصوت هائل.
(٣) الثكلى: التي فقدت ولدها. ولم تثكل يعني لم يفقدها الله ولدها. والمعنى كصوت الغائب عنها ولدها مع أن الله لم يهلكه، فهي تصوت على غيابه ولم ينقطع أملها من وجوده.
(٤) الوبل: المطر الشديد. وعدا طوره: تجاوز حده.
(٥) فصار ثقيلاً وخيما على المكان. الممحل: الجدب المنقطع عنه المطر.
(٦) أشرف على كذا: قرب منه. والمعضل: الذي لا دواء له.
(٧) فمن متحصن بالأراضي المجاورة للجدران.
(٨) ومن لاجئ إلى سرب في الأرض لم يتعهده أحد.
(٩) ينادي الغريق أي يدعو الناس ويقول: الغريق لينقذوه. والمعول: الرافع صوته بالبكاء.
(١٠) لم يهمل: أي لم يترك شيئاً من الوجد أي: الجدة والكثرة.
(١١) كأن حراماً لها أي كأن السماء محرم عليها أن ترى أرضاً يابسة لم تبل بالماء.
(١٢) الروعة: الفزعة.
(١٣) فصار كل واحد يولى ويهرب ممن يقابله.
(١٤) يقتلع كل ما يريد من الشجر العظام.
(١٥) يحمل كل ما يلقاه من الصخور الضخام.

obeikandl.com

فـمـنْ عَـامِـرٍ رَدّهُ غـامـراً[١] ومـنْ مُـعْـلـمٍ عَـادَ كـالـمـجْـهَـلِ[٢]
كـفَـانـا بَـلِـيّـتـهُ رَبُّـنـا فَـقَـدْ وَجَـبَ الـشكْـر لـلْـمُـفْـضِـلِ[٣]
فـقُـلْ لِـلـسّـمَـاء ارعُـدي وأبْـرُقـي[٤] فـإنَّـا رَجَـعْـنـا إلـى الْـمَـنـزِلِ

وصف حديقة لابن حبيب الحلبي المتوفّى سنة ٧٧٩هـ

لمّا صدِأت مِرْآةُ الجَنَانِ[٥] قَصدْتُ لِجَلائها بَعْض الجِنَانِ[٦] فدخَلْتُ إلَيْها ومَا كِدْتُ أنْ أقْدِمَ عَلَيْهَا فإذَا هِيَ جَنّةٌ عَالِيَةٌ[٧] قُطُوفُها دَانِيةٌ[٨]، وطَلْحُها مَنْضُودٌ[٩] وظلُّها ممدُودٌ[١٠]، وأعْلاَمُ أشْجارِها مَرْفُوعة[١١] وفاكهَتُها كَثِيرةٌ لا مقْطُوعةٌ ولا مَمْنُوعةٌ[١٢]، تجُوسُ المِيَاهُ خِلاَلَ دِيَارِها[١٣] وتُشْرِقُ بآفاقها أنوارُ نوّارها[١٤]، نُزْهةُ النّواظِرِ[١٥] وشَرَكُ الخَواطر[١٦]، بها أشجارٌ لا تُحْصَى[١٧] وثِمَارٌ لا تُعدُّ ولا تُستقْصَى[١٨].

وصف البيان لأمير المؤمنين ابن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦هـ

البيان تُرجمَانُ القلوب وصَيقل العقول[١٩]، ومجلي الشَبهة[٢٠] وموجب الحجَّة، والحاكم عند اختصام الظنون والمفرّق بين الشكّ واليقين. وخير البيان ما كان مصرّحاً عن المعنى ليسرع إلى الفهم تلقّيه، أو موجَزاً ليخفّ على اللفظ تعاطيه.

---

(١) رده غامراً: صيره خراباً.
(٢) من معلوم صار كالمجهول.
(٣) كفانا الله شره فوجب الشكر له لأفضاله علينا.
(٤) أتى بالرعد والبرق.
(٥) الجنان: القلب. وصدئت مرآته: علاها الوسخ. والمعنى لما كَلَّ القلب ومل العمل.
(٦) لجلائها أي إزالة الوسخ الذي علاها. والجنان: جمع جنة وهي الحديقة ذات النخل والشجر.
(٧) أي: مرتفعة فاخرة. (٨) عناقيدها متدلية قريبة من الجاني.
(٩) الطلح: الأشجار العظام. ومنضود يعني متراكم بعضه فوق بعض.
(١٠) أي: متسع. (١١) أي: أغصانها مرتفعة.
(١٢) لا تقطع عن الطالب ولا تمنع منه.
(١٣) أي: تتردد بين بيوتها. (١٤) النوار: الزهر.
(١٥) تتنزه فيها العيون.
(١٦) تصطاد الخواطر وتسبي العقول. (١٧) لا يمكن الإتيان على عددها.
(١٨) لا يتأتى إدراك آخرها. (١٩) جلاؤها. (٢٠) كاشفها.

ووصف أيضاً المكارم فقال:

لن تكسبَ، أعزّك الله، المحامد، وتستوجب الشرف إلا بالحمل على النفس والحال، والنُّهوض بحمل الأثقال وبذل الجاه والمال. ولو كانت المكارم تنال بغير مؤونة لاشترك فيها السّفَل[١] والأحرار، وتساهمها الوضَعاء[٢] من ذوي الأخطار. ولكن الله تعالى خصّ الكرماء الذين جعلهم أهلها، فخفّف عليهم حملها وسوّغهم فضلها، وحظرها[٣] على السّفَلَةِ لصغر أقدارهم عنها وبعد طباعهم منها، ونفورها عنهم واقشعرارها منهم.

ووصف القرآن الكريم فقال:

فضل القرآن على سائر الكلام معروف غير مجهول وظاهر غير خفيّ، يشهد بذلك عجز المتعاطين ووهَن[٤] المتكلّفين. وهو المُبلّغ الذي لا يملّ، والجديد الذي لا يَخْلق[٥]، والحقّ الصَّادع والنُّور السَّاطع، والماحي لظُلم الضَّلال، ولسان الصدق النَّافي للكذب، ومفتاح الخير، ودليل الجنة. إن أوجز كان كافياً، وإن أكثر كان مذكّراً، وإن أمر فناصحاً، وإن حكم فعادلاً، وإن أخبر فصادقاً، سراج تستضيء به القلوب، وبحر العلوم وديوان الحكَم وجَوهَر الكلِم.

وصف البلاغة لفحول البلغاء

١ ـ قال الجوهري: أحسنُ الكلام نظاماً ما ثقبته يدُ الفكرة، ونظمته الفطنة ووُصل جوهر معانيه في سُمُوط[٦] ألفاظه، فاحتملته نُحُورُ الرواة.

٢ ـ وقال العطَّار: أطيبُ الكلام ما عُجِنَ عنبرُ ألفاظه بمسك معانيه، ففاح نَسيم نشقه[٧] وسطعت رائحة عبقه، فتعلقت به الرواة، وتعطرت به السراة.

٣ ـ وقال الصائغ: خير الكلام ما أحْمَيتَه بكِير الفكر، وسبكتهُ بمشاعل النظر

---

(١) السفل: جمع سفلة وهم طغام الناس وغوغاؤهم. (٢) جمع وضيع وهو الساقط.
(٣) منعها. (٤) ضعف. (٥) لا يبلى.
(٦) السمط: الخيط الذي ينظم فيه.
(٧) النشق: الاستنشاق، العبق: لصوق الطيب بالشيء، وتغلف الرجل بالطيب: ادهن به، والسراة: الأشراف.

وخلّصته من خبَث الإطناب، فبَرز بُروز الإبريز، في معنىً وَجيز[١].

٤ ـ وقال السيرافي: خير الكلام ما نقدته عين البَصيرة، وجلتهُ يد الرَّوية ووزَنته بمعيار الفصاحة، فلا نظرٌ يَزيفه[٢]؛ ولا سَماع يُبهرجه[٣].

٥ ـ وقال الحدَّاد: أحسنُ الكلام ما نصبتَ عليه منفَخَة القريحة، وأشعلتَ عليه نار البصيرة، ثم أخرجته من فحم الأفخام ورَقَّقْتَهُ بغطيسِ الأفهام[٤].

٦ ـ وقال النجار: خير الكلام ما أحكمتَ نجر معناه بقَدُّوم التقدير، ونَشرته بمنشار التدبير، فصار باباً لبيت البيان، وعارضةً[٥] لسقف اللسان.

٧ ـ وقال الحائك: أحسن الكلام ما اتصلت لُحمة ألفاظه، بسَدى معانيه مفوفاً منيراً، موَشى محبراً[٦].

٨ ـ وقال الجمَّال: البليغ من أخذ بخطام[٧] كلامه، فأناخه في مبرَك المعنى، ثم جعل الاختصار له عِقالاً، والإجادة له مجالاً، فلم يندّ[٨] عن الآذان ولم يشذ عن الذهان.

وصف عمر بن الخطاب

قال معاوية بن أبي سفيان لصعصعة بن صَوْحان: صِفْ لي عُمر بن الخطاب فقال: كان عالماً برعيتِهِ، عادلاً في قضيته، عارياً من الكِبْرِ، قَبولاً للعذر، سهلَ الحجاب، مصون الباب، متحرياً للصواب، رفيقاً بالضعيف، غير محاب للقريب و لا جاف للغريب.

---

(١) الكير: زق ينفخ فيه الحداد، والمشاعل: جمع مشعل وهو القنديل وهو موضع شعل النار أي: إلهابها.
(٢) زيف الدراهم: أي: أنها زائفة أي: مغشوشة. (٣) بهرجها: أبطلها.
(٤) الغطيس كسكين: المطرقة العظيمة.
(٥) العارضة. الخشبة العليا التي يدور فيها الباب، وعوارض البيت: خشب سقفه.
(٦) المفوف: الرقيق من الثياب أو الذي فيه خطوط بيض. والمنير: المنسوج على نيرين أي: المضاف النسج. والموشى: المنقوش، والمحبر: المحسن.
(٧) الخطام: كل ما وضع في أنف البعير ليقاد به، وجمعه: خطم.
(٨) ندّ: هرب.

وصف علي بن أبي طالب

قال مُعاوية لِضرار الصدَائي : يا ضرار صف لي عليّاً قال: أعفني يا أميرَ المؤمنين. قال: لتصفنّه.

قال: أما إذْ لابُد من وصفه فكان ـ والله ـ بَعيدَ المدى[١] شديد القوَى، يقول فصلاً، ويحكم عدلاً، ويتفّجر العلمُ من جوانبه وتَنطقُ الحكمةُ من نواحيه، يَستوحشُ من الدنيا وزَهرتها، ويَستأنسُ بالليل ووحشته، وكان ـ والله ـ غزيرَ العبرة، طويلَ الفكرة، يُقلب كفه، ويُخاطبُ نفسه، يُعجبه من اللباس ما قصر، ومن الطعام ما خشن، وكان فينا كأحدِنا يُجيبنا إذا سألناه وينبئنا إذا استنبأناه، ونحن مع تقريبه إيانا، وقُربه منا، لا نكادُ نُكلمه لهيبته، ولا نبتدئه لعظمته، يُعظّم أهلَ الدين، ويحب المساكين، لا يطمعُ القوي في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله.

وصف كلام العرب لعتبة بن أبي سفيان

قال عُتبة بن أبي سفيان: إن للعرب كلاماً هو أرق من الهواء، وأعذبُ من الماء، مرَق من أفواههم مرُوق السهام من قسيها، بكلمات مؤتلفات، إن فسرت بغيرها عُطلت[٢]، وإن بُدلت بسواها من الكلام استصعبت، فسهولة ألفاظهم توهمك أنها لُكنة إذا سُمعتْ، وصعوبتها تعلمك أنها مفقودة إذا طلبت[٣].

وصف الكتاب للجاحظ

قال الجاحظ: الكتاب وعاءٌ مُلئَ علماً وظَرْفٌ حشي ظُرْفاً، وبستان يحملُ في رُدْن[٤] ورَوضةٌ تقلّب في حجر، ينطق عن الموتى، ويترجمُ كلام الأحياء.

ولا أعلمُ جاراً أبر، ولا خليطاً أنصف، ولا رفيقاً أطوع، ولا معلماً أخضع، ولا صاحباً أظهرَ كفاية، وأقل جناية، ولا أقل إملالاً وإبراماً، ولا أقل خلافاً

---

(١) المدى: الغاية.
(٢) التعطيل: ترك الشيء ضياعاً.
(٣) هذا النوع من الكلام يسمى السهل الممتنع.
(٤) الردن: الكم، وجمعه أردان.

وإجراماً، ولا أقل غيبة، ولا أبعدَ من عَضْبَهة[١]، ولا أكثر من أعجوبة وتصرفاً، ولا أقل صلفاً[٢] وتكلفاً ولا أبعدَ من مراء، ولا أترك لشغب، ولا أزهدَ في جدال، ولا أكَفّ عن قتال من كتاب.

ولا أعلمُ قريناً أحسنَ مواتاة[٣]، ولا أعجل مكافأة، ولا أحصر مَعونة، ولا أقل مؤونة، ولا شجرة أطول عمراً ولا أجمع أمراً، ولا أطيبَ ثمرة، ولا أقرب مُجتنى، ولا أسرع إدراكاً في كل أوان، ولا أوجد في غير أبان من كتاب.

ولا أعلمُ نتاجاً في حداثة سنهِ، وقرب ميلاده ورخص ثمنه، وإمكان وُجوده يجمعُ من التدابير الحسنة، والعلوم الغريبة، ومن آثار العقول الصحيحة، ومحمود الأخبار اللطيفة، ومن الحكم الرقيقة، ومن المذاهب القديمة، والتجارب الحكيمة والأخبار عن القرون الماضية والبلاد المتراخية والأمثال السائرة والأمم البائدة[٤] ما يجمعُ الكتاب.

وقيل لبعض العلماء: ما بلغَ من سرورك بكتبك؟

فقال: هي إنْ خَلوت لذتي، وإن اهتممتُ سلوتي، وإنْ قلت: إنّ زَهر البستان ونور الجنان يَجلوان الأبصار، ويمتعان بحسنهما الألحاظ، فإن بستان «الكتب» يَجلو العقل، ويَشْحذُ الذِّهْنَ، ويُحيي القلب، ويُقوّي القريحة، ويُعين الطبيعة، ويبعثُ نتائجَ العقول، ويستثير دفائن القلوب، ويُمْتعُ في الخلوة، ويؤنس في الوحشة، ويضحك بنوادره، ويَسُرُّ بغرائبه، ويُفيد ولا يستفيد، ويُعْطي ولا يأخُذ، وتَصِل لذّته إلى القلب من غير سآمة تُدْرِكك، ولا مَشَقَّة تعرض لك.

وصف التاريخ لابن الأثير

التاريخ: معاد[٥] معنوي، يُعيد الأعصار وقد سَلفت، ويَنشُر أهلها، وقد ذهبت آثارُهم وعَفَت[٦]، وبه يستفيدُ عُقول التجارِب مَن كان غِرّاً ويلقى مَن قبله من الأمم وهلُمّ جرّاً.

---

(١) العضبهة: البهتان والنميمة.
(٢) الصلف تمدح المرء بما ليس عنده.
(٣) المواتاة: حسن المطاوعة والموافقة وأصله بالهمزة وفي الحديث: خير النساء المواتية لزوجها.
(٤) القديمة الهالكة. (٥) معاد: يقصد أنه كاليوم الآخر.
(٦) عفا الشيء: هلك.

فهم لديه أحياء، وقد تضمَّنتهم بُطونُ القبور، وعنه غُيَّبٌ وقد جعلتهم الأخبار في عِداد الحضور، ولولا التاريخ لجهلت الأنساب ونُسيت الأحساب، ولم يعلم الإنسان أنّ أصله من تراب، وكذلك لولاه لماتت الدول بموت زعمائها وَعميَ[١] على الأواخر حال قدمائها، ولم يُحَطْ علماً بما تداولته الأرض من حوادث سمائها. ولمكان العناية به لم يخل منه كتاب مِنْ كُتبِ الله المنزلة، فمنها ما أتى بأخباره المُجْمَلة، ومنها ما أتى بأخباره المُفَصَّلة، وقد ورد في التوراة مُفرداً في سِفر من أسفارها، وتضمّن تفصيل أحوال الأمم السالفة ومُدَد أعمارها.

وقد كانت العرب على جهلها بالقَلم وخَطِّه، والكِتاب وَضَبطه، تصْرِفُ إلى التواريخ جُمل دواعيها، وتجعل لهُ أوّل حَظٍّ من مساعيها، فتستغني بحفظ قلوبها عن حفظ مكتوبها، وتَعْتاضُ برقم صُدورها، عن رقم سُطورها، كل ذلك عِنايةً منها بأخبار أوائلها، وأيام فضائلها، وهل الإنسان إلا ما أسّسه ذِكْرُه وبناه؟ وهل البقاءُ لِصُورة لحمه ودَمه لولا بقاء معناه!؟

وصف الرّجُل الكامل

كتب الحسن[٢] بن سهل إلى محمد[٣] بن سَمَاعَةَ القاضي يَصِفُ له الرّجلَ الكاملَ:

أما بعدُ: فإني احتجتُ لبعض أموري إلى رجل جامع لخصال الخير، ذي عِفّة ونَزاهة، طُعمة[٤] قد هذّبته الآداب وأحكمته التجارِب، ليس بظنّين[٥] في رأيه ولا بمطعُون في حَسبه، إن اؤتمن على الأسرار قام بها، وإن قُلِّدَ مهمّاً من الأمور أجزأ[٦] فيه، له سِن مع أدَب ولسان، وتُقعدُه الرزانة، ويسكنه الحِلْم. قد فرّ[٧] عن

(١) عمي عليه الأمر: التبس وكذلك عمي عنه.
(٢) هو وزير المأمون وختنه أبو زوجه بوران. توفي سنة ٢٣٦هـ.
(٣) من أصحاب محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة توفي سنة ٢٢٣هـ، وقد بلغ مائة سنة وهو صحيح الحوادث.
(٤) الطعمة بالضم: طريق الكسب، وبالكسر: هيئة الأكل والسير فيه.
(٥) الظنين: المتهم. (٦) أجزأ: أغنى.
(٧) فر الدابة: كشف عن أسنانها ليعرف مبلغ عمرها.

ذكاء[١] وفطنة، وعَضّ على قارِحة[٢] من الكمال، تكفيه اللّحظة وترْشدهُ الحكتة، قد أبصر خدمة المُلوك وأحكمها وقام في أُمورهم فحُمد فيها. له أناةُ الوزراء، وصولة الأمراء، وتواضع العلماء! وفهم الفقهاء وجَواب الحكماء. لا يبيعُ نَصيبَ يومه بحرمان غده، يكاد يسترق[٣] قلوب الرجال بحلاوة لِسانه، وَحُسنِ بيانه، دلائلُ الفضل عليه لائحة، وأمارتُ العلم شاهدة، مُضطلعاً[٤] بما استنهض، مستقلاً[٥] بما حُمِّل، وقد آثرتُك بطلَبه وحَبَوتك بارْتيادِه[٦]، ثِقةً بفضل اختيارك، ومعرفةً بحسن تأتِّيك[٧].

وصف قناة السويس

للمرحوم أحمد شوقي بك مخاطباً ابنَيه يوم أن عبرَ قناة السويس ميمماً الأندلس حينما نَفَثْه الحكومة العرفية إبّانَ الحرب العالميّة.

يا بَنيّ القناة لقومكما فيها حياة، ذكرى إسماعيل وَرَيّاه[٨] وَعُليا مفاخِر دنْياه، دولة الشرق المرجاة، وسلطانُه الواسِعُ الجاه، طريقُ التِّجارة، والوسيلة والمَنارة، ومَشْرَع[٩] الحضارة.

تعبُرانها اليومَ على مُزجاة[١٠] كأنها فلْكُ النّجاة، خرجت بنا بَينَ طوفان الحوادث، وطغْيان الكَوارِث، تفارق برّاً مغْتَصبهُ مُضَريٌّ[١١] الغضبة، فد أخذَ الأُهْبةَ، واسْتَجْمَعَ كالأسد للوَثبة، وتلاقي بحراً جُنّتْ جواريه، ونزت[١٢] بالشَّرِّ

(١) الذكاء: تمام السن واكتماله أو حدة الذهن.
(٢) الفرس القارح: الذي استكمل القوة باكتمال العمر ونظيره في الإبل البازل، والسن التي تنبت له عند قروحه تسمى قارحاً وقارحة. والجملة كلها كناية عن استيفاء صفات الكمال.
(٣) يستعبد.
(٤) يقال: هو مضطلع لهذا الأمر وبه إذا كان قديراً عليه.
(٥) استقل بالحمل: نهض. (٦) الارتياد: مطلب.
(٧) تأتى للأمر: ترفق وأتاه من وجهه. (٨) الريا: الرائحة الطيبة.
(٩) المشرع: المورد. (١٠) زجاه وأزجاه: ساقه وسيره.
(١١) مضر فخذ من أفخاذ العرب ينسب لمضر بن نزار وهذا مأخوذ من قول بشار: [**الطويل**]
إذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو تقطر الدما
(١٢) النزو: الوثب، والنازية: حدة الرجل الوثاب إلى الشر وجمعها نواز.

نوازيه، وتمَثَّلَتْ بكر سبيل عواديه مملوءاً ببغتات الماء، مُترعاً بفجاءات السماء من نون[١] ينْحِف الدوارع، أو طيرٍ[٢] يَقْذِفُ البيض مصارعَ، فقلت: سيري، عَوّذْتكَ بوَديعة[٣] التابوت، وبِصاحب[٤] الحوت، وبالحيِّ الذي لا يموتُ، واسْري يا ابنة اليمِّ، زمامُك الروح[٥]، ورُبّانك[٦] نوح، فكم عليكم من منْكوب ومجروح.

إن للنفي لرَوعة، وإن للنَأي للوْعة، وقد جرتْ أحكامُ القضاء، بأن نعبرَ هذا الماء، حين الشرُّ مُضطرم، واليأس محتدم، والعدوّ مُنْتقم، والخَصْم محتكم. وحين الشامت جذْلان مُبْتِسم، يَهْزأ بالدمع، وإن لم ينسجم[٧]. نفانا حُكامٌ عُجم، أعوان العدوان والظلم، خَلفناهم يفرحُون بذهب اللجم، ويمرَحون في أرسانٍ يُسَمُّونها الحُكم، ضربونا بسيفٍ لم يطبعوه، ولم يملكوا أن يرْفعوه، أو يضعوه، سامحهم في حقوق الأفراد، وسامحوه في حقوق البلاد؛ وما ذَنْبُ السيف إذا لم يَسْتَحِ الجلّاد؟!

ماذا تهمِسان؟ كأني أسمعكما تقولان: أيّ شيء بدا له، على هذه الضاحية[٨] وماذا شَجا خياله من هذه الناحية؟ أي حسن أو طيب لملح يتصبب في كثيب ماء عكر في رمل كدر؟؟

قناة حَمِئة[٩]، كأنها قناة صَدِئة، بل كأنها وعِبْرَيْها[١٠] رمال بعضها متماسك وبعضها منهال، وكأن راكب البحر مُصحِر[١١] وكأن صاحب البَرِّ مُبحر. رويَدَكما! ليس الكتاب بزينة جلده، وليس السيف بحليَة غمده. تلك التنائف[١٢]، من تاريخكم صحائف، وهذه القفار، كتبٌ منه وأسفار، وهذا المجاز هو حقيقة

---

(١) النون: الحوت، والمراد الغواصة.
(٢) يريد الطير الطائرات، وبالبيض ما يلقى منها من مهلكات القذائف.
(٣) هو موسى كليم الله. (٤) هو نبي الله يونس. (٥) جبريل.
(٦) الربان: رئيس الملاحين، وجمعه ربابين.
(٧) انسجم الدمع: سال.
(٨) الضاحية: البادية وكل أرض بارزة للشمس.
(٩) الحمئة: التي فيها الحمأة أي: الطين الأسود المنتن، والقناة الأولى الترعة والقناة الثانية الرمح.
(١٠) عبر النهر شاطئه. (١١) أصحر: سار في الصحراء.
(١٢) التنائف: جمع تنوفة وهي المفازة.

السيادة، ووثيقة الشّقاء أو السعادة، خيط الرقبة، من اغتصبه اختصَّ بالغلبة، ووقفَ للأعقاب عقبة، ولو سكتُّ لنطقت العِبر، وأينَ العيان وأينَ الخبر؟

انظرا تريا العِبرين عبرة الأيام، حصون وخيام، جنود قعود وقيام، جيش غيرنا فرسانه وقوّاده، ونحن بُعْرانه[١] وعلينا أزواده[٢]؛ ديك على غير جداره، خلا له الجو فصاح، وكلبٌ في غير داره انفرد وراءَ الدار بالنُّباح.

القَناة وما أدراكما ما القناة، حظّ البلاد الأغر من التِقاءِ الأبيض والأحمر، بَيْدَ أنها أحلام الأوَل، وأماني الممالك والدّوَل، الفراعنة حاولوها، والبطالسة زاولوها[٣]، والقياصرة تناولوها، والعرب لأمر ما تجاهلوها[٤]، إلى أن جرى القَدَر لغايته، وأتى إسماعيلِ بآيته، فانفتح البرزخ بعنايته، والتقى البحران تحت رايته في جمع من التِّيجان لم يشهده إكليله[٥]، قد كان يُتَوّج فيه لو شهدتْه جيوشه وأساطيله، وما إسماعيل إلا قيْصرٌ لو أنه وفق، والإسكندر لو لم يُخْفق. ترك لكم عزّ الغد وكنز البد، والمنجم الأحد، والوقف الذي إن فات الوالد فلن يفوت الولد.

ماذا على الرِّمال، من لمحات جلال وجمال؟ ارجعا القهْقَرى بالخيال إلى العَصر الخال واعرضا في حداثتها الأجيال، تريا على هذا المكان وُجوهاً تتمثل وركاباً تتنقل، وتريا النُّبُوّة تتهلل، والآيات تتنزل، وتريا الملك يترَجّل، حتى كأنكما بالزمان الأول، فها هنا وضعَ للنبوّة المهد، وابتدأ بها العهد، فأقبل صاحب المقام، ومحطم الأصنام، وبنّاء البيت الحرام، خليل ذي الجلال والإكرام[٦].

هاجر إلى مصر أكرم من هاجر، ثم انقلب منها بأم العرب هاجر[٧]، ومِن هذه الثنيَّات طلع يوسف في القيد، وهو للسيارة صيد، يسير من كيْدٍ إلى كَيْدٍ، قلْبٌ جرحته

---

(١) البعران: جمع بعير كأبعر.

(٢) الأزواد: جمع زاد وهو الطعام.

(٣) زاول الشيء: حاوله.

(٤) يروى أن هارون الرشيد فكر في أن يصل البحرين بقناة، وأنه استشار يحيى بن خالد البرمكي في ذلك فقال له: يا أمير المؤمنين «إن خرق السويس خرق في الإسلام» فعدل عن رأيه.

(٥) الإكليل: التاج.

(٦) هو خليل الله إبراهيم.

(٧) هي جارية مصرية أهداها فرعون إلى السيدة زوج سيدنا إبراهيم فوهبتها له فاستولدها إسماعيل جد العرب المستعربة.

الإخوة، وجنْبٌ قرّحته النسوة، فيا لك «يوسف» من أسوة[١]، عِزٌّ بعد هَون، وذلة بعد المنزِل الدّون، وشئون أقدار وشجُون، وسُهول حياة وحُزون، وسجوفُ القُصور بعد السجون إلى سجود الشمس لك والقمر والكواكب الأُخر.

وإلى هذا الفضاء خرج موسى حين زال زَويلُهُ[٢]، وطلبه قتيله، وزيّن له الفرار خليله[٣]، فحوته هذه الرِّمال، فإذا الأمن سبيله، واليُمْن دليله، والسلامة زاملته[٤] والسّلم زميله، ولو أطلعه الله على غيبه، للمس النبوَّة بين يديه وجَيبه إلى أن رفع له المنار، واكتحل بالنور واقتبس من النار، وقيل له: كُنْ مع الأحرار الأحبار، وارجع فسلِّط الحقّ على فرعون الجبار، فكان عليه السلام أوّل من اقتحم على الفرد جبروته وهتك على المستبد طاغوته[٥]، وخطم[٦] المتأله[٧] وحطم عظمُوته، ماءُ الحق على لُطفه، ظفِر بنار الباطل على عُنفهِ، ظهر العدل على الحيف وكسرت العَصا بالسيف.

وعلى هذه الأرض مَشت السماء[٨] الطاهرة، والنيّرة الزّاهرة، والآية المتظاهرة أم الكلمة[٩] وطريدة الظلمة، سرحوا في عِرضها فأخرجوها من أرضها فضربت في طول الأرض وعرضها، يوسف حاديها، وجبريل هاديها والقدس ناديها، والطهارة

---

(١) الأسوة: القدوة، وما يتأسى به الحزين أي: يتعزى.

(٢) زال زويله: فزع وحذر.

(٣) يشير إلى ما كان من أمر موسى حين وجد قبطياً وإسرائيلياً يقتتلان فاستنصره الإسرائيلي على القبطي فوكزه وكزة كانت القاضية. فلما أصبح وجد الإسرائيلي نفسه يقاتل قبطياً آخر، فاستغاثه، فقال موسى: إنك لغوي مبين. ثم هم بنصرته على القبطي فظن أنه يريده بالأذى فصاح الإسرائيلي: يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس؟ فذاع أمره، ولم يلبث أن جاءه رجل وقال: يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين فخرج منها إلى بلاد مدين.

(٤) الزاملة: ما يحمل عليه من الإبل وغيرها.

(٥) الطاغوت: الشيطان وكل رأس ضلال.

(٦) خطمه: قهره أو ضرب أنفه.

(٧) أراد بالمتأله المتكبر غير أن معناها اللغوي المتنسك المتعبد.

(٨) يريد السيدة مريم.

(٩) الكلمة سيدنا عيسى.

أرجاء واديها، وعلى ذراعيها مصباح الحكمة وجناح الرحمة والإصباح من الظلمة، حتى هبطت به أكرم الأديم[١] فنشأ بين الحكيم والعليم وترعرع حيث ترعرع بالأمس الكليم.

فيا لك من دار لعبتْ على عرَصاتها الأقدار، ناوَيت[٢] موسى القريب، وآويت عيسى الغريب، نَبوت[٣] بالنبي، وحَبَوْت الأمنَ عيسى وهو صبي، عُذرك لا تنضى[٤] إليه المطي، فإنما أغضبت القبطي لابنك القبطي.

ثم انظرا تريا إبلاً صعاباً، وخيْلاً عراباً[٥] وتريا الرُّعاة[٦] انْقضُّوا على الوادي ذئاباً، فأخافوا القرى الآمنة، وأخرجوا من مصر الفراعنة، واستبدوا بالملك فيها آونة.

وتريا الوحوش الضارية والجوارح الكاسرة، يقودها شرّ الأكاسرة[٧]، مَلأت هذه الفجاج[٨]، وكأنها حرجات[٩] السّاج، أو حركات الأمواج، ثم تدفقت تكتسح الدّيار، باغية السّيف طاغيةَ النار، تدك الهياكل والمعاقل، وتهتك العقائد والعقائل.

وتريا الإسكندر الكريم، قد لَمع كالصارم من هذا الضريم[١٠]، يحمل الحملات النّجائب، ويفتح بالكتب والكتائب.

وتريا ابن العاص والصّحابة، مرّوا من هذه الأرجاءِ مرّ السحابة، يفتحون للحقّ ويفتكون بالرّق، حتى أخلوا القُصور من القياصرة، وأراحوا مصر الصابرة من صلف الجبابرة.

وتريا صلاح الدين يَخفى كالبدر ويبدو، ويروح كالغيْث ويَغْدو، بعوثٌ بلا عدد، ومددٌ إثر مدد، وذخائر وعدد، وبشْرى كل يوم بفتوح جدد.

---

(١) الأديم: وجه الأرض.
(٢) ناوأه ونواه: عاداه.
(٣) نبا به المكان: لم يوافقه.
(٤) أنضى المطية: هزلها.
(٥) العراب من الخيل والإبل العربية.
(٦) هم العمالقة الذين ملكوا مصر مدة من الدهر.
(٧) قميز.
(٨) الفجاج: الطرق الواسعة.
(٩) الحرجة: الشجرة الملتفة، والساج: شجر يعظم جداً ويذهب طولاً وعرضاً له ورق عريض جداً.
(١٠) الضريم: الرمل.

وتريا نابليون قد ركب طيشه، وأركب الغرر جيشه. وتريا إبراهيم بن عليّ مشهور الجراز، موفور الجهاز، ملك سورية وضبط الحجاز. وتريا إسماعيل بعث الحشرين، وحشد الحافرين، وقرب المسافة للمسافرين، غيَّر وجه السفر، فقيل: بلغ غاية الظفر، وقيل: وقع الحافِرُ فيما حَفر.

ثُمّ انظرا اليوم ترَيا القناة في يد القوم إنْ أمِنوا رَكزوها، وإن خافوا هزوها.

وصف فرس

قال محمد بن الحسين يصف فرساً:

هو حَسَنُ القميص، جيّد الفُصوص، وثيق القصب، نَقيُّ العصب، يُبصر بأذُنيه، ويَتبوَّع بيديه، ويُداخل برجليه، كأنه موج في لُجّةٍ أو سيل في حدُور يناهب المشي قبل أن يبعث، ويلحق الأرانبَ في الصّعوداء، ويجاوز جواري الظِّباء في الاستواء، ويسبق في الحدود جري الماء، إن عُطِفَ جار، وإن أُرسِلَ طار، وإن كُلّف السير أمعنَ وسار، وإن حبس صَفَنَ، وإن استوقف قطن، وإن رعى أنن، فهو كما قال تأبّط شَرّاً:

[الطويل]

ويسبق وفدَ الريحِ منْ حيثُ تُنْحَى بمنخَرق من شدَّة المتدارِك

وصف العصا

لقي الحجّاج أعرابياً فقال: من أين أقبلتَ؟ قال: من البادية. قال: ما بيدك؟ قال: عصاً أركزها لصلاتي، وأُعدُّها لعُداتي، وأسوق بها دابّتي وأقوى بها على سفري، وأعتمد عليها في مشيي، ليّتسع بها خطوي، وأعبر بها النهر فتؤمنني، وألقي عليها كساء فيسترني من الحرِّ، ويقيني من القرِّ، وتدني ما بعد مني، وهي محمل سُفرتي وعلاقة إداوتي[1] ومِشجَبُ ثيابي، أعتمد بها عند الضراب وأقرع بها الأبواب، وأتقي بها عقور الكلاب، تَنوب عن الرُّمح في الطعان، وعن الحربة عند مُنازلة الأقران، ورثتها عن أبي، وأُورثها بعدي ابني، وأهش بها على غَنمي، ولي فيها مآرب أُخرى، كثيرة لا تحصى.

---

(١) إداوة: وعاء ماء يتطهر به.

وصف كرة القدم لمؤلف الكتاب

قاتل الله الكرة! ما أعجب أمرها، وما أدقّ سرَّها؟ قد جمعت الأضداد واسترقّت النجباء والأوغاد. فهي كبيرة الحجم، مُفوَّقة الجسم، لكنها خفيفة الوزن، سريعة الوثْب. وهي ناعمة اللّمْس، مليحة الرقص، لكنها تأبى الوخْز ولا تطيق اللكز. وهي تفِرُّ من المداعبة والملاعبة، ولكنها لا تملّ من ضرب ولا تكل من دحرجة. وهي محبوبة مألوفة، تنقل على الأيدي والأحضان، لكنها تطرد بالأرجل والعصيِّ، فهي عزيزة ذليلة، حقيرة جليلة، تُشبه القنابل في صورها، والدُّفوف في أصواتها، والطير في امْتطاء الهواء، واختراق الفضاء.

وصف جيوش لابن الرومي المتوفّى سنة ٢٨٢هـ

وسار فلان في جيوش، عليهم أردية السُّيوف وأقمصة الحديد، وكأنَّ رماحهم قرون الوعول[١]، وكأن أدراعهم زبد السيول على خيل تأكل الأرض بحوافرها، وتمدّ بالنقع سُرَادِقها. قد نشرت في وجوهها غرر[٢] كأنها صحائف الرق[٣]، وأمسكها تحجيل[٤] كأنه أسورة اللُّجين، وقُرِطَتْ عُذُراً[٥] كأنها الشنوف. تَتلقَّف الأعداء أوائلها ولم تنهض أواخرها. قد صُبّ عليهم وقارُ الصَّبر وهبَّت معهم رِيح النّصر.

وصف الحسد للجاحظ المتوفّى سنة ٢٥٥هـ

الحسد ـ أبقاك الله ـ داء يَنْهك الجسد، علاجه عسير، وصاحبه ضجر. وهو باب غَامض[٦]، وما ظهر منه فلا يداوى، وما بطن منه فمداويه في عناء. ولذلك قال النبي ﷺ: «دَبَّ[٧] إليكُمْ داءُ الأُمَمِ مِنْ قَبْلِكُم الحَسَدُ والبَغْضاءُ»

(١) جمع وعل وهو تيس الجبل (تيس الشاة الجبلية) وقرونه طويلة.
(٢) جمع غرة وهي بياض في جبهة الفرس.
(٣) الرق: جلد رقيق أبيض يكتب فيه.
(٤) التحجيل: بياض في قوائم الفرس.
(٥) أي: ألبست عذراً جمع عذار وهو ما على خد الفرس من اللجام.
(٦) أي: مسلك خفي يعسر الخروج منه.
(٧) سرى فيكم.

الحـد عقيد[١] الكفر وحليف الباطل[٢] وضد الحق، منه تتولّد العداوة، وهو سبب كلّ قطيعة[٣] ومفرق كلّ جماعة، وقاطع كلّ رحم من الأقرباء[٤]، ومحدث التفرّق بين القُرناء[٥]، ومُلقّح الشرّ بين الحلفاء[٦].

ووصف أيضاً أفضل الكلام، وقال

أفضل الكلام ما كان قليله يُغنيك عن كثيره، ومعناه ظاهراً في لفظه، وكأن الله قد ألبسه من ثياب الجلالة وغشّاه[٧] من نور الحكمة، على حسب نية صاحبه وتقوى قائله. فإذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليغاً صحيح الطبع بعيداً من الاستكراه[٨] منزّهاً عن الاختلال مصوناً عن التكلّف، صنع في القلوب صنيع الغيث[٩] في التربة الكريمة. ومتى فُصلت الكلمة على هذه الشريطة ونفذت من قائلها على هذه الصفة، كساها الله من التوفيق ومنحها من التأييد مالا يمتنع من تعظيمها به صدور الجبابرة ولا يذهل عن فهمها معه عقول الجهلة.

وصف الشعراء المحدثين

قال ابن دُريد: سألت أبا حاتم عن أبي نواس، فقال: إن جدّ أحسن وإن هزل ظرف، وإن وصف بالغ، يُلقي الكلام على عواهنه لا يُبالي مِنْ أينَ أخَذَه.

قلت: فبَشار بن بُرْد؟ فقال: نظار عوّاص مطيلٌ مجيد يصفُ ما لم يره كأنّه رآه على أن في شعره خلَلاً كثيراً.

قلت: فمروانُ بن أبي حفْصة؟ قال: شاعر راضٍ عن نفسه يستحسن كلّ ما جاء منه معجبٌ به، لا يرى أن من سبقه يتقدمه، كثير الصواب، كثير الخطأ، ليس لشعره صنعة.

قلت: فمسلم بن الوليد؟ قال: خليج صاف يَنزع من بحر كدر، كالزند يوري تارةً ويصلد أخرى.

---

(١) أي: معاهده ومحالفه. (٢) ملازمه. (٣) انفصال.
(٤) كل قرابة واتصال. (٥) المناظر. (٦) مولد الشر بين المتحالفين.
(٧) كساه. (٨) أي: من إجبار الفكر. (٩) المطر.

قلت: فأبو العتاهية؟ قال: غثاء جَمّ، واقتدار سهلٌ وشعر كخرز الزّجاج، وربما أشبه الياقوت والزّبرجد.

قلت: فعباس بن الأحنف؟ قال: يُلقي دلوهُ في الدلاءِ فيغترفُ الصفو أحياناً، والحمأة أحياناً، على أن كدره أكثر من صفوه.

قلت: فسلم الخاسر؟ قال: مُقِلّ مداح؟ شعره ديباج وعهن، يُمَوّه الرديء حتى يشبه الجيد.

قلت: فأبو الشيص؟ قال: جده كله فيه حلاوة وبشاعة كالسدرة التي نَفضت ففيها المستعذب والمستبشع.

قلت: فعلي بن جبلة؟ قال: بحّاث عن الكلام الفَخْم، والمعنى الرائع، لا ينالُ مرتبة القُدماء، ويجلّ عن منزلة النظراء.

قلت: فأبو تمام؟ قال: سيل كثير الغثاء، غزير الغمار، جمّ النطاف، فإذا صفا فهو السّلاف بالماء الزلال.

قلت: فعبد الصمد بن المعذل؟ قال: خرّاج ولّاج، يعتسف تارة ويهتدي أخرى.

قلت: فعلي بن الجهْم ؟ قال: كلام رصين ومسلكٌ وعر، عقله أغلبُ على شعره من طبعه.

قلت: فبكر بن النطاح؟ قال: تشبه بالأعراب فأفرط وتجاوز حدّ المولدين فأسهب، فهو الساقط بين القريتين.

وصف ابن الأثير المتوفّى سنة ٦٣٧هـ أبا تمّام والبُحتريَّ والمُتَنَبّي

قال: لقدْ وقفت من الشعر في كلّ ديوان ومجموع وأنفذت شطراً من العمر في المحفوظ منه والمسموع، فألفيته بحراً لا يوقف على ساحله. وكيف يُحصى قوْل لم تُحص أسماء قائليه؟ فعندَ ذلك اقتصرت منهُ على ما تكثر فوائده وتتشعّب مقاصده. ولم أكن ممن أخذ بالتقليد والتسليم في اتّباع من قصر نظرَه على الشعر القديم، إذ المراد من الشعر إنما هو إيداع المعنى الشريف في اللفظ الجزْل اللطيف، فمتى وجدتُ ذلك فكل مكان خيّمتُ فهو بابل.

وقد اكتفيت من هذا بشعر أبي تمّام والبُحْتري والمُتَنَبّي. وهؤلاء الثلاثة هم (لاتُ الشّعر وعُزّاه ومَناتُه) الذين ظهرت على أيديهم حسناته وسيّئاته. وقد حولت أشعارهم غرابة المحدَثين وفصاحة القدماء، وجمعت بين الأمثال السائرة وحكمة الحكماء.

أما أبو تمام فإنهُ ربُّ معان وصيْقَل أذهان، وقد شهد له بكلّ معنى مبتكر لم يمش فيه على أثر فهو غير مدافع عن مقام الإغراب الذي برز فيه على الإضراب. ولقد مارستُ من الشعر كل أوّل وأخير ولم أقل ما أقوله إلاّ بعد التنقير، فمن حفظ شعر الرجل وكشف عن غامضه وراض فكره برائضه، أطاعته أعنّة الكلام وكان قوله في البلاغة ما قالت حذَام. فخذ مني في ذلك قول حكيم وتعلّم ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾(١).

أما البُحتُريّ فإنه أحسن في سبك اللفظ على المعنى. ولقد حاز طرفي الرِّقة والجزالة على الإطلاق، فبينا يكون في شَظَف نجد إذ يتشبّث بريف العراق. وسئل المتنبي عنه وعن أبي تمام وعن نفسه فقال: أنا وأبو تمام حكيمان والبُحتري وَلَعَمْري إنه أنصف في حكمه، وأعرب بقوله هذا عن متانة علمه. فإن البُحتري أتى في شعره بالمعنى المقدُود من الصخرة الصَّماء في اللفظ المصوغ من سلافة الماء. فأدرَك بذلك بُعد لمرام مع قُرْبه إلى الإفهام. وما أقول إلاّ أنه أتى في معانيه بالنّوادر الغالبة، ورقى في ديباجة لفظه إلى الدرَجة العالية.

وأما المُتنبي فإنه أراد أن يسلك مسلك أبي تمام فقصرت عنه خُطاه، ولم يعطه الشعر من قياده ما أعطاه. ولكنه حُظي في شعره بالحكَم والأمثال وأختصّ بالإبداع في وصف مواقف القتال. وأنا أقول قولاً لست فيه متأثّماً ولا منه متلثّماً، وذاك أنّه إذا خاض في وصف معركة كان لسانه أمضى من نِصالها، وأشجع من أبطالها، وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها، حتى يظن أن الفريقين قد تقابلا والسلاحين قد تواصلا، فطريقهُ في ذلك تضلّ بسالكه وتقوم بعذر تاركه. ولا شك أنه كان يشهد الحرُوب مع سيف الدولة فيصف لسانه ما أدّاه إليه عيانه. ومع هذا فإني رأيت

(١) يوسف: ٧٦.

الناس عَادلينَ عن سنن التوسط: فإما مفرط في وصفه، وإما مفرط على أنه كان إذا انفرد بطريق صار أبا عذره. ولقد صدق في قوله من أبيات يمدح بها سيف الدولة :

[البسيط]

لا تطلبنّ كريماً بعد رؤيته إن الكرام بأسخاهم يداً ختموا
ولا تبالِ بشعر بعد شاعِره قد أفسد القول حتى أحمِد الصَّمَمُ

ووصف المفضل الضبّي المتوفّى سنة ٤٣٠هـ مروره ببعض أحياء العرب

روى المفضل الضبّي قال : نزَل علينا بنو ثعلبة في بعض السنين وكنت مشغوفاً بسماع أخبار العرب وجمعها، فأخذت أجول بين خيامهم وأتحسس من أحوالهم، وإذا أنا بامرأة واقفة في فناء خبائها، آخذة بيد غلام قلّما رَأيت مثله في حسنه وحماله، وهي تعاتبه بلسان رطب وكلام عذب، يسترقُه السّمع ويترشّفه القلب. فكان أكثر ما أسمعه منها (بُنيّ وأي بُنيّ) وهو يبتسّم في وجهها وقد غلب عليه الحياء والخجل، كأنه من ربّات الحِجال فلا يحير جواباً ولا يبدي خطاباً.

فاستحسنت ما رأيت واستحليت ما سمعت، فدنوت فسلمت، فردّ عليَّ السّلام، ووقفت أنظر إلى المرأة والغلام. فقالت لي: يا حضريّ، ما حاجتك؟ قلت: الاستكثار مما أسمع والاستمتاع بما أرَى. فابتسمت وقالت يا هذا إن شئت سُقت إليك ما هوَ أحسن مما رَأيت. فقلت: هاتي، حفظك الله.

قال: ولد هذا الغلام فكان ثالث أبويه فربي بيننا كأنه شبل، وكنت أقيه برد الشتاء وحرّ الهجير، حتى إذا ما تمت له خمس سنين أسلمته إلى المؤدب فحفّظه القرآن فتلاه، وعلّمه الشعر فرَوَاهُ، ورَغب في مفاخر قومه وطلب مآثر آبائه وأجداده. فلما أن اشتد عظمه وكمل خلقه حملته على عتاق الخيل، فتفرّس وتمرّس ولبس السلاح ومشى الخيلاء بين بيوتات الحيّ، وأصغى إلى أصوات ذوي الحاجات، فأخذ في قرى الضيف وإطعام الطعام، وأنا عليه وَجلة أحرسه من العيون أن تصيبه ومن الألسن أن تعيبه.

إلى أن نزَلنا في بعض الأيام منهلاً من المناهل بين أحياء العرب، فخرج فتيان الحيّ في طلب ثأر لهم. وشاءَ الله تعالى أن أصابت الغلام وَعكة شغلتْهُ عن

الخروج، حتى إذا أمعن القوم ولم يبق في الحيّ غيره ونحن آمنون وادعون، فوربّك ما هو إلا أن أدبر الليل وأقبل الصبح حتى طلعت علينا طلائع العدو وغرر الجياد، ثوّاراً لا زوّاراً. فما كان إلا هنيهة حتى أحرزوا الأموال وهو يسألني ما الخبر؟ وأنا أستره عنه إشفاقاً عليه وضناً به. حتى إذا علت الأصوات وبُرِّزَت المخدّرات رَمى دِثاره وثار كما يثور الضّرغام إذا أغضب، فأمر بإسراج فرسه ولبس دِرع حربه، وأخَذ رمحه بيده، وركب حتى لحق حُماة القوم، وأنا أنظر إليه. فطعن أدناهم منه فرمى به، ولحق أبعدهم فقتله. فانصرفت إليهِ وجوه الفرسان فرآه غلاماً صغيراً لا مدد ورَاءه فحملوا عليه فأسرع يؤمّ البيوت حتى إذا خلّفهم وراءَه، وامتدوا في أثره عطف عليهم، ففرّق شملهم وشتت جمعهم، وقلّل كثرتهم ومزّقهم كل مُمزّق، ومرق كما يمرق السهم من الرمية، وناداهم: خلّوا عن المال فوالله لا رجعت إلّا به أو لأهلكنّ دونه. فتداعت إليه الأقران وتمايلت نحوه الفرسان وتميزت له الفتيان، وحملوا عليه وقد رفعوا إليه الأسِنّة، ومالوا عليه بالأعنة فوثب عليهم وهو يزأر كالأسد وجعل لا يحمل على نَاحيةٍ إلا حطّمها، ولا كتيبة إلا هزمها، حتى لم يَبق من القوم إلا من نجا بهِ فرَسه. ففاز بالأموال وأقبلَ بها فكبّر القوم عند رؤيته، وفرِحوا فرَحاً عظيماً بسلامته. فوالله ما رأينا قط يوماً كان أسمح صباحاً وأحسن رواحاً من ذلك اليوم. ولقد سمعته ينشد في وجُوه فتيات الحيّ هذه الأبيات:

[الطويل]

تأمَّلنَ فِعلي هل رأيتنّ مثله ... إذا حشرجت نفس الكميّ عن الكربِ
وضاقتْ عليه الأرض حتى كأنه ... من الخوف مَسلوب العزيمة والقلبِ
ألم أعطِ كلاًّ حقّه ونَصيبَه ... من السّمهري اللّدن والصارم العضبِ
أنا ابن أبي هند بن قيس بن خالد ... سليل المعالي والمكارم والسّيبِ
أبى ليَ أن أعطي الظُّلاَمةُ مُرْهفٌ ... وطرفٌ قويٌّ الظهر والجوف والجنْبِ
وعزمٌ صَحيح لو ضربتُ بحدّه ... شماريخ رضْوى لانحطّطن إلى التُّرْبِ
وعِرضٌ نَقِيٌّ أتقي أن أعيبَه ... وبَيتٌ شريف في ذُرى ثعلب الغُلبِ
فإن لم أقاتلْ دُونكُنّ وأحتمي ... لكُنَّ وأحميكُنّ بالطّعن والضّرْبِ

وأبـذل نـفـسـاً دُونـكـنَّ عـزيـزةً عـليَّ لأطراف القَنا وظُبى القضبِ
فلم تصدق اللاتي مَشين إلى أبي يُـهـنّـئُـنَـه بـالـفـارس الـبـطـل النّدبِ

وصف نهج البلاغة للإمام المرحوم الشيخ محمد عبده المتوفى سنة ١٣٢٣هـ

أوفى لي حكم القدر بالاطلاع على كتاب (نهج البلاغة) صدفة بلا تعمُّد أصبته على تغيّر حال، وتبلبل بال، وتزاحم أشغال، وعطلة من أعمال. فحبته تسلية، وحيلة للتخلية. فتصفحت بعض صفحاته وتأملت جملاً من عبارته، من مواضع مختلفات ومواضيع متفرقات. وكان يخيل لي في كل مقام أن حروباً شبَّت، وغارات شُنّت، وأن البلاغة دولة، وللفصاحة صولة، وأن للأوْهام عرامة[١] وللرّيب دعارة[٢] وأن جحافل الخطابة وكتائب الذرابة، في عقود النظام وصفوف الانتظام، تنافح بالصفيح الأبلج[٣] والقويم الأملج[٤]، وتمتلج[٥] المهج بروائع الحجج، وتفُلّ دَعارة الوساوس، وتصيب مقاتل الخوانس[٦].

فما أنا إلا والحق منتصر والباطل منكسر، ومَرَج الشك في خمود وهرج الريب في ركود. وإن مدبر تلك الدولة وباسل تلك الصولة، هو حامل لوائها الغالب، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. بل كنت كلما انتقلت من موضع إلى موضع أحسّ بتغيّر المشاهد وتحوّل المعاهد.

فتارةً كنت أجدني في عالم يعمره من المعاني أرواح عالية، في حلل من العبارات الزاهية، تطوف على النفوس الزاكية، وتدنو من القلوب الصافية، توحى إليها رشادها وتقوّم منها منآدها، وتنفر بها عن مداحض المزالّ إلى جواد الفضل والكمال.

وطوراً كانت تتكشَّف لي الجمل عن وجوه باسرة وأنياب كاشرة، وأرواح في أشباح النّمور ومخالب النّسور، وقد تحفَّزت للوثاب ثم انقضت للاختلاب، فخلبت

(١) العرامة: الشراسة.
(٢) الدعارة: سوء الخلق.
(٣) الصفيح: السيف. والأبلج اللامع البياض.
(٤) الرمح الأملج: الأسمر.
(٥) تمتلج: تمتص.
(٦) الخوانس: خواطر السوء تسلك من النفس مسالك الخفاء.

القلوب عن هواها، وأخذت الخواطر دون مرماها، واغتالت فاسد الأهواء، وباطل الآراء. وأحياناً كنت أشهد أن عقلاً نورانياً، لا يشبه خَلقاً جسدانياً، فصل عن الموكب الإلهي، واتصل بالروح الإنساني، فخلعه عن غاشيات الطبيعة وسما بهِ إلى الملكوت الأعلى ونما بهِ إلى مشهد النور الأجلى، وسكن به إلى عَمار جانب التّقديس، بعد استخلاصه من شوائب التّلبيس.

وآنات كأني أسمع خطيب الحكمة، ينادي بأعلياء الكلمة وأولياء أمر الأمة، يعرّفهم مواقع الصواب ويبصرهم مَواضع الارتياب، ويحذّرهم مزالق الاضطراب، ويرشدهم إلى دقائق السياسة ويهديهم طريق الكياسة، ويرتفع بهم إلى منصّات الرياسة، ويصعدهم شرف التدبير ويُشرف بهم على حسن المصير.

وصف حفلة لمحمد بك المُويلحي المتوفّى سنة ١٩٣٠م

لو كان للّيالي لسانٌ يَنطق بالفَخَار وجنَانٌ يجري بنظم الأشعار، لأنشدت ليلة الحفلة (الخديويّة) قصيدةً تُسَجل لها في ديوان العُصور والدُّهور، ما لم تَبْلُغه ليلة قبلها في تكامُل الفَرَح والسُّرُور. ولو كان الدّهر يُفصح لنا يوماً عن انشراحه وابتهاجه، لأنبأنا بأنه ادّخرَها غُرّةً لجبينه ودُرَّة لتاجه. لا زالت أيام الجناب العالي ولياليهِ مُشرِقةً بالسعد والهناء، مُتألّقةً تألقَ البدُور في أُفق السّماء.

ووصف أيضاً متحفاً من مقامة له

قال عيسى بن هشام: زَايَلْنا الأهرام وخلَّيْناها تَنْدُبُ من شادها وتَنْعِي من بَناها، ومِلْنا إلى دار التُّحَفِ ومُستودَع الآثار، لمشاهدة ما حفظتهُ لنا من صنوف الطرَف وعيونِ الأخبار، وما أخرَجَتْهُ الأيام من عالم الخَفاء إلى عالَم الظُّهور، بعد أن كان سرّاً مكتوماً في خواطر العصور والدُّهور، وما صانتْهُ بطون القبور من الفناءِ والدُّثور، وحمتْهُ أحشاءُ الرُّمُوس من العفاءِ والدُّرُوس، وما أخبتْهُ أرحام المعابد والهياكل من بقايا الماضين وخبايا الأوائل، وما انكشفتْ عنه سُجوف الأحقاب وديعة الأسلاف للأعقاب، من مكنون الدّفائن ومكنوز الخزائن، وعجائب الفن الدّقيق وبدائع البَدْع الأنيق، وغرائب الصُّنع العتيق، بَلِيَتْ في اصطحابها بطونُ الليالي وانحنَتْ في احتضانها ظهورُ العُصور الخوالي، وانقلبتِ البحار وِهاداً

وأصبحت الوِهاد أطواداً، وغدَتِ الأغوارُ أنجاداً وأضحى العمارُ خراباً والخرابُ عَماراً، والغِمارُ سَرَاباً والسَّرابُ غِماراً، وتَمدينَنَتْ بوادٍ وتَبَدّتْ مدائن[١]، وبَادَتْ مواطِن وقامت مَوَاطِن[٢]، ومضَتْ دُوَلٌ بعد دول وذهبت أُوَلٌ أثرَ أُوَل، وبدتْ أحوالٌ وحَالت وظهرَت أعمالٌ وزالت، وهي كما تَرَكها أهلُها مَصونٌ وَضْعُها، محفوظٌ شكلُها، خبرٌ صادق ولسانٌ ناطق، تُخبر بالعِبر وتُحدّثُ عمّنْ غبَر.

[الطويل]

مضتْ غَبراتُ العيش وهي غوابر على الدّهر مكتوبٌ عليها حبائسُ

وصف الفونغراف للمرحوم مصطفى بك نجيب المتوفّى سنة ١٣٢٠هـ

مِثالُ القُوّة الناطقة من غير إرادة سابقة، يَقتطِفُ الألفاظ اقتطافاً ويختطف الصوت اختطافاً. مطبعة الأصوات وَمِرآة الكلمات ينقل الكلام من ناحية إلى ناحية نقل كلام عمر رضي الله عنه إلى سارية[٣]. أشدّ من الصَّدَى في فعله في إعادة الصّوت على أصله، كأنّه الحُروف عن يد الطابع، وَالوتَر عن يد الضارب والقصب عن فم القاصب. يحفظ الكلام ولا يُبيده، ومَتى استَعدتَه منه يُعيدهُ، من غير أن يُبقيَ لفظاً في صدره أو يكتمَ شيئاً مِن أمره، كأنما حِفظُ الوَديعة في نفسه طبيعة. فلو تقدّم لهُ الوجود في مرتبة الزمن لما احتجنا في الأخبار إلى عنعنة[٤]، ولا في الدّعاوى إلى بَيّنَة، بل كان يُسْمِعُنا كلامَ السيد المسيح في المهد، وصوت عازرَ[٥] من اللّحد، وكانت استَودَعتْه الفلاسفة حِكمتهم وأنشدُوه كلمتهم، فرأينا به غرائب اليونان وبدائع الرُّومان. ورُبما سَمعنا خُطَب سَحْبان وشِعر سيِّدنا حسان بذلك اللّسان، وَأصبح وجود الإنسان غير محدُود بزَمن من الزّمان. لله دَرُّه من تلميذ يستوعب ما عند المُعلم ويستخلصه في لحظة معيداً لقوله ناقلاً لصوته ولفظه:

---

(١) مدائن: جمع مدينة.

(٢) مواطن الأولى: جمع موطن أي مكان الإنسان ومقره، ومواطن الثانية: مشاهد الحرب.

(٣) ابن زنيم الذي ناداه عمر رضي الله عنه على المنبر.

(٤) مراده الأخبار عن النبي ﷺ التي تروى عن فلان عن فلان.

(٥) هو الذي أحياه عيسى عليه السلام.

[البسيط]

لقد وجدتُ مكان القول ذا سَعةٍ فإن وجدتَ لساناً قائلاً فقلِ

نديم ليس فيه هفوةُ النّديم، وسمير لا يُنْسَبُ إليهِ تَقْصير، تُسكتُهُ وتستعيده، وتَذُمّه وتستَجيدهُ، وتَنقُصُه وتَستزِيده، وهو في كل هذه الأحوال راض بما يقال، لا يَكلّ من تحديث وَلا يَمَلُّ من حديث، نمّام يَنمّ عليك وينقُلُ لغيرك كما يَنقل إليك. فهوَ المصوّرُ لكلّ فَنّ، المتكلمُ بكلّ لغة، المحدث عن كلّ إنسان، المؤرّخ لكلّ زَمان، الشاعر النَّاثر المغني العازف، لا تُعْجِزه العبارة ولا يُجْهدهُ الأداء، ولا يَضُرُّهُ اختلاف شكل ولا تَبايُنُ أصل، بل تعدّت شدّة حفظه البشريّة من اللّغات، إلى حفظ أصوات العجماوات إلى حركة اصْطِكاكِ الجمادات.

ووصف أيضاً نظارة ويشكر من أهداها:

ورد الكتابُ المطرّزُ بحَلى الكرَم المحلَّى بجميل النّعم، واستلمت الهديَّة، فسلِمَتْ يدٌ أهدتها وحُفِظَتِ السَّجايا التي لمحاسن الأعمال هَدتها، ودامَتْ رِحابٌ لمثل هذه الحسنات فيه مَجال، وللمُحسنات بِهاء وجمال، وللآمال مَحط رحال، وللمقاصِد كعبة إقبال، وطابت نفسٌ تعالى الله أن تماثلها نفس عِصام، فإنها نسخة آية الكَرّ والإقدام بآية الجود والإكرَام، وَفَعَلَت في القلوب بالعطاء والنّوال ما قَصُرت عنه الرّماح الطّوال. وتأمّلتُها فأرتني مالا عينٌ رأت وأظهرت من محاسنِ المناظر ما أعمرت، وقَرَّبت كل منظور بعيد وتَلت ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[1] وصَفَا وقتي بصفائها فلم أشْتَهِ شيئاً إلا جمعت بينه وبيني، وصحّ علينا قولُ القائل: «رَأيت بعينها ورأت بعيني». ثم سَرَّحتُ نظري في الأطلال والرّسوم حتى نظرْتُ نظرة في النجوم، فلم تُخف عنّي شجراً ولا مدراً ولا نجماً ولا قمراً.

[مجزوء الوافر]

يَزيدك وجهُها حسناً إذا ما زِدتَه نظراً

ببهاء يُخيَّل إليّ أنها صِيغت من ضياء، فلا عيبَ فيها غَير أنّي نظرت بها في سماء فضلك الباهرِ، وأُفُق شرفك الظّاهر، فلم يَنكَشف لي بها لجودك آخر. لا زال

---

(١) ق: ٢٢.

كَرمُك بعيداً حدُّه على كل ناظر وباصر، وفضل مناهلك غاية تقصدُها الأوائل والأواخِرُ.

وصف سان استفانو بالإسكندرية لمؤلف هذا الكتاب

كتابي والقلمُ في البنَان يُسطّرُ ما يُمليه الجنان عن محاسن ذلك المكان بالإسكندرية المشهور بـ«سان استفانو». هناك تَرى البحر كالمرْآة تمثَّلتْ فيها السَّماء فكأنما الماء سماء والسّماء ماء، وتَخالُ الشّاطئ مرْتَعاً للظبيات الآنسات، أو سُوقَ جمال تُباع فيه القلوب على الغانيات.

هناك الشّبيبة واللُّعَب والزَّهْوُ والطّرَب، وقد اعتلَّ الصَّبَا وصَحَّ الصّبَا: حورٌ وولِدان يَمرَحون بنشاط الشّباب، وَيَتَهادَوْن بنشوَة الدَّلال والإعجاب. فمن «غادات» رَوائحُ غاديات، قُدُودهُن الرّماح الطّاعنات ولحاظُهنَّ القاتِلات المُحْيات.

ومن «وِلدان» يلعبون بالكُرَة والصّولجان، فالكُرة قلبُ المحبّ المتيَّم، والصّوْلَجان الذي يَدْفعُها شَوق العاشق المغرم. هناك نغمات الأوْتار تدعو إلى اغتنام الأوطار، تُهدي الارْتياح إلى الأرواح وتبْدِل الأفراح من الأتراح.

هناك الكؤوسُ على قُطْب الخلاعة تدُور، فهي برشفاتها الثُّغور وبنورها البدُور، تَشْرُقُ من الحنان وتَغرُبُ في أفواه النُّدْمان، فيعلو الوُجوه الشّفق فتبارك المبْدِعُ فيما خَلَق.

هناك فريقٌ من أهل الهوَى حُلَفاء الأسى والجوَى، يَختَلِسون النَّظرات وتحتها سهام صائبات، تَقصدُ قلوبهم ولا راحم لهم، يُنادون من يُحبُّون فلا يُجابون، ويَتذلَّلُون لعزّ الجمال على أنهم لا يُحابون، يتمنَون الرّضا بعد الهَجْر وحُلْوَ اللّقا بعد الصبر. وفريقٌ آخر قد وافاهم السّعد فنالوا الأماني تعلو وجوههم نَضرَةُ النّعيم بما نالوه من إشارةٍ أو تسليم، يتبادلون التّحيّات بالحواجب ويَشفقُون على القلوب فيَضعون الأيدي فوق التَّرَائب. حتى إذا اللّيلُ سَجَا وسترَهم رِداءٌ من الدُّجى، يَتلاقون إلى جانب اليَمّ وَيَتَهَامسون والفَمُ قريب من الفَم، تراهم على الأرائك جنباً بجنب وعُنقاً على كتف، مُبتعدين عن العيون هُنا وهنا وقد بلغوا الآراب والمُنى،

يجتَنون الثّمرَ من الشّمر ويَلثُمون الرّاح بالرّاحَ. ولا يزالون في مسرّة وهناء وأُنس وصفَاء، حتى يُنادي منادي الموائد بحَيّ على شَهِيّ الطّعام، وهلمّوا إلى رائق المدَام، فيجلسون مَثْنَى وثُلاث ورباع محفوفين بيانع الأزهار مستضيئين بأزْهى الأنوار، والغِلْمانُ عن يمينهم وشمالهم قائمون بحوائجهم، وهم في لِباسهم كأقمار وفي خفّتهم كلمح الأبصار، فيأكلون ويَشرَبون ويَضحكون ويَلعبون بين نغمة بالحديث الرّخيم ونَشوة بالمُدَام القديم. حتى إذا أخذَتْ كلُّ حاسّة حظّها وتلْجلجتِ الألسنة فلا تفهم لَفظها، هنالك كسِرْب الظّباءِ رائِح وغاد، هذه مائلة وهذا مُتَهاد، إلى أن يَتمشّى النّوْم في الجُفون فتذبلُ العيون، فينصرِفون إلى المنام ويحلُمُون بلذيذ الأحلام، بعد أن يَتعاهدوا على الأوْبة، ويُحسِنوا الختام بالتّوْبة.

وصف الشمس

الشمسُ كوكبٌ مُضيءٌ بذَاته. وهي أعظمُ الكواكب المَرْئيَّةِ لنا منظَراً وأسطعُها ضوءاً، وأغزرُها حرارةً، وأجزلُها نفعاً للأرضِ التي نسكُنُها ولكثير من أخواتِها سيارات الشمس وبناتِها.

والشمسُ كرةٌ مُتَأجّجةٌ ناراً، حرارتُها أشدُّ من حرارةِ أي ساعورٍ[١] أرضيّ. ويبلغ ثِقْلها ثلثمَائَةِ وَزْنٍ من ثِقْلِ الأرض، وهي أكبرُ منها جِرماً بثلثمائةِ ألف وألف مرة ومرَّةٍ.

وتدورُ الشمسُ على مِحْورِها من الغرب إلى الشرق مرةً واحدةً في نحو خمسةٍ وعشرين يوماً. وتبعُدُ عنّا بنحو اثنين وتسعين ألفَ ألفِ ميل وخمسمائةِ ألف ميل. وهي مع كلّ هذا العِظَم الهائلِ لا تُعَدُّ في النجوم الكبرى، بل إن أكثَرَ ما نُشاهدُ من النجوم الثابتَةِ شموسٌ أكبُر من الشمس بألوف الألوف، والشمس بسيَّاراتها تابع من توابع أحَدِها.

وسَطْحُ الشمس مَهَبُّ عواصفَ وزوابعَ نِيرانيةٍ شديدةٍ تُثيرُ في جوّها أشوِظةً[٢] هائلةً، تندلِعُ[٣] ألسنتها المتأججة عن مُحيط كرتها أميالاً. وقد وصفَ بعضُ العلماءِ

(١) الساعور: النار نفسها أو موقدها.
(٢) الشواظ: اللهب. (٣) اندلع اللسان: خرج من الفم.

لَهَباً ارتفع من سطحها لأوَّلِ وَهْلةٍ نحوَ أربعينَ ألفِ ميل في الفَضَاء، ثم ازدادَ بَريقاً وتألُّقاً[١]، ثم ارتفعَ بعد نصف ساعة إلى خمسين وثلثمائةِ ألف ميل، ثم جعلَ يضْؤُل ويضعُفُ، فلم تمضِ ساعتان حتى اضمحلَّ اضمحلالاً.

غيرَ أن ما وصَفَه هذا العالم ليس إلاَّ من قبيل النوادر، ولكنَّ ارتفاع اللّهبِ نحوَ مائةِ ألف ميل ليس بغير العاديّ. وكثيراً ما تبلُغُ سُرعة اللهب مائةَ ميل في الثانية. وأكثرُ مادَّةِ الشمس من عُنصرِ المُحْذِي (الإيدروجين) المتّقد.

وبرَصْد الشمس مراراً بالمرْقَب المُغَشَّى بالسَّوادِ شُوهدَ في صفْحة قُرْصِها نُكَتٌ سُود وكلَفٌ يُشَوّهُ مُحَيَّاها، كأنما هي كُرةٌ سوداءُ الباطنِ غُلّفَتْ بسطحٍ ساطِع من الصَّعَّادات يتخلله نقَبٌ يظهَرُ تحتَها السوادُ. ولا تزالُ حقيقة هذه البُقَعِ موضوعِ البحث والتعليل عند الفلكيين. ومن تنقّلِ هذه النكت عُرفت دورتها على محورها.

وللشمس سياراتٌ أو أبناءٌ انفصلتْ منها منذُ أزمانٍ سحيقة، عُلِمَ منها إلى الآن نحوَ ثمانية، هي على ترتيب الأقرب منها فالأقرب: عُطَارِدٌ، فالزُّهْرَة، فالأرضُ، فالمَرّيخُ، فالمُشتَرِي، فزُحَلُ، فَأُرَانوسُ، فَنِبْتُونُ ولم تعلُمْ كلُّ شُؤُونِ هذه السياراتِ حقَّ العلم، وإنما ألَمَّ العلماءُ بمعرفةِ موادّها وكثَافَتها وأبعادها، ولكن أمْرَ الحياة فيها لم يَزَلْ مُبْهَماً مُسْتَغْلِقاً اللَّهُمَّ إلَّا في الأرض وقمرِها.

أما مقدارُ النّعَم التي سخَّرها الله لنا بوُجود الشمس فمِمَّا لا يُحصيه العدّ، فهي مبْعَثُ حياتنا وحياة الحيوان الذي يعيشُ معنا، ومصدرُ نُورِنا ونارنا وحرّنا وبَرْدنا. وهي التي تُحيلُ مياهَ البِحارِ بُخاراً، وتُقلُّها في الجَوّ غُيوماً، وتُنزلُها عَلَى الأرْض أمطاراً، حيثُ تجري جداولَ وأنهاراً، فتروِي زَرْعنا، وتُنَمّي غِراسَنا، وتُثيرُ الرياحَ، وتُطلِعُ الأنواءَ، وتُزْجِي[٢] السُّفُنَ والبواخرَ في عُباب الماءِ، وتدفَعُ القُطُراتِ الحديديةَ، وتُديرُ الآلاتِ البخارية، وتنير المصابيح الدُّخَانية والزيتية، إذ ليس الفحمُ الحجَرِيُّ والزيتُ الأرْضِيُّ إلاّ حرارة نارِها المُدخَرَة منذُ قديم الدهور ليتفعَ بها أحياءُ هذه العُصور. وما النهارُ المُبْصِرُ، والليلُ المُظلِمُ، إلّا آيتانِ من آيات الله المُسَخَّرة لنا بتسخيرِ هذا المخلوقِ العجيب: ففي النهارِ نسعَى في مَناكب الأرض

(١) تلألؤاً. (٢) تسير.

لابتغاء رزْقنا، وتدبيرِ معاشِنا، وتنظيم شُؤون حياتنا، ونُسبّحُ بحمدِ ربنا، ونعتَبرُ بآثارِ مَنْ سبقَنا، وفي الليل نسكُن لإراحة أبدانِنَا، واستجمام[١] قُوانا، واستيفاء حظّنا من النومِ الذي نستديمُ صِحّتَنا، ونستعيضُ ما فَقدناه بأعمالنا، وننظُرُ في مَلَكوتِ السمواتِ وما خلقَ الله من شيء في حركات الكواكب وانتقا لها، وبديع صُورِها وألوانِها، فَتعْنُو وجُوهُنا، وتتضاءَلُ كِبرياؤنا، أمامَ قُدْرة خالِقنا العظيمِ، فسبحانَه من إله حكيمٍ.

وما الألوان التي نراها في نَوْر الأزهار وريش الأطيار ونفائس المصنوعات إلّا أَثَر وُقوعِ أضوائِها على هذه المرئيات وانعكاسها[٢] عَلى أبصارِنا، فإن نُور الشمس الأبيض مُؤلَّفٌ من سبعة ألوانٍ أصلية[٣] تنشأ منها كلُّ الألوان الفرعية، وهي الأحمرُ، والبُرتقاليُّ، والأصفرُ، والأزرقُ، والأخضرُ، والنِيْلَجيُّ، والبَنَفْسَجيُّ.

فمن الأجسام مالا يمتصُّ شيئاً من هذه الألوانِ، بل يَعكِسُها كلَّها على العين، فيبدو أبيضَ ناصعاً كزهرةِ الياسَمين، ومنها ما يمتصُّ بعضَها ويعكِسُ باقيهَا، فيتلوَّن بلَونِ ما يعكِسُ منها، فإذا أبصرتَ ورقة الشجر خضراء عرفت أنها اختزنت من ضَوْءِ الشمس ستة ألوان، ورَدَّت إلى عينك سابعها، وهو الأخضر لأن فيما ادَّخرَتْهُ نفعاً لها، وليس بها إلى ما لفَظَتْه افتقارٌ. ومنها ما يردُّ لونينِ أو أكثرَ، فيبدو لونهُ مَزيجاً بين هذه الألوان السبعة. وهذه الألوان من عجائب صُنع الله في الأرض لتميز بعضِها من بعضْ. فقد يتَماثل الشيئان شكلاً، وحجماً، وصَلابةً، ولِيناً، وشماً ثم لا يتباينان إلا من حيثُ اللونُ، فيكونُ اللونُ آيةَ تبايُنهما، وأكثرُ ما يكون ذلك في الأزهار.

وتنوُّعُ الألوانِ هو السِّرُّ في جَمالِ المَرْئِيَّاتِ من مَشاهِدِ الطبيعة وبدائع الصناعةِ، وإن أعظمَ المُصوّرينَ وأمهرَ النقاشين لم يُبَرِّزوا على غيرِهِم، ويدُلُّوا على ذكائِهم ونُبوغِهم إلّا بِبراعتِهم في مُحاكاةِ ألوانِ الطبيعة المُؤتلفةِ وأشكالِها المتجانِسة. وإنما يتمُّ لهم ذلك إذا عرَفوا كيفَ يَمزُجُونَ من الأصباغِ ما يستخدِمون به ألوان النُّورِ خيرّ

---

(١) استجماع.

(٢) انعكاس: مطاوع عكس كما في الأساس

(٣) أمكن إرجاع هذه الألوان في الصناعة إلى ثلاثة.

استخدامٍ، وينتفعون بهِ أحسنَ انتفاعٍ. وقد سخَّرَ علماءُ الطبّ تبايُنَ الألوان في كشفِ النّقابِ عن حقائقِ الجراثيم، فإنَّ منها ما لا يتّضحُ للعين في المجْهَرِ إلا إذا أُلْقيَ عليهِ صِبْغٌ خاصٌ يُؤثّرُ فيه لونُهُ فيُصبغَ به.

ولأمواجِ الشمس الضوئية سُرعةٌ معلومةٌ تسيرُ بها، فإذا انخفضت هذه السرعةُ عما هي عليه لم تَعُد العينُ قادرةً على رؤيَتِها، لأنها تستحيلُ إلى مظهَرٍ آخرَ غيرِ مَظْهر الضوءِ والحرارة، وليس يُنكَرُ ما للضوءِ والحرارةِ معاً من الأثر الحسَنِ في تنقيةِ المساكن مما يقطُنها من الجراثيم القتّالةِ والعَفَن المُضْني، ولذلك قيلَ: إن الدارَ التي تدخُلُها أشعةُ الشمس لا يدخُلُها الطبيبُ.

وصف القمر

القَمرُ أَجْمَلُ الكواكبِ صُورةً وأبينُها مَنظَراً وأسهلها رَصْداً، وأكبرُها في رأْيِ العَيْن بَعدَ الشمسِ جِرْماً.

وهو سيَّارٌ كُرَوِيٌّ أصغرُ مِنَ الأرضِ بِنَحْو تِسع وأربعينَ مرةً. انفصلَ مِنها زَمَنَ التّكوين، وصارَ تابِعاً لها، طائِفاً حَوْلَهَا، مستمِدّاً نورَه مِن الشَّمسِ مثلَها، دائراً حَوْلَ الشمسِ معَها، غَيْرَ أنَّ طَوافَ الأرض بقمَرِها حولَها يتمُّ في سنَةٍ شمسيةٍ. وطوافُ القمر حوْلَ الأرض يَتمُّ في شهْرٍ قَمريّ: أي مدة تسع وعشرينَ يوماً ونصف يوم تقريباً. ومع أنهُ خاضعٌ لنظام الأرضَ لا يقلُّ بُعْدُهُ عنها عن واحد وعشرين ألفاً ومائتي ألفِ ميل.

والذي يسترعِي أنظارنا كما استرعَى أنظَارَ من قبلَنَا اختلافُ أشكالِهِ وتعدُّد مَطالِعِه. مما جعلَه مَبْعَثَ تخيُّل القُدَمَاءِ وَمَثَارَ تفكّرِ الحكماءِ ومقصِداً لِعبادَةِ الجُهلاءِ! فتراهُ يلوحُ ليلةَ أوَّل الشهر إثْرَ غروبِ الشمس ضئيلاً مُقَوَّساً لا يَلبثُ أن يغرُبَ ويغيبَ في شفَقِ الشمس، ثم يَهُلُّ في الليلة الثالثة أبْيَنَ صورةً وأبْقَى زمناً لازدياد تأخُّرِهِ في الغروب عن الشمس، ولا يزالُ نورُهُ في تزايُدٍ ومَطالِعُهُ في تقدم نحوَ المشرق، حتى يطلُعَ من المشرِق في الليلةِ الرابعةَ عشرةَ عند غروب الشمس بدراً كاملاً بَهِيَّ الطلعةِ باهرَ الأنوارِ، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[1].

(١) المؤمنون: ١٤.

ولكنَّ الكمالَ لله وَحْدَهُ، فإن منتهى الزِّيادة مُبتَدأُ النَّقْصِ، ففي الليلةِ الخامِسَة عشرة يتأخَّرُ طلوعُهُ من المشرق، وينقُصُ من حافَةِ نورِهِ التي كانت موضعَ هِلالِه الأوّل زيقٌ لا يُشعَرُ به إلّا في الليالي التالية. ولا تَزال مَطالعهُ في تَقَهْقُرٍ ونُورُه في تناقص حتى قُرْبِ آخر الشهرِ، فيُشْرِقُ قُبَيْلَ الفجْر هِلالاً ضئيلاً يَكادُ يكونُ مَقلوبَ الهلال الأول، وفي الليلةِ الأخيرةِ يكونُ عندَ الصَّباحِ في الأُفق الشرقيّ مظلِماً لا يُرى منه شيءٌ، وهي ليلةُ المُحاقِ أو السَّرارِ. ويظَلُّ بَعضَ النهار كذلك، ثم يتولَّدُ هلالُهُ الجديدُ، ولكنَّه لاَ يظهَرُ إلّا بعدَ أن يغيبَ قرْصُ الشمسِ، فيلوحُ هلاله ثم يختفي كما قدمنا.

وعِلَّةُ ذلك أن نُورَ القمرِ كنُورِ الأرض مُستَفادٌ من الشمس، وهو لا يُقابلُ الأرض إلَّا بوجهٍ واحد لا يتغير. وهذا الوجهُ بالنسبة إلى حركتِهِ مع الأرض حولَ الشمس لا يُقابِلُ الشمسَ مُقابلةً تامةً إلاّ في وضعٍ واحد ومرة واحدة هي الليلةُ الرابعةَ عشرةَ، فيغشاه نورُها، ويصيرُ بدراً. أما بقيةُ الليالي التي قبلها والتي بعدَها فينحرفُ قليلاً أو كثيراً عنها، حتى يصيرَ كلُّه ظلاماً ليلةَ المُحَاق، فيُطوَى خبرُهُ، ويكونُ الوجهُ الآخر الذي لا يُرى لنا بدراً كاملاً. ثم يتولَّدُ هلالُهُ خَلْقاً جديداً.

وكذلك شأنُ الأرض في استمدادِ نُورها أو ما نُسَمّيهِ نهاراً، فلو كان في القمر سُكان لكانتْ أرضهم في رأي أعيُنِهِمْ أكْبَر كوكَبٍ في السماءِ، ولَشاهدوها أكبر من الجِرْمِ الذي نُشَاهِدُ القمرَ عليه أضعافاً مُضاعفةً، ولكانتْ عندَهم أرْوَعَ جَمالاً وأبدَعَ من قمرهم في نظرنا تَشَكُّلاً، فبدَورانِها على نفسها يرَوْنَها كلَّها جزءاً فجزءاً، وتظهَرُ قارَّاتُها ومُحيطاتها وَاضحةً عليها في وقت الصّحْو ومُظلَّلاً بعضُها بالغمام في وقت الدَّجْنِ، وتبْدُو أهلَّتُها وبدُورُها ضخْمةً باهرةً ولكن لا يراها إلّا سُكانُ النصفِ المُقابِلِ لنا أو الذين يُريدون التَّفرُّجَ برؤيتها من أهل النصف الثاني.

ولقُرب القمر منا وخُلُوّ جوّهِ من الهواءِ سَهلَ رصْدُهُ علينا، فنرى في صفحتهِ عند الشُّروق ليلةَ التّمام كَثيراً من المَحْوِ[1] يجعل صورتَه أشبهَ بوجهِ إنسان ذي أنْفٍ وفمٍ وحَاجبينِ وعينينِ إحداهما مُغْضِيةٌ. ولا يزالُ كذلك، حتى يتعدَّى خط زَوالِ مكانٍ

(١) المحو: السواد في القمر.

الناظرِ. فإذا مال إلى المَغرِب انحرفَتْ هذه الصورة حتى يصيرَ عاليها سافلَها. وليس هذا المَحْوُ إلّا ظلامَ بطونِ الأوديةِ والسُّهول البعيدةِ الغَوْر وظِلاَلَ الجبال والهِضابِ الشاهقةِ الطُّول شهوقاً يكاد يمنع استدارته. أما قِمَمُ الجِبالِ وسُطُوحُها المقابلةُ للشمس فترَى لامعةً ساطعةً فتَبينُ سلاسلُ الجبال طرائقَ مضيئةً، وقِمَمُها نُقطاً لامعةً، وفوَّهاتُ جبال ناره الشديدة السَّعَةِ البعيدةُ الغَوْر التي تُعَدُّ بعشرات الألوفِ كأنها حَلَقَاتٌ وَسطها نُقطٌ سود.

وقد ظن القدماءُ في عِلَّة المَحوِ ظُنوناً بعضُها صادَفَ الحقيقةَ وبعضُها جانبه حتى ظهر غالِيلْيُو، واخترَع سنة ١٦٠٦م مِرْقَباً يقرّب الأشباح ثلاثينَ مَسافة، فأَثبتَ وُجودَ الجبالِ والأودية فيهِ. وزادَ عليه غيرُهُ في تحسين المراقبِ المكَبّرة حتى أصبح القمرُ يُرَى كأنهُ عَلى بُعدِ أربعينَ مِيلاً منا. عَلى أن هذا القرب لا يجعَلُنا نرى الأشباحَ الصغيرة التي من نوع الحيوان لتحقق أن للقمر سُكانٌ كما للأرض أو لا.

ولكن قَد أصبح من المرَجَّح، إن لم يكن من المحَقق، أنهُ خالٍ من الماءِ ومن السَّحاب والضَّباب الناشئينِ منه ومن النباتِ، إذ لو كان به شيءٌ منها لتغيّر شكلهُ من حالٍ إلى حال. ويُشَكُّ أن له هواءً، وإن كان له هَواءٌ فَلَعَلَّهُ لا يزيدُ عَلى قِمَمِ جِبَالِهِ. ولا شك أن الماءَ والهواءَ هما يَنْبُوعا الحياة وتجرُّدُه منهما، وخمودُ جبالَ نَارِهِ ويُبس جرمِهِ، يجعلُ بردَه شديداً جدّاً في الليل وحرَّه عظيماً جدّاً في النهارِ، عَلَى فَرْط طولهما البالِغ فيه خمسةَ عشرَ يوماً، مما يجعلُ الحياةَ فيه متعسرةً بل مستحيلةً، اللهم إلّا أن تكونَ حياةً غيرَ حياتنا.

ويُرجّحُون أنّ القمرَ كان في أزمان سحيقةٍ على طبيعة تقربُ من طبيعةِ أُمّهِ الأرضِ، فكانَ آهلاً بالحيوانِ والنباتِ، إلاّ أن صِغَر جسمِهِ جعلَه يسبق الأرضَ في اليُبس والبرُودة، فتَقَبَّضَ وبرَدَ وانتهت دُنياه، وأصبحَ كإسْفَنْجة مُشَعّثة ذاتِ شُعَبٍ ونَخاريبَ[1] تكوينُها منْ جِنْسِ تكوين الأرض.

ولقد خلَقَ الله القمَر مسَخّراً لأهل الأرض خاصَّة، فهو يعكس نُور الشمسِ عليهم هدايةٌ لهم في ظُلُماتِ البَرّ والبحْرِ. ولَقد قَضى الإنسانُ عُصوراً ودُهوراً وليس

(١) جمع نخروب وهي الثقب التي تكون في مثل بيوت الزنابير والنحل.

له مِصباحٌ في جُنْح الظلام غيرُهُ. ولا يزالُ كذلك لأهلِ البدْوِ وقبائل الهَمَج. وهو باختلافِ أشكالِهِ تقويمٌ فِطْريٌّ لهم، فبإهلالِهِ يُعْرَفُ أَوَّلُ الشَّهْر، وبالتَّرْبيع الأوَّل يُعْرَفُ رُبْعُهُ، وببدْرِهِ[1] يُعرَفُ نصْفُهُ، وبالتربيع الخير يُعْرفُ ثلاثةُ أرباعه، وبِمُحاقِهِ تُعرفُ نِهايتُهُ.

وإذا مَرَن الإنسانُ على النَّظَرِ في تقدير ضَوْئِهِ وأوقات مَطالِعه عرَف الشهرَ يوماً يوماً والليلَ ساعةً ساعةً. قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾[2].

وباتحاد جذْبِهِ مَعَ جذْب الشَّمس للأرْض ينشأ المَدُّ والجَزْرُ، وفائدتهما في تَسْهِيلِ الملاحةِ لا تُنكر، فكم من موانئَ ومرافئ لولاهما لَسُدَّت برواسبِ الأنهارِ والسيول.

ولضوءِ القمرِ في إنضاجِ الثّمارِ والبقول أثرٌ أيُّما أثَرٍ، حتى إنّ بعضَها لا ينمو ويزهو لونه إلّا في لياليهِ البيض.

---

(١) مصدر بدر البدر يبدر بدراً. وبالمصدر سمي هذا الكوكب عند تمام نوره كأنه يبادر الشمس بالشروق في ليلة التمام عند غروبها.

(٢) البقرة: الآية ١٨٩.

الفن الخامس: في المقامات

المقامة عبارةٌ عن كتابة حسنة التأليف، أنيقة التّصنيف تتضمّن نكْتة أدبيّة. ومدارُها على رِواية لطيفة مختلَقَة تُسند إلى بعض الرُّواة، ووقائع شتّى تُعزَى إلى أحد الأدباءِ. والمقصود منها غالباً جمع دُرَر الألفاظ وغُرَر البيان وشوارد اللغة ونوادر الكلام من منظوم ومنثور، فضلاً عن ذكر الفرائد البديعة والرّقائق الأدبية، كالرَّسائل المُبتكَرَة والخطب المحبَّرَة والمواعظ المُبكية والأضاحيك المُلهية[١]. ولْنذكرْ لك مُنتخبات مِن مقامات مختلفة فنقول:

المقامة التاسعة الإسكندرانية للحريري[٢] المتوفى سنة ٦١٥هـ:

أخبر الحارث بن هَمَّام قال: طَحا بِيَ[٣] مَرَحُ[٤] الشَّباب وهَوى الاكتِساب[٥] إلى أن جُبْتُ[٦] ما بين فَرغانة[٧]، وغانه[٨] أخوضُ الغمار[٩] لأجني الثّمار، وأَقتحِم الأخطار[١٠]، لكي أُدرِكَ الأوْطار[١١]. وكنت لَقَفتُ من أفواه العلماء وثَقِفت[١٢] من وَصايا الحُكماء، أنه يلزمُ الأديبَ الأرِيب[١٣] إذا دخل البلد الغرِيب، أن يَتميل قاضيَة[١٤] ويَتخلصَ مراضيَه[١٥]، ليشدّ ظهره عند الخصام

---

(١) اعلم أن المقامات تعرف بالمكان الذي تجري فيه فيقال المقامة الحلبية أو الموصلية بناء على أن محل وقوعها حلب أو الموصل، وربما نسبت إلى المروي عنه ويستحب في راوي المقامة أن يمثل رجلاً ظريف النفس كثير الأسفار حسن الروية متفرغاً لفنون الأدب جاداً في طلب غرره كاداً ذهنه في تحصيل درره كالحارث بن همام في المقامات الحريرية، وعيسى بن هشام في المقامات البديعية. ومخترع هذا الفن هو بديع الزمان الهمذاني وبعده الحريري، واشتهر بعدهما كثيرون ممن نسجوا المقامات على منوالهما وإن لم يبلغا شأوهما.

(٢) تقدم أنه توفي سنة ٦١٥هـ.

(٣) ذهب بي. (٤) هو النشاط وشدة الفرح. (٥) أي: محبة اكتساب المال.

(٦) قطعت. (٧) بلد بأقصى بلاد المشرق. (٨) بلد بأقصى المغرب.

(٩) بالكسر جمع غمرة الكثير من الماء. والمراد هنا الأمور الصعبة.

(١٠) أي: ادخل في القحمة بالضم وهي الشدة والأخطار والأمور العظيمة.

(١١) الحاجات. (١٢) أدركت. (١٣) العاقل.

(١٤) يرغبه ويترضاه. (١٥) يطب خالص رضاه.

ويأمنَ في الغرْبة جَوْرَ الحُكَّام. فاتخذتُ هذا الأدب[١] إماماً[٢] وجعلتُهُ لمصالحي زِماماً. فما دخلتُ مدينة ولا ولجْتُ[٣] عرِينَة[٤]، إلا وامتزَجتُ بحاكمها امتزاج الماء بالرَّاح، وتقوّيتُ بعنايته تقوّي الأَجسادِ بالأرْواح.

فبينما أنا عند حاكِم الإسكندرِيّة في عشيّة عَرِيّة[٥]، وقد أحضَر مال الصّدقات ليَفُضّه[٦] على ذوِي الفاقات[٧]، إذْ دخل شيخَ عِفْرِيَة[٨] تعْتِلُه[٩] امرأة مُصبِيَة[١٠] فقالتْ: أيّدَ[١١] الله القاضي وأدام به التّرَاضي[١٢]. إني امرأةٌ من أكرم جُرْثومة[١٣] وأطهر أرُومة[١٤] واشرف خُؤولة وعُمومة، مِيسَمي[١٥] الصَّوْن[١٦] وشيمَتي[١٧] الهَوْن[١٨] وخُلْقي نِعْمَ العوْن[١٩] وبيني وبين جارَتي بَوْن[٢٠]. وكان أبي إذا خطبني بُناةٌ[٢١] المجد، وأرْبابُ الجَدّ سَكّتهم[٢٢] وبَكّتهم[٢٣] وعاف وَصلتهم[٢٤] وصِتهم[٢٥]، واحتجّ بأنه عاهد الله تعالى بحِلْفة أن لا يُصاهِرَ[٢٦] غيرَ ذي حِرفة[٢٧]. فقيَّض القَدَر[٢٨] لِنَصبي وَوَصَبي[٢٩] أن حضر هذا الخُدْعَة[٣٠] ناديَ أبي[٣١]، فأقسَم بين رَهطه[٣٢] إنّه وِفقُ شرْطِهِ، وادعى أنه طالما نظم دُرّة فباعها ببدَرَة[٣٣]. فاغترَّ أبي بِزخرفة مِحاله وزَوّجنيه قبل اختبار حاله. فلمَّا استخرَجني من

---

(١) أي: هذا الأمر الظريف المستحسن.
(٢) قدوة أي: اعمل بمقتضاه.
(٣) دخلت.
(٤) مأوى الأسد.
(٥) أي: شديدة البرد أو ذات ريح بارد.
(٦) يفرقه.
(٧) أي: الفقراء المحتاجين.
(٨) أي: خبيث شديد الدهاء.
(٩) يجرّه بعنف وجفاء.
(١٠) أي: ذات صبيان.
(١١) قوى ونصر.
(١٢) أراد التراضي بين الخصوم بحيث يرضى بحكمه الغالب والمغلوب.
(١٣) أي: أصل.
(١٤) الأرومة: أصل الشجرة، ثم استعير لأصل الحسب.
(١٥) علامتي. وأصل الميسم: الآلة التي يكوى بها ويلم.
(١٦) الحفظ والعفاف.
(١٧) خلقي وعادتي.
(١٨) الرفق.
(١٩) أي: الرفيق الظهير.
(٢٠) أي: فرق وتفاوت في الفضل.
(٢١) بالضم جمع بان.
(٢٢) أي: قال لهم كلاماً لا يجدون له جواباً.
(٢٣) ألزمهم الحجة.
(٢٤) أي: كره قربهم.
(٢٥) أي: عطاءهم.
(٢٦) أي: لا يزوج ابنته.
(٢٧) صناعة.
(٢٨) يعني: قدر الله تعالى.
(٢٩) لتعبي ومرضي.
(٣٠) الكثير الخداع.
(٣١) مجلس أبي.
(٣٢) قومه وعشيرته.
(٣٣) البدرة عشرة آلاف درهم.

كِناسي[١] ورَحّلني عن أُناسي، ونقلني إلى كَسْره[٢] وحصّلَني تحت أسْره، وجدته قُعَدَة جُثَمة[٣] وألفَيْته ضُجعَة نَومة[٤]. وكنت صحبته برِياش[٥] وزِيّ[٦] وأثاث[٧] ورِيّ[٨]. فما بَرح يبيعه في سُوق الهضم[٩] ويتلفُ ثمنَه في الخضم[١٠] والقَضم[١١]، إلى أن مزّق مالي بأسره[١٢] وأنفَق مالي في عُسره. فلمّا أنساني طعم الرّاحة وغادَر[١٣] بيتي أنقى من الرّاحة[١٤]، قلت له: يا هذا إنهُ لا مَخْبأ بعد بُوس[١٥] و لا عِطْرَ بعد عَرُوس[١٦]، فانهَضْ للاكتساب بصِناعتك وَاجْتَنِ[١٧] ثمرة برَاعتك[١٨]. فزعم[١٩] أن صناعَتَهُ قد رُميَتْ بالكساد[٢٠] لما ظَهَرَ في الأرض من الفساد، ولي منهُ سُلالة[٢١] كأنه خِلالَة[٢٢]، وكلانا ما ينال معه شُبْعة[٢٣] ولا تَرْقا[٢٤] له من الطّوَى[٢٥] دمعة. وقد قُدْته[٢٦] إليك وأحضرته لديك، لِتَعْجُم[٢٧] عُودَ دَعواه وتحكم بيننا بما أراك الله.

---

(١) أي: منزل، وأصله بيت الظبي أو بقر الوحش.
(٢) بفتح الكاف وكسرها أي: جانب بيته.
(٣) كثير القعود كثير الجثوم أي: يلازم الموضع الذي يقعد فيه.
(٤) الضجعة: أصله العاجز الذي لا يتصرف والنومة: كثير النوم. والمعنى أنه عاطل عن العمل.
(٥) مال ولباس فاخر. (٦) هيئة حسنة. (٧) هو متاع البيت.
(٨) حسن حال وكثرة نعمة وهو بكسر الراء وفي الأصل اسم من روى من الماء يروى ريا.
(٩) المراد يبيعه بأقل من القيمة.
(١٠) الأكل بجميع الفم.
(١١) الأكل بأطراف الأسنان. وقيل الخضم الأكل بأطراف الأسنان والقضم بمقدمها. وقيل الخضم أكل الرطب والقضم أكل اليابس. يريد أنه يصرف ثمنه في أنواع الأكل واللذات.
(١٢) أي: فرق الذي لي. (١٣) ترك.
(١٤) بطن الكف لنقائه من الشعر. (١٥) أي: فقر.
(١٦) مثل قالته امرأة من بني عذرة مات عنها زوجها واسمها عروس فتزوجها رجل أبخر وأمرها أن تتعطر فقالته.
(١٧) أي: مكني من الجني وهو جمع الثمرة. (١٨) أي: فضلك على أقرانك.
(١٩) ادعى.
(٢٠) هو خمود السوق وقلة البيع. ضد النفاق بالفتح.
(٢١) يعني: ولداً. (٢٢) ما يتخلل به.
(٢٣) قدر ما يشبع به مرة. (٢٤) أي: لا تسكن. (٢٥) الجوع.
(٢٦) أتيت به. (٢٧) لتقضي وتختبر.

فأقبل القاضي عليه وقال له: قد وَعيتُ[١] قَصص عِرْسِك فبرْهن الآن عن نفْسك، وإلّا كشَفتُ عن لَبسك[٢] وأمرْتُ بحبسك. فأطرَق إطراق الأُفْعُوان[٣] ثم شمّرَ للحرْب العَوَان[٤] وقال:

[المنسرح]

اسمَعْ حديثي فإنه عَجَبُ ... يُضحَك من شَرْحه ويُنتَحَبُ[٥]
أنا امرُؤٌ ليس في خصائِصِه[٦] ... عَيْبٌ ولا في فَخاره رِيَبُ
سُرُوجُ دارِي التي وُلدْتُ بها ... والأصل غسّانُ[٧] حين أنْتَسِبُ
وشُغْلِي الدَّرْسُ والتّبحّرُ في العلـ ... ـم طلابي وحبّذا الطَّلَبُ
ورأسُ مالِيَ سِحْر الكلام[٨] الذي ... منهُ يُصاغُ القَرِيضُ[٩] والخطبُ
أغوصُ في لُجَّة البيان فأخـ ... ـتارُ اللآلئَ منها[١٠] وأنتخِبُ
وأجتَني[١١] اليانعَ[١٢] الجنيّ[١٣] من الـ ... ـقول وغيري للعود يَحتطِبُ
وآخذُ اللّفظَ فِضَّةً فإذا ... ما صغتهُ[١٤] قيل إنهُ ذَهبُ
وكنتُ من قبلُ أمتري نَشَباً[١٥] ... بالأدب المُقتَني وأحتَلِبُ
ويَمتطي[١٦] أخمصي[١٧] لحُرْمته ... مراتباً ليس فوقها رُتبُ

(١) فهمت وحفظت ما قصته زوجتك.
(٢) ظهرت أشكالك وتعمية أمرك.
(٣) ذكر الأفاعي أو العظيم منها.
(٤) الحرب التي قبلها حرب وهي تكون أشد من الأولى.
(٥) الانتحاب: رفع الصوت بالبكاء.
(٦) خصاله وطباعه.
(٧) اسم ماء نزل عليه قوم من الأزد فنسبوا إليه منهم بنو جفنة ورهط الملوك. وقيل غسان قبيلة.
(٨) هو ما لطف مأخذه ورق.
(٩) الشعر.
(١٠) أي: أتعمق في بلغ المعاني وأنتقي منه الملح.
(١١) اقتطف.
(١٢) الزاهي
(١٣) الطري من الثمر: الذي جني حديثاً.
(١٤) سبكته.
(١٥) أي: أكتسب مالاً.
(١٦) أي: يركب.
(١٧) ما ارتفع من باطن القدم عن الأرض.

obeikandl.com

وطالما زُفّتِ الصّلاتُ إلى ... رَبْعي[١] فلم أرضَ كل مَنْ يَهبُ[٢]
فاليوْم من يَعلقُ الرجاءُ بِهِ ... أكسدُ شيءٍ في سُوقه الأدبُ[٣]
لا عرضُ أبنائِهِ يُصان ولا ... يُرْقب[٤] فيهمُ إلٌّ[٥] ولا نَسَبُ
كأنهم في عِراصهم[٦] جِيَفٌ ... يُبعدُ من نَتْنها ويُجتَنبُ
فحار لُبّي[٧] لَما مُنِيتُ به[٨] ... من اللّيالي وصَرْفُها[٩] عَجَبُ
وضاق ذرعي[١٠] لضيق ذات يدي ... وساوَرتني[١١] الهمومُ والكَرَبُ
وقادني دَهري المُليمُ[١٢] إلى ... سُلوك ما يَسْتشينُهُ[١٣] الحَسَبُ[١٤]
فبعْتُ حتى لم يَبق لي لَبَدٌ[١٥] ... ولا بَتاتٌ[١٦] إليهِ أنقلبُ
وادّنْت[١٧] حتى أثقلتُ سالفتي[١٨] ... بحَمل دَيْنٍ من دُونِهِ العطبُ
ثم طويتُ الحشَا على سَغبٍ[١٩] ... خمساً[٢٠] فلمّا أمضَّني[٢١] السّغبُ
لم أرَ إلّا جِهازَها عَرضاً[٢٢] ... أجولُ في بيعهِ وأضطرِبُ
فجُلْتُ فيهِ والنّفسُ كارِهةٌ ... والعينُ عَبْرى[٢٣] والقلب مكتئِبُ[٢٤]

---

(١) أي: حملت الجوائز والهدايا إلى منزلي.
(٢) أي: لم أرض أن أكون تحت من كل أحد بل لم أقبل إلا من العظماء.
(٣) أي: أن من يتعلق به الأمل ويرجى منه النوال لا يتعمل الأدب والمعارف حتى صار ذلك كالسلعة الكاسدة عنده.
(٤) يحفظ. (٥) بكسر الهمزة وتشديد اللام: العهد والقرابة والجوار.
(٦) جمع عرصة هي فناء الدار، أي: كأنهم في مواضعهم.
(٧) تحير عقلي. (٨) بليت به. (٩) تقلبها.
(١٠) انقبض قلبي. (١١) انتابتني وغلبتني. (١٢) الذي يأتي بما يلام عليه.
(١٣) يستشبعه.
(١٤) ما يعد من مفاخر الإباء أو الدين، وقيل الكرام.
(١٥) يقال ما له سيد ولا لبد أي: شعر ولا صوف والمراد ذوات الشعر والصوف من المواشي، وأراد الحريري أنه لم يبق له كثير ولا قليل كناية عن شدة الفقر والحاجة.
(١٦) الزاد ومتاع البيت. (١٧) تداينت. (١٨) صفحة العنق وقيل مقدمه.
(١٩) جوع. (٢٠) خمس ليال. (٢١) أحرقني
(٢٢) حطام الدنيا وهو المال قل أو كثر.
(٢٣) دامعة باكية. (٢٤) حزين.

وما تجاوزتُ[١] إذ عبثْتُ[٢] به حدّ التَّراضي[٣] فيحدثُ الغضبُ
فإن يكن غاظَها توهُّمُها أن بناني بالنّظم تَكتسبُ
أو أنّني إذ عَزَمتُ خِطبتَها زَخرفْتُ قولي لينجَح الأَرب[٤]
فوالذي سارت الرّفاقُ[٥] إلى كعْبتِهِ تَستَحُثُّها[٦] النُّجُبُ[٧]
ما المكرُ بالمحصنَات[٨] من خُلُقي ولا شِعاري[٩] التّمويه[١٠] والكذبُ
ولا يدي مُذ نشأتُ نِيط بها[١١] إلّا مواضي اليَرَاع[١٢] والكُتُبُ
بل فِكرتي تَنظِم القلائد[١٣] لا كفّي وشِعري المنظوم لا الخُبُ[١٤]
فهذه الحِرْفةُ المشارُ إلى ما كنتُ أحوي بها وأجتلبُ
فَأذنْ لشرحي كما أذِنْتَ لها ولا تُرَاقبْ[١٥] واحكم بما يَجبُ

قال: فلما أحكَم ما شاده[١٦] وأكمل إنشاده، عَطَفَ القاضي إلى الفتاة بعد أن شُغِفَ[١٧] بالأبيات، وقال:

أما أنه قد ثَبتَ عند جميع الحكّام ووُلاة الأحكام، انقراضُ[١٨] جِيل الكرام[١٩] ومَيلُ الأيام إلى اللئام، وإني لإخال[٢٠] بعلك[٢١] صدوقاً في الكلام بَرِيّاً من الملام.

---

(١) تعديت. (٢) فعلت به مالا يليق فعله. (٣) أي: حد الرضا.
(٤) لحاجة. (٥) جمع رفقة وهو جمع رفيق.
(٦) تستعجلها. (٧) جمع نجيبة وهي الكريمة من الإبل.
(٨) مع محصنة: النساء العفائف. (٩) تخلقي.
(١٠) تزين الكلام. وأصله أن يطلى المعدن غير الذهب والفضة بأحدهما أو الفضة بالذهب.
(١١) علق بها. (١٢) جمع يراعه وهي القصبة الجوفاء والمراد الأقلام.
(١٣) جمع قلادة أصله ما تقلد به المرأة من الذهب والمراد ما ينظم من القصائد والأشعار.
(١٤) جمع سخاب وهو القلادة من القرنفل والمسك ليس فيها من الجواهر شيء يجعل في أعناق الأطفال.
(١٥) أي: لا تنظر إلى واحد منا والمراد لا تعدل عن الحق.
(١٦) أي: أتقن ما قاله وأنشأه، من شاد البناء إذا طلاه بالشيد وهو الجص.
(١٧) يروى بالعين المهملة من شغف الحب فؤاده أي: علاه وشمله، وبالغين المعجمة أي: فتن وبلغ حبها شغافه وهو غلاف القلب.
(١٨) انقطاع وفناء. (١٩) أي: جماعة الكرم والجيل أهل زمان واحد.
(٢٠) بكسر الهمزة أي: لأظن. (٢١) زوجك.

obeikandi.com

وهاهو قد اعترف لك بالقرض وصَرح عن المحض[١]، وبيّن مصداق النَّظم وتنبيّن أنه معروقُ العظم[٢]، وإعنات المُعذِر ملأمة[٣] وحبس المُعسر[٤] مألمة[٥]، وكتمان الفقر زَهادة وانتظار الفرج بالصبر عبادة. فارجعي إلى خِدْرِك[٦] واعذُري أبا عُذْرك[٧]، ونَهْنِهي من غربك[٨] وسلّمي بِقضاء ربّك.

ثم إنهُ فرَضَ لهما في الصّدقاتِ حِصَّة وناولهما من دراهمها قَبضَة[٩]، وقال لهما: تعلّلا[١٠] بهذه العُلالة[١١] وتندّيا بهذه البلالة[١٢]، وصبراً على كيد الزّمان وكَدّه، فعسى الله أن يأتيَ الفتح أو أمر من عنده. فنَهضا وللشيخ فَرْحة المُطلَق من الإسار[١٣] وهِزة المُوسرِ بعد الإعسار.

قال الراوي: وكنتُ عَرَفتُ أنه أبو زيد ساعة بَزَغَتْ شمسُهُ ونَزَعَتْ[١٤] عِرسه، وكِدتُ أفصحُ عن افتتانه[١٥] وأثمار أفنانه[١٦]، ثم أشفَقتُ[١٧] من عُثور[١٨] القاضي على بُهتانه[١٩] وتزويق[٢٠] لِسَانه، فلا يرى عندَ عِرفانه[٢١] أن يُرشّحه[٢٢] لإحسانه.

---

(١) الخالص.
(٢) كناية عن الهزال. يقال: عظم معروق إذا أخذ ما عليه من اللحم.
(٣) الإعنات: الحمل على المشقة الشديدة والمعذر البالغ في العذر، أو هو الذي يأتي بما يعذر به. ويطلق على المحقق العذر وعلى الذي بان عذره والملامة اللوم.
(٤) العاجز عن قضاء الدين. (٥) إيلام. (٦) بيتك وسترك.
(٧) أبو عذر المرأة أو لزوج لها.
(٨) أي كفي وازجري نفسك عن الحدة.
(٩) هي ما يتناوله الإنسان بأطراف أصابعه.
(١٠) تشاغلاً وتلاهياً. (١١) ما يتعلل به وأصلها بقية اللبن.
(١٢) قدر ما يبل به الشيء واسم للبقية أيضا.
(١٣) القيد الذي يشد به الأسير.
(١٤) خبثت. والنزع: الذكر بالقبيح والإفساد بين الناس ومعناه: خاصمته عرسه.
(١٥) يقال: افتن الرجل في حديثه إذا بالأفانين وهي الأساليب. والمراد هنا تصرفه في الفنون والمعارف.
(١٦) جمع فنن بالتحريك وهو طرف الغصن. (١٧) خفت.
(١٨) إطلاع. (١٩) كذبه.
(٢٠) التزويق التحسين والتزيين مأخوذ من الزاووق وهو الزئبق.
(٢١) معرفته.
(٢٢) الترشيح: التربية والتأهيل من ترشيح الظبية ولدها لأنها إذا بلغ ولدها السعي سعت به حتى يرشح عرقاً فيقوى. ويأتي بمعنى التقوية أيضاً.

فأحْجَمتُ[١] عن القول إحجامَ المرْتاب[٢] وطويت ذكره كطيّ السّجل للكتاب[٣]. إلا أني قلتُ بعدما فَصَل[٤] ووصل إلى ما وَصل: لو أنَّ لنا من ينطلِق في أثره لأتانا بفَصّ خبره[٥]. وما يُنشرُ من حَبْرِه[٦] فَأَتْبَعَه[٧] القاضي أحدَ أُمنائه وأمرَه بالتَّجَسُّس[٨] عن أنبائه[٩]. فما لَبثَ أن رَجع مُتَدَهدِهاً[١٠] وقهقَر مُقَهقهاً[١١]. فقال له القاضي: مَهْيَم[١٢] يا أبا مريم[١٣]؟ فقال له: لقد عاينْتُ عَجباً وسمعتُ ما أنشأ لي طَرَباً. فقال لهُ: ماذا رَأيت، وما الذي وَعَيت؟ قال: لم يزل الشيخ مذ خرج يُصَفّق بيديه ويُخالفُ بين رجليه[١٤] ويُغَرّدِ بملء شِدْقيه، ويقول:

[مجزوء الرمل]

كِدْتُ أُصْلى[١٥] ببلّيه من وَقاح[١٦] شمَّرِيَّه[١٧]
وأزورُ السّجن لولا حاكم الإسكندَرِيّه

فضَحِك القاضي حتى هوت[١٨] دُنيَّتُهُ[١٩] وذَوَتْ[٢٠] سَكينته[٢١]. فلما فاءَ[٢٢] إلى الوَقار وعَقَّبَ الاستغرابَ بالاستِغفار، قال: اللهمَّ بِحُرْمَة عِبادِكَ المقَرّبين حَرّم

---

(١) تأخرت. (٢) الشاك.
(٣) السجل: الصحيفة فيها الكتابة أي: كما تطوى الصحيفة الكتابة.
(٤) ذهب. (٥) بحقيقة حاله.
(٦) الحبر: أردية يمانية موشاة جمع حبرة، هي ما تلبسه المرأة المصرية، والمراد ما يذكره من الكلام المسجع الشبيه بالحبر في الحسن.
(٧) أي: أرسل وراءه من يتبعه. (٨) أي: بالبحث سراً بحيث لا يشعر. (٩) أخباره.
(١٠) التدهده: الإسراع، ومن دهدهت الحجر إذا دحرجته. وتبدل الهاء الأخيرة ياء فيقال تدهدي تدهدياً.
(١١) القهقرى: المشي إلى الوراء، والقهقهة: الضحك بصوت مرتفع.
(١٢) أي: ما الخبر، وهي كلمة لأهل اليمن معناها: ما خبرك وما شأنك؟
(١٣) يقال: لعون القاضي أبو مريم. (١٤) أي: يرقص.
(١٥) احترق.
(١٦) الوقاح: قليلة الحياء بينة القحة والوقاحة. وحافر وقاح: صلب.
(١٧) الشمري: الماضي في الأمور الجاد فيما يحاول.
(١٨) وقعت.
(١٩) بتشديد النون والياء جميعاً قلنسوة طويلة يلبسها القضاة كلها منسوبة إلى الدن.
(٢٠) ذبلت وفترت. (٢١) وقارته. (٢٢) رجع.

حَبـي على المتأدبين. ثم قال لذلك الأمين: عليّ[١] به. فانطلق مُجدّاً في مطلبه ثم عاد بعد لأيه[٢] مخبراً بِنأيه[٣]. فقال له القاضي: أما إنه لو حَضَر لكُفِيَ الحَذَر[٤] ثمّ لأوْليته ما هو بِهِ أوْلى ولأرَيتُهُ أنّ الآخرَة خيرٌ له من الأولى.

قال الحارث بن همّام: فلمَّا رَأيت صغو[٥] القاضي إليهِ وفوت ثمرة التنبيه عليه[٦]، غَشَيتني نَدَامةُ الفَرَزْدَق[٧] حين أبانَ النّوار[٨] والكُسَعِيَّ[٩] لما استبان النَّهار.

المقامة البِشْرية لبديع الزمان الهمذاني المتوفّى سنة ٣٩٨هـ

حدّثنا عيـى بن هشام قال: كان بِشر بن عَوَانة العَبْديّ صُعلوكاً فأغار على رَكب فيهم امرأةٌ جميلة فتزوّج بها وقال: ما رأيتُ كاليوم فقالت:

[الرجز]

أعْـجَـبَ بِـثْـراً حَـوَرٌ فـي عَـيـنـي وسـاعِـدٌ ابـيـضُ كـالـلُّـجَـيـن
ودونَـه مَـسْـرَح طـرف الـعـيـن خُـمْـصَـانَـةٌ تَـرْفُـل فـي حِـجْـلَـيـن
أحـسـنُ مـن يـمـشـي عـلـى رجـلـيـن لـو ضَـمّ بِـشـرٌ بـيـنـهـا وبـيـنـي
أدامَ هـجـري وأطـال بـيـنـي ولـو يَـقـيـس زَيْـنَـهـا بِـزَيـنـي
لأَسْـفَـر الـصُّـبـح لـذي عَـيـنـيـن

(١) أي: ائت به وأحضره. (٢) اللأي كالسعي: الإبطاء والاحتباس.
(٣) أي: ببعده. (٤) ما يحذر منه ويخالف. (٥) ميله.
(٦) أتتني وحضرتني. (٧) هو همام بن غالب التميمي الشاعر.
(٨) النوار على وزن سحاب: اسم زوجة الفرزدق وكان قد طلقها ثم ندم على ذلك، ومن شعره في ذلك قوله: [الوافر]

نـدمـت نـدامـة الـكـعـيّ لـمـا غـدت مـنـي مـطـلـقـة نـوار
وكـانـت جـنـتـي فـخـرجـت مـنـهـا كـآدم حـيـن أخـرجـه الـضـرار
ولـو أنـي مـلـكـت يـدي وأمـري لـكـان عـلـي لـلـقـدر خـيـار

(٩) الكـعيّ هو عامر بن الحارث نسبة إلى كـعـ بضم الكاف وفتح الـين، حي من بني ثعلبة. كان راعياً وعمل قوساً بعد طول تعب، ثم رمى عنها ليلاً فنفذت الرمية ووقع الـهم في حجر فقدح منه الشرر، فظن أن الـهم أخطأ الرمية، فرمى ثانياً وثالثاً إلى آخر الأسهم وكانت خمساً وهو يظن خطأها، فعمد إلى قوسه فكسرها، ثم بات، فلما أصبح تبين أن أسهمه كلها أصابت، فندم ندماً شديداً. فضربت العرب المثل به في الندامة.

قال بِشرٌ: وَيْحَكِ مَنْ عَنَيْتِ؟ فقالت: بنت عمّك فاطمة. فقال: أهيَ من الحسْن بحيثُ وَصَفْتِ؟ قالتْ: وأزْيَدُ وأكثر. فأنشأ يقول:

[الرجز]

ويْحَكِ يا ذَاتَ الثَّنايا البيضِ ما خِلْتُني منك بمُسْتَعيضِ
فالآن إذ لَوّحتِ بالتّعريضِ خَلَوْتِ جَوّاً فاصْفِري وبيضي
لأضُمّ جَفْنَاي على تغميضِ ما لم أشِلْ عِرْضِي من الحَضيضِ

فقالت:

[الرجز]

كم خاطِبٍ في أمرها ألحَّا وهي إليك ابنة عمّ لَحّا

ثم أرسل إلى عمه يخطُب ابنته ومَنعَهُ العمّ أمنِيَّته. فآلى ألا يُرْعِي على أحد منهم إن لم يُزَوّجْه ابنته. ثم كثُرَت مَضرّاتُهُ فيهم واتّصلتْ معَرّاتُهُ إليهم فاجتمع رجال الحيّ إلى عمّه، وقالوا: كفَّ عنّا مجنونَك. فقال: لا تُلْبِسوني عاراً وأمهلوني حتى أهلكَهُ ببعض الحِيَل. فقالوا: أنت وذاك. ثم قال له عَمُّه: إني آليتُ أن لا أزَوّج بنتي هذه إلا ممّن يسوق إليها ألف نَاقَة مَهراً، ولا أرضاها إلا من نوق خُزَاعة. وكان غرَضُ العمّ أن يَسلُك بِشْر الطَّرِيق بينه وبَين خُزاعة فيَفترسُهُ الأسد، لأن العرب كانت قد كانت تحامتْ عن ذلك الطّرِيق وكان فيه أسد يُسمى «داذاً» وحيَّة تدعى «شُجاعاً» يقول فيهما قائلهم:

[الرجز]

أفتَكُ من داذ ومن شُجا إن يَكُ داذٌ سَيِّد السِّباعِ
فإنها سيّدةُ الأفاعِي

ثم إن بِشراً سَلَك ذلك الطريق، فما نصفَهُ حتى لَقِيَ الأسد وقمَصَ مهْرُهُ، فنزَل وعَقَرَه ثم اخترَط سيفه إلى الأسد واعترَضه وقَطَّعه، ثم كتب بدَم الأسد على قميصه إلى ابنة عمّه:

[الوافر]

أفَاطمُ لو شَهِدْتِ بِبطْنِ خَبْت وقد لاقَى الهِزبَرُ أخاك بِشْرَا
إذاً لَرَأيتِ ليثاً أمَّ لَيثاً هِزَبْراً أغلَباً لاقَى هِزبَرا

تبهْنَسَ حين أحجَم عنهُ مُهرِي ... مُحَاذَرَةً، فقلتُ عُقِرْتَ مُهرا
أنلْ قَدَمَيّ ظَهْرَ الأرض إني ... رأيتُ الأرضَ أثبَتَ منك ظَهْرَا
وقلتُ له وقد أبدَى نصالاً ... مُحَدّدة وَوَجْهاً مُكْفَهِرَا
يُكفْكفُ غِيلةً إحدَى يدَيه ... ويَبسُطُ للوُثُوب عليّ أُخرَى
يُدِلُّ بِمخلَب وبحدّ ناب ... وباللَّحَظاتِ تَحسَبُهُنَّ جَمرَا
وفي يُمنايَ ماضي الحدّ أبْغي ... بمضربه قِراعَ الموْت أُثْرَا
ألم يَبْلُغك ما فعلَتْ ظُباه ... بكاظمةٍ غداةَ لَقيتُ عَمْرَا
وقلبي مثلُ قلبك ليس يخشى ... مُصاوَلةً فكيفَ يخاف ذُعْرَا
وأنتَ ترُوم للأشبال قُوتاً ... وأطلبُ لابْنةِ الأعمام مَهرَا
ففيمَ تَسوم مِثلي أن يُوَلّي ... ويجعلَ في يديك النفس قَسْرا
نصحتُك فالتمِسْ يا ليثُ غيري ... طعاماً إن لحمي كان مُرًّا
فلما ظنَّ أن الغشَّ نُصحي ... وخالفني كأنّي قلتُ هُجْرَا
مَشَى ومَشَيْتُ من أسدَين رَاما ... مَرَاماً كان إذ طَلَباهُ وعْرَا
هزَزْتُ له الحُسَامَ فخِلتُ أني ... سَللتُ به لدَى الظّلماء فَجْرَا
وجُدْتُ له بجائشةٍ أرَتْهُ ... بأنَّ كذبَتَهُ ما مَنّتْهُ غَدْرَا
وأطلَقتُ المُهَنَّدَ من يميني ... فقدَّ له من الأضلاع عشْرا
فَخَرَّ مُجدَّلاً بدَمٍ كأني ... هدَمتُ به بناءً مُشْمَخِرًّا
وقلتُ له يَعزُّ عليّ أني ... قتلتُ مُناسِبي جلَداً وفخرا
ولكنْ رُمتَ شيئاً لم يَرمُهُ ... سواكَ فلم أُطِقْ يا ليثُ صبرَا
تُحاوِلُ أن تُعَلّمَني فِراراً ... لعَمْرُ أبيك قد حاوَلتَ نُكْرَا
فلا تَجزَعْ فقد لاقيتَ حُرّاً ... يُحاذِر أن يُعابَ فمُتَّ حُرّا

فلمّا بلَغتِ الأبياتُ عمّه نَدم على ما منعه تزْوِيجها وخشي أن تغتَالَهُ الحيّة. فقام في أثَرِه وبَلَغَهُ وقد مَلكتْهُ سُوْرةُ الحيّة. فلمّا رأى عمّهُ أخذَته حمِيَّةُ الجاهليّة، فجعل يده في فَمِ الحيّة وحكم سيفَه فيها وقال:

[الرجز]

بِشْرٌ إلى المجد بعيدٌ همّه لما رآه بالعَرَاءِ عَمّهُ
قَد ثَكلتْهُ نفسُهُ وأُمُّه جاشتْ به جائشةٌ تَهمُهُ
قام إلى ابنٍ للفَلاَ يَؤُمُّهُ فغاب فيه يَدُهُ وكُمُّهُ

ونفسهُ نفسي وسَمّي سَمُّهُ

فلمّا قتلَ الحيّة قال عمُّه: إنّي عَرَّضْتُك طَعَماً في أمرٍ قد ثنى الله عناني عنهُ، فارْجِعْ لأَزَوّجك ابنتي. فلمّا رجِعَ جعل بِشر يملأ فمه فخراً حتى طلَع أمرَد كَشقّ القمر على فرَسِهِ مُدَجّجاً في سِلاَحه فقال بِشرٌ: يا عمَّ إني أسمع حِسّ صَيد وخرج. فإذا بغلام على قَيدٍ فقال: ثَكلَتْك أمّك يا بشر أن قتلتَ دُودة وبَهيمةً تملأ ماضغَيْك فخراً، أنتَ في أمان إن سَلّمتَ عمَّك. فقال بِشر: مَن أنت؟ لا أُمّ لك؟ قال: اليوْمُ الأسوَد والموْتُ الأحمر، فقال بشر: ثكلَتْكَ من سَلَحَتْك؟ فقال: يا بشر ومن سَلَحَتْك؟ وكرّ كلٌّ واحدٍ منهما على صاحبه فلم يتمكَّنْ بِشرٌ منه وأمكنَ الغلامَ عشْرُون طعنة في كُلْيَةِ بِشر، كلّما مَسّه شَبَا السّنان حماه عن بَدَنِهِ إبقاءً عليهِ. ثم قال: يا بِشِر، كيف تَرَى أليس لو أرَدت لأَطعمتُك أنياب الرُّمح. ثم ألقى رُمحه واستلّ سيفَه فضَرَب بشراً عشرين ضرْبةً بعَرْض السَّيف، ولم يتمكن بشرٌ من واحدة ثم قال: يا بشر سلِم عمّك واذهب في أمانٍ. قال: نعم، ولكن على شريطة أن تقول لي من أنت؟ فقال: أنا ابن المرأة التي دلّتك على ابنة عمّك، فقال بشر:

[الرجز]

تلك العصا من هذه العُصَيّه هل تَلِدُ الحيَّةُ إلا الحيَّة

وحلفَ لا رَكِب حِصاناً. ولا تزَوّجَ حَصاناً ثم زَوج ابنة عمّه لابنه.

الفن السادس: في الروايات

الرّواية عبارة عن ذكر قولٍ أو فعلٍ حدثا أو أمكنَ حدوثهما.

وخواصُّها أربعة: الإيضاح والإيجاز والإمكان والتَّلطُّف.

فالإيضاح: يكون بتقديم فرش للحديث، وتوطئةٍ للخبر يُقرّبُ مأخذ الرّواية. وبمراعاة الترتيب الطبيعي في إيراد ظُرُوف الخبر، ما لم يكن للرّاوي غرض لتجاوُز هذا النّظام، وبالعدول عن كثرة الاستطرادات في إنشاء الحديث، لأن ذلك يصرف العقلَ عن سياق الرّواية ويَذهبُ برَوْنقها.

والإيجاز: حذف فُضول وحشوِ الكلام مع انتقاءِ أخصّ الظروف وأنسَبها للغاية، ولا يأس بالإطناب إذا ما دعا إليه مقتضى الحال.

والإمكان: ترشيح الرّواية للقبول في ذهن السّامع.

والتّلطف في الرّواية: أن يَبلغ الكاتب كُنْهَ القلوب ويأخذ بمجامع اللُّبّ، بأن ينتقل فيها من حال إلى حال، لأن النّفس قد جبُلَتْ على محبّة التّحوُّل، وطبعت على إيثار التّنقّل.

وللرّواية ثلاثة أجزاء: صدرُها وعِقدتُها وخِتامُها.

فالصَّدْر: التَّوْطئة للواقع بحيث يَقِفُ السّامع على أسماء الأشخاص وطباعِهم وعلى مكان الواقع وسوابق العمل.

والعقدة: هي الجزء الذي على محوره تدور الرّواية، وهو المجال الأوْسع الذي تتقابل الأشخاص وتشتبك الأحوال وتَضطرِم في النّفس لواعج الشوق للوُقوف على عاقبة الأمر فتنقل من الرّجاء إلى الخوف ومن الفرَح إلى الحزن.

والختام: الجزء الأخير من الرّواية الذي به تفك الإربة وتُحلُّ رِبَاق الحديث، فتنالُ النُّفوس بذلك مَرَامَها وتفوزُ بوَطَرِها. وسِمَته أن يكون فجائياً مُرتبطاً مع ما قبله ارتباطاً مُحكماً وافياً بالمراد، بحيث تَرضَى به النفوس وترتاح إليه القلوب.

وشواهد الرّواية كثيرة لا نطيل بذكرها، أفردها الأدباء بالتآليف العديدة.

ولنذكر هنا بعض مَلُح لا يستغني عنها المقام.

لَيلى الأخْيليَة مع الحجَّاج

قال بعضهُم : بينما كان الحجَّاجُ في مجلسْ ومعه عَنْبَسةُ بنُ سعيد إذ دخل الحاجبُ فقال: امرأةٌ بالباب، فقال له الحجاج: أدْخِلْها. فدخلتْ، فلمّا رآها الحجاج طأطأ رأسه حتى ظننتُ أن ذَقنَه قد أصابَ الأرضَ. فجاءت حتى قعدت بين يديه. فنُظرت فإذا امرأةٌ قد أسنَّت حَسنة الخَلْقِ ومعها جاريتان لها، وإذا هي ليلى الأخيليَّة فسألها الحجّاج عن نَسَبها فانتسبت له، فقال لها: يا ليلَى ما أتَى بك؟ فقالت: أخلافُ النُّجوم وقلّة الغيوم، وكَلب البرد وشِدّة الجهد، وكنتَ لنا بعد الله الرّفْد. فقال لها: صِفي لنا الفِجَاج. فقالت: الفِجَاجُ مُغبّرة، وأرض مقشَعَرة، والمَبْرَك مُعتلّ وذو العِيال مختلّ، والهالك للقُلّ، والناس مُسْنِتُون رحمةَ الله يرجُون، وأصابتنا سنُون مُجحفة مبلطة لم تدع لنا هُبَعاً ولا رُبَعا، ولا عافِطة ولا نافِطة، أذهبت الأموالَ ومزّقت الرّجال وأهلكت العيال، ثم قالت: إني قلت في الأمير قولاً. قال: هاتي. فأنشأت تقول:

[الطويل]

أحجّاجُ لا يُفللْ سِلاحُك إنّما الـ ـمنَايا بكفّ الله حيث يراهَا
أحجاج لا تُعط العُصاة مُناهُمُ ولا الله يُعطي للعُصَاة مُناها
إذا هبَط الحجَّاج أرضاً مريضةً تَتَبَّع أقصَى دَائها فشفاهَا
شفاها من الدّاء العُضال الذي بها غلامٌ إذا هزَّ القَنَاة سقاهَا
سقاها فرَوَّاها بشرْب سِجَالِهِ دماء رِجالٍ حيث مَال حشَاها
إذا سَمع الحجاج رزّ كَتِيبةٍ أعدّ لها قبل النُّزول قِرَاهَا
أعدّ لها مَصقولةً فارسيّةً بأيدي رجال يَحْلبُون صراهَا
فما ولَد الأبكارُ والعُونُ مِثلَه ببحرٍ ولا أرض يَجفّ ثرَاها

قال: فلما قالت هذا البيت قال الحجاج: قاتلها الله، ما أصاب صِفَتي شاعرٌ منذ دخلت العِرَاق غيرها. ثم التفت إلى عَنْبسة بن سعيد فقال: والله إني لأعد للأمر عسى

أن لا يكون أبداً. ثم التفت إليها فقال: حَسبُك. قالت: إنّي قد قلت أكثر من هذا. قال: حسبك، وَيْحَك حسبك. ثم قال: يا غلام اذهب إلى فلان فقل له اقطع لسانها. فذهب بها. فقال له: يقول لك الأمير اقطع لسانها. قال: فأمر بإحضار الحجّام. فالتفتت إليه فقالت: ثَكلتْكَ أُمك، أما سمعتَ ما قال؟ إنما أمرك أن تقطع لساني بالصّلة. فبعث إليه يستثبته فاستشَاط الحجّاج غَضباً. وهمَّ بقطع لسانه، وقال: اردُدها، فلما دخلت عليه قالت: كاد «وأمانة الله» يقطع مقولي. ثم أنشأت تقول:

[البسيط]

حجّاج أنت الذي ما فوقه أحدٌ ... إلا الخليفةُ والمستغفرُ الصّمدُ
حجاج أنتَ شهابُ الحربِ إن لَقَحتْ ... وأنتَ للناس نُورٌ في الدُّجى يقدُ

ثُم أقبل الحجاج على جلسائه فقال: أتدرون من هذه؟ قالوا: لا والله أيها الأمير، إنّا لم نرَ قط أفصحَ لساناً ولا أحسن مُحاورة ولا أملح وجهاً ولا أرصن شعراً منها. فقال: هذه لَيلى الأخيليَّة التي مات توبة الخفَاجي من حبها. ثم التفت إليها فقال: أنشدينا يا ليلى بعض ما قال فيك توبة. قالت: نعم أيها الأمير، هو الذي يقول:

[الطويل]

وهل تَبْكِينْ ليلي إذا متّ قبلها ... وقام على قَبري النّساء النّوائحُ
كما لو أصاب الموتُ ليلى بَكيتُها ... وجاد لها دمعٌ من العين سافِحُ
وأُغْبَطُ من ليلى . بما لا أناله ... بَلَى كلّ ما قرّت به العين طائحُ
ولو أن ليلى الأخيليَّة سلّمت ... عليَّ ودونيَ جَنْدَل وصفائحُ
لسلّمت تَسليمَ البشَاشة أو زقا ... إليها صدّى مِن جانب القبر صائحُ

ثم قال لها: سَلي يا ليلى تعطي. قالت: أعطِ فمثلُكَ أعطَى فأحسنَ. قال: لكِ عشرون. قالت: زد فمثلك زاد فأجمل. قال: لك أربعون. قالت: زِد فمثلك زاد فأكمل. قال: لك ثمانون. قالت: زد فمثلك زاد فتمّم. قال: لكِ مائة واعلمي أنها غنَم. قالت: معاذ الله أيها الأمير، أنت أجْودُ جُوداً وأمجد مجداً وأورى زنداً من أن تجعلها غنماً. قال: فما هي، ويحك، يا ليلى؟ قال: مائةٌ من الإبل برُعاتها. فأمرَ لها بها. ثم قال: ألك حاجة بعدها؟ قالت: يدفع إليّ النّابغة الجعدي. قال:

قد فعلت. وقد كانت تهجوه ويهجوها. فبلغ النّابغة ذلك فخرج هارباً عائذاً بعبد الملك، فاتبعته إلى الشام فهرب إلى قتيبة بن مُسلم بخُراسَان، فاتبعته على البريد بكتاب الحجاج إلى قُتيبة بِقومَس ويقال بحُلوان.

بنات الشاعر المقتُول

كان لشاعر عدوٌّ. فبينما هو سائر ذاتَ يوم في بعض الطُّرق إذا هو يَعدوه، فعلم الشاعر أن عدوّه قاتلهُ لا محَالة فقال له: يا هذا، أنا أعلم أن المنيّة قد حضرت، ولكن سألتك الله إذا أنتَ قتلتني أن امْضِ إلى داري وِقفْ بالباب وقل: «ألا أيها البِنتانِ إن أباكما». فقال: سمعاً وطاعة، ثم إنَّهُ قتله. فلما فرغَ من قتله أَتى إلى داره ووقف بالباب وقال: «ألا أيها البنتان إن أباكما». وكان للشاعر ابنتان فلما سمعتا قول الرجل « ألا أيها البنتان إن أباكما» أجابتاه بفمٍ واحد: «قتيلٌ خُذَا بالثّأر ممن أتاكما». ثم تعلَّقتا بالرجل ورفعتاه إلى الحاكم، فاستقررهُ فأقر بقتله، فقتلَه.

المرأة المتكلمة بالقرآن الكريم

قال عبد الله بن المُبارك: خرجتُ حاجّاً إلى بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيّه عليه الصلاة والسلام. فبينما أنا في بعض الطّريق إذ أنا بسوادٍ فتميّزت ذاك فإذا هي عجوزٌ عليها دِرْعٌ من صوف وخِمار من صُوف. فقلت: السَّلام عليك ورحمة الله وبركاته. فقالت: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾[1].

قال: قلت لها: يرحمُك الله، ما تَصنعين في هذا المكان؟ قالت: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾[2] فعلمت أنّها ضالّة عن الطّريق. فقلت لها: أين تُريدينَ؟ قالت: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾[3] فعلمت أنها قد قَضت حَجّها وهي تُريد بيتَ المقدس. فقلت لها: أنت مُنذُ كم في هذا الموضع؟ قالت: ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾[4] فقلت: ما أرى معك طعاماً تأكلين. قالت: ﴿هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾[5] فقلت: فبأي شيءٍ تتوضّئين. قالت: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً

(١) يس: ٥٨. (٢) الأعراف: ١٨٦. (٣) الإسراء: ١.
(٤) مريم: ١٠. (٥) الشعراء: ٧٩.

فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾[١] فقلت لها: إن معي طعاماً فهل لك في الأكل؟ قالت: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾[٢]. فقلت: ليس هذا شهر رمضان قالت: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾[٣]. فقلت: قد أُبيحَ لنا الإفطار في السَّفر. قالت: ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٤]. فقلت: لِم لا تُكلّميني مثل ما أُكلّمك؟ قالت: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾[٥] فقلت: فمن أيّ الناس أنت؟ قالت: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾﴾[٦] فقلت: قد أخطأت فاجعليني في حِلّ. قالت: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾[٧] فقلت: فهل لك أن أحملك على ناقتي هذه فتدركي القافلة؟ قالت: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾[٨] قال: فأنختُ ناقتي. قالت: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾[٩] فغضضت بصري عنها وقلت لها: اركبي.

فلمّا أرادت أن تركب نفرت النّاقة فَمزّقت ثيابها فقالت: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[١٠] فقلت لها: اصبري حتى أعقلها، قالت: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾[١١] فعقلت النّاقة وقلتُ لها: اركبي. فلما ركبت قالت: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾[١٢].

قال: فأخذتُ بزمام النّاقة وجعلت أسرعُ وأصيحُ، فقالت: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾[١٣] فجعلت أمشي رويداً رويداً وأترنم بالشعر فقالت: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾[١٤] فقلت لها: لقد أوتيت خيراً كثيراً. قالت: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[١٥].

فلمّا مشيتُ بها قليلاً قلت: ألكِ زوجٌ؟ قالت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾[١٦] فسكتُّ ولم أُكلّمها حتى أدركت بها القافلة، فقلت

(١) النساء: ٤٣. (٢) البقرة: ١٨٧. (٣) البقرة: ١٥٨.
(٤) البقرة: ١٨٤. (٥) ق: ١٨. (٦) الإسراء: ٣٦.
(٧) يوسف: ٩٢. (٨) البقرة: ١٩٧. (٩) النور: ٣٠.
(١٠) الشورى: ٣٠. (١١) الأنبياء: ٧٩. (١٢) الزخرف: ١٣، ١٤.
(١٣) لقمان: ١٩. (١٤) المزمل: ٢٠. (١٥) البقرة: ٢٦٩.
(١٦) المائدة: ١٠١.

openkanar.com

لها: هذه القافلة فمن لك فيها؟ فقالت: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[١] فعلمت أن لها أولاداً فقلت: وما شأنهم في الحجّ؟ قالت: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾[٢] فعلمت أنهم أدلاءُ الركب.

فقصدت بها القباب والعمارات فقلت: هذه القِباب فمن لك فيها؟ فقالت: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾[٣] ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾[٤] ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾[٥] فناديت: يَا إبراهيم، يا موسى، يا يحيى. فإذا بشبان كأنهم الأقمار قد أقبلوا.

فلما استقرّ بهم الجلوس قالت: ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَىٰ ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾[٦]. فمضى أحدهم فاشترى طعاماً فقدّموه بين يديّ وقالت: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾[٧] فقلت الآن طعامكم عليّ حرام حتى تخبروني بأمرها. فقالوا: هذه أُمُّنا منذ أربعين سنة لم تتكلّم إلا بالقرآن مخافة أن تَزِلّ فيسخطَ عليها الرّحمن، فسُبحان القادر على ما يشاء. فقلت: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[٨].

مروان بن الحكم وعبد الله بن الزّبير:

روى عُقيل بن خالد عن ابن شهاب أنّ مروان بن الحكَم وعبد الله بن الزُّبير اجتمعا ذات يوم في حُجرة عائشة (والحجاب بينهما وبينها) يُحدّثانِها ويسألانِها، فجرى الحديث بين مرْوان وابن الزبير ساعة؛ وعائشة تسمعُ:

فقال مروان:

[الطويل]

فمن يشأِ الرحمن يَخفِضْ بقدرِه ... وليس لِمن لم يرفع الله رافعُ

فقال ابن الزبير:

[الطويل]

ففوّض إلى الله الأمورَ إذا اعْترت ... وبالله، لا بالأقربين، أُدافعُ

---

(١) الكهف: ٤٦. (٢) النحل: ١٦. (٣) النساء: ١٢٥.
(٤) النساء: ١٦٤. (٥) مريم: ١٢. (٦) الكهف: ١٩.
(٧) الحاقة: ٢٤. (٨) الحديد: ٢١.

فقال مروان:

ودَاوِ ضمير القلب بالبرِّ والتّقى فلا يستوي قلبان قاسٍ وخاشعُ

فقال ابن الزبير:

ولا يستَوي عبدان هذا مُكذّب عُتلٌّ لأرحام العشيرة قاطعُ

فقال مرْوان:

وعبدٌ يِجافي جَنبهُ عن فِراشه يَبيتُ يناجي ربه وهو راكعُ

فقال ابن الزّبير:

وللِخير أهلٌ يُعرفون بهَدْيهم إذا اجتَمعَتْ عند الخُطوب المجامعُ

فقال مروان:

وللشَّرِّ أهلٌ يُعرفون بشكلهم تُشيرُ إليهم بالفجور الأصابعُ

فسكت ابن الزُّبير ولم يُجب، فقالت عائشة: يا عبد الله ما لك لم تُجبْ صاحبك؟ فوالله ما سمعتُ تجاولاً في نحو ما تجاوَلتُما فيه أعجب إليّ من تجاولكما، فقال ابن الزّبير: إني خِفتُ عَوار القول فكففتُ.

عبيد بن الأبرص وامرؤ القيس:

قيل: إن عبيدَ بن الأبرص لقي امرأ القيس يوماً فقال له: كيف معرفتك بالأوابد؟ قال: ما أحبت. فقال:

[البسيط]

ما حبّة ميْتَةٌ قامتْ بميتتها دَرداء ما أنبَتت ناباً وأضراساً

فقال امرؤُ القيس:

[البسيط]

تلك الشعيرة تُسقى في سنابلها قد أخرجت بعد طول المكث أكداساً

فقال عبيد:

ما السُّودُ والبيضُ والأسماءُ واحدةٌ لا تستطيعُ لهنَّ الناسُ تمساسا

فقال امرؤ القيس:

تِلك السّحاب إذا الرَّحمنُ أنشاها رَوَّى بهنَّ مُحول الأرض أيباسا

فقال عبيد:

ما مرتجاتٌ على هَولٍ مَراكبُها يقْطنّ بعد المدى سيراً وأمراسا

فقال امرؤ القيس:

تلك النُّجومُ إذا حانت مطالعها شبّهتها في سواد الليل أقباسا

فقال عبيد:

ما القاطعاتُ لأرضٍ لا أنيسَ بها تأتي سِراعاً وما يرجِعن أنْكاسا

فقال امرؤ القيس:

تلك الرِّياحُ إذا هبّت عواصِفُها كفى بأذيالها لِلتُّرب كُناسا

فقال عبيد:

ما الفاجعات جهاراً في علانيةٍ أشدَّ من فيلق ملحومة باسا

فقال امرؤ القيس:

تلك المنايا فما يبقينَ من أحدٍ يأخذن حَمْقى وما يبقين أكياسا

فقال عبيد:

ما السّابقاتُ سِراعَ الطّير في مهل لا يشتكين ولو طال المدى بَاسا

فقال امرؤ القيس:

تلك الجياد عليها القوم مُذ نتَجتْ كانوا لهنّ غداة الرّوع أحلاسا

فقال عبيد:

ما القاطعات لأرض الجوّ في طَلق قبل الصباح وما يسوين قرطاسا

فقال امرؤ القيس:

تلك الأمانيُّ يتركن الفتى ملكاً دون السماء ولم تَرْفع له راسا

فقال عبيد:

ما الحاكمون بلا سمعٍ ولا بصرٍ ولا لسانٍ فصيحٍ يُعجبُ النّاسا

فقال امرؤ القيس:

تلك الموازين والرحمن أرسلها رب البرية بين الناس مِقياسا

أبو تراب والشريف العباسي:

اجتمعَ يوماً أبو تراب هبةُ الله بن السريجي، والشريف العباسي، وكانا شاعرين، فقال أبو تراب:

[الكامل]

أسلوت حبّ بدور أم تتجلَّدُ وسهرت ليلك أم جُفونكَ تَرقدُ

فأجاب العباسي بديهاً:

[الكامل]

لا بلْ هُمُ ألِفوا القطيعةِ مثلَ ما ألِفوا نزولهم بها فتَبعّدوا

فقال أبو تراب:

فإلامَ تصبرُ والفؤاد متَيّمٌ ولظى اشتياقِكَ في الحَشى يتوقّد

فأجاب الشريف:

ما دامَ لي جلد فلستُ بجازعٍ إذْ كان صَبري في العواقب يُحمدُ

فقال أبو تراب:

أحَنتَ كِتمان الهوى مُتحنّ لو كان ماء العين مما يجمدُ

فأجاب الشريف:

إنْ كان جَفني فاضِحي بدُموعه أظهرت للجُلساء أني أرمَدُ

فقال أبو تراب:

فهبِ الدموعَ إذا جرت موّهتها فيقال لِمْ أنفاسُه تتصعَّدُ

فأجاب الشريف:

أمشي وأُسرعُ كي يظنوا أنها من ذلك المشي السّريع تَوَلَّدُ

فقال أبو تراب:

هذا يجوز ومثله مستعملٌ لكنّ وجهك بالمحبة يَشهدُ

فأجاب الشريف:

إن كان وجهي شاهداً بهوى فما يُدرى إلى مَن بالمحبّةِ أقصِدُ

فقال أبو تراب:

إخضعْ وذلّ لمن تحبّ فليسَ في حُكمِ الهوى أنفٌ يشالُ ويعقدُ

فأجاب الشريف:

ذا لا يكونُ مع الحبيب وإنما مع ساقط متحيّل يتعمّدُ

المأمونُ والمرأة المتظلِّمة:

جلس المأمون يوماً للمظالم فكان آخر من تقدّم إليه، وقد همّ بالقيام امرأة عليها هيئة السفر، وعليها ثيابٌ رثَّةٌ فوقفتْ بين يديه فقالت: السّلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. فنظر المأمون إلى يحيى بن أكثم[1]، فقال لها يحيى: وعليك السلام يا أمة الله، تكلمي في حاجتك، فقالت:

[البسيط]

يا خيرَ مُنتَصفٍ يُهْدَى له الرّشدُ ويا إماماً به قد أشْرقَ البلدُ
تشكو إليك عَميدَ القوم أرملةٌ عدا عليها فلم يترك لها سَبَدُ[2]
وابْتزّ مِني ضياعي مَنْعَتِها ظُلماً وفرَّق مني الأهل والولدُ

فأطرق المأمون حيناً ثم رفع رأسهُ إليها وهو يقول:

[البسيط]

في دونِ ما قلتِ زال الصّبر والجَلَدُ عنّي وأقرح مني القلب والكبدُ
هذا أوان صلاةِ العصرِ فانصرفي واحْضِري الخَصْم في اليوم الذي أعِدُ
والمجلس البت إن يُقضَ الجلوس لنا نُنْصِفكِ منه وإلا المجلس الأحدُ[3]

فلما كان يوم الأحد جلسَ فكان أول من تقدم إليه تلك المرأة فقالت:

السّلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. فقال: وعليك السلام. أين الخصم؟ فقالت: الواقفُ على رأسك يا أمير المؤمنين، وأومأتْ إلى العباس ابنه

(١) يحيى بن أكثم قاضي قضاة الدولة العباسية لعهد المأمون ومن سلالة أكثم بن صيفي توفي سنة ٢٤٢.
(٢) أصل السبد: القليل من الشعر. ويقال ما له سبد ولا لبد أي لا قليل له ولا كثير.
(٣) قوله: وإلا المجلس. أسقط منه فاء الجواب للضرورة.

فقال: يا أحمد بن أبي خالد، خُذ بيده فأجلسه معها مجلس الخصوم، فجعل كلامُها يعلو كلام العبّاس. فقال لها أحمد بن أبي خالد: يا أمة الله إنّكِ بين يَدي أمير المؤمنين وإنك تُكلّمينَ الأمير فاخفضي من صوتك. فقال المأمون: دعْها يا أحمدُ، فإنّ الحقّ أنطقَها وأخرسهُ. ثم قضى لها بردّ ضيعتها إليها، وأمرَ بالكِتاب لها إلى العامل ببلدها أن يوفِّر لها ضَيعتها، ويُحسن معونتها وأمر لها بنفقةٍ.

عمر بن الخطاب والهُرمُزان:

لما أتي بالهُرمُزان أسيراً إلى عمر بن الخطاب قيل له: يا أمير المؤمنين هذا زعيم العجم وصاحبُ رئيسهم. فقال له عمر: أعْرضُ عليك الإسلام نصحاً لك في عاجِلك وآجلك. قال: يا أمير المؤمنين، إنما أعتقِدُ ما أنا عليه، ولا أرغَب في الإسلام. فدعا له عمر بالسّيف، فلما همّ بقتله، قال: يا أمير المؤمنين شَرْبةٌ من ماء أفضل من قتلي على ظمأ. فأمر له بِشَرْبَة من ماء. فلما أخذها قال: أأنا آمِنٌ حتى أشربها؟ قال: نعم. فرمى بها وقال: الوفاءُ يا أمير المؤمنين نور أبلج. قال: صَدَقتَ لك التّوقف عنْك والنظر في أمرك. ارفْعوا عنه السّيف. فلما رُفع عنه قال: الآن يا أمير المؤمنين أشهد أنّ لا إله إلا الله وأنّ محمداً عبده ورسوله وما جاء به حقٌّ من عنده. فقال عمر: أسلمتَ خير إسلام فما أخَّرك؟ قال: كرِهْت أن تظُن أني أسلمت جزعاً من السَّيف. فقال عمر: إن لأهل فارسَ عقولاً بها استحقوا ما كانوا فيه من الملك. ثم أمر به أن يُبرّ ويُكرَم. وكان بعدُ يشاورُه في توجيه الجيوش لأهل فارس.

إبراهيم بن المهدي وابن بختيشوع:

قال العُتْبي: تنازع إبراهيمُ بن المهدي وابنُ بَختيشوع الطبيب بين يدي أحمد بن أبي دُؤاد في مجلس الحُكم في عقار بناحية السواد، فأرْبى[1] عليه إبراهيم وأغْلظ له فأغضب ذلك ابنَ أبي دُؤاد فقال:

يا إبراهيم إذا نازَعْت في مجلس الحُكم امرأً فلا أعْلمن أنك رفعت عليه صوتاً ولا أشرت بيد، وليكن قصدُك أمَماً[2] وريحك ساكنة، وكلامك معتدلاً، وَوَقّ

(١) أربى عليه: زاد.
(٢) الأمم: البين من الأمر والوسط.

مجالس الخليفة حُقوقها من التعظيم والتوقير والاستِكانة والتوجُّهِ إلى الواجب، فإن ذلك أشبه بك، وأشكل بمذهبك في مَحتدِك[١]، وعظيم خَطرك. ولا تعجلنّ فرُبّ عجلة تهبُ رَيثاً[٢]، والله يَعصِمُك من خطل القول والعمل، ويُتمّ نعمته عليك كما أتمها على أبويك من قبل إن ربك حكيمٌ عليم.

فقال إبراهيم: أصْلحَكَ الله، أمرت بسداد، وحَضَضت على رشاد، ولستُ عائداً لما يَثلم[٣] مُروءتي عندك، ويُسقِطُني من عينك، ويُخْرجني من مقدار الواجب إلى الاعتذار، فهأنذا معتذرٌ من هذه البادرةِ اعتذار مُقِرّ بذنبه مُعترف بجُرْمه، ولا يزال الغضبُ يَستفِزُّني[٤] ببوادره، فيرُدُّني مثلك بحلمه، وتلك عادة الله عندك وعندنا منك، وقد جعلتُ حقي في هذا العقار لابن بَخْتَيْشوع فليت ذلك يكون وافياً بأرْش[٥] الجناية عليه «ولم يَتلف مالٌ أفاد مَوْعظة» وحَسْبُنا الله ونِعم الوكيل.

الأحنف بن قيس وقيس بن عاصم :

قيل لِلأحنَف بن قيس: ممن تعلّمت الحِلم؟ قال: من قيس بن عاصم المِنقَري، رَأيتُه قاعداً بفِناء داره مُحْتَبياً[٦] بحمائل سَيفه يُحَدِّث قومه حتى أتيَ برجل مَكتوف، ورجل مقتول: فقيل له: هذا ابنُ أخيك قتَلَ ابنك، فوالله ما حَلّ حُبوته ولا قطع كلامه، ثم التفت إلى ابن أخيه وقال له: يا ابن أخي أسأت إلى رَحِمك، ورميت بنفسكَ بهمِك، وقتلتَ ابن عمّك، ثم قال لابن له آخر: قُمْ يا بُنيّ فحُلّ كِتاف ابن عمك ووَارِ أخاك، وسُقْ إلى أُمِّهِ مائة ناقة دِيَة ابنها، فإنها غريبة، ثم أنشأ يقول:

[السريع]

إني امْرُؤٌ لا يَطبي حَسبي ... دَنَسٌ يهَجِّنُه ولا أفَنُ[٧]

من مِنْفَرٍ في بيت مَكْرُمة ... والغُصْن يَنبُت حوله الغُصنُ

(١) المحتد: الأصل.
(٢) الريث: الإبطاء والمقدار.
(٣) ثلم الإناء: كسره من حرفه.
(٤) استخفه وأزعجه.
(٥) الأرش: الدية وما يعطى تعويضاً.
(٦) احتبى: جمع بين ظهره وساقيه بعمامة أو نحوها، والاسم من ذلك الحبوة.
(٧) طباه: دعاه واستهواه. والأفن: ضعف الرأي وفعله كفرح.

خطباءُ حين يقول قائلهُم بيضُ الوجوه مصاقعٌ لُسنُ[١]
لا يَفْطِنون لعيب جارهم وُهم لحِفظ جِواره فطنُ[٢]

معن بن زائدة وجاره بين يدي المهدي :

قال سعيد بن مسلم: نَذَر المهدي دم رجل من أهل الكوفة، كان يَسعى في فساد سُلطانه، وجعل لمن دلّ عليه أو جاء به مائة ألف درهم. فأقام الرجل حيناً مُتوارياً ثم إنه ظهر بمدينة السّلام[٣]، فكان ظاهراً كغائب خائفاً مترقباً. فبينما هو يمشي في بعض نواحيها إذ بصُرَ به رجل من أهل الكوفة فعرفه فأهوى إلى مجامع[٤] ثوبه، وقال: هذا بُغية أمير المؤمنين فأمكن الرجلُ من قِياده، ونظر إلى الموت أمامه.

فبينما هو على تلك الحال، إذْ سَمِع وَقْع حوافر الخَيل من وراء ظهره فالتفت فإذا معن بن زائدة فقال: يا أبا الوليد أجِرْني أجارك الله. فوقف وقال للرجل الذي تعلّق به: وما شأنك؟ قال: بغية أمير المؤمنين الذي نذر دمَه، وأعطى لمن دلّ عليه مائة ألف درهم.

فقال: يا غلام انزل عن دابتِك واحمِل أخانا، فصاح الرجلُ: يا معشرَ الناس يحالُ بيني وبين من طلبهُ أمير المؤمنين! قال معن: اذْهب فأخبرهُ أنه عندي. فانطلق إلى باب أمير المؤمنين فاخبرَ الحاجب فدخل إلى المهدي فأخبرَه فأمر بحبس الرجل، ووجّه إلى معنَ مَنْ يحضُر به، فأتته رُسل أمير المؤمنين وقد لبس ثيابهُ وقُرِّبت إليه دابته، فدعا أهل بيته ومواليه وقال: لا يُخْلصُنّ إلى هذا الرجل وفيكم عين تطرف[٥]. ثم ركِب ودَخل حتى سلّم على المهدي، فلم يَرُد عليه وقال: يا معنَ أتجيرُ علي؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. قال: ونَعَمْ أيضاً؟ واشتدّ غضبهُ، فقال مَعَن: يا أمير المؤمنين قتلتُ في طاعَتِكم باليَمَنِ في يوم واحد خَمسةَ عشر ألفاً، ولي أيام كثيرة قد تقدّم فيها بَلائي وحسن غنَائي، فما رأيتموني أهلاً أن تَهبوا لي رجلاً واحداً استجارَ بي؟

---

(١) رجل لسن وألسن: فصيح، ويجمع ألسن على لسن كأحمر وحمر.
(٢) فطن: جمع فطن. كجون: جمع جون، وهذا جمع نادر.
(٣) مدينة السلام: هي بغداد، أو قسم منها.
(٤) مجامع الثوب: ما أحاط بالجيب ويقال لها تلابيب.
(٥) طرفت العين: تحركت.

فأطرق المهديّ طويلاً ثم رفع رأسَه وقد سُرِّيَ[١] عنه فقال: قد أجَرْنا من أجَرْتَ، قال معن: فإن رأى أمير المؤمنين أن يَصِله فيكون قد أَحياه وأغناه، فعَلَ، قال: قد أمرنا له بخمسة آلاف، قال: يا أمير المؤمنين إنّ صِلات الخلفاء على قدر جِنايات الرعيّة، وإنّ ذنبَ الرجل عظيم، فأجْزِل الصِّلة، قال: قد أمرنا له بمائة ألف، قال: فتَعَجَّلها يا أمير المؤمنين بأفضل الدُّعاء، ثم انصَرَف ولحقَهُ المال، فدعا الرجلَ وقال له: خُذْ صلتك والحق بأهلِك وإيّاك ومُخالفة خلفاء الله تعالى.

معن بن زائدة والأسود :

رَوى مَروان بن أبي حَفصة عن مَعنِ بن زائدة أنه قال: لما جَدّ المنْصور في طلبي، وجعل لمن يحملني إليه مالاً، اضطُرِرْتُ لِشِدة الطَّلب أن تعرّضت للشَّمس حتى لوّحَتْ[٢] وجهي، وخَفّفتُ عارِضَيْ[٣]، ولبِستُ جُبّة صوف، وركِبت جَملاً وخرجت مُتوجهاً إلى البادية لأقيم بها. فلمّا خرجت من باب حَرْب، وهو أحد أبواب بغداد، تبِعني أسود متقلداً سيفاً، حتى إذا غِبت عن الحرس قبض على خِطام الجمل فأناخه وقبض على يدي، فقلت له: ما بك؟ فقال: أنت[٤] طِلبة أمير المؤمنين، فقلت: ومن أنا حتى أُطلب؟ فقال: أنت مَعْن بن زائدة، فقلت له: يا هذا، اتّق الله عزّ وجل، وأين أنا من معن؟ فقال: دع هذا، فإني والله لأعرَف بك منك.

فلما رأيت منه الجدَّ قلت له: هذا عِقد جوهر، قد حَمَلته معي بأضعاف ما جعله المنصور لمن يجيئه بي فخُذْهن ولا تكن سبباً لِسفك دمي، قال: هاته فأخرجتُه إليه، فنظر إليه ساعة وقال: صَدَقت في قيمته، ولست قابِله منك حتى أسألكَ عن شيء فإن صدقتني أطلقتك، فقلت: قل، قال: إن الناسَ قد وصفوك بالجود، فأخبرني هل وهبت مالك كله قطُّ؟ قلت: لا، قال: فنصفَه؟ فقلت: لا، فقال: فثُلثَه؟ قلت: لا، حتى بلغ العشْر، فاستَحْيَيت وقلت: أظن أني فعلت هذا، قال: ما ذاك بعظيم؛ أنا والله راجل[٥] ورزقي من أبي جعفر المنصور كل شهر

---

(١) سرى عنه الهم: انكشف، وقد يحذف المرفوع اكتفاء بالجار والمجرور.
(٢) لوحه العطش والسفر: غيره ولوحت وجهه الشمس: غيرت لونه.
(٣) العارضان: جانبا الوجه، وما يكون عليهما من اللحية.
(٤) الطلبة: الحاجة وما يطلب.
(٥) الراجل: غير الراكب.

عشرون درهماً، وهذا الجوهر قيمته ألوفُ دنانيرَ، وقد وهَبتهُ لك ووهبتُكَ لنفسِك ولجودِك المأثور بين الناس. ولتَعلم أنّ في هذه الدنيا من هو أجَودُ منك فلا تعْجِبك نَفْسُكَ، ولتَحقر بعد هذا كل جودٍ فعلتَهُ ولا تَتَوقف عن مَكرمة، فقلت: يا هذا قد، والله، فضَحتَني ولسَفكُ دمي عَليّ أهْوَن مما فعلتَ، فخُذ ما دفعتُه لك فإني غنيٌّ عنه. فضحك وقال: أردْت أن تكذِّبني في مقالي هذا، والله لا أخذْتهُ ولا آخُذُ لمعروفٍ ثمناً أبداً، ومضى لسبيله. فوالله لقد طلبته بعد أن أمِنتُ، وبذلتُ لمن يجيء به ما يشاء، فما عرفت له خبراً، وكأنّ الأرض ابتلعته.

معاوية والأعرابية:

خرج معاوية مُتَنزِّهاً، فمرّ بحِواءٍ[١] ضَخْم، فقصد قصْد بيت منه، فإذا بفِنائه امرأة بَرْزة[٢]، فقال لها: هل من غَداء؟ قالت: نَعَمْ حاضر، قال: وما غَداؤك؟ قالت خُبْزٌ خمير، وماء نَمير، وحَيْسٌ[٣] فطير، ولبن هَجير[٤]، فثَنى وَرِكه ونزَلَ. فلمّا تَغَدّى قال: هل لك من حاجة؟ فذكرت حاجة أهل الحواء، قال: هات حاجَتك في خاصّة نفسك، قالت: يا أمير المؤمنين إني أكره أن تنزلَ وادياً[٥] فيرِفَّ أوّلهُ ويَقف آخرهُ[٦].

الأحنف بين يدي معاوية:

وَفدَ الأحنفُ بن قَيس على مُعاوية مع أهل العِراق، فخرج الآذِنُ فقال: إن أمير المؤمنين يَعزِم عليكم أن لا يتكلم أحدٌ إلا لنفسه، فلما وصلوا إليه قال الأحنف: لولا عَزْمة أمير المؤمنين لأخْبرْته أن دافّة دفّت[٧]، ونازلة نزلت، ونابتة نبتت، كلُّهم بهم حاجَة إلى معروف أمير المؤمنين وبرِّه. فقال معاوية: حَسْبُك يا أبا بَحْر فقد كفَيْت الشاهد والغائب.

---

(١) الحواء ككتاب: جماعة البيوت المتدانية.
(٢) البرزة من النساء: الكهلة الجليلة تبرز للقوم وتحدثهم مع العفة.
(٣) الحيس: تمر يخلط بسمن ولبن ممخوض.
(٤) الهجير: الخاثر من اللبن.
(٥) رف النبات: اهتز.
(٦) قف النبات: يبس.
(٧) يقال: دفت دافة أي: أتت فئة مهاجرة.

الأحنف بين يدي عمر بن الخطاب:

قدم الأحنف بن قَيس التّميمي على عمر بن الخطاب في أهل البصرة، وأهل الكوفة، فتكلّموا عنده في أنفسهم وما يَنوب كلّ واحدٍ منهم، وتكلم الأحنف فقال: يا أمير المؤمنين، إن مفاتيحَ الخيرِ بيد الله، وقد أتتك وفودُ أهل العراق، وإن إخوانَنا من أهل الكوفة والشام ومصر نزلوا منازلَ الأمم الخالية، والملوك الجبابرة، ومنازلَ كسرى وقيصر وبَني الأصفر[١]، فهم من المياه العذبةِ والجنان المختلفة في مثل حُوَلاء الحَلى[٢] وَحَدقة[٣] البعير تأتيهم ثمارُهم غضّة[٤] لَمَ تخصُر. وإنا أنزلنا أرضاً طَرَفٌ في فَلاة، وطَرَفٌ في مِلح أُجاج جانب منها مَنابت القصب وجانبٌ سَبْخة نَشّاشة[٥] لا يجِفُّ ثراها ولا يَنبُت مرعاها، يخرج الرجل الضعيف منا يستَعذبُ الماء من فَرْسخَينِ، وتخرج المرأة بمثل ذلك تَرنّق[٦] لولدها تَرْنيق العَنز، تَخافُ عليه العدوّ والسّبُع. فإلا تَرْفع خَسيستنا، وتنْعَش[٧] رَكيكَتنا وَتجْبرُ فاقتنا، وتزِدْ في عيالنا عيالاً، وفي رجالنا رجالاً، وتُصغِّر درهمنا، وتكّبر قفيزَنا[٨]، وتأمر لنا بحفر نهر نستعذب به الماء، وإلا هلكنا، فقال عمر: هذا والله السيد! هذا والله السيد! ثم كتب إلى أبي موسى الأشعريّ أن يحتفِر لهم نهراً.

أسيّد بن عنقاء وعميلة الفزاري:

كان أُسيد بن عنقاء الفزاري من أكبر أهل زمانه، وأشدّهم عارضة ولساناً، وطال عمره، ونكبَه دهره، واختلّت حاله. فخرج عَشية يَتبَقَّل[٩] لأهله، فمَرّ به عُميلة

---

(١) بنو الأصفر عند العرب: هم الروم.

(٢) الحلى: غلاف رقيق يكون فيه المولود، والحولاء: جلدة خضراء مملوءة ماء تخرج مع الولد وهذا يكنون به عن الخصب وكثرة الماء والخضرة.

(٣) قال في اللسان: وفي حديث الأحنف نزلوا في مثل البعير أي: نزلوا في خصب وشبه بحدقة البعير لأنها ريا من الماء.

(٤) غضة: طرية.

(٥) أرض سبخة: نشاشة لا يجف ثراها ولا ينبت مرعاها.

(٦) رنق الماء: صفا.

(٧) نعشه: رفعه كأنعشه، والركيسة: الضعيفة.

(٨) القفيز: مكيال.

(٩) تبقل: خرج يطلب البقل.

الفزاري، فسلّم عليه وقال: يا عمّ ما أصارك إلى ما أرى؟ قال: بُخْل مثلِك بماله، وصَوْن وجْهي عن أموال الناس، فقال: لئن بقيتُ إلى غَدٍ لأُغَيِّرَنْ ما أرى من حالك.

فرجع ابن عَنقاء إلى أهله، فأخبرَها بما قال له عُميلة، فقالت له: لقد غَرّك كَلام غُلام، جنح ظلام[١] فكأنما ألقمَتْ فاه حجراً، فبات مُتَململاً بين رجاء ويَأس، فلما كان السحر سمع رُغاءَ الإبل وثغاء الشاة وصَهيل الخيل ولجَبَ الأموال[٢]، فقال: ما هذا؟ فقالوا: هذا عُميلة، ساق إليك مالَهُ، فخرج ابن عَنقاء له فقَسَم عُميلةُ ماله شَطرين، وساهمه[٣] عليه، فأنشأ ابن عنقاء يقول:

[الطويل]

رآني على ما بي عُمَيلة فاشتكى ... إلى ماله حالي أسَرّ كما جَهرْ
دعاني فآساني ولو ضَن لم يُلَم ... على حين لا بدْوٌ يُرَجِّي ولا حَضَرْ
فقلتُ له خيراً وأثنَيْت فعَله ... وأوفاك ما أُبليت من ذمّ أو شَكرْ
ولمّا رأى المجدَ استُعيرَت ثيابه ... تَرَدى رِداءً سابغ الذيل واتزَرْ[٤]
غلام رَماه الله بالخير مُقبلا ... له سيمياءُ لا تَشُقُّ على البصرْ[٥]
إذا قيلت العَوْراء أغضى كأنه ... ذليلٌ بلا ذُل ولو شاءَ لانتصرْ[٦]

الفضل وجعفر ابنا يحيى البرمكي:

قال محمد بن عبد الرحمن الهاشمي[٧]: كانت أمُّ جعفر بن يحيى تزورُ أمي وكانت لبيبة من النساء، حازمةً فصيحةً بَرْزة، يعجبُني أنْ أجدَها عند أمي فأستكثرُ من حديثها، فقلت لها يوماً: يا أُم جعفر، إن بعض الناس يفضِّل جعفراً على الفضل، وبعضهم يفضل الفضل على جعفر، فأخبريني.

---

(١) جنح الليل أو الظلام: الطائفة منه.
(٢) اللجب: الجلبة والصياح واضطراب موج البحر.
(٣) ساهمه: قارعه أي: ضرب القرعة.
(٤) تزر: من الإزار ـ قلبت الهمزة تاء الافتعال ـ
(٥) السميا والسيماء، والسيميا والسيمياء: العلامة. يقول: يفرح به من يراه للطف محياه.
(٦) العوراء: الكلمة القبيحة، وقرب من هذا البيت قوله: [الطويل]
يصم عن الفحشاء حتى كأنه ... إذا ذكرت في مجلس القوم غائب
(٧) هو محمد بن غسان بن عبد الرحمن صاحب صلاة الكوفة.

فقالت: ما زلنا نعرف الفضل للفضل، فقلت: إن أكثر الناس على خلاف هذا، فقالت: ها أناذِه أحدثك واقضِ أنت. وذلك الذي أردت منها، فقالت:

كانا يوماً يلعبان في داري، فدخل أبوهما فدعا بالغداء وأحضرهما، فطِعما معه، ثم آنسهما بحديثه، ثم قال: أتلعبان بالشَطْرنج؟ فقال جعفر وكان أجرأهما: نعم! قال: فهل لَاعبتَ أخاك بها؟ قال جعفر: لا. قال: فالعبا بها بين يديّ لأرى لِمن الغَلب؟ فقال جعفر: نعم! وكان الفضل أبصر منه بها، فجيء بالشَّطرنج فصُفّت بينهما، وأقبلَ عليها جعفر، وأعرضَ عنها الفضل.

فقال له أبوه: ما لك لا تلاعبُ أخاك؟ فقال: لا أُحبُّ ذلك. فقال جعفر: إنه يرى أنه أعلمُ بها منّي، فيأنَف من ملاعبتي، وأنا ألاعبه مُخاطرة. فقال الفضل: لا أفعلُ. فقال أبوه: لاعبْهُ وأنا معَك. فقال جعفر: رَضيتُ، وأبى الفضلُ، واستعفى أباه، فأعفاه.

ثم قالت لي: قد حدثتك فاقض، فقلت: قد قضيتُ بالفضل للفضل على أخيه، فقالت: لو عَلمْتُ أنك لا تحْسنُ القضاء لَما حَكَّمْتك، أفلا ترى أن جعفراً قد سقَط أربع سقطات تنزَّه الفضلُ عنهنّ؟

فسقط حين اعترف على نفسه بأنه يلعب بالشطرنج، وكان أبوه صاحب جدّ.

وسقط في التزام مُلاعبة أخيه وإظهار الشهوةِ لغلَبه والتعرُّض لغَضَبه.

وسقط في طلب المقامرة وإظهار الحرْص على مال أخيه.

والرابعة ـ قاصمة الظهر ـ حين قال أبوه لأخيه: لاعبه وأنا معك، فقال أخوه: لا، وقال هو: نعم. فناصب صفّاً فيه أبوه وأخوه؟

فقلت: أحسنتِ، والله وإنكِ لأقضى من الشعْبي، ثم قلت لها: عزمت عليك أخبريني هل خَفي مِثلُ هذا على جعفر وقد فطِن له أخوه؟ فقالت: لولا العَزْمة لما أخبرتك أن أباهما لما خرج، قلت للفضل «خالية به»: ما منعك من إدخال السرور على أبيك بملاعبةِ أخيك؟ فقال: أمران، أحدهما: لو أني لاعبته فأخجلته، والثاني: قولُ أبي لاعِبْه وأنا معك؛ فما يسرُّني أن يكون أبي معي على أخي، ثم خلوت بجعفر، فقلت له: يسأل أبوك عن اللعب بالشطرَنج فيصمُت أخوك وتعرف،

وأبوك صاحب جدّ؟ فقال: إني سمعت أبي يقول: نِعْم لَهْوُ البال المكدود[١]، وقد علِم ما نلقاه من كدِّ التعلم والتأدب ولم آمَنْ أن يكون بلغه أنّا نلعبُ بها، ولا أن يُبادر فيُنكر، فبادرتُ بالإقرار إشفاقاً على نفسي وعليه، إن كان توبيخٌ فدَيته من المواجهة به.

فقلت له: يا بنيَّ، فلمَ تقول ألاعبهُ مخاطرة! كأنك تقامر أخاك وتستكثرُ ماله، فقال: كلا، ولكنه يستحسنُ الدواةَ التي وهبها لي أمير المؤمنين فعرَضْتها عليه فأبى قبولها، وطمعتُ أن يُلاعبني فأخاطرهُ عليها، وهو يغلبني فتطيب نفسه بأخذها.

فقلت لها: يا أماه ما كانت هذه الدواة؟ فقالت: إن جعفراً دخل على أمير المؤمنين، فرأى بين يديه دواةً من العقيق الأحمر، مُحلّاة بالياقوت الأزرق والأصفر، فرآه ينظر إليها فوهبها له. فقلت: إيه. فقالت: ثم قلت لجعفر: هبك اعتذرْتَ بما سمِعت. فما عذرُك من الرضا بمناصبة أبيك حين قال: لاعِبه وأنا معك! فقلت أنت: نعم، وقال هو: لا؟ فقال: عرفت أنه غالبي، ولو فتر لعبه لتغالبت له، مع ما له من الشرف والسرور بتحيُّز أبيه إليه.

قال محمد بن عبد الرحمن: فقلت: بَخٍ بَخٍ[٢] هذه والله السيادة! ثم قلت لها: يا أُماه، أكان منهما مَن بلغ الحُلم؟ فقالت: يا بني، أين يُذهَب بك! أُخبرك عن صبيين يلعبان، فتقول: «أكان منهما من بلغ الحُلم»؟! لقد كنا ننهى الصبيَّ إذا بلغ العشْر، وحضر من يُستَحى منه، أن يَبتسم.

براعة الرشيد في الأدب:

دخل سهل بن هارون على الرشيد وهو يُضاحك المأمون فقال: اللهم زدْهُ من الخيرات، وابسُط له من البركات، حتى يكونَ في كل يومٍ من أيامهِ مرْبِياً على أمسِه، مقصِّراً عن غده.

فقال له الرشيد: يا سهل، مِن روى من الشعر أحسنه وأرصنه، ومن الحديث أفصحه وأوضحَه، إذا رام أن يقول لم يعجزه القول.

---

(١) كده: أجهده وأتعبه.

(٢) يقال: يخ يخ ـ وبخ بخ: إعجاباً بالشيء وإظهاراً للسرور به.

فقال سهل: يا أمير المؤمنين ما ظننتُ أن أحداً تقدّمني إلى هذا المعنى. قال: بل أعشى هَمدان حيث يقول:

[الوافر]

رأيتُك أمسِ خير بني لُؤَيّ وأنت اليومَ خيرٌ منك أمسِ
وأنتَ غداً تزيد الخيرَ ضِعفاً كذاك تزيدُ سادةُ عبد شمسِ

الواثق وابن أبي دُؤاد:

قال أبو العيناء: دخل ابنُ أبي دُؤاد على الواثق فقال له: مازال اليوم قومٌ في ثلبك ونقصِك. فقال: يا أمير المؤمنين، لكل امرئٍ منهم ما اكتسب من الإثم، والذي تولى كِبره منهم له عذابٌ عظيم، والله وليُّ جزائه، وعقاب أمير المؤمنين من ورائه، وما ذَلَّ يا أمير المؤمنين مَن كنتَ ناصره، ولا ضاع من كنت حافظه، فماذا قلت لهم يا أمير المؤمنين؟ قال: قلت: يا أبا عبد الله:

[الكامل]

وسعى إليّ بعَيبِ «عزَّة» معشرٌ جعل الإلهُ خدُودهُن نِعالَها

المنصور والربيع بن يونس[1]:

قال سعيد بن مُسلم بن قتيْبة: دعا المنصور بالربيع فقال: سَلني ما تريد؟ فقد سكتَّ حتى نطقت[2] وخففْتَ حتى ثقلت، وأقللتَ حتى أكثرْتَ. فقال: والله يا أمير المؤمنين، ما أرْهَب بخلك، ولا أستقصِرُ عمرَك، ولا أستصغرُ فضلك، ولا أغتنمُ مالكَ، وإن يومي بفَضْلك عليّ أحسن من أمسي، وغدُك في تأميلي أحسن من يومي، ولو جاز أن يشكرك مثلي بغير الخدمة والمناصحة لما سَبقني في ذلك أحد.

قال: صدقت. عِلمي بهذا منك أحَلَّك هذا المحل، فسَلني ما شئت!

قال: أسألك أن تقرّب عبدَك «الفضل» وتُؤْثرَه وتحِبه.

قال: يا ربيع، إن الحبّ ليس بمالٍ يوهب، ولا رُتبة تبذل، وإنما تؤكده الأسباب.

---

(١) الربيع بن يونس هو صاحب المنصور، توفي سنة ١٧٠هـ.

(٢) يقول: إنك أطلت السكوت فنبهت بذلك على نفسك، فقام السكوت مقام الكلام، وعلى هذا القياس ما بعده.

قال: فاجعل لي طريقاً إليه بالتفضل عليه.

قال: صدقت، وقد وصلتُه بألف ألف درهم، ولما أصِلْ بهذا أحداً غيره، ومني لتعلْم ما له عندي، فيكون منه ما يستدعي به محبتي. وكيف سألت له المحبة يا ربيع؟

قال: لأنها مفتاح كل خير، ومغلاق كل شر، تستر بها عندك عُيوبه وتصير حسناتٍ ذنوبه، قال: صدقت، وأتيت بما أردت.

الأعرابي السائل:

وقفَ أعرابي يسألُ، فعبِثَ به فتى، وقال: مِمّنْ أنت؟

فقال الأعرابي: من بني عامر بن صعْصعة قال: من أيهم؟

قال: إن كنت أردتَ عاطفة القرابة فليكفك هذا المقدارُ من المعرفة فليس مقامي بمقام مجادلة ولا مُفاخرة وأنا أقول: فإن لم أكن من هاماتهم[١] فلست من أعجازِهم.

فقال الفتى: ما رويت عن فضيلتك إلا النقص في حَسَبك.

فامْتعض[٢] الأعرابي لذلك، فجعل الفتى يعتذرُ، ويخلِط الهزْلَ والدُّعابة[٣] باعتذاره، وأطال الكلام، فقال له الأعرابي: يا هذا! إنك منذ اليوم أدبتني بمزحك، وقطعتني عن مسألتي بكلامك واعتذارك، وإنك لتكشِف من جهلك بكلامك ما كان السكوت يستره من أمرك، ويحَكَ، إن الجاهل إن مزَح أسخط وإن اعتذر أفرط، وإن حدَّث أسقط[٤]، وإن قدَرَ تسخط، وإن عزمَ على أمر توَرّط[٥]، وإن جلس مجلس الوقار تبَّط[٦]، أعوذ منك ومن حالٍ اضطرّتني إلى احتمال مثلك.

---

(١) الهامات: الرؤوس.
(٢) امتعض: تألم.
(٣) الدعابة: اللعب والمزاح.
(٤) أسقط: أخطأ.
(٥) تورط في الأمر: وقع وارتبك.
(٦) تبسط: أكثر من القول وجانب الاحتشام.

معاوية والأحنف بن قيس:

لما عَزم معاوية على البيعة ليزيد، كتب إلى زياد أن يوجِّه إليه بوفد أهل العراق فبعث إليه بوفد البصرة والكوفة، فتكلَّمت الخطباء في يزيد والأحنفُ بن قيس ساكتٌ، فلما فرغوا؛ قال: قل يا أبا بحر، فإن العيون إليك أشرعُ[١] منها إلى غيرك، فقام الأحنف فحمِدَ الله وأثنى عليه، وصلى على نبيه ﷺ ثم قال:

يا أمير المؤمنين، إنك أعلَمُنا بيزيد في ليلهِ ونهاره، وإعلانه وإسراره، فإن كنتَ تعلمُه لله رضاً، فلا تُشاورْ فيه أحداً، ولا تُقِم له الخطباءَ والشعراء، وإن كنتَ تعلم بُعدَه من الله، فلا تُزَوِّدْه من الدنيا وترْحل أنت إلى الآخرة فإنك تصير إلى يوم يفرُّ المرء من أخيه، وأُمِّه وأبيه، وصاحِبَتِه وبنيه. فكأنه أفرغ على معاوية ذَنوب[٢] ماءٍ بارد.

فقال له: أقعد يا أبا بحر، فإنَّ خيرةَ الله تجري، وقضاءه يمضي، وأحكامه تَنفُذُ، ولا مُعقِّب لحُكمه، ولا رادّ لقضائه[٣]، وإن «يزيد» فتى بَلوْناه ولم نجدْ في قريش فتىً هو أجدر بأن يُجتمع عليه منه.

فقال: يا أمير المؤمنين. أنت تحْكي عن شاهد، ونحن نتكلم عن غائب وإذا أراد الله شيئاً كان.

الحجاج ورسول المهلَّب:

يُروى أن المهلب[٤] لما فرَغ من أمْرِ عبد ربّه الحرُوري[٥]، دعا بِشر[٦] بن مالك. فأنفذَه بالبشارة إلى الحجاج، فلما دخل على الحجاج قال: ما اسمُك؟ قال: بِشر بن مالك، فقال الحجاج: بشارةٌ ومُلك، كيف خَلّفتَ المُهلب؟ قال:

---

(١) أشرع: أرفع وأكثر نظراً.

(٢) الذَّنوب: الدلو الملأى، جمعه أذنبة وذنائب.

(٣) أي: لا راد لقضائه.

(٤) هو المهلب بن أبي صفرة الأزدي. كان شجاعاً مهيباً وقائداً من أكبر قواد الجيوش في الدولة الأموية، وهو الذي شتت الخوارج ومزقهم كل ممزق. ويقال للبصرة بصرة المهلب لأنه حماها من الخوارج توفي ٨٣هـ.

(٥) الحروري: نسبة إلى حروراء على غير القياس، وهي بلدة بقرب الكوفة، والحرورية: فرقة من الخوارج كالأزارقة.

(٦) كذا في زهر الآداب، وفي تاريخ ابن خلكان أن اسم الرسول مالك بن بشير.

خَلّفته وقد أمِنَ ما خاف، وأدْرك ما طلب، قال: كيف كانت حالكم مع عدوكم؟ قال: كانت البُداءَة لهم، والعاقبة لنا. قال الحجاج: العاقبة للمتقين، فما حال الجُند؟ قال: وسِعَهم الحق وأغناهم النفل[١]، وإنهم لمع رجل يسوسهم بسياسة الملوك ويقاتل بهم قتال الصُعلوك، فلهم منه برٌّ الوالد، وله منهم طاعة الولد، قال: فما حال ولد المهلب؟ قال: رُعاة البيات حتى يأمنوا، وحماة السرح[٢] حتى يردُّوه، قال: فأيهم أفضل؟ قال: ذلك إلى أبيهم، قال: وأنت أيضاً، فإني أرى لك لساناً وعبارة، قال: هم كالحلقةِ المفرغة[٣] لا يُدرى أين طرفاها، قال: ويحك!! أكُنتَ أعددتَ لهذا المقام هذا المقال؟ قال: لا يعلم الغيب إلا الله، فقال الحجاج لجلسائه: هذا ـ والله ـ الكلام المطبوع، لا الكلام المصنوع.

حديث معاوية ليلى[٤] الأخيلية:

قال بعضُ الرُّواة: بينا معاوية يسير إذ رأى راكباً فقال لبعض شُرَطه ائتني به وإياك أن تروعه. فأتاه فقال: أجب أمير المؤمنين، فقال: إياه أردتُ، فلما دنا الراكبُ -حذَرَ لِثامه، فإذا ليلى الأخيليّة. فأنشأت تقول:

[الوافر]

مُعاوِيَ لم أكد آتيك تهوِي ... برَحْلي نحو ساحتِك الرِّكابُ
تجوبُ الأرض نحوَك ما تأنى ... إذا ما الأكْم قنّعها السَّراب[٥]
وكنت المرتجى وبك استعاذت ... لِتنعشها إذا بَخِلَ السَّحابُ

فقال: ما حاجتُكِ؟ قالت: ليس مِثلي يطلبُ إلى مثلك حاجة، فتخير أنت أعلى عَيْباً، فأعطاها خمسين من الإبل، ثم قال: أخبريني عن مضر، قالت: فاخِرْ بمضر، وحارِبْ بقيس، وكاثِر بتميم، وناظرْ بأسد[٦].

---

(١) النفل: الغنيمة وجمعه أنفال.
(٢) السرح: الماشية في المرعى.
(٣) الحلقة المفرغة: المصبوبة قطعة واحدة؛ وهذه الجملة مثل: لا امرأة عربية.
(٤) ليلى الأخيلية: أشعر امرأة عربية بعد الخنساء.
(٥) الأكم: واحده أكمة ـ وسكنت الكاف للوزن ـ إن ركابها تجول في الأرض قاصدة معاوية، ولا تتأبى عند اشتداد الحر إذ تغطى الآكام بالسراب.
(٦) مضر: أصل لقيس وتميم وأسد. تقول: إن مضر ذات مجد عظيم، وقيس أهل البسالة والإقدام، وتميم ذوو الكثرة والعدد، وأسد أهل الحجة واللدد.

فقال: ويحكِ يا ليلى؟ أكما يقول الناس كان توبة؟ قالت: يا أمير المؤمنين ليس كلُّ الناس يقولُ حقّاً، الناس شَجرة بغي يحْسُدون النعم حيث كانت وعلى من كانت، كان يا أمير المؤمنين: سبط البنان، حَديد اللسان، شجي الأقران، كريم المخبر، عفيف المئزر، جميل المنظر، وكان كما قلت، ولم أبعُدْ عن الحق فيه:

[الطويل]

بعيدَ المدى لا يبلُغُ القَرْم غوْرَه ألدُّ مَلد يغلِب الحق باطله[1]

فقال معاوية: ويحكِ يا ليلى! يزعم الناس أنه كان عاهراً فاجراً. فقالت من ساعتها مترجلة:

[الطويل]

معاذ النُّهى قد كان واللهِ توبةٌ جواداً على العلّات جمّاً نوافِلُهْ[2]
أغرّ خفَاجيّاً يرى البخل سُبَّة تحالف كفاه النّدى وأنامِلُهْ
عفيفاً بعيد الهم صُلباً قناتُه جميلاً مُحَيّاه قليلاً غوائلُهْ[3]
وكان إذا ما الضيفُ أرغى بعيرهُ لديه أتاهُ نيله وفواضلُهْ
وقد علم الحدْبُ الذي كان سارياً على الضيفِ والجيرانِ أنك قاتلُهْ
وأنك رَحْب الباع يا توبَ بالقرى إذا ما لئيم اليَوْمَ ضاقتْ منازلُهْ
يبيتُ قريرَ العين من كان جاره ويُضحي بخير ضيفه ومُنازلُهْ

فقال لها معاوية: ويحَكِ يا ليلى! لقد جُزْتِ بتوبة قدره، فقالت: يا أمير المؤمنين، والله لو رأيْتَه وخبرته لعلمْتَ أني مُقصِّرة في نعمته، لا أبلغ كنُهَ ما هو له أهلٌ، فقال لها معاوية: في أي سن كان توبة؟ فقالت: يا أمير المؤمنين:

[الطويل]

أتته المنايا حين تمّ تمامه وأقصَرَ عنه كل قِرن يُناضلهْ

---

(١) القرم: السيد. والألد: الشديد الخصومة، والملد: مبالغة في الألد. تقول: لا يدرك غوره مع شدة عارضة تجعل باطله يغالب الحق.

(٢) على العلات: أي: على كل حال. والنوافل: العطايا.

(٣) القوائل: الدواهي. وفلان قليل الغوائل أي: ليس فيه ما يعيبه العشير.

وصار كلَيْثِ الغاب يحمي عَرينه فترضى به أشبالُه وحلائلهْ
عطوفٌ حليمٌ حين يطلب حِلمه وسُمٌّ زُعافٌ لا تصاب مقاتلهْ

فأمر لها بجائزة، وقال: أي! ما قلتِ فيه أشعر.

قالت: يا أمير المؤمنين، ما قلت شيئاً إلا والذي فيه من خِصال الخيرِ أكثرَ ولقد أجدْتُ حيث أقول:

[الطويل]

جزَى اللهُ خيراً والجزاء بكفه فتىً من عقيل ساد غيرَ مكلَّفِ
فتىً كانت الدُّنيا تهون بأسرِها عليه فلم ينفَكَّ جَمّ التصرُّفِ
ينال عليّات الأمور بهَوْنةٍ إذا هي أعْيت كل خِرْقٍ مُسوِّفِ[1]

الحارث بن عوفَ المري[2] ومصاهرته أوس بن حارثة الطائي[3]

يرْوى أن الحارثَ بن عوف المُرِّي قال يوماً لخارجة بن سنان المرِّي: أتراني أخطب إلى أحد فيردّني؟ قال: نعم، قال: ومن ذاك؟ قال: أوْسُ بن حارثة بن لأُم الطائي. فقال الحارث لغلامه: ارْحلْ بنا. ففعل. فركبا حتى أتيا أوساً. فلما رأى الحارث بن عوف قال: مرحباً بك يا حارث، قال: وبك. قال: ما جاء بك! قال: جئتك خاطباً، قال: لسْت هناك[4]، فانصرف ولم يُكلمه. ودخل أوسٌ على امرَأتِهِ مُغضباً ـ وكانت من بني عبْسٍ[5] ـ فقالت: مَن الرجل الذي وقف عليك فلم يُطِل ولم تكلمه؟ قال: ذاك سيد العرب الحارث بن عوف المرِّيّ، قالت: فما لك لا

(١) الهونة التؤدة. والخرق: الفتى الحسن الكريم السجايا، والمسوف: من يصنع ما شاء لا يرده أحد.

(٢) هو أحد عظماء ذبيان، ومُرة: بطن من ذبيان. والحارث أحد السيدين اللذين سعيا في الصلح بين عبس وذبيان في حرب داحس والغبراء التي دامت نحو أربعين سنة وقد احتملا في مالها خاصة غرامة تلك الحرب.

(٣) هو سيد طيء في زمانه، وفيه يقول الشاعر: [الوافر]

إلى أوس بن حارثة بن لأم ليقضي حاجتي فيمن قضاها
فما وطئ الحصا مثل ابن سعدى ولا لبس النعال ولا احتذاها

(٤) أي: لست كفؤاً.

(٥) عبس وذبيان أبناء عم.

تستنزله؟ قال: إنه اسْتَحمَق[١]، قالت: وكيف؟ قال: جاءني خاطباً، قالت: أفتريد أن تُزَوِّج بناتك؟ قال: نعم، قالت: فإذا لم تُزوِّجْ سيد العرب، فمن؟ قال: قد كان ذلك، قالت: فتداركْ من كان منك، قال: بماذا؟ قالت: تلحقْه فتردّه؟ قال: وكيف وقد فرطَ مِني ما فرط إليه؟ قالت: تقول له: إنك لقِيتَني مُقتضباً[٢] بأمر لم يتقدم مني فيه قول، فلم يكن عندي فيه من الجواب إلا ما سمعت، فانصرف ولك عندي كل ما أحببت! فإنه سيَفعلُ، فركب في أثرهما.

قال خارجة بن سنان: فوالله إني لأسيرُ إذ حانت مني التِفاتة، فرأيته فأقبلت على الحارث وما يُكلمُني غمّاً، فقلت له: هذا أوسُ بن حارثة في أثرنا قال: وما نصنع به؟ امْضِ، فلما رآنا لا نقف عليه، صاحَ: يا حارثُ أربع[٣] علي ساعة، فوقفنا له، فكلمنا بذلك الكلام، فرَجعَ مسروراً.

فبَلغني أن أوساً لما دخل منزله قال لزوجته: ادْعي لي فلانة ـ لأكبر بناته ـ فأتتهُ، فقال: يا بُنية هذا الحارث بن عوف سيدٌ من سادات العرب، قد جاءني طالباً خاطباً، وقد أردت أن أُزوِّجك منه، فما تقولين؟ قالت: لا تفعل، قال: ولِمَه؟ قالت: لأني امرأة في وجهي رَدّة[٤] وفي خلقي بعض العُهدة[٥]، ولست بابنة عمه فيرعى رحمي، وليس بجارك في البلد فيستحي منك، ولا آمنُ أن يرى مني ما يكره فيُطلقني، فيكون عليّ في ذلك ما فيه، قال: قومي بارك الله عليك ادْعي لي فلانة، «لابنته الوسطى» فدعتها ثم قال لها مثل قوله لأختها، فأجابته بمثل جوابها وقالت: إني خَرقاء[٦] وليست بيدي صناعة، ولا آمنُ أن يرى مني ما يكره فيُطلقني، فيكون عليّ في ذلك ما تعلمُ، وليس بابن عمي فيرعى حقي ولا جارك في بلدك فيستحيك، قال: قومي بارك الله عليك، ادعي لي «بَهْيَة» ـ يعني الصغرى ـ فأتى بها: فقال لها

---

(١) استحمق: فعل فِعل الحمقى.
(٢) الاقتضاب: المفاجأة.
(٣) ربع عليه: وقف أو مال عليه.
(٤) يقال: في وجهه ردة، أي: قبح مع شيء من الجمال.
(٥) العهدة: الضعف.
(٦) الخرقاء: التي لا تحسن صنعة.

كما قال لهما، فقالت: أنت وذاك. فقال لها: قد عرضت ذلك على أختيكِ فأبتاه، فقالت ولم يذكر لها مقالتيهما: لكني والله الجميلة وجهاً، الصناع[١] يداً، الرفيعة خلقاً، الحـية أباً، فإن طلقني فلا أخلف الله عليه بخير، فقال: بارك الله عليك.

قال خارجة: ثم خرج إلينا فقال: قد زوجتك يا حارث بَهيـة بنت أوْس قال: قبلت، ثم أمر أمَّها أن تهيّئها، وتصلح من شأنها، ثم أمر ببيت فضُرِب[٢] له، وأنزله إياه، فلما هُيّئت بعث بها إليه، فلم يلبث عندها إلا هُنيهة[٣] ثم خرج إلي، فقلت: بنيت بأهلك؟ قال: لا والله، فإني لما دَنوْت منها قالت: مَهْ أعندَ أبي وإخوتي؟ هذا والله مالا يكون، قال خارجة: ثم ارتحلنا بها فسرِنا ما شاء الله ثم انتحى بها ناحيةً، ولم يلبث أن عاد إلي، فقلت: أبَنَيت بأهلك؟ قال: لا والله فقد قالت: أكما يفعلُ بالأمة الجلية[٤] والسبية الأخيذة[٥] ؟ لا والله حتى ينحر الجزر، وتذبح الغنم، وتدعو العرب وتعمل ما يُعمل لمثلي، قلت: والله إني لأرى همة وعقلاً، وأرجو أن تكون المرأة منجبة إن شاء الله. فرحلنا حتى قدمنا وأحضَرَ الإبل والغنم، ثم خلا بها ولم يَنشب أن خرج فقلت: أبنيت بأهلك؟ قال: لا ـ فقد قلت لها: أحضرنا من المال ما قد تريدين، فقالت: والله لقد ذكرتَ لي من الشرف مالا أراه فيك. قلت: وكيف؟ قالت: أتفرغُ للنساء والعرب يقتلُ بعضها بعضاً؟ ـ وذلك في أيام حرب عبس وذبيان ـ قلت: فماذا تريدين؟ قالت: اخرج إلى هؤلاء القوم فأصلح بينهم، ثم ارجع إلى أهلك فلن يفوتك. قال خارجة: فقلت: والله إني لأرى همةً وعقلاً، قال: فاخرج بنا فخرجنا حتى أتينا القوم فمشينا فيما بينهم بالصُّلح، فاصطلحوا وحملنا عنهم الديات، فكانت ثلاثة آلاف بعير في ثلاث سنين، فانصرفنا بأجمل الذكر[٦].

---

(١) امرأة صناع: حاذقة في الصناعة.
(٢) ضرب: أقيم، وبني له بيت.
(٣) الهنيهة: الزمن اليسير.
(٤) الجليبة: المجلوبة.
(٥) الأخيذة: المأخوذة.
(٦) وقد خلد هذا الذكر الجميل في معلقته إذ يقول من أبيات كثيرة: [**الطويل**]

يمينـاً لنعم السيدان وجدتما ... على كل من سحيل ومبرم
تداركتما عبساً وذبيان بعدما ... تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

[الوافر]

ولو كان النساء ـ كمثل هَذي ـ لفُضّلَت النساء على الرجالِ

سَوْدة بنت عمارة ومعاوية:

قال عامر الشعبي: وفدتْ سودة بنت عمارة بن الأشتر الهَمدانية على معاوية بن أبي سُفيان، فاستأذنت عليه فأذن لها، فلما دخلت عليه سلمت، فقال لها: كيف أنت يا ابنة الأشتر؟ قالت: بخير يا أمير المؤمنين، قال لها: أنت القائلة لأخيك:

[الكامل]

شمِّر لفعل أبيك يا بن عمارة يوم الطِّعان ومُلتقى الأقرانِ
وانصُرْ عليّاً والحسينَ ورهطَه واقصد لهند[1] وابنها بهوانِ
إنّ الإمام أخا النبيِّ محمد عَلَمُ الهدى ومنارةُ الإيمانِ
فَقُدِ الجيوشَ وسر أمام لوائه قُدُماً بأبيض صارم وسنانِ

قالت: يا أمير المؤمنين مات الرأس وبُتر الذنب، فدَع عنك تَذكارَ ما قد نُسي، قال: هيهات، ليس مقام أخيك نسي، قالت: صدقت، والله يا أمير المؤمنين، ما كان أخي خفي المقام، ذليل المكان، ولكن كما قالت الخنساء:

[البسيط]

وإنّ صَخراً لتأتمّ الهداة به كأنه عَلَمٌ في رأسه نارُ

وبالله أسألك يا أمير المؤمنين إعفائي مما استعفيته، قال: فعلت، فقولي حاجتك، قالت:

يا أمير المؤمنين، إنك للناس سيد، ولأمورهم مُقَلَّد، والله سائلك عما افترض عليك من حقنا، ولا تزال تقدِمُ علينا من ينهض بعزِّك، ويَبسُط بسلطانك، فيحصدنا حِصاد السُّنبُل، ويدوسنا دياس البقر، ويسومنا الخسة[2] ويسألنا الجليلة. هذا ابن أرطاة، قَدِم بلادي، وقتل رجالي، وأخذ مالي، ولولا الطاعة، لكان فينا عِزّاً ومنعةً، فإما عزلته فشكرناك، وإمّا لا فعرفناك، فقال معاوية: أإياي تهدِّدين بقومك؟

(١) هند: هي أم معاوية.
(٢) سامه الأمر: كلفه إياه. تقول: يجثمنا دنايا الأمور.

والله لقد هَمَمت أن أرُدّك إليه على قَتَب أشرس[١] فينُفِذ حكمه فيك، فسكتت، ثم قالت:

[البسيط]

صَلى الإله على روح تَضَمَّنَه قبرٌ فأصبح فيه العدل مدفونا
قد حالف الحق لا يبغي به ثمنا فصار بالحق والإيمان مقْرونا

قال: ومن ذلك؟ قالت: عليّ بن أبي طالب، قال: ما أرى عليك منه أثراً، قالت: بلى، أتيته يوماً في رجل ولّاه صدقاتنا، فكان بيننا وبينه ما بين الغث والسمين، فوجدته قائماً يُصلي فانفتل[٢] عن الصلاة ثم قال برأفة وتعطّف: ألك حاجة؟ فأخبرته خبر الرجل، فبكى ثم رفع يديه إلى السماء وقال: اللهم إني لم آمرهم بظلم خلقك، ولا ترك حقك، ثم أخرج من جيبه قطعةً من جِراب، فكتب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم «قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تَبخسوا الناس أشياءهم ولا تَعْثَوْا في الأرض مُفسدين، بَقيْة الله خيرٌ لكم إن كنتم مؤمنين. وما أنا عليكم بحفيظ» إذا أتاك كتابي هذا فاحتفِظْ بما في يَديك حتى يأتي من يَقبِضهُ منك والسلام. فعزله يا أمير المؤمنين ما خزمه بخزام ولا ختمه بختام. فقال معاوية: اكتبوا لها بالإنصاف لها والعدل عليها، فقالت: ألِي خاصة أم لقومي عامة؟ قال: وما أنت وغيرك؟ قالت: هي والله إذن الفحشاء واللؤم، إن كان عدلاً فشاملاً وإلا يسعني ما يسعُ قومي، قال: هيهات، لمَّظكم[٣] ابن أبي طالب الجرأة، وغرّكم قوله:

[الطويل]

فلوْ كنت بواباً على باب جنّةٍ لقلت لهَمْدان ادخلوا بسلام

وقوله:

[البسيط]

ناديتُ هَمْدان والأبواب مغلقة ومثل همدان سنى فتحةُ البابِ

(١) القتب: الرحل الصغير، والأشرس: الخشن الغليظ.
(٢) انفتل: انصرف.
(٣) لمظه الشيء: منحه إياه.

كالهندُوانيّ لم تفعل مضاربه وَجهٌ جميل وقلب غير وَجّاب

أكتبوا لها بحاجتها.

أم سنان بنت جشمة ومعاوية :

قال سعيد بن أبي حُذافة: حبس مروان وهو والي بالمدينة غلاماً من بني ليث في جناية جناها، فأتته جدة الغلام، وهي أم سنان بنت جُشَمَة المذحجيّة فكلمته في الغلام، فأغلظ مروان لها، فخرجت على معاوية فدخلت عليه فانتبت فعرفها فقال: مرحباً بابنة جشمة، ما أقدمك أرضنا، وقد عهدتك تشتموننا وتحضّين علينا عدونا؟

قالت: إن لِبَني عبد مناف أخلافاً طاهرة، وأحلاماً وافرة، لا يجهلون بعد علْم، ولا يَنْفهُون بعد حلم، ولا ينتقمون بعد عفو، وإن أولى الناس باتباع ما سنّ آباؤه لأنت.

قال: صدقت، نحن كذلك، فكيف قولك:

[الكامل]

عَزَبَ الرُّقاد فمقلتي لا ترقُد والليل يُصدر بالهموم ويُوردُ

يا آل مذْحج لا مُقام فشَمِّروا إن العدوّ لآل أحمد يقصدُ

هذا عليّ كالهلال تَحُفُّهُ وسط السماء من الكواكب أسعدُ

خيرُ الخلائِفِ وابن عم محمد إن يهدكُم بالنور منه تهْتَدوا

ما زال مُذ شهد الحروب مُظفّراً والنصر دون لوائه ما يعقدُ

قالت: كان ذلك يا أمير المؤمنين ـ وأرجو أن تكون لنا خلفاً. فقال رجل من جُلسائه: كيف يا أمير المؤمنين؟ وهي القائلة:

[الكامل]

إما هلكت أبا الحسين فلم تزلْ بالحق تُعْرَف هادياً مَهْدياً

فاذهب عليك صَلاة ربك ما دعت فوقَ الغُصونِ حَمامةٌ قَمْرياً

قد كنت بعد محمد خَلفاً كما أوصى إليك بنا فكنت وفياً

والـيـومَ لا خـلـفٌ يُـؤمَـل بـعـدهُ هـيـهـات نـأمـلُ بـعـدهُ إنْـسـيـاً

قالت: يا أمير المؤمنين لسان فطن، وقول صدق، ولئن تحقق ما ظننا فحظّك الأوفر، والله ما ورَّثك الشنآن في قلوب المسلمين إلا هؤلاء، فأدحِض مقالتهم، وأبعد منزِلتهم، فإنك إن فعلت ذلك تزدد من الله قرباً ومن المؤمنين حبّاً.

قال: وإنك لتقولين ذلك، قالت: سبحان الله! والله ما مثلك مدح بباطل ولا اعتُذِر إليه بكَذب، وإنك لتعلم ذلك من رأينا وضمير قلوبنا.

انتهى الجزء الأول ويليه

الجزء الثاني وأوله «الفن السابع في التاريخ»

obeikandl.com

الفن السّابع: فيْ تاريخ أدب اللغة العربيّة

وفيه مقدمات عشر

المقدمة الأولى: في التّاريخ

التّاريخ: هو معرفة أخبار الماضين وأحوالهم من حيثُ معيشتهم، وسياستهم واعتقادهم، وأدبهم، ولغتهم.

والأدب: كل رِياضة محمودة يَتخَرَّجُ بها الإنسانُ في فضيلة من الفضائل. وهذه الرّياضَةُ كما تكون بالفعل، وحسن النّظر، والمُحاكاةِ، تكون بالأقوال الحكيمة التّي تَضَمّنَتْها لغةُ أيّ أُمّة.

واللغة: ألفاظٌ يُعبّرُ بها كلّ قوم عن أغراضهم - وهي من الأوضاع البَشَريّة - وأدبُ لغة أيّ أُمة هو ما أُودِعَ في شِعرِها ونَثرها من نتائج عقول أبنائها وصُوَر أخْيِلَتهم وطِبَاعِهم: مما شأنهُ أن يُهذّب النّفس، ويثقف العقل، ويقَوّم اللسان.

وتاريخ أدب اللُّغة: هو العلم الباحثُ عن أحوال اللُّغة: نَثرِها ونظمِها في عُصورها المختلفة، وعما كان لنابغيها من التّأثير البيّن فيها.

واللغة العربيّة: إحدى اللّغات السّاميّةِ. وهي لغة أمة العرب القديمة العَهْد الشّائِعة الذكر التّي تسكن الجزيرةَ المنسوبة إليها في الطرَف الغربيّ من آسيا.

وهذه الأُمة: منها القُدماءُ، وهم الذين يسكنون تلك الجزيرة وينطقون باللغة العربيّة سليقةً وطبعاً، وهم ثلاث طبقات:

أولاها: العربُ البائدةُ، وهؤلاء لم يصل إلينا شيء صحيحٌ من أخبارهم إلّا ما قصّه الله علينا في القرآن الكريم، وإلا ما جاء في أحاديث النّبيّ. ومن أشهر قبائلهم طَسْمُ، وجَدِيسُ وعَاد، وثَمودُ وعِمْلِيق.

وثانيتُها: العربُ العَاربَة، وهم بنو قحطانَ الذين اختاروا اليمن منازلَ لهم. ومن أمهات قبائلهم كَهْلاَنُ، وحِمْيَرُ.

وثالثتها: العرَب المُـتَعْرِبَة، وهم بنو إسماعيل الطَّارِئون على القَحطانِيّين، والمُمْتزجون بهم لغةً ونَسباً، والمعروفُون بعدُ بالعَدْنانِيّين، ومن أمهاتِ قبَائلهم رَبيعةُ، ومُضرُ، وإيَادُ، وأنْمارُ.

ومنها المُحَدَثون: وهم سلائلُ هؤلاء الأقوام المَمتزجون بسلائل غيرهم والمُنتشرون بعدَ الإسلام في بِقاع الأرض من المُحيط الأخضر (الأطلنطي) إلى ما وراء بحر فارِسَ ودِجْلَةَ، ومن أعالي النّهرين إلى ما وراء جَاوَه وسُومَطْرَة.

المقدمة الثانية: في توضيح بعض ما في المقدمة الأولى

اعلم أنه يوجَدُ في الجنوب الغربي من آسيا إقليم واسع الأرجاء، تبلغ مساحته رُبعَ أوروبا تقريباً، تَساهل الأقدمون فسمَّوْه «جزيرة العر)»، مع أن المّاء لم يحط به من جمع جهاتِه.

يتألف غربي هذا الإقليم من جزأين شهيرين: الحجاز شمالاً، واليمن جنوباً، أما الحجاز فقطر فقير، قلّت مياهه، وأجْدَبت أرضُه، واشتدت حرارته، يَعتمد أهله على الأودية القليلة، والآبار الشّحيحة، لم يستطيعوا أن ينتفعوا كثيراً بالمّاء الذي يَنزلُ منَ السماء، لأنهم لم يبلغوا من الفنون مبلغاً يمكنهم من اختزانه واستخدامه عند الحاجةِ إليه، وأشهر مُدنه مكة والمدينة والطائف.

وأما اليمن فقد اشتهر قديماً بالغنى والخصب والحَضارة، كثرت أمطاره وسيوله وعَرَفَ أهله بما أوتوا من فن أن ينتفعوا بها، فأنشؤوا السّدود يسيطرون بها على الماء جَمعاً وتصريفاً، وأشهر مدنه صنعاءُ، وجران وعدن وهذان القطران، أعني: ـ الحجاز واليمن ـ أبعدُ البلاد أثراً في حياةِ العرب وفي تاريخهم السّياسي، والاقتصادي، والأدبي.

وإذا وقع نظرك على مصوَّر جزيرة العرب فأبْيَنُ ما ترى فيها وأبعده مدىً صَحْراؤها في داخلها، وهي متنوعة في طبيعتها، فسهلة لينة حيناً، وصلبة انتثرت فيها الحصباء حيناً، ومفروشة بحجارة سوداء تسمى الحرار حيناً. وهذه الصّحراء في جملتها فقر، تسطع الشّمس عليها في الحر فتلفح أرضها وأهلها، ويعتمد ساكنوها على ما تُنبته البِقاع عقِب المطر فترعاه إبلهم وشياههم؛ وهم يأكلون من لحومها، ويشربون من ألبانها، ويلبسون من أصوافها وأوبارها.

المقدمة الثالثة: في نسب سكان جزيرة العرب

اعتاد النّسابون أن يقسّموا الشّعوب إلى أجناس، ويُسمُّوا كل جنس باسم خاص يجمعها؛ فاعتادوا أن يُسمُّوا الجنس الذي منه العرب الجنس الساميَّ نسبة إلى سام بن نوح، عليه السّلام. وعدُّوا من هذا الجنس البابليين والآشوريين والعبرانيين والفينيقيين والأرمينيين والحبشيِّين. ولكن هذا كله لا يزال موضع خلاف بين علمّاء الأنساب؛ كما اختلفوا في أن أصل الجنس السَّامي نشأ في آسيا، في جزيرة العرب أو أرمينيّة أو على شاطئ الفرات، أو نشأ في أفريقيّة ثم نزح منها إلى آسيا.

ومن قديم وهؤلاء العربُ ينقسمون إلى عرب الشّمال (الحجازيين) وعرب الجنوب (اليمانيين). ويذكر النسّابون أن عرب الشّمال يرجعون في نَسَبهم إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السّلام، وَيُسمون النزاريين نسبة إلى نزار من نَسْل إسماعيل؛ وعرب الجنوب من نسل قحطان، ويسمون اليمانيين أو القحطانيين. وبين هذين النّوعين من العرب فروق في جملتها إلَّا أن عرب الحجاز تغْلب عليهم عيشة البداوة، وعرب اليمن يعيشون عشيّة حَضارة.

ولسنا نَقصد أن عرب الشّمال كانوا يسكنون الحجاز فحسبُ، وعرب الجنوب كانوا يسكنون اليمن ولا يتعدونها، بل نعني أن كلًّا من الحجازيين واليمانيين عُنصر يختلف في نَسبه ودمه عن العُنصُر الآخر، ولكن كانت بَين العنصُرَين صلاتٌ، وَرَحَل قوم من كلّ فريق إلى موطن الآخر لأسباب يطول ذكرها، فكان في الحجاز عرب من اليمن وكان في اليمن عرب من الحجاز.

وكل من اليمانيين والحجازيين ينقسمون إلى قبائل.

فاليمانيون: يتفرعون إلى فرعين كبيرين: شعب كهلان وشعب حِمْير.

فشعب كهلان: أشهر قبائله طيِّئ، وهَمْدان، ولخم، وكِندة.

وشعب ربيعة، أشهر قبائله: بَكر وتَغلب.

وشعب مُضَرَ، أشهر قبائله: قيس، وتميم، وهُذيل، وكنانة، وقرَيش، وكل قبيلة من هذه القبائل تنقسم إلى بطون وأفخاذ يطول عدّها، وكان بين هذه القبائل ـ حتى ما كان منها من أصل واحد ـ من الحروب، والمنازعات، والتّهاجي ما ملئت به كتب التّاريخ والأدب.

المقدمة الرّابعة: في اللغة العربيّة

وإذ قد ذكرنا قبلُ أنّ العرب والعبرانيين ومَنْ إليهم يُعدُّون ساميين فلغاتهم التّي يتكلمون بها تُسمى لغات سامية. فاللغة العربيّة إحدى اللغات السّاميّة وقد عُرفت على النّحو الذي نعلمه، حول آخر القرن الخامس للميلاد.

ويذهب الباحثون في علم المقارنة بين اللغات إلى أن اللغة العربيّة من أقرب اللغات إلى اللغة الأصليّة التّي تفرّعت منها اللغات السّاميّة، نظراً لاحتباس العرب في بلادهم وقلة النّازحين منها والوافدين إليها، وضعف العلاقة بين أهلها وغيرهم من الأمم.

وكما انقسم العرب إلى حجازيين ويمانيين انقسمت لغتهم إلى مُضريّة، وحِمْيَريّة وكانت هناك فُروق بين اللغتين عَظيمةٌ في الألفاظِ اللغويّة، وفي الصِّيغ، وفي التّراكيب، وفي اللهجات؛ ولكن حدث قُبيل الإسلام أن أخذت لغة الحجاز وبعبارة أدق (لغة قريش)، تسود وما زالتْ كذلك حتى ظفرت باللغة الحميريّة، وحتى صارت (لغة قريش) هي لغة جزيرة العرب جميعها. وقد دعا إلى هذه الظاهرة أسباب سياسيّة، ودينيّة، واقتصاديّة ـ ستأتي الإشارة إليها فيما بعد.

المقدمة الخامسة: في تاريخ الأمة العربيّة

ليس تاريخ الأمة العربيّة قبل الإسلام معروفاً محققاً، لأن أكثر الأمَّة كانوا أهل بَدْو لم تمكنهم بداوتهم من أن يدوِّنوا تاريخَهُمْ، أوْ ينقشوا حوادِثهم حتى إنّ الذين تحضروا منهم كاليمانيين والحميريين لم يعثر الباحثون إلا على القليل من نقوشهم وآثارهم، وإنما يَعْتَمِدُ الذين يؤرِّخون للعرب قبل الإسلام على هذا القليل من الآثار، وعلى ما كتبه أهل عصرِهم من الأمم الأخرى كاليونان والرّومان والمصريين، والعبريين، والحبشيين، وعلى ما يستنبطون من بعض نصوص أدبيّة. ولنقصر الآن كلامنا على حالة العرب قُبيل الإسلام، فإن اللغة العربيّة التّي نعنى بآدابها وتاريخها إنما عُرفت في هذا العصر.

هذا العصر سمّاه القرآن الكريم (الجاهليّة) ونَسَبنا إليه فقلنا: العصر الجاهلي، والأدب الجاهلي؛ وقد يكون اشتقاق هذا الاسم من الجهل وهو ضد العلم لما كان

يغلبُ فيه من السّفه والفخر والأنسابِ والإمعان في سفك الدِّماء والعصبيّة الحادّة ونحو ذلك مما كرِهَهُ الإسلام ونفر منه، وقد نُقل إلينا كثير مما يدُل على حالة هذا العصر الاجتماعيّة والسّياسيّة من شعر وأمثال وقصص، ولكنها كلها لم تُدَوّن في الكتب إلا في القرن الثاني والثالث للهجرة، فكان بعضها مثاراً لنقد النّاقدين وأخذ العلمّاء والأدباء من قديم يُمحِّصونها ويصحّحون بعضاً ويكذبون بعضاً، ولكن بجانب ذلك ورَدَ كثير من آيات القرآن الكريم وصحيح الحديث يروي لنا الشّيء الكثير عن هذه الحياة الجاهليّة، ويكشف لنا من غموضها.

يدلنا ما صحّ من تاريخهم على أنه قد أنشئ على تُخوم جزيرة العرب الشّماليّة إمارتان كبيرتان: إمارةُ الحيرة في العراق بجوار الفرس، وإمارة الغساسنّة في الشّام بجوار الرّومان. وكان يحكم هاتين الإمارتين أمراء من العرب يتبعون في نظامهم نظام الدول المجاورة لهم. فإمارة الحيرة تتبع في كثير من شؤونها نظام الفرْس، وإمارة الغساسنّة تتبع في كثير من شؤونها نظام الرّومان.

وكان سُكان هاتين الإمارتين وسكان اليمن في الجنوب يعيشون عيشة حضارة يزرعون ويصنعون، وكثير من سادتهم مُترَفون، وقد رُوي لنا الكثير عن ترف أمراء الغساسِنة في الشام، وعن حضارة الحيريين، وما كان لهم من خَوَرْنَق وسدير.

أما داخل الجزيرة والحجاز، إذا أنت استَثْنَيتَ بعض سكان المدن المشهورة ـ كمكة ويَثرِب والطائف ـ فكانوا أهل بدْو يحتقرون الزراعة والصّناعة والتّجارة ويعتمدون في معيشتهم على الإبل، ويُوغلون بها في الصّحراء ويتطلبون منابت العشب، ومراعي الشّجر، ومواد الماء، ويأكلون مما تخرجه الأنعام.

المقدمة السّادسة: في حياة العرب الاجتماعيّة

كان سكان الجزيرة يعيشون عيشة قبائل، فالقبيلة هي الوحدة التّي يُبنى عليها نظام حياتهم، وأفرادُ القبيلة ينتسبون إلى أبٍ واحد، وقلَّ أن ينتسب إليها من لم يُساهمها في نسبها إلا عن طريق الخلف أو الولاء[1].

---

(١) كان الأسير من قبيلة أخرى إذا لم يستطع فداء نفسه يسمونه بسمة القبيلة التّي أسرته، ويسمى حليفاً لها. وكانوا يجيزون استرقاق الأسرى، فإذا عتق الأسير ظلت هناك صلة بين المعتِق والمعتَق. وهذه الصّلة تسمى الولاء.

تسود أفراد القبيلة فكرةُ العصبيّة، فكلُّ فرد يتعصب لقبيلته ويُعنى بحفظ نسبه ويفتخر به، ويحنو على من يُشاركه، ويسير على منهج قبيلته، سواء أصابت أم أخطأت، ومن هذه الظاهرة قول القائل:

[الطويل]

وما أنا إلا من غزيّةَ إن غوَت غوَيتُ وإنْ ترشد غزيّة أرشُد

والقبيلة تحميه من العدوان، وتطالب بدمه إن جنى أحد عليه، ولكل قبيلة رئيس هو سيدها، وهو مرجِعُ الأفراد في إقامة العدل بينهم على حسب عُرْفهم وتقليدهم.

وعلاقة القبيلة بغيرها من القبائل علاقة عِداء غالباً تُغيرُ عليها، وتغنم من مالها ورجالها، والأخرى تتربص بها الدوائر لتنتقم منها:

[الطويل]

يُغار علينا واترين فيُشتفى بنا إن أصبنا أو نُغير على وترِ[1]

قسمنا بذاك الدهر شطرين بيننا فما ينقضي إلا ونحن على شطر

ولم يكن للعرب في الجاهليّة عدا من ذكرنا قبلُ حكومة تسيطر عليهم جميعاً وتشرف على شؤونهم، لأن شرط قيام الحكومة انتساب الأفراد إلى المَواطن، لا إلى القبائل، وانحلال العصبيات وقيام الجامعة الوطنيّة أو الدّينيّة مقام العصبيّة القَبَليّة، وهي أمور لم تتوافر للعرب في جاهليتها.

كانت القبيلة تنقسم عندهم إلى أسر، ونظام الأسرة كان في هذا الطور وهو المعروف عند علماء الاجتماع: بطوْر السّلطة الأبويّة، إذ كان الأب فيها واسع السّلطان نافذَ الكلمة على كل أفراد الأسرة، يتصرَّف في مالهم وفي شؤونهم ويقطع في الأمور دونهم، وهو المرْجِع الأعلى لهم جميعاً، وكان بعض هذه الأسر تمتاز بصفات، وأعمال تجعل له الرّياسة والشّرف كبيت هاشم، وبيت أميّة في قريش، وبيت زُرارة في تميم وهكذا.

---

(١) الواتر: القاتل، والموتور الذي قتل له قتيل فلم يأخذ بدمه، وواترين: حال من الضمير في علينا.

المقدمة السّابعة: في أخلاقهم

ترى أن أكثر العرب أهلُ بدو. ولأهل البدو صفات خاصة يتمدحون بها ويُكثرون في شعرهم من ذِكرِها والتّغني بها، ولعلّ من خير ما يمثل هذه الصّفات ما جاء في قول «تأبّط شراً» أحد الشعراء الجاهليين[1] إذ يمدح ابن عم له بأنه قليل الشّكوى من الهمِّ ينزل به، بعيد الهمّة واسع الأمل يسير وحيداً لا يهاب، ويركب المهالك ولا يخشى مواجهتها، (عَدّاء) يسبق الرّيح السّريعة، إن نام فإنما تنام عينه، ولا ينام قلبه، وإن صحا كانت عينه دَيْدَبان قلبه، وله سيفٌ صارمٌ إن أصاب به قرنا استقبلته المنايا مُتهللةً، لا يخشى الوحدة بل يأنس بها، ويعرف مسالك الصّحراء فلا يضلُّ في سيره، كما لا تضلّ الشّمس، وهذه الصّفات، كما ترى، هي المثل الأعلى للبدويِّ لا للحضري.

وقد تمدَّحوا بالمروءة وأكثروا من ذكرها، وهو لفظ يجمع قانون الشّرف، عمادُه الشّجاعة والكرم والوفاء، وأكثر ما تتجلى فيه الشّجاعة عندهم النّزال والقتال والدفاع عن الأهل والقبيلة ونجدة المستصرخ، وأكثر ما يتجلى فيه الكرم إيقاد النّيران ونحر الجزور، وإضافة اللاجئ.

---

(١) ومن ذلك قوله: [الطويل]

قليل التّشكي للمهم يصيبه ... كثير الهوى شتى النّوى والمسالك
يظل بموماة ويمسي بغيرها ... جحيشاً ويعروري ظهور المهالك
ويسبق وفد الرّيح من حيث تنتحي ... بمنخرق من شدة المتدارك
إذا حاص عينيه كرى النّوم لم يزل ... له كالئ من قلب شيحان فاتك
ويجعل عينيه ربيئة قلبه ... إلى سلة من حدّ أخلق صائك
إذا هزه في عظم قرن تهللت ... نواجذ أفواه المنايا الضواحك
يرى الوحشة الأنس ويهتدي ... بحيث اهتدت أم النّجوم الشّوائك

الموماة: المفازة التّي لا ماء فيها، وجحيشاً: وحيداً، ويعروري ظهور المهالك: يركبها، مأخوذ من قولهم اعروريت الفرس إذا ركبته عارياً ليس عليه شيء، ووفد الرّيح: أوّلها. والمعنى أنه يسبق الرّيح لخفته. والمنخرق: السّريع، والمتدارك: المتلاحق؛ حاص: خاط، والشّيحان: الحازم، والفاتك الذي إذا هم بشيء فعله؛ ربيئة القلب: ديدبانه. ويريد بالسّلة السّيف الذي يستل، أم النّجوم: الشّمس.

فأما الشّجاعة فيمثلها في نظرهم قولُ عمرو بن معد يكرب:

[مجزوء الكامل]

لمّا رأيت نِسائَنا ... يفحصنَ بالمعزاء شدّا[1]
وبدت «لميس» كأنها ... بدرُ السّماء إذا تبدّى
وبدت محاسنها التّي ... تخفى وكان الأمرُ جدا
نازلْتُ كبشَهُم ولم ... أرَ مِنْ نزالِ الكبشِ بُدا[2]
هم يُنذِرون دمي وأنـ ... ـذِرُ إن لقيتُ بأن أشُدّا
كم من أخٍ لي صالحٍ ... بوّأتُهُ بيدَيَّ لَحْدَا
ما إن جزِعْتُ ولا هَلِعْـ ... ـتُ ولا يرُدُّ بكاي زنْدا
ألبستُه أثوابَه ... وخلِقتُ يوم خلِقتُ جلدا
أُغني غَناء الذاهبيـ ... ـن أعُد للأعداءِ عَدّا
ذهب الذين أحبُّهم ... وبَقيتُ مثل السّيفِ فردا

وأما الكرم، فمن خير ما يمثله في نظرهم قول عتبة بن بُجير:

[الطويل]

فقالوا غريبٌ طارقٌ طوَّحَتْ به ... متون الفيافي والخطوبُ الطوائحُ[3]
فقمتُ ولم أجثم مكاني ولم تقم ... مع النّفس علّات البخيلِ الفواضحُ
وناديتُ شبلا فاستجاب ورُبما ... ضمنا قِرى عشر لمن لا نصافحُ[4]
فقام أبو ضيفٍ كريم كأنه ... وقد حد من فرط الفكاهة مازحُ[5]

---

(١) المعزاء: الأرض الصّلبة ذات الحجارة، ومعنى يفحصن بالمعزاء شداً: أي: أنهم يؤثرون في الأرض الصّلبة لشدة عدوهن.

(٢) كبش القبيلة: رئيسها.

(٣) الخطوب الطوائح: أي: المصائب المهلكة، وطوحت به: حملته على ركوب المهالك.

(٤) شبل: اسم ابنه. وقرى عشر: أي: ضيافة عشر ليال لمن ليس بيننا وبينه مصادقة توجب مصافحته.

(٥) أبو ضيف: يريد نفسه.

إلى جِذْمِ مالٍ قد نهكنا سوامه وأَعراضنا فيه بواق صحائحُ[١]
جعلناه دون الذّمِّ حتى كأنه إذا عُدّ مالُ المكثرين المنائحُ[٢]
لنا حمد أرباب المئين ولا يُرى إلى بيتنا مالٌ مع الليلِ رائحُ[٣]

قد أحبوا كثيراً، وشربوا الخمر، ولعبوا الميسر، وشُغِفوا بالصّيد، وطرِبوا للغناء وتاقوا إلى السّمر، وكان هذا كله مادة لشعرِهم وأدبهم.

المقدمة الثامنة: في دينهم

كان للعرب في الجاهليّة دينٌ، ولكنه دين ضعيف، لا يُخلصون له ولا يصل إلى أعماق نفوسهم. وحسبنا دليلاً على ذلك أننا ننظر فيما بين أيدينا من شعرِهم فترى فيه الصّيد كثيراً، والخمر والنّساء والميسر كثيراً، والفخر والهجاء ووَصف القتال كثيراً، ولكن قلّ أن نرى فيه شرحاً لعاطفة دينيّة، وقلّ أن نرى فيه ذكر الله وتمجيده، وقلّ أن نرى فيه وصفاً لمّا كانوا يعبدون.

انتشرت اليهوديّة والنّصرانيّة في بعض بقاع جزيرة العرب، فقد كان فيها مستعمرات يهوديّة أشهرها «يثرب» وهي سُميت بعدُ «بالمدينة». كذلك انتشرت اليهوديّة في اليمن في أوائل القرن السّادس للميلاد، ولكنها كانت في نزاع مستمرّ مع النّصرانيّة.

وانتشرت النّصرانيّة في مناذرة الحيرة، وفي غساسنة الشّام، وسائر قبائله وزاحمت اليهوديّة في اليمن، وكان أشهر مراكز النّصرانيّة في اليمن «مدينة نجران».

وكان القسيسون والرّهبان يردون أسواق العرب يعظون ويبشّرون ويذكرون البعث والحساب والجنة والنّار، واشتهر من شعرائهم وخطبائهم: عديُّ بن زَيْدٍ، وقس بن ساعِدة. ولكن اليهوديّة والنّصرانيّة كانتا قليلتين إذا قِيستا بالدّين السّائد في الجزيرة وهو الوثنيّة، فقد عبد العرب الأصنام، وعظموا الأوثان ونصبوها في

(١) إلى جذم: متعلق بقام في البيت قبله. ويريد بجذم المَال، وهو النّوق جمع ناقة.
(٢) المنائح: جمع منيحة وهو النّاقة أو الشّاة تدفع إلى الجار لينتفع بلبنها مادام فيها لبن.
(٣) يقول: إن مالنّا قليل فإبلنا باركة بفناء الدار انتظاراً للضيف وهي ليست كثيرة حتى تصير سارحة ورائحة، ومع ذلك لنا من الحمد والثناء مثل ما للمكثرين أصحاب المئين.

الكعبة، وقرّبوا لها القرابين، وكان من أشهر هذه الأصنام: اللات والعزّى ومناة. وكان تقديسها يكاد يعم قبائل العرب، وإن كان ثَمَّ أصنامٌ أخرى خاصة ببعض القبائل.

المقدمة التّاسعة: في ثقافتهم

كانت المدن على التّخوم واليمن مُتحضرةً بعض تحضر، فالآثارُ التّي عُثر عليها في اليمن والحيرة وما نقل عن أهلها يدُل دلالة صادقة على أنهم كانوا على حظ من الفنّ والعلم غير قليل: فأهل الحيرة تسرّب إليهم شيء من علوم الفرسِ وآدابهم وعلوم اليونان وآدابهم، والغساسنّة في الشّام تسرب إليهم شيء من حضارة الرّومان واليونان وآدابهم.

واليمن أمة عريقة في المدنية كانت تتصل بالفرس، وتتصل بالحبشة وتَتصل بالرّومان، ولها معهُم جميعاً صلات تجاريّة، أما ماعدا هؤلاء من سكان الجزيرة فكان حظهم من العلم والفن قليلاً.

وعلى الجملة كان للعرب معرفةٌ بالأنساب، وبشيء من أخبار الأمم، وبشيء من الطب. ولكن ما كان عندهم من ذلك لم يَعدُ أن يكون معلومات عمليّة أوّليّة وتجارب ينقصها الاستقراء، ونظرات عامة يعوزها التّعمق والاستقصاء.

أما من النّاحيّة الأدبيّة فكان لهم شعرٌ وقصص وأمثال، وقد طبع كل ذلك بطابع عقليتهم التّي أنتجها تاريخهم وبيئتهم كما سترى.

المقدمة العاشرة: في عصور اللغة العربيّة وآدابها

لمّا كان تاريخ لغة أيّ أمة وأدبها يرتبط كلّ الارتباط بالحوادث السّياسيّة والدّينيّة والاجتِماعيّة التّي تقع بين ظَهْرَاني هذه الأمة، ناسبَ تقسيم تاريخ أدب اللغة خمسة أعصر:

الأوّل: عصر الجاهليّة، وينتهي بظهور الإسلام ومدته نحو خمسين ومائة سنة.

الثاني: عصر صدر الإسلام، ويشمل بني أميّة ويبتدئ بظهور الإسلام وينتهي بقيام دولة بني العباس سنّة (١٣٢هـ).

الثالث: عصر بني العباس. ويبتدئُ بقيام دولتهم، وينتهي بسقوط بَغدَاد في أيدي التّتّار سنّة (٦٥٦هـ).

الرّابع: عصر الدّول التّركيّة. ويبتدئ بسقوط بغداد، وينتهي بمبدأ النّهضة الأخيرة سنّة (١٢٢٠هـ).

الخامس: عصر النّهضة الأخيرة. ويبتدئ من حكم الأسرة المحمّديّة العلويّة بمصر، ويمتدُّ إلى وقتِنا هذا.

obeikandl.com

العصر الأوّل: عصر الجاهليّة

حالة اللغة وآدابها في ذلك العصر

لغة العرب من أغنى اللّغات كَلِماً، وأعرَقِها قِدَماً، وأوسَعِها لكل ما يقع تحت الحِسّ، أو يجول في الخَاطِر من تحقيق علوم، وسنّ قوانين وتصوير خيال، وتَعيين مرافق.

وهي على هَنْدَمَة وضعها، وتَنَاسُق أجزائها لُغَةُ قوم أمّيينَ. ولا عَجَب أَنْ بلغت تلك المنزلة، من بَسْطة الثرْوة، وسَعة المَدَى إذ كان لها من عوامل النّموّ، ودواعي البقاء والرقيّ، ما قلّما يتهيَّأ لغيرها.

وما رواه لنا منها أئمة اللغة وجاء به القرآن الكريم والحديث النّبوي هو نتيجة امتزاج لغات الشّعوب التّي سكنت جزيرة العرب. ولا شك في أن من أسباب امتزاج هذه اللُّغات ما يأتي:

١ـ هجرةُ القحطانيين إلى جزيرة العرب ومخالطتهم فيها العربَ البائدة باليمن، ثم تمزّقُهم في بقاع الجزيرة كلّ مُمَزّق بظلمهم أنفسَهم وتخرُّب بلادهم بِسَيْل العَرِم[1].

٢ـ هجرة إسماعيل عليه السّلام إلى جزيرة العرب واختلاطه وبنيه بالقحطانيين بالمُصاهرة والمُجاورة والمُحَاربة والمُتاجرة. وأظهرُ مواطن هذا الامتزاج مَشاعر الحجّ والأسواق التّي كانت تقيمها العربُ في أنحاءِ بلادها، ومن هذه الأسواق: عُكاظُ وَمجَنَّة وذو المَجَاز.

---

(١) العرم: جمع عرمة كفرحة وهي سد يعترض به الوادي، أو هو جمع بلا واحد، أو هو الإحباس. والسّدود تبنى في الوادي لحبس المياه خلفها وهي المسماة الآن بالخزانات. وحادثة سيل العرم أنه كان لسبأ في اليمن عرم تحبس المياه خلفها لتوزع بنظام، فتهدمت العرم بسيل عظيم أغرق البلاد ودمر القرى أمامه. فكان هو مع كثير من الفتن والحروب الأهليّة سبباً في تفرق القبائل سبأ في أنحاء جزيرة العرب حتى ضرب بهم المثل في التّفرق، فقيل: تفرقوا أيدي سبأ.

وأهمُّها سوق عُكَاظ: وكانت تُقام من أوَّل ذي القَعدة إلى اليوم العشرين منه. وأقيمت تلك السُّوق بعد عام الفيل بخمس عَشرَة سنّة وبقيت إلى ما بعد الإسلام حتى سنّة تسع وعشرين ومئة. وكان يجتمع بهذه السّوق أكثرُ أشراف العرب للمُتَاجَرة، ومُفاداة الأسْرَى والتَّحكيم في الخصومات وللمُفاخرة والمَنَافرَة بالشِّعر والخُطب في الحسَب والنسَب والكرم والفصَاحة والجمال والشَّجاعة وما شاكل ذلك. وكان من أشهر المحكّمين بها في الشعر النَّابغة الذُّبْيَانيّ. ومن أشهر خطبائها قُسُّ بن سَاعِدَةَ الإيادِي. وقد لَهج الشّعراء بذكرها في شعرهم. وحضرها منهم الرّجال والنّساء. ولقريش عظيم الأثر فيما نَجَم عن اجتماع العرب بتهذيب لغتهم.

كلام العرب

الغرضُ من كلام العرب كغيره الإبانةُ عمّا في النّفس من الأفكار ليكون مَدْعاةً إلى المُعاونة والمُعاضدة، وذَريعة إلى تسهيل أعمال الحياة.

ولمّا كانت هذه الأفكارُ لا تزال متجدّدةً غيرَ مُتناهية كانت صُور الكلام المُبيّن عنها لا تزال كذلك متجدّدة خاضعةً لقُوى الاختراع والابتداع وأنواع الإنشاء والتّأليف على حسب ما يقتضيه المقام، فقد تَصل صُورة الكلام إلى الغايّة القُصوى في البلاغة، وقد تنحطُّ صورة العبارة إلى الدَّرْك الأسفل من الإبانة، بحيث لو انحطّت عن ذلك لكانت عند الأدباء بأصوات العجماوات أشبَهَ، وبين الحالين مراتب، وجُلُّ بحث علم الأدب وتاريخه في التّفاوت بين هذه المراتب ورجالها.

وكلامُ العرب بمراتبه، العليا والدّنيا وما بينهما، تعتَورهُ كغيره أحوال تتغيّر بتغيُّر حياة أهله العقليّة والمعاشيَّة والدّينيَّة، وتلك الأحوالُ تتمثَّل في: أغراض اللغة، ومعانيها، وعبارتها.

أغراض اللغة في الجاهليّة

١ـ كانت اللّغة تُستعمل في أغراض المعيشة البدويَّة، ووصف مرافقها من حِلّ وترحالٍ، وانتِجاع كلأ، واستدرار غَيث، واستنتاج حيوانٍ.

٢ـ وفي إثارة المُنازعَات والمُشاحنات، وما يتبعها من الحضّ على إدراك الثَّأر. والتّفاخر بالانتصار، والتّباهي بكرم الأصل والنّجار.

٣ـ شرح حال المشاهدات والكيفيات والإخبار عن الوقائع والقصص وغير ذلك.

معاني اللغة في الجاهليّة

تُجمَل معاني اللُّغة فيما يأتي:

١ـ في قَصْر معاني المفردات على ما تقتضيه البداوة والفطرة الغضّة الخاليّة من تكلّف أهل الحضر وتأنُّقِهم.

٢ـ وفي انحصار أحكامهم في الخبر، ومطالبهم في الإنشاء إما في التّعقُّل المُسْتَنْبَط من الحسّ والمشاهدة أو الطَّبيعة أو التّجربة أو الوجدان، من غير مبالغة ولا إغراق، وإما في التَّخيُّل المنتزَعةِ صوَرُهُ من المحسوسات بحيث لا تَخرج عن الإمكان العقلي والعاديّ.

عبارة اللغة في الجاهليّة

تُلخّص أحوالُ العبارة في الجاهليّة فيما يأتي:

١ـ استعمال الألفاظ في معانيها الوضعيّة، أو معانٍ مناسبة للمعنى الأصلي بطريق المجاز الذي قد يصبح بعد قليل وضعاً جديداً.

٢ـ كثرة استعمال المترادف، وقلّة الأعجميّ المعبّر عنه بالمعرّب، وخلو الكلام العربي من اللحن، وغَلبة الإيجاز عليه كما تراه واضحاً في شِعرهم.

٣ـ إرسال الأساليب الكلاميّة على حسَب ما تقتضيه البلاغة بدون تكلّف.

تقسيم كلام العرب

ينقسم كلام العرب قسمين: نثراً ونظماً؛ فالنّظمُ هو الموزون المقفَّى. والنثرُ ما ليس مرتبطاً بوزن ولا قافيّة.

النثر: المُحَادثة ـ الخَطَابة ـ الكتابة

الأصل في الكلام أن يكون منثوراً: لإبانته مقاصدَ النّفس بوجه أوضح وكُلْفة أقلّ. وهو إما حديثٌ يدور بين بعض النّاس وبعض في إصلاح شؤون المعيشة، واجتلاب ضروب المصالح والمنافع وذلك ما يسمّى المحادثة أو «لغة التَّخاطُب».

وإما خطابٌ من فصيح نابِهِ الشأن يُلقيه على جماعةٍ في أمرٍ ذي بَالٍ، وهذا ما يسمّى «الخطابة». وإمّا كلامٌ نفسيّ مدلول عليه بحروف ونقوش لإرادة عدم التلفّظ به، أو لحفظِهِ للخلف، أو لبُعد الشّقّة بين المُتخاطبين، وذلك ما يسمى الكتابة.

إذَن فأقسام النّثر ثلاثة: مُحادثة، وخطَابة، وكِتابة. وكلّها إما أن تكون كلاماً خالياً من التّزامِ التّقفية في أواخر عباراته، وذلك ما يسمى: «النّثر المُرْسَل»، وإما أن تكون قِطعاً ملتزَماً في آخر كل فِقْرتين منها أو أكثر قافيةٌ واحدة. وهذا ما يُسمّى: «السّجعَ» وهو نوع من الحِليّة اللّفظيّة إذا جاءَ عفواً ولم يُتَعَمَّد التِزامه. ولحُسن وقعه في الأسماع، وحَوْكه وتَأثيره في الطّباع، كان أكثرَ ما يُستعمل في الخطَابة، والأمثالِ، والحِكَمِ، والمُفاخراتِ، والمُنافرات.

المحادثة أو لُغَة التّخاطب

لُغةُ التّخاطب عند عرب الجاهليّة بعد أن توَحّدت لغاتها هي اللغة المعَربة المستعملة في شعرها وخُطبها وكِتابتها. ولا فرق بينها في البلاغة إلّا بقدر ما تستدعيه حال الخَطابة والشّعر والكتابة من نبالة الموضوع والتأنّق في العبارة.

وأكثر ما وصل إلينا منها ما كان شريفَ المعنى، فصيحَ اللّفظ.

الخَطابة

لمّا كان جُلّ العرب في جاهليّتها قبائلَ مُتَبدّية، لا يربطُها قانونٌ عام، ولا تضبِطها حكومة منظّمة. ومن شأن المعيشة البدويّة شن الغارات لأوْهى الأسباب، والمدافعةُ بالنفسَ عن الرُّوح والعرض والمّال، والمُباهاة بقوّة العَصبيّة وكرم النّجار وشرف الخصال، وللقول في ذلك أثر لا يقِلُّ عن الصّوْل، كانت الخطابة لهم ضَرُورية، وفيهم فِطريّة.

وإنما لم تَصل إلينا أخبار خُطبائهم الأوائل، وشيءٌ من خُطَبهم كما كان ذلك في الشعر، لحَفْلهم قديماً بالشعر دون الخطابة. ولصعُوبة حفظ النثر.

وما عُنِي الرّواة بنقل أخبار الخطباء وخطبهم إلا عندما حلّت الخطابة بعدُ منزلةً أسمَى من الشعر. لابتذاله بتعاطي السّفهاء والعامة له، وتلوثهم بالتّكسب به

والتّعرض للحُرَم، فَنَبُهَ بذلك شأن الخطابة. واشتهر بها الأشراف. وكان لكل قبيلة خطيب كما كان لكل قبيلة شاعر.

وأكثر ما كانت الخطابة في التّحريض على القتال، والتّحكيم في الخصومات وإصلاح ذَاتِ البَيْن. وفي المفاخرات، والمنافرات، والوصايا وغير ذلك.

وكان من عادة الخطيب في غير خُطب الإملاك والتَّزوِيج أن يخطب قائماً، أو على نشز ومُرتفع من الأرض، أو على ظهر راحِلته، لإبعاد مَدَى الصّوت، وللتأثير بشخصه وإظهار ملامح وجهه وحركات جوارحه. ولا غِنى له عن لَوْث وعَصْبِ العَمامة، والاعتماد على مخْصَرة أو عصاً أو قنَاة أو قوس، وربما أشار بإحداها أو بيده.

وخُطباء العرب كثيرون. من أقدمهم كعبُ بن لُؤَيّ، وكان ذا نفوذ عظيم في قومه حتى أكبروا موته، وذو الإصبع العَدْواني وهو حُرْثَانُ بن مُحَرّث.

ومن أشهرهم قيسُ بنُ خارِجة بن سِنَان خطيب حرب داحِس[١] والغبراء، وخُويلدُ بن عمرو الغطَفَانيّ خطيب يوم الفِجَار[٢]، وقُسُّ بن ساعدة[٣] الإيادِيّ خطيب عُكاظ، وأكثَم بن صَيفيّ زعيم الخُطباء الذين أوفدهم النُّعمان على كِسْرَى وهم: أكثم بن صَيفي وحَاجب[٤] بن زُرارةَ التَّميميَّان، والحارِث بن عُبَاد[٥]

(١) داحس والغبراء فرسان لقيس بن زهير سيد عبس راهنه حذيفة بن بدر الفزاري على أن يسابقه بفرسيه؛ الخطار والحنفاء؛ فوضعت فزارة كميناً في طريق السّباق فلطم وجه الغبراء وكانت سابقة؛ فهاجت الحرب بين عبس وفزارة ثم بين عبس وذبيان لنصرتها فزارة، وفي القصة روايات أخرى.

(٢) يوم الفجار: حرب كانت قريش وهوزان حضرها النّبي ﷺ وكان عمره أربع عشرة سنّة. وسميت كذلك لأنها كانت في الأشهر الحرم.

(٣) ستأتي ترجمة قس وأكثم.

(٤) سيد من سادات تميم. وهو الذي وفد على كسرى حين منع تميماً من ريف العراق حتى أصابهم القحط، فأعجب به ومنحه طلبه وتعهد له حاجب بحسن الجوار، ورهن عنده قوسه على ذلك، فقبلها منه وبقيت عند كسرى حتى أخذها ابن حاجب، ثم بيعت بعد بأربعة آلاف درهم.

(٥) كغراب. كان خطيباً مؤثراً، وشاعراً بليغاً، وله عمل جليل في الحرب التّي انتشبت بين بكر وتغلب لمقتل كليب بعد أن اعتزلها، وله فيها قصيدة مشهورة منها: [الخفيف]

قرّبا مربط النّعامة مني ... لقحت حرب وائل عن حيال

وقَيسُ بن مسعُود[١] البكريَّان، وخالدُ بن جَعفر[٢] وعَلقمة بن عُلاثَة[٣]، وعامرُ بن الطُّفَيل[٤] العامريّون، وعمرو بن الشَّريد[٥] السُّلَمي، وعمرو بن مَعْدِ يكرِبَ[٦] الزُّبيدِي، والحارث بن ظالم[٧] المُرّي.

قُسُّ بن ساعدةَ الإيادِيّ:

هو خطيب العرب قاطبة، والمضروبُ بِهِ المثلُ في البلاغة والحكمة. كان يَدِين بالتّوحيد، ويُؤمن بالبعث، ويدعو العرب إلى نبذ العُكوف على الأوثان ويُرشدهم إلى عبادة الخالق. ويقال إنه أوّل من خطبَ على شَرَف، وأوّل من قال في خُطبه «أما بعدُ»، وأوّل من اتّكأ على سيف أو عصاً في خطابته، وكان النّاس يتَحاكمون إليه وهو القائل: «البَيّنةُ على مَن ادّعى، واليمينُ على مَن أنكر».

وسمعه النّبي ﷺ قبل البِعثة يخطُب في عُكاظ فأثنى عليه. وعُمّر قسُّ طويلاً ومات قُبيل البعثة.

ومن خُطَبه خطبته التّي خطبها في سوق عُكاظ وهي:

---

(١) هو قيس بن مسعود بن خالد بن ذي الجدين. كان كريماً عالي الهمة من أفضل العرب حسباً ونسباً، وكانت تقر له القبائل كلها بذلك بل هي وكسرى أيضاً. وكان له حجرة فيها مائة من الإبل لأضيافه إذا نحرت ناقة قيدت أخرى مكانها.

(٢) سيد من سادات بن عامر. خلص قومه من العبوديّة لغطفان بعد أن قتل سيدها زهير بن خزيمة.

(٣) خطيب بليغ اشتهر في قومه بالعفة والمحافظة على الجوار والعقل الرّاجح والحسب الواضح.

(٤) هو ابن عم لبيد الصّحابي. شاعر متين، وفارس من اشهر فرسان العرب نجدة وأبعدهم اسماً؛ ولقد بلغ من شهرته أن قيصر كان إذا قدم عليه قادم العرب قال: ما بينك وبين عامر؟ فإن كانت بينه وبينه رحم واشجة قربه وأكرمه.

(٥) وهو أبو السّيدة تماضر الخنساء. يميل إلى الفخر والصّراحة في القول، ولقد بلغ من تغاليه في ذلك أنه كان يأخذ ابنيه معاويّة وصخراً في المواسم العامة ويقول: أنا أبو خيري مضر. فلا ينكر ذلك عليه أحد.

(٦) خطيب شاعر، وفارس قاهر، وصحابي جليل. شهد اليرموك والقادسيّة وأبلى فيهما البلاء الحسن على كبر في سنه وضعف في جسمه.

(٧) كان شجاعاً فاتكاً، وخطيباً شاعراً، يميل إلى معاقرة الخمر. وهو الذي قتل خالد بن جعفر غيلة لقتله أباه وكثيراً من قومه.

أيها النّاس اسمعوا وعوا، مَن عاش مات، ومَن مات فات، وكلّ ما هو آتٍ آت، ليلٌ داج، ونهارٌ ساج، وسماءٌ ذات أبراج، ونجوم تَزهَر، وبحارٌ تَزْخَر. وجبال مُرساة، وأرض مُدحاة وأنهار مُجراة. إن في السّماء لخبرا وإن في الأرض لعبرا، ما بال النّاس يذهبون ولا يَرجِعون، أرَضُوا بالمقامِ فأقاموا؟ أم تُركوا هناك فناموا؟ يُقسم قُسٌّ بالله قسماً لا إثم فيه إن لله ديناً هو أرضى لكم وأفضلُ من دينكم الذي أنتم عليه، إنكم لتأتُون من الأمر منكراً.

ويُروى أن قُسّاً أنشأ بعد ذلك يقول:

[مجزوء الكامل]

في الذَّاهبين الأوّلين من القرون لنا بصائرْ
لمّا رأيت مواردا للموت ليس لها مَصادِرْ
ورأيت قومِيَ نحوها تمضي الأكابر والأصاغرْ
لا يرجع الماضي إلينا ولا من الباقين غابرْ
أيقنت أني لا مَحا لة حيث صار القومُ صائرْ

أكثم بن صَيفِيّ:

هو أعرف الخُطباء بالأنساب وأكثرهُم ضَرب أمثال وإصابة رأي وقوَّة حُجة، وقَلّ من جاراه من خطباء عَصره، وهو زعيم الخطباء الذين أوفدهم النّعمان على كسرى، ولقد بلغ من إعجابه به أن قال لهُ: لو لم يكن للعرب غيرك لكفى. وقد عُمّر طويلاً حتى أدرك مبعث النّبي ﷺ وجمع قومَه وحثَّهم على الإيمان به، وفي إسلامه رواياتٌ. وكان في خطبه قليلَ المجاز حسنَ الإيجاز، حلو الألفاظ، دقيقَ المعاني، مُولعاً بالأمثال. [راجع خطبته في فَنّ المناظرات].

الكِتَابة

يُراد بالكتابة عند الأدباء صناعة إنشاء الكتب والرّسائل، وإذ كانَت الكتابة بهذا المعنى تُؤَدَّى بالنقوش المسمَّاة بالخط، فأوّل حلْقة من سلسلة الخط العربيّ هي الخط المصري القديم ومنهُ اشتق الخط الفينيقي، ومن هذا اشتق الآرامي والمسند بأنواعه:

الصّفويّ والثموديّ واللّحيانيّ شمالي جزيرة العرب والحِميَريّ جنوبيها. ورواة العرب يقولون إنهم أخذوا خطهم الحجازيّ عن أهل الحيرة والأنبار.

أما الكتابة: بمعنى إنشاء الكتب والرّسائل فهي لازمة لكل أمة مُتحضرة ذات حكومة منظّمة ودواوين متعدّدة. وقد كان بعض ذلك موفوراً في ممالك التّبابعة جنوباً، ومأثوراً عن ممالك المناذرة والغساسنّة شمالاً. ولذلك استُعمل الخط المسند الحميري عند الأوّلين من عهد مديد، والأنباري الحيريّ عند الآخرين. وإنما لم يصل إلينا شيء من رسائل تلك الأمم ولا من كتب فنونها ودينها غير قليل عثر عليه لتقادُم عهد أهلها وعدم استكمال البحث بعدُ في بلادها. ولم يعرّفنا التّاريخ أيضاً بأحد من كتّاب هذه الصّناعة إلّا بعديّ بن زيد العِبَاديّ الذي كان كاتباً ومُترجماً عند كِسرى.

أما البدوُ: من سكان أواسط الجزيرة. وهم جمهور مُضر وبعضُ القحطانيين، فكانوا أُميين. ومن المعقول أنهم لم يعرفوا الكتابة الإنشائيّة إلا بعد أن عرفوا الخط آخرَ عصور الجاهليّة، وهو ما نقل عنهم فيه أنهم كانوا يكتبون في بدء رسائلهم: «باسمك اللهمّ» ومن «فلان إلى فلان»، و«أما بعد». ولم تقم لهم دولة بالمعنى السّابق إلّا بقيام الإسلام فهو الذي أفشى فيهم الخطّ والكتابة.

ولمّا كانت علوم كل أمة لها الأثرُ العظيمُ في تكوين فكر الأديب وخيال الشّاعر وكانت كتابتها قسماً قائماً بنفسه يسمى كتابة التّدوين، ناسب شرح ذلك.

علوم العرب وفنونها

العلوم والصّناعات لازمة لحضارة الأمم. ومن العرب أهلُ حضارة دلَّت عليها دُولهم العظيمةُ وقِدَمُ تاريخهم وآثارُهم الخَالدةُ وهم: التَّبابعة في اليمن، والمناذرةُ والغساسنَةُ في الشّمال. وإذاً تكون هندسة إرواء الأرض وعِمارة المُدن والحساب والطّبُّ والبَيْطَرَةُ والزراعةُ ونحوُها معروفةً في الجنوب والشّمال مدوّنة في الكتب وإن لم يحفظ لنا الدهرُ صُوراً منها.

أما البَدوُ منهم وإن كانوا أُميّين يَمقتُون الصنَاعاتِ فلا غِنًى لهم عن تَجرِبة تُرشدهم إلى ما ينفعهُم ليعرفوا متى تجودُ السماءُ وبمَ يتميزُ الأقرباء من البعداء، فأكسبهم ذلك علمَ النّجوم، والطّبّ الضّروري، والأنساب والأخبار، ووصف الأرض، والفِراسة، والعِيافة، والقيافة، والكِهانة، والعِرافة، والزّجر، وقرض الشعر.

علم النّجوم: هو معرفة أحوال الكواكب. وقد كانوا أبرع في هذا العلم منهم في كل علم سواه، تعرفه عامتهم قبل خاصتهم للاهتداء به في ظُلمات البر والبحر، ومعرفة أزمنة الخِصب والمحل. وبعضُ معارفِهم فيه مُستمدّ من الكَلدَان لاختلاطهم بهم ولاتفاق اللغتين في كثير من أسماء الكواكب والبروج. ومن أشهرهم فيه بنو حارثة بن كلب، وبنو مرّة بن همام الشّيباني.

الطبّ الإنساني والحيواني (البيطرة) وقد عاناه من الغرب كثيرون. ومن مشهوريهم الحارثُ بن كَلَدَة الثَّقَفِيّ، وابن حِذْيَم التّيمِيّ.

الأنساب: علم تتعرّف به القَراباتُ التي بين بعض القبائل وبعض فتلحق فروعها بأصولها. وإنما دعاهم إلى العنايّة به حاجتهُم إلى التّناصُر بالعَصبيّة لكَثرة حروبهم وتفرّق قبائلهم وأنفَتهم من أن يكون لغريب عنهم سلطانٌ عليهم، وحُبّهم الافتخارَ بأسلافهم وممن اشتهر بمعرفة أنساب العرب: دَغْفَل بن حَنظلة الشّيباني، وزيدُ بن الكيس النّمَري، وابن لسان الحُمَّرة. ولهذا كانوا يحفظون أنسابهم.

الأخبار والتّاريخ والقصص: هي معرفة أحوال السّابقين وكانوا يعرفون منها ما كان عليه أسلافهم وبعض مجاوريهم من الأحوال المأثورة ووقائع أيامهم المشهورة، كقِصّة الفيل وحرب البسُوس وحرب الفِجار.

وصف الأرض: هو معرفة كل بقعة وما يجاورها وكيف يُهتدى بها.

ومن قرأ شعر العرب في نسيبهم واطلع على وصفهم وكيف كانوا يحدّدون الحقير منها بحدود قلَّما تجد به مملكة عظيمة، عرف شدةَ حِذقهم بمعرفة بلادهم.

الفِراسة: هي الاستدلال بهيئة الإنسان وشكله ولونه وقوله على أخلاقه وفضائله ورذائله. وقد نبغ فيها من العرب من لا يحصى عدّدهم، ولهم في ذلك نوادر شَتَّى.

القيافة: ضرب من الفِراسة، وهي الاهتداء بآثار الأقدام على أربابها أو الاستدلال بهيئة الإنسان وأعضائه على نسبه. فقد كانوا يميّزون بين أثر الرّجل والمرأة والشّيخ والشّاب والأعمى والبصير والأحمق والكيّس. وإذا نظروا عِدَّة أشخاص ألحقوا الابن بأبيه، والأخ بأخيه، والقريب بقريبه، وعرفوا الأجنبي من بينهم. وممن اشتهر بالقيافة بنو مُدلِج، وبنو لهب.

الكهانة والعرافة: وهما بالغيب. وربما خُصَّتِ الكهانة بالأمور المستقبلة، والعرافة بالماضيّة. وطريقهم في ذلك الاستدلال ببعض الحوادث الخاليّة على الحوادث الآتيّة لما بينهم من المشابهة الخفيّة. وللعرب في الكهّان اعتقاد عريض لزعمهم أنهم يعلمون الغيبَ فيرفعون إليهم أمورهم للاستشارة، ويستفسرونهم عن الرُّؤَى، ويستطبُّونهم في أمراضهم. وممن اشتهر من الكهّان: شِقُّ أنمار وسَطِيح الذئبي. ومن الكواهن: طُرَيفَةُ الخير وسَلمى الهمدانيّة. ومن العرّافين: عراف نجد الأَبلق الأُسدي، وعراف اليمامة رَباح بن عَجَلة.

الزجر: وهو الاستدلال بأصوات الحيوان وحركاته وسائر أحواله على الحوادث بقوة الخيال والاسترسال فيه. ومن أشهر الزجّارين: بنو لهب وأبو ذؤيب الهُذليُّ ومُرَّة الأسدي. ومن العرب من لم يعبأ بالزجر وما شاكله كلَبِيد بن ربيعة القائل:

[الطويل]

لعَمرك ما تدري الطوارقُ بالحصى ولا زاجراتُ الطير ما الله صانعُ

وكضابئ بن الحارث القائل:

[الطويل]

وما عاجلاتُ الطير تُدني من الفَتى نجاحاً ولا عن رَيْثِهِنَّ يَخِيبُ
ورُبَّ أمورٍ لا تضيرك ضَيرة وللقلب من مخْشَاتِهِنَّ وَجِيبُ
ولا خير فيمن لا يُوَطّن نفسه على نائبات الدهر حين تنوبُ

النّظم والشعر والشُّعَراءُ

النظم عرَّفه العَرُوضيون بأنهُ الكلام الموزون المقفّى قصداً ويرادفه الشعر عندهم. أما المحققون من الأُدباء فيخُصُّون الشعر بأنهُ الكلام الفصيح الموزون المُقفّى المعَبّر غالباً عن صُوَر الخيال البديع. وإذا كان الخيال أغلبَ مادّته أطلق بعضُ العرب تجوّزاً لفظ الشّعر على كل كلام تضمَّن خيالاً ولو لم يكن مَوزوناً مقفّى ولجَرْيه وفق النّظام المُمثّل في صورة الوزن والتّقفية كان تأثيره في النّفس من قبيل إثارة الوجدان والشّعور، بَسْطاً وقَبضاً وترغيباً وترهيباً، لا من قبيل إقناع الفكر بالحجّة الدّامغة والبرهان العقليّ. ولذلك يَجْمُلُ أثره في إثارة العواطف وتصوير أحوال النّفس لا في الحقائق النّظريّة. ولا ريب أن النّفس ترتاع بصور المحسوس الباهر وما انْتُزع منه من الخيال الجَليّ لخفّة مؤونته عليها وإراحته لها من المُعاناة والكدّ، فكيف إذا انضم إلى نَغم الوزن والقافيّة الشّديد الشّبه بتأثير الإيقاع والتلْحِين الذي يَطْرَبُ له الحيوانُ فضلاً عن الإنسان.

والعرب بفطرتهم مَطبوعون على الشعر لبداوتهم، وملاءمة بيئتهم لتربيّة الخيال، فالبدويّ لحريّته واستقلاله بأمر نفسه، يغلِبُ عَلَى أحكامه الوِجدانُ، ويسْلكُ إليه من طريق الشّعور. ومعيشةُ البدويّ فوق أرض نقيّة التُّرْبة وتحت سماء صافيّة الأديم، ساطعة الكواكب، ضاحيّة الشّمس، جَلَت لحِسّه مناظرَ الوجود، وعوالمَ الشُّهود، فكان لخيَاله من ذلك مادَّةٌ لا يغور ماؤها، ولا يَنْضُب مَعينُها، فهام بها في كلّ وادٍ وأفاض منها إلى كل مراد. وكان له من لغته وفصاحةِ لسانه أقوى ساعد، وأكبر معاضد.

ويَشْعُر الإنسان بطبعه أن الشعر متأخر في الوجود عن النّثر وإن كانت واسطةٌ بين النّثر والشعر، فليست إلاّ السّجع لما فيه من معادلة الفِقر، والتّزام القافيّة والميل إلى التغنّي به، فكان من ذلك المقطّعات والأراجيز الصغيرةُ، يَحدُون بها الإبل، وَيُعَدّدُون بها المكارم. ثم لمَّا تمّت مَلَكة الشعر فيهم، واتّسعَت أغراضهُ أمامهم، نوّعوا الأوزان وأطالوا القوافي، وقصَّدُوا القصيد.

وقد خَفِي علينا «كأكثر الأمم» مبدأُ قول الشعر، وأوَّلُ مَنْ قاله. أمَّا ما نُسب من الشعر إلى آدم وإبليس والملائكة والجن والعرب البائدة فهو حديثُ خُرافة.

والشّعر الذي صحّت رِوايتُهُ منذ أواسط القرن الثاني قبل الهجرة تنتهي أقدُم مطوَّلاته إلى مُهَلْهِل بن رَبيعة، وأقدم مقطّعاته إلى نَفر لعلَّهم لم يبعدُوا عنهُ طويلاً مثل: العَنْبر بن عمرو بن تميم، ودُرَيد بن زيد بن نَهْد، وأعْصُر بن سعد بن قيس عَيْلان، وزُهير بن جنَاب الكلبي، والأفوه الأوْدِي، وأبو دُوَاد الإيادي. وقد رَوَوا أنهُ لم يكن لأوائل العرب من الشّعر إلا الأُبياتُ يقولها الرّجل في حاجته، وإن أوّل من قصّد القصائد وذكر الوقائع المهلهل بن ربيعة التَّغلَبي في قتل أخيه كلَيب. فهو أوّل من رُويت له كلمة تبلغ ثلاثين بيتاً، وتبعه الشعراء مثل امرئ القيس وعَلْقَمَة وعَبِيد ممن أخرجوا لنا الشعر العربيّ في صورتِهِ الحاضرة.

هذا مجمل ما يتعلق بحقيقة الشعر ونشأته في الجاهليّة. أما ما يتعلق بمادّته وجوهره فإنه يرجع إلى أغراضه وفنونه ومعانيه وأخيلته وألفاظه وأساليبه وأوزانه وقوافيه.

(١) أغراضه وفنونه

نظم العربُ الشعر في كل ما أدركته حواسهم وخطر على قلوبهم من فنونه وأغراضه الكثيرة كالنّسيب ـ ويسمّى التّشبيب والتّغزُّل ـ وطريقتهُ عند الجاهليّة يكون بذكر النّساء ومحاسنهن وشرح أحوالهن وكان له عندهم المقام الأوّل من بين أغراض الشّعر حتى لو انضم إليه غرض آخر قُدّم النّسيب عليه وافتتِح به القصيد، لما فيه من لَهْو النّفس وارتياح الخاطر، ولأن باعثه الفذّ هو الحبُّ، وهو السرُّ في كل اجتماع إنسانيّ. والبَدوُ أكثر النّاس حبّاً لفراغهم.

والفخر: هو تَمدُّح المرء بخصال نفسه وقومه والتحدُّث بحسن بلائهم ومكارمهم وكرم عنصرهم ووفرة قبيلتهم ورفْعة حسبهم وشهرة شجاعتهم.

والمدح: وهو الثناء على ذي شأن بما يتحسن من الأخلاق النّفسيّة كرجاحة العقل والعِفّة والعدْل والشّجاعة وإن هذه الصّفات عريقةٌ فيه وفي قومه وبتعداد محاسنه الخُلُقيّة. وشاع المدح عندما ابتُذِل الشّعرُ واتخذه الشّعراء مِهنة. ومن أوائل مدّاحيهم زهير والنّابِغة والأَعشَى.

والرّثاء: وهو تعداد مناقب الميت وإظهارُ التّفَجُّع والتّلهُّف عليه واستعظام المصيبة فيه.

والهجاءُ: هو تعداد مثالب المرء وقبيله ونَفيُ المكارم والمحاسن عنه.

والاعتذار: هو دَرْء الشّاعر التّهمة عنه والترفُّق في الاحتجاج على براءَته منها، واستمالة قلب المُعتَذَر إليه واستِعطافهُ عليه. والنّابغة في الجاهليّة فارس هذه الحَلبة.

والوصف: هو شرح حال الشّيء وهيئته على ما هو عليه في الواقع لإحضاره في ذهن السّامع كأنه يراه أو يشْعُر به.

والحكمة والمثل: فالحكمة قولٌ رائع يتضمّن حكماً صحيحاً مسلمّا بهِ. والمثل مِرآة تُريك أحوال الأمم وقد مضت، وتقف بك على أخلاقها وقد انقضت، فالأمثال ميزان يوزن به رقي الأمم وانحطاطها وسعادتها وشقاؤها وأدبها ولغتها. وأكثر ما تكون أمثالُ العرب وحكمُها مُوجَزَة متضمنة حُكماً مقبولاً أو تجربة صحيحة تمليها عليها طباعها بلا تكلف. [راجع فن الأَمثال السَّابق].

(٢) معانيه وأخيلته

قصدُ الشّاعر من شعره الإبانةُ عما يُخالج نفسه من المعاني في أيّ غرض من الأغراض السّابقة ونحوها. ومن هذه المعاني ما هو عاديٌّ في البدويّ والحضريّ والعربيّ والعجميّ، كالأخبار الصّادقة وأوصاف المشاهدات وشرح الوجدانات كما يمليها الخاطر بلا مبالغة ولا إغراق. ومنها ما هو غريبٌ نادر انتزعه الخيال من المَرْئِيات البديعة والأشكال المنتظمة. وذلك ما يسمَّى بالمعنى المخترَع الذي

تتفاضل الشعراء بالإجادة فيه والإكثار منه. وإذا قمنا الشعر الجاهلي بهذا المِعيار وجدنا معانيه وأخيلته تمتاز بالأمور الآتية:

١ـ جلاء المعاني وظهورها ومطابقتها للحقيقة والواقع.

٢ـ قلة المبالغة والغُلُوّ فيها بما يخرجها عن حدّ العقل ومألوف الطبع.

٣ـ قلة المعاني الغريبة المَنْزَع الدقيقة المَأخذ المتجليّة في صور الخيال البديع والتّشبيه الطريف والاستعارة الجميلة والكنايّة الدقيقة وحسن التّعليل وغير ذلك.

٤ـ قلة تأنُّقِهِم في ترتيب المعاني والأفكار على النّظام الذي يقتضيه الذَّوق، فيدخلون معنى في معنى وينتقلون من غرض إلى آخر اقتضاباً بدون تَخَيُّل ولا تلطُّف.

(٣) ألفاظه وأساليبه

ولمّا كانت العرب أمماً بدويّة تنظم الشعر بطبعها من غير مُعاناة صناعة ولا دراسة علم، غلب على شعرها صراحةُ القول وقلةُ المُواربة فيه، والبُعد عن التكلّف، وصحة النّظم، والوفاء بحقّ المعنى. أضف إلى ذلك الأمور الآتيّة:

١ـ جودة استعمال الألفاظ في معانيها الموضوعةِ لها، لإحاطة علمهم بلغتهم ومعرفتهم بوجوه دلالتها.

٢ـ غلبة استعمال الألفاظ الجَزْلة واستِعمال الألفاظ الغريبة التّي هُجرت عند المحدَثين.

٣ـ القصد في استعمال ألفاظ المجاز ومقت استِعمال الأعجمي إلّا ما وقع نادراً.

٤ـ عدم تعمُّد المحسّنات البديعيّة اللفظيّة، ومتانة الأسلوب بحسن إيراد المعنَى إلى النّفس من أقرب الطرق إليها وأطرفها لَديها، وإيثار المجاز أو قلة الإسهاب إلا إذ دعت الحال.

(٤) أوزانه وقوافيه

العرب لم تَعرف موازين الشّعر بتَعلُّم قوانين صناعيّة وتَعرُّف أصول وضْعية، وإنما كانت تنظم بطبْعها على حسب ما يُهيّئهُ لها إنشادُها. وقد هدتهم هذه الفِطرة إلى أوزان

أرجعها الخليل إلى خمسةَ عشرَ وزناً سمّاها بحوراً، وزاد عليها الأخفش بحراً. وقد أكثروا النّظم من بعضها دون بعض [راجع كتابنا «ميزان الذّهب في بحور شعر العرب»]. وشِعر العرب رجزهُ وقصيدهُ يبنى على قافيّة واحدة كيفما طال القول.

(٥) شعراء الجاهليّة

شُعراء الجاهليّة أكثر من أَنْ يُحاط بهم. ومن جُهِل منهم أكثرُ ممن عُرِف. وإنما اشتهر بعضهم دون بعض لنُبُوغه، أو كثرة المرويّ من شعره، أو قرب عهده من الإسلام زمن الرواية. وكان للشعرَاء عند العرب منزلة رفيعة، وحكم نافذ وسلطان غالب، إذ كانوا ألسنتهم النّاطقة بمكارمهم ومفاخرهم، وأسلحتهم التّي يذودون بها عن حياض شرفهم. وكانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائلُ فهنَّأتها، وصَنَعت الأَطعمة وأتَت النساءُ يلعبن بالمزاهر كما يصنعون في الأعراس، ويتباشر الرّجال والولدان لأنهُ حِمايّة لأعراضهم، وذَبٌّ عن حياضهم، وتخليدٌ لمفاخرهم، وإشادة بذكرهم، وكانوا لا يُهَنّئُون إلّا بغلام يُولد، أو شاعر ينْبَغ أو فرس تُنْتَج.

وكانت طريقةُ نظم الشعر ارتجاليّة، فتأتيهم ألفاظُهُ عفواً، ومعانيه رهواً، كما وقع للحارث بن حِلّزة وعمرو بن كلثوم. أما من اتخذه منهم صناعةً يستدرُّها ويلتمس به الجوائز، وينشده في المحافل والمواقف العظام، فإنه يتعهّده بالتّهذيب والتّنقيح ليجعله رقيق الحاشيّة حسن الديباجة يَصح أن يقال فيه أنه المثل الأعلى للشعر الجاهلي، كما ترى ذلك واضحاً في حَوْليَّات زهير واعتذاريَّات النّابِغة.

وقد عبر النّاس دهراً طويلاً لا يقولون الشعر إلاَّ في الأغراض الشّريفة لا يمدحون عظيماً طمعاً في نواله، ولا يهجون شريفاً تشفّياً منه وانتقاماً، حتى نشأت فيهم فئة امتهنت الشعر وتكسبت به، ومدحت الملوكَ والأمراء كالنّابغة الذُّبياني وحسَّان مع النُّعمان بن المُنذر وملوكَ غسَّان، وزُهَير بن أبي سُلمى مع هَرِم بن سنان، وأُمَيَّةَ بن أبي الصَّلْت مع عبد الله بن جُدْعان، أحد أجواد قريش، والأعشَى مع المُلوك والسُّوقة، حتى قصد به الأعاجم، وجعله متجراً يتَّجر به فتحامَى الشعرَ الأشرافُ، وآثروا عليه الخَطابة.

(٦) طبقات الشعراء

طبقات الشعراء باعتبار عصورهم أربع:

١ـ طبقة الجاهليِّين.

٢ـ طبقة المُخَضْرَمين، وهم الذين اشتهروا بقول الشعر في الجاهليّة والإسلام.

٣ـ طبقة الإسلاميين، وهم الذين نشؤوا في الإسلام ولم تفسد سليقتهم العربيّة، وهم شعراء بني أُميَّة.

٤ـ طبقة المُولَّدين، أو المُحْدَثين، وهم الذين نشؤوا زَمن فساد العربيّة وامتزاج العرب بالعجم، وذلك من عصر الدولة العباسيّة إلى يومنا هذا.

والشعراء الجاهليون يُقَسَّمون باعتبار شُهرتهم في الشعر للإجادة أو للكثرة إلى طبقات كثيرة نذكر منها ثلاثاً.

١ـ الطبقة الأوّلى: امرؤ القيس، وزُهير، وعمرو بن كلثوم، والنَّابغة.

٢ـ الطبقة الثانيّة: الأعشى، ولَبيد، وطرَفَةُ.

٣ـ الطبقة الثالثة: عَنترة، وعُرْوَةُ بن الوَرد، والنّمرُ بن تَوْلب، ودُرَيْد بن الصّمة، والمُرَقَّش الأكبر.

ومن الأدباء من يُقدّم بعض هؤلاء على بعض ويزيدون غيرهم عليهم.

(١) امْرُؤ القَيْس

هو الملك أبو الحارث حُنْدُج بن حجرْ الكِنْدِيُّ شاعرُ اليمَانِيَّة.

وآباؤه من أشراف كندة وملوكها، وكانت بنو أسد من المُضريّة خاضعة لملوكِ كندة، وآخر ملك عليهم هو حجر أبو امرئ القَيس، وأمه أختُ مُهَلْهِل وكُلَيب.

نشأ امرؤ القيس بأرض نجد بين رعيّة أبيه من بني أسد، وسلك مسْلَك المُترفين من أوّلاد الملوك يلهو ويلعب ويُعاقر الخمر ويغازل الحِسان، فمقته أبوه. ولمّا لم ينجع فيه القولُ طرده عنه وأقصاه، حتى جاء نبأ ثوَرَان بني أسد على أبيه وقتلهم له، لأنه كان يعسِف في حكمه لهم: فقال: «ضيَّعني صغيراً، وحمّلني دمه كبيراً، لا صحوَ اليومَ ولا سُكْرَ غداً، اليومَ خمرٌ، وغداً أمرٌ» وأخذ يجمع العُدَّة ويستنجد

القبائل في إدراك ثأره، فنازل بني أسد وقتل فيهم كثيراً، ثم اشتدت به علة قروح فمات منها ودُفن بأنْقَرَة. وكان ذلك قبل الهجرة بقريب من قَرن.

شعرُهُ: يُعتبر امرؤ القيس رأسَ فحول شُعَراء الجاهلية والمقدّم في الطبقة الأوّلى. فهو أوّل من أجاد القول في استيقاف الصحْب، وبكاء الديار، وتشبيه النّساء بالظّباءِ والمَها والبَيض، وفي وصف الخيل بقَيْد الأوابد، وترقيق النّسيب، وتقريب مآخذ الكلام، وتجويد الاستعارة، وتنويع التّشبيه.

وقد يُفْحش في تشبيبه بالنّساء وتَحدُّثه عنهن. ويُشْتَمُّ من شعره رائحة النّبل وتُلمح فيه شارات السّيادة والملك: من ذلك قوله:

[الطويل]

فظلّ العذارَى يرتمين بلحمها وشحمٍ كهُدّاب الدّمْقس المُفتّلِ

وقوله:

[الطويل]

وظلّ طُهاة اللّحم ما بين منضِج صفيفَ شِواء أو قديدٍ معَجّلِ

وقوله:

[الطويل]

ولو أنّ ما أسعَى لأدنى معيشةٍ كفاني ولم أطلب قليلٌ من المالِ
ولكنّما أسعَى لمجدٍ مُؤثّلٍ وقد يُدرك المجدَ المؤثل أمثالي

وشعره وإن اشتمل بشَمْلة البَداوة في جفاء العبارة، وخُشونة الألفاظ وتجهّم المعاني، تراه أحياناً يخطر في حُلل من حسن الدّيباجة، وبديع المعنى، ودقة النّسيب، ومقاربَة الوصف، وسهولة المأخذ، مما كان منه لخَلَفه أجمل مثال في مُحاكاته ولم يقلِ الشعرَ كاسباً.

ومن شعره يذكر رحلته إلى قيصر مع عَمْرو بن قميئة الضبعي:

[الطويل]

سَما لكَ شوقٌ بعدما كانَ أقصرا وحلت سُليمى بَطن ظَبي فعَرْعرا
فدعْها وسلِّ الهَمّ عنها بحَسْرة ذَمول إذا صامَ النَّهار وهجَّرا

عليها فتى لم تحمِل الأرضُ مثله أبرّ بميثاق وأوْفى وأصبرا
إذ قلتُ هذا صاحبٌ قد رضيتهُ وقرّتْ به العَينانِ بُدّلتُ آخَرا
كذلك جَدي لا أصاحبُ صاحباً مِنَ النَّاس إلا خانني وتغيّرا

ومن أبياته السّائرة قوله:

[الطويل]

إذا المرءُ لم يخزُنْ عليه لسانه فليس على شيء سِواهُ بخزّانِ

وقوله:

[الوافر]

وقد طَوّفتُ في الآفاق حتى رَضيتُ من الغَنيمة بالإيابِ

معلقة امرئ القيس

[الطويل]

قفَا نَبكِ من ذِكرىَ حبيبٍ وَمَنزِلِ بِسِقْط اللِّوَى بين الدَّخُول فحَوْملِ(١)
فتُوضِحَ فالمِقْراةِ لم يَعْفُ رَسمُها لِما نَسَجتْها منْ جَنوبٍ وَشمألِ
ترى بَعَرَ الآرام في عَرَصاتها وَقيعانها وكأنه حَبُّ فلفلِ(٢)
كأني غَداة البَيْن يَوْمَ تَحَمَّلوا لَدى سَمُرات الحيِّ ناقِفُ حَنْظلِ
وقُوفاً بها صَحبي عليَّ مطيَّهم يَقولون: لا تَهْلِكْ أسى وَتَجَمَّلِ(٣)
وإنّ شِفائي عَبْرَةٌ مُهراقةٌ فَهلْ عِندَ رسم دارس مِنْ مُعَوّلِ(٤)
كدَأبك منْ أمّ الحوَيرثِ قَبلها وَجارتها أمّ الرّباب بمأسَلِ(٥)

(١) اللوى: ما التوى من الرّمل، أو استدق منه، والجمع ألواء وألويّة. وسقط اللوى: منتهاه، وهو مثلث السّين. والدخول وحومل وتوضح والمقراة: كلها أسماء أماكن يقع بينها سقط اللوى، وفيه منزل الحبيب.
(٢) الآرام: جمع رئم وهو الظبي خالصّ البياض. والعرصات: جمع عرصة وهي البقعة الواسعة بين الدور ليس فيها بناء، والقيعان: فناء الدار.
(٣) أي وقوف صحبي على مطيهم بسمرات الحي، ونصحوا لي بالتّحمل والاحتمال.
(٤) عبرة مهراقة: دمعة مسكوبة، والمعول: المتعان به.
(٥) الدأب: الشّأن.

إذا قامتا تَضَّوعَ المِسْكُ مِنهما نَسيم الصَّبا جاءت بِرَيّا القرَنفل[١]

ففاضَتْ دُموعُ العَين مني صَبابةً على النّحْر حتى بَلَّ دمعي مِحْملي[٢]

ألا رُبَّ يومٍ لي مِنَ البيض صالح ولاسيَّما يومٌ بُدارَةِ جُلْجُل[٣]

ويومَ عَقرتُ للعذارى مَطيَّتي فيا عجبًا مِنْ كورها المتَحَمَّلِ[٤]

فظلَّ العذارى يَرْتمينَ بلَحْمها وشَحمٍ كهُدّاب الدِّمَقْسِ المفَتَّلِ[٥]

تُدَارُ عَلْينا بالسّديف صِحَافها ويؤتى إلينا بالعبيطِ المُثَمَّلِ[٦]

ويومَ دخلتُ الخِدْرَ خِدْرَ عُنَيزةٍ فقالت لك الوَيلاتُ إنك مُرْجِلي[٧]

تقولُ وَقدْ مال الغَبيطُ بنا معاً عَقرتَ بعيري يا امرأ القيس فانزلِ[٨]

فقلت لها سيري وَأرْخي زمامَه ولا تُبعديني منْ جناكِ المعلّلِ[٩]

دَعي البَكرَ لا ترني له منْ ردافِنا وهاتي أذِيقنا جَناةَ القَرَنفلِ[١٠]

بثَغرٍ كمِثل الأقْحَوان مُنوِّرٍ نَقيَّ الثنايا أشنبٍ غَيرَ أثْعَلِ[١١]

فمثلك حُبْلى قد طرَقتُ ومُرضع فألهيتُها عن ذي تمائمَ مُحْوِلِ[١٢]

---

(١) تضوع المسك: انتشرت رائحته. والرّيا: الرّائحة، والمراد أنه إذا قامت هاتان المرأتان يضوع منهما المسك، كما ياتي النّسيم بشذا القرنفل.

(٢) المحمل على وزن منبر: حمالة السّيف.

(٣) ابتدأ الشّاعر بذكر حوادث شبابه وملاعب صباه، وخص بالذكر أيامه بدارة جلجل، وهي مكان بنجد، وسيحدثنا عن لهوه أطيب الحديث.

(٤) مطيّة الشّاعر هنا ناقته.

(٥) هداب الدمقس: أطراف الحرير، والمفتل: المفتول.

(٦) السّديف: قطع السّنام. والصّحاف: جمع صحفة القصعة، والعبيط: لحم الذبيحة تنحر من غير علة، والمثمّل: الشّهي

(٧) الخدر: هنا الهودج. وعنيزة: اسم لمحبوبته. إنك لمرجلي: أي فاضحي بين رجالي.

(٨) الغبيط: الرّحل، عقرت بعيري: دميت ظهره لثقلك.

(٩) الجنى: الشّهد. المعلل: الشّهي.

(١٠) البكر: البعير، الرّادف: هو أن يركب اثنان على دابة واحدة. أذيقينا جناة القرنفل: أي مكنينا من ثغرك العطر.

(١١) الأقحوان: زهر أبيض جميل شبه به الثغور العذاب. أشنب: فيه برد ورقة وصفاء.

(١٢) محول: مضى عليه حول. يريد أن يقول إني رجل أفتن بالنّساء، حتى لا تنجو مني الحبلى ولا المرضع، مع أنها في شغل بالحمل والرّضاع.

إذا ما بكى من خلفِها انصَرَفَت له ... بشقٍّ وتحتي شِقُّها لم يُحَوَّل[١]
ويَوماً على ظَهْر الكثيب تعذرت ... عليَّ وآلتْ حلفَةً لم تَحَلَّلِ[٢]
أفاطمَ مَهلاً بعضَ هذا التدلُّل ... وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجملي[٣]
أغرَّكِ مني أن حبَّك قاتلي ... وأنكِ مهما تأمري القلبَ يفعلِ
وأنك قَسَّمتِ الفؤاد فنصفه ... قتيلٌ ونصفٌ بالحديد مكبَّل[٤]
فإن تَكُ قد ساءتك مني خليقةٌ ... فَسُلِّي ثيابي من ثيابك تنسُلِ[٥]
وما ذرفتْ عيناكِ إلا لتضربي ... بسهميكِ في أعشار قلب مُقتَّل[٦]
وبيضة خِدر لا يُرامُ خِباؤها ... تمتعتُ من لهوٍ بها غير مُعْجَل[٧]
تجاوَزْتُ أحراساً إليها ومعشرا ... عليَّ حِراصاً لو يُسِرُّون مقتلي[٨]
إذا ما الثّريا في السماء تعرضت ... تعَرُّضَ أثناءِ الوشاح المفصَّل[٩]
فجئتُ وقد أنضتْ لنومٍ ثيابها ... لدى السِّتر إلا لبسة المتفَضِّل[١٠]
فقالتْ يمين الله ما لكَ حيلةٌ ... وما إن أرى عنك الغِوايةَ تنجلي[١١]

---

(١) في هذا البيت صورة فاتنة من صور الجماع.
(٢) تعذرت: تمنعت. أي مضت في عنادها وتجنيها. التّ حلفة: أقسمت يمينا؛ لم تحلل: لم تقيد اليمين يحلها هو ولم يستثن فيها.
(٣) أزمع الأمر، وأزمع عليه: إذا ثبت عزمه على إمضائه. الصّرم بفتح الصّاد وضمها: الهجر والقطيعة. والإجمال: الرّفق.
(٤) مكبل: مقيد.
(٥) الخليقة: السّجيّة والطبيعة. والثياب هنا القلب. وتنسل: تسقط. والمعنى: إذا ساءتك خصلة من خصالي فسلي قلبي من قلبك.
(٦) السّهام: العيون. قلب مقتل: أهلكه العشق.
(٧) بيضة الخدر: كنايّة عن المرأة المخدرة المحجبة. غير معجل: غير مضطر إلى العجلة.
(٨) الأحراس: الحرس. وحراص: جمع حريص. وأسرّ الأمر: أضمره.
(٩) الوشاح: أديم عريض يرصع بالجوهرة تشده المرأة بين عاتقها وكشحها. والوشاح المفصل: هو المرصع بالذهب أو الزبرجد.
(١٠) أنضى الثياب: خففها. والمتفضل: هو الذي يلبس ثوباً واحداً حين يأوي إلى فراشه.
(١١) ما لك حيلة: أي لا بصر لك بعواقب الأمور.

obeikandi.com

خرجتُ بها أمشي تجرُّ وَراءَنا على أثرَيْنا ذيلَ مِرطٍ مُرَحَّلِ[١]
فلمّا أجَزنا ساحةَ الحيِّ وانتحت بنا بطنَ خَبْتٍ ذي حقاف عَقَنْقَلِ[٢]
هَصَرْتُ بفوْدَيْ رأسِها فتمايلتْ عليَّ هَضيم الكشح ريَّا المُخَلْخَلِ[٣]
مُهَفهفةٌ بَيضاءُ غيرُ مُفاضةٍ ترائبُها مصقولةٌ كالسَّجَنْجَلِ[٤]
كبكر المقاناةِ البَياض بصُفرة غذاها نمير الماءِ غَيْرُ المُحَلَّلِ[٥]
تَصُدُّ وتُبْدي عن أسيل وتتَّقي بناظرةٍ من وَحش وَجْرة مُطفِلِ[٦]
وجيدٍ كجيد الرّئم ليس بفاحش إذا هي نَصَّتْهُ ولا بمُعَطَّلِ[٧]
وفرْع يزينُ المتنَ أسْوَدَ فاحم أثيث كقِنو النّخلة المُتَعَثكل[٨]
غدائرُهُ مُستشزراتٌ إلى العُلى تَضِلُّ المدارى في مُثنى ومُرْسل[٩]
وكشح لطيف كالجديل مُخَصَّر وساق كأنبوب السّقيّ المُذَلَّل[١٠]

---

(١) المرط: كساء من صوف أو خز. مرجل: فيه صور رجال، بالحاء فيه صور رحال.
(٢) جزت المكان: قطعته وخلفته. انتحت: قصدت، الخبت: الفضاء الواسع. والعقنقل: الوادي العظيم.
(٣) هصرت فوديها: أملتهما إليّ، والفودان: جانبا الرّأس. هضيم الكشح: دقيقة الخصر. ريا المخلخل: بضة السّاق.
(٤) مهفهفة: ضامرة البطن. غير مفاضة: غير مسترخيّة اللحم؛ التّرائب: موضع القلادة من الصّدر. والسّجنجل: المرآة المجلوة.
(٥) المقاناة: الخلط، الشّاعر يشبه خليلته ببيضة النّعام لأوّل عهدها بمزج الصّفرة بالبياض. المحلل: الذي كدرته الإبل. يصف حبيبته بأنها لا تشرب المّاء المحلل كسائر الأعرابيات، وإنما هي سيدة مترفة تشرب المّاء النّمير.
(٦) تصد: تصدف، تبدي: تعيد الصّد، أي تصد. الأسيل: الرّقيق، صفة لموصوف محذوف هو الخد، وجرة: مكان لتربيّة الوحوش بين مكة والبصرة. ومطفل: ذات طفل. والمعنى: تصد عن خد أسيل وتتقي المحب بعين مملوءة بالعطف، كما تنظر إلى طفلها الظبيّة الرّؤوم.
(٧) الرّئم: الظبي. نضته: رفعته. معطل وعاطل: لا حليّة فيه.
(٨) الفرع: الشعر.
(٩) مستشرزات: مرتفعات. والغدائر: خصل الشعر. المداري: الأمشاط.
(١٠) الجديل: الوشاح. والمذلل: اللين، ومنه شجرة مذللة معطفة الأغصان، ينالها كل أحد.

obeikandl.com

ويُضْحي فتيتُ المِسك فوق فِراشها نؤوم الضحى لم تَنتطق عن تَفَضُّل[١]
وتعطو بِرَخْصٍ غيرِ شَثْنٍ كأنه أساريع ظبي آو مساويك إسحل[٢]
تضيءُ الظلام بالعشاءِ كأنها مَنارَةُ مُمْسى راهب مُتبتِّل[٣]
إلى مِثلها يَرْنو الحليم صبابة إذا ما اسبكَرَت بين دِرع ومِجْوَلِ[٤]
تسلَّتْ عماياتُ الرّجال عن الصّبا وليس فؤادي عن هواها بمُنْسَلِ[٥]
ألا رُبَّ خَصم فيكِ لَوى رَدَدْته نصيح على تعذاله غير مؤتَلِ[٦]
وليلٍ كموْج البحر أرخى سُدُولهُ عليّ بأنواع الهموم ليبتلي[٧]
فقلت له لما تمطَّى بِجَوْزِهِ وأرْدَفَ أعجازاً وناءَ بِكَلْكَلِ[٨]
ألا أيها الليلُ الطويل ألا انْجَلِ بصبح وما الإصباح منك بأمثل[٩]
فيَا لكَ من ليل كأن نجومه بكل مُغارِ الفَتل شُدّت بيَذْبُل[١٠]
كأن الثريّا عُلقت في مَصامِها بأمْراس كتّان إلى صُمِّ جَندل[١١]

---

(١) انتطقت المرأة: لبست المنطق أو النّطاق، والتّفضل: لبس الثوب الواحد. وعن هنا: بمعنى بعد، أي: لم تلبس المنطق بعد المفضل. يريد أنها لم تكتس بعد عري، ونوم الضحى من عادات المترفات.

(٢) العطو: التّناوّل. ورخص: لين ناعم، وهو وصف للبنان. وشثن: خشن. وأساريع: جمع أسروع وهو دود يكون في البقل والأماكن النّديّة. والإسحل: جشر يستاك به.

(٣) يقول: تضيء محبوبتي الظلام كأنها منارة الرّاهب في المساء.

(٤) اسبكرت: اعتدلت واستقامت، ودرع المرأة: قميصها.

(٥) تسلت: تكشفت وانزاحت. عمايات: جمع عمايّة، وهي الغوايّة والضلال. ومنسل: سال، ولم يسل عن هواها فؤادي.

(٦) ألوى: عسر. والتّعذل والعذل: اللوم. غير مؤتل: غير مقصر.

(٧) السّدول: السّتور. يبتلي: يختبر. هو يصف الليل بتعمد إيذائه.

(٨) تمطى الليل: طال. والجوز: الوسط، وفي روايّة: بصلبه. ناء: نهض. والكلكل: الصّدر.

(٩) أمثل: أفضل، يذكر أن همومه موصولة، فليس الصّبح خيراً من الليل.

(١٠) مغار: محكم شديد. ويذبل: اسم جبل؛ يصف نجوم الليل بالثبات.

(١١) في مصامها: في موضعها، أمراس: جمع مرس وهو الحبل. والجندل الأصم: الحجر الصّلب.

وقربةِ أقوامٍ جعلتُ عصامها ... على كاهِل مني ذَلول مرحّلِ[١]
وواد كجوفِ العيرِ قَفر قطعتُهُ ... به الذِّئبُ يَعْوي كالخليع المعيَّل[٢]
فقلتُ له لمّا عَوىَ: إن شأننا ... قليلُ الغِنى إن كنت لمّا تَمَوَّلِ[٣]
كلانا إذا ما نالَ شيئاً أفاتَه ... ومن يَحترث حَرْثي وحَرْثَكَ يهْزُل[٤]
وقد أغْتدي والطيرُ في وكناتِها ... بمنجردٍ قيد الأوابدِ هيكل[٥]
مِكرٍّ مِفرٍّ مُقبل مُدبِرٍ معاً ... كجلمود صخْر حطّه السّيلُ من عل[٦]
كميتٍ يزلُّ اللبدُ عن حال متنه ... كما زَلَّتِ الصفْواءُ بالمتنزِّل[٧]
على العقبِ جياش كأن اهتزامه ... إذا جاش فيه حَميُه غليُ مرْجَل[٨]
مِسَحٍّ إذا ما السّابحات على الونى ... أثرْن غباراً بالكديدِ المُرَكَّل[٩]
يزِلُّ الغلامُ الخِفُّ عن صهواتِهِ ... ويُلوي بأثواب العنيفِ المُثَقَّلِ[١٠]
دَرير كخذْروف الوليدِ أمَرّه ... تتابعُ كفَّيْهِ بخيطٍ موصّل[١١]

---

(١) العصام: حبل تربط به القربة. ومرحل: كثير الحمل والتّرحيل.
(٢) يقال للموضع الذي لا خير فيه، والمعيل: المسيب الذي ألقى حبله على غاربه.
(٣) تمول: صار ذا مال.
(٤) أفاته: ضيعه. من يحترث حرثي وحرثك: من هو مثلنا، ويهزل: يضعف.
(٥) وكنات: العش. وفرس أجرد ومنجرد: قصير الشعر رقيقه. الأوابد: الوحش النّافرة، وقيد الأوابد: مبالغة في سرعة العدو، والهيكل: الضخم من كل شيء.
(٦) مكر مفر: سريع الكر والفر. من عل: من فوق. يصف عدو الفرس في كره وفره وإقباله وإدباره بجلاميد الصّخر تحطها السّيول.
(٧) كميت: خالط حمرته سواد. ويزل: يسقط. عن حال متنه: عن وسط ظهره. الصّفواء: الملساء. المتنزل: المطر ينزل من السّماء.
(٨) وجياش: إذا حركته بعقبك جاش كما يجيش البحر بالأمواج. اهتزامه: صهيله، المرجل: القدر. يشبه صهيل جواده حين يجيش حميه بالقدر حين تفور.
(٩) مسح: عداء. السّابحات والسّوابح: الخيول. الونى: الضعف والتّعب. الكديد: الأرض تكدها بحوافرها الدواب. المركل: المكدود.
(١٠) الخف: الجلد أو الخفيف. العنيف: من لا رفق له بركوب الخيل، المثقل: الثقيل. يريد أنه لا يذل لغير سيده، وهو وصف بديع.
(١١) درير: كثير الجري، الوليد: الصّبي. والخذروف: شيء يدوره بخيط فيسمع له دوي نحلة أو بلبل. أمرّه: فتله.

لـهُ أيْـطـلا ظَـبـي وسـاقـا نـعـامـةٍ وإرخـاءُ سـرحـانٍ وتـقـريـبُ تـتـفُـل[١]
ضـلـيـعٍ إذا اسْـتَـدْبَـرْتُـه سَـدَّ فـرْجَـهُ بـضـافٍ فُـوَيْـقَ الأرض لـيس بـأعْـزَل[٢]
كـأنّ عـلـى الـمَـتْـنَـيْـنِ مـنـه إذا انْـتَـحـى مَـداك عَـروسٍ أو صـلايّـة حَـنـظـل[٣]
كـأنّ دمـاء الـهـاديـاتِ بِـنَـحْـره عُـصـارةُ حِـنـاءٍ بِـشَـيـبٍ مُـرَجّـل[٤]
فـعـنَّ لـنـا سِـرْبٌ كـأن نِـعـاجَـهُ عـذارى دَوارٍ فـي مُـلاءٍ مُـذَيَّـل[٥]
فـأدبـرن كـالـجـزْعِ الـمـفـصّـل بَـيْـنَـهُ بـجـيـدٍ مُـعـمٍّ فـي الـعـشـيـرة مُـخـوَل[٦]
فـألـحَـقَـنـا بـالـهـاديـات ودُونَـهُ جـواحِـرُهـا فـي صَـرّة لـم تُـزَيَّـل[٧]
فـعـادى عـداء بـيـن ثَـوْر ونَـعْـجَـة دِراكـاً ولـم يـنـضَـحْ بـمـاء فـيُـغْـسَـل[٨]
فـظَـلّ طـهـاةُ الـلـحْـم مـا بـيـن مُـنْـضِـجٍ صـفـيـفَ شِـواء أو قَـديـرٍ مُـعـجَّـل[٩]
ورُحْـنـا يـكـادُ الـطّـرْفُ يَـقـصُـرُ دونـه مـتـى مـا تَـرَقّ الـعـيـنُ فـيـهِ تَـسَـفّـلِ[١٠]
فـبـاتَ عـلـيـه سَـرجُـهُ ولـجـامُـهُ وبـات بـعَـيْـنـي قـائـمـاً غـيـرَ مُـرْسـل[١١]

---

(١) الأيطل: الكشح. السّرحان: الذئب. والتّقريب: رفع اليدين معاً.
(٢) ضليع: قوي الجنبين. استدبرته: نظرت إليه من خلف.
(٣) المداك والمدوك: الصّلايّة. يذكر أن الجواد إذا انتحى ناحيّة وهو غير مسرج رأيت ظهره براقاً لامعاً كما تلمع صلايّة الحنظل ومداك العروس. وإنما خص صلايّة الحنظل لمّا يترك بها من الدهن اللامع، وخص مداك العروس لقرب عهده بالطيب. وإن امرأ القيس لشاعر فنان!.
(٤) الهاديات: المتقدمات، ويريد بها هنا الفرائس. مرّجل: مسرح، اسم صنم. مذيل: طويل الأطراف.
(٥) عنّ: عرض. السّرب: القطيع. النّعاج: البقر. دوار: اسم صنم. مذيل: طويل الأطراف.
(٦) الجزع: الخرز، لأن لونه يجزع إلى بياض وسواد. والمفصل بينه: أي الذي فصل بين حباته بالذهب أو الزبرجد، الجيد: العنق. المعمم والمخول: كرام العم والخال. يشبه النّعاج بالجزع المفصل في جيد من كرم عنه وخاله.
(٧) الهاديات: السّابقات المتقدمات. الجواحر: المتخلفات، في صرة: في صياح شديد، لم تزيل: لم تتفرق.
(٨) عادى عداء: جمع بين ثور ونعجة. دراكاً: تباعاً، لم ينضح بماء: لم يعرق.
(٩) الطهاة: بجمع طاه، وهو الطباخ. لحم صفيف: صف على النّار ليشوى وفي الشّمس ليقدّد.
(١٠) يكاد الطرف يقصر دونه: أي: أن العين لا تقدر على حصر محاسنه. ترق: تنظر إلى أعلا. تسفل: تنظر إلى أسفل.
(١١) يريد أنه بات مقيداً مسرجاً ملجماً، ليتطيع الفارس امتطاءه متى شاء.

أصاحِ، ترى برْقاً أُريك وميضَهُ كلمعِ اليدين في حَبيٍّ مَكلَّل[١]
يُضيءُ سناهُ أو مَصابيحُ رَاهِب أهانَ السّليط بالذُّبالِ المفَتَّل[٢]
قَعَدْتُ وأصحابي لهُ بين ضارجٍ وبَين العُذَيْبِ، بُعدَ ما مُتأمَّلي[٣]
على قَطنٍ بالشّيْمِ أيمنُ صوْبه وَأيْسَرهُ على السّتار فيَذْبُل[٤]
فأضْحى يسحُّ الماءَ حَول كُتفْيةٍ يكبُّ على الأذقانِ دَوْح الكنَهْبل[٥]
ومَرّ على القنانِ مِنْ نفيانهِ فأنزَل مِنهُ العُصْمَ من كلِّ مَنزِل[٦]
وَتَيماءُ لم يترُك بها جِذعَ نخلة ولا أُطُماً إلا مشيداً بجَنْدَل[٧]
كأنّ ثبيراً في عَرانينِ وَبْلهِ كَبيرُ أُناسٍ في بجاد مُزمّل[٨]
كأن ذُرا رأس المجيمرِ غدوةً من السيل والغثاء فلكة مِغْزَل[٩]
وألقى بصحْراءِ الغَبيط بَعاعَه نزول اليماني ذي العياب المُحَمَّل[١٠]
كأن مُكاكيَّ الجواءِ غُدَيَّةً صُبحن سُلافاً من رَحيق مُفَلْفَل[١١]
كأن سباعاً فيه غرْقى عشِيَّةً بأرْجائه القصوَى أنابيشُ عُنْصُلِ[١٢]

---

(١) ومض البرق ومضاً ووميضاً وومضاناً: لمع لمعاناً خفياً، الحبي: الحباب المتراكم.
(٢) السّليط: الزيت الجيد، الذبال: جمع ذابلة، وهي فتيلة المصباح. وفي روايّة: أمال.
(٣) ضارج: اسم ماء ببلاد طيء. والعذيب: اسم ماء قريب منه. ومتأمل: أي: مأمول.
(٤) قطن: اسم جبل. الشّيم: النّظر إلى البرق. الصّواب: أي: المطر. والسّتار ويذبل: جبلان.
(٥) يسح المّاء: يسكبه، وكتيفة: اسم أرض. دوح: جمع دوحة وهي الشّجرة العظيمة. والكهنبل: نوع من الشّجر الضخم.
(٦) القنان: اسم جبل لبني أسد. نفيان المطر: رشاشه. العصم: الوعول ومفردها أعصم سميت بذلك لاعتصامها بالحبال.
(٧) تيماء: اسم أرض. الأطم: القصر. يريد أن المطر لم يترك بتيماء إلا جذوع النّخل وما شيد بالصّخر من الآطام والديار.
(٨) ثبيراً: اسم جبل. عرانين وبله: في طغيان وبله. البجاد: كساء مخطط يلبسه كبار الأعراب. مزمل: ملفف.
(٩) المجمر: اسم جبل، وذرا رأسه: أعاليه. الغثاء: ما يخالط زبد السّيل من روق الشّجر والحشيش.
(١٠) الغبيط: أرض لبني يربوع. بعاعه: ثقله. العياب: جمع عيبة، وهي ما يضع الرّجل فيه متاعه.
(١١) المكاكي: ضرب من الطير يصيح في الغدوات. صبحن: شربن شراب الصّباح. السّلاف والسّلافة: صفوة الخمر. الرّحيق: الخمر، مفلفل: وضع عليه فلفل يريد أنه لذاع.
(١٢) الأنابيش: جمع أنبوش وهو أصل البقل. والعنصل: البصل البري.

(٢) النَّابغة الذُّبيَاني

هو النّابغة الذُّبياني أبو أُمامة زِيادُ بن معاويّة. أحدُ فحولِ الطبقة الأوّلى من شعراءِ الجاهليّة، وزعيمهم بعُكاظ، وأحسنهُم دِيباجَةَ لفظٍ، وجَلاَءَ معنى، ولُطْفَ اعتذار. ولُقّبَ بالنّابغة لنُبُوغه في الشعر فجاءَة وهو كبير، بعد أن امتنع عليه وهو صغير. وهو من أشراف ذُبيان إلّا أن تكَسُّبه بشّعره غَضَّ من شرفه، على أنه لم يتكسّب بشعره إلّا في مدح ملوك العرب. وكان من أمره في ذلك، أنه اتصل بملوك الحيرة ومدحهم وطالت صُحبته للنعمان بن المُنْذر، فأدناه منه إلى أن وشى به عند النّعمان أحد بِطانته، فغضب عليه وهمّ بقتله. فأسرّ إليه بذلك حاجبُهُ عِصام، فهرب النّابغة إلى ملوك غَسَّان المنافسين للمناذرة في مُلْك العرب، فمدح عَمرو بنَ الحارث الأصغر وأخاه النُّعمان. غير أن قديم صحبته للنُّعمان جعله يحنُّ إلى معاودة العيش في ظلاله، فتنصّل مما رُمي به، واعتذر إليه بقصائد عطفتْ عليه قلبه. وعُمّر النّابغة طويلاً ومات قُبيل البِعثة.

شعره: يمتاز برَشَاقة اللفظ ووضوح المعنى، وحسن النّظم، وقلة التّكلف، حتى عُدَّ عند المُدقّقين من الشعراء كجرير أنه أشعر شعراء الجاهليّة. وأغراه تكسُّبه بالشعر أن يَفْتنَّ في ضروب المدح، حتى مدح الشيء وضدّه.

ومن جيد قوله في الاعتذار:

[الطويل]

آتاني ـ أبيتَ اللّعنَ[١] ـ أنك لُمْتني ... وتلك التّي أهتمُّ[٢] منها وأنصَبُ[٣]
فبتُّ كأنّ العائدات[٤] فرَشْنَني ... هَرَاسا[٥] به يُعْلَى فِرَاشي ويقْشَبُ[٦]
حلفتُ فلم أترك لنفسك رِيبةً ... وليس وراءَ الله للمرء مطلبُ
لئن كنتَ قد بلّغتَ عني جنايةً[٧] ... لَمُبْلِغُك الواشي[٨] أغشُّ وأكذبُ

---

(١) جملة دعائيّة يخاطبون بها الملوك تحيّة. ومعناها: أبيت أن تفعل شيئاً تلعن به. وكانت هذه تحيّة ملوك لخم وجذام.
(٢) أصير لأجلها ذا همّ.
(٣) أنصب: أتعب.
(٤) العائدات: الزائرات في المرض.
(٥) هراساً: شوكا كأنه حسك.
(٦) يقشب: يخلط.
(٧) جنايّة: ذنباً وفي رواية: خيانة.
(٨) الواشي: النّمام.

ولكنني كنتُ امرأً ليَ جانبٌ[١] من الأرض فيه مُسْتَرادٌ[٢] ومَذْهَبُ
ملوكٌ[٣] وإخوان إذا ما أتيتُهم أُحكَّمُ[٤] في أموالهم وأُقَرَّبُ
كفعلك في قومٍ أراك اصطنعتهم فلم تَرهم في شكرهم لك أذنَبُوا[٥]
فلا تَتْرُكنّي بالوَعيد كأنّني إلى النّاس مَطْليٌّ به القارُ[٦] أجربُ
ألم ترَ أن الله أعطاك سَوْرَةً[٧] تَرَى كلَّ مَلْكٍ دونها يتَذبْذَبُ[٨]
وإنك شمسٌ والملوك كواكبٌ إذا طلعت لم يبدُ منهن كوكبُ[٩]
ولستَ بمُسْتبْق أخاً لا تَلُمُّه على شَعَثٍ أيُّ الرّجال المهذَّبُ[١٠]
فإن أكُ مظلوماً[١١] فعبدٌ ظلمتَه وإن تك ذا عُتبى[١٢] فمثلك يُعْتِبُ[١٣]

مُعلقة النّابغة الذبياني

[البسيط]

عوجُوا فحيوا لِنُعمٍ دمنة الدار ماذا تحيون من نؤي وأحجار؟[١٤]
أقوى وأقفر من نُعْم وغَيَّرَه هُوْجُ الرّياح بهابي التّرب موّار[١٥]

---

(١) الجانب: النّاحيّة وأراد به الشّام.
(٢) مستراد: موضع يتردّد فيه لطلب الرّزق.
(٣) ملوك: بدل من مستراد ومذهب، أو مبتدأ بتقدير فيه ملوك.
(٤) أحكم: أتصرف كيف أشاء.
(٥) قال الأصمعي: كما فعلت أنت بقوم قربتهم وأكرمتهم فتركوا الملوك ولزموك فلم تر ذلك ذنباً عليهم.
(٦) القار: القطران.
(٧) سورة: منزلة رفيعة وشرفاً.
(٨) يتذبذب: يضرب.
(٩) أراد بهذا البيت والذي قبله تسليّة النّعمان على ما حصل منه من مدحه لآل جفنة.
(١٠) تلمه: تصلحه. والشّعث: الفساد. المهذب: المنقى من العيوب. يعتذر بذلك عن زلته أو المعنى أي الرّجال يكون مبرأ من العيوب فإن قطعت إخوانك بذنب لم يبق لك أخ.
(١١) جعل غضبه ظلمًا لأنه عن غير موجب.
(١٢) عتبى: رضا. (١٣) يعتب: يرضى.
(١٤) عوجوا: قفوا. الدمنة: ما اجتمع من آثار الديار. النّؤي: ما يكون حول الخباء لمنع المطر.
(١٥) أقوى: خلا. أقفر: صار قفراً. هوج: جمع أهوج، الرّيح تعصف بشدة. هابي التّرب: سافيه، موار: يجيء ويذهب.

obeikandl.com

وقفت فيها سراة اليومِ أسألُها عن آل نُعم أموناً عبرَ أسفار[١]
فاستعجمت دارُ نعم ما تُكلمنا والدار لو كلمتنا ذات أخبَار[٢]
فما وجدت بها سيئاً ألوذ به إلا الثمامَ وإلا مَوْقدَ النار[٣]
وقد أراني ونعماً لاهيَيْنِ معاً والدهر والعيش لم يَهْمُمْ بإمرار[٤]
أيام تخبرُني نعم وأخبرها ما أكتم النّاس من حاجي وأسراري
لولا حبائل من نعم علقتُ بها لقصر القلب عنها أي إقصار[٥]
فإن أفاق لقد طالتّ عمايته والمرء يخلق طوراً بعد أطوار[٦]
نُبئت نعماً على الهجران عاتبة سقياً ودعياً لذاك العاتب الزاري
رأيت نعماً وأصحابي على عَجَل والعيس للبين قد شدّت بأكوار
فريع قلب وكانت نظرةً عرضت حيناً وتوفيقَ أقدار لأقدار[٧]
بيضاء كالشّمس وافتْ يومَ أسعدها لم أؤذِ أهلاً ولم تفْحِش على جار
تلوثُ بعد افتضال البرد مئزرها لوثاً على مثل دِعْص الرّملة الهاري[٨]
والطيب يزداد طيباً أن يكون بها في جيد واضحةِ الخدّين معطار[٩]
تسقي الضجيعَ إذا استقى بذي أشر عذب المذاقة بعد النّوم مخمار[١٠]
كأن مشمولة صرفاً بريقتها من بعدِ رقدتها أو شهد مُشتار[١١]

---

(١) سراة اليوم: وسطه. والأمون: النّاقة القويّة المأمونة.
(٢) استعجمت: عيت الجواب.
(٣) ألوذ به: أفزع إليه. الثمام: نوع من النّبت الدقيق الضعيف.
(٤) أمر العيش إمراراً: صار مراً.
(٥) الحبائل: جمع حبالة وهي الشّرك. أقصر: كف وانصرف.
(٦) العمايّة: الضلالة. الطور: الحال. يخلق: يتغير.
(٧) ريع: من الرّوع وهو الفزع. الحين: الهلاك.
(٨) تلوث: تلف. افتضال البرد هو التّوشح به. الدعص: الكثيب الصّغير. الهاري: المنهار.
(٩) الجيد: العنق. معطار: كثير العطر. وضوح الخد: إشراقه.
(١٠) الأشر: حسن الثغر وتحريز أطرافه. مخمر: عطر. تقول: وجدت خمرة الطيب أي: رائحته.
(١١) المشمولة: الخمر. الصّرف: الخالصة. الرّيقة: الرّيق. المشتار: الذي ينزع العسل من بيوت النّحل.

أقولُ والنجمُ قد مالت أواخرُهُ إلى المغيب: تثبّتْ نظرةً حارِ[١]
ألمحةٌ من سنا برقٍ رأى بصري أم وجهُ نعم بدا لي أم سنا نار
بل وجهُ نعم بدا والليل مُعتكرٌ فلاح من بين أثوابٍ وأستار
إنّ الحمول التّي راحتْ مُهَجَّرة يتبِعْنَ كلّ سفيه الرأي مغيار[٢]
نواعمٌ مِثل بيضاتٍ بمحنية يحفزن منه ظليماً في نقاً هار[٣]
إذا تغنى الحمامُ الوُرقُ هيّجني وإن تغرّبت عنها أم عمّار[٤]
وَمَهْمَهٍ نازحٍ تعوي الذئابُ به نائي المياه عن الوُرّاد مقفار[٥]
جاوزْتهُ بعلنداةٍ مناقَلةٍ وعر الطريق على الإحزان مضمار[٦]
تجتابُ أرضاً إلى أرض بذي زجل ماض على الهول هاد غير محيار[٧]
إذا الرُّكاب ونت عنها ركائبها تشذّرت ببعيد الفتر خطار[٨]
كأنما الرَّحلُ عنها فوق ذي جدّد ذب الرِّياد إلى الأشباح نظار[٩]
مطرِّد أفردت عنه حلائله من وحش وجرة أو من وحش ذي قار[١٠]

---

(١) حار: مرخم حارث.
(٢) الحمول: الهوادج ويريد بها النّساء. راحت مهجرة: سارت وقت الهجير. مغيار: غيور.
(٣) المحنيّة والمحنو: منعطف الوادي.
(٤) الورق: جمع ورقاء، وهي الحمامة تألف الشّجر الوريق. وأم عمار واقعة موقع البدل من الضمير في (عنها).
(٥) المهمه: الوادي الموحش. نازح: بعيد. الوراد: جمع وارد. مقفار: لا أنيس به.
(٦) علنداة: شديدة وهو وصف للناقة. مناقلة: سريعة نقل القوائم في جري بين العدو والخبب. الإحزان: المشي في الحزن، وهو ما صلب من الأرض. مضمار: كثير الضمور.
(٧) تجتاب: تقطع وتجوب. الزجل: الصّوت. محيار: شديد الحيرة.
(٨) ونت: من الونى، وهو الضعف. تشذرت: نشطت. الفتر: الضعف. خطار: كثير الخطران برجليه على النّاقة يحثها على المضي.
(٩) ذو الجدّد: هو ثور الوحش تعلو ظهره خطوط بيض وحمر. الذب: الدفع. الرّياد والارتياد: التّجول.
(١٠) مطرد: مشرد. وجرة وذو قار: موضعان، والوحش إذا أفردت عنه حلائله جن وأكثر من العدو في أرجاء الفضاء.

مجرَّس وَحَدٌ جأب أطاع له نبات غيث من الوسمي مِبكار[١]
سراته ما خلا لبانه لهقٌ وفي القوائم مثل الوشم بالقار[٢]
باتت له ليلةٌ شهباءُ تسعفه بحاصب ذات إشعان وإمطار[٣]
وباتَ ضيفاً لأرطاةٍ وألحأهُ مع الظلام إليها وابل سار[٤]
حتى إذا ما انجلت ظلماء ليلته وأسفر الصبحُ عنه أيَّ أسفار
أهوى له قانص يسعى بأكلبه عاري الأشاجع منْ قناص أنمار[٥]
محالفُ الصيدِ هبّاشٌ له لحَم ما إن عليه ثيابٌ غير أطمار[٦]
يسعى بغضب برها فهي طاويةٌ طول ارتحال بها منه وتَسْيار[٧]
حتى إذا الثورُ بعد النّفر أمكنه أشلى وأرسل غطفاً كلها ضار[٨]
فكرّ محمية من أن يفر كما كرَّ المحامي حفاظاً خشيّة العار[٩]
فشكّ بالرّوق منه صدرُ أولها شك المشاعب أعشاراً بأعشار[١٠]
ثم انثنى بعدُ للثاني فأقصده بذاتِ ثغر بعيد القعر نعَّار[١١]

---

(١) مجرس: خائف وذلك أن يسمع جرس الإنسان أي: صوته. وحد: وحيد. جأب: صلب شديد تطاع له الكلأ. أطاع: إذا اتسع وأمكن رعيه حيث شاء. الوسمي: أوّل المطر، ومثله المبكار.
(٢) سراته: ظهره. لبانه: صدره. لهق: أبيض. القار: شيء أسود تطلى به السّفن.
(٣) ليلة شهباء ويوم أشهب: تهب فيهما ريح باردة. تسعفه: تلفعه وترميه. الحاصب: الرّيح تقذف بالحصباء وهي الحصى.
(٤) الأرطاة: شجرة مرة. الوابل: المطر الغزير. السّاري: يسح بالليل.
(٥) أهوى له: انقض عليه. أكلبه: كلابه. الأشاجع: أصول الأصابع التّي تتصل بعصب ظاهر الكف. وعريها محمود في الرّجال. أنمار: اسم لقبيلة مشهورة بالصّيد.
(٦) هباش: كثير الهبش وهو الكسب يتكسب لهم ومعه هباشات، أي: مكاسب. أطمار: جمع طمر، وهو الثوب الخلق.
(٧) الغضب: جمع أغضب، وهو اللين النّاعم. طاويّة: جائعة.
(٨) النّفر: العدو. أشلي: تقول أشليت الكلب للصيد.
(٩) محميّة وحفاظ والمحامي: الذائد والمدافع.
(١٠) الرّوق: القرن. المشاعب: الذي يشعب الفدح ويصدعه.
(١١) أقصده: رماه بذات ثغر، أي: بطعنة ذات ثغر والثغر هنا الشّق. بعيد القعر: بعيد الغور. نعار: له نعير.

وأثبت الثالث الباقي بنافذة ... من باسل عالم بالطعن كرّار[١]
وظل في سبعة منها لحِقنَ به ... يكرُّ بالروق فيها كرّ إسوار[٢]
حتى إذا ما قضى منها لُبانتهُ ... وعاد فيها بإقبال وإدبار[٣]
انقض كالكوكب الدريّ منصلتاً ... يهوي ويخلط تقريباً بإحضار[٤]
فذاك شِبهُ قلوصي إذ أضرّ بها ... طول السُّرى والسّرى من بعد أسفار[٥]
لقد نهيت بني ذبيان عن أقر ... وعن ترَبعهم في كل أصفار[٦]
فقلت يا قوم إن الليث منقبضٌ ... على برائِنهِ لوثبة الضاري[٧]
لا أعرفن رَبرَباً حوراً مدامعُها ... كأنهنّ نعاجٌ حَوْلَ دَوّار[٨]
ينظرْنَ شزراً إلى مَن جاء عن عرُض ... بأوجه منكرات الرّق أحرار[٩]
خلفَ العضاريط لا يوقين فاحشة ... مستمسكات بأقتاب وأكوار[١٠]
يذرفن دمْعاً على الأشفار منحدراً ... يأمُلن رحلة حصن وابن سيّار[١١]
إما عُصيت فإني غيرُ منفلت ... مني اللصابُ فجنبا حَرّة النار[١٢]

(١) نافذة: أي ماضيّة. باسل: من البسالة وهي الشّجاعة.
(٢) الإسوار: الرّامي الحاذق!.
(٣) لبانته: حاجته.
(٤) منصلتاً: من الانصلات وهو المضي في سرعة.
(٥) القلوص: النّاقة. السّرى: السّير بالليل.
(٦) أقر: واد خصيب حماه النّعمان. وبنو ذبيان قوم النّابغة.
(٧) منقبض على برائنه: متحفز للوثوب وثبة الأسد الضاري.
(٨) الرّبرب: القطيع من البقر شبه به النّساء. حور: جمع حوراء، من الحور وهو شدة بياض العين مع شدة سواد سوادها. المدامع: العيون. النّعاج: يريد بها هنا أيضاً النّساء. دوار: صنم كن يطفن حوله.
(٩) النّظر الشّزر: هو النّظر في إعراض بؤخر العين كنظر الباغض. العرض: الجانب. منكرات الرّق أحرار: صفة للنساء يرميهن السّبي بالعبوديّة.
(١٠) العضاريط: الخدم. لا يوقين فاحشة: يريد أن السّبي عرضهن للمنكر أي: الفحشاء. الأقتاب: جمع قتب، وهو عود الرّحل. الأكواع: الرّحال.
(١١) الأشفار: منابت الهدب.
(١٢) اللصاب: جمع لصب وهو الشّعب الضيق من الجبل. والحرة: أرض ذات حجارة سود نخرت كأنها حرقت بالنّار.

إذ أصنع البيت في سوداء مظلمة تقيدُ العير لا يسري بها السَّاري[١]
تدافَعَ الناسُ عنّا حينَ نركبُها منَ الظالم تدعى أم صبار
ساق الرّفيدات منْ جوْش ومن خرَدٍ وماش من رهط ربعيٍّ وحَجّار[٢]
قرميْ قضاعة حلًّا حولَ حجرَته مدّا عليه بسلاف وأنفار[٣]
حتى استقل بجمع لا كفاء له يقفي الوحوش عن الصّحراء جرار[٤]
لا يخفضُ الرّزّ عن أرض ألمَّ بها ولا يضل على مصباحهِ الساري[٥]
وعيرَتني بنو ذبيان خشيتهُ وهل عليّ بأن أخشاك من عار

(٣) زُهير بن ابي سُلمى

هو زُهير بن أبي سُلْمى ربيعة بن رياح المُزَنيُّ، ثالثُ فحول الطبقة الأوّلى من لجاهليّة، وأعفُّهم قولاً، وأوجزهُم لفظاً، وأغْزَرهم حكمةً، وأكثرهم تهذيباً لشعره.

نشأ في غَطفَان وإن كان نسبهُ في مُزَينَةَ، من بيت جُلُّ أهله شعراءُ، رجالاً ونساءً. واختصّ زُهيرٌ بمدح هَرِم بن سنان الذُّبياني المُرّي. وأوّلُ ما أعْجَبَه من أمره وحبَّبَ إليه مدحه حُسنُ سعيه هو والحارثُ بن عَوف في الصّلح بين عبس وذُبيان في حرب داحس والغبراء، بتحمُّلهما دياتِ القتلى التّي بلغت ثلاثة آلاف بعير، وقال في ذلك قصيدته وهي إحدى المعلقات السّبع.

ثم تابع مدحه كما تابع هَرِم عطاءَه حتى حلف ألّا يمدحه زُهير إلّا أعطاه، ولا يسأله إلّا أعطاه، ولا يسلّم عليه إلّا أعطاه عبداً أو وليدةً أو فرساً. فاستحْيا زُهير منه، فكان إذا رآه في ملأ قال: أنْعِموا صباحاً غير هرم وخيرَكم استَثْنيت. وكان زهَير سيداً كثير المال حليماً معروفاً بالورع مُتَدَيّناً مؤمناً بالبعث والحساب كما يظهر من قوله:

(١) سوداء مظلمة: وصف لحرة النّار. تقيد العير: تمنعه من المشي.
(٢) الرّفيدات: بنو رفيدة من كلب بن وبرة. جوش: جبل ببلاد بني القين. ربعي وحجار: رجلان من قضاعة.
(٣) قرمي قضاعة: صفة لربعي وحجار، والمراد الرّجل القوي المتين. حلا: نزلا. مدا عليه: أمداه. السّلاف: من يتقدمون العسكر. الأنفار: من يتكون الجيش من أفرادهم.
(٤) استقل: نهض. لا كفاء له: لا نظير له، والجرار: الجيش الكبير كأنما يجر بعضه بعضاً.
(٥) الرّز: الصّوت. ألم: نزل يعني أنه لا يهاب أرضاً ينزل بها حتى يخفض صوته.

obeikandl.com

[الطويل]

فلا تكتمُنّ الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما يُكتَمِ الله يَعلمِ
يُؤخَّرْ فيُوضَعْ في كتاب فيُدَّخَرْ ليوم الحساب أو يُعَجّلْ فَيُنْقَمِ

وعُمِّر زهير ومات قبل البعثة بسنّة.

وكان زُهير صاحب رويّة وتَعَمّل وتهذيب لما يقول، ولاسيما مطوّلاته، حتى قيل إنه كان ينظم القصيدة في أربعة أشهر، ويهذّبها في أربعة أشهر، ويَعْرضها على خواصّه في أربعة أشهر، فلا يُظهرها إلّا بعدَ حوْل. ولذلك يُسمّون بعض مطوّلاته الحوليات. ومما سبق فيه غيره قوله يمدح هَرِماً:

[البسيط]

قد جعل المُبْتَغون الخيرَ في هَرِم والسّائلون إلى أبوابه طُرُقا
من يلق يوماً على عِلّاته هرماً يلق السّماحةَ منه والنَّدى خُلقا
لو نال حيٌّ من الدنيا بمَكْرُمةٍ أفق السّماء لنالت كفُّهُ الأفقا

وشعره يمتاز أوّلاً: بحسن الإيجاز وحذف فضول الكلام وحشوه، بحيث يودعُ اللفظ اليسير المعنى الكثير.

وثانياً: بإجادة المَدْح وتجنب الكذب فيه.

وثالثاً: بتجنب التّعقيد اللفظي والمعنوي، والبعد من وَحْشي الكلام وغريبه.

ورابعاً: بقلة الهذَر والسّخف في كلامه، ولذلك كان شعره عفيفاً يقلُّ فيه الهجاء وقد هجا قوماً فأوجع، ثم ندم على ما صنع.

ومن أشهر المعلقات والمطولات أيضاً:

مُعلقة زُهير بن أبي سُلمى

[الطويل]

أمِنْ أمّ أوْفى دمنةٌ لم تكلَّمِ بحومانة الدرّاج فالمتثلّمِ(١)

(١) أم أوفى: امرأة زهير. دمنة الدار: الأثر. لم تكلم: لم تظهر أي: أمن دمن أم أوفى دمنة لم تتكلم. وحومانة الدراج: موضع. كذلك المتثلم.

ديارٌ لها بالرّقمتين كأنها مراجيعُ وشم في نواشر معصمِ[١]
بها العِينُ والآرامُ يمشينَ خلفَه وأطلاؤُها ينهضنَ من كل مجثمِ[٢]
وقفتُ بها منْ بعد عشرينَ حِجةً فَلأياً عرَفتُ الدارَ بعدَ توهمِ[٣]
أثافيَّ سعفاً في معرس مرْجل ونُؤياً كجذم الحوْض لم يتثلَّمِ[٤]
فلمّا عرفتُ الدارَ قلتُ لربعها ألا انعِم صباحاً أيها الربعُ واسلمِ
تَبَصَّرْ خليلي هلْ ترى من ظعائن تحمّلن بالعلياء من فوق جُرْثُمِ[٥]
جعْن القنانَ عن يمين وحزْنهُ وكم بالقنان من مُحِلٍّ ومُحْرِمِ[٦]
علوْنَ بأنماط عتاق وكِلَّةٍ ورادٍ حَواشيها مُشاكِهة الدمِ[٧]
ظهرْنَ منَ السّوبان ثمّ جزَعنهُ عَلى كل قيني قشيب ومُفأمِ[٨]
وَوركنَ في السّوبان يعلون مَتنهُ عليهنّ دَل الناعِم المتنعمِ[٩]
بكرْن بَكوراً واستَحَرْنَ بسحرة فهن وَوادي الرّس كاليد للفمِ[١٠]
وفيهن ملهى للصديق ومَنظر أنيق لعين النّاظر المتوسمِ
كأن فتات العِهْنِ في كل منزل نزلنَ به حبُّ الفنا لم يحطمِ[١١]

(١) الرّقمتان: اسم مكان. مراجع الوشم: خطوطه. نواشر المعصم: عروقه.
(٢) العين: البقر. الآرام: الظباء. أطلاؤها: أوّلادها. والمجثم: المكان الذي يقمن فيه يمشين خلفه فوجاً بعد فوج وسرباً بعد سرب.
(٣) حجة: سنّة.
(٤) الأثافي: الحجارة توضع عليها القدر. سفع: سود. معرس المرجل: الموضع الذي يكون فيه. والنّؤي: ما يحفر حول الخيام لمنع السّيل. جذم الحوض: أصله. لم يتثلم: لم يتكسر.
(٥) الظعائن: الجمال عليها الهوادج. العليا وجرثم: موضعان. التّحمل: الارتحال.
(٦) القنان: اسم جبل. الحزن: ما غلظ من الأرض.
(٧) الأنماط: ثياب تفرش بها الهوادج. عتاق: جيدة الحوك. الكلة: السّتارة (النّاموسيّة) وراد: موردة. مشاكهة: مشابهة.
(٨) السّوبان: اسم واد. جزعنه: قطعنه. قشيب: جديد. ومفأم: واسع.
(٩) وركن في السّوبان: عرجن عليه. متنه: ظهره.
(١٠) استحرن: سرين سحراً. كاليد للفم: يريد أنهن في قربهن من وادي الرّس كاليد للفم؛ لأنها لا تخطئه في قربها منه.
(١١) العهن: الصّوف. الفنا: شجر له حب أحمر وفيه نقط سود.

obeikandl.com

فلما وَردنَ الماء زرقاً جمامهُ وضعن عصيَّ الحاضر المتخيمِ[١]
تذكرني الأحلامُ ليلى ومن تطفْ عليه خيالاتُ الأحبة يحلمِ[٢]
سعى ساعيان غيظ بن مرة بعدما تبذل ما بين العشيرة بالدمِ[٣]
فأقسمتُ بالبيت الذي طاف حولهُ رجالٌ بنوه من قريش وجرهم[٤]
يميناً لَنِعْمَ السّيدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم[٥]
تَداركتُما عَبْساً وذُبْيان بعدما تفانَوا ودقّوا بينهم عِطرَ مِنشَم[٦]
وقد قُلتما: إن نُدْرِك السِّلم واسِعاً بمالٍ ومعروفٍ منَ الأمرِ نَسلم[٧]
فأصبحتما منها على خيرِ مَوْطِن بعيدَين فيها من عُقوق ومَأثَم[٨]
عظيمَينِ في عَليا مَعَدٍّ هُديتُما ومَنْ يَستَبِحْ كنزاً منَ المجدِ يعْظُم
وأصْبَحَ يُحْدَى فيهمُ منْ تِلادِكم مغانمُ شتَّى من إفالٍ مُزَنم[٩]
تُعَفى الكلوم بالمئين فأصبحت يُنجِّمها مَنْ ليسَ فيها بمجْرِم[١٠]
يُنجِّمُها قَوْمٌ لقوْمٍ غَرامةً ولمْ يهريقوا بينهم مِلْءَ مِحْجم[١١]
ألا أبلغ الأحلاف عَني رِسالة وذُبيان هل أقسَمْتُمُ كل مَقسم[١٢]
فلا تكتُمنَّ الله ما في صُدورِكم ليخفى ومهما يُكتم الله يَعلم

(١) جمام الماء: ما اجتمع منه، والجمام الزرق: المياه الصّافية. وضع العصي: كناية من ترك السّير. الحاضر: النّازل على الماء. المتخيم: المقيم.
(٢) في كتاب (مدامع العشاق) بحث مفصل عما قاله الشعراء في طيف الخيال.
(٣) السّاعيان في هذا الصّلح هما الحارث بن عوف وهرم بن سنان وإليهما يوجه زهير الثناء.
(٤) البيت: هو الكعبة. وجرهم: اسم لقوم كانوا ولاة البيت قبل قريش وأبادهم الله لبغيهم.
(٥) السّحيل: الخيط المفرد المبرم المفتول. والسّحيل هنا والمبرم كناية عن الرّخاء والشّدة.
(٦) منشم: امرأة تبيع عطراً. فإذا حاربوا اشتروا منها كافوراً لموتاهم.
(٧) واسعاً: خالصاً من شوائب الأحقاد.
(٨) العقوق: قطيعة الرّحم. المأثم: الإثم، وهو العدوان.
(٩) يحدى: يساق. إفال: جمع أفيل وهو الفصيل. مزنم: معلم.
(١٠) تعفى: تمحى. الكلوم: الجروح. ينجمها: يؤديها أقساطاً.
(١١) المحجم: وعاء يتلقى فيه الحجام الدم عند الفصد.
(١٢) أي: هل حلفتم لا تعملون شيئاً ينقض ما تحالفتم عليه.

يُؤخَر فيُوضع في كتاب فيُدّخَر ليوم الحساب أو يعجل فيُنْقَم
وما الحرب إلا ما علمتم وذُقتمو وما هوَ عَنها بالحديثِ المرجم
متى تبعثوها تبعثوها ذَميمة وتضرى إذا ضَرَيْتُموها فتَضْرَم[١]
فتعرُككُم عَرْكَ الرَّحى بثِفالِها وتلقح كِشافاً ثمّ تُنْتج فَتُتْئم[٢]
فتنْتِج لكم غِلمان أشأمَ كلّهم كأحمَر عاد ثمَّ ترضِع فتُفطِم[٣]
فتغللْ لكم مالا تُغِلُّ لأهلها قُرى بالعراق من قفيز ودِرْهَم[٤]
لحيٌّ حلالٍ يَعصم النّاسَ أمرُهم إذا طَرَقت إحْدى الليالي بمُعظمِ[٥]
كِرام فلا ذو الضَّغْنِ يُدْرِكُ نبلهُ ولا الجارِم الجاني عليهم بمُسْلم[٦]
رَعوْا ما رَعَوا من ظِمئهم ثم أورثوا غمراً تَفَرى بالسِّلاح وبالدم[٧]
فَقضَوْا منايا بينهم ثمّ أصدروا إلى كلاءٍ مُستوبِل مُتوَخَّم[٨]
لعمري النّعم الحيّ جرّ عليهمُ بما لا يُؤاتيهم حُصَينُ بن ضمضم
وكان طوى كشحاً على مُسْتكنَة فلا هو أنداها ولم يَتَجَمجَمِ[٩]
وقال سأقضي حاجتي ثم أتّقي عَدُوّي بألف من وَرائي مُلجَم[١٠]
فشدّ ولم يَنظر بيوتاً كثيرةً لَدَى حيث ألقتْ رَحلها أمُّ قَشْعم[١١]

(١) يقال ضريته فضرى: أي: هيجته فهاج. تضرم: تشتعل.
(٢) الثفال: جلد يبسط تحت الرّحى عند الطحن.
(٣) غلمان أشأم: غلمان شؤم. أحمر عاد: هو عاقر النّاقة.
(٤) القفيز: اسم مكيال.
(٥) حي حلال: حالون في مكان متجاورون. يعصم النّاس أمرهم: يسلم النّاس برأيهم. والمعظم: الحادث الرّهيب.
(٦) النّبل: الثأر. الجارم: المجرم.
(٧) الظمء: الهدنة بين الحربين. الغمار: جمع غمر، وهو المّاء الكثير. تفرّى: انفجر.
(٨) الكلأ: العشب. أصدروا: رجعوا. مستوبل متوخم: مستثقل مردوم.
(٩) الكشح: الجنب. مستكنة: مضمرة.
(١٠) ألف ملجم: يريد ألف فارس ألجموا خيولهم.
(١١) لم ينظر: لم ينتظر. البيوت الكثيرة: قومه وأنصاره، يريد أنه لم يستعن بأحد. أم قشعم: هي المنيّة.

obeikandl.com

لدى أسد شاكي السّلاح مُقَذّف ... لهُ لِبَد أظفارهُ لم تُقَلّم[١]
جَريء متى يُظلَمْ يُعاقِبْ بظلمه ... سريعاً وإلا يبْدَ بالظلم يَظلم
لعمرُك ما جرَّتْ عليهمْ رِماحُهُم ... دمَ ابنِ نهيك أو قتيلِ المُثَلّم
ولا شاركوا في القوم في دمِ نوفل ... ولا وَهَبٍ منهم ولا ابن المُخَزْم
فكلّاً أراهم أصْبَحوا يَعْقِلونَهُ ... عُلالة ألف بعدَ ألف مُصتّم
ومَنْ يَعصِ أطراف الزجاج فإنه ... يُطِعُ العوالي ركِّبت كلَّ لهذم[٢]
ومَنْ يوفِ لا يُذمَمْ ومن يفض قلبه ... إلى مُطمئن البرِّ لا يَتَجَمْجَم
ومنْ هاب أسباب المنايا يَنلنه ... ولو رام أسباب السّماءِ بسلّمِ
ومنْ يَكُ ذا فضل فيبخلْ بفَضْله ... على قوْمِه يُسْتَغْنَ عنه ويُذمَم
ومنْ لا يَزل يسترحل النّاس نفسه ... ولا يُعْفِها يوماً من الذل يندم
ومنْ يغترب يَحْسَب عُدوّاً صديقه ... ومَنْ لا يُكرّم نفسهُ لا يكرّم
ومنْ لا يذُدْ عن عرضه بسلاحه ... يهدَّم ومَنْ لا يظلم النّاس يُظلم[٣]
ومنْ لم يصانِعْ في أمور كثيرة ... يُضَرَّس بأنياب ويُوطأ بمنسم[٤]
ومن يجعل المعروف من دون عرضه ... يفرهُ ومن لا يتّقِ الشّتم يُشْتَمِ
ومهما تكن عند امرئ من خليقة ... وإن خالها تخفى على النّاس تُعلم
وكائن ترى من صامت لك مُعجب ... زيادته أو نَقْصُه في التّكلم
لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُهُ ... فلم يبق إلا صورةُ اللحم والدم
وإن سِفاهَ الشّيخ لا حلم بعده ... وإنّ الفتى بعدَ السّفاهةِ يحلُم

---

(١) شاكي السّلاح: شاهر السّلاح، مقذف: يسرع به كثيراً إلى الحروب. لبد الشعر: اللبد على منكبي الأسد.

(٢) الزجاج: أسفل الرّمح. العوالي: جمع عاليّة، وهي أعلاه. اللهذم: السّنان الطويل، والمعنى: من عصى زجاج الرّمح وهي لا تقتل، أطال عواليه وهي قتالة. أي: من لم يطع باللين أطاع بالشّدة.

(٣) الذود: هو الدفع. ومن لا يظلم يظلم: يريد أنه من طمع النّاس أن يبطشوا بالضعيف وأن يظلموا من لا يقدر على الظلم. يعني من لم يدفع الظلم بمثله يظلم.

(٤) المصانعة: المداراة. يضرس: يمضغ بالأضراس. والمنسم: الحافر.

سئمتُ تكاليفَ الحياةِ ومن يعش ثمانينَ حولاً لا أبا لك يَسْأم
وأعلمُ ما في اليوم والأمْسِ قَبْله ولكنني عن علم ما في غَدٍ عَم
رأيْتُ المنايا خَبْطَ عشواءَ مَن تُصِب تمِته ومن تُخطئ يُعَمّرْ فيهرم
سألْنا فأعطيتهم وعُدْنا فَعُدتم ومَن يُكثر التّآل يوماً سيُحْرَم

(٤) عَنترة العَبسيّ

هو عنترة بنُ عمرو بن شداد العبْسي، أحد فُرسان العرب وأغرِبَتِها وأجوادِها وشعرائها المشهورين بالفخر والحماسة. وكانت أُمُّه أمةً حبشيّة تسمى زَبيْبَةَ، وأبوه من سادات بني عَبْس.

وكان من عادات العرب ألّا تُلْحِق ابن الأمة بنسبها، بل تجعله في عِدَاد العبيد. ولذلك كان عنترة عند أبيهِ منبوذاً بين عُبدانِهِ، يَرْعى له إبِلَه وخيلَه، فربَأ بنفسه عن خِصال العَبيد، ومارس الفروسيّة ومَهَر فيها، فشبَّ فارساً شجاعاً هُمَاماً. وكان يكره من أبيه استعبادَه له وعدمَ إلحاقه به، حتى أغار بعضُ العرب على عبس واستاقوا إبلهم، ولحقتهم بنو عبس وفيهم عنترةُ لاستنقاذ الإبل، فقال له أبوه: كُرَّ يا عنترة. فقال: العبدُ لا يُحْسن الكَرّ إنّما يحسِنُ الحِلاَبَ والصّر. فقال: كُرّ وأنت حُرّ. فقاتل قتالاً شديداً حتى هَزَم القومَ واستنقذ الإبل، فاستلحقه أبوه.

ومن ذلك الوقت ظهر اسمهُ بين فرسان العرب وساداتِها. وطال عمر عنترة حتى ضعُفَ جسمه وعجز عن شنّ الغارات ومات قُبيل البعثة.

شعره: لم يشتهر عنترة أوّل مرة بشعر غير البيتين والثلاثة، وإنما غلبت عليه الفروسيّة مكتفياً بها حتى عيَّره بعض قومه بسواده وأنه لا يقول الشعر، فاحتجَّ لسواده بخُلُقه وشجاعته، واحتج لفصاحته بنظم معلقته المشهورة الّتي كانت تسمى المُذَهَّبة أيضاً، وقد ضمنها خصالَه ومكارم قومه، وحسن دفاعه عنهم ووفرة جُوده، معرجاً فيها على أوصاف أمور شتَّى، وهي من أجمل المعلقات.

معلقة عنترة العبسي

[الكامل]

هل غادرَ الشعراءُ من متردَم؟ أم هل عرفت الدار بعد توهُّم؟[1]

(١) غادر: ترك. متردم: أي: شيء يصلح لم يكونوا أصلحوه.

يا دار عبلةَ بالجِواءِ تكلمي وعمي صباحاً دار عبلة واسلمي[١]

دارٌ لآنسةٍ غضيض طرفُها طَوْعِ العنانِ لذيذة المتبسم

فوقفتُ فيها ناقتي وكأنها فدنٌ ـ لأقضي حاجة المُتلوِّم[٢]

وتحلُّ عبلةَ بالجِواء وأهلُنا بالحزنِ فالصّمّان فالمتثلمِ[٣]

حُيِّيتَ مِن طلل تقادم عهدُهُ أقوى وأقفر بعد أم الهيثم[٤]

حلت بأرض الزائرين فأصبحت عَسِراً عليّ طلابك ابنة مخرم[٥]

عُلقتها عرضاً وأقتلُ قومها زعماً لَعَمْرُ أبيك ليس بمزعم[٦]

ولقد نزلت، فلا تظني غَيره، مِني بمنزلةِ المحبِّ المكرم[٧]

كيفَ المزارُ وقد تربع أهلها بعُنيزَتين وأهلُنا بالغَيْلَم[٨]

إنْ كنتِ أزمعتِ الفِراق فإنما زُمّت ركابُكم بليل مظلم[٩]

ما راعني إلا حَمولة أهلها وسط الديار تسُفُّ حَبّ الخمخِم[١٠]

فيها اثنتانِ وأربعون حلوبة سوداً كخافيةِ الغراب الأسحم[١١]

إذ تستبيك بذي غُروب واضح عذبٍ مقبّلهُ لذيذ المطعم[١٢]

---

(١) الجواء: بلد. تكلمي: أفصحي وأخبري. عمي واسلمي: أي: أنعم الله صباحك وأدامك سالمة.

(٢) الفدن: القصر، المتلوم: المترقب المنتظر. وعنى بالمتلوم نفسه.

(٣) تحل: تترك. الصّوان والصّمان بمعنى واحد وهو مكان معروف عند العرب.

(٤) حييت: لك مني التّحيّة. من طلل: المكان تقادم عهده، أقوى: خلا من السّكان. أقفر: خرب. الهيثم: الصّقر.

(٥) الزائرين: بالهمزة الأعداء، والزاير بالياء من الزيارة للأحباب والأصدقاء.

(٦) علقتها: أحببتها. عرضاً: من غير قصد. زعماً: طعماً.

(٧) نزلت: حلت من نفسي منزلة المحب المكرم.

(٨) تربع القوم: نزلوا في الرّبيع. العنيزتان والغيلم: موضعان. يقول: كيف أزورها وقد بعدت عني بعد قربها.

(٩) أزمع: نوى وصمم. زمت الرّكاب: شدت.

(١٠) راعني: أفزعني. الحمولة: الإبل. تسف حب الخمخم: تأكل بقلة لها حب أسود إذا أكله الغنم قلت ألبانها وتغيرت.

(١١) الحلوبة: النّاقة في ضرعها لبن. الأسحم: شديد السّواد.

(١٢) تستبيك: تذهب بعقلك. غروب: حد، وغروب الأسنان حدها.

وكأن فارة تاجرٍ بقسيمة سَبَقت عوارضها إليك من الفم[١]
أو رَوْضة أُنُفاً تَضَمّن نبْتُها غيثٌ، قليل الدمْن ليس بمعلم[٢]
جادتْ عليه كلُّ بكرٍ حُرة فترُكْنَ كلّ قرارة كالدرهم[٣]
سحّاً وتِسْكاباً فكلُّ عَشية يجري عليها الماءُ لم يتصرَّم[٤]
وخلا الذباب بها فليس ببارح غرِداً كفعل الشّارب المترنم[٥]
هزجاً يحك ذراعهُ بذراعهِ قدح المكب على الزناد الأجذم[٦]
تمسي وتصبحُ فوق ظهر حَشيةَ وأبيتُ فوق سَراة أدهم مُلجم[٧]
وحشيتي سَرْجٌ على عبل الشّوى نهد مراكِلُه نبيل المحزم[٨]
هل تُبلغني دارها شدنيةٌ لعِنت بمحروم الشّراب مُصرّم[٩]
خَطارةٌ غِبّ السُّرى زَيّافة تطسُ الآكام بذات خُف ميْثم[١٠]
وكأنما أقِصُ الآكام عشيّة بقريب بين المنسمين مُصَلم[١١]

(١) فارة: الفارة هنا وعاء.
(٢) الرّوضة: الحديقة. الأنف: التّام في كل شيء. الدمن: المطر الخفيف. المعلم: ذو العلامة.
(٣) البكر: السّحابة في أوّل الرّبيع وفي عادتها أن لا تمطر.
(٤) لم تصرم: لم ينفد ولم ينقطع، وخص مطر العشي لأنه أكثر ما يكون صيفاً.
(٥) خلا: انفرد. ببارح: أي: بتارك. غرداً: مترنماً، والتّغريد: التّرنيم.
(٦) الهزج: سريع الصّوت. يحك ذراعه: أي: يمر إحداهما على الخرى. قدح المكب: الذي أكب على الزناد يقدحه على التّوالي. الأجذم: الزناد القصير. وكلها نعوت لغناء الذباب وترنيمه فوق الغدير.
(٧) الحشيّة: الفراش المحشو. يعني: أن حبيبته تمسي وتصبح مستريحة ناعمة، وأما هو فيبيت فوق ظهر جواده حارساً لها ومدافعاً عن القبيلة.
(٨) حشيتي: فراشي. سرج: ما يوضع على ظهر الجواد. عبل: غليظ. الشّوى: القوائم، يريد جواده.
(٩) تبلغني: توصلني. دارها: منزلها ومقامها.
(١٠) خطارة: تحرك ذنبها وترفعه وتضرب به حاديها. غب السّرى: أي بعد السّرى. زيافة: تسرع في مشيها.
(١١) أقص: أكثر. الآكام: المرتفع عن الأرض. المنسمان: الظفران المقدمان في الخف. مصلم: مقطوع الأذنين.

تأوي لهُ قلصُ النّعام كما أوت حزَقٌ يَمانيةٌ لأعجمَ طِمْطِم[١]
يَتبَعْنَ قلة رَأسِهِ وكأنّهُ حَرَجٌ على نعش لهن مُخَيَّمِ[٢]
صعل يَعودُ بذي العشيرة بيضهُ كالعَبد ذي الفَرْو الطويل الأصْلم[٣]
شربت بماء الدُّحْرُضين فأصبحت زَوْراءَ تنفرُ عن حياض الديلم[٤]
وكأنما تنأى بجانبِ دَفِّها الوَ حشي من هَزجِ العَشيّ مؤوّم[٥]
هِرٌّ جَنِيبٍ كلّما عَطفتْ لَهُ غَضْبَى اتقاها باليدين وبالفم[٦]
أبقى لها طولُ السّفار مُقَرْمداً سنداً ومثلَ دعائم المتخَيّمِ[٧]
بَرَكتْ على ماء الرّداع كأنما بركت على قصب أجش مُهَضّم[٨]
وكأن ربّاً أو كُحَيلاً مُعْقَداً حش الوقود به جَوانبَ قمقم[٩]
ينْباع مِنْ ذِفْرَى غَضُوب جَسْرَةٍ زَيّافة مثلِ الفِنيق المكدَمِ[١٠]

(١) تأوي: ترجع وتسكن. قلص: جمع قلوص وهي النّاقة الشّابة. حزق: جماعات.
(٢) يتبعن: يحطن به. قلة الرّأس: أعلاه. الحرج: سرير يحمل عليه المريض أو الميت.
(٣) صعل: صغير الرّأس دقيق العنق. يعود: يأتي إلى بيضه. ذو العشيرة: اسم مكان. شبه ذكر النّعام بالعبد الأسود عليه فروة طويلة.
(٤) الدحرضان: اسم مورد من موارد الماء. زوراء: عوجاء مائلة من النّشاط. والديلم: الأعداء. والمعنى أنها تجافت عن الحياض لخوفها منها.
(٥) ينأى: يبعد. الدف: الجنب. الوحشي: الجانب الأيمن من البهائم. وسمي الجانب الأيمن وحشياً لأنه لا يركب منه الرّاكب ولا يحلب منه الحالب. هزج العشي: صوت الهر الذي يخدشها لأن السّنانير أكثر ما تصيح في العشيات. المؤوم: عظيم الرّأس.
(٦) هر جنيب: مجنوب كلما مالت له غاضبة اتقاها وردّها باليدين والفم. والمعنى أنها كثيرة النّشاط في ساعة العشي وهي ساعة الفتور عند سواها من الإبل، فكأنها من نشاطها هر تحت إبطها.
(٧) أبقى: ترك. طول السّفار: طول السّفر وامتداده، والمقرمد: المبني بالآجر، أراد به سنامها وقد أراد أنه تكمش وتماسك وصلب كما يتماسك الآجر وهو الحجارة الخشنة الملمس.
(٨) الرّداع: مورد لبني سعد، الأجش: الذي في صوته خشونة، المهضم: المخرم، وقيل المكسر.
(٩) الرّب: ما بقي من عصارة الثمار. الكحيل: القطران. معقداً: أوقد تحته حتى انعقد.
(١٠) ينباع: ينفعل، والذافران: العظمان النّاتئان خلف الأذنين. زيافة: متبخترة في سيرها، والفنيق: الفحل من الإبل، والمكدم: المعضعض. والكدم: العض، وفي روايّة المقرم.

إن تغدفي دوني القناع فإنّني ... طبٌّ بأخذ الفارس المستلئم[١]
أثْني عليّ بما عَلمت فإنّني ... سهلٌ مُخالقتي إذا لم أُظْلَمِ
فإذا ظُلِمْتُ فإنّ ظلمي باسلٌ ... مُرٌّ مذاقَتهُ كطعْم العَلقَمِ
ولقد شربتُ من المدامةِ بعدما ... رَكدَ الهواجِرُ بالمَشُوفِ المُعْلَمِ
بزُجاجةٍ صفراء ذات أسرَّة ... قرنت بأزْهَرَ في الشّمال مُفدَّم[٢]
فإذا شَرِبت فإنني مُستهلكٌ ... مالي، وعرْضي وافرٌ لم يكلم[٣]
وإذا صَحوتُ فما أقصر عن ندى ... وكما علِمت شمائلي وتكرمي[٤]
وَحَليل غانية تركت مجندلا ... تمكو فريصته كشدق الأعلم[٥]
سبقت يَداي له بعاجل ضَرْبة ... ورشاش نافذة كلون العندم
هلّا سألتِ الخَيْلَ يا ابنَةَ مالك ... إنْ كنتِ جاهلة بما لم تعلمي
إذ لا أزالُ على رحالة سابح ... نَهْدٍ تعاورهُ الكماة مُكَلَّمِ[٦]
طَوراً يُعَرّض للطِّعان وتارة ... يأوي إلى حصدِ القسي عَرمْرمِ[٧]
يخبركِ مَنْ شَهد الوقيعَةَ أنّني ... أغشى الوغى وأعِفُّ عند المَغْنَمِ
فأرى مغانم لو أشاءُ حويتها ... فيَصُدّني عنها الحيا وتكرُّمي
ومُدجّج كَرهَ الكماة نِزالهُ ... لا مُمعن هرباً ولا مستسلم[٨]
جادَتْ لهُ كَفِّي بعاجل طعْنة ... بِمُثَقَّفٍ صَدْقِ الكُعُوبِ مُقَوّمِ

(١) تغدفي: ترخي القناع على وجهك، طب أي: خبير حاذق. والمستلئم: الذي لبس اللامة وهي الدرع.
(٢) الأسرة: الخطوط والطرائق التي وسطها. قرنت: شدت بكأس أخرى، أزهر: إبريق من فضة، والمفدم: المصطفى.
(٣) شربت: سكرت، مستهلك: متنفد.
(٤) صحا: أفاق من سكره.
(٥) الحليل: الزوج.
(٦) تعاوره: يطعنه ذا مرة وذاك أخرى. الكماة: الشّجعان، مكلم: مجروح.
(٧) الحصد: الكثير المحكم. القسي: جمع قوس. العرمرم: الشّديد، وقيل الكثير.
(٨) المدجج: الكامل السّلاح. كره الكماة نزاله: خافوا منه.

بِرَحيبة الفرغين يهدي جَرْسُها بالليل مُغتس الذئاب الضرّم[١]
فشككتُ بالرّمح الأصم ثيابهُ ليس الكريمُ على القنا بمحرّم[٢]
فتركته جَزَرَ السّباع يَنشْنَهُ ما بَينَ قُلَّةِ رأسه والمِعصم
وَمِشك سابغة هتكتُ فُروجها بالسَّيْف عن حامي الحقيقة معلم[٣]
رَبِذٍ يداه بالقِداحِ إذا شتا هَتَّاك غاياتِ التِّجار مُلَوَّمِ[٤]
لمَّا رآني قَدْ نزلتُ أريدُهُ أبدى نواجذَه لغَيْرِ تَبسُّم[٥]
فَطَعَنْتُهُ بالرّمْح ثمَّ عَلوْتهُ بمهند صافي الحديدة مِخْذَم[٦]
عهدي به مَدّ النّهار كأنما خُضِب البنانُ ورأسُهُ بالعِظلم[٧]
بطل كأن ثيابهُ في سَرْحةٍ يُحْذى نِعالَ السّبت ليس بِتوْأم[٨]
ولقد ذكرتُكِ والرّماحُ نواهلٌ مني وبيضُ الهند تقطرُ من دمي
فوَدّت تقبيل السّيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسم
يا شاةَ ما قَنصٌ لمن حلّت له حرُمتْ عليّ وليتها لم تحرم[٩]
فبَعثتُ جاريتي فقلت لها اذهبي فتجسَّسي أخبارها ليَ واعلمي

(١) الرّحبة: الواسعة. جرسها: الصّوت. المغتس: المبتغي والطالب. الضرم: الجياع.
(٢) فشككت: شققت. ثيابه: درعه، وقيل قلبه.
(٣) المشك: الدرع. السّابغة: السّابلة أضافها لنفسها وهو جائز. هتكت: فضحت وكشفت. فروجها: جمع فرج فرجة الخرق النّافذة. الحقيقة: الرّاية. المعلم: الذي قد أعلم نفسه بعلامة في الحرب.
(٤) الرّبذ: السّريع الضرب بالقداح الحاذق في لعبها. إذا شتا: لأن القحط أكثر ما يأتي العرب في الشّتاء.
(٥) أبدى نواجذه إلخ: كلح في وجهي فبدت أضراسه.
(٦) المخذم: من الخذم وهو القطع.
(٧) خضب: طلى. والعظلم: شجر أحمر.
(٨) بطل لأنه يبطل العظائم بسيفه. وقيل وهو الذي تبطل عنده دماء الأقران فلا يأخذ النّاس منه أو ممن فعل في حماه ثأراً. السّرحة: شجرة لا ثمرة لها وإنما تستظل بها وتعرف عند العرب بطول ساقها.
(٩) الشّاة: هنا المرأة. وهو يعني جارته لأن من كانت له جارة فهي في حماه، وكانت محرمة كالأم والأخت.

قالت، رأيتُ من الأعادي غرة ... والشّاة ممكنةٌ لمن هو مُرْتم
وكأنما التفتت بجيد جداية ... رشاءٍ من الغِزلان حُرٍّ أرثم[1]
نُبئتُ عمراً غير شاكرِ نعمتي ... والكُفْرُ مخبثةٌ لنفس المنْعم
ولقد حفِظتُ وصاة عميَ بالضُّحى ... إذ تقلص الشّفتان عن وضح الفم
في حومة الحرب التّي لا تشتكي ... غمراتها الأبطالُ، غيرَ تغمغم
إذ يَتقون بي الأسنّة لم أخِمْ ... عَنها ولكني تضايق مقدمي[2]
لما سمعتُ نداء مرة قد علا ... وابنيْ ربيعة في الغبار الأقتم[3]
ومحلِّمٌ يسعونَ تحْتَ لوائهم ... والموتُ تحت لواء آل محلِّم[4]
أيقنتُ أن سيكون عند لقائهم ... ضرب يطيرُ عن الفراخ الجثم
لمّا رأيت القوم أقبلَ جَمْعهم ... يتذامرونَ كَررْتُ غير مُذَمم
يدعون: عنترَ، والرِّماحُ كأنها ... أشْطانُ بئر في لبان الأدهمِ[5]
ما زلتُ أرميهم بغرّة وجهه ... ولبَانِه حتى تمرْبل بالدم
فازْوَرّ من وقع القنا بلبانه ... وشكا إلي بعبرة وتحمحم[6]
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ... ولكان لو علم الكلام مُكَلِّمي
والخيلُ تقتحمُ الخَبَارَ عوابساً ... من بين شيظمة وأجرد شيظم[7]
ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها ... قِيْلُ الفوارس «وَيْكَ» عنتر أقدم[8]

(١) الجيد: العنق. الجداية بكسر الجيم وفتحها: الظبيّة أتى عليها خمسة أشهر أو ستة. الرّشأ: الغزال الصّغير.
(٢) يتقون بي: يجعلونني وقايّة بينهم وبينها بأن يقدموني للموت. لم أخم: لم أحد. تضايق: ضاق.
(٣) النّداء: الصّياح، القتم: الأسود الحالك.
(٤) هو ابن عوف الشّيباني الذي يضرب به المثل في الوفاء والعزة يقال: لا حر بوادي عوف.
(٥) الأشطان: جمع شطن وهو حبل البئر، شبه الرّمح به لطوله. اللبان بالفتح: الصّدر.
(٦) ازور: مال، وشكا لو كان يستطيع الشّكوى. العبرة بفتح العين: البكاء والإشفاق.
(٧) تقتحم: تخوض. العوابس: الكوالح. الشّيظم والأجرد: القصير الشعر.
(٨) ويك: كلمة يقولها المتندم إذا ندم على ما فرط منه، ولكثرة استعمالها ألحقت بها الكاف، وقيل (وي) بمعنى أعجب أي: عجباً لك يا عنترة.

ذُللٌ ركابي حيث شئتُ مُشايعي قلبي، وأحفُزهُ بأمرٍ مُبرم[١]
ولقد خشيت بأن أموت ولم تكن للحرب دائرة على ابني ضمضم[٢]
الشاتِمي عرضي ولم أشتمهما والنّاذرين إذا لم ألقهما دمي
إن يفعلا فلقد تركت أباهما جزَر السّباع وكل نسر قشعم[٣]

(٥) عَمرو بن كُلثوم

هو أبو الأسود عَمْرو بن كُلْثوم بنِ مالك التَّغَلبي، وأمه ليلى بنت مُهلهِل أخي كليب. نشأ عمرو في قبيلة تغلب بالجزيرة الفراتية وساد قومه وهو ابن خمس عشرة سنة، وقاد الجيوش مظفَّراً. وأكثر ما كانت فِتنُ تغلب مع أختها تغلب مع أختها بكر بن وائل بسبب حرب البسُوس، وكان آخر صلح لهم فيها على يد عمرو بن هند أحد ملوك الحيرة من آل المُنذر.

ولم تمض مدّة حتى حدث بين وجوه القبيلتين مُشَاحَّة في مجلس عمرو بن هند قام أثناءها شاعرُ بكر (الحارث بن حِلّزة اليَشْكُري) وأنشد قصيدته المشهورة، وما فرغ منها حتى ظهر لعمرو بن كُلثوم أنّ هوى الملك مع بكر، فانصرف ابن كلثوم وفي نفسه ما فيها. ثم خطر في نفس ابن هند أن يكسِر من أَنَفَةِ تَغْلِبَ بإِذْلاَل سيدها وهو عمرو بن كُلْثُوم، فدعاه وأمَّه ليلى بنتَ مُهَلْهِل وأَغْرَى هنداً أمَّه أن تَسْتخدِمَها في قضاء أمر. فصاحت ليلى: واذُلاَّه، فثار به الغضب وقتل ابن هند في مجلسه، ثم رحل تَوّاً إلى بلاده بالجزيرة وأنشد معلقته الآتية.

ومات قبل الإسلام بنحو نصف قَرْن.

شعره: لم يشتهر إلا بمعلقته الواحدة التي قامت له مقام الشعر الوفير، لحسن لفظها، وانسجام عبارتها وعلوِّ فخرها. ولعلَّ شهرته بالخطابة لا تقلّ عن شهرته بالشعر:

---

(١) ذلل: جمع ذلول، والذلول من الإبل وغيرها: سهلة القياد. ركابي: ما اركبه. أحفزه: أدفعه. المبرم: المحكم.

(٢) الدائرة: ما ينزل بالنّاس من بلوى. ابنا ضمضم: هما هرم وحصين ابنا ضمضم، المريان، قتلهما ورد بن حابس العبسي، وكان عنترة قتل أباهما ضمضما فكانا يتوعدانه.

(٣) يقول: مهما ينذراني ومهام يشتمانني فلن يبلغا مني مناهما فلقد قدمت أباهما طعمة للسباع والنّسور. القشعم: الكبير من النّسور.

معلقة عمرو بن كلثوم التغلبي

[الوافر]

ألا هُبي بصَحنِك فاصبحينا ولا تبقي خُمور الأنْدَرينا[١]
مُشعشعة كأن الحصَّ فيها إذا الماء خالطها سَخينا[٢]
تجور بذي اللّبانةِ عن هواهُ إذا ما ذاقها حتى يَلينا[٣]
ترى اللَّحزَ الشَّحيح إذا أُمِرّت عليه لمالهِ فيها مُهينا[٤]
صددتِ الكأس عنا أم عمرو وكان الكأس مَجراها اليمينا[٥]
وما شرُّ الثلاثة أم عمرو بصاحبك الذي لا تصبحينا[٦]
وكأسٌ قد شربت ببَعْلَبَكَّ وأخرى في دمشق وقاصرينا
إذا صمدتْ حمياها أريباً من الفِتيان خلت به جُنونا[٧]
فما برحت مجالَ الشَّرْب حتى تغالوا وقالوا: قد روينا[٨]
وإنا سوف تدرِكنا المنايا مقدَّرة لنا ومقدَّرينا
وإن غداً وإن اليوم رهن وبعد غد بما لا تعلمينا
قفي قبل التفرقِ يا ظعينا نُخبرك اليقين وتخبرينا
بيوم كريهة ضرْباً وطعناً أقر به مواليك العيونا[٩]

---

(١) هبي: استيقظي. الصّحن: القدح العريض. فاصبحينا: أي: اسقينا الصّبوح، وهو شرب الخمور في الغداة. الأندرينا: جمع الأندر، وهي قرية بالشّام جمعها بما حواليها.
(٢) مشعشعة: ممزوجة، سميت بذلك لأنه يظهر لها شعاع كالشّمس. الحص: الورس. سخينا: أي: جدنا وتكرمنا من السّخاء.
(٣) تجور: بمعنى تعدل وتميل. اللبانة: الحاجة.
(٤) اللحز: الضيق. الشّحيح: البخيل.
(٥) صدّدت: أي صرفت.
(٦) أي: لست أنا شر الثلاثة فتعدل عني الكأس.
(٧) حمياها: سورتها. أريباً: عاقلاً.
(٨) الشّرب: جمع شارب. المجال: موضع المجاولة.
(٩) الكريهة: موضع الحرب. أقر: أي أمكن. مواليك: هنا بنو عمك.

obeikandl.com

قفي نسألْك هل أحدثتِ صُرْماً لوشك البَين أمْ خُنت الأمينا[١]
أفي ليل يعاتِبني أبوها وإخوتها وهم لي ظالمونا؟!
تُريك إذا دخلت على خلاء وقد أمنت عيون الكاشحينا
ذراعيْ عَيْطل أدْماء بِكْرٍ تربعت الأرجاع والمُتونا[٢]
وثِدْياً مثل حُقّ العاج رَخصاً حصاناً من أكف اللامِسينا[٣]
ونحراً مثل ضوْء البدْر وافى بإتمام أناساً مُدْلجينا[٤]
ومتنيْ لَدْنة طالت ونالت روادفها تنوءُ بما يلينا[٥]
ومأكمة يضيقُ الباب عنها وكشحاً قد جننتُ به جنونا[٦]
وسالفتيْ رخام أو بلنط يَرِنُّ خَشاش حليهما رنينا[٧]
تذكرت الصبا واشتقتُ لمَّا رأيتُ حُمُولها أصلاً حدينا[٨]
وأعرضت اليمامة واشمخرّت كأسياف بأيدي مُصْلتينا[٩]
فما وجدت كوجْدي أم ثقب أضلته فرجَّعَتِ الحَنينا
ولا شمطاء لم يتركْ شقاها لها من تسعةٍ إلا جنينا[١٠]
أبا هِند فلا تعجل علينا وأنظرْنا نخبرك اليقينا[١١]

(١) الصّرم: القطيعة. الوشك: السّرعة. البين: هنا الفراق. الأمين: الوفي بالعهد.
(٢) العيطل: النّاقة طويلة العنق. الأدماء من الإبل والظباء: البيضاء. بكر: لم تلد. تربعت: رعت الرّبيع. الأرجاع: جمع أجرع، وهو الرّمل.
(٣) العاج: عظم الفيل. الرّخص: اللين. الحصان: العفيفة. اللامس: المباشر.
(٤) النّحر: أعلى الصّدر.
(٥) لدنة: أي لينة، تنوء: بمعنى تثقل.
(٦) المأكمة: رأس الورك.
(٧) السّالفتان: صفحتا العنق. الرّخام والبلنط: حجارة بيض. الخشاش: صوت الحلى.
(٨) أصلاً: أصيلاً، وهو العشي.
(٩) أعرضت: قابلت. اشمخرت: ارتفعت. مصلت: مجرد.
(١٠) شقاها: يعني شؤمها.
(١١) يعني عمرو بن هند.

obeikandl.com

بأنا نورد الرّايات بيضاً ونُصدرُهنّ حمراً قد روينا
فإن الضغْن بعد الضغْن يفشو عليك ويخرجُ الداءَ الدفينا(١)
وأيام لنا غرٌّ طوالٍ عَصَيْنا المَلْك فيها أن ندِينا
وسيدٍ مَعشر قد توَّجوهُ بتاج المُلْك يحمي المحجرينا
تركنا الخيلَ عاكفةً عليه مُقلِّدَةً أعنَّتَها صُفُونا(٢)
وقد هرّت كلاب الحيّ منا وشذَّبنا قتادةَ مَنْ يلينا(٣)
وأنزَلنا البيوت بذي طُلُوحٍ إلى الشّامات ننفي المُوعِدينا(٤)
نَعُمُّ أُناسنا ونِعفّ عنهمْ ونحْمِل عنهمُ ما حَمّلونا
ورَثنا المجدَ قد علمتْ مَعَدٌّ نطاعِنُ دونهُ حَتى يَبينا(٥)
ونحنُ إذا عمادُ الحَرْبِ خَرّت على الأخفاض نمنَعُ منْ يَلينا(٦)
نطاعِنُ ما تراخى النّاسُ عنّا ونَضْرِبُ بالسُّيوفِ إذا غشينا(٧)
بِسُمْر مِن قنا الخطيّ لُدْنٍ ذَوابلَ أو بِبيضٍ يَعتلينا(٨)
نَشُقُّ بها رُؤوس القَوْمِ شقّاً ونُخليها الرِّقاب فتخْتلينا(٩)
تخالُ جماجم الأبطال منهم وسُوقاً بالأماعِزِ يَرْتمينا(١٠)

(١) الضغن: الحقد. يفشو: يكثر. الداء الدفين: الكامن.
(٢) صفونا: جمع صافن، وهي من الخيل.
(٣) هرت: نبحت. شذبنا: أي قطعنا. القتادة: واحدة القتادة وهو الشّوك.
(٤) يقول: وأنزلنا بيوتنا بمكان يعرف بذي طلوح إلى الشّامات نبغي من هذه الأماكن أعداءنا الذين كانوا يوعدوننا.
(٥) يبين: يظهر.
(٦) الاخفاض: عمد الأخبيّة.
(٧) تراخى: تباعد.
(٨) السّمر: الرّماح. الخطي: منسوب إلى الخط قرية على ساحل البحر. لدن: لينة.
(٩) نخليها: أي نقطع بها. فتختلينا: أي تقطن، والضمير راجع إلى السّيوف أيضاً.
(١٠) تخال: تظن. وسوق: جمع وسق، وهو المكيال. الأماعز: جمع أمعز وهو المكان الغليظ.

نجُذُّ رُؤوسهم في غير وَتْر ولا يدرون ماذا يتَّقونا[١]
كأن ثيابنا منَّا وَمِنْهُمْ خُضِبْنَ بأرْجُوانٍ أو طُلينا[٢]
كأن سيوفنا فينا وفيهمْ مخاريقٌ بأيدي لاعبينا[٣]
إذا ما عيّ بالإسناف حيٌّ من الهوْل المشبَّهِ أن يكونا[٤]
نصبنا مثل رِهوة ذات حدٍّ محافَظَةً وكنا السّابقينا[٥]
بفتيان يرون القتل مجداً وَشيبٍ في الحروبِ مُجَرَّبينا
يدهدون الرؤوسَ كما تدَهدي حَزاوِرَةٌ بأبطحها الكوِينا
حُديَّا الناس كلهمُ جميعاً مُقارعة بَنيهُم عن بَنينا[٦]
فأما يَوْمَ خشيتنا عليهمْ فتُصبحُ خيلنا عُصَباً ثبينا[٧]
وأما يَوْمَ لا نخشى عليهمْ فنُمعِنُ غارة مُتلبِّبينا[٨]
برأس من بَني جُشمِ بنِ بَكْرٍ ندُقُّ به السهولةَ والحَزونا[٩]
بأيِّ مشيئةٍ عمرو بن هند؟ نكون لِقيلكم فيها قطينا[١٠]
بأيِّ مشيئةٍ عمرَو بن هند؟ ترى أنَّا نكون الأرذلينا
بأيِّ مشيئةٍ عمرو بن هند؟ تطيع بنا الوشاةَ وتزدرينا[١١]

(١) نجذ: نقطع. الوتر: الدخل. وفي روايّة [وبر]
(٢) الأرجوان: صبغ أحمر.
(٣) المخاريق: ثياب صغار يلعب بها الصّبيان.
(٤) الإسناف: التّقدم.
(٥) الرّهوة: رأس الجبل، وذات حد: أي: كثيرة السّلاح.
(٦) الحديا: التّحدي في القتال، وهو طلب المبارزة. مقارعة: من القراع في القتال وهو اصطدام الفارسين.
(٧) ثبين: جمع ثبة، وهي الجماعة.
(٨) تمعن: تسرع. المتلب: المتحزم.
(٩) الرّأس: السّيد، وهو هنا الجماعة.
(١٠) القيل: السّيد. والقطين: الخدم.
(١١) الازدراء: الاحتقار.

obeikandl.com

تهدِّدنا وتوعِدنا! رويداً ... متى كنَّا لأمِّك مُقتوينا؟![1]
فإنَّ قناتنا يا عمرو أعيَتْ ... على الأعداءِ قبلك أن تلينا[2]
إذا عضَّ الثقافُ بها اشمأزَّت ... وولَّتهُ عَشَوزَنَةً زِبونا[3]
عَشَوزَنَةً إذا غمزت أرنَّت ... تشجُّ قفا المثقَّفِ والجبينا[4]
فهلْ حُدِّثْتَ عن جُشم بن بكر؟ ... بنقص في الخطوب الأوّلينا[5]
ورثنا مجدَ علقمة بن سيفٍ ... أحلّ لنا حصونَ المجد دينا[6]
ورثتُ مهلهلا والخيرَ منه ... زُهيراً نعم ذُخرُ الذاخرينا[7]
وعَتَّاباً وكُلثوماً جميعاً ... بهم نلنا تراث الأكرمينا[8]
وذا البرة الذي حُدِّثتَ عنهُ ... به نُحمى ونَحمي المحجرينا[9]
ومنا قَبْلَهُ الساعي كليبٌ ... فأيُّ المجد إلا قد ولينا؟[10]
متى نعقِدْ قرينتنَا بحَبْل ... تَجُذَّ الحبلَ أو تقصِ القرينا[11]
ونوجَدُ نحن أمنعَهُم ذماراً ... وأوفاهم إذا عقدوا يمينا[12]

---

(١) المقتوي: الذي يخدم بقوة.
(٢) القناة ههنا: العزة.
(٣) الثقاف: خشبة تقوّم بها الرّماح. اشمأزت: ارتفعت. العشوزنة: الشّديدة الصّلبة. الزبونة: الدفوع.
(٤) غمزت: أي: لينت. أرنت: أي: صوتت. تشج: أي: تجرح. المثقف: المصلح للرماح والمقوّم لها.
(٥) جشم بن بكر: جدّه. الخطوب: الأمور العظيمة.
(٦) دينا: أي: طاعة لها، وهو علقمة بن سيف بن شرحبيل بن مالك بن سعد بن جشم بن بكر بن حبيب بن غنم بن جشم بن تغلب بن وائل.
(٧) مهلهل: يعني: عديا أخا كليب، وسمي مهلهلاً لأنه أوّل من رقق الشعر.
(٨) كلثوم: أبوه. عتاب: جدّه.
(٩) ذا البرة: كعب بن زهير بن تيم، وسمي بهذا لشعرات كانت تحت أنفه مدورة كالبرة في أنف البعير.
(١٠) قبلة السّاعي: ضربه مثلاً كالكعبة في كثرة من يختلف إليه.
(١١) القرينة: أصلها أن يقرن جمل صعب إلى جمل ذلول. تقص: تكسر، وهذا مثل ضربه.
(١٢) الذمار: ما يحق على الإنسان أن يحميه.

ونحنُ غداةَ أوقدَ في خزارى رفَدْنا فوق رَفد الرافدينا[١]
ونحن الحاسبون لذي أراطى تسَفُّ الجِلَّةُ الخورُ الدرينا[٢]
فكنا الأيمنِينَ إذا التقَيْنا وكان الأيسرِينَ بنو أبينا[٣]
فصالوا صولةً فيمن يليهم وصُلْنا صولة فيمن يلينا[٤]
فآبوا بالنِهاب وبالسّبايا وأبنا بالمُلوك مُصَفَّدينا
إليكم يا بَني بَكر إليكم ألمَّا تعلموا منا اليقينا
ألمَّا تعلموا منا ومنْكم كتائب يطّعنّ ويرتمينا
نقودُ الخيل دامِية كلاها إلى الأعداء لاحقةً بُطونا
علينا البيضُ والليبُ اليماني وأسيافٌ يقُمْن وينحنينا[٥]
علينا كلُّ سابِغة دِلاص ترى تحت النجادِ لها غصونا[٦]
إذا وُضعت عن الأبطالِ يوماً رأيت لها جلودَ القوم جُونا[٧]
كأن متونهنَّ متونُ غُدْرٍ تصفِّقها الرِّياح إذا جرينا[٨]
وتحملنا غَداةَ الرَّوع جُرْدٌ عرفنَ لنا نقائذَ وافتُلينا[٩]
وردنَ دوارِعاً وخرجْنَ شعثاً كأمثال الرّضائع قد بَلينا
ورثناهنَّ عن آباءِ صِدْقٍ ونورِثها إذا مُتنا بَنينا
وقد علم القبائِل غير فَخْر إذا قبٌّ بأبْطحها بُنينا

(١) خزارى: موضع واقعة كانت بين ربيعة واليمن، وكانت قضاعة إذ ذاك وربيعة أحلافاً.
(٢) أراط: موضع واقعة كانت لهم. تسف: تأكل.
(٣) بنو أبينا: يعني مضر بن نزار، وربيعة بن نزار.
(٤) الصّولة: الحملة.
(٥) اليلب: جلود تنسج على هيئة الدروع وتلبس.
(٦) السّابغة: الدرع الطويلة. دلاص: براقة. النّجاد: النّطاق. الغضون: التّثني.
(٧) جونا: سوداً.
(٨) المتون: الأعالي، شبه أعالي الدروع في بياضها ولمعانها بالغدر وهي الحياض إذا حركتها الرّيح.
(٩) الرّوع: الحرب. الجرد: قصير الشعر.

بأنّا العاصِمُون إذا أطِعْنا وأنَّا الغارمونَ إذا عُصينا
وأنا المانِعونَ إذا قدرْنا وأنا النُهلكون إذا أُتينا
وأنَّا الحاكمون بما أرَدنا وأنّا النّازلونَ بحيث شينا
وأنّا التاركونَ لما سِخطنا وأنّا الآخذونَ لما هَوينا
وأنّا الطالبون إذا نقمْنا وأنّا الضاربون إذا ابْتُلينا
وأنّا النازلونَ بكلِّ ثغر يخافُ النازلونَ به المنونا[1]
ونشربُ ـ إن وردْنا ـ الماء صفواً ويشرَب غيرنا كدراً وطينا
ألا سائلْ بَني الطماح عنا ودعميّاً فكيفَ وجَدْتمونا؟[2]
نزلتُمْ منزلَ الأضيافِ منا فأعْجَلْنا القِرى أن تشتُمونا[3]
قَرَيناكم فعجّلنا قراكم قبيل الصبح مرداةً طحونا[4]
متى نَنْقُلْ إلى قوم رَحانا يكونوا في اللقاء لها طحينا[5]
يكون ثفالها شرقيّ نجدٍ ولهوتها قضاعة أجمعينا[6]
على آثارنا بيضٌ حِسانٌ نحاذرُ أن تفارق أو تهونا[7]
ظعائنُ من بَني جُشم بن بكر خُلِطنَ بميسَم حسَباً ودينا[8]
أخذن على فوارسهنَّ عهداً إذا لاقوا فوارِس مُعلمينا[9]

(١) الثغر : المكان المخوف.
(٢) بنو الطماح ودعمي : حيان من بني أسد بن ربيعة بن نزار.
(٣) نزلتم حيث نزل الاضياف : أي: جئتم للقتال فعاجلناكم بالحرب ولم ننتظر ان تشتمونا
(٤) قريناكم : جعلنا قراكم الحرب لمّا نزلتم بنا ولقيناكم وطحناكم طحن الرّحى . المرادة: الحجر وكل ما يكب به الشّيء فهو مرداه .
(٥) اصل الرّحى ما استدار من الشّيء. والرّحى هنا : الحرب، تشبيهاً بالرّحى.
(٦) الثفال : جلدة توضع تحت الرّحى للطحين. ولهوتها : أي: مقدار ما يطرح في فم الرّحى من الحب.
(٧) أي: نساءنا اللواتي خلفنا نقاتل عنهن ونحذر أن نفارقهن أو يصرن إلى غيرنا.
(٨) الميسم: الحسن، أي: لهن مع جمالهن حسب ودين.
(٩) المعلم: الذي يعلم نفسه في الحرب بعلامة.

لـيـسْـتَـلِـبُـنَّ أبـدانـا وبـيـضـاً وأسرى فـي الـحَـديـد مُـقـرَّنـيـنـا[١]
إذا مـا رُحْـن يَـمْـشـيـن الـهَـويـنـا كـمـا اضـطَـرَبـتْ مـتُـون الـشـاربِـيـنـا
يَـقُـتْـنَ جـيـادنـا ويَـقُـلـنَ لـسـتـم بُـعـولَـتَـنـا إذا لـم تـمْـنـعـونـا[٢]
إذا لَـمْ نـحْـمـهـن فـلا بَـقـيـنـا لَـشـيءٍ بـعـدهُـن ولا حـيـيـنـا[٣]
ومـا مـنـع الـظّـعـائـن مـثـلُ ضَـرْب تـرى مـنـه الـسَّـواعـد كـالـقُـلـيـنـا[٤]
إذا مـا الـمـلـكُ سـام الـنـاسَ خَـسْـفـاً أَبـيـنـا أن يُـقـرَّ الـخَـسْـف فـيـنـا[٥]
ألا لا يـجْـهـلـن أحـدٌ عـلـيـنـا فـنـجـهـل فـوقَ جـهـلِ الـجـاهـلـيـنـا
ونـعـدو حـيـثُ لا يُـعـدى عـلـيـنـا ونـضـربُ بـالـمـواسـي مَـنْ يـلـيـنـا
ألا لا يَـحْـسـب الأعـداءُ أنّـا تَـضـعـضـعـنـا وأنّـا قـد فـنـيـنـا
تـرانـا بـارِزيـن وكـلّ حـيّ قـد اتـخـذوا مـخـافـتـنـا قـريـنـا
كـأنّـا والـسـيـوف مُـسـلـلاتٌ وَلَـدْنـا الـنـاس طـرًّا أجـمـعـيـنـا
مـلأنـا الـبَـرّ حـتـى ضـاق عـنـا كـذاكَ الـبـحـرُ نـمـلـؤُهُ سـفـيـنـا
إذا بَـلَـغ الـرَّضـيـعُ لـنـا فـطـامـاً تـخـرُّ لَـهُ الـجـبـابـرُ سـاجِـديـنـا
لـنـا الـديـار ومـنْ أضْـحـى عـلـيـهـا ونـبـطـشُ حـيـنَ نَـبـطـشُ قـادِريـنـا
تـنـادى الـمـصْـعـبـان وآلُ بـكـر ونَـادَوا يـا لـكـنْـدَةَ أجـمـعـيـنـا
فـإنْ نَـغـلـب فَـغـلاّبـون قَـدمـاً وإن نُـغْـلَـب فـغـيـرُ مُـغـلـبـيـنـا

(٦) طَرَفَة بن العبد البكري

هو عَمْر بن العبد البكريّ أقصر فحول الجاهليّة عُمراً، ومال إلى قول الشعر والوقوع به في أعراض الناس، حتى هجا عمرو بن هند ملك العرب على الحيرة مع

(١) الأبدان: جمع بدن وهي الدروع.
(٢) يقتن: من القوت، وهو الطعام. جيادنا: جمع جواد.
(٣) نحميهن: ندافع عنهن، ما بقينا: ما حيينا.
(٤) القلون: جمع قلة، وهي الخشبة التي يلعب بها الصّبيان يضربونها بالمقلاء.
(٥) يقول: إننا أعزاء لا تصل الملوك إلى ظلمنا.

أنه كان يتطلب معروفه وجُودَه. فبلغ عمرو بن هند هجاء طرفة له فاضطغنها عليه، حتى إذا ما جاءَه هو وخاله المُتلمّس يتعرضان لفضله أظهر لهما البشاشة وأمر لكل منهما بجائزة، وكتب لهما كتابين وأحالهما على عامله بالبحرين ليستوفياها منه.

وبينما هما في الطريق ارتاب المتلمّس في صحيفته فعرّج على غلام يقرؤها له، ومضى طرفة فإذا في الصحيفة الأمر بقتله، فألقى الصحيفة، وأراد أن يلحق طرفة فلم يدركه. وفرَّ إلى ملوك غسّان وذهب طرفة إلى عامل البحرين وقُتل هناك، وعُمره نحو ست وعشرين سنة.

شعره : يجيد طرفة الوصف للناقة في شعره مقتصراً فيه على بيان الحقيقة مع قصد في الغلوّ، ومعاظلة في بعض التراكيب، واسترسال في وحشي للفظ وخفي المعنى، وكذلك كان هجاؤه الملوك على شدة وقعه.

معلقة طرفة بن العبد البكري

[الطويل]

لخولة أطلالٌ ببرقةِ ثَهمد تلوح كباقي الوشمِ في ظاهر اليدِ(١)
وقوفاً بها صحْبي عليَّ مَطيّهم يقولون لا تهلك أسى وتجلدِ(٢)
كأن حُدوج المالكيةِ غدُوة خلايا سفين بالنواصفِ من دَدِ(٣)
عدوليةٌ أو من سفينِ ابن يامنٍ يجُور بها الملاحُ طوراً ويهتدي(٤)
يشقُّ حُباب الماء حيزُومها بها كما قسم التربَ المفايلُ باليدِ(٥)
وفي الحيِّ أحوى ينفضُ المرد شادنٌ مظاهرُ سِمْطَيْ لؤلؤ وَزَبرجدِ(٦)

(١) خولة امرأة من بني كلب. وثهمد: أكمة في بلاد خثعم. تلوح: تظهر.
(٢) وقوفاً: واقفين. أسى: حزناً. تجلد: تحمل.
(٣) المالكيّة نسبة إلى مالك بن ضبيعة ابن عم عمرو. الحدوج: الهوادج والقباب. الخلايا: جمع خليّة، السّفينة الكبيرة. النّواصف: مجاري الماء إلى البحر.
(٤) عدوليّة: قديمة، وهي الكبيرة من السّفن وهي تنسب إلى موضع يقال له ابن يامن، ملاح أو تاجر من أهل البحرين.
(٥) حباب الماء: طرائقه وما ارتفع منه. الحيزوم: الصّدر. المفايل: الذي يجمع تراباً ويخبئ فيه شيئاً مثل الحلقة ويقسم التّراب نصفين ويطلبه في أحدهما، فإن أصاب ظفر وإن أخطأ قهر.
(٦) أحوى: في لونه سواد والمراد شجر الأراك. الشّادن: ولد الظبيّة إذا قوي.

خذولٌ تراعي ربرَباً بخميلة تناولُ أطراف البرير وترتدي[١]
وتبسمُ عن ألْمَى كأن مُنوَّراً تخلل حرَّ الرمْل دعصٍ له نَدِ[٢]
سقتهُ إياةُ الشّمس إلا لثاتهِ أُسفَّ ولم تكدِم عليه بإثمدِ[٣]
ووجهٌ كأن الشمس ألقتْ رداءها عليه نقيَّ اللونِ لم يتخدَّدِ[٤]
وإني لأمضي الهمَّ عند احتضاره بهوجاء مرقال تروحُ وتغتدي[٥]
أمون كألواحِ الإرانِ نسأتها على لاحِب كأنهُ ظهرُ بُرْجُدِ[٦]
جُمالية وَجْناء تَردِي كأنها سفَنَّجةٌ تَبري لأزعَر أربد
تباري عِتاقاً ناجياتٍ وأتبعتْ وظيفاً وظيفاً فوقَ مَوْر مُعَبَّدِ[٧]
تربّعتِ القُفّينِ في الشوْل تَرتَعي حدائق مولِيٍّ الأسِرَّة أغيَد[٨]
تريعُ إلى صوت المُهيب وتتَّقي بذي خُصَل روعاتِ أكلف مُلبد[٩]
كأن جناحي مضرحي تكنَّفا حفافيه شكّا في العسيف بمسْرَد[١٠]

---

(١) الخذول: المتلحفة من الظباء. الرّبرب: القطيع من الظباء. الخميلة: الشّجر الملتف. البربر: المدرك من ثمر الأراك.

(٢) تبسم: يفتر ثغرها. اللميء: سواد في الشّفة. المنور: الأقحوان. تخلل: دخل فيه. حرّ الرّمل: النّقي منه.

(٣) الإياة: ضوء الشّمس. اللثة: مغرز الأسنان. يقول: أسنانها بيض ولثاتها زرق، أسف: أي ذر عليه بإثمد هو الكحل.

(٤) ألقت وفي رواية حلت رداءها: أي بهاءها. لم يتخدّد: أي: لم يضرب حتى تصير فيه شقوق.

(٥) الهوجاء: الخفيفة الفؤاد. مرقال: وصف للناقة بشدة السّبر.

(٦) الأمون: التّي أمنت من أن تكون ضعيفة. الإران: التّابوت الذي يحمل فيه الموت. نسأتها: أي: زجرتها. اللاحب: الطريق. البرجد: كساء من أكسيّة العرب.

(٧) تباري: تشابه. العتاق: الإبل الكرام. النّاجيات: المسرعات في السّير. الوظيف: ساق البعير. المور: الطريق.

(٨) تربعت: رعت أيام الرّبيع. القفان: موضعان موصوفان بالمرعى لجودتهما. الشّول، بفتح الشّين، من الإبل: التّي جفت لبنها وأتى عليها من نتاجها سبعة أشهر.

(٩) تريع: تصغي. الرّوعة: الفزع. الكلف: الذي في وجهه لون يخالف لونه وهو صفة من صفات الفحل.

(١٠) المضرحي: النّسر. تكنفا: أحاطا. حفافيه: جوانبه.

فطوراً به خلف الزَّميل وتارةً على حَشَف كالشّنِّ ذاوٍ مُجَدَّد(١)
لها فَخْذان أكمل النحضُ فيهما كأنهما بابا مُنيف مُمَرَّد(٢)
وطيٌّ محال كالحنيِّ خلوفهُ وأجْرنةٌ لُزّت بدأي مُنضد(٣)
كأن كناسي ضالة يكْنِفانها وأطر قِسيٍّ تحت صُلب مُؤيد(٤)
لها مرفقان أفْتلان كأنها تمُرُّ بسلمَيْ دالج متشدِّد(٥)
كقَنطرَةِ الروميّ أقسَم ربها لَتُكتنفنْ حتى تشادَ بقرمَد(٦)
صهابيّة العُثنون مُوجدَةُ القَرا بعيدةُ وَخْدِ الرّجلِ موَّارةُ اليَد(٧)
جَنوحٌ دقاقٌ عَندل ثم أفرعت لها كتافها في مَعالٍ مُصعَّد(٨)
أمرَّت يداها فَتْلَ شزْر وأُجْنحت لها عضداها في سَقيف مُسنَّد(٩)
كأن علوبَ النِّسع في دَأياتها مواردُ من خلقاء في ظهر قَرْدَد(١٠)

(١) الطور: المرة الأوّلى، والتّارة: المرة الثانيّة. الزميل: الرّديف. الحشف: الضرع الذي لا لبن فيه وهو المنقبض. الشّن: القربة الخلقة. الذاوي: هو اليابس. المجدّد الضرع: الذي لا لين فيه ولا لبن.
(٢) النّحض: اللحم. المنيف: المشرف. الممرد: المملس.
(٣) المحال: فقار الظهر. الحنيّ: القسي. خلوفه: مؤخر أضلاعه. أجرنة: باطن عنق البعير. لزت: قرب بعضها إلى بعض فانضمت واشتدت. دأي: أعالي الأضلاع. منضد: أي بعضه فوق بعض.
(٤) الكناس: بيت الظباء والضأن، شبه تباعد ما بين مرفقها وزورها بكناس الظبي حول الشّجر. وأطر قسي: أي: عطفها وانحناؤها. الصّلب: الظهر. المؤيد: الموثق. الأيد: القوة.
(٥) المرفق: مفصل العضد. افتلان: مفتولان. تمر: وفي روايّة أمرا: فتلا. السّلم: الدلو له عروة. الدالج: الذي يمشي بالدلو من البئر إلى الحوض. متشدّد: متكلف للشدة، ومعنى ذلك أن الذي يسقي الإبل يجعل الحوض بعيداً عن البئر، فإذا أخرج الدلو من البئر. مشى به إلى الحوض.
(٦) القنطرة: الجسر. الرّومي: أحد البنائين من الرّوم. تكتنفن: أي: يحاط حواليها بالبناء. تشاد: ترفع.
(٧) صهابيّة: بياض شيب.
(٨) جنوح: مائلة في سيرها من النّشاط. دفاق: متدفقة في السّير. عندل: عظيمة الرّأس. أفرعت: رفعت. في معالي: في مرتفع.
(٩) أمرت: فتلت فتلاً محكماً. الشّزر: الفتل إلى اليسار. أجنحت: أميلت. والسّقيف: هنا صدرها، ومسند، وفي رواية منضد: مجموع بعضه على بعض.
(١٠) العلوب: الآثار. النّسع: حزام الرّجل. الدأيات: مآخير الأضلاع، موارد: طرق الماء. والخلقاء: الصّخرة الملساء. القردّد: الأرض الصّلبة.

تلاقى وأحياناً تبين كأنها بنائقُ غرٍّ في قميص مُقدَّد[١]
وأتلعُ نهاضٌ إذا صعَّدتْ به كسُكَّان بُوصيٍّ بِدجلةَ مُصْعِدِ[٢]
وجمُجمَةٌ مثلُ العَلاةِ كأنما وعَى الملتقى منها إلى حَرف مِبْرَدِ[٣]
وخدٌّ كقِرطاس الشآمي ومِشفَرٌ كسِبتِ اليماني قدُّه لم يُجَرَّدِ[٤]
وعَيْنان كالماويتينِ أسكنَّتا بكهفيْ حَجاجيْ صخرةٍ قَلْتِ مَوْرد[٥]
طحوران عوَّارَ القَذى فتراهُما كمكحُولتيْ مذعورةٍ أمِّ فرقد[٦]
وصادقتا سمع التوجُّس للسُّرَى لِهَمْسٍ خفيٍّ أو لصوتٍ مُنَدَّد[٧]
مَؤلَّلتان تعرفُ العِتْقَ فيهما كسامعتَيْ شاةٍ بحومَلَ مُفرَد[٨]
وأروعُ نباضٌ أحذُّ مُلَمْلَمٌ كمرداة صخرٍ في صفيح مُصَمَّدِ[٩]
وإن شئتَ سامى واسط الكور رأسُها وعامت بضبْعيها نجاء الخَفَيْدَدِ[١٠]

(١) تلاقي: يتصل بعضها ببعض وتتلاقى الطرق من أعلاها وتفترق من أسفلها.
(٢) الأتلع: الطويل يعني عنقها. نهاض: كثير الارتفاع. صعدت: ارتفعت. السّكان: الدقل، وهو مؤخر السّفينة. البوصي: ضرب من السّفن. دجلة: نهر. مصعد: قاصد إلى العراق.
(٣) الجمجمة: غطاء الرّأس، وهو يعني راس النّاقة. العلاة: السّندان يضرب عليها الحداد. وعى الملتقى: يعني: جمع ملتقى الرّأس، شبهه بحرف المبرد لصلابته.
(٤) المشفر من البعير: كالشّفة من الإنسان. السّبت: جلود البقر إذا دبغت بالقرظ.
(٥) المّاويتان: المرآتان المصقولتان. اسكنتا: دخلتا.
(٦) طحوران: دفوعان. العور: الخبث الذي يقع في العين وكذلك القذى. كمكحولتي: أي: عيني. مذعورة: خائفة طردها القناص وأفزعها. الفرقد: ولدها.
(٧) وصادقتا سمع: يعني أذنيها، والتّوجس: التّسمع، والهمس: الصّوت الخفي، والمنددّ: المرتفع.
(٨) مؤللتان: محدّدتان كالحربة. العتق: الكرم. الشّاة: بقرة الوحش وتسمى نعجة. حومل: موضع معروف. مفرد: وحيد.
(٩) أروع: فزع. نباض: فؤادها. أحذ: قليل الشعر. ململم: مجتمع. مرداة: صخرة تردي بها الحجارة لصلابتها. الصفيح: الحجارة العريضة. مصمد: مصلب.
(١٠) سامى: ساوى. واسط: وسط. الكور: الرّحل، عامت: مدت يدها كهيئة السّابح في الماء. الضبعين: العضدان. نجاء: سرعة. الخفيدّد: الظليم، وهو ذكر النّعام.

وإن شئت لم ترقل وإن شئت أرقلت مَخافَةَ ملوي من القِدِّ محصد[١]
وأعلم مخروط من الأنف مارنٌ عتيقٌ متى ترجم به الأرضَ تزددِ[٢]
على مِثلها أمضي إذا قال صاحبي ألا لبتني أفديك منها وأفتدي
وجاشتْ إليه النفسُ خوْفاً وخالهُ مصاباً ولو أمسى على غير مرصَدِ
إذا القوْم قالوا مَن فتى؟ خِلتُ أنني عُنيت، فلم أكسلْ ولم أتبلَّدِ
أحَلْتُ عليها بالقطيعِ فأجْذَمَتْ وقد خبَّ آلُ الأمعزِ المتوَقِّدِ[٣]
فذانَتْ كما ذالَتْ وليدةُ مجلسٍ تُري ربَّها أذيالَ سحل ممُددِ[٤]
ولستُ بحلَّال التِّلاع مخافةً ولكِنْ متى يسترفد القوْم أرفدِ[٥]
فإن تبغِني في حلقةِ القوم تلقَني وإن تقتنِصني في الحوانيتِ تصطد[٦]
متى تأتني أصْبِحك كأساً رويّةً وإن كنت عنها غانياً فاغنَ وازدد[٧]
وإن يَلتق الحيُّ الجميعُ تلاقِني إلى ذروةِ البيت الرَّفيع المَصمَّدِ[٨]
ندامايَ بِيضٌ كالنجوم وقَيْنةٌ تروح علينا بين بُرد ومَجْسَدِ[٩]

---

(١) الإرقال: ضرب من السّير. الملوي من القد: السّوط. المحصد: المحكم الفتل.
(٢) الأعلم: المشقوق المشفر الأعلى. المّارن: ما لان من الأنف وهو مقدمه. عتيق: كريم. متى ترجم به الأرض: أي: تضربها به. يريد أنها إذا حطت رأسها إلى الأرض أسرعت في السّير وذلك لنشاطها وحدتها.
(٣) أحلت: وثبت. القطيع: السّوط. أجذمت: أسرعت. خب: ارتفع. الآل: ما يكون في أوّل النّهار مثل السّراب. الأمعز: الأرض الغليظة التّي فيها حصى. المتوقد: المشتعل.
(٤) ذالتْ: تبخترت النّاقة. الوليدة: الفتيّة. ترى ربها: أي: مولاها. أذيال: أطراف الثوب متى يصل إلى الأرض. السّحل: الثوب القطن. الممدّد: المبسوط.
(٥) التّلعة: من أسماء الأضداد تكون للمرتفع والمنخفض.
(٦) حلقة القوم: مجالس أشرافهم. الحوانيت: بيوت الخمارين.
(٧) تأتني: تجئني.
(٨) ذروة: أعلى الشّيء.
(٩) النّدامى: أصحابي على الخمر. القينة: الجارية. البرد: الثوب الأبيض. المجسد: المصبوغ بالزعفران.

رحيبٌ قِطابُ الجَيب منها رفيقةٌ لجسّ الندامى بضة المُتجرَّدِ[١]
وما زال تشرابي الخمورَ ولذتي وبَيعي وإنفاقي طريفي ومتْلدي[٢]
إلى أن تحامتْني العشيرة كلها وأفردْتُ إفراد البعير المعبَّد[٣]
رأيتُ بَني غبراء لا يُنكرونني ولا أهل هَذاك الطِّراف المُمَدَّدِ[٤]
ألا أيهذا اللائمي أحضرَ الوغَى وأن أشهدَ اللذاتِ هل أنتَ مُخلدي[٥]
فإن كنْت لا تستطيعُ دفعَ منيتي فدَعْني أبادرْها بما ملكت يدي
فلولا ثلاثٌ هنّ من عيشةِ الفتى وجدِّكَ لم أحفل متى قام عوَّدي
فمنهنّ سَبقي العاذلاتِ بشربةٍ كُميت متى ما تُعل بالماء تزْبد[٦]
وكرِّي إذا نادى المضافُ مُجنَّباً كسيد الغضا نَبَّهْتَهُ المتَوَرِّد[٧]
وتقصير يوم الدجْن والدجنُ معجبُ بِبهْكَنَةٍ تحت الخباءِ المعمّد[٨]
كأن البرينَ والدماليج عُلِّقتْ على عُشَرٍ أو خِرْوع لم يخضّد[٩]
فذرْني أروّي هامتي في حياتها مخافة شرْب في الحياةِ مُصرّد[١٠]
كريمٌ يروّي نفسه في حياته ستعلمُ إن مُتنا غداً أيَّنا الصَّدي[١١]
أرى قبرَ نحامٍ بخيل بماله كقبرِ غويّ في البطالة مُفسد[١٢]

(١) رحيب: واسع. قطاب الجيب: أي: مجتمع الجيب. يصف صدرها بالرّحب والسّعة.
(٢) الطريف: الحديث، المكتسب.
(٣) المعبد: المذلل المطلي بالقطران.
(٤) بني غبراء: اللصوص، والطرف: بيت من جلد. يعني: أنه لا يذكره.
(٥) اللائمي: اللاحي، وفي روايّة الزاجري.
(٦) كميت: خمر تضرب إلى السّواد. تعل: أي: يصب الماء عليها.
(٧) كري: عطفي. المضاف: الذي أضافته الهموم.
(٨) الدجن: المطر الخفيف. معجب: أي: يعجب من رآه. البهكنة: المرأة التّامة الخلق.
(٩) البرين: الخلاخل في أنف النّاقة. على عشر: العشر شجر أملس مستو ضعيف العود شبه به عظامها وساعديها لملاسته واستوائه.
(١٠) الشّرب بكسر الشّين وضمها: اسم للمشروب. المصرد: المفلل.
(١١) يروي نفسه من الخمر في حياته. الصّدي: العطشان.
(١٢) النّحام: كثير السّعال عندما يسأل. الغوي: الذي يتبع هواه ولذاته. البطالة: اتباع الهوى والجهل.

ترى جُثوتين من تراب عليهما ... صفائحُ صمٌّ من صفيح مُنضّد(١)
أرى الموت يعتام الكرام ويصْطفي ... عقيلة مال الفاحِش المتَشَدد(٢)
أرى العيش كنزاً ناقصاً كلّ ليلة ... وما تنقصِ الأيامُ والدهرُ يَنفد
لَعَمْرُكَ إن الموتَ ما أخطأ الفتى ... لكالطِّوَل المُرْخى وثنياهُ باليَد(٣)
فما لي أراني وابنَ عمّي مالكاً ... متى أدنُ مِنهُ يَنأ عني ويَبْعُدِ(٤)
يَلومُ وما أدْري علامَ يَلومُني؟! ... كما لامني في الحَيِّ قُرْط بْنُ معبد(٥)
وأيأسني مِنْ كلِّ خيرٍ طلَبتُهُ ... كأنّا وضعْناهُ إلى رمْس ملحدِ(٦)
على غيرِ ذنبٍ قُلتهُ غيرَ أنني ... نَشَدتُ فلم أغفل حمَولةَ مَعبدِ(٧)
وقرّبتُ بِالقُربى وجَدِّكَ أنني ... متى يَكُ أمرٌ للنكيثةِ أشهدِ(٨)
وإن أُدْعَ للجُلى أكنْ منْ حمُاتها ... وإن يك الأعداءُ بالجَهدِ أجْهدِ(٩)
وإن يقذِفوا بالقذْع عرْضك أسقِهم ... بكأسِ حياضِ الموتِ قبل التهدُّدِ(١٠)
بِلا حدَثٍ أحدَثتهُ وكمُحْدِث ... هجائي وقذفي بالشكاةِ ومُطرَدي(١١)
فلو كان مولايَ امرؤٌ هو غيرُهُ ... لفرِّجَ كربي أو لأنظَرَني غدي(١٢)

---

(١) الجثوة: التّراب المجموع. صفائح صم: صلبة. المنضد: المجموع بعضه على بعض.
(٢) يعتام: يختار. الخيار: الكرام والأماجد. يصطفي: ينتخب. عقيلة كل شيء: خيرته. الفاحش: القبيح السّيّئ الخلق. المتشدّد: كثير البخل.
(٣) الطِّوَلُ: الحبل، وثنياه: أي: طرفاه، ومعناه: أن الإنسان وإن يطل عمره إلا أنه كالفرس لصاحبها إذا أرادها جذب الحبل إليه.
(٤) ابن عمي على خلافي، أتقرب إليه فيبعد عني.
(٥) ويبالغ ابن عمي في الجفاء فيلومني على مالا أستحق اللوم عليه كما يفعل قرط بن معبد.
(٦) أيأسني: جعلني يائساً. الرّمس: القبر. الملحد: المقبور.
(٧) وكل ما ألقاه منه لا سبب له إلا أني نشدت: طلبت.
(٨) النّكيثة: بلوغ الجهد، وقيل الانتفاض.
(٩) الجلي: الأمر العظيم، الحماة: الذائدون.
(١٠) القذع: الشّتم القبيح.
(١١) أي: هو معتد علي بلا حدث أحدثته، هجاني وطردني، والمطرد: الطريد.
(١٢) يقول: لو أن مولاه رجلاً آخر لفرج كربه وأنظره ولم يتعجله بما تعجله ابن عمه من القدح والذم.

ولـكـنّ مـولايَ امـرؤٌ هـو خـانـقـي على الشكر والتسآل أو أنا مفتدي[١]
وظـلـم ذوي الـقـربى أشـد مـضـاضـة على المرء من وَقْعِ الحُسام المهنَّد[٢]
فـذَرنـي وخـلـقـي إنـنـي لـك شـاكِـرٌ ولوْ حلّ بيتي نائباً عندَ ضرْغُدِ[٣]
فـلـو شاءَ ربي كـنـت قـيـسَ بْنَ خـالـد ولوْ شاء ربي كنت عمرو بن مرثد[٤]
فـأصْـبـحـتُ ذا مـالٍ كـثـيـر وزارنـي بَـنـونَ كِـرامٌ سـادَةٌ لـلـمُـسَـوّدِ
أنـا الـرجُلُ الـضـربُ الـذي تـعـرفـونـهُ خَـشـاشٌ كـرأس الـحـيّـةِ الـمـتـوقِّـدِ
فـآليـتُ لا يـنـفـكُّ كـشْـحـي بِـطـانـةً لِـعَـضْـبٍ رقـيـق الـشـفـرَتـيـن مُـهَـنَّـدِ
حُـسـام إذا مـا قـمـتُ مُـنْـتـصـراً بـهِ كفى العَوْدَ منه البدءُ ليس بمِعْضَدِ
أخـي ثِـقـة لا يـنـثـنـي عـن ضـريـبـةٍ إذ قـيـلَ مـهـلاً؛ قـال حـاجـزهُ قـدي
وبَـرْكٍ هُـجـودٍ قـد أثـارَتْ مـخـافـتـي نـواديـهـا أمـشـي بـعَـضْـبٍ مـجـرّدِ[٥]
فـمـرّت كـهـاةٌ ذاتُ خـيـف جُـلالـةٌ عـقـيـلـةُ شـيـخ كـالـوَبـيـل يَـلـنـدِدِ[٦]
يـقـولُ وقـد تـرّ الـوظـيـفُ وَسـاقـهـا ألـسـتَ تـرى أن قـد أتـيـتَ بـمـؤيـدِ[٧]
وقـالَ ذَروهُ إنـمـا نـفـعـهـا لـهُ وإلا تـرُدُّوا قـاصـيَ الـبَـرْك يـزْدَدِ[٨]
فـظـلّ الإمـاءُ يـمْـتـلِـلـنَ حُـوارَهـا ويُـسْـعى علينا بالسديف المُسَرْهَدِ[٩]

(١) خانقي: مكرهي على شكره على ما لم يفعله، وإلا أنا هدف سهامه.
(٢) أما أنا فقد ضقت بهذا التّجني لأن الظلم من الأقربين لا يحتمل.
(٣) ضرغد: جبل بعيد.
(٤) قيس بن خالد من بني شيبان، وعمرو بن مرثد ابن عم طرفة، قيل: لمّا بلغ هذا عمرو ابن عم طرفة وجه إلى طرفة فقال له: أما الولد فالله يعطيكم، وأما المال فلك فيه ما لنا، ثم دعا ولده وكانوا سبعة فأمر كل واحد فدفع لطرفة عشراً من إبله، ثم أمر ثلاثة من بني بنيه فدفع كل واحد منهم إلى طرفة عشراً من الإبل.
(٥) البرك: الإبل الكثيرة الباركة. الهجود: النّيام.
(٦) الكهاة: النّاقة السّمينة. الخيف: الضرع، الجلالة: الكبيرة. الوبيل: العصا.
(٧) ترّ: انقطع. الوظيف: مستدق السّاق من الإبل والخيل.
(٨) ذروه: اتركوه وعناده.
(٩) الحوار: الصّغير من الإبل. السّديف: السّنام. المرهد: المقطع صغاراً.

فإن متُّ فانعيني بما أنا أهلهُ وَشُقِّي عليّ الجَيب يا ابنَة مَعْبدِ[١]
ولا تجعليني كامرئٍ ليس هَمُّهُ كهمّي ولا يُغني غَنائي ومشهدي[٢]
بَطيء عن الجُلَّى سريعٍ إلى الخَنا ذَليل بإجماع الرّجال مُلَهَّدِ[٣]
فلو كنتُ وغلاً في الرجال لضَرَّني عداوة ذي الأصْحابِ والمتَوحِّدِ
ولكنْ نفى عني الأعادي جراءتي عليهم، وإقدامي وصدقي ومحتدي[٤]
لَعَمْرُك ما أمري عَليَّ بغُمّة نهاري ولا لَيلي عليّ بِسَرْمَد[٥]
ويوم حَبَسْتُ النفس عِندَ عراكِها حِفاظاً على عوراتِه والتَّهدّد[٦]
على موطنٍ يخشى الفتى عندَه الردى مَتى تعترِكْ فيه الفرائِصُ ترْعَدِ
وأصفَرَ مَضبوحٍ نَظرْتُ حوارهُ على النار واستَودَعتُه كفَّ مُجمِدِ[٧]
أرى الموت أعدادَ النفوس ولا أرى بعيداً غداً ما أقربَ اليومُ من غَدِ
سَتُبدي لك الأيامُ ما كُنتَ جاهلاً ويأتيكَ بالأخبار من لم تُزَوِّدِ[٨]
ويأتيك بالأنباءِ مَنْ لم تَبعْ لهُ بتاتاً ولم تَضرِبْ له وَقتَ مَوعِد[٩]
لعمرُكَ ما الأيّام إلا مُعارةٌ فما اسْطعتَ مِن معروفها فتزَوّدِ[١٠]

---

(١) انعيني: اذكري من الأفعال ما أنا أهل له وهو يخاطب ابنة أخيه. وشق الجيب معروف، ويراد به التّنويه بشدة المصاب

(٢) واحذري أن تجعليني هيناً كرجل لا يغني مثل غنائي، ولا يقوم في الحرب مقامي ولا يشهد مشهدي في المجالس والخصومات.

(٣) البطيء: الكسول المتقاعد. والجلي: الأمر الخطير العظيم. الخنا: الفساد.

(٤) يقول: إن الجرأة والإقدام والصّدق وكرم الأصل منعت عنه أعداءه من الإساءة إليه.

(٥) الغمة: الأمر الذي لا يهتدى له، والمعنى أني لا أتحير في أمري نهاراً ولا ليلاً فيطول علي الليل، والسّرمد: الطويل.

(٦) العراك: الازدحام، أي: صبرت النّفس عند ازدحام القوم في الحرب والخصومات على عورات القوم أي: حرماتهم وأحسابهم.

(٧) الأصفر هنا: الأسود. المجمد: الذي يأخذ بكلتا يديه ولا يخرج من يديه شيء، وقيل الذي يضرب بالسّهام، أو الأمين في القمار.

(٨) ستبدي: ستظهر. ما كنت جاهلاً: يعني ما لم تسمع من قبل، ويفيدك بها من لم تسأله عنها.

(٩) تبع له بتاتاً: تشتري له زاداً.

(١٠) لعمرك: وحياتك ليست الأيام إلا معارة عاريّة تسترد وتسترجع، فاحرص على عمل الخير وصنع المعروف، وتزوّد من ذلك كثيراً.

عن المرءِ لا تَسأل وأبصِر قرينَهُ فإنّ القَرينَ بالمقارنِ مُقْتدِ[١]
لعمرُكَ ما أدْري وإني لَواجِلٌ أفي اليوم إقدامُ المنيّةِ أمْ غَدِ؟[٢]
فإنْ تكُ خلفي لا يفُتها سواديا وإن تَكُ قُدّامي أجِدها بمرصَدِ[٣]
إذا أنتَ لم تَنْفع بوُدكَ أهلَهُ ولم تنكِ بالبوسى عَدُوَّك فابْعدِ[٤]

(٧) اعشَى قَيس

هو أبو بَصيرٍ مَيْمُونُ الأعشى بنُ قيس بن جَندلٍ القَيْسي. نَشأ في بدء أمره راوية لخاله المُسَيّب بن عَلَس. وقد عَميَ وطال عمره، حتى كان الإسلامُ وعظُم أمرُ النبي ﷺ بين العرب، فأعدَّ له قصيدةً يمدحه بها، وقصده بالحجاز، فلقيه كفارُ قُريش وصدّوه عن وجهه على أن يأخذ منهم مئة ناقة حمراء ويرجعَ إلى بلده لتَخَوُّفِهم أثَر شعره. ففعل. ولما قرُب من اليمامة سقط عن ناقته فدُقَّت عنقه ومات، ودفن ببلدته مَنْفوحةَ باليمّامة.

شعره: يُعدُّ شعر الأعشى رابعاً للثلاثة الفحول: امرئ القيس، والنابغة وزهير، وإن كان يمتازُ عنهم بغزارة شعره، وكثرة ما رُوي له من الطوال الجياد وتفنُّنه في كل فن من أغراض الشعر، واشتهر من بينهم بالمبالغة في وصف الخمر، حتى قيل: أشعر الناس امرؤُ القيس إذا ركِب، وزهير إذا رغِب، والنّابغة إذا رهِب، والأعشى إذا طرِب.

ولشعره طَلاَوة ورَوْعة، ليست لكثير من شعر غيره من القدماء، ولقوّة طبعه وجَلَبَةِ شعره سُمّي صَنَّاجة العرب حتى ليُخَيّل إليك إذا أنشدت شعره أن آخر ينشِد معك.

ولجلالة شعره كان يرفع الوضيعَ الخامل، ويخفض الشريف النابه، ومن الذين رفعهم شعر الأعشى المُحلّق وقد كان أبا ثماني بنات عَوَانس رغبت عن خِطْبَتِهِنّ الرجالُ لفقرهنّ، فاستضافه على فقره، فمدحه الأعشى ونوّه بذكره في عكاظ، فلم يمضِ عام حتى لم تبق جارية منهن إلا وهي زوج لسيّد كريم.

---

(١) الرّواية المحفوظة لهذا البيت.

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي

(٢) أنا وأنت وغيرنا لا يدري ولا يعرف متى يحين حينه.
(٣) فإن تك خلفي فهي جادة ورائي، ولن أغرب عن عينها، وإن تك قدامي فهي رقيبة مترصدة.
(٤) إذا لم تنفع ببرّك الأقربين والأصدقاء ولم تلحق العطب بالأعداء ببطشك فاتّخذ قصيّاً.

وكان الأعشى يتطرَّف في شعره، ويتكسَّبُ به، وعدّه بعضهم من أصحاب المُعلّقات، وذكر قصيدته التي يمدح بها الأسود الكِندي ومطلعها:

[الخفيف]

ما بكاء الكبير بالأطلال وسؤالي وما تردُّ سؤالي

ومن جيّد شعره قصيدته التي أعدّها ليُنشدها بين يدي رسول الله ﷺ يمدحه فيها فلم يَفز بذلك. وأولها:

[الطويل]

ألم تَغتَمِضْ عيناك ليلةَ أرْمَدَا وبتَّ كما باتَ السّليمُ مُسَهّدَا
وما ذاك من عِشق النّساء وإنّما تنَاسيتَ قبل اليوم خُلّة مَهْدَدَا
ولكن أرى الدهر الذي هو خائنٌ إذا أصلحتْ كفّايَ عاد فأفسدَا
شبابٌ وشَيْبٌ وافتقار وثَروة فللَّه هذا الدّهرُ كيف تردّدا

وقصيدته في مدح المحلَّق أولها:

[الطويل]

أرِفتُ وما هذا السُّهاد المُؤرّقُ؟ وما بيَ من سُقْمٍ وما بي تعَشُّقُ

ومنها:

لَعمري لقد لاحت عيونٌ كثيرة إلى ضوء نار في اليفَاعِ تحَرَّقُ
تُشَبُّ لِمقْرُورَينِ يصْطليانها وبات على النار النَّدى والمُحلَّقُ
رضيعَيْ لِبانٍ ثديَ أُمّ تقَاسما بأسْحَمَ داجٍ عَوْضُ لا نتفرّقُ
ترى الجودَ يجري ظاهراً فوق وجهه كما زان متنَ الهِنْدُواني رَونقُ
يداهُ يدا صدق فكفٌّ مُبيدةٌ وأخرى إذا ما ضُنَّ بالمال تُنفِقُ

وقيل أن معلقتهُ هي التي أولها:

[البسيط]

ودّع هريرة إن الرّكب مرتحلُ وهل تطيقُ وداعاً أيها الرجلُ[1]

(١) هريرة: اسم قينة كانت لرجل من آل عمرو بن مرثد أهداها إلى قريب به فولدت خليداً الآتي ذكره في شعره.

ومنها قوله:

غرّاء فرعاءُ مَصقولٌ عوارضها ... تمشي الهويني كما يمشي الوجي الوحلُ[١]

كأن مِشيتها من بَيتِ جارتها ... مرُّ السحابة، لا ريثٌ ولا عجلُ[٢]

تسمعُ للحلي وسواساً إذا انصرفت ... كما استعان بريحٍ عشرقٌ زجلُ[٣]

ليستْ كمن يكره الجيران طلعتها ... ولا تراها لسِر الجار تختتلُ[٤]

يكادُ يصدعُها ـ لولا تَشددُها ـ ... إذا تقومُ إلى جارتِها الكسلُ[٥]

إذا تقوم يَضوع المسك أصورة ... والزّنبقُ الورْد من أردانها شملُ[٦]

ما روضةٌ من رياض الحزن مُعشبة ... خضراء جادَ عليها مُسبلٌ هطِلُ[٧]

يضاحِك الشمس منها كوكب شرق ... مؤَزر بعميم النّبتِ مُكتهلُ[٨]

يوماً بأطيب منها نشرَ رائحةٍ ... ولا بأحسن منها إذا دنا الأصلُ[٩]

---

(١) الغراء: البيضاء الواسعة الجبين. الفرعاء: الفرع أي: الشعر، والعوارض هنا الرّباعيات والأنياب من الأسنان، يريد أنها نقيّة السّنان. الوجي: الذي يشتكي حافره ولم يشف بعد، فيكون مشيه متثاقلاً فكيف إذا كان وحلاً؟ أي: يمشي في الوحل، يعني: أن هذه الجارية لسمنها وتدللها تمشي متمهلة متمايلة.

(٢) الرّيث: البطء.

(٣) الوسواس: صوت الحلى. العشرق: شجرة مقدار ذراع لها أكمام فيها حب صغار إذا جفت فمرت بها الرّيح تحرك الحب فسمع له خشخشة على الحصى.

(٤) تختتل: أي: تتسمعه استراقاً.

(٥) يصفها بالسّمن والتّرف، وكانوا يمدحون المثريات بالكسل وقلة العمل في البيت لأنهن مخدومات متنعمات.

(٦) يضوع المسك: أي: تذهب رائحته هنا وهناك، وأصورة: جمع صوار بالضم وهو نافجة المسك أو حقه، والزنبق عند العرب: زيت الياسمين، وأكمله ما كان يميل إلى حمرة، ولذلك وصفه بالورد.

(٧) الحزن: الأرض الغليظة، والحزن المراد هنا: موضع ببلاد بني يربوع من اليمامة فيها رياض وقلعان.

(٨) كوكب كل شيء: معظمه، ويريد به هنا جماعة الزهر. أي: يضاحك الشّمس منها ويدور معها حيث دارت زهرها، أو يفتح ويشرق عند شروقها. وهذا الزهر مؤزر أي يكتنفه نبات تام النّمو ملتف عليه كالتّفاف الإزار.

(٩) الأصل: جمع أصيل وهو من العصر إلى الظلام. وخص هذا الوقت لأن الجو يبرد فيه فيهب النّسيم حاملاً رائحة الأزهار. يعني: أن رائحة الرّوضة الموصوفة بهذه الصّفات الحسيّة ليست بأفضل من رائحة هريرة.

صدت «هريرة» عنا ما تكلمنا ... جهلاً بأمّ خليد، حبلَ من تصلُ؟[١]
أئن رأت رجلاً أعشى أضرّ بهِ ... ريبُ المنون ودهر مُفندٌ خبلُ[٢]
قالت هريرة لما جئتُ زائرَها: ... ويَلي عليك وويلي منك! يا رجلُ[٣]
إما ترَينا حُفاةً؛ لا نعال لنا ... إنا كذلك ما نحفى وننتعلُ[٤]
وقد أقودُ الصِّبا يوماً، فيتبعني ... وقد يُصاحبُني ذو الشرَّةِ الغزلُ[٥]
وقد غدوت إلى الحانوت يَتبعُني ... شاوٍ مِشلٌّ شلولٌ شُلشلٌ شولُ[٦]
في فِتيةٍ كسيوف الهند قد علموا ... أنْ هالِكٌ كلُّ من يحفى وينتعلُ[٧]
نازعتهُم قضُبَ الريحانِ متكئاً ... وقهوةً مُرّةً راوُوقها خَضلُ[٨]
لا يستفيقون منها، وهي راهنةٌ ... إلا بهاتٍ، وإن عَلُّوا، وإن نهلوا[٩]

(١) أم خليد: كنيّة هريرة. وقوله «حبل من تصل!» استفهام تعجبي، يعني: إذا هجرتنا ولم تكلمنا فمن تكلم إذن.
(٢) الأعشى: الذي لا يبصر بالليل. المفند: الآتي بالفند وهو السّفه في الرّأي، ومثله الخبال.
(٣) ويلي عليك وويلي منك: أي: أتفجع عليك لأنك تسعى بزيارتك لي في هلاك نفسك، وأتفجع منك لأن زيارتك لي تجر إلى هلاكي.
(٤) ثم أخذ يعاتبها ويدفع عن نفسه بأن الصّفات التي صدت عنه من أجلها طارئة عليه بفعل الموت والزمان، وأنه كان شاباً غنيّاً طروباً غزلاً يشرب الخمر مع فتيان مثله ويستمع للقيان وينعم بهن فقال: «إما ترينا حفاة لا نعال لنا. .الخ» أي: إن ترينا نتبذل مرة فنمشي حفاة فليس هذا دأبنا دائماً فإننا أيضاً منتعلون فطوراً نفتقر وطوراً نغتني.
(٥) أقود الصّبا إلخ: أي: أتصابى، وآتي بأفعال الفتيان ويصحبني منهم الغزل ذوي الشّرة وهي: نشاط الشّباب.
(٦) الحانوت: بيت الخمار، والشّاوي: الذي يشوي اللحم، والمشل: السّواق الخفيف، والشّلول والشّلشل: الغلام الحار الرّأس الخفيف الرّوح النّشيط في عمله، والشّول: من يشول بالشّيء الذي يشتريه المشتري، فيحمله له ويرفعه.
(٧) أي: كالسّيوف في المضاء والصّرامة. وأن مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشّأن المحذوف وجملة «هالك كل من. .الخ» خبرها. فهالك خبر مقدم، و«كل» مبتدأ مؤخر.
(٨) الرّيحان: كل زهر طيب الرّائحة، ونازعتهم قضب الرّيحان: أتناولها مرة ويتناولونها أخرى، والقهوة: الخمرة، الرّاووق: الوعاء الذي تروق فيه الخمر. وخضل: دائم النّدى لا يخف لكثرة شربهم.
(٩) راهنة: دائمة أمامهم، أي: لا ينتهون إلا إذا أبطأ عليهم السّاقي فصاحوا به «هات» وشربوا عللا بعد نهل أي: مرة بعد أخرى.

يسعى بها ذو زُجاجات له نَطَفٌ مقلصٌ أسفل السربال مُعتملُ[١]

ومستجيب تخال الصنجَ يُسمِعه إذا تُرَجِّعُ فيه القينةُ الفضُلُ[٢]

(٨) الحارث بن حِلِّزَةَ اليشكري

هو الحارث بن حلِّزَةَ اليشكريّ البَكريّ، يتصل نسبه إلى بكر بن وائل، ولم يؤثر عنه غيرُ قطع يسيرة، ومعلقته الآتية كان من أمرها أن عمرو بن هند أحدَ ملوك الحيرة أصلح بين بكر وتغلب بعد حرب البسوس وأخذ من كِلا الفريقين رَهائنَ من أبنائهم ليكفّ بعضُهُم عن بعض، وليُقيدَ منها للمُعتدَى عليه من المعتَدِي. فحدث أن سرح الملك ركباً من تغلب في بعض حاجتِهِ، فزعمت تغلِبُ أن الركبَ نزلوا على ماءٍ لبكر فأجلوْهم عنه، وحملوهم على المفازة فماتوا عطشاً، وتزعم بكر أنهم سقَوْهم وأرشدوهم إلى الطّريق فتاهُوا وهلكوا.

وذهب الفريقان يتدافعان عند عمر بن هند وكانت ضَلعُهُ مع تغلب. فهاج ذلك الحارثَ بنَ حلّزة وكان في المجلس مستوراً عن الملك بسِتارة لما فيه من البرص، فارتجل قصيدته هذه ارتجالاً يفتخر فيها بقومه وفَعالهم وحسن بلائهم عند الملك وعظم أيامهم معه. فما أتمّ قصيدته حتى انقلب الملك إلى جانب البكريين وقرّب الحارث من مجلسه. وعُمّر الحارث طويلاً حتى قيل: إنه أنشد هذه القصيدة وعمره خمس وثلاثون ومئة سنة، ومات قبل الهجرة بنحو خمسين سنة.

شعره: تغلبُ عليه الجزالة مع الإيجاز، واطراد التعبير عن طريق الحقيقة والتشبيه في الغالب، وكذلك ما فيه من الطابع البدوي الذي يكاد يمتاز به شعر الجاهليين.

---

(١) النّطف: الفرطة من اللؤلؤ، ومقلص: مشمر، والسّربال: القميص، والمعتمل النّشيط، المعنى: يسعى بالخمر ساق يحمل زجاجتها مقرط الأذن بلؤلؤ مشمر ذيله معتمل نشيط.

(٢) ومستجيب: أي: ورب عود طرب مستجيب لصوت الصّنج كأنه يسمعه النّغم فيجيبه بمحاكاته. أي: أن العود والصّنج متفقان في النّغم لا يشذ أحدهما عن الآخر. والصّنج: دوائر رقاق من صفر يصفق بأحدهما على الأخرى وهي التّي نسميها في زماننا «الكاسات» وهو أيضاً نوع من الآلات الوتريّة، وترجع: تردّد النّغم. القينة: الأمة، وقيل: إذا كانت مغنية. والمرأة الفضل: التّي تلبس ثوباً واحداً كأنها متبذلة.

معلقة الحارث بن حِلِّزة اليشكري

[الخفيف]

آذنتنا ببينها أسماءُ ... رُبَّ ثاوٍ يُملُّ منه الثّواءُ[١]

بَعدَ عهدٍ لنا ببُرْقةِ شمّا ... ءَ فأدنى ديارِها الخَلصاءُ[٢]

لا أرى من عَهدتُ فيها فأبكى الـ ... ـيَوْمَ دَلْهاً وما يحيرُ البكاءُ

غير أنني قد أستعين على الهَم ... إذا خفَّ بالثويِّ النّجاءُ[٣]

بزفوف كأنها هِقْلَةٌ أمُّ ... رئال دَوِيَّة سُفقاء[٤]

آنسْت نَبأةً وأفزعها القُنـ ... ـاصُ عصراً وقد دنا الإمساء[٥]

ثم قال:

وَأتانا من الحوادثِ الأنـ ... ـباءِ خَطْبٌ نُعْنَى بهِ ونُسَاءُ

أن إخواننا الأرقام يغلو ... نَ علينا في قيلهم إحفاء[٦]

يخلطون البريء منا بذي الذ ... نبِ ولا يَنفعُ الخَليَّ الخَلاء[٧]

زعموا أن كلّ مَنْ ضرَب الـ ... ـعَيْر موال لنا، وأنا الوُلاء[٨]

---

(١) آذنتنا: أعلمتنا. ببينها: بفراقها لنا. ثاو: مقيم. أي كثيراً ما تكره إقامة المقيم بين قوم لثقل كلفته أو لشره، وأسماء ليست من هؤلاء ففراقها شاق علينا.

(٢) برقة شماء: مكان الخلصاء كذلك. الثوي: المقيم.

(٣) النّجاة: الإسراع.

(٤) الزفيف: إسراع النّعامة في سيرها، المراد المبالغة في وصف النّاقة بالسّرعة. الهقلة: النّعامة. الرّئال: أوّلادها، والواحد رأل. الدو: المفازة والدويّة المنسوبة إليها. السّفقاء: الطويلة مع انحناء.

(٥) آنست: أحست. النّبأة: الصّوت الخفي. القناص: الصّيادون.

(٦) نعنى به: نتعب به نحن دون غيرنا. نساء به: يصيبنا منه سوء. الأرقام: أحياء من تغلب معاديّة لبني بكر قبيلة الشّاعر. يغلبون علينا: يتجاوزون الحد في التّقول علينا. القيل: القول. الإحفاء: شدة الإلحاح والاستقصاء.

(٧) الخلي: هنا الخالي من الذنب. الخلاء: الخلو من الذنب كذلك. لا تنفع عندهم البريء براءته من الذنب فهم يأخذونه بذنب المجرم.

(٨) أي: فهم يلزموننا ذنوب النّاس ولو لم تكن ذنوبهم مما يؤخذ عليها فعندهم أن كل من ضرب حماراً مثلاً مذنب.

أجمعوا أمْرَهم عِشاءً فلما أصبحوا أصبحت لهو ضوضاء
من مُنادٍ، ومن مجيب، ومن تَصْـ لِ خيلٍ خِلالَ ذاك رُغاء[١]
أيها الناطقُ المرَقّش عنا عند عمرو، وهل لذاكَ بقاء؟[٢]
لا تخلنا على غِراتك، إنا قبلُ ما قد وشى بنا الأعداءُ[٣]
فبَقينا على الشناءةِ تنْميـ ـنا حُصونٌ، وعزَّة قعساء[٤]
قبلَ ما اليومِ بَيضَتْ بعُيون الناس فيها تعيُّطٌ وإباء[٥]
وكأن المَنون تردي بنا أرْ عنَ جوناً ينجابُ عنه العماء[٦]
مُكْفَهراً على الحوادث لا ترْ نوهُ للدهر مُؤبِدٌ صمَّاء[٧]
أيما خطةٍ أردتم فأدُّو ها إليها تمشي بها الأمْلاء[٨]
إن نَبشتم ما بين مِلْحةَ فالصَّا قب فيه الأمواتُ والأحياء[٩]

(١) أي: يتلمون أيّ ذنب، ويتشاورون في الليل في أمر حربنا، والتّعبئة له فلا يصبح الصّباح حتى تكون لهم جلبة وضوضاء من مناد الخ... قيل: إن هذين البيتين أوجز ما قيل في وصف التّأهب للارتحال وأصدقه وأوضحه تصويراً للحقيقة
(٢) المرقش: المزين القول بالباطل، وهل لذلك الخ... أي: لتزيينك الباطل دوام.
(٣) لا تخلنا أي لا تحسبنا. الغرة: اسم مصدر الإغراء، وما زائدة والمفعول الثاني محذوف.
(٤) الشّناءة: البغض. تنمينا: ترفعنا. القعساء: الثابتة. أي فبقينا على بغضك لنا في عزة ثابتة وحصون منيعة من أن يصيبنا منكم مكروه.
(٥) قبل ما اليوم: أي: قبل اليوم وما زائدة، وبيضت بعيون النّاس: بيضتها أي أعمتها، والباء زائدة، والتّعيط: للترفع والإباء
(٦) تردي: ترمي وترجم. والباء في «بنا» للتجريد نظير قولهم: لئن لقيت فلاناً لتلقين به الأسد، أي: لتلقين الأسد، أي هو كالأسد، والأرعن هنا: الجيل الذي له حدود وأطراف تخرج عن معظمه. الجون: الأسود. ينجاب منه: ينشق عنه. العماء: السّحاب الأبيض.
(٧) وصف هذا الجبل بأنه مكفهر، والمكفهر من الجبال الصّلب المنيع، ولا ترنوه: لا تنقصه وتنال منه. المؤبد: الداهيّة. صماء: لا تسمع اعتذارات. أي: أن هذا الجبل منيع على حوادث الدهر لا تنال منه الدواهي الصّماء.
(٨) الخطة: الأمر يقع بين القوم، أو الإقدام على الأمر. الأملاء: جمع ملأ، وهم الأشراف والرّؤساء.
(٩) ملحة والصّاقب: موضعان، أي: إن كانت الخطة التي ترضونها أن تثيروا القتال الذي وقع بيننا في هذين المكانين ففيه أموات وأحياء، أي: إن كانت عاقبته قتلى وأسرى منكم لم تدركوا منا ثأرهم، وحذفت الفاء الواقعة في جواب الشّرط «وهو فيه الأموات الخ» للضرورة، وإن جواب الشّرط محذوف تقديره: فلنا الفخار بذلك، أو أن جواب الشّرط الآتي له ولهذا.

أو نَقشتم، فالنقْشُ يجْشمه النا سُ، وفيه الصلاح والإبراءُ[١]
أو سكَتُّمْ عنَّا، فكنا كمن أغ مضَ عيناً في جَفنها الأقْذاء[٢]
أو منعتُمْ ما تسألون فمن حُدِّ ثْتُموهُ له عَلينا العَلاء؟[٣]
هل علمتم أيام يُنتهبُ النا سُ غِواراً لكل حيٍّ عُواء[٤]
إذْ ركبنا الجمالَ من سعف البحرَ ينِ سَيراً حتى نهَاها الحِساء[٥]
ثمَّ مِلنا على تميم فأحْرَمْنا وفينا بنات مُرٍّ إماء[٦]
لا يُقيم العزيز بالبلد السهلِ ولا ينفعُ الذَّليلَ النَّجاء[٧]
ليس يُنجي مُوائِلاً من حِذار رَأسُ طودٍ وحرةٌ رجلاء[٨]

(٩) لبيدُ بن رَبيعَة العامري

هو أبو عَقيل لَبيدُ بن ربيعة العامريّ أحد أشراف الشعراء المجيدين، وهو من بني عامر بن صَعْصَعَةَ إحدى بطون هوازن من مضر وأُمُّهُ عبسية.

نشأ لَبيدُ جواداً شجاعاً فاتكاً؛ أمّا الجُود فورثه عن أبيه المُلقّب بربيعةِ المعْتَرِّين، وأما الشجاعةُ والفتكُ فهما خصلتا قبيلته إذ كان عمُّهُ ملاعبُ الأسنَّة أحدَ فُرْسان مُضَرَ في الجاهلية.

وكان بين قبيلته وبين بني عبس أخواله عداوة شديدة، فاجتمع وفداهما عند النعمان بن المنذر وعلى العبسيين الرّبيعُ بن زِياد، وعلى العامريين ملاعبُ الأسنة.

---

(١) أو نقشتم: أي دققتم في الاستقصاء. ويجشمه: يتكلفه على مشقة.
(٢) وإن سكتم عنا فإنا نسكت، ونغضي أعيننا على القذى لأن الحق في جانبنا.
(٣) وإن منعتم ما تسألون فيه من الصّلح والتّراضي فمن الذي أخبرتم أن له العلو علينا، حتى تطمعوا فينا؟ وحدث هنا تعدت إلى ثلاثة مفاعيل.
(٤) غواراً: أي: مغاورة بعض على بعض، والعواء: الصّياح.
(٥) يريد بالسّغف: النّخل، والحساء: جمع حسى، وهو الرّمل يكون الماء تحته قريباً، أي: هل علمتم إذا ركبنا الجمال من نخل البحرين حتى انتهينا إلى الحساء؟
(٦) فأحرمنا: أي: دخلنا في الأشهر الحرم فامتنعنا عن قتالهم وفينا بناتهم سبايا، ومُرّ: أبو تميم.
(٧) النّجاء: الإسراع والفرار.
(٨) الموائل: الذي يطلب موئلاً أي: ملجأ. الطود: الجبل. الحرة: الأرض ذات الحجارة السّوداء. الرّجلاء: الغليظة.

وكان الرّبيع مُقَرَّباً عند النعمان يؤاكله، وينادمه فأوغر صدرَه على العامريين، فلما دخل وفْدُهم على النُّعمان أعرض عنه فشَقّ ذلك عَليهم، ولَبيد يومئذٍ صغير يسرح إبلهم ويرعاها، فسألهم عن خَطْبهم فاحتقروه لصغره، فألح حتى أشركوه معهم، فوعدهم أنه سينتقم لهم منه غداً عند النعمان أسوأ انتقام بهجاء لا يجالسه بعده ولا يؤاكله، فكان ذلك، ومقت النعمانُ الربيع، ولم يقبل له عذراً، وأكرم العامريين وقضى حوائجهم، فكان هذا أوّلَ ما اشتهرَ به لَبيد. ثم قال بعد ذلك المقطّعات والمطوّلات، وشهد النَّابغة له وهو غلام بأنه أشعر هوازن.

ولما ظهر الإسلام وأقبلت وفود العرب على النبي ﷺ جاءَ لَبيد في وفد بني عامر وأسلم وعاد إلى بلاده وحسن إسلامه، وتنسّك وحفِظ القرآن كله وقال:

[البسيط]

الحمد لله إذ لم يأتِني أَجَلي حتى اكتسَيْتُ من الإسلامِ سِربالا

وهجر الشعر حتى لم يروَ له في الإسلام غير بيت واحد وهو:

[الكامل]

ما عاتبَ الحرَّ الكريمَ كنفسه والمرء يصلحه الجليسُ الصالح

وبعد أن فُتحت الأمصار ذهب إلى الكوفة زمن عمر بن الخطَّاب واختارها دار إقامة. وما زال بالكوفة حتى مات في أوائل خلافة معاوية سنة إحدى وأربعين من الهجرة، وقد قيل أنه عاش ثلاثين ومئة سنة.

شعره: نبغ فيه وهو غلام وجرى فيه على سَنَن الأشراف والفُرسان. فمن قوله يرثي أخاه أربد:

[الطويل]

بَلينا وما تَبلَى النجوم الطّوالعُ وتبقى الديار بعدنا والمصانعُ
وقد كنتُ في أكناف جار مَضنّة ففارقني جارٌ بأربدَ نافعُ
فلا جَزَعٌ إن فرّق الدهر بيننا فكل امرئ يوماً به الدهر فاجعُ
وما الناسُ إلاّ كالديار وأهلها بها يوم خلّوْها وراحوا بلاقعُ
وما المرء إلاّ كالشّهاب وضوئه يحور رماداً بعد إذ هو ساطعُ

وما المال والأهلون إلاّ ودائعٌ ولابدّ يوماً أن تُرَدَّ الودائعُ
وما الناس إلاّ عاملان: فعامل يُتّبر ما يبني وآخر رافعُ
فمنهمْ سعيد آخذ بنصيبه ومنهم شقيٌّ بالمعيشةِ قانعُ

معلقة لبيد بن ربيعة العامري

[الكامل]

عَفتِ الدِّيارُ محلها فمُقامُها بِمِنىً تأبّدَ غولُها فرِجامُها(١)
فمدافعُ الرَيَّان عُرِّي رسمُها خَلقاً كما ضمِنَ الوُحيّ سِلامها(٢)
دِمَنٌ تَجَرّمَ بعدَ عَهد أنيسها حِججٌ خَلوْنَ حلالُها وحَرامُها(٣)
رُزِقت مرَابيع النّجوم وصابها ودْقُ الرّواعد جودها فَرِهامها(٤)
من كل سارية وغادٍ مدجن وعشية متجاوب إرْزامُها(٥)
فعلا فُروخُ الأيهقان وأطفلت بالجهلتين ظباؤها ونعامها(٦)
والعينُ ساكنة على أطلائها عوداً تأجَّل بالفضاء بِهامُها(٧)
وجلا السّيول عن الطلول كأنها زُبرٌ تجدُّ مُتونها أقلامُها(٨)

---

(١) عفت: درست. المحل والمقام: موضع الحلول والإقامة. تأبد: توحش. الغول والرّجام: جبلان.
(٢) الرّيان: واد بحمى ضريّة. مدافع: مجاري المياه به حيث يندفع السّيل. عري رسمها خلقاً: أي: ظهر بالياً. السّلام: الحجارة. يذكر أن مدافع الرّيان لم تبق منها آثار الكتابة على الأحجار.
(٣) الدمن: ما اجتمع من إثار الديار. تجرم: مضى.
(٤) المرابيع: أوائل الأمطار في الرّبيع. النّجوم: الأنواء. وصابها: مطرها. الودق: المطر. جوده: غزيره. رهامه: لينه وصغيره
(٥) السّاريّة: السّحابة. غاد: يسير بالغداةز مدجن: مظلم، أن المقيم إذا انتشر ملآ الجو بالدجنة وهي الظلمة. الإرزام: صوت الرّعد.
(٦) الأيهقان: النّبت. أطفلت: أصبحت ذات أطفال. الجهلتين: الجهتين.
(٧) العين: البقرة. وأطلاؤها: أوّلادها، العوذ: حديثة النّتاج لأن ولدها يعوذ بها. تأجل: تجمع وصار أجلاً، والأجل: القطيع.
(٨) يريد أن السّيول كشفت عن الطلول فظهرت كالكتب تحدّد ظهورها الأقلام.

obeikandi.com

أو رجْـعُ واشـمـةٍ أسـفّ نـؤورهـا كـفـفـاً تـعـرض فـوقـهـن وشـامُـهـا[١]
فـوقـفـت أسـألـهـا، وكـيـف سـؤالُـنـا صُـمّـاً خـوالـد مـا يـبـيـن كـلامُـهـا[٢]
عـريت وكـان بـهـا الـجـمـيـع فـأبـكـروا مـنـهـا وغـودر نـؤيـهـا وثـمـامُـهـا[٣]
شـاقـتـك ظـعـنُ الـحـيّ حـيـنَ تـحـمّـلـوا فـتـكـنّـسـوا قُـطُـنـاً تـصـرُّ خـيـامُـهـا[٤]
مـن كـل مـحـفـوف يُـظِـلُّ عـصـيـه زوجٌ عـلـيـه كِـلَّـةٌ وقـرامُـهـا[٥]
زجَـلاً كـأن نِـعـاجَ تـوضِـحَ فَـوْقـهـا وظِـبـاءَ وجْـرَةَ عُـطَّـفـاً أرآمُـهـا[٦]
حُـفِـزتْ وَزايَـلَـهـا الـسّـرابُ كـأنـهـا أجـزاعُ بِـيـشَـةَ أثـلـهـا ورضـاحـهـا[٧]
بـل مـا تـذكـرُ مـن «نَـوارَ» وقـد نـأتْ وتـقـطـعَـت أسـبـابُـهـا ورِمـامُـهـا[٨]
مُـرِّيـةٌ حـلَّـتْ بـفَـيـدٍ وجـاورَتْ أهـل الـحِـجـاز فـأيـنَ مـنـك مـرامـهـا[٩]
بـمـشـارِق الـجَـبـلَـيْـنِ أو بـمُـحَـضَّـر فـتَـضَـمّـنـتـهـا فَـرْدةٌ فـرُخـامـهـا[١٠]

(١) الواشمة: من تحلي الأيدي بالوشم.
(٢) الصّم الخوالد: الأثافي. ما يبين: لا يظهر.
(٣) عريت: خلت. أبكروا: ساروا في البكرة. غودر: ترك. النّؤي: حفرة حول الخباء تمنع السّيل. الثمام: نبت ضعيف.
(٤) الظعن: الجمال عليها الهوادج، أو هي النّساء في الهوادج. تكنست الظباء: سكنت الكناس. القطن: الهوادج. تصر خيامها: يسمع لها صرير؛ يريد: أن ظعن الحي تركوا وطنهم وأسكنهم الرّحيل رحالاً يصفق بها الرّيح.
(٥) محفوف: صفة للهودج يحف بالديباج ويزدان به جانباه. يظل: يغطي أو يظلل. العصي هنا: أعواد الهودج، والزوج: بساط يفرش على الهودج، والكلة: ستر رقيق، والقرام: ثوب ملون منقوش.
(٦) زجل: الجماعة، توضح ووجرة: موضعان، النّعاج: البقر، عطفت الظبيّة تعطف جيدها: إذا ربضت. يذكر أن النّساء فوق الهوادج كأنهن النّعاج أو الأرام والأعلام.
(٧) حفزت: حثت على المسير. زايلها: فارقها. بيشة: واد، والأجزاع: منعطف الوادي. الأثل: نوع من الشّجر. الرّضام: صخور عظام.
(٨) نوار: اسم حبيبته. الرّمام: القطعة من الحبل البالي. يريد: أن الوصل تقطعت به الأسباب.
(٩) مريّة تنسب إلى مرة بن عوف. فيد: موضع في طريق مكة. مرامها: منالها.
(١٠) الجبلان: أجا وسلمى. محجر في بلاد طيء. فردة: اسم أرض. الرّخاء: موضع كثير الأشجار.

فَصوائق إن أيمنَتْ فمَظَنَّةٌ منها وحافُ القهْر أو طِلخامها (١)
فاقطَعْ لُبانةَ مَنْ تعرض وَصلهُ ولشرٌّ واصل خُلة صرامها (٢)
واحْبُ المُجاميلَ بالجزيل وصرْمُهُ باقٍ إذا ظلَعَتْ وَزاغَ قِوامها (٣)
بطليحِ أسْفار تركْنَ بَقيّة منها وأحنق صلبها وسنامها (٤)
فإذا تَغالى لحمُها وتحسَّرَتْ وتقطَّعتْ بعد الكلال خِدامها (٥)
فلها هِبابٌ في الزمامِ كأنها صهباء راح مع الجنوب جُهامُها (٦)
أو ملمِعٌ وسقتْ لأحقبَ لاحهُ طَرْدُ الفحولِ وضربُها وكدامُها (٧)
يعلو بها حَدَب الأكام مُسَحَّجٌ قد رابهُ عِصيانُها وَوحامُها (٨)
بأحزّة الثلْبوت يرْبأ فوقها قفرُ المراقب خوفها أرْآمُها (٩)
حتى إذا سلخا «جمادى» ستة جزءاً فطال صيامه وصيامها (١٠)
رجعا بأمرهما إلى ذي مِرّةٍ حصدٍ ونجحُ صريمةٍ إبرامها (١١)

---

(١) الصّوائق: جبل قرب مكة وتروى فصعائد. أيمنت: سارت نحو اليمين. وحاف: الصّخرة السّوداء. القهر: اسم موضع. والطلخام: اسم موضع أيضاً.
(٢) اللبانة: الحاجة. تعرض: تغير.
(٣) واحب: أعط. المجامل: المكافئ. وصرمه باق: أي وقطيعته باقية. إذا ظلعت: إذا ما مالت مودته عنك وزاغ قوامها أي: ملاكها.
(٤) الطليح: النّاقة المعيبة. أحنق: ضمر.
(٥) تغالى: ارتفع من الهزال. تحسرت: تقطعت. والكلال: الإعياء.
(٦) الهباب: النّشاط. الصّهباء: السّحابة التّي لم يكن فيها ماء. الجهام: الذي لا ماء فيه. الجنوب: هي الرّيح اليمانيّة.
(٧) الملمع: الأتان التّي قد بان حملها واسودت حلماتها.
(٨) يعلو: يرتفع. الحدب: ما ارتفع من الأرض. المسحج: المعضعض. رابه: شككه. العصيان: الامتناع. الوحام: الكراهيّة للشيء.
(٩) الأحزة: ما غلظ من الأرض. الثلبوت: موضع في نجد. يربأ: يرفع. فقر المراقب: عالي موضع الارتقاب. الآرام: الأعلام.
(١٠) أراد ستة أشهر أوّلها المحرم وآخرها جمادى، جزءاً: أي: استغنيا بالرّطب من الكلأ عن الماء. الصّيام عن الماء. وسلخا: أي: مضى عليهما.
(١١) رجعا: الأتان والحمار. بأمرهما: برأيهما. ذي مرة: ذي قوة، يعني: الحمار. حصد: محكم. صريمة: عزيمة. الإبرام: الإحكام.

ورمى دوابرها السفا وتهيجتْ ريحُ المصايف سومها وسهامها[١]
فتنازعا سبطاً تطير ظلالهُ كدخان مشعلة يشبُّ ضرامها[٢]
مشمولة غلثت بنابتِ عرفجٍ كدخان نار ساطعٍ أسنامها[٣]
فمضى وقدمها وكانت عادة منه إذا هي عرّدت إقدامها
فتوسطا عرض السريِّ وصدعا مسجورةً متجاوراً قلامها[٤]
محفوفة وسط اليراع يظلها منها مُصَرّعُ غابة وقيامها[٥]
أفَتِلْكَ؟ أو وحشيةٌ مسبوعة خذلت وهاديةُ الصوار قوامها[٦]
خنساء ضيّعت الفريرَ فلم يرمْ عُرْض الشقائق طوفها وبغامها[٧]
لمعفّر قهْدٍ تنازع شِلوَهُ... غبس كواسب ما يمنُّ طعامها[٨]
صادفن منها غرّةً فأصبنها إن المنايا لا تطيش سهامُها[٩]
بانت وأسْبَلَ واكفٌ من ديمة يروي الخمائلُ دائماً تَسجامُها[١٠]

(١) الدوابر: مآخير الحوافر. السّفا: شوك البهمى. المصايف: المرعى أيام الصّيف. سومها: مرورها. السّهام: وهج الصّيف وشدة حره.
(٢) تنازعا: تجاذبا.
(٣) أسنم الدخان: إذا ارتفع وكثر. علثت: خلطت. العرفج: كثرة الدخان. ساطع: مرتفع.
(٤) توسطا: دخلا وسطه. عرض السّرى: ناحيّة النّهر. صدّعا: فرّقا. مسجورة: أي: عينا مملوءة.
(٥) محفوفة: محطوطة من جميع جوانبها، يعني: العين. مصرع: بعضه فوق بعض. الغابة: الأجمة وهي الشّجر الملتف.
(٦) أفتلك: الأتان. وحشيّة: بقرة الوحش. مسبوعة: أكل السّبع ولدها، خذلت: تأخرت عن البقر. الخذول: المتخلفة. هاديّة: متقدمة.
(٧) خنساء قصيرة النّف. الفرير: ولد البقرة. يرم: يبرح. عرض: ناحيّة. الشّقائق: جمع شقيقة وهي ما بين الرّملتين. طوفها: دورانها وتردّدها. بغامها: صوتها.
(٨) المعفر: ولد البقرة، القهد: الأبيض. تنازع: تجاذب. شلوه: واحد الأشياء وهي الأعضاء. غبس: الذئاب الغبر. كواسب: تكسب ما تأكل. ما يمن طعامها: ليس أحد يمن به عليها.
(٩) صادفن: وجدن. غرة: غفلة. فأصبنها: أوقعنها. لا تطيش: لا تخطئ.
(١٠) أسبل، هطل. الواكف: المطر يقيم أياماً لا ينقطع. الخمائل: الشّجر الملتف. التّسجام: كثرة المطر.

obeikandl.com

تجتافُ أصلاً قالصاً متنبِّذاً بعُجُوب أنقاء يميلُ هيامها[١]
يعلو طريقة متنها متواتراً في ليلةٍ كفرَ النجوم ظلامها[٢]
وتضيء في وجه الظلام منيرةً كجمانة البحريِّ سلَّ نظامها[٣]
حتى إذا انحسرَ الظلامُ وأسفرتْ بكرت تزلُّ عن الثرى أزْلامها[٤]
عَلِهت تَبَلَّدُ في نِهاء صُعائِدٍ سبعاً تُؤاماً كاملاً أيامُها[٥]
حتى إذا يئست وأسحَقَ خالقٌ لم يبله إرضاعها وفطامها[٦]
وتسمّعت رِزّ الأنيس فراعَها عن ظهر غيب والأنيس سُقامها
فغدت كلا الفرجين تحسب أنه مولي المخافةِ خلفها وأمامها[٧]
حتى إذا يئسَ الرماة وأرسلوا غُضفا دواجن قافلاً أعصامُها[٨]
فلحقن واعتكرت لها مَدريَّةٌ كالسمهرية حدُّها وتمامها[٩]
لتذودهنّ وأيقنَتْ إن لم تَذُدْ أن قد أحمّ مع الحتوف حِمامُها[١٠]
فتقصدت منها كساب فضرّجت بدمٍ وغودر في المكرّ سخامها[١١]

---

(١) اجتاف: تدخل جوفه، أصلاً قالصاً: يعني أصل شجرة. عجوب: أصل الذنب. أنقاء: جمع نقا، وهو الكثيب من الرّمل. متنبّذاً: منتحياً.
(٢) الطريقة: الخطة. متواتراً: متتابعاً. كفر: غطى. الغمام: السّحاب.
(٣) تضيء: تنير، الجمانة: الحبة من اللؤلؤ. سل نظامها: وهو الخيط الذي يسلك فيه اللؤلؤ.
(٤) انحسر الظلام: انكشفت. أسفرت: دخلت في الأسفار وهو الصّبح. بكرت: غدت بكرة. تزل: تسرع. الثرى: التّراب. أزلامها: قوائمها.
(٥) علهت: تحيرت. تبلد: تتردّد وتتحير. في نهاء: غايّة. الصّعائد: المكان. تؤاماً: أي: متتابعة لياليها.
(٦) أسحف: ارتفع. الخالق: المرتفع وهو ضرعها.
(٧) الفرجان: ما بين القوائم. مولي المخافة: صاحبها.
(٨) الغضف: جمع أغضف وهي الكلاب.
(٩) اعتكرت: استمعت. رجعت مدريّة: محدودة. السّمهريّة: الرّماح المنسوبة إلى سمهر وهو رجل كان يقوّم الرّماح باليمن.
(١٠) تذودهن: أي: تطردهن. أن قد أحم: قدر، الحتوف: جمع حتف وهو الموت. الحمام: الموت.
(١١) فتقصدت: قصدت يعني: قتلت. كساب: اسم كلبة. فضرجت: خلطت. غودر: ترك. المكر: موضع القتال. سخامها: اسم كلب.

openkanar.com

فبتلك رقص اللوامع بالضحى واجتاب أردية السراب إكامها [١]
أقضي اللبانةَ لا أُفرّط ريبة أو أن يلوم بحاجة لوّامها [٢]
أو لم تكن تدري «نوارُ» بأنني وصّالُ عقد حبائل حذامها [٣]
ترّاك أمكنة إذا لم أرضها أو يرتبط بعض النفوس حمامُها [٤]
بل أنتِ لا تدرينَ كم من ليلة طلق لذيذٍ لهوها وندامُها
قد بتُّ سامِرَها وغايةَ تاجر وافيتُ إذ رُفعَتْ وعزَّ مُدامُها [٥]
أُغْلي السَّباء بكل أدكَنَ عاتق أو جونةٍ قدحَتْ وفضّ خِتامها [٦]
بصبوحِ صافيةٍ وَجذْب كرينةٍ بمُوَتّرٍ تأتالُهُ إبهامُها
باكرت حاجتها الدجاجُ بِسُحرة لِأعلّ منها حين هَبّ نيامها
وغداةَ ريح قد وزعْتُ وِقرّةٍ إذا أصبحت بيد الشّمال زمامُها
ولقد حميت الخيل تحمل شكتي فُرطٌ وشاحي إذ غدوتُ لجامُها [٧]
فعلوْتُ مُرْتقياً على مَرْهوبة حَرِجٍ إلى أعلامهن قَتامُها [٨]
حتى إذا ألْقت يداً في كافِر وأجَنّ عَوْرات الثغور ظلامها [٩]
أسهلتُ وانتصبَتْ كجِذْع مُنيفة جَرداء يحصُرُ دونها جُرّامها [١٠]

(١) فبتلك: البكرة. رقص: ارتفع. اللوامع بالضحى: الآل. إجتاب: لبس. أردية: جمع رداء.
(٢) اللبانة: الحاجة. لا أفرط: لا أترك. الرّيبة: الشّك والمخافة.
(٣) وصّال: أي: أصل ولا أقطع.
(٤) تراك أمكنة، يقول: إذا رأى ما يكره تركها، أو يرتبط: يتلف. وبعض بمعنى كل.
(٥) بت سامراً: أي فيها. وغايّة تاجر: يريد راية تاجر يبيع الخمر، ويضع الرّاية ليعرف موضعه بها فرفعها لذلك. عز: غلا. مدامها: خمرها، وسميت مدامة لمداومتها في الدن.
(٦) السّباء: شراء الخمر. جونة: سوداء. الأدكن: الزق. قدحت: غرقت.
(٧) فرط: من صفة الفرس السّابق. شكتي: سلاحي.
(٨) فعلوت: طلعت مرتقياً. الحرج: الضيق. الأعلام: الصّوت. القتام: الغبار.
(٩) ألقت يداً يعني: الشّمس. الكافر: البحر. أجن: ستر. العوارت: جمع عورة، موضع المخافة. الثغر: موضع المخافة أيضاً
(١٠) أسهل: نزل السّهل. انتصبت: يريد الفرس. منيفة: يريد نخلة طويلة. الجرام: الصّرام.

obeikandl.com

رفَّعتُها طَرْدَ النعام وفوقه حتى إذا سخنَت وخَفّ عظامها[١]
قلقت رِحالتها وأسبلَ نحرُها وَابتَلَّ من زَبدِ الحميم حزامها[٢]
ترقى وتطعنُ في العنان وتنتحي وردَ الحمامةِ إذ أَجَدَّ حَمامها[٣]
وكثيرةٍ غُرَباؤها مجهولةٍ تُرجَى نوافلها ويُخشى ذامها[٤]
غُلْبٍ تشذّرَ بالذحول كأنها جِنُّ البديّ رواسياً أقدامها[٥]
أنكرتُ باطلها وبُؤتُ بحقِّها يوماً ولم يفخر عليّ كرامُها[٦]
وجزورِ أيسارٍ دعوتُ لحَتْفها بمغالقٍ مُتشابهٍ أعلامُها[٧]
أدعو بهن لعاقِر أو مُطفل بُذلتْ لجيران الجميع لحامها
فالضيفُ والجارُ الغريب كأنما هبطا تَبالةَ مُخصباً أهضامها[٨]
تأوي إلى الأطنابِ كل رذيَّة مِثل البليةِ قالصٍ أهدامها[٩]
ويكلِّلونَ إذا الرياحُ تناوَحتْ خلجاً تمُدُّ شوارعاً أيتامُها[١٠]

(١) رفعتها: ركّضتها في المسير كما تطرد النّعام. فوقه: فوق الطرد. سخنت: جمعت. خف عظامها: أسرعت. فإذا عرقت جاد جريها.
(٢) الرّحالة: أسبل نحرها: جرى. سرج. الحميم: العرق.
(٣) ترقى: تعتمد. تنتحي: تقصد، كأنها حمام أجهد نفسه. ورد الحمامة: كأسرعها.
(٤) يريد كم من خطة وحالة عظيمة مشهورة حضرتها وكنت المقدم فيها. ترجى نوافلها: فضلها، ويخشى عليها.
(٥) تشذر: تهيأ للقتال. الذحول: الأحقاد. البدي: مكان معروف بالجن. رواسياً: ثابتة.
(٦) بؤت: أقررت.
(٧) اليسار: الذين يحضرون القسمة ويضربون بالقداح. المغالق: السّابع من سهام الميسر.
(٨) يقول: عنده من الخصب مثل ما عند أهل تبالة من الرّطب.
(٩) الرّذيّة: المرأة متى أهزلها أهلها. والبليّة: ناقة الرّجل تعقل عند قبره وتفقأ عيناها ويطرح حفتها ويلزون وجهها فلا تزال عند قبره حتى تموت. الأطناب: حبال الفساطيط. الأهدام: الخلقان. قالصّ: قصير مرتفع.
(١٠) التكليل: أن يوضع اللحم بعضه على بعض. الخلج: الجفان. شوارع: جمع شارعة وهي من صفات الأيدي، رأى أيديهم ممدودة للأكل.

obeikandi.com

إنا إذا التقتِ المجامعُ لم يزَل ... منا لزازُ عظيمةٍ جَشَّامُها(١)
ومقسِّمٌ يُعطي العَشيرة حقها ... ومغذْمر لِحقُوقها هَضَّامها(٢)
فضلاً، وذو كرم يعينُ على الندَى ... سَمْح كسوب رغائبٍ غَنَّامها
من معشر سَنَّتْ لهم آباؤهم ... ولكلِّ قوم سُنَّةٌ وإمامها
إن يَفزعوا تلق المغافر عندهمْ ... والسِّن يلمع كالكواكب لامها
لا يَطبعون ولا يبورُ فعالهم ... إذ لا يميل معَ الهوى أحلامُها
فبَنوا لنا بيتاً رَفيعاً سمكه ... فسما إليه كهْلها وغلامها(٣)
فاقنَع بما قسم المليكُ فإنما ... قسمَ الخلائق بيننا علامُها
وإذا الأمانةُ قسمَتْ في معشر ... أوْفى بأعظم حظِّنا قسَّامها
فهمُ السُّعاة إذا العشيرة أفظعتْ ... وهمُ فوارسُها وهُمْ حُكامها(٤)
وهم رَبيع للمجاور فيهمُ ... والمُرْمِلاتِ إذا تطأول عامُها
وهمُ العشيرةُ إن يُبطأ حاسدٌ ... أو أن يميلَ مع العدوِّ لئامها

ومنه قوله في النُّعمان يرثيه:

[الطويل]

ألا تسألانِ المرء ماذا يحاول ... أنحبٌ فيقضي أم ضلالٌ وباطلُ(٥)
أرى النّاس لا يدرون ما قدر أمرهم ... بَلى كلّ ذي لُبٍّ إلى الله واسلُ(٦)
ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلُ ... وكل نعيم لا محالة زائلُ
وكل أناس سوف تدخُل بينهم ... دويهيةٌ تصفر منها الأناملُ

(١) المحافل: المجامع. لزاز: قرن. لكل عظيمة جشامها: متجشم لها: متكفل به.
(٢) المقسم: يريد عامر بن الطفيل. المغذمر: الذي يأخذ من هذا ويعطي هذا ويدع هذا. الهضم: النّقصان.
(٣) بنو: يعني: آباءه وأجداده. السّمك: المرتفع من الشّيء.
(٤) السّعاة: جمع ساع وهو المصلح. أفظعت: ابتليت بالأمر الفظيع.
(٥) السّؤال بمعنى الاستفهام. المحاولة: استعمال الحيلة. والنّحب: النّذر.
(٦) الواسل: الطالب والرّاغب إلى الله، أي: أرى النّاس لا يعرفون ما هم فيه.

وكل امرئ يوماً سيعلم غَيبه إذا كشفت عند الإله الحَواصِلُ

ويعتَبر لبيد ممن رثى نفسه قبل موته بقوله لابنتيه وهو مُحتَضَرٌ:

[الطويل]

تمنى ابنتايَ أن يعيشَ أبوهما وهل أنا إلا من ربيعةَ أو مُضرْ
فإن حان يوماً أن يموت أبوكما فلا تخمشا وجهاً ولا تحلقا شعرْ
وقولا هو المرءُ الذي لا حليفه أضاعَ و لا خان الصديق ولا غدَرْ
إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر

(١٠) علقمة بن عبدة التّميمي

هو علقمة الفحل بن عبدة بن ناشِرة التميمي، شاعر جاهلي مجيد من أقران امرئ القيس، مات قبل الإسلام بزمن طويل، وإنما قيلَ له «الفحل» من أجل أن يتميز في الأخبار من شاعر آخر في قبيلته أيضاً يسمى علقمة الخصي بن سهل ويكنى أبا الوَضاح أدرك الإسلام وأسلم، وقيل سمي «الفحل» لأنه خَلَفَ امرأ القيس على زوجته بعد أن طلقها، لأنها فضلت علقمة عليه حين حكَّماها في شعرهما.

معلقة علقمة الفحل بن عبدة التميمي

[الطويل]

طَحا بك قلب في الحسان طرُوب بُعيد الشبابِ عصْرِ حان مشيبُ(١)
يُكلفني ليلى، وقد شط وليها وعادت عواد بيننا وخطوب(٢)
منعمةٌ، ما يستطاعُ كلامها على بابها من أن تزار رقيب(٣)

(١) طحا به قلبه: ذهب به كل مذهب. الطروب: من الطرب، وهو خفة السّرور والشّوق إلى الشّيء. وبعيد: تصغير بعد. حان المشيب: قرب أوانه. أي: أضلك قلبك الطروب في حبك الحسان بعدما ذهب الشّباب وقرب المشيب، والخطاب لنفسه، ثم التفت وتكلم عن نفسه فقال: يكلفني الخ.

(٢) شط وليها: بعد عنك قربها ودنوها ومواصلتها. عادت: شغلت وصرفت، مقلوب عداه عن الأمر صرفه. العوادي: جمع عاديّة. وهي الأمر الشّاغل عن الشّيء. الخطوب: جمع خطب وهو الأمر العظيم من حوادث الدهر.

(٣) منعمة: من النّعيم فهي محجبة بحراسة أهلها لها.

إذا غاب عنها البعلُ لم تفشِ سرّه وترضي إيابَ البعل حين يؤوب[١]
فلا تعدلي بيني وبين مغمّر سقتكِ روايا المزن حين تصوب[٢]
سقاكِ يمان ذو حبي وعارض تروح به جُنحَ العشيِّ جنوب[٣]
وما أنت؟ أم ما ذكرها ربعيّة يخط لها من ثرمداءَ قليب[٤]
فإنْ تسألوني بالنساءِ فإنني بصير بأدواءِ النساء طبيب[٥]
إذا شاب رأس المرءِ أو قل مالُه فليس له من وُدّهِنّ نصيب
يردْن ثراءَ المال حيثُ علمنه وشرخُ الشباب عندهن عجيب[٦]
فدعها! وسلِّ الهم عنك بجسرة كهمك فيها بالرداف خبيب[٧]
إلى الحارث الوهاب أعملت ناقتي بكلْكلِها والقصرَبَيْن وجيب[٨]

(١) لم تفش سره: كناية أنها لم تخنه، ولذلك هي ترضى إيابه فلا يعجبها غيره، وإذا قرئ وترضى ـ بالضم ـ كان المعنى: وتجعل إيابه رضياً حميداً بألا يشك في صونها.
(٢) فلا تعدلي: فلا تسوي. المغمر من الرّجال: المحمق من الرّجال الذي يستجهله النّاس. سقتك الخ: يدعو لها بأن تسقيها المزن الرّويّة أي: تروي حين تمطر، يريد أنه رجل عاقل نبيل ينبغي لها أن تحرص عليه ثم عاد إلى الدعاء لها فقال: سقاك إلخ.
(٣) أي: سقاك سحاب يمان يأتي من ناحيّة جنوبي نجد، أصله يمني خففوا ياء النّسب، وزادوا الألف عوضاً عنها، فعومل المنسوب معاملة المنقوص. الحبي: السّحاب المتراكم بعضه على بعض، فيكون سيره بطيئاً كأنه يحبو، ويكون لذلك مطره غزيراً، والعارض: السّحاب المعرض في الأفق. والجنوب: الرّيح الجنوبيّة.
(٤) وما أنت: ما استفهاميّة للتعجب وأم للإضراب بمعنى بل، أي: ما شأنك؟ بل ما الداعي لذكرك ليلى، وهي ربعيّة من ربيعة أنت وأنت تميمي، وقد رحلت إلى بلادها حيث خط لها في ثرمداء قليب، والقليب: البئر. وثرمداء: موضع، ثم أخذ يصف أخلاق النّساء وطباعهم، فقال: فإن تسألوني الخ.
(٥) الأدواء: جمع داء، أي: بطباعهن المعيبة التّي بمنزلة الأمراض فيهن.
(٦) الثراء: الكثرة. أي: يحبين من يعلمن عنده مالاً. شرخ الشّباب: أوّله. عجيب: معجب.
(٧) الجسرة: النّاقة القويّة الماضية. كهمك: أي: مثل همتك في المضاء والقوة. الرّداف: جمع رديف، والرّديف والرّدف كل شيء يكون خلف الرّاكب، ولو حقائب. الخبيب: السّير السّريع.
(٨) الحارث الوهاب: يريد به الحارث بن جبلة بن أبي شمر الغساني، وكان أسر أخاه شاسا فرحل إليه يطلب خلاصه وفكه. أعمل النّاقة: وجّهها وأحدّها. الكلكل: الصّدر وما بين الترقوتين، وهو المناسب هنا. والقصربان: ضلعان يليان التّرقوتين. الوجيب: خفقان القلب، أي: أنه لشدة إجهادها في السّير اشتد نبض قلبها، وبان ذلك في كلكلها وقصربيها لقرب القلب منها.

وقال أيضاً علقمة الفحل بن عبدة التميمي:

[البسيط]

والحمد لا يُشترى إلا لهُ ثمنٌ ... ممّا يضنُّ به الأقوام معلومُ[١]
والجود نافية للمال مهلكة ... والبخل مُبْقٍ لأهليه ومذمومُ[٢]
والمالُ صوف قرار يلعبون به ... على نقادته واف ومَجلومُ[٣]
ومُطعمُ الغنم يوم الغنم مُطعمه ... أنَّى توجه، والمحروم محرومُ[٤]
والجهلُ ذو عرض لا يُستراد له ... والحلم آونةً في الناس معدومُ[٥]
ومن تعرّض للغرْبانِ يزجرها ... على سلامته لا بدَّ ـ مشئومُ[٦]
وكلُّ حصن وإن طالت سلامته ... على دعائمه ـ لابدَّ ـ مَهدومُ[٧]

(١١) أمية بن أبي الصلت

هو أمية بن عبد الله بن أبي الصلت بن أبي ربيعة بن عوف الثقفي شاعر خطير من أشراف ثقيف، وأحد الملتمسين للدين في الجاهلية، وأمه رقية بنت عبد شمس بن عبد مناف.

منشؤه: نشأ بالطائف، وكان أبوه شاعراً مشهوراً، وروى الكثير من أخبار اليهود والنصارى وما بقي في رؤوس شيوخ الجاهلية من ملة إبراهيم وإسماعيل،

---

(١) يقول: إن الحمد لا يشترى إلا بأثمان تضن بها النّفوس، والحمد: الثناء والمدح.

(٢) نافية: أي: مبيد ومهلك. والبخل الخ: أي: أن البخل يوفر المال وأهله مأمونون، وأدخل الهاء في نافية للمبالغة مثل علامة ونسابة.

(٣) القرار: النّقد. وهي غنم صغار الأجرام قصار الواحدة نقدة. يلعبون به: أي: يتداولونه ويعبثون به. واف: كثير. مجلوم: مجزوم بالجلم، أي: المقص. يريد: أن منهم من يعطي القليل ومنهم من يعطي الكثير كما أن الصّوف على النّقد قليل وكثير. والنّقادة: جمع لاسم الجمع.

(٤) المعنى: أن الذي جعل الغنم له طعمة فيطعمه في يوم الغنم أينما توجه. ومن حرمه فلن يناله فقضاء الله كائن لا محالة.

(٥) ذو عرض لا يستراد له، أي: لا يراد ولا يطلب فأنت لا تحبه ولا تريده. آونة: أحياناً، ومفرده: أوان.

(٦) المعنى: إن من يزجر الطير وإن سلم فلا بد أن يصيبه شؤم. والغربان يتشاءم بها فمن تعرض لها يزجرها ويطردها خوفاً من أين يصيبه الشّؤم فلابد أن يقع ما يخاف ويحذر.

(٧) يقول: كل حصن دامت سلامة أهليه فيه فلا بد أن يهلكوا ويخرب الحصن، ودعائمه: أركانه التي يقوم بها.

وحدث عن خلق السموات والأرض والملائكة والجن وشرائع الأنبياء والرسل، وخاض في التوحيد وأمر الآخرة، وتعبَّد ولبس المسوح، وحرَّم الخمر على نفسه وشكَّ في الأوثان، ورأى في الكتب ما يبشر ببعثة نبي من العرب، فطمع أن يكونه؛ فلما بُعث رسول الله ﷺ، كُسِفَ بالُه، وحملَهُ الحسدُ والكمدُ أن يُنابذَهُ، ويكفرَ بدينه على علمِه بصحَّتِه، ويحرِّض عليه قرَيْشاً، ويرثي قتلاهم في بدر، فنهى النبي ﷺ عن رواية شعره في ذلك. وروي أنه هو الذي نزلت فيه آية: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾[1] وكان عليه الصلاة والسلام إذا سمع شعره في التوحيد والإيمان والثناء على الله يقول: «آمن لسانه، وكفر قلبه». ومن آخر شعره ما قاله عند موته:

[الخفيف]

كلُّ عيش وإن تطاول دهراً ... منتهى أمره إلى أن يزولا
ليتني كنتُ قبلَ ما بدا لي ... في رؤوس الجبال أرْعى الوُعولا
فاجعل الموت نصب عينيك واحذر ... غوْلة الدهر إن ذا الدهر غولا

واختص بأكثر مدائحه في الجاهلية عبد الله بن جُدعان أحد سراة قريش وأجوادِها، حتى كان منه بمنزلة زهير مع هرم، وأقام بقية حياته بالطائف إلى أن مات كافراً سنة تسع للهجرة.

شعره: يعدُّ أمية من أكبر شعراء القُرى على قلة الشعر فيهم، غير أن الذي أزرى بشعره في نظر بعضهم كثرة استعماله للدخيل من العبرية والسريانية في شعره. وكان أمية يسمِّي السماء: صاقورة، وحاقورة؛ ويزعم أن للقمر غلافاً يدخل فيه إذا خسف ويسميه (السَّاهور) ويسمِّي الله في شعره السلطيط، والتغرور، ونحو ذلك.

ويمتاز شعره ببعض السهولة في لفظه، وبذكره بعض العجائب من القصص الخيالية، والأساطير الخرافية، وخلق العالم وفنائه، وأحوال الآخرة وصفات الخالق والخشوع له؛ ويذكر من ذلك ما لم يذكره أحد من الشعراء قبله، ويتخلل ذلك شيءٌ من الحكم والأمثال، ومن شعره:

---

(١) الأعراف: ١٧٥.

[البسيط]

الحمدُ لله ممسانا ومصبحنا بالخير صَبَّحَنا ربي ومَسَّانا
ربّ الحنيفة لم تنفد خزائنه مملوءةٌ طبق الآفاق سلطانا
ألا نبيٌّ لنا منا فيخبرنا ما بعد غايتنا من رأس محيانا
وقد علمنا لو أن العلم ينفعنا أن سوف تلحق أُخرانا بأولانا

الرّواية والرُّواة

قد علمنا مما تَقدم أن عامّة المرويّ من كلام العرب، شعْرها ونثرها وأخبارها، معزوّ إلى أهل البدو الأميين، ولذلك لم يصل إلينا كتابٌ يجمع بين دَفّتيه الكثيرَ منها. وما رُوِي لنا من كلام فُصَحاء العرب ليس إلا النزر اليسير بوجوه مختلفة. وبالطبع لا يحفظ هذه الوديعة إلاّ أهل الحِفاظ عليها والاعتداد بها وهم الشعراء والمتأدبون، فقد كان امرؤ القيس راوية أبي دواد الإيادي، وزُهير راوية أوْسِ بن حجر، والأعشى راوية المسيَّب بن عَلَس.

واشتهر من قريش أربعة بأنهم رُواة الناس للأشعار وعلماؤهم بالأنساب وهم: مَخْرَمَةُ بن نَوْفَل، وأبو الجَهْمِ بن حُذَيْفَة، وحُوَيْطِب بن عبد العُزّى، وعَقِيلُ بن أبي طالب.

العصر الثاني: عصر صدر الإسلام، ويشمل بني أُمَيّة[١]

حالة اللغة العربية وآدابها في ذلك العصر

كانتِ العربُ أمماً بدويّة ليس لها من وسائل العُمران وأسباب الرَّخاء ما يحمِلُها على تَبَحُّر في علم، أو تَبَصُّر في دِين، أو تَفَنُّن في تجارة، أو زراعة أو صناعة أو سياسة، وعلى وفْق ذلك كانت اللغة العربية لا تعْدُو أغراضَ المعيشة البدويّة.

إلاّ أنّ رُوحاً من الله تَنسّم بين أرجائها فأيقظها من رَقدتها، ونبّهها لضرورة التعاونِ على الخير في مَعاشها ولغتها وجماعتها، فظهر ذلك بيّناً في الأسواق التجارية اللغوية الاجتماعية، وفي الإذعان فيها إلى حكومة الأشراف من قريش وتميم وغيرهما، مما هيَّأهم لأن يجتمعوا تحت لواء واحد ويتفاهموا بلسان واحد، فكان ذلك إيذاناً من الله بإظهار الإسلام فيهم، وما أَلِفت نفوسهم هذا النَّمط الجديد إلاّ وقد جاء النبي الكريم ﷺ لامّاً لشَعثِهم موَحّداً لكلمتهم، مهذّباً لطباعهم، مبيّناً

(١) خلفاء بني أميّة هم:
١ـ معاوية بن أبي سفيان (٤١-٦٠هـ).
٢ـ يزيد بن معاوية (٦٠-٦٤هـ).
٣ـ معاوية بن يزيد (٦٤-٦٤هـ).
٤ـ مروان بن الحكم (٦٤ـ٦٥هـ).
٥ـ عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ).
٦ـ الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ).
٧ـ سليمان بن عبد الملك (٩٦-٩٩هـ).
٨ـ عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ).
٩ـ يزيد بن عبد الملك (١٠١-١٠٥هـ).
١٠ـ هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ).
١١ـ الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥-١٢٦هـ).
١٢ـ يزيد بن الوليد الأوّل (١٢٦-١٢٦هـ).
١٣ـ مروان الجعدي (١٢٧-١٣٢هـ).

obeikandl.com

طريق الحق، وجادة الصواب، بشريعة عظيمة. فكان من نتيجة ذلك أن أُسّسَتْ لهم جامعة قومية مليّة ومُلك كبيرٌ.

وبالتفاف العرب حول صاحب هذه الدعوة وأنصاره، وتفَهُّمِهِمْ شريعتهُ وكلامَهُ، ثمّ خُضوعهم بعد لزَعامَةِ قومه وخُلَفائه وولاتهمْ، وفتوحِهم تحت ألويتهم ممالك الأكاسرة والقياصرة وغيرها، ومخالطتهم أهلها بالجوار والمصاهرة، حدث في حياتهم الفكرية واللسانية ما يمكن إجماله في الأمور الآتية:

الأوّل: شيوع اللغة القرشية، ثم توحُّدُ لغات العرب، وتَمثُّلُها جميعها في لغة قريش واندماج سائر اللهجات العربية فيها. وبعض أسباب هذا يرجع إلى ما قبل الإسلام بتأثير الأسواق والحج وحكومة قريش، وأكثرها يرجع إلى نزول القرآن بلغتهم، وظهور ذلك الداعي العظيم منهم، وانتشار دينه وسلطانه على أيديهم. وبحكم الضرورة تكون لغتهم هي اللغة الرسمية بين القبائل.

الثاني: انتشار اللغة العربية في ممالك الفرس والروم وغيرهما بالفتوح والمغازي وهجرة قبائل البدو إليها، واستيطانهم لها، واختلاطهم بأهلها.

الثالث: اتساع أغراض اللغة بسلوكهم منهجاً دينياً، واتباعها خُطة نظامية تقتضيها حالُ الملك وسكنى الحضر.

الرابع: ارتقاء المعاني والتصورات وتغيّر الألفاظ والأساليب.

الخامس: ظهور اللحن في الكلام بين المُستعربين من الموالي، وأبناء العرب من الفتيات، وبعض العرب المكثرين من معاشرة الأعاجم.

ولما كان معظم هذه التغيرات يرجع إلى القرآن الكريم والحديث النبوي، ناسب وصفهما بقليل من كثير مما ينبغي أن يقال فيهما.

القرآن الكريم وأثره في اللغة العربية

القرآن[١] ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[٢] فيه آيات بينات. ودلائل واضحات، وأخبار صادقة، ومواعظ رائقة، وشرائع راقية، وآداب عالية، بعبارات تأخذ بالألباب، وأساليب ليس لأحد من البشر بالغاً ما بلغ من الفصاحة والبلاغة أن يأتي بمثلها، أو يفكر في مُحاكاتها، فهو آية الله الدائمة، وحُجَّته الخالدة، ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾[٣]. أنزله الله على رسوله ليُبلّغه قومه وهم فحول البلاغة، وأمراء الكلام، وأُباة الضيم،

(١) اعلم أوّلاً أن إعجاز القرآن من جهة أغراضه ومقاصده، فتجده في كل غرض وموضوع غاية في الإبانة والجلاء، ونهاية في الإصابة واطراد الأحكام: فمن تشريع خالد؛ وتهذيب بارع، وتعليم جامع؛ وأدب بالغ، وإرشاد شامل، وقصص واعظ، ومثل سائر، وحكمة بالغة، ووعد ووعيد، وإخبار بمغيب، إلى غير ذلك من الأغراض والمقاصد. وقد كان فحول البلاغة لا يبرز أحدهم إلا في فن واحد من أنواع القول: فمن يبرع في الخطابة لا ينبغ في الشعر، ومن يحسن الرّجز لا يجيد القصيد؛ ومن يستعظم منه الفخر لا يستعذب منه النّسيب؛ ولأمر ما ضربوا المثل بامرئ القيس إذا ركب، وزهير إذا رغب، والأعشى إذا طرب، والنّابغة إذا رهب.

ثانياً: من جهة ألفاظه وأساليبه، فلا تجد منه إلا عذوبة في اللفظ، ودماثة في الأساليب، وتجاذباً في التّراكيب، ليس فيها وحشي متنافر، ولا سوقي مبتذل، ولا تعبير عويص، ولا فواصل متصلة، على شيوع ذلك في كلام المغلقين وأهل الحيطة المتروين، حتى أنك لترى الجملة المقتبسة منه في كلام أفصح الفصحاء منهم تفرعه جمالاً؛ وتشمله نوراً؛ وتكسوه روعة وجلالة، إلى إجمال في خطاب الخاصة، وتفصيل في تفهيم العامة؛ وتكنية للعربي، وتصريح للأعجمي. وغير هذا مما يقصر عن إحصائه الإلمام ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام.

ثالثاً: من جهة معانيه. فإنك تجدها من غير معين العرب الذي منه يستقون، لاطراد صدقها، وقرب تناولها، واطمئنان النّفوس إليها، وابتكارها البديع على غير مثال معهود: من حجج باهرة وبرهانات قاطعة، وأحكام مسلمة، وتشبيهات رائعة، على تمازج وتواصل وبراءة من التّقاطع والتّدابر. وهو في جملته نزهة النّفوس وشفاء الصّدور، وهو الكتاب الخالد الذي لا تبديل لكلماته ولا ناسخ لأحكامه ولا ناقض: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩].

(٢) هود: ١.

(٣) فصلت: ٤٢.

وأرباب الأنفَة والحَميّة، فبهرهم بيانهُ، وأذهلهم افتنانهُ، فاهتدى به مَنْ صحَّ نظرهُ واستَحْصف عقله، ولطُف ذَوقُهُ، وصدّ عنه أهلُ العِناد والمكابرة واللّجاج فتحدّاهم أن يأتوا بمثله فنكصوا، ثم بعشر سُوَر مثله فعجزوا، ثم بسورة من مثله فانقطعوا، فَحقّ عليهم إعجازه. قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾[1].

وللقرآن فضل على اللغة فقد أثّر فيها ما لم يؤثّره أيُّ كتاب، سماويّاً كان أو غيرَ سماويّ، في اللغة التي كان بها، إذ ضمن لها حياة طيبة وعمراً طويلاً، وصانها من كل ما يُشَوّه خَلْقَها ويَذْوي غَضارتها، فأصبحت، وهي اللغة الحيّة، الخالدة من بين اللغات القديمة التي انطمست آثارها، وصارت في عِدَاد اللغات التاريخية الأثريّة، وإنه قد أحدثَ فيها علوماً جَمّة وفنوناً شَتَّى لولاه لم تخطُرْ على قلب، ولم يخطّها قلم منها: اللغةُ، والنّحو، والصّرف، والاشتقاق، والمعاني، والبديع، والبيان، والأدب، والرسم، والقراءات، والتفسير، والأصول، والتوحيد، والفقه.

جمع القرآن وكتابته

قد نزل القرآن الكريم على رسول الله ﷺ مُنَجَّماً على حسب الوقائع ومقتضيات الأحوال في بِضْع وعشرين سنة، وكان عليه الصلاة والسلام يأمر كتَّابَ وحيه بكتابة ما ينزّل، وتوفيّ رسول الله ﷺ والقرآن كلّه مكتوب، وفي صدور الصحابة محفوظ، وفي مدة الإمام عثمان كثُرت الفتوحات وانتشر القُرّاء في الأمصار، فأمر عثمان زَيدَ بن ثَابت، وعبد الله بن الزُّبير، وسَعيدَ بن العاص، وعبدَ الرّحمن بن الحارِث بن هِشام، فنسخوا تلك الصُّحف في مُصحف واحد مُرتّب السُّور واقتُصِر فيه من جميع اللغات على لغة قُريش لنزوله بلغتهم.

صاحب الشريعة محمد رسول الله ﷺ

هو سيدنا محمد بنُ عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي من أبناء إسماعيل بن إبراهيم الخليل أبي العرب المستَعربة، وُلد في مكة ونشأ بها يتيماً، ورَبَّتْهُ أُمُّه آمنة بنت وهْب بن عبد مناف، وأرْضعته حليمة بنت أبي ذؤيب من

(١) الإسراء: ٨٨.

عرب البوادي، وماتت أُمه وعمره ست سنين، فعَالَه جده عبد المطلب ثم مات جده بعد سنتين، فكفلهُ عمُّه أبو طالب.

عندما بلغ أشُدَّه تولى رعي الغنم بالبادية مع إخوته في الرِّضاع، وكذلك كانت الأنبياء عليهم السلام، فما من نبيٍّ إلا رعاها، وهذه من حكم الله سبحانه وتعالى؛ فإن الإنسان إذا استرعى الغنم وهي أضعفُ البهائم سكن قلبه الرِّفق والرحمة، فإذا انتقل من ذلك إلى رعاية الخلق كان قد هذّب نفسه، وخلصها من شوائب الخلق الغريزية كالحدة والحسد.

ثم اشتغل عليه السلام بالتجارة، وكان شريكه فيها السائب، وخرج إلى الشام يتجر لخديجة بنت خُوَيلد من سراة بني أسد، وشرفت بعد ذلك خديجة بزواجه منها، فكان يعملُ في مالها تاجراً.

صفاته : كان رسول الله ﷺ وسطَ القامة ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المُتردد، مُعتدل السِّمَن، ضخم الرّأس، عظيم الهامة، صَلْت الجبين، سهلَ الخدين، واسعَ العينين، أسودَهما، أزج الحاجبين سابغهما، أهدب الأشفار صبيحَ الوجه مدوَّره، مستويَ الأنف مُفلج الأسنان، رَجِلَ الشعر حَسنهُ، عريض الصدر، رَحْب الراحتين، سائلَ الأطراف، أزْهر اللون، فلا بالآدَم ولا بالشديد البياض.

وكان عليه السلام أفصحَ قومه لساناً، وأرجَحَهم عقلاً، وأصحهم فهماً، وأعظمهم أمانة، وخيرَهُم جِواراً، وأصدقَهُمْ حديثاً، وأكثرهم اتِّصافاً بمكارم الأخلاق.

ولمّا بلغ الأربعين من عمره أرسله الله للعالمين بشيراً ونذيراً إذ نزَل عليه الوَحْيُ وهو قائم على جَبَل حِراء قريباً من مكة، فأخذ رسول الله ﷺ يدعو لعبادة الله وحْدَه أقواماً لا دينَ لهم إلا أن يَسْجدوا للأصنام، فآمنتْ به زوجته خديجة وابنُ عمه عليّ بن أبي طالب وصدِّيقه أبو بكر ومولاه زَيْدُ بن حارِثة الكلبيّ، وحاضِنته أمُّ أيمن.

وجمع رسولُ الله ﷺ عشيرتهُ، وهم بنو هاشم، وبنو عبد المطلب، وبنو نَوْفل، وبنو عبدِ شمس أولاد عبد مناف وقال لهم: «الرّائد لا يَكْذِبُ أهْلهُ والله لو كَذَبت الناس جميعاً ما كذَبتكم، ولو غَرَرْتُ الناسَ جميعاً ما غَرَرْتكم. والله الذي لا إله

إلا هو إني لَرَسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة». فقالوا له قَوْلاً ليِّناً إلا عمَّه أبا لهب.

فلمَّا جَهَر رسول الله ﷺ بالدَّعوة إلى الإسلام بتوْحيد الله ونبْذِ الأوثان سَخِرَت منه قريش واستهزؤُوا به في مجالسهم وأضمروا له الحقدَ والعَداوة وآذوهُ كثيراً، وكان أشدَّهم في ذلك أبو جهل عَمْرو بنُ هشام بن المغيرة المخزومي القرشي.

ثم أسلم حَمزة عمُّ رسول الله ﷺ وعُمَر بن الخطاب، فقوِيَ بهما. وأسلم بمكة نفَرٌ من ولدِ الأوسِ والخزْرَج وهما قبيلتان من أهل المدينة وعادوا إليها، فانتشر فيها الإسلام بهم، ووفد على رسول الله ﷺ جمع من أهلها يدعونه وأصحابه إلى الهجرة إليهم فهاجر، وبهجرته إلى المدينة ابتدأ التاريخ الهجري.

ولم يقاتل رسولُ الله ﷺ أحداً على الدخول في الدين بل كان أمْرهُ مقصوراً على التبشير والإنذار، فلما ازدادَ طُغيانُ أهل مكة، وأخرجوا المسلمين من ديارهم، وائتمروا مع غيرهم من مُشركي العرب على قتل رسول الله ﷺ أذن الله سبحانه وتعالى بقتال المشركين كافة فكانت أول حرب بين رسول الله ﷺ وبينهم في (غزة بدر) وتلتْها غزواتٌ عدّة كان النصر في أكثرها لرسول الله ﷺ ولجماعته.

بعث رسول الله ﷺ رُسُله يدعون إلى الإسلام وهم: دِحْيةُ الكلبيّ إلى هِرقَل ملك الروم، وعبد الله بن حُذافة إلى كسرى ملك الفرْس، وشجاع الأسديُّ إلى الحارث الغَسّاني ملك البَلقاء بالشام، والحاطب بن أبي بَلْتَعَةَ إلى المقوْقِس أمير مصر، وسليط بن عمرو العامري إلى هَوْذَةَ صاحب اليمامة، وبعث عمرو بن أميّة إلى النجاشي أصْحَمة ملك الحبشة فأسلم، وعمرو بن العاص إلى جَفير وعبدا، مَلكيْ عمان فأسلما، والعلاء بن عبد الله الحضْرَمي إلى (المنذِر) ملك البحرين فأسلم، وخالد بن الوَليد إلى بني عبد المدان، وعلي بن أبي طالب إلى بني مَذْحِج في أرض اليمن فأسلموا، وأسلمت همدان وتابعها سائر أهل اليمن وملوك حِمْيَر، ثم أقبلت بعد ذلك وفود العرب جميعاً على رسول الله ﷺ يبايعونه على الإسلام.

وحجَّ رسول الله ﷺ فخطب في الناسِ خُطبة الوداع وهي أكثر خطبه استيعاباً لأمور الدين والدنيا. وفي يوم الاثنين الثالث عشر من ربيع الأول سنة إحدى عشرة

من الهجرة توفي رسول الله ﷺ بالمدينة وفيها دُفن ـ وله من العمر ٦٣ سنة قمرية، وثلاثة أيام.

الحديث النبويّ

كان رسولُ الله ﷺ أفصحَ الناس وأبينَهم وأحكَمهم، وكانت حياته كلّها هداية ونوراً، وأفعاله وأقواله جميعها مَدَداً يستمدُّ منه الخلق سَدَادهم وإرشادهم، في معاشِهم ومعادهم، ولهذا حَرَص المسلمون على حفظ ذلك الأثَر العظيم حرصاً لم توفّق إلى مثله أمة في حفظ آثار رسولها، فجمعوا من كلامه ووصف أفعاله وأحواله الأسفارَ الضّخام، وَوَعَوْا منها في صدروهم ما لا يدخل تحت حصر، وكلامهُ ﷺ منزّه عن اللّغو والباطل وإنما كان في توضيح قرآن، أو تقرير حُكم، أو إرشاد إلى خير، أو تنفير من شرّ، أو في حِكمة ينتفع الناس بها في دينهم ودُنياهم، بعبارة هي في الفصاحة والبلاغة والإيجاز والبيان بالدرجة الثانية بعد القرآن الكريم، ولذلك كان تأثيرها في اللغة والأدب بالمنزلة التالية لكلام الله تعالى.

النثر: لغة التّخاطب ـ الخَطَابة ـ الكتابة

كانت لغة التّخاطب في مبدأ الإسلام بين العرب الخُلَّص والموالي النابتين فيهم هي العربية الفصيحة المُعْربة، وكانت لغة الموالي الطارئين عليهم تقرُب من الفصيحة أو تبتعد عنها على حَسَب طول لُبْثِهم فيهم أو قِصَر مُقامهم عندهم.

ولما فتَح المسلمون الأمصار وكثُر عندهم سَبيُ الأعاجم وأسرى الحروب، ودخل في الإسلام منهم ألوف الألوف، وأصبحوا لهم إخواناً وشركاء في الدين، وتمَّ بينهم التَّزاوج والتّناسُل، نشأ للعرب ذُريّة اختلطت عليهم ملكة العربية، وكذلك كان الشأن في المتعَرّبين من الأعاجم.

أما العرب أنفسُهُم بعد الفتوح فكانت لغتهم في جزيرتهم مثل ما كانت عليه في جاهليتهم، أما سكّان الأمصار منهم وأولادهم من الحرائر، فالعامة منهم المخالطون للأعاجم لم تخْلُ لغتهم من لحن أو هُجْنة، والخاصة منهم تشدّدوا في المحافظة على سلائقهم وتحامَوا التزوج بالأعجميات، وبالغوا في تربية أبنائهم،

فكانوا يرسلونهم إلى البادية ليرتاضوا على الفصاحة، أو يُحْضرون لهم المؤدّبين والمعلمين، كذلك كان يفعل خلفاء بني أمية وأمراؤهم اقتداءً بكبيرهم مُعاوية بن أبي سفيان في تربية ابنه يزيد، ومَن لحن منهم عدوا ذلك عليه عاراً لا يُمحى وسُبّةً لا تزول. ومن هؤلاء اللحّانين عُبيد الله بن زِياد، والوليدُ بن عبد الملك، وخالد القسري، مع أنّ بعضَهم كان من أبلغ الناس وأبينهم.

ومن هنا يُعلم السّر في تسرُّع القوم إلى وضع النحو وتدوينه والشكل والإعجام.

الخطابة والخُطباء في هذا العصر

لما كان مبدأ كلّ انقلاب عظيم في أيّ أُمّة، إمّا دعوةً دينيّة وإمّا دعوة سياسية، كانَت تلك الدّعوة تستدعي ألسنة قوّالةً من أهلها لتأييدها ونشرها، وألسنة من أعدائها وخصومها لإدحاضها والصدّ عنها، وذلك لا يكون إلا بمُخاطبة الجماعات، كان ظهور الإسلام من أهم الحوادث التي أنشَطت الألسُن من عُقُلها وأثارت الخطابة من مكمَنِها فوق ما كانت عليه في جاهليتها فكان العملُ الأكبرُ لصاحب الدعوة العظمى سيدنا محمد ﷺ بادئ أمره غيْرَ تبليغ القرآن وارداً من طريق الخطابة، ولأمرٍ ما جعلها الشارع شعارَ كل الأمور ذوات البال، ولذلك كان دُعاةُ النبي ﷺ ورسلُه إلى الملوك، وأمراءُ جيوشه وسراياه، ثم خلفاؤه من بعده وعُمّالهم كلُّهم، خطباء مصاقع ولُسْناً مَقَاول، وإن الشرع صرفهم عن اللهو بالشعر الذي لا ينهَض بأعباء الخطابة، ولا سيما الدينية، لشرحها الحقائق وقَرْعها الأسماع بالحجج العقلية والوجدانية، وترغيبها في الثواب، وترهيبها من العقاب، بعبارات تفهمها الخاصة والعامة، وكان لهم من القرآن وأدلته وحججه والاقتباس منه مَدَد أيُّما مدد.

ولما حدثت الفتنة بين المسلمين بعد مقتل عثمان، وافترقوا إلى عراقيين بزعامة علي، وشاميين بزعامة معاوية، ولكل منهم دعوة يؤيّدها، ورغيبةٌ يُناضل عنها في تلك الحرب الشّعواء التي لم يُنكب الإسلام بمثلها، ظهر من كلتا الطائفتين خطباء لا يحصى عددهم ولا يُشَق غُبارهم، وعلى رأس العراقيين شيخُ الخطباء عليُّ بن أبي طالب، وعلى رأس الشاميين معاوية بن أبي سفيان، ولم يعدم كل طائفة منها

خطباء يُؤيدون دعوتها بما أُوتوا من البلاغة في الخطابة والفصاحة والبيان.

والخطابة وصلت في هذا العصر إلى أرقى ما وصلت إليه في اللسان العربي حتى ممن يُعَدُّ عليهم اللّحن، ولم تَسْعد العربيةُ بكثرة خطباء ووفرة خُطَب مثل ما سعدت به في هذا الصدر الأول، إذ كان القوم ورؤساؤهم عرباً خُلَّصاً يسمَعون القول فيتّبعون أحسنه.

ولم يخرج الخطباء عن مألوفهم من اعْتِجار العِمامة، والاشتمال بالرداء، واختصار المِخصَرة، والخُطبة من قيام.

وليس في عصور أدب اللغة عصرٌ أحفلُ بالخطباء من هذا العصر، إذ كانت الخَطابة فيه سَلِسة القياد على خلفائه وزُعمائه، لفطرتهم العربية، ومحلّهم من الفصاحة والبيان، وانطباعهم على أساليب القرآن، واتساع مداركهم.

خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة

وقف على باب الكعبة، ثم قال:

لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريك له، صدق اللهُ وعدَهُ، ونصرَ عبدَهُ وهَزَمَ الأحزاب وحده، ألا كلُّ مأثَرةٍ أو دمٍ أو مالٍ يُدّعى فهو تحتَ قَدَمَيَّ هاتين، إلا سِدانةَ البيتِ وسِقايةَ الحاج، ألا وقتيلُ الخطأ العمْدِ بالسوْطِ والعصا فيه الدِّية مُغلظة فيها أربعون خِلفة، وفي بطونها أولادُها.

يا معْشرَ قريش، إن الله قد أذهب عنكم نَخوة الجاهلية وتعظُّمَها بالآباء، الناسُ من آدمَ وآدمُ خُلِق مِنْ تُراب، ثم تلا هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾[1].

ومن خطبته في حجة الوداع:

الحمد للهِ نحمدُه ونستعينه ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرورِ أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهدي اللهُ فلا مضل له ومَن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسوله، أوصيكم، عباد الله، بتقوى الله، وأَحُثكم على طاعته، وأستفتحُ بالذي هو خيرٌ. أما بعدُ:

(١) الحجرات: ١٣.

أيُّها الناس اسمعوا مني أُبيّنْ لكم، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا، في موقفي هذا.

أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم حرامٌ عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومِكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا هل بلّغتُ؟ اللهم اشهد! فمن كانت عنده أمانةٌ فليؤدّها إلى من ائتمنه عليها. وإن رِبا الجاهلية موضوعٌ، وإن أول رِبا أبدأ به رِبا عمِّي العباس بن عبد المطلب. وإن دماء الجاهلية موضوعة وإن أول دم أبدأ به دمُ عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب. وإن مآثرَ الجاهلية موضوعةٌ غير السدانةِ والسقاية. العمدُ قوَدٌ، وشبهُ العمد ما قُتلَ بالعصا والحجر، وفيه مائةُ بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس، إن الشيطان قد يئس أن يُعبدَ في أرضكم هذه، ولكنه قد رضي أن يُطاع فيما سِوى ذلك مِمّا تحقِرون من أعمالكم.

أيها الناس، إن لنسائكم عليكم حقاً، ولكم عليهن حق، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يُدْخِلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة، فإن الله قد أذِن لكم أن تعضُلوهُنّ وتهجروهنّ في المضاجع وتضربوهن ضرباً غيرَ مُبرح. فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهنّ بالمعروف، فاتقوا الله في النساء، واستوصوا بهنّ خيراً، ألا هل بَلغتُ؟ اللهم اشهد!

أيها الناس، إنما المؤمنون إخوة، فلا يحل لامرئ مالُ أخيه إلا عن طيبِ نفس منه؛ ألا هل بلّغتُ؟ اللهم اشهد! فلا ترجعن بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، فإني قد تركتُ فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعده: كتاب الله وسنتي. . . . . ألا هل بلغتُ؟ اللهم اشهد!.

أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدمُ من تراب، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على عجمي فضلٌ إلاّ بالتقوى. . . ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد! قالوا: نعم! قال: فليُبَلغ الشاهدُ الغائب، والسلام عليكم ورحمة الله.

ومن أحاديثه عليه الصلاة والسلام:

إنّ مَثلَ ما بَعَثَني الله من الهُدى والعِلم كمثلِ غَيْث أصاب أرضاً، فكان منها طائفةٌ طيِّبة قبلَتِ الماء، فأنبَتَت الكلأ والعُشبَ الكثير، وكان منها أجادِبُ أمسكت

الماء، فنفع الله تعالى بها الناس فشَرِبوا منها وسَقَوْا وزَرَعُوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قِيعانٌ لا تُمْسِكُ ماءً ولا تُنبت كَلأ، فذلك مثل مَنْ فقِه في دين الله تعالى ونَفَعه ما بعثني الله تعالى به فعَلِم وعَلّم، ومَثَلُ من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرْسِلتُ به.

إنما مَثَلي ومثَلكُم كمثل رجل استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراشُ وهذه الدَّوابُ التي تقع في النار تقع فيها، فجعل يَنزعُهُنّ ويَغْلبْنَهُ فيَقتحِمْنَ فيها، فأنا آخِذٌ بحُجَزكم عن النار، وأنتم تَقتَحِمون فيها.

أدِّ الأمانة إلى مَن ائتَمنك، ولا تَخنْ مَن خانَكَ.

إنّ الناسَ إذا رَأوْا الظالِمَ فلمْ يأخُذوا على يَدِه أوشَكَ أن يَعُمَّهمُ الله تعالى بعقاب.

مَثَلُ المؤمنين في توادِّهِمْ وتراحمِهم وتعاطفهم مثلُ الجسد إذا اشتكى منه عضْوٌ تَداعَى له سائر الأعضاء بالسهر والحُمّى.

أبو بكر الصديق رضي الله عنه

هو أبو بكر عبد الله عَتيق بن أبي قُحافة عثمان صاحبُ رسول الله، وأوّل الخُلفاء الراشدين. ويجتمع نسبه مع نسب رسول الله ﷺ في مُرّة بن كعب.

وُلد بعد مولد رسول الله لسنتين وبِضعة أشهر، ونشأ من أكرم قريش خُلُقاً وأرجحهم حلماً وأشدّهم عِفّة، وكان أعلمهم بالأنساب وأيام العرب ومفاخرهم.

صحبَ رسول الله ﷺ قبل النبوة، وكان أوّلَ مَنْ آمن به من الرجال وصدّقَه في كل ما جاء به، ولذلك سُمّي بالصدّيق. وهاجر معه إلى المدينة وشهِد معه أكثر الغزَوات. وما زال يُنفق ماله وقوّته في مُعاضدته حتى انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى.

واختلفت العرب وارتدَّت عن الإسلام، فجرَّد عليهم الجيوش حتى قَمَعهم، وما مات إلاّ وجيوشُهُ تَهزم جيوش الفُرس والروم وتستولي على مدائنهم وحصونهم. وكانت وفاته سنة ١٣هـ، ومدة خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال.

وكان فصيحاً بليغاً خطيباً مُفَوَّهاً قويّ الحجة شديد التأثير، يشهد بذلك خطبته يوم السقيفة وذلك أنه لما مات رسول الله ﷺ، اختلفت الصحابة فيمن يبايعونه خليفةً لَه عليهم. فأبت الأنصارُ إلاّ إن يكون الخليفة منهم، وأبى المهاجرون من قريش إلاّ أن يكون منهم. واشتدّ النزاع حتى كادت تقع الفتنة فخطبهم خطبة لم يلبث الجميع بعدها أن بايعوه خليفة. وهي:

حمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أيها الناسُ نحن المهاجرون، وأوَّلُ الناس إسلاماً، وأكرمهم أحساباً، وأوسَطهُم داراً، وأحسنهُم وجوهاً، وأكثرُ الناس ولادةً في العرب، وأمسُّهم رحماً برسول الله ﷺ. أسلمنا قبلكم وقُدّمنا في القرآن عليكم، فقال تبارك وتعالى ﴿وَالسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾[1]. فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار إخوانُنا في الدين، وشركاؤنا في الفيءِ، وأنصارُنا على العدوّ. آويتم وواسيتم فجزاكم الله خيراً. فنحن الأمراء وأنتم الوزراء. لا تَدين العرب إلاّ لهذا الحيّ من قريش فلا تَنْفَسُوا على إخوانكم المهاجرين ما منحهم الله من فضله.

وخطب أيضاً حين بايع الناس البيعة العامة:

حمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أيها الناس إني قد وُلّيتُ عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسدّدوني. أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإذا عصَيْته فلا طاعةَ لي عليكم. ألا إن أقواكم عندي الضعيفُ حتى آخذ الحق له، وأضعفكم عندي القويّ حتى آخذ الحق منه. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

وخطَبَ أيضاً الناسَ فقال، بعدَ أن حمِد الله وأثنى عليهِ وصلّى عَلَى نبيّه ﷺ:

أُوصيكم بتقوَى الله والاعتصامِ بأمرِ الله الذي شَرَع لكم وهداكم بهِ، فإنَّ جوامعَ هَدْي الإسلام بَعْدَ كلِمةِ الإخلاص السَّمْعُ والطاعة لِمَنْ ولاّهُ الله أمرَكم. فإنهُ مَن يُطع الله وأُولي الأمْرِ بالمعروفِ والنَّهي عن المُنْكرِ فقد أفلَحَ، وأدَّى الذي عليهِ من الحقّ. وإيَّاكم واتّباعَ الهوى، فقد أفلحَ من حُفِظ من الهوَى والطمعِ والغَضَب.

---

[1] التوبة: ١٠٠.

وإيَّاكم والفخرَ! وما فَخْرُ من خُلقَ من تُراب ثم إلى التراب يعودُ، ثم يأكلهُ الدُّودُ، ثم هو اليومَ حَيٌّ وغداً ميّتٌ؟ فاعملوا يَوْماً بيوم، وساعةً بساعةٍ، وتَوَقَّوْا دُعاءَ المظلوم، وعُدُّوا أنفسكم في الموتى، واصبروا، فإنّ العمل كلَّه بالصبر. واحذروا، والحذرُ ينفَعُ. واعملوا، والعملُ يُقْبلُ. واحذروا ما حذَّركُم الله مِن عذابه، وسارعوا فيما وعدَكم الله من رحمتهِ. وافهَمُوا وتَفَهَّمُوا، واتقوا، وتَوَقَّوا، فإنَّ الله قد بَيَّنَ لكم ما أهلَكَ بِهِ مَن كانَ قبلكم، وما نجَّى بهِ مَن نجَّى قبلكم. قد بَيَّنَ لكم في كتابهِ حَلاله وحرامهُ، وما يحِبُّ من الأعمال، وما يكْرَه. فإني لا آلوكم ونَفسي. والله المستعانُ ولا حولَ ولا قُوَّةَ إلاّ بالله.

واعلموا أنكم ما أخلصتم لله من أعمالكم، فربّكم أطعتم، وحظَّكم حفِظْتُم واغتبطتُم، وما تطوَّعتم بهِ لدينكم فاجعلوهُ نوافلَ بين أيديكم، تستوفُوا سَلَفَكم وتُعطَوْا جرايتَكم حين فقركم وحاجتكم إليها.

ثم تفكروا، عبادَ الله، في إخوانكم وصحابتكم الذين مَضَوْا، قد ورَدوا على ما قَدّموا فأقامُوا عليهِ وحلُّوا في الشقاءِ أو السعادة فيما بعد الموت. إن الله ليس له شريك، وليس بينه وبين أحد من خلقه نسب يُعطيه به خيراً ولا يصرف عنه سوءاً إلا بطاعته واتباع أمره، فإنه لا خيرَ في خيرٍ بعده النار، ولا شرَّ في شرٍّ بعده الجنة.

من حكم سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه:

(١) صَنائعُ المعروف تَقي مَصارعَ السُّوء.

(٢) ليست مع العَزاء مصيبة، ولا معَ الجَزَع فائدة.

(٣) ثلاثٌ مَنْ كُنّ فيه كنّ عليه: البغيُ، والنكث، والمَكر.

(٤) كثير القول يُنسي بعضُهُ بعضاً، وإنما لك ما وُعي عنك.

(٥) أصلِحْ نفسَكَ يَصلُحْ لك النّاس.

سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه

هو أمير المؤمنين أبو حفص عمرُ بن الخطاب القرشي ثاني خليفة لرسول الله ﷺ وأوّل من تسمّى من الخلفاء بأمير المؤمنين، وأوّل من أرّخ بالتاريخ الهجري، ومصَّر الأمصار، ودوّن الدواوين.

وُلد رضي الله عنه بعد مولد النبي ﷺ بثلاثَ عشرةَ سنةً وحضر مع رسول الله الغزوات كلها، ثم لما قُبض أعان أبَا بكر على تولية الخلافة. ولما أحسّ أبو بكر بالموت، عَهِد بها إليه ،فقام بأعبائها خير قيام، وأتمّ جميع ما شرع فيه أبو بكر من فتح ممالكِ كسرى وقَيصر.

وقتله غيلةً الغُلامُ الشقيُّ أبو لؤلؤة عبدُ المغيرة بن شُعبةَ، لأنه لم ينصفه على زعمه في تخفيض ما يدفعه لسيده من أُجرة عمله. وكان قتله سنة ٢٣هـ ومُدة خلافته عشر سنين وستة أشهر وثمانية أيام.

وكان رحمه الله من أبين الناس منطقاً، وأبلغهم عبارة، وأكثرهم صواباً وحكمة، وأرواهم للشعر، وأنقدهم له.

ومن خطبه خطبته إذ ولي الخلافة:

صعِد المنبر فحمِد الله وأثنى عليه ثم قال:

يا أيها الناس، إني داع فأمِّنوا. اللّهم إني غليظ فليّنّي لأهل طاعَتك بموافقة الحق، ابتغاء وجهك والدار الآخرة، وارزقني الغلظة والشدَّة على أعدائك وأهل الدَّعَارة والنّفاق من غير ظلم منّي ولا اعتداء عليهم.

اللهمّ إني شحيحٌ فسَخّني في نوائب المعروف قصداً من غير سَرَف ولا تبذير ولا رِياء ولا سُمعة، واجعلني أبتغي بذلك وجهك والدارَ الآخرةَ.

اللّهم ارزقني خَفضَ الجناح ولينَ الجانب للمؤمنين.

اللهم إني كثير الغفلة والنسيان فألهمني ذكرك على كل حال وذكر الموت في كل حين.

اللّهم إني ضعيف عن العمل بطاعتك فارزُقْني النشاطَ فيها، والقوة عليها بالنية الحسنةِ التي لا تكون إلاَّ بعزتك وتوفيقك.

اللّهم ثبّتني باليقين والبر والتقوى وذكر المقام بين يديك، والحياءِ منك، وارزقني الخشوع فيما يُرْضيك عنّي، والمحاسبة لنفسي، وإصلاح الساعات والحذَر من الشبُهات.

اللّهم ارزقني التّفكر والتّدبر لما يتلوه لساني من كتابك، والفهمَ له والمعرفة بمعانيه والنظر في عجائبه والعملَ بذلك ما بقيت، إنك على كل شيء قدير.

ومن خطبه في ذم الدنيا:

إنما الدنيا أمل مُخْتَرَم وأجل مُنْقَضٍ وبلاغ إلى دارٍ غَيرها، وسَيرٌ إلى الموت لَيس فيه تعريجٌ. فرحِمَ الله امرأ فكَّر في أمره، ونصح لنفسه، وراقب ربّه واستقال ذَنبه.

بئس الجارُ الغنيّ يأخذُك بما لا يعطيك من نفسه فإن أبيت لم يعذرك.

إياكم والبِطنةَ فإنها مَكْسَلة عن الصلاة ومفْسَدة للجسم، ومؤديّةٌ إلى السقْم. وعليكم بالقصد في قُوْتِكم، فهو أبعد من السّرَف، وأصح للبدن وأقوى على العبادة، وإن العبد لن يهلك حتى يُؤْثِر شهوته على دينه.

ومن حكم سيدنا عمر بن الخطاب:

(١) من كتم سرَّه كان الخيارُ في يده.

(٢) أشقى الولاةِ من شقيت به رَعيتّه.

(٣) لا يكن حبك كلفاً ولا بغضك تلفاً.

(٤) من لا يعرف الشّرّ كان أجدر أن يقع فيه.

(٥) أعقل النّاس أعذرهم للناس.

(٦) لا تؤخر عمل يومك إلى غدك.

(٧) أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها.

(٨) من يئس من شيء استغنى عنه.

ومن خطبته في القضاء إلى أبي موسى الأشعري:

أما بعد، فإن القضاء فريضة محكمةٌ، وسنَّة متّبعةٌ، فافهم إذا أدليَ إليك، فإنه لا ينفعُ تكَلّمٌ بحق لا نفاذ له، آسِ[١] بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك، حتى لا يطمعَ شريف في حيْفك[٢]، ولا ييأسَ ضعيفٌ من عدلك، البينة على من

(١) آس بين النّاس: سوّ بينهم.

(٢) الحيف: الميل أي: ميلك معه لشرفه.

ادّعى، واليمين على من أنكرَ، والصلحُ جائزٌ بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرّم حلالاً.

لا يَمْنَعَنَّكَ قضاء قضيتهُ اليوم فراجعت فيه عقلك، وهديتَ فيه لرشِدك أن ترجع إلى الحق، فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خيرٌ من التمادي في الباطل، الفهم الفهم فيما تلجلج[١] في صدرك، مما ليس في كتاب ولا سنّة[٢] ثم اعرف الأشياء والأمثال، فقس الأمور عند ذلك، واعمَد إلى أقربها إلى الله، وأشبهها بالحق. واجعل لمن ادّعى حقاً غائباً أو بينةً أمداً ينتهي إليه، فإذا أحضر بيّنته أخذت له بحقِه، وإلا استحقت عليه القضيّة، فإنه أنفى للشكِّ وأجلى للعمى.

المسلمون عدول بعضهم على بعضٍ إلا مجلوداً في حَدٍّ أو مجرَّباً عليه شهادة زور، أو ظنيناً في ولاءٍ أو نسب[٣]، فإن الله تولى السَّرائرَ، ودَرَأ بالبينات والأيمان[٤]. وإياك والقلق والضجر[٥] والتأذي بالخصوم، والتنكرَ عند الخصومات، فإن الحق في مواطن الحق يُعظم الأجر، ويحسن به الذخر، فمن صَحّت نيته وأقبل على نفسه كفاهُ الله ما بينه وبين الناس، ومن تخلق[٦] للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله[٧] فما ظنُّك بثواب غير الله عزّ وجلّ في عاجل رزقه وخزائن رحمته، والسلام[٨].

عُثمان بن عَفّان رضي الله عنهُ

هو أمير المؤمنين عثمان بن عفّان القرشيُّ الأمويّ، ثالث الخلفاء الراشدين وموحِّدُ نُسَخ القرآن المبين. وُلد في السنة السادسة من مولد النبيﷺ وآمن في السابقين

(١) تلجلج: تردّد حتى كان موقع حيرة.
(٢) الكتاب: القرآن الكريم. والسّنّة: ما أثر عن النّبيﷺ من قول أو فعل أو تقرير.
(٣) ظنين: متهم أي: ينتسب إلى غير أبيه أو يدعى إلى غير مواليه، فليس أهلاً للشهادة.
(٤) درأ: دفع، يريد منه الحدود.
(٥) القلق والضجر: ضيق الصّدر وقلة الصّبر.
(٦) أي: ظهر للناس في خلقه خلاف نيته.
(٧) شانه: ضد زانه، والمراد قبحه وأظهر نفاقه.
(٨) يريد ماذا يكون ثواب النّاس بجانب رزق الله في الدنيا ورحمته في الآخرة.

الأوَّلين، وبذل ماله الكثير في تأييد الإسلام ومعونة المجاهدين، وشهد مغازيَ رسول الله كلّها إلاّ بدراً. وقد كان عمر قبل وفاته عهد بالخلافة إلى ستة، هو منهم، تنتخب الأمةُ أحدهم خليفة، فانتخبوا عثمان. فأكمل مغازيَ عمر، ثم ثار عليه بعض الأعراب بحجة أنه يؤثر أقرباءَه بولاية الأقاليم، فحاصروه في داره بالمدينة وقتلوه وهو يتلو القرآن الكريم سنة ٣٣هـ، ومدة خلافته اثنتا عشرة سنة إلا اثني عشر يوماً.

وكان رحمه الله من بلغاء الخلفاء وأوجزهم لفظاً وأجزلهم معنى، وأسهلهم عبارة.

ومن خطبه خطبته بَعدَ أن بويع وهي بعد الحمد والثناء:

أما بعد، فإني قد حُمّلت وقد قَبلت، ألا وإني مُتَّبع ولستُ بمُبتدع. ألا وإن لكم عليّ بعد كتاب الله عز وجل وسُنَّةِ نَبيّه ﷺ ثلاثاً: اتباعَ من كان قبلي فيما اجتمعتم عليه وسَنَنْتُم، وسَنَّ سُنّة أهل الخير فيما لم تسُنّوا عن ملأ، والكفّ إلاّ فيما استوجبتم.

ألا وإن الدنيا خضرة قد شُهّيت إلى الناس ومال إليها كثير منهم فلا تركنوا إلى الدنيا ولا تثِقوا بها فإنها ليست بثقة، واعلموا أنها غير تاركة إلاّ من تركها.

ومن خُطبه أيضاً وهي آخر خُطبةٍ خطبها:

أما بعد، فإنّ الله عزّ وجل إنما أعطاكم الدُّنيا لتطلبُوا بها الآخرة، ولم يعطِكموهَا لتركنُوا إليها. الدُّنيا تفنَى والآخرة تَبقى، فلا تُبْطرنّكم الفانية ولا تَشْغَلنكم عن الباقية. فآثِروا ما يَبقى على ما يَفْنَى، فإن الدنيا مُنْقطعة وإنَّ المصير إلى الله. اتّقوا الله عز وجل فإن تَقواه جُنَّة من بأسهِ ووسيلةٌ عنده، واحذَروا من الله الغِيرَ، والزموا جماعتكم لا تصيروا أحزاباً ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾[1].

من حكم سيدنا عثمان:

(١) ما يزَعُ الله بالسلطان أكثرُ مِمّا يزع بالقرآن.

(٢) أنتم إلى إمام فعّال أحوجُ منكم إلى إمام قوال.

(٣) يكفيك من الحاسد أنه يغتمُّ وقت سُرورِك.

---

(١) آل عمران: ١٠٣.

الإمام عليّ بن أبي طالب ـ كرّم الله وجهه

هو أمير المؤمنين أبو الحسن عليّ بن أبي طالب، وابن عم رسول الله، وزوج ابنته، ورابع الخلفاء الرّاشدين. ولد رحمه الله بعد مولد النبي ﷺ باثنتين وثلاثين سنة، وهو أوّل من آمن من الصّبيان. وكان شجاعاً لا يشقُّ له غُبار. شهد الغزوات كلها مع النبي إلاّ غزوة تبُوكَ، وأبلى في نُصرة رسول الله ما لم يُبْله أحد. ولما قُتل عثمان بايعه الناس بالحجاز، وامتنع من بيعته معاويةُ وأهلُ الشّام شِيعةُ بني أُمية غضباً منهم لمقتل عثمان وقِلّة عناية عليّ بالبحث عن معرفة القَتَلة على حَسَب اعتقادهم. فحدث من جَرَّاءِ ذلك الفتنةُ العظمى بين المسلمين وافتراقهُم إلى طائفتين فتحاربوا مدّة من غير أن يَستتبّ الأمر لِعليّ أو معاوية حتى قَتَل أحدُ الخوارج عليًّا غِيلة بمسجد الكوفة سنة ٤٠هـ.

وكانت مدّة خلافته خمس سنين إلاّ ثلاثة أشهر.

وكان رحمه الله أفصحَ الناس بعد رسول الله، وأكثرهم علماً وزهداً وشدة في الحقّ. وهو إمام الخطباء من العرب على الإطلاق بعد رسول الله ﷺ. وخطبه كثيرة: منها خطبته كرم الله وجهه بعد التّحكيم وهي:

الحمد لله وإن أتى الدهرُ بالخَطْبِ الفادِح، والحَدَث الجلَل، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ليس معه إله غيرُهُ، وأن محمداً عبده ورسوله ﷺ.

أما بعد، فإن مَعصية النّاصِح الشّفيق العالم المجرّب تُورث الحيرة وتُعقِب النّدامة، وقد كنت أمرتكم في هذه الحكومة[1] أمري، ونخلت لكم مخزونَ رأيي، لو كان يُطاع لقصِير أمر[2]، فأبيتم عليَّ إباءَ المخالفين الجُفاة والمُنابذين العُصاة، حتى ارتاب الناصحُ بنصحه، وضنَّ الزّند بقِدْحه، فكنت وإياكم كما قال أخو هَوَازِن:

[الكامل]

أمرتهُم أمري بمُنْعَرِجِ اللّوى فلم يستبينوا النُّصح إلا ضحى الغد

(١) أي حكومة الحكمين عمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري.

(٢) هو مولى جزيمة الأبرش وكان حاذقاً، وكان قد أشار على سيده جذيمة أن لا يأمن للزباء ملكة الجزيرة، فخالفه وقصدها إجابة لدعوتها إلى زواجه، فقتلته فقال قصير: لا يطاع لقصير أمر، فذهبت مثلاً.

ومن خطبة له حين خاطبه العباس وأبو سفيان في أن يبايعا له بالخلافة:

أيها الناس، شُقُّوا أمواج الفتن بِسُفُن النّجاة، وعرّجوا عن طريق المُنافرة، وضعوا عن تيجان المفاخرة، أفلح مَنْ نهض بجنَاح أو استسلم فأراح. هذا ماءٌ آجِن ولقمة يَغَصُّ بها آكلها. ومجتني الثمرةِ لغير وقت إيناعها كالزارع بغير أرضه، فإن أقل يقولوا حَرَص على الملك، وإن أسكت يقولوا جَزِع من الموت، هيهات بعد اللّتيّا والتي والله لابنُ أبي طالب آنسُ بالموت من الطفل بثَدَي أُمه، بل انْدَمَجْتُ على مكنون علم لو بُحتُ به لاضطربتم اضطراب الأرْشِيَة في الطَّوِيّ البعيدة.

من حكم سيدنا علي كرم الله وجهه :

(١) روي الشيخ خيرٌ من مشهدِ الغلام.

(٢) الناس أعداء ما جهلوا.

(٣) الناس من خوف الذل في الذل.

(٤) الصبر مطية لا تكبو وسيف لا ينبو.

(٥) إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه.

(٦) قيمة كل امرئ ما يحسن.

(٧) المرء مخبوء تحت لسانه.

(٨) استعن بمن شِئت تكن نظيره، واحتج إلى من شِئت تكن أسيره، وأحسن إلى من شئت تكن أميره.

(٩) خير أموالك ما كفاك وخير إخوانك من واساك.

(١٠) الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم.

(١١) ما هلك امرؤ عرف قدره.

(١٢) من عذُب لسانه كثر إخوانه.

(١٣) بشِّر مال البخيل بحادث أو وارث.

(١٤) بالبر يستعبد الحر.

(١٥) إعادة الاعتذار تذكير للذنب.

(١٦) إذا تم العقل نقص الكلام.

obeikandl.com

(١٧) من أكثر فكره في العواقب لم يشجع.

(١٨) الشرف بالعقل والأدب لا بالأصل والنسب.

(١٩) أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع.

(٢٠) قلب الأحمق وراء لسانه، ولسان العاقل وراء قلبه.

(٢١) يعيش البخيلُ في الدنيا عيش الفقراء، ويحاسب في الآخرة حساب الأغنياء.

(٢٢) الولايات مضامير الرجال.

(٢٣) الناس أبناء الدنيا، ولا يُلامُ الرجل على حُبِّ أمه.

(٢٤) من علم أن كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه.

(٢٥) الحرمان خير من الامتنان.

سَحْبانُ وَائِل

هو سَحْبانُ بن زُفرَ بن إياد الوَائِلي، الخطيب المِصْقَع، المضروبُ به المثلُ في البلاغة والبيان. نشأ في الجاهلية، ولما ظهر الإسلام أسلم، وتقلّبت به الأحوال حتى التحق بمعاوية فكان يُعِدُّه للملِمَّات، ويتوكأ عليه عند المفاخرة.

قدم على معاوية وفدٌ فطلب سَحْبان ليتكلّم فقال: أحضروا لي عصاً. قالوا: وما تصنع بها وأنت بحضرة أمير المؤمنين؟ قال: ما كان يصنع بها موسى وهو يخاطب رَبّه؟ فضحك معاوية وأمر له بإحضارها. ثم خطب من صلاة الظهر إلى أن حانت صلاةُ العصر، مَا تَنحنَحَ ولا سَعَلَ ولا توقّف ولا تَلَكَّأ ولا ابتدأ في معنى وخرج منه وقد بقي منه شيء، حتى دُهِشَ منه الحاضرون، فقال معاوية: أنت أخطبُ العرب. قال سَحْبان: والعجم والجنّ والإنس.

وكان سَحبانُ إذا خطب يَسِيل عرقاً، وماتَ في خلافة معاوية سنة ٥٤هـ.

ومما يؤثر من خطبه قوله :

إن الدنيا دارُ بَلَاغ والآخرة دارُ قرار، أيها الناس، فخذوا من دار مَمَرّكم لدار مقَرّكم، ولا تهتكوا أستاركم عند من لا تخفى عليه أسراركم، وأخرجوا من الدنيا قلوبكم قبل أن تخرُج منها أبدانكم، ففيها حييتم ولغيرها خلِقتم. إن الرجل إذا

هلك قال الناس: ما ترك؟ وقالت الملائكة: ما قدَّم؟ قدّموا بعضاً يكون لكم، وَلا تُخلّفوا كُلاً يكون عليكم.

زياد ابن أبيه

هو أحد دهاة العرب وساستها وخطبائها وقادتها.

منشؤه: كان للحارث بن كلدة طبيب العرب أَمَةٌ تسمَّى سُمَيَّة قد قرنها بعبد له روميّ يدعى عَبيداً، فولدت سُميّة زياداً على فراش عبِيد هذا (في السنة الأولى من الهجرة). فنشأ غلاماً فصيحاً شجاعاً فما افتتحت العرب الممالك والأمصار حتى عرف منه ذلك، فاستكتبه أبو موسى الأشعري والي البصرة من قِبَل عُمر، فأظهر من المهرة ما أجمع القلوبَ على حبه.

ولما ولِيَ أميرُ المؤمنين عليّ الخلافة اضطربت عليه فارس، فسار إليها زياد بجمع كثير وتمكّن بخداعه من إيقاع الشّقاق بين رؤساء المشاغبين. ومازال يضرب بعضهم ببعض حتى سكنت ثائرتهم. وبقي يتولى لعليّ الأعمال حتى قُتل عليّ، فخافه مُعاوية فأرسل إليه المُغِيرةَ بنَ شُعْبة يستقدمه، فقدم عليه فادّعاه أخاً له واستلحقه بنسب أبيه أبي سفيان، وصار يسمّى زياد بن أبي سفيان ـ بدل زياد بن عبيد، أو ابن سُميّة، أو ابن أبيه.

وولاَّه معاويةُ العِرَاقين وهو أوّل من جُمع له بينهما. فسار في النّاس سيرة لمّ بها الشَّعث وأقام المعْوجّ، وكبح الفتنة واشتطّ في العقوبة، وأخذ بالظِنة وعاقب على الشُّبهة، حتى شمل خوفُهُ جميع الناس، فأمِن بعضهم بعضاً. وكان الشيء يسقط من يد الرجل أو المرأة فلا يعرِض له أحد حتى يأتي صاحبه فيأخذه، بل كان لا يغلق أحد بابه، وكان زياد يقول: لو ضاع حبل بيني وبين خراسان لعرفتُ آخذه. وكان مكتوباً في مجلسه عنوانُ سياسته وهي: الشدّة في غير عُنف واللّين في غير ضَعف، المُحْسن يُجازَى بإحسانه والمُسيء يُعاقب بإساءَته. وتُوفّي بالكوفة في رمضان سنة ٥٣هـ.

ومن خطبه البليغة خطبته البتراء[1] حين قدم إلى البصرة وهي :

أمّا بعدُ، فإن الجهالة الجَهْلاَء، والضَّلالَة العَمياء، والغَيَّ الموفَى بأهله على

(١) البتراء: التي لم يحمد الله في بدايتها.

النار، ما فيه سُفهاؤكم، ويشتمل عليه حُلماؤكم، من الأمور التي يَنبُت فيها الصَّغير ولا يتحاشى عنها الكبير. كأنكم لم تقرؤوا كتاب الله، ولم تسمعوا ما أعدّ الله من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته في الزمن السّرمديّ الذي لا يزُول.

إنهُ ليس منكم إلاّ مَنْ طرَفت عينَه الدنيا، وسدَّت مسامعَه الشهوات، واختار الفانية على الباقية، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحَدَث الذي لم تسبقوا إليه، من تَرْكِكم الضّعيفَ يُقْهَر والضّعيفة المسلوبة في النهار لا تُنصر، والعدد غير قليل، والجمع غير مفترق. ألم يكن منكم نهاة يمنعون الغُواة عن دلَج الليل وغارة النهار! قرَّبتم القرابة، وباعدتم الدّين. تعتذرون بغير العذر، وتغْضُون على النّكْر. كل امرئ منكم يردّ عن سفيهه، صُنْعَ من لا يخاف عقاباً ولا يرجو مَعاداً. فلم يَزَل بهم ما تَرَوْن من قيامكم دُونَهم حتى انتهكوا حُرَم الإسلام، ثم أطرقوا وراءكم كُنوساً في مكانِس الرّيب.

حرام عليّ الطعام والشراب حتى أضعَ هذه المواخير بالأرض هدْماً وإحراقاً.

إني رأيت آخِرَ هذا الأمر لا يصلُح إلاَّ بما صَلح به أوّله: لِينٌ في غير ضعف، وشدة في غير عنف، وإني لأقسم بالله لآخذنّ الوليّ بالمولى، والمقيمَ بالظاعن، والمطيع بالعاصي، حتى يلقى الرجل أخاه فيقولَ: «انْجُ سَعْد فقد هلَك سَعيد» أو تستقيم لي قنَاتُكم.

إنَّ كذْبة الأمير بَلْقاءُ مشهورة، فإذا تعلّقتم عليَّ بكذبة فقد حلَّتْ لكم معصيتي.

وقد كان بيني وبين قوم إحَنٌ فجعلتُ ذلك دبْر أذني وتحت قدَمي، إني لو علمت أن أحدكم قد قتله السِّلُّ من بغضي لم أكشف له قناعاً، ولم أهتك له ستراً، حتى يُبْدِي لي صَفْحته، فإذا فعل ذلك لم أناظره فاستأنفوا أُموركم، وأعينوا على أنفسكم، فربَّ مبتِئس بقدومنا سيُسَر، ومسرور بقدومنا سَيبتئِسُ.

أيها الناس، إنّا قد أصبحنا لكم ساسة، وعنكم ذادَة، نسُوسكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونذود عنكم بفيءِ الله الذي خوَّلنا، فلنا عليكم السمعُ والطاعة فيما أحببنا ولكم علينا العدلُ فيما وَلينا، فاستوجِبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا.

الحجَّاج الثقفيّ

هو أبو محمد الحجّاج بن يوسف الثَّقَفي أحد جبابرة العرب وساستها ومُوَطّدُ مُلك بني أُمية، وأحدُ البلغاء والخطباء المصاقع. ولد سنة ٤١هـ.

وخدم الحجَّاج بولايته عبدَ الملك بن مروان، وابنيه الوليد وسليمان حتى كان ملكه مابين الشام والصين ومات سنة ٩٥هـ في عهد سليمان في مدينة واسط بالعراق.

وكان الحجاج آية في البلاغة وفصاحة اللسان وقُوّة الحُجة، قال الأصمعي: أربعة لم يَلحنوا في جدّ ولا هزل، الشَّعبي وعبد الملك بن مروان، والحجاج بن يوسف وابن القِريَّة، والحجاج أفصحهم.

ومن مآثره اهتمامُهُ بوضع النّقط والشكل للمصحف وغيره، ونسخُهُ عدة مصاحف من مصاحف عثمان وإرسالها إلى بقية الأمصار.

ومن خطبه المشهورة خطبته لمَّا قدم أميراً على العراق فإنهُ دخل المسجد مُعْتَمّاً بعمامة قد غطّى بها أكثرَ وجهه، مُتقلّداً سيفاً، مُتنكّباً قوساً يؤمُّ المنبر، فقام الناس نحوه حتى صعِد المِنبر، فمكث ساعة لا يتكلم. فقال الناس بعضهم لبعض: قبّح الله بني أمية حيث تَستعمل مثل هذا على العراق. فلما رأى عُيونَ الناسِ إليه، حَسَر اللّثام عن فِيه ونهض ثم قال:

[الوافر]

أنا ابنُ جلا وطلاَّعُ الثَّنايا متى أضع العِمامة تَعرفوني

ثم قال: يا أهل الكوفة، إني لأرى رؤوساً قد أيْنَعَتْ وحان قِطافها وإني لَصاحبُها. وكأني أنظر إلى الدماء تَرَقْرَقُ بين العمائم واللّحَى. ثم قال:

[الرجز]

هذا أوانُ الشّدّ فاشتدّي زِيَمْ قَد لَفّها الليلُ بسوّاقٍ حُطَم

ليس براعي إبل ولا غَنَمْ ولا بجزّار على ظَهْر وَضَمْ

قد لَفَّها الليلُ بعَصْلبيّ أرْوَعَ خرَّاج من الدَّويّ

مهاجرٍ ليس بأعرابيّ

قد شمّرت عن ساقها فشُدُّوا وجَدَّت الحربُ بكم فجِدُّوا
والقَوْسُ فيها وَتَرٌ عُرُدّ مِثْلُ ذِراعِ البكر أو أشدُّ
لابُدّ مما ليس منه بُدّ

إني، والله، يا أهل العراق، ما يُقَعْقَع لي بالشّنان، ولا يُغمز جانبي كتغماز التّين. ولقد فُرِرت عن ذكاء، وفُتّشت عن تجربة. وإن أمير المؤمنين ـ أطال الله بقاءَه ـ نثَرَ كِنانته بين يديه فعجَم عِيدانها، فوجدني أمرَّها عُوداً وأصلبَها مَكْسِراً، فرماكم بي، لأنكم طالما أوْضَعْتُم في الفِتنة، واضطجعتم في مراقد الضلال والله لأحزمنكم حزم السّلمة[1]، ولأضربنكم ضرب غرائب[2] الإبل. فإنكم لكأهل ﴿قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾[3]. وإني، والله، ما أقول إلا وَفَيْت، ولا أَهُمّ إلا أمْضيت، ولا أخلُق[4] إلاّ فريت[5].

وإن أمير المؤمنين أمرني بإعْطائكم أعْطِياتِكم، وأن أوَجّهكم لمحاربة عدوّكم مع المهلَّب[6] بن أبي صُفْرة. وإني أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلّف بعد أخذ عَطائه بثلاثة أيام إلاّ ضربت عنقه.

طارق بن زِياد

هو أحد قوّاد جيوش الوليد بن عبد الملك. كان خطيباً مِصقعاً وبطلاً مِقداماً، بعيد الهمة، يعشق المجد، وتصبو نفسه إلى الفتوحات.

خرج من المغرب سنة ٩٢هـ باثني عشر ألف جندي من مواطنيه يقلُّهم أسطول قويّ قد جُهّز لذلك، وعبر البحر إلى إسبانيا لفتحها. فلما علم رودريك ملكها بقدوم المسلمين إلى بلاده، قابلهم بجيش عظيم هالت طارقاً كثرة عدده وكمال

(١) نوع من الشّجر وذلك لأن الأشجار تعصب أغصانها ثم تختبط بالعصي لسقوط الورق وهشيم العيدان.
(٢) وهي تضرب عند الهرب وعند الخلاط وعند الحوض أشد الضرب.
(٣) النحل: ١١٢. (٤) أخلق: أقدر. (٥) فريت: قطعت.
(٦) هو أبو سعيد المهلب بن أبي صفرة الأزدي البصري قائد قواد الأمويين ومبيد الخوارج ومبتدع الرّكب الجديد.

عُدده. فبادر وأحرق أسطوله لِيقطع أمل أصحابه في الرجوع، وقال لهم: «أيها الناس إلخ» فاندفعوا على الإسبان اندفاع اليائس وهزموهم شرَّ هزيمة.

ثم والى طارق فتوحاته في إسبانيا حتى قبض على رودريك آخر ملوك القيزيغوط بها وقتله سنة ٩٤هـ. وبعد ذلك بسنة استقدمه الوليد إلى دمشق إلى أن مات سنة ١٠١هـ.

وها هي خطبته:

أيُّها الناس، أين المفرّ؟ البحرُ من ورائِكم والعدوّ أمامكم، وليس لكم والله إلاّ الصّدق والصَّبر. واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدُبة اللّئام، وقد استقبلكم عدوّكم بجيشه، وأسلحتُه وأقواتُه مَوْفورة، وأنتم لا وَزَرَ لكم إلا سيُوفكم، ولا أقوات إلا ما تستخلِصونه من أيدي عدوّكم. وإن امتدّت بكم الأيام على افتقاركم، ولم تُنْجِزوا لكم أمراً ذَهَبَ ريحكُم، وتعوَّضَتِ القلوب من رُعبها عنكم الجُرْأةَ عليكم. فادفعوا عن أنفسكم خِذلان هذه العاقبة مِن أمرِكم بمُناجزة هذا الطّاغية، فقد ألقَتْ به إليكم مدينته الحَصينة. وإن انتهاز الفُرصَة فيه لمُمكنٌ إن سمحتم لأنفسكم بالموت. وإني لم أحذّركم أمراً أنا عنه بنجْوة، ولا حَمَلتُكم على خُطّةٍ أرخَصُ متاعٍ فيها النفوس أربأ فيها بنفسي.

واعلموا أنكم إن صَبَرْتُم عَلَى الأشقّ قليلاً استمتعتم بالأرْفَهِ الألذ طويلاً. فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي فما حظُّكم فيه بأوفَرَ من حظّي، وقد بلغَكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الخَيرات العميمة. وقد انتَخبكم الوليد بن عبد الملك، أمير المؤمنين، من الأبطال عرباناً، ورضيَكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً، ثِقةً منه بارتياحكم للطّعان، واستماحكم بمُجالدة الأبطال والفُرسان، ليكونَ مغنمها خالصاً لكم من دونهِ ومن دون أمير المؤمنين سواكم. والله تعالى وليّ إنْجادكم عَلَى ما يكون لكم ذكراً في الدارين.

واعلموا أني أوّل مجيب إلى ما دعوتكم إليه، وإني عند مُلتقَى الجمعين حامِلٌ بنفسي على طاغية القوم «لَذَريقَ» فقاتِلهُ إن شاء الله تعالى. فاحملوا معي فإن هلكت بعده فقد كُفيتمْ أمْرَه، ولم يُعْوِزكُمْ بَطل عاقِلٌ تسْنِدون أموركم إليه، وإن هلكت قبلَ

وصولي إليه فاخلُفُوني في عزيمتي هذه، واحملوا بأنفسكم عليه، واكتفوا لهم من فتح هذه الجزيرة بقتلهِ.

الكتابة: خطيّة وإنشائيّة

الكتابة الخطيّة: كان الخطُّ في مبدأ ظهور الإسلام هو الخط الأنباري الحيري، المسمى بعد انتقاله إلى الحجاز بالحجازي، وهو أصل النسخ. وكان يكتب به النزرُ اليسير من العرب عامة وبضعة عشر من قريش خاصّة.

فلما انتصر النبي ﷺ على قريش في يوم بدر وأسر منهم جماعة كان فيهم بعض الكتَّاب، فقبل الفداء من أميّيهم، وفادى الكاتب منهم بتعليم عشرة من صبيان المدينة. فانتشرت الكتابة بين المسلمين وحضَّ النبي ﷺ على تعلُّمها. ومن أشهر كُتَّاب الصحابة:

زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام.

ولما فتح المسلمون الممالك، ونزلت جَمْهَرة الكُتّاب منهم الكوفة، عَنَوا بتجويد الخط العربي وهَندسةِ أشكاله حتى صار خطُّ أهل الكوفة ممتازاً بشكله عن الخط الحجازي، واستحق أن يسمى باسم خاص وهو الكوفي. وكان الصحابة وتابعُوهم من بَني أُميّة يكتبون بلا إعجام ولا شكل إلا قليلاً اعتماداً منهم على معرفة المكتوب إليهم باللغة، واكتفائهم بالرمز القليل في قراءة اللفظ. فلما فسد اللسان باختلاط العرب بالعجم، وظهر اللحن والتحريف في الألسنة أشْفَقَ المسلمون على تحريف كَلِم الكتاب الكريم، فوضع أبو الأسود الدُّؤَليّ علاماتٍ في المصاحف بصَبْغٍ مُخالف، فجعل علامة الفتحة نقطة فوق الحرف، والكسرة نقطة أسفله، والضمة نقطة من الجهة اليسرى، وجعل التنوين نقطتين، وكان ذلك في خلافة معاوية. ووضع نصر بن عاصم ويحيى بن يعمرَ بأمر الحجاج نقط الإعجام بنفس المداد الذي يكتب به الكلام، وكان ذلك في خلافة عبد الملك بن مروان، ثم شاع في الناس بعد.

الكتابة الإنشائية قسمان: كتابة رسائل ودواوين، وكتابة تدوين وتصنيف.

(١) كتابة الرسائل والدواوين

كان زُعماء العرب وفصحاؤهم كلّهم كُتّاباً يُنْشِئونَ بمَلكتهم ولو لم يَخطوا بيمينهم. فكان النبي وأصحابه وخلفاؤه يُمْلون كتبَهم على كُتّابهم بعبارتهم وبعضهم يكتبها بيده.

ولما اتسعت موارِد الخلافة أصبحت في حاجة إلى إنشاء الدواوين لِضبط ذلك. فكان عمر أوّلَ من دَوَّن الدواوين. وكان كُتّاب الرسائل للخلفاء وعمّالهم إما عرَباً أو مواليَ يُجيدون العربية.

أما كُتّاب الخراج ونحوه فكانوا في كل إقليم من أهله يكتبون بلغتهم.

ولما نبغ من العرب من يُحسن عَملهم حُوّلتْ هذه الدواوين إلى العربية زمنَ عبد الملك بن مرْوان والوليد ابنه. وجرى خلفاءُ بني أمية في كتابة الرسائل على ما كان عليه الأمر زمن الخلفاء الراشدين.

ثمَّ لمَّا اتسعت رُقْعة المملكة وقرّت أمور الدولة ازدادت الأعمال وشُغِل الخلفاء عن أن يَلُوا الكتابة بأنفسهم أو بخاصة عشيرتهم، عهدُوا بها إلى كبار كُتّابهم. وكان كثير منهم يعرف اللغة الرومية أو الفارسية أو اليونانية أو السريانية وهي لغات أمم ذات حضارة وعلوم ونظام ورسوم. ومن هؤلاء سالم مولى هشام بن عبد الملك أحد الواضعين لنظام الرسائل، وأستاذ عبد الحميد الكاتب الذي آلت إليه زَعامة الكتابة آخر الدولة الأموية.

مميزات الكتابة الإنشائية

وتمتاز الكتابة في هذا العصر بالميزات الآتية:

(١) الاقتصارُ في أغراضها على القدر الضروري، والاقتصار في معناها على الإلمام بالحقائق وتوضيحها بلا مبالغة ولا تهويل. واستعمال الألفاظ الفحلة والعبارات الجزلة. والأساليب البليغة إذ كان الكاتب والمكتوب إليه عرباً فصحاء.

obeikandl.com

(٢) مراعاة الإيجاز غالباً إلا حيث يستدعي الحالُ الإسهاب. وبقي الأمر على ذلك حتى جاء عبد الحميد الكاتب آخر الدولة الأموية، فأسهب في الرسائل وأطال التحميدات في أوّلها، وسلك طريقه مَنْ أتى بعده.

الكُتّاب

كُتّاب هذا العصر كثيرون، فقد كان الخلفاء والأمراء والقوّاد كلهم كتاباً بلغاء. ولما صارت الكتابة صناعة، تداولها كثير من الأعاجم وغيرهم. واشتهر من بين هؤلاء:

عبد الحميد بن يحيى الكاتب

هو عبد الحميد بن يحيى بن سعيد العامريّ الشامي شيخ الكتّاب الأوائل.

كان عبد الحميد في أوّل أمره معلّم صبيان، حتى فَطِن له مَرْوان بن محمد أيام توليتهِ أرْمينية فكتب له مدة ولايته. حتى إذا بلغه مبايعة أهل الشام له بالخلافة سجد مروان لله شكراً وسجد أصحابه إلاّ عبد الحميد، فقال له مروان: لِمَ لا تسجد؟ فقال: ولِمَ أسجد؟ أعلى أن كنت معنا فطرْت عنّا؟ قال: إذاً، تطير معي. قال: الآن طاب لي السجود، وسجد. فاتخذه مروان كاتب دولته.

لما دَهِمتْ مروانَ جيوشُ خُراسان أنصارُ الدعوة العباسية وتوالت عليه الهزائم كان عبد الحميد يلازمه في كل هذه الشدة، فقال له مروان: قد احتجت أن تصيرَ مع عدويّ وتظهرَ الغدر بي، فإن إعجابهم بأدبك وحاجتهم إلى كتابتك يحُوجهُم إلى حسن الظن بك، فإن استطعت أن تنفعني في حياتي، وإلاّ لم تعجزْ عن حفظ حُرَمي بعد وفاتي. فقال له: إن الذي أشَرْت به عليَّ أنفعُ الأمرين لك وأقبحُهُما بي. وما عندي إلاّ الصبر حتى يَفتح الله عليك أو أُقْتَلَ معك وأنشد:

[الطويل]

أُسِرُّ وفاءً ثم أُظْهِرُ غَدْرة فَمَنْ لي بعذْرٍ يُوسع الناس ظاهرهُ

وبقي معه حتى قُتِل مروان سنة ١٣٢هـ، وأُخذ عبد الحميد إلى السفّاح فقتله سنة ١٣٢هـ.

منزلته في الكتابة:

هو الأستاذ الأول لأهل صناعة كتابة الرسائل. وذلك أنه أوّل من مهّد سبُلها، ومَيَّزَ فصولها، وأطالها في بعض الشؤون، وقصَّرها في بعضها الآخر، وأطال التّحميدات في صدرها، وجعل لها صوراً خاصّةً ببدئها، وختمها على حسب الأغراض التي تكتب فيها.

ويقال إنه لما ظهر أبو مسلم الخُرساني بدعوة بني العباس، كتب إليه عن مروان كتاباً يستجلبه به، وضمَّنه ما لو قُرِئ لأدَّى إلى وقوع الخلاف والفَشَل، وقال لمروان: قد كتبت كتاباً متى قرأه بطلَ تدبيره، فإن يكُ ذلك وإلاّ فالهلاك. وكان الكتابُ لكبر حجمه يُحمل على جَمَل. فلما وصل الكتاب إلى داهية خراسان أبي مسلم أمر بإحراقه قبل أن يقرأه، وكتب على جُذاذة منه إلى مروان:

[الطويل]

محا السيف أسطارَ البلاغةِ وانْتحَى عليك ليوثُ الغاب من كلّ جانب

(٢) التّدوين والتّصنيف

انقضى زمن الخلفاء الراشدين ولم يدَوّن فيه كتاب إلا ما كان من أمر كتابة المصحف. وكان مرجعُ الناس في أمر دينهم ودُنياهم كتابَ الله تعالى وسنة رسوله. فإذا اشتبه عليهم أمر من أمور الدين رجعوا إلى الخلفاء وفقهاء الصحابة.

ثم لما انتشر الإسلام زمن بَني أميّة واختلطت العرب ففسدت فيهم ملكة اللسان العربي، وفشا اللحنُ وأشفقوا على القرآن من التحريف وعلى اللغة من الفساد، دوَّنوا النحو. وكان أوّلَ مَنْ كتب فيه أبو الأسود الدؤلي وقد تلقى مبادئه عن الإمام عليّ، وأخذ عنه فِتيانُ البَصرة، وخصوصاً الموالي، إذ كانوا أحوجَ الناس إلى النحو، واشتغل أهل الكوفة به بعد أن فشا بالبصرة، ولم ينقض هذا العصرُ حتى اشتغل به طبقتان من البَصريين وطبقة من الكوفيين.

ثم لما حدثت الفتَن، وتعدّدَت المذاهب والنّحل، وكثرت الفتاوى والرجوعُ فيها إلى الرؤساء، ومات أكثر الصحابة، خافوا أن يعتمد الناسُ على رؤسائهم ويتركوا سنة رسول الله، فأذِن أمير المؤمنين عُمر بن عبد العزيز لأبي بكر محمد بن عمرو بن

حَزْم في تدوين الحديث. وانقضى هذا العصر ولم يدَوّن فيه من علوم اللغة والدين غير النحو وبعض الحديث وبعض التفسير.

أما العلوم الأخرى فيُرْوَى أن خالد بن يزيد بن معاوية حُبّبَ إليه مُطالَعَة كتب الأوائل من اليونان فتُرجمت لَه ونبغَ فيها ووضع كُتباً في الطب والكيمياء، وأن معاوية استقدم عُبيد بن شَرْية من صنعاء فكتب له كتاب «**الملوك وأخبار الماضين**»، وأن وهب بن مُنَبّه الزُّهْري وموسى بن عُقْبة كتبا في ذلك أيضاً كُتباً، وأن زياد ابن أبيه وضع لابنه كتاباً في مثالب قبائل العرب، وأن ماسَرْجَويْه مُتَطبّب البصرة تولى في الدولة المرْوانية ترجمة كتاب أهْرُون بن أعين من السريانية إلى العربية، وأن يُونُس الكاتب بن سليمان ألّفَ كتاباً في الأغاني ونِسْبتِها إلى من غَنّى فيها، ولم يبلغ التصنيف شأواً يذكر.

الشعر والشعراء في هذا العصر

جاء النبي الكريم، والشعر ديوان العرب، فأتاهم بالأمر العظيم والحادث الخطير، حاملاً بإحدى يديهِ القرآن يدعو الناس إلى توحيد الله والتمسك بالفضيلة، وشاهراً بالأُخرى سيفَ الحق لحماية هذه الدعوة وما كان أشدَّ ذهولَهم لخطبهما وانزعاجَهم من وقعهما! فهَبُّوا يَتَحَسَّسُونَ الأوّل ويتَمرَّسُون أساليبه ومعانيه، ويَتَفَرّسُون ألفاظه ومغَازيه، ما بين مُعاند يتلمّس مطعناً فيه، ومؤمنٍ يَسْتبينه ويستهديه، وتأهّبوا للثاني: ما بين ضال يُنَاوئه، ومهتد يُعاضده، فصار ذلك صارفاً لهم عن التشاغل بالشعر محوّلاً مَجْرَى أفكار المؤمنين منهم عن أكثرَ فنونه المنحرفة عن سَنَنَ الشّرف والحق. وبغَّض إليهم تلك الفنونَ المرذولة إزراءُ القرآن على الشعر بقوله: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾[1] ولهذا لم يَكُفَّ شعراءُ المسلمين عن قوله فيما يُطابق روحَ القرآن.

(١) الشعراء: ٢٢٤-٢٢٧.

ولبث الحال على ذلك مدّة حياة النّبي الكريم، حتى إذا ما ثاروا لإسكان فتن أهل الردّة وفتح الممالك والأمصار، أضافوا إلى ما ألفوه من أغراض الشعر الإكثارَ من التّباهي بالنصر، ووصفَ المعارك، وأحوالَ الحصار وآلاتِ القتال.

ولما آل الأمر إلى بني أُمية وشَغَبَ عليهم كثير من فِرَق المسلمين أصبح الشعر لساناً يعبّر عن مقاصد كل حزب، حتى أصبح حِرفة عتيدة، وصناعة جديدة ومورد ثروة، وأصبحت دراسته ونقده وروايته دَأبَ العلماء والأدباء حتى الخلفاء وأولياء عهودهم. ويمكن وصف ما كان عليه الشعر في هذا العصر من حيث أغراضه ومعانيه وتصوّراته وعباراته بما يأتي:

أغراض الشعر وفنونه

(١) نشر عقائد الدين وحِكمه ووصاياه والحث على اتّباعه، وخاصّةً زمن النبي ﷺ وخلفائه الراشدين.

(٢) التحريض على القتال ووصفه والترغيبُ في نيل الشهادة رفعاً لكلمة الله، وذلك في أزمان غزوات النبي وحصار المدن وفتحها.

(٣) الهجاء: وكان أوّلاً في سبيل الدفاع عن الإسلام بهجو مشركي العرب بما لا يخرج عن حدّ المروءة، وبما رضيه النبي من حسان شاعره في هجاء قريش وعشيرة النبي من بني عبد مَناف. وكان يتحرَّج عنه المسلمون ولو بالتعريض زمن النبي وخلفائه. ولذلك عاقب عمرُ أمير المؤمنين الحُطَيئة وهدّده بقطع لسانه لنيله من بعض المسلمين. ثم صار يتساهل في خَطْبه حتى كان الهجاء غاية براعة الشاعر وإن لم يصل في الإقْذاع والفُحش إلى الحدّ الذي وصل إليه في العصر الآتي. ومن ذلك التهاجي المشهور بين جرير والفرزدق والأخطل.

(٤) المَدحُ: وقلَّما كان مبدأ الإسلام في غير النبي من حيث الاهتداء بهديه، ونشر الحق على يديه. وكان خلفاؤه يأنفون مدحَهم بما تُزهَى بِهِ نفوسهم تواضُعاً.

ثم استرسل الشعراء فيه، وقَبِل ذلك منهم الخلفاء إلى أن كان المدح من أهم الدعائم لتوطيد أركان الدولة وتفخيم مقام الخلفاء والوُلاة والإشادة بعظمتهم.

معانيه وأخيلته وألفاظه وأساليبه وأوزانه

لم يخرج شعراء هذا العصر في جملة تصوّرهم وتخيلهم عما ألفوه زمن الجاهلية وإن فاقُوهم كثيراً في ترتيب الفكر وتقريب المعنى إلى الأذهان والوِجدان، بما هذّب نفوسهم ورقّق طباعهم من دراسة كتاب الله وحديث رسول الله. وكذلك لم يَخْرُجوا جملة في هيئة تأليف اللفظ ونسجه ومتانة أسلوبه عن نظائرها في الجاهلية. وإنما آثروا جَزَالة اللفظ وفخامته ومؤالَفته لسابقه ولاحقه دون غرابته، كما آثروا جودة الأسلوب ومتانَته وروعة تأثيره ولاسيما أهل النّسيب. ولم يطرأ على أوزان الشعر العربي حَدَثٌ غيرُ ما عُرِف عنهُ في الجاهلية، وإنما شاع في هذا العصر نظم الأراجيز والتطويل فيها، واستعمالُها في جميع أغراض القصيد، حَتَّى في افتتاحها بالنسيب والتخلص منه إلى المدح والذم ونحو ذلك.

الشّعراء

شعراء هذا العصر ممن خَلَصت عربيتهم واستقامت ألسنتهم ولم يمتدّ إليهم اللحن. ولقد زادتهم مُدارسة القرآن الكريم فصاحةً وبلاغة وإحكاماً وإتقاناً حتى فضّلهم بعض الرّواة على سابقيهم من الجاهليين.

ومن أشهر شعراء هذا العصر: كعب بن زُهير، والخَنساء، والحُطَيئة، وحسان بن ثابت، والنابغة الجَعْدِي، وعمرو بن معد يكرب من المخضرمين[1] وعُمر بن أبي ربيعة، والأخطل، والفرزدق، وجَرير، والكُمَيت، وجَميل، وكُثَيِّر، ونصيب، والراعي، وذو الرُّمة من الإسلاميين.

(١) كعب بن زُهير

هو كَعب بن زُهير بن أبي سُلْمى أحد فحول المخضرمين ومادح النبي الأمين. ولمّا ظهر الإسلام ذهب أخوه بُجَيْر إلى رسول الله ﷺ فغضب كعب لإسلامه

(١) المخضرم من الشعراء: من عاش في الجاهليّة وأدرك الإسلام.

وهجاه وهجا رسول الله وأصحابه. فتوعده النبي ﷺ وأهدر دمه، فحذّره أخوه العاقبة إلاّ أن يجيء إلى النبي مسلماً تائباً. فهام كعب يترامى على القبائل أن تُجيرَه فلم يُجرْهُ أحد. فلما ضاقت الأرض في وجهه جاء أبا بكر رضي الله عنه بالمدينة وتوسّل به إلى الرسول فأقبل به عليه وآمن، وأنشده قصيدته المشهورة:

[البسيط]

بانَتْ سُعادُ فقلبي اليوم متبولُ مُتيّم إثرَها لم يُفْدَ مكبولُ

فخلع عليه النبي بُردته فبقيت في أهل بيته حتى باعوها لمعاوية بعشرين ألف درهم. ثم بيعت للمنصور العباسي بأربعين ألفاً. ومات سنة ٢٤هـ.

شعره: كان كعب من الشعراء المجيدين المشهورين بالسَّبق وعُلو الكعب في الشعر، وكان خلَف الأحمر أحدُ علماء الشعر يقولُ: لولا قصائدُ لزهير ما فضلته على ابنه كعب، وكفاه فضلاً أن الحُطيئة مع ذائع شهرته رجاه أن يُنَوّه به في شعره فقال:

[الطويل]

فمن للقوافي شَانَها من يَحُوكُها إذا ما مضى كعب وفَوَّزَ جَرْوَلُ

ومن شعره قوله:

[البسيط]

لو كنت أعْجَبُ من شيء لأعجبني سعيُ الفَتى وهو مخبوءٌ له القدَرُ
يسعى الفَتَى لأمور ليس يُدْرِكُها والنفسُ واحدة والهمُّ منتشرُ
فالمرءُ ما عاش ممدودٌ له أمَلٌ لا ينتهي العمرُ حتى ينتهي الأَثرُ

ومن شعره قوله أيضاً:

إن كنتَ لا ترهَب ذَمّي لما تعرف من صفحي عن الجاهلِ
فاخشَ سكوتي إذ أنا مُنْصِتٌ فيك لِمَسْمُوع خنا القائلِ
فالسّامع الذَّمّ شريكٌ له ومطعِمُ المأكول كالآكلِ
مقالةُ السُّوء إلى أهلها أسرعُ من مُنحدِر سائلِ
ومَنْ دعا الناس إلى ذَمّه ذَمُّوه بالحقِّ وبالباطلِ

ومن شعره أيضاً قصيدته «بانت سُعاد» المشهورة، وهي:

[البسيط]

بانتْ سعادُ فقلبي اليومَ متبولُ مُتيمٌ إثرَها لم يُفدَ مكبولُ[١]
وما سُعادُ غداةَ البَيْن إذ برزت إلا أغنّ غضيض الطرْف مكحول[٢]
تجلو عوارض ذي ظلم إذا ابتسمت كأنه مَنهلٌ بالراحِ معلول[٣]
شُجَّت بذي شيم من ماء مَحنيةٍ صافٍ بأبطح أضحى وهو مشمول[٤]
تنفي الرّياحُ القذى عنه وأفرطه من صوب غاديةٍ بيضُ يعاليل[٥]
ويلُ أمها خُلة لو أنها صَدَقَتْ بوَعْدها وَلَوَ أنَّ النصحَ مقبول[٦]
لكنها خُلَّةٌ قد سيطَ من دمها فجعٌ وولعٌ وإخلافٌ وتبديل[٧]
فما تقومُ على حال تكون بها كما تلوَّنُ في أثوابها الغول[٨]
ولا تُمسكُ بالعهدِ الذي زعمَت إلا كما يُمسِكُ الماء الغرابيل
كانت مواعيدُ عُرقوب لها مثلاً وما مواعيدهُ إلا الأباطيل[٩]
أرجو وآمُل أن تدنو مودتّها وما إخالُ لدينا منكِ تنويل
فلا يَغرنَّك ما منّت وما وَعَدَتْ إن الأمانيَ والأحلامَ تضليل

(١) بانت: فارقت. المتبول: الذي أسقمه الحب. مكبول: مقيّد.
(٢) الأغن الذي في صوته غنة، وهي صوت محبوب. غضيض الطرف: أي في طرفها كسر وفتور.
(٣) تجلو: تكشف. والمراد بالعوارض هنا الأسنان. ذي ظلم: أي ثغر ذي ظلم، والظلم: ماء الأسنان وبريقها. معلول: مسقى بالخمر مرة بعد أخرى.
(٤) شجت: مزجت بالماء لتذهب سورتها. بذي شيم: بماء ذي شيم، والشّيم: البرد. والمحنيّة: منعطف الوادي لأن ماءها يكون أصفى وأرق. الأبطح: مسيل فيه دقائق الحصى. المشمول: الذي ضربته ريح الشّمال حتى برد.
(٥) القذى: ما يسقط في الماء. أفرطه: ملأه.
(٦) ويل أمها في رواية ابن هشام أكرم بها، والخلة هنا الصّديقة.
(٧) سيط من ساط الماء ونحوه يسوطه: خلطه بغيره. الفجع: الإصابة بالمكروه. الولع: الكذب.
(٨) الغول: من خرافات العرب يزعمون أنها تتراءى لهم في الفلوات تتلون لهم وتضلهم عن الطريق.
(٩) عرقوب: يضرب به المثل في خلف الوعد؛ قيل إنه وعد أخاً له ثمر نخلة؛ وقال: ائتني إذا أطلع النّخل فلمّا أطلع قال: إذا أبلح، فلمّا أبلح قال: إذا أزهى؛ فلمّا أزهى قال: إذا أرطب، فلمّا أرطب قال: إذا صار تمراً، فلمّا صار تمراً جذّه من الليل ولم يعطه شيئاً.

أمست سُعادُ بأرض لا يُبلِّغها ... إلا العِتاقُ النَّجيباتُ المراسيل[١]

نبئتُ أنَّ رسولَ الله أوعدَني ... والعفوُ عند رسول الله مأمول[٢]

مهلاً هداك الذي أعطاكَ نافلة الـ ... ـقرآن فيها مواعيظٌ وتفصيلُ[٣]

لا تأخُذَنِّي بأقوال الوُشاة، ولم ... أُذنِب، ولو كثرت فيّ الأقاويل

لقد أقومُ مقاماً لو يَقومُ به ... يرى ويسمعُ ما قد أسمعُ الفيل[٤]

لَظَلَّ تُرعَدُ من وَجْدٍ بوادره ... إن لم يكن من رسول الله تنويل[٥]

ما زلتُ أَقتطعُ البيداء مدّرِعاً ... جُنحَ الظلام وثوبُ الليل مسبول[٦]

حتى وضَعتُ يميني ما أُنازعها ... في كفِّ ذي نَقَمات قوله القيل[٧]

فَلَهْوَ أخْوفُ عندي إذا أكلِّمُهُ ... وقيل، إنك منسوبٌ وَمَسؤُولُ[٨]

مِنْ ضَيْغَم بضَراء الأرض مخدرُهُ ... في بطن عَثَّر غيلٌ دونه غيل[٩]

يَعدو فيُلحَم ضِرْغامَين عيشُهما ... لحمٌ من الناس معفورٌ خراديل[١٠]

إذا يَساورُ قِرناً لا يحلُّ له ... أن يترك القِرن إلا وهو مغلول[١١]

---

(١) العتاق: الإبل أو الخيل الكريمة. النّجيبات: السّريعات. المراسيل: جمع مرسال وهو السّريع.

(٢) أوعد: هدّد.

(٣) نافلة: عطيّة. التّفصيل: التّبيين.

(٤) أي لقد شهدت برؤيّة الرّسول ﷺ مشهداً عظيم الهيبة لو شهده الفيل أو سمع الفيل ما يدور به من الحديث لظل يرعد.

(٥) لظل يرعد: جواب لو في البيت السّابق. والبوادر: جمع بادرة، وهي ههنا بين المنكب والعنق.

(٦) ادّرع الظلام: لبسه كأنه درع.

(٧) ما أنازعها: أي لا أجاذبها. القيل: القول المحب.

(٨) أخوف: أي أعظم سبب للخوف. منسوب: مسؤول عن نسبك.

(٩) من ضيغم: متعلق بأخوف في البيت السّابق. ضراء الأرض: المستوية الّتي تأويها السّباع وبها نبذ من الشّجر. المخدر: مكان إقامة الأسد. بطن عثر: مأسدة؛ أي مخدرة غيل من بطن عثر دونه غيل، والغيل: الأجمة. يصفه بالمنعة والتّوحش.

(١٠) يلحم: يطعم اللحم. معفور: ملقى في التّراب. الخراديل: القطع.

(١١) يساور: يواثب. القرن: المماثل. لا يحل: لا يسوغ. الغلول: المقيد.

منه تظلُّ حمير الجوّ نافرةً ولا تمشّى بواديه الأراجيل[١]
ولا يزالُ بواديه أخو ثِقةٍ مُضرَّجُ البَزِّ والدّرسين مأكول[٢]
إن الرسولَ لنورٌ يُسْتضاءُ به مهنّدٌ من سيوفِ الله مسلول
في عُصْبةٍ من قريش قال قائلهم ببطن مكة لما أسلموا: زولوا[٣]
زالوا فما زال أنكاسٌ ولا كشفٌ عند اللقاء ولا ميلٌ معازيل[٤]
يمشونَ مشيَ الجمال الزُّهْرِ يعصمهُمْ ضربٌ إذا عَرَّد السودُ التنابيل[٥]
شمُّ العَرانينِ أبطال لبوسهُمُ من نسج داودَ في الهَيجا سرابيل[٦]
بِيضٌ سوابغُ قد شَكّت لها حَلق كأنها حلقُ القَعفاء مجدول[٧]
ليسوا مفاريحَ إن نالت رماحُهُمُ قوماً، وليسوا مجازيعاً إذا نيلوا[٨]
لا يقطعُ الطعنُ إلا في نحورِهمُ وليس لهم عن حياض الموت تهليل[٩]

(٢) عمرو بن معد يكرب الزُّبيدي

هو أبو ثور عمرو بن معد يكرب الزبيدي المذحجي، فارس اليمانين، وأحد الشعراء المعمَّرين، والخطباء الموفَدين.

منشؤه وصِفاته: نشأ عمرو بين قومه مُحمقاً أكولاً، لا يؤمَّلُ منه خير، ولا تُلحظ فيه سيادة، على ضخامة في جثة، وجهارة في صوتٍ، حتى بلغ زبيداً أن

---

(١) الجو: البر الواسع. الأراجيل: جمع رجيل؛ وهو الرّاجل غير الرّاكب.
(٢) البز: الثياب. الدرس: الثوب الخلق. أي: أن بوادي هذا الأسد تجد شجاعاً كان يثق بنفسه فافترسه وأصبحت ثيابه خلقة ممزقة.
(٣) زولوا: انتقلوا من مكة إلى المدينة.
(٤) النكس: الضعيف. الكشف: جمع أكشف وهو من لا ترس له. الميل: جمع أميل وهو من لا سيف له أو من لا يحسن الرّكوب. المعازيل: جمع معزول وهو من لا سلاح له.
(٥) الزهر: البيض، عرّد: فرّ وأعرض. التّنابيل: القصار.
(٦) شم العرانين: شم الأنوف؛ أي: أعزة. اللبوس والسّرابيل: الدروع أي: لباسهم دروع من نسج داود.
(٧) بيض: صفة للسرابيل. السّوابغ: الطوال. القعفاء: نبات ينبسط على الأرض يشبه حلق الدروع.
(٨) المفاريح: جمع مفراح، الشّديد الفرح. المجازيع: جمع مجزاع، الشّديد الحزن.
(٩) التّهليل: الجبن والفرار.

خثعمَ ستُنّ الغارة عليهم، فتأهّبوا، ودخل عمرو على أُخته، فقال: أشبعيني إن غداً الكتيبة، فأخبرت أباه، فقال: سَلي هذا المائق ما يُشبعه، فأكل عنزاً بثلاثة آصع ذُرة. وأتتهم خثعَم فتلبد حتى رأى لواءَ أبيه مال وانهزمت زُبيد، فثار وكرَّ على خثعم، وتراجع إليه قومه فهزموا الأعداء؛ فأصبح يُسمى فارس زُبيد بعد أن كان يُسمى مائق زبيد، واشتهرَ بالشجاعة حتى هابته أبطال العرب وضُرِب به المثل في الشجاعة، وفي ذلك يقول أبو تمام:

[الكامل]

إقدام عمرو، في سماحةِ حاتم في حلم أحنَفَ، في ذكاء إياسِ

وفي شجاعته يقول عن نفسه: وسِرْت بظعينة وحدي على مياه مَعدّ كلها ما خِفت أن أُغلبَ عليها ما لم يَلقَني حُرَّاها أو عَبداها؛ فأما الحُرّان: فعامر بن الطفيْل، وعُيينة بن الحارث بن شِهاب، وأما العَبْدان: فأسْود بني عَبس ـ يعني عَنترة ـ والسُّليك بن السُّلكة، وكلهم قد لقيت.

ولما فشا الإسلام في قبائل العرب، وفد مع قومه على رسول الله ﷺ فأسلم ثم رَجع إلى قومه، ولما مصِّرت الكوفة أقام بها حتى كانت وقعة نَهاوَند فحضرها تحت لواء النعمان بن مُقرَّن، ومات بها سنة إحدى وعشرين.

ويُعَدّ عمرو من الشعراء المخضرمين، ويأتي شعره في الطبقة الثانية من الجودة ويَغلب عليه وصف الوقائع والتحدث عن نفسه بالشجاعة، وهو أحد الخطباء الذين أوفدهم النعمان على كِسرى.

ومن شعره قوله في صدق عن نفسه في الحرب:

[الطويل]

ولما رأيتُ الخيلَ زُوراً كأنها جداول زَرع أُرْسِلت فاسبطرَّتِ
فجاشت إليّ النفسُ أوّل مرة فرُدت على مكروهها فاستقرّتِ
علام تقولُ الرُّمْحُ يثقلُ عاتقي إذا أنا لم أطعنْ إذا الخيلُ كَرّتِ

ومن شعره قوله أيضاً:

[الوافر]

أمِن رَيحانة الدّاعي السميعُ يؤَرِّقُني وأصحابي هُجوعُ

أشـــاب الـــرّأس أيـــامٌ طـــوالٌ وهـــمّ مـــا تَـضَـمـنَّـه الـضـلـوعُ
وسـوق كـتـيـبـةٍ دَلَـفـت لأخـرى كـأن نـهـارَهـا رأسٌ صـلـيـعُ
إذا لـم تـسْـتَـطـع شـيـئـاً فـدَعـه وجـاوزهُ إلـى مـا تَـسـتَـطـيـعُ
وصِـلـه بـالـزَّمـاع فـكـلّ أمـر سَـمـا لـك أو سـمـوت لـه ولـوعُ

(٣) الخنساء

هي السَّيدة تُمَاضِرُ الخَنْساء بنت عمرو بن الشَّرِيد السُلَمِيّة، أرقى شواعر العرب، وأحزن من بكى وندب.

كان أبوها عَمرو، وأخواها: معاوية وصخر، وكانت هي من أجمل نساء زمانها فخطبَها دُرَيد بن الصّمة فارس جُشَم، فرغبت عنه، وآثرت التزوّجَ في قومها فتزوجت منهم. وكانت تقول المُقطّعات من الشعر فلما قُتِل شقيقُها معاويةُ ثم أخوها لأبيها صخر، جزعت عليهما جَزَعاً شديداً، وبكتهما بكاءً مرّاً، وكان أشد وجدها على صخر، لأنه شاطرها هي وزوجها أموالها مراراً، ولمّا جاء الإسلام وَفدت مع قومها على النبي ﷺ وأسْلَمت، وكان يُعجِبُه شِعرُها ويَسْتَنْشِدُها ويقول: هِيهِ يا خُنَاسُ، ويُومِئ بيده.

وما فَتِئَتْ تبكي صخراً قبل الإسلام وبعده حتى عَمِيت. وبَقِيَتْ إلى أن شَهِدَت حربَ القادسية مع أولادها الأربعة. فأوصتهم وصيَتَها المشهورة، وحضَّتهم على الصبر عند الزحف فقُتِلوا جميعاً. فقالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم. ولم تحزن عليهم حزنها على أخويها. وتوفيت سنة ٢٤هـ.

شعرها: أغلب علماء الشعر على أنه لم تكن امرأةٌ قبلَ الخنساء ولا بعدها أشعَرَ منها. ومَنْ فَضَّلَ ليلى الأخيلية عليها لم ينكر أنها أرثى النساء. وكان بشارٌ يقول: لم تقل امرأة شعراً إلا ظهر الضعف فيه. فقيل له: وكذلك الخنساء؟ فقال: تلك التي غلبت الفحول.

ولم يكن شأنُها عند شعراء الجاهلية أقلّ منه عند شعراء الإسلام. فذلك النابغة الذبياني يقول لها وقد أنشدته بسوق عكاظ قصيدتها التي مطلعها:

[البسيط]

قـذًى بـعـيـنـيـك أم بـالـعـيـن عُـوّارُ أم ذَرَّفَتْ إذ خلت من أهلها الدارُ

لولا أن أبا بصير (يعني الأعشى) أنشدني قبلك لَقلتُ إنكِ أشعر مَن بالسوق.
وسئل جرير: مَنْ أشعر الناس؟ قال: أنا لولا الخنـاء، قيل: فبِم فضلتك؟ قال: بقولها:

[البسيط]

إن الزمان وما يَفنى له عَجَبٌ أبقى لنا ذَنَباً واسْتُؤْصِلَ الراسُ
إن الجَديدين في طول اختلافهما لا يَفسُدان ولكن يَفْسُد الناس

ومن جيد شعرها ترثي أخاها صخراً:

[المتقارب]

أعَيْنيّ جُودَا ولا تَجْمُدا ألاَ تَبكيان لصخر النَّدى
ألاَ تبكيان الجريء الجميل ألاَ تبكيان الفتى السّيدا
رفيعَ العماد طويل النّجَا د ساد عشيرتَه أمردا
إذا القوم مدّوا بأيديهمُ إلى المجد مدّ إليه يدا
فنال الذي فوق أيديهمُ من المجد ثم انتمى مُصْعِدا
يُحَمّله القومُ ما عالهم وإن كان أصغرَهم مولدا
وإن ذُكرَ المجد ألفيتَه تأزَّرَ بالمجد ثم ارتَدَى

ومن رائع قولها ترثيه أيضاً:

[الوافر]

ألا يا صخرَ إن أبكيتَ عيني فقد أضحَكْتَني زمناً طويلا
دفعتُ بك الخطوب وأنت حيٌّ فمَنْ ذا يَدفع الخَطْب الجليلا
إذا قَبُح البكاءُ على قتيلٍ رأيتُ بكاءَك الحَسَنَ الجميلا

ومن بديع قولها:

[الوافر]

يُذكرني طلوعُ الشمس صخراً وأذكره لكل غروب شمسِ
فلولا كثرةُ الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي

ولـكـن لا أزال أرى عَـجُـولا ونـائـحـة تـنـوح لـيـوم نـحـسِ
هـمـا كـلـتـاهـمـا تـبـكـي أخـاهـا عـشـيـةَ رِزْئـه أو غِـبّ أمـسِ
ومـا يَـبـكـيـن مـثـل أخـي ولـكـن أُسَـلّـي الـنـفـس عـنـه بـالـتـأسّـي
فـقـد ودّعـت يـوم فـراق صـخـر أبـي حـسّـانَ لَـذّاتـي وأُنـسـي
فـيـا لَـهْـفـي عـلـيـه ولَـهْـف أُمّـي أيـصْـبـح فـي الـضّـريـح وفـيـه يُـمـسـي

(٤) الحُطيئَة

هو أبو مُلَيكة جَرْوَلٌ الحُطيئة العبسيّ. نشأ كما قال الأصمعي جَشِعاً، سؤولاً، مُلْحفاً، دنيء النفس، كثير الشر، قليل الخير، بخيلاً، قبيح المنظر، رثّ الهيئة، مغمور النسب، فاسد الدين.

وعاش الحطيئة مدّة في الجاهلية وجاء الإسلام فأسلم، ولم يكن له صحبة برسول الله ﷺ. ثم عاش متنقّلاً في القبائل يمدح هذه تارة ويذم تلك أخرى، وينتسب إلى عبس طوراً وطوراً إلى ذُهْل، ويهجو اليوم مَنْ يمدحه بالأمس، وكل قبيلة تخطب وُدّه وتتّقي شرّ لسانه. حتى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حبس الحطيئة فما زال يستشفع إليه بالناس وقول الشعر حتى أطلقه وهدّده بقطع لسانه إن هجا أحداً، واشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم. ولكنه نكث وأوغل في الهجاء بعد موت عُمر، وبقي كذلك حتى مات أوائل خلافة معاوية سنة ٥٩هـ.

شعره: لولا ما وُصِم به الحُطيئة من خِسَّة النفس ودناءة الخُلق وجهالة النسب لَكان بإجادته في كل ضرب من ضروب الشعر شاعرَ المخضرمين على الإطلاق. إلاّ أنه لم يقف ببراعته وفصاحته موقفاً لله ولا للشرف. وقلَّما يُوجد في كلام الحطيئة مظنّة ضعف أو مغمَز لغامز من ركاكة لفظ، أو غضاضة معنى، أو اضطراب قافية. ومن مدحه الذي لا يُلحق له فيه غبار قوله:

[الطويل]

يـسـوسُـون أحـلامـاً بـعـيـداً أنَـاتُـهـا وإن غَـضِـبـوا جـاءَ الـحـفـيـظـة والـجَـدُّ
أقِـلـوا عـلـيـهـم لا أبـا لأبـيـكُـم من اللّوم أو سُدُّوا المكان الذي سَدُّوا
أولـئـك قـوم إن بـنَـوْا أحـسـنـوا الـبِـنـا وإن عـاهـدوا أوفَـوْا وإن عـقـدوا شـدُّوا

وإن كانت النعماء فيهم جزَوْا بها وإن أنعموا لا كدّروها ولا كدُّوا
مَطاعينُ في الهيجا مكاشيفُ للدُّجى بنى لهُم آباؤهم وبنى الجدُّ
ويَعْذلني أبناءُ سعد عليهم وما قلت إلا بالذي علمَتْ سعدُ

ومن أبياته التي استعطف بها أمير المؤمنين عمر وهو في سجنه قوله:

[البسيط]

ماذا تقول لأفراخٍ بذي مرَخٍ زُغْبِ الحواصل لا ماءٌ ولا شجرُ
ألقيتَ كاسبَهم في قعرِ مُظْلمة فاغفِرْ عليك سلام الله يا عمرُ
أنت الأمينُ الذي من بعد صاحبِهِ ألقى إليكَ مقاليدَ النُّهى البشرُ
لم يُؤثروك بها إذْ قَدَّموك لها لكنْ لأنفسهم كانت بك الخِيَرُ

(٥) حسَّان بن ثابت

هو أبو الوليد حسان بن ثابت الأنصاري شاعرُ رسول الله ﷺ وأشعر شعراء المخضرمين. وهو من بني النجار من أهل المدينة، نشأ في الجاهلية ونَبُه شأنه فيها، ولما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة وأسلم الأنصار، أسلم معهم ودافع عنهُ بلسانه كما دافع عنه قومهُ الأنصارُ بسيوفهم.

وعاش حسان بعد رسول الله مُحَبَّباً إلى خلفائه مرضيّاً عنه وعُمّر قريباً من ١٢٠سنة، وبقي أكثر حياته ممتَّعاً بحوَاسه وعقله. حتى وهن جسمه في أواخر عمره وكُفَّ بصره، ومات في خلافة معاوية سنة ٥٤هـ.

شعره: كان حسان شاعر أهل المدَر في الجاهلية وشاعر اليمانية في الإسلام ولم يكن في أصحاب رسول الله ﷺ ولا في أعدائه عند دعوته إلى الله أشعرُ منه، ولذلك رمى مشركي قريش من لسانه بالدَّاهية التي لم يكن لهم قِبلٌ بها فأوجعهم وأخرسهم من غير فُحْش ولا هُجْر. ولما أذِن له النبي في هجائهم قال له: كيف تهجوهم وأنا منهم؟ قال: أسلّك منهم كما تُسَلُّ الشّعرة من العجين. وكان رسول الله ﷺ يَنصِبُ له مِنبراً بالمسجد ويسمع هجاءَه في أعدائه ويقول: أجبْ عني، اللهمَّ أيّده برُوح القدس.

وكان في شعر حسان زمنَ الجاهلية شدّةٌ وغرابةُ لفظ، فلما أسلم وسمع القرآن ووعاه وكثُر ارتجاله الشعرَ، لانَ شعره وسَهُلَ أسلوبه. ومن شعره في الجاهلية:

ولقد تقلّدنا العشيرةُ أمرَها ونسودُ يومَ النائباتِ ونَعتلي
ويسودُ سيدُنا جَحاجحَ سادةً ويُصيبُ قائلُنا سَواء المفْصلِ
ونُحَاوِلُ الأمْرَ المهِمَّ خَطابةً فيهم ونَفصل كلَّ أمر مُعْضِلِ
وتزور أبوابَ الملوك ركابُنا ومتى نُحكَّمْ في البَريَّة نَعْدِلِ

ومن شعره في الإسلام يفاخر وفد تميم بقوم رسول الله ﷺ:

[البسيط]

إن الذوائبَ من فِهرٍ وإخوتِهم قد بيّنوا سُنَناً للناس تُتَّبَعُ
يَرضَى بها كلُّ مَنْ كانت سريرتُه تقوى الإله وبالأمر الذي شرعوا
قومٌ إذا حاربوا ضرُّوا عدوَّهُمُ أو حاولوا النفعَ في أشياعهم نفعوا
سجيةٌ تلك فيهمْ غيرُ مُحْدَثَةٍ إن الخلائق، فاعلَمْ، شرُّها البدَعُ
لا يَرْفَع الناسُ ما أوهَتْ أكفُّهُمُ عندَ الدّفاع ولا يُوهُون ما رَفَعوا
إن كان في الناس سَبَّاقُون بعدهُم فكل سَبْق لأدنى سَبْقهم تَبعُ
وعِفَّة ذُكرتْ في الوَحْيِ عِفّتُهُم لا يَطمَعون ولا يُزرِي بهم طمعُ
لا يفخَرون إذا نالوا عدُوَّهُم وإن أُصيبوا فلا خَوْرٌ ولا جَزَعُ

(٦) النابغة الجَعديّ

هو أبو ليلى حسّانُ بن عبد الله الجعديّ العامريّ، أحدُ القدماء المعمَّرين والشعراء المُخَضرَمين، ووُصّاف الخيل المشهورين.

قال الشعر في الجاهلية ثم استعصى عليه دهراً، ثم نبغ في الشعر عند ظهور الإسلام وبعده. ولذلك سُمّي النّابغة، وهو مِمَّن فكّر في الجاهلية، وأنكر الخمر وما تفعل بالعقل، وهجر الأزلام والأوثان، وذكر دين إبراهيم، وصام واستغفر، ووفد على رسول الله ﷺ.

وعاش طويلاً في الإسلام، فأقام زمناً مهاجراً حتى أيام عثمان رضي الله عنه، فأحسّ بضعف في نفسه، فاستأذنَ عثمانَ في الرجوع إلى البادية، فأذن له. ثم لما كانت خلافة عليّ شهد معه وقائع صِفّين، وظاهرَه بيده ولسانه، ونال من معاوية وبني أمية، ومات بأصبهان سنة ٥٨هـ بعد أن عمّر مائة وثمانين سنة.

شعره: كان النابغة الجعدي شاعراً مطبوعاً في الجاهلية والإسلام، وهو أوّل من سبق إلى الكناية في الشعر عن اسم من يَعْني إلى غيرها وتبعه الناس بعد، قال:

[الخفيف]

أكْنى بغير اسمها وقد علِم اللَّـ ـه خَفِيّات كلّ مُكْتَتَم

وكان مِمَّن يصفون الخيل فلا يُلحق له في ذلك غُبار، حتى ضرِب به المثل. قال الأصمعي: ثلاثة يصفون الخيل فلا يقاربهم أحد: طُفَيْل الغَنَوِيّ، وأبو داود الإيادي، والنابغة الجعدي. ولهُ في الفخر والهجاء والمديح والرثاء شعر كثير، ومن أشرفه قصيدته التي مدح بها الرسول الكريم وهي:

[الطويل]

خليليّ عُوجا ساعةً وتَهَجَّرا ونوحَا على ما أحدث الدهرُ أو ذرا
ولا تجزَعا إن الحياة ذميمةٌ فخِفَّا لرَوعات الحوادث أو قِرا
وإن جاء أمرٌ لا تطيقان دَفْعَهُ فلا تجْزعَا مما قضى الله واصبرا
ألم تريَا أن الملامة نفعُها قليلٌ إذا ما الشيءُ ولّى وأدبرا
تهيج البكاء والندامةَ ثم لا تغيّر شيئاً غير ما كان قُدّرَا
أتيتُ رسول الله إذ جاء بالهدى ويتلو كتاباً كالمَجَرَّة نيّرا
أقيمُ على التقوى وأرضى بفعلِها وكنتُ من النار المخوفة أحذرا

ومنها في الفخر:

وإنا لقوم ما تعوَّد خيلُنا إذا ما التقَيْنا أن تحيد وتَنْفِرا
وننكر يوم الرَّوع ألوان خيلِنا من الطعْنِ حتى نَحْسَب الجَون أشقرا
بلَغْنا السماء مجدُنا وجدودُنا وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا
ولا خير في حلم إذا لم تكن له بوادرُ تحمي صفْوَه أن يكدَّرا
ولا خير في جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمرَ أصدرا

ولما سمع رسول الله ﷺ (بلغنا السماء ـ البيت) قال لهُ: فأين المظهر يا أبا ليلى؟ قال: الجنة، يا رسول الله. قال لهُ: إن شاءَ الله. ولما أتم قصيدته، قال لهُ

الرسول: أجدتَ، لا يفضض الله فاك. فأتت عليه مائة سنة أو نحوها وما انفضّت من فيه سنٌّ.

(٧) عُمر بن ابي رَبيعَة

هو أبو الخطاب عُمر بن عبد الله بن أبي رَبيعةَ القرشي المخزُومي أشعر قريش وأرق أصحاب الغزل، وأوصف الشعراء لأحوال النساء.

وُلد بالمدينة ليلة مات عمر بن الخطاب رضوان الله عليه. وكانت أمُّه نصرانية. وكان أبوه تاجراً موسراً وعاملاً لرسول الله ﷺ وللخلفاء الثلاثة من بعده. فشبَّ في نعيم وتَرَف، وقال الشعر صغيراً وسلك فيه طريق الغزل، وَوَصف أحوال النساء وَتَزاوُرَهُن ومُدَاعَبة بعضهن لبعض. وتعرض للمُحْصنات المُتعفّفات من نساء قومه ومن غيرهن، فوقعن منه في بلاء عظيم، وصِرن يخفْن الخروج إلى الحج، لأنه كان يَتَلقّاهُنَّ بمكة ويترقّب خروجهنّ للطّواف والسّعي ويصفهنّ وهنّ مُحْرِمات. وحَلُمَتْ عليه رجالات قريش لمكانة نسبه منهم ولترقّب توبته وإقلاعه. فلما تمادى في أمره وشبّب ببنات السادات والخُلفاء، غضب عمر بن عبد العزيز ونفاه إلى جزيرة أمام مدينة مصوّع، ثم رأى أن يكفر عن سيئاته بالتّوبة والجهاد، فغزا في البحر فاحترقت السفينة التي كان فيها واحترق هو أيضاً سنة ٩٣هـ.

شعره: رقيق بلفظ رشيق ومعنى أنيق، حتى قال فيه جرير: هذا والله الذي أرادته الشعراء فأخطاته. وقد سلك في الغزل طريقاً لم يسلكوه. ومن قوله المشهور:

[الرمل]

ليت هنداً أنجزتنا ما تَعِدْ ... وشفت أنفسنا مما تَجِدْ

واستبدّت مرة واحدة ... إنما العاجز من لا يَستَبِدْ

زعموها سألتْ جاراتها ... وتعرَّت ذات يوم تَبْتَرِدْ[1]

أكما يَنعَتُني تُبصِرْنَني؟ ... عمركن الله! أم لا يقتصِد[2]

(١) تبترد: تصب الماء على رأسها.

(٢) ينعتني: يصفني. عمركن الله: اذكرن الله. يقتصد: يعتدل فلا يبالغ.

فتضاحكن، وقد قلن لها: حسنٌ في كلِّ عيْنٍ من توذْ[١]
حسداً حُمِّلنه من شأنها وقديماً كان في الناس الحسد
غادة تفترُّ عن أشنبها حين تجلوه أقاحٍ أو برد[٢]
ولها عينان في طرفيْهما حورٌ منها، وفي الجيد غَيد[٣]
قلت: من أنْتِ؟ فقالت: أنا من شَفَّهُ الوجدُ، وأبلاهُ الكمد[٤]
نحن أهل الخيفِ من أهل مِنىً ما لمقتول قتلناهُ قود[٥]
قلتُ: أهلاً! أنْتُمُ بُغيتنا فتمّين، فقالت: أنا هِنْد![٦]
إنما ضُلل قلبي فاحتوى صعْدةً في سابريٍّ تطّرِد[٧]
إنما أهْلك جيران لنا إنما نحنُ وهم شيءٌ أحد[٨]
حدثونا أنها لي نفثتْ عُقداً، يا حبذا تلك العُقد![٩]
كلما قلت: متى ميعادُنا؟ ضحكت هند، وقالت: بعد غد!

(٨) الأخْطَل

هو أبو مالك غِياثُ الأخطَلُ بن غَوْث التَّغْلبي النَّصراني، شاعرُ الأمويين وأمدح ثلاثةِ شعرائهم المقدّمين، والمتَفَرّد بوصف الخَمر دُون الإسلاميين. قال

---

(١) أي: أن من تحبه تعتقد أنه حسن لدى جميع النّاس.
(٢) الغادة: المرأة اللينة. تفتر: تظهر. الأشنب: الفم في أسنانه ماء ورقة وعذوبة. تجلوه: تكشفه. الأقاح: جمع أقحوان وهو البابونج البري من نبات الرّبيع له نور أبيض. البرد: ماء الغمام يسقط جامداً.
(٣) الحور: شدة سواد العين مع شدة بياض بياضها. الجيد: العنق. غيد: نعومة.
(٤) شفه الوجد: أهزله الحب. الكمد: الحزن الشّديد.
(٥) الخيف: ناحية من منى عند مكة. القود: القصاص.
(٦) بغيتنا: مطلبنا.
(٧) ضلل: صار ضالاً لا يهتدي. احتوى: اشتمل. الصّعدة: القناة تنبت مستقيمة لا تحتاج إلى مثقف، شبه محبوبته في اعتدال قدها بها. السّابري: الثوب الرّقيق الجيد. تطرد: تمشي مستقيمة.
(٨) شيء أحد: أي شيء واحد.
(٩) نفثت عقداً: سحرتني. والنّفث: النّفخ. والعقد: تكون من خيوط ينفث بها قصد السّحر.

الشعر وهو صبيّ وما لَبِث أن زاحَمَ شاعرَ تغلب وقتئذٍ «كَعْبَ بن جُعَيْل» وهاجاه وظهر عليه.

ولما طلب يزيدُ بن معاويةَ، قبل أن يَلي الخلافةَ، من كعب هجاءَ الأنصار لِتَعَرُّض عبد الرحمن بن حسان بن ثابت الأنصاري لأخته في شعره أبى عليه ذلك كعب. وقال: أأهْجو قوماً نصروا رسول الله ﷺ وآوَوْه؟ ولكنّي أَدُلُّك على الأخطل. فبعث إليه وأمره بهجائهم فهجاهُم بقصيدة منها:

[الكامل]

ذهبتْ قريش بالسَّمَاحة والنَّدَى والـلـؤْمُ تحت عَمائمِ الأنصارِ
فدعُوا المكارِمَ لستُمُ من أهلها وخذوا مَسَاحِيَكم بني النَّجّارِ

وبلغ الشعرُ كبارَ الأنصار فغضبوا، وشكَوْه إلى معاوية، فوعدهم بقطع لسانِهِ. فاستجار بيزيد، فما زال بأبيه حتى عفا عنه.

ولمَّا وَلِيَ يزيدُ الخلافةَ قرّبه إليه، وتابعه في ذلك خلفاء بني أُمية، وبخاصةٍ عبد الملك إذ كان يستعين به على أعدائه، فقرَّبه إليهِ وأدناه، وسمح له بالدخول عليه بلا إذن. وأجزل له العطايا وسماه شاعرَ الخليفة.

ولمّا حدثتِ المُهاجاةُ بين جرير والفرزدق وحُكّم فيهما أَيُّهما أشعرُ؟ عرض بتفضيل الفرزدق، فهجاه جرير، فردّ عليه الأخطل، وكانت الشيخوخة قد بلغت منه فلم يلحق جريراً.

وكان الأخطل يقيم أزماناً بدمشق وأحياناً ببلاده من أرض الجزيرة، ومات سنة ٩٥هـ وقد نَيَّف على السبعين.

شعره: كان الأخطل أحد الشعراء الثلاثة السابقين سواهم من فُحول الإسلاميين وكان مطبوعاً على الشعر بعيداً عن التكلُّف والتعمُّق فيه وامتاز بإجادته المديح والإبداع في معانيه. قال يمدح بني أمية ويخص بشر بن مروان:

[البسيط]

إن يحلمُوا عنك فالأحلام شيمتهم والموتُ ساعة يحمَى منهُمُ الغضبُ
كأنهم عند ذاكم ليس بينَهمُ وبين من حاربوا قُرْبى ولا نَسبُ

كانوا مَوالِيَ حقّ يطلبون به فأدركوه وما مَلُّوا ولا لَغَبوا
إن يك للحق أسباب يُمُدّ بها ففي أكفهم الأرسان والسّببُ
هُم سَعوْا بابن عفان الإمام وهم بعد الشّمَاس مروها ثَمَّتَ احتَلَبُوا

ومنها:

إذا أتَيْتَ أبا مروان تَسْأَله وجدتَه حَاضِراهُ الجُودُ والحَسَبُ
ترى إليه رِفاقَ النّاس سائلة من كل أوْبٍ على أبوابه عُصَبُ
يَحْتَضِرُون سِجالاً من فواضله والخيرُ مُحتَضَرُ الأبواب مُنْتَهَبُ
والمُطْعِمُ الكرمَ لا يَنْفَكُّ يَعْقِرُها إذا تَلاَقى رِوَاقُ البَيْتِ واللّهَبُ
كأن جيرانَها في كلّ منزلةٍ قتلَى مجرّدة الأوصال تُسْتَلَبُ

ومن أفضل شعره قوله:

[الكامل]

والناس همُّهمُ الحياة ولا أرى طولَ الحياة يزيد غير خبَال
وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال

(٩) الفَرَزدق

هو أبو فِراس هَمَّام بن غالب التّميمي الدّارمي. أفخرُ ثلاثة الشعراء الأمويين وأجزل المقدّمين في الفخر والمدح والهجاء.

ولد سنة ١٩هـ ونشأ بالبصرة. وأتى به أبوه يوماً إلى أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه، فسأله عنه، فقال: هذا ابني يُوشِك أن يكون شاعراً مُجيداً. فقال له: أقْرِئْه القرآن. فأقرأه وحفِظه. ثم رَحَل إلى خلفاء بني أميةَ بالشام ومدحهم ونال جَوائزهم، وأخصُّ مَنْ كان يمدحه منهم عبد الملك بن مروان ثم أولادُهُ من بعده.

وكان الفرزدقُ فوق إقذَاعه في الهجو وفحْشه في السّباب وقذف المحصنات، يُرْمى بالفجور وقلّة التمسك بشعائر الدين، ثم تاب في أواخر شيخوخته على يد الحسن البصري.

وكان فيه تشيُّعٌ يَستره أيام اخْتلافه إلى بني أميّة، ثم كاشف به آخرَ حياته حتى أمامَ الخليفة هشامٍ عندما رأى الناس تفسح طريق الطواف بالكعبة مهابة وإجلالاً لعلي بن الحسين، فسأله عنه كالمُتجَاهل لأمره، فشق ذلك على الفرزدق وأنشد قصيدته الميمية الآتية يُعَرّفُ بعلي ويُنكِر على هشام تجاهلَه. فحَبَسَه هِشَامٌ ثم أطلقه. وعاش الفرزدق قريباً من مائة سنة ومات بالبصرة سنة ١١٠هـ.

شعره: يمتاز شعر الفرزدق بفخامة عبارته، وجزَالة لفظه، وكثرة غريبه ومُدَاخلة بعض ألفاظه في بعض، ولذلك يُعْجَب به أهل اللغة والنحو. وكان يُقال: لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث اللغة. ويعتبر الفرزدق من أفخر شعراء العرب وأشدّهم ولوعاً بتَعداد مآثر آبائه وأجداده.

ومن جيد شعره قوله يمدح زين العابدين علي بن الحسين:

[البسيط]

هذا الذي تَعرِفُ البطحاء وطأته ... والبيتُ يعرفُه والحلُّ والحرمُ
هذا ابن خير عبادِ الله كلّهم ... هذا التّقيُّ النّقيُّ الطّاهرُ العلَمُ
وليس قولُك مَنْ هذا بضائِرِهِ ... العُرْبُ تعرِفُ مَنْ أنكرتَ والعَجَمُ
إذا رأتْه قريشٌ قال قائلُها ... إلى مكارم هذا ينتهي الكرَمُ
يَنْمَى إلى ذُروةِ الدينِ التي قَصُرَتْ ... عن نيلها عَرَبُ الإسلامِ والعَجَمُ
يُغْضي حياءً ويُغْضَى من مَهابتِهِ ... فلا يُكَلَّم إلاَّ حينَ يَبْتَسِمُ
بكَفّهِ خَيزُرانٌ رِيحُها عَبِقٌ ... من كفّ أرْوَع في عِرْنينِهِ شمَمُ
يكادُ يُمْسِكه عرفانَ راحتِهِ ... ركنُ الحطيم إذا ما جاءَ يَسْتَلِمُ
ينشَقُّ ثوبُ الدُّجى عن نور غُرّتِهِ ... كالشمس تنجابُ عن إشْراقها الظُّلَمُ
مِن معشرٍ حبُّهم دينٌ وبُغضهُم ... كُفْرٌ وقربُهُمُ مَنْجًى ومُعْتَصَمُ
إن عُدّ أهْلُ التقَى كانوا أئمَّتَهم ... أو قيلَ مَنْ خيْرُ أهلِ الأرض قيل هُمُ

(١٠) جَرير

هو أبو حَزْرة جَرير بن عَطِيَّة بن الخَطَفَى التميمي اليَرْبوعي. أحدُ فُحول الشعراء الإسلاميين، وبُلغاء المدَّاحين الهجائين، وأنسب ثلاثتهم المُفلقين. وهو من بني يربوع أحد أحياء تميم. وُلد باليمامة سنة ٤٢هـ، ونشأ بالبادية، وفيها قال الشعر

ونبغ. وكان يَخْتَلِفُ إلى البصرة في طلب المِيرَةِ ومدحِ الكبراء، فرأى الفرزدقَ وما كسبَه الشعرُ من المنزلةِ عند الأمراء والوُلاةِ وهو تميمي مثلُهُ وودّ لو يسبِقُهُ إلى ما ناله وأغراه قومه به للتّنويه بشأنهم، فوقعت بينهما المُهاجاة عشرَ سنين كان أكثرُ إقامة جرير أثناءَها في البادية، وكان الفرزدقُ مقيماً بالبصرة يملأ عليه الدنيا هِجاء وسبًّا. فما زال به بنو يربوع حتى أقدموه البصرة واتصل بالحجاج ومدحه فأكرمه ورفع منزلته عنده، فعَظُم أمره وشرّق شعرُهُ وغرّب حتى بلغ الخليفة عبدَ الملك، فحسَد الحجاجَ عليه، فأوفده الحجاج مع ابنه محمد إلى الخليفة بدمشق، ومات باليمامة سنة ١١٠هـ.

وكان في جرير على هجائه للناس عفّةٌ ودِينٌ وحُسن خُلق ورِقَّة طبع.

شعره: اتفق علماء الأدب وأئمة نَقْد الشعر على أنه لم يوجد في الشعراء الذين نشؤوا في ملك الإسلام أبلغَ من جرير والفرزدق والأخطل. وإنما اختلفوا في أيُّهم أشعر، ولكلٍّ هَوًى ومَيْل في تقديم صاحبه. فمَنْ كان هَواه في رقَّة النَّسيب وجودة الغزل والتشبيب، وجمال اللفظ ولين الأسلوب والتصرف في أغراض شتّى، فضّل جريراً. ومَنْ مال إلى إجادة الفخر، وفخامة اللفظ، ودقة المسلك، وصلابة الشعر وقوة أسره، فضّل الفرزدق. ومَنْ نظر بعد بلاغة اللفظ، وحسن الصّوغ إلى إجادة المدح والإمعان في الهجاء، واستهواه وصف الخمر واجتماع الندمان عليها، حكم للأَخطل. وإن له في كل باب من الشعر أبياتاً سائرة هي الغاية التي يُضرب بها المثل فيقال إن أغزل شعر قالته العرب هو قوله:

[البسيط]

إن العيون التي في طَرْفها حوَر قَتلْننَا ثم لم يُحيينَ قَتلانا
يَصْرَعْن ذا اللُّبّ حتى لا حَراك به وهُنّ أضعفُ خلق الله إنسانا

وإن أمدح بيت قوله:

[الوافر]

ألستُمْ خيرَ من ركِب المطايَا وأنْدَى العالَمين بُطونَ راحِ

وإن أفخر بيت قوله:

[الوافر]

إذا غضبت عليك بنو تميم حسِبتَ الناس كلَّهُم غِضابا

وإن أهجى بيت مع التصوُّن عن الفحش قوله:

[الوافر]

فَغُضّ الطرفَ إنك من نُمَير فلا كَعباً بلغتَ ولا كِلابا

وإن أصدق بيت قوله:

[الكامل]

إني لأرجو منك خيراً عاجلاً والنفس مُولَعة بحُبّ العاجِل

وإن أشد بيت تهكماً قوله:

[الكامل]

زعمَ الفرزدَقُ أنْ سيقتُل مَرْبعاً أبْشِر بطُول سلاَمة يا مَرْبَعُ

ومن جيد شعره قوله من قصيدة يرثي بها امرأته وهي التي نُدِبت بها نَوَار امرأة الفرزدق:

[الكامل]

لولا الحياءُ لهاجَني استِعْبار ولزُرتُ قبرك والحبيبُ يُزَارُ
ولقد نظرت وما تمنع نظرةٌ في اللَّحد حيث تمكن الإحضارُ
ولَّهتِ قلبي إذ عَلَتْني كَبْرة وذوو التّمائم من بَنِيكِ صِغارُ
لا يَنْبتُ القرناءُ أن يتفرّقوا ليلٌ يكرّ عليهمُ ونهارُ
صلَّى الملائكةُ الذين تخيّروا والطيّبون عليكِ والأبرارُ
فلقد أراكِ كُسِيتِ أحسنَ مَنظَرٍ ومع الجمال سكينةٌ ووَقارُ

(١١) الكُميتُ

هو الشاعر الخطيب الرّاوية النسّابة أبو المُسْتهلّ الكُميتُ بن زَيْدٍ الأسَدي الكوفي، أشعرُ شعراء الشّيعة الهاشمية، ومُثير عصبيّة العدنانية على القحطانية.

ولد سنة ٦٠هـ ونشأ بالكوفة بين قومه بني أسد إحدى قبائل العرب الفصحاء من مضر، فلَقن العربية، وعرف الأدب والرواية، وعلم أنساب العرب وأيامها ومثالبها بمدارسة العلم والأخذ عن الأعراب. وكان له جدّتان أدركتا الجاهلية تقُصّان عليه

أخبارها وأشعار أهلها، فخرج أعلم أهل زمانه في ذلك، وأقرّ له حمادٌ الراوية بالسبق عليه.

وقال الكُميت الشعرَ وهو صغير، وكان لا يُذِيعه ولا يتكسّب به، ويكتفي بحرفته تعليم صبيان الكوفة بالمسجد، ولما حَصُف شعرُهُ وقوي أثرهُ، ولاسيما قصائِده التي أعلن فيها تَشَيُّعَه لبني هاشم وآل عليّ، أنشده الفرزدق مستنصحاً له في أمر إذاعته إذا أَعجبه، فأمره بإذاعته فقال قصائده البليغة المطولة المسماة «بالهاشميات» التي يقول فيها:

[الطويل]

طرِبتُ وما شوقاً إلى البِيض أطرَبُ ولا لَعباً منّي وذو الشيب يلعبُ
ولم يُلْهني دارٌ ولا رسمُ منزلٍ ولم يتطرّبْني بنَانٌ مُخَضَّبُ
ولا السانحاتُ البارحات عَشيّة أمَرَّ سليمُ القرن أم مرّ أعضبُ
ولكن إلى أهل الفضائل والنُّهَى وخير بني حوّاء والخيرُ يُطلَبُ
بني هاشمٍ رَهطِ النّبي فإنّني بِهِم ولهم أرضَى مراراً وأغضبُ
خفضتُ لهم منّي الجناحَ مودّةً إلى كَنَف عِطفاه أهلٌ ومرْحَبُ
وما لِيَ إلاّ آلَ أحمدَ شيعةٌ وما ليَ إلاّ مذهبَ الحقّ مذهبُ
بأيّ كتابٍ أم بأيَّةِ سُنَّةٍ يُرَى حبُّهم عاراً عليّ ويُحْسَبُ

شعره: لشعره من التأثير السّياسي والمذهبي أثر سيِّئ شتت شمل الوحدة العربيّة، وتوفي سنة ١٢٦ هـ.

الرّواية والرُّواة

ظهر الإسلام وعمدةُ العرب في ضبط علومهم وآدابهم على الحفظ والرّواية. فجاءهم من كتاب الله وسنة رسوله بالأمر الخطير، والعلم الكثير، فكانت عنايتهم بحفظها في الصدور أكثر من كتابتها في السطور.

ولما اتسع علم المسلمين بما أضيف إليهما من تفسير الصحابة والتابعين ومن أقوالهم في الدّين تَعدّدت طوائف الرّواة للقرآن والحديث وفنون الأدب.

وإذا كان الإنسان عرضةً للنسيان، وأحوال الناس تختلف في الصدق والكذب، تشدّد الصحابة والتابعون وتابعوهم في تصحيح الرّواية وشدّة التّوثق من صدق الرواة تحرُّجاً منهم أن يدخل في الدين ما ليس منه.

ولما خاف سيدنا عُمر بن عبد العزيز أن تموت السنّة الصَّحيحة بموت رُواتها وبما وضعه الزّنادقة والشّيعة والخوارج ودسُّوه فيها، أمر العلماء بتدوين الحديث، وبقي الأمر في الشّعر والأدب كما كان في الجاهلية: لكل شاعر راوٍ أو عدّة رواة. ومن أشهر هؤلاء هُدْبة بن خَشْرَم راوية الحطيئة، وجميل راوية هدبة، وكُثَيّر راوية جميل، وأبو شفقل وعبيد أخو ربيعة بن حنظلة راوية الفرزدق، ومربّع راوية جرير والفرزدق معاً، ومحمد بن سهل راوية الكُمَيت، وصالح بن سليمان راوية ذو الرُّمَّة، وذو الرُّمة راوية الراعي.

وبقي الأمر كذلك حتى أواخر هذا العصر، فاشتغل العلماء بالرواية وصار الرَّواي منهم يَروي لمئات من الشّعَراء والشواعر وإن لم يكن هو شاعراً. وأكثر هؤلاء العلماء من الرُّواة أدرَك عصرَ بني العباس فيذكر فيه. ومع تشدّد الناس في تصحيح الرواية سُنةً وأدباً حدث في الشعر والخطب كثير من التّصحيف والتّحريف والنّقص والزّيادة ونحو ذلك.

العصر الثالث: عصر الدولة العباسية[1] من ١٣٢-٦٥٦هـ

أحوال اللغة العربية وآدابها في ذلك العصر

كان بنو أمية شديدي التَّعصب للعرب والعربية، فكان كلُّ شيء في دولتهم عربيَّ الصّبغة. وكانت جَمْهرة العرب منتشرةً في كل مكان امتدَّ إليه سلطانُها، فلمّا قامت الدولةُ العباسية بدَعوتها، لم تجد لها من العرب أنصاراً وأعواناً مثل ما وجدت من الفرس وأُمم الأَعاجم، فاكتسحت بهم دولةَ بني أمية وأسست دولةً قويةً كان أكثرُ النفوذ فيها للموالي. فاستخدمهم الخلفاءُ والأمراءُ في كل شيء من سِقاية الماءِ إلى

(١) خلفاء بني العباس:
أبو العباس عبد الله السّفاح (١٣٢-١٣٦هـ).
أبو جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨هـ).
محمد المهدي (١٥٨-١٦٩هـ).
موسى الهادي (١٦٩-١٧٠هـ).
هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ).
محمد الأمين (١٩٣-١٩٨هـ).
عبد الله المأمون (١٩٨-٢١٨هـ).
أبو إسحاق محمد المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ).
أبو جعفر هارون الواثق (٢٢٧-٢٣٢هـ).
جعفر المتوكل على الله (٢٣٢-٢٤٧هـ).
محمد المنتصر (٢٤٧-٢٤٨هـ).
أبو العباس أحمد المستعين (٢٤٨-٢٥٢هـ).
أبو عبد الله المعتز (٢٥٢-٢٥٥هـ).
محمد المهتدي بالله (٢٥٥-٢٥٦هـ).
أحمد المعتمد على الله (٢٥٦-٢٧٩هـ).
أحمد المعتضد بالله (٢٧٩-٢٨٩هـ).
علي المكتفي بالله (٢٨٩-٢٩٥هـ).
جعفر المقتدر بالله (٢٩٥-٣٢٠هـ).
أبو منصور محمد القاهر (٣٢٠-٣٢٢هـ).
أبو العباس أحمد الراضي (٣٢٢-٣٢٩هـ).
إبراهيم المتقي لله (٣٢٩-٣٣٣هـ).
عبد الله المستكفي بالله (٣٣٣-٣٣٤هـ).
القاسم المطيع لله (٣٣٤-٣٦٣هـ).
أبو بكر الطائع لله (٣٦٣-٣٨١هـ).
أحمد القادر بالله (٣٨١-٤٢٢هـ).
عبد الله القائم بأمر الله (٤٢٢-٤٦٧هـ).
عبد الله المقتدي بأمر الله (٤٦٧-٤٨٧هـ).
أحمد المستظهر بالله (٤٨٧-٥١٢هـ).
فضل المسترشد بالله (٥١٢-٥٢٩هـ).
المنصور الراشد (٥٢٩-٥٣٠هـ).
محمد المقتفي لأمر الله (٥٣٠-٥٥٥هـ).
يوسف المستنجد بالله (٥٥٥-٥٦٦هـ).
حسن المستضيء بأمر الله (٥٦٦-٥٧٥هـ).
أحمد الناصر لدين الله (٥٧٥-٦٢٢هـ).
محمد الظاهر بأمر الله (٦٢٢-٦٢٣هـ).
منصور المستنصر بالله (٦٢٣-٦٤٠هـ).
عبد الله المستعصم بالله (٦٤٠-٦٥٦هـ).

قيادة الجيوش والوزارة. وابتدأ شأن العرب السياسيُّ يتضاءَلُ من ذلك الحين شيئاً فشيئاً، واختلطوا بالأعاجم، وكان من المجموع شعبٌ ممتزج لغةً وعادة وخُلقاً، فأثر ذلك في اللغة لفظاً ومعنى، وشعراً ونثراً كتابةً وتأليفاً.

ولم يظهر ذلك بالطبع في جميع الممالك بنسبة واحدة، بل كان في أواسط آسيا أظهر منه في مصر والشام أما حال ممالك الغرب والأندلس صدر هذا العصر، فلم يبعُدْ كثيراً عما كان عليه في العصر الماضي، ثم سَرَتْ إليها عَدوى تقليدها للمشارقة في أكثر الأمور.

ويمكن إرجاعُ جميع هذه التغيرات إلى ثلاثة أمور:

الأوّل: ما يتعلق بالأغراض التي تؤديها اللغة.

الثاني: ما يتعلق بالمعاني والأفكار.

الثالث: ما يتعلق بالألفاظ والأساليب.

أغراض اللغة

لما قامت الدولة العباسيّة وتشبَّه الخلفاءُ بملوك الفرس في أكثر أمور السياسة والمعيشة، وحاكتْهم العامةُ في ذلك بتقليد أمثالهم من طبقات الأعاجم، تناولت اللغة في المشرق أغراضاً لم تُعْهَد فيها من قبلُ بِنَقْل علوم تلك الأمم وآدابها وعاداتها وطُرق معيشتها. ثم تناولت هذه الأغراضَ في الغرب بعدئذٍ بفرق يسير فكان من تلك الأغراض ما يأتي:

(١) تدوين العلوم الشرعية واللسانية والعقلية ولم يُدَوّن في صدر الإسلام من ذلك إلا نَزر يسير، وكذا الترجمةُ من اللغات الأجنبية إلى العربية.

(٢) تأديةُ مقاصد الصناعات المختلفة، وخاصَّةً بعد دخول العرب في غِمار الصُّنَّاع وبعدَ تَغَرُّب الأعاجم.

(٣) تأديةُ المقاصد التي استدعاها الانغماسُ في التّرف بلذائذ الحضارة التي جرت فيها الأمم عصرَ الدولة العباسية إلى أمد بعيد، أو اقتضاها نظام الملك والدفاع عنه. كالإمعان في وصف الأشياءِ النفيسة مما لم يُعرف للعرب في صدر

الإسلام، أو عُرِفَ وكان قليلاً ممقوتاً صاحبُه، وكوصف البحر والأساطيل الحربية والمعارك البحرية. وامتاز بأكثرِ ذلك المغربُ والأندلسُ، كما امتازت الأندلسُ بالإجادة في وصف مناظر الطبيعة ومحاسن الوجود لملاءمة بيئَتِها لذلك، وكادت تلحق بها في الوصف صِقليّة وأفريقية إبّان ازدهارهما.

(٤) تأديةُ مقاصد أنواع الخلاعة والسُّخرية مما قلّ نظيرهُ في صدر الإسلام.

(٥) المُحاضرة والمُناظرة والبحث والجدل وتدريس العلوم.

المعاني والأفكار

إن ما حدثَ في مشارق الممالك الإسلامية ومغاربها أثناء العصر العباسي من الانقلابات السياسية والاجتماعية كان له نتيجةٌ ظاهرة في الحركة الفكرية للمتكلمين بالعربية. ظهر ذلك في عباراتهم وأشعارهم بصور مختلفة، فمنها:

(١) ازديادُ شُيوع المعاني الدقيقة، والتَّصوراتِ الجميلة، والأخيلة البديعة.

(٢) التّعويلُ على القياس والتّعليل في الأحكام الفكريّة، بالإكثار من الحجج والبراهين العقلية وانتحاء مذاهب الفلاسفة في الشّعر والكتابة والتدريس، ولاسيما بعد عصر الترجمة. وأكثر ما كان ذلك بالمشرق، وقلّما عُني به أهل المغرب.

(٣) التهويلُ والغلُوّ في التّفخيم المقتبَسُ في المشرق من اللغة الفارسية والساري بعضُه بالعَدوَى إلى أهل المغرِب والأندلس.

الألفاظ والأساليب

غلب على عبارة اللّغة العربية في هذه المُدة أمران عظيمان: السُّهولة والمحسّنات البديعية. ويشمل ذلك ما يأتي:

(١) انتقاءُ الألفاظ الرّشيقَة السَّهلة وقِلَّة الحاجة إلى الارتجال.

(٢) ازديادُ الميل إلى استعمال ألفاظ القرآن والاقتباس منهُ والاستشهاد بِهِ.

(٣) الإكثار من ألفاظ المجاز والتشبيه والتمثيل والكناية والمحسنات اللفظية.

(٤) التوسعُ في إدخال ألقاب التعظيم على أسماء الخلفاء والأمراء والعُظماء.

(٥) تفاقُمُ الخَطْب في استعمال الكلمات الأعجمية في كثير من الأشياء.

(٦) وضع اصطلاحات العلوم والفنون والصناعات وإدارة الحكومة وغيرها.

(٧) التأنق في صَوْغ العبارات وتوْثيق الربط بينها والميل إلى استعمال السجع.

(٨) التطرف إلى غاية حَدَّي الإطناب والإيجاز ولكل منهما مقام.

(٩) حدوث لغة تأليفية لتعليم العلوم تقاسُ بمِعيار المنطق لا بمعيار البلاغة.

وإذاً، كانت اللغة إما نثراً وإما شعراً.

والنثر: محادثة، وخطابة، وكتابة، فاحفظ ما يُتْلَى عليك.

النثر: المحادثة أو لغة التخاطب

إن لغة التخاطب بين الخاصة من العرب في أواخر العصر الماضي كانت العربية الفصيحة الخاليةَ من اللحن إلا من آحاد عيّروا به، وإن لغةَ العامة والسُّوقة من العرب المختلطين بالعجم هي العربية المَشُوبة بشيء من اللحن، ولغةَ المتعربين من العجم تَقلّ عن هذه في الفصاحة، وتزيدُ عليها في اللحن بمراتب مختلفة. فلما تمّ امتزاجُ العرب بالعجم عصرَ الدولة العباسية، تكوّنت بين العامة في البلاد التي تكثر فيها جمهرةُ العرب لغاتُ تخاطب علميةٌ، إلا بين أهل جزيرة العرب، فلم يزل تخاطبُهم باللسان العربي الفصيح إلى أواسط القرن الرابع. وبقيت لغاتُ التخاطب في البلاد التي تَقِلّ فيها جاليتُهم هي اللغات الوطنية الأعجمية ممزوجةً ببعض الألفاظ العربية التي أدخلها عليها الإسلام.

وخاف الخُلفاءُ والخاصّةُ من هَوْل تغلُّب العامية على الفصيحة فيستغلِقَ على المسلمين فهمُ الكتابِ والسنة وهما كلُّ الدين، فحرَّضوا العلماءَ على تدوين اللغة والإكثار من العناية بضبط النحو وفنون البلاغة. ولكن ذلك كله لم يوقف تيار العامية الزاخر، واستمرّ في طغيانه إلى أن غلب في النصف الأخير من عصر هذه الدولة على جميع لغات التخاطب، حتى لغة الخلفاءِ وعلماء العربيةِ أنفسهم،

وأصبح لكل بلاد عربية لغةٌ تخاطُب عاميةٌ خاصة بها، ولكن لم تصبح العامية لُغةَ علم وأدب، كما وأن ذلك لم يكن طويل الأَمد.

الخطابة والخطباء

لما كان قيام الدولة العباسية في المشرق، والإدريسية في المغرب الأقصى، والأموية الثانية في الأندلس، من الأمور التي ينشأ عنها كثير من الانقلابات السياسية والمذهبية والاجتماعية، وكان ذلك يستدعي تأليفَ العصابات ودعوةَ الناس إلى التشيُّع لزعماء الأحزاب، كانت دواعي الخطابة متوافرة لتوافر أسبابها. فكان بين قوَّاد هذه الدول ودعاتها وخلفائها ورؤساء وفودها خطباءُ مصاقعُ.

ثم لما فَتَرَت هذه الدواعي باستقرار الدول، واشتد اختلاطُ العرب بالأعاجم، وتولى كثير من الموالي قيادة الجيوش وعمالة الولايات والمواسم، ضعفَ شأنُ الخطابة لضعف قدرتهم عليها. فلم يمض قرن ونصف من قيام تلك الدول حتى بطل شأن الخطابة إلاَّ قليلاً في المغرب أيام الحَفْل وقدوم الوفود، وبقيت الخطابة قاصرة على خطب الجمعة والعيدين والمواسم وخطب الزواج ونحو ذلك. وقلَّ فيها الارتجالُ أو عُدِم جُملةً، وحل محلّ الخطابة في الأمور السياسية نشرُ المنشورات، وفي الأمور الدينية مجالسُ الوعظ والتدريس في المساجد والمدارس، واشتهر في صدر الدولة العباسيّة جملة خطباء أشهرهم داود بن علي، وشَبيب بن شَيبة.

داود بن عليّ:

هو داودُ بن عليّ بن عبد الله بن عباس خطيبُ بني العباس، وأحدُ مؤسسي دولتهم. نشأ هو وأخوته، وكانو ثنين وعشرين رجلاً، في قرية الحُمَيْمة من أعمال عَمّان، وكان الوليدُ بن عبد الملك أجلى عليّ بن عبد الله بن عباس وأهل بيته إليها سنة ٩٥هـ غضباً عليه.

وكان داود أحد النّابغين من إخوانه، وكان بليغهم ولسانهم وأخطبهم في وقته. وعاجلته منيّته قبل أن يستطير سلطانه في الدّولة. ولاّه أبو العباس عقب بَيْعته

بالكوفة ولاية الكوفة وسَوادَها، ثم ولاّه إمارة الحج في هذه السنة وَولاّه معها ولاية الحجاز واليمن واليمامة، فقتل مَنْ ظفر بهم من بني أمية في مكة والمدينة سنة ١٣٢هـ، وهو أول موسم ملكه بنو العباس، وخطبهم الخطبة الآتية وهي:

شُكراً شُكراً، إنا والله ما خرجنا لنحفر فيكم نهراً، ولا لنبني فيكم قصراً. أظنَّ عدوُّ الله أن لن يقدر عليه إن رُوخي له من خِطامه، حتى عَثَرَ في فضل زمامه؟ فالآن حيث أخذ القوس باريها وعاد القوسُ إلى النَّزعة، ورجع الملك في نِصابه، في أهل بيت النبوَّة والرحمة، والله، لقد كنا نتوجّع لكم ونحن في فُرُشِنا. أمِنَ الأسودُ والأحمرُ. لكم ذمة الله، لكم ذمة رسول الله ﷺ، لكم ذمة العباس، لا وربّ هذه البنيةِ ـ وأومأ بيده إلى الكعبة ـ لا نهيّج منكم أحداً.

شَبيب بن شَيبة:

هو شَبيبُ بن شَيْبة بنِ عبد الله المِنْقَريّ التَّميمي، خطيبُ البصرة ونشأ بها وامتاز بنبَالة نفس وَسخاءِ كفّ، وحسن تواضع، ونزاهة لسان. كما امتاز بخطبه القصيرة البليغة القريبة من حد الإعجاز. قال الجاحظ: يقال إنهم لم يروا خطيباً كشبيب بن شَيبة. فإنه ابتدأ بحلاوة ورشاقة وسهولة وعذوبة. فلم يزل يزداد منها حتى صار في كل موقف يبلغ بقليل الكلام ما لا يبلغه الخطباء المصاقع بكثيره. وقد يطوّل حتى يقول فيه الراجز:

[الرجز]

إذا غدت سعد على شبيبها ... على فتاها وعلى خطيبها

من مطلع الشمس إلى مغيبها ... عجبتَ من كثرتها وطيبها

وعرف شبيب أبا جعفر المنصور قبل خلافته، ثم اتصل به بعدها. فجعله في حاشية وليّ عهده المهدي. وبقي كذلك حتى وليَ المهدي الخلافة، فصار من خيرة سُمَّاره وجُلسائه إلى أن مات في خلافته سنة ١٦٥هـ. ومن خُطبه القِصار ما عزّى به المهديّ يوم ماتت ابنتُهُ «البانوقة»وجزع عليها جزعاً شديداً:

«أعطاك الله، يا أميرَ المؤمنين، على ما رُزئتَ أجراً، وأعقبك صبراً، ولا أجهدَ الله بلاءك بنقْمة، ولا نزع منك نِعمةً، ثوابُ الله خيرٌ لك منها ورحمةُ الله خيرٌ لها منك، وأحقُّ ما صُبِرَ عليه ما لا سبيلَ إلى ردّه».

الكتابة: خطية وإنشائية

الخطّ: تنوّعَ في هذا العصر الخط الكوفي إلى أنواع أربَت على خمسين نوعاً، ومن أشهرها: المحرّر، والمشجَّر، والمربّع، والمدوَّر، والمتداخل. وبقي مستعملاً في المباني والسكّة إلى حدود الألف. ثم نُسي جُملة وقد جُدّدت منه أنواع في عصرنا.

أما تاريخ خطنا المستعمل الآن فحدث في آخر الدولة الأموية أن استنبط «قطبةُ المحرّر» من الخط الكوفي والحجازي خطاً هو أساس الخط الذي يكتب به الآن، واخترع القلم الجليل الذي يكتب به على المباني ونحوها، وقلم الطُّومار (الورقة الكبيرة)وهو أصغر أنواع الجليل. وحسَّن عمله غيره من كتَّاب صدر الدولة العباسية حتى ظهر إبراهيم الشّحْري وأخوه يوسف من كتاب أواخر القرن الثاني، فولّد إبراهيم من الجليل قلم الثلثين، وولّد يوسف من الجليل القلم الرّياسيّ وهو قلم التوقيع.

وعن إبراهيم أخذ الأحولُ المحرر من (صنائع البرامكة) واخترع قلم النصف.

هذه هي أشهر الخطوط وقد تولّد منها نحو من ٢٠ خطّاً يختص كل منها بغرض خاص. واتفقوا على أن طول الألف يعتبر معياراً لارتفاع بقية الحروف. وأن يكون طول الألف مربع مقدار قطعة القلم.

وعن الأحول أخذ مهندس الخط الأعظم الوزير «أبو علي محمد بن مُقلة» وأخوه أبو عبد الله الحسن المتوفى سنة ٣٣٨هـ وهما اللذان تم على أيديهما هندسة خط النسخ والجليل وفروعه على الأشكال التي نعرفها الآن، وأتمّا العمل الذي بدأ به «قطبة»، فهندسا الحروف وقدرا مقاييسها وأبعادها وضبطاها ضبطاً محكماً، واخترعا له القواعد.

وعن الوزير ابن مقلة أخذ أبو عبد الله محمد بن أسد القارئ المتوفى سنة ٤١٠هـ.

وعنهُ أخذ أبو الحسن عليّ بن هلال البغدادي المعروف بابن البوّاب المتوفى سنة ٤١٣هـ وهو الذي أكمل قواعد الخط واخترع عدّة أقلام وإليه انتهت الغاية.

وكل من جاء بَعده فهو تابع لطريقته: كأمين الدين يَاقوت الملكي المتوفى سنة ٦١٨هـ كاتب السلطان ملكشاه السلجوقي. أما الأندلسيون والمغاربة فلم يعبؤوا بهذا الإصلاح، وبقوا يكتبون على طريقة الخط الحجازي إلى الآن بنوع من التعديل. واخترع الخليل الشكل المستعمل الآن بأن كتب الضمة واواً صغيرة تكتب فوق الحرف، والفتحة ألفاً، والكسرة ياء، والشدّة رأس شين، والسكون رأس خاء، وهمزة القطع رأس عين، ثم اختزل شكلها وزيد عليها حتى آلت إلى الشكل المعروف الآن.

وهاك ترجمة الخطّاط المُتَفَنّن المشهور.

ابن مُقلة

هو الوزير أبو عليّ محمد بن علي بن الحسن بن مقلة، إمام الخطاطين، وأحد كبار الكتاب البارعين. أخذ الخط عن الأحول المحرّر صنيعة البرامكة، وتمَّم على يديه ويدي أخيه الحسن نقلُ الخط من الكوفيّ إلى الشكل المعروف في زماننا.

وكان ابن مقلة يتولى في أوّل أمره بعض أعمال فارس ويَجْبي خراجَها. وتنقلتْ به الأحوال إلى أن استوزَره الإمام المقتدر بالله سنة ٣١٦هـ، ثم كاد له أعداؤه عنده، فقبَض عليه سنة ٣١٨هـ ونفاه إلى فارس. ثم وُزِّر للراضي فوَشَى به أعداؤه عنده فقُبض عليه وعُزل، ثم أطمعهُ نحسه أن يكيد لابن رائق أمير الأمراء ببغداد عند هذا الخليفة، فقبض عليه ابن رائق وقطع يده اليمنى، ثم عاد فقَطع لسانهُ أيضاً حتى مات سنة ٣٢٨هـ. ومن قوله في تلك الحوادث:

[الوافر]

إذا ما مات بعضك فابك بعضاً ... فإن البعض من بعض قريب

وقوله:

[الخفيف]

ما سئِمتُ الحياة لكن توقَّـ ... ـتُ بأيمانهم فبانت يميني

بعتُ ديني لهم بدُنياي حتى ... حرَموني دنياهمو بعد ديني

ولقد حُطتُ ما استطعت بجهدي ... حفظ أرواحهم فما حفِظوني

ليس بعد اليمين لذةُ عيشٍ ... يا حياتي بانت يميني فبيني

الكتابة الإنشائيّة في الرسائل الديوانية والإخوانية

كانت كتابة الرسائل في أوائل حكم بني العباس جاريةً على نظام كتابتها في أواخر عهد بني أمية، سالكة الطريق التي سلكها عبد الحميد وابنُ المقفّع والقاسم بن صُبيح وعِمارة بن حمزة ونظراؤهم، من العناية بجعل عبارتها جزلةً بليغة، متناسقة الوضع والأسلوب. وبقيت كذلك بل زادت حسناً وجمالاً ومراعاة لمقتضى الحال إلى أوائل القرن الرابع. ثم أخذت الصناعات اللفظية تغلبُ عليها تدريجياً بتضاؤُل ملكةِ البلاغة في الكتاب وتقاصُر هِمَمهم عن استيفاء أداتها، لتغلُّب الأعاجم من الديلم البُوَيهيين والترك السَّلْجُوقيين عَلَى سلطان الخلفاء في الشرق، وتغلب البربر على شماليّ أفريقية والأندلس في الغرب. فلم يَعُدْ في الملوك والأمراء مَنْ يعنيهم أمرُ العربية وبلاغتها. وما زالت كذلك حتى سقطت الدَّولة العباسية على أيدي الأعاجم من التتار، فكان ذلك عصرَ ابتداء اضمحلال الكتابة واللغة.

الكُتّاب

كان أكثر كُتاب المشرق في هذا العصر من سلائلَ فارسيَّة أو سَوَاديّة، وقد بلغوا بحذقهم سياسة الملك ونبوغهم في البلاغة أن ارتقَوْا عند الخلفاء العباسيين إلى مرتبة الوزارة. وأول كاتبٍ منهم ارتقى إليها هو أبو سَلمةَ الخَلاَّلُ. وأشهرُ من بلغ نفوذُهُ وسلطانهُ مبلغاً زاحم فيه الخليفة، يحيى بن خالد بن برمك، وابناه جعفرٌ والفضلُ، ثم محمدُ بن الزيات في زمن المعتصم والواثق. وكان كُتَّابُ الأندلس والمغرب أكثرهم من سلائل عربية.

ومن أشهر كُتّاب هذا العصر في الشرق: ابن المقفَّع، ويحيى بن خالد بن برمك، وابناه: جعفر والفضل، وإسماعيل بن صبيح، وعمرو بن مسعدة، وأحمد بن يوسف، وابن الزيات، والحسن بن وهب، وعلي بن الفرات، وابن مقلة، وابن العميد، والصاحب بن عباد، وأبو بكر الخوارزمي، والبديع، والصابي، والعماد الكاتب، والقاضي الفاضل.

ومن أشهر كتابه في الأندلس: ابنُ شُهَيد، وأبو المُطرّف بن عميرة، وابن زيدون، ولسان الدين بن الخطيب.

(١) ابن المُقَفَّع

هو أبو محمد عبد الله بن المُقَفَّع أحد فحول البلاغة، وثاني اثنين مهَّدا للناس طريق الترسُّل، ورفعا لهم معالِمَ صِناعة الإنشاء أولهُما «عبدُ الحميد».

منشؤه: نشأ ابن المقفع بين أحياء العرب. فكان أبوه دَاذَوَيْهِ المقفَّعُ الفارسي يعمل في جباية الخراج لوُلاة العراق من قِبَل بني أمية، وهو على دين المجوسية ووُلد له ابنه هذا حوالي سنة ١٠٦هـ وسمّاه رَوْزبَة، فنشأ بالبَصرة، وهي يومئذٍ حلْبَة العرب ومُنْتَدَى البلغاء والخطباء والشعراء. فكان لكلّ ذلك ـ فوق ذكائه المفرِط وتأديبِ أبيهِ له ـ أعظمُ أثرٍ في ترتبيته وتهيئَتِهِ لأن يصيرَ من أكبر كُتاب العربية وعُلمائها وأدبائها والمترجمين إليها. وقد أسلم بمحضر من الناس وتسمّى «عبد ا» وتكنى بأبي محمد، وكان نادرة في الذكاء، غاية في جمع علوم اللغة والحكمة وتاريخ الفرس، متأدباً، متعففاً، قليلَ الاختلاط إلاّ بمن على شاكلته، كثيرَ الوفاء لأصحابه.

وكان أُمّة في البلاغة ورَصانة القول وشرَف المعاني، إلى بيان غرض وسُهولة لفظٍ ورَشَاقةِ أسلوبٍ. ولا تُوصَفُ بلاغته بأحسنَ مما وصف هو البلاغَةَ حيث يقول: البلاغة هي التي إذا سمِعها الجاهلُ ظن أنه يحسنُ مثلَها.

ومن رسائله أنه عزّى بعضهم فقال:

أما بعد: فإن أمرَ الآخرة والدنيا بيد الله هو يُدَبّرهما ويقضي فيهما ما يشاء، لا رادّ لقضائه ولا مُعقّبَ لحُكمه. فإن الله خلق الخلق بقدرته، ثم كتب عليهم الموتَ بعد الحياة لئلاَّ يطمعَ أحدٌ من خلقه في خُلْد الدنيا، ووقّت لكلّ شيء مِيقاتَ أجل لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون. فليس أحد من خلقه إلا وهو متيقنٌ بالموت لا يرجو أن يخلصه من ذلك أحد. نسأل الله تعالى خيرَ المنقَلب. وبلغني وفاة فلان فكانت وفاتُه من المصائب العظام التي يُحْتَسَب ثوابها من ربنا الذي إليه منقلَبُنا ومَعادُنا وعليه ثوابُنا. فعليك بتقوى الله والصّبر وحسنِ الظنّ بالله، فإنّه جعل لأهل الصبر صلوات منهُ ورحمة، وجعلهم من المهتدين.

وقد ترجم كتباً عديدة من أشهرها كتاب «كليلة ودمنة». وقيل إن هذا الكتاب من وضع ابن المقفع وهو قول مقبول لا بأس به. وله كتاب «الأدب الكبير والأدب الصغير» و«الدرة اليتيمة». وقتله والي البصرة سفيان بن معاوية سنة ١٤٢هـ، لاتهامه بالزندقة والكيد للإسلام بترجمة كتب الزندقة.

(٢) إبراهيم الصُّولي

هو أبو إسحاق إبراهيم بن العباس بن محمد بن صُول، كاتب العراق وأشعر أصحاب المقطَّعات. نشأ ببغداد فتلقّى العلم والأدب عن أئمة زمانه، واشتغل بالشعر في حَدَاثته، فبرع فيه، وتكسَّبَ به. ورحل إلى العُمّال والأمراء يمدحهُم ويستميح جَدْواهم. ثم قصد الفضلَ بن سهل وزيرَ المأمون أيام مُقامه معه بخراسان ومدحه فوهب له ولي العهد عشرة آلاف درهم. وجعله الفضل كاتباً لأحد قُواده.

وبقي يَنْتقل في أعمال النواحي والدواوين حتى كان زمن الواثق عاملاً على الأهواز، فتحامل عليه وزيرُهُ ابن الزيات فعزله وسجنه بها. فكتب إليه يستعطفه فلم يزددْ بذلك إلاّ جَفاءً وغلظةً، ثم اطلع الواثق على ذلك فأطلقه. وتولى ديوان الضّياع والنفقات في خلافة المتوكل، ومات سنة ٢٤٢هـ.

ومن رسائله تعزية عن لسان المنتصر بالله إلى طاهر بن عبد الله مولى أمير المؤمنين:

أما بعد، تولى الله توفيقك وحِياطتَكَ، وما يرتضيه منك ويرضاه عنك. إن أفضلَ النِّعَم نعمة تُلقّيتْ بحق الله فيها من الشكر، وأوفرَ حادثة ثواباً حادثةٌ أدّيَ حقُّ الله فيها من الرضا والتسليم والصبر. ومثلُك مَنْ قدّمَ ما يجبُ لله عليهِ في نِعْمَةٍ فشكرَها، وفي مصيبةٍ فأطاعه فيها. وقد قضى الله سبحانه وتعالى في محمد بن إسحق مولى أمير المؤمنين ـ عفا الله عنه ـ قضاءَه السابقَ والموقع. وفي ثواب الله ورضا أمير المؤمنين ـ أدام الله عزه ـ وتقديم ما يُقدّمُ مثله أهلُ الحِجا والفهْم ما اعتاضه معتاضٌ وقدّمه موفقٌ. فليكن الله، عزّ وجل، وما أطعته به وقدّمتَ حقّه فيه أولى بك في الأمور كلها، فإنك إن تتقربْ إليه في المكروه بطاعته يُحْسِنْ وِلايَتك في توفيقك لشكر نِعَمه عندك.

(٣) ابن العَمِيد

هو الأستاذُ الرئيسُ الوزيرُ أبو الفضل محمدُ بن الحسينِ العميدِ، كاتب المشرق وعمادُ ملك آل بُوَيْه وصدرُ وزرائهم. نشأ شغوفاً بمعرفة العلوم العقلية واللّسانية، فبَرَع في علوم الحكمة والنجوم، ونبغ في الأدب والكتابة حتى قيل فيه: بُدئت الكتابة بعبد الحميد وختمتْ بابنِ العميد. ثم رحل عن أبيه إلى آل بُوَيْه وتقلّد شريف الأعمال في دولتهم، إلى أن تولى وزارة ركن الدولة سنة ٣٢٨هـ، فساس دولته ووطّد أركانها. وتشبّه بالبرامكة، ففتح بابهُ للعلماء والفلاسفة والشعراء والأدباء، وكان يشاركهم في كل ما يعلمون إلا الفقه. وما زال في وزارتهِ محَطّ الرّحال وكعبةَ الآمال حتى توفي سنة ٣٦٠هـ.

ومن رسائله إلى عبد الله الطبري: كتابي إليك وأنا بحال لو لم يُنَغّصها الشوق إليك ولم يُرَنّق صفوَها النّزوعُ نحوك، لعددتها من الأحوال الجميلة، وأعددت حظي منها في النعم الجليلة. فقد جمعت فيها بين سلامة عامة، ونعمة تامة، وحظيت منها في جسمي بصلاح وفي سعيي بنجاح، لكن ما بقي أن يصفو لي عيش مع بُعدي عنك ويخلو ذرعي مع خلوّي منك، ويسوغ لي مطعم ومشرب مع انفرادي دونك. وكيف أطمع في ذلك وأنت جزء من نفسي وناظم لشمل أُنسي؟ وقد حُرِمت رؤيتك وعدمت مشاهدتك، وهل تسكن نفس متشعّبة ذاتُ انقسام وينفع أنسُ بيتٍ بلا نظام؟ وقد قرأت كتابك ـ جعلني الله فداءك ـ فامتلأت سروراً بملاحظة خطك وتأمل تصرفك في لفظك، وما أقرظهما فكل خصالك مقرظ عندي، وما أمدحهما فكل أمرك ممدوح في ضميري وعقْدي.

وأرجو أن تكون حقيقة أمرك موافقة لتقديري فيك، فإن كان كذلك، وإلا فقد غطّى هواك وما ألقي على بصري.

(٤) الصاحب بن عَبَّاد

هو كافي الكُفَاة أبو القاسم إسماعيل الصاحب بنُ عَبَّاد وزيرُ آل بُوَيهِ، وكاتبُهم. ولد سنة ٣٢٦هـ بطالَقَان قزْوين. وتعلّمَ العلم والأدبَ من أبيه، ثم اتّصل بابن العَمِيد، فلزِمَ صُحبتَه وأخذ عنهُ الأدبَ، وتولّى له كتابة خاصّته. ثم تنقّلت به الأحوال في خدمة ملوك بني بُوَيه، فكان وزيراً لِمُؤَيّد الدَّولة، ثم لأخيه فخر الدولة، وله في ملكهما اليدُ المطلقة والأمرُ النافذُ حتى مات سنة ٣٨٥هـ.

ويُعَدّ ابن عَبّاد في الكتابة ثاني ابن العميد في حَلْبتِهِ وأبلغ مَنْ سلك طرِيقته. غير أنهُ أُولعَ بالسجع والجناس، ولا يعرف بعدهما مَنْ بلغ بشرف العلم والأدب مبلغهما، ولا حلَّ من شرف الملك والسلطان بمهنة الكتابة منزلتهما.

ومن رسائله: ما كتب به إلى بعض السادة وقد أهدى إلى ابن عَبَّاد مُصْحفاً:

البرُّ ـ أدام الله السيّد ـ أنواعٌ، تَطُولُ به أبواعٌ، وتقصر عنه أبواع، فإن يكن فيها ما هو أكرمُ منصباً وأشرف منسِباً، فتحفةُ السيّد إذ أهدى ما لا تشاكلهُ النّعَمُ ولا تعادله القيَمُ: كتابَ الله وبيانَه وكلامَهُ وفُرقانه ووحيَهُ وتنزيلَه وهُداه وسبيلَهُ ومعجزَ رسول الله ﷺ ودليلَهُ، طبع دون معارضة على الشفاه وخُتم على الخواطر والأفواه، فقصَّر عنه الثقلان وبقِيَ ما بقِيَ المَلَوان. لائحٌ سراجهُ، واضحٌ منهاجهُ. منيرٌ دليلهُ، عميقٌ تأويلهُ. يقصم كلّ شيطانٍ مريد ويذِلُّ كلَّ جبار عنيد. وفضائلُ القرآنِ لا تُحصى في مُطوّلات الأسفار فأصِفُ الخط الذي بهر الطرْفَ وفاق الوصف، وجمع صحةَ الأقسام وزاد في نَخْوةِ الأقلام، بل أصفه بترك الوصف، فأخباره آثاره وعينهُ فُراره. وحقاً أقول: إني لا أحْسَبُ أحداً ما خلا الملوك جمع من المصاحف ما جمعتَ وابتدع في استكتابها ما ابتدعت، وإن هذا المصحف لزائد عن جميعها زيادةَ الفرْع على الغُرّة بل زيادةَ الحج على العُمرة.

(٥) أبو بكر الخوَارَزْميّ

هو أبو بكر محمدُ بن العباس الخوارَزْميّ، الكاتب الشاعر اللغوي الأديب الرّحّالة. وُلد بخوارزم سنة ٣٢٣هـ، ونشأ بها. وكان ضليعاً في كل فن من فنون العربية وخاصة الكتابة والشعر. جاب الأقطار ودخل الأمصار من الشام إلى أقصى خراسان في استفادة العلم والأدب وإفادتهما. وكان كثير الحفظ للشعر غزير المادة من اللغة.

وتقلّب الخوارزمي في خدمة كثير من الملوك والأمراء والوزراء حتى ألقى عصا التسيار بمدينة نيْسابور وطاب عيشهُ بها، إلى أن مُني في آخر أيامه بمساجلة بديع الزمان الهَمَذَاني ومناظرته ومناضلته، وأعانه عليه قوم من أعيان البلدة ووجوهها. فانخذل الخوارزمي انخذالاً شديداً وكسفَ بالهُ ولم يحُلْ عليه الحول حتى مات سنة ٣٨٣هـ.

وكان الخوارزميُّ ممن يَجري على طريقة ابن العميد في الكتابة مُتوخّياً جزالة الألفاظ مُحتفِلاً بصحّة المعاني مع مَيْل فيه إلى الغريب، وتقدّم له كثير من الرسائل.

(٦) بديع الزمان الهمذاني

هو أبو الفضل أحمدُ بن الحسين، الكاتب المترسّل والشاعر المبدع، حافظ عصره. نشأ بهَمَذان ودرس العربية والأدبَ ونبغَ فيهما، وضرب في الأرض يتكسّب بأدَبه، ثم أقام بنيسابور مدّة أملى بها أربعمائة مَقامةٍ بلفظ رشيق وسجع رقيق، وعلى منوالها نسَجَ الحريريُّ. ثم شجَر بينَه وبين الخوارَزمي ما كان سبباً في هبوب ريحه وبُعْد صِيته إذ لم يكن في الحُسْبان أن أحداً يجترئُ على الخوارزمي.

وبموت الخوارزمي خلا له الجوُّ عند الملوك والأمراء، فتجوّل في حواضرهم، ثم استوطن هَرَاة وصاهر أحد أعيانها العلماءِ، فحسنت حاله، ونعِم باله، ولكن المَنيَّة عاجلته وهو في سن الأربعين سنة ٣٩٨هـ. وتقدم له كثير من الرسائل والمقامات المشهورة.

(٧) ابنُ زيدون

هو الكاتبُ الشاعرُ ذو الوزارتين أبو الوَليدِ أحمدُ بنُ عبد الله المشهور بابن زيدون المخزومي الأندلسيّ. ولد سنة ٣٥٤هـ ونشأ في مدينة قُرطُبة وتأدّب على كبار أئمتها وقال الشعر وأجاده. ولما نبُه شأنه بين شعراء قُرْطُبةَ اتّصل بأبي الوليد ابن جَهْور أحدِ ملوك الطوائف، فحظي عنده ومدحه حتى أصبحَ لسانَ دولتِهِ الناطقَ، وحسامَها المسلولَ. فأفسد أعداؤه ما بينه وبين ابن جَهْور، فاعتقله ومكث في مَحْبِسه مدةً استشفع فيها إليه بقصائدَ أبدعَها، ورسائلَ استنفدَ فيها جُهدَه، فما ألانتْ له قلباً. فأعملَ الحيلةَ في فِراره من سجنه، وخلَص إلى المُعتَضِد بن عَبَّادٍ ملِك إشْبيليةَ إذ كان أشدَّ ملوك الطوائف رغبةً فيه وأكثرهم تمسكاً بالأدباء، فألقى إليه مقاليدَ وِزارته، وأصبح صاحِبَ أمره ونهْيه، ولما مات المُعتضدُ وخلَفَه ابنهُ المُعتمِدُ كان له كما كان أبوه. وأغدق عليه برَّه ونعمته.

ومكث ابن زيدون على هذه الحال حتى مات بإشبيلية سنة ٤٦٣هـ.

(٨) القاضي الفاضل

هو أبو علي عبد الرحيم البَيْساني اللَّخْمِي. وُلد بمدينة عَسْقَلان سنة ٥٢٩هـ وَتَعلّمَ على أبيه وغيره. قدِم مصرَ وهو شابٌّ أواخر الدولةِ الفاطمية، وتعلّمَ في

ديوان ابن حديد قاضي الإسكندرية. وظهر فضله فيما كان يرسله إلى القاهرة من الرسائل فاستُقدم أيامَ الظافر إليها، وكان من كُتَّاب ديوانه، ولازم خدمة أكابر القضاة والكُتَّاب في الديوان، وأخذ عنهم، وحاكاهم، بل فاقهم فصاحة وبلاغة، لسعَة إطلاعه، وغزارة مادته، وسُرعة بديهته، وصفاء خاطره.

ولما سقطت الدولةُ الفاطميةُ تولّى وزارةَ صلاح الدين بن أيوب، وكان يتردَّد بين مصر والشام في الحروب الصليبية، ودبَّر المملكة أحسنَ تدبير، وبقي في الوزارة حتى مات صلاح الدين، فَوَزَرَ لابنه العزيز على مصر، ثم وزرَ من بعده لأخيه، ومات سنة ٥٩٦هـ.

ومن رسائله القصيرة رسالة كتبها على يد خطيب عَيذابَ إلى صلاح الدين يتشفع له في توليته خطَابة الكَرك وهي:

أدامَ الله السلطان الملكَ الناصرَ وثبَّتَه، وتقبَّلَ عمله بقبول صالح وأثبته، وأرغم أنف عدوِّه بسيفه وكبَتَه.

خدمةُ المملوك هذه واردةٌ على يد خطيب عَيْذَاب. ولما نبا به المنزلُ عنها وقلَّ عليه المرفقُ منها. وسمع هذه الفتوحات التي طبّق الأرض ذكرُها، ووجب على أهلها شكرُها. هاجر من هجير عَيْذَاب ومِلحِها، سارياً في ليلة أملٍ كلها نهارٌ، فلا يَسأل عن صبحها. وقد رغِب في خطَابة الكَرَك وهو خطيبٌ، وتوسّل بالمملوك في هذا الملتمَس وهو قريب، ونَزَع من مصر إلى الشامِ وعن عَيذاب إلى الكَرَك وهذا عجيب، والفقر سائق عنيف، والمذكور عائل ضعيف، ولَطَّف الله بالخلق بوجود مولانا لطيف، والسلام.

التّدوين والتّصنيف

كانت الحاجة إلى التدوين قد اشتدّت في مبدأ الدولة العباسية لاتساع ممالكِ الإسلام، فهبَّ العلماءُ إلى تهذيب ما كُتِبَ في الصُّحُفِ المتفرّقة وما حفظوه في الصدور ورتّبوه وبوّبوهُ وصنّفوه كُتُباً. وكان من أقوى الأسباب لإقبال العلماء على التصنيف حث الخليفةِ أبي جعفر المنصور عليه وحَمْلُه الأئمة والفقهاء على جمع الحديث والفقه. ولم يقتصر على مُعاضدة العلوم الإسلامية، بل أوْعزَ إلى العلماء

والمترجمين أن ينقلوا إلى العربية من الفارسية واليونانية فنونَ الطبّ والسيّاسة والحِكمة والفلَك والتّنجيم والآداب، وتابَعه في ذلك أولاده وأحفاده حتى زخرَتْ بُحورُ العلم واختُرِعَت الفنونُ وتفرّعت المسائلُ ودُوّنَت الكتبُ في كلّ فنّ.

كتابة التّصنيف والتّدوين

وكانت كتابة التّصنيف والتّدوين في القرن الأول وبعض الثاني من النَّهضة عبارةً عن سلسلةٍ من الروايات المسندةِ إلى رُواتها، وبعضها يُرْوى بلفظ أصحابها غالباً، كما في الشعر والخطب والرسائل، وبعضُها بلفظ الراوي كما في أخبار الفُتوح والتاريخ والقصص. ثم ظهرت بعد ذلك في العلوم الشرعية واللسانيّة طبقاتُ الاستنباطِ والتعليل والتفريع والشرح والاختصار وجمع الفروع تحت كلّيات عامة، فلم يكن للمؤلّفين بُدٌّ من حذفِ أسانيد الروايات وترك المحافظة على نقلها بلفظها إلاّ في الحديث ونحوه.

أما كتب العلوم المترجمةُ فكانت عبارتُها هي تفسير ألفاظها الأعجمية بالعربية، ولم تكن ترجمتها جيدةً في عصر المنصور، ثم صُححت ترجمتها في زمن الرشيد والمأمون. ثم لما أتقنَ كثيرٌ من فلاسفة المسلمين هذه العلوم كتبوا فيها بعباراتهم، وكانت أولَ أمرها بليغةً مفهومةً ثم عمّوْها على بعض الفقهاء المكَفِّرين لهم والمُغرِيَن الأُمراءَ والسلاطين بقتلهم، حتى أصبحت عبارةُ كتب الفلسفة والتوحيدِ أصعبَ ما يقرَأ باللّسان العربي.

العلوم اللّسانية ونشأتها

العلوم اللّسانيّة هي الأدبُ، والتّاريخ، والعروض، والنحو، واللغة، والبلاغة.

علم الأدب

كانت كتبه في أول هذا العصر رسائلَ يَبْحَثُ كلٌّ منها في ضرب خاصٍّ من ضروبه، كرسائل ابن المقفَّع، ورسائل سَهْل بن هَارون في الأخلاق، وكتاب النوادر، وكتاب الأراجيز، وكتاب الشعر للأصمعي، وكتاب «الشعر والشعراء» لأبي عُبَيدة. وإذا تابعنا مَنْ يقول إن ابن المقفَّع هو الذي ابتدع كتابَ «كليلة ودمنةَ» ونحلَه الهندَ والفُرْس. كان هذا الكتابُ أولَ كتاب ظهر في الأدب العربي الخاصّ بموضوعٍ واحد، وأوَّل كتاب ظهر فيه جامع لفنون كثيرة منهُ كتابُ «البيان والتبيين»، وكتابُ «الحيوان» للجاحظ، واقتفى أثره أحمد بن طَيْفور في كتابه العظيم «المنظوم والمنثور» في أربعةَ عشرَ جزءاً.

ثم أبو العباس محمد المُبرِّد في «الكاملِ» و«الروضة»، ثم أبو حنيفة الدِّينَوري، وأبو بكر محمد الصُّولي، وابن قُتَيْبَةَ صاحب «أدب الكاتب»، وابن عبد ربه صاحب «العقد الفريد»، وأبو علي القالي صاحب «الأمالي»، وأبو الفرج الأصبهاني صاحب «الأغاني» وغيرهم. ومن أشهر المؤلفين في الأدب: الجاحظ، وأحمد بن عبد ربه، والحريري. وها هي ترجمتهم.

(١) الجاحظ

هو إمام الأدب أبو عثمانَ عمرو الجاحظ بنُ بَحْرِ بنِ محبوب الكناني البصريّ. وُلِد حوالَي ١٦٠هـ بمدينة البَصرة. ونشأ بها فتناول كلَّ فن، ومارس كل علم عُرف في زمانهِ مما وُضعَ في الإسلام أو نُقل عن الأممِ الأوائل، فأصبح له مشاركة في عِلْمِ كلّ ما يقع عليه الحِسُّ أو يخطرُ بالبال. فهو راويةٌ، متكلم، فيلسوفٌ، كاتبٌ، مُصَنِّفٌ، مُتَرَسّلٌ، شاعر، مؤرّخٌ، عالم بالحيوان والنبات والمَوَات، وصَّافٌ لأحوال النّاس ووجوهِ معايشهم واضطرابهم وأخلاقهم وحيلهم.

إلاّ أنه غلبَ عليهِ أمران: الكلام على طريقة المعتزلة، والأدب الممزوجُ بالفلسفة والفُكاهة. وكان غايةً في الذكاء ودِقّة الحسّ وحسن الفِرَاسة. وكان سَمْحاً جواداً كثير المُواساةِ لإخوانه. وكان على دَمامة خَلقهِ وتناقُض خُلُقِه خفيف الرُّوح، فكِه المجلس، غاية في الظَّرْف وطيب الفُكاهة وحلاوة الكلام. وهو على الجملة أحدُ أفْذَاذ العالَم وأَحَدُ حُجَج اللسان العربيّ.

وأقام الجاحظُ أكثرَ عُمره بالبَصرة يعيش معيشةَ الأُدباء والعلماء محسوباً لولاتها وأعيانها محبُوّاً منهم بالعطايا والمنح بما يُصنّفه لهم من الكتب المتفقة مع أهوائهم المختلفة، وكان كثير الانتجاع للخلفاء ببغداد وسُرَّ من رأى، حتى فلج بالبصرة وبقي مفلوجاً بها مدَّة، إلى أن انتقل إلى بغداد فمات بها ودفن بمقبرة الخيزران (أم الرشيد) سنة ٢٥٥هـ، وله أكثر من مائتي كتاب.

(٢) أحمد بن عبد ربه

هو أديبُ الأندلس وشاعرُها أبو عُمَر أحمدُ بن محمد بن عبد ربّه القُرطبيُّ ولد سنة ٢٤٦هـ ونشأ بمدينة قُرطبة، ودرسَ علومَ العربيةِ فنبغ في جميعها. وحفِظ منها ما لم يحفظه أحدٌ من علماء زمانه، وقرأ رسائلَ المُحْدَثين من المشَارقة وما تُرجِم من كتب الأوائل في أكثر العلوم، وأودَعَ زُبْدَةَ ذلك في كتابه «العقد الفريد».

وكان يشتغل في حَدَاثته بالشعر، ويجري في مضمار اللهو والطرب، ونظم في ذلك من القصائد والمُقَطعاتِ الرقيقةِ الجميلةِ ما جعلَ المُتَنَبي على صَلفه وكِبره حينَ سمع شعرَه يُسَمّيهِ «مليحَ الأندلس»، ثم أقلعَ في كِبره عن صَبْوته وأخلصَ لله في تَوْبته. فاعتدَّ أشعارَه التي قالها في الغزل واللهو عملاً باطلاً، وعملَ على أعاريضها وقوافيها قصائدَ في الزُّهد يُعارضها بها، وسمّاها المَمحّصات، وَنال من خلفاء بني أمية بالأندلس قبولاً وحلّ عندَهم في المكان الأسمى، وَبَقِيَ بِقُرطبة رئيساً مُسوَّداً حتى فُلج، وعاش كذلك عِدَّةَ سنين، ثم مات بها سنة ٣٢٨هـ.

(٣) الحريريُّ

هو أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري البصري. المولود سنة ٤٤٦هـ. الكاتب، الشاعر، اللغوي، النحوي، صاحب البدائع المأثورة في مقاماته المشهورة التي نسَجها على مِنوال مقامات بديع الزّمان الهَمَذَانِي. وأنشأ خمسين مقامةً أتى فيها على كثير من موادّ اللغة وفنون الأدب وأمثال العرب

وحِكمِها بعبارة مُسَجَّعة مزيَّنةٍ بأنواع البديع، ولاسيما الجناسِ، ترغيباً للطلاّب في حفظ اللغة وأدبها، وتفكيهاً لهم بمطالعتها ونَحَلَ وقائعها أبا زيدٍ السّرُوجي وهو أعرابيٌّ فصيحٌ من سَرُوج كان قد قدِم البصرة وأعجب به علماؤها، وسمى راويَها عنه الحارث بن هَمّام (يُريدُ نفسَه) وأهداها إلى الوزير جمال الدين بن صَدَقة وزير المسترشد العباسي. وله غير المقامات شعرٌ كثير ورسائل بديعة، وكتب في النحو واللغة منها كتابه: «دُرَّة الغوَّاص في أوهام الخواص»، «ومُلحةُ الإعراب في النحو»، وتُوفِّي بالبصرة سنة ٥١٥هـ.

فن التأريخ

أوّل ما وُضِع في التاريخ باللغة العربية الكتاب الذي وضعه عُبَيدُ بن شَرْيَةَ لمعاوية. وفي صدر الدولة العباسية وضعَ كثيرٌ من العلماء كتباً في التاريخ بأقسامه التي من أشهرها:

(١) فن السير والمغازي: وأشهر من ألّف فيه من الأوائل محمد بن إسحاق.

(٢) فن الفتوح: وأشهر من ألّف فيه منهم الواقدي والمدائني وأبو مخْنَفٍ.

(٣) فن طبقات الرجال: وأشهر علمائه ابن سعد كاتب الواقدي، والبُخاري.

(٤) فن النسب: وأشهر قدماء علمائه الكلبي وابنه.

(٥) فن أخبار العرب وأيامها: وأشهر علمَائه أبو عُبيدة والأصمعي.

(٦) قصص الأنبياء: وكتب فيه كثيرون.

(٧) تاريخ الملوك: ومن أقدم مَنْ كتب فيه ابن قُتيبة والهيثمُ بن عديّ وابن واضح اليعقوبي، ثم شيخ المؤرخين وعمدتهم محمد بن جرير الطبري الجامع كتابه هذه الفنون السابقة مرتباً على حسب السنين الهجرية. وحاكاه بعده ابن الأثير في تاريخه «الكامل».

العروض والقافية

أوّلُ من اخترع علم العروض الخليلُ بن أحمدَ من غير سابقة تعلُّم على أستاذ

أو تدرُّج في وضْع، بل ابتدعهُ وحصَر فيه أوزانَ العرب في خمسة عشر بحراً، وزاد عليه تلميذُ تلميذِه الأخفشُ بحراً آخرَ. ثم لم يزد عليهما أحد شيئاً يعتدّ به.

أماالقافية فقد كان العلماء قبل الخليل يتكلمون فيها، ولكن الخليلَ هو أول من فصل الكلام فيها وجعلها علماً مدوَّناً.

النّحو

جاءت الدولة العباسية والنحو علم يُدْرَس في المعَاهد، ولكن البصريين سبقوا الكوفيين في الاشتغال به كما سبقهم الكوفيون في الاشتغال بالشعر وعلم الصرف.

ومن أكثر الأئمة الذين اشتغلوا بالنحو وهذّبوه من البصريين، أبو عمرو بن العلاء وتلميذه الخليل، وتلميذ الخليل سِيبَويه الواضع لأول كتاب جامع في النّحو، ثم بعده «الأخفش» شارح كتابه.

ومن الكوفيين مُعاذٌ الهَرَّاء والرُّوَّاسِيّ وتلميذهما الكسائيُّ وتلميذه الفرّاءُ.

علم اللغة

ويُسمّى متنَ اللغة، ونَعني به معرفةَ معاني ألفاظها المفردة. وأوّل ما وَضعَ الأئمة فيه رسائلُ وكتبٌ صغيرةٌ في موضوعات خاصَّةٍ، فلما ظهر الخليلُ أحصى ألفاظ اللغةِ بطريقة حسابية في كتاب، ورتّبه على حروف المعجم مقدّماً حروفَ الحلق ومبتدئاً منها بالعين ولذلك سمَّى مُعجَمه «كتابَ العين». ثم ألف أبو بكر بنُ دريد معجمه العظيمَ الذي سماه «الجَمْهَرَةَ» مُرتباً له على حروف المعجم بترتيبها المعروف الآن.

وأدرك عصرَه الأزهريُّ فألف كتاب «التهذيب» عل ترتيب الخليل، ثم وضع الجوهريُّ كتابه المسمى بـ «الصحاح» على ترتيب الجمهرة، وابن سيده الأندلسي كتابه «المُحْكَم» على ترتيب الخليل، وابن فارس كتابه «المجْمل»، والصاحب بن عَبّاد كتابه «المحيط». وهذه هي أصول كتب اللغة وما بعدها من «العُباب» و «التكملة» و«مجمع البحرين» للصاغاني، و«النهاية» لابن الأثير، و«لسان العرب»

لابن مُكرّم، و«المصباح» للفيومي، و«القاموس» للفيروزآبادي، فهو جمع لها أو اختصار منها.

علوم البلاغة: المعاني والبيان والبديع

أوّل كتاب دُوّن في علم البيان كتاب «مجاز القرآن» لأبي عبيدة تلميذ الخليل ثم تبعه العلماء. ولا يُعلم أوّل من ألف في المعاني بالضبط، وإنما أثر فيها كلامٌ عن البلغاء وأشهرهم الجاحظ في إعجاز القرآن وغيره وأوّلُ مَنْ دوّن كتباً في علم البديع ابن المُعْتز وَقُدَامَة بن جعفر. وقبل ذلك كان البديع يُسْتعمل في الشعر عملاً. وبقيت هذه العلوم تتكامل ويزيد فيها العلماء حتى جاء فحلُ البلاغة عبدُ القاهر الجرجاني فألف في المعاني كتابه «دلائلَ الإعجاز» وفي البيان كتابه «أسرارَ البلاغة»، وجاءَ بعدَه السكّاكي فألّف كتابه العظيمَ «مفتاحَ العلوم».

(١) الخليل بن أحمد

هو أبو عبد الرحمن الخليلُ بن أحمدَ بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي البصري، مخترع العروض، ومُبتكر المعجمات، وواضع الشكل العربي المستعمل الآن.

ولد سنة ١٠٠هـ بالبصرة ونشأ بها وأخذ العربية والحديثَ والقراءَة عن أئمة زمانه، وأكثر الخروجَ إلى البوداي، وسمع الأعراب الفصحاء، فنبغ في العربية نبوغاً لم يكن لأحدٍ ممن تقدّمه أو تأخر عنه. وكان غايةً في تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو وتعليله، ولقنَ ذلك تلميذه سيبويهِ.

ومما يشهدُ له بحدّة الفكر وبُعد النظر اختراعهُ العروضَ علماً كاملاً لم يحتج إلى تهذيب بعده، وابتكارُه طريقةَ تدوين المعجمات بتأليف كتاب «العين»، وتدوينه كتاباً دقيقاً في الموسيقى على غير معرفة بلغة أجنبية واشتغال بلهوٍ، وزاد في الشِطْرَنْج قطعَةً سماها جَمَلاً لَعِبَ بها الناسُ زَمناً.

وَبَقِيَ الخليلُ مُقيماً بالبصرة طولَ حياته زاهداً متعفّفاً مُكِبّاً على العلم والتعليم حتى مات في أوائل خلافة الرشيد سنة ١٧٠هـ بصدمة في دِعامة مسجد ارْتجَّ منها دماغه.

(٢) سيبَويه

هو أبو بِشر عمرو بن عثمان بن قَنْبرَ: إمام البصريين وحجة النحويين.

ولد بالبيضاء من سُلالة فارسية ونشأ بالبصرة وكان يطلب أوَّلَ أمره الحديثَ والفقه، فعِيبت عليه لَحْنَةٌ لحنها في مجلس شيخه فخجل، وطلَب النحو ولازم الخليل وأخذ عن غيره أيضاً. وكان الخليلُ يؤثِره على أصحابه، فدوَّن جميعَ ما أخذه عنه ونقله عن غيره في كتابه الذي لم يُجْمَع قبله مثلُه ولولا هذا «الكتابُ» الذي رواه عنه وشرحه تلميذهُ الأخفش ما كان لسيبويه خبر يشهرُ لوفاته كهلاً، ولقلة مَنْ أخذ عنه هذا الكتابَ، ولأنه لا يعرف له كتابٌ غيرُه وبحبك هو. ومات ببلدته البيضاء بفارس سنة ١٨٠هـ.

(٣) الكِسَائي

هو أبو الحسن علي بن حمزة، أحد القراء السبعة وإمام الكوفيين في النحو واللغة. نشأ بالكوفة وتعلم على الكبر بعد لحنةٍ لحنها أمام جمعٍ من طلبة العلم، فلازم أئمة الكوفة حتى أنفذ ما عندهم، ثم خرج إلى الخليل بالبصرة وجلس في حلقته، وأعجبه علمه، فقال له: من أين علمك هذا؟ قال: من بوادي الحِجاز ونجد وتِهامة. فخرَج إليها، وأنفدَ خمس عشْرَةَ قِنّينة حبر في الكتابة عن العرب سوى ما حفِظَ عنهم. ولما رجع من البادية وجّه إليه المهديُّ، فخرج إلى بغداد فحظِيَ عنده وضمّه إلى حاشية ابنه الرشيد، ثم جعله الرشيدُ مؤدِّبَ ولدِهِ الأمين، فكان يُجلسُهُ هو والقاضي محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة على كرسيَّين متميزين بحضرته. ومازالا على هذه الكرامة حتى خرج الرشيدُ إلى الريّ وهما في صحبته فماتا في يوم واحد، فبكاهما وقال: دفنت الفقه والعربية بالرَّيّ، وذلك سنة ١٨٩هـ. وقد انتهت إليه إمامة القراءة والعربية بالكوفة وبغداد. وكان يروي الشعر وليس له فيه جيِّدُ نظرٍ.

العلوم الشرعية

علم التفسير

لم يُدوَّن في كتب جامعة تجمع سور القرآن الكريم كلَّها إلاّ في عصر الدولة العباسية. وكان التفسيرُ عبارة عن نقل روايات عن النبي ﷺ وأصحابه تبيّن المرادَ من آياته، وأوّلُ طبقةٍ من المفسرين أدركتِ الدولة العباسيّة أو نشأت في صدرها طبقة سفيانَ بن عيينة، ووكيع بن الجرّاح، وشعبة بن الحجاج، وإسحاق بن راهويه ومقاتل بن سليمان، والفرّاء.

علم الحديث

أوَّلُ كتابٍ جُمع في الحديث الكتابُ الذي أمر الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز بتدوينه ولم يعرف له خبرٌ بعدُ. ثم أخذ العلماء يدوّنون فيه بحضّ الخليفة أبي جعفر وأولاده، فدوّنَ الإمامُ مالكٌ موطأهُ. ولما اشتدّتْ رغبةُ الناس في طلب الحديث وضعَ كثيرٌ من الزَّنادقة واليهود المتظاهرين بالإسلام كثيراً من الأحاديث، فتجرّد لها الأئمةُ الأعلامُ وبيّنوا صحيحها من فاسدها، كإسحاق بن راهويه وتلميذه محمد بن إسماعيلَ البخاري الذي دَوّنَ كتابَه في الأحاديث الصّحاح فقط، وتبعه تلميذه مسلمُ بن الحجَّاج، والإمامُ أحمدُ بن حنبل، وأصحابُ كُتُب الستة الصحاح وهم: الترمذِيُّ، وأبو داود، والنسائي، وابنُ ماجَة، والبخاري، ومسلم. هذه هي أصول الكتب في الحديث.

الإمام البُخاري

هو أبو عبد الله محمدُ بن إسماعيلَ بن إبراهيم بن المُغيرة، إمام المحدِّثين وصاحب «الجامع الصحيح» أجلّ كتُبِ الإسلام بعدَ كتابِ الله العزيز.

ولد ببُخارى من سُلالة فارسية سنة ١٩٤هـ، ونشأ بها يتيماً، فحَفِظَ القرآن وألمَّ بالعربية وهو صبي، وحُبّبَ إليه سماعُ الحديث، فكان أولُ سماعه من عُلماء بُخارى

وهو لم يُناهزِ البلوغَ، حتى حفظ عشراتِ الألوف من الأحاديث، ودخل من أجله أكثر ممالك المشرق، وأخذ عنهُ علماؤها وأئمتُها ومنهم أحمدُ بن حنبل، وتفقّه على مذهب الشافعي واستخرج كتابَه «الجامعَ الصحيحَ» من ستمائة ألف حديثٍ في ستّ عشْرَةَ سنة جمع فيه تسعة آلاف حديثٍ مكرَّرٍ بعضُها بتكرُّر وجوهها، وقال: إني جعلتُه حجةً بيني وبين الله. فأجمع علماءُ السنةِ على أنهُ لم يكن فيها أصحَّ منه ومات سنة ٢٥٦هـ.

علم الفقه

لمَّا كان المرويُّ عن رسول الله ﷺ وظاهرُ نصّ القرآن لا يسْتوعبان كلّ أحكام الوقائع المختلفة المتجدِّدة بتجدّد الزمان والمكان، كان الاجتهاد ضرورِيّاً في الدين. وجاءَت الدولة العباسية وأهلُ الحجاز يرجّحون جانب الأخذ بالحديث لكثرة رُواته بينهم، وإمامُهم في مذهبهم مالكُ بن أنس، وأهلُ العراق يرجحون الأخذ بالقياس، وإمامهم في مذهبهم أبو حنيفة لكثرة ما وضعه متزندقة العراق في الحديث. ثم لما دخل أهل الحجاز العراق وتساوى الفريقان في معرفة الأحاديث، عملوا بهما، ونشأ من ذلك عدّة مذاهب أشهرُها مذهب أبي حنيفة، ومذهب مالك، ومذهبُ الشافعي، ومذهب أحمد بن حنبل، وهذه المذاهبُ الأربعة هي التي ارتضاها معظم الأُمة في أمر دينها ودنياها، ثم كان لكل مذهب أئمةٌ مجتهدون فيه:

(١) الإمام الأعظم أبو حنيفة النُّعمان

هو الإمام الأعظمُ أبو حنيفةَ النُّعمانُ بن ثابتٍ فقيهُ العراق. ولد سنة ٨٠هـ من سلالة فارسية، ونشأ بالكوفة، وعاصرَ بعضَ الصحابة، وأخذ كلّ علمه عمَّن شافه الصحابة وَنَقَل عنهم واستنبط فقهه من القرآن الكريم وما صحّ عنده من الحديث مع استعمال الرأي والقياس. وكان من أعبد الناس، وأكثرهم تهجُّداً وقراءة للقرآن الكريم، وأكثرهم وَرَعاً وَتَوخِّياً للكسب من وجه حلٍّ. رَضِيَ أن يعيش تاجرَ خَزّ، ورغِبَ عن وظائف الملوك والخلفاء، وعُرِضَ عليه القضاءُ من قِبَل أمراءِ بني أمية ثم المنصور فأبى، فسجنه وآذاه حتى قيل إنه مات في سجنه. وكان يعتذر بأنه لا يأمَنُ نفسه أن تَزِلّ. وقرأ عليه علماء الكوفة وبغداد، وتخرج عليه الأئمة من أصحابه كمحمدٍ بن الحسن وأبي يوسف وزُفَر، ومات ببغداد سنة١٥٠هـ.

(٢) الإمام مالك

هو أبو عبد الله مالك بن أنس، إمام دار الهجرة وسيد فقهاء الحجاز. وهو عربيٌّ من سلالة أقيالِ حِمْيَر. ولد سنة ٩٥هـ بالمدينة المنوَّرة ونشأ بها، وأدرك خيار التابعين من الفقهاء والعُبَّاد ورحَل إليهم وأخذ عنهم. ومازال يدأب في التحصيل وَجمْعِ السنة حتى صار حجةً من حُجَج الله في أرضه وضُربَ به المثلُ فقيل: «لا يُفْتَى ومالك بالمدينة». وَعَرَف الخلفاءُ قدرَه فأجلُّوه، حتى أن الرشيدَ رحلَ هو وأولادهُ إليه بالحجاز ليسمعَ موطأه، فسمعه وأغدق عليه.

وكان مالكٌ أوّلَ أمرِهِ فقيراً، فلما كثرتْ مِنَحُ الخلفاء له حسن حاله، فأظهرَ نعمة الله عليه. ووصل أهلَ العلم وأشركهم في ماله ومنهم «الشافعي».

وأما أخلاقه من الكرم والطلاقة والوقار والنبل والتواضع والحب لرسول الله عليه الصلاة والسلام، فإنها تجلُّ عن الوصف، حتى أنه كان لا يركب دابةً في المدينة إجلالاً لأرض ضمّت جسَد رسول ا، وتوفي سنة ١٧٩هـ بالمدينة ودفن بالبَقيع.

(٣) الإمام الشافعي

هو أبو عبد الله محمدُ بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع. عالمُ قريش وفخرها وإمامُ الشريعة وحَبْرُها، وهو من ولد عبد المطلب بن عبد مناف. ولِد بمدينة غزة سنة ١٥٠هـ وحمل إلى مكة وهو ابن سنتين، ونشأ بها فقيراً تربيه أمه ويواسيه ذوو قرابته من قريش. حفِظَ القرآن وهو ابن تسعِ سنين، وأولع بالنحو والشعر واللغة، ورحل إلى البادية في تطلُّبها، ولم يناهز سنَّ البلوغ حتى حفِظ منها شيئاً كثيراً. ثم تفقه وحفِظ «مُوَطَّأ مالكٍ»، وأفتى وهو ابن خمس عشرةَ سنة.

ثم رحل في هذه السن إلى مالك، وقرأ عليه الموطأ من حِفْظه، فقال مالك: إن يكن أحدٌ يُفلِح فهذا الغلامُ. وأضافه وخدَمه بنفسه.

ثم رجع إلى مكة، وعلّم بها العربية والفقهَ، وصحّح عليه الأصمَعِيُّ شعرَ الهُذَليين.

ثم دخل بغداد سنة ١٩٥هـ فاجتمع عليه علماؤها وأخذوا عنه. وفي سنة ١٩٩هـ أو سنة ٢٠٠هـ خرج إلى مصر وسكن الفُسطاط فكانت دار هجرته، وبها أملى مذهبه بجامع عمرو، وتوفِّي سنة ٢٠٤هـ.

(٤) الإمام أحمد بن حنبل

هو الإمام الصابرُ المحتسِبُ أبو عبد الله أحمدُ بن حَنْبل الشَّيبانِي. وُلد ببغداد من سلالة عربية سنة ١٦٤هـ فتعلم العلم وطلب الحديث وسمع من أئمة وقته حتى حفِظَ مئات الألوف من الأحاديث، واختار منها نيفاً وأربعين ألفَ حديث ضمَّنها كتابَه «المسند»، واستنبط مذهبَه من السُّنة مَشوباً بشيء من القياس والرأي. وظهرت في مدته فتنة خَلْق القرآن، فامْتُحِنَ بها في مجلس المعتصم ليجيبَهم إلى القول بخلق القرآن فلم يفعل، فضُربَ حتى أغمي عليه، ثم عُوفي واشتغل بالعلم والتّعليم ببغداد حتى مات سنة ٢٤١هـ.

علم الكلام

كان السَّلفُ الصالحُ من الصّحابة والتابعين يستدلّون على عقائدهم بظاهر الكتاب والسُّنّة. وما وقع فيهما من المتشابه أو أوهم التّشبيه المنافي لتنزيه المعبود توقَّفوا فيه خَوْفَ أن يحيد بهم فهمهم في التأويل عن القصد. غيرَ أن ذلك لم يُقْنِعْ مَنْ دخل في الإسلام فكثُرَ جدَلهم واضطر العلماء أن يعارضوهم، وساعدهم الخلفاء وأوَّلهم المهدي الذي حرّضهم على تدوين علم الكلام «التوحيد». فافترق المرضيّ عن مذهبهم من علماء الكلام فرقتين: فرقة اعتقدت ما يقرُب من مذهب السلف وسُمُّوا الجماعة أو أصحاب الحديث، وفرقة اعتزلتها وخالفتها في بعض المسائل وسُمُّوا المعتزلة أو أصحاب العدل. وجرى رجالُ الحكومة العباسية على هذا المذهب ونصروه، حتى ظهر أبو الحسن الأشعري فألف مذهبه الكلامي الذي سُمّي بعدُ بمذهب الأشاعرة، وغلب على كل مذهب سواء، إلاّ بعض مذاهب قليلة كمذاهب الشّيعة «وبقي كثير منها إلى الآن»، ومذاهب الخوارج وبقي منهم إلى عصرنا بقية في الجبل الأخضر من بُرقة، وفي جزيرة جربة على ساحل تونس وببلاد البحرين.

أبو الحسن الأشعري

هو أبو الحسن علي بن إسماعيل شيخ طريقة أهل السنة والجماعة وإمام المتكلمين. وُلد بالبصرة سنة ٢٦٠هـ، ونشأ بها وأخذ علم الكلام عن أبي عليّ الجُبائيّ شيخ المعتزلة وتبعهُ في الاعتزال، واحتجّ له حتى صار لسان المعتزلة أكثر من ثلاثين عاماً. ثم هداه البحث، فرأى أن كلا الفريقين من هؤلاء ومن المعتزلة غال في نظره، فتوسّط وتغيّب عن الناس مدَّة ألّف فيها كتبه في نصرة أهل السُّنّة والردّ على أكثر عقائد المعتزلة؛ وكان شافعيّ المذهب. توفي سنة ٣٢٤هـ. وممَّن نَصر مذهبه الفخر الرازي والغزالي، وقاربه في مذهبه القاضي أبو منصور الماتُريدي.

الإمام الغزالي

هو أبو حامد محمد بن محمد الغزَّالي الطُّوسي الشافعي حجة الإسلام، ولد سنة ٤٥٠هـ، ونشأ بطوس وتعلم بها مبادئ العلوم. ثم رحل إلى نَيْسابور، ولازم إمامَ الحرمين الجُويني وهو يومئذ عالم الشافعية في الشرق. فما زال يتلقى عنه العلم حتى صار من أكابر متكلمي الأشاعرة وفقهاء الشافعية.

ولما مات الجويني ذهب إلى بغداد، ولقي الوزيرَ نظامَ الملك صاحبَ المدرسة النِّظاميّة الشهيرة وناظر بحضرته العلماء فظهر عليهم. وأقرّ له فحول العراق بالفضل، فتولّى التدريس بالمدرسة النظامية أربع سنوات، ثم حجَّ وذهب إلى الشام يدرس ويسيح لزيارة بعض مشاهد أنبيائها. ثم دخل مصر، وأقام بالإسكندرية مدة، ثم عاد إلى وطنه طوس واشتغل بتأليف الكتب الجليلة التي في مقدمتها كتاب «إحياء علوم الدين». ثم لزم التدريس بنيسابور، ثم عاد إلى وطنه حيث أمضى بقية عمره بين التدريس ووعظ الصوفية وعمل البرّ حتى مات بطوس سنة ٥٠٥هـ.

openkanal.com

نشأة العلوم الكونيّة المنقولة
وترجمتها وأشهر المترجمين والمشتغلين بها

وكانت تسمى علوم الفلسفة والحكمة وتشمل أربعة علوم: المنطق، والطبيعيَّات، والرياضيَّات، والإلهيات.

وتشمل الطبيعيات: علم الطبيعة، والكيمياء، وفن المواليد الثلاثة، والطب، والصيدلة، والفلاحة.

وتشمل الرياضيَّات: علم الحساب، وعلم الجبر، وعلم الهندسة، وعلم الآلات والحيل (الميكانيكا)، وعلم الفلك الشامل للهيئة والتّنجيم، ومن متعلقاته علم الجغرافيا الرياضية. ويلحق بهذه العلوم: علم السياسة، وتدبير المنزل، والمال، وعلم الأخلاق، والموسيقى.

وتشمل الإلهيات: علم ما وراء الطبيعة من الروحانيات والمدركات العقلية، كالبحث عن صفات الخالق، والقوى النفسية، والجن، والملائكة، ونحو ذلك.

وهذه العلوم فطريّة في الإنسان من حيث إنه متفكر متمدين لا تختص بها أمة دون أخرى، فكان الاشتغال بها ضرورياً لكل أمة أصبحت ذات حضارة، ولذلك ترجم المسلمون بعضها في عصر بني أمية، واستقدم المنصورُ العباسيُّ كثيراً من الأطباء والمترجمين، فترجموا له كتب اليونان والفرس والهنود في الطبّ والفلك والسياسة.

ولما مات المنصور فَتَر أمر الترجمة إلى زمن الرشيد والبرامكة فحثّوا العلماء على ترجمة الكتب اليونانية، وصححوا بعض ما تُرجِمَ زمنَ المنصور.

ثم جاء عصرُ المأمون فزخرت بُحُورُ الترجمة، وبعث إلى بلاد الروم جماعة من المترجمين كابن البطريق، وسَلْم صاحب بيت الحكمة، والحجاج بن مطر، وحُنَيْن بن إسحاق، فاختاروا كتباً حملوها إلى بغداد وتُرجمت وتعلمها الناسُ وصححوا أغلاطها واستدركوا عليها.

ولم يمضِ قرن من تأسيس الدولة العباسية حتى بَرع المسلمون في هذه العلوم كلها، وظهر منهم من الحكماء والفلاسفة مَنْ كاد يلحق فلاسفةَ اليونان. ومن هؤلاء فيلسوفُ الإسلام والعرب أبو يوسفَ يعقوبُ بن إسحاق بن الصبّاح الكندي، وتلميذُه أحمدُ بن الطيّب السرخسي، وبنو موسى بن شاكر محمد وأحمد والحسن أشهر رياضيِّي هذا العصر، وأوّل المخترعين من المسلمين في الحيل والهندسة، ومحمد بن موسى الخوارزمي مخترع علم الجبر والمقابلة. ومذيع الحساب الهندي بين العرب.

ثم ذهب طورُ الترجمة والتصحيح، وتلاه طورُ التأليف والتكميل والاختراع فأتى فيه بالعجب العجاب أبو نصر محمد بن محمد طَرْخان الفارابي، الحكيم الكبير مخترع آلة الطرب المسماة بالقانون والتي استنبط الإفرنج بمحاكاتها آلة المِعزَف (البيانو) المتوفى سنة ٣٣٩هـ، وأبو بكر محمد بن زكريا الرازي الطبيب الكيميائي الشهير المتوفى سنة ٣١٣هـ، والشيخ الرئيس حكيم المشرق أبو علي الحسين ابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨هـ، وأبو الريحان أحمد بن محمد البِيرُوني، الفلكي الرياضي المقوّم المتوفى سنة ٤٣٠هـ.

وكان لدولة الفواطم في مصر اشتغال بهذه العلوم فاشتهر في دولتهم في الفلك والرياضيات ابن يونس، وفي الطب ابن رضوان وغيرهما، ولم يُعْنَ أهل الأندلس بهذه العلوم عناية أهل المشرق، وأشهر من نبغ منهم فيها أبو الوليد القاضي أحمد بن رشد وأبو القاسم الزهراوي، ومن كُتب هؤلاء الأئِمة وأمثالهم اقتبس أهل (أوروبا) كثيراً من أصول مدنيتهم الحاضرة.

الشعر والشعراء

قد كان للشعر عند الخلفاءِ والوزراء والقُوّاد سوقٌ نافقةٌ حتى عند رؤساء الأعاجم من الدَّيْلم والترك، ودام كذلك إلى انتهاء الدولة العباسية. وبهذه العناية العظيمة بل وكثرةِ قائليه ومُنتحِليه تفنّن الناسُ وأدخلوا عليه فنوناً لم تُعهَد فيه، واستعملوه في كل غرض حتى التعبُّدِ به، وتشكَّلَ أسلوبُه، وتنوّعت معانيه بما يطابق أغراض استعماله.

ولم يَقتصر الشعر على الموالي في صدر الدَّولة العباسية كالكتابة، بل اشتركوا فيه هم وغيرهم من أعراب البادية أحياناً ومن سلائل العرب بالأمصار أخرى، غير أن بضعة من فحول صدر الدولة كانوا موالي مثل بَشّار، وأبي نوَاس، ومُسلم، وأبي العَتَاهِية، وابن الرُّومي.

ومن أشهر شعراء الأمصار من العرب أبو تمّام، والبُحتري، وابن المعتز، والمتنبي، وأبو فِراس، وأبو العَلاء المَعَرّي، وابن هانئ الأندلسي، والشّريف الرّضي.

(١) بَشّارُ بنُ بُرْد

هو أبو مُعاذ بَشّارٌ المُرَعَّثُ بنُ بُرْد، أشعرُ مُخضْرَمي الدولتين ورأسُ الشعراء المحدَثين، وَمُمَهّد طريق الاختراع والبديع للمتفننين، وأحد البلغاءِ المكْفوفين. وأصله من فُرس طُخَارستان من سَبْي المُهلَّب بن أبي صُفْرة، فنشأ بشارٌ فيهم واختلف إلى الأعراب الضاربين بالبصرة حتى خرج نابغة زمانه في الفصاحة والشعر. وكان أكمه مجدور الوجه قبيحَ المنظَر، مفرطَ الطول، ضخْمَ الجُثَّة، متوقدَ الذكاء، لا يسلم من لسانه خليفةٌ ولا سُوقة، ولا يَألفُ ولا يُؤْلَف.

شعره: قد أجمع رُوَاةُ الشعر ونقدَتُه على أن بشاراً هو رأسُ المحدثين وأسبقُهم إلى مُعَاطاة البديع، وطَرْق أبواب المجون والخلاعة والغزل والهجاء، وأنّه أوّلُ من جمع في شعره بين جزالة العرب ورقة المحدثين وفَتقَ عن المعاني الدقيقة والأخيلة اللَّطِيفَة، حتى عُدّ شعره بَرْزَخاً بين الشعر القديم والحديث، ومجازاً يعبُر عليه الشعرُ من مرابع البداوة إلى مقاصير الحضارة، ومات سنة ١٦٧هـ.

ومن شعره في المَشْورة والحكم والنّصائح:

[الطويل]

إذا بلغ الرأيُ المشورةَ فاستعِن ... برأي نَصيحٍ أو نصيحةِ حازمِ
ولا تجعل الشُّورى عليك غَضاضةً ... فإن الخوافي قوةٌ للقوادمِ
وما خيرُ كفّ أمسك الغُلُّ أختَها ... وما خيرُ سيفٍ لم يؤيَّدْ بقائمِ
وخلّ الهُوَينى للضعيف ولا تكن ... نؤوماً فإنّ الحرَّ ليس بنائمِ

وقوله:

[البسيط]

ظِلُّ اليسار على العباس ممدودُ ... وقلبُه أبداً بالبخل مَعقودُ
إن الكريمَ ليُخْفي عنكَ عُسرتَهُ ... حتى تَراه غنيّاً وهو مَجهودُ
وللبخيلِ على أموالِهِ عِلَلٌ ... زُرقُ العيون عليها أوْجُهٌ سودُ
إذا تكرَّهْتَ أن تُعطي القليل ولم ... تقدِر على سَعةٍ لم يظهر الجود
بُثَّ النوالَ ولا تمنَعْكَ قلَّتُهُ ... فكلُّ ما سدَّ فقراً فهو محمودُ

وقوله:

[الطويل]

إذا كنتَ في كلّ الأمور معاتباً ... صديقَك لم تلقَ الذي لا تعاتبُهْ
فعش واحداً أو صِلْ أخاك فإنه ... مُقارِفُ ذنبٍ مرَّةً ومُجانبُهْ
إذا أنت لم تشرَبْ مِراراً على القذَى ... ظمِئتَ وأي الناس تصفو مشاربُهْ

وقوله:

[الطويل]

خليليَّ إن المالَ ليس بنافع ... إذا لم ينَلْ منه أخٌ وصديقُ
وكنتُ إذا ضاقت عليَّ محلَّةٌ ... تيمّمتُ أخرى ما عليَّ مَضيقُ
وما خاب بين الله والناس عاملٌ ... له في التقى أو في المحامد سُوقُ
وما ضاق فضلُ الله عن مُتعَفِّف ... ولكنَّ أخلاقَ الرجال تضيقُ

(٢) أبو نُوَاس

هو أبو عليّ الحسنُ بن هانئ، الشاعرُ المتفنِّن الجادُّ الماجنُ، صاحبُ الصّيت الطائر، والشعر السائر، ورأس المحدَثين بعد بَشار، وهو فارسيّ الأصل.

وُلِدَ بقريةٍ من كورة خوزستان سنة ١٤٦هـ، ونشأ يتيماً. فقدمت به أُمه البصرةَ بعد سنتين من مولده، فتعلم العربية ورغِبَ في الأدب، فلم تعبأ أمُّه بحاله وأسلمتْه إلى عطّار بالبصرة. فمكث عندْ لا يفترُّ عن مُعاناةِ الشّعر إلى أن صادفه عند العطار «وَالبة بن الحباب»، الشاعرُ الماجنُ الكوفيُّ، في إحدى قَدَماتِهِ إلى البصرة فأُعجِب كلٌّ منهما بالآخر، فأخرجه والبة معه إلى الكوفة فَبَقِيَ معه ومع ندمائه من خُلَعَاءِ الكوفة، وتخرّج عليهم في الشعر وفاقَهم جميعاً. وبلغ خَبرُهُ الرشيدَ، فأذن له في مَدْحه، فمدحه بقصائد طنانة، ثم انقطع إلى مدح محمد الأمين وثبت عنده بعض ما يوجب تعزيره فسجنه، ولم يلبث بعد خروجه من السجن أن مات ببغداد سنة ١٩٨هـ.

وكان أبو نواس جميلَ الصورة فَكِه المَحْضَر، كثيرَ الدُّعابة، حاضرَ البديهة، متيناً في اللغة والشعر والأدب.

شعره: أجمَعَ أكثرُ علماء الشعر ونقَدَتُه وفحول الشعر على أن أبا نواس أشعرُ المحدثين بعد بشار، وأكثرهم تفنناً وأبدعهُم خيالاً، مع دقة لفظ وبديع معنى. وأنه شاعرٌ مطبوع برّز في كلّ فن من فنون الشعر، وامتاز من كل الشّعراء بقصائده الخمريات ومقطّعاته المجُونيات. وكان شعرُه لِقَاحَ الفسادِ، والقُدْوَةَ السيئة لنقلة الغزل من أوصاف المؤنث إلى المذكر، ومن ذلك قوله:

[البسيط]

دَعْ عنك لومي فإن اللومَ إغراءُ ... وداوني بالتي كانت هي الدّاءُ

صفراءُ لا تنزلُ الأحزانُ ساحَتَها ... لو مسّها حَجَرٌ مَسَّتْهُ سَرّاء

رَقَّتْ عن الماء حتى ما يلائمها ... لطافةً، وجفا عن شكلها الماءُ

فلو مزَجْتَ بها نوراً لمازجها ... حتى تَولَّدَ أنوارٌ وأضواءُ

ومن قوله لما حضرته الوفاة:

[الكامل]

يا ربّ إن عظمت ذنوبي كثرةً فلقد عَلِمتُ بأن عفوَك أعظمُ
إن كان لا يرجوك إلاَّ محسنٌ فبمن يلوذُ ويستجير المجرمُ
أدعوك ربّ كما أمرت تضرُّعا فإذا رَدَدْتَ يدي فمَنْ ذا يرحمُ؟
ما لي إليك وسيلة إلاّ الرّجا وجميلُ عفوك ثم إني مُسْلِمُ

(٣) مُسلم بن الوَليد

هو صَرِيع الغَواني أبو الوليد مُسلمُ بن الوليد الأَنصاري، أحدُ الشعراء المفلقين. قال الشعر في صِباه ولم يتجاوز به الأمراءَ والرؤساء مكتفياً بما ينالُه من قليل العطاءِ. ثم انقطع إلى يزيد بن مَزْيَد الشَّيْبَانِي قائد الرشيد، ثم اتصل بالخليفة هارون الرشيد ومدحه ومدح البرامكة وَحَسُنَ رأيُهم فيه. ولما أصبح الحلُّ والعقد بيد ذِي الرياستين، الفضل بن سهل وزير المأمون في أوّل خلافته، قرَّبه وأدناه وولاّه أعمالاً بجُرْجان، ثم الضياعَ بأصْبهان. واكتسب منهما مئات الألوف وأنفقها في لذاته وشهواته. ولما قُتل الفضلُ لزم منزله ونسكَ ولم يمدح أحداً حتى مات بجُرْجان سنة ٢٠٨هـ.

شعره: أول من تكلّف البديع في شعره واستكثر منهُ في قوله، ومزَج كلامَ البدَويّين بكلام الحضَريين، فضمَّنه المعاني اللطيفة وكساه الألفاظ الظريفةَ. فله جزالةُ البدويين ورِقةُ الحضرِيين.

ومن جيد قوله يمدح داود بن يزيد المهلبي:

[البسيط]

نفسي فداؤك يا داودُ إذ علقَتْ أيدي الرَّدى بنَواصي الضمَّرِ القُودِ
تجودُ بالنفس إن ضنّ الجواد بها والجودُ بالنفس أقصى غايةِ الجُودِ

وقوله:

[البسيط]

دلَّت على عيبها الدنيا وصَدَّقها ما استرجعَ الدهرُ مما كان أعْطاني
ما كنت أدخِرُ الشكوَى لحادثة حتى ابتلى الدهرُ أسراري فأشكاني

(٤) أبو العَتاهية

هو أبو إسحاقَ إسماعيلُ بن القاسم بن سُوَيد، أطبعُ أهل زمانه شِعراً وأكثرهم قولاً وأسهلهم لفظاً وأسرعهم بديهة وارتجالاً، وأوّلُ من فتح للشعراء بابَ الوعظ والتزهيد في الدنيا والنهي عن الاغترار بها، وأكثر من الحكمة.

ولد بعين التمر قرب الأنبار سنة ١٣٠هـ، ونشأ بالكوفة في عمل أهله وكانوا باعةَ جِرار، إلا أنه ربأ بنفسه عن عملهم. وقال الشعرَ في صباه، وامتزج بلحمه ودمه، فذاع صيتهُ، وسلك طريق خلعاء الكوفة ثم قدم بغداد ومدح المهديّ. ثم عرضت له حالٌ امتنع فيها عن قول الشعر حتى حبسه الرشيدُ لعدم تلبيته ما اقترحه عليه من القول فيه، ثم أطلقه بعد أن أجاب طَلِبَتَه، وعاد إلى قول الشعر على عادته فيه. وترك الغزلَ والهجاء. وبقي على ذلك مدّة الرشيد والأمين وأكثر أيام المأمون، حتى مات سنة ٢١١هـ ببغداد.

شعره: يمتاز بالسهولة المتناهية بالنسبة لأهل عصره. ومن قوله يمدح المهدي:

[المتقارب]

أتته الخلافةُ مُنقادةً إليه تجرّرُ أذيالَها
فلم تك تصلُح إلاَّ له ولم يكُ يصلح إلاَّ لها
ولو رامها أحدٌ غيرُه لزُلزِلتِ الأرضُ زِلزالَها
ولو لم تُطِعْهُ بناتُ القلو ب لما قبلَ الله أعمالَها
وأن الخليفة من بُغضِ «لا» إليه ليُبغضُ مَنْ قالها

وكتب على البديهة في ظهر كتاب:

[المتقارب]

ألا إنّنا كلّنا بائدُ وأيُّ بني آدمٍ خالدُ
وبدؤهُم كان من ربهمْ وكلٌّ إلى ربّه عائدُ
فيا عجباً كيف يُعصى الإلٰـ ـه أم كيف يجحَدُه الجاحدُ
ولله في كلّ تحْرِيكة وفي كلّ تسكينةٍ شاهدُ
وفي كلّ شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنهُ واحدُ

(٥) أبو تَـمّام

هو أبو تمام حبيبُ بن أوْسٍ الطَّائِيُّ، أسبقُ ثلاثةِ الشعراء الذين سارت بذكرهم الرُّكبانُ، وخلَّد شعرهم الزمانُ، ثانيهم البُحْتُرِيُّ، وثالثُهم المتنبِّي. ولد من سلالة عربية سنة ١٩٠هـ بقرية جاسِم من أعمال دمشقَ، ونقل صغيراً إلى مصر فنشأ بها فقيراً وكان يسقي الماءَ بالجرّة في جامع عمرو. وتعلم العربية وحفِظ مالا يُحصى من شعر العرب ونبغ في قوله، ثم خرج إلى مقرّ الخلافة فمدح المعتصمَ وحُظيَ عنده ومدح وزيرَه محمد بن الزيات والحسنَ بنَ وَهب الذي ولاهُ بريد الموصل فأقام بها إلى أن مات سنة ٢٣١هـ.

شعره: يُعَدُّ أبو تمَّام رأس الطبقة الثالثة من المحدَثين، انتهت إليه معاني المتقدمين والمتأخرين، وظهر والدنيا قد مُلِئَتْ بترجمة علوم الأوائل وحِكمتها، فحصف عقله ولطف خياله بالاطلاع عليها. وهو الذي مهَّد طريق الحِكم والأمثال للمُتنبي وأبي العلاء وغيرهما. ولذلك كان يقول: إن أبا تمام والمتنبي حكيمان، والشاعر هو البُحْتري.

وأجاد أبو تمام في كل فن من فنون الشعر. أما مراثيه فلم يعلَق بها أحدٌ جاش صدره بشعر، وأشهرها القصيدة التّي رثى بها محمدَ بنَ حُمَيد الطائي ومنها:

[الطويل]

كذا فَلْيَجِلَّ الخطبُ ولْيَفْدَحِ الأَمْرُ ... فليسَ لعينٍ لم يَفِض ماؤُها عُذْرُ

تُوُفِّيَتِ الآمالُ بعدَ محمَّد ... وأصبح في شُغْلٍ عن السَّفَر السفْرُ

وما كان إلاَّ مالَ مَنْ قلَّ مالُه ... وذخراً لمَنْ أمسى وليس له ذُخْرُ

وما كان يدري مُجتدي جود كفِّه ... إذا ما استهلّتْ أنهُ خُلِق العُسْرُ

ألا فِي سبيل الله من عطّلت له ... فِجاجُ سبيل الله وانثغرَ الثغْرُ

فتًى كلّما فاضت عيون قبيلة ... دماً ضحكت عنهُ الأحاديث والذكرُ

فتًى دهره شطران فيما ينوبُه ... ففي بأسه شطرٌ وفي جوده شطرُ

فتًى مات بين الطَّعن والضرب ميتةً ... تقوم مقامَ النصر إنْ فاتَهُ النصرُ

وما مات حتى مات مَضْرِبُ سيفِهِ ... من الضرب واعتلّت عليه القَنا السُّمْرُ

وقد كان فَوْتُ الموتِ سهلاً فردَّهُ إليه الحِفاظُ المرُّ والخُلُقُ الوَعْرُ
ونفسٌ تَعاف العارَ حتى كأنما هو الكفرُ يوم الرّوْع أو دُونه الكفرُ
فأثبتَ في مُسْتَنْقَع الموت رجلَه وقال لها من تحت أخْمَصِك الحشرُ
غدا غدْوةً والحمدُ نَسْجُ ردائِهِ فلم ينصرف إلا وأكفانُهُ الأجرُ
تَرَدَّى ثيابَ الموتِ حُمْراً فما دَجا لها الليلُ إلاّ وهيَ من سُنْدسٍ خُضرُ

(٦) البُحْتُرِيّ

هو أبو عُبَادةَ الوَلِيدُ بن عُبَيْدٍ الطَائيُّ، أشعر الشُّعراء بعد أبي نُوَاس. وُلد سنة ٢٠٦هـ بناحية مَنْبج في قبائل طيّ وغيرها من البدو الضاربين في شواطئ الفُرات، ونشأ بينهم، فغلبت عليه فصاحةُ العرب. وخرج إلى العراق، وأقامَ في خدمة المتوكل والفتحِ بن خاقان محترَماً عندهما إلى أن قُتلا في مجلس كان هو حاضرَه. فرجعَ إلى مْنبج، بين أعراب طيِّئ وبقي يختلف أحياناً إلى رؤساء بغداد وسُرّ مَنْ رأى حتى مات سنة ٢٨٤هـ.

وكان على فضله وفصاحته من أبخل خلق الله وأوسخِهم ثوباً وأكثرهم فخراً بشعره، حتى كان يقول إذا أعجبه شعرهُ: أحسنْتُ والله، ويقول للمتمعين: مالكم لا تقولون أحسنت. والكثير على أنه لم يأت بعد أبي نواس من هو أشعر منه.

شعره: كله بديع المعنى حسن الدّيباجة، صقيل اللفظ، سلس الأسلوب، كأنهُ سيل ينحدر إلى الأسماع مجوّداً في كل غرض سوى الهجاء. ولذلك اعتبره كثير من أهل الأدب هو الشاعر الحقيقي، واعتبروا أمثال أبي تمام والمتنبي والمعري حكماء. ولسهولة شعره ورقته كان أكثر الأصوات التي يتغنّى بها في زمنه من شعره المطبوع في ديوان حافل.

ومن قوله يمدح الخليفة المتوكل ويصف موكب خروجه لصلاة عيد الفطر وخطبته في الناس:

[الكامل]

بالبرِّ صُمتَ وأنتَ أفضل صائمٍ وبسُنَّة الله الرَّضيَّة تُفطِرُ

فانعَمْ بيوم الفطر عِيْداً إنهُ ... يوم أغرُّ من الزمان مُشهَّرُ
أظهرْتَ عزَّ الملك فيه بجَحْفَل ... لَجِبٍ يُحاطُ الدّينُ فيه ويُنْصَرُ
خِلنا الجبالَ تسيرُ فيه وقد غدتْ ... عُدداً يسير بها العديدُ الأكثرُ
فالخيلُ تَصهَلُ والفوارسُ تدّعي ... والبيضُ تلمَع والأَسنّةُ تَزْهَرُ
والأَرْضُ خَاشعةٌ تَمِيد بثِقلها ... والجَوُّ معتكِرُ الجوانب أغبرُ
والشمس طالعة تَوقّدُ فِي الضُّحى ... طَوْراً ويُطْفئُها العجَاجُ الأكدرُ
حتى طلعْتَ بضوْء وجهك فانجلى ... ذاك الدُّجى وانجاب ذاك العِثْيَرُ
فافتنّ فيك الناظرون فإصْبعٌ ... يُوْمى إليك بها وعينٌ تنظرُ
يجدون رؤيتَك التي فازوا بها ... من أنعُم الله الَّتي لا تُكْفَرُ
ذكروا بطلعتك النبيّ فهلّلوا ... لما طلعتَ من الصفوف وكبّرُوا
حتى انتهيْتَ إلى المُصلّى لابساً ... نورَ الهدى يبدو عليكَ ويظهرُ
وَمَشَيْتَ مِشْيَة خاشع متواضعٍ ... لله لا يُزْهى ولا يَتكبَّرُ
فلو أن مُشتاقاً تَكلّف فوق ما ... في وُسعه لسعى إليك المِنْبَرُ
أبديتَ من فصل الخطاب بحكمةٍ ... تُنبي عن الحق المُبين وتُخبرُ
ووقفتَ في بُرْد النبيّ مذكّراً ... بالله تُنذِر تارة وتُبشِّرُ

(٧) ابن الرُّومي

هو أبو الحسن علي بن العباس بن جُريج الرُّومي، مولى بني العباس، الشاعر المكثر المطبوع، صاحب النظم العجيب، والتّوليد الغريب، والمعاني المخترعة، والأهاجي المقذِعة.

ولد ببغداد سنة ٢٢١هـ ونشأ بها، وأقام كل حياته بها، وكان كثير التطيُّر جداً. وكان القاسمُ بن عبَيد الله وزيرُ المعتز يخاف هجوه وفلتاتِ لسانه، فسلّط عليه مَن دسّ له السُّم في الدَّسم إلى أن مات سنة ٢٨٣هـ ببغداد.

شعره: قاله في كل غرض ولاسيما الوصف والهجاء، ونَبَغ في الشعر نبوغاً لم يقصُر به كثيراً عن درجة البحتري، وربما فاقه في اختراع المعاني النادرة أو توليدها من معاني من سبقه بشكل جديد، ووضعها في أحسن قالب، وله ديوان كبير.

ومن جيِّد قوله:

[الكامل]

وإذا امـرؤٌ مـدح امـرأ لـنـوالِـه وأطـال فـيـهِ فـقـد أطـال هـجـاءهُ
لـو لـم يُـقـدِّر فـيـه بُـعْـدَ الـمـسـتَـقـى عـنـد الـوُرود لـمـا أطـال رِشـاءهُ

(٨) ابن المعتز

هو أمير المؤمنين أبو العباس عبدُ الله بن أمير المؤمنين محمد المعتز بالله، أشعر بني هاشم، وأبرع الناس في الأوصاف والتشبيهات.

ولد سنة ٢٤٩هـ في بيت الخلافة، وتربّى تربية الملوك، وأخذ عن المُبرِّد وثعلب، ومهر في كل علم يعرفه أئمة عصره وفلاسفة دهره، حتى هابه وزراءُ الدولة وشيوخ كُتّابها، وعمِلوا على أن لا يقلدوه الخلافة خشية أن يكفَّ أيديَهم عن الاستبداد بالملك، ووَلوا المقتدرَ صبيّاً. ثم حدثت فتنٌ عظيمة فتسرّع محمد بن داود بن الجرّاح وَجَمَع العلماء وخلعوا المقتدر، وبايعوا ابن المعتز بالخلافة على غير طلب منه. فلما رأى غِلمانُ المقتدر أن الأمر سيخرج من أيديهم تآمروا على قتله وخُنِق من ليلته سنة ٢٩٦هـ.

شعره: سهلُ العبارة مع رشاقة وقِلَّة تكلُّف وتصنُّع، يُعرف فيه نُضرة النعيم.

(٩) ابو الطيّب المتَنَبِيّ

هو أبو الطيب أحمدُ بنُ الحسين الجُعْفي الكِنْديّ الكوفِيّ المَتَنبي، الشاعر الحكيم، وخاتم ثلاثة الشعراء، وآخر من بلغ شعره غاية الارتقاء.

وهو من سُلالة عربية من قبيلة جُعْفيّ بن سعد العشيرة إحدى قبائل اليمانية. ولد بالكوفة سنة ٣٠٣هـ في محلة كِنْدةَ ونشأ بها، وأولع بتعلم الشعر من صباه، وكان أبوه سقَّاءً فخرج به إلى الشام. ورأى أبو الطيب أن استتمام علمه باللغة والشعر لا يكون إلا بالمعيشة في البادية، فخرج إلى بادية بني كلب فأقام بينهم مدَّة ينشدهم من شعره ويأخذ عنهم اللغة، فعظم شأنه بينهم. وكانت الأعراب الضاربون بمشارف الشام شديدي الشغب على ولاتها، فوشَى بعضهم إلى لؤلؤ أمير حمص من قِبل الأَخشيدية بأن أبا الطيب ادّعى النبوة في بني كلب وتبعه منهم خلق كثير ويخشى

على ملك الشام منه. فخرج لؤلؤ إلى بني كلب وحاربهم وقبض على المتنبي وسجنه طويلاً ثم استتابه وأطلقه.

فخرج من السجن وقد لصق به اسم المتنبي مع كراهته له. ثم تكسّب بالشعر مدّة انتهت بلحاقه بسيف الدولة بن حَمْدان، فمدحه بما خلّد اسمه أبد الدهر. وتعلم منه الفروسية وحضر معه وقائعه العظيمة مع الرُّوم حتى عُدَّ من أبطال القتالِ رجاء أن يكون صاحبَ دولة.

ثم قَصد كافوراً الإخشيدي أمير مصر ومدحه، ووعده كافور أن يقلّده أمارة أو ولاية، ولكنهُ لما رأى تغاليه في شعره وفخرَه بنفسه عدل أن يوليه. وعاتبه بعضهم في ذلك فقال: يا قوم، مَن ادعى النّبوة بعد محمد ﷺ أما يدَّعِي المملكة بعد كافور؟ فحبكم. فعاتبه أبو الطيب، واستأذن في الخروج من مصر فأبى. فتغفّله في ليلة عيد النحر سنة ٣٥٠هـ وخرج منها يريد الكوفة، ومنها قصد عضد الدولة بن بويه بفارس ماراً ببغداد، فمدحه ومدح وزيره ابن العميد، فأجزل صِلته وعاد إلى بغداد. وخرج إلى الكوفة فخرج عليه أعراب بني ضبَّة وفيهم فاتك بن أبي جهل، وكان المتنبي قد هجاه هجاء مقذعاً فقاتلهم قتالاً شديداً حتى قتل المتنبي وابنه وغلامه سنة ٣٥٤هـ.

شعره: لا خلاف عند أهل الأدب في أنه لم ينبغ بعد المتنبي في الشعر مَنْ بلغ شأوه أو داناه. والمعريّ على بُعد غَوْره وفرط ذكائه وتوقّد خاطره وشدة تعمُّقه في المعاني والتصورات الفلسفية، يعترف بأبي الطيب ويقدّمه على نفسه وغيره.

ومن شعره قوله:

[البسيط]

إذا رأيتَ نُيوبَ الليث بارزةً ... فلا تظنَّنَّ أن الليثَ يبتسمُ

أعيذها نظراتٍ منك صادقةً ... أن تحسَبَ الشحم فيمن شحمهُ ورمُ

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي ... وأسمعَتْ كلماتي من به صَمَمُ

وما انتفاعُ أخي الدنيا بناظرِهِ ... إذا استوت عنده الأنوار والظلمُ

يا مَنْ يعزُّ علينا أن نفارقَهُم ... وجدانُنا كلَّ شيءٍ بعدَكم عدمُ

إن كانَ سَرَّكُم ما قال حاسدنا ... فما لجرحٍ إذا أرضاكمُ ألَمُ

وبيننا لو رعيتمْ ذاك معرفة أن المعارفَ في أهل النّهَى ذِمَمُ
كم تطلبون لنا عيباً فيُعجِزُكم ويكره الله ما تأتون والكرمُ
إذا ترحلتَ عن قوم وقد قدروا ألا تفارقَهمْ فالراحلون هُمُ

ومنه قوله:

[الكامل]

ذو العقلِ يَشقَى في النّعيم بعقله وأخو الجهالةِ في الشّقاوة ينعَمُ
لا يخدعنَّكَ من عدوٍّ دمعهُ وارحمْ شبابَك من عدوٍّ ترْحَمُ
لا يسلَم الشرفُ الرفيعُ من الأذى حتى يُراقَ على جوانبه الدّمُ
والظلمُ من شِيَمِ النفوس فإن تجدْ ذا عِفَّة فلِعلَّة لا يظلِمُ
ومن البليّة عذلُ من لا يرعوي عن غَيّه وخطابُ من لا يفهَمُ
ومن العداوة ما ينالُك نفعُه ومن الصّداقة ما يَضُرُّ وَيُؤلمُ

ومنه قوله:

[الكامل]

ما كنت أحسَبُ قبل دفنك في الثَّرى أن الكواكبَ في التراب تمورُ
ما كنت آملُ قبل نعيِك أن أرى رَضْوَى على أيدي الرجال يسيرُ
خرجوا به ولكلّ بالٍ حولَه صعقاتُ موسى يومَ دُكَّ الطُّورُ
حتى أتَوا جَدَثاً كأن ضريحه في كل قلب مُوجَدٍ محفورُ
كفلَ الثناءُ له برَدّ حياتهِ لمَّا انطوى فكأنه منشورُ

(١٠) ابن هانئ الأَندلسي

هو أبو القاسم محمدُ بن هانئ الأزْدِيُّ الأَندلسيُّ شاعرُ الغَرْب ومُتَنَبّيه، والمؤثرُ فخامةُ ألفاظه على رِقَّة معانيه، وأحد المفرطين في غلوّ المدح واستعمال الاستعارة والتشبيه.

وُلِدَ بإشْبِيلِيّة سنة ٣٢٦هـ، ولما نبُه شأنه اتصل بعامل أشبيلية زمن المستنصر الأموي، ومدحه بغرر القصائد، فأحلّه منه منزلة سنية وأغدق عليه العطايا، فأكبَّ على اللَّهو والطّرب والاستهتار، واتُّهم بالزندقة والكفر لاشتغاله بالفلسفة.

ولما شاع ذلك عنهُ نقَمه عليه أهلُ أشبيلية، وأشركوا عاملها في التُّهمة وكادوا يهمُّون به فأشار عليه بالهجرة من أشبيلية، فاجتاز البحرَ إلى عُدْوة المغرب ومدح وُلاته من قبل المعز الفاطمي. ثم نُمي خبرهُ إلى المعز فوجّه في طلبه بأفريقية ومدحه فاصطفاه واتخذه شاعر دولته.

ولما فتح جوهر مصر وبنى القاهرة ورحل إليها المعز ليتخذها دار ملكه شيّعه ابن هانئ، ورجع لأخذ عياله والالتحاق به، فتجهّز وتبعه، فلما وصل إلى بَرْقة مات بها سنة ٣٦٢هـ، وعُمره ٣٦ سنة.

شعره: لم ينبغ في شعراء جزيرة الأندلس ولا برّ المغرب جميعها من يفوق ابن هانئ في صناعة الشعر أو يساويه، فقد كان عندهم في الشهرة والإجادة وشرف الشعر بمنزلة المتنبي عند المشارقة، ويسميه كثير من الأدباء بمتنبي المغرب.

ومن قوله في وصف الخيل:

[الكامل]

وصواهلٍ لا الهَضْبُ يوم مغَارها هَضْبٌ ولا البِيدُ الحُزون حزُونُ
عُرِفَتْ بساعةِ سَبْقها لا أنها علِقَتْ بها يومَ الرّهان عُيونُ
وأجَلُّ عِلمِ البرقِ فيها أنها مرّت بجانِحتَيهِ وهي ظنُونُ

ومن قوله الموهم الكفر في مطلع قصيدة يمدح بها المعزّ:

[الكامل]

ما شِئتَ لا ما شاءتِ الأقدارُ فاحكم فأنت الواحدُ القهّار

(١١) أبو العَلاء المَعري

هو أبو العلاءِ أحمدُ بن عبد الله بن سليمان المَعرّي التّنوخي، الشاعر الفيلسوف المتفنّن. وهو عربي النسب من قبيلة تَنُوخ من بطون قضاعة من بيت علم وقضاء.

وُلِدَ بِمعرّة النعمان سنة ٣٦٣هـ وجُدر في الثالثة من عمره فكُفّ بصره، وتعلم على أبيه وغيره من أئمة زمانه، وكان يحفظ كل ما يسمعه من مرّة. وقال الشعر وعمره إحدى عشرة سنة، ودخل بغداد، وأقبل عليه السّيد المرتضى إقبالاً عظيماً ثم جفاه.

ولما رجع إلى المعرّة أقام ولم يبرح منزله، ونَسَكَ وسمّى نفسه رَهينَ المَحْبِسَيْنِ: مَحبِس العمى ومَحبِس المنزل. وبقي فيه مكباً على التدريس والتأليف ونظم الشعر مقتنعاً بعشرات من الدنانير في العام يستغلها من عقار لهُ، مجتنباً أكلَ الحيوان وما يخرج مُنه مدَّة ٤٥ سنة، مكتفياً بالنبات متعللاً بأنه فقيرٌ وأنه يرحم الحيوان. وعاش عَزباً إلى أن مات سنة ٤٤٩هـ بالمعرة. وأوصى أن يكتب على قبره:

[مجزوء الكامل]

هـذا جنـاه أبـي عـلـ ـيّ ومـا جنـيـتُ عـلـى أحـد

شعره: وله كثير من الشعر يناقضُ بعضهُ في حقيقة العالَم والشرائع والمعبود، وللناس في اعتقاده أقوال كثيرة، والظاهر أنه كان شاكاً متحيّراً. وهو أحكم الشعراء بعد المتنبي، ويفضل عليه في الطبيعيات والاجتماعيات والأخلاق والقوانين والفلسفة والشرائع والأديان.

ومن مراثيه قوله:

[الخفيف]

غيْر مُجْدٍ في مِلَّتِي واعتقادي نَوْحُ بَاكٍ ولا ترنُّم شادِ
وشبيهٌ صوتُ النَّعِيّ إذا قيـ ـس بصوت البشير في كل نادِ
أبَكَتْ تِلكمُ الحمامة أم غنّـ ـتْ على فرْع غُصنها الميَّادِ
صاحِ هذي قبورُنا تملأ الرُّحْـ ـبَ فأين القبورُ من عَهْد عادِ
خفِّفِ الوطء ما أظنّ أديم الـ أرض إلّا من هذه الأجسادِ
وقبيحٌ بنا وإن قدُم العهْـ ـد هوانُ الآباءِ والأجدادِ
سِر إن استطعتَ في الهواء رويْداً لا اختيالاً على رُفاتِ العبادِ
رُبّ لحدٍ قد صار لحداً مِراراً ضاحك من تزاحُم الأضدادِ
ودفينٍ على بقايا دفينٍ في طويل الأزمان والآبادِ
فاسأل الفرقدَيْن عمن أحسّا من قبيل وآنسا من بلادِ
كَمْ أقاما على زوال نهارٍ وأنارا لمدلِجٍ في سَوادِ

تَـعَـبٌ كـلـهـا الـحـيـاةُ فـمـا أعْـ ـجَـبُ إلّا مـن راغـبٍ فـي ازديـادِ
إنّ حـزنـاً فـي ساعـةِ الـمـوتِ أضعـا فُ سـرورٍ فـي سـاعـةِ الـمـيـلادِ
خُـلِـق الـنـاسُ لـلـبـقـاءِ فـضـلّـتْ أُمـةٌ يـحـسَـبُـونَـهُـمْ لـلـنـفـادِ
إنـمـا يُـنـقَـلـون مـن دارِ أعـمـا لٍ إلَـى دار شِـقْـوَةٍ أو رشـادِ

ومنها:

بـانَ أمـرُ الإلـه واخـتـلـف الـنـا س فـداعٍ إلـى ضـلالٍ وهـادِ
والـذي حـارت الـبـريـةُ فـيـه حـيـوان مـسـتـحـدَثٌ مـن جـمـادِ
فـالـلـبـيـبُ الـلـبـيـبُ مـن لـيـس يغـتَـ رُّ بـكـوْنٍ مَـصِـيـرُه لـلـفـسـادِ

ومن شعره قوله:

[الطويل]

ضحكْنا وكان الضّحْكُ منا سفاهةً وحُقّ لسُكّان البسيطة أن يبكوا
تحطّمنا الأيام حتى كأننا زجاجٌ ولكن لا يُعاد لنا سَبْكُ

(١٢) ابن خَفَاجة الأَندلسي

هو أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن خَفاجة، شاعر شرقيّ الأندلس وأشهر وُصّاف الطبيعة. ولد بجزيرة شُقْر من أعمال بلَنْسِيّة سنة ٤٥٠هـ، فتعلّم ونظم الشعر وكتب الرسائل الإخوانية البليغة. ومازالت شمس أدبه في صعود حتى صار واحد زمانه في الأندلس، وغلب على شعره وصف الحوادث الجويّة ومناظر الطبيعة. وله غزل رقيق، ومدح بارع، ورثاء بليغ.

شعره: يمتاز بالجزالة وكثرة المعاني وازدحامها في اللفظ حتى يحتاج في فهمها إلى التّأمل عَلَى خلاف مذهب الأندلسيين في ذلك. توفي سنة ٥٣٣هـ.

ومن قوله يصف زهرة:

[الطويل]

ومـائـسـة تُـزْهَـى وقـد خـلـع الـحَـيـا عـلـيـهـا حـلّـى حُـمْـراً وأودية خُـضـرا
يـذوب لـهـا ريـقُ الـغـمـائـمِ فِـضّـةً ويـجـمُـدُ فـي أعـطـافـهـا ذهـبـاً نَـضْـرا

وقوله:

يـــا أهـــل أنـــدَلُـــسٍ لله دَرّكُـــمُ ماء وظـــلٌّ وأنـــهـــارٌ وأشـــجـــارُ
مـا جـنـةُ الـخُـلْـد إلّا فـي ديـاركـمُ ولـو تـخـيّـرتُ هـذِي كـنـتُ أخـتـارُ
لا تخشوا بعدَ ذا أنْ تدخلوا سقراً فـلـيـس تُـدْخَـلُ بـعـد الـجَـنـة الـنّـارُ

وقال في ذم علماء السّوء من المسلمين والنصارى:

درسوا العلوم ليملكوا بجدالهم فـيـهـا صـدورَ مـراتـب ومـجـالـسِ
وتـزَهـدوا حـتـى أصـابـوا فـرصـةً فـي أخـذ مـال مـسـاجـد وكـنـائـسِ

(١٣) الطغرائي[1]

هو مؤيد الدين الأستاذ العميد فخر الكتاب أبو إسماعيل الحسين بن محمد الطغرائي، صاحب (لاميّة العجم) وهو أصبهاني الأصل، برع في الكتابة والشعر حتى كان أوحد زمانه، ولم ينبغ بعده في الشرق من يُضاهيه، وترقّت به الحال في خدمة سلاطين آل سلجوق إلى أن صار وزيراً للسلطان مسعود بن محمد السّلجوقي صاحب الموصل، ولما قهره أخوه السّلطان محمود كان أول من اعتقل الوزير أبو إسماعيل الطغرائي، فدس بعض حسدته من رؤساء الكتاب إلى السّلطان محمود أنه ملحد. فقتله ظلماً سنة ٥١٣هـ.

ومن شعره لاميّة العجم المعتبرة من عيون الشعر، وقد كان قالها ببغداد سنة ٥٠٥هـ.

(١٤) البهاء زهير

هو الوزير الشاعر الكاتب أبو الفضل بهاء الدين زهير بن محمد بن علي المهلبي الأزدى المصري، صاحب السهل الممتنع، والغزل الرقيق والعتاب الرفيق.

ولد بوادي نخلة قرب مكة سنة ٥٨١هـ، ونشأ بمصر ببلدة قوص، ثم اتصل بخدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب، وخرج معه في خدمته إلى بلاد الشام والجزيرة، فلما نُكب الملك الصالح بخيانة عسكره وانضوائهم إلى ابن عمه الملك

(١) الطغرائي من يكتب الطغراء (وهي الطرة) وكانت تكتب في الدولة السّلجوقيّة فوق البسملة بخط معلق فيها نعوت السّلطان وألقابه.

الناصر، صاحب الكرك وقبض على الصالح واعتقله، حفظ البهاء عهد صاحبه، ولم يخدم غيره، وأقام بنابلس حتى استردَّ الصّالح ملك الديار المصرية فقدم إليها في خدمته، واتخذه وزيراً ـ حتى مات بوباء في شوال سنة ٦٥٦هـ.

شعره: كانت سهولة طباع زهير تفوق سهولة شعره الذي هو أسهل نظماً ولفظاً.

الرّواية والرّواة

جاءت الدولة العباسيّة وقد اتسع نطاق الرواية واختصّ كل فريق من الناس برواية شيء. فلما دُوّنت الكتب في عصر الدولة العباسية أفرغ الرواةُ ما حفظوه فيها وأخذ أمر الرواية يضمحلّ شيئاً فشيئاً في أكثر العلوم ولاسيما الأدب، ثم اقتُصِرَ في الرواية على تصحيح النطق والأداء. ولكل علم رواةٌ مشهورون.

وأما رُواة الأدب والشعر خاصَّة فأشهرهم حمادٌ الراويةُ الكوفيُّ، وَخَلَفٌ الأحمرُ البَصْرِيُّ، وأبو عمرو الشيبانيُّ الكوفيُّ، والسكريُّ البغداديُّ.

ومن رواة الأدب بجميع فنونه لغة وشعراً وأخباراً أبو عمرو بن العلاء وأبو عبيدة مَعْمَر بن المثنى، والأصمعي، وأبو زيد الأنصاري، وأبو عبيد القاسم بن سلامٌ، ومحمد بن سلام الجُمحي، وغيرهم. وهاك ترجمة أشهرهم في الروايّة:

الأَصْمَعِيُّ

هو شيخ رُواة الأدب، الإمامُ الثَّبْتُ، الحجة، الثِّقَة، التّقيُّ أبو سعيد عبدُ الملك بن قُرَيْب بنِ عبد الملك بن علي بن أصمَع الباهلي البصري.

ولد سنة ١٢٣هـ ونشأ بالبصرة فأخذ العربية والحديث والقراءةَ عن أئمة البصرة، وأخذ عن فصحاء الأعراب، وأكثر الخروج إلى الباديّة، وشافه الأعراب وساكنَهم، وتعلّم من خلَفٍ الأحمرِ نقْدَ الشعر ومعانيه، وكان أحفظَ أهل زمانه حتى قال مرةً: إني أحفَظ اثنيْ عَشَر ألف أرجوزةٍ. فقال له رجلٌ: منها البيتُ والبيتان. فقال: ومنها المائة والمائتان. وعمّر حتى أدرك زمن المأمون. وأراد المأمونُ أن يُقدِمَه إليه فاعتذر بكبر السن. ومات سنة ٢١٦هـ وله مؤلفاتٍ كثيرة.

العصر الرابع: عصر المماليك التركية ٦٥٦-١٢٢٠هـ

حالة اللغة العربيّة وآدابها في ذلك العصر

لمَّا اكتسح التَّتارُ ممالكَ الدولة العباسيّة افترقوا إلى ممالكَ متعدّدة بآسيا وشرقي أوروبا، ولم يلبثوا أكثر من نصف قرن حتى أسلموا وشرعوا يخدُمون الإسلامَ بتقريب العلماء إليهم وترغيبهم في التأليف. فأفاد ذلك في إدامة الحركة العلمية في الجملة، وإن لم يفد اللغة العربيةَ فائدة تذكر لمكان العُجْمةِ منهم. أما علومُ العرب وأدبُها فلم يكن لها مَبَاءَةٌ ترجع إليها إلّا البلادَ العربية كالشام ومصر. غير أنه أصبحت اللغةُ التركيةُ العثمانيةُ هي اللغةَ الرسميةَ للأعمال الديوانية والسياسية في جميع الممالك العثمانية، فزاحمت اللغةَ العربيّة مزاحمة ظهر أثرُها بيّناً في تحرير الرسائل الديوانية والمعاهدات السياسية، ودخل في اللغة أثناءَ دولتي المماليك والعثمانيين كثير من الألفاظ التركية والفارسية.

النثر: لغة التخاطب

كادت تحُلّ محلّ اللغة العامية العربية (في أعالي الجزيرة وشرقيّ العراق) اللغة الفارسيةُ والتركية والكرديةُ ممزوجة بشيء من الألفاظ العربية. أما في بقيّة الجزيرة والعراق ومصر والشام، فقد بقيت العامية العربيةُ لسانَ الجميع فيها حتى الملوك والسلاطين لغلبة العناصر العربية فيها. بل دوّن بها بعض العلماء ونظم بها الشعراء ثم أخذت العناية بها في الانحطاط.

الخطابة

لم تتغيَّر الخطابةُ عما كانت عليه أواخر الدولة العباسية من حيثُ قُصُورُها على خُطَب الجُمع والأعياد وتلاوة بعض المرسُومات والمنشُورات، وبقيت لغةُ الخطَابة العربيةَ وحدها أو مع الترجمة إلى الأعجمية.

الكتابة: الكتابة الخطية

دَرَجَ الخط في هذا العصر في الطريق التي مهدَّها ابن مقلة وابن البواب وياقوت الملكي وياقوت المستعصمي، واستعملت فيه أكثر أنواعه. ومازال الخط يجري في مضماره حتى قبض على عنانه متكسِّبو الترك العثمانيين، فأبدعوا في تحسينه بما جعل جميع العالم يعترف لهم بالسبق. ومن أشهرهم الشيخ حمد الله الأماسي إمام الخطاطين العثمانيين، وجلال الدين، والحافظ عثمان المتوفى سنة ١١١٠هـ.

الكتابة الإنشائية: كتابة الرسائل

أُتُّبعت في كتابة الرسائل أثناء هذا العصر طريقةُ القاضي الفاضل التي أساسها المعاني الخيالية والتزام السجع والمحسنات البديعية. وعضّد هذه الطريقة من كُتاب هذا العصر شهابُ الدين محمودٌ الحلبي المتوفى سنة ٧٥٥هـ، ومُحيي الدين بن عبد الظاهر، وابن فضل الله العُمَرِي وأولاده. وبقيت هذه الطريقة مرعية في مصر والشام حتى نهاية دولةِ المماليك وصدر حكومة العثمانيين. ولما غلبت اللغة التركيةُ العثمانيةُ على كتابة الدواوين وأصبحت رسمية في الحواضر والأمصار، أخذ شأنُ الكتابة العربية في الاضمحلال.

الكُتَّاب

(١) القاضي مُحيي الدين عبد الظَّاهر

هو الكاتب الشاعر عبد الله بن عبد الظاهر الجُذَامي المصري. وُلد سنة ٦٢٠هـ وربَّاه والده، وبرع في كتابة الرسائل سالكاً طريقة القاضي الفاضل وخدم في ديوان الإنشاء مدة الملك الظاهر بيبرس وولديه، وبعض أيام المنصور قلاوون. ويعتبر محيي الدين وابنه محمد فتح الدين من واضعي اصطلاح الإنشاء ونظامِ ديوانه الذي ظلّ مرعيّاً في مصر والشام حتى نسخه النظام التركي العثماني، وتوفي سنة ٦٩٢هـ

وله تآليف ومكاتبات سلطانية كثيرة. وله من رسالة كتبها على لسان الملك المنصور قلاوون يردُّ على صاحب اليمن في تعزيته على موت ابنه:

ولنا ـ والشكر لله ـ صبْر جميلٌ، لا نأسف معه على فائت ولا نَأسَى على مفقود، وإذ علم الله سبحانه وتعالى، حسن الاستنابة إلى قضائه، والاستكانة إلى عطائه، عوّض كلّ يوم ما يقولُ المبشرُ به: هذا مولّى مولود، وليست الإبل بأغلظَ أكباداً ممن له قلبٌ لا يُبالي بالصدَمات كثُرَت أو قَلَّتْ، ولا بالتباريح حَقُرَتْ أو جلّت، ولا بالأزَمات إن هي توالتْ أو تولّتْ، ولا بالجُفُون إن ألْقتْ ما فيها من الدموع والهجوع وتخلّتْ، ويخاف من الدهر من لا حلَبَ أشطُره، ويأسف على الفائت مَن لا بات بنبأِ الخطوب الخطرة. على أنّ الفادحَ بموت الولد الملك الصالح، رضي الله عنه، وإن كان مُنكياً، والنافح بثجوه وإن كان مُبكياً، والنائحَ بذلك الأسف وإن كان لِنار الأسف مُذَكياً، فإن وراء ذلك من تثبيت الله، عز وجل، ما ينْسِفُه نسفاً، ومن إلهامه الصبَر ما يُجدّدُ لتمزيق القلوب أحقَّ ما به تُرْفى. وبكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ عندنا حسن اقتداء يضرب عن كل رثاء صفحاً.

(٢) شهاب الدين بن فضل الله العمري

هو الشاعر الكاتب المصنف القاضي أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري سليل عمر بن الخطاب، وصاحب كتاب «مسالك الأبصار». وُلد بمدينة دمشق سنة ٧٠٠هـ، وتفقّه وتأدّب على أبيه وغيره. وكان أعلمَ أهل القطرين بتاريخ الملوك، وطبقات العلماء، والأُدباء، وعلم وصف الأرض، فوق الفقه الذي نال فيه مرتبة الإفتاء، وتوفي سنة ٧٤٩هـ.

ومن إنشائه في وصف قطّ زبَاد من رسالة طويلة:

وَقِطّ الزباد الذي لا تحكيه الأسود في صُوَرها، ولا تسمح غزلانُ المسك بما يخزُنه من عرفه الطيّب في سُررها، كم تنقل في بيوت طابت موطناً، ومشى من دار أصحابه فقالوا: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾[1].

(١) ص: ١٦.

(٣) لسان الدين بن الخطيب

هو ذو الوزارتين الكاتب الشاعر، أبو عبد الله لسان الدين محمد بن عبد الله المعروف بابن الخطيب. تأدّب وتفقّه واجتمع له من الحكمة والأدب ملكة يلذّ بها أدباء الأندلس كتابة وشعراً وتصنيفاً وسياسة، ومات سنة ٧٧٦هـ.

ومن قصار رسائله رسالة في الشوق كتبها إلى ابن خلدون وهي بعد الديباجة:

أما الشوقُ فحدثْ عن البحر ولا حرج، وأما الصبُر فسلْ به أيّةَ درج، بعد أن تجاوز اللّوى والمنعرَج، لكن الشدَّةَ تعشق الفَرَج، والمؤمن ينشَقُ من رَوُح الله الأرَج. وأنّى بالصبر، على إبر الدّبْر؟ بل الضرب الهَبْر، ومطاولة اليوم والشهر حتى حكم القهر؟ وهل للعين أن تسلو سلو المقْصِر، عن إنسانها المبْصر؟ أو تذهَل ذهولَ الزاهد، عن سرّها الرائي والمشاهد؟ وفي الجسد مُضغةٌ يصلح إذا صلحت فكيف حاله إن رحلت عنه ونزحت؟ وإذا كان الفراقُ هو الحِمامَ الأوّلَ. فعلامَ المعوَّل؟ أعيتْ مُرواضةُ الفِراق على الرّاق، وكادت لَوعة الاشتياق، أن تفضي إلى السِيّاق:

[السريع]

تركتموني بعد تشييعكم أوسِعُ أمرَ الصبر عِصيانا
أقرَعُ بِنّي ندماً تارةً وأستميحُ الدمعَ أحيانا

التَّدوين

ألّف علماء هذا العصر تآليف جمّة أخلفت على العربية بعضَ ما أباده التتار والصّليبيون من الكتب النفيسة. ويرجع أكثر الفضل في ذلك إلى علماء مصر والشام وجالية الأندلس. أما أعاجم المشرق وإن ألّفوا في العلوم الإسلامية والفلسفية، فإن تأثير بيئتهم الأعجمية جعل كتبهم صعبة التّناول ضعيفةَ الأثر في تقدُّم اللسان العربي مما ستعرفه من أحوال العلوم ومؤلفيها.

الأدب

قد كان لأدباء القاهرة من الكُتّاب السّبقُ في وضع الكتب الجامعة التي تبحث في عدة علوم أدبية أو ملحَقةٍ بها. ومن هؤلاء:

شِهاب الدين النُّوَيْري صاحبُ «نهاية الأرب»، وابن فضل الله العُمَري صاحب «مسالك الأبصار»، وشهاب الدين القلْقَشَنْدِي صاحب «صُبح الأعشى»، وممن ألّف في الأدب بمناحٍ مختلفة: جمال الدين الوطواط صاحب «الغرر والعرر»، وشهاب الدين الحلبي صاحب «منازل الأحباب»، و «حسن التَّوسل إلى صناعة الترسُّل»، وشهاب الدين أحمد الأبشيهي صاحب «المستطرف»، والنواجي صاحب «حَلبَة الكميت».

بقية العلوم الإسلامية

لما أباد التتار بقيةَ العلماء والنحاة في الشرق، كاد أفق المشرق والشام ومصر يصفَر من النحاة وأهل اللغة لولا أن تداركها الله بدخول التتار في الإسلام ومعاضدتهم هم والدول التي خلفتهم للعلم والعلماء، وبجلاءِ بعض كبار النحاة واللغويين من الأندلس والغرب قبيل حادث التتار وبعده، كابن مالك، والشاطبي، وأبي حيان، وابن منظور الأفريقي، فجدّدوا النحو واللغة بمصر والشام، وتخرّج عليهم تلاميذ أفاضل كانوا كواكب العصور المتأخرة، فدوّنوا العلم وحفظوه لمن أتى بعدهم ممن نشؤوا في العصور المظلمة.

كتابة التدوين والتّصنيف

أما كتابة التّدوين فكانت في المتون ونحوها موجزة جداً. وكانت في الشروح والمطولات مبسوطة. ومن أشهر المؤلفين في هذا العصر: ابن خلكان، وابن خلدون، والسيوطي، وابن مكرم، والفيروز أبادي، وعز الدين بن عبد السلام المتوفى سنة ٦٦٠هـ، وابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢هـ، وابن هشام النحوي المتوفى سنة ٧٦١هـ، ولسان الدين بن الخطيب المتوفى سنة ٧٧٦هـ، وسعد الدين التفتازاني المتوفى سنة ٧٩١هـ، والسيد الجرجاني المتوفى سنة ٨١٦ هـ، والشهاب الخفاجي.

(١) ابن خلكان

هو قاضي القضاة شمسُ الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر خلكان الإربلي. وُلد سنة ٦٠٨هـ بمدينة إرْبِل وأقام بها إلى سنة ٦٢١هـ، فرحل إلى حَلَب

ومكث بها سنين، ثم إلى دمشق وأقام مدة، ثم أقام بمصر وتولّى القضاء بها، وفيها ألَّفَ أكثر تاريخه العظيم «وَفَيَات الأعيان». ثم تقلّبت به الأحوال بين مصر والشام إلى أن مات بدمشق سنة ٦٨١هـ.

وكان كاتباً بليغاً، وشاعراً مجيداً، حسن المحاضرة، لطيف المعاشرة، واسع الاطلاع، شديد التحري والضبط وتاريخه «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» أفضل ما بأيدي الناس ممن كتب التاريخ لشدة عنايته بضبط الأعلام وأسماء البقاع والبُلدان وتحقيق الحوادث بحسب الإمكان.

(٢) ابن خَلدون

هو عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن خلدون، ولد بتونس سنة ٧٣٢هـ، وتلقى العلم والأدب من أبيه ومن أكابر العلماء، وقرأ الكتب العقلية والفلسفية على بعض حكماء المغرب، واحترف بصناعة الكتابة وهو شاب لم يطر شاربه، ثم وصل بعد ذلك إلى ملوك بني الأحمر فحظي عندهم.

وألف تاريخه في خلال أربعة أعوام، ومقدمته التي لم ينسج أحد على منوالها، ثم عزم على الحج، فدخل مصر سنة ٧٨٤هـ، زمن سلطانها برقوق، ثم استقدم أهله وولده من المغرب، فغرقت بهم السفينة، فأقام بمصر حزيناً، وجلس للتدريس بالجامع الأزهر، وتولى قضاء المالكية سنة ٧٨٦هـ إلى أن مات سنة ٨٠٨هـ.

(٣) جلال الدّين السّيوطي

هو عبد الرحمن جلال الدين بن الإمام كمال الدين الخُضَيْري السيوطي، العالم، المحدّث، المفسّر، صاحب التّصانيف المشهورة. ولد سنة ٨٤٩هـ ونشأ يتيماً وحفظ القرآن وعمره دون الثمان، ثم حفظ متونَ الفقه والنحو، وأخذ العلم عن مشايخ وقته، وابتدأ في التصنيف وسنه ١٧ سنة، ثم لازم الأشياخ وطلبَ العلم في بقاع الأرض، فدخل الشامَ والحجازَ واليمن والهند والمغْربَ والتكْرُور، ونبغ في كثير من العلوم، ورزق التبحُّر في التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع، وتولى التدريس والإفتاءَ ولم يكن أشهرُ منه في زمنه، ويُعَدُّ السيوطي من الأئمة الذين حفظوا العلم للخلَف وسهّلوا سُبُلَهُ للمتأخرين، وقد ترك للناس أكثرَ من ثلاثمائة مُصنَّف، وتوفي سنة ٩١١هـ بالقاهرة.

الشعر

لمَّا كان أكثر الملوك والأُمراء في هذا العصر أعاجمَ بالفطرة، كان ميلهم إلى الشعر العربي غير طبيعيّ، ولذلك انقرض الشعرُ العربيّ من أواسط آسيا وبقيت صُبابةٌ منه بالعراق والجزيرة. وبقي على كل شيء من الرَّونق في الشام ومصر والأندلس والمغرب، غير أنهُ قلّ التكسُّبُ به فيها، فمال أكثر الشعراء إلى انتحال الكتابة في الدواوين صناعة، واستعملوا الشعر قي تملّق الملوك والرُّؤساء، وفي إظهار التفصُّح والتّسلية، فهُجِرَ قوله في الأغراض الهامّة، وعُدِلَ به إلى أغراضٍ أخرى.

الشعراء

ظهر في هذا العصر شعراء كثيرون، من أشهرهم: شرف الدين الأنصاري المتوفى سنة ٦٦٢هـ، وجمال الدين بن نباتة المصري المتوفى سنة ٧٦٨هـ، وشهاب الدين التّلَعْفَرِي المتوفى سنة ٦٧٥هـ، والشاب الظّريف المتوفى سنة ٦٨٨هـ، والإمام البُوصيري المتوفى سنة ٦٩٦هـ، وابن الوردي المتوفى سنة ٧٤٩هـ، وأبو بكر بن حجّة المتوفى سنة ٨٣٧هـ، وصفي الدين الحلّي المتوفى سنة ٧٥٠هـ، وفخر الدين بن مكانس المتوفى سنة ٧٩٤هـ، وابن معتوق الموسوي المتوفى سنة ١١١١هـ، وهاك ترجمة بعضهم:

(١) البُوصِيري

هو شرف الدين محمد بن سعيد بن حمّاد الصّنهاجي البوصيري، صاحب البردة والهمزية. وُلد بدَلاص ونشأ ببُوصِير، ثم انتقل إلى القاهرة، وتعلم علوم العربية والأدب، فقال الشعر البليغ في جدّه وهزله. ومن أشهر شعره قصيدة البردة الشهيرة التي أولها:

[البسيط]

أمِنْ تَذَكُّرِ جيرانٍ بذي سَلَمِ مزَجْتَ دَمْعاً جرَى من مقْلةٍ بدم
أم هبّتِ الريحُ من تِلقاءِ كاظمةٍ وأومضَ البرقُ في الظّلماء من إضَم

فما لعينيك إن قلتَ اكْفُفَا هَمَتَا وما لقلبك إن قلتَ استفق يهِمِ
أيَحسَب الصبُّ أن الحبّ مُنكتم ما بينَ مُنجِم منه ومُضْطرِمِ

ومن حكمها البديعة المشوبة بمحاسن البديع قوله:

والنّفس كالطّفل إن تُهمِلْه شبّ عَلى حُبِّ الرّضاع وإن تفْطمْه ينفطمِ
فاصرفْ هواها وحاذرْ أن تُولّيه إن الهوى ما تولَّى يُصْمِ أو يصِمِ
وراعِها وهي في الأعمال سائمةٌ وإن هي استحلتِ المرعى فلا تُسِمِ
كم حسّنتْ لذةً للمرء قاتِلةً من حيث لم يدر أن السُّم في الدَّسَمِ
واخشَ الدسائس من جوع ومن شبع فرُبّ مخْمَصَةٍ شرٌّ من التُّخَمِ
واستفرغ الدمع من عين قد امتلأت من المحارم والزمْ حِميةَ النَّدمِ

وقصيدته الهمزية في مدحه ﷺ لا تقلُّ عن البُردة في فصاحتها، وأوَّلها:

[الخفيف]

كيف تَرقَى رُقيَّك الأنبياءُ يا سماءً ما طاولتْها سَماءُ
لم يُساووك في عُلاك وقد حا ل سَناً منك دونَهم وسَناءُ

وتوفي البوصيري سنة ٦٩٦هـ بالإسكندريّة، وقبره بها مشهور يزار.

(٢) صَفِيّ الدين الحِلّي

هو عبد العزيز بن علي الشهير بابن سَرَايا الطائي الحِلّي، شاعرُ الجزيرة. وُلد سنة ٦٧٧هـ، ونشأ بمدينة الحِلّة من مدن الفرات، فتأدّب ونظم الشعر وأجاده وأصبح فيهِ أشهرَ شعراء عصره، وخدم به الملكَ المنصورَ نجم الدين غازي بن قره أرسلان، أحد ملوك الدولة الأرْتُقيّة (ديار بكر).

واتصل بعده بابنه الملك الصالح شمس الدين، ثم ذهب إلى الحج، وعرَّج مُنْصَرَفَه منهُ على مصر فمدح الملك الناصرَ بنَ قلاورن وتوفي سنة ٧٥٠هـ.

ويعتبر صفي الدين من أئمة البديع المبتدعين في أنواعه المُغالين في استعماله في شعرهم بلا كثير تكلُّف، وهو أوَّلُ من نظم القصائدَ النبويةَ الجامعة لأنواع البديع المسماةَ بالبديعيات على مثال بُرْدة البوصيري. ومن قوله في الأدب:

[الكامل]

اسمعْ مخاطبةَ الجليس ولا تكنْ عجلاً بنُطقك قبلَما تَتفهَّمُ
لم تُعْطَ مع أُذْنيك نُطقاً واحداً إلاَّ لِتسمَع ضِعفَ ما تتكلمُ

وله:

[الطويل]

بقدر لغاتِ المرءِ يكثرُ نَفْعهُ فتلك له عِندَ الشدائد أعْوانُ
تَهافَتْ على حِفظ اللغات مجاهداً فكل لِسانٍ في الحقيقة إنسانُ

(٣) ابن نباتة المصري

هو جمال الدين محمد بن محمد المعروف بابن نباتة، أشعر شعراء المصريين زمن المماليك. ولد سنة ٦٨٦هـ، ونشأ بالقاهرة، وتلقى العلم والأدب، وأكبّ على قراءة شعر القاضي الفاضل ورسائله، فرسخت فيه طريقته من الوَلوع بالتّورية والتّلميح والطّباق، ولم يأت بعده من شعراء مصر والشّامِ من بلغ غايَته في لطف التّصوّر ورقة اللفظ وانسجام العبارة ومات سنة ٧٦٨هـ ومن شعره قوله:

[البسيط]

يا مشتكي الهمّ دعْه وانتظر فرجاً ودارِ وقتَكَ من حينٍ إلى حِينِ
ولا تعاندْ إذا أصبحت في كدَرٍ فإنما أنت من ماءٍ ومن طينِ

(٤) ابن مَعْتوق المُوسَوِيّ

هو شهاب الدين بن معتوق الموسوي، شاعر العراق في عصره، وسابق حلبته في رقة شعره. ولد سنة ١٠٢٥هـ. ونشأ بالبصرة وبها تعلّم وتأدب وقال الشعر وأجاده.

وابن معتوق من كبار شعراء الشّيعة فمدح عليّاً والشهيدين بما يخرج عن حدّ الشرع والعقل، ومات سنة ١١١١هـ.

ويمتاز شعره بالرقة وكثرة المجازات، حتى لتكاد الحقيقة تُهمل فيه جملة.

العصر الخامس: عصر النهضة الأخيرة

محمد علي ـ سنة ١٢٢٠هـ

قَدِم «محمد علي» إلى مصر ضابطاً في الحملة التي وَجَّهَتها تركيا لإخراج الفرنسيين من مصر، وكان راجح العقل، استطاع أن يجمع حولهُ أعيان المصريين وكبار عُلمائهم بلطف مُعاملتهم وحسن معاشرتهم، فأحبُّوه وآثروه، وأعانوه على الحكومة التركية حتى قلدته ولايةَ مصر وهي لذلك كارهةٌ.

وكان أول هَمٍّ لمحمد علي في ولاية الحكم أن يتخلص من المماليك، فأوقع بجمهرتهم في القلعة سنة ١٢٢٦هـ (١٨١١م).

بعد ذلك وَجَّهَ هِمَّته إلى أن يُنشئ جَيشاً له كلُّ ما للجيوش الحديثة، فأنشأ في قصر ابن العيني مدرسة حربية إعدادية سنة ١٨٢٥م وجمع فيها التلاميذ من طوائف مختلفة إلا المصريين، غيرَ أن هذه التَّجربة أخفقَتْ فاضطُرّ إلى أن يجعل أكثر التلاميذ بعدُ من المصريين، وكانت لغة التعليم الأساسية هي التركية، وكانت تُدْرَسُ إلى جانبها العربية وغيرها، وكان قد سبق فأرسل طائفة من المماليك إلى بعض البلاد الأوربية لدراسة الفنون الجُنْدية.

ثم أنشأ مدرسة أركان الحرب في جهة أبي زعبل من ضواحي القاهرة، ودعا لها بأساتذة من الفرنسيين.

مدرسة الطب

علمت أن هِمّة محمد علي اتجهت بادئ الأمر إلى إنشاء جيش منظم مجهز بجميع الوسائل الحديثة، ولم يكن في مصر إلى ذلك الوقت أطباء اللهم إلا نَفراً قليلاً من الإفرنج لتطبيب مرضى الجاليات الأجنبية، وكانت إذا نَشِبت المعارك الحربية يُدْعى بالحلاقين ليأسوا الكلوم ويضمدوا الجروح، لهذا عمد محمد علي إلى إنشاء مدرسة طبية بجهة أبي زعبل في سنة (١٣٤٢هـ ١٨٢٦م) يقوم بإزائها

مستشفى كبير، ودعا لها بأساتذة من الإفرنج، وكان التعليم في هذه المدرسة شاقاً مجهداً، فإن أساتذتها لم يكونوا يعرفون العربية، وطلابها لا علم لهم باللغات الإفرنجية، فدعت هذه الضرورة إلى أن يقوم بين الأساتذة وتلاميذهم مترجمون.

إيقاظ محمد علي الشرق بحُسن بلائه في السياسة والحرب

استمكن سُلطان محمد علي بما أعدّ من جيش قويّ في البرّ، وأسطول عظيم في البحر، وعِلم عالٍ يأخذ به أبناء البلاد، ومعامل ومصانع أغنته عن كثير ممّا يَرِد من الغرب، ومشروعات للري ضاعف بها استثمار الأرض، وغير ذلك من وسائل الإصلاح، ولقد استعانت به تركيا في إخماد الفِتَنِ في أطراف بلادها، كما استعانت به في حروبها مع الدول الأخرى، كما تمكن بجيشه من فتح السودان كما اقتطع شطراً من أملاك تركيا بعد أن شجر الخُلف بينه وبينها، وكاد يظفر بحاضرة مُلكها لولا أن تألّبت عليه الدول الأوربية وحُلْن بينهُ وبين غايته.

أما الأسطول الضخم الذي بناه محمد علي، فقد أحرقته تلك الدول غِيلَة في واقعة «نافارين». ولقد أتى بالعلماء والأساتذة وأهل الفنون من أوربا، وبعث البعوث إلى بلادها، وأقام المدارس في مصر على نهج مدارسها، وتقدم بترجمة ما يُحتاج إليه في وسائل الحياة المختلفة، وبهذا وغيره انتظمت العلاقات بين الشرق والغرب.

إسماعيل وإ مه بناء جدِّه

قُبض محمد علي باشا في سنة ١٢٦٥هـ (١٨٤٩م) بعد أن حكم مصر أكثر من أربعين سنة بعثها فيها من الموت بعثاً، وأنهضها نهضة قوية تَلَفَّتَ لها وجْهُ التاريخ، وما كاد المُلْك يصيرُ إلى حفيده عباس الأول حتى خَبَتْ تلك النهضة فأغلقت المدارس، وعُطلت المصانع وفترت تلك الحركة العظيمة التي تناولت جميع مرافق الحياة في البلاد، وكذلك كان شأنُ خلفه سعيد بن محمد علي طول أيام حُكمه، حتى إذا انتهت ولايةُ مصر في سنة ١٢٧٩هـ (١٨٦٣م) إلى إسماعيل بن إبراهيم بن محمد

علي تأثرَ في سبيل الإصلاح بخطى جدّه العظيم وراحَ يُتِم ما بُنيَ لمجدِ مصر، ونهضَ بوجوه الإصلاح التي تقوم عليها الثروة والقوَّة والعلم والعظمة في كل البلاد.

مظاهر النهضة الحديثة في العلم والأدب

لم يكن للبُعوث العلمية التي أوفدها محمد علي في مُبْتدأ الأمر إلى أوروبا شأن جليل. وأولها كان في سنة (١٨١٣م) على أنه ما برح يُوالي إرسال البُعوث حتى كانت سنة ١٢٤٢هـ (١٨٢٦م) إذ أوفد إلى أوربا بعثة عظيمة يزيدُ عدد طلابها على الأربعين، أحرزوا قبل سفرهم قدراً صالحاً من التعليم والتثقيف. وظل بعد هذا يوفد البعوث العلمية إلى مختلف البلاد الأوربية للتبحر في العلوم والفنون، ولم يَقْنَع بهذا بل أقام في باريس نفسها «مدرسة» جمعت نحو الأربعين طالباً، فيهم بعض الأمراء من أولاده وأحفاده.

الترجمة والتأليف

كان أوَّل عهد مصر بالترجمة في هذا العصر، ما قام به أولئك المترجمون الذين جاء بهم محمد علي ليؤدُّوا بالعربية إلى طلبة مدرسة الطب ما كان يُلقيه عليهم أساتذتهم من الدروس باللغة الأجنبية. فلما أخرج بعض هؤلاء الأساتذة بلغاتهم كتباً ورسائل في فنون الطب، وأُريد ترجمتُها إلى العربية جاء محمد علي بطائفة ممن تفقهوا في العربية لمعاونة أولئك المترجمين على تحرير العبارة وضبط المصطلحات العلمية، بقدر ما اتسع له علمهم بالعربية، وما عثروا عليه من مصطلحاتهم، وكان هذا عملاً شاقاً مضنياً.

وكانت جَمْهرة المترجمين أوّل الأمر من الأطباء، لأن الطب أوَّل العلوم الحديثة التي عُنيَ بدراستها في مصر بعد العلوم الحربية، ثم توالت الترجمة في العلوم والفنون الأخرى على يد من تخَرَّجوا فيها من الطلاب.

أما التأليف في العلوم الحديثة فكان في مبتدأ الأمر ضئيلاً، وكان أكثره من وضع الأجانب الذين جاء بهم محمد علي ليبتغي بهم وسائل الإصلاح المنشود.

على أن المصريين قد جعلوا يُقْبِلون على مُعالجته، وخاصة من عهد إسماعيل حتى بلغ اليوم غاية محمودة، مازالت البلاد تتطلع منها إلى المزيد[١].

حالة اللغة العربية وآدابها في هذا العصر

كانت حالة البلاد العربية في أوائل القرن الثالث عشر غاية ما وصلت إليه من الفساد والاضمحلال، فلما استولى ساكنُ الجنان محمدُ علي باشا على مصر رَأى بحكمته أن يربّي مَنْ يكونُ خيرَ واسطة لنقل معارف الأوروبيين إليها. فبعث إلى أوروبا بثلاثة بُعوث علمية في أزمنة مختلفة كوّنت بعدُ ثلاثَ طبقات من العلماء،

(١) ومن أبرع من برعوا (في أثناء هذه النهضة) في التّأليف والتّرجمة في فنون الطب والصّيدلة مرتبين على حسب تاريخ وفاتهم: إبراهيم بك النبراوي ١٢٧٩هـ (١٨٩٢م) وأحمد بك حسن الرشيدي ١٢٧٢هـ (١٨٦٥م)، ومحمد علي باشا البقلي ١٢٩٣هـ (١٨٧٦م) وأحمد بك ندى ١٢٩٤هـ (١٨٧٧م) وسالم باشا سالم ١٣١١هـ (١٨٩٣م)، ومحمد الدري باشا ١٣١٨هـ (١٩٠٠م)، وحسن محمود باشا ١٣٢١هـ (١٩٠٣م).

وممن برعوا كذلك في العلوم الرياضيّة ترجمة وتأليفاً: محمد بك بيومي ١٢٦٨هـ (١٨٥١م)، وبهجت باشا ١٢٨٤هـ (١٨٦٧م)، ومحمود باشا الفلكي ١٣٠٣هـ (١٨٨٥م)، وشفيق بك منصور ١٣٠٨هـ (١٨٩٠م)، ومختار باشا المصري ١٣١٥هـ (١٨٩٧م)، وإسماعيل باشا الفلكي ١٣١٩هـ (١٩٠١م).

ومن خير من ألفوا أو ترجموا في العلوم المختلفة في صدر هذه النهضة: الشيخ عبد الرحمن الجبرتي ١٢٤٠هـ (١٨٢٥م)، والشيخ شهاب الدين المصري ١٢٧٤هـ (١٨٥٧م)، ورفاعة بك رافع الطهطاوي ١٢٩٠هـ (١٨٧٣م)، ومحمد قدري باشا ١٣١٣هـ (١٨٨٥م)، وأحمد فارس الشدياق ١٣٠٥هـ (١٨٧٨م)، والشيخ عبد الهادي نجا الأبياري ١٣٠٦هـ (١٨٨٨م)، والشيخ حسين المرصفي ١٣٠٧هـ (١٨٨٩م)، والشيخ محمد بيرم ١٣٠٧هـ (١٨٨٩م)، وعلي مبارك باشا ١٣١١هـ (١٨٩٣م)، والشيخ محمد العباسي المهدي ١٣١٥هـ (١٨٩٧م)، وعثمان بك جلال ١٣١٦هـ (١٨٩٨م)، وأمين فكري باشا ١٣١٧هـ (١٨٩٩م)، والشيخ إبراهيم اليازجي ١٣٢٣هـ (١٩٠٦م)، وقاسم بك أمين ١٣٢٦هـ (١٩٠٨م)، وعمر بك لطفي (١٩١٤م)، وعلي أبو الفتوح المتوفى سنة ١٩١٣م ومحمد بك النجاري ١٣٣٢هـ (١٩١٤م)، وأحمد فتحي زغلول باشا ١٣٣٢هـ (١٩١٤م)، وجرجي زيدان (١٩١٤م)، وإسماعيل سرهنك باشا (١٩٢٤م)، والشيخ محمد بك الخضري (١٩٢٦م).

ولا شك في أن هذه النهضة الحديثة مدينة في مستهلها لشيخ المترجمين على الإطلاق رافع بك، كما أنها مدينة لأكبر المؤلفين المصلح العظيم علي مبارك باشا.

والأطباء، والمهندسين، والضباط. فنقلوا إلى اللغة العربية عشراتِ الكتب الجليلة في العلوم المختلفة، فأحدث ذلك في اللغة العربية انقلاباً عظيماً، واكتسبت من سَعة الأغراض والمعاني، والألفاظ العلمية، والأساليب الأجنبية، وطرق البرْهنة والاستنباط، وترتيب الفكر ثروةً طائلةً.

ورأى العلماء والأدباء أنه صارت لهم دولة منظمة متحضرة تتقبّل منهم بقبول حسن كلَّ ما يحسنونه من نتيجة كدهم وثمرة أفكارهم، فالتفوا حولها وصار للدولة كتابٌ وشعراء ومنشؤون في جريدتها «الوقائع» أوَّل جريدة عربية، واقتدى بمصر أهل الشام.

ومن الأسف أن هذه النّهضة لم يستمر سيرها في مصر كما استمر في الشام، بل ركدت ريحها زمن عباس باشا الأول وزمن سعيد باشا، ثم تنسّمت في عصر إسماعيل، وما لبثت أن صارت رُخاء طيبة فأعاد سيرةَ جدّه في نشر العلم، وظهرت ثمرةُ أعماله في حياته، وكادت مصر توشِك أن تكون قطعة من أوروبا.

النثر: المحادثة أو لغة التخاطب

كانت العامية في أوائل هذه العصور غاية في الانحطاط، ثم لما انتشر التعليم بين طبقات المصريين دخل في عباراتهم كثير من الفصيح، وانتقل ذلك لمعاشريهم من الأميين وبعض النساء، ومما ساعد على ذلك أيضاً جعل التقاضي باللغة الفصيحة وكثرة الصحف والمجلات والروايات.

الخطابة

كان المصريون والسُّوريون أوائلَ هذا العصر لا يستعملون الخَطابةَ في غير الأغراض الدينية، ثم اتسعت دائرة الأفكار في عصر إسماعيل باشا، وصادفَ ذلك مجيء السيد جمال الدين الأفغاني إلى مصر، والتفّ حوله لفيف من أدباء المصريين والسُّوريين، فأدخلهم في عداد جمعيته وألّف منهم أندية كانوا ينتابون الخطابة فيها في الأمور الدينية والسياسية والاجتماعية. وانتشرت الخطابة بين شبان

مصر، وفشَتْ بعد عصر إسماعيل في زمن توفيق باشا وصاحب السموّ الخديوي عباس باشا الثاني.

ومن أشهر خطبائهم: السيد عبد الله النديم المتوفى علم ١٣١٤هـ (١٨٩٦م) والشيخ محمد عبده المتوفى ١٣٢٣هـ (١٩٠٥م) ومصطفى باشا كامل المتوفى عام ١٣٢٦هـ (١٩٠٨م) وسعد باشا زغلول المتوفى عام ١٣٤٧هـ (١٩٢٧م) والشيخ عبد العزيز جاويش بك المتوفى عام ١٩٢٧م وغيرهم، حتى بلغت الخطابة في عصرنا هذا مبلغاً عظيماً.

الكتابة الخطية

وقف الخط في سبيل تقدمه عند الحد الذي رسمته له الطبقة الناشئة في القرن العاشر والحادي والثاني عشر من خطاطي الترك، وكل مَنْ نشأ بعدهم فإنما هو متّبع طريقهم. وأشهرهم عبد الله الزهدي، وهو الذي خط بالقلم الجليل جدران المسجد النبوي وجدران سبيل والدة عباس باشا الأول بالصليبية بالقاهرة، ومحمد مؤنس أفندي، وتخرّج عليه وعلى تلميذه محمد جعفر بك جميع خطاطي قطرنا المصري.

الكتابة الإنشائية

مضى العصر المتقدم وليس لكتاب الدواوين في أواخره شأن يذكر لجعل التركية هي اللغة الرسمية، وأقبل العصر الحاضر والحال لم تتغير في الممالك العثمانية إلاّ قليلاً وشرعت تتغيّر في مصر. ثمّ لما أنشئت المدارس النظامية نشأت طبقة من كتاب الدواوين رقّوا كتابتها. وقد هُجر السّجع الذي أكثر منهُ الأقدمون، إلا أن عبد الله باشا فكري أشهر المصلحين للكتابة الديوانية الفصيحة ألمَّ به في كثير من مكاتباته الرسمية، كما سبق ذلك في المكاتبات.

أمَّا كتابة التأليف والصُّحف فأخذت تنحو منحى كتابة ابن خلدون في «مقدمته». ولما وَلِّتِ الحكومة الشيخ محمد عبده تحرير «الوقائع الرسمية»

والإشرافَ على تحرير الجرائد، ترقّت كتابتها كثيراً ودرجت في سبيل التقدّم إلى الآن.

كتابة التّدوين

كان أكثر الكُتب التي أُلفت أو تُرجمت في مصر علمية، لشدّة احتياجها إليها. أما سورية فكانت حالة الأدب فيها في النصف الأول من العصر الحاضر خيراً منها في مصر، ولكن مصر نهضت في النصف الثاني واسترجعت حياتها الأدبية، وأدخلت دراسة أدب اللغة في مدارسها وألّف فيه عدّةُ كتب. وانحطّ شأنُ سورية في العربية فلم ينبغ في اللغة من السوريين في السّنوات الأخيرة مَنْ يضارع سابقيهم.

ومن أشهر العلماء الأزهريين في هذا العصر: الشيخ عبد الرحمن الجَبرْتي المتوفى في ١٢٤٠هـ (١٨٢٥م) والشيخ حسن العطار المتوفى في ١٢٥٠هـ (١٨٣٤م).

ومن غير الأزهريين من أهل النهضة الحديثة: رفاعه بك شيخ المترجمين والمؤلفين، وعلي مبارك باشا المتوفى في ١٣١١هـ (١٨٩٣م)، وجمال الدين الأفغاني المتوفى في ١٣١٤هـ (١٨٩٧م)، وجورجي بك زيدان المتوفى في ١٣٣٢هـ (١٩١٤م)، وأحمد فارس الشدياق اللبناني المتوفى في ١٣٠٥هـ (١٨٨٧م)، والدكتور يعقوب صَرُّوف صاحب مجلة المقتطف المتوفى في ١٣٤٦هـ (١٩٢٧م)، وَوَلي الدين بك يكن المتوفى في ١٣٣٩هـ، والشيخ محمد عبد المطلب المتوفى في ١٣٥٠هـ (١٩٣١م)، والشيخ محمد بك الخضري المتوفى في (١٩٢٧م)، والشيخ أحمد مفتاح المتوفى في ١٣٢٩هـ، وفتحي باشا زغلول المتوفى في (١٩١٤م)، والشيخ نجيب الحداد المتوفى في (١٨٩٩م)، وعبد الله باشا فكري، والشيخ حسين المرصفي المتوفى في ١٣٠٧هـ (١٨٨٩م)، والشيخ ناصيف اليازجي المتوفى في ١٢٨٧هـ، وإبراهيم بك المويلجي المتوفى في ١٣٢٣هـ، ومحمد بك المويلجي المتوفى في (١٩٣٠م)، وقاسم بك أمين المتوفى في ١٣٢٦هـ، والسيد لطفي

المنفلوطي المتوفى في (١٩٢٤م)، والشيخ إبراهيم اليازجي المتوفى في ١٣٢٣هـ (١٩٠٦م)، وحفني بك ناصف المتوفى في ١٣٣٧هـ، والشيخ علي يوسف صاحب جريدة المؤيد المتوفى في ١٣٣١هـ (١٩١٣م)، وأديب إسحاق المتوفى في ١٣٠٣هـ (١٨٩٢م)، ومصطفى بك نجيب المتوفى في ١٣٣٠هـ، وإسماعيل باشا صبري، وبطرس البستاني المتوفى في ١٣٠١هـ (١٨٨٣م)، وسليم باشا تَقْلا المتوفى في ١٣١٠هـ (١٨٩٢م).

وهاك ترجمة بعض زعماء النهضة الحديثة:

(١) رفاعة بك الطهطاوي المتوفى سنة ١٢٩٠هـ

هو الكاتب الشاعر السيد رفاعة بك الحسيني الطهطاوي شيخ الترجمة وإمام النهضة الحديثة. وُلد بطهطا من أُسرة شريفة، وتأدّب وتعلّم في الجامع الأزهر، ثم انتُخب إماماً لبعض فرق الجيش. ولم يلبث أن اختاره المرحوم محمد علي باشا إماماً ومعلماً لأول بعث علمي أُرسل إلى فرنسا سنة ١٢٤١هـ، فراقته علوم أوروبا وعظمتها فأكبّ بنفسه على تعلم اللغة الفرنسية. فلما عاد إلى مصر سنة ١٢٤٧هـ اختاره محمد علي باشا رئيساً للترجمة بمدرسة أبي زعبل، واشترك هو وأُستاذه الشيخ حسن العطار في إنشاء جريدة «الوقائع المصرية» وتحريرها، ثم نقل إلى مدرسة المدفعية (الطبجية)، ثم صار مديراً لمدرسة الألسن والترجمة. ثم انتُخب عضواً بلجنة المدارس وتولّى إدارة مجلّة «روضة المدارس المصرية»، وعكف على الترجمة والتأليف حتى توفي سنة ١٢٩٠هـ تاركاً لمصر كتباً ورجالاً هم أركان النهضة الحديثة، وآخر ما ألّفه «نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز».

(٢) عبد الله فكري باشا المتوفى عام ١٣٠٧هـ - ١٨٨٩م

هو عبد الله فكري بن محمد بليغ الضابط ابن الشيخ عبد الله وهو أحد أركان النهضة الأدبية في الديار المصرية. وُلد سنة ١٢٥٠هـ وأكبّ على تعلّم علومه بالأزهر مشتغلاً أيضاً باللغة التركية واستُخدم من أجلهامترجماً للعربية والتركية في عدّة مناصب آلت إلى نقله إلى حاشية سعيد باشا ثم إسماعيل باشا، فعهد إليه بتأديب بنيه الكرام وغيرهم من أمراء بيت الملك. ثم تقلّب في جملة مناصب آخرُها نظارة المعارف سنة ١٢٩٩هـ، وبقي بها حتى زمن الثورة العرابية فسقط مع الوزارة.

واتُّهم في الثورة فقبض عليه، ثم اتّضحت براءَته فأطلق وردّ إليه معاشه بعد أن استعطف الخديوي توفيقاً بقصيدة طويلة. وتوفي سنة ١٣٠٧هـ (١٨٨٩م).

وكان فكري باشا كاتباً بليغاً سلك في كتابته طريقة كتّاب القرن الرابع كالبديع الهمذاني والخوارزمي من التزام السجع القصير القليل التكلف، ولذلك يقول فيهِ المرحوم الشيخ حسين المرصفي مدرس دار العلوم: لو تقدّم به الزمان، لكان فيه بديعان، ولم ينفرد بهذا اللقب علاّمة همذان.

(٣) عليُّ مبارك باشا المتوفى عام ١٣١١هـ ــ ١٨٩٣م

هو أبو المعارف المصرية، العالم المؤرّخ، المؤلف المترجم، المُربّي العظيم عليُّ بن مبارك بن سليمان بن إبراهيم، مصلح العلم والإدارة بالديار المصرية ومؤسس دار العلوم، ودار الكتب العربية.

وُلد سنة ١٢٣٩هـ، وكان يرسله والده إلى معلّم قاس يتعلّم عليه القرآن الكريم فحفِظهُ، وهرب من المعلم لقسوته وضَرْبِهِ، وأخذ يتعلم الكتابةَ على بعض الكتّاب حتى عثر في بعض خرجاته بتلاميذ ذاهبين إلى مدرسة أبي زعبل، فصحبهم ودخل المدرسة.

ثم اختير في جملة من تلاميذها إلى مدرسة القصر العيني، وعمره ١٢ سنة، ودرس الرياضة فبرع فيها، فاختير طالباً بمدرسة الهندسة، فأكمل في خمس سنوات درْس فن الهندسة وأرسل إلى أوروبا سنة ١٢٦٠هـ ليتمم دراسته بها. فمكث نحو أربع سنوات درس فيه فن الهندسة والحرب، ثم عاد إلى مصر ضابطاً بالجيش. ثم قدّم لعباس باشا الأول مشروعاً بنظام المدارس المصرية فأعجبه وعهد إليه رياسة ديوانها، فقام به خير قيام، وألّف بعض الكتب الدراسية، فكأن أوّل مَنْ نظّم المدارس المصرية.

وتزاحمت عليه المناصبُ، فكان مديراً للسكك الحديدية، وناظراً للمعارف وللأشغال وللأوقاف والقناطر الخيرية، فقام بذلك جميعاً في آن واحد خيرَ قيام. ومن أعماله العظيمة إنشاءُ دار الكتب، وإنشاءُ مدرسة دار العلوم ليُوفّقَ بين طلبة العلم القديم وطلبة العلم الحديث ويحسّن تعليم العربية، فجاءت هذه المدرسة بأحسن ما يطلب منها، وتجديدُ مدينة القاهرة وأمهات مدن القطر إلى أن وافته المنية سنة ١٣١١هـ (١٨٩٣م).

(٤) الشيخ محمد عبده المتوفى عام ١٣٢٣هـ ــ ١٩٠٥م

هو المُصلحُ الكبير، والمجتهد الخطير، والكاتب البليغ، والخطيب المصقع، الأستاذ الإمام الحكيم الشيخ محمد عبده، أحد أركان النهضة العربية ومؤسسي الحركة الفكرية. وُلد سنة ١٢٦١هـ بإحدى قرى مديريّة الغربية، ونشأ بين أُسرته بمحَلة نصر من مديرية البحيرة، وترك بلا تعليم حتى ناهزت سنُّه العاشرة. ثم رغب في التعلُّم فحفظ القرآن الكريم، وطلب العلم بالجامع الأحمدي، ثم انتقل إلى الأزهر ونبغ في علومه.

ولما قدم مصر السيد جمال الدين الأفغاني سنة ١٢٨٦هـ، وأعاد إلى مصر دراسة الفلسفة وعلوم الحكمة والكلام، لزمه الشيخ محمد عبده وكان أنبغ تلاميذه، وأحرصهم على ملازمته والاستفادة منه. ونال درجة العالمية سنة ١٢٩٤هـ، واختير سنة ١٢٩٥ مدرّساً للأدب والتاريخ العربي بدار العلوم ومدرسة الألسن، ثم اختير لإصلاح لغة «الوقائع المصرية»، ثم صار رئيس تحريرها.

وفي هذه المدة جعله رياض باشا مراقباً على كتابة الجرائد وتحريرها. وحدثت عقب ذلك الثورةُ العرابية، ونُفِيَ من مصر إلى سورية، وتولى التدريس بمدارسها، ثم انتقل إلى أوروبا فالتقى بالسيد جمال الدين بباريس فأنشآ جريدة «العروة الوثقى». ثم عفا عنه الخديوي وعاد إلى مصر قاضياً بالمحاكم الأهلية، ثم مفتياً للديار المصرية، وتولى التدريسَ بالأزهر، ومازال كذلك حتى توفي سنة ١٣٢٣هـ.

(٥) الشيخ حمزة فتح الله المتوفى سنة ١٣٣٦هـ - ١٩١٨م

هو الشيخ الوقور، اللغوي، الحجة، التقي، الشيخ حمزة فتح الله.

ولد رحمه الله بثغر الإسكندرية سنة ١٢٦٦هـ - ١٨٤٩م. ونشأ بها. وبعد أن حفظ القرآن الكريم انتظم في سلك طلبة العلم بجامع الشيخ إبراهيم باشا، ثم أكمل دراسته بالأزهر الشريف، وأمعن في قراءة الأدب واللغة، وقرضَ الشعر وحَرَّر الرسائل، وحفظ الغريب. ثم عاد إلى الإسكندرية، واختير في منتصف العقد الثالث من عمره، محرراً في إحدى الصحف التونسية، فمكث هناك حوالي ثماني سنوات اكتسب فيها الدّربة على كتابة الصحف السياسية. ثم عاد إلى مصر فوجد نار الثورة

العرابية مستعرة، فانضمّ إلى حزب الخديوي توفيق، وكتب وخطب في تأييده. وبعد أن انتهت الثورة العرابية استخدم في وزارة المعارف ومكث بها زهاء ثلاثين سنة، منتقلاً بين التفتيش والتدريس حتى مات سنة ١٩١٨م.

علمه وأعماله: كان الشيخ كثير القراءة في كتب اللغة، والأدب، والحديث، شديد الحفظ والذكر، قلما تحدث أمامه حادثة أو تذكر إلا رَوى فيها شعراً، أو مثلاً أو قصة. وكان فكه المحاضرة، صحيح العبارة يحوكها على سنن العربية الفصيحة. وهو أعلم مَنْ شاهدناه باللغة والأدب والصرف.

عهد إليه بالتدريس في دار العلوم فأحيا بتدريسه وتأليفه ما دثر من آثار السالفين كالجاحظ والمبرِّد والقالي والمُرْتضى، وأظهر ما كان ذلك في مواهبه الفتحية.

أسند إليه تفتيش اللغة العربية في مدارس الحكومة على اختلاف أنواعها، فرأى المجال فسيحاً لتخليصها من أدران العامية، وأوضار الدّخيل، وفساد التراكيب وعجمة الأساليب، فأخذ يرشد المعلمين إلى ما يعثر عليه من ذلك في كتابة التلاميذ ويتحفهم بمرادفه تارة، ويرشدهم إلى المظانّ أخرى، فيتنبه بذلك الغافل.

أخلاقه: كان الشيخ حليماً رحيماً، تقياً ورعاً، لا تأخذه في الله لومة لائم.

كان يحب العرب والعربية، ويرى أن الله خصَّهما بكل مزية.

مؤلفاته: مما عُرف عن مؤلفاته، كتاب «المواهب الفتحية في علوم اللغة العربية»، و«باكورة السلام في حقوق النساء في الإسلام»، و«رسالة في التوحيد»، وكتيب في المفردات الأعجمية التي في القرآن الكريم، وغير ذلك.

شعره وكتابته: كان بدوي الشعر من حيث ألفاظه ومعانيه، وتراكيبه وأساليبه وتشبيهاته واستعاراته على طريقة شعر العلماء. فمنه قوله:

[البسيط]

كم جامعٍ بالثريّا راضه سفر ... فوق الثرى بين أكوار وأقتابِ
إن الثَّواء ثواءٌ والقصور قبـ ... ـر العاجزين ولا إبراءَ للخابي
ومن بَغى نَيل مجدٍ وهو في دَعةٍ ... فقد بغَى من صَفاةٍ دَر أحلابِ
والمرءُ في مَوطن كالدُّر في صدَفٍ ... والتِّبرِ في معدنٍ والنّبع في غابِ

والسيفُ مثلُ العصا لمن كان مُعْتمداً وزَامرُ الحيِّ لا يحظى بإطرابِ
وأزهدُ الناس في علم وصاحبه أدنى الأحبة من أهلٍ وأصحابِ

(٦) باحثة البادية السيدة ملك حفني ناصف المتوفاة سنة ١٣٣٧هـ

هي المفكرة، الكاتبة، الشاعرة، السيدة ملك حفني ناصف.

ميلادها ونشأتها: ولدت بالقاهرة سنة ١٨٨٦م، ولما ميزت أرسلها والدها إلى إحدى المدارس الأولية، ثم إلى المدرسةِ السنية فحصلت منها على شهادة الدراسة الابتدائية سنة ١٩٠٠م (وهي أول سنة تقدمت فيها الفتيات لنيل هذه الشهادة) ثم أتمت دراستها في قسمها العالي، واختيرت مُدرّسة في مدارس البنات بالقاهرة، وفي سنة ١٩٠٧م تركت التعليم العلمي واشتغلت بالتعليم العملي في بيت زوجها.

أخلاقها وأعمالها: كانت مُدة دراستها خير نموذَج لقريناتها، من أخلاق سامية وسَريرة صافية، ونفس أبية، ومثابرة على العمل.

وكانت بعد زواجها أكثر أعمال بيتها بنفسها، لا لسبب، سوى أن تكون قدوة لغيرها من السيدات اللاتي يَتركن بُيوتهنّ إلى من لا يحسِن القيام عليها والتدبير فيها، فيوقعن أزواجهن في الفقر المدقع، والبلاء الشديد، وكانت إذا فرغت من شؤون منزلها، عكفت على قراءة الكتب النافعةِ، وتعرّف أحوال السيدات، وزيارة مدارس البنات، وفحص مناهج التعليم.

كل أولئك لتكوّن لها رأياً صحيحاً، وفكراً ناضجاً في تربية البنات وإصلاح حال الأمهات، وظلت تتهل في ذلك الصعب، وتتحلي المرَّ.

وكان من رأيها في تربية المرأة أن تباشر من أعمال الرجال مالا ينافي الشرع الشريف، وألا تكون زينتها مَشغلة لها ولا عبئاً ينوءُ به بَعلها، ولها في ذلك خُطب في محافل نسويَّة، كان لها تأثير في عدول الكثيرات منهن عن جمودهن وأفكارهن القديمة، وكان بيتُها مقصداً لزيارة كثير من السيدات الغربيات والشرقيات يَسْتَبِرْنَ به في الوقوف على مَبلغ رُقي المرأة المسلمة، وما ينتظرن من شؤونها المستقبلة، ولم يكن شيء من ذلك كله لينسيها ما يجب لزوجها، والبرّ بذوي قرباها ومن يقع تحت نظرها ممن أجهدهم الفقر، وأشد ما كان برّها لوالدها.

آثارها العلمية:

(١) كتابها الذي أسمتهُ «النسائيات» وهو مجموع ما خطبته وكتبته في الجريدة خاصاً بالمرأة.

(٢) «حقوق النساء»، وهو كتاب لم يطبع بعدُ: أنجزت منه ثلاث مقالات، الأولى في الموازنة بين المرأة المسلمة الشرقية والمرأة المتدينة الغربية في الحقوق المالية، والثانية في حقوق المرأة المسلمة من جهة إدارة الأعمال العامة، والثالثة في المرأة المسلمة من جهة الانتخاب.

(٣) رسالة إضافية قدمتها للمؤتمر المنعقد في مايو عام ١٩١١م بمصر الجديدة ضمنتها آراءها السديدة في وسائل ترقية المرأة المصرية.

ثم عاجلتها الحمى الإسبانية عام ١٣٣٨هـ، فاحتضرت وهي في ريعان شبابها ويانع عمرها، فتركت بفقدها في العالم النسوي فراغاً لم يُشغل بعد.

كتابتها: إن الناظر في كتاباتها المختلفة يرى عبارةً سهلة، صحيحة الألفاظ عربية الأسلوب، خالية من تصنع السجع، وترى ذلك واضحاً في كتابها «النسائيات».

شعرها: قالت الشعر وهي في الحادية عشرة من عمرها، وكان بدء أمرها فيه أن تقوله معارضة لما تحفظه في المدرسة تارة جداً، وتارة هزلاً، وشعرها حسن الديباجة، جميل الأسلوب يُعَدُّ في الدرجة الوسطى من شعر هذا العصر.

وهاك نموذجاً من نثرها وشعرها: رسالة كتبتها من رمل الإسكندرية لصديقة لها وهي:

عزيزتي السيدة بلسم،

أُحيِّيك، ولولا برودة البحر لالْتَهَبْتُ إليكِ شوقاً، ولولا تصبّري لطِرتُ إليك حباً، وإني لم ينسني صفاء السماء صفاء ودك، ولا رقة النسيم رقة حديثك، إنما شجاني وذكرني، ولم أكن ناسية.

حبيبتي، ليتك معي ترين الطبيعة بجمالها، ترين البحر يزخر كالرعد والأمواج تتلاطم زرافات ووحداناً، صفاء في البحر، وصفاء في السماء، كأنهما قلبانا،

وتسمعين تغريد الطيور، وحفيف الأشجار، إنها لعمرك مناظر تلهي المرء، ولكن هيهات لمثلي أن تلهو، وهي تعلم ما يُكِنُّهُ الدهر، وما يخبئه الليل والنهار، تقبلي مني أحرّ قبلاتي، وأوفر أشواقي.

ومن شعرها تخاطب المرأة المصريّة:

[مجزوء الكامل]

سيري كسير السُّحب لا تأنَي ولا تَتَعجَّلي
لا تَكْنِسي أرْضَ الشَّوا رع بالإزار المسْبَلِ
أمّا السُّفور فَحُكمُهُ في الشّرْع ليس بمُغْضَلِ
ذهب الأئمة فيه بين مُحرِّم ومُحَلِّلِ
ويجوز بالإجماع منهم عند قصد تأهّل
ليس النِّقاب هو الحجا ب فقصّري أو طوِّلي
فإذا جهلت الفرق بينهـ ما فدونك فاسألي
من بعد أقوال الأئمة لا مجال لمقولي
لا أبتغي غير الفضيلة للنساء فأجملي

(٧) حفني ناصف بك المتوفى ١٣٣٧-١٩١٩م

هو القاضي الفاضل الشاعر الكاتب، محمد حفني بن الشيخ إسماعيل ابن الشيخ خليل بن ناصف.

ولد ببركة الحج من أعمال القليوبية سنة ١٢٧٢هـ يتيماً فقيراً، فكفلته جدته أم أبيه.

ولما ترعرع تعلم القرآن على معلم كان يُفرظ في ضربه، ففرّ ماشياً على قدميه إلى الأزهر وجوّد فيه القرآن، وحفِظَ فيه المتون، ودرس فقه الشافعي، وعلوم اللسان العربي، واشتغل بالأدب والشِّعر فبرع فيهما حتى أصبح من شعراء الأزهر المعدودين.

وكان أول الناجحين من الطلبة المقبولين في دار العلوم، وبقي أولهم حتى خرج من المدرسة، ثم اختير مدرّساً وضابطاً لمدرسة الخرس والعميان، ثم نقل

إلى النيابة كاتب سر للمرحوم شفيق بك منصور يكن، ثم نقل مدرساً بمدرسة الحقوق، وفي أثناء ذلك كلفته نظارة المعارف مع آخرين تأليف سلسلة كتب سهلة، لتعليم النحو والصرف والبلاغة، فألف خمسة كتب لم يزل العمل في التعليم جارياً عليها، ثم نقل إلى القضاء الأهلي، فمكث يترقى في درجاته مدة عشرين سنة، كان في خلالها مثال العدل والنزاهة، ونُقل من وكالة محكمة طنطا الأهلية مفتشاً أول للغة العربية بوزارة المعارف.

وتوفي صبيحة يوم الثلاثاء ٢٦ فبراير سنة ١٩١٩م، ودفن يوم الأربعاء بمقبرة الإمام. وكان رحمه الله من أطيب خلق الله حديثاً وأرقّهم فكاهة، وأملحهم نادرة، وأحضرهم جواباً، مع دعابة فيه.

شعره: لم ينكر الأدباء عليه أنه أبو الطبقة التي نشأت بعد طبقة البارودي، وعبد الله باشا فكري، وكل من نبغ بعدُ ممن انتهت إليهم الرياسة في الشعر فعليه تعلم، وله قلّد، حتى أصبحوا شعراء هذا الزمان.

وأكثر شعره من نوع السهل الممتنع، الكثير الملح المطربة والنُّكت الأدبية المعجبة حتى في المراثي، لتمثيلها في صورة جديدة بديعة، فمن ذلك قوله:

[الطويل]

أتقْضي معي إن حان حيني تجاربي ... وما نِلتها إلا بطول عنائي
وأبذُلُ جُهدي في اكتساب معارِفٍ ... ويَفنى الذي حصّلتُه بفنائي
ويُحزنُني ألا أرى ليَ حيلة ... لإعطائها مَنْ يستحق عطائي
إذا وَرَّث الجُهال أبناءهم غِنىً ... وجاهاً فما أشقى بني الحكماءِ

ومن شعره أيضاً يخاطب أحد الرؤساء:

[الكامل]

أحييتَ آمالي وكنتُ أمتّها ... من طول ما لقيتُ من إخواني
أدلي بإخلاصي لهم وأذود عن ... أعراضهم بجوارحي ولساني
محَّضْتهم ودّي فلَما أيسروا ... كانت بداية أمرهم نسْياني

(٨) مصطفى باشا كامل المتوفى سنة ١٣٢٦هـ -١٩٠٨م

هو الوطني الكبير، مصطفى بن علي أفندي محمد المهندس، والمولود بالقاهرة في ١٤ أغسطس سنة ١٨٧٤م. ولما بلغ السادسة من عمره أدخله والده المكاتب الأولية، ثم انتقل إلى مدرسة والدة عباس باشا الأول. وفي أثناء وجوده في هذه المدرسة تُوفي والده، فانتقل إلى مدرسة القربية، فأتم فيها الدراسة الابتدائية سنة ١٨٨٧م. ثم تحوّل إلى المدارس الثانوية ونال في نهايتها شهادة البكالوريا بتفوُّق باهر وذكاء نادر، مما لَفَتَ إليه نظر المرحوم علي باشا مبارك وزير المعارف، فاختصه بمرتب شهري يُصرف إليه مساعدة له. وكان منظوراً إليه بعين الإجلال والاحترام من إخوانه ومعلميه ورؤسائه، لما امتاز به من حسن الإلقاء وفصاحة اللسان وصراحة القول واستقلال الفكر ومناقشته في المسائل العلمية والاجتماعية والكل يعجبون به ويتوقعون له مستقبلاً مجيداً. ثم دخل مدرسة الحقوق الخديوية نهاراً، ومدرسة الحقوق الفرنسوية ليلاً، فكان يتلقى دروسهما حتى نال الكفاية منهما. ثم ذهب إلى طولون بفرنسا وأدى فيها الامتحان ونال الشهادة النّهائيّة. وفي أثناء دراسته للحقوق تنبّه خاطره إلى المسائل السياسية وأصبح همه إنقاذ مصر من الاحتلال، وكان يتردَّدُ على الجرائد الوطنية ليكتب فيها آيات الوطنية.

وأنشأ المجلة المدرسية، وألّف كتاب «المسألة الشرقية» ورواية «فتح الأندلس» وكتاباً في حياة الأمم والرّق عند الرومان، وكلها ترمي إلى تحبيب الاستقلال وإحياء الشعور الوطني في أفكار المصريين. واجتمع مصطفى بالمرحوم عبد الله النديم الخطيب المفوه والكاتب البليغ ومُشعل نار الوطنية من قبلُ، فاقتبس مصطفى منه الأساليب والتعليمات العظيمة، وأضاف ذلك إلى معلوماته الماضية ونهض نهضة الأسد إلى فريسته وأذكى أُوار الوطنية في عقول الشباب الناهض، وتطورت مصر الفتاة إلى يومنا هذا في مراقي التقدم والنجاح. وقد طار صيته في الآفاق وأصبح اسمه مرادفاً للشمس في رائعة النهار. وحدّث عن شجاعته وفصاحته وقوة معارضته مما لا يمكن لقلم وصفه. وقد أنشأ جرائد «اللواء» العربي والفرنسي والإنكليزي لهذا الغرض. وتوفي يوم الأربعاء ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨م، وشيعت جنازته باحتفال كبير لم يسبق له مثيل واشترك فيه عشرات الألوف من جميع طبقات

القطر المصري، وعم الحزن الشديد على جميع المصريين. ورثاه الكتاب والشعراء وجميع جرائد العالم. وطيرت نعيه الشركات البرقية الأجنبية في الممالك الأوربية. وخطبه الطنّانة كثيرة لا نطيل بذكرها.

(٩) محمد بك فريد المتوفى سنة ١٩١٩م

هو المخلص الأمين، محمد بن أحمد باشا فريد، ووالدته أميرة من فضليات سيدات الخُلفاء العباسيين. وكان ميلاده في ٢٧ رمضان سنة ١٢٨٤هـ وعاش ٥٢سنة. ولما كان عمره ٧ سنوات أدخله المرحوم والده مدرسة خليل آغا فدرس الدروس الابتدائية، ثم دخل المدارس الثانوية فجدّ واجتهد حتى فاق أقرانه وأحرز شهادة البكالوريا، ثم انتقل إلى مدرسة الإدارة والألسن، ومنها دخل مدرسة الحقوق الخديوية حتى نال الشهادة النهائية في شهر مايو سنة ١٨٨٧م وعقب ذلك عينته الحكومة المصرية بقلم قضايا الدائرة السنية الذي لم يلبث فيه إلا قليلاً حتى أصبح رئيسه. وقد أنعم عليه سموّ الخديوي بالرتبة الثانية،ثم تدرج في وظائف القضاء إلى أن صار أحد رؤساء النيابة العمومية.

وفي خلال ذلك كان يكاتب أمهات الصحف العربية والإفرنجية حتى استقال من خدمة الحكومة في ٢١ نوفمبر سنة ١٨٩٦م، واشتغل بالمحاماة، وانضم بكل قواه إلى الحزب الوطني لتحرير مصر والسودان. ولازم صاحبه الزعيم الأكبر المرحوم مصطفى باشا كامل. وقد ألّف كتاب «البهجة التوفيقية في تاريخ العائلة الخديوية» و«تاريخ الدولة العثمانية» و«تاريخ الرومان»، وأنشأ «مجلة الموسوعات»، وكتب آلاف المقالات في المؤيد واللّواء والصّحف الأوربية، وألقى مئات من الخُطب في الشرق والغرب. وتعرف بكثير من كبار ساسة جميع العالم.

ولما شعر المرحوم مصطفى باشا كامل بدنوّ الأجل جمع الحزب الوطني وأوصاهم بانتخاب فريد بعده رئيساً، فقام برياسته خير قيام. وقد ضحى بنفسه وأولاده وأهله وماله ومناصبه حباً في الوطن حتى مات غريباً في برلين يوم الاثنين ١٥ نوفمبر سنة ١٩١٩م. ونقلت جثته من بلاد ألمانيا لدفنها بالقاهرة فوصلت صباح يوم الثلاثاء ٨ يونيه سنة ١٩٢٠م. وشُيّعت باحتفال مهيب في إسكندرية ومصر لم تر العيون مثله اشتركت فيه العلماء والأمراء والوزراء وجميع الأعيان والوجهاء. ورثته الكتاب والشعراء وجرائد ومجلات الشرق والغرب.

فممّن رثاه حافظ بك إبراهيم قال من قصيدة طويلة:

[الرمل]

مَن ليومٍ نحنُ فيه مَن لِغدْ ... مات ذُو العَزْمةِ والرّأْيِ الأسَدّ
أيُّها النيل لقد جلّ الأسى ... كن مِداداً لي إذا الدّمع نَفدْ
فلقد ولّى فريدٌ وانطوى ... ركنُ مِصر وفتَاها والسَّنَدْ
خالدَ الآثار لا تخش البلى ... ليس يَبلى مَن له ذِكرٌ خلدْ
قُل لِصبِّ النّيل إن لاقيتَه ... في جوارِ الدائِم الفرد الصّمدْ
إن مصراً لا تَني عن قَصدِها ... رَغمَ ما تَلقَى وإن طال الأَمدْ
فاسْترحْ واهَنأْ ونَمْ في غِبْطَةٍ ... قد بَذَرتَ الحبَّ والشّعبُ حَصدْ

(١٠) سعد باشا زغلول

هو روح مصر الزعيم الأكبر، سعد بن الشيخ إبراهيم زغلول المولود ببلدة ابيانة التابعة لمديرية الغربية سنة ١٢٧٧هـ. قرأ القرآن الكريم ودرس العلوم الابتدائية في بلده، ثم رحل إلى مصر ودخل الأزهر الشريف، وحضر علوم اللغة والأدب والنحو والمنطق والتوحيد وعلوم التشريع وغيرها على فطاحل العلماء، كالشيخ المهدي العباسي، والشيخ أبو النجا الشرقاوي، والشيخ أحمد الرفاعي، والشيخ محمد عبده، وخلافهم من كبار الأئمة ثم تعيّن محرراً لجريدة «الوقائع المصرية» الرسمية بالداخلية. ثم انتقل معاوناً بنظارة الداخلية في مدة وزارة محمود سامي باشا البارودي. ثم تعين مديراً لقلم قضايا مديرية الجيزة، وذلك في مدة اشتداد الثورة العرابية. ثم استقال واشتغل بالمحاماة وقد انتخبتهُ الجمعية عضواً في لجنة تنقيح قانون الجنايات بالاستئناف. ثم اختاره اللورد كرومر أن يكون وزيراً لوزارة المعارف، ثم وكيلاً للجمعية التشريعية إلى أن تطورت الحالة الوطنية في القطر المصري، فانتخبتهُ الأمة وكيلاً عنها في مطالبة إنكلترا بالجلاء عن مصر والسودان.

ومن كلماتِهِ المأثورة في الوطنية:

(١) لا استعبادَ، لا استعمارَ، لا حِمايَة، لا رقابَة، لا تَدخُّل لأحد في شأن من شؤوننا. هذا ما نريد وهذا ما لابدّ أن نحصُلَ عليهِ.

(٢) أُقسمُ بالوطنيّة وعزّتها لو كنت أعرف أني أقود أُمة بلهاء تنقاد لكل زعيم بدون تصوّر ولا إدراك، كما يصفها أعداؤها، ما رضيت أَن أكون قائداً لها.

(٣) إن قوّتنا ليست مستمدّة من الخارج، بل هي في نفوسنا. فلتكن نفوسنا قوِيّة نصِل إلى غايتنا.

(٤) الإرادة متى تمكّنت من النّفوس وأصبحت ميراثاً يتوارثهُ الأبناء عن الآباء، ذلّلت كل صعب ومحت كل عقبة وقهرت كل مانع، مهما كان قوياً، ووصلت عاجلاً أو آجلاً إلى الغاية المطلوبة.

(٥) لا يمكن أن نعتبر للحكوميين مذهباً، لأن المذهب يقتضي مبادئ وقواعدَ، أمَّا هم فقاعدتهم القُوّة، وما يعتمد على القوة لا يصح أن يُسمّى مذهباً.

ومن كلماتِهِ المأثورة في الحريَّة وحدودها:

(١) كل أمر يقف في طريق حريتنا لا يصح أن نقبله مطلقاً مهما كان مصدره عالياً، ومهما كان الآمر بهِ.

(٢) كل تقييد للحرية لابد أن يكون له مبرر من قواعد الحرية نفسها وإلا كان ظلماً.

(٣) الصّحافة حُرّة تقول في حدود القانون ما تشاء وتنتقد ما تريد، فليس من الرأي أن نَسألها لِمَ تنتقدنا بل الواجب أن نسأل أنفسنا: لِمَ نفعل ما تنتقدنا عليهِ؟

(٤) نحن نحبُّ الحريّة ولكنّا نحبّ أكثر منها أن تُستَعمَلَ في موضعها.

(٥) جميل جداً أن يقال لا تحجروا على الناس ولا تُقَيّدُوا حريّتهم وإنها لنغمة لذيذة يحسُنُ وقعها في الأسماع والقلوب. ولكنّا لا نريد الحجر على الناس ولا تقييد حريتهم، بل نريد حماية الحق وصيانته من أن يتمتّع بهِ غير صاحبه من حيث يُحرم منهُ صاحبهُ.

ومن آرائِهِ في التشريع:

(١) كل شريعة تؤسَّس على فساد الأخلاق فهي شريعة باطلة.

(٢) لا تصدّقوا أن هناك قاعدةً يرجع إليها القاضي في تقدير العقوبة، أو أن هناك ميزاناً توزَن به الجزاءات، وإنما هي أُمور اجتهادية يُلهم بها القاضي إلهاماً.

(٣) الحقُّ فوق القُوّة، والأمّة فوق الحكومة.

(٤) إننا إذا احترمنا أمراً للحكومة نحترمه لأنه نافع للأمة، لا لأنه صادر من تلك القوة المُسَيطرة.

(٥) يجبُ أن ننقاد للقانون وألاّ نعتبر الانقياد إليه مهانة ومذلّة، بل عزّاً وشرفاً.

(٦) إن كانت الحكومة تريد أن نكونَ في صَفّها مدافعين عنها فما عليها إلا أن تتّبع الحقّ والعدل وتحترم القانون.

(٧) يُعجبُني الصّدق في القول والإخلاص في العمل، وأن تَقوم المحبّة بين الناس مقام القانون.

(٨) الذي يلزمنا أن نُفاخر به هو أعمالنا في الحياة لا الشهادات التي في أيدينا.

(٩) أعاهدكم عهداً لا أحيد عنه، على أن أموت في السّعي إلى استقلالكم فإن فزت فذاك، وإلا تركت لكم تتميمَ ما بدأتُ به.

هذا قليل من كثير لا نحيط به جمعاً خصوصاً خطبه المطولة المُمْتعة التي تكاد أن تكون في درجة الإعجاز. ولا غرابة في ذلك، فقد كان معروفاً بالشجاعة والصراحة، ويمتلك في يده أعِنَّة الألفاظ يتصرّف فيها كيف يشاء، حتى إنه ليعبّر عن أقصى المعاني وأخشنها بأرقّ الألفاظ وأعذبها وأخفّها وقعاً على النفوس والأسماع، خصوصاً وأنه قدير على التأثير على نفس السامع، وامتلاكه أزمة الأهواء، وتلاعبه بالعواطف والقلوب، واقتداره على إسناد كل جزئية من جزئيات المسائل الاجتماعية أوالقانونية أو الأخلاقية أو السّياسيّة إلى قاعدتها العامة التي توضح طريقها وتكشف الغامض منها.

ولقد كان مشرِّعاً يبحث النظامات ويدققها، وسياسيّاً يُبارز خصمه مبارزة الرجل الذي يحسن تقليب الحسام بين يديه، فلا كلماته تخرق حجب الآداب ولا تتجاوز حدّ اللياقة، ولقد كان كلامه ينزل على السامعين نزول النّدى على آكام الزّهر، فلا

يرتفع صوت ولا تبدو حركة مع طول خطابته نحو ساعتين وأكثر، حتى وافاه القدر المحتوم في أواخر أغسطس سنة ١٩٢٧م، وعمره نحو ٦٧سنة. وقد خلفه في زعامة «الوفد المصري» حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا.

(١١) مصطفى النحاس

هو «مصطفى» بن الشيخ محمد النحاس من أعيان بندر سمنود.

وُلد «مُصطفى النحاس» من أبوين كريمين في الحسب والنسب، في يونيه سنة ١٨٧٩م.

وتَرَبى تربية منزلية قومية طبعَتْه على الأمانة والاستقامة والنزاهة وأنشأته على الخير والعدل والصلاح والتقوى، فشبّ على مكارم الأخلاق من الصِّغر:

[الرمل]

رَضَع الأخلاق من ألبانِها إنّ لِلأخلاق وَقعاً في الصّغر

وما بلغ السادسة من عمره إلا وهو يزاول مبادئ التعليم في أحد مكاتب البلدة، وما تجاوز العاشرة من عمره إلا وكان حافظاً لجميع القرآن الكريم حفظاً جيداً. ثم ارتحل به والده إلى القاهرة وأدخله مدرسة الناصرية الابتدائية بنظارة أمين سامي في ذاك الوقت، فأمر بامتحانه للقبول، فاجتازه بتفوق باهر، وعكف على دروسه حتى كان في كل امتحاناته أول فرقته.

وبعد إتمام الدراسة الابتدائية التحق بالمدرسة الخديوية الثانوية بالقسم الداخلي، وأظهر جداً واجتهاداً وتفوُّقاً ونبوغاً مُنقطع النظير، حتى المرحلة الأخيرة التي كللت بنجاح عظيم لفت نظر رؤسائه إليه حتى وصل خبره إلى اللورد «كتشنر» الذي رغِب في رُؤيته، ثم التحق بمدرسة الحقوق وتخرج منها في يونيه سنة ١٩٠٠م.

واشتغل بالمحاماة إلى أوائل سنة ١٩٠٤م ثم عُين قاضياً بالمحاكم الأهلية وظلّ يخدم العدالة نيفاً وخمسة عشر عاماً، حتى نادى المغفور له «سعد زغلول» بوجوب المطالبة بحق مصر في الاستقلال فانضم إليه، وانضوى تحت لوائه، وأخذ يسعى في تحرير وطنه بكل إخلاص وتضحية عظيمة.

وقد تقلد رياسة الحكومة المصرية ست مرات.

الأولى سنة ١٩٢٨، والثانية سنة ١٩٣٠، والثالثة سنة ١٩٣٦م، والرابعة سنة ١٩٣٧، بعد جهاده الذي نالت فيه مصر استقلالها التام، وإلغاء الامتيازات الأجنبية.

هذه لمحة وجيزة من تاريخ حياة مصطفى النحاس (محامياً، وقاضياً، وخَطيباً، وخَصماً سياسياً، ووزيراً، ورئيساً للوزارة).

ومن خطبه:

لا شك أنّ مَنْ يتولى الدفاع عن حقوق الأفراد وحريتهم مدفوعاً بواجب مهنته وشعور التقديس لطائفته، إنما هو مسوق حتماً للاشتراك في الدفاع عن حقوق المجموع وحريات المجموع، لأن حقوق المجموع وحريات المجموع إنما هي مجموع حريات أفراد وحقوق الأفراد.

ومن أقواله:

(١) ليس مثلُ الصراحة سياسةً ناجعةً في وقت الخطر.

(٢) إن القلوبَ إذا اتصلت لا تَقوى على فصلها قوةٌ مهما فتكت أو بطشت.

(٣) ما كان لقوة في الوجود أن تمحق آمالَ شَعب، ولا أن تُبَدّد وَحْدَةَ أمّة.

(٤) إنما الموتُ في سبيل الأوطان حَياةٌ.

(٥) ليس مصير الأمم لعبة في أيدي اللاعبين ولا هو تجربة في أيدي المجرِّبين.

(٦) إن للحق قوةً معنويةً هي من روح الله يَقذفُها على الباطل فتدمغه فإذا هو زاهق.

(٧) مِصرُ أمة جديرة حقاً بأن تكون مصدر السلطات.

(٨) إن الأمرَ في قضية الأمة أمر الأمة وحدها لا كلمة لسواها ولا معوّل على غير رضاها.

(٩) الأمم الحية لا تغلَب وقد تعودت مصر أن تَقهرَ قاهريها، والدّهرُ قُلَّبٌ إن صفا اليوم لشخص ففي غَدٍ يتَقلبُ.

(١٠) اضطهادُ الأحرار يزيدهم تمسكاً بالحرية أضعافاً مضاعفة.

(١١) إذا كان اعتناق المبدأ القويم فضيلة فإن الثبات على هذا المبدأ هو فضيلة الفضائل.

(١٢) إن الأمة هي الأول والآخر، وهي الأصل الذي يجب أن ترجعَ إليه كل الأمور.

(١٢) الغازي مصطفى باشا كمال

أشهرُ حماة الشرق، وداهية السياسة، الغازي «مصطفى كمال» المولود في سلانيك سنة ١٢٩٨هـ (١٨٨٠م)، ولما بلغ السنة السادسة من عمره أدخله والده مدرسة ابتدائية، وما لبث أن تركها على أثر وفاة والده، ثم انتقل إلى قرية أخرى مع والدته بها خاله الذي كفله، وعهد إليه القيام بحراسة الحقول والاشتغال بالزراعة مدة، فأوجست والدته خِيفة من ضياع إبان شبابه بدون جَدوى، وصحَّت عزيمتها على إرساله إلى دار جدته في سلانيك.

ودخل في المدرسة الملكية الإعدادية غير أنه لم يوفق للتعلم بها ـ وذلك لشغفه بحب المدرسة الرشيدية العسكرية الابتدائية ـ وأخذ يتبحّر في الرياضيات ويُناقِش أستاذه المدعو مصطفى بك القائل له: إن بين اسمي واسمك اشتباهاً، فيجدرُ أن أضيف إلى اسمك لفظة «كمال» للتمييز بيننا. وقد أتم الدراسة في هذه المدرسة العسكرية الابتدائية، وفاق زملاءه في العلوم الرياضية بحيث لم يصادف أية صعوبة في امتحان المدرسة الإعدادية العسكرية الثانوية في (مَناستر) وتزوَّد بقِسط وافر في اللغة الفرنساوية. وفي خلال ذلك كان يجتمع بالمرحوم الشاعر التركي المشهور عمر ناجي بك، فارتشف من منهله العذب وتأدّبَ بأدبه ودرس عليه آداب اللغة التركية، وضرب بسهم فيها حتى صار الشعر هو المادة التي تنجذِب نفسه إليها وترتاح بها، رغم النصائح التي كان يلقيها عليه بعض معلميه العسكريين بقولهم: «إذا أردت أن تكون جُندياً حقيقياً فاترك الأدب وخيال الشعراء».

وبعد إتمامه الدراسة في تلك المدرسة سافر إلى الآستانة سنة ١٣١٣هـ، والتحق بالمدرسة الحربية، وكان شغفه عظيماً بالعلوم والأدب، ومزاولة الخطابة وأساليبها،

فتولد من ذلك توقه إلى حُب الاشتغال بالسياسة، خصوصاً وقد وقعت في يده كتب الوطني العظيم «نامق بك كمال» فطالعها مراراً، ووقف على ما فيها وأدرك مراميها فرسخت في عقيدته «الوطنية» وكان ذلك في عهد المرحوم «السلطان عبد الحميد» الداهية العظيم، ومع ذلك تخرج من هذه المدرسة برُتبة «ملازم ثان»، ولما انتقل إلى مدرسة أركان حرب بدأ يتعرف مع بعض إخوانه من الطلبة ما يكتنف إدارة البلاد وسياستها من السُّوء والفساد، فكان أول ما فكر فيه أن يُفْهم زملاءه البالغ عددهم ٥٠٠٠ طالب، موقف البلاد الإداري والسياسي.

وقد فكروا جميعاً في تأسيس جريدة تكون لسان حالهم، وقد أخذ على عاتقه تحرير الكثير من مقالاتها وأبحاثها. غير أن «إسماعيل» مفتش المدارس وقف على حركتهم ثم وشى بهم إلى السلطان، وقال له: إن ناظر المدرسة «رضى» هو المسؤول عن حركة الطلبة فاستدعاه السلطان فأقنعه بعدم وجود حركة سياسية. واستمر مع رفاقه في إصدار جريدتهم حتى آخر سني مدرسة أركان حرب.

وبعد أن خرج من المدرسة برتبة «يوز باشي» في أركان الحرب العامة واستأجر لنفسه مكاناً خاصاً في «بك أوغلي» رَغبة في استئناف العمل وعقد الاجتماعات وإصدار القرارات لصالح الوطن، ولكن لم تمض مدة وجيزة حتى نَفَته الحكومة إلى ولاية لشام للخدمة في الجيش. وقد أسس هناك «جمعية الحرية» وأسس لها فروعاً في بيروت ويافا والقدس، وفي كل مدينة حَل فيها ونزل بها، ولما كان انتشار مبادئ الجمعية غير مُمكن في تلك المدن عَزَم على السفر إلى «مقدونيا» حيث هناك الأرض صالحة لبذر تلك المبادئ، والعمل على إنمائها وإنباتها نباتاً حسناً، وأطلع جمعيته على رأيه، وعلى ذلك سَعَى أفرادها وتمكن من استعداد إذن يَسْتَطيعُ به السفر في بادئ الأمر إلى «أزمير». وعلى إثر ذلك أرسل رسالة خاصة إلى شكري باشا المعروف بوطنيته الحارّة، وطلب منه مساعدته. ولما شدّ الرحال إلى مقدونيا، وركب البحر غَيّر وِجْهتَه إلى مصر، ومنها إلى بلاد اليونان، ثم إلى سلانيك رغبة في إخفاء أغراضه عن أعين الجواسيس وقد أسّس في مدينة سلانيك فرعاً عاماً للجمعية. وما كادت حكومة الآستانة تتلقى تقرير الجواسيس عن أعماله حتى سافر إلى «يافا» وعلى أثر ذلك ظهرت مسألة العقبة، فاستصدرت جمعية الحرّية أمراً بتعيينه على الحدود المصرية.

وقد مكث في سورية ثلاثة أعوام، طلب بعدها من الحكومة نقله إلى مقدونيا، فقبل طلبه بالقبول، وعلم بعد وصوله إلى سلانيك أن جمعية الحرية غَيّرَت اسمها إلى جمعية «الاتحاد والترَقي» وما وافى إعلان الدستور حتى برز في ميادين السياسة بفضل إعلانه جميع الأسرار.

ولما نشبت الثورة الرجعية في الآستانة سنة ١٩٠٩م أخمدها واستَتَبّ الأمن، ثم تعين بمُهمّة الإصلاح على ولاية طرابلس.

وكان كثيراً ما يكتب لإصلاح شأن الجيش، فكان ذلك من الأسباب الجوهرية التي بعثت بعض القواد القدماء على حقدهم عليه، وكان جزاؤه تعيينه قائداً للآلاي الثلاثين، فجاء هذا التعيين على عكس غرضهم الأساسي، إذا أفسح له مجالاً واسعاً لإلقاء بعض المحاضرات الفنية وشرح أساليب الخطط الحربية للضباط والقواد. ثم بعد ذلك دعته حكومة الآستانة، ضمن أركان الحرب العامة فيها، وقام بصحبة المرحوم شوكت باشا بالحركات الحربية لإخماد الثورة في بلاد ألبانيا. وقد ذهب متنكراً إلى مصر على أثر إعلان الحرب الإيطالية سنة ١٩١١م وسافر منها إلى بنغازي، ثم عاد إلى الآستانة بعد نشوب الحرب بين الترك والبلغار، وتعيَّن رئيساً لأركان الحرب، بعدها عاد إلى الآستانة، وتعيَّن مُلحقاً عسكرياً في سفارة «صوفيا» عاصمة بلغاريا، ومكث هناك مدة سنة كاملة.

ولما نشبت الحرب العامّة سنة ١٩١٤م تعيَّن قائداً للفرقة السادسة عشر في (تكفور طاغ) ثم تعيَّن قائداً لفيلق ديار بكر، وبعدهما تولى قيادة الجيوش، وعُين بعد ذلك قائداً للقوات الحجازيّة، ثم عاد إلى ديار بكر، ومنها عاد إلى الآستانة وأخذ القيادة على عاتقه، وحصل بينه وبين كبار القواد الألمانيين مناقشات أدّت إلى استقالته وسافر من الآستانة مع «ولي العهد» إلى ألمانيا، وفيها تقابل مع القائِدَين هندنبورج، ولوندرف.

وقد صحت عزيمته على ترك الآستانة والتّوَغل في داخلية البلاد، وقد بذل جهده في العمل على إنقاذ الوطن خاصة والشرق عامة، وبينما كان مشتغلاً بتهيئة الأسباب لذلك، إذ تلقى أمراً بتعيينه قائداً ومفتشاً لجيش (الصاعقة) مع ضرورة

ذهابه إلى الأناضول، فتَقَبّلَ ذلك بالسرور العظيم، وقامَ إلى الأناضول، وهو حاصل على رتبة القائد والمفتش معاً لذلك الجيش، وكان ذلك من أهم العوامل الفَعّالة للوصول إلى تحقيق إنقاذ الوطن، ولما شعرت الحكومة بخطئها استدعته في الحال إلى الآستانة، فرفض واستقال، وسعى في جمع نُوّاب الأمة في الأناضول وقد افتتح المجلس الوطني الكبير يوم ١٣ فبراير سنة ١٩٢٠م، وأخذ في مباشرة الأعمال والقيام بواجب البلاد، وكان شغله الشاغل (كيف تُمثل إدارة الأمة أحسن تمثيل؟؟).

وقد تمّ له ما أراد، ففاز بالنّصر والسّداد، وفق الله أمثاله إلى ما فيه صلاح العباد، وقد اجتمع بين يديه إمارة السّيف والقلم، وخطبه أشهر من أن تُذكر.

ومن أقواله في حُبِّ الوطن العَزيز: إنّ وطننا العَزيز لا يموتُ ولنْ يموت، وإذا فرَضْنا المُحال وسَلمنا بموته «لا قدّر الله» فكاهِلُ الكرَة الأرْضية لن يستطيعَ حَمْل تابوته الجسيم. نعم لا يسقُط مُهشماً، مقطّع الأوصال، مادام فردٌ منا يتنسم نسيم الحياة.

ومن آرائه في تعليم المرأة: تعليم المرأة (أم الوطن) وتثقيفُ عقلها بالعلوم الدّينية والمعارف الأهلية من أهمّ ما ترمي إليه نهضتُنا العلمية الوطنية.

ومن وصفه لِلفَلاّح: سيد تركيا، بل سَيد العالم الحقيقي (الفلاّح) لأنه هو العنصر الأول في تكوين عناصر الأمة وكيانها، والوطَنُ بدونه لا شيء بل الوطَنُ هُو، فيتعين أن نعْتني به عِناية خاصَّة، وأن نضع قبل كل شيء سعادته نصب أعيُننا.

الشعر

كانت حالة الشعر في النصف الأوَّل من هذا العصر لا تزيد شيئاً مذكوراً على ما كانت عليه في العصر الماضي، إذ كانت حكومة محمد علي باشا في أوَّل أمرها، تركية الصِّبغة، وكان هو أميّاً، لا يحل عنده الأدب محل العلم الذي عليه مدار تأسيس المملكة ولكنَّ الشعر أخذَ بعد ذلك في الترقي خصوصاً في عصر إسماعيل باشا، وكان هو متأدّباً وعصره غاصاً بالأدباء فتقدم خطوات تمثّلت في شعر السيد

علي أبي النصر المتوفى سنة ١٢٩٨هـ، والشيخ علي الليثي المتوفى سنة ١٣٠٩هـ، وعظيم الشعراء البارودي. ولم يزل العلم والعلماء مع ذلك لهم المقام الأوَّل في مصر حتى كان العصر الحاضر، ونالت مصر بعض حاجاتها من العلم وكُتبه، فهبّ أهلهُ يتفكّهون بالأدب وكتابته والتأليف فيه، ويتمعون الشعر ويحضرون المجامع العظيمة لإنشاده. فأقبل الشّعراء على نظمه في كل أغراضه القديمة والحديثة، ونحَوْا به نحو الشعر الفرنجي من وصف المناظر الطبيعية، وأحوال الوِجْدَان والعواطف النّفسية. وكثير من الشعراء بعد البارودي، لم يحاكِ القدماء في نَدْبِ الديار، ووصف الظعائن، وحث المطايا مستغنياً عن ذلك بوصف القِطار والكهرباء، والمرّة، والبرق ويقول الآن الشعر على هذه الطريقة مئات من الشعراء في مصر والشام والعراق، إلا أن المصريين سبقوا السوريين بمراحل في هذا العصر.

ومما يمتاز به شعرُ هذا الوقت خلوُّه من تكلف البديع والجناس. والرجوع به إلى حالته القديمة الطبيعية حتى صار شعر فحوله يشبه شعر أهل القرن الرابع والخامس.

نماذج من النظم

قال المرحوم السيد علي أبو النصر المتوفى سنة ١٢٩٨هـ - ١٨٨٠م:

[الطويل]

بصادر آمالي ووارد خاطري كَلِفْتُ فيا نفسي الأبيَّة خاطري
ولا تجزعي إن هال خطب فربما تدين الأماني لامرئ غير قادر
وكوني على حمل الأذى مستعدة فكم عادل أرخى العنان لجائرِ
ولا تشتكي الأيام إلا لمنصف فلا خير في الشكوى إلى غير ناصرِ
ومن لم يكن ذا هِمّةٍ هاشمية أخافته في الهيجا بُروق البواترِ

وقال محمود صفوت الساعاتي المتوفى سنة ١٢٩٨هـ يمدح شريف مكة ويعاتبه:

[الكامل]

ترنو النجوم بلحظها البرّاقِ والجوّ في الإرعاد والإبراق

فإذا تبسَّمت البروقُ لِغبطة بكت السماءُ بدمعها المهراق
عاملتموني بالجفاء رُويدكم الورد ذو أرَج بلا إحراق
ما لي أراكم تنكرون مكانتي الشمس لا تخفى مع الإشراق
قلّدتُم غيري الجميل وقلتم حسب المغرِّدِ زينة الأطواق
أسديتم الجدوى له وسددتم طرق الرَّجاء عليَّ بالإطراق
إن لم يكن مثلي يُسيء ومثلكم يُغضي فأين مكارم الأخلاق

وفي الحكم للمرحوم الشيخ علي الليثي المتوفى سنة ١٣١٣هـ ١٨٩٦ :

[الخفيف]

كل حال لضدّه يتحوّلْ فالزم الصبر إذ عليه المعوّلْ
يا فؤادي استرح فما الأمر إلا ما به محكم القضاء تنزّلْ
قدرٌ غالب وسرُّ الخفايا فوق عقل الأريب مهما تكمّل
رب ساعٍ لحتفه وهو ممن ظنَّ بالسعي للعلا يتوصَّل

ونال المرحوم الشيخ شهاب الدين المتوفى في سنة ١٢٧٥هـ يرثي إبراهيم باشا :

[مجزوء الكامل]

صبراً على ما قد مضى إذ لا مخلِّصَ من قضا
كيف التَّصبُّر والمنا يا ذات عضب مُنْتضى
أرْدَت بإبراهيم منـ بَلَغَ المقامَ المُرْتَضى
وإليه آلَ الأمر في حكم (الإيالة) وانقضى
فمضى وقلت مؤرِّخاً (الله يرحم من مضى)

١٢٦٤هـ

الشعراء

شعراء هذا العصر كثيرون وأشهرهم محمود باشا سامي البارودي، وأحمد بك شوقي، ومحمد حافظ بك إبراهيم، وإسماعيل باشا صبري، وخليل بك مطران وغيرهم.

(١) محمود سامي باشا البارودي

هو ربّ السيف والقلم، أمير الشعراء وشاعر الأمراء، محمود سامي باشا بن حسن حسني بك البارودي، أحد زعماء الثورة العرابية، وأشعر الشعراء المتأخرين بالديار المصرية. وُلِد سنة ١٢٥٥هـ، وتأدب وأُدخِلَ المدرسة الحربية، ومازال يترقى حتى ولاّهُ المرحوم الخديوي توفيق باشا نظارتي الحربية والأوقاف. ثم وُلّي رياسة النظار قبيل الثورة العرابية، فلما اضطرمت نيران الثورة أرغمه زعماؤها على اصطلاء نارها فخبّ فيها ووَضعَ. وحُكم عليه بعد انقضائها بالنفي إلى جزيرة سيلان حتى عمي، وشُفع فيه، فأذن له بالقدوم إلى مصر بعد مضي ١٧ سنة من منفاه، وبقي في منزله كفيفاً يشتغل بالأدب إلى أن مات سنة ١٣٢٢هـ. ومن قوله:

[البسيط]

والدهر كالبحر لا ينفكّ ذا كدَر ... وإنما صفوه بين الورى لُمَعُ
لو كان للمرء فكر في عواقبه ... ما شانَ أخلاقَهُ حرصٌ ولا طمعُ
وكيف يدرك ما في الغيب من حدَث ... مَنْ لم يزل بغرور العيش ينخدعُ
دهرٌ يَغُرّ وآمال تَسُرّ وأعـ ... ـمار تمرّ وأيام لها خِدَعُ
يسعى الفتى لأمور قد تضرُّ به ... وليس يعلم ما يأتي وما يَدَعُ
يا أيها السادر المزورُّ من صَلَفٍ ... مهلاً فإنك بالأيام منخدعُ
دَعْ ما يريب وخُذْ فيما خُلقتَ لهُ ... لعلّ قلبَك بالإيمان ينتفعُ
إن الحياة لثوبٌ سوف تَخْلَعُهُ ... وكلُّ ثوب إذا ما رثَّ ينخلعُ

ومن قوله في الحماسة والفخر:

[مجزوء الكامل]

أنا مصدرُ الكَلِمِ البوادي بين المَحَاضر والنّوادي
أنَا فَارسٌ أنا شاعرٌ في كلّ مَلحَمة ونادي
فإذا ركبت فإنني زَيْدُ الفوارس في الجِلادِ
وإذا نَطقْتُ فإنني قسُّ بنُ سَاعِدة الإيادي

وقال يصفُ هَرَمَي الجيزةِ وأبا الهول:

[الطويل]

سل الجِيزَةَ الفيحاء عن هَرميْ مِصْر لَعَلّكَ تدري غَيْبَ ما لم تكُنْ تدري
بناءان رَدّا صَوْلَةَ الدَّهْرِ عنهما، ومِنْ عَجَبٍ أن يَغْلِبَا صَوْلَةَ الدَّهْرِ
أقاما على رَغْمِ الخُطوبِ لِيَشْهَدَا لبانِيهما بينَ البرِيّةِ بالفخرِ
فكَمْ أُمم فِي الدهر بادتْ وَأَعْصرٍ خلتْ وهما أعْجُوبَةُ العينِ والفِكْرِ
تلوحُ لآثارِ العقولِ عليهما أساطيرُ لا تنفكُّ تُتْلَى إلى الحشْرِ
رُمُوزٌ لو اسْتَطْلَعْتَ مكنونَ سِرّها لأبصرتَ مجموعَ الخلائق في سطرِ
فما مِنْ بِناءٍ كَانَ أو هو كائنٌ، يُدانيهما عندَ التأمُّلِ والخُبْرِ
يُقصِّرُ حُسْناً عنهما صَرْحُ بابلٍ، ويعترِفُ الإيوان[1] بالعجزِ والبَهرِ
كأنهما ثَدْيانِ فاضا بدِرَّةٍ من النيلِ تَروي غُلَّةَ الأرض إذ تجري
وَبَينَهما بَلْهِيبُ[2] فِي زِيّ رَابضٍ أكَبَّ عَلَى الكَفَّينِ منه إلى الصدرِ
يُقَلّبُ نحوَ الشرقِ نظرةَ وامقٍ، كأنَّ له شَوْقاً إلى مَطلَعِ الفجرِ
مصانعُ فيها للعُلومِ غوامضٌ تَدُلُّ عَلَى أنَّ ابن آدمَ ذو قَدْرِ
رسا أصلها، وامتدَّ في الجوّ فَرْعُها فأصبحَ وَكراً للسِّماكين[3] والنَّسْرِ[4]

(١) هو إيوان كسرى، كان بهواً عظيماً في قصره بالمدائن وسقفه أزج معقود وبه سمي قصره الأبيض.
(٢) اسم لأبي الهول عرف به صدر الإسلام، ولعل أبا الهول محرّف عنه.
(٣) السّماكان: نجمان نيران في السّماء أحدهما السّماك الرّامح والثاني السّماك الأعزل.
(٤) النّسر كوكبان: الواقع والطائر. وفي النّسر توريّة.

(٢) أحمد شوقي بك المتوفى سنة ١٣٥١هـ- ١٩٣٢م

أشهر شعراء العربية وأقدرهم على التّصورات البديعية، شاعر النيل المرحوم أحمد شوقي بك بن علي شوقي بك، المولود بمصر سنة ١٢٨٥هـ- ١٨٦٨م.

شعره: ينظم بين أصحابه فيكون معهم وليس معهم، وينظم حين يشاء، وحيث يشاء، لا يجهد فكره ولا يكدّه في معنى أو في مبنى. فأما المعنى فيجيئه على مرامه أو على أبعد من مرامه، ولا ينضب عنده لأنه يستخلصه من عقل فوار الذكاء، ومعارف جامعة إلى أفانين الآداب في لغات الإفرنج والأعراب، فلسفة الحقوق وحقائق التاريخ، وغرائب السير التي يحفظ منها غير يسير، إلى مشاركات علمية وتنبيهات فنية استفادها من مطالعته في صنوف الكتب، واتخذها عن ملحوظاته ومسموعاته في جولاته بين بلاد الشرق والغرب. وأما المبنى فله فيه أذواق متعددة مقامات القول: ترى فيه من نسج البحتري، ومن صياغة أبي تمام، ومن ثبَات المتنبي، ومن مفاجآت الشريف، ومن مسلسلات مهيار

ومن قوله يصف هيكل أنس الوجود:

[الخفيف]

أيُّها المُنتحي «بأسوانَ» داراً ... كالثريَّا تريدُ أن تَنقضّا
اخلع النَّعلَ واخفض الطَرف واخشعْ ... لا تحاولْ من آيةِ الدَّهرِ غمضا
قِفْ بتلكَ القصور في اليمّ غَرقى ... مُمسِكاً بعضُها في الذُّعْرِ بعضَا
كعَذَارى أخفينَ في الماءِ بضّاً[1] ... سابحاتٍ به، وأبدين بَضّا
مُشرفاتٍ على الزوالِ، وكانتْ ... مُشرقاتٍ على الكواكب نَهْضَا
شابَ من حولها الزمانُ، وشابت ... وشباب الفنونِ مازالَ غَضّا
رُبّ نقشٍ كأنما نَفَضَ الصّا ... نعُ منهُ اليدَينِ بالأمس نفضا
ودُهانٍ كلامعِ الزّيت مرّت ... أعصر بالسّراج والزّيتُ وضّا[2]

(١) بضاً: البض، الجسد الرّخص.
(٢) وضا: وضاء.

وخطوط كأنها هدبُ ريمٍ[١] حسنتْ صِنعة وطولاً وعرضا
وضحَايا تكادُ تَمشي وتَرعى لو أصابت من قدرة الله نَبضا
ومحاريبَ كالبروجِ بنَتْها عَزَمَاتٌ من عزْمةِ الجنّ أمضى[٢]
شَيَّدَت بعضَها الفراعينُ زُلفى[٣] وبنى البعضَ أجنَبٌ يترضّى[٤]
ومقاصيرَ أبدِلتْ بفُتاتِ الـ ـمسك تِرباً، وباليواقيتِ قضا[٥]
حظُّها اليومَ هدّةٌ، وقديما صرفت في الحظوظ رفعاً وخفضا
سقَتِ العالمينَ بالسعدِ والنَّحـ ـسِ إلى أن تعاطتِ النحسَ مَحضا[٦]
صنعةٌ تذْهِشُ العقولَ وفَنٌّ كان إتقانهُ على القومِ فرضا
يا قصوراً نظرتها وهي تقضي[٧] فكبتُ الدموعَ، والحقُّ يُقضى[٨]
أنت سطرٌ، ومجدُ مصرَ كِتابٌ كيفَ سامَ البِلى كتابَكِ فَضّا؟[٩]
وأنا المحتفي بتاريخِ مصر من يَصُنْ مجدَ قومهِ صانَ عِرضا
لم تمُت أُمَّةٌ، ولا بادَ شعبٌ أَقرَضوا الذِّكرَ والأحاديث قَرضا
رُبّ سرٍّ بجانبَيكِ مُزالٍ كان حتى على الفراعينِ غَمضا
قُلْ لها في الدُّعاء لو كان يُجدي يا سماءَ الجلالِ لا صرتِ أرضا
حارِ فيك المهندسون عُقولاً وتولَّتْ عزائمُ العلم مَرضى
أينَ ملْكٌ حيالَها وفريدٌ من نظامِ النعيمِ أصبحَ فضا؟
أين فرعونُ في المواكِبِ تَتْرى يُركضُ المالكينَ كالخيلِ ركضا!
ساقَ للفتح في الممالِكِ عرضاً وجلا للفخارِ في السلمِ عرضا
أين «إبزيسُ» تحتها النيلُ يجري حكمتْ فيهِ شاطئَينِ وعرضا!
أسدلَ الطّرف كاهِنٌ ومليكٌ في ثَراها وأرسلَ الرأسَ خفضا

(١) ريم: غزال. (٢) أمضى: أحد. (٣) زلفى: تقرباً.
(٤) يترضى: يطلب الرضا. (٥) قضا: حصا.
(٦) محضاً: خالصاً. (٧) تقضي: تفنى.
(٨) يقضى: يموت. (٩) فضا: مفضوض.

obeikandl.com

يُعرَضُ المالكون أسرى عليها ... في قيود الهوان عانينَ جرضى[١]
ما لها أصبحتْ بغير مُجير ... تشتكي من نوائب الدّهر عضّا
هِي في الأسرِ بين صخرٍ وبَحرٍ ... مَلِكَة في السّجون فوقَ حضوضى[٢]
أين (هوروس) بين سيفٍ ونطع ... أبهذا في شرعِهم كان يُقضى!
ليت شعري! قضى شهيدَ غرام ... أم رماهُ الوشاة حِقداً وبُغضا
رُبَّ ضرب من سوطِ فرعون مضٍّ[٣] ... دون فعل الفراقِ بالنفسِ مَضّا
وهلاكٍ بسيفِهِ وهو فانٍ ... دونَ سيفٍ من اللّواحظِ يُنضى[٤]
قتلوهُ فهل لِذَاك حديثٌ ... أين راوي الحديثِ نثراً وقرضا
يا إمام الشّعوب بالأمس واليو ... م سُتُعطى من الثناء فَتَرْضى
مصرُ بالنازلين من ساح معنٍ[٥] ... وحِمى الجود حاتم الجود أفضى
كنْ ظهيراً[٦] لأهلها ونصيراً ... وابذل النصح بعد ذلك محضا
قل لقوم على الولايات أيقا ... ظِ إذا ذاقت البريَّة غمْضا
شيمةُ النيل أن يفي، وعجيب ... أحرجوهُ فضيَّعَ العهدَ نقضا
حاشهُ[٧] الماءُ فهو صيدٌ كريمٌ ... ليتَ بالنيلِ يومَ يسقُط غيضَا[٨]
شيّدُوا المالَ، والعلومُ قليلٌ ... أنقذوهُ بالمالِ والعلمِ نقضا[٩]

وقال أيضاً في استنهاضِ هِمَم العمال من قصيدة:

[مجزوء الرمل]

أيها العمالُ أفنوا الـ ... ـعمرَ كدّاً واكتسابا

---

(١) جرضى: مغمومين. (٢) حضوضى: جبل في البحر.
(٣) مض: موجع.
(٤) ينضى: يسل.
(٥) معن: هو معن بن زائدة أحد كرماء العرب.
(٦) ظهيراً: نصيراً.
(٧) حاشه: من حاش الصّيد، أخرجه في كل مكان.
(٨) غيضا: من غاض الماء غيضاً، نقص أو غار فذهب في الأرض.
(٩) نقضا: النّقض ما انتقض من البناء، أي: انتكث.

واغـــمـــروا الأرضَ فـــلـــولا سـعـيُـكـم أمـسـت يـبـابـا[1]
أتـقـنـوا الـصـنـعـة حـتـى أخـذوا الـخـلـد اغـتـصـابـا
إنْ لـلـمـتـقـيـن عـنـد الـلـ ـه والـنـاس ثـوابـا
أتـقـنـوا يَـحـبـبـكـم الـلـ ـهُ ويـرفـعـكـم جـنـابـا
أرضـيـتـم أن تُـرى مـصـ ـر مـن الـفـنِّ خـرابـا
بـعـدمـا كـانـت سـمـاءً لـلـصِّـنـاعـات وغـابـا
أيـهـا الـغـادون كـنـ ـحـلْ ارتـيـاداً وطِـلابـا
فـي بـكـور الـطـيـر لـلـرز ق مـجـيـئـاً وذهـابـا
اطـلـبـوا الـحـقّ بـرفـق واجـعـلـوا الـواجـب دابـا
واسـتـقـيـمـوا يـفـتـح الـلـ ـهُ لـكـم بـابـاً فـبـابـا
اهـجـروا الـخـمـر تـطـيـعـوا الـلـ ـه أو تُـرْضـوا الـكـتـابـا
إنـهـا رجـسٌ فـطـوبـى لامـرئٍ كـفّ وتـابـا
تُـرْعِـش الأيـدي ومـن يـر عـش مـن الـصـنّـاع خـابـا
إنـمـا الـعـاقـلُ مـن يـجـعَـلُ لـلـدهـر حـسـابـا

وقال أيضاً في وصف الصحافة من قصيدة:

[المتقارب]

لـكـل زمـان مـضـى آيـةٌ وآيـة هـذا الـزمـان الـصـحـفْ
لـسـانُ الـبـلاد ونَـبْـض الـعـبـا د وكهفُ الحقوق وحرب الجنفْ[2]
تـسـيـرُ مـسـيـر الـضـحـى فـي الـبـلا دِ، إذا الـعِـلـمُ مـزّق فـيـهـا الـسـدَفْ[3]
وتـمـشـي تُـعـلـمُ فـي أمـةٍ كـثـيـر بـهـا لا يَـخُـط الألـفْ!
فـيـا فِـتـيـة الـصـحـف صـبـراً إذا نـبـا الـرزقُ فـيـهـا بـكـم واخـتـلـفْ

(١) الضّمير في أمست للأرض، واليباب: الخراب.
(٢) الجنف: الحيف.
(٣) السّدف: الظلام.

فإن السعادة غيرُ الظهو ر، وغير الثراء، وغير الترفْ
ولكنها في نواحي الضمير إذا هو باللؤم لم يُكتَنَفْ
خذوا القصدَ واقتنِعوا بالكفا ف وخلوا الفضولَ يغلها السرفْ[1]
ورومُوا النُّبوغَ فمن ناله تلقّى من الحظ أسنى التُّحفْ
وما الرزق مجتنِبٌ حرفة إذا الحظ لم يهجُر المحترفْ
إذا آخت الجوهَريّ الحظ ظُ كفلنَ اليتيمَ له في الصدفْ[2]
وإن أعرضتْ عنه لم يحلُ في عُيونِ الخرائد[3] غيرُ الخزفْ

(٣) محمد حافظ بك إبراهيم المتوفى سنة ١٣٥١هـ- ١٩٣٢م

هو الشاعر الكبير محمد حافظ بن إبراهيم أفندي فهمي المولود سنة ١٢٨٨هـ. يقول الشعر، في كل مكان يتفق له فيه أن يخلو بنفسه، ويتعب في قرض قريضه تعب النّحات الماهر في استخراج مثال جميل من حجره.

يؤثر الجزالة على الرّقة، وله فيها آيات، يطرق الموضوع في الغالب من جوهره. وربما نظم أكثر الأبيات قبل المطلع شأن الصانع القدير الذي يبدأ بأصعب ما بين يديه آمناً أن تهن عزيمته دون الإجادة بعد ذلك، عالماً أن الكلام لابدَّ أن يأتيه في أي مقام طيعاً ولو بعد حين.

حاضر المحفوظ من أفصح أساليب العرب ينسج على منوالها، ويتخيَّر نفائس مفرداتها وأعلاق حلاها. له غرام باللفظ لا يقلّ عن الغرام بالمعنى. وفي أقصى ضميره يؤثر البيت المجاد لفظاً على المجاد معنى. فإذا فاته الابتكار حيناً في التصور لم يفته الابتكار حيناً في التصوير. أولع بالاجتماعيات فقال فيها وأجاد ما شاء. فهو على الجملة أحد الثلاثة الذين هم نجوم الأدب العربي في مصر لهذا العصر، ولكل من تلك النجوم منزلته وإضاءته وأثره الخالد.

أما شعره فشعر البيان وإن من البيان لسحراً.

ومن شعره الاجتماعي، قوله:

---

(١) الفضول: فضلات المال الزائدة عن الحاجة. وغالها السّرف يغولها: أتى عليها.
(٢) اليتيم: اللؤلؤ المنقطع النّظير.
(٣) الخرائد: العذارى.

[الكامل]

كم ذا يُكابد عاشقٌ ويُلاقي ... في حبِّ مصرَ كثيرةِ العُشَّاق
إني لأحملُ في هواكِ صبابة ... يا مصرُ، قد خرجت عن الأطواقِ
لهفي عليكِ! متى أراكِ طليقةً ... يحمي كَريمَ حماكِ شعبٌ راقِ
كَلِفٌ بمحمود الخِلالِ، مُتيمٌ ... بِالبذلِ بين يديكِ والإنفاقِ
إني لتُطربني الخِلالُ كريمةً ... طَرَبَ الغريبِ بأوبةٍ وتلاقِ
ويهزُّني ذكرُ المروءَةِ والنَّدى ... بين الشَّمائلِ هزّةَ المُشتاقِ
ما البابليَّةُ في صفاءِ مزاجها ... والشربُ بين تنافس وسباقِ
والشمس تبدو في الكؤوسِ وتختفي ... والبدرُ يشرقُ من جبين السّاقي
بألذ من خلقٍ كريم طاهرٍ ... قد مازجتهُ سلامةُ الأذواقِ
فإذا رُزِقتَ خليقة محمودة ... فقدِ اصطفاكَ مُقسّمُ الأرزاقِ
فالناسُ هذا حظهُ مالٌ، وذا ... علمٌ وذاك مكارمُ الأخلاقِ
والمالُ إن لم تَدَّخرْهُ محصناً ... بالعلم كان نهاية الإملاقِ
والعلمُ إن لم تكتنفْهُ شمائلٌ ... تُعليهِ كان مطيَّة الإخفاقِ
لا تحسبنَّ العلم ينفعُ وحدهُ ... ما لم يتوَّج ربُّهُ بخلاقِ
مَنْ لي بتربية النساءِ فإنَّها ... في الشرق عِلَّةُ ذلك الإخفاق
الأم مدرسةٌ إذا أعددتَها ... أعددتَ شَعباً طيّب الأعراقِ
الأم روضٌ إن تعهّدَهُ الحيا ... بالريّ، أورقَ أيّما إيراقِ
الأمُّ أُستاذُ الأساتِذَةِ الألى ... شغلت مآثرُهم مدى الآفاقِ
أنا لا أقولُ: دعوا النساءَ سوافراً ... بين الرجال يجُلنَ في الأسواقِ
يدرُجْنَ حيث أردنَ، لا مِن وازعٍ ... يحذرنَ رقبتهُ، ولا من واقِ
يفعلنَ أفعالَ الرجال لواهياً ... عن واجبات نواعسِ الأحداقِ
في دورهنّ شؤونُهنّ كثيرة ... كشؤون ربّ السيفِ والمزراقِ

كـلاّ، ولا أدعـوكُـمُ أن تُـسـرِفـوا في الـحُـجْـبِ والـتـضـيـيـق والإرهـاق
لـيـسـت نـسـاؤكُـمُ حُـلـىً وجـواهـراً خَـوْفَ الـضـيـاع تُـصـانُ في الأحـقـاقِ
لـيـسـتْ نـسـاؤكُـمُ أثـاثـاً يُـقـتـنـى فـي الـدُّورِ بـيـن مـخـادعٍ وطـبـاقِ
تـتـشـكّـلُ الأزمـانُ فـي أدوارِهـا دُوَلاً، وهـنَّ عـلـى الـجـمـود بـواقِ
فتوسَّطوا في الحالتَين، وأنصفوا فـالـشـرُّ فـي الـتّـقـيـيـد والإطـلاقِ
ربُّوا البنات على الفضيلةِ، إنّها فـي الـمـوقـفَـيـن لـهـنَّ خـيـر وثـاقِ
وعـلـيـكُـمُ أن تـسـتـبـيـنَ بـنـاتُـكـم نـورَ الـهـدى وعـلـى الـحـيـاءِ الـبـاقـي

(٤) إسماعيل صبري باشا المتوفى سنة ١٩٢٣م

هو أحد شعراء الطبقة الأولى في هذا العصر، ويمتاز بجمال مقطعاته، وعذوبة أسلوبه إلى مالا يُجاريه فيه مُجار. وأكثر ما ينظم فلخطرة تخطر على باله، من مثل حادثة يشهدها أو خبر ذي بال يسمعه، أو كتاب يطالعه. ينظم المعنى الذي يعرض له في بيتين عادة إلى أربعة إلى ستة، وقلَّما يزيد على هذا القدر إلا حيث يقصد قصيدة.

شديد النقد لشعره، كثير التبديل والتحويل فيه، حتى إذا استقام على ما يريده ذوقه من رقة اللفظ وفصاحة الأسلوب أهمله ثم نسيه. وُلد بالقاهرة سنة ١٨٥٤م، وتوفي سنة ١٩٢٣م.

من قوله يصف الأهرام:

[البسيط]

لا القومُ قومي ولا الأعوانُ أعواني إذا ونى يوم تَحصيلِ العُلى وانِ
ولستُ إنْ لم تُؤَيدْني فراعنة منكم بفرعونَ عَالي العرشِ والشانِ
ولستُ جبّار ذا الوادِي إذا سلمتْ جبالهُ تلك من غَاراتِ أعوَانِي
لا تَقربوا النِّيلَ إن لم تعملوا عمَلاً فماؤهُ العذْبُ لم يُخلَقْ لِكسلانِ
رِدُوا المجرّة كدّاً دون مَوردِهِ أو فاطلبوا غيرَهُ ريّاً لظمآنِ
وابنُوا كما بَنتِ الأجيالُ قبلكمُ لا تتركوا بَعدَكم فخراً لإنسانِ

أمرتُكم، فأطيعوا أمرَ رَبّكمُ ... لا يَثْنِ مُستمِعاً عن طاعةٍ ثانِ
فالملكُ أمرٌ وطاعاتٌ تُسابقهُ ... جنباً لجنب إلى غايات إحسانِ
لا تتركوا مُستحيلاً في استحالته ... حتى يُميطَ لكم عن وجه إمكانِ
مقالةٌ قد هَوت من عرشِ قائلها ... على مَناكِبِ أبطال وشُجعانِ
مادَتْ لها الأرضُ من ذُعرٍ ودَان لها ... ما في المقطَّمِ من صخر وصوَّانِ
لو غيرُ فرعونَ ألقاها على ملأٍ ... في غير مصرٍ لعُدَّتْ حُلْم يقظانِ
لكنّ فرعونَ إن نَادى بها جَبَلاً ... لبَّتْ حجارتُهُ في قَبضةِ الباني
وآزرتْهُ جماهير تسيلُ بها ... بِطاحُ وادٍ بماضي القومِ ملآنِ
يَبنون ما تقِفُ الأجيالُ حائرة ... أمامهُ بين إعجاب وإذعانِ
من كل ما لم يَلِد فكر ولا فُتِحَت ... على نظائِرِهِ في الكون عينانِ
ويُشبهونَ إذا طاروا إلى عمَل ... جنّاً تطيرُ بأمرٍ من سُلَيمانِ
برّاً بذي الأمر لا خوفاً ولا طمَعاً ... لكنّهم خُلقوا طُلابَ إتقانِ
أهرامُهم تلك، حيّ الفنَّ مُتخذاً ... من الصُّخُورِ بروجاً فوق كَيوانِ
قد مَرَّ دهر عليها، وهي ساخِرة ... بما يُضَعْضِعُ من صَرحٍ وإيوانِ
لم يأخذِ اللّيلُ منها والنهارُ سوى ... ما يأخذُ النملُ من أركان ثهلانِ
كأنها والعوادي في جوانبها ... صَرعى بناءُ شياطين لشيطانِ
جاءت إليها وفود الأرض قاطبة ... تسعى اشتياقاً إلى ما خلَّدَ الفاني
فصغَّرت كل موجودٍ ضخامتُها ... وغضَّ بنيانها من كلّ بُنيانِ
وعادَ مُنكِرُ فضلِ القوم مُعترفاً ... يُثني على القوم في سِرٍّ وإعلانِ
تلك الهياكلُ في الأمصار شاهدةٌ ... بأنهم أهلُ سبقٍ، أهلُ إمعانِ
وأن فرعونَ في حَول ومَقدرة ... وقومَ فرعونَ في الإقدام كُفؤانِ
إذا أقام عليهم شاهداً حَجَرٌ ... في هيكل قامتِ الأخرى ببرهانِ
كأنما هي والأقوام خاشعةٌ ... أمامها صحْفٌ من عالَمٍ ثانِ

تَستقبلُ العينَ في أثنائِها صُوَرٌ فصخَّة الرمز دارتْ حولَ جُدرانِ
لو أنها أُعطِيتْ صوتاً لكانَ لهُ صدًى يُروّع صُمَّ الإنس والجانِ
أين الأُلَى سَجَّلوا في الصّخر سيرتهم وصغّروا كلّ ذي مُلْك وسلطانِ
بادُوا، وبادَت على آثارهم دُوَلٌ وأُدرِجُوا طيَّ أخبار وأكفانِ

(٥) خليل بك مُطران

هو شاعر الشُّعور والخيال، وشاعر بَعلبك والأهرام. ولد سنة ١٨٧١ ببعلبك وتعلّم بها. قدم مصر سنة ١٨٩٣م واشتغل بمكاتبة الصّحف وأنشأ باسمه «المجلّة المصرية» سنة ١٨٩٩م وأنشأ أيضاً «جريدة الجوائب المصرية» وله ديوانه المسمّى «ديوان الخليل».

شعره: مجمعُ الصُّوَر ومَلعَبُ الخيَال، ونفسه كالصّحيفة الحسّاسة ينطبع عليها كل ما يمر بها، بل الغصن الرطب يميل به كلّ نسيم، بل وجه البُحيرة الصّافي يحرّكه كل ريح.

من قصيدة له يصف ضرب الأسطول الإيطالي سواحل الشّام ويستنهض الهمم:

[الوافر]

بلادي لا يزالُ هواكِ مِنّي كما كان الهوى قبل الفِطَامِ
أقبّل منكِ حيثُ رمى الأعادي رُغاماً طَاهراً دُون الرّغامِ
وأفدِي كل جُلمود فَتِيت وَهى بقنَابل القومِ اللّئَامِ
لَحى الله المطامعَ حيث حلّت فتلك أشدّ آفات السلامِ
تشوبُ الماءَ وهو أغرّ صاف وتمشي في المشارب بالسّقامِ
أقول وقد أفاق الشّرق ذُعراً من الحال الشّبيهة بالمنامِ
على صَخَب المدافع في حماه ورقص الموت بينَ طَلى وهَامِ
أقول بصوته لُحماة دار رماها من بُغَاة الغرب رامِ
أباةَ الضَّيم من عَربٍ وتُركٍ نُورَ الشّمّ آسادَ الموَامي
قرومَ العصر فرساناً ورجلاً نُجومَ الكرّ من خلف اللثامِ

بنا مرَض النَّعيم فنَسّمُونا وَغّى يشفي من الصفو العَقامِ
بنا بَردُ المكوثِ فأدفِئونا بِحُمَّى الوَثْبِ حيث الخطبُ حامِ
بنا عطلُ السّماع فشَنِّفونا بقَعقعة الحديد لدى الصّدامِ
على هذا الرّجاء ونحن فيه نسيرُ مُوفّقين إلى الأمَامِ

وقال في نابليون وهو يراقب السماء في آخر أيامه:

[الكامل]

قالوا لنابليون ذات عَشيّة إذ كان يرقب في السّماء الأنجُمَا
هل بعد فَتح الأرض من أُمْنيَّة فأَجَاب أنظر كيف أفتتح السّما

أبواب الشعر العربي

الباب الأول: في المديح

قال أُميَّة بن أبي الصّلت المتوفّى سنة ٩هـ، في العزّة الإلهية:

[الطويل]

لكَ الحمدُ والنّعماءُ وَالمُلْكُ رَبَّنا فلا شَيء أعلَى منك مجداً وأمجَدُ
مَليك على عَرض السّماءِ مُهيمنٌ لِعزّته تَعنُو الوُجُوه وتَسجُدُ
فَسُبحان من لا يَعرفُ الخلقُ قدرَه وَمَنْ هو فوقَ الْعرش فردٌ مُوحّدُ
هُو الله باري الخلقِ والخلقُ كُلّهم إماءٌ له طوعاً جميعاً وأعبُدُ
مليكُ السَّموات الشّدَاد وأرضِها يَدومُ ويَبقى والخليقةُ تَنْفَدُ

وقال أيضاً في الكونيات وذكر الفناء وما يلقاه الناس بعد ذلك:

[الوافر]

إلهُ العالَمِينَ وَكلِّ أرض وربُّ الرَّاسياتِ من الجبالِ
بَنَاها وابتَنَى سَبْعا شِدَاداً بِلا عَمدٍ يُرينَ ولا رجالِ
وسوَّاها وَزيَّنها بنُور من الشمس المُضِيئَةِ والهلالِ
ومن شُهُب تَلألأُ في دُجاها مَراميها أشَدُّ من النِّصالِ

وشَقّ الأرضَ فانبجَسَتْ عيُوناً وأنهازاً من العَذْب الزُّلالِ
وبارك في نواحيها وَزَكّى بها ما كان من حَرْثٍ وَمَالِ
فكُلُّ مُعَمّر لابدّ يوماً وذي دُنيا يصيرُ إلى زوالِ
ويفْنى بعد جدته ويَبلَى سوَى الباقي المنقدّس ذي الجلالِ
وسِيقَ المجرِمُون وهم عُراة إلى ذات المَقامع والنّكالِ
فنادَوا ويلَنا وَيلاً طويلاً وعَجُّوا فِي سَلاسلها الطّوالِ
فليسُوا مَيِّتين فيستَريحوا وكلهمُ بحَرّ النّار صالي
وحَلّ المتّقون بدار صدق وعيش ناعمٍ تحت الظّلال
لهم ما يشتهون وما تَمنّوا من الأفراح فيها والكمالِ

وقال محمود سامي البارودي باشا مادحاً سيدَ الأمة، من قصيدة كشف الغُمَّة:

[البسيط]

«محمدٌ» خاتم الرُّسْل الّذي خضعت له البرية من عُرب ومن عَجَمِ
سميرُ وجي ومجْنَى حِكمةٍ ونَدى سَماحة وقرَى عافٍ ورِيُّ ظَمِ
قد أبلغ الوحيُ عنه قبل بِعثته مسامِعَ الرُّسْل قولاً غير مُنكتِم
فذاك دعوةُ إبراهيم[1] خَالقَه وَسِرُّ ما قاله عيسى[2] من القِدَمِ
أكرم به وبآباءٍ مُحجّلة جاءت به غرّة في الأعصُر الدُّهُمِ
قد كان في مَلكوت الله مُدّخَراً لدعوة كان فيها صاحبَ العَلَمِ
نورٌ تنقل في الأكوان ساطعة تنقُّلَ البدرِ من صُلب إلى رَحِمِ

وقال أحمد بك شوقي مادحاً أفضل الخلق على الإطلاق من نَهج البُردة:

[البسيط]

«محمدٌ» صَفوةُ الباري ورَحمتهُ وَبُغيةُ الله من خَلقٍ ومن نِعَمِ

---

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: ١٢٩].

(٢) يشير إلى قوله جل ذكره ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصّف: ٦].

وصاحبُ الحوضِ يوم الرُّسْلُ سائلةٌ ... متى الوُرُود وجبريلُ الأمينُ ظُمِي
سنَاؤه وسنَاءُ الشمس طالعةٌ ... فالجِرمُ في فلكٍ والضّوءُ في عَلَمِ
قد أخطأ النجمُ ما نالت أُبُوَّته ... من سُؤددٍ باذخٍ في مَظهَرٍ سنِمِ
نُمُوا إليه فَزَادُوا في الوَرى شَرفاً ... ورُبّ أصلٍ لفرعٍ في الفَخار نُمِي
حَواه في سُبُحات الطُّهر قبلهمُ ... نُورانِ قاما مقامَ الصُّلب والرَّحِمِ
لما رآه بَحِيرا قال نَعرفهُ ... بما حفِظنا من الأسماء والسِّيَمِ

وقال أبو تمام مادحاً المعتضد بالله:

[الطويل]

إلى قُطبِ الدُّنيا الذي لو بفضلهِ ... مَدَحتُ بَني الدُّنيا كفَتهم فَضائلُهْ
منِ البأسِ والمعروفِ والجودِ والتُّقَى ... عيالٌ عليه رِزقهنَّ شمائِلُهْ
هو البَحرُ من أيّ النواحي أتيتَه ... فلُجّتهُ المعرُوفُ والجودُ ساحلُهْ
تَعوَّد بَسطَ الكف حتّى لَوَ انّهُ ... ثَناها لقبضٍ لم تُطِعْهُ أنامِلُهْ
ولو لم يكن في كفِّه غيرُ رُوحه ... لجاد بها، فَلْيتَّقِ اللهَ سائلُهْ

وقال أيضاً مادحاً المعتصم بالله:

[البسيط]

السيف أصدَقُ إنباءً من الكُتُبِ ... في حدِّه الحدّ بين الجدّ واللَّعبِ
بِيضُ الصفائِح لا سُودُ الصحائف في ... مُتُونِهِنّ جَلاء الشّكِّ والرّيَبِ
فتحٌ تَفتحُ أبوابُ السّماءِ له ... وتبرُزُ الأرضُ في أثوابها القُشُبِ
غادَرتَ فيهم بهيمَ الليل وهو ضُحى ... يُقِلُّهُ وَسْطَها صُبحٌ من اللَّهَبِ
حتى كأن جلابيبَ الدُّجى رَغِبَتْ ... عن لونها وكأنَّ الشمس لم تَغِبِ
أجبتَهُ مُعلناً بالسّيف منصلِتاً ... ولو أجبتَ بغير السّيف لم تُجَبِ
خَليفةَ الله جازى الله سَعيك عن ... جُرْثومة الدّين والإسلام والحَسَبِ
فبين أيامك اللاتي نُصرتَ بها ... وبين أيامِ بدْر أقربُ النّسبِ

وقال أبو العَلاء المَعري:

[الطويل]

إليك تَناهى كلُّ فَخْرٍ وسُؤْدُدٍ فأبْلِ اللَّيالي وَالأنَامَ وَجَدِّدِ
لِجَدِّك كان المجدُ ثم حَويتَه ولابنك يُبْنَى منه أشرَفُ مَقْعَدِ
ثلاثةُ أيامٍ هِيَ الدّهرُ كله وما هُنّ غير الأمسِ واليومِ والغَدِ
وما البدرُ إلا واحدٌ غيرَ أنه يغيبُ ويأتي بالضِياءِ المُجدّدِ
فلا تَحسَب الأقْمَارَ خَلْقاً كَثيرة فجُملتُها مِن نَيِّر مُتَردِّدِ
وللحَسَنِ الحُسْنَى وإن جادَ غيرهُ فَذَلِك جُودٌ ليس بالمتعَمَّدِ

وقال أبو الطَّيِّبِ المُتَنَبِّي مادحاً سيف الدولة:

[البسيط]

ضاق الزمانُ ووجهُ الأرض عن مَلِك مِلْءِ الزمان وملءِ السّهل والجَبلِ
فنحْنُ في جذل والرُّوم في وَجَل والبَرُّ في شُغل والبحرُ في خَجَلِ
ليتَ المَدائِح تَسْتَوْفِي مناقبَه فما كُلَيْبٌ وأهلُ الأعصر الأُوَلِ
خُذْ ما تَرَاه وَدَعْ شيئاً سمِعتَ به في طلعَة البدرِ ما يُغنيك عن زُحلِ
وقد وَجدت مكانَ القول ذَا سَعَةٍ فإنْ وجَدتَ لساناً قائلاً فَقُلِ
إن الإمامَ الذي فخرُ الأنامِ به خيرُ السُّيوف بكفِّي خَيْرَةِ الدُّولِ
تمسِي الأمَانِيَ صَرْعَى دُون مَبلغِهِ فما يقولُ لشيءٍ ليتَ ذَلك لي

وقال أيضاً يمدح أبا شُجاع:

[البسيط]

لا خيلَ عندَك تُهديها ولا مالُ فليُسْعِد النُّطْقُ إن لم تُسْعد الحالُ
واجز الأميرَ الذي نُعْماه فاجئةٌ بغير قَوْلٍ ونُعْمَى النَّاسِ أقوالُ
فرُبما جَزَت الإحسانَ مُوليَه خَريدةٌ من عَذَارى الحَيّ مِكْسَالُ
وإن تكن مُحكمات الثّكل تمنعني ظهور جرْي فلي فيهنّ تصْهالُ
وما شَكَرْتُ لأن المالَ فرّحني سيّان عندي إكثارٌ وإقلالُ

لكن رأيتُ قبيحاً أن يُجادِلَنَا ... وإنّنا بقضاءِ الحقِّ بُخّالُ
فكنتُ مُنْبتَ رَوْضِ الحِزْن باكَرَه ... غيثٌ بغيرِ سباخ الأرض هَطّالُ
غيثٌ يُبَيّن للنُّظار مَوْقِعَهُ ... أن الغيوثَ بما تأتيه جُهّالُ
لا يُدْرِك المجدَ إلا سَيّدٌ فَطِنٌ ... لما يَشُقُّ على السادات فَعّالُ
لا وَارِثٌ جَهِلَتْ يُمْناهُ ما وَهَبَتْ ... ولا كَسُوبٌ بغير السّيف سَئّالُ
قال الزمَانُ له قولاً فأفهمَهُ ... أن الزّمان على الإمساك عَذالُ
تدري القناةُ إذا اهتزت براحته ... أن الثّقيّ بها خيلٌ وأبطالُ
كفاتكٍ ودُخول الكاف مَنْقَصةٌ ... كالشّمس قُلْتُ وما للشمس أمثالُ
القائدُ الأُسْدَ غَذَّتْها بَرَاثِنُهُ ... بِمثْلها مَنْ عداهُ وهي أشبالُ

وقال أيضاً يمدح سيف الدولة ويذكر بناءه قلعة الحدث سنة ٣٤٣هـ:

[الطويل]

على قدْر أهل العزْم تأتي العزائمُ ... وتأتي على قدْر الكرام المكارمُ
وتَعظُم في عين الصغير صِغارُها ... وتصغُر في عين العظيم العظائِمُ
يُكلّفُ سيفُ الدّوْلة الجيشَ همّهُ ... وقد عجَزَت عنه الجيوش الخضَارِمُ
ويطلب عند الناس ما عند نفسه ... وذلك ما لا تدّعيه الضّرَاغمُ
يُفدّي أتمُّ الطّير عُمْراً سِلاحهُ ... نُسُورُ الفَلا أحداثها والقشاعِمُ
وما ضَرّها خَلْقٌ بغير مخالب ... وقد خُلِقتْ أسيافه والقوائمُ
هل الحَدَث الحمراء تَعرف لوْنَها ... وَتعلَم أيُّ السّاقِيَيْن الغَمائمُ
سقَتْها الغمام الغرُّ قبل نزوله ... فلما دنا منها سقتها الجماجمُ
بناها فأعلى والقنَا يقَرَع القَنا ... ومَوْج المنايا حوْلها مُتلاطمُ
وكان بها مثلُ الجنون فأصبحت ... ومن جُثَث القَتلى عليها تمائمُ
طَريدة دَهر ساقها فرَدَدْتَها ... على الدّين بالخَطّيّ والدّهر راغمُ
تُبيد اللّيالي كلّ شيءٍ أخذتَه ... وهُنَّ لما يأخذن منك غَوارمُ

وكيف ترَجّى الرُّوم والرُّوس هَدْمَها وذا الطعنُ أساس لها ودعائمُ

وقال جرير المتوفى سنة ١١٠هـ يمدح عبد الملك بن مروان:

[الوافر]

تَعَزّت أُمُّ حَزْرَة ثمَّ قالتْ رأيتُ المورِدِين ذَوِي لِقَاحِ
ثِقِي بالله لَيسَ له شريك وَمِنْ عِنْدِ الخَلِيفة بالنّجَاحِ
سأشكرُ إنْ رَدَدْتَ إليّ ريشي وأنْبَتَّ القَوَادِمَ في جَناحِي
ألَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايَا وَأنْدَى العالَمِينَ بُطونَ راحِ

وقال أيضاً يمدح عمر بن عبد العزيز ويستعطفه:

[البسيط]

كمْ باليَمامةِ مِنْ شَعْثَاءَ أَرْمَلَةٍ ومنْ يتيم ضَعِيفِ الصّوْتِ والنّظَرِ
ممّنْ يَعُدُّكَ تَكْفِي فَقْدَ وَالِدِهِ كالفَرْخِ في العُشّ لَم يَنْهَضْ ولم يَطِرِ
يَدْعُوكَ دَعْوَةَ مَلهوفٍ كأنّ بِهِ خَبْلاً مِنَ الجِنّ أو مَسّاً من النُّشَرِ
إنّا لَنَرْجُو إذا ما الغَيثُ أخْلَفَنَا مِنَ الخَلِيفَةِ مَا نَرْجُو مِنَ المَطَرِ
أتَى الخِلافَةَ أو كَانَتْ لَهُ قَدَراً كما أتَى رَبَّهُ مُوسَى عَلَى قَدَرِ
هَذِي الأَرَامِلُ قَدْ قَضَّيْتَ حَاجَتَها فَمنْ لِحاجَةِ هذا الأرمل الذَّكَرِ

وقال أيضاً يمدحه:

[الوافر]

يَعُود الفَضْلُ مِنْكَ عَلَى قُرَيْشٍ وَتُفْرِجُ عنهمُ الكُرَبَ الشِّدَادَا
وقد أمّنْتَ وَحْشَهُم بِرِفْق ويُعْيي النَّاسَ وَحْشُك أن يُصَادَا
وَتَدْعُو الله مُجْتَهداً لِيَرْضَى وَتَذْكُرُ في رَعِيَّتِكَ المَعَادَا
وَمَا كَعْبُ بنُ مَامَة وابْنُ سُعْدَى بأجْوَدَ مِنك يا عُمَرُ الجَوَادَا

وقال الثعالبي المتوفى سنة ٤٣٩هـ مادحاً الأمير أبا الفضل الميكالي:

[الكامل]

لك في المفاخر مُعجزاتٌ جَمّة أبداً لغيرك في الورَى لم تُجمعِ
بحران بحرٌ في البلاغة شابَهُ شعر الوليدِ وحسن لفظ الأصمَعي

وترسُّلُ الصّابِي يزين عُلُوهُ خط ابن مُقلةَ ذو المحل الأَرْفعِ
كالنّور أو كالسّحر أو كالبدر أو كالوشي في بُرْدٍ عليه مُوَشّعِ
شكراً فكم من فِقْرَةٍ لك كالغنى وافى الكريم بُعَيْدَ فقر مُدْقعِ
وإذا تَفَتّق نَوْرُ شعرك ناضراً فالحسن بين مُرصَّع ومُصَرَّعِ
أَرْجَلْتَ فرسان الكلام ورُضْتَ أفـ ـراس البديع وأنت أمجد مُبدِعِ
ونقشتَ في فَصّ الزمان بدائعاً تُزري بآثار الربيع المُمْرِعِ

وقال أبو محمد اليمني المتوفى سنة ٥٦٩هـ يمدح الملك الفائز ووزيره الصالح:

[الطويل]

أقمتُ بالفائزِ المعصُومِ معْتَقِداً فَوْزَ النّجاةِ وأجرُ البِرّ فِي القَسَمِ
لقد حَمَى الدِّينَ والدنيا وأهلهُما وزيرُهُ الصّالح الفَرَّاجُ للغُمَمِ
اللّابِسُ المجد لم تنْسُج غَلائِلَهُ إلاّ يدُ الصانِعَيْن السّيْفِ والقَلَمِ
قَد مَلّكَتْهُ العَوَالِي رِقَّ مَمْلَكةٍ تعِيرُ أنْفَ الثُّرَيّا عِزّةَ الشّمِمِ
أرَى مَقاماً عظيمَ الشأن أوهَمني في يَقظَتي أنّه من جملةِ الحُلُمِ
لَيْتَ الكواكِبَ تَدْنُو لي فأنْظِمَها عُقُودَ مَدْحٍ فَمَا أرْضَى لكُمْ كلِمي
خليفَةٌ ووزيرٌ مَدَّ عدْلُهما ظِلاًّ على مَفْرِق الإسْلام والأُممِ
زيادَةُ النّيل نَقْصٌ عِندَ فيضِهِما فَمَا عَسَى يَتَعاطَى هاطِل الدِّيَمِ

وقال حافظ بك إبراهيم يمدحُ أستاذنا الشيخ محمد عبده ويهنئه:

[الطويل]

رَأيتُك والأبصارُ حَولَكَ خُشَّعٌ فقلتُ أبو حَفص ببُردَيك أم علي
وخفضْتَ من حُزني عَلى مَجْد أمّة تَدَارَكْتَها والخطْبُ للخَطب يَعتلي
طلعْتَ بها باليُمن من خيرِ مَطْلَع وكُنتَ لها فِي الفَوْز قِدْحُ ابنُ مقبلِ
وجرّدتَ للفُتْيا حُسَامَ عَزيمة بحدَّيه آياتُ الكِتابِ المُنْزلِ
مَحوْتَ به في الدّين كلّ ضَلالة وأثبتَّ ما أثْبَتَّ غيرَ مُضلِّلِ
لئن ظفِر الإفتاءُ منك بفاضل لقد ظَفِر الإسلامُ منك بأفضلِ

الباب الثاني: في الفخر والحماسة

قال السموءل بن عادياء المتوفى سنة ٦٢ قبل الهجرة:

[الطويل]

إذا المرْءُ لمْ يَدْنَسْ مِن اللُّؤمِ عِرْضُهُ فكُلُّ رِدَاء يَرْتَدِيهِ جَمِيلُ(١)

وإنْ هُوَ لمْ يَحْمِل عَلى النَّفْسِ ضَيْمَها فليسَ إلى حسْنِ الثّناءِ سبيلُ(٢)

تُعيّرُنا أنَّا قَليلٌ عَديدُنا فَقلْتُ لها إنّ الكِرَامَ قَليلُ(٣)

وَما قَلَّ مَنْ كانَتْ بَقاياهُ مِثلَنا شَبابٌ تَسَامَى للْعُلا وَكُهُولُ(٤)

وَما ضَرَّنَا أنَّا قليلٌ وَجارُنَا عزيزٌ وجارُ الأَكْثرِينَ ذَليلُ(٥)

لَنا جبلٌ يَحْتَلُّهُ مَنْ نُجيرُهُ مَنيعٌ يَرُدُّ الطَّرْفَ وهُو كليلُ(٦)

رَسا أصْلُهُ تَحتَ الثرَى وسَمَا بِهِ إلى النجْمِ فَرْعٌ لا يُنالُ طَوِيلُ(٧)

هُوَ الأبْلقُ الفرْدُ الذي شاعَ ذِكْرُهُ يَعِزُّ على مَنْ رَامَهُ ويَطولُ(٨)

وَإنَّا لقَوْمٌ لا نَرَى القَتْلَ سُبّةً إذا ما رَأَتْهُ عامِرٌ وَسَلولُ(٩)

---

(١) اللؤم: اسم جامع للخصال المذمومة. والمعنى أن الإنسان إذا لم يتدنس باكتساب اللؤم واعتياده فأي ملبس يلبسه بعد ذلك كان جميلاً.

(٢) وإن هو لم يحمل إلى آخر البيت: أي: من لم يصبر النّفس على مكارهها فلا سبيل إلى اكتساب حسن الثناء؛ وليس معنى الضيم ضيم الغير لهم لأنهم يأنفون من ذلك ويعدونه تذللاً.

(٣) يقال: عيرته كذا، وعيرته بكذا، والأوّل المختار. المعنى أنها أنكرت منّا قلّة عددنا فعدته عاراً فأجبتها أن الكرام يقلون

(٤) الشّباب: جمع شاب كالشّبان. وقوله تسامى أراد تتسامى، فحذف إحدى التّاءين. والكهول: جمع كهل ضد الشّبان

(٥) وما ضرنا: يجوز في «ما» أن تكون نافية والمعنى: لم يضرنا، ويجوز أن تكون استفهاميّة على طريق التّقرير، والمعنى: أي شيء ضرنا.

(٦) قيل إنه أراد بذكر الجبل العز والسّمو. وقيل إن هذا الجبل هو حصن السّموأل الذي يقال له الأبلق الفرد. يعني من دخل في جوارنا امتنع على طلابه.

(٧) رسا أصله إلى آخر البيت: يريد به أنه أثبت جبل في الأرض وأعلى طود عليها.

(٨) الأبلق الفرد الذي شاع ذكره هو حصن السّموأل، بناه أبوه، وقيل سليمان عليه السّلام بأرض تيماء، وقصدته الزباء فعجزت عنه وعن مارد، فقالت: تمرد مارد وعز الأبلق.

(٩) السّبة: العار. عامر وسلول: قبيلتان. يقول: إذا حسب هؤلاء القتل عاراً عدّته عشيرتي فخراً.

يُقرّبُ حُبُّ المَوتِ آجالنا لَنا وتَكرَهُهُ آجالُهُمْ فَتَطولُ[١]
وما ماتَ منّا سيّدٌ حَتْفَ أنْفِهِ ولا طُلّ مِنا حيثُ كانَ قتيلُ[٢]
تَسيلُ على حَدّ الظُّباتِ نفوسُنا وليستْ على غيرِ الظُّباتِ تسيلُ[٣]
صَفَوْنا فلم نَكدرْ وأخلَصَ سِرّنا إناثٌ أطابتْ حَملَنا وفحُولُ[٤]
علَوْنا إلى خيرِ الظُّهور وحَطنا لوَقْتٍ إلى خيرِ البُطونِ نزولُ[٥]
فنَحنُ كَماءِ المُزْنِ ما في نِصابِنا كَهامٌ وَلا فينَا يُعَدُّ بَخيلُ[٦]
ونُنْكِرُ إن شئْنا على الناس قَولَهم ولا يُنْكِرُونَ القوْلَ حينَ نقول[٧]
إذا سيّدٌ منّا خلاَ قامَ سيّدٌ قَؤولٌ لما قالَ الكرَامُ فَعولُ[٨]
وما أُخمِدَتْ نارٌ لنا دُونَ طارقٍ ولا ذَمّنا في النّازلينَ نَزِيلُ[٩]
وأيّامُنا مشْهُورةٌ في عَدُوّنا لها غُرَرٌ مَعلُومَةٌ وَحُجُول[١٠]

(١) يقرب إلى آخر البيت: يشير به إلى أنهم يغتبطون لاقتحامهم المنايا، وأن عامراً وسلولاً يعمرون لمجانبتهم الشّر كراهة للموت وحباً للحياة.
(٢) يقال: مات فلان حتف أنفه إذا مات من غير قتل ولا ضرب. قيل: إن أوّل من تكلم بقولهم حتف أنفه النّبي ﷺ. ومعنى البيت أنّا لا نموت ولكن نقتل ودم القتيل منا لا يذهب هدراً.
(٣) الظبات: جمع ظبة وهي حد السّيف. قيل: أراد بالظبات السّيوف كلها، فأضاف الحد إليها، أي أنهم لشجاعتهم وشرفهم لا يقتلون إلا بالسّيوف ولا يقتلون بالعصي ولا بالحجارة كما يقتل رعاع النّاس.
(٤) المراد بالسّر هنا الأصل الجيد، ومعنى ذلك صفت أنسابنا فلم يشبها كدر.
(٥) علونا إلى آخر البيت: يشير به إلى صريح نسبهم وخلوصه مما يحطّ بشرفهم.
(٦) كماء المزن: يريد بذلك تشبيه صفاء أنسابهم بصفاء ماء المطر. والنّصاب: الأصل، ومنه نصاب السّكين. والكهام: الكليل الحد. يقول: نحن كماء المزن وكل منا نافذ ماض ولا فينا بخيل فيعد.
(٧) ولا ينكرون إلى آخر البيت: معناه أنهم لشدة بأسهم وحماستهم تخشاهم النّاس فلا ينكرون عليهم.
(٨) يعني أن السّيادة مستقرة فينا حتى إذا خلا منا سيد خلفه سيد يقول ما تقول الكرام، ويفعل ما تفعله.
(٩) وما أخمدت نار لنا: يشير بذلك إلى أنهم لكثرة كرمهم يديمون إيقاد نار الضيافة ولا يطفئونها دون طارق ليل، وإنهم يثني عليهم كل نزيل.
(١٠) الحجول: جمع حجل وهو الخلخال. يقول: وقعاتنا مشهورة في أعدائنا، فهي بين الأيام كالأفراس الغر المحجلة بين الخيل.

openkanaan.com

وأسْيافنا في كلّ شَرْقٍ ومَغْرِب بها منْ قِرَاعِ الدَّارِعينَ فُلول[١]
مُعَوَّدَةٌ ألا تُسَلَّ نِصالُها فَتُغْمَدَ حتى يُسْتَبَاحَ قبيلُ[٢]
سَلي إنْ جَهلْتِ النّاس عنّا وعنهُم فَليسَ سَوَاءً عالِمٌ وجَهُولُ[٣]
فإن بني الرَّيَّانِ قُطْبٌ لقَوْمِهِمُ تَدُورُ رَحاهُم حَوْلَهُمْ وتَجُولُ[٤]

وقال عنترة العبسي المتوفى سنة ٧ قبل الهجرة:

[الطويل]

لعَمرُك إن المجد والفخر والعُلاَ ونيلَ الأماني وارتفاعَ المراتبِ
لمَنْ يلتقي أبطالَها وَسَرَاتَها بقلبٍ صَبور عند وَقْع المضارِبِ
ويَبني بحدّ السَّيف مجداً مشيداً على فَلَك العَلياء فوق الكواكبِ
ومَنْ لم يُرَوِّ رُمحَهُ من دَم العِدَا إذا اشتبكتْ سُمْرُ القَنا بالقَواضبِ
ويُعطي القَنا الخَطيّ في الحرب حقَّه ويَبري بحدّ السّيف عرض المنَاكبِ
يعيشُ كما عاش الذليل بغُصَّة وإن مات لا يجري دُموع النوادبِ
فضائلُ عزْمٍ لا تُباعُ لضارع وأسرارُ حزْمٍ لا تُذَاع لعائبِ
بَرزتُ بها دهراً على كل حادث ولا كُحْل إلا مِنْ غبار الكتائبِ
إذا كذَب البرْق اللمُوعُ لشائِمٍ فبرْقُ حُسَامي صادقٌ غيرُ كاذبِ

---

(١) القراع بكسر القاف: المقارعة والمضاربة. والدّارعين أصحاب الدّروع. يقول: أسيافنا في كل مكان تفللت أي: تكسرت مما تضارب بها الأعداء. والفلول: جمع فل وهو الكسر.

(٢) القبيل: الجماعة من آباء شتى وجمعه قبل، والقبيلة: الجماعة من أب واحد، وجمعها قبائل. يقول: عودت أسيافنا أن لا تجرّد من أغمادها فترد فيها إلا بعد أن يستباح بها قبيل، وفي رواية قتيل.

(٣) عنا وعنهم، ويروى عنا فتخبري. معناه إن كنت جاهلة بنا فسلي النّاس تخبري بحالنا فالعالم والجاهل مختلفان.

(٤) القطب: الحديد الذي في الطبق الأسفل من الرّحى يدور عليه الطبق الأعلى منها. والمعنى أن أمر قبيلتهم لا يستقيم ولا يتم إلا بهم مثل الرّحى لا يتم أمرها إلا بالقطب.

وقال أيضاً في الحماسة والفخر:

[الوافر]

سَكَتُّ فغرَّ أعدائي السكوتُ وظَنُّوني لأهلي قد نَسيتُ
وكيف أنامُ عن سَاداتِ قوْم أنا في فَضْلِ نِعمتهم رُبيتُ
وإن دارت بهم خيلُ الأعادي ونادَوْني أجبتُ متى دُعيتُ
بسيفٍ حدُّهُ مَوْجُ المَنايا ورُمحٍ صدرُهُ الحَتْفُ المُمِيتُ
خُلِقتُ من الحديد أشدَّ قلباً وقد بَلِيَ الحديدُ وما بَليتُ
وإني قد شربتُ دم الأعادي بأقحاف الرُّؤوس وما رَويتُ
وفي الحرب العَوان وُلدت طِفلاً ومن لبن المعامع قد سُقيتُ
فما للرُّمح في جسمي نصيبٌ ولا للسّيف في أعضايَ قُوتُ
ولي بَيت علا فَلَك الثُّريَّا تَخِرُّ لعظْم هيبتِهِ البيوتُ

وقال أيضاً في الحماسة والفخر يوم المصانع:

[الوافر]

إذا كشف الزّمانُ لك القِناعا ومدّ إليك صَرْفُ الدّهر باعا
فلا تخشَ المنيّة والتَقيها ودافعْ ما استطعتَ لها دفاعا
ولا تَخْتَرْ فِراشاً من حريرٍ ولا تبْكِ المنازلَ والبِقَاعا
وحَوْلك نِسوة يَندُبْن حُزْناً ويَهْتِكْن البراقعَ واللِّفَاعا
يقول لك الطّبيبُ دواك عندي إذا ما جسَّ كفّك والذِّرَاعا
ولو عرَف الطّبيبُ دواءَ داءٍ يَرُدُّ الموْتَ ما قاسَى النّزاعا
وفي يوْم المصانع قد تركْنا لنا بفعالنا خبراً مشاعا
أقمنا بالذّوابل سوق حرب وصَيَّرْنا النفوس لها مَتاعا
حِصاني كان دَلاّل المَنايا فخاضَ غُبارها وشَرَى وباعا
وسيفي كان في الهَيجا طبيباً يُدَاوِي رأسَ من يشكو الصُّداعا

أنا العبدُ الذي خُبِّرْتَ عنه ... وقد عاينتني فدَع السّماعا
ولو أرسلتُ رُمحي مع جَبان ... لكان بهَيْبَتي يَلقى السّباعا
مَلأتُ الأرضَ خوفاً من حُسامي ... وخَصمي لم يجدْ فيها اتّساعا
إذا الأبطال فرَّتْ خوفَ بأسي ... ترى الأقطارَ باعاً أو ذِراعا

وقال أيضاً في الفخر والحماسة:

[الوافر]

أُعادِي صَرفَ دهر لا يُعادَى ... وأحتَملُ القَطيعةَ والبِعادَا
وأُظهِرُ نُصح قوْم ضيَّعوني ... وإن خانتْ قلوبُهُمُ الوِدادا
أُعلّلُ بالمُنَى قلباً عَليلاً ... وبالصبر الجميل وإن تمادَى
تُعيّرني العِدَا بسَواد جلدي ... وبيضُ خَصائلي تمحُو السّوادا
ورَدتُ الحربَ والأبطالُ حولي ... تَهُزّ أكفُّها السُّمْرَ الصّعادا
وخُضتُ بمُهجتي بَحر المنايا ... ونار الحرْب تَتَّقِدُ اتّقادا
وعُدْتُ مُخضّباً بدم الأعادي ... وكَربُ الرّكض قد خَضَب الجَوادا
وسَيفي مُرْهَفُ الحدّين ماض ... تَقُدُّ شِفارُهُ الصَّخرَ الجمادا
ورُمحي ما طعنتُ به طَعيناً ... فعادَ بعينه نظرَ الرّشادا
ولولا صارِمي وسِنان رُمحي ... لما رفعتْ بنو عَبس عِمَادا

وقال يتوعّد النعمان بن المنذر ملك العرب ويفتخر بقومه:

[البسيط]

لا يَحمِلُ الحِقدَ من تَعلو به الرُّتبُ ... ولا يَنال العُلَى مَنْ طَبعُهُ الغَضبُ
لله دَرُّ بني عَبْس لقد نَسَلُوا ... من الأكارِم ما قد تنسُلُ العَرَبُ
قد كنتُ فيما مَضَى أرْعى جمالَهُمُ ... واليومَ أحمي حِمَاهُم كُلّما نُكبُوا
لَئن يَعيبُوا سوادي فهو لي نَسبٌ ... يومَ النِّزَال إذا ما فاتني النّسبُ
إن كنت تعلم يا نُعمان أنّ يدي ... قصيرَةٌ عنك فالأيّام تَنْقلبُ

إنّ الأفاعي وإن لانَتْ ملامِسُها ... عند التقلّب في أنيابها العَطبُ
اليومَ تعلَم يا نُعمان أيُّ فَتَى ... يلْقى أخاك الذي قد غرّهُ العُصَبُ
فتى يخُوضُ غِمارَ الحرب مُبتسماً ... وينثني وسِنان الرُّمح مُختَضِبُ
إن سلّ صارمَهُ سالت مَضاربُهُ ... وأشرق الجوُّ وانشقّت له الحُجُبُ
والخيلُ تَشهدُ لي أني أُكفْكِفها ... والطّعنُ مثل شِرار النّار يَلْتَهبُ
إذا التقَيتُ الأعادي يومَ مَعركةٍ ... تركت جمعهُم المغرورَ يَنْتَهِبُ
ليَ النُّفوس وللطّير اللّحومُ ولل ... وحشِ العظامُ وللخيّالة السلَبُ
لا أبعد الله عن عَيني غطارفةً ... إنساً إذا نزلوا جنًّا إذا رَكِبُوا
أسودُ غابٍ ولكن لا نُيوبَ لهم ... إلاّ الأسنّة والهنديّة القُضُبُ
تَعدُو بهم أعوَجِيّاتٌ مُضمَّرة ... مثل السّراحين في أعناقها القَبَبُ
ما زلتُ ألقى صدور الخيل مندفِقاً ... بالطّعن حتى يضِجَّ السّرْجُ واللّبَبُ
فالعُمْيُ لو كان في أجفانِهم نَظرُوا ... والخُرْس لو كان في أفواههم خَطبوا
والنّقْع يوم طِرادِ الخيل يشهَدُ لي ... والضّرب والطّعن والأقلام والكتُبُ

وقال أيضاً في إغارته على بني حريقة:

[الكامل]

حكّم سُيُوفَك في رِقاب العُذّلِ ... وإذا نزلتَ بدار ذلّ فارْحَلِ
وإذا الجبانُ نهاك يومَ كريهَةٍ ... خَوفاً عليك من ازْدحام الجَحْفَل
فاعص مَقالَتَه ولا تَحْفِل بها ... وأقدِم إذا حق اللّقا في الأوّل
واختَرْ لنفسك منزلاً تَعلو به ... أو مُت كريماً تحت ظلّ القَطل
إن كُنتُ في عَدَد العبيد فهِمَّتي ... فوق الثُّرَيَّا والسّماك الأعزل
أو أنكرتْ فُرسانُ عبسٍ نسبتي ... فِنانُ رُمحي والحسام يُقِرُّ لي
وبذابلي ومُهنَّدي نِلْتُ العلى ... لا بالقَرابة والعديد الأجزل
ورميتُ رُمحي في العَجاج فخاضه ... والنار تُقدَحُ من شفار الأنصُل

خاضَ العَجَاجَ مُحَجَّلاً حتى إذا شَهِدَ الوَقيعةَ عاد غير محَجّل
ولقد نكبتُ بَني حُرَيقَة نكبةً لما طعنتُ صَميم قلبِ الأخيَل
وقتلتُ فارسَهم ربيعةَ عَنْوَةً والهَيْذُبان وجابرَ بنَ مُهَلْهِل
لا تسقني ماءَ الحياة بذِلّة بل فاسقني بالعزّ كأس الحَنظَل
ماءُ الحياة بذِلّةٍ كَجهَنّمٍ وجهنّمٌ بالعزّ أطيَبُ مَنزِل

وقال هِبة الله بن سناء الملك المتوفى سنة ٦٣٥هـ:

[الطويل]

سِوايَ يَهابُ الموت أو يَرهَب الرّدى وغيريَ يَهوَى أن يعيشَ مُخلَّدا
ولكنَّني لا أرهب الدَّهر إن سَطا ولا أحذَرُ الموتَ الزُّؤامَ إذا عَدا
ولو مَدَّ نحوي حادثُ الدَّهر كفَّهُ لحدّثتُ نفسي أن أمُدّ له يَدا
تَوَقُّدُ عزمي يترك الماءَ جمرةً وحليَة حلمي تتركُ السَّيف مبردا
وفرطُ احتقاري للأنام لأنني أرى كلّ عار من حِلى سُؤْدُدِي سُدَى
ويأبى إبائي أن يَرانيَ قاعداً وإني أرَى كلّ البريّة مَقْعَدا
وأظمأُ إن أبدَى ليَ الماءُ منَّة ولو كان لي نهرُ المَجرّة مَوردا
ولو كان إدراك الهدى بتذلّل رأيت الهدَى ألّا أميلَ إلى الهدى
وقِدْماً بغيري أصبحَ الدهر أشْيبَا وبي وبفضلي أصبحَ الدّهر أمْرَدا
وإنك عَبدي يا زمان وإنني على الرَّغم مِنّي أن أرى لك سيّدا
وما أنا راض أنني واطئُ الثّرى ولي همةٌ لا ترتَضي الأفْقَ مَقعَدا
ولو علمتْ زهر النُّجوم مكانتي لخَرَّت جميعاً نحو وجهيَ سُجّدا
أَرى الخلق دوني إذ أراني فوقهم ذَكاءً وعلماً واعتلاءً وسُؤْدُدَا
وبذلُ نوالي زَاد حتى لقد غدا من الغيظ منهُ ساكنُ البحر مزْبدا
ولي قلم في أنمُلي إنْ هززتهُ فما ضرّني ألا أهُزّ المُهنَّدَا
إذا صال فوق الطّرْسِ وقْعُ صريره فإنّ صَليلَ المشرفيّ له صدَى

وقال حسان بن ثابت الأنصاري المتوفى سنة ٥٤هـ:

[الطويل]

لعمر أبيك الخير يا شعثُ ما نبا ... عليَّ لساني في الخُطوب ولا يدِي
لساني وسيفي صارمان كلاهما ... ويَبلُغُ ما لا يبلغ السّيف مِذْودي
وإنْ أك ذا مال كثير أجُدْ بِهِ ... وإن يُعتَصَر عودي على الجهد يُحمَدِ
فلا المال يُنسيني حيائي وعِفَّتي ... ولا واقعات الدّهر يفلُلن مِبردي
أكثّر أهلي من عيالٍ سواهُم ... وأطوي على الماءِ القَرَاح المبَرّدِ
وإني لمُعطٍ ما وجدْتُ وقائلٌ ... لموقد نارِي ليلة الرّيح أوقدِ
وإني لقوَّالٌ لدى البَثّ مرحباً ... وأهلاً إذا ما جاءَ من غير مُرْصَدِ
وإني ليَدعوني النّدى فأُجيبه ... وأضرِبُ بيض العارضِ المتوَقّدِ
وإني لحُلْوٌ تَعترِيني مرَارةٌ ... وإني لَتَرّاكٌ لِمَا لَم أُعوّدِ
وإني لَمُزْجٍ للمَطيّ على الوَجَى ... وإني لتَرّاك الفِراشِ المُمَهّدِ

وقال الفرزدق:

[الطويل]

لنا العِزّة القَعْساءُ[1] والعَدَدُ الذي ... عليه إذا عُدَّ الحَصى يَتَخَلّفُ[2]
ومنّا الذي لا يَنْطِقُ النّاس عِندَهُ ... ولكنْ هو المُسْتأذَنُ المتصرّف[3]
تراهُمْ قُعُوداً حَوْلَه وعُيُونُهُمْ ... مكَمَّرةٌ أبصارُها ما تصرّفُ[4]
تَرى الناس إنْ سِرْنا يسيرُون خَلفَنا[5] ... وإن نحنُ أومأنا إلى النّاس وقَّفوا[6]

(١) العزة القعساء: القوة والمنعة الشّامخة الثابتة.
(٢) يعني عددنا كثير، وعدد الحصى أقل منه.
(٣) يعني منا من لا يتكلم في مجلسه إلا بإذنه ولا يفعل أمر إلا بأمره.
(٤) يعني ما تنظر يمنة ولا يسرة من مهابته وجلالته.
(٥) يعني نحن سادة أشراف نمشي أمام النّاس.
(٦) يعني إذا أشرنا إلى النّاس أن قفوا وقف بعضهم بعضاً طوع إشارتنا.

ولا عِـزّ إلاّ عِـزُّنـا قـاهِـرٌ لـهُ ويسألُنا النّصْف الذَّلِيلُ فنُنْصِفُ[١]
ومَـا قـام مِـنّـا قـائـمٌ فـي نَـدِيّـنـا[٢] فَـيَـنْـطـق إلاَّ بـالّـتـي هـي أعْـرفُ[٣]

وقال وقد نزل في بادية وأوقد ناراً فرآها ذئب فأتاه فأطعمه من زاده، وأنشده:

[الطويل]

وأطلَس عسّال وما كان صاحباً[٤] دعـوْتُ بِـنـاري مَـوْهِـنـاً فـأتـانـي[٥]
فـلـمَّـا أتـى قـلـتُ أُدْنُ دُونَـكَ[٦] إنـنـي وإيّـاكَ فـي زادِي لـمـشْـتـركـانِ
فَـبِـتُّ أقُـدُّ الـزَّاد بـيـنـي وبـيـنَـهُ[٧] عَـلَـى ضَـوءِ نـارٍ مَـرَّةً ودُخَـانِ
وقـلـتُ لـهُ لـمَّـا تـكَـشّـر ضَـاحِـكـاً[٨] وقـائـمُ سـيـفـي فـي يَـدي بـمـكـانِ[٩]
تـعَـشّ فـإن عـاهـدْتـنـي لا تـخـونُـنـي نكُنْ مِثْل منْ يا ذِئبُ يصْطحبانِ[١٠]
وأنـت امرُؤٌ يـا ذِئـبُ والـغـدرُ كـنـتُـمـا أُخَـيَّـيْـنِ كـانـا أُرْضِـعَـا بـلِـبـانِ[١١]
ولـوْ غـيـرنـا نَـبّـهـتَ تـلْـتَـمِـسُ الـقِـرى رمـاك بـسـهْـم أوْ شَـبَـاةِ سِـنَـانِ[١٢]

(١) ويطلب منا الضعيف النّصفة والعدل فنمكنه من ذلك.
(٢) النّديّ كغنيّ والنّادي: مجتمع القوم.
(٣) يعني لا ينطق إلا حيث يحسن الكلام، وإذا نطق جاء بالقول الصّادق الذي لا يمكن لأحد أن ينكره.
(٤) الأطلس: الذئب الخبيث الذي في لونه غبرة مائلة إلى السّواد. والعسّال: الذي يضطرب في عدوه ويهز رأسه.
(٥) الموهن: السّاعة الأولى بعد نصف اللّيل، أي: دعوته بسبب إيقاد النّيران في السّاعة الأولى بعد نصف اللّيل فجاء إلي.
(٦) أي: لما جاء وقف فقلت له: اقترب وخذ، إشارة إلى إعطائه الزاد.
(٧) أقد: أي: أقطع. الزاد: الطعام. ولعل طعامه كان لحماً بدليل القد.
(٨) لما تكشر: لما أبدى أسنانه ضاحكاً، أي: كأنه يضحك.
(٩) يعني ومقبض سيفي ثابت في يدي.
(١٠) يعني إذا لم تظهر عليك علامة الغدر بقيت معك وبقيت معي كالمصطحبين.
(١١) يعني مع أني أعرف أنك والغدر متلازمان لا تفترقان، ومعناه أن شيمته الغدر.
(١٢) تلتمس القرى: تطلب الضيافة. وشباة السّنان: حده.

وقال الشريف الرَّضي[1]:

[الطويل]

لغير العُلَى منّي القِلَى والتَّجنّب ... ولولا العلَى ما كنتُ في الحبّ أرغبُ
إذا الله لم يعذرك فيما ترُومه ... فما النّاس إلاّ عاذل أو مؤنّبُ
ملكت بسيفي فرصة ما استرقّها ... من الدّهر مفتول الذّراعين أغلبُ
لئن تك كفّي ما تطاول باعها ... فلي من وراء الكفّ قلبٌ مدرَّبُ
فحسبي أني في الأعادِي مُبَغّض ... وأني إلى عزّ المعالي محبّبُ
وللحلم أوقات وللجهل مثلها ... ولكنَّ أوقاتي إلى الحلم أقربُ
يصُولُ عَلَيَّ الجاهلون وأعتلي ... ويعجمُ فيَّ القائلون وأُعربُ
يَروْنَ احتمالي غُصّة ويزيدهم ... لواعج ضِغن أنني لستُ أغضبُ
وأعرِضُ عن كأسِ النّدِيم كأنها ... وميض غمام غائر المزْن خُلّبُ
وقورٌ فلا الألحان تأسر عزمتي ... ولا تمكر الصّهباء بي حين أشربُ
ولا أعرف الفحشاء إلا بوَصفها ... ولا أنطق العوْراء والقلب مغضبُ
تحلّمُ عن كرّ القَوارض شِيمتي ... كأنّ معيد المدح بالذمّ مطنبُ
لساني حصاة يقرَع الجهل بالحِجا ... إذا نال منّي العاضه المتوثِّبُ
ولست براض أن تَمُسّ عزائمي ... فضالاتُ ما يُعطي الزّمان ويَسْلُبُ
غرائبُ آدابٍ حباني بحفظها ... زماني وصرفُ الدّهر نِعْمَ المؤَدبُ
تريّثنا الأيام ثم تهيضنا ... ألا نعم ذا البادي وبئس المعقّبُ

---

(١) هو أبو الحسن محمد بن أبي أحمد الحسين بن موسى الأبرش الشّريف الملقب بالرّضي ذي الحسبين نقيب الطالبيين المولود سنة ٣٥٩هـ وتوفي سنة ٤٦٣هـ ثم نقل إلى مشهد سيدنا الحسين عليهما السّلام بكربلاء فدفن عند أبيه. ومن غرر شعره ما كتبه إلى الإمام أبي العباس أحمد بن المنذر: [الكامل]

عطفاً أمير المؤمنين فإننا ... في دوحة العلياء لا نتفرّق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت ... أبداً كلانا في المعالي معرّق
إلا الخلافة ميّزتك فإنني ... أنا عاطل منها وأنت مطوّق

نهيتك عن طبع اللّئام فإنّني أرَى البخلَ يأتي والمكارم تطلبُ
تعلّم فإن الجود في النّاس فِطنة تقومُ بها الأحرار والطبع أغلبُ

وقال العميد مؤيد الدين الطّغرائي المتوفى سنة ٥١٣هـ:

[الطويل]

أبى الله أن أسمُو بغير فضائلي إذا ما سَما بالمال كلّ مُسوّدِ
وإن كرُمت قبلي أوائل أُسرتي فإنّي بحمد الله مبدأُ سُؤددي
وما منصبٌ إلا وقدْري فوْقَه ولو حُطّ رحْلي بين نسْر وفَرْقدِ
إذا شرُفتْ نفسُ الفَتى زاد قدرُهُ على كلِّ أسنى منه ذِكراً وأمجَدِ
كذاك حديد السّيف إن يصْفُ جوهراً فقيمتُهُ أضعافُهُ وزن عَجَدِ
وما المال إلا عارةٌ مُستردّةٌ فهلّا بفضلي كاثروني ومَحتدِي
إذا لم يكن لي في الولاية بسطةٌ يطول بها باعي وتسطو بها يدي
ولا كان لي حكمٌ مطاعٌ أُجيزه فأرْغِمُ أعدائي وأكبتُ حُسّدي
فأُعذَر إن قصَّرْتُ في حقّ مُجْتَدٍ وآمَنُ أن يَعتَادني كيدُ مُعتدِ
ولولا تكاليفُ العلى ومغارمٌ ثِقال وأعقاب الأحاديث في غَد
لأعطيتُ نفسي في التخلّي مرادها فذاك مرادي مذ نشأت ومقصدي

وقال الفَضلُ بن العبَّاسِ بن عُتْبَة بن أبي لَهَب:

[البسيط]

مهلاً بَني عمّنا مهلاً موالينا لا تَنبشوا بيننا ما كان مدفونا
لا تطمعُوا أن تُهينُونا ونُكرمكم وأن نكفَّ الأذَى عنكم وتُؤذُونَا
مهلاً بني عمّنا من نَحْتِ أثلَتِنَا سِيرُوا رُويداً كما كنتم تسيرونا
الله يعلم أنا لا نحبّكُم ولا نلومكُم إن لم تحبُّونَا
كلٌّ له نِيّةٌ في بُغْضِ صاحبه بنِعمة الله نَقلِيكم وتَقْلُونَا

وقال محمد بن عبد الله الأزدي:

[الطويل]

ولا أدفعُ ابن العم يمشي على شَفَا وإن بلغتني من أذَاه الجَنَادِعُ

ولن أُواسِيه وأنسى ذنوبه لِتُرجعَه يوماً إليّ الرَّواجعُ
وحسبُك من ذلّ وسُوءِ صنيعةٍ مُناواة ذي القُربَى وإن قيل قاطعُ

وقال حِطّان بن المعلّى:

[السّريع]

أنزلني الدّهر على حُكمِهِ من شامخ عالٍ إلى خفضِ
وغالني الدهر بوفر الغِنى فليس لي مالٌ سوى عِرضي
أبكانيَ الدّهر ويا رُبّما أضحكني الدهر بما يُرضي
لولا بُنياتٌ كزُغب القَطَا رُدِدْنَ من بعض إلى بعضِ
لكان لي مُضطَربٌ وَاسِعٌ في الأرض ذات الطُّول والعرضِ
وإنما أولادُنا بَيننَا أكبادُنا تمشي على الأرضِ
لو هبّت الريحُ على بعضهم لامتنعت عيني من الغمضِ

وقال أوسُ بن حَجْناء:

[الطويل]

إذا المرءُ أولاكَ الهَوان فأولِهِ هواناً وإن كانت قريباً أوَاصِرُهْ
فإن أنت لم تقدرْ على أن تهينَه فذَرْهُ إلى اليوم الذي أنت قادرُهْ
وقاربْ إذا لم تكن لك حيلة وصَمّم إذا أيقنتَ أنك عاقرُهْ

وقال سعد بن ناشب:

[الطويل]

تُفنّدُني فيما ترى من شراستي وشدّةِ نفسي أُم سعدٍ وما تدري
فقلت لها إن الكريم وإن خلا لَيُلْفى على حال أمرّ من الصبرِ
وفي اللّين ضعف والشراسة هيبةٌ ومن لم يُهبْ يُحمل على مركب وعرِ
وما بي على مَن لان لي من فَظاظة ولكنّني فظٌّ أبيٌّ على القَسْرِ

وقال إبراهيم بن كُنَيْف النّبهاني:

[الطويل]

تَعزَّ فإنَّ الصّبرَ بالحرّ أجملُ وليس على رَيبِ الزّمان مُعوَّلُ

فلو كان يُغني أن يُرى المرءُ جازعاً ... لحادثة أو كان يُغني التذللُ
لكانَ التّعزّي عندَ كل مُصيبة ... ونائبة بالحرّ أولى وأجملُ
فكيفَ وكلٌّ ليس يَعدُو حِمَامَه ... وما لامرئٍ عما قضى الله مَرحَلُ
فإن تكن الأيّام فينا تبدّلت ... بِبُؤسَى ونُعمَى والحوادث تفعَلُ
فما ليَّنت مِنَّا قنَاة صَليبة ... ولا ذلّلتْنا للتي ليس تُجملُ
ولكن رحلناها نُفُوساً كريمةً ... تُحمَّلُ ما لا يُستطاع فتحملُ
وقَيْنَا بحُسن الصّبر منّا نفُوسَنَا ... فصحّت لنا الأعراضُ والناسُ هُزَّلُ

وقال آخر:

[البسيط]

إن يَحسدُوني فإنّي غيرُ لائمهم ... قَبلي من الناس أهلُ الفضل قد حُسِدُوا
فدام لي ولهم ما بي وما بهمُ ... ومات أكثرنا غيظاً بما يجدُ
أنا الذي يجدوني في صدورهم ... لا أرتَقي صَدَراً منها ولا أردُ

وقال سالمُ بن وَابصةَ:

[البسيط]

عليك بالقَصْدِ فيما أنتَ فاعله ... إن التَّخلُّقَ يأتي دُونَه الخُلُقُ
وموقف مثل حدّ السيف قمتُ به ... أحمي الذّمارَ وترميني به الحَدَقُ
فما زلقتُ ولا أبديتُ فاحشةً ... إذ الرجال على أمثالها زَلِقوا

وقال تأبَّط شَرّاً:

[الطويل]

إذا المرءُ لم يَحتَلْ وقد جَدَّ جِدُّهُ ... أضاعَ وقاسَى أمرَهُ وهو مُدبرُ
ولكن أخو الحزم الذي ليس نازِلاً ... به الخطبُ إلا وهو للقصد مُبصِرُ

وقال حبيب بن أوس أبو تمّام الطّائي:

[الطويل]

أنا ابنُ الذي استرْضعَ الجودَ فيهمُ ... وقد سَاد فيهم وهو كهلٌ ويافعُ

نجومٌ طوالـيعٌ جبالٌ فوارعٌ غيوثٌ هواميعٌ سيولٌ دوافعُ
مضَوْا وكأنّ المكرمات لديهمُ لكثرة ما أوصُوا بهنّ شرائعُ
فأيُّ يدٍ في المَحْل مُدَّت فلم يكن لها رَاحةٌ من جُودهم وأصابعُ
هُم استودَعُوا المعروفَ محفوظ ما لنا فضاعَ وما ضاعتْ لدَينا الوَدائعُ
بَهاليلُ لو عاينتَ فيضَ أكُفّهم لأيقنتَ أن الرّزْق في الأرض واسعُ
إذا خفقَتْ بالبذل أرْواحُ جُودهم حَدَاها النَّدَى واستنشقتْها المدامعُ
رِياحٌ كريح العَنْبر الغضّ في النّدَى ولكنها يوم اللّقاء زَعازعُ
هي السُّمُّ ما تنفكّ في كلّ بلدةٍ تَسيلُ به أرْماحهُم وهو ناقعُ
أصارت لهم أرض العدُوّ قطائعاً نفوسٌ لحدّ المُرهِفات قطائعُ
بكلّ فتًى ما شابَ من رَوْع وقعةٍ ولكنه قد شِبنَ منه الوَقائعُ
إذا ما أغارُوا فاحتوَوْا مال معشر أغارتْ عليهم فاحتوَتهُ الصّنائعُ
فتُعطي الذي تعطيهم الخيل والقنَا أكفٌّ لإرث المَكرُمات موانعُ

وقال أبو فِراس الحمدَاني[1]:

[الطويل]

ووالله ما قَصّرْتُ في طَلب العلى ولكن كأنّ الدّهرَ عنّي غافلُ
مواعيدُ آمال متى ما انتَجَعْتُها حَلَبتُ بَكيّاتٍ وهُنّ حَوَافِلُ
تُدافِعُني الأيامُ عمّا أُرِيدُهُ كما دَفَع الدَّيْن الغَرِيمُ المُماطلُ

---

(١) هو الحارث بن أبي العلاء سعيد بن حمدان ابن عم سيف الدّولة وناصر الدّولة. توفي سنة ٣٥٧ هجريّة. كان فرد دهره وشمس عصره أدباً وفضلاً وكرماً ومجداً وبلاغة وبراعة وفروسيّة وشجاعة. فلله دره شاعراً من قبل ومن بعد ومثلي يعجز قلمه عن ترجمته وأنشد وهو محتضر يخاطب ابنته: **[مجزوء الكامل]**

ابنتي لا تجزعي كل الأنام إلى ذهاب
نوحي علي بحرة من خلف ستر والحجاب
قولي إذا كلمتني فعييت عن رد الجواب
زين الشّباب أبو فرا س لم يمتّع بالشّباب

فمثليَ مَن نالَ الأعادي بسَيفه ... ويا رُبما غالتْهُ عنها الغوائلُ
وما ليَ لا تُمْسي وتُصبحُ في يدي ... كرَائم أموالِ الرّجال العَقائلُ
أحَكّمُ في الأعداء عنها صَوارِماً ... أحَكمُها فيها إذا ضاق نازِلُ
ومازال محمِيُّ الحمائل عَنْوَةً ... سوى ما أقلّتْ في الجُفون الحمائلُ
ينالُ اختيارُ الصّفْح عن كل مذنب ... له عندنا ما لا تنالُ الوسائلُ
لنا عقبُ الأمر الذي في صُدُوره ... تطاولُ أعناقُ العِدَا والكواهلُ
أصاغرُنا في المكرُماتَ أكابرٌ ... وآخرُنا في المأثُرَاتِ أوائلُ
إذا صُلْتُ صولاً لم أجد لي مُصاوِلاً ... وإن قلْتُ قولاًلم أجد مَن يُقَاولُ

وقال أيضاً:

[مجزوء الكامل]

إنّا إذا اشتدّ الزّما ... نُ ونابَ خَطْبٌ واذْلَهَمْ
أَلْفَيْت حوْلَ بُيُوتِنا ... عُدَدَ الشّجَاعةِ والكَرَمْ
لِلِقَا العِدا بِيْضُ السُّيُو ... فِ وللنّدى حُمر النّعَمْ
هذا وهذا دَأبُنا ... يُودَى دَمٌ ويُرَاقُ دمْ

وقال أيضاً:

[الكامل]

وإني لَنَزَّالٌ بكلّ مَخُوفَةٍ ... كَثِيرٌ إلى نزَّالها النَّظرُ الشّزْرُ
وإني لجَرّارٌ لِكلّ كتيبَةٍ ... مُعوَّدَةٍ ألاّ يُخلّ بها النَّصْرُ
ولا رَاحَ يُطْغيني بأثوابِهِ الغِنى ... ولا بات يَثنيني عنِ الكَرَم الفَقْرُ
وما حاجتي في المال أبْغي وُفُورَهُ ... إذا لَمْ أفِرْ عِرْضِي فلا وَفَرَ الوَفْرُ
أسِرْتُ وما صَحْبي بعُزْلٍ لدى الوغى ... ولا فَرَسي مُهْرٌ ولا ربُّهُ غِمْرُ
ولكنْ إذا حُمّ القضاءُ على امرئٍ ... فلَيْسَ له بَرٌّ يَقيهِ ولا بَحْرُ
وقال أصَيْحابي الفِرارُ أو الرّدَى ... فقُلت هُما أمران أحلاهُما مُرُّ

ولَكنّني أمضي لمَا لا يعيبُني وحَسْبُكَ من أمْرين خيرُهما الأسرُ

ومنها:

يمُنُّونَ أن خَلّوْا ثيابي وإنّما عليَّ ثِيابٌ مِنْ دِمائهُمُ حُمرُ
وقَائمُ سَيْفٍ فِيهمُ دُقّ نَصْلُهُ وأعْقابُ رُمْحٍ فيهم حُطّمَ الصّدْرُ
سَيَذكرُني قوْمِي إذا جَدَّ جدُّهُم وفي اللّيْلَة الظّلْماءِ يُفتَقدُ البدرُ
ولَوْ سَدَّ غيْرِي ما سَدَدْتُ اكْتَفَوا به وما كانَ يُغْني التّبْرُ لو نَفَقَ الصُّفْرُ
ونحْنُ أُناسٌ لا تَوَسُّطَ بَيْنَنا لَنا الصّدْر دُونَ العالمينَ أو الْقَبْر
أعَزُّ بَني الدُّنْيا وأعْلَى ذَوي العُلا وأكْرَم مَنْ فوق التُّرَابِ ولا فَخْرُ

وقال أيضاً:

[الكامل]

غَيْري يُغيّرهُ الفِعَالُ الْجَافي ويَحُولُ عَن شِيَمِ الكَريم الْوَافي
لا أرْتَضي وِدّاً إذا هُوَ لم يَدُمْ عِنْدَ الْجَفَاءِ وقلّةِ الإنْصَافِ
إنّ الغنيّ هُوَ الغَنِيُّ بِنَفْسِهِ وَلَو أنّهُ عَارِي الْمَنَاكِبِ حَافِ
ما كُلُّ ما فَوْقَ الْبَسِيطَةِ كافِياً وَإذَا قَنِعتَ فَبَعْضُ شَيْءٍ كافِ
وتَعَافُ لِي طَمَع الْحَرِيص فُتُوَّتي وَمُرُوءتي وقَنَاعَتي وعَفَافي
ومَكارِمي عَدَدُ النجُوم ومَنْزِلي مَأوَى الكِرَامِ ومَنْزِلُ الأضْيافِ

وقال أيضاً:

[الطويل]

أتَدْعُو كَرِيماً مَنْ يَجُودُ بِمَالِهِ ومَنْ جادَ بالنّفس النّفِيسَةِ أكْرَمُ
إذا لم يكُنْ يُنْجي الفِرَارُ مِنَ الرَّدى على حالةٍ فالصَّبْرُ أرْجى وأحْزَمُ
لَعَمري لقدْ أعذرْت لَو أنّ مُسْعِداً وأقدَمت لَو أنّ الكتائبَ تُقدمُ
وما عابَك ابن السَّابقين إلى العُلا تأخُّرُ أقوامٍ وأنتَ مُقدَّمُ
وما لَكَ لا تَلقى بمُهجتِكَ الفَنَا وأنتَ من القومِ الذينَ هُمُ هُمُ

وقال أبو الطيّب المتنبّي:

[الطويل]

أطاعِنُ خيلاً من فوارِسها الدَّهرُ وحِيداً وما قولي كذا ومَعِي الصّبرُ
وأشْجَعُ مِنّي كلَّ يومٍ سَلامتي وما ثَبَتَتْ إلا وَفِي نَفسها أمرُ
تمرَّسْتُ بالآفاتِ حتى تركتُها تقول أماتَ الموتُ أم ذُعِرَ الذعرُ
وأقدَمْتُ إقدامَ الأتيّ كأنّ لي سوى مهجتي أو كان لي عندها وترُ
ذَر النَّفس تأخذْ وُسعَها قبل بَينها فمُفْترقٌ جارانِ دارهُما العُمْرُ
ولا تحسَبَنَّ المجدَ زِقّاً وَقَينَة فما المجدُ إلا السَّيْفُ والفتْكةُ البكْرُ
وتَضريبُ أعناق الملوكِ وأن تُرى لك الهبواتُ السُّودُ والعَسكرُ المَجْرُ
وتَركُك في الدُّنيا دَويّاً كأنما تَدَاوَل سمعَ المرءِ أنمله العَشْرُ
إذا الفضل لم يرفعك عن شكرِ ناقص على هِبَةٍ فالفَضْلُ فيمن له الشكْرُ
ومَن يُنفِق السَّاعات في جمع مالِهِ مَخَافَةَ فقرٍ فالذي فَعل الفقرُ

وقال صَفِيّ الدّين الحليّ المتوفى سنة ٧٤٠هـ:

[البسيط]

سَلِ الرّماحَ العوالي عن مَعالينا وَاسْتَشْهِدِ البيضَ هل خابَ الرَّجا فينا
وسائل العُرْبَ والأتراك ما فعلتْ في أرضِ قبر عُبيد الله أيدينا
لقد سعَينا فلم تَضعُفْ عزَائمُنا عمَّا تروُمُ ولا خابت مساعينا
قَوْمٌ إذا استُخْصِموا كانوا فراعنة يوْماً وإن حكمُوا كانوا موازينا
إنّا لَقَوْمٌ أبتْ أخلاقنا شرفاً أن نَبْتَدِي بالأذَى من ليس يُؤْذينا
بيضٌ صنائعنا سودٌ وقائعنا خُضرٌ مرابعنا حُمرٌ مواضينا
لا يظهر العجزُ منّا دون نَيل مُنى ولو رأينا المنايا في أمانينا

وقال أبو العلاء المعرّي:

[الطويل]

ألا في سبيل المَجْدِ ما أنا فاعل عَفافٌ وإقدامٌ وحَزْمٌ ونائلُ[1]

(١) أي: قد جمعت العفة والشّجاعة والحزم والجود، وسلوك هذا الطريق هو المجد. أي: إن أفعالي كلها واقعة في سبيل المجد ثم فصّل أفعاله وعدها وكانت كلها من خلال المجد.

أعـنـدِي وقـد مـارسـتُ كـلَّ خَـفِـيّـةٍ يُـصَـدَّقُ واشٍ أو يُـخَـيَّـبُ سـائـلُ(١)
تُـعَـدُّ ذُنـوبـي عـنـد قَـوْمٍ كـثـيـرةً ولا ذنبَ لي إلا العُلا والفضائلُ(٢)
كـأنـي إذا طُـلـتُ الـزّمـان وأهـلَـه رَجـعـت وعـنـدي لـلأنـامِ طـوَائـلُ(٣)
وقد سار ذِكري في البلاد فمنْ لهم بإخفاء شَمْسٍ ضَوْؤُها مُتكاملُ(٤)
يُـهـمُّ الـلـيـالـي بـعـضُ مـا أنـا مُـضْـمِـرٌ ويـثْـقُـلُ رَضْـوى دُون مـا أنـا حـامـلُ(٥)
وإنـي وإن كـنـتُ الأخـيـرَ زَمَـانُـهُ لآتٍ بـمـا لـم تـسـتـطـعـهُ الأوائـلُ(٦)
وأغـدُو ولـو أن الـصـبـاحَ صـوارمٌ وأسـري ولـو أن الـظـلامَ جَـحَـافِـلُ(٧)
وإنـي جَـوادٌ لـم يُـحَـلَّ لـجـامُـهُ وَنَـصْـلُ يـمـانٍ أغـفَـلَـتْـهُ الـصَّـيـاقِـلُ(٨)

(١) أي: بعد أن جربت الأمور التّي تخفى وعرفتها لا أصدق السّاعي بيني وبين إخواني بالإفساد، أو أخيب من يرجو معروفي ويطلب نائلي، أي إني لا أفعل ذلك. استفهام بمعنى الإنكار.

(٢) أي: ذنوبي كثيرة عند من لا يناسبه حالي وذلك لقصوره ونقصه، ولا ذنب لي إلا فضائلي وعلو شأني.

(٣) الطوائل: جمع طائلة وهي التّرة. يقول: متى فقت أهل العصر بالفضائل أبغضوني وعادوني وصرت كأني وترت النّاس وإن عندي لهم ترات وديوناً يطالبونني بها.

(٤) أي: يجتهد حسادي في ستر حالي وإخفاء أمري، وكيف يمكنهم ذلك وقد صار صيتي في البلاد مسير الشّمس، ومن يضمن للحساد إخفاء شمس قد تكامل ضوؤها وشعاعها. أي: ولا يضمن ذلك أحد لأنه غير ممكن، فكذلك إخفاء ذكري غير ممكن.

(٥) الليالي في موضع نصب لأنه مفعول به وسكن لضرورة الشّعر. أي: يهم بعض ما أضمره من الهموم الليالي يعني أن الأيام لا تطيق ما أطيقه، وكذلك لا يستطيع جبل رضوى حمل ما أحمل من مثقلات الخطوب.

(٦) أي: إني وإن كنت الذي آخر زمانه أفعل من الأمور العجيبة ما عجزت الأوّلون زماناً عن أمثاله، أي سبقت الأوائل في المساعي وإن تأخر زماني.

(٧) أي: لا يصرفني عن همي أمر من الأمور، بل أغدو أوّل النّهار لحاجاتي ولو كان الصّباح سيوفاً لم يثنني عن قصدي. والصّبح يشبه بالسّيف لبياضه وهيئته، وأسري في اللّيل المظلم لما يهمني ولا تمنعني ظلمة اللّيل عن همي ولو كان الظلام جحافل، وهي جمع جحفل وهو الجيش العظيم، والظلام يشبه بالجيش، والجيش بالظلام أيضاً.

(٨) يصف اعتزاله الأمور وإيثاره ملازمة الخمول والتّنزه عن الأعمال مع استعداده للإنهاض إلى معالي الأمور مشبهاً حاله بحال جواد عطل عن تحلية لجامه، وبسيف يمنيّ قد صدئ لطول عهده بالصّقل. أي: كما أن تعطل الجواد عن تحلية لجامه وطول عهد السّيف بالصّقل، أي: كما لا يزرى بعنق الجواد وجوهر السّيف، فكذلك إيثاره العزلة والتّنزه عن الأعمال لا يزري بمنصبه ومكانه.

فإن كان في لُبْسِ الفتى شَرَفٌ له ... فما السَّيفُ إلاَّ غِمْدُه والحَمائلُ[١]

ولي مَنْطِقٌ لم يَرْضَ لي كُنْه مَنزلي ... على أنّني بين السّماكينِ نازِلُ[٢]

لدى مَوْطِنٍ يَشتاقُهُ كل سيّدٍ ... ويَقصُرُ عن إداركِهِ المتناوِلُ[٣]

ولما رأيتُ الجهلَ في الناس فاشياً ... تجاهلتُ حتى ظُنَّ أني جاهلُ[٤]

فوا عجباً كم يدَّعي الفضل نَاقصٌ ... ووا أسَفَا كم يُظهِرُ النقص فاضلُ[٥]

وكيف تَنامُ الطّير في وَكناتِها ... وقد نصِبتْ للفَرْقدين الحبَائلُ[٦]

يُنافسُ يومي فيَّ أمْسِي تشرّفاً ... وتحسُدُ أسحاري عليّ الأصائلُ[٧]

وطال اعترافي بالزّمان وصَرْفِهِ ... فلسْتُ أُبَالي مَنْ تَغُولُ الغَوائِلُ[٨]

---

(١) أي: ليس الشّرف في ملابسة الأعمال ولبس الفاخر من اللباس، ولو كان كذلك لكان قيمة السّيف بحسب نفاسة غمده وحمائله، وليس كذلك. إنما قيمة السّيف بجوهره، وكذلك شرف ذات الفتى بالتّحلي بأوصاف الشّرف ومعالي المجد.

(٢) أي: منطقي لا يرضى لي بغاية منزلتي هذه مع ارتفاعها وعلوها، فإنها قد بلغت السّماكين، بل يقتضي أعلى وأشرف منها.

(٣) أي: منزلي عند محل يتمنى كل سيد أن يبلغه ويرقى إلى حده ويتقاصر من يريد تناوله عن الوصول إليه.

(٤) أي: لما كثر الجهل في النّاس وعز العلم والفضل وجهل قدره، تكلفت الجهل وسترت فضلي تشبهاً بأهل زماني حتى ظن بي أني جاهل مثلهم.

(٥) يتعجب من ادعاء النّاقص التّحلي بالفضل زوراً، ويتأسف من إظهاره النّقص مع فضله تشبهاً بالجاهلين في زمانه.

(٦) الوكنات: جمع وكنة وهو الموضع الذي ينام فيه الطير، والحبائل: جمع حبالة وهي الشّبكة التي ينصبها الصّائد للصيد. ضرب لنفسه مثلاً بالفرقدين علواً، ولغيره بالطير في أوكارها. أي: متى كادني الحساد بمكيدة الحسد مع فضلي أو ارتفاع مكاني وحالهم في كيدي أنهم ينصبون الشّباك لصيد الفرقدين كيف يسلم من دوني من مكايدهم.

(٧) ينافس: يفاخر، أي: أن الوقت الذي أكون فيه يتشرّف بي، فسائر الأوقات يحسد الوقت الذي أكون فيه، فصار أمسي المنقضي يحسد يومي لكوني فيه، وكذلك تحسد الأصائل مع اعتدالها وإضاءتها الأسحار التي أكون فيها مع بردها وظلمتها. والأصائل: جمع جمع الجمع فالواحد أصيل ثم أصل ثم آصال ثم أصائل.

(٨) طالما عرفت الزمان وأحواله ونال مني حوادثه وصرفه وتمرنت نفسي على نوائبه، فصرت لا أجزع على المصائب ولا أبالي بمن تنزل نوازل الدّهر. وغاله يغوله: أي: أهلكه، والغوائل: جمع غائلة.

فلو بان عُنْقِي ما تأسّفَ مَنْكِبِي ولو مات زَنْدي ما بكتْهُ الأنامِلُ[١]
إذا وصف الطّائيّ بالبخل مادرٌ وعيّرَ قَساً بالفَهاهةِ باقِلُ[٢]
وقال السُّهَى للشمس أنتِ ضَئيلةٌ وقال الدُّجَى للصُّبح لونُكَ حائلُ[٣]
وطاولتِ الأرض السَّماءَ سفَاهةً وفاخرتِ الشُّهبَ الحَصى والجنَادِلُ[٤]
فيا موت زُر إنّ الحياةَ ذميمةٌ ويا نفسُ جدّي إنّ دهرك هازِلُ[٥]

وقال محمود باشا سامي البارودي:

[الطويل]

ولي ثيمةٌ تأبي الدَّنايا وَعَزْمَةٌ تردّ لُهَامَ الجيش وهو يَمورُ
إذا سرْتُ فالأرض التي نحن فوْقها مُرَادٌ لمُهْرِي والمعاقلُ دُورُ
فلا عَجبٌ إن لم يصرْني منزل فليس لعقبان الهواء وُكورُ
همامَة نَفس ليس ينفي ركابها رَواحٌ على طول المَدى وبُكورُ
معوَّدةٌ ألا تكفّ عنانها عن الحدِّ إلاّ أن تتمّ أمورُ

---

(١) يهون على نفسه خطوب الزمان بعد معرفته بصروفه حتى لو أصيب عضده وبان لم يتأسف أي: لم يجزع منكبه عليه، ولو مات زنده لم تبك أنامله عليه مع أن الكف لا تبطش إلا بواسطة قوة الزند وما داناه.

(٢) يعني بالطّائي حاتماً الطائي وقد سار به المثل في الجود. ومادر: رجل من بني هلال بن عامر ابن صعصعة يضرب به المثل في البخل، وإنما قيل له مادر لأنه سقى إبله من بعض حياض فلما شربت إبله وصدرت عن الماء سلح في الحوض، ومدر الحوض: أي: لطخه لئلا يشرب غيره فسمي مادراً، وقيل: أبخل من مادر.

(٣) السُّهى: كوكب خفي تمتحن به الأبصار، أي: وحين ينعكس الأمر بأن يصف السّهى الشّمس بالخفاء مع بهائها ويصف الدّجى الصّبح بأنه حائل اللون أي: متغير.

(٤) أي: إذا كانت الأرض تباهي السّماء من جهلها، وتفاخر الحصى والحجارة الكواكب في العلو.

(٥) أي: إذا كانت الأمور معكوسة كما وصف لم تبق رغبة الحياة وصارت مذمومة، وكان الموت بحيث يتمنى إلمامه ليقطع الحياة الذميمة التي لا يحمدها صاحبه لما يرى من الأمر المحال. ويأمر الحازم نفسه بالجد فيما يعنيها غير معرجة على شيمة الدّهر في تلونه وعدم ثباته.

لـهـا مـن وَرَاء الـغـيـب أُذْنٌ سـمـيـعـةٌ وعـيـنٌ تـرى مـالا يـراه بـصـيـرُ
وفـيـت بـمـا ظـنَّ الـكـرامُ فِـراسـةً بـأمـري ومـثـلـي بـالـوفـاء جَـديـرُ
وأصبحتُ محسودَ الخِلال كأنَّنِي عـلـى كـلّ نـفـسٍ فـي الـزَّمَـانِ أمـيـرُ
إذا صُـلـت كـفَّ الـدَّهـر مـن غـلـوَائـه وإن قُـلـت غـصّـت بـالـقُـلـوب صـدُورُ
مـلـكـتُ مـقـالـيـدَ الـكـلام وحـكـمـةً لـهـا كـوكـبٌ فـخـمُ الـضّـيـاء مُـنـيـرُ
وإنـي امـرُؤٌ صـعـبُ الـشّـكـيـمةِ بـالـغ بـنـفـسـي شـأواً لـيـس فـيـه نـكـيـرُ

وقال أيضاً:

[الطويل]

سِوَايَ بـتَـحـنـان الأغـاريـد يَـطْـرَبُ وغـيـري بـالـلّـذات يَـلْـهـو ويَـلْـعَـبُ
ومـا أنـا مِـمّـن تـأسِـرُ الـخَـمْـرُ لُـبّـه وَيَـمْـلـكُ سَـمْـعَـيـهِ الـيَـرَاعُ الـمُـثَـقَّـبُ
ولـكـنْ أخـو هـمٍّ إذا مـا تـرجَّـحـتْ بـه سَـوْرةٌ نـحـو الـعُـلا رَاح يـدْأبُ
نـفـى الـنَـومَ عـن عـيـنـيـهِ نـفْـسٌ أبِـيَّـةٌ لـهـا بـيـن أطـرافِ الأسِـنَّـةِ مَـطـلـبُ
لُـبـانـةُ نـفـس أصـغـرتْ كـلَّ مـأرب فـكـلّـفـتِ الأيّـام مـا لـيـس يُـوهَـبُ
إذا أنـا لـم أعْـطِ الـمـكـارِم حَـقَّـهـا فـلا عـزَّنـي خـالٌ ولا ضَـمَّـنـي أبُ
وَمـن تـكُـنِ الـعـلْـيـاءُ هـمَّـةَ نَـفْـسِـهِ فـكـلُّ الـذي يَـلـقـاه فـيـهـا مـحـبّـبُ

وقالت السيدة عائشة التيمورية المتوفاة سنة ١٣٢٠هـ:

[الكامل]

بِـيَـدِ الـعَـفَـافِ أصـونُ عِـزَّ حِـجـابـي وبِـعـصـمـتِـي أسـمـو عـلـى أتـرابـي
وبِـفِـكْـرةٍ وقَّـادةٍ وقـريـحـةٍ نـقَّـادةٍ قـد كُـمِّـلَـتْ آدابـي
مـا ضـرّنـي أدبـي وحُـسْـنُ تـعـلُّـمـي إلا بـكـوْنـي زهـرَة الألـبـابِ
مـا عـاقـنـي خـجـلـي عـن الـعـلْـيـا ولا سَـدَلُ الـخِـمـارِ بـلِـمَّـتـي ونـقـابـي
عـن طـيّ مـضـمـار الـرّهـان إذا اشـتـكـتْ صَـعْـبَ الـسّـبـاق مـطـامِـحُ الـرُّكّـابِ
بـلْ صَـولـتـي فـي راحـتـي وتـفـرُّسـي فـي حُـسْـن مـا أسـعَـى لـخـيـرِ مـآبِ

وقال الشيخ عثمان الزناتي المتوفى سنة ١٩٣٤هـ:

[الطويل]

أرقتُ وأصحابي خليُّونَ نُوَّمُ ... وما أنا ذو ثَأر ولا أنا مُغرَمُ
ولكن همّاً بين جنبيّ هاجَهُ ... عليّ ذوو القربى، عفا الله عنهمُ
فإن يكُ حُلمي مدّ أعناق جهلهم ... فلا زلْتُ فيهم يجهلونُ وأحلمُ
وما أنا ممن يغلبُ الجهلُ حِلمه ... وينزو على الأعراض أو يتهجّمُ
ولكن صفوحٌ حين أُظلم قادراً ... وإن كنت في بعض الأحايين أظلِمُ
فإن كان حُلمُ القادرين مذَلةً ... فإني ذليلٌ غيرَ أني مُكرّمُ
همُو ثَلموا عِرضي لغيرِ جَريرةٍ ... سوى أنهم مني وأنيَ منهمُ
أوَطّئُ أكنافي لهم وأحوطهم ... من الدهر لا أشكو ولا أتبرّمُ
يطولُ عليّ الليل إن طالَ ليلهم ... ومهما يَطلْ ليلي فهم عنه نوّمُ
ويُنكر أدناهم عليّ فضائلي ... وما ضرني إنكاره وهو يعلمُ

الباب الثالث: في شكوى الزمان والحال

قال الشّنفرى[1] المتوفى سنة ٥١٠م:

[الطويل]

أقِيموا بَنِي أُمّي صُدُور مطيّكُم ... فإني إلى قَوْم سِواكم لأَمْيَلُ[2]

(١) هو ثابت بن أوس الأزدي الشّاعر المشهور من أهل اليمن، من شعراء الطبقة الثانيّة. ومن جيد شعره هذه القصيدة المشهورة بلاميّة العرب. مات سنة ٥١٠ ميلاديّة. والشّنفرى هو العظيم الشّفتين، وهو شاعر الأزد من العدائين. وكان في العرب من العدائين من لا تلحقه الخيل؛ منهم هذا وسليك بن سلكة، وعمر بن براق، وأسير بن جابر، وتأبط شراً. وكان الشّنفرى حلف ليقتلن من بني سلامان مائة رجل فقتل منهم تسعة وتسعين وكان إذا وجد الرّجل منهم يقول له الشّنفرى: لطرفك، ثم يرميه فيصيب عينيه. فاحتالوا عليه فأمسكوه؛ وكان الذي أمسكه أسير بن جابر أحد العدائين رصده حتى نزل في مضيق ليشرب الماء فوقف له فيه فأمسكه ليلاً ثم قتلوه، فمر رجل منهم بجمجمته فضربها برجله فدخلت فيها شظيّة من الجمجمة فمات منها فتمت القتلى مائة، والله أعلم بذلك.

(٢) مطا: جد في السّير. والمطيّة: الدّابة تمطو في سيرها، جمعها مطايا ومطى. يخاطب قومه ويقول لهم: تهيؤوا للرحيل فإني كاره ما أنتم عليه من البقاء وشديد الرّغبة في الالتحاق إلى قوم غيركم.

فقَد حُمّت الحاجاتُ والليل مُقْمرٌ وشُدّتْ لطيّاتٍ مطايا وأرْحُلُ[١]
وفي الأرض منْأىً للكريم عن الأذى وفيها لمَنْ خاف القِلى مُتعزَّلُ[٢]
لَعَمْرُكَ ما في الأرض ضِيقٌ عَلى امرئٍ سَرى راغباً أو راهباً وهو يعقلُ[٣]
ولي دونَكم أهلونَ سِيدٌ عَملَّسٌ وأرْقَطُ زهلولٌ وعرْفاءُ جَيْألُ[٤]
همُ الأهل لا مُسْتودع السّرّ ذائعٌ لديهم ولا الجاني بما جرّ يُخذَلُ[٥]
وكلُّ أبيٍّ باسلٌ غير أنني إذا عرضتْ أُولى الطّرائدِ أبسَلُ[٦]
وإن مُدّت الأيدي إلى الزّاد لم أكن بأعجلهم إذ أجشَع القوْمِ أعجَلُ[٧]
وما ذاك إلا بسطةٌ عن تَفَضُّلٍ عليهم وكان الأفضلَ المُتفضّلُ[٨]
وإني كفاني فَقْدُ من ليس جازياً بحُسنى ولا في قُرْبه مُتعلّلُ

(١) حم الأمر حمّاً: قضى. والطيات: جمع طيّة وهي النّيّة. (المعنى) عجلوا بالرّحيل فقد قضيت الحاجات وتمهدت الأسباب وتم الاستعداد لقضاء الأغراض.

(٢) نأى عنه: بعد. والقلى بكسر القاف: شدة الكراهة. وتعزّل عنه: تنحّى. (المعنى) لماذا المكث مع من يبغضونكم ويبغون إساءتكم مع أن في الأرض سعة للكرماء ليتباعدوا عمن يرومهم بالأذى وينتحوا عمن يناوئونهم بالكراهة.

(٣) (المعنى) وحياتك إن الأرض لا تضيق على الإنسان العاقل الذي يستعمل عقله في درك المرغوب وترك المرهوب.

(٤) السّيد بالكسر: الأسد والذئب. والعملس بفتح العين والميم واللام المشددة: القوي على السّير السّريع والذئب الخبيث. والأرقط: النّمر. والزهلول: كعصفور، الأملس. والعرفاء: الضبع لكثرة شعر رقبتها الذي هو بمنزلة عرف الفرس. وجيألة وجيأل ممنوعتان، وجيل بلا همزة الضبع. (المعنى) إني أفضل عليكم معشر القاعدين معاشرة الوحوش العادية من السّباع والذئاب والنّمر والضباع.

(٥) جر على نفسه وغيره جريرة أي: ذنباً، والجريرة: الذنب والخيانة (المعنى) فهؤلاء حقيقة هم الأهل على الأسرار مأمونون، وعن جرائر الجاني منهم محامون.

(٦) الأبي كعلي: من يكره الدّنايا ولا يحتمل الضيم. والباسل: الأسد الشّجاع. والطريدة: ما طردته وأبعدته من ناحية وضممته إليك من الصّيد والفرسان. (المعنى) جميعهم يعافون الدّنايا ولا يبالون بالمنايا لكني أنا أشجع الأقران في ملتقى الطعان.

(٧) الجشع بالتّحريك شدة الحرص وأسوأه أخذ الإنسان نصيبه والطمع في غيره. (المعنى) ولي خصلة أخرى هي بالعفيف أحرى وهي تأخر يدي عن الطعام عند تقدم أيدي الأقوام.

(٨) (المعنى) وما دعاني إلى ذلك إلا توسعي بالفواضل إليهم لأن أفضل القوم هو المتفضل عليهم.

ثلاثةُ أصحابٍ فؤاد مُشَيَّعٌ وأبيض إصليتٌ وصفراءُ عَيْطَلُ[١]
هَتُوفٌ من المَلْسِ المُتونِ يَزينُها رصائع قد نِيطتْ إليها ومَحملُ
إذا زلّ عنها السَّهْم حنَّت كأنها مُرَزَّأةٌ ثَكْلى ترنّ وتُعْولُ[٢]
ولست بمِهيافٍ يُعَشّي سوامَه مُجذّعَةً سُقْبانها وهي بُهَّلُ[٣]
ولا جُبَّأٍ أكْهى مُرِبّ بِعِرْسِهِ يُطالِعها في شأنهِ كيف يَفعلُ[٤]
ولا خرِقٍ هيقٍ كأنَّ فؤادَه يظلّ به المُكَّاءُ يعلُو ويسفلُ[٥]
ولا خالفِ دارِيةٍ مُتغزّلٍ يروح ويغدو داهناً يتكحّلُ[٦]

(١) تعلل بالأمر: تشاغل. وشيع فلاناً: شجعه، ويأتي أيضاً بمعنى خرج معه ليودعه. والإصليت: السّيف الصّقيل الماضي. والعيطل: القوس الطويلة العنق الصلبة المتن. (المعنى) ما دام لي ثلاثة أصحاب: القلب الجريء، والسّيف الماضي والقوس المتينة، فلا أبالي بضياع من لا يثمر فيهم الجميل ولا ترجى منهم فائدة.

(٢) قوس هتوف: ذات صوت. والملس النّاعمات. والمتون: جمع متن، بمعنى الصّلب. والرّصائع جمع رصيعة حلية السّيف المستديرة، أو كل حلقة مستديرة في سيف أو سرج أو غيره. ونيطت إليها: علقت بها. وزل السّهم عن القوس: خرج منها بسرعة. والمرزأة: المصابة بالرّزايا. والثكلى: الفاقدة أولادها. وأعول: رفع صوته بالبكاء والصّياح. (المعنى) قوس طنانة رنانة من نبات النّبع مزينة بالحلى والحمائل ترن عند خروج السّهم منها بحنين كأنها امرأة عاجلها فقد ابنها الغالي فهي تبكي وتعول لفقده.

(٣) المهياف: السّريع العطش. والسّوام: الإبل الرّاعيّة. وناقة باهل: بينة البهل لا صرار عليها ولا خطام ولا سمة لها. يقال: بهلت النّاقة حل صرارها أو مجذعة محبوسة على غير علف. وسقبان: جمع سقب وهو ولد النّاقة. (المعنى) ولست من النّاس الذين لا يتحملون العطش فيروحون إلى نوفهم ويحبسون أولادها عنها جائعة ويتمتعون هم بدرها من غير مانع.

(٤) الجبأ كسكر: الجبان. والأكهى: الجبان الضعيف. مربّ بعرسه أي: زوجته لزمها وقعد معها كأرب. (والمعنى) ولست بالجبان الضعيف الذي يلازم قرينته ويطلعها على أمره ويأخذ رأيها فيه.

(٥) الخرق ككتف الذي يندهش ويبهت لأقل شيء. والهيق: الواحد من النّعام ويسمى بالظليم. والمكاء كرمان: نوع من الطير. (المعنى) ولست من الذين يطيشون بأدنى الأمور مثل النّعام، وترجف قلوبهم كأن المكاء يطير بها إلى فوق وإلى تحت.

(٦) يقال: فلان خالف أهل بيته وخالفهم بمعنى أنه غير نجيب لا خير فيه، إذ أنه يقعد بعدهم ويأتي. خالفة وخالف بمعنى أحمق. والدّارية: الملازم لبيته. (المعنى) ولست من خلف السّوء الملازمين للبيوت الذين لا هم في غدوهم ورواحهم إلا التّغزل بالنّساء والتّزين لهن بالتّدهن والتّكحل.

ولست بعلّ شرُّه دون خيره ألفُّ إذا ما رُعتهُ اهتاجَ أعزلُ[١]

ولست بمِحيار الظّلام إذا انتحتْ هُدَى الهوجل العِسِّيف يَهْمَاءُ هوْجلُ[٢]

إذا الأمعز الصّوَّان لاقى مناسِمي تطاير منه قادحٌ ومُفَلَّلُ[٣]

أُديم مِطال الجوع حتى أُميتَهُ وأضرِب عنه الذِّكر صفحاً فأذهلُ[٤]

وأستفُّ تُرْبَ الأرض كي لا يَرى له عليَّ من الطّول امرؤٌ متطوّلُ[٥]

ولولا اجتناب الذّامِ لم يُلْف مشربٌ يُعاش به إلا لديّ ومأكلُ[٦]

ولكنَّ نفساً حُرَّةً لا تقيم بي على الضيم إلا ريثما أتحوّلُ[٧]

---

(١) العل: الصّغير الجسم الضعيف. والألف: الرّجل الثقيل اللسان العي بالأمور. والأعزل: الخالي من السّلاح. (المعنى) ولست من سقط الرّجال الذين يخشى شرهم ولا يرجى خيرهم الذين يرتبكون في الأمور ويرتاعون لكل مروع حيث لا سلاح لهم يقيهم من الخوف.

(٢) يقال: نحاه وانتحاه بمعنى قصده. والهوجل المفازة البعيدة لا علم بها، والنّاقة بها هوج من سرعتها، والرّجل الأهوج والدّليل. والعسيف: صيغة مبالغة في عسف في السّير خبط فيه خبط عشواء. والبهماء عند أهل البادية: السّيل والجمل الهائج الصّؤول. وعلى ذلك يمكن أن يقال ناقة بهماء. (المعنى) ولست ممن تستولي عليه الحيرة في الظلام إذا أتاه دليل الإبل عن الطريق وخبط في السّير خبط عشواء وتبعته النّاقة البهماء.

(٣) المعز: الصّلابة، مكان أمعز: صلب، وأرض معزاء: صلبة. الصّوان: نوع من الحجارة شديدة الصّلابة. والمنسم كمجلس: خف البعير. والمفلل: المكسر. والمراد بالقادح هنا: الحجر الذي يضرب بغيره فيفتته ويخرج منه الشّرر. (المعنى) إذا ضربت ناقتي بمناسمها حجارة الصّوان في الأرض الشّديدة الصّلابة فتتها فتضاربت الحجارة، فمنها ما يوري النّار ومنها ما يتفتت من شدة اصطدام الحجارة بعضها ببعض.

(٤) صفحاً: إما مصدر من صفح عنه وأعرض، مفعول له على معنى: أصرف عنه التّذكر إعراضاً عنه، وإما ظرف بمعنى الجانب على معنى: أنحى التّذكر عنه جانباً، كما تقول: ضعه جانباً. (المعنى) إني أعود نفسي على تحمل ألم الجوع دائماً حتى لا يبقى له تأثير، وأصرف نفسي عنه حتى لا يخطر لي على بال.

(٥) الطول: الفضل والإنعام، وتطول عليه: امتن وأنعم. المعنى: وأفضل سف التّراب على امتنان من يترفع عليّ بالإنعام.

(٦) الذام: العيب والذم. (المعنى) ولولا أن أخشى العار والمذمة التي تلحق الباذلين ماء وجوههم لأجل المآكل والمشارب، لكان عندي من أشكالها وألوانها كل ما تشتهيه النّفس.

(٧) الضيم: الذلّ. وريثما معناها: مقدار ما. (المعنى) ولكن نفسي عزيزة لا تبطئ بالإقامة على الاهتضام لا إبطاء تتأهب فيه للرحيل عنه.

وأطوي على الخمص الحوايا كما انطوت خيوطة ماريٍّ تُغار وتُفتلُ[١]
وأغْدو على القوتِ الزّهيد كما غدَا أزلُّ تهاداه التّنائف أطْحلُ[٢]
غدا طاوياً يُعرِض الرّيح هافياً يخوت بأذنابِ الشّعاب ويعْسِلُ[٣]
فلمّا لواه القوت من حيث أمَّه دعا فأجابتهُ نظائر نُحَّلُ[٤]
مُهلَّلةٌ شِيبُ الوجوه كأنّها قِداحٌ بكفّيْ ياسِرٍ تَتقلقلُ[٥]
أو الخشْرم المبْعوث حَثحثَ دَبره مَحابيضَ أرْساهُنّ سامٍ مُعسّلُ[٦]

(١) الخمص: الجوع. والحوايا: جمع حويّة كغنيّة، ما تحوي وانطوى بعضه على بعض من الأمعاء. والخيوطة: جمع خيط. وماريّ: اسم صانع مشهور يفتل الخيوط. وأغار: شد الفتل (المعنى) وأضمر أمعائي بالجوع حتى تصير مثل الخيوط التي يشد فتلها ماريّ المشهور بفتل الخيوط.

(٢) الزهيد: القليل. والأزل: السّريع. والموصوف به هنا الذئب بدليل ما بعده. والتّنوفة: المفازة والأرض الواسعة البعيدة الأطراف، أو الفلاة لا ماء بها ولا أنيس وإن كانت معشبة، وجمعها تنائف. والطحلة بالضم لون بين الغبرة والسّواد ببياض قليل، وذئب أطحل: لونه الطحلة (المعنى) أدور على القوت القليل مثل ما يدور عليه الذئب من فلاة إلى فلاة.

(٣) غدا طاوياً: بكر بالضرب في الأرض جائعاً. ويعارض الرّيح: يسابقه. وهافياً: خفيفاً مسرعاً. وخات البازي: انقض على الصّيد. وخات الرّجل: اختطف. وأذناب الشّعاب: أطراف الأراضي التي بين الجبال. وعسل الذئب يعسل عسلاً وعسولاً وعسلاناً: اشتد اهتزازه في عدوه. (المعنى) خرج الذئب من الجوع مبكراً يقطع أعماق المفاوز في طلب القوت يعدو ويباري الرّيح.

(٤) لواه القوت: قتله وضمره، وأمّه: قصده. ونظائر نحل: يعني أمثاله الهزيلة (المعنى) فلما لم يجد في الأمكنة التي قصدها ما يقتات به صاح فصاح معه أمثاله من الذئاب التي أنحلها الجوع.

(٥) المهللة: الضامرة المنقوشة. والقداح: جمع قدح وهو السّهم قبل أن يراش ويركب عليه نصله. والياسر: الذي يلعب بالقداح لعبة كانت للعرب وهي حرام لما فيها من خسارة المال. وتتقلقل: تتحرك. (المعنى) ذئاب ضامرة وخطها الشّيب من يراها في عدوها يخالها سهاماً تتحرك في يدي ياسر.

(٦) الخشرم كجعفر: جماعة النّحل وأمير النّحل ومأواها. وحثحث كحث: حض وحرض. والدّبر بفتح الدّال: جماعة النّحل. ومحابيض: جمع محبض كمنبر عود يشتار به العسل أو يطرد به الدّبر، وهي هنا منصوبة على نزع الخافض، والمعنى إلى محابيض. وأرسى: وقف وأوقف. وسام: مرتفع. ومعسل: طالب العسل. (المعنى) أو كأنها جماعة النّحل حثها أميرها على الطير إلى العيدان التي نصبها لها مشتار العسل في الأماكن المرتفعة.

مُـهـرّتَـةٌ فـوهٌ كـأنّ شـدُوقـهـا شـقـوق الـعِـصـيّ كـالـحـاتٌ وبُـسّـلُ[١]
فـضـجّ وضـجّـتْ بـالـبـراح كـأنـهـا وإيّـاه نـوحٌ فـوق عـلـيـاءَ ثـكّـلُ[٢]
وأغضى وأغْضت واتّسى واتّـست به مـرامـيـل عـزّاهـا وعـزّتـه مُـرْمِـلُ[٣]
شكا وَشكتْ ثم ارْعوى بعد وارعوت وَلَلصَّبْرُ إن لم ينفع الشكْوُ أجملُ[٤]
وفـاءَ وفـاءَتْ بـادراتٍ وكـلّـهـا عـلـى نـكـظٍ مـمّـا يـكـاتِـم مُـجْـمـلُ[٥]
وتشرب أسآر القطا الكُدْر بعد ما سَرتْ قَرباً أحشاؤها تتصلْصلُ[٦]
هـمـمـتُ وهـمَّـت وابـتـدرنـا وأسـدلـت وثـمَّـر مـنّـي فـارطٌ مُـتـمـهّـلُ[٧]

(١) المهرتة: الواسعة. والفوه: جمع الأفواه وهو الواسع الفم، أو الذي يخرج أسنانه من الشّفتين. والشّدوق: أطراف الفم من باطن الخدين. وكالحات: شديدة العبوس. وبسل: كريهات المنظر. (المعنى) إن أفواهها واسعة بارزة بالأنياب وأشداقها كأنها شقوق العصى قبيحة المنظر نظيفة الرّؤية.

(٢) البراح كـحاب: المتـسع من الأرض لا زرع بها ولا شجر. (المعنى) فصاح ذلك الذئب وصاحت معه الذئاب كأنها معه نائحات تنوح فوق ربوة عالية على فقد أولادهن.

(٣) أغضى على الشّيء: سكت. واتّسى: اقتدى. والمرمل: الذي نفد زاده. وعزاها: سلاها على مصابها. (المعنى) ثم سكت فـكـت اقتداء به وسلاها على جوعها وسلته على مخمصته.

(٤) الارعواء: النّزوع عن الجهل وحسن الرّجوع عنه. (المعنى) شكوا فلما لم تنفع الشّكوى رجعوا عنها وصبروا على الجوع والصّبر أحسن من الشّكوى التي لا تفيد.

(٥) فاء: رجع. وبادرات: مسرعات. والنّكظ: محركة، الجوع الشّديد (المعنى) ورجعت الذئاب مسرعة وجميعها على ما به من شدة الجوع الذي يؤلمه ويكتمه، راض بحالته، محسن لها، مستعين بالصّبر على ما به من الضر.

(٦) أسآر: جمع سؤر وهو بقيّة الماء بعد الشّرب. والقطا نوع من الطير صوته قطاقطا وهو ثلاثة أضرب: كدري وجوني وغطاط، فالكدري الغبر الألوان الرّقش الظهور والبطون الصّفر الحلوق وهو ألطف من الجوني، والجوني السّود البطون والأجنحة وهو أكبر من الكدري، والغطاط كسحاب الغبر الظهور والبطون والأبدان سود بطون الأجنحة طوال الأرجل والأعناق لطاف، لا تجتمع أسراباً أكبر ما يكون ثلاث واثنتان، الواحدة غطاطة، ويقال: إن القطا يطلب الماء على بعد مراحل عديدة بعضهم أبلغها إلى عشرين. (المعنى) إني أسبق القطا الغبر الألوان في السّير أتركها تخرج لطلب الماء حتى إذا كانت ليلة اليوم الذي ترد الماء فيه على حين يشتد طيرانها حتى تسمع لها صلصلة عدوت فسبقتها إلى الماء وشربت منه وتأتي هي بعدي تشرب.

(٧) سدل ثوبه وشعره وأسدله: أرخاه وأرسله. وفرط القوم يفرطهم فرطاً وفراطة فهو فارط: تقدّمهم إلى الورد لإصلاح الحوض والدّلاء. (المعنى) ولقد خرجنا جميعاً متسابقين لورود الماء غير أنها مع إسدالها أجنحتها ومدها لها لتدرك الماء على عجل قد تعوقت عنه وشمرت عن ساعد الجد في طلبه فتقدمتها إليه على مهل.

فولّيت عنها وهي تكبو لعقره يُباشره منها ذقونٌ وحوْصلُ(١)
كأنّ وغاها حجرتَيه وحوله أضاميم من سَفْر القبائِل نُزَّلُ(٢)
تَوافين من شتّى إليه فضمَّها كما ضمَّ أذواد الأصاريم مَنْهلُ(٣)
فعبَّتْ غِشاشاً ثمّ مرّتْ كأنّها مع الصُّبح ركبٌ من أحاظةَ مجْفِلُ(٤)
وآلفُ وجهَ الأرض عند افتراشها بأهْدأ تُنبيهِ سناسِنُ قُحّلُ(٥)
وأعدِل منْحوضاً كأنَّ فصوصه كِعابٌ دحاها لاعِبٌ فهي مُثّلُ(٦)
فإن تبتئِسْ بالشَّنفرى أمُّ قسْطل لما اغتبطتْ بالشّنفرى قبلُ أطولُ(٧)

(١) تكبو: تنكب على وجهها. والعقر بضم العين: المراد به هنا الماء في أقصى الحوض. والذقون جمع ذقن وهو مجتمع للحيين والحوصلة للطير كالمعدة للإنسان. (المعنى) وقد انصرفت عنها بعد ما رويت وتركتها تغمس بأذقانها وحواصلها في الماء لترتوي من شدة العطش التي أصابتها من إجهادها نفسها في الطيران.

(٢) الوغى كالفتى: الصّوت والجلبة. والحجرة: النّاحية. والأضاميم: جمع إضمامة بكسر الهمزة وهي الجماعة. والسّفر: القوم المسافرون. (المعنى) كأن جلبتها بجانب الماء وحوله ضوضاء الجماعات من القبائل المسافرين عند حطهم من السّفر.

(٣) توافين إليه: تلاحقن إلى الماء. ومن شتى: من جهات متفرقة. والأذواد: جمع ذود وهو جماعة الإبل. والأصاريم: هنا جمع صرم بكسر الصّاد وهو جماعة الأعراب. (المعنى) اجتمعن عليه على اختلاف الأماكن التي أتين منها كما تجتمع على المنهل إبل الأعراب المتفرقة المنازل.

(٤) العب: جرع الماء وابتلاعه كتلة واحدة كما تفعل الحمامة في شربها. وغشاشاً: عبّاً قليلاً عجلاً غير مرئي. وأحاظة كأسامة، ابن سعد بن عوف أبو قبيلة من حمير وإليه ينسب مخلاف إحاظة باليمن والمحدثون يقولون وحاظة. وأجفل النّعام فهو مجفل: حركها وطردها. (المعنى) فشربت قليلاً ثم عجلت بالطيران إذا رأيتها حسبتها فرساناً تطرد النّعام من بني أحاظة المشهورين بركوب الخيل والصّيد عليها.

(٥) الأهدأ: المنكب المسترخي اللحم. وتنبيه: ترفعه. والسّناسن: حروف فقار الظهر. وقحل: مجردة من اللحم. (المعنى) إني ألفت أن يكون وجه الأرض هو الفراش الذي أنام عليه فأدوم على ذلك وإن أصبحت ولي منكب استرخى لحمه على ظهر بان عظمه.

(٦) أعدل معناه هنا: أسوي وأفرش لرأسي وأجعل لها وسادة. ومنحوضاً: ساعداً قليل اللحم. والفصوص: المراد بها هنا الأصابع. والكعاب: لعب على شكل الأقماع. ودحاها: بسطها، ومثل معناها ماثلة وقائمة بين يدي اللاعب. (المعنى) وأحب أن أتوسد ساعداً ذاهب اللحم كأن عظامه الخارجة كعاب أقامها اللاعب بين يديه.

(٧) تبتئس: تحزن. وأم قسطل: الحرب. واغتبطت: سرت وقرت عيناً (المعنى) لأن تحزن الآن الحرب لأني تركتها فلطا لما فرحت من قبل حين كنت أبعثها قدماً (أسيرها وأمضي إليها مقدماً).

طريد جناياتٍ تياسَرْنَ لَحمه عقيرته لأيّها حُمّ أوّلُ[١]
تنام إذا ما نام يقظى عيونها حثاثاً إلى مكروهِهِ تتغلْغلُ[٢]
وإلْفُ همومٍ ما تزال تعوده عِياداً كحُمّى الرّبع أو هي أثقلُ[٣]
إذا وردت أصدرتُها ثمّ إنها تؤوب فتأتي من تُحيْتُ ومن علُ[٤]
فأمّا تراني كابنة الرَّمل ضاحياً على رِقّةٍ أحفى ولا أتنعّلُ
فإنّي لمَولى الصَّبر أجتاب بزَّه على مثل قلب السّمع والحزم أفعلُ[٥]

(١) كان من عادات العرب غير المحمودة إذا أرادوا أن تحصل لهم ميسرة بدون كبير كد ولا عظيم تعب، أن يشتروا ناقة نسيئة وينحروها ويقسموا لحمها جملة أُيسام، ويجعلوا لها سهاماً بعضها ذوات أنصباء وبعضها غفل بلا نصيب، ليستوفوا ببيعها بقدر زهيد ثمن النّاقة، ثم يقترعون بالسّهام فيفوز من تخرج لهم ذوات الأنصباء ويحرم من تخرج لهم الغفل، وهذه هي لعبة الميسر (القمار) المشهورة الفساد وحرّمها الدّين الحنيفي والقوم الذين يجتمعون على الميسر يقال لهم يسر، والنّاقة التي تذبح فيه يقال لها: جزور لأنها تجزر، ويقال لها: عقيرة لأنها تعقر وتنحر ويقال: تياسروا أي: أخذوا الأنصباء من اللحم، ويقال: حم بمعنى دنا وقرب. (المعنى) قد كثرت جناياتي في الحروب على النّاس حتى أصبحت شريداً من سعيهم ورائي للأخذ بالثأر مني ومسارعتهم إلى اقتسام لحمي ومسابقتهم في أن يكون كل منهم أوّل من يفترسني.

(٢) تنام أي: الجنايات والمراد أصحابها. وحثاثاً: سراعاً. وتتغلغل: تدخل بشدة. (المعنى) تبيت أرباب الجنايات إذا نام الشّنفرى وعيونهم ساهرة على كيده يريدون في سرعة الوصول إلى أذاه وضرره.

(٣) الإلف: الأليف الحليف. المعاود والعياد: العودة والرّجوع مرة بعد أخرى. وربعت عليه الحمى: جاءت ربعاً يعني ترددت عليه في كل أربعة أيام مرة، تتركه في الثلاثة وتأتيه في الرّابع، وتسمى هذه الحمى حمى الرّبع. (المعنى) ولم أزل حليف الهموم تعاودني مع ثقلها معاودة الحمى الرّبعيّة بل إن تلك الهموم أثقل من الحمى.

(٤) تؤوب: ترجع. (المعنى) كما ثارت عليّ جيوش الهموم وأحاطت بي من كل جانب رددتها عني بعزم ماض وصبر جميل.

(٥) فإما تراني بإهمال إن حملاً على لو، فإما ترين بياء ساكنة ونون مفتوحة. وابنة الرّمل: الحيّة أو البقرة الوحشيّة. وضاحياً: بارزاً للشمس. وعلى رقة: سوء العيش. ومولى الصّبر: واليه. واجتاب القميص: لبسه. والبَزُّ: الثياب. والسّمع بالكسر: ولد الذئب من الضبع، يزعمون أنه لا يموت حتف أنفه كالحيّة، وأنه في عدوه أسرع من الطير، ووثبته تزيد على ثلاثين ذراعاً. (المعنى) فإن ترني كالحيّة عارياً حافياً معدماً فإن الصّبر ثيابي والشّجاعة حشو إهابي ولا أفعل إلا ما يوجبه الحزم.

وأُعدِم أحياناً وأغنى وإنما ... ينال الغِنى ذو البُعْدةِ المتبذّلُ[١]
فلا جزعٌ مِنْ خَلَّة مُتكشّفٌ ... ولا مَرِحٌ تحت الغنى أتخيّلُ[٢]
ولا تَزْدهي الأَجهال حلْمي ولا أرى ... سؤولاً بأعقاب الأقاويل أنْمُلُ[٣]
وليلةِ نحسٍ يَصطلي القوسَ ربُّها ... وأقطعهُ اللّاتي بها يَتنبّلُ[٤]
دَغَشْتُ عَلى غَطْش وَبغْش وصُحبتي ... سُعارٌ وإرْزيزٌ ووجرٌ وأفكلُ
فأيَّمتُ نِسْواناً وأيتمْت وِلْدةً ... وعُدْت كما أبدأت والليل أليلُ[٥]
وأصبحَ عنّي بالغُمَيْصَاءِ جالساً ... فريقان مسؤول وآخر يسألُ[٦]
فقالوا لقد هرّت بليْلٍ كِلابُنا ... فقلنا أذِئبٌ عسّ أم عسَّ فرْعَلُ[٧]

(١) أعدم إعداماً وعدماً بالضم: افتقر. وذو البعدة بالضم: صاحب الابتعاد في الأرض. والمتبذل: الذي لا يصون نفسه. (المعنى) إني أضرب في الأرض فتارة أفتقر وطوراً أغتني، ولا ينال الغنى إلا من باشر الأسفار ولم يتحاش بنفسه عن اقتحام الأخطار.

(٢) الجزع: نقيض الصّبر. والخلة: الحاجة والفقر. والمرح: البطر والاختيال. (المعنى) الفقر لا يظهر عليّ ترحاً والغنى لا يبدي مني مرحاً.

(٣) تزدهي: تستخف. والأجهال: جمع جهل شذوذاً، لأن قياسه أجهل وجهول، إلا أنه حسنه كون عنه الهاء الشّبيهة بحرف اللين والباء في «بأعقاب» بمعنى «عن». والنّملة مثلثة وكسفينة النّميمة، وهو نمل ونأمل ومنمل كمحسر ومنبر، ونمال كشداد نمام، وقد نمل كنصر وعلم، وأنمل نمّ. (المعنى) لا يستفز الجهل حلمي ولا تجدني متبعاً للأقاويل السّاقطة أنم بها على النّاس.

(٤) اصطلى: استدفأ. والأقطع: جمع قطع وهو القضيب تبرى منه السّهام وتنبل بالأقطع اتخذها نبلاً. ودغش عليه كمنع: هجم وفي الظلام دخل. والغطش: الظلمة والبغش: المطر الخفيف. والسّعار بضم السّين: شدة الجوع. والإرزيز: برد صغار كالملح. والوجر: الحقد. والغل: الغيظ. والأفكل: الرّعدة: (المعنى) وكم ليلة طويلة مظلمة باردة يضطر السّائر فيها إلى إيقاد قوسه ونبله ليتدفأ بها من شدة القر، سريت في ظلامها ومطرها وليس يصاحبني غير الجوع والثلج والغيظ والرّعدة.

(٥) أيمت نسوانا: قتلت رجالهن فتركتهن بلا أزواج. وأيتمت ولدة بكسر الواو: جمع ولد، يعني قتلت آباءهم. وأبدأت: بدأت. والّليل أليل: طويل شديد الظلمة. (المعنى) فقتلت الرّجال وتركت النّساء أيامى والأولاد يتامى ورجعت كما رحت والّليل باق على حاله.

(٦) الغميصاء: موضع أوقع فيه خالد بن الوليد رضي الله عنه ببني جذيمة. (المعنى) ولما أصبح الصّباح جلس النّاس بالغميصاء لشدة ما دهاهم يتساءلون ويتجاوبون عما فعلت.

(٧) هرّ الكلب هريراً: صوّت صوتاً دون النّباح. وعس: طاف بالّليل. والفرعل بالضم: ولد الضبع والنّبأة: الصّوت الخفي. وهوّم: هزّ رأسه من النّعاس. والقطا: جمع قطاة وهو نوع من الطير

فلم يكُ إلا نبْأةٌ ثمّ هوّمتْ فقلنا قَطاة رِيعَ أم رِيعَ أجْدلُ
فإن يكُ مِن جِنّ لأبرح طارِقاً وإن يك إنساً ما كها الإنس يفعلُ
ويومٍ من الشِّعْرَى يذُوبُ لُعابه أفاعيهِ في رَمْضَائِهِ تَتَمَلْمَلُ(١)
نَصَبْتُ له وجهي وذا الكنِّ دُونه ولا ستر إلاّ الأَتحَمِيُّ المُرَعْبلُ
وَضاف إذا هَبَّتْ له الريح طيَّرت لبائد عن أعْطافِهِ ما تُرجّلُ
بَعيدٌ بمسّ الدُّهنِ والفَلْي عَهْدُهُ له عَبَسٌ عافٍ من الغسلِ مُحْوِلُ(٢)
وخرْقٌ كظهْر التّرس قفرٌ قطعْتهُ بعامِلَتين ظهرهُ ليسَ يُعْملُ(٣)

= صوته قطا قطا. والأجدل: الصّقر. وريع: أخيف. ولأبرح معناه لقد أتى بالبرح وهو الشّدة والشّر؛ و«ها» في «كها» ضمير القصة دخلت عليه الكاف شذوذاً. (المعنى) فجعلوا يقولون إنا لما سمعنا كلابنا تصوت باللّيل حسبناها تنبح على ذئب أو ولد ضبع، ولكنها لما صوتت قليلاً ونامت قلنا ربما كانت نبأتها لطيران قطا ارتاعت، أو لمرور صقر خائف أمامها. وما علمنا أن الطارق الذي أهرها شيء عظيم إلا لما رأينا آثار فعله من القتل الذريع. كل ذلك فعله في ليلة لئن كان هذا الطارق من الجن فلقد أتى شيئاً عظيماً، وإن كان من الإنس فما يفعل الإنس مثل ذلك.

(١) الشّعرى: نجم يطلع في شدة القيظ. واللعاب معناه هنا ما تراه في شدة الحر، كأنه منحدر من السّماء إذا قام قائم الظهيرة، ويكون على هيئة البخار أو على هيئة نسج العنكبوت، ويسمى أيضاً لعاب الشّمس. والرّمضاء: الأرض الشّديدة الحرارة. وتململ: تقلب. والسّكن: السّتر. والأتحمي: برد معروف. والمرعبل: الممزق. وضاف: صفة الشّعر المحذوف ومعناه طويل. ولبائد: جمع لبدة وهي الشّعر المتراكم. وأعطافه: جوانبه. وترجل تمشط. (المعنى) وكم يوم من أيام الشّعرى التي تتصاعد فيها الأبخرة وتتململ فيها الأفاعي من شدة الحر عرضت له وجهي بغير ستر ومشيت فيه ولا شيء على جسدي إلا ثوب ممزق وشعر مسترسل إذا هبت عليه الرّيح لم تطير منه إلا لبائد في كل جانب منه لم تمسّه الأمشاط.

(٢) الفلي: تنقية الرّأس من القمل. والعبس محركة: ما تعلق بأذناب الإبل من أبوالها وأبعارها يجف عليها. وعاف من الغسل: لم يغسل. والمحول: الذي أتى عليه الحول. (المعنى) إن هذا الشّعر بقي عاماً من غير أن يفلى ولا يغسل ولا يمس بدهن حتى تراكمت عليه الأوساخ وصار عليه منها مثل عبس الإبل.

(٣) الخرق: الأرض الواسعة تنخرق فيها الرّياح. وقفر: خالية من النّبات والسّكان. والعاملتان: الرّجلان. وظهره ليس يعمل أي: ليس يسلك. (المعنى) وكم صحراء مقفرة لم يسلكها أحد قطعتها مشياً على رجلي.

فألحقتُ أولاه بأخراهُ مُوفياً ... على قُنةٍ أُقْعي مراراً وأمْثُلُ[1]
تَرُودُ الأَراوي الضّخْمُ حوْلي كأنها ... عَذَارَى عليهنّ المُلاءُ المُذيّلُ[2]
ويَركُدْن بالآصال حوْلي كأنني ... من العُصْم أدْفى ينتحِي الكِيح أعقلُ[3]

وقال الطُّغرائي يُواسي مُعين المُلك في نكبته:

[الطويل]

فصبراً مُعين المُلك إن عنَّ حادثٌ ... فعاقبة الصّبر الجميل جميلُ
ألم ترَ أنّ اللّيل بعد ظلامِهِ ... عليه لإسفار الصباح دليلُ
ألم ترَ أنّ الشمس بعد كُسُوفها ... لها صفحة تغشى العيون صقيلُ
وأن الهلال النَّضو يُقمِر بعد ما ... بدا وهوْ ثختُ الجانبين ضئيلُ
فقد يعطف الدّهر قيادُه ... فيشفَى عليلٌ أو يُبلّ غليلُ
ويرتاش مقصوصُ الجناحينِ بعد ما ... تساقط ريشٌ واستطار نسيلُ
ولا غرو إن أخنت عليك فإنما ... يصادم بالخطب الجليل جليلُ
أسأت إلى الأيام حتى وتَرْتَها ... فعندك أضغان لها وتبولُ
وصارَمتَها فيما أرادت صُروفَها ... ولولاك كانت تنتحي وتصولُ
وما أنت إلاّ السيفُ يسكُن غمدَهْ ... ليشقى به يوم النّزال قتيلُ

---

(١) أوفى عليه: أشرف. والقنة بضم القاف: قلة الجبل. وأقعى في جلوسه: تساند إلى ما وراءه. ومثل: قام منتصباً. (المعنى) فعبرت تلك الصّحراء من أوّلها إلى آخرها مشرفاً على قلل الجبال تارة أقعد وتارة أقوم.

(٢) الرّود: الذهاب والمجيء. والأراوي: جمع أرويّة بالضم والكسر وهي أنثى الوعول. والعذارى: جمع عذراء وهي البكر. والملاء بضم الميم: نوع من الأردية. والمذيل: طويل الذيل. (المعنى) تطوف الأراوي الضخم حولي إذا رأيتها حسبتها عذارى تلفعت في ملاء طويلات الذيول.

(٣) الرّكود: السّكون والثبات. والآصال جمع أصيل وهو العشي. والعصم: جمع أعصم وهو الوعل الذي في موضع المعصم منه. والأدفى: الذي يميل قرناه ناحيتي ظهره. وينتحي: يتعمد. والكيح: ناحية الجبل. وأعقل: ممتنع في الجبل. (المعنى) ويقفن حولي يحسبنني وعلاً أدفي يقصد الجبل ليمتنع به.

أمَا لكَ بالصّديقِ يوسفَ أسوة فتحمِلَ وطء الدّهر وهو ثقيلُ
ومَا غضَّ منك الحبسُ والذكر سائر طليقٌ له في الخافقَيْنِ ذميلُ

وقال محمود باشا سامي البارودي وهو في منفاه:

[الطويل]

محا البين ما أبقت عيونُ المَها منّي فشبْتُ ولم أقضِ اللُّبانةَ من سنِّي
عناءٌ ويأسٌ واشتياقٌ وغُربةٌ ألا شَدّ ما ألقاه في الدّهر من غَبنِ
فإن أك فارَقتُ الدّيارَ فلي بها فؤادٌ أضلّته عيونُ المَها عنّي
بعثتُ به يومَ النّوى إثْرَ لحظَة فأوقعه المِقدارُ في شَرك الحُسنِ
فهل من فتًى في الدهر يجمَع بيننا فليس كلانا عن أخيه بمُستغني
ولما وقفنا للوَداع وأسبلَت مدامعُنَا فوق الترائب كالمُزنِ
أهَبْتُ بصبري أن يعود فبزَّني وناديتُ حِلمي أن يثوب فلم يُغنِ
وما هي إلاّ خَطرةٌ ثم أقلعَت بنا عن شطوط الحيّ أجنحة السُّفْنِ
فكم مُهجةٍ من زَفرة الوَجْدِ في لَظىً وكم مُقلةٍ عن غَزرةِ الدّمع في دَجْنِ
وما كنتُ جربتُ النّوى قبل هذه فلما دهتني كدتُ أقضي من الحُزنِ
ولكنّني راجعت حلمي وردّني إلى الحزم رأيٌ لا يحوم على أفنِ
ولولا بُنَيَّاتٌ وشِيبٌ عواطلٌ لما قَرَعَتْ نفسي على فائت سِنّي

وقال محمد حافظ بك إبراهيم:

[البسيط]

لم يبقَ شيءٌ من الدُّنيا بأيدينا إلاّ بقيّة دَمع في مآقينا
كنّا قِلادة جيدِ الدّهر وانفرطت وفي يمين العُلا كُنّا رَياحينا
كانت منازلُنا في العزّ شامخةً لا تشرق الشمسُ إلا في مغانينا
وكانَ أقصى مُنَى نهر المجرّة لو من مائه مُزجت أقداحُ ساقينا
والشهب لو أنها كانت مُسخرة لرَجْم مَنْ كان يَبدُو من أعادينا

فلم نزل وصرُوف الدهر ترمُقُنا شَزَراً وتخدعُنا الدنيا وتلهينا
حتى غَدونا ولا جاه ولا نَشَبٌ ولا صديقٌ ولا خِلٌّ يُواسينا

وقال أيضاً في شكوى الزمان:

[الطويل]

سَعيتُ إلى أن كِدْتُ أنتعلُ الدّما وعُدْتُ وما أعقبت إلا التّندُّما
سلامٌ على الدُّنيا سلام مُودِّع رأى في ظلام القَبر أُنساً ومغنَما
تبَلّغ بالصَّبر الجميل وبالأسى زماناً وجادتْهُ المُنى فتأدَّما
أضرَّتْ به الأولى فهام بأُختها وإن ساءتِ الأخرَى فوَيلاهُ منهما
فهُبِّي رياحَ الموت نكباء واطفئي سراجَ حَياتي قبل أن يتحطَّما
فما عَصَمَتني من زماني فضائلي ولكن رأيتُ الموتَ للحُرّ أعصما
فيا قلبُ لا تجزَع إذا عضّكَ الأسى فإنك بعدَ اليوْم لن تتألّما
ويا عينُ قد آن الجمودُ لمدمعي فلا سيلَ دَمع تسكبُين ولا دَما
ويا يدُ ما كلّفْتُكِ البَسْطَ مرّة لذي مِنّة أولى الجميلَ وأنْعما
فللّه ما أحلاك في أنمل البلى وإن كنتِ أحلى في الطروس وأكرما
ويا قدَمي ما سِرْتِ بي لمذلة ولم ترْتق إلا إلى العزّ سلّما
فلا تُبطئي سَيراً إلى الموتِ واعلَمي بأنَّ كريمَ القوْم مَنْ مات مُكرما

وقال فقيد الأدب حفني بك ناصف:

[الطويل]

أتُقضَى مَعِي إن حان حَيْنِي تجاربي وما نِلتها إلاّ بطول عَناءِ
وأبذُل جهدي في اكتساب معارف ويفنَى الذي حصّلتُه بفنائي
ويُحزِنُني ألا أرى ليَ حيلة لإعطائها مَنْ يستحقّ عطائي
إذا ورَّث الجهالُ أبناءهم غِنًى وجاهاً فما أشقى بني الحكماءِ

وقال السيد أحمد الهاشمي يشكو ما أصاب الشرق:

[الوافر]

قَضَيْتُ شيبتي وبذلتُ جُهدي فلم تكن الحياةُ كما أُريدُ

إلى كم أسْتَحِثُّ النفس عزماً ... وكم أسعى، وغيري يَسْتفيدُ؟
نَهَضْتُ، فقيلَ: أيّ فتى؟ فلما ... خَبَرْتُ الأمر أعجبني القُعودُ
وإني بعد مَجهدةٍ وقومي ... كضاربةٍ وقد بردَ الحديدُ
وحيدٌ بَينهم ولعلّ يوماً ... عَصيباً فيه يُفْتَقَدُ الوحيدُ
لنا في الشرق أوْطانٌ، ولكن ... تَضيقُ بنا كما ضاقَتْ لُحودُ
تنازعَ أهلها فلكلِّ حزبٍ ... حِمىً، ولكلِّ مملكة عميدُ
نُقيم بها على ذُلٍّ وفقر ... ونَظمأ لا يَسوغ لنا الوُرودُ
أكاذيبُ السياسة بَيِّناتٌ ... تكيدُ بها الحكومة ما تكيدُ
وعود كلها كذِبٌ وزور ... فكم وإلامَ تخدَعُنا الوُعودُ؟
إذا ما المُلكُ شيدَ على خِداعٍ ... فلا يبقى الخداعُ ولا المشيدُ
ومَن لم يَتخذْ مُلكاً صحيحاً ... فلا تُغني الممالك والحدودُ
وقالوا دولةٌ نشأت حديثاً ... تؤيدها السياسة والعُهودُ
كذبتم ما لنا في الأمر شيءٌ ... فقولوا: إننا شعب عبيدُ
وقالوا: أمة نهضت تُداعي ... بحق كاد طالبُهُ يَبيدُ
تَفَرَّق أهلها ومضى بنوها، ... وفي أرواحهم عزم عتيدُ
أرى الأملَ الذي نحيا عليه ... أضاءَ من الصباح له عمودُ
خذوا بنفوسكم طرُق المعالي ... فدهركُمُ عِصاميٌّ عنيدُ
وجُرْح الشرق يُضمده بَنوه ... وهل يَتلاءَمُ الجُرح القصيدُ؟
نيام أغرقوا في النوْم حتى ... أُشيعَ بأنهم شعب بَليدُ!
أرى الحرية اختضبت دِماءً ... وقد خَفقت لطالبها بنودُ
وأقسِمُ أنّ عاشقها زعيم ... بخطبتها ولو قطع الوَريدُ
رخيصٌ كلُّ ما بذلوه فيها ... ولا تَغلو النفوس ولا النقودُ
إذا جُعلَت لها الأرواح مَهراً ... فإن لمجدها كتِبَ الخلودُ

يسوم المجد طالبه بغالٍ ولا يَطغى به الثمنُ الزَّهيدُ
إذا سهل النزول إلى حضيض يشق إذاً إلى القِمم الصُّعودُ

وقال أحمد شوقي بك يشكو ما أصاب دمشق من ظلم فرنسا بعد الحرب الكبرى:

[البسيط]

قم ناج «جِلِّقَ» وانشُدْ رسم من بانوا مَشَت على الرسم أحداثٌ وأزمانُ
هذا الأديم كتاب لا كِفَاءَ له رث الصحائفِ، باقٍ منه عنوانُ
الدِّين والوحي والأخلاق طائفةٌ منهُ وسائرُهُ دنيا وبُهتانُ
ما فيه إن قُلبتْ يوماً جَواهرُه إلا قرائح مِن رادٍ وأذهانُ
بنو أمَيَّةَ للأنباءِ ما فتحوا وللأحاديث ما سادوا وما دانوا
كانوا ملوكاً سريرُ الشرقِ تحتهُمُ فهل سألت سرير الغربِ ما كانوا؟
عالين كالشمسِ في أطراف دَولتهِمْ في كل ناحيةٍ مُلكٌ وسلطانُ
يا وَيحَ قلبي مهما انتاب أرسمُهم سرى بهم الهَمّ أو عادته أشجانُ
بالأمس قمت على الزهراء أندبُهم واليومَ دمعي على الفيحاءِ هَتّانُ
في الأرض منهم سماواتٌ وألوية ونيِّراتٌ وأنواءٌ وعِقبانُ
معادن العز قد مال الرغامُ بهم لوْ هانَ في تربهِ الإبريزُ ما هانوا
لولا دِمشقُ لما كانت طُليطلةٌ ولا زَهَتْ ببني العباس بَغْدانُ[1]
مَرَرت بالمسجدِ المحزونِ أسأله هل في المصلى أو المحراب مروانُ
تغيَّرَ المسجد المحزون واختلَفَتْ على المنابر أحْرار وعبدانُ
فلا الأذان أذانٌ في مَنارَتهِ إذا تعالى ولا الآذان آذانُ
أمنْت بالله واستثنيت جَنَّتَهُ دمشق روح وجَنّات وريحانُ
قال الرفاقُ وقد هبّتْ خَمائلها الأرض دار لها الفيحاء بُستانُ[2]

(١) إحدى لغات كثيرة في بغداد.
(٢) الفيحاء: من أسماء دمشق، والخمائل: جمع خميلة وهي الشّجر الكثير الملتف.

جرى وصفّق يلقانا بها بَرَدى ... كما تلقّاك دون الخلدِ رِضوانُ[١]
دخَلتُها وحواشيها زُمرُّدةٌ ... والشمس فوق لُجَيْنِ الماء عِقيانُ[٢]
والحورُ في (دُمَّر) أو حَول (هامتها) ... حورٌ كواشفُ عن ساقٍ وولدانُ[٣]
و(رَبوةُ) الوادي في جلباب راقِصةٍ ... الساقُ كاسيةٌ والنَّحْر عُريانُ[٤]
والطيرُ يَصدحُ مِن خلفِ العيون بها ... وللعيونِ كما للطير ألحانُ[٥]
وأقبلَت بالنَّباتِ الأرضُ مختلفاً ... أفوافه، فهوَ أصْباغٌ وألوانُ[٦]
وقد صفى (بَرَدى) للرِّيح فابترَدَت ... لدى ستُورِ حواشيهنَّ أفنانُ[٧]

(١) يقول: إن مكان (بردى) من دمشق كمكان رضوان خازن الجنان من جنة الخلد، فهو دليل ضيوفها إليها، يؤنسهم بما على ضفافه من غياض تأوي إليها السّعادة، ومقاصف لا تبلغها الهموم. وقوله: (جرى وصفق) من قولهم صفق فلان الشّراب، أي: حوّله من إناء ليصفيه. وقد وصف حسان بن ثابت نهر بردى بذلك يوم نزل على أمراء غسان في البريص، وهي غوطة دمشق، فقال: **[الكامل]**

لله در عصابة نادمتهم ... يوماً بجلق في الزمان الأوّل
أولاد جفنة حول قبر أبيهم ... قبر ابن مارية الكريم المفضل
يسقون من ورد البريص عليهم ... بردى يصفق بالرّحيق السّلسل.

(٢) العقيان: الذهب الخالص.

(٣) الحور في صدر البيت: شجر باسق معتدل القامات يملأ غياض دمشق، وقد شبهه بحور الجنان كاشفات عن سوقهن، لأن أعالي هذه الأشجار مكسوة أوراقها وسائرها عريان. «دمر» و«الهامة»: من منتزهات دمشق في وادي بردى.

(٤) يقول: إن ربوة هذا الوادي على خلاف ما فيها من أشجار الحور، فإذا كانت الأشجار كاسية النّحور عارية السّوق فإن جبال الرّبوة كاسية السّاق بما فيها على سفحها من أشجار ومرج وأزهار، بينما نحرها عريان لتجرد أعالي تلك الجبال من خضرة النّبات وأفواف الزهور. و(الرّبوة) هي منتزه دمشق الغريب وصفها الله تعالى في القرآن الكريم بقوله: ﴿رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠] قال ياقوت في معجم البلدان: هي موضع ليس في الدّنيا أنزه منه.

(٥) العيون: عيون الماء يسمع خريرها مع ألحان البلابل والعصافير في الجبال والأودية.

(٦) أفواف: جمع فوف، نوع من الثياب، والمراد هنا الزهر.

(٧) بردى هو نهر دمشق، وينبع من جبال الزبداني على مسافة أربعين كيلو متراً ونيف من دمشق في شمالها الغربي، وينحدر في وادي بردى حتى إذا بلغ ينبوع (الفيجة) انضم هذا إليه، ثم ينفصل عنه (نهر يزيد بن معاوية) نحو الشّرق في لحف جبل قاسيون وينفصل عنه بعد ذلك نهر ثورا فيجري في جنوب نهر يزيد، ثم ينفصل عن بردى نهر (بانياس) والقنوات ويدخل بردى مدينة دمشق من مرجتها الشّهيرة، حتى إذا ارتوت منه بساتينها وضواحيها الشّرقيّة انصب في بحيرة

شِيدوا لها المُلك وابنوا رُكنَ دولتها فالمُلك غرسٌ وتجديدٌ، وبنيانُ

وقال الشاعر المطبوع السيد خير الدين أفندي الزركلي في سورية الشهيدة من قصيدة:

[الكامل]

الأهل أهْلي، والديار ديارِي وشعار «وادي النَّيِّرَيْن» شعاري
ما كان من ألم «بجلّقَ» نازل واري الزّناد، فزندُهُ بي واري
إن الدّم المهراقَ في جَنباتها لدمي، وإن شِفارَها لشفاري
دَمعي لما مُنيَتْ به جارٍ هنا ودمي هناك على ثراها جاري
يا وامِضَ البرْق اطمئنّ وناجِني إن كُنتَ مُطلعاً على الأسْرارِ
ماذا هناكَ فإنّ صَوْتاً راعَني والصَّوْتُ فيهِ جفوَة الإذعارِ
النار محدقةٌ «بجلّقَ» بعدَ ما تركتْ «حماةَ» على شَفيرِ هارِ
تنساب في الأحياء مُسرعة الخطى تأتي على الأطمارِ والأعمارِ
والقوم مُنغمسونَ في حَمْئاتها فتكاً بكل مُبرّءٍ صبّارِ
الطفل في يَدِ أُمه غرَض الأذى يُرمى، وليس بخائض لغِمارِ
والشيخ مُتَّكئاً على عُكازِهِ يُرمى، وما للشيخ من أوزارِ

وقال أيضاً سعادة الشّاعر الجليل فؤاد الخطيب:

[البسيط]

يا ساهرَ الليل، ما للبرْق يأتلق والمُزنُ ترعد والأنواء تصْطفقُ
هَل بالطبيعة ما بي؟ أم ألمّ بها ما بالديار فثارَت- كلها حنقُ
مُرْبَدَّةً لم يهِم في جوِّها قمرٌ ولا تَنفسَ في أطرافها فلقُ
قدّتْ من الليلِ سِربالاً يجللها وحف الذبول فلم يُصْفر لها أُفقُ
مَرأى يمثل هولَ الحزنِ مختبطاً بين الجوانح سُدّتْ دونه الطرقُ

= المرج، وكان السّريانيون يسمون بردى (نهر أبانا) وسماه اليونان (خريستو ورثه) أي مجرى الذهب.

أبصرت بالعين ما استشعرت من كمد في النفس لج به التبريح والأرقُ
وَيحَ الهمومِ كم أرخَت أعِنَّتَها شعثاً تَدَفَّقُ أرسالاً وتَسْتَبِقُ
هَوْجاء تسمع منها كلما اقترَبت صوت السلاسل فوق الصَّخر تنزلقُ
تهْوي إليَّ وأهوي مُطبقين معاً حتى نصْرّع مُلتفين نَعْتنِقُ
هاجَت وهِجْت فكانت ثم مَلحَمة دارت وسال دمي يجري به العرَقُ

الباب الرابع: في الوصف

وصف الشعر من خلال آراء الحكماء والشعراء فيه

إنّ من الشعرِ لحكمةً. قال أفضل الخلق على الإطلاق سيدنا محمد ﷺ: «سمي الشاعر شاعراً لفطنته».

[الأخفش]

وُجِدَ الشعر حينما وُجدَ السحر شقيقين ليس يفترقان.

[إلياس فياض]

إن المنشئ يولدُ مطبوعاً على الإنشاء، كما يولد الشاعر مطبوعاً على النظم. والشعراء لِسان حال الأمة، وتراجمةُ شعورها، وعنوان إحساسها.

والشعر العصري أضافَ إلى مَعارفنا مَعاني جديدة يرقى بها الخيال، وتتسع بها التصورات المبنية على الحقائق.

[الهلال]

الشعراء زينة المجالس.

[الأمين بن هارون الرَشيد]

الشاعر العربي الذي يمكنُ أن يترجمَ أكثر شعره من غير أن تفقدَهُ الترجمة جَماله هو شاعرُ الحقائق.

[الدكتور شبلي شميل]

الشعر عاطفة ذائبة، أو فكرة مُتوقدة، أو خاطرة عميقة سبكتْ في قالب موزون الكلام والنغمة.

[الآنسة مي]

ما الشعر إلا تصوير الخيال والشعر النفسي في شكل الأشعار التي تدنيه من أفهام الناس، فقدر الشعر ورِقَّته وبلاغته يكون على قدر تنبّه إحساس الشاعر ورِقَّة عواطفه.

[وسيلة محمد]

الشعر إله قديم مات ودفن في العواطف الراقية، فجعل شعور النفس كفناً له كلما تحركت العواطف ولمس الكفن استيقظ ذلك الإله وملأ الدنيا أنيناً مدهشاً.

[توفيق فرح]

وقال آخر:

[الطويل]

ولولا خلالٌ سنها الشعر ما دَرى بغاة المعالي كيف تبنى المكارمُ

وقال أبو تمام:

[الطويل]

أرى الشعر يُحيي الجود والبأس بالذي تبقيه أرْواحٌ لهُ عطراتُ
وما المَجْدُ لولا الشّعر إلا مَعاهدٌ وما الناس إلا أعظمٌ نخراتُ

وقال آخر:

[الوافر]

أجلّ الشعر ما في البيت منه غرَابة نكتة أو نوع لُطْفِ
وبئسَ الشعر بيت ليسَ فيه أماكن غير حيطان وسَقْفِ

وقال الشّيخ ناصيف اليازجي:

[البسيط]

للشعر في كل عصر مَركب خشنٌ لا يستقلُّ عليه الرّاكب الوهن

وقال الشيخ خليل اليازجي:

[الخفيف]

ليس شعراً إلا الذي كُلّ بَيْتٍ فيهِ معنى يَدعو إلى الأسماع

وقال عيسى المعلوف:

[الوافر]

وخَير الشعر ما أوحاه طبعٌ فكانَ له بأفئدة دبيبُ

معانيه قد اتسقت بلفظ يكاد لفرط رِقَّته يذوبُ

وقال إبراهيم الحوراني:

[مجزوء الكامل]

الشعر كالمرْآةِ يُرْ سم فيه عقل النَّاظِم

وقال فائز السمعاني:

[الطويل]

وما الشعر إلا الشهد والسحر والطلى يجلي المنى، يرقي العُقول ويسكِرُ
وما الشعر لا أدري وأدري لأنني تصوّرته لكنه لا يصوَّرُ

وجاء في «المقتطف»:

[البسيط]

أنصتْ فكل لسان شاعرٌ هزجٌ حتى الكواكب والأقمار والشهب

وقال آخر:

[البسيط]

لا يحسنُ الشعر إلا وهو مبتكرٌ وأي حسن لشعر غير مُبْتَكَرِ
وأجْوَد الشعر ما يكسوه قائله بوَشي ذا العصر لا الخالي من العُصُرِ

وقال معروف الرّصافي:

[الطويل]

هو الشعر لا أعتاضُ عنه بغيره ولا عن قوافيه ولا عن فنونِهِ
إذا كانَ من مَعنى الشعور اشتقاقه فما بعده للمرء غير جنونِهِ

وقال ابن الوردي:

[الرمل]

انظم الشعر ولازمْ مذهبي في اطِّراح الرفدِ لا تبغ النحلْ
فهو عنوانٌ على الفضل وما أحسنَ الشعرَ إذا لم يُبْتَذَلْ

وقال سليم العنحوري:

[الكامل]

الشعر دُرٌّ والخيال بحورُ والفكر فلكٌ في العباب يمورُ

والشعرُ ما ابتكر الذكاء مولداً معنى له يرتاحُ منك شعورُ
فإذا أتى نظماً فتلكَ صناعةٌ أخرى جلاها الطبع والتحريرُ

وقال دُعبل بن علي الخزاعي يصف الشعر الخالد:

[الطويل]

يقول إنْ ذاقَ الردى مات شعرُه وهيهات عمر الشعر طالتْ طوائلُهْ
سأفضي ببيت يحمد الناس أمرَه ويكثر من أهل الرواية حامِلُهْ
يموتُ رديء الشعر من قبل أهله وجيده يبقى، وإن ماتَ قائلُهْ

العناية بلغة الشعر لعدي بن الرقاع:

[الكامل]

وقصيدة قد بتُّ أجمعُ بينها حتى أقوِّم ميلها وسنادها
نظر المثقِّف في كعوب قناته حتى يقيم ثقافَه مُنْآدها

سحر البيان لأبي تمام:

[الطويل]

كشفت قناعَ الشعر عن حر وجهه وطيرته عن وكره وهو واقعُ
بِغُرٍّ يراها مَن يراها بسمعه ويدنو إليها ذو الحجا وهو شاسعُ
يودُّ وداداً أنّ أعضاء جسمه إذا أُنشدت شوقاً إليها مسامعُ

وصف قصيدة لابن الرومي:

[الخفيف]

نظم الفكر درّها غير مَثقو ب إذا الدر ثينَ بالتثقيبِ
لم يعبها سوى قواف تشاغل نَ عن المدح فيك بالتشبيبِ
يطرب السامعينَ أيسر ما فيها وإن أنشدت بلا تطريبِ
سودت فيك كل بيضاء تسوي دداً تراه العيون كالتذهيبِ
لو يناغي بيانها العجمَ يوماً عَرَّب العجم أيما تعريبِ

سير الشعر للمتنبي:

[الطويل]

وما الدّهر إلا من رُواة قصائدي إذا قلت شعراً أصبح الدهر مُنشدَا
فسار به من لا يسير مشمِّراً وغنى به من لا يغني مغردا
أجزْني إذا أنشدتَ شعراً فإنما بشعري أتاك المادحون مردَّدا

سهولة الشعر لبشَّار بن برد:

[الطويل]

عميتُ جنيناً والذكاء من العمى فجئتُ عجيب الظن للعلم مؤئلا
وغاضَ ضياء العين للعلم رافداً لقلب إذا ما ضيع الناس حصلا
وشعر كزهر الروض لاءمت بينه بقول إذا ما أحزن الشعر أسهلا

شعر فيكتور هيجو لحافظ بك إبراهيم:

[الرمل]

ما ثغورُ الزهر في أكمامِها ضاحكاتٍ من بكاء السُّحُبِ
نظمَ الوسميّ فيها لؤلؤاً كثَنايا الغيد أو كالحببِ
عند مَنْ يَقضي بأبهى منظر من معانيهِ التي تلعب بي
بَسَمَتْ للذِّهن فاشتهوت نُهى مغرم الفضل وصَبّ الأدبِ

في أوصافٍ شتَّى:

وقال حافظ بك إبراهيم يصف طيارة:

[مجزوء الكامل]

يجري بسابحةٍ تَشُقُّ سَبيلها شَقّ الإزارْ
وتكاد تقدَحُ في الأثـ ـير فيستحيل إلى شرارْ
مِثلَ الشِّهاب انقضَّ في آثار عِفريت وطارْ
فإذا عَلتْ فكدعوة المُضـ ـطَرِّ تخترِق السِّتارْ
وإذا هَوَتْ فكما هوت أنثى العُقاب على الهزارْ

وتُسِفُّ آونَةً وآ ونَةً يحيد بها ازْورارْ
فيخالها الراؤون قد قرَّت وليس بها قرارْ
لَعِبَ الجواد أقلَّ لي ثاً من قُضاعة أو نِزارْ
أو كالقلوب من الحما ئم فوْق ملعبهِ استَطارْ
وكأنها في الأفْق حي ين يميل ميزان النهارْ
والشمس تُلقي فوقها حلل اصفرار واحمرارْ
مَلك تمثّله لنا الحـ ـيما فيأخُذُنا انبهارْ

وقال أيضاً حافظ بك إبراهيم يصف زلزال صقلية سنة ١٩٠٩م:

[الخفيف]

نبِّئاني إن كنتما تعلَمان ما دَهى الكونَ أيها الفَرْقدانِ
غضِبَ الله أم تمرَّدت الأر ض فأنحَت على بَني الإنسانِ
ليسَ هذا سبحانَ ربّي ولا ذا ك ولكن طبيعة الأكوانِ
غليانٌ في الأرض نَفَّسَ عنه ثوَارنٌ في البحر والبُركانِ
رَبِّ أينَ المفرّ والبحرُ والبر على الكيد للورى عاملانِ؟
كنت أخشى البحار والموت فيها راصدٌ غفلة من الرُّبَّانِ
سابحٌ تحتَنا مُطلٌّ علينا حائم حَولنا مُناءٍ مُداني[1]
وإذا الأرض والبحار سَواءٌ في خلاق كلاهما غادرانِ[2]

وقال البُحتري يصف سيفاً:

[الكامل]

يَتناول الروح البعيد منالَه عَفواً ويَفتح في القضاء المقفَلِ
يَغشى الوغَى فالتُّرس ليس بحدّه من حَدّه والدِّرع ليس بمعقِلِ

(١) مناء مدان: مقارب.
(٢) الخلاق: الحظ أو الدّين. وإنما يكون ذلك في الخير، ولكن الشّاعر توسع في استعمال الكلمة.

ماضٍ وإن لم تمْضِه يدُ فارس بَطل ومصقولٌ، وإن لم يُصقل
مُصْغٍ إلى حكم الرَّدى فإذا مضى لم يلتفت، وإذا قَضى لم يَعْدِل
متوقدٌ يبري بأوّل ضَربة ما أدركت، ولوَ أنها في يذْبُلِ
فإذا أصابَ فكل شيءٍ مَقتلٌ وإذا أصيب فما لهُ من مقتلِ

وقال السّيد مصطفى لطفي المنفلوطي يصف القلم:

[الخفيف]

كم أثارَ اليراعُ خَطباً كميناً وأمات اليراع خَطباً مُثارا
قطراتٌ من بين شِقيه سالتْ فأسالَتْ من الدِّما أنهارا
كان غصناً فصار عُوداً ولكن لم يَزل بعدُ يحملُ الأثمارا
كان يستمطرُ السّحاب فحال الـ أمر فاستمطر العقولَ الغِزارا

وقال المرحوم أحمد شوقي يصف أبا الهول:

[المتقارب]

أبا الهَوْل: طالتْ عليك العصُرْ وبُلِّغْتَ في الأرض أقصى العمُرْ[1]
فيا لِدَةَ الدَّهر لا الدّهرُ شَـ ـابَ، ولا أنتَ جاوزت حدّ الصِّغَرْ[2]
إلامَ ركوبكَ مَتن الرِّما لِ لطَيِّ الأصيل وجَوْب السّحرْ[3]
تسافرُ مُنتقلاً في القُرو نِ، فأيَّانَ تُلقي غُبارَ السّفرْ؟
أبينك عهدٌ وبين الجبا لِ، تزولانِ في الموعد المنتظَرْ[4]

(١) العصر: الدّهر فالعصر جمع عصر بسكون الصّاد. ومعنى طول الدّهر على أبي الهول أنه عمر أعماراً طوالاً. والعمر بضم العين والميم لغة في العمر.
(٢) فيا لدة الدّهر: فيا أخا الدّهر وقرينه، فكأنك والدّهر توأمان، خلقتما معاً في أوان. ولا أنت جاوزت حد الصّغر: أي: برغم أنك بلغت في الأرض أقصى العمر.
(٣) إلام ركوبك: إنه تصوير شعري بديع لتصوير أبي الهول راكباً متن الرّمال يطوي اللّيل والنّهار ويسافر منتقلاً في القرون والأدهار. وجوب في معنى طي.
(٤) في الموعد المنتظر: يوم يزول كل شيء أي: اليوم الآخر.

أبـا الـهـولِ! مـاذا وراءَ الـبـقـا ... ءِ إذا مـا تَـطـاولَ غـيـرُ الـضـجـرْ؟(١)
عـجـبْـتُ لـلـقـمـان فـي حـرْصِـه ... عـلـى لـبَـدٍ والـنّـسـور الأخَـرْ(٢)
وشـكـوى لـبـيـد لـطـولِ الـحـيـاةِ ... ولـو لـم تَـطُـلْ لـتَـشـكـى الـقـصـر(٣)
فـإن الـحـيـاةَ تَـفُـلُّ الـحـديـ ... ـدَ إذا لَـبَـسَـتـه، وتُـبـلـي الـحَـجَـرْ
ولـو وُجِـدَت فـيـكَ يـا ابـن الـصَّـفـا ... ةِ لـحـقـت بـصـانِـعِـكَ الـمُـقْـتَـدِرْ(٤)
أبـا الـهَـوْلِ، مـا أنـتَ فـي الـمـعْـضِـلا ... تِ! لقد ضلَّتِ السُّبلَ فيك الفِكَرْ(٥)

(١) ماذا رواء البقاء: ما وراء البقاء المتطاول غير السّأم. قال زهير بن أبي سلمى: **[الطويل]**

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ... ثمانين حولاً، لا أبا لك، يسأم

(٢) لقمان هو لقمان بن عادياء، وتزعم العرب أنه هو الذي بعثته عاد في وفدها إلى الحرم ليستقي لها، فلما أهلكوا خير لقمان بين بقاء عمر سبع بقرات سمر من أطيب عفر في جبل وعر لا يمسها القطر، أو بقاء عمر سبعة أنسر كلما هلك نسر خلف بعده نسر. فاستحقر الأبقار وآثر النّسور. فلما لم يبق غير السّابع قال ابن أخ له: يا عم ما بقي من عمرك إلا عمر هذا. فقال لقمان: هذا لبد، ولبد بلسانهم الدّهر. قالوا: وكان يأخذ فرخ النّسر فيجعله في جوبة في الجبل الذي هو في أصله فيعيش الفرخ خمسمائة سنة أو أكثر، فإذا مات أخذ آخر مكانه حتى هلكت كلها إلا السّابع فأخذه فوضعه في ذلك الموضع وسماه لبداً وكان أطولها عمراً، فضربت العرب به المثل، فقالوا: طال الأبد على لبد. فعاش لقمان، كما زعموا ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة، وقال النّابغة: **[البسيط]**

أضحت خلاء وأضحى أهلها احتملوا ... أخنى عليها الذي أخنى على لبد

هذا، ولقمان بن عادياء غير لقمان الحكيم، وغير اليهودي الذي آتاه الله من الكنوز ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦] وكلا الاثنين مذكور في القرآن الكريم.

(٣) «وشكوى لبيد» أي: وعجبت لشكوى لبيد لطول الحياة إلخ. كان لبيد من المعمرين. روي أنه مات وهو ابن مائة وأربعين سنة. وقيل هو ابن سبع وخمسين ومائة أوّل خلافة معاوية أما شكواه التي ألمح إليها فذلك حيث يقول: **[الكامل]**

ولقد سئمت من الحياة وطولها ... وسؤال هذا النّاس كيف لبيد؟!

يقول إذا لم يكن وراء البقاء المتطاول إلا الضجر فإني أعجب للقمان في حرصه على أن تطول حياته وللبيد الذي وإن مل الحياة وسئم من طولها فإنه لا محالة كان أكثرها شكاة إذا هي لم تطل، لأن حب الحياة جبلة وغريزة مركوزة في الطباع.

(٤) «وجدت» أي الحياة، «يا ابن الصّفاة» الصّفاة الحجر الصّلد الذي لا ينبت شيئاً. وفي المثل: فلان فلا تندى صفاته. وفي الحديث: لا تقرع لهم صفاة أي: لا ينالهم أحد بسوء. وأبو الهول ابن الصّفاة لأنه من الحجر «لحقت إلخ» أي: لأدركك الموت.

(٥) ما أنت في المعضلات: خبرني أي معضلة أنت في المعضلات، وأي معمّى مخفى.

تـحَـيَّـرتِ الـبَـدْوُ مـاذا تـكـو نُ، وضلّتْ بوادي الظنون الحضرْ[١]
فـكـنـتَ لـهـم صـورةَ الـعُـنـفُـوا نِ، وكنتَ مِثال الحجى والبصَرْ[٢]
وسِـرُّكَ فـي حُـجْـبـهِ كـلـمـا أطَـلّـتْ عـلـيـهِ الـظـنـونُ اسْـتَـتـرْ[٣]
ومـا راعَـهُـمْ غـيـرُ رأسِ الـرِّجـا لِ عـلـى هـيـكـلٍ مـن ذواتِ الـظـفُـرْ
ولـو صُـوِّروا مـن نَـواحـي الـطـبـا عِ تَـوَالَـوْا عـلـيـكَ سِـبـاعُ الـصُّـورْ[٤]
فـيـا رُبَّ وجـهٍ كـصـافـي الـنَّـمـيـ ر تَـشـابـه حـامِـلُـهُ والـنَّـمِـرْ
أبـا الـهـول، ويـحـك لا يُـسْـتـقَـلُّ مـعَ الـدّهـرِ شـيءٌ ولا يـحـتَـقَـرْ[٥]
تَـهَـزَّأتَ دهـراً بـديـكِ الـصَّـبـا ح فـنـقّـرَ عـيـنـيـكَ فـيـمـا نَـقَـرْ[٦]
أسـال الـبـيـاضَ وسـلَّ الـسَّـوا دَ وأوغَـلَ مِـنـقـارَهُ فـي الـحُـفَـرْ
قـعـدت كـأنـكَ ذو الـمَـحْـبَـسَـيْـ نِ قـطـيـعَ الـقـيـام سَـلـيـبَ الـبـصَـرْ[٧]

(١) تحيرت: يقول حار النّاس قاطبة في أمرك حاضرهم والبادي.
(٢) صورة العنفوان: لما ينطوي عليه جسمك الذي صور على صورة أسد من معاني القوة. مثال الحجى والبصر: لما ينم عنه وجهك ورأسك المصوران على صورة وجه الإنسان من معاني الفطنة والبصر بالأمور.
(٣) يقول: ومع ذلك لا يزال سرك مكتماً ومخفياً في حجبه، والنّاس من أمرك في ظلام.
(٤) ولو صوروا: أي: ما كان ينبغي أن يروع النّاس منك إن كان رأسك على هيكل من ذوات الظفر لأن النّاس لو صوروا من نواحي ثيمهم وطبائعهم لتولوا عليك كأنهم وحوش. فيا ربّ وجه كصافي النّمير: الماء النّاجع في الرّي أو النّامي أو الكثير، والنّمر: هو ذلك الحيوان المعروف بمكره وشراسته.
(٥) لا يستقل: لا يعد قليلاً وهذا البيت كالتّمهيد لما بعده.
(٦) بديك الصّباح: يريد الزمن والعلاقة بين الدّيكة وبين الصّباح من ناحية صياحها فيه معروفة، ومن حسن التّعليل أن جعل سبب عبث الدّهر بأبي الهول وتشويه خلقه حتى أسال بياض عينيه وسل سوادهما، هو هزء أبي الهول به وسخره منه وعدم اكتراثه له، ثم تعبيره عن الدّهر بديك الصّباح، هذا ولمناسبة ذكر ديك الصّباح نقول إنه ورد في بعض الآثار: لا تسبوا الدّيكة فإنها تدعوا إلى الصّلاة.
(٧) المحبس: الموضع الذي يحبس فيه، وكان يقال عن أبي العلاء المعري رهين المحبسين أي: رهين عماه وبيته: فكأنه من عماه في المحبس. وكذلك أبو الهول عده شاعرنا بعد أن نقر ديك الصّباح عينيه كأنه من عماه وسكوته في محبسين.

كأن الرِّمال على جانِبَيْكَ وبين يديك، ذنوبُ البَشَرْ
كأنكَ فيها لِواءُ القضا ءِ على الأرض أو دَيْدَبانُ القَدَرْ(١)
كأنكَ صاحبُ رَمْل يَرى خَبايا الغيوب خِلال السَّطرْ(٢)
أبا الهول، أنْتَ نديمُ الزّما نِ نَجيُّ الأوانِ سَميرُ العُصُرْ(٣)
بَسطت ذراعيك من آدم ووَلّيْت وجهكَ شَطرَ الزُّمَرْ(٤)
تُطِلُّ عَلى عَالمٍ يَسْتَهِلْـ ـلُ وتُوفي على عالمٍ يُحْتضرْ(٥)
فعينٌ إلى ما بدا للوجو دِ، وأخرى مُشيِّعةٌ مَن عبرْ(٦)
فحدّث فقَد يُهْتَدى بالحديـ ـثِ، وخبِّرْ فقد يُؤتَسى بالخبرْ
ألم تبلُ فرعونَ في عزّه إلى الشّمس مُعْتزياً والقَمَرْ(٧)

(١) ديدبان: فارسيّة معربة أصلها ديده بان، ومعنى ديده العين، وبان أي: ذو، أي: الرّقيب والعين ومعناها الخاص الجندي المكلف بالحراسة.
(٢) السّطر: الصّف من الكتاب والشّجر ونحوهما ومعنى البيت ظاهر.
(٣) النّجي: بوزن فعيل الذي تساره. وفي الحديث: «اللهم بمحمد نبيك وبموسى نجيك» هو المناجي المحدث للإنسان.
(٤) من آدم أي: من قديم. الزمر: جمع زمرة: الجماعة من النّاس، والمراد هنا جميعاً.
(٥) يستهل: يعني يقدم على الدّنيا، من استهل الصّبي بالبكاء أي: رفع صوته وصاح عند الولادة. يحتضر: حضر فلان واحتضر إذا نزل به الموت.
(٦) وأخرى مشيعة من عبر: أي: من مضى.
(٧) ألم تبل فرعون: بلاه يبلوه بلواً وابتلاه جربه واختبره. وفرعون لقب يطلق على كل من ولي ملك مصر كالنّجاشي لملوك الحبشة، وقيصر لملوك الرّومان، وفرعون أصلها في الهيروغليفيّة مركبة من بي وهي أداة التّعريف بأل، ورع أي: الشّمس فتكون كلمة واحدة، ورع أو راهوا معبود قوي حاكم جبار يقاتل احتفاظاً بالحياة، وإبقاء على الكون. ومن هنا كان العتو والجبروت وما في معناهما من مدلولات كلمة فراعنة عند العرب. وإذن لا يقصد بفرعون فرعوناً معيناً ولكن جميع فراعنة مصر وقد ابتلاهم أبو الهول. إلى الشّمس معتزياً: يقول: ألم تبل يا أبا الهول فرعون وهو في عزه حتى لكأنه من العزة والمنعة بحيث يناطح الشّمس والقمر، لأن من اعتزى إلى شيء قاربه وشاكله. وقد كان أكثر الفراعنة يضعون على تيجانهم صور أوزريس «الشّمس» وإزيس «القمر» لأنهما من أصنامهم فلعله يشير إلى هذا مع إرادة معنى العز والمنعة.

=

ظـلـيـل الـحـضـارة فـي الأوّلـ ـيـنَ، رفـيـعَ الـبـنـاءِ، جـلـيـلَ الأثـرْ[١]
يُـؤسِّـسُ فـي الأرض لـلـغـابـريـ ـنَ ويَـغـرِسُ لـلآخـريـن الـثـمـرْ[٢]
وراعَـكَ مـا رَاعَ مِـنْ خـيـلِ قَـمـبـ ـيـزَ تَـرمـي سـنـابِـكُـهـا بـالـشّـرَرْ[٣]
جَـوارفُ بـالـنّـارِ تَـغْـزو الـبـلا دَ، وآونـةً بـالـقـنـا الـمُـشْـتَـجَـرْ
وأبـصـرتَ إسـكـنـدراً فـي الـمَـلا قَـشيبَ الـعُلا في الشّباب النَّضِرْ[٤]

(١) ظليل الحضارة: مكان ظليل ذو ظل دائم يستظل به. يريد أن حضارة فرعون كانت من الكمال بحيث تظل النّاس ويرتعون في ذراها وكنفها. والحضارة بكسر الحاء وفتحها الإقامة في الحضر خلاف بدو البادية، وهي المدن والقرى والرّيف سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمطار ومساكن الدّيار التي لهم بها قرار.

(٢) «للغابرين» الغابر من الأضداد فيكون بمعنى الباقي ويكون بمعنى الماضي. ومن ثم يكون معنى البيت: إما أن فرعون يخلد ذكر الماضين بإقامة الآثار لهم والتّماثيل ويغرس للآتين ما يجنون ثمره من دور العلم والعرفان وما إليها، وإما أن فرعون يؤسس للآتين ويغرس لهم ما يجدي ويثمر.

(٣) «قمبيز» هو ابن قورش الأكبر الذي أسس دولة الفرس التي غزت مصر أزمان الأسرة السّادسة والعشرين، وذلك حين تولى الملك «أبسميتك الثالث» أحد ملوك هذه الأسرة، فأعد الفرس لهذه الغزوة المعدات الكبيرة، وجاء ملكهم «قمبيز» بجيش جرار لفتح البلاد التي طالما شرهت نفس أبيه قورش العظيم إلى إخضاعها. وكانت مصر إذ ذاك حصينة غاية في المنعة، يقول مؤرخو الإغريق إن أحد الجنود اليونانيين هو الذي خان مصر والمصريين ودل الفرس على أسهل الطرق التي يمكنهم بواسطتها أن يدخلوا البلاد، فهوجمت مدينة «بلوز» «الفرما» بحراً، وزحفت الجنود الفارسيّة على مصر براً. وبعد مقاومة عنيفة جهتي بلوز سقطت البلاد وأخذ قمبيز أبسميتيك أسيراً، وكان ذلك سنة ٥٢٥ قبل الميلاد. ثم سار قمبيز أوّل أيامه سيرة حسنة وعامل المصريين معاملة طيبة يحترم ديانتهم وتقاليدهم، ولكنه بعد ذلك لبس لهم جلد النّمر وحنق على البلاد ومن فيها فكرّ على المعابد والهياكل فهدمها وقتل بيده العجل أبيس أثناء أحد الاحتفالات الكبيرة، وعند عودته إلى فارس مات في الطريق سنة ٥٢١ ق.م ولما ولي ملك الفرس دارا الأوّل زار مصر وأراد أن يصلح ما أفسده قمبيز فأبدى احتراماً كبيراً لديانة المصريين ومعبوداتهم، وشيد هيكلاً عظيماً للمعبود آمون بواحة سيوه الكبرى، وعضد التّجارة، وشيد كثيراً من المدارس، وفتح الخليج الموصل بين النّيل والبحر الأحمر، ورأى المصريون آخر أيامه ما لحقه من الخسائر في واقعة «مرثون» في حربه مع الإغريق، فخرجوا من طاعته وطردوا الفرس من البلاد بقيادة أحد الأمراء الوطنيين سنة ٤٨٦ ق.م، ثم غزا الفرس مصر ثانية وما زالوا بها حتى طردهم المصريون سنة ٤٠٥ق.م.

(٤) «إسكندر» هو الإسكندر الأكبر المقدوني الفاتح العظيم. قال المؤرخون: بعد أن هزم الإسكندر الفرس في واقعة أفسوس زحف على مدينة صور فأخذها عنوة، وبذلك تم استيلاؤه على الشّام. ثم قدم إلى مصر وقد كان الفرس استدعوا حاميتها منها بسبب حروبهم مع

تَبلَّجَ في مصر إكليلهُ فلم يَعْدُ في المُلْك عُمْرَ الزّهَرْ
وشاهدتَ قَيصر كيف استبـ ـد وكيف أذلّ بمصر القَصرْ
وكيف تجبَّر أعوانه؟ وساقوا الخلائق سَوْقَ الحُمُرْ؟
وكيف ابْتلوا بقليل العديـ ـد من الفاتحين كريم النَّفَرْ
رَمى تاجَ قيصر رَميَ الزجا ج، وفلَّ الجُموعَ وثلّ السُّرُرْ(١)
فدعْ كلّ طاغية للزّما ن فإن الزمانَ يُقيم الصَّعَرْ(٢)
رأيت الدّيانات في نظمها وحينَ وهى سلكُها وانتثرْ(٣)
تشادُ البيوتُ لها كالبُرو ج إذا أخذ الطرفُ فيها انحسرْ(٤)
تلاقى أساساً وشُمّ الجبا لِ كما تَتلاقى أصولُ الشّجرْ(٥)

الإسكندر، فلما وصل الإسكندر إلى «بلوز» «الفرما» سنة ٣٣٢ ق.م رحب به المصريون لما سمعوه من عدالة حكمه، ولما لاقوه من الذل والهوان في حكم الفرس، ففتحت أبوابها ودخلها دون عناء، حتى إن الوالي الفارسي لم يجرؤ على مقاومته وقابله في منف بترحاب. ومن ثم سار الإسكندر إلى واحة آمون الكبرى ودخل معبد آمون ولقبه الكهنة بابن آمون، فاحترم ديانة المصريين وقدم القرابين لمعبوداتهم، ولم يهمل مع ذلك التقاليد الإغريقية فأدخل منها في مصر الموسيقى والألعاب النّظاميّة، ولما رأى الإسكندر أن قرية «راقودة» وهي قرية صغيرة كانت بقرب الإسكندريّة ذات موقع بحري موفق، أنشأ بجوارها حاضرة جديدة له هي الإسكندريّة. وبعد أن استوثق الأمر للإسكندر في مصر خرج إلى فتوحاته الأخرى في المشرق وكنت وفاته سنة ٣٣٣ق.م، وكان عمره إذ ذاك ٣٢ سنة ونيفاً. ولم يقم بمصر كما ترى إلا قليلاً، فذلك حيث يقول في البيت التّالي «فلم يعد في الملك عمر الزهر» وخلف الإسكندر على مصر البطالسة وما زالوا بها إلى أن استولى الرّومان عليها.

(١) رمى: يريد هذا النّفر القليل وهم أصحاب عمرو بن العاص. وفل الجموع: هزمها. وثل السّرر: كسرها، والسّرر جمع سرير والمراد بها العروش التي يجلس عليها القياصرة.

(٢) الصّعر: ميل في العنق وانقلاب الوجه إلى أحد الشّقين، وهو صعر خده أماله من الكبر، قال المتلمس: [الطويل]

وكنا إذا الجبار صعر خده أقمنا له من ردئه فتقوما

والزمان يقيم الصّعر ويعدل الطغاة. يقال: أقمت الشّيء فقام أي استقام.

(٣) في نظمها وحين وهى سلكها: في حالتي قوتها وضعفها.

(٤) انحسر: كلّ، والبصر يحسر عند أقصى بلوغ النّظر.

(٥) تلاقى: تتلاقى بحذف إحدى التّائين، أي: أنهار راسخة رسوخ الجبال.

وإيـزيـس خَـلـف مـقـاصـيـرهـا تـخطّى الـمـلـوكُ إلـيـهـا الـسُّـتُـرْ[١]
تُـضـيءُ عـلـى صـفـحـات الـسّـمـا ء وتشرق في الأرض منها الحجَرْ
وآبـيـسُ فـي نـيـره الـعـالـمـو نَ، وبـعـضُ الـعـقـائـدِ نـيـرٌ عَـسِـرْ[٢]
تـمـاسُ بـه مُـعـضـلات الأمـو رِ ويُـرجى الـنّـعـيـمُ وتـخـشى سَـقَـرْ
ولا يَـشـعـرُ الـقـومُ إلّا بـهِ ولـو أخـذتـه الـمـدى مـا شـعـرْ
يـظـلُّ أبـو الـمـسـك عـبـداً لـه وإنْ صـاغ أحـمـد فـيـه الـدررْ[٣]
وآنـسـتَ مـوسـى وتـابـوتـه ونـور الـعـصـا والـوَصـايـا الـغُـرَرْ[٤]
وعـيـسـى يَـلُـمُّ رِداءَ الـحـيـا ءِ ومـريـمُ تـجـمـعُ ذيـلَ الـخَـفَـرْ[٥]
وعـمـرٌو يـسـوق بـمـصـر الـصّـحـابَ ويُـزْجي الـكـتـاب ويَـحـدو الـسُّـوَرْ[٦]
فـكـيـف رأيـتَ الـهـدى والـضـلا ل ودنـيـا الـمـلـوكِ وأخـرى عُـمـرْ
ونَـبْـذَ الـمـقَـوْقـس عـهـد الـفُـجـو ر وأخـذَ الـمـقَـوقـس عـهـد الـفـجـرْ
وتَـبـديـلـه ظُـلـمـات الـضَّـلا لِ بِـصُـبْـح الـهـدايـة لـمـا سـفـرْ

(١) «إيزيس» هي من معبودات قدماء المصريين وهي أخت أوزيريس وزوجته في الوقت نفسه وأم هوربوس وهاربوقراط

(٢) «وآبيس» هو العجل أبيس. رووا أن نيفون إله الشّر تغلب أخيراً على أوزيريس إله الخير وقتله فتقمصت روحه جسد عجل، وكان هذا العجل عندهم يمثل الخصب والتّوليد الخلقي، وكانوا يعتقدون أن العجل الذي تقمصته روحه هو ابن بقرة حملت بواسطة شعاع من القمر وله علامات ظاهرة في جسده، فإنه يكون أسود اللون وفي جبهته سمة بيضاء مربعة مثلثة وصورة نسر على ظهره وصورة خنفساء تحت لسانه.

(٣) «أبو المسك» كافور الإخشيدي، و«أحمد»أبو الطيب المتنبي.

(٤) وتابوته ونور العصا والوصايا الغرر: التّابوت الذي وضع فيه موسى وقذف به في النّيل، وعصا موسى وما كان منها من الآيات والوصايا العشر كل أولئك معروف فلا حاجة بنا إلى الإفاضة فيه.

(٥) وعيسى يلم رداء الحياء، يقول: وشاهدت عيسى وهو المثل الأعلى للحياء ومثله في ذلك العذراء.

(٦) وعمرو... يقول: وقد رأيت عمرو بن العاص إذ يسوق المسلمين لفتح مصر ويزجي كتاب الله وآياته.

وتأليفه القبط والمسلمينَ ... كما أُلِّفَتْ بالولاء الأسرْ[١]
أبا الهول، لو لم تكن آية ... لكانَ وفاؤكَ إحدى العبرْ[٢]
أطلت على الهرمينِ الوقو ... ف كَثاكِلةٍ لا تريم الحُفَرْ[٣]
ترَجّي لبانيهما عودةً ... وكيف يعودُ الرّميم النَّخِرْ[٤]
تجوس بعينٍ خلال الدّيا ... رِ وترمي بأخرى فضاء النّهرْ[٥]
تروم بمنفيسَ بيضَ الظبا ... وسُمْر القنا والخميسَ الدّثرْ[٦]
ومهد العلوم الخطيرِ الجلا ... لِ وعهد الفنون الجليلَ الخَطرْ
فلا تستبينُ سوى قَريةٍ ... أجدّ محاسنها ما اندثرْ[٧]
تكاد لإغراقها في الجمو ... د إذا الأرض دارت بها لم تَدُرْ
فهل مَنْ يُبلغُ عنا الأصو ... ل بأن الفروع افتدت بالسيرْ؟
وأنّا خطبنا حسانَ العلا ... وسُقنا لها الغاليَ مُدَّخَر
وأنّا ركبْنا غِمارَ الأمورِ ... وأنّا نزلنا إلى المؤتمرْ
بكُلِّ مُبينٍ شديد اللدا ... د وكلِّ أريب بعيد النظرْ
تطالبُ بالحَقِّ في أمة ... جرى دَمُها دونه وانتشرْ
ولم تفتخر بأساطيلها ... ولكن بدستورها تَفْتَخرْ
فلم يَبْقَ غيرُكَ من لم يخف ... ولم يبقَ غيرُكَ من لم يَطرْ
تحرّك أبا الهول، هذا الزّما ... ن تحرّك ما فيه، حتى الحجرْ

(١) وتأليفه أي: المقوقس. الأسر: جمع الأسرة وأسرة الرّجل عشيرته ورهطه الأدنون.
(٢) إحدى العبر: إحدى الآيات.
(٣) أطلت إلخ: بيان لوفاء أبي الهول. كثاكلة: يقول في إطالتك الوقوف على الهرمين وفاء منك كثاكلة ولدها لا تبرح قبره ولا تزايله، فالثاكلة هي التي فقدت ولدها، ولا تريم أي: لا تبرح.
(٤) لبانيهما: أي: لباني الهرمين.
(٥) تجوس: تطوف وتتخلل. والنّهر يعني نهر النّيل.
(٦) تروم: تنشد وتطلب. «بمنفيس» منف، وموضعها اليوم البدرشين وميت رهينة وهي عاصمة ملك الفراعنة والذي بناها مينا مؤسس الأسرة المالكة الأولى، وكانت كما قال شاعرنا مهد العلوم الخطير الجلال وعهد الفنون الجليل الخطر
(٧) أجد محاسنها ما اندثر: يقول: إن طلولها الدّوارس ورسومها المندثرة البوالي أجدَّت محاسنها.

وقال أيضاً أحمد شوقي بك يصف حياة النّحل وحالته ومملكته:

[مجزوء الرّجز]

مملكةٌ مُدَبّره ... بامرأة مؤمَّرَهْ
تحمل في العمال والصُّـ ... ـناعِ عِبْءَ السيطرَهْ
فاعْجَب لِعمال يوَلُّـ ... ـونَ عليهم قَيصَرَهْ
تحكُمُهمْ راهبةٌ ... ذَكَّارةٌ مُغِيّرَهْ(١)
عاقدةٌ زنّارَها ... عن ساقها مُشمَّرَهْ
تلثّمَت بالأرجُـ ... ـوانِ وارْتَدتْه مِئزرَهْ
وارتفعتْ كأنّها ... شَرارة مُطَيّرَهْ
ووقعتْ لم تختلجْ ... كأنها مُسمَّرَهْ(٢)؟
مخلوقة ضعيفة ... من خُلقٍ مُصَوّرَهْ
يا ما أقلّ مُلكها ... وما أجلّ خطرَهْ
قِف سائلِ النحلَ ... بأيِّ عَقْلِ دبّرَهْ؟
يُجِبكَ بالأخلاق وهي ... كالعقول جوهرَهْ
تُغني قوى الأخلاقِ ما ... تُغني القوى المفكّرَهْ
ويرفعُ الله بها ... مَن شاء حتى الحشرَهْ
أليس في مملكة النّـ ... ـحلِ لقوم تَبصرَهْ
مُلك بناهُ أهلهُ ... بهمّةٍ ومجدَرَهْ(٣)
لو التمستَ فيه بطّا ... ل الديدن لم تَرَهْ
تُقْتَلُ أو تنفى الكسا ... لى فيه غيرَ مُنذَرَهْ
تحكم فيه قيصرهْ ... في قومها مُوَقّرَهْ

(١) التّغير: ترديد الصّوت بالقراءة.
(٢) الاختلاج: الاضطراب.
(٣) يقال: هذا الأمر مجدرة ذاك أي: جديراً به.

مِنَ الرِّجالِ وقُيو ... دِ حُكمهم مُحرّرَهْ
لا تورثُ القوم ولو ... كانوا البنينَ البَرَرَهْ
الملكُ للإناثِ في الدّ ... ستورِ لا لِلذَّكرَهْ[١]
نيّرة تَنزلُ عن ... هالَتِها لنَيّرَهْ
فهل تُرى تخشى الطّما ... عَ في الرجال والشّرَهْ[٢]
فطالما تَلاعَبوا ... بالمُهَج المصيّرَهْ
وعبروا غفْلتها ... إلى الظُّهور قنطرَهْ
وفي الرِّجال كرمُ الضعـ ... ف ولُؤمُ المقدِرَهْ
وفتنة الرأي وما ... وراءها من أثرَهْ
أُنثى ولكن في جنا ... حَيها لَبَاةٌ مُخدرَهْ[٣]
ذائدة عن حَوْضِها ... طاردة مَن كَدّرَهْ
تقلّدَت إبرَتها ... وادّرَعتْ بالحَبَرَهْ
كأنها تُرْكِيّةٌ ... قد رابطت بأنقرَهْ
كأنها جاندرْكُ في ... كتيبةٍ مُعَسكرَهْ
تلقى المُغيرَ بالجُنو ... دِ الخُشُنِ المُنَمّرَهْ
السّابغين شِكّةً[٤] ... البالغين جَسَرَهْ[٥]
قد نثَرتهم جُعْبة ... ونَفَضَتْهم مِئبَرَهْ[٦]
مَن يَبْنِ مُلكاً أو يَذُد ... فبالقنا المُجرّرَهْ

(١) الذكرة: الذكور.
(٢) الطماع: الطمع.
(٣) اللباة: اللبوءة وهي أنثى الأسد.
(٤) الشّكة: السّلاح.
(٥) الجسرة: الجسارة.
(٦) المئبرة: بيت الإبر.

إن الأمـــــورَ هِـــــمّـــــةٌ لـــيـــس الأمـــور ثَـــرثَـــرَهْ
مـــا الـــمـــلـــك إلا فـــي ذُرا الألـــويـــةِ الـمُـنـتـشـرَهْ
عَـــريـــنـــهُ مُـــذْ كـــان لا يـــحـــمـــيـــه إلا قَـسْـوَرَهْ[1]
ربُّ الـــنُّـــيـــوبِ الـــزُّرقِ والـــمـــخـــالِـــبِ الـــمـــذكَّـــرَهْ
مـــالـــكِـــةٌ عـــامـــلـــةٌ مـــصْـــلـــحـــةٌ مُـــعَـــمّـــرَهْ
الـــمـــال فـــي أتـــبـــاعـــهـــا لا تـــســـتـــبـــيـــنُ أثَـــرَهْ
لا يـــعـــرفـــون بـــيـــنـــهـــم أصـــلًا لـــه مـــن ثـــمـــرَهْ
لـــو عَـــرفـــوهُ عَـــرفـــوا مـــن الـــبـــلاء أكـــثـــرَهْ
واتَّـــخَـــذوا نـــقـــابـــةً لأمـــرهـــم مُـــســـيّـــرَهْ
ســـبـــحـــانَ مـــن نَـــزَّهَ عـــنـــ ـه مُـــلْـــكَـــهُـــم وطـــهّـــرَهْ
وســـاســـهُ بـــحُـــرّةٍ عـــامـــلـــةٍ مُـــسَـــخّـــرَهْ
صـــاعـــدةٍ فـــي مَـــعْـــمَـــل مـــن مـــعـــمـــل مُـــنـــحـــدرَهْ
واردة دَســـكـــرةً صـــادرة عـــن دســـكـــرَهْ[2]
بـــاكـــرة تـــســـتـــنـــهـــضُ الـــعـــ صـــائـــبَ الـــمُـــبْـــكِـــرَهْ[3]
الـــســـامـــعـــيـــنَ الـــطـــائـــعـــيـــنَ الـــمـــحـــســـنـــيـــنَ الـــمـــهـــرَهْ
مـــن كـــل مَـــنْ خـــطَّ الـــبـــنـــا ء أو أقـــامَ أســـطـــرَهْ
أو شـــدَّ أصـــل عـــقـــدِه أو ســـدَّه أو قـــوَّرَهْ[4]
أو طـــاف بـــالـــمـــاءِ عـــلـــى جُـــدرانـــه الـــمُـــجَـــدّرَهْ[5]
وتـــذهـــبُ الـــنـــحـــلُ خـــفـــا فـــاً وتـــجـــيء مُـــوقـــرَهْ

(١) القسورة: الأسد.
(٢) الدّسكرة: القرية.
(٣) العصائب: جمع عصابة.
(٤) قور الشّيء: قطعه من وسطه خرقاً مستديراً.
(٥) المجدرة: أي: المشيدة.

جوالبَ الشمع من الخما ثلِ الممنوَّرَهْ
حوالب الماذيِّ[١] من زهر الرِّياض الشيِّرَهْ[٢]
مشدودةٌ جيوبُها على الجنى مُزَرَّرَهْ
وكلُّ خرطوم أدا ةُ العسل المقطّرَهْ
وكلُّ أنف قانئٍ فيه من الشَّهْدِ بُرَهْ[٣]
حتى إذا جاءَتْ به جاست خلال الأدورَهْ[٤]
وغيَّبتهُ كالسلا ف في الدِّنان المُخْضَرَهْ[٥]
فهل رأيت النحل عـ ن أمانة مقصِّرَهْ؟
ما اقترضت من بقلة أو استعارت زَهرَهْ
أدَّت إلى النّاس به كُرَةً بكُرَهْ

وقال أيضاً أحمد شوقي بك يصف مقبرة توت عنخ آمون وما حوته:

[الوافر]

قفي يا أخت يُوشع خبرينا أحاديث القُرون الغابرينا[٦]
وقُصِّي من مصارعهم علينا ومن دُوَلاتهم ما تَعْلَمِينا[٧]

(١) الماذي: العسل.
(٢) الشّيرة: الحسان.
(٣) البره: الحلقة في الأنف.
(٤) الأدورة: الدّيار يراد بها الخلايا هنا.
(٥) السّلاف: أفضل الخمر.
(٦) الخطاب للشمس، وقد أشار إلى قصة يوشع بن نون فتى موسى عليهما السّلام واستيقافه الشّمس، فقد روي أن يوشع قاتل الجبارين يوم الجمعة فلما أدبرت الشّمس للغروب خاف أن تغيب قبل فراغه منهم، ويدخل السّبت ولا يحل له قتالهم فيه، فدعا الله تعالى فرد له الشّمس حتى فرغ من قتالهم، وقد لمح ابن مطروح إلى هذه القصة بقوله: **[الطويل]**

وما أنت إلا أنس المليحة إذا بدت دجى فأضاء الأفق من كل موضع
فحدثت نفسي أنها الشّمس أشرقت وأنيَ قد أوتيت آية يوشع

القرون الغابرين: الأجيال الماضية.
(٧) قصي: حدثي، ومنه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣] مصارعهم: مهالكهم. دولاتهم: جمع دولة بضم ففتح وهي الدّاهية يقال: «جاف الدّهر بدولاته» أي: بدواهيه.

فمثلكِ مَن روى الأخبار طُرّاً ومنْ نسبَ القبائلَ أجمَعينا[١]
نرى لكِ في الماءِ خضيبَ قرن ولا نحصي على الأرضِ الطعينا[٢]
مشيتِ على الشبابِ شواظَ نار ودُرْتِ على المشيبِ رَحًى طحونا[٣]
تعينين الموالد والمنايا وتبنينَ الحياة وتهدمينا[٤]
فيا لك هرّة أكَلَتْ بَنيها وما ولدوا وتنتظر الجنينا[٥]
أأُمَّ المالكينَ بَني أمونٍ لِيَهْنِكِ أنهم نزَعوا أمونا[٦]
ولدتِ له المآمين الدّواهي ولم تلدي له قط الأمينا[٧]
فكانوا الشهبَ حين الأرضُ ليلٌ وحين النّاس جدُّ مضلَّلينا
مشت بمنارهم في الأرض روما ومن أنوراهم قبست أثينا[٨]
ملوكُ الدَّهر بالوادي أقاموا على وادي الملوك محجَّبينا[٩]
فرُبَّ مُصَفَّدٍ منهم وكانت تساقُ له الملوكُ مُصَفَّدينا[١٠]

(١) طراً: جميعاً دون أن تترك منها شيئاً، نسب القبائل: ذكر أنسابهم.
(٢) الخضاب: الملون بالخضاب، القرن: حاجب الشّمس. الطعين: المطعون.
(٣) الشّواظ بالضم والكسر: دخان النّار.
(٤) المنايا: جمع منيّة وهي الموت.
(٥) الهرة: القطة، ويقال في المثل «أعق من الهرة» لأنها تأكل أولادها، الجنين: الولد ما دام في الرّحم.
(٦) نزع أباه: أشبهه، وفيه إشارة إلى أم «أمون». واختلف المؤرخون هل كانت أمه زوجة شرعيّة لأبيه أو إحدى سراريه؟ وكان عادتهم أن لا يتولى الملك بواسطة زواجه بابنة الملك خو أتون.
(٧) أشار للخليفتين، الأمين والمأمون، وقد اختار المأمون لأنه كان أفضل بني العباس حزماً وعلماً ورأياً ودهاء وهيبة شجاعة، أي: ولدت له أبناء صاروا ملوكاً وكانت صفاتهم في الملك كالصّفات التي عرفناها في المأمون.
(٨) روما: عاصمة إيطاليا، قبست: أخذت، أثينا: عاصمة اليونان، وفيه إشارة إلى ما أخذته الأمم الغابرة عن المصريين من العلوم والحضارة.
(٩) وادي الملوك: هو الشّاطئ الغربي للنيل بالأقصر على مسيرة نصف ساعة تقريباً، وهو هضاب صلبة بها مقابر الملوك فراعنة مصر من الأسرة الثامنة وما بعدها، وقد كانوا يبالغون في العناية بها وإبقائها إلى حد يفوق الوصف.
(١٠) مصفدين: مقيدين. يصف فراعنة مصر في مقرهم الأخير، وهو مقام يتساوى فيه الملوك والسّوقة.

تقيد في التراب بغير قيد ... وحلَّ على جوانبه رَهينا
تعالى الله، كان السّحر فيهم ... أليسوا للحجارة منطقينا[١]
عدَوْا يبنون ما يبقى وراحوا ... وراء الآبداتِ مخلَّدينا
إذا عمدوا لمأثرَة أعدوا ... لها الإتقانَ والخلق المتينا
وليس الخلدُ مرْتبة تُلقَّى ... وتؤخذُ من شفاهِ الجاهلينا
ولكنْ منتهى هِمَمٍ كبارٍ ... إذا ذهبتْ مصادرُها بقينا
وسرّ العبقريّة حين يسري ... فينتظمُ الصَنائعَ والفنونا
وآثارُ الرجال إذا تناهتْ ... إلى التاريخ خير الحاكمينا
وأخذُكَ من فم الدّنيا ثناء ... وتركُكَ في مَسامعها طنينا[٢]
فغَالي في بنيك الصِّيدَ غالي ... فقد حُبَّ العلوُّ إلى بنينا[٣]
شبابٌ قُنَّعٌ لا خيرَ فيهم ... وبورِكَ في الشّباب الطامحينا[٤]
فناجيهم بعرش كان صنواً ... لعرشِك في شبيبتهِ سَنينا[٥]
وكان العزُّ حليتَه وكانتْ ... قوائمهُ الكتائب والسفينا
وتاجٌ من فرائده ابنُ سيتي ... ومن خَرزاته خوفو ومينا[٦]

(١) منطقين: أليسوا هم الذين أنطقوا الحجارة؟ ويريد أنهم أنشؤوا من الأبنية ما يدل على عظمة نشأتهم دلالة النّطق على معناه، وأشهر هذه الأبنية الهرمان القائمان بجانب الجيزة وهما من أعجب ما بنى البناة، وفيهما دليل على أن المصريين القدماء كانوا أعلم الأمم القاطبة بفن العمارة وهندستها وقد توالى الدّهر عليهما فلم ينل منهما من حوادث وعصف الرّياح وهطل السّحاب.
(٢) الطنين: صوت الذباب والطست والنّاقوس ونحو ذلك.
(٣) الصّيد: جمع أصيد وهو الرّجل يرفع رأسه كبراً وعجباً ولا يلتفت من زهوه يميناً وشمالاً. فقد حب: بضم الحاء أي: فقد حب.
(٤) قُنَّع: أي: قانعون لا يطلبون شيئاً وراء ما بلغوا، الطامحون: المتفانون في طلب المعالي.
(٥) الصّنو: الأخ الشّقيق والابن، السّنين بفتح السّين: من يكون من سنك.
(٦) ابن سيتي: هو رمسيس الثاني المعروف بسوزستريس ويلقب بالأعظم لأنه كان أعظم ملوك مصر سلطة وقوة، وطالت مدة حكمه وكثرت فيها الآثار المصريّة وتزايدت العمارات حتى لا يكاد يوجد بوادي النّيل أثر من الآثار القديمة والعمائر المشهورة إلا عليه اسمه ورسمه وولي الملك صغيراً في حياة والده، وقد تربى على الشّجاعة والحماسة وأراد أبوه أن يعلمه اقتحام

عــلا خــدّاً بــه صــعــر وأنــفــاً ... تــرفّــع فــي الــحــوادث أن يــديــنــا[١]
ولــسـتُ بـقـائـل ظـلـمـوا وجـاروا ... عـلـى الأجـراء أو جـلـدوا الـقـطـيـنـا[٢]
فـإنـا لـم نـوَقَّ الـنّـقـص حـتـى ... نـطـالـبَ بـالـكـمـال الأوّلـيـنـا[٣]
ومـا الـبـسـتـيـلُ إلا بـنـت أمـس ... وكـم أكـلَ الـحـديـدُ بـهـا سـجـيـنـا[٤]
ورُبَّــةَ بــيــعــةٍ عــزّتْ وطــالَــتْ ... بـنـاهـا الـنـاسُ أمْـسِ مُـسَـخَّـريـنـا[٥]
مُـشَـيَّـدةٍ لـشـافـي الـعُـمـي عـيـسـى ... وكـم سَـمـلَ الـقُـسـوس بـهـا عُـيـونـا[٦]
خـلـيـلـيَّ اهـبُـطـا الـوادي ومِـيـلا ... إلـى غُـرَف الـشّـمـوس الـغـارِبـيـنـا[٧]
وسـيـرا فـي مـحـاجـرهـم رُويْـداً ... وطـوفـا بـالـمـضـاجـع خـاشـعـيـنـا[٨]
وخُـصّـا بـالـعـمـارِ وبـالـتّـحـايـا ... رُفـات الـمـجـدِ مـن تـوتـنـخـمـيـنـا[٩]

= الأهوال فأرسله في جيش إلى بلاد الشّام وكان عمره عشر سنين فغزاها حتى أدخلها تحت الطاعة وله حروب عظيمة، ثم حارب في جملة فتوح وبخاصة في آسيا الشّماليّة وكان في أيامه (بتاءور) الشّاعر المصري وله فيه عدة مدائح يصف بها شجاعته وإقدامه.

(١) علا خداً أي: ذلك التّاج. والصّعر: أن يميل الرّجل بخده عن النّظر إلى النّاس تهاوناً أو كبراً.

(٢) القطين: الخدم، أي إنه لا يجاري بعض المؤرخين الذين يزعمون أن الملوك الفراعنة كانوا يظلمون الأجراء ويجلدون الخدم ليخروهم في إنشاء تلك الأبنية.

(٣) لم نوق النّقص أي: لم نحفظ منه.

(٤) البستيل: سجن يرجع تاريخ إنشائه إلى عهد شارل الخامس ملك فرنسا سنة ١٤٦٩. وفي هذا السّجن ذاق رجالات العلم والفضل في فرنسا أشد أنواع العذاب أيام الاستبداد. فكم هلك فيه فيلسوف عظيم وفني بين جدرانه المظلمة مصلح كبير، وكم من سياسي جنى عليه لخير بلاده فدخله حياً وفارقه ميتاً. وقد كره الفرنسيون (البستيل)، واسم (البستيل) وعدّوه مستقر الظلم ومعهد العسف والقسوة فلم يكادوا يثورون على حكومتهم حتى كان غرضهم (البستيل) فهدموه واقتلعوا أصوله وأخذت أحجاره فجعلها النّسوة عقوداً يتحلون بها في أمكنة اللآلئ إشارة إلى غلبة الأمة على الظلم وانتقامها من الظالمين.

(٥) البيعة بكسر الباء: معبد النّصارى. مسخرين: أي: كلفوا عملهم بلا أجرة.

(٦) سمل العين: فقأها بحديدة محماة وقلعها.

(٧) يريد بالشّموس الغاربينا ملوك الفراعنة، وغرفهم مدافنهم.

(٨) المحاجر: ما يحميه الملوك حول منازلهم ومنها محاجر أقيال اليمن وهي أحماؤهم أي ما كان يحميه كل منهم.

(٩) العمار: التّحيّة وهو أيضاً الرّيحان يزين به مجلس الشّراب.

وقبراً كان من حُسْنٍ وطيب يُضيءُ حجارةً ويَضوعُ طينا[١]
يُخال لرَوْعة التّاريخ قُدّت جنادلهُ العُلا من طور سينا[٢]
وكان نزيلُه بالمُلك يُدْعَى فصار يُلَقّبُ الكنزَ الثمينا[٣]
وقُوما هاتفَيْن به، ولكن كما كان الأوائلُ يَهتفُونا[٤]
فثَمَّ جلالةٌ قَرَّت ورامت على مَرِّ القرون الأربعينا[٥]
جلالُ المُلْكِ أيامٌ وتمضي ولا يَمضي جَلالُ الخالدينا[٦]
وقُولا للنزيل: قُدوم سَعدٍ وحيَّا الله مَقدَمك اليمينا[٧]
سلامٌ يوم وارَتْكَ المنايا بواديها ويوم ظَهرتَ فينا[٨]
خرجْتَ مَن القبور خُروج عيسى عليك جلالةٌ في العالمينا[٩]
يَجوبُ البرقُ باسمك كل سَهل ويَخترق البُخارُ به الحزونا[١٠]
تعالَ اليومَ خَبرنا أكانت نواكَ سِناتِ نَوْمٍ أم سنينا؟[١١]
وماذا جُبت من ظُلماتِ لَيلٍ بُعَيْد الصّبحِ يُنضي المدلِجينا[١٢]
وهلْ تبقى النُّفوسُ إذا أقامت هياكلُها وتَبلى إن بَلينا؟

---

(١) يضوع: يتحرك وينتشر، أي: كادت حجارته تضيء حسناً وكادت تنتشر رائحته الطيبة الزكيّة.
(٢) الرّوعة: المسحة من الجمال، الجنادل: جمع جندل وهو الحجارة، وطور سينا: هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى.
(٣) النّزيل: الضيف.
(٤) هاتفين به أي: الملك الذي هو نزيل القبر وليكن هتافكما كما كانوا يهتفون له أيام حياته.
(٥) فثم: فهناك الجلالة من عظم القدر، رامت: أقامت.
(٦) أي. إن الجلال الصّحيح ما خلد به في التّاريخ أما جلال الملك فلا بقاء له.
(٧) اليمين: المبارك وهو من اليمن.
(٨) وارتك: أخفتك.
(٩) خروج عيسى أي: كما خرج عيسى من القبر على قول النّصارى.
(١٠) يجوب: يقطع، والبرق: اسم منقول من معناه الأصلي (التّلغراف). الحزون: جمع حزن وهو ما غلظ من الأرض.
(١١) تعال اليوم . . . إلخ: الخطاب لتوت عنخ آمون. نواك: قصدك.
(١٢) ينضي: يهزل، المدلجون: الذين يسيرون من أوّل اللّيل.

obeikandl.com

وما تلك القبابُ وأينَ كانت ... وكيف أضلَّ حافرُها القُرونا؟(١)
مُمرَّدةَ البِناء تخالُ بُرجاً ... ببطنِ الأرض مَحطوطاً دفينا(٢)
تغطّى بالأثاث فكان قصراً ... وبالصوَرِ العِتاق فكان زُونا(٣)
حملتَ العرش فيه فهل تُرجّى ... وتأملُ دولة في الغابرينا؟(٤)
وهل تَلقى المُهَيْمنَ فوق عرش ... ويلقاه المَلا مُترَجلينا(٥)
وما بالُ الطّعام يكاد يقدى ... كما تركَتْه أيدي الصّانعينا(٦)
ولم تكُ أمس تصبرُ عنه يوماً ... فكيف صبرتَ أحقاباً مِئينا؟(٧)
لقد كان الذي حَذِرَ الأوالي ... وخاف بنو زمانك أن يكونا(٨)
يحبُّ المرءُ نبش أخيه حياً ... وينبشهُ ولو في الهالكينا
سُلِلتَ من الحفائر قبل يوم ... يسلُّ من التّراب الهامدينا(٩)
فإنْ تكُ عند بعثٍ فيه شكٌّ ... فإنَّ وراءه البعثَ اليقينا(١٠)
ولو لم يعصِموك لكان خيراً ... كفى بالموت مُعتصماً حصينا(١١)

(١) القباب: جمع قبة وهي ما ظهر من أبنية المقبرة الفخمة.
(٢) ممردة البناء: مملسه.
(٣) تغطى أي: هذا البناء تغطى... إلخ والأثاث: متاع البيت، والصّور: جمع صورة يريد بها الرّسوم التّي تحاكي صور الأشياء، الزون: الموضع تجمع فيه الأصنام.
(٤) في الغابرين: في الباقين وفي القرآن الكريم: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٢] ويكون أيضاً بمعنى الماضين فهو من الكلمات التي تستعمل للأضداد.
(٥) المهمين: من أسماء الله تعالى، المترجلون: الذين ينزلون عن ركائبهم ويمشون على أرجلهم.
(٦) ما بال الطعام: ما حاله، يقدي: من قدى الطعام أي: طاب طعمه ورائحته.
(٧) الأحقاب: جمع حقب بضم القاف وهو الدّهر، المئين: جمع مائة.
(٨) لقد كان أي: لقد حصل الذي حذر الأوالي، والأوالي جمع أوّل.
(٩) سللت: أخرجت منها برفق. الحفائر: جمع حفيرة وهي الحفرة، واليوم الذي يسل الهامدين من التّراب هو يوم القيامة
(١٠) فإن تك عند بعث... إلخ أي: فإن تكن الآن تشك في هذا البعث الذي خرجت به من قبرك لا محالة سيأتي البعث الذي لا تشك فيه وهو بعث القيامة.
(١١) يعصموك: يمنعوك من المكروه أي: لو أنهم تركوك فلم يتخذوا لك هذه العصمة لما أصابك مكروه؛ لأن الموت يمنع الأذى أن يصل، وجلاء هذا المعنى في البيت الثاني.

يُضَرُّ أخو الحياةِ وليس شيءٌ بضائره إذا صحب المنونا

وقال علي بن محمد القاضي التّنوخي المتوفّى سنة ٣٤٣هـ واصفاً مكتوباً:

[مجزوء الكامل]

وصحيفة ألفاظها في النظم كالدُّرِ النّثيرِ
جاءتْ إليّ كأنها التـ ـوفيق في كلّ الأمورِ
بأرَقّ من شكوَى وأحـ ـسَن من حياةٍ في سرورِ
لو قابلتْ أعمى لأصـ ـبح وهو ذو طرف بصيرِ
وكأنها أملٌ تحقّـ ـقَ بعد يأس في الصُّدُورِ
أو كالفقيد إذا أتَتْ بقدومه بُشرَى البشيرِ
أو كالمنام لساهِرٍ أو كالغنى عند الفقيرِ
أو كالشفَاءِ لمُدنِف أو كالأمان لمستجيرِ
وكأنما هِيَ من وصا ل أو شباب أو نشُورِ
لفظٌ كأسر معاند أو مثل إطلاق الأسيرِ
وكأنه إذ لاح من فوق المهارق والسطورِ
وردُ الخدود إذا انتقـ ـلتَ به على راح الثغورِ
غُرَرٌ غَدَتْ وكأنها من طلعة الظَّبي الغريرِ
من كلّ معنًى كالسلا مَةِ أو كتيسير العسيرِ

وقال أيضاً واصفاً الخط والكتابة والبلاغة:

[مجزوء الكامل]

خطٌّ وقرْطاس كأنـ ـهما السَّوالف والشُّعورُ
وبَدائعٌ تدعُ القلو بَ تكاد من طرَبٍ تطيرُ
في كلّ معنى كالغنى يحوِيه محتاجٌ فقيرُ
أو كالفكاك ينالـه من بعد ما يأسٍ أسيرُ
وكأنها الإقبال جا ءَ أو الشّفاءُ أو النُّشورُ

وكـــأنـــهـــا شـــرْخ الـــشّـــبـــا ب وعـيـشـه الـخـضـل الـنـضـيـرُ

وقال البحتري في الموضوع نفسه:

[الكامل]

وإذا دَجتْ أقـلامـه ثـم انـتـحـتْ برقتْ مصابيح الدُّجى في كُتْبِهْ
فـالـلـفـظ يـقـربُ فـهـمهُ فـي بُـعـده مـنّـا ويَـبـعـدُ نـيـلـه فـي قُـرْبِـهْ
فـكـأنـهـا والـسـمـع مـعـقـودٌ بـهـا شخص الحبيب بدا لعين مُحبِّهْ

وقال الوزير المهلبي المتوفى سنة ٣٥٢هـ في الموضوع نفسه:

[مجزوء الكامل]

وردَ الـكـتـاب مُـبـشّـراً نـفـسـي بـأنـواع الـسُّـرُورِ
وفـضـضـتُـه فـوَجـدتُـه لـيـلاً عـلـى صـفـحـات نـورِ
مـثـل الـسَّـوالـف والـخـدو د الـبـيـض زيـنَـتْ بـالـشـعـورِ
أنـزلـتُـه مـنّـي بـمـنـ زلـة الـقـلـوبِ مـن الـصـدُورِ

قال النّجم بن إسرائيل يصف الموز:

[الرّجز]

أنـعـتُـهُ مـوزاً شـهـيّ الـمـنـظـر، مُـتـحـكـم الـنُّـضـج، لـذيذَ الـمـخـبَـرِ
كـأنَّ تـحـت جِـلـده الـمـزعـفـر لـفّـاتِ زُبـد، عُـجـنـت بـسـكّـرِ

وقال البهاء زهير:

[الرّجز]

فـي رِيـحـه، ولـونـه، وطـعـمـه كـالـمـسـك، أو كـالـتِّـبـر أو كـالـضَّـرَبِ
وافـت بـه أطـبـاقـه مُـنـضّـداً كـأنـه مـكـاحِـل مـن ذهـبِ[1]

وقال آخر:

[مجزوء الكامل]

يَـحـكـي إذا قـشّـرتَـه أنـيـابَ أفـيـالٍ صـغـارِ

(١) المكاحل: أوعية الكحل جمع مكحلة بضم الميم والحاء.

ذو بـــاطـــنٍ مـــثـــل الإقـــا ح، وظـاهـر مـثـل الـبَـهـارِ[١]

وقال أحدهم يصف الكمثرى:

[مجزوء الوافر]

وكـــمـــثـــراءِ بـــســـتـــان شَـهـيّ الـطـعـم والـمـنـظـرْ
لـــه طـــعـــم إذا ذيـــق كـمـاءِ الـورد والـسـكـرْ

وقال آخر:

[الرّجز]

كـأنـه فـي شـكـلـه، ولـونـه، وطـعـمـه، قـوالـبٌ مـن سـكّـر

قال ابن المعتز في وصف التُّفاح:

[السّريع]

كـأنـمـا الـتـفـاح لـمـا بـدا يـرفُـل فـي أثـوابـه الـحُـمـرِ
شـهـدٌ بـمـاء الـورد، مـسـتـودَع فـي أكَـرٍ مـن جـامـد الـخـمـرِ[٢]
كـأنـنـا حـيـن نُـحـيّـا بـه نستنشق النَّدى من الجَمرِ[٣]

وقال شاعر يصف الخوخ:

[السّريع]

كـأنـمـا الـخـوخ عـلـى دَوحـه وقـد بـدا أحـمـرُه الـعَـنْـدَمِـي[٤]
بـنـادقٌ مـن ذهـب أصـفـر قـد خـضّـبـت أنـصـافـهـا بـالـدم

وقال آخر:

[الطّويل]

وَخـوخـةِ بـسـتـان ذكِـيّ نـسـيـمـهـا من المسك والكافور قد كسَبت نَشرا[٥]
مُـلـبَّـسـة ثـوبـاً، مـن الـتّـبْـر نـصـفـه مَـصـوغٌ، وبـاقـيـه كـيـاقـوتـة حَـمـرا

(١) الأقاح: جمع أقحوان وهو نبت طيب الرّيح حواليه ورق أبيض ووسطه أصفر. والبهار: نبت أصفر، طيب الرّيح.
(٢) الأكر: جمع أكرة وهي لغة في الكرة.
(٣) النّدى: طيب. (٤) العندم: صبغ أحمر. (٥) نشر: رائحة طيبة.

obeikandi.com

وقال شاعر يصف المشمش:

[البسيط]

ومِشْمِشٍ جاءنا من أعجب العجائب أشهى إليّ من اللَّذات والطربِ
كأنَّه وهبوبُ الريح يَنشره بنادقٌ خُرِطت من خالص الذهبِ

وقال آخر:

[الكامل]

وكأنما الأفلاك من طربٍ به نَثرت كواكبَها على الأغصان

وقال محيي الدّين بن عبد الظّاهر:

[الخفيف]

حبذا مِشمش على الدَّوح أضحى ذا شُعاع يستوقف الأبصارا
شجرٌ أخضر لنا جعل اللَّـ ـه تعالى منهُ كما قال نارا(١)

وقال شاعر يصف الرّمان:

[الكامل]

رُمانة صبَغ الزمان أديمَها فتبسَّمت في ناضر الأغصانِ
فكأنما هي حُقة من عسجد قد أُودِعت خرزاً من المرجانِ

وقال آخر:

[المنسرح]

كأنها حُقة، فإن فُتحت فصُرّة من فصوص ياقوتِ

وقال آخر:

[الطويل]

حِقاق كأمثال العقيق تضمَّنت فصوص بَلَخش، في غِشاء حرير(٢)

وقال شاعر:

[الطويل]

إذا فُضَّ عنه قشرهُ فكأنه فصوص عقيق، في حِقاق من الدُّرِّ

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ [يس: ٨٠]
(٢) البلخش: حجر معدنه بنواحي بلخشان المتاخمة للتركستان وأحمره يشبه الياقوت.

فـدُرٌّ، ولـكـن لـم يـدنّـسـهُ عـارض وماء، ولكن في مخازنَ من جَمْرِ

وقال شاعر يصف النّخيل:

[الطويل]

كأن النّخيل الباسقاتِ وقد بدت لناظرها حسناً قِبابُ زبرجد[١]
وقد عُلّقتْ من حولها زينةً لها قناديلُ ياقوتٍ بأمراس عسجد[٢]

وقال السّري الرّفاء:

[البسيط]

فالنّخل من باسق فيه وباسقةٍ يضاحك الطلعُ في قنْوانه الرُّطبا[٣]
أضحت شماريخه في النحر مُطلِعةً إما ثُريًّا، وإما مِعصَماً خُضِبا[٤]
تُريك في الظل عِقياناً. فإن نظرتْ شمسُ النهار إليها خِلتَها لهَبا[٥]

وقال آخر في البلح الأخضر:

[المنسرح]

أما ترى النخلَ قد نثّرت بلحاً جاء بشيراً بدولة الرطبِ
مكاحلاً من زُمرد خُرطت، مقمَّعاتِ الرؤوس بالذَّهبِ[٦]

وقال أحدهم في وصف البلح الأحمر:

[مخلّع البسيط]

أنظر إلى البُسْر إذ تبدّى ولونه قد حكى الشَّقيقا[٧]
كأنما خُوصه عليه زبرجد مُثمرٌ عقيقا

---

(١) بسق النّخل: طال. (٢) الأمراس: الحبال.
(٣) الطلع: ما يطلع من النّخلة ثم يصير تمراً إن كانت أنثى، فإن كانت ذكراً لم يصر تمراً بل يؤكل طرياً، ويترك على النّخل أياماً حتى يصير فيه شيء أبيض مثل الدّقيق، فيلقح به الأنثى.
والقنوان: جمع قنو وهو من الثمر كالعنقود من العنب.
(٤) المعصم: موضع السّوار أو اليد وهو المراد هنا.
(٥) العقبان: الذهب الخالص.
(٦) مقمعة: ذات قمع، وهو ما التزق بأعلى التّمرة.
(٧) البسر: البلح قبل أن يرطب فإذا انتهى نضجه فرطب. والشّقيق: نبت أحمر فيه بقع سوداء.

وقال أحدهم في وصف البطيخ:

[السّريع]

رأيتها في كف جَلاّبها ... وقد بدت في غاية الحُسنِ
كسَلّة خضراء مختومة ... على الفصوص الحُمر في القطنِ

وقال أبو طالب المأموني:

[الطويل]

ومُبْيضَّةٍ فيها طرائق خضرة ... كما اخضرّ مجرى السّيل من صيّب المُزن(١)
كحُقّة عاج ضُبّبت بزبرجد ... حوتْ قِطعَ الياقوت في عِصب القطنِ(٢)

وقال في بطيخة صفراء:

[الطويل]

وبطيخة مِسْكِيَّةٍ عسليَّةٍ ... لها ثوبُ دِيباج وعَرفُ مُدامِ(٣)
إذا فُصّلت للأكل كانت أهلَّة ... وإن لم تفصَّلْ فهي بدرُ تِمامِ

وقال ابن التعاويذي:

[مجزوء الرّمل]

ربّ صفراءَ أتتنا ... وهي في أحسن حُلّهْ
تعتريها صفرةٌ في ... لونها، من غير عِلّهْ
حلوةُ الريق، حلال ... دَمُها في كل مِلّهْ
نصفُها بدرٌ، وإن ... قسّمتَها فهي أهلّهْ

وقال آخر:

[الطويل]

ألا فانظروا البطيخ وهو مُشقَّقٌ ... وقد حاز في التَّشقيق كل أنيقِ
تَرَوْهُ كبلّورٍ بدا في زمرُّدٍ ... مركَّبةٍ فيه فصوصُ عقيقِ

---

(١) الصّيب: المطر. والمزن، السّحاب أو أبيضه.
(٢) التّضبيب: شدة القبض على الشّيء لئلا ينفلت، أي: كأنها محاطة بخيوط من الزبرجد تمسكها. والعصب: جمع عصبة وهو ما يعصب به. عصب من القطن: صرر من القطن.
(٣) العرف: الرّيح.

قال ابن المعتز يصف العنب:

[الطويل]

كأن عناقيد الكرومِ وظلَّها ... كواكب درّ، في سماء زبرجدِ

وقال السّري الرّفاء:

[البسيط]

والكرْمُ مشتبك الأفنانِ، تُوبِعنا ... أجناسه في تساوي شِرْبها عجبا(١)

فكَرْمة قطَرت أغصانها سَبَجاً، ... وكرمة قطرت أغصانها ذهبا(٢)

كأنما الورق المخضرُّ دونهما ... غيرانُ، يكوهما من سُندس حُجُبا

وقال آخر:

[مجزوء الرّجز]

كأنما عنقودها ... زنجٌ، جنوا في سَرِقَهْ

فأصبحت رؤوسهم ... على الذُّرى مُعلَّقَهْ

وقال شاعر يصف قصب السّكر:

[مخلّع البسيط]

تحكيه سُمر القنا ولكن ... تراه في جسمه طلاوَهْ(٣)

وكلّما زدته عذاباً ... زادك من ريقه حلاوَهْ

وقال آخر يصف النّبق:

[المجتث]

وسِدرَة كل يوم ... من حسنها في فنونِ(٤)

كأنّما النبْق فيها ... وقد بدا للعيونِ

جلاجلٌ من نضار ... قد عُلقت في الغصونِ

قال ابن المعتز يصف الجزر:

[مجزوء الكامل]

أُنظر إلى الجزر الذي ... يحكي لنا لهب الحريقِ

---

(١) الأفنان: الأغصان. الشّرب: الماء.

(٢) السّبج: خرز أسود.

(٣) الطلاوة مثلثة الطاء: الحسن والبهجة.

(٤) السّدرة: شجرة النّبق.

كـمِـذَبَّـةٍ مـن سـنـدسٍ ولـهـا نِـصـاب مـن عـقـيـقِ

وقال ابن رافع القيرواني:

[الكامل]

انـظـر إلـى الـجـزر الـبـديـع كـأنـه فـي حـسـنـه قـضـبٌ مـن الـمـرجـانِ
أوراقـه كـزبـرجـد فـي لـونـهـا وقـلـوبـه صـيـغـت مـن الـعِـقـيـانِ

وقال ظافر الحداد يصف اللوز الأخضر:

[مجزوء الرّجز]

كـأنـمـا قـلـوبُـه مـن تَـوأم ومُـفـردِ
جـواهـرٌ لـكـنَّـهـا الْـ أصـداف مـن زبـرجـدِ

وقال ابن المعتز يصف التّين:

[الكامل]

أنعِمْ بتين طاب طعماً، واكتسى حسناً، وقارب منظراً من مَخبرِ
في بَرد ثلج، في نقا تِبْرٍ، وفي ريح العبير، وطيب طعم السكرِ[1]
يحكي إذا ما صُفّ في أطباقه خِيماً، ضُربن من الحرير الأحمرِ

وقال شاعر في وصف الفستق:

[البسيط]

والقلب ما بين قشريه يلوح لنا كألسُنِ الطير من بين المناقيرِ

وقال آخر:

[الطويل]

زبرجدة خضراء وسط حريرة بحُقة عاج في غِلاف أديمِ[2]

وقال آخر:

[الطويل]

زَبَرجَدة ملفوفة في حريرة مضَمَّنَة دُرًّا مُغَشًّى بياقوتِ

---

(١) العبير: أخلاط من الطيب. ونقا: مقصور نقاء.
(٢) الأديم: الجلد أو أحمره، وهو المراد هنا.

قال ابن المعتز يصف النّارنج:

[الكامل]

وكأنما النارَنج في أغصانه ... من خالص الذهب الذي لم يُخْلَطِ[1]
كرة رماها الصَّولجان إلى الهوَا ... فتعلَّقت في جوّه لم تسقطِ

وقال:

[الطويل]

وأشجار نارَنج كأن ثمارها ... حقاق عقيق قد مُلئن من الدر

وقال آخر:

[البسيط]

انظر إلى منظر تلهيك بهجته ... بمثله في البرايا يُضْرَب المثلُ
نار تلوح على الأغصان في شجر ... لا النار تُطفا، ولا الأغصان تَشتعلُ

وقال أبو الحسن الضّقلي:

[الطويل]

إذا ميَّلَتْها الريح مالت كأكرة ... بدت ذهباً في صولجان زبرجدِ

وقال ابن المعتز يصف الليمون:

[مجزوء الرّجز]

يا حبذا لَيمونةٌ ... تُحدثُ للنفس الطّربْ
كأنها كافورة ... لها غشاء من ذَهَبْ

وجاء في وصف القلم:

قال ابن المعتز: القلم مجهز لجيوش الكلام، يخدم الإرادة، ولا يمل استزادة، يسكت واقفاً، وينطق سائراً، على أرض بياضها مظلم، وسوادها مضيء، وكأنه يقبّل بساط سلطان، أو يفتح نوّار[2] بستان.

(١) النّارنج نوعان: أحدهما حامض معروف، والآخر حلو وهو «البرتقالي».
(٢) النّوّار: الزهر أو الأبيض منه.

وقال علي بن عبيد: أصمُّ يسمع النَّجوى[١]، أعيا من باقل، وأبلغ من سَحبان وائل، يجهل الشّاهد، ويخبر الغائب، ويجعل الكتب بين الإخوان ألسناً ناطقة، وأعيناً لاحظة، وربما ضمّنها من ودائع القلوب مالا تبوح به الألسن عند المشاهدة.

ومن كلام أبي حفص بن بُرد الأندلسي: ما أعجب شأن القلم يشرب ظلمة، ويلفظ نوراً! قد يكون قلم الكاتب أمضى من شباة[٢] المحارب. القلم سهم ينقذ المقاتل، وشفرة[٣] تطيح بها المفاصل.

وقال محمود بن أحمد الأصبهاني:

[السّريع]

أخرسُ يُنبيك بإطراقه ... عن كل ما شِئت من الأمرِ[٤]
يُذري على قرطاسه دمعةً ... يُبدي بها السرَّ وما يدري[٥]
كعاشق أخفى هواه وقد ... نمَّت عليه عَبرةٌ تجري
تُبصِرُهُ في كل أحواله ... عُريانَ يكسو النّاس أو يُعْرِي
يُرى أسيراً في داوةٍ وقد ... أطلق أقواماً من الأسرِ
أخرقُ، لو لم تبرِهِ لم يكن ... يرشق أقواماً وما يَبري[٦]
كالبحر إذ يجري، وكالليل إذ ... يَغشى، وكالصارمِ إذ يفري

وقال أحمد بن عبد ربه:

[المنسرح]

يخاطب الغائبَ البعيدَ بما ... يخاطب الشاهدَ الذي حضرا
شَخْتٌ ضئيلٌ، لفعله خطرٌ ... أعظِمْ به في مُلِمّة خطرا[٧]

---

(١) النّجوى: السّر.
(٢) الشّباة: حد كل شيء.
(٣) شفرة: سكين.
(٤) أطرق: أرخى عينيه ينظر إلى الأرض.
(٥) يذري: يصب.
(٦) أخرق: أحمق. ويبري: يقطع؛ وكذا يفري.
(٧) شخت: ضامر دقيق، وكذا مهفهف.

تـمـجّ فَـكَّـاهُ رِيـقـةً صـغُـرتْ وَخطبُها في القلوب قد كَبُرا
يُـواقـع الـنـفـسَ مـنـه مـا حـذِرتْ وربـمـا جـنـبـتْ بـه الـحـذَرا
مُـهَـفـهـفٌ تـزدهـي بـه صُـحـفٌ كـأنـمـا حُـلّـيَـتْ بِـهِ دُرَرا

ولابن المعتز في قلم الوزير القاسم بن عبيد الله:

[الخفيف]

قـلـمٌ مـا أراه، أم فَـلَـكٌ يَـجْـ رِي بـمـا شـاء «قـاسـم» ويـسـيـرُ؟
خـاشـع فـي يـديـه يَـلْـثِـم قـرطـا سـاً كـمـا قـبَّـل الـبـسـاط شـكـورُ
ولطيف المعنى، جليل، نحيف، وكـبـيـر الأفـعـال وهـو صـغـيـرُ!
كـم منايا، وكـم عطايا، وكـم حتـ ـف وعـيـش تـضـم تـلـك الـسـطـورُ
نـقَـشـت بـالـدُّجـى نـهـاراً، فـمـا أد ري أخـطٌّ فـيـهـن أم تـصـويـرُ؟

وقال أبو تمام في قلم محمد بن عبد الملك الزيات:

[الطويل]

لـك الـقـلـم الأعـلـى الـذي بـشَـبَـاتِـهِ تُصابُ من الأمر الكُلى والمفاصلُ
لُـعـابُ الأفـاعـي الـقـاتـلاتِ لـعـابُـه وأرْيُ الجنى اشتارته أيدٍ عوامل[1]
لـه ريـقـةٌ طـلّ، ولـكـنَّ وقْـعـهـا بـآثـاره فـي الـشّـرق والـغـرب وابلُ[2]
فـصـيـح إذا اسـتـنـطـقـتـه وهـو راكـب وأعـجـم إن خـاطـبـتـه وهـو راجـلُ[3]
إذا ما امتطى الخمسَ اللّطافَ وأفرغت عليه شِعابُ الفكر وهي حَوافلُ[4]
أطـاعـتـه أطـراف الـقـنـا، وتـقَـوَّضَـت لـنَـجـواه تـقـويـضَ الـخِـيـامِ الـجـحـافـلُ
إذا اسـتـغـزر الـذهـنَ الـجـليَّ وأقـبـلـت أعـاليـه فـي الـقـرطـاس وهـي أسـافـلُ[5]

(١) الأري: العسل. اشتاره: اجتناه. العوامل: جمع عاملة. أي: تشتار العسل وتجمعه.
(٢) الطل: أخف المطر. الوابل: المطر الشّديد الضخم القطر.
(٣) أعجم: لا يبين كلامه. راجل: واقف.
(٤) الشّعاب: جمع شعبة، وهي ما عظم من سواقي الأودية والمسيل في الرّمل. حوافل: ملأى.
(٥) استغزره: طلب ما فيه من مادة غزيرة.

رأيتَ جليلاً شأنُهُ وهو مُرهَف ضَناً وسميناً خطبهُ وهو ناحلُ[١]

وقال ابن الرّومي:

[البسيط]

إن يخدُمِ القلمَ السيفُ الذي خضعت له الرقاب، ودانت خوفَه الأممُ
فالموت ـ والموت لا شيءٌ يغالبه ـ ما زال يتبعُ ما يجري به القلمُ
كذا قضى الله للأقلام مذ بُرِيت أن السيوف لها مذ أرهِفَتْ خَدَمُ

وقال المتنبي:

[الطويل]

نحيف الشوَى يعدو على أمّ رأسه ويَحفَى فيقوَى عَدْوُه حين يقطعُ[٢]
يمجّ ظلاماً في نهارٍ لسانُه ويَفهم عمن قال ما ليس يسمعُ

وقال ابن نباتة السّعدي:

[الكامل]

يَرنو إلى الأفكارِ غيرَ ملاحظ ويخاطب القرطاسَ غيرَ محابي
ويعلِّم الآدابَ أفهام الورى وفؤادُه صِفرٌ من الآدابِ

وقال مهيار الدّيلمي في وصف الدّواة والأقلام:

[الطويل]

وأمّ بنينَ استبطنَتهم، فصدرُها غَصيصٌ بهم عند الحِضان كَظيمُ
يعُقُّونها بالضّغط، وهي عليهمُ عَطوفٌ بدرَّات الرضاع رؤومُ[٣]
يخالُ الأفاعي الرُّقْشَ ما ضَمَّ منهمُ حشاها، وهم فيها أخ وَحميمُ[٤]
فمَن ذا لسان مفصح وهو أخرس، ومن بائح بالسرّ وهو كتومُ

(١) مرهف: دقيق مرقق. ضني: مرض مرضاً ألزمه الفراش حتى أشرف على الموت.
(٢) الشّوى: الأطراف وجلدة الرّأس.
(٣) الدّر: اللبن، رؤوم: عطوف.
(٤) الرّقش: جمع رقشاء وهي الحيّة المنقطة بسواد وبياض. والحميم: القريب.

وقال أبو الفتح البستي:

[الطويل]

إذا أقسم الأبطال يوماً بسيفهم وعدُّوه مما يُكسب المجد والكرمْ
كفى قلم الكتاب عزًّا ورفعة مدى الدهر أن الله أقسم بالقلَمْ

وقال أعرابي من بني الحرث بن كعب يصف الشّمس:

[الطويل]

مُخبّأة أما إذا الليل جنَّها فتخفى، وأما بالنهار فتظهرُ[1]
إذا انشقّ عنها ساطع الفجر، وانجلى دُجَى الليل، وانجاب الحجاب المستّرُ[2]
وألبس عرض الأرض لوناً كأنه على الأفق الشّرقي ثوبٌ مُعصفرُ
تحلّت، وفيها حين يبدو شعاعها ولم يجْلُ للعين البصيرة مَنظَرُ
بلونٍ، كدِرع الزعفران يشوبُه شُعاع تلألأ، فهو أبيض أصفرُ
إلى أن علت وابيضَّ منها اصفرارها وجالت كما جال المهيج المهَّرُ[3]
وجلّلت الآفاق ضوءاً يُنيرها فخرَّ لها صدر الضحا يتعرُ
ترى الظلَ يُطوى حين تعلو، وتارة تراه إذا مالت إلى الأرض يُنْشرُ
وتَدنَفُ حتى ما يكاد شعاعها يَبين إذا غابت لمن يتبصرُ[4]
كما بدأت إذ أشرقت في مغيبها تعود، كما عاد الكبير المعمَّرُ
فأفْنت قروناً، وهي في ذاك لم تزل تموت وتحيا كل يوم وتُنشرُ[5]

وقال الطغرائي يصف طلوع الشّمس وغروب البدر:

[الكامل]

وكأنما الشمس المنيرة إذ بَدَت والبدر يجنح للغروب وما غرَبْ
متحاربان: لِذا مِجَنٌّ صاغهُ من فضَّة، ولذا مِجَنٌّ من ذَهَبْ

---

(١) جنها: سترها.
(٢) انجاب: انكشف.
(٣) المهيج: المفزع.
(٤) دنفت الشّمس: دنت للغروب واصفرت.
(٥) تنشر: تحيا.

وقال ابن خفاجة الأندلسي يصف غروبها في نهر:

[المتقارب]

وقد ولَّت الشّمس مُحْتَثَّةً إلى الغرب ترنو بطرف كحيلِ[١]
كأن سَناها على نهره بقايا نَجِيع بسيف صقيلِ[٢]

وقال ابن طاهر الكرخي:

[المنسرح]

أما ترى الأفق كيف قد ضرب الـ غَيْمُ عليه من مُزنة قُبَبا
وحاجب الشمس من رَفَارِفها يُضرم فيها بنوره لهبا[٣]
كأنه فضَّةٌ مطرَّقة أطرافها قد تَطَوَّسَت ذهبا[٤]

وقال ابن مكي:

[الوافر]

كأن الشمس إذ غربت غريق هوى في البحر، أو وافَى مغاصا
فأتبعها الهلال على غروب بزورقه، يريد لها خلاصا

وقال عبد العزيز القرطبي:

[الكامل]

إني أرى شمس الأصيل عليلَةً ترتاد من نحو المغارب مغربا
مالت لتحجب شخصها فكأنها مدَّت على الدّنيا بساطاً مُذَهبا

وقال ابن الرّومي:

[الطويل]

وقد طفلت شمس الأصيل ونفَّضَت على الجانب الغربي وَرْساً مُذَعذَعا[٥]

---

(١) محثة: مسرعة. ترنو: تديم النّظر.
(٢) سناها: ضوءها. والنّجيع: دم يضرب إلى السّواد.
(٣) رفارفها: أطرافها وجوانبها. (٤) مطرقة: مضروبة بالمطرقة. وتطوست: تزينت.
(٥) طفلت الشّمس: احمرت عند الغروب. ونفَّضَتْ: نثرت. والورس: نبات أصفر. والمذعذع: المبدد المفرق.

ولاحظت النّوار وهي مريضة وقد وضعت خداً على الأرض أضرعا[١]
كما لحظت عُوَّادَه عينُ مُدنف توجّع من أوصابه ما توجعا[٢]

وقال ابن أفلح من قصيدة:

[الكامل]

والشمس خافضة الجناح مُسِفّةٌ في الغرب تنساب انسياب الأرقطِ[٣]
أو كالعروس بدت فأُسدل دونها جَنَباتُ ستر كالجساد مُخطّطِ[٤]
وأَتَى الظلام على الضياء كما أتى أجلٌ على أمل، فلم يَتَأَبَّطِ

وقال شاعر العراق الكبير معروف الرّصافي:

[الكامل]

نزلتْ تَجرّ إلى الغروب ذيولا صفراءَ تُشبه عاشقاً مَتبولا[٥]
تهتزُّ بين يدِ المغيب، كأنها صَبٌّ تململ في الفراش عليلا
ضحكتْ مشارِقها بوجهك بُكرة وبكت مغاربها الدماء أصيلا
وغدَت بأقصى الأفق مثلَ عرارة عطِشت فأبدت صُفرة وذبولا[٦]
غربت فأبْقَت كالشُّواظ عقيبها شفقاً بحاشية السماء طويلا[٧]
شفق يرُوع القلب شاحبُ لونه كالسيف ضُمِّخ بالدما مسلولا
رقّت أعاليه وأسفله الذي في الأفق أُشبع عُصفُراً محلولا

وقال ابن المعتز يصف الهلال:

[الكامل]

انظر إليه كزورق من فضَّةٍ قد أَثقلته حَمولة من عنبر

---

(١) أضرعا: ذليلاً.
(٢) الأوصاب: الأمراض.
(٣) مسفة: من أسف الطائر إذا دنا من الأرض في طيرانه. وحيّة رقطاء: من الرّقطة وهي سواد يشوبه نقط بياض أو عكسه.
(٤) الجساد: الزعفران.
(٥) متبولا: ذاهب العقل.
(٦) العرار: نبت طيب الرّيح.
(٧) الشّواظ: اللهب لا دخان فيه.

[الخفيف]

وكأن الهلال نصف سوارٍ والثريا كفٌّ تشير إليه

[مخلّع البسيط]

فخ بوَسْط السماء مُلقًى ينتظر الصَّيد للنجوم

[السّريع]

انظُرْ إلى حُسن هلالٍ بدا يهتِك من أنواره الحِنْدِسا[1]

كمِنجل قد صِيغ من فضَّةٍ يحصدُ من زهر الدُّجا نرجسا

[المنسرح]

يتلو الثريا كفاغر شَرِهٍ يفتح فاه لأكل عُنقودِ[2]

[الكامل]

في ليلة أكل المحاق هلالَها حتى تبدَّى مثل وَقف العاجِ[3]

وقال شاعر:

[الخفيف]

قلت لما هوت لمغربها الشمـ سُ ولاح الهلال للنُّظَّارِ

أقرض الشرقُ ضده الغرب دينا راً فأعطاه الرهن نصف سوارِ

وقال ابن طباطبا:

[الخفيف]

وكأن الهلال لما تبدَّى شطر طوق المرآة ذي التّذهيبِ

أو كقوس قد أُحنِيَتْ أو كَنُؤْيٍ أو كنون في مُهْرق مكتوبِ[4]

وقال أبو عاصم البصري في الهلال والثريا والزهرة:

[المتقارب]

رأيت الهلال وقد حلَّقَتْ نجومُ الثريا لكي تلحقَهْ

---

(١) يهتك: يمزق. و«من» هنا بمعنى الباء. والحندس: الظلمة.

(٢) فاغر: فاتح فاه.

(٣) المحاق: مثلثة الميم آخر الشّهر. والوقف: سوار من عاج.

(٤) النّؤي: الحفير حول الخيمة يمنع السّيل. المهرق: الصّحيفة «معرب».

فشبّهته وهو في إثْرها وبينهما الزُّهْرة المُشرِقَهْ
بقوسٍ لرامٍ رمى طائراً فأرسل في إثره بندقَهْ

وقال في اقتران الثريا بالهلال:

[الخفيف]

فإذا ما تقارنا قلت طوق من لُجين قد عُلقت فيه دُرَّه

وقال ابن خفاجة في ذلك أيضاً:

[البسيط]

وابن الغزالة فوق النجم منعطف كما تأوَّد عُرجون بعُنقودِ

وقال الطغرائي:

[الكامل]

فكأنه وكأنها في جنبه عُنقودة في زورق من عَسْجَد

وقال أبو الفضل الميكالي:

[الرَجز]

كأكرة من فضة مجلُوّة أوفَى عليها صولجان من ذَهَبْ

وقال شاعر:

[الخفيف]

وكأنّ الهلال تحت الثُّريا ملك فوق رأسه إكليل[1]

وقال آخر:

[البسيط]

كأنما النجمُ قُرط صِيغ من وَرِق معلَّقٌ من هلال الأفق في أُذنِ[2]

وقال شرف الدّين الحسين:

[المتقارب]

كأنّ الهلال نزيلَ السماء وقد قَارَن الزُّهرة النّيِّرَهْ

(١) الإكليل: التّاج.

(٢) الورق: الفضة.

سوارٌ لحسناءَ من عسجد على قفله وضِعت جوهرَهْ

وقال البدر البشتكي في الهلال والنّجوم حوله:

[الطويل]

ذُبالة شمع عوّج الريحُ ضوءها فطار لها بالقُرب بعضُ شرارِ[1]

وقال علي بن محمد الكاتب:

[الطويل]

بدا مستدِقَّ الجانبين كأنه على الأفق الغربي مِخلبُ طائرِ

ولاح لَمسْرى ليلتين كأنما تفرّق منه الغيمُ عن إثر حافرِ

[الطويل]

وشمَّرَ عنه الغيمُ ذيلاً كأنما تكشَّف منه عن جناحِ محلّقِ[2]

[البسيط]

والبدر كالملك الأعلى وأنجمهُ جنودُه، ومباني قصره الفَلَكُ

وقال ابن المعتز:

[مجزوء الرّمل]

وكأن البدر لما لاح من تحت الثريّا

ملك أقبل في التّا ج يُفَدّى ويُحَيّا

وقال في البدر مع الشّمس:

[مجزوء الكامل]

حتى رأيت الشمس تتـ ـلو البدر في أفق السما

فكأنها وكأنه قَدَحانِ من خمرٍ وما

[الكامل]

والبدر في أفقِ السماء كدرهم ملقى على ديباجة زرقاءِ

---

(١) الذبالة: الفتيلة.

(٢) حلق الطائر: ارتفع في طيرانه واستدار.

وقال السّلامي:

[مجزوء الكامل]

والبدر في أفق السما ءِ كروضة فيها غدير

وقال الشّريف العقيلي:

[الكامل]

والبدر في كبد السماء كوردة بيضاء تضحك في رياض بنفسَجِ

[الطويل]

وقد برز البدر المنير ووجهُهُ كجام لُجين فيه آثار عنبرِ(١)

[المتقارب]

سوادك من حيثُ تمسي هلا لاً إلى حيث تكملُ بدراً منيرا

نِقاب لنُركيةٍ أسودُ تُنْزِل منه يسيراً يسيرا

وقال سهل بن المرزبان:

[الكامل]

شبّهت بدر سمائها لما دنت منه الثُّريا في قميص سُندسي

ملكاً مَهيباً قاعداً في روضة حيَّاه بعض الزائرين بنرجسِ

وقال الوأواء الدّمشقي يصف البدر طالعاً من خلال السّحاب:

[الكامل]

والبدر أوّل ما بدا مُتلَثِّماً يُبدي الضياء لنا بخد مُسْفرِ(٢)

فكأنما هو خوذة من فضة قد رُكبت في هامة من عنبرِ(٣)

وللشريف الرّضي في وصف السّماء والأرض واللّيل والبرق:

[المتقارب]

سَمَائِي مذَهَّبةٌ بِالْبُرُوقِ وَأَرْضِي مُفَضَّضَةٌ بِالْحَبَابِ

وَرَوْضِي مَطَارِفُهُ غَضَّةٌ تُطَرَّزُ أَطْرَافها بالذّهابِ

(١) الجام: إناء من فضة. (٢) مضيء: مشرق.

(٣) الخوذة: المغفر وهو زرد ينسج على قدر الرّأس. والهامة: الرّأس.

وَلَيْلٌ تَرَى الْفَجْرَ فِي عِطْفِهِ كَمَا شَابَ بَعْضُ جَنَاحِ الْغُرَابِ
يَغَارُ الظَّلامُ عَلَى شَمْسِهِ إلى أنْ يُوَارِيهَا بِالْحِجَابِ
وَتَصْقُلُ أنْجُمَهُ الْعاصِفَاتُ إذَا صَدِئَتْ مِنْ عمُودِ السَّحابِ

وقال البحتري يصف الغيث:

[الرّجز]

ذَاتُ ارْتِجازٍ[1] بَحَنِينِ الرَّعْدِ مَجْرُورَةِ الذَّيْلِ صَدُوقِ الْوَعْدِ
مَنْفُوحَةِ الدَّمْعِ لِغَيْرِ وَجْدِ لَهَا نَسِيمٌ كَنَسِيمِ الْوَرْدِ
وَرَنَّةٌ مِثْلُ زَئِيرِ الأُسْدِ وَلَمْعُ بَرقٍ كَسُيُوفِ الْهِنْدِ
جَاءَتْ بِهَا رِيحُ الصَّبا مِنْ نجْدِ فَانْتَشَرتْ مِثْلَ انْتِشَارِ العِقْدِ
فَرَاحَتِ الأَرْضُ بِعَيْشٍ رَغْدِ مِن وَشْيِ أنْوارِ الرُّبَى فِي بُرْدِ
كَأَنَّما غُدْرَانُها فِي الْوَهْدِ يَلْعَبْنَ مِنْ حَبَابِهَا بِالنَّرْدِ[2]

ومن قصيدة لصفي الدّين الحلي يصف فيها الرّبيع:

[الكامل]

خَلَعَ الرَّبِيعُ عَلَى غصُون الْبَانِ حُللاً فَوَاضِلُها على الْكُثْبَانِ
وَنَمَت فُروعُ الدَّوْحِ حَتى صَافَحَتْ كَفَلَ الكَثِيبِ ذَوَائِبُ الأَغْصَانِ
وَتَتَوَّجَتْ هامُ الغصُون وَضَرَّجَتْ خَدَّ الرِّيَاض شقائقُ النُّعْمَانِ
وَتَنَوَّعَتْ بُسُطُ الرِّياضِ فَزَهْرُهَا مُتَبَايِنُ الأَشْكَالِ وَالأَلْوَانِ
مِنْ أبْيَضٍ يَقِقٍ وَأَصْفَرَ فَاقِعٍ أَوْ أَزْرَقٍ صَافٍ وَأَحْمَرَ قَانِ
وَالظِّلُّ يُسْرِعُ فِي الْخَمَائِل خَطْوَهُ وَالغُصْنُ يَخْطُر خِطرَةَ النَّشْوَانِ
وَكَأَنَّمَا الأَغْصَانُ سُوقُ رَوَاقِصٍ قَدْ قُيِّدَتْ بِسَلاسِلِ الرَّيْحَانِ
وَالشمسُ تَنْظرُ من خِلالِ فرُوعِها نَحْوَ الْحَدَائِقِ نَظرةَ الغيرَانِ

(١) ارتجاز: من ارتجز الرّعد إذا دمدم.
(٢) النّرد: لعبة تعرف عند العامة بلعب «الطاولة».

وَالأَرْض تَعْجَب كَيْفَ تضْحَك والحيا يَبْكِي بِدَمْعٍ دائِم الهَمَلانِ
حَتّى إذا افْتَرَّتْ مبَاسِمُ زَهرِها وَبَكَى السَّحَابُ بِمدْمَعٍ هَتَّانِ
طَفِحَ السُّرُورُ عَلَيَّ حَتَّى إنَّهُ مِنْ عُظْمِ مَا قَدْ سَرَّنِي أبْكَانِي
فَاصْرِفْ هُمُومَكَ بِالرَّبِيعِ وَفصلِهِ إنَّ الرَّبِيعَ هُوَ الشبابُ الثاني

وله من قصيدة في وصف واد:

[الطويل]

تَعَانَقَتِ الأَغْصَانُ فِيهِ فَأَسْبلَتْ عَلَى الرَّوْضِ أسْتَاراً مِنَ الْوَرَقِ الخُضْرِ
إذَا مَا حِبَالُ الشمْسِ مِنْهَا تَخَلَّصَتْ إلى رَوْضِهِ أَلْقَتْ شِرَاكاً من التِّبْرِ

ومن قول أبي الفتح كشاجم في وصف الجمر يعلوه الرّماد:

[المنسرح]

كَأَنّما الْجمَرُ وَالرَّمَادُ وَقَدْ كَادَ يُوَارِي مِن نَارِهِ النُّورا
وَرْدٌ جنِيُّ الْقِطافِ أحمرُ قَدْ ذَرَّتْ عَلَيْهِ الأَكُفُّ كَافورا

ومن قصيدة لأبي الفرج عبد الواحد الببغا في وصف جيش:

[الكامل]

قَادَ الْجِيَادَ إلَى الْجِيَادِ عوَابساً شُعثاً[1] وَلَوْلا بأسُهُ لَمْ تَنْقَدِ
فِي جَحْفَلٍ كَالسَّيْلِ أو كَاللّيْلِ أو كَالْقَطْرِ صَافَحَ مَوْجَ بَحْرٍ مُزْبدِ
رَدَّ الظلامَ عَلَى الضُّحَى فَاسْتَرْجَع الإظْلامَ مِنْ لَيْلِ الْعَجَاجِ الأَرْبدِ
وَكَأَنَّمَا نَقَشَتْ حَوَافِرُ خَيْلِهِ لِلناظرين أهلَّةً فِي جَلْمَدِ
وَكَأَن طَرف الشمْس مطْرُوف وقد جُعِلَ الْغُبارُ له مَكَانَ الإثْمِدِ

وله من قصيدة في وصف روضة:

[المتقارب]

مداهِنُ يحْملْن طَلَّ[2] الندى فهاتيك تِبْرٌ وهذِي عقِيقْ
تنْظمُ أوْرَاقها دُرَّها وَتنْثرُ مِنْهَا الَّتِي لا تطِيقْ

(١)الأشعث: الأسود.
(٢)الطل: المطر الضعيف.

يَـمِـيـلُ الـنـسِـيـمُ بِـأَغْـصَـانِـهَـا فَـبَـعْـضٌ نَـشَـاوَى وَبَـعْـضٌ مُـفِـيـقْ
ويـــوْمٍ ســتَـــارتـــهُ غَـــيْـــمُـــهُ وَقَـدْ طَـرَّزَتْ رَفْـرفـيْـهَـا الْـبُـرُوقْ
جـعـلْـنَـا الْـبـخُـور دُخَـانـاً لـهُ وَمِـنْ شـرر الـراحِ فـيـهِ حـرِيـقْ
تـظـلُّ بِـهِ الـشـمْـسُ مَـحْـجُـوبَـةً كـأن اصْـطِـبَـاحَـكَ فـيـهِ غَـبُـوقْ
عَـلَـى شَـجَـراتٍ رافِـعَـاتِ الـذُّيـولِ لـمـاءِ الْـجَـدَاوِلِ مِـنْـهَـا شَـهِـيـقْ

ومن قصيدة للحسن بن علي بن وكيع في وصف روض:

[الرجز]

أَسـفَـرَ عَـنْ بَـهْـجَـتِـهِ الـرَّوْضُ الأَغَـرْ وَابْـتَـسَـمَ الـدَّوْحُ لَـنَـا عَـنِ الـزهَـرْ
أَبْـدَى لَـنَـا فَـضْـلُ الـرَّبِـيـعِ مَـنْـظَـراً بِـمِـثْـلِـهِ تُـفْـتَـنُ أَلْـبَـابُ الْـبَـشـرْ
وَشـيـاً وَلَـكـنْ حَـاكَـهُ صَـانِـعُـهُ لا لابْـتِـذَالِ الـلُّـبْـسِ لَـكِـنْ لِـلـنَّـظَـرْ
عَـايَـنَـهُ طَـرْفُ الـسـمـاءِ فَـانْـثَـنَـى عِـشْـقـاً لـه يَـبْـكِـي بِـأَجْـفَـانِ الْـمَـطَـرْ
فَـالأَرْضُ فِـي زَيِّ عَـرُوسٍ فَـوْقَـهـا مِـن أَدْمُـعِ الْـقَـطْـرِ نُـثـارٌ مِـنْ دُرَرْ
وَشْـيٌ طَـوَاهُ فِـي الـثَّـرَى صِـوَانُـهُ[1] حـتـى إذا مـلَّ مـن الـطـيِّ انْـتَـشَـرْ

وله من قصيدة في وصف الرّبيع:

[الكامل]

انـظُـرْ إِلَـى زَهْـر الـرَّبِـيـعِ وَمَـا جـلـتْ فِـيـهِ عـلـيْـك طـرائِـفُ الأَنْـوَارِ
أَبْـدَتْ لَـنَـا الأَمْـطَـارُ فِـيـهِ بَـدَائِـعـاً شـهـدَتْ بِـحِـكـمَـةِ مُـنـزِلِ الأَمْـطَـارِ
مـا شِـئْـتَ لـلأَزهـارِ فـي صـحْـرَائِـهِ مـن دِرْهَـم بَـهِـجٍ وَمِـنْ دِيـنـارِ
وجـواهِـر لـوْلا تـغـيُّـر حُـسـنِـهـا جـلّـتْ عـنِ الأَثـمـانِ والأخـطـارِ[2]

وله أيضاً في وصفه:

[الطويل]

ألست ترى وشي الرَّبيعِ المُنمنما وما رصَّع الرّبْعِيُّ[3] فِيهِ ونظّما

(١) الصّوان: الوعاء الذي يصان فيه الشّيء.
(٢) الأخطار: جمع خطر وهو المثل والعديل في العلو.
(٣) الرّبعي: نسبة إلى الرّبيع، والمراد به هنا المطر في الرّبيع.

فقدْ حكتِ الأَرضُ السَّماءَ بِنُورِها فلمْ أدرِ في التشبِيهِ أَيُّهُمَا السَّما
فخضرتها كالجوّ فِي حُسْنَ لوْنِهِ وَأنوارُها تحكي لِعَيْنَيْكَ أنجُما
فَمِنْ نَرْجسٍ لَمَا رأى حُسْنَ نَقْشِهِ تَدَاخَلَهُ عَجْبٌ بِهِ فَتَبَسَّمَا
وَأَبْدَى عَلَى الْوَرْدِ الْجَنيّ تَطَاولاً فأظْهَرَ غَيْظ الْوَرْدَ فِي خَدّهِ دَما
وَزهْرِ شقيقٍ نَازعَ الْوَرْدَ فضْلَهُ فَزَادَ عَلَيْهِ الْوَرْدُ فَضْلاً وُقُدّما
وَظلَّ لِفَرْطِ الْحُزْنِ يَلْطِمُ خَدَّهُ فَأَظْهَرَ فِيهِ اللَّطْمُ جَمْراً مُضَرَّما
وَمِن سَوْسَنٍ لما رأى الصّبْغ كُلَّهُ عَلَى كُلّ أنوارِ الرّياض تَقسَّما
تجلبَبَ منْ زُرْق اليواقيتِ حُلَّةً فأغرب[1] في الملبُوس مِنهُ وأحْكما
وأنوار منثورٍ تخالف شكلها فصار بها شكلُ الرَّبيعِ مُتمَّما
جواهرُ لوْ قدْ طال فينا بقاؤها رأيت بها كلَّ الملوكِ مختَّما

وللقاضي محمد بن النّعمان في وصف الهلال:

[المنسرح]

انظرْ إلى حُسْنِ ذا الْهِلال وقدْ بدا لِسِتّ مضيْن مِنْ عُمرِهْ
وقدْ أطافتْ بِهِ كَوَاكِبُهُ حُسْناً فبيَّنْتُهُ لمعتبرِهْ
مِثْل زِنادٍ[2] قدْ صيغ مِنْ ذهبٍ يقْدحُ ناراً وهُنَّ مِنْ شرَرِهْ
ثمَّ تولَّى يُرِيدُ مغربَهُ في شفقِ[3] الشَّمْسِ وَهي في أثرِهْ
فخلْتُهُ غائِصاً بِبحْر دمٍ يقْذِفُ بالرائِعَاتِ مِنْ دُررِهْ
فلَمْ أزل ليلتي أراجعُهُ لحظِّي وأبكي للْوقْتِ من قِصَرِهْ
حَتَّى تَبَدَّى الصَّباحُ مُنْتَبهاً قبْلَ انْتباهِ المَخْمُور من سكرِهْ

ومن قصيدة لسليمان بن حسان الصّيي في وصف شمعة:

[المتقارب]

وَمَجْدُولَةٍ مِثْلُ صَدْرِ الْقَنَا ةِ تَعرَّتْ وَبَاطِنها مُكْتَسِي

(١) أغرب: أتى بشيء غريب.
(٢) الزناد: جمع زند.
(٣) الشّفق: الحمرة في الأفق من الغروب إلى قريب من العتمة.

لـهـا مُـقـلَـةٌ هِـيَ رُوحٌ لَـهَـا وَتَـاجٌ عَـلَـى الـرَّأسِ كَـالْـبُـرْنِـسِ
إذَا رَنَّـقَـتْ[1] لِـنُـعَـاسٍ عَـرَا وَقُـطَّـتْ مِـنَ الـرَّأسِ لَـمْ تَـنْـعَـسِ
وَإنْ غَـازَلَـتـهـا الـصَّـبَـا حَـرَّكَـتْ لِـسَـانـاً مِـنَ الـذَّهَـبِ الأَمْـلَـسِ
وَتُـنْـتِـجُ فِـي وَقْـتِ تَـلْـقِـيْـحِـهَـا ضِـيَـاءً يُـجـلّـي دُجَـى الْـحِـنْـدِسِ
فَـنَـحْـنُ مـنَ الـنـورِ فِـي أَسْـعُـدٍ وَتِـلْـكَ فـي الـنـارِ فـي أَنْـحُـسِ
تَـوَقُّـدُهَـا نُـزْهَـةٌ لِـلْـعُـيُـو نِ وَرُؤْيَـتُـهَـا مُـنْـيَـةُ الأَنْـفُـسِ
تَـكِـيـدُ الـظَّـلامَ كَـمَـا كَـادَهَـا فـتـفـنَـى وَتُـفْـنِـيـهِ فِـي مَـجْـلِـسِ
فَـيَـا حَـامِـلَ الْـعُـودِ حُـثَّ الْـغِـنَـا ويـا حَـامِـلَ الـكَـأْسِ لا تَـحْـبِـسِ
وَيَـا صَـالِـحُ[2] أَنْـعَـمْ وعِـش سـالـمـاً عـلـى الـدَّهـرِ فِـي عِـزِّكَ الأَقـعَـسِ[3]

ولأبي الحسن العقيلي في وصف الصّبح والبرق:

[مجزوء الكامل]

الـصُّـبْـحُ يَـنْـشُـرُ فَـوْقَ مِـسْـ ـكِ الّـلـيْـلِ كَـافُـورَ الـضـيـاءِ
وَالْـبَـرْقُ يُـذهِـبُ مـا تُـفَـ ضِّـضُـهُ الْـغُـيُـومُ مِـنَ الـسَّـمَـاءِ
فَـاشْـرَبْ عَـلَـى دِيـبَـاجِ نَـبْـتٍ قَـدْ أَحَـاطَ بِـشِـرْبِ مَـاءِ[4]
فَـالْـعَـيْـشُ فِـي زَمَـنِ الـرَّبِـيـعِ رَقـيـقُ حَـاشِـيَـةِ الـرِّدَاءِ

وله أيضاً في وصف نارنجة:

[الطويل]

وَنَـارِنـجَـة[5] بَـيْـنَ الـرِّيَـاضِ نَـظَـرْتـهـا عَـلَـى غُـصُـنٍ رَطْـبٍ كَـقَـامَـة أَغْـيَـدِ
إذَا مَـيَّـلَـتْـهَـا الـرّيـحُ مَـالـتْ كَـأَكْـرَةٍ بَـدَتْ ذَهَـبـاً فِـي صَـولَـجَـانِ زُمُـرُّدِ

---

(١) رنّقت: كدرت.
(٢) اسم الممدوح.
(٣) الأقعس: الثابت المنيع.
(٤) شرب ماء: الشّرب المورد.
(٥) النّارنجة: واحدة النّارنج وهو شجرة ورقها أملس ليس بشديد الخضرة يحمل حملاً مدوراً في جوفه حماض كحماض الأترج ووردة أبيض في نهاية من طيب الرّائحة.

ولابن أبي عمرو الطرازي في وصف نار:

[مجزوء الرّجز]

نَـــارٌ جَـــرَتْ فِـــي غَـــابَـــةٍ تَـــرْمِـــي الْـعُـلَـى بِـالـشُّـهُـبِ
كَـــأَنَّـــهَـــا جَـــيْـــشٌ وَغَّـــى فُـــرْسَـــانُـــهُ مِـــنْ ذَهَـــبِ

ولعلي بن لؤلؤ الكاتب في وصف الصّبح واللّيل:

[الخفيف]

رُبَّ صُبْحٍ كَطَلْعَةِ الْوَصْلِ جَلَّى جِـنْـحَ لَـيْـلٍ كَـطَـلْـعَـةِ الْـهِـجْـرَانِ
زَار فِـي حُـلَّـةِ الْـبُـزَاةِ فَـوَلَّـى الَّـلـيْـ ـلُ عَـنْـهُ فِـي حُـلّـةِ الـغِـرْبَـانِ

ولأبي العباس الكندي في وصف النّدى على البحر:

[الطويل]

كأنَّ النّدَى في البحر بَحْرَان مَائِعٌ عَلَى مَائِعٍ هَذا عَلَى ذَاكَ مُطْبَقُ
فَهذا لُجَيْنٌ سَابِحٌ مُتَرَقْرِقٌ[1] وَذَاكَ لُجَيْنٌ فِي السَّمَاءِ مُعَلّقُ
إذا أبصرَتْهُ الشّمسُ بعد احتجابها بِهِ سَاعَةٌ أَبْصَرْتُهُ يَتَمَزَّقُ

وللسري بن أحمد الكندي في وصف الفجر من قصيدة:

[الكامل]

وَرَكَائِبٍ يخرُجن من غلس الدُّجى مِثل السِّهامِ مرقن[2] مِنْهُ مُرُوقا
والفجرُ مصقولُ الرّداءِ كأنَّهُ جلبابُ خودٍ أشربتهُ خلوقا[3]

وله من أخرى في وصف سحابة:

[المتقارب]

وبكرٍ إذا جنَّبتها الجنوبُ حسبت العشار تؤمُّ العشارا[4]

(١) مترقرق: متلألئ.
(٢) مرقن: خرجن ونفدن من الجانب الآخر.
(٣) الخود: المرأة الحسنة الخلق الشّابة. والخلوق: ضرب من الطيب مائع.
(٤) البكر: السّحابة الغزيرة. وجنبتها: دفعتها. والعشار: النّوق.

تـرى الـبـرق يـبـسِـمُ سِـرّاً بـهـا إذا انـتـحـب الـرعـدُ فـيـهـا جـهـارا
يُـعـارضُـهـا فـي الـهـواءِ الـنَّـسِـيـمُ فـيـنـثـرُ فِـي الأرض دُرّاً صِـغـارا
فـطـوراً يـشـقُّ جُـيُـوب الـحـيـا وطـوراً يـسُـحُّ الـدُّمُـوع الـغـزارا

وله من أخرى:

[المتقارب]

غـيـومٌ تـمـسّـك أفـق الـسَّـمـا وبـرقٌ يُـكـتِّـبُـهُ بـالـذَّهَـبْ
وخـضـراءُ يـنْـثُـر فـيـهـا الـنِّـدى(١) فـريـد نـدًى(٢) مـا لـهُ مـن ثـقَـبْ
فـأوراقـهـا مِـثـلُ نـظـمِ الـحـلـى وأنـهـارُهـا مِـثْـلُ بـيـض الـقُـضُـبْ
حـلـلـتُ بـهـا مـع نـدامـى سـلـوا عـن الـجـدّ واشـتـهـرُوا بـالـلَّـعِـبْ
وأغـنـتـهُـمُ عـن بـديـعِ الـسـمـا ع بـدائـعُ مـا ضـمَّـنـتـهُ الـكـتُـبْ
وأحـسـنُ شـيءٍ ربـيـعُ الـحـيـا أضـيـف إلـيـه ربـيـعُ الأدَبْ

ولأبي بكر الخالدي في وصف الجو وإدبار اللّيل وإقبال الفجر:

[الكامل]

وَالـجـوُّ يـسْـحـب مِـنْ عـلـيـل هـوائِـهِ ثـوْبـاً يـجـود بـطـلِّـهِ الـمـتـرقـرقِ
حَـتَّـى رأيـنـا الـلَّـيْـل قَـوَّس ظـهـرَهُ هـرمـاً وأثّـر فـيـهِ شـيـبُ الـمـفـرقِ
وكـأنَّ ضـوءَ الـفـجـر فـي بـاقـي الـدُّجـى سَـيـفٌ جِـلاه مـن الـلُّـجَـيْـنِ الـمُـحـرقِ

ولسعيد بن هاشم الخالدي في وصف المطر والصّبح واللّيل والبرق:

[المنسرح]

أمـا تَـرى الـطـلَّ كـيـف يَـلْـمَـعُ فِـي عُـيُـونِ نَـوْرٍ تَـدعُـو إلَـى الـطَّـرَبِ
فِـي كُـلّ عَـيْـنٍ لـلـطَّـلّ لُـؤْلُـؤَةٌ كـدَمْـعَـةٍ فِـي جُـفُـونِ مُـنـتَـحِـبِ
وَالـصُّـبْـحُ قَـدْ جُـرّدَت صَـوَارِمُـهُ وَالَّـلـيْـلُ قَـدْ هَـمَّ مِـنْـهُ بِـالْـهَـرَبِ
وَالـجَـوُّ فِـي حُـلّـةٍ مُـمَـسَّـكَـةٍ قَـدْ كـتَّـبَـتْـهَـا الْـبُـرُوقُ بِـالـذَّهَـبِ

(١) النّدى: الكلأ.
(٢) النّدى: ما سقط في آخر اللّيل. والفريد: الجوهر النّفيس والدّر.

وللمهلبي الوزير في وصف الرّبيع:

[الكامل]

الْـوَرْدُ بَـيْـنَ مُـضَـمَّـخٍ وَمُـضَـرَّجٍ وَالـزَّهْـرُ بَـيْـنَ مُـكَـلَّـلٍ وَمُـتَـوَّجِ(١)
وَالـثـلـجُ يَـهْـبِـطُ كَـالـنِّـثـارِ فـقـمْ بِـنَـا نَـلْـتَـذُّ بِـابـنَـةِ كَـرْمَـةٍ لَـمْ تُـمْـزَجِ
طَـلَـعَ الـنَّـهـارُ ولاحَ نـورُ شَـقَـائـقٍ وَبَـدَت سُـطُـورُ الْـوَرْدِ تِـلْـو بَـنَـفـسَـجِ
فَـكـأَنَّ يَـوْمَـكَ فِـي غِـلالـةِ فِـضَّـةٍ وَالـنـبْـتَ مِـن ذَهَـبٍ عَـلَـى فـيـرُوزَجِ(٢)

وللقاضي التّنوخي أبي القاسم عليّ في وصف طول اللّيل والفجر:

[الطويل]

وَلَـيْـلَـةٍ مُـشْـتَـاق كـأنَّ نُـجُـومَـهَـا قَـدِ اغْـتَـصَـبَـتْ عَـيْـنَ الـكَـرَى وَهـيَ نُـوَّمُ
كـأن عُـيُـون الـسَّـاهِـريـنَ لِـطُـولِـهَـا إذا شَـخـصـتْ لِـلأَنْـجُـمِ الـزُّهْـر أَنْـجُـمُ
كـأن سَـوَادَ الـلَّـيْـل وَالْـفَـجْـرُ ضَـاحِـكٌ يـلُـوحُ وَيـخْـفَـى أَسْـوَدٌ يَـتَـبَـسَّـمُ

وله أيضاً في وصف وحشة اللّيل والنّجوم والسّماء:

[الخفيف]

رُبَّ لَـيْـلٍ قَـطَـعْـتُـهُ كـصُـدُودٍ وَفِـرَاقٍ مَـا كَـانَ فِـيـهِ وَدَاعُ
مُـوحِـشٌ كَـالـثَّـقِـيـلِ تـقـذَى بِـهِ الْـعَـيْـنُ وَتَـأْبَـى حَـدِيـثَـهُ الأَسْـمَـاعُ
وَكَـأَنَّ الـنُّـجُـومَ بَـيْـنَ دُجَـاهُ سُـنَـنٌ لاحَ بَـيْـنَـهُـنَّ ابْـتِـدَاعُ
وَكَـأَنَّ الـسَّـمَـاءَ خَـيْـمَـةُ وَشْـيٍ وَكَـأن الْـجَـوْزَاءَ فِـيـهَـا شِـرَاعُ

وله أيضاً في وصف رياض:

[الخفيف]

وَرِيَـاضٍ حَـاكَـتْ لَـهُـنَّ الـثُّـرَيَّـا حُـلـلاً كـانَ غـزلُـهـا لِـلـرُّعُـودِ
نَـثَـرَ الـغـيـثُ دُرّ دَمْـعٍ عَـلَـيْـهـا فَـتَـحَـلَّـتْ بِـمِـثـلِ دُرّ الْـعـقُـودِ
أُقـحُـوَانٌ مُـعَـانِـقٌ لِـشـقِـيـقٍ كَـثـغُـورٍ تـعُـضُّ وَرْدَ الْـخُـدُودِ

---

(١) ضمخه بالطيب: لطخه به حتى كاد يقطر. وضرجه: صبغه بالحمرة.
(٢) الغلالة: شعار يلبس تحت الثوب وتحت الدّرع أيضاً. الفيروزج: حجر كريم.

وَعُيُونٌ مِنْ نَرْجِسٍ تَتَرَاءَى كَعُيُونِ مَوْصُولَةِ التَّهْدِيدِ
وَكَأَنَّ الشَّقِيقَ حِينَ تَبَدَّى ظُلْمَةُ الصُّدْعِ فِي خُدُودِ الغيدِ
وَكَأَنَّ النَّدَى عَلَيْهَا دُمُوعٌ فِي جُفُونٍ مَفْجُوعَةٍ بِفَقِيدِ

وكتب محمد بن عبد الله السّامي إلى صديق له يصف النّارنج:

[الوافر]

أَتَنْشَطُ لِلصَّبُوحِ أَبَا عَلِيٍّ عَلَى حُكْمِ الْمُنَى وَرِضَى الصدِيقِ
بِنَهْرٍ لِلرِّيَاحِ عَلَيْهِ دِرْعٌ تَذَهَّبُ بِالْغُرُوبِ وَبِالشُّرُوقِ
إِذَا اصْفَرَّتْ عليه الشَّمْسُ صَبَّتْ عَلَى أَمْوَاجِهِ مَاءَ الْخلُوقِ[1]
وَجَمْرٌ شَبَّ فِي الأَغْصَانِ حَتّى أَضَاعَ الْمَاءَ فِي وَهْجِ الْحَرِيقِ
فَدُهْمُ الْخَيْلِ فِي مَيدَانِ تِبْرٍ يُصاغ لَهَا كُرَاتٌ مِنْ عقِيقِ

وكتب إليه في وصف نهر حوله أشجار الجلّنار[2]:

[الوافر]

وَنَهْرٍ تَمْرَحُ الأَمْوَاجُ فِيهِ مَراح الْخَيْل فِي رَهجِ الْغُبَارِ[3]
إِذَا اصْفَرَّتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ خِلنَا نَمِيرَ الْمَاءِ يُمزج بِالْعُقَارِ[4]
كَأَنَّ الْمَاءَ أَرْضٌ مِن لُجين مُغَشَّاةٌ صَفائح مِنْ نُضَارِ
وأَشْجار مُحَمَّلَةٌ كُؤُوساً تُضاحِكُ فِي احْمِرَارٍ وَاخْضِرَارِ

وله من قصيدة في وصف الرّياض والبرق:

[الكامل]

نَسَبُ الرّياضِ إِلَى الغَمامِ شَرِيفُ وَمَحَلُّها عِنْد النسِيمِ لَطِيفُ
فاشْرَبْ وَثِقْل وَزْنَ جَامِكَ[5] إِنهُ يومٌ عَلَى قلبِ الزمانِ خَفيفُ

(١) الخلوق: ضرب من الطيب مائع فيه صفرة لأن أعظم أجزائه من الزعفران.
(٢) الجلنار: زهر الرّمان.
(٣) الرّهج: ما أثير من الغبار.
(٤) العقار: الخمر.
(٥) الجام: إناءمن فضة.

أَوَمَا ترى طُرَر البُرُوق توسَّطت أُفُقاً كأنّ المُزنَ فيهِ شفوفُ[1]
واليومُ من خَجَل الشّقيق مُضَرَّجٌ خجِلٌ ومِن مرضِ النسيمِ ضعيفُ
والأرضُ طِرْسٌ وَالرّياضُ سُطُورُهُ وَالزَّهْرُ شَكْلٌ بَينَها وَحُرُوفُ

ولأحمد صفيّ الدّين بن صالح بن أبي الرّجال يصف بها روضة صنعاء:

[الخفيف]

رَوْضَةٌ قَدْ صَبَا لَهَا السّعْدُ شَوْقاً وَصَفا لَيلُها وَطَابَ المَقيلُ
جَوُّها سَجْسَجٌ وَفِيهَا نَسِيمٌ كُلُّ غُصْن إلَى لِقاه يَمِيلُ
صَحَّ سُكانُها جَمِيعاً مِنَ الدَّا ءِ وَجِسمُ النسِيمِ فِيهَا عَلِيلُ
إيهِ يا ماءَ نهرِها العذابَ صَلصِلْ حَبَّذا يا زُلالُ مِنْكَ الصليلُ
إيهِ يا وُرقَها المُرنَّةَ غَنِّي فحياة النُّفوس مِنكَ الهدِيلُ
رَوضَ صنعاءَ فُقت طبعاً ووصفاً فَكَثِيرُ الثناء فيكَ قليلُ
نهرٌ دافقٌ وجوٌّ فتيقٌ زهرٌ فائقٌ وظلٌّ ظليلُ
لست أنسى انتِعاش شُحرور غُصن طرباً والقضِيبُ مِنهُ يميلُ
وعلى رأس دوحةٍ خاطب الوُر ق ودمعُ الغصون طَلاً يسيلُ
ولسانُ الرُّعود يهتِفُ بالسحـ ـبِ فكأن الخفيفَ مِنها الثَّقيلُ
وفمُ السُّحبِ باسِمٌ عن بُرُوق مُستطِير شُعاعُها مُستطيلُ

ولابن سكرة الهاشمي في وصف روضة:

[السريع]

أما ترى الرّوضة قد نوَّرت وظاهر الرَّوضةِ قد أعشبا
كأنَّما الأرضُ سماءٌ لنا نقطِفُ مِنها كوكباً كوكبا

ومن وصف زهريّة لابن الرّاجح الحلّي:

[الكامل]

نثرت عُقود سمائِها الأنداءُ بيدِ النسِيمِ فلِلثَّرى إثراءُ

(١) الطرر: جمع طرة وهي علم الثوب وطرازه. المزن: السّحاب. وشفوف: جمع شف وهو الثوب الرّقيق.

وبدت تباشِير الرَّبيعِ كأنما نثرت مطارف وشيها صنعاءُ[١]
والأرضُ قد زُهيت بحَلْي نباتِها والجوُّ حلّةُ سُحبِهِ دكناءُ[٢]
والرّوضُ في نشوات سَكرتِهِ وقد طافت عليهِ الدّيمة الوطفاءُ
وثنى الحيا عِطف الغدير فصفَّقت أطرافهُ وتغنَّتِ الورقاءُ
فكأن أعطاف الغُصونِ منابرٌ والوُرقُ فِي أوراقِها خُطباءُ

ومن وصف زهريّة لبدر الدّين الذهبي:

[الطويل]

ترنَّح عطفُ البانِ في الحللِ الخضرِ وغنّى بألحان على عودِهِ القُمري[٣]
ورَاقَتْ أزاهيرُ الحدائِقِ بالضُّحَى نواظِرَ أحداق بنوارها النَّضرِ[٤]
وأشرق خدُّ الورد يُبدِي نَضارهُ وأشرَقَ جيدُ الغصن في لؤلؤ القطْرِ
وباتَ سقيطُ الطّلّ في كُلِّ رَوضةٍ ينَبِّهُ في أرجائها ناعس الزّهرِ
وما ذَهبتْ شَمس الأصيلِ عشيّةً إلى الغربِ حتى أذهبتْ فِضّة النّهرِ
وغَنّت قيَان الطّيْرِ فِي كلِّ أيكَة وقد راقَ كحلُ الطّلِّ في مُقَل الغُدرِ
أقامتْ لها دوح الأراكِ أرائِكاً وأرخَتْ لها أوراقَ أستارها الخضْرِ
وأمسى أصيلُ اليومِ مُلْقًى من الضّنى عَلى فُرُشِ الأَزْهَارِ فِي آخِرِ العمرِ
بَكتهُ حمَاماتُ الأراكِ وشقَّقت عليها الصَّبا أثواب روْضَاتِها النُّضْرِ
فكم من نحيب للحَمائمِ بالضُّحى عليه وللأنواءِ من دَمعةٍ تجري

ولعلي بن أحمد الجوهري من قصيدة في وصف الغيث:

[البسيط]

زَرَّ الصباح علينا شملةَ السُّحُبِ ومدَّت الرِّيح منها واهيَ الطُّنُبِ[٥]

---

(١) صنعاء: عاصمة بلاد اليمن.
(٢) الدّكناء: الضارب لونها إلى السواد.
(٣) القمري: ضرب من الحمام.
(٤) النّضر: أصله بكسر العين (الضاد) وتسكينها للضرورة.
(٥) زر: بمعنى نفض. والشّملة: كساء يشتمل به. وزر شملة السحب: كناية عن سقوط المطر.

صَكَّ النسيمُ فراخَ الغيْث فانزعجتْ يَنْفضْنَ أجنحةً من عنبر الزَّغبِ[1]

ولأبي معمر بن أبي سعيد الإسماعيلي من قصيدة في وصف الثلج:

[الطويل]

فرُحْنا وقد باتَ السماءُ مع الثَّرى وغابَ أديمُ الأرض عنّا فما يُرى
كأنّ غيومَ الجوّ صُوَّاغ فضَّة توَاصوْا بِرَدِّ الحلْي عمداً إلى الورى

ولأبي العلاء السروي في وصف روض:

[الطويل]

مررنا على الرَّوْض الذي قد تبسَّمَتْ ذُرَاه وأوْدَاجُ السَّحائب تُسفَكُ[2]
فلم نَرَ شيئاً كان أحسنَ منظراً من الرَّوض يجري دمعهُ وهو يضحكُ

وله أيضاً في وصفه من قصيدة:

[البسيط]

أما ترى قُضُبَ الأشجار قد لبسَتْ أنوارَها تتثنَّى بين جُلاّس
منظومةٌ كسُموط الدُّرِّ لابسةً حسْناً يُبيح دمَ العُنقُودِ لِلْحاسي[3]
وغرَّدتْ خطباءُ الطّير ساجعةً على منابر من ورد ومن آسِ

وقال أبو الفتح كشاجم يصف مرآة أهداها:

[الخفيف]

أُخْتَ شمس الضحاء في الحُسن والإشـ ـراقِ غيّر الإعشاءَ للأجفانِ
ذات طوق مُشَرَّفٍ من لجينٍ أُجريَت فيه صُفرةُ العِقيانِ
فهو كالهالة المحيطة بالبدْ رِ لِسِتٍّ مَضَيْنَ بعد ثمانِ
وعلى ظَهرها فَوارسُ تَلهو ببُزاةٍ تَعْدو على غِزْلانِ
عدلت عكسَها الشُّعاعَ فَمَبْدا هُ إليها ورَجْعُهُ سِيّانِ
وهي شمسٌ وإنْ مثالك يوماً لاحَ فيها فإنها شمسانِ

---

(١) الزغب: صغار الشّعر.
(٢) الأوداج: جمع ودج وهو عرق في العنق.
(٣) الحاسي: من حسا الشّراب إذا شربه شيئاً بعد شيء وفي مهلة.

أينما قابلت مِثالك من أرْ ض ففيها تقابلَ النَّيِّرانِ
فالْقَها منك بالذي ما رآه خائفٌ فانثنَى بغير أمانِ

ولأبي قاسم الدّينوري في وصف جواد:

[الكامل]

ومُطهَّم طَرفُ العِنان[1] معوَّدٍ خوْضَ المهالكِ كلَّ يوم برازِ
وإذا تَوَغَّل فِي ذُرَى مُتَمَنّعٍ صَعبٍ بعيدِ العَهْدِ بالمجتازِ
تركتْ سنابكهُ بصُمِّ صخورِهِ أثراً يلوحُ كنَقشِ صدْرِ البازِي

وله في وصف سفرجل وتفاح ورمان:

[المتقارب]

بعثْتُ إليكَ ضحى المهْرَجَا نِ بِمعشُوقَةِ العَرْفِ وَالمنظَرِ
معطَّرةٍ صَانَها في الحجا لِ مَطَارِفُ مِنْ سندُس أخضرِ
وَبيضاءَ رَائِقةٍ غَضَّةٍ مَنقَّطةِ الوَجْهِ بِالعُصْفُرِ
وَحُقّ عقِيقٍ ملاهُ الهجيـ ـرُ مِنَ الجوهَرِ الرَّائِقِ الأَحْمَرِ
وَأَقْدَاحُ تِبْرٍ حشَتْ قَعرَها يدُ الشَّمْسِ بالمسكِ والْعَنْبرِ
فكنْ ذا قَبول لها إنها هدَايا مُقلٍّ إلى مُكثِرِ
وعِشْ ما تشاءُ كما تشتهِي بعزٍّ يدومُ إلى المحشَرِ

وله في النّارنج:

[البسيط]

أما ترى شجر النَّارنْجِ طَالعةً نجُومُها فِي غصُونٍ لَدْنةٍ ميلِ[2]
كأنها بيْن أَوْرَاقٍ تحفُّ بها زُهرُ المصابِيح فِي خُضرِ الْقَنادِيلِ

ولأبي الفضل الميكالي في وصف الشّقائق:

[الطويل]

تصُوغُ لنا كفُّ الربيع حَدَائِقاً كعقْدِ عَقِيقٍ بَيْنَ سِمْطِ لآلِي

---

(١) طرف العنان: بمعنى خفيف. والمطهم: البارع الجمال والتّام من كل شيء.
(٢) ميل: جمع أميل.

وَفيهنّ أنوارُ الشقائق قد حَكَتْ خدُودَ عذَارى نُقّطَتْ بِغَوَالِي

وله في اقتران الزهرة والهلال:

[الرّجز]

أما ترى الزُّهرةَ قَدْ لاحتْ لنا تحت هِلالٍ لونهُ يحكي اللَّهبْ
كَكُرَةٍ من فضّة مجلُوَّةٍ أوْفَى[1] عليها صَوْلجانٌ مِنْ ذهَبْ

وله في الفجر:

[الكامل]

أهلاً بفجر قد نَضا ثوْب الدُّجَى كالسيْفِ جُرِّد مِنْ سوادِ قِرابِ

وقال في وصف الثلج الساقط على غصون الشّجر:

[الكامل]

نثَر السَّحابُ على الْغُصُونِ ذُرارةً أهدَتْ لها نَوْراً يرُوقُ ونورا
شابتْ ذوائبُها فَعدْن كأنها أجْفانُ عين تحملُ الكافورا

وقال في الجليد:

[الرّجز]

رُب جنينٍ مِنْ جنَى نميرِ مُهتَّكُ الأستار والضميرِ
سلَلْتهُ مِنْ رَحِمِ الغديرِ كأنهُ صحائفُ الْبلُّورِ
أو أكرٌ تجسّمت من نورِ أوْ قِطع من خالص الكافورِ
لو بقيَت سلكاً على الدُّهورِ لعطّلتْ قلائدَ النُّحورِ
وَأخجلتْ جواهر الْبُحُورِ وَسُمِّيَتْ ضرائرُ الثُّغورِ[2]
يا حُسنَه في زمن الحدورِ إذ فيضه مِثل حشا المهجورِ
يُهْدِي إلى الأكبادِ والصُّدورِ روحاً تحاكي نفثَةَ المصدورِ[3]

---

(١) أوفى: أشرف.
(٢) ضرائر: جمع ضرة وهي إحدى زوجي الرّجل، وأراد بضرائر الثغور الأسنان.
(٣) النّفثة: ما ينفثه المصدور من فيه.

ولأبي طاهر بن الهاشمي في وصف روضة:

[المنسرح]

وروضة زارها النّدى فغدت ... لها من الزهر أنْجُمٌ زهرُ
تنثر فيها أيدِي الرَّبيعِ لنا ... ثوباً منْ الوَشي حاكَهُ القَطرُ
كأنما شُقَّ من شقائِقها ... على رُباها مطارفٌ خضرُ
ثمَّ تبدَّت كأنها حَدقٌ ... أجفانُها من دِمائِها حُمرُ

ولأبي نصر سهل بن المرزبان في وصف البدر:

[الكامل]

كم ليلةٍ أحييتها ومُؤَانِسِي ... طُرفُ الحديثِ وطيبُ حثّ الأكؤسِ
شبَّهت بدر سمائِها لما دنت ... منه الثريَّا في قَميصٍ سُندسي
ملِكاً مَهيباً قاعداً في روضةٍ ... حَيَّاه بعض الزائِرين بنَرجسِ

وللحسن بن أحمد البروجردي في حوض لبعض الرّؤساء:

[الكامل]

حَوْضٌ يجودُ بجوهرٍ متسلسلٍ ... ساد الجواهرَ كلَّها بنفاسَتِهْ
لا زال عذباً جارياً ببقاءِ مَن ... هُو مثلُه في طبعِهِ وَسلاستِهْ

ووصف ابن أنيس سيف عمرو بن معدي كرب فقال:

[الخفيف]

أخضرُ المتْنِ بَين حَدَّيهِ نورٌ ... من فِرند تحار فيه العيونُ
أوقِدت فيهِ للصَّواعق نارٌ ... ثمَّ ساطت بِهِ الزُّعَاف المنونُ[1]
فإذا ما سَلَلْتهُ بَهَرَ الشّمـ ... ـس ضياءً فلم تكدْ تتبينُ
فكأن الفِرند والرَّونق الجا ... ري في صَفحتَيْهِ ماءٌ معينُ[2]
وكأن المنون نيطت إليهِ ... فهو من كلّ جانبيهِ منونُ
ما يُبالي من انتضاهُ لحربٍ ... أشمَالٌ سطَت بهِ أم يَمِينُ

(١) ساطت: خلطت.
(٢) معين: جار.

وقال ابن عبد ربه في وصف الرّمح والسيف:

[الطويل]

بكلِّ رُدَينيٍّ كأنَّ سِنانهُ شهابٌ بَدَا في ظُلْمَةِ اللَّيل ساطعُ
تقاصرتِ الآجالُ في طُولِ متنهِ وعادَت بِهِ الآمالُ وهي فجائعُ
وساءت ظنون الحرب في حسن ظنهِ فَهُنَّ لِحبَّاتِ القلوبِ قوارعُ
وَذِي شطَبٍ[1] تقضي المنايا لحكمهِ وليس لِمَا تقضي المنيَّةُ دافعُ

وقال أيضاً في وصف الحرب:

[الوافر]

ومُعتركٍ تهزُّ به المنايا ذُكورَ الهند في أيدِي ذُكورِ
لوَامعُ يبصرُ الأعمى سناها ويَعمى دُونها طرفُ البصيرِ
يحوّمُ حولها عِقْبانُ موت تخطّفتِ القلوبَ من الصُّدورِ

ومن قوله في وصف الحرب وأبطالها:

[الطويل]

سيوفٌ يَقيلُ الموْتُ تحتَ ظُباتِها لها في الكُلى طَعمٌ وبين الكلى شربُ
إذا اصطَفّتِ الرَّاياتُ حُمراً مُتونُها ذوائبها تهفو فيهفو[2] لها القلبُ
ولم تنطقِ الأبطالُ إلّا بفعلها فألسُنها عُجْمٌ وأفعالُها عُرْبُ
إذا ما التقوا في مأزقٍ وتَعانَقوا فلقياهُم طَعْنٌ وتعنيفهُم ضربُ

ولابن قلاقس في وصف السحاب والبرق والغيث:

[الطويل]

سَرى وجبينُ الجوِّ بالطَّلِّ يَرشحُ وثوبُ الغوادي بالبُروقِ موشَّحُ
وفي طَيّ أبراد النّسيمِ خَمِيلةٌ[3] بِأعطَافها نَوْرُ الْمُنى يتفتَّحُ

(١) شطب: جمع شطب وهي طريقة السيف أي: الواحدة من الخطوط التي في نصله.
(٢) هفت الراية: خفقت، وهفا القلب: ذهب في أثر الشّيء.
(٣) الخميلة: الشّجر الكثير الملتف والموضع الكثير الشّجر.

يضاحك في مَثنى المعاطف عارضٌ مدامعهُ في وجنَةِ الرَّوض تُسفَحُ
وتوري به كفُّ الصَّبا زنْد بارقٍ شِرارتهُ في فحمةِ الَّليل تَقدَحُ

ومن قصيدة لأبي القاسم عبد الصّمد بن بابك في الصّاحب يصف فيها إضرام النّار:

[البسيط]

وليلةٍ بتُّ أشكو الهمَّ أوَّلَها وعُدتُ آخرَها أستنجدُ الطَّرَبا
في غيضةٍ[1] من غياض الحزْن دانيةٍ مَدَّ الظلامُ على أوراقِها طُنبا
حتى إذا النّار طاشتْ في ذوائبها عاد الزُّمرُّدُ من عيدانها ذَهبا
مَرقْتُ منها وَثَغْرُ الصُّبح مُبتسِمٌ إلى أغرَّ يَرى المذْخورَ ما وهبا
يا أغْزر الناسِ أنواءً ومَحتلباً وأشرفَ الناسِ أعراقاً ومُنتَسبا
أصبحتُ ذا ثِقة بالوَفر منكَ وإنْ قال العواذلُ ظنٌّ رُبّما كذَبا
فحسنُ ظنّي بك استوْفَى مدَى أملي وحُسنُ رأيكَ لي لم يُبقِ لي أربا

ومن قصيدة لأبي سعيد الرّستمي يصف بها داراً بناها الصاحب بن عباد:

[الطويل]

وساميةِ الأعلامِ تلحظُ دونَها سَنا النّجم في آفاقها مُتضائِلا
نَسخت بها إيوانَ كسرى بن هَرْمُز فأصبحَ في أرض المدائن عاطلا
فلوْ لحظتْ جناتُ تدمُر حُسنَها درَتْ كيفَ تُبْنَى بعدهُنَّ المجادِلا
تناطحُ قرن الشّمس من شرفاتها[2] صفوفُ ظِباءٍ فوقهُنّ مَواثِلا
ولو أصبحت داراً لك الأرضُ كُلُّها لَضاقتْ بِمَنْ ينْتابُ دَارَكَ آمِلا
وَأَغْنَى الْورى عن منزلٍ منْ بنت لهُ معالِيهِ فَوْقَ الشّعَرَيَيْن مَنَازِلا
ولا غَرو أن يستحدِث الّليثُ بالثرَى عريناً وأنْ يَسْتَطْرِقَ الْبَحْرَ ساحلا
ولم تعتمدْ دَاراً سوَى حوْمَةِ الْوَغَى وَلا خدماً إلاَّ الْقنَا والقنابِلا

(١) الغيضة: الأجمة ومجتمع الشّجر في مغيض ماء.
(٢) شرفات البناء: مثلثات تبنى متقاربة في أعلى القصر.

وَوَالله مَا أَرْضَى لك الدَّهرَ خادِماً ولا الْبدرَ مُنتاباً ولا البحر نائِلا
ولا الفلك الدَّوار داراً ولا الورى عبيداً ولا زُهر النُّجومِ قَبائلا
فإنَّ الَّذِي يبْنِيهِ مثلُكَ خالدٌ وسائرُما يبني الأنامُ إلى بِلَى

ولخليل مطران بك في وصف روض:

[الخفيف]

أيها الرَّوْضُ كُنْ لِقلبِي سلاماً ومَلاذاً من الشقاءِ الملازمْ
زَهرٌ ذَابِلٌ كأنِّي أرَاهُ ثملاً من أنفاسِهِ فِي الْكمائمْ
وَغَدِيرٌ صافٍ أقَام سياجاً حولهُ باسقٌ منَ الدَّوح قائمْ
تتناغى بيضٌ من الطير فيهِ سابحاتٌ وتحتها النجم عائمْ
كيفما سرن فالطريق عُقودٌ نُظّمت من محاجرٍ ومباسمْ
حبَّذا البدرُ مُؤْنِساً يَتَجَلَّى كَحَبِيبٍ بعدَ التَّغَيُّبِ قَادِمْ
حبَّذا رسْمُهُ البَرَايَا كَأَبْهَى مَا تَرَى العَيْنُ فِي صَحِيفَةِ رَاسِمْ
حبذا الْمَاءُ وَالْمَصَابِيحُ فيهِ كَبَنانٍ يزينُها بِخَوَاتِمْ
جنةٌ بَانتِ الْمَكَارِهُ عَنْهَا وهي بكرٌ مِنَ الأذى وَالمحارِمْ
إنما أهلُها طُيُورٌ حِسَانٌ إن دعاها الصَّباحُ قامت تُنَادِمْ
وَضِيَاءٌ يَمُوجُ فِي الْمَاءِ حتى لَتَرَاهُ كأنهُ مُتلاطِمْ
وَمُرُوجٌ مُدَبَّجَاتٌ كوَشْيٍ أتقَنتْ صُنعَهُ جِنانُ المعَاصِمْ
وَغصُونٌ تهزُّها نَسَمَاتٌ كَمُهُودٍ تهزُّهنَّ روائِمْ[1]

وقال البحتري واصفاً صناعة الكتابة والإنشاء:

[الخفيف]

تفنّنتَ في الكتابة حتّى عطّل الناس فنّ عبد الحميدِ
في نظام من البلاغة ما شـ ـكَّ امرؤ أنه نِظام فريدِ
وبديع كأنه الزّهر الضّا حك في رونق الربيع الجديدِ

(١) الرّوائم: جمع الرّائمة وهي الوالدة العاطفة على ولدها الملازمة له.

مشرق في جوانب الـمع ما يُخـ لمقه عوده على المستفيدِ
ما أُعيرَت منه بطون القراطيـ س وما حملتْ ظهور البريدِ
حُجج تخرسُ الألدّ بألـ ـفاظ فُرادى كالجوهر المعدودِ
ومعان لو فصّلَتْها القوافي هجّنتْ شعر جَرْوَل ولبيدِ
حُزْنَ مستعمل الكلام اختياراً وتجنّبنَ ظُلمة التّعقيدِ
وركبن الّلفظ القريب فأدركـ ن به غاية المراد البعيدِ
كالعذارى غَدَوْنَ في الحُلل البيـ ض إذا رُحْنَ في الخطوط السُّودِ

وقال ابن حميدس الصقليّ يصف داراً بناها المنصور:

[الكامل]

أعمِرْ بقصر الملك نادِيك الذي أضحى بمجدك بيته مَعمورا
قصرٌ لوَ انّك قد كحلت بنوره أعمى لعاد إلى المقامِ بصيرا
واشتقّ من معنى الجنان نسيمهُ فيكاد يحدِث بالعِظام نشورا
نُسيَ الصَّبيح مع الفصيح بذكره وسما ففاق خورنقاً وسدِيرا
أبصرته فرأيت أبدع منظر ثم انثنيتُ بناظري محسُورا
فظننتُ أني حالِمٌ في جنّة لمّا رأيت الملكَ فيه كبيرا
لوْ أنّ بالإيوانِ قوبل حُسنهُ ما كان شيئاً عنده مَذكورا
أعْيتْ مصانِعه على الفُرس الألى رفعوا البناء وأحكموا التّدبيرا
ومضتْ على الرُوم الدُّهور وما بنوا لملوكهم شبَهاً له ونظيرا
أذكرْتنا الفرْدوس حين أريْتنا غُرفاً رفعتَ بناءها وقُصورا
ومُحصَّبٌ بالدُّرِّ تحسَبُ تُرْبهُ مِسكاً تضوَّع نشرهُ وعبيرا
تتخلفُ الأبصار منه إذا أتى صبَحاً على غسق الظّلام مُنيرا

ووصف أعرابي تزوّج امرأتين ما وقع له منهما فقال:

[الوافر]

تزوّجتُ اثنتين لفرط جهلي بما يشقى به زوج اثنتينِ

فقلت أصير بينهما خروفاً أُنعَّمُ بين أكرم نعجتينِ
فصرت كنعجة تُضحي وتُمسي تُداولُ بين أخبث ذئبتينِ
رضا هذي يُهيّج سُخط هذي فما أعرى من إحدى السّخطتينِ
وألقى في المعيشة كل ضرّ كذاك الضّرّ بين الضّرتينِ
لهذي ليلةٌ ولتلك أخرى عتابٌ دائمٌ في اللّيلتينِ
فإن أحببتَ أن تبقى كريماً من الخيرات مملوء اليدينِ
فعش عزباً فإن لم تستطعه فضرباً في عراض الجحفلينِ

وقال أبو تمام حبيب بن أوس الطائي في وصف الرّبيع:

[الكامل]

يا صاحبيّ تقصّيا نظريكُما تريا وُجُوهَ الأرض كيف تُصَوّرُ
تريا نهاراً مُشمِساً قد زانه زهر الرُّبا فكأنما هوَ مقمرُ
دنيا مَعاشٌ للورى حتى إذا حلّ الرَّبيع فإنما هي منظرُ
أضحتْ تصوغُ بطونها لظهورها نَوْراً تكاد له القلوبُ تَنوَّرُ
من كلّ زاهرةٍ ترقرَقُ بالنَّدى فكأنها عينٌ لديك تُحَدَّرُ

وقال أبو عبادة البحتريّ يصف قصر المعتز بالله:

[الكامل]

لما كملتَ رويّةً وعزيمةً أعملتَ رأيكَ في ابتناءِ الكاملِ
وغدوْت من بين الملوك مُوَفّقاً منهُ لِأيمنِ حلَّةٍ ومنازلِ
ذُعرَ الحمامُ وقد ترنّم فوقهُ من منظرٍ خطر المزَلّةِ هائلِ
رُفِعَتْ لمُخترقِ الرّياحِ سُموكهُ وزهتْ عجائبُ حسنِهِ المتحايلِ
وكأنَّ حيطانَ الزُّجاج بجوّه لُججٌ يَمُجْنَ على جنوب سواحلِ
وكأنّ تفويفَ الرُّخَامِ إذا التقى تأليفُه بالمنظر المتقابلِ
حَبْكُ الغمام رُصِفْنَ بين مُنمَّرٍ ومُسيَّر ومقاربٍ ومشاكلِ

لبستْ من الذَّهب الصَّقيلِ سُقوفهُ نوراً يضيء على الظلامِ الحافلِ
فترى العيونَ يجُلنَ في ذِي رونقٍ مُتلهّبِ العالي أنيقِ السَّافلِ
وكأنما نثرتْ على بُستانِهِ سِيرَاءُ وشْي اليُمْنة المتواصلِ
أغْنتْهُ دِجلة إذ تلاحق فيضُها عن صَوْبِ منسحِب الرَّبابِ الهاطلِ
وتنفّست فيهِ الصَّبا فتعطفّتْ أشجارهُ من حُوَّلٍ وَحَوامِلِ

وقال المتنبي في وصف جواد:

[الطويل]

ويومٍ كلوْنِ المُدْنفين كمِنتهُ أراقبُ فيهِ الشَّمس أيّان تغربُ
وعيني إلى أُذني أغرُّ كأنه من اللّيل باق بين عينيهِ كوكبُ
له فضلةٌ من جسمهِ في إهابه تجيءُ على صَدرٍ رحيبٍ وتذهبُ
شققت بهِ الظلماءَ أدني عنانهُ فيطغى وأُرخيهِ مراراً فيلعبُ
وأصرعُ أيَّ الوحشِ قفيتُ لهُ وأنزل عنهُ مثلهُ حين أركبُ
وما الخيل إلاّ كالصَّديق قليلةٌ وإن كثرتْ في عينِ من لا يجرّبُ
إذا لم تشاهدْ غير حسن شياتِها وأعضائها فالحسنُ عنك مغيَّبُ

وقال صفيّ الدّين الحلّي المتوفّى سنة ٧٥٠هـ في وصف الرّبيع:

[الكامل]

وَرَدَ الرَّبيعُ فمرْحباً بِوُرُدِهِ وَبنُورِ بهجَتِهِ ونَور وُرُودِهِ
وَبِحُسن مَنْظَرِهِ وطِيبِ نَسيمِهِ وأنِيق مَبْسَمِهِ وَوَشْيَ بُرُودِهِ
فصلٌ إذا افْتخرَ الزَّمانُ فإنَّهُ إنسانُ مُقلَتِهِ وَبَيْتُ قصيدِهِ
يُغني المزَاج عن العِلاج نَسيمُهُ بِاللُّطْفِ عِنْدَ هُبُوبِهِ وَرُكُودِهِ
يا حَبَّذا أزْهَارُهُ وَثمَارُهُ وَنَبَاتُ ناجمه وَحَبُّ حَصيدِهِ
وَالغُصْنُ قَدْ كُسِيَ الغَلائل بعْدما أخذَتْ يدا كانُون في تجريدِهِ
نال الصبا بعد المشيب وقد جرى ماءُ الشّبيبةِ في منابت عودِهِ

والـورْدُ فـي أعـلـى الـغـصـون كـأنَّـهُ مـلِـكٌ تَـحِـفُّ بـهِ سـراةُ جُـنـودِهِ
وانـظـر لـنـرجـسِـه الـجـنـيّ كـأنّـهُ طـرفٌ تَـنـبَّـه بـعـد طـول هُـجـودِهِ
وانـظُـر إلـى الـمـنـثـور فـي مـنـظـومـه مُـتـنـوّعـاً بـفـضـولِـهِ وعـقـودِهِ

وقال أيضاً في وصف حديقة:

[البسيط]

وأطلق الطَّيرُ فيها سَجْع منطقِهِ ما بين مختلفٍ منه ومتَّفقِ
والظّلُّ يسرقُ بين الدَّوح خطوتهُ وللمياهِ دبيبٌ غيرُ مستَرقِ
وقد بدا الوردُ مُفتَرّاً مباسِمُهُ والنرجس الغضُّ فيها شاخص الحدقِ
والسُّحبُ تَبْكي وثغر البرق مبتسمٌ والطيرُ تسجع من تيهٍ ومن أنقِ
فالطير في طربٍ والسّحب في حَرَبٍ والماء في هَرَبٍ والغصن في قَلَقِ

وقال أحمد شوقي بك في وصف الطبيعة:

[الكامل]

تلك الطّبيعة قِف بنا يا ساري حتى أُريك بديعَ صُنْعِ الباري
الأرض حولك والسماء اهتزَّتا لروائع الآيات والآثارِ
ولقد تمرّ على الغدير تَخالُه والنبت مرآةٌ زَهَتْ بإطارِ
حُلو التّلل موجُهُ وخريرُهُ كأنامل مرّت على أوتارِ
ينسابُ في مُخضَلَّةٍ مُبتَلّةٍ منسوجة من سندس ونُضارِ
وترى السماء ضحًى وفي جنح الدُّجَى منشقَّة عن أنهرٍ وبحارِ
في كل ناحية سلكتَ ومَذهبٍ جبلان من صخرٍ وماءٌ جارِ

وقال محمد حافظ بك إبراهيم يصف النّيل:

[البسيط]

نظرت للنيل فاهتزّت جوانبه وفاض بالخير في سهل ووديانِ
يجري على قدر في كل منحدر لم يجفُ أرضاً ولم يعمد لطغيانِ
كأنه ورجال الرّيّ تحرسه مملّكٌ سار في جندٍ وأعوانِ

قد كان يشكو ضياعاً مذ جرى طَلِقاً حتى أقمت له خزّان أسوانِ

وقال أيضاً عن لسان حال اللغة العربيّة واصفاً لها:

[الطويل]

رَجعت لنفسي فاتّهمت حَصاتي ونـاديت قومي فاحتسبت حياتي
رموني بعُقمٍ في الشباب وليتني عقمتُ فلم أجزع لقول عُداتي
ولدت ولما لم أجد لعرائسي رجالاً وأكفاءً وأدتُ بناتي
وسِعت كِتاب الله لفظاً وغاية وما ضِقت عن آي به وعِظاتِ
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلةٍ وتنسيق أسماءٍ لمخترعاتِ
أنا البحر في أحشائهِ الدر كامنٌ فهل سألوا الغوّاص عن صدفاتي
فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسني ومنكم وإن عزّ الدّواءُ أُساتي
فلا تكلوني للزّمان فإنّني أخاف عليكم أن تحين وفاتي
أرى لرجال الغرب عزّاً ومنعةً وكم عزّ أقوامٌ بعزّ لغاتِ
أتوا أهلهم بالمعجزات تفنُّناً فيا ليتكم تأتون بالكلماتِ
أيطرِبكم من جانبِ الغربِ ناعبٌ ينادي بِوَأْدي في ربيعِ حياتي
ولو تزجرون الطّير يوماً علمتمُ بما تحته من عثرةٍ وشتاتِ
سقى الله في بطن الجزيرةِ أعظماً يعزُّ عليها أن تلين قناتي
حفظن ودادي في البلى وحفِظته لهنّ بقلبٍ دائم الحسراتِ
وفاخرت أهل الغرب والشرق مطرقٌ حياءً بتلك الأعظمِ النّخراتِ
أرى كلّ يومٍ بالجرائد مَزلقاً من القبر يدنيني بغير أناةِ
وأسمع للكتّاب في مصر ضجّةً فأعلم أن الصائحين نُعاتي
أيهجرني قومي عفا الله عنهمُ إلى لغةٍ لم تتصل برواتي
سرت لوثة الأعجام فيها كما سرى لُعاب الأفاعي في مسيل فُراتِ
فجاءَت كثوبٍ ضمّ سبعين رقعةً مشكّلة الألوان مختلفاتِ

إلى معشر الكتّاب والجمع حافلٌ بسطت رجائي بعد بسط شكاتي
فإما حياةٌ تبعث الميت في البلى وتنبت في تلك الرموس رُفاتي
وإما مماتٌ لا قيامة بعده مماتٌ لعمري لم يُقَسْ بمماتِ

وقال شاعر العراق معروف الرّصافي واصفاً قطار البخار:

[الطويل]

وقاطرةٍ ترمي الفضا بدخانها وتملأ صَدْر الأرض في سيرها رُعبا
تمشّت بنا ليلاً تجرّ وراءَها قطاراً كصفّ الدّوح تحبه سحبا
فَطَوراً كعصف الرّيح تجري شديدةً وطوراً رُخاءً كالنسيمِ إذا هبا
تساوى لديها السّهل والصّعب في السُّرى فما استسهلت سهلاً ولا استصعبت صعبا
تدكّ متون الحزن دكّاً وإنها لتنهب سهل الأرض في سيرها نهبا
يَمرّ بها العالي فتعلو تسلّياً ويعترض الوادي فتجتازه وثبا
طوت بالمسير الأرض حتى كأنّها تسابق قُرص الشّمس أن تدرك الغَربا
هو العلم يعلو بالحياة سعادةً ويجعلها كالعلم محمودة العُقبى

وقال محمود باشا سامي البارودي يصف حرب سكان جزيرة اقريطش «كريد» حين خرجوا عن الطاعة سنة ١٢٨٢هـ:

[الكامل]

أخذَ الكَرَى بمَعاقِد الأجفان وَهَفا السُّرَى بأعنّة الفُرْسانِ
والليلُ مَنْشُور الذَّوائب ضارب فوْق المَتالِع والرُّبَى بجرانِ
لا تستبين العَين في ظَلمائه إلا اشتعال أسِنّة المرّانِ
تَسري به ما بين لُجَّة فِتْنةٍ تَسْمو غوَارِبُها على الطوفانِ
في كل مَرْبأة وكل ثَنِيَّةٍ تَهدار سامِرَة وَعَزْف قِيانِ
تَسْتنّ عادِيَة وَيَصْهَل أجْرَد وتصيح أجْراسٌ ويَهْتِفُ عانِ
قومٌ أبى الشّيطان إلا خسْرهم فتسلّلُوا من طاعة السلطانِ
مَلأُوا الفضاءَ فمايَبينُ لناظرٍ غيرُ التِماع البيض والخُرْصانِ

فالبدرُ أكدرُ والسماءُ مريضة والبحرُ أشكلُ والرّماحُ دَوانِ
والخيل واقفةٌ على أرْسانها لِطِرَاد يوْم كريهةٍ ورهانِ
وضعوا السِّلاح إلى الصباح وأقبلوا يَتكلّمون بألسُن النّيرانِ
حتى إذا ما الصّبح أسفَرَ وارتمتْ عَينايَ بين رُبَى وبين مَجانِ
فإذا الجبال أسنّة وإذا الوِها دُ أعِنَة والماءُ أحمرُ قَانِ
فَتَوَجَّسَتْ فَرْطَ الرّكاب ولم تكن لتهابَ فامتَنَعت على الأرْسانِ
فزعتْ فرَجَّعت الحنين وإنما تَحْنانها شَجَنٌ من الأشجانِ
ذكرَت مواردَها بمصر وأين من ماءٍ بمصرَ منازلُ الرُّومانِ

وقال السيد عبد الله النّديم المتوفى سنة ١٣١٤هـ يصف قطاراً بخارياً:

[الكامل]

نظر الحكيم صفاته فتحيَّرا شكلاً كطود بالبخار مُسيَّرا
دوْماً يحنُّ إلى ديار أصوله بحديد قلب باللَّهيب تَسَعَّرا
ويظلُّ يبكي والدّموع تزيده وجداً فيجري في الفضاء تستّرا
تلقاه حال السّير أفْعى تَلتَوِي أو فارس الهيجا أثارَ العثيرا
أو أكرةً أرسلتها ترمي بها غرضاً فجلّت أن ترى حال السّرى
أو سبعَ غابٍ قد أحسّ بصائد في غابه فعدا عليهِ وزَمْجرا
فكأنّه المديونُ جاء غريمه فانسلَّ منه وغاب عن تلك القرى
أو أنه شهُبٌ هوتْ من أفْقها أو قبّة المنطاد تنبذ بالعرا
لا عجب للنيرِان إذ يمشي بها فمن اللَّظَى تجري الورى كي تحشرا

وقال أحمد بك شوقي يصف الجسر الواصل بين ضفتي البسفور:

[الوافر]

أميرَ المؤمنين رأيت جسراً أمُرُّ على الصّراط ولا عليهِ
له خشب يجوع السّوس فيه وتمضي الفأر لا تأوي إليهِ

ولا يتكلّف المنشار فيه ... سوى مرّ الفطيم بساعديهِ
ويبلى نعْلُ مَنْ يمشي عليه ... وقبل النّعل يدمي أخمصيهِ
وكم قد جاهد الحيوان فيه ... وخلّف في الهزيمة حافريهِ
وأسمج منه في عيني جُباة ... تراهم وسطَهُ وبجانبيهِ
إذا لاقيت واحدهم تصدَّى ... كعفريت يشير براحتيهِ
ويمشي الصدر فيه كلّ يوم ... بموكبه السنيّ وحارسيهِ
ولكن لا يمرّ عليه إلّا ... كما مرّت يداه بعارضيهِ
ومن عجب هو الجسر المعلّى ... على البسفور يجمع شاطئيهِ
يفيد حكومة السلطان مالاً ... ويعطيها الغنى من معدنيهِ
يجود العالمون عليه هذا ... بعشرته وذاك بعشرتيهِ
وغاية أمرهِ أنا سمعنا ... لسان الحال ينشدنا لديهِ
أليس من العجائب أن مثلي ... يرَى ما قلّ ممتنعاً عليهِ
وتؤخذ باسمه الدُّنيا جميعاً ... وما من ذاك شيء في يديهِ

وقال المأمون المتوفّى سنة ٣٨٣هـ يصف المقراض:

[مجزوء الرّجز]

وصاحبين اتفَقا ... على الهوى واعتنقا
وأقسما بالودِّ والإ ... خلاص أن لا يفترقا
ضمّهُما أزهرُ كالنّج ... م بهِ قد وثِقا
لم يَشك خَصْرَيهما ... مذ ضَمناهُ قَلقا
من تحته عَيْنان منـ ... ـذ انفَتَحا ما انطَبَقا
وفوقَه نابانِ ما ... حَلَّا فماً مُذ خُلِقا
يُفَرِّقانِ بينَ كـ ... ـلّ ما عليه اتفقا
فأيُّ شيء لاقَيا ... هُ أَلقَياهُ فِرَقا

obeikandl.com

وقال أبو بكر الأرّجاني المتوفّى سنة ٥٢٤هـ يصف الشّمعة:

[البسيط]

نَمّتْ بأسرار ليلٍ كان يُخفيها وأطلَعَتْ قلبها للناس من فيها
غريقة في دموع وهي تُحْرقُها أنفاسُها بدوامٍ من تَلَظِّيها
تَنَفَّسَتْ نفس المهجور إذ ذكرت عهد الخليط فبات الوَجْدُ يُذكيها
يخشى عليها الرَّدى مهما أَلمّ بها نسيمُ ريحٍ إذا وافى يُحيِّيها
قد أثمرتْ وَرْدةً حمراءَ طالعة تُجني على الكفِّ إن أهوَيْت تجنيها[1]
وَردٌ تُشاك به الأيدي إذا قُطِفَتْ وما على غُصنها شوْكٌ يُوَقّيها
صُفْرٌ غَلائلها، حُمْرٌ عمائمها سودٌ ذوائبها، بِيضٌ لَياليها

وقال ابن حمديس[2] الصقلي يصف قصراً شيده المنصور بن أعلى النّاس ببجاية[3]، وجعل فيه بركة عليها أشجار من ذهب وفضة، وعلى حافاتها أُسُودٌ تقذف بالماء:

[الكامل]

أعمر بقصر المُلكِ ناديكَ الذي أضْحى بمجدِك بيتَه معمورا
قصرٌ لوَ أنك قد كحلتَ بنوره أعمى لعاد من الضِّياءِ بصيرا
واشتقّ مِن معنى الجنانِ نسيمهُ فيكادُ يُحدِثُ بالعظامِ نُشورا
أذكرْتنا الفرْدوسَ حين أرَيتنا غُرفاً رفعتَ بناءَها وقصورا
فلكٌ من الأفلاكِ، إلا أنه حقَرَ البدور فأطلع «المنصورا»
وإذا الولائدُ فتّحَتْ أبوابه جعلت تُرَحب بالعُفاة صريرا[4]

(١) تجني الأولى بمعنى تعتدي، والثانية بمعنى تقطف.
(٢) هو عبد الجبار بن أبي بكر توفي سنة ٥٢٧هـ وهو من أبرع الشّعراء إن لم يكن أبرعهم في وصف البرك والأنهار والقصور والتّماثيل، فلقد كان إذا وصف شيئاً من ذلك جعله كالحناء وخيالها في المرآة.
(٣) بجاية كحكاية: بلد بالمغرب.
(٤) العفاة: جمع عاف وهو طالب الحاجة. والصرير: صوت الباب.

عضّت على حلقاتهنّ ضَراغِم فَغَرَتْ بها أفواهها تكبيرا[١]
فكأنها لَبَدَت لِتهصر عندها من لم يكن بدخولها مأمورا[٢]
ومُصفحِ الأبوابِ تِبراً نَظّروا بالنّقش فوق شكوله تنظيرا[٣]
خَلعت عليه غلائل مَوشيّةً شمسٌ تردّ الطرف عنه حَسيرا[٤]
وإذا نظرتَ إلى غرائب سقفهِ أبصرتَ رَوْضاً في السماء نضيرا
وعجبتَ من أطيار عَسْجَدهِ حامت لِتبني في ذُراهُ وُكورا
وضعت به صُنّاعُها أقلَامها فأرَتكَ كلّ طَريدة تصويرا[٥]
وكأنما للشمس فيه لِيقَةٌ مشَقوا بها التّزويق والتّشجيرا[٦]
وضراغم سكنت عَرينَ رياسة تركت خريرَ الماء فيه زئيرا
فكأنما غشّى النُّضار جسومها وأذاب في أفواهها البلّورا
أُسدٌ كأن سكونها متحرّك في النفس لو وَجدَت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكأنما أقْعَت على أدبارها لتثورا[٧]
وتخالُها والشّمس تجلو لونها ناراً، وألْسُنها اللّواحس نورا
فكأنما سلمت سيوف جداول ذابت بلا نار فَعُدْن غديرا
وكأنما نسجَ النّسيم لمائِه دِرعاً، فقدّر سردَها تقديرا[٨]

(١) فغر فاه: فتحه.
(٢) لبد كنصر: أقام. والهصر: الدّفع
(٣) نظر: مثل. والشّكول جمع شكل.
(٤) الغلائل: جمع غلالة وهي شبه القميص يلبس على الجسد والمراد هنا الطلاء. والموشية: المنقوشة.
(٥) الطريدة: ما يطارده الصياد ويتبعه.
(٦) الليقة: ما يكون في الدّواة لاصقاً بصوفه أو نحوها والفعل منها كباع. ومشق الكتابة: مد حروفها. والتّشجير: أن تشكل على هيئة الشّجر.
(٧) أقعى الكلب والسبع: جلس على مؤخره ناصباً يديه.
(٨) السرد: نسج الدّرع. وتقديره: أن تكون ثقوب الدّرع مساميرها.

وبديعةِ الثمراتِ تعبر نحوها عيناىَ بحرَ عجائب مسجورا[١]
ثجريّةٍ، ذهبية، نزَعتْ إلى بِحْر يؤثر في النّهى تأثيرا[٢]
قد سُرّجَت أغصانها فكأنما قبضَت بهنَّ من الفضاء طيورا[٣]
وكأنما تأبى لوُقّعِ طيرها أن تستقلّ بنهضها وتطيرا[٤]
من كلِّ واقعة ترى مِنقارها ماءً كسلسال اللجين نميرا[٥]
خُرْضٌ تُعدُّ من الفصاح فإن شدَت جعلت تغرِّد بالمياه صفيرا[٦]
وكأنما في كل غصن فضة لانت فأُرْسل خيطها مجرورا
وتريك في الصِّهريج موقع قطرها فوق الزَّبرْجَد لُؤلؤاً منثورا
ضحكت محاسنه إليك كأنما جُعلت لها زهر النّجوم ثغورا

وقال المرحوم حافظ بك إبراهيم يصف زلزال صقلية في سنة ١٩٠٩م:

[الخفيف]

نبِّئاني إن كنتما تَعلمان ما دَهى الكون أيها الفرقَدانِ[٧]
غَضِبَ الله أم تمرّدت الأر ض فأنحت على بَني الإنسانِ[٨]
ليس هذا سبحان ربي ولا ذا ك ولكنْ طبيعةُ الأكوانِ
غَليانٌ في الأرض نَفَّس عنه ثَورَانٌ في البحْر والبركانِ[٩]

---

(١) المسجور: المملوء.
(٢) نزع إليه. أشبهه. يقال: فلان ينزع إلى أبيه أو ينزع أباه أي: يشبهه.
(٣) سرجه: حسنه وزينه.
(٤) الوقع كركع: جمع واقع.
(٥) السلسة: اتصال الشّيء بالشّيء، ومن ذلك المال السلسال أي: السهل الجريان. واللجين: الفضة. والنّمير: النّاجع من الماء.
(٦) شدا: ترنم.
(٧) الفرقدان: نجمان في السماء لا يغربان وهذا هو السر في قول المعرّي: **[الخفيف]**

فاسأل الفرقدين عمن أحنّا من قبيل وآنا من بلاد

وفي أثره جرى شاعرنا.
(٨) أنحى عليه ضرباً: أقبل.
(٩) نفس عنه: فرج.

ربِّ أينَ المفرُّ والبحْرُ والبـ ـرُّ على الكيدِ للورى عاملانِ
كنت أخشى البحارَ والموت فيها راصدٌ غفلة من الرُبانِ[١]
سابح تحتنا مُطل علينا حائم حولنا مُناء مُداني[٢]
فإذا الأرض والبحار سواءٌ في خَلاق، كلاهما غادرانِ[٣]
ما لمسِّينَ عوجلت في صباها ودعاها من الرّدى داعيانِ[٤]
ومَحَت تِلكم المحاسن منها حين تمّت آياتُها آيتانِ
خُسِفَت ثم أغرقتْ ثم بادت قضيَ الأمر كله في ثَواني
وأتى أمْرُها فأضحت كأن لم تَكُ بالأمس زينةَ البلدانِ
ليتَها أُمهلت فتقضي حقوقاً من وداع اللِّداتِ والجيرانِ[٥]
لمحةٌ يَسْعد الصّديقان فيها باجتماع ويلتقي العاشقانِ
بغت الأرض والجبال عليها وطغى البحر أيما طغيانِ
تلك تغلي حقداً عليها فتنـ ـشقّ انشقاقاً من كثرة الغليانِ
فتجيب الجبال رجماً وقذفاً بشُواظ من مارجٍ ودخانِ[٦]
وتسوق البحار رَدّاً عليها جيش موج نائي الجناحين داني
فهنا الموت أسود اللون جَون وهنا الموت أحمر اللون قاني[٧]
جَنّدَ الماء والثرى لهلاك الـ ـخلقِ ثمّ استعان بالنيرانِ
ودعا السُّحب عاتياً فأمدّ ته بجيش من الصواعق ثاني[٨]

(١) الرّبان كرمان: رئيس الملاحين.
(٢) مناء مداني: مباعد مقارب.
(٣) الخلاق: الحظ أو الدين، وإنما يكون ذلك في الخير ولكن الشّاعر توسع في استعمال الكلمة.
(٤) مسين: مدينة من مدن صقلية خربها هذا الزلزال وتعرف عند العرب بمسيني. ومن شعر ابن قلاقس «يا من يمسيني على مسيني». وداعيا الرّدى: الإغراق والإحراق.
(٥) اللدات: جمع لدة وهو التّراب أي: النّظير في السن.
(٦) الشّواظ: لهب لا دخان له. والمارج: النّار بلا دخان.
(٧) الجون: الأسود فهو تأكيد. والقانئ «بالهمزة»: الشّديد الحمرة وقد يسهل.
(٨) العاتي: المجاوز للحد.

openkandil.com

فاستحال النّجاء واستحكم اليأ س وخارت عزائم الشّجعانِ
وشفى الموتُ غلةً من نفوس لا تباليه في مجال الطعانِ
أين رجْيُو وأين ما كان فيها من مغانٍ مأهولة وغواني[١]
عوجلت مثل أختها ودهاها ما دهاها من ذلك الثورانِ
رُبّ طفلٍ قد ساخ في باطن الأر ض ينادي أمي! أبي! أدركاني[٢]
وفتاةٍ هَيفاء تُشْوى على الجمـ ر تُعاني من حرّه ما تُعاني
وأبٍ ذاهلٍ إلى النّار يمشي مُسْتَميتاً تمتدُّ منه اليدانِ
باحثاً عن بناته وبنيه مُسْرعَ الخطو مُسْتطير الجَنانِ[٣]
تأكل النار منه لا هو ناج من لظاها ولا اللظى عنه واني[٤]
غصّت الأرض، أُتخِم البحر مما طواه من هذه الأبدانِ[٥]
وشكا الحوت للنسور شكاة ردّدتها النّسور للحيتانِ
أسرفا في الجموم نقراً ونَهشاً ثم باتا مِنْ كِظة يشكوانِ[٦]
لا رَعَى اللهُ ساكن القِمم الشمِّ ولا حاط ساكن القيعانِ[٧]
قد أغارا على أكفٍّ بَراها بارئ الكائنات للإتقانِ
كيف لم يَرْحَمَا أناملها الغُـ رَّ ولم يَرفقا بتلك البنانِ
لَهْفَ نفسي وألف لَهفٍ عليها من أُكُفّ كانت صناع الزّمانِ[٨]

(١) رجيو: مدينة بإيطاليا أمام مسيني وتعرف عند العرب بريو، والمغاني: جمع مغنى وهو المقام.
(٢) ساخ في الأرض: دخل فيها وغاب.
(٣) المستطير: المتفرق المشتت.
(٤) اللظى: اللهب. وونى: تراخى.
(٥) غص كفرح: اعترض في حلقه شيء، والمراد هنا امتلأ وأتخمه الطعام، أحدث له تخمة وأصل تائه واو من الوخامة.
(٦) الكظة: ما يعتري الإنسان من امتلاء الطعام.
(٧) القيعان: جمع قاع وهو الأرض السهلة المطمئنة انفرجت عنها الجبال، ومراد الشّاعر بها البحر أو قراره.
(٨) يا لهفي على كذا: عبارة يتحسر بها على فائت، وضمير «عليها» للأكف، ومن أكف بيان للضمير. وصناع: حاذقة ماهرة في العمل اليدوي.

مُولعاتٍ بصيد كل جميل ... ناصباتٍ حبائل الألوانِ
حافراتٍ في الصّخر أو ناقشات ... شائدات روائع البُنيانِ
مُنطقات لسان كل جماد ... مُفحِماتِ سواجع الأفنانِ(١)
مُلهمات من دقةِ الصنع مالا ... يلهم الشّعر من دقيق المعاني
من تماثيلَ كالنّجوم الدّراري ... يُهْدَم الدّهر وهي في عُنفوانِ
عجبٌ صُنعُها وأعجب منه ... صمْتُها، تلك قدرة الرّحمنِ
إيه مَسِّين آنسي اليوم بُمْبا ... يَ فقد أوْحَشَتْ بذاك المكانِ
آنسي الدّرة التي كانت الحلـ ... ـية في تاج دولة الرومانِ
غالها قبلك الزمان اغتيالاً ... وهي تلهو في غبطة وأمانِ
جاءها الأمر والسراة عكوف ... في الملاهي على غِناء القيانِ(٢)
بين صبٍّ مُدله وطروب ... وخليع في اللهو مُرْخى العنانِ(٣)
فانطَوَوا كانطواء أهلك بالأمـ ... ـس وزالت بشاشة العمرانِ
أنت مينُ لم تزولي كما زا ... لت ولكن أمسيت رهن الأوانِ
إن إيطاليا بنوها بُناةٌ ... فاطمئني ما دام في الحيِّ باني
فسلام عليكِ يوم تولـ ... ـيت بما فيك من مغان حسانِ
وسلام عليك يوم تعودي ... ن كما كنتِ جنة الطليانِ

وقال أبو الطيب المتنبي يصف الأسد:

[الكامل]

وردٌ إذا وردَ البحيرةشارباً ... ورد الفرات زئيره والنّيلا(٤)
متخضِّب بدم الفوارس لابسٌ ... في غِيله من لِبدتَيْه غِيلا(٥)

(١) سواجع الأفنان: الحمام يسجع على الغصون.
(٢) السراة: الأشراف. والقيان: جمع قينة، وهي الجارية المغنية.
(٣) الخليع: المتهتر بالشّراب واللهو.
(٤) الورد: الجريء والبحيرة: يريد بها بحيرة طبرية.
(٥) الغيل: الأجمة والشّجر الكثير الملتف. ولبدتا الأسد: ما على كتفيه من الشّعر.

ما قوبلت عيناه إلا ظنّتا تحت الدجى نار الفريق حُلولا[١]
في وحدة الرُّهبان إلا أنه لا يعرف التّحريم والتّحليلا
يطأ الثرى مترفقاً من تيهه فكأنه آس يجُسُّ عليلا[٢]
ويردُّ عَفرته إلى يَأفُوخِه حتى تصير لرأسه إكليلا[٣]
وتظنّه مما يزمجر نفسه عنها بشدة غيظه مشغولا
قصرَتْ مخافته الخطى فكأنما ركب الكَميُّ جوادَه مشكولا[٤]

قال أبو العباس المبرِّد: كنت مع الحسن بن رجاء بفارس، فخرجت إلى شعب بوان[٥]، فنظرت إلى تربة كأنها الكافور، ورياض كأنها الثوب الموشى وماء يتحدّر كأنه سلاسل الفضة، على حصباء كأنها حصى الدّرّ، فجعلت أطوف في جنباتها، فإذا في بعض جدرانها مكتوب:

[الطويل]

إذا أشرف المكروب من رأس تلعة على شعب بوّان أفاق من الكربْ[٦]
وألهاه مرجٌ كالحرير لطافة ومطرد يجري من البارد العذبْ
وطيب رياضٍ في بلاد مَريعة وأغصان أشجار جناها على قربْ[٧]

وفي شعب بوّان يقول المتنبي:

[الوافر]

مغاني الشعب طيباً في المغاني بمنزلة الرّبيع من الزمانِ[٨]
طبتْ فرساننا والخيل حتى خشيتُ وإن كرُمْن من الحرانِ[٩]

---

(١) الفريق: الجماعة، وحلولاً: حال من الفريق.
(٢) الآسي: الطبيب.
(٣) عفرة الأسد: الشّعر المتجمع على قفاه.
(٤) الكمي: الشّجاع المستتر في سلاحه. والمشكول: المقيد.
(٥) هو من جنان الدّنيا الأربع عند أدباء العرب.
(٦) التّلعة: ما ارتفع من الأرض وما انهبط منها، والمراد الأول.
(٧) المريعة: الخصبة، والميم أصلية يقال: مرعت الأرض وأمرعت.
(٨) المغاني: جمع مغنى اسم مكان من غنى أي أقام.
(٩) طباه وأطباه: استهواه واستماله.

عدوْنا تنفض الأغصانُ فيها ... على أعرافها مثل الجمانِ
فسرتُ وقد حجبنَ الشمس عني ... وجئن من الضياء بما كفاني
وألقى الشرْقُ منها في ثيابي ... دنانيراً تفرُّ من البنانِ[1]
وأمواهٌ تصلُّ بها حصاها ... صليل الحليِ في أيدي الغواني
إذا غنَّى الحمامُ الوُرقُ فيها ... أجابته أغانيُّ القيانِ
يقول بشعب بوّانٍ حصاني ... أعنْ هذا يسار إلى الطعانِ!

وقال حافظ بك إبراهيم يصف طيارة:

[مجزوء الكامل]

يجري بصابحةٍ تشُ ... قُّ سبيلها شقّ الإزارْ
وتكاد تقدح في الأثيـ ... ـر فيستحيل إلى شرارْ[2]
مثل الشهاب انقضَّ في ... آثار عفريتٍ وطارْ
فإذا علت فكدَعْوة ... المُضطَر تخترق الستارْ
وإذا هوَتْ فكما هوَت ... أنثى العُقاب على الهزارْ[3]

وصف السيف للمرحوم البارودي:

[البسيط]

أمضى به الهولُ مقداماً ويصحبُني ... ماضي الغِرار إذا ما استفحل الوهَلُ[4]
يمرّ بالهامِ مرّ البرق في عَجل ... وقت الضراب ولم يعلق به بَلَلُ
ترى الرجال وقوفاً بعد فتكته ... بهم يُظَنّونَ أحياءً وقد قُتِلوا
كأنه شُعلةٌ في الكفّ قائمةٌ ... تهفو بها الرّيح أحياناً وتعتدلُ

---

(١) يقول: إن اشتباك الأغصان يجعل ما يسقط من ضوء الشّمس دوائر صغيرة كالدّنانير، إلا أنها لا يمكن تناولها.

(٢) الشّرار والشّرر: ما يتطاير من النّار، واحدتها شرارة وشرر.

(٣) العقاب: طائر جارح وجمعه عقبان، ولفظه مؤنث. والأنثى منه تسمى اللقوة، والذكر يسمى الغرن وهو ضعيف، وإنما اللقوة للأنثى، ومن هذا يتبين السر في قول شاعرنا: أنثى العقاب.

(٤) الغرار: حد السيف ونحوه. والوهل: الفزع.

لولا الدماء التي يُسقى بها نَهَلاً لكاد من شدة اللألاء يشتعلُ
يَفلّ ما بقيت في الكف قبضَتُهُ كل الحديدِ ولم يثأر به فلَلُ

وقال علي بن محمد الإيادي المتوفى سنة ٤٣٣هـ يصف أسطول الفاطمي:

[الكامل]

أعْجِب بأسطول الإمامِ محمد وبحـــه وزمانه المستغربِ
لبِست به الأمواج أحسن منظر يبدو لعين النّاظر المستعجِبِ
من كل مشْرِفة على ما قابلت إشراف صدر الأجدل المتنصبِ(١)
دهماء قد لبِست ثياب تَصَنُّعٍ تسبي العقول على ثياب ترهُّبِ(٢)
من كل أبيض في الهواء مُنشَّرٍ منها وأسحم في الخليج مُغيّب
كمُلاءة في البر يقطع سيرها في البحر أنفاح الرّياح الشذّبِ(٣)
محفوفة بمجادِف مصفوفة في الجانبين دُوينَ صُلبٍ صُلَّبِ(٤)
كقودام النّسر المرفرف عريت من كاسيات رياشه المتهدِّبِ(٥)
وتحثُّها أيدي الرّجال إذا وَنَتْ بمُصَعَّدٍ منه بعيدٍ مصوَّبِ(٦)
خرقاء تذهب إن يدٌ لم تهدها في كل أوْبٍ للرياح ومذهَبِ(٧)
جوفاء تحمل كوكباً في جوفها يوم الرّهان وتستقلُّ بموْكبِ
ولها جَناحٌ يستعار يُطيرُها طوع الرّياح وراحةِ المتطرِّبِ(٨)

(١) الأجدل: الصقر جمعه أجادل، والمتنصب: المنتصب.
(٢) يشير إلى لون السفن الذي هو السواد الشّبيه بلباس الرّهبان وإلى لون أشرعتها الذي هو البياض.
(٣) الشّذب: جمع شاذب وهو الذي يطرد ويبعد، أي: الرّياح التي تقذف على وجه الأرض. وهذا كناية عن الشّدة.
(٤) الصلب كسكر: مبالغة في الصلب.
(٥) الرّياش: اللباس الفاخر، والمراد هنا ريش الطائر. والمتهدب: ذو الأهداب، ونسر أهدب: سابغ الرّيش.
(٦) صعد الشّيء: رفعه. وصوبه: خفضه.
(٧) الأوب: الجهة والطريق.
(٨) المتطرب: الحادي الذي يتغنى في سوق الإبل، والمراد هنا الرّبان.

يعدو بها حدب العباب مطارةً ... في كل لُجٍّ زاخر مُغلوْلبِ[١]
تسمو بأجْرد في الهواء مُتوج ... عريان منسوج الذؤابة شوْذَبِ[٢]
يتركَّب الملاح منه ذبابة ... ولو رام يركبها القطا لم يركبِ[٣]
فكأنما رام استراقة مقعد ... للسمع إلا أنه لم يشهبِ
وكأنما جن ابن دواد هُمُ ... ركبوا جوانبها بأعنف مركبِ
سجروا جواحم نارها فتقاذفوا ... منها بألسن مارج متلهِّبِ[٤]
من كل مسجور الحريق إذا انبرى ... من سجنه انصلَتَ انصلات الكوكبِ[٥]
عريان يقدمُهُ الدخان كأنه ... صبح يكرُّ على الظلام الغيْهَبِ
ولواحقٌ مثل الأهلَّة جُنَّحٌ ... لحق المطالب فائتات المهربِ[٦]
يذهبنَ فيما بينهن لطافة ... ويجئن فعل الطائر المتغلِّبِ
كنضانض الحيّات رُحْنَ لواعباً ... حتى يقعن ببرك ماء الميزَبَ
شرجوا جوانبها مجاذف أتعبت ... شادي الرِّياح لها ولمّا تتعَبِ[٧]
تنصاع من كثَب كما نفر القطا ... طوراً وتجتمع اجتماع الرّبربِ[٨]
والبحر يجمع بينها فكأنه ... ليلٌ يقرّب عقرباً من عقربِ
وعلى جوانبها أسود خلافة ... تختال في عُدد السلاح المرهَبِ
فكأنما البحر استعار بزيِّهم ... ثوب الجمال من الرّبيع المذهَبِ

(١) حدب الماء: تراكبه في جريه. والمغلولب: الكثير. يقال: اغلولب القوم إذا أكثروا.
(٢) الشّوذب: الطويل. والبيت يصف فيه القرية كهدية وهي العود الطويل الذي يشبه القلع.
(٣) ذبابة السيف: طرف حده، والمراد طرف القرية.
(٤) سجر: ملأ. الجاحم: الجمر الشّديد الاشتعال.
(٥) انصلت: مضى وسبق.
(٦) اللحق: جمع لاحق، كخدم جمع خادم.
(٧) شرج العيبة: أدخل بعض عراها وبعض. المراد هنا شبكوا في جوانبها المجاذيف. والشّادي: السائق.
(٨) انصاع القوم: ذهبوا سراعاً وانفلتوا. والرّبرب، القطيع من بقر الوحش.

وقال المرحوم حافظ بك إبراهيم يصف القطار الحديدي من قصيدة:

[الخفيف]

صفحة البرق أوْمضت في الغمام ... أم شهاب يشق جَوْف الظلام
أم سليلُ البخار طار إلى القصـ ... ـد فأعْيا سوابق الأوهامِ(١)
مَرّ كاللمح لم تكد تقف العيـ ... ـن على ظل جِرْمه المترامي
أو كشَرْخ الشباب لم يَدْرِ كاسيـ ... ـه تولى في يقظة أو منام(٢)
لا يبالي السُرى إذا اعتكر الليـ ... ـل وخانت مواقع الأقدامِ(٣)
يقطع البِيدَ والفيافي وحيداً ... لم تُضَعْضِعْهُ وحدة الإظلام(٤)
ليس يَثنيهِ ما يُذيبُ دماغ الضـ ... ـب يومَ الهجير بين المواميِ(٥)
لا ولا يَعتريه ما يخرِس النّا ... بح في الزمهرير بين الخيام
هائماً كالظليم أزعجه الصيـ ... ـدُ وراعته طائشات السهام(٦)
فهو يشتدُّ في النّجاء ويهوي ... حيث ترمى بجانبيه المرامي(٧)
يا حديداً ينساب فوق حديد ... كانسياب الرّقطاء فوق الرُّغامِ(٨)
قد مسحت البلاد شرقاً وغرباً ... بذراعي مُشمّر مقدامِ

وقال حفني بك ناصف المتوفى سنة ١٩١٩م يهنئ ويصف حريق عابدين:

[الكامل]

وافى يُقبّل راحتيك العامُ ... وحنتْ إليك رؤوسها الأيامُ

---

(١) السليل: الولد.
(٢) شرخ الشّباب: أوله.
(٣) السرى: سير عامة الليل. واعتكر الليل: اشتد سواده.
(٤) البيد: جمع بيداء وهي الصحراء. والفيافي: جمع فيفاء وهي المفازة لا ماء فيها.
(٥) المواميِ: جمع موماة وهي الفلاة. والضب: حيوان من أخص صفاته احتمال الحر الشّديد.
(٦) الظليم: ذكر النّعام.
(٧) النّجاء: السرعة.
(٨) الرّقطاء: الحية. والرّغام: التّراب.

والدهر أقسم لا يجيءُ بغيرما ترضى وكم بَرّت له أقسامُ
فاقبَلْ معاذير الزمان فطالما قَبِلَتْ معاذير المنيب كرامُ
واغفر جنايَتَهُ على القصر الذي لم تحوِ مصرُ نظيرَهُ والشامُ
شبَّت به النيرانُ فارتاعت لها مُهج الأنام وهالها استعظامُ
لولا الدخان أحاط حول لهيبها ما شكّ فردٌ أنها أعلامُ
أمرٌ به نفذ القضاءُ وليس في أحكامه نقضٌ ولا إبرامُ
بل حكمةٌ شاء الإله بيانَها لعباده ليذيعَ الاستسلامُ
حتى يروا أن الملوك وإن علوْا قدراً تسيرُ عليهم الأحكامُ
فإذا اقتدى بهم الرعية أحسنوا صبراً وخفَّت عنهم الآلامُ
عينُ السماء لعابدين تطلّعت حسداً عليك والعيون سِهامُ
وتشوّق القصرُ الكريم لأهله والشوق في قلب المحبِّ ضرامُ
لم يستطع صبراً على طول النّوى والصبر في شرع الغرام حرامُ
فتصعَّدت زفرَاتُه وتأجّجت جمراتُه والصبُّ كيف يُلامُ
لولا الدموعُ من المطافئ ما انقضى منه الهيام ولم يُبل إوامُ
خرقت طباق الجو إلا أنها بردٌ قصارى أمرها وسلامُ

وقال حافظ بك إبراهيم يصف خزان أسوان ويمدح الحضرة الخديوية:

[الطويل]

أَخَزَّان مِصرَ أنت أم هرما مصر أجلُّ وأسمى في المكانة والقدرِ
أعدت لنا مجد القرون التي مضت وجددت من عهد الفراعنة الغُرِّ
وهيهاتَ ما أهرامُ مصر وإن سمتْ بأرفعَ رأساً من حضيضِك لو تدري
وليس سَنانُ بن المشلل خالداً بأنبهَ من (عَبّاس) عصرك في الذكرِ
وما قطراتُ السحب كالدر تنهمي بألطف وقعاً من عقيقِك إذ يجري
وما أنت خزان المياهِ وطميها وإبليزها بل خازن الدّر والتِّبرِ

تدفقتَ بالخيرات من كل جانب وجمّعتَ أقطارَ المنافع في قُطْرِ
فَقُلْ للغوادي والروائح تنجلي وفي غير مصر فلتَسُحّ على قفرِ
إذا ما جرت أمواهُها دون حاجة وفاضت جرت منك المياه على قدرِ
ضربَت على آثار مصر ولم يكن ليطمِسها لولا جلالك من أثرِ
ألا فلتَسُد مصر على كل بقعةٍ به وليطاول قطرُها مسقط القَطرِ
بناءٌ من الدهر استعار بقاءُه وأقسم ألا يُستردّ من الدهرِ

الباب الخامس: في الاستعطاف والمعاتبات والاعتذارات

قال النّابغة الذبياني الشّاعر الجاهلي المتوفى سنة ٦٠٤م من قصيدة طويلة:

[البسيط]

يا دارَ ميّة بالعلياءِ فالسّند أقْوَتْ وطال عليها سالفُ الأبدِ(١)
وَقَفتُ فيها أُصَيْلاناً أُسائِلها عيَّتْ جواباً وما بالرَبْع من أحدِ(٢)
إلا الأواريَّ لأْيَا ما أبَيِّنُها والنُّؤْي كالحوضِ بالمظلومة الجلَدِ(٣)
رُدَّتْ عليه أقاصِيهِ ولبّده ضربُ الوَليدة بالمِسْحاةِ في الثّأَدِ(٤)
خلَّتْ سبيلَ أتيٍّ كان يحبسُهُ ورفّعتْهُ إلى السَّجفَيْن فالنّضَدِ(٥)

(١) العلياء: المكان العالي. والسند محركة: ما قابلك من الجبل وعلا من السفح. وأقوت الدّار: خلت من السكان. والأبد: الزمان الماضي.
(٢) أصل أصيلاً أصيلاناً بالنّون تصغير أصلان جمع أصيل وهو العشي، أبدلت النّون لاماً. وعيت: حصرت وعجزت عن الجواب.
(٣) أواري: منصوب على أنه مستثنى منقطع وهو جمع آري بمعنى الآخية، والآخيه كآنية الوتد الذي في رأسه حلقة يدق في الحائط أو يدفن في الأرض لتربط فيه الدّواب. ولأياً ما: أي: بعد جهد ما أنظرها. والنّؤي: الحفير حول الخباء أو الخيمة يمنع السيل. والمظلومة: الأرض التّي حفر فيها حوض وليست بموضع حفر كان حفر، الحوض فيها مع أنها ليست بموضعه ظلم لها. والجلد: الأرض الصلبة المستوية المتن.
(٤) ردت: بالبناء للمجهول. ولبده: ألصق بعضه ببعض. والمحاة: هي آلة يجرف بها الطين. والثأد: الطين.
(٥) الأتي: الجدول الذي تؤتيه إلى أرضك والسيل الغريب. ويجمعه: الضمير فيه يعود إلى النّؤي.

أضحت خلاءً وأضحى أهلها احتملوا أخنى عليها الذي أخنَى على لُبَد[١]

وقال أميّة بن أبي الصلت الجاهلي يعتب على ابن له[٢]:

[الطويل]

غَذَوْتك مولوداً وَعِلْتُكَ يافِعاً تُعل بما أُدْني إليك وتنهلُ[٣]

إذا ليلة نابَتك بالشكْوِ لم أبِتْ لِشكواكَ إلا ساهراً أتململُ[٤]

كأني أنا المطروقُ دونك بالذي طُرقْتَ به دوني، وعَيني تهملُ[٥]

تخافُ الرّدى نفسي عليك، وإنها لتَعلم أن الموت حَتمٌ مؤجّلُ[٦]

فلما بلغتَ السِّنَّ والغايةَ التي إليها مدى ما كُنتُ فيك أؤمِّلُ

جعلتَ جزائي منك جبْهاً وغِلظة كأنكَ أنتَ المُنْعِمُ المتفَضِّلُ[٧]

فليتكَ إذ لم ترع حق أُبُوّتي فعلتَ كما الجارُ المجاور يفعلُ[٨]

وسَمَّيتني باسم المفَنّد رَأيُهُ وفي رأيك التفنيد لو كُنتَ تَعقِلُ[٩]

تراه مُعِدّاً للخلاف كأنه بِردٍّ على أهل الصواب مُوكّلُ[١٠]

= والجفين: الستارتان اللتان تعلقان على الباب أو الشّباك والمراد بهما هنا اللتان تعلقان على الباب. والنّضد: متاع البيت المنظم.

(١) احتملوا: ذهبوا من دار إلى أخرى. وأخنى عليها: أهلكها. يقال: إن لقمان بن عاد عاش بمقدار عمر سبعة نسور كلما هلك نسر خلفه نسر آخر وكان آخرها لبد على وزن صرد.

(٢) هو عبد الله بن أبي ربيعة الثقفي. نشأ بالطائف جاهلياً يلتمس المعارف الدّينية متعبداً راجياً أن يكون نبي العرب، حتى إذا كانت بعثة النّبي ﷺ أكبرها عليه، وناضله مع أعدائه حتى مات بالطائف سنة ٩هـ.

(٣) غذاه: قام بمؤنته. وعاله: كفله وقام به. واليافع: من قارب العشرين. تعل: من العلل وهو الشّرب الثاني. والنّهل: الشّرب الأول. يريد أنه يسبغ عليه من نعمه الكثير والقليل.

(٤) أتململ: أتقلب على الملة وهي الجمر.

(٥) تهمل: أي: يسيل منها الدّمع.

(٦) الرّدى: الهلاك. حتم: أي: لا مفر منه. مؤجل: أي: له وقت.

(٧) الجبه: مقابلة الإنسان بما يكره.

(٨) أي: ليتك إذا أبيت أن تعاملني معاملة الأب عاملتني كما يعامل الجار جاره.

(٩) فنده: نسبة إلى سوء العقل، أي: وصمتني بسوء الرّأي والغباوة، ولو عقلت لعلمت أن الفند حقيق بأن ينسب إليك لا إلي.

(١٠) معداً: أي: محضراً ومهيئاً، أي: تهيئ الخلاف، ويقابل به كل رأي كأنه كلف أن يفند آراء أهل الصواب.

وقال المغيرة بن حبناء:

[الطويل]

خذ من أخيك العفو واغفر ذنوبه ... ولا تك في كل الأمور تعاتبهْ
فإنك لن تلقى أخاك مُهذباً ... وأيُّ امرئ ينجو من العيب صاحبهْ
أخوك الذي لا ينقض النّأيُ عهدَهْ ... ولا عند صرف الدّهر يَزْوَرُّ جانبهْ
وليس الذي يلقاك في البشر والرضا ... وإن غبتَ عنه لسَّعَتْكَ عقاربهْ

وقال سعيد بن حميد المتوفى سنة ٨٨٨هـ:

[الكامل]

أقلِل عِتابَك فالبقاءُ قليلُ ... والدَّهر يعدلُ مرّةً وَيميلُ
لم أبكِ من زمن ذممت صروفَه ... إلا بكيتُ عليه حين يزُولُ
ولكلّ نائبةٍ ألمَّت فُرْجةٌ ... ولكلّ حال أقبلتْ تحويلُ
والمُنتمون إلى الصفاءِ جماعةٌ ... إن حصّلوا أفناهمُ التّحصيلُ
وأجلُّ أسباب المنيّة والرّدى ... يومٌ سيقطعُ بيننا ويحولُ
فلئن سبقت لتفجعنّ بصاحب ... حبلُ الصّفاءِ بحبله موْصولُ
لعلّ أيامَ البقاءِ قليلةٌ ... فعلامَ يكثر عتبنا ويطولُ

وقال شاعر الحجاز المخضرمي معن بن أوس المزنيّ المتوفى سنة ٢٩هـ:

[الطويل]

لَعمرُك ما أدري وإني لأوجَلُ ... على أيّنا تَعدُو المنيّة أولُ
وإني أخوك الدّائم العهْد لم أخُن ... إن أبزاك خصْم أو نَبا بك منزلُ
أُحارب من حاربتَ من ذي عداوة ... وأحبس مالي إن غَرمتَ فأعقِلُ
وإني على أشياء منك تُريبُني ... قديماً لذُو صفْحٍ على ذاك مجملُ
ستقطع في الدُّنيا إذا ما قطَعتني ... يمينك فانظر أيُّ كفّ تَبدّلُ
إذا أنت لم تُنصِف أخاك وجدْتَه ... على طرَفِ الهِجران إن كان يَعقلُ
ويركَب حدّ السيّف من أن تَضيمه ... إذا لم يكن عن شَفرة السيف مزحلُ

وكنتُ إذا ما صاحبٌ رام ظنّتي ... وبدّل سُوءاً بالذي كنتُ أفعلُ
قَلَبتُ له ظهر المِجَنّ فلم أدُم ... على ذاك إلا رَيثما أتحوّلُ
إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكد ... إليه بوجه آخِرَ الدَّهر تُقبِلُ

وقال بهاء الدّين زهير معتذراً لتأخيره عن لقاء بعض أصحابه:

[الطويل]

على الطائر الميمون يا خيرَ قادِمٍ ... وأهلاً وسهلاً بالعلا والمكارمِ
قَدمتَ بحمد الله أكرم مقدمٍ ... مدى الدّهر يبقى ذكره في المواسمِ
قدوماً به الدّنيا أضاءت وأشرقت ... بِبشر وُجوهٍ أو بضوء مباسمِ
فيا حسنَ ركبٍ جئت فيه مسلّماً ... ويا طيب ما أهدته أيدي الرّواسمِ
أمولاي سامحني فإنك أهله ... وإن لم تسامحني فما أنت ظالمي
ووالله ما حالت عهودُ مودّتي ... وتلك يمين لست فيها بآثمِ
مقيمٌ، وقلبي في رحالك سائر ... لعلّك ترضاه لبعض المواسمِ
ولو كنتَ عنه سائلاً لوجدته ... على بابك الميمون أوّل قادمِ
وإلا فسل عنه ركابك في الدُّجى ... لقد برئت من لثمه للمياسمِ

وقال محمد بن زريق البغدادي نادماً على الإفراط في طلب الدّنيا وكان قصد الأندلس في طلب الغنى فلم يرجع لبغداد، رحمة الله عليه:

[البسيط]

لا تَعْذُليه فإنّ العذلَ يُولعه ... قد قُلْت حقّاً ولكن ليس يَسمعُهُ
جاوَزْتِ في لَوْمهِ حدّاً أضَرَّبه ... من حيث قدَّرْتِ أنَّ اللَّوْم يَنْفعُهُ
فاستعملي الرّفْقَ في تأنيبه بدلاً ... مِن عُنْفه فهو مُضنى القلب مُوجَعُهُ
قد كان مُضطلِعاً بالخَطْب يَحْمِلُهُ ... فَضُيِّقَتِ بخطوب البَين أضْلُعهُ
يكفيه من لوْعة التَّفْنيد أنّ له ... من النَّوى كلّ يوم ما يُرَوّعُهُ
ما آبَ من سَفَرٍ إلا وأزعَجَه ... رأيٌ إلى سفرٍ بالعَزْم يَجْمَعُهُ
كأنّما هو من حِلٍّ وَمُرْتَحَل ... مُوكلٌ بفضاء الأرض يَذرعُهُ

إذ الزّمانُ أراه في الرّحيل غنًى ... ولو إلى السِّنْد أضحى وهو يُزْمعُهُ
تأبى المَطامِع إلا أن تُجَشِّمَهُ ... للرّزْق كَدّاً وكم مِمَّنْ يُودِّعُهُ
وما مُجاهدَة الإنسان تُوصِلُه ... رِزقاً ولا دَعَة الإنسان تَقْطعُهُ
والله قسَّم بينَ الخلق رِزقهُمُ ... لم يَخلق الله مخلوقاً يُضيّعُهُ
لكنهم مُلئوا حِرْصاً فلستَ ترى ... مُسْتَرْزِقاً وسوى الغايات يُقْنِعُهُ
والسّعيُ في الرزق والأرزاقُ قد قِسمت ... بَغْيٌ ألا إنّ بَغْيَ المرء يَصْرَعُهُ
والدّهر يُعطي الفَتى ما ليس يطلبُهُ ... يوماً ويمنعُه من حيث يُطمعُهُ
أستودع الله في بَغْداد لي قمراً ... بالكَرْخ من فَلكِ الأزرار مَطْلعُهُ
ودَّعْتهُ وبودّي لو يُودّعُني ... صَفْو الحياة وإني لا أُودّعُهُ
وكم تشَفّع أني لا أفارقه ... وللضرورات حالٌ لا تُشفّعُهُ
وكم تَشبّث بي يومَ الرّحيل ضحًى ... وأدمُعي مُسْتَهلات وأدمُعُهُ
لا أكْذبُ الله ثوبُ العُذْرِ منْخَرِقٌ ... عنّي بفرقته لكن أُرَقّعُهُ
إني أُوَسّع عُذْرِي في جِنايَتِهِ ... بالبَين عنه وقلبي لا يُوسّعُهُ
أُعطيتُ مُلكاً فلم أحسِن سياسته ... كذاك من لا يسُوس المُلك يَخْلعُهُ
ومَن غدا لابِساً ثوب النّعيم بِلا ... شُكر الإلَه فعنْه الله يَنْزعُهُ
اعتَضْتُ عن وجهِ خلّي بعد فرقته ... كأساً أُجَرِّعُ منها ما أُجرّعُهُ
كم قائل ليَ ذنبُ البَين قلتُ له ... الذّنب والله ذنبي لستُ أدفعُهُ
هلّا أقمتُ فكان الرُّشد أجمعه ... لو أنني يومَ بانَ الرُّشدُ أتبعُهُ
إني لأقطع أيّامي وأُنفِدُها ... بحسرةٍ منه في قلبي تُقطّعُهُ
بمن إذا هجع النوام بتُّ لهُ ... بِلوعةٍ منهُ ليلي لستُ أهجَعُهُ
لا يطمئنُّ لجنبي مضْجَعٌ وكذا ... لا يطمئنّ له مُذْ بنْتُ مضْجَعُهُ
ما كنتُ أحسِبُ أنّ الدّهر يفجعُني ... به ولا أن بيَ الأيامُ تفجعُهُ
حتى جرى الدّهر فيما بيننا بيَدٍ ... عَسْراءَ تمنعني حظّي وتمنعهُ

لله يا منزل القصْف الذي دَرَست آثارهُ وعفتْ مذ غبتُ أربعُهُ
هل الزّمان مُعيدٌ فيك لذّتَنا؟ أم الليالي التي أمَضَّتْهُ تُرْجِعُهُ
في ذمّة الله مَن أصبحت منزِلَه وجادَ غيثٌ على مَغْداكَ يمرعُهُ
مَنْ عنده ليَ عهدٌ لا يُضيّعهُ كما لهُ عهدُ صدقٍ لا أُضيّعُهُ
ومن يُصَدّع قلبي ذِكرُه وإذا جرى على قلبه ذكري يُصدّعُهُ
لأَصْبِرَن لدهرٍ لا يمتّعُني بهِ ولا بيَ في حالٍ يُمتّعُهُ
علماً بأنّ اصطباري مُعْقِب فَرجاً وأضيقُ الأمر إن فكّرْتَ أوسَعُهُ
علّ اللّيالي التي أضْنت بفرقتنا جسمي ستَجمعني يوماً وتجمعُهُ
وإنْ تنَل أحداً منّا مَنيّتُه فما الذي بقضاء الله يصنعُهُ

وقال حافظ بك إبراهيم «بين اليقظة والمنام في استعطاف الزمان»:

[الكامل]

أشرِقْ فَدَتْكَ مشارقُ الإصباحِ وأَمِطْ لثامَكَ عن نهارٍ ضَاحِ
بوركتَ يا يومَ الخلاصِ ولا وَنَتْ عنكَ السّعودُ بغدوة ورواحِ
بالله كنْ يُمناً وكنْ بُشرى لنا في ردّ مغتربٍ وفكِّ سَراحِ
أقبلتَ والأيامُ حولكَ مُثَّلٌ صفّين تخطِرُ خَطرةَ الميَّاحِ
وخرجتَ من حُجُبِ الغُيوبِ مُحجَّلاً في كلّ لحظ منك ألفُ صباحِ
لو صحَّ في هذا الوجودِ تناسُخٌ لرأيتُ فيكَ تَناسُخَ الأرواحِ
ولكنتُ يومَ «اللّابرنت» بعينهِ في عزَّةٍ وجلالة وسَماحِ
يومٌ يُريك جلالُهُ ورُواؤهُ في الحسن قدرةَ فالقِ الإصباحِ
خلعتْ عليهِ الشمسُ حُلَّة عسجدٍ وحَبَاه آذارٌ أرقَّ وشاحِ
الله أثبته لنا في لوحهِ أبدَ الأبيدِ فما له من ماحِ
حيّيهِ عنّا يا أزاهرُ واملئي أرجاءَه بأريجك الفيّاحِ
وانفحهُ عنا يا ربيعُ بكلّ ما أطلعتَ من رَنْد ونَوْر أقاحِ

لـلـنـيـلِ مـجـدٌ فـي الـزَّمـانِ مَـؤَثّـلٌ مـن عـهـدِ «آمـون» وعـهـد «فُـتَـاحِ»
فَـسَـل الـعُـصُـورَ بِـهِ وسَـلْ آثـارَهُ فـي مـصرَ كـم شـهدتْ من السيّاحِ
قـد قـال عَـمْـرٌو فـي ثَـراهـا آيـةً مـأثُـورَةً نـقـشَـتْ عـلـى الألـواحِ
بـيـنـا تـراهُ لآلـئـاً وكـأنّـمـا نُـثـرَتْ بـتُـربـتِـهِ عـقـودُ مِـلاحِ
وإذَا بِـه لـلـنّـاظـريـن زُمـرُّد يَـشـفـيـك أخـضـرُهُ مـن الأتـراحِ
وإذا بِـهِ مـسـكٌ تـشـقُّ سـوادَهُ شـقَّ الأديـمِ مـحـارثُ الـفـلّاحِ
قُم يا ابن مصرَ فأنت حرٌّ واستعِدْ مـجـدَ الـجُـدُود ولا تَـعُـدْ لِـمُـرَاحِ
شَـمّـرْ وكـافـحْ فـي الـحـيـاةِ فـهـذهِ دنـيـاكَ دارُ تـنـاحُـرٍ وكـفـاحِ
وانهل مع النُّهّالِ من عَذْب الحَيا فـإذَا رَقـا فـامْـتَـحْ مـع الْـمُـمْـتَـاحِ
وإذا ألـحّ عـلـيـك خـطْـبٌ لا تَـهِـن واضـربْ عـلـى الإلـحـاح بـالإلـحـاحِ
وخُـضِ الـحـيـاةَ وإن تـلاطـمَ مـوجُـهـا خـوض الـبـحـارِ ريـاضـةُ الـسَّـبـاحِ
واجعل عيانك قبلَ خَطوِكَ رائداً لا تـحْـسَـبَـنَّ الـغَـمـرَ كـالـضّـحْـضَـاحِ
وإذا احـتَـوتْـك مَـحـلّـةٌ وتـنـكّـرت لـك فـاعْـدُهَـا وانْـزَحْ مـع الـنـزّاحِ
فـي الـبـحـرِ لا تُـثـنـيـك نـارُ بـوارج فـي الـبـرّ لا يَـلـويـك غـابُ رمـاحِ
وانظرْ إلى الغربيّ كيف سَمَتْ به بـيـن الـشّـعـوب طَـبـيـعـةُ الـكُـداحِ
والله ما بلغتْ بنو الغَربِ المُنى إلّا بِـنـيّـاتٍ هُـنـاك صِـحـاحِ
ركبوا البحارَ وقد تجمَّدَ ماؤها والـجـو بـيـن تَـنـاوُحِ الأرواحِ
والبرُّ مصهورُ الحصى مُتأجّجاً يـرمـي بـنـزَّاعِ الـشَّـوى لَـوّاحِ
يـلـقَـى فـتـيُّـهـمُ الـزّمـانَ بـهـمّـةٍ عَـجـبٍ ووجـهٍ فـي الـخـطـوب وَقـاحِ
ويَـشُـقُّ أجـواز الـقِـفـار مُـغـامـراً وعـرُ الـطّـريـقِ لـديـهِ كـالـصَـحـصـاحِ
وابـن الـكِـنـانـةِ فـي الـكـنـانـةِ راكـد يـرنـو بـعـيـنٍ غـيـرِ ذاتِ طِـمـاحِ
لا يـسـتـغـل، كـمـا عـلـمـت، ذكـاءَهُ وذكـاؤُهُ كـالـخـاطـفِ الـلّـمـاحِ
أمسَى كـمـاءِ الـنّـهـرِ ضـاعَ فُـراتُـهُ فـي الـبـحـرِ بـيـن أُجـاجـهِ الـمُـنـداحِ

فانهضْ وَدَعْ شكوى الزمانِ ولا تَنُح ... في فادح البُؤسى مع الأنواحِ
واربَحْ لمصرَ برأس مالك عزّةً ... إنّ الذكاء حُبالةُ الأرباحِ
وإذا رُزِقتَ رياسةً فانمجْ لها ... بُردين من حزم ومن إسجاحِ
واشربْ من الماءِ القراحِ مُنعّماً ... فلَكمْ وردتَ الماءَ غيرَ قَراحِ

الباب السادس: في التّهاني والتّهادي والإغراء

وقال أبو الطيب المتنبي المتوفّى سنة ٣٥٤هـ:

[البسيط]

المجد عُوفيَ إذ عُوفيتَ والكرمُ ... وزال عنك إلى أعدائك الألَمُ
صَحَتْ بِصحّتك الغارَات وابتهجت ... بها المكارمُ وانهلّت بها الدّيمُ
ورَاجع الشّمسَ نورٌ كان فارقَها ... كأنّما فقدهُ في جسمها سَقَمُ
ولاحَ برقُك لي مِنْ عارضيْ ملك ... ما يسقطُ الغيث إلا حين يَبتسمُ
يُسْمى الحُسَام وليست ذي مشابهة ... وكيفَ يَشْتَبِه المخدوم والخدمُ
تفرّد العُرْبُ في الدُّنيا بمحتدِهِ ... وشارك العُربَ في إحسانه العجمُ
وأخلصَ الله للإسلام نُصْرَته ... وإن تقلَّبَ في آلائه الأمَمُ
وما أخصُّك في بُرءٍ بتهنئةٍ ... إذا سلِمتَ فكلّ الناس قد سلموا

وقال الصّاحب بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥هـ:

[البسيط]

هذي المكارم والعلياءُ تفتخرُ ... بيومِ مأثرة ساعاتُهُ غُررُ
يومٌ تبسّم عنه الدّهر واجتمعت ... له السّعود وأغضت دونه الغِيرُ
حتى كأنا نرى في كل مُلتفتٍ ... روضاً تفتَّحَ في أثنائه الزّهرُ
لما تجلّى عن الآمال مُشرقةً ... قالَ العلى بك أستعلي وأقتدرُ
وافى على غير ميعادٍ يُبشرُنا ... بأن ستتبعه أمثالهُ الأُخرُ
أهنا المسرّاتِ ما جاءَت مفاجأةً ... وما تناجى بها الألفاظ والفكرُ

لو أن بشرى تلقتّها بموردها لأقبلت نحوها الأرواح تبتدرُ
وما تعنّف من يَسخو بمهجته فإنَّ يومك هذا وحده عُمُرُ
فما غدوت وما للعين منقلبٌ إلا إلى منظر يبهى ويحتبرُ
ثَنت مهابتُك الأبصار حاسرة حتى تبيّن في ألحاظها خَزَرُ[1]
إذا تأمَّلْتَهم غضّوا وإن نظرُوا خِلال ذاك فأدنى لفتة نَظَروا
في ملبس ما رأته عين معترض فشكَّ في أنّه أخلاقك الزُّهرُ
ألبسته منك نوراً يستضاء به كما أضاء ضواحي مُزْنه القمرُ[2]
وقد تقلّدت عَضباً أنت مضربه وعَنك يأخذ ما يأتي وما يذرُ
مازال يزداد من إشراق غُرّته زهراً ويشرق فيهِ التّيه والأَشرُ[3]
والشّمس تحسد طِرفاً أنت راكبه حتى تكاد من الأفلاك تنحدرُ
حتى لقد خلت أن الشّمس أزعجها شوقاً وظلّت على عطفيه تنتشرُ

وقال أبو أذينة يغري الأسود بن المنذر بقتل آل غسّان وكانوا قتلوا أخاً له:

[البسيط]

ما كلُّ يوم ينالُ المرءُ ما طَلبا وَلا يُسَوّغهُ المقدارُ ما وهبَا
وأحزَمُ الناسِ من إن فُرْصة عرضت لم يجعل السّببَ الموصول منْقضبَا
وأنصفُ الناس في كلّ المواطن مَنْ سقَى المُعادين بالكاس الذي شَربَا
وليس يَظلمُهُم مَنْ راح يضربهم بحدّ سيفٍ بِهِ مَنْ قبلهم ضربا
والعفو إلا عن الأكفاءِ مكرُمَةٌ منْ قال غير الذي قد قلْته كذبَا
قتلتَ عمراً وتستَبقي يَزيدَ لقد رأيتَ رأْياً يجرُّ الويلَ والحربَا
لا تَقطعَنْ ذَنَب الأفعى وتُرْسلها إن كنتَ شهماً فأتبع رأْسها الذَّنَبا
هم جرَّدوا السَّيف فاجعلهم له جُزُراً وأوقدوا النار فاجعلهم لها حطبَا

(١) الخزر: ضيق العين وصغرها.
(٢) المزن: السحاب الأبيض ويقال للهلال: ابن مزنة، وهي القطعة من المزن لخروجه منها.
(٣) الأشر بفتح الشّين: المرح والاختيال.

إن تَعفُ عنهم يقول النّاس كلهم لم يعفُ حلماً ولكن عفوه رَهَبا
هُم أهِلّة غَمّان ومجدهم عالٍ فإن حاولوا مُلكاً فلا عجبا
وعرّضوا بفداء واصفين لنا خيلاً وإبلاً تَرُوقُ العُجم والعرَبا
أيحلبُون دماً مِنّا ونحلُبُهُم رسلاً، لقد شرفونا في الورى حَلبَا

وقال صفيّ الدّين الحلي يحرض السلطان الملك الصالح على الاحتراز من المغول:

[البسيط]

لا يمتطي المجدَ مَنْ لم يركَبِ الخطرا ولا ينال العُلاَ من قدَّم الحذَرَا
ومن أراد العلاَ عفواً بِلاَ تعبٍ قضى ولم يقضِ من إدراكِها وطَرا
لابُدَّ للشَّهد من نحل يمنّعهُ لا يجتني النّفعَ من لم يَحملِ الضّررا
لا يُبلغ السّؤل إلا بعد مُؤلمَةٍ ولا يتمُّ المنى إلاّ لمن صبرا
وأحزم الناس مَنْ لو مات من ظمأ لا يَقربُ الوِردَ حتى يعرف الصدرا
وأغزَرُ الناسِ عقلاً من إذا نظرت عيناه أمراً غدا بالغير معتبَرا
فقد يقال عِثارُ الرّجل إن عثرت ولا يقال عِثار الرّأي إن عثرا
من دَبّر العيش بالآراء دام له صفواً وجاءَ إليهِ الخطبُ مُعتذرا
يَهوذُ بالرّأي ما يجري القضاء به من أخطأ الرَّأي لا يَستَذنِبُ القدرا
مَن فاته العزُّ بالأقلام أدركه بالبِيض يقدح من أطرافها الشّررا
بكلّ أبيضَ قد أجرى الفِرندَ به ماء الرّدَى فلو استَقطَرتُه قطرا
خاض العجاجة عُرياناً فما انقشعت حتى أتى بدَم الأبطال مُؤتزرا
لا يَحسُنُ الحلمُ إلا في مواطنه ولا يليق الوفا إلاّ لمن شكرا
ولا ينال العلى إلاّ فتى شَرُفَتْ خِلاَلهُ فأطاع الدّهرُ ما أمرَا
كالصّالح الملكِ المرهُوبِ سطوتُهُ فلو توعَّد قلب الدّهر لانفَطَرا
لما رأى الثّرَّ قد أبدى نواجذَه والغَدْرَ عن نابه للحرب قد كَشَرَا

رَأى القِـيّ إنَاثاً عن حقيقتها فعافها واستشارَ الصّارِم الذّكرا
فجرّدَ العزمَ من قَبل الصّفاح لها مَلْك عن البيض يستغني بما شُهرا
يكاد يُقرَأُ من عُنوان هِمّتِهِ ما في صحائِف ظهر الغَيبِ قَد سُطرا
كالبحر والدهر في يَومي نَدًى ورَدًى واللّيثِ والغيثِ في يَومي وَغى وقِرَى
ما جاد للنّاس إلاّ قَبل ما سألوا ولا عفا قطُّ إلاّ بعد ما قدَرا
لامُوه في بَذله الأموال قلت لهم هل تقدِر السُّحبُ ألاّ تُرسِلَ المطرا

وقال مؤلف هذا الكتاب مهنئاً صديقه المرحوم الشّيخ علي يوسف بك صاحب جريدة المؤيد سنة ١٣٢٠هـ بأوبته من أوروبا:

[الوافر]

علـيُّ القدرِ ذو الشّرَف المُؤَيَّدْ شديدُ العزمِ يوسُفُ قد تفرَّدْ
وَحيدُ الفضْل والعَلياءُ تشهدْ رَفيعُ المجدِ في عزّ وَسُؤْدُدْ
شريفُ النفْسِ محمودُ السَّجايا عَرِيقُ الأَصل في المعروف أوْحد
همامٌ ما لهُ أبداً مثيلٌ بليغُ النُّطقِ في الكُتّابِ مُفرَدْ
مُحبُّ العدل مشكورُ المساعي عليمٌ بالسياسةِ بل مُؤَيّدْ
قوِيُّ البأسِ بسّامُ الثنايا سَعيدُ الجدّ ذو قَدْرٍ مُمَجّدْ
فمن يَكُ راقياً شرفَ المعالي كمثلِك في الورى لا شكّ يُحمَدْ
وكيفَ وأنت أعظمُ مَنْ تصدّى لتأييد الصَّحافةِ بالمُؤَيّدْ
وكيف وأنت أفْوَقُ كل رامٍ بسهمٍ للكتابةِ قد تجرَّدْ
وليس الشمسُ تخفى عن عيونٍ سِوَى أن كان صاحبُهُنّ أرمَدْ
وإن البدْرَ بالأنوار زاهٍ ويأبَى الله إلا أن تؤَيّدْ
فسبحانَ الذي أسرى عَليًّا إلى التّامِيز والسّين المُنَضَّدْ
تُهنّيكَ المناصبُ كلَّ وقْت وتخدمُك السعادة ما تجدَّدْ
فدُم يا سيّدي بدراً منيراً وحصناً للمعَالي قد تشيّدْ

وهاكَ من الْمُحِبّ قصيدَ شِعْرٍ تُشيرُ إلى وفائي بل وتشهدْ
تفاخرُ مصرُ أهلَ الشرق فيها تقول الهاشميُّ شدًا وأنشدْ

وقال محمد حافظ بك إبراهيم مهنئاً أبناء وطنه بالعام الهجري:

[الكامل]

أهلاً بنابغةِ البلادِ ومَرْحباً جددتُمُ العهد الذي قد أُخلقَا
لا تيأسوا أن تَستردُّوا مجدَكُمْ فلرُبَّ مغلوب هوَى ثمَّ ارْتقَى
مدَّتْ لهُ الآمال في أفلاكها خيط الرَّجاء إلى العُلا فتسلّقَا
فتجشّموا للمجد كلَّ عظيمةٍ إني رَأيتُ المجدَ صعبَ المُرْتقَى
من رامَ وصْلَ الشمس حاك خيوطها سبباً إلى آماله وتعلَّقا
عارٌ على ابن النيل سبّاق الورى مهما تغلَّبَ دهرهُ أن يُسبقا
أوَ كُلّما قالوا تجمَّعَ شملهُ لعبَ الخِلافَ بجمعنا فتفرَّقا
فتدفّقوا حُججاً وخوضوا نيلكم فلَكَم أفاضَ عليكُمُ وتدفَّقا
حملوا علينا بالزمان وصرفِهِ فتأنّقوا في سَلبنا وتأنقَا
فتعلّموا فالعلم مفتاح العُلاَ لم يُبق باباً للسعادة مُغْلقَا
ثم استمدُّوا منهُ كل قوَاكُمُ إنّ القويَّ بكلّ أرضٍ مُتَّقى
وابنوا حوالي حوضكم منْ يقظةٍ سوراً وخطوا من حذارٍ خندقا
وزنوا الكلام وسدّدوه فإنهم خبأوا لكم في كل حرف مزلقا
وامْشوا على حذَرٍ فإن طريقكم وَعرٌ أطاف بِهِ الهلاكُ وحلّقَا
نصبوا لكم فيه الفخاخَ وأرصدُوا للسالكين بكل فجّ موبقا
الموتُ في غشيانه وطُروقه والموتُ كلُّ الموت ألّا يطرقَا
فتحيّنوا فُرَصُ الحياة ثمينَةٌ وتعجّلوها بالعزائم والرّقَى
أو فاخلقوها قادِرين فإنما فُرَصُ الحياة خليقة أن تخلقا

الباب السابع: في المراثي

قال المهلهل التّغلبي المتوفى سنة ٥٣١م يرثي أخاه كليباً:

[الوافر]

أهاجَ قَذَاءَ عينيَ الادّكارُ؟ هُدُوءاً فالدّموع لها انهمارُ
وصار الليل مُشتملاً علينا كأنّ الليلَ ليسَ لهُ نهارُ
وبتُّ أراقِب الجوزاءَ حتى تَقارَبَ من أوائلها انحدارُ
أُصرّف مُقلتي في إثْرِ قوم تبايَنَتِ البِلادُ بهم فغاروا
وأبكي والنّجومُ مُطَلّعات كأن لم تَحْوِها عنّي البِحارُ
على مَنْ لو نُعيتُ وكان حيًّا لَقاد الخيلَ يحجبُها الغُبارُ
دعوتك يا كلَيب فلم تجبني وكيف يجيبُني البلَد القَفارُ؟
أَجبني يا كُليب خلاك ذمٌّ ضَنيناتُ النفوس لها مَزَارُ
أجِبْني يا كُلَيب خلاك ذمٌّ لقد فُجعَتْ بفارسها نِزَارُ
سقاك الغيثُ إنك كنتَ غيثاً ويُسْراً حين يُلتمسُ اليَسارُ
أبَتْ عيناي بعدك أن تَكُفّا كأنّ غضا القَتَادِ لها شِفارُ
وإنك كنتَ تحْلُمُ عن رجالٍ وتعفو عنهُم ولك اقتدَارُ
وتَمنعُ أن يَمَسّهُمُ لسانٌ مخافة مَنْ يجير ولا يُجارُ
وكنت أعُدّ قربي منك ربْحاً إذا ما عَدّت الرّبْحَ التّجارُ
فلا تَبعُد فكلٌّ سوف يلقى شعوباً يَستدير بها المَدارُ
يعيش المرء عند بَني أبيه ويوشِك أن يصير بحيث صاروا
أرى طول الحياة وقد تولّى كما قد يُسْلب الشّيء المُعارُ
كأنّي إذ نعى النّاعي كَليباً تطاير بين جنبيّ الشّرارُ
فَدُرت وقد غشى بصري عليه كما دارت بشارِبها العُقارُ
سألتُ الحيَّ: أين دَفنتموه فقالوا لي بأقصَى الحيّ دارُ

فسرتُ إليه من بلدي حَثيثاً وطار النَّومُ وامتنَعَ القَرَارُ
وحادتْ ناقتي عن ظلّ قبرٍ ثوى فيهِ المكارم والفَخارُ
لدى أوطان أروع لم يَثِنْهُ ولم يحدثْ له في النّاس عارُ
أتغدو يا كليب معي إذا ما جَبان القوم أنجاه الفِرارُ
خُذِ العهد الأكيد عليَّ عُمْري بتركي كلّ ما حوت الدّيارُ
ولستُ بخالعٍ دِرعي وسيفي إلى أن يخلع الليلَ النّهارُ

وقال صفيّ الدّين الحلّي المتوفى سنة ٧٥٠ هـ يرثي غريقاً:

[الكامل]

أصفيحُ ماءٍ أم أديمُ سماءِ فيهِ تَغُور كواكب الجوزاءِ
ما كنت أعلَم قبل موتك مُوقِناً أن البدورَ غرُوبُها في الماءِ
ولقد عجبتُ وقد هويتَ بلجّة فجرى على رِسْلٍ بغير حَياءِ
لو لم يُشقَّ لك العباب وطالما أشبهتَ موسى باليد البيضاءِ
أنِفَ العلاء عليك من لمس الثّرى وحلول باطن حُفرة ظلماءِ
وأجلّ جسمك أن يغيّر لطفه عفن الثّرى وتكاثُف الأرجاءِ
فأحلّه جدثاً طهوراً مشبهاً أخلاقه في رقّة وصفاءِ
ما ذاك بِدعاً أن يضمَّ صفاؤه نوراً يضنُّ به على الغبراءِ
فالبحر أولى في القياس من الثّرى بجوار تلك الدرَّة الغَرّاءِ

وقال أيضاً يرثي الملك ناصر الدّين عمر:

[المنسرح]

بكى عليك الحُسام والقلَمُ وانفجع العلمُ فيك والعلَمُ
وضجَّتِ الأرضُ فالعِبادُ بها لاطِمة والبلادُ تلتطمُ
تُظهِر أحزانها على مَلِك جُلُّ ملوك الورى له خَدَمُ
أبلَجُ غضّ الشبَابِ مُقتَبل الـ عُمر ولكنْ مجدهُ هرمُ
محكَم في الورى وآمِله يحكمُ في ماله ويحتكمُ

يجتمع المجدُ والثناءُ له ومالُه في الوُفود يُقتَسَمُ
قد سَئِمتْ جودَه الأنامُ ولا يلقاه من بذله النّدى سأمُ
ما عرفت منه «لا» ولا «نَعم» بل دونَهنّ الآلاءُ والنّعمُ
الواهبُ الألف وهو مبتسمٌ والقاتل الألفَ وهو مُقتحِمُ
مبتسمٌ والكُماةُ عابسةٌ وعابِسٌ والسُّيوفُ تبتسمُ
لم يعلم العالَمون ما فقَدُوا منه ولا الأقرَبون ما عَدِموا
ما فقدُ فرد من الأنام كمَن إن مات ماتت لفقده أُمَمُ
يا طَالبَ الجُود قد قَضى عمَرٌ فكلّ جود وُجُودُه عدَمُ
فالناسُ كالعين إن نقدتَهُم تفاوَتَتْ عند نقدك القِيَمُ
مضى الذي كان للأنام أباً فاليوم كلّ الأنام قد يتموا
وحلّ داراً ضاقت بساكنها ودون أدناه ديارُه إرَمُ

وقال أبو الحسن التّهامي يرثي صغيراً له ويفتخر بفضله ويشكو زمانه وحاسديه:

[الكامل]

حكْمُ المنيَّةِ في البريةِ جارِ ما هذه الدّنيا بدَار قَرارِ
بَيْنا يُرَ الإنسانُ فيها مُخبِراً حتى يُرَى خبراً من الأخبارِ
طُبِعت على كَدَر وأنت تريدُها صفْواً من الأقذار والأكدارِ
ومكلّف الأيامِ ضد طِباعها مُتطلّب في الماءِ جَذْوَة نارِ
وإذا رجوْتَ المستحيلَ فإنما تَبْني الرّجاءَ على شَفيرِ هارِ
فالعيشُ نومٌ والمنية يقظةٌ والمرء بينهما خيَالٌ سارِ
فاقضوا مآربكم عِجالاً إنما أعماركم سِفرٌ من الأسفارِ
وتراكضوا خيل الشّباب وبادِروا أن تُسترَد فإنهنّ عَوَارِ
فالدَّهر يَخدَع بالمنى ويَغَصّ إن هنّا ويَهدِمُ ما بَنى ببوارِ
ليس الزمان وإن حَرَصت مسالماً خُلُقُ الزّمان عداوة الأحرارِ

إنـي وتـرْتُ بـصـارمٍ ذي رونَـقٍ أعـدَدْتـهُ لـطـلابـةِ الأوتـارِ
والـنّفس إن رضيت بذلك أو أبتْ مُـنْـقَـادةٌ بـأزمّـةِ الـمـقـدارِ
أُثـنـي عـلـيـهِ بـإثـرهِ ولـوَ أنـهُ لـم يُـغْـتَـبـطْ أثـنـيـتُ بـالآثـارِ
يـا كـوكـباً مـا كـانَ أقـصـرَ عـمـرَهُ وكـذَاك عـمـرُ كـواكـب الأسـحـارِ
وهـلانُ أيـام مـضـى لـم يـسـتَـدر بـدْراً ولـم يُـمْـهَـل لـوقـتِ سِـرَارِ
عـجلَ الـخُسوفُ عليه قبل أوانه فـمـحـاهُ قـبـل مـظَـنّـةِ الإبـدارِ
واسـتُـلّ مـن أتْـرَابِـهِ ولِـدَاتِـهِ كـالـمُـقْـلـةِ استُلّت من الأشفارِ
فـكـأنّ قـلـبـي قَـبـره وكـأنّـهُ فـي طَـيّـهِ سِـرٌّ مـن الأسـرارِ
إن يُـعـتَـبـط صِـغـراً فـربَّ مُـقَـمّـم يـبـدو ضـئـيـلَ الـشـخـص لـلـنـظّـارِ
إن الـكـواكـب فـي عُـلُـوّ مـحـلّـهـا لَـتُـرَى صِـغـاراً وهـي غـيـر صِـغـارِ
ولـدُ الـمُـعـزَّى بـعـضُـهُ فـإذا مـضـى بـعـضُ الـفـتـى فـالـكـلّ فـي الآثـارِ
أبـكـيـهِ ثـم أقـولُ مـعـتـذراً لـهُ وُفّـقـت حـيـن تـركـت ألأمَ دارِ
جـاورْتُ أعـدائـي وجـاوَرَ ربّـهُ شـتّـانَ بـيـن جِـوارهِ وجـواري
ثـوبُ الـرّيـاءِ يَـشِـفُ عـمّـا تـحـتَـه وإذا الـتَـحـفْـتَ بـه فـإنـك عـارِ
قَـصُـرَت جفوني أم تَـباعـدَ بَـيـنُـهـا أم صُـوّرتْ عـيـنـي بـلا أشـفـارِ
جَـفَـت الـكَـرَى حـتـى كـأنّ غِـرارَه عـنـد اغـتـمـاض الـعـيـن وخـزُ غِـرارِ
ولـو اسـتَـزَارت رَقْـدَةً لـطـحـا بـهـا مـا بـيـن أجـفـانـي مـن الـتَّـيَّـارِ
أُحْـيِـي الـلّـيـالـي الـتِّـمَّ وهـي تُـمـيـتـنـي ويُـمـيـتُـهُـنَّ تـبـلُّـجُ الأسـحـارِ
حـتـى رأيـت الـصُّـبـح تَـهـتِـك كـفُّـه بـالـضَّـوْءِ رفـرَف خـيْـمـه كـالـقـارِ
والـصُّـبـح قـد غـمـرَ الـنُّـجـوم كـأنـه سَـيـلٌ طَـغَـى فـطـفـا عـلـى الـنُّـوَّارِ
والـهُـونُ فـي ظـلّ الـهُـوَيْـنـا كـامِـنٌ وجـلالـة الأخـطـار فـي الإخـطـارِ
تـنْـدَى أسِـرّة وجـهـه ويـمـيـنـه فـي حـالـة الإعـسـار والإيـسـارِ
ويـمـدُّ نـحـو الـمـكـرُمـات أنـامـلاً لـلـرّزق فـي أثـنـائـهـنَّ مَـجـارِ

يَحوِي المَعالِيَ كاسِباً أو غالباً ... أبداً يُدَارَى دونَها ويُدَارِي
قد لاح في ليل الشّباب كواكب ... إن أُمهلت آلتْ إلى الإسفارِ
وتلَهُّبُ الأحشاءِ شَيّب مفرَقي ... هذا الضّياءُ شُواظ تلك النارِ
شاب القَذَال وكلُّ غصن صائرٌ ... فَينانُه الأحوى إلى الإزهارِ
والشّبه مُنجذبٌ فَلِم بيضُ الدُّمَى ... عن بيضِ مَفرَقه ذوات نِفارِ
وتوَدّ لو جعلت سوادَ قلوبها ... وسوادَ أعيُنِها خِضابَ عِذَارِ
لا تنْفِرُ الظّبَيات عنه فقد رأت ... كيف اختلاف النّبتِ في الأطوارِ
شيئان يَنْقَشعان أوّلَ وهْلة ... ظِلُّ الشباب وخُلّة الأشرارِ
لا حبذا الشيبُ الوفيّ وحبذا ... ظِلُّ الشّباب الخائنِ الغدّارِ
وطَري من الدُّنيا الشّباب ورَوقهُ ... فإذا انقضى فقد انقضت أوطاري
قصُرَت مسافته وما حسناته ... عندي ولا آلاؤه بقِصارِ
نزداد هَمًّا كلّما ازددنا غِنًى ... والفقْر كلُّ الفقر في الإكثارِ
ما زَاد فوقَ الزّاد خُلّفَ ضائعاً ... في حادث أو وارث أو عارِ
إني لأرحم حاسِدِيّ لحرّ ما ... ضمِنتْ صدورُهُم من الأوغارِ
نَظَرُوا صَنيع الله بي فعيونهم ... في جنَّة وَقلوبهم في نارِ
لا ذنب لي قد رُمْتُ كتْم فضائلي ... فكأنما برقعتُ وجهَ نهارِ
وسترتُها بتَواضُعي فتطلّعَتْ ... أعناقها تعلو على الأستارِ
ومن الرّجال مَعالمٌ ومَجاهِلٌ ... ومن النُّجوم غوامضٌ ودراري
والنّاس مشتبهون في إيرادهم ... وتفاضل الأقوام في الإصدارِ
عمري لقد أوطأتهم طُرق العلا ... فعَمُوا فلم يقِفوا على آثاري
لو أبصرُوا بقلوبهم لاستبصروا ... وعَمى البصائر من عمى الأبصارِ
هلاّ سعوْا سَعي الكرام فأدركوا ... أو سلّموا لمواقع الأقدارِ
وفشت خِيانات الثّقات وغيرهم ... حتى اتّهمنا رؤية الأبصارِ
ولربما اغْتَضَدَ الحليم بجاهل ... لا خير في يُمنَى بغير يَسارِ

ولأبي البقاء صالح بن شريف الرّندي المتوفى سنة ٧٩٨هـ يرثي الأندلس:

[البسيط]

لكلّ شيءٍ إذا ما تمّ نُقْصانُ ... قلا يُغَرَّ بطيب العيش إنسانُ

هي الأمور كما شاهدتها دُوَل ... مَنْ سرّه زَمَنٌ ساءتْهُ أزمانُ

وهذه الدّار لا تبقي على أحد ... ولا يدوم على حالٍ لها شانُ

يُمزّق الدّهر حَتماً كل سابغةٍ ... إذا نبتْ مشْرَفيَّات وخُرْصانُ

وينتَضي كلّ سَيفٍ للفناءِ ولو ... كان ابنَ ذي يَزنٍ والغِمدُ غَمْدَانُ

أين الملوك ذَوو التِّيجان من يَمنٍ ... وأين منهم أكاليلٌ وتيجانُ

وأين ما شاده شدّاد في إرَمٍ ... وأين ما ساسه في الفُرْسِ ساسانُ

وأين ما حازه قارُونُ من ذَهَبٍ ... وأين عادٌ وشدَّاد وقَحْطَانُ

أتى على الكلّ أمرٌ لا مَرَدَّ له ... حتى قَضَوْا فكأنَّ القومَ ما كانُوا

وصار ما كان من مُلْكٍ ومن مَلِكٍ ... كما حكى عن خَيال الطّيْف وَسْنان

دارَ لزّمانُ على دارًا وقاتِلِهِ ... وأمّ كِسْرَى فما آواه إيْوَانُ

كأنما الصَّعْب لم يَسُهل له سَبَبٌ ... يوماً ولا مَلك الدُّنيا سُليمانُ

فجائعُ الدَّهر أنواعٌ مُنوَّعة ... وللزّمان مَسرَّاتٌ وأحزانُ

وللحوَادث سُلْوانٌ يُسَهِّلها ... وما لِما حلَّ بالإسلام سُلْوَانُ

دَهَى الجزيرة أمرٌ لا عَزَاءَ له ... هَوَى له أُحد وانْهدَّ ثهْلاَنُ

أصابَها العَين في الإسلام فارتَزَأت ... حتى خَلَتْ منه أقطار وبُلْدَانُ

فاسْأل بَلَنْسيَةً ما شأنُ مُرْسِيَةٍ ... وأين شاطِبةٌ أمْ أين جَيّانُ

وأين قرْطبةٌ دارُ العلوم فكم ... من عالِمٍ قد سما فيها له شانُ

وأين حِمصٌ وما تحويه من نُزَه ... ونَهرُها العَذْب فَيّاض ومَلآنُ

قواعد كنّ أركانَ البلاد فما ... عَسى البقاءُ إذا لم تَبْقَ أركانُ

تبكي الحَنِيفيّة البيضاءُ من أسَف ... كما بكى لفراق الإلف هَيمانُ

على ديار من الإسلام خالية ... قد أقْفَرَتْ ولها بالكفر عُمْرانُ
حيث المساجدُ قد صارت كنائس ما ... فيهنَّ إلَّا نواقيسٌ وصُلبانُ
حتى المحاريب تبكي وهي جامِدَة ... حتى المَنابِر ترثي وهي عِيدانُ
يا غافلاً وله في الدّهر موعظةٌ ... إن كنت في سِنَةٍ فالدّهرُ يَقْظانُ
وماشِياً مَرِحاً يُلْهيه موطِنُهُ ... أبَعدَ حِمْصٍ تَغُرُّ المرءَ أوطانُ
تلك المصيبة أنْسَتْ ما تقدّمَها ... وما لها من طوال الدَّهر نِسيانُ
يا راكبينَ عِتاقَ الخيل ضامرةً ... كأنّها في مجال السّبْق عِقبانُ
وحاملين سيوفَ الهند مُرْهَفَةً ... كأنها في ظلام النقْع نيرانُ
وراتِعين وراءَ البحر في دَعَةٍ ... لهم بأوطانِهم عِزٌّ وسلطانُ
أعِندكم نبأٌ من أهل أنْدَلُس ... فقد سرَى بحديث القوم رُكبانُ
كم يَستَغيث بِنا المُستضعفون وهم ... قتلى وأسرَى فما يَهتزّ إنسانُ؟
ماذا التّقاطع في الإسلام بينكُم ... وأنتُم يا عباد الله إخوانُ؟
ألا نُفوسٌ أبيَّات لها هِممٌ ... أما على الخير أنصار وأعوانُ؟
يا من لذلّة قومٍ بعد عِزِّهِم ... أحال حالَهُم جَوْرٌ وطُغيانُ
بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم ... واليومَ هم في بلاد الكفْر عُبْدَانُ
لمثل هذا يَذُوب القلب من كمد ... إن كان في القلب إسلام وإيمانُ

وقال أبو الطيب المتنبي يرثي أبا شجاع فاتكاً:

[الكامل]

الحُزْن يُقلقُ والتجمُّل يَرْدَعُ ... والدَّمعُ بينهما عصيٌّ طيِّعُ
يتنازَعان دُموعَ عينٍ مُسهَّدٍ ... هذا يجيءُ بها وهذا يَرْجِعُ
النَّوم بعد أبي شُجاع نافِرٌ ... والليلُ مُعْيٍ والكواكب طُلّعُ
إني لأجبن من فِراق أحبَّتي ... وتحِسُّ نفسي بالحِمام فأشجُعُ
ويَزِيدني غَضَبُ الأعادي قسوةً ... ويُلِمّ بي عَتْب الصديق فأجزعُ

تصفو الحياةُ لجاهل أو غافلٍ عمّا مَضى منها وما يتوَقعُ
ولِمَن يُغالطُ في الحقائق نفْسَهُ ويَسومها طَلَب المُحال فتَطْمَعُ
أين الذي الهَرمان من بُنيانه ما قومهُ ما يومهُ ما المَصْرعُ؟
تَتَخَلّفُ الآثار عن أصحابها حيناً ويُدركها الفَناءُ فتتْبَعُ

وقال عبد المجيد بن عبدون الفهري المتوفى سنة ٥١٠هـ راثياً ملوك بني الأفطس من قصيدة ممتعة في التّاريخ والأدب:

[البسيط]

الدّهر يَفجعُ بعد العين بالأثرِ فما البُكاءُ على الأشباح والصُّوَرِ؟
أَنهاك أَنهاك لا أَنهاك واحدةً عن نَومة بين نَاب اللَّيث والظُّفرِ
فالدَّهر حربٌ وإن أبدى مُسالمةً فالبِيضُ والسُّمْر مثلُ البيض والسُّمرِ
ولا هَوداة بين الرّأس تأخذه يدُ الضّراب وبين الصّارم الذكرِ
فلا يَغرَّنْك من دُنياك نومتُها فما صناعة عينيها سوى السَّهرِ
فبالليالي أقال الله عثرتنا من الليالي وغالتها يد الغِيَرِ
في كل حين لها في كل جارحة منا جراح وإن زاغت عن البصرِ
تسرُّ بالشيء لكن كي تغرَّ به كالأيم ثار إلى الجاني من الزهرِ
كم دولةٍ وُليت بالنصر خدمتها لم تُبق منها وسل دُنياك عن خَبرِ

وقال أبو ذُؤيب يرثي أولاده:

[الكامل]

أمِنَ المنون ورَيبها تتوَجّعُ والدّهر ليس بمُعتبٍ مَنْ يجزَعُ
قالت أمامة ما لجسمك شاحباً منذُ ابتُذِلْت ومثل مالك ينفعُ
ولقد حرصتُ بأن أُدافع عنهمُ وإذا المنية أقبلتْ لا تُدْفعُ
وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيتَ كلّ تميمة لا تَنفعُ
فالعين بعدهمُ كأن جفونها كُحِلتْ بشَوْكٍ فهي عورٌ تَدْمعُ
وتجلُّدِي للشامتين أُريهمُ أني لريب الدَّهر لا أتضَعضعُ

حتى كأني للحوادث مَرْوةٌ نصفَ المشقَر كلّ يوم تُقرَعُ
لا بدَّ من تلفٍ مُقيم فانتظرْ أَبِأَرض قومك أم بأُخرى المَضجعُ
ولقد أرَى أن البكاءَ سفاهةٌ ولسوف يولَع بالبكا مَنْ يُفْجَعُ
وليأتينّ عليك يوماً مرّة يبكي عليك مُعَنَّفاً لا تسمعُ
فلئنْ بهم فجَعَ الزَّمان ورَيبهُ أني بأهل مودّتي لمُفَجِّعُ
والنّفس راغبة إذا رغّبتها وإذا تُرَدُّ إلى قليل تَقْنَعُ

وقال أبو الحسن الأنباري المتوفّى سنة ٣٢٨هـ، يرثي أبا طاهر بن بقية وزير عز الدولة لما قتل وصلب[1] وهي من أعظم المراثي ولم يسمع بمثلها في مصلوب حتى أن عضد الدولة الذي صلبه تمنى لو كان هو المصلوب وقيلت فيه:

[الوافر]

عُلوٌّ في الحياةِ وفي المماتِ لَحَقٌّ أنتَ إحدَى المُعجزَاتِ
كأنّ النَّاس حولَك حين قَامُوا وُفُودُ نَداك أيام الصلاتِ
كأنّكَ قائم فيهمْ خَطِيباً وكُلُّهمُ قيامٌ لِلصَّلاةِ
مددتَ يديكَ نحوهُمُ احْتِفاءً كَمَدّها إلَيهمْ بالْهِبَاتِ
ولمّا ضاقَ بطْنُ الأرضِ عن أنْ يضُمَّ عُلاكَ مِنْ بَعْدِ الوفاةِ
أصارُوا الجَوَّ قبرَك واستعاضوا عن الأكْفان ثوب السّافياتِ
لعُظمِك في النّفوس تبيت تُرعى بحُرَّاس وحُفّاظ ثِقاتِ
وتُوقدُ حوْلك النّيرانُ ليلاً كذَلك كُنْتَ أيَّامَ الحياةِ
ركبتَ مَطيَّةً مِنْ قبْلُ زيْدٌ علاها في السّنينَ الْماضِياتِ
وتِلْكَ قضِيّةٌ فيها تأسٌّ تُباعدُ عنك تعْييرَ العُدَاةِ

(١) وذلك لما استمرت الحرب بين عز الدولة وابن عمه عضد الدولة ظفر عضد الدولة بوزير عز الدولة أبي طاهر محمد بن بقية فطرحه للفيلة فقتلته، ثم صلبه عند داره بباب الطارق وعمره نيف وخمسون سنة، ولما صلب رثاه أبو الحسن محمد بن عمران يعقوب الأنباري أحد العدول ببغداد بهذه القصيدة المذكورة.

ولم أرَ قبل جِذعك قطُّ جذعاً تمكّن مِنْ عناق الْمَكْرُماتِ
أسأتَ إلى النّوائبِ فاستَثارَت فأنتَ قتيلُ ثأر النَائبَاتِ
وكنتَ تجيرُنا من صرف دهر فعاد مُطالباً لك بالتِّراتِ
وصَيَّرَ دَهرُك الإحسانَ فيهِ إلَينا منْ عَظيمِ السيِّئاتِ
وكُنتَ لمَعْشَرٍ سعْداً فلمّا مضيْتَ تفرّقُوا بالمُحْسِناتِ
عليلٌ باطنٌ لك في فُؤَادي يخَفّفُ بالدُّموعِ الجارِياتِ
ولو أني قَدرتُ على قِيامٍ بفَرْضك والحُقُوقِ الواجباتِ
ملأتُ الأرْض من نَظْم القوافي ونُحتُ بها خِلاف النّائحاتِ
ولكنّي أُصبّرُ عنك نَفْسي مخافَةَ أَنْ أعدَّ من الجُنَاةِ
وما لَكَ تُربةٌ فأقولُ تُسْقى لأنك نُصْبَ هَطل الهاطلاتِ
عليك تحيةُ الرّحمن تَترَى برَحماتٍ غَوادٍ رَائحاتِ

وقال بهاء الدين زُهير المتوفى سنة ٦٥٦هـ:

[الوافر]

أرَاكَ هَجرتني هَجراً طويلاً وما عوّدتني من قبلُ ذَاكا
عَهدتُك لا تطيق الصَّبر عنّي وتعصي في ودادِي مَن نهاكا
فكيفَ تغيَّرتْ تلك السَّجايا ومَن هذا الذي عَنّي ثناكا
فلا والله ما حاولتَ غَدراً فكلُّ النّاس يغدُر ما خَلاكا
وما فارقتَني طوعاً ولكن دهاك في المنيَّةِ ما دهاكا
فيا مَن غابَ عنّي وهو رُوحي وكيفَ أُطيق من رُوحي انفكاكا
يَعِزُّ عليَّ حين أديرُ عَيني أفتّشُ في مكانك لا أراكا
خَتمتُ على ودَادك في ضَميري وليس يَزَال مَختوماً هُناكا
فيا أسفي لجسمِك كيف يبلَى ويذهبُ بعدَ بهجته سَنَاكا
فيا قبرَ الحبيب ودَدتُ أنّي حَمَلتُ ولو على عَيني ثَراكا
ولا زال السّلام عليك منّي يُزَفّ على النّسيم إلى ذراكا

وقالت السيدة تُماضِرُ الخنساء المتوفاة قبل سنة ٤٦ هـ:

[البسيط]

قذًى بعَيْنَيْكِ أم بالعين عُوّارُ أم أقفرَتْ إذْ خَلَت من أهلها الدّارُ
كأنَّ عيني لذِكراهُ إذا خَطرَتْ فيضٌ يَسيلُ على الخدّين مِدرارُ
تَبكي خُناسٌ على صَخر وَحُقّ لها إذْ رَابَها الدّهر إنّ الدّهر ضَرّارُ
لا بدّ من مِيتَةٍ في صَرفِها عِبَرٌ والدَّهر في صرفه حُولٌ وأطوارُ
يا صَخرُ ورَّاد ماءٍ قد تَوارده أهل الموارد ما في وردِهِ عارُ
وإنَّ صخراً لَحامينا وسيِّدُنا وإنَّ صخراً إذا نَشْتوا لَنَحّارُ
وإنَّ صخراً لتأتمُّ الهُداة بهِ كأنَّهُ عَلَمٌ في رأسه نارُ
لم تُلْفِهِ جارةٌ يمشي بساحتها لرِيبة حين يُخلي بَيتَهُ الجارُ
مثل الرُّدَيْنيّ لم تَنفَد شَبيبَتُهُ كأنّه تحت طَيّ البُرْدِ أسوَارُ
طلقُ اليَدَيْنِ بفعل الخير مُعتمدٌ ضَخمُ الدَّسيعة بالخَيرَات أمَّارُ
حَمَّالُ ألْوية هَبّاطُ أوْدِيةٍ شَهّادُ أندية للجيش جَرّارُ

وقالت أعرابية ترثي ابنها:

[الطويل]

أيا ولدي قد زَاد قلبي تَلَهُّباً وقد حرَقت منّي الشُّؤُونَ المدامعُ
وقد أضرمت نارُ المصيبةِ شُعْلَةً وقد حَميت مِنّي الحَشَا والأضالِعُ
وأسأل عنك الرّكب هل يُخبرُونني بِحالِك كيْمَا تسكنُّ المضاجعُ
فلم يكُ فيهم مُخْبرٌ عنك صادق ولا فيهمُ مَن قال إنّك راجعُ
فيا ولدي مُذ غبت كَدَّرْتَ عيشتي فقلبي مَصْدُوعٌ وطرفي دَامِعُ
وفكري مقومٌ وعقلي ذاهبٌ ودمعي مفوحٌ وداري بلاقعُ

وقالت ليلى الأخيلية المتوفّاة سنة ٨٠هـ:

[الطويل]

لعمرُك ما بالموت عارٌ على الفتى إذا لم تُصِبْهُ في الحَياة المعايِرُ

وما أحدٌ حَيٌّ وإن عَاشَ سالماً ... بأخلد مِمّن غيّبتْهُ المقابرُ
ومن كان مما يُحدث الدَّهر جازعاً ... فلا بد يوماً أَنْ يُرى وهو صابرُ
وليس لذي عيش عن الموت مقصرٌ ... وليس على الأيام والدهر غابرُ
ولا الحيّ مما يُحدِثُ الدَّهرُ معتبٌ ... ولا الميت إن لم يصبر الحيّ ناشِرُ
وكل شبابٍ أو جديدٍ إلى بِلىً ... وكل امرئ يوماً إلى الله صائرُ

وقالت عائشة التيمورية المتوفاة سنة ١٣٠٠هـ:

[الكامل]

إن سالَ من غَرْب العيون بُحور ... فالدَّهر باغ والزمان غدُورُ
فلكلّ عين حقّ مِدْرار الدّما ... ولكل قلبٍ لوعةٌ وثُبُورُ
سُتر السنا وتحجَّبت شمس الضّحى ... وتغيّبت بعد الشّروق بدُورُ
ومضى الذي أهوى وجرّعني الأسى ... وغدَت بقلْبي جَذوَة وَسعيرُ
يا ليتهُ لمَّا نوى عهد النّوى ... وافى العيون من الظّلام نَذِيرُ
ناهيك ما فعلَتْ بماءِ حُشَاشَتِي ... نارٌ لها بَين الضلوع زَفيرُ
لو بُثّ حُزني في الورى لم يُلتفَتْ ... لمُصاب قيسٍ والمصابُ كبيرُ
طافتْ بثهر الصوم كاسات الرَّدى ... سحراً وأكوَابُ الدّموع تَدُورُ
فتناولَتْ منها ابنَتي فتغيَّرتْ ... وجنَاتُ خدّ شانَها التَّغييرُ
فذوت أزاهير الحياة بروْضها ... وانقَدَّ منها مائسٌ ونضيرُ
لبستْ ثيابَ السُّقم في صغرٍ وقد ... ذاقَتْ شرابَ الموت وهو مَرِيرُ
جاء الطبيبُ ضحًى وبَشّر بالشفا ... إن الطبيب بطبّه مغرورُ
وصفَ التجرُّع وهو يزعم أنهُ ... بالبُرءِ من كل السّقامِ بشيرُ
فتَنَفَّسَتْ للحُزْن قائلةً له ... عَجِّلْ بِبُرئي حيثُ أنت خبيرُ
وارْحم شبابي إن والدتي غدتْ ... ثَكْلَى يشير لها الجوَى وتُشيرُ
وارأف بعين حرّمت طِيب الكَرَى ... تشكو السُّهاد وفي الجُفُون فُتُورُ

لـمّـا رأتْ يـأس الـطـبـيـب وعـجـزه قـالـت ودَمـعُ الـمُـقـلَـتَـيْـنِ غـزيـرُ
أُمَّـاه قـد كَـلَّ الـطّـبـيـبُ وفـاتَـنـي مـمّـا أُؤمّـلُ فـي الـحـيـاة نَـصـيـرُ
لـو جـاءَ عـرَّاف الـيـمـامـة يـبـتـغـي بُـرئـي لـردّ الـطّـرفَ وهـو حَـسـيـرُ
يـا روع روحـي حـلّـهـا نـزعُ الـضّـنـا عـمّـا قـلـيـل وُرْقـهـا سَـتـطـيـرُ
أمّـاه قـد عـزّ الـلّـقـاءُ وفـي غـدٍ سـتـريـن نـعـشـي كـالـعَـروس يـسـيـرُ
وسيَنتهي المـسعى إلى اللَّحد الذي هـو مـنـزلـي ولـه الـجـمـوع تـصـيـرُ
قـولـي لـرب الـلَّـحـد رِفـقـاً بـابـنـتـي جـاءَت عـرُوسـاً سـاقـهـا الـتّـقـديـرُ
وتـجـلّـدي بـإزاء لَـحْـدِي بُـرْهـةً فـتـراك رُوْحٌ راعـهـا الـمـقـدُورُ
أُمَّـاه قـد سَـلَـفَـتْ لـنـا أُمـنـيـةٌ يـا حـسـنَـهـا لـو سـاقـهـا الـتّـيـسـيـرُ
كـانـت كـأحـلامٍ مـضـتْ وتـخـلّـفـتْ مـذْ بـان يـوْم الـبَـيـن وهـو عـسـيـرُ
عُـودي إلـى ربـعٍ خَـلا ومـآثـر قـد خَـلَّـفـتْ عـنّـي لـهـا تـأثـيـرُ
صُـوني جـهـاز الـعـرس تـذكـاراً فـلي قـد كـان مـنـه إلـى الـزّفـاف سُـرُورُ
جـرَّت مَـصـائـب فُـرقـتـي لـك بـعـدَ ذا لـبـس الـسّـواد ونـفّـذَ الـمـسـطـورُ
والـقـبـرُ صـار لـغُـصـن قَـدِّيَ رَوضـةً ريـحـانـهـا عـنـد الـمـزَار زُهـورُ
أُمَّـاه لا تـنـسـي بـحـقّ بـنـوتـي قـبـري لـئـلا يـحـزن الـمـقـبـورُ
فـأجـبـتـهـا والـدَّمـع يَـحـبِـسُ مَـنـطـقـي والـدَّهـر مـن بـعـد الـجـوار يـجـورُ
بـنْـتـاه يـا كـبـدي ولـوْعـة مُـهـجـتـي قـد زال صـفـوٌ شـأنـه الـتـكـديـرُ
لا تـوصِـي ثَـكْـلَـى قـد أذاب فـؤادهـا حـزنٌ عـلـيـك وَحـسـرةٌ وزفـيـرُ
أبـكـيـكِ حـتـى نـلـتـقـي فـي جَـنّـة بـريـاض خُـلـدٍ زيّـنـتـهـا الـحـورُ
إن قـيـل عـائـشـة أقـول لـقـد فـنـى عـيـشـي وصـبـري والإلـه خـبـيـرُ
ولَـهـي عـلـى «تـوحـيـدة» الـحُـسـن الـتـي قـد غـاب بـدرُ جـمـالـهـا الـمـسـتـورُ
قـلـبـي وجـفْـنـي والـلّـسـان وخـالـقـي راض وبـاك شـاكـرٌ وغـفـورُ
مُـتِّـعْـتِ بـالـرّضـوان فـي خـلـد الـرّضـا مـا ازّيـنـت لـك غُـرفـة وقـصـورُ

obeikandl.com

وسمعت قول الحقّ للقومِ ادْخُلُوا دارَ السّلامِ فسعيُكُم مَشكورُ
هذا النّعيم به الأحبّة تَلتقي لا عيشَ إلا عيشهُ المبرُورُ

وقالت ملك حفني ناصف ترثي عائشة تيمور:

[الوافر]

ألا يا موتُ وَيْحكَ لم تراعِ حقُوقاً للطُّرُوس ولا اليَرَاعِ
تركتَ الكُتْب باكيةً بكاءً يُشيبُ الطفلَ في عهد الرضاعِ
ولم تهَبِ الفضائلَ والمعالي وطول السّعي في خير المساعي
ولم يَمنعك ممّا رُمتَ نَثرٌ ولا شِعرٌ ولا حُسنُ ابتِدَاعِ
نَراكَ تجودُ بالأرزاءِ حتى عَدَدنا البخلَ من كَرم الطّباعِ
فذُبْ يا قلبُ لا تكُ في جمُود وزِدْ يا دمع لا تكُ في امتناعِ
ولا تبخل عليّ وكن جموماً فكنز العلم أمسَى في ضياعِ
سَنبقَى بعد عائشةٍ حَيَارَى كسِرْبٍ في الفَلاةِ بغير رَاعِ
لقد فُقدَت ولم تَفقِد عُلاها وهل شمسٌ تَغيب بلا شُعاعِ
هي الدُّرّ المصونُ ببطن أرض وقد كانت كذلك في قناعِ
هي البحرُ الخِضمّ وما سمعنا بأن البحرَ يُدفن في التّلاعِ
وكانت للمكارم خيرَ عون وللخيرات كانت خيرَ داعِ
لها القِدْحُ المُعلّى في العَوَالي وفي نشر المعارف طول باعِ
فيا شمسَ المحامد غِبتِ عنّا وخلّفتِ البكاءَ لكل ناعِ
ويا خيرَ النساءِ بلا خلاف وقدْوتنا بلا أدنى نزاعِ
لقد أحييتِ ذكرَ نساءِ مصرٍ وَجدّدتِ العُلا بعد انقطاعِ
وشِدت صُروح طُهرٍ باذخاتٍ مَحَصّنةٍ كتحصين القِلاعِ

وقال حفني بك ناصف راثياً عبد الله باشا فكري:

[البسيط]

لِيَدْعِ المُدّعون العلم والأدبا فقد تغيّبَ عبدُ الله واحتَجَبا

obeikandl.com

وليَنتَسِب أدعياءُ الفضل كيف قضت آراؤهم إذا قَضَى من يحفَظُ النّسبا
وليفخر اليوم قومٌ باليَراع ولا خوفٌ عليهم فمن يخشونه ذَهبا
ولْيَرْق مَنْ شاءَ أعواد المنَابِر إذ مات الذي يَتَّقِيهِ كلّ مَنْ خطَبا
لو عاش لم يطرُق الأسماع ذِكْرُهُم في طَلعة الشّمس مَنْ ذا يُبصرُ الشُّهُبا
فَلْيَسْمُ مَن شاء بالإنشاءِ لا عجبٌ مَضى الذي كان من آياته عَجبا
طودٌ من الفضل من بعد الرُّسوخ هَوَى وكوكب بعد أن أبدى الهدى غَرَبا
أجلْ فقد مات عبدُ الله وا أسفا وأوحِشتْ مصرُ من فكري فواحَرَبا
فكلّ نفس لمعناه ثكتْ وبَكتْ وكلُّ فكرٍ بفكري ماجَ واضطربا
قضى الحياة ونَصرُ الحقّ ديدَنهُ لا ينثني رَهباً عنه ولا رَغبا
لا كان عِيدٌ رأينا صَفوه كدراً بفَقْدِهِ وانثنتْ راحاتُه تعبا
سارت جنازتهُ والعلم في جزع والفضلُ يندُبُهُ في ضِمن مَن نَدَبا

وقال أحمد بك شوقي يرثي مصطفى باشا كامل المتوفى ١٣٢٦هـ:

[الكامل]

المَشْرِقان عليك يَنتَحبانِ قاصيهما في مأتم والدَّاني
يا خادمَ الإسلام أجرُ مجاهد في الله من خلد ومن رضوانِ
الله يشهد أنّ موتك بالحِجا والجدّ والإقدام والعِرْفانِ
إن كان للأخلاق ركن قائم في هذه الدنيا فأنتَ الباني
بالله فتِّش عن فؤادك في الثرى هل فيه آمالٌ وفيه أماني؟
وُجدانك الحي المقيم على المدى ولرُبّ حيّ ميّت الوجدانِ
الناسُ جار في الحياة لغاية ومُضَلَّلٌ يجري بغير عِنانِ
والخلد في الدّنيا وليس بهيّن عليا المراتب لم تتح لجبانِ
فلو أن رسل الله قد جبُنوا لما ماتوا على دين ولا إيمانِ
المجد والشرف الرّفيع صحيفةٌ جُعلت لها الأخلاق كالعنوانِ

وأحبُّ من طول الحياة بذلّة ... قِصَرٌ يُرِيك تَقَاصُر الأقرانِ
دقّات قلب المرء قائلة له ... إن الحياة دقائقٌ وثَواني
فارفَع لنفسك بعد موتك ذكرها ... فالذّكر للإنسان عُمرٌ ثاني
للمرء في الدّنيا وجَمّ شؤونها ... ما شاء من ربح ومن خسرانِ
فهي الفَضاء لراغبٍ مُتطَلّع ... وهي المضيق لمؤثِر السُّلوانِ
النّاس غَادٍ في الشّقاء ورائح ... يشقى له الرّحماء وهو الهاني
ومُنعّم لم يلقَ إلاّ لذّة ... في طيّها شَجَنٌ من الأشجانِ
فاصبر على نِعم الحياة وبُؤسها ... نِعمُ الحياة وبُؤسُها سِيّانِ
يا طاهِر الغدوات والرّوحات والـ ... خَطرَات والإسرار والإعلانِ
هَل نَامَ قَبلك في المَدائن فاتحاً ... غازٍ بغير مُهنّد وبِنانِ
يدعو إلى العلم الشريف وعنده ... أنّ العلوم دَعائم العُمرَانِ
لفّوك في عَلَم البلادِ مُنكّساً ... جزع الهلالُ على فتى الفتيانِ
ما احمَرَّ من خجل ولا من رُتبة ... لكنّما يَبكي بدمْع قاني
يزجون نعشك في السّناء وفي السّنا ... فكأنما في نعشك القمرَانِ
وكأنه نعش الحُسين بكربلا ... يختال بين بُكىً وبين حنَانِ
في ذمّة الله الكريم وبرّه ... ما ضَمّ من عُرف ومن إحسانِ
ومشى جلال الموت وهو حقيقةٌ ... وجلالك المصدوق يلتقيانِ
شَقّتْ لمنظرك الجيوبَ عقائلٌ ... وبكتك بالدّمع الهتُون غواني
والخلْق حَولك خاشعُون كعهدهم ... إذ ينصتون لخطبة وبيانِ
يتساءلون بأيّ قلب تُرْتَقَى ... بعدُ المنابر أم بأيّ لسانِ
فلو أن أوطاناً تُصوّر هيكلاً ... دَفنوكَ بين جوَانح الأوطانِ
أو كان يُحملُ في الجوارح ميّت ... حملوكَ في الأسماع والأجفانِ
أو صيغ من غُرر الفضائل والعُلى ... كفَنٌ لَبِسْتَ أحاسن الأكفَانِ

أو كان للذّكر الحكيم بقيّةٌ لم تأت بعدُ رُثيتَ في القرآنِ
يا صَبَّ مصر ويا شهيدَ غرامها هذا ثرى مصرٍ فنم بأمانِ
اخلع على مصرٍ شبابك عالياً والبس شباب الحُور والولدانِ
فلعلَّ مصراً من شبابك ترتدي مجداً تتيهُ به على البلدانِ
فلو أنّ بالهرَمين من عزماته بعض المضاء تحرّك الهَرَمانِ
علّمْتَ شُبّان المدَائن والقُرَى كيف الحَياة تكونُ في الشبّانِ
مصرُ الأسيفةُ ريفها وَصعيدها قبرٌ أبرُّ على عِظامك حاني
أقسمت أنّك في التّراب طهارة ملك يَهابُ سؤاله الملكانِ

وقال ابن هانئ الأندلسي يرثي إبراهيم بن جعفر بن عليّ:

[الرمل]

وهبَ الدّهر نفيساً فاسترِدْ ربّما جادَ بخيلٌ فحمَدْ
خَاب مَنْ يرجُو زماناً دائماً تُعرف البَأساءُ منه والنّكَدْ
فلقد أذكَر مَنْ كان سَهَا ولقد نبّه مَنْ كان رَقَدْ
قُلْ لمَنْ شاءَ يَقُلْ ما شَاءه إنّ خَصمي في حيَاتي لألَدْ
منتضٍ نصلاً إذا شاء مضَى رَائشٌ سهماً إذا شاء قصَدْ
ماتَ مَنْ لو عاش في سِربالِه غلبَ النّور عليه فاتَّقَدْ
إنما كان شِهاباً ثاقباً صعق اللّيل له ثم خمَدْ
لا رجاءٌ في خُلود كلّنا واردُ الماءِ الذي كان ورَدْ

وقال شاعر النيل أحمد بك شوقي راثياً:

[الوافر]

خُلقنا للحياة وللماتِ ومن هذين كلّ الحادثاتِ
ومَنْ يولد يعش ويمُت كأن لم يمرَّ خياله بالكائناتِ
ومَهدُ المرء في أيدي الرّواقي كنعش المرء بين النائحاتِ

وما سلم الوليد من اشتكاه فهل يخلو المعمّر من أذاةِ
هي الدنيا قِتالٌ نحن فيه مقاصد للحمام وللقَنَاةِ
وكل الناس مدفوع إليه كما دُفع الجَبان إلى الثّباتِ
نُروَّع ما نروّع ثم نُرْمَى بسهم من يد المقدورِ آتِ

وقال محمد بك حافظ إبراهيم راثياً الإمام الشيخ محمد عبده

[الطويل]

سلامٌ على الإسلام بعد مُحَمدٍ سلامٌ على أيّامه النّضراتِ
علَى الدّين والدّنيا على العِلم والحِجَى على البرّ والتّقوى على الحسناتِ
لقد كنتُ أَخْشَى عاديَ الموت قبله فأصبحتُ أخشى أن تطول حَياتي
فَوَالَهَفِي والقبرُ بيني وبينه على نظرةٍ من تِلكمُ النظراتِ
وَقَفْتَ عليه حاسِرَ الرأس خاشعاً كأنّي حيال القبر في عرَفاتِ
أبَنْتَ لنا التنزيلَ حكماً وحِكمة وفرَّقْتَ بين النور والظّلماتِ
وَقَفْتَ بين الدّين والعلم والدُّجى فأطلعتَ نوراً من ثلاث جهاتِ
وقَفتَ (لهانوتُو وريَنان) وقَفةً أمدّك فيها الروح بالنّفحاتِ
وخِفتَ مقام الله في كل موقفٍ فخافك أهل الشكِّ وَالنَّزعاتِ
وأرصدت للباغي على دين أحمد شباة يراعٍ ساحر النفثاتِ
مشى نعشه يختال عُجباً بربه ويخطر بين اللّمس والقُبلاتِ
بكى الشرق فارتجَّتْ له الأرض رجّةً وضاقت عيون الكون بالعبراتِ
بكى عالَمُ الإسلام عالِمَ عصره سراج الدَّياجي هادم الشبهاتِ
فيا ويح للثُّورَى إذا جدّ جدّها وطاشت بها الآراء مشتَجِراتِ
ويا ويح للفُتيا إذا قيل مَنْ لها ويا ويح للخيرات والصّدقاتِ
بكينا على فرد وإن بكاءَنا على أنفس لله منقطعاتِ
تعهدها فضل الإمام وحاطها بإحسانه والدّهر غير مُؤاتي

وقال جمال الدين بن نباتة، المتوفّى سنة ٧٦٨هـ، معزياً عن مَلك، ومهنئاً بملك:

[الطويل]

هَناءٌ محا ذاك العَزاءَ المقدّما ... فما عَبَسَ المحزون حتى تَبَسَّما
ثُغورُ ابتسامٍ في ثُغورِ مدامعٍ ... شبيهان لا يمتاز ذو الشَّبق منهما
تَدِرُّ مجاري الدّمع والبِشْرُ واضحٌ ... كوابل غيث في ضحى الشمس قد هَمَى
سقَى الغيثُ عنا تُرْبةَ المَلِكِ الذي ... عَهِدنا سجاياه أعزَّ وأكْرما
ودامَت يدُ النعمى على الملكِ الذي ... تدانَتْ بهِ الدنيا وعزَّ به الحِمَى
مليكان: هذا قد هَوى لضَريحه ... برغمي، وهذا للأسِرّةِ قد سَما
ودَوْحةُ فضلٍ شاذَويٌّ تكافأت ... فغُصْنٌ ذَوى منها وآخر قد نَمَا
كأنّ ديار الملك غابٌ إذا انقضى ... به ضَيْغم أنشأ الدّهر ضَيْغَما
فإنْ تَكُ أوقات المؤيد قد خلت ... فقد جددت عليك وقْتاً ومَوْسما
هو الغيثُ ولّى بالثَّناءِ مُشَيَّعاً ... وأبقاكَ بحراً بالمواهبِ مُفعَما
إذا الغيثُ صَلَّى خلفَ جدواك راكعاً ... ثَنَتْ عَزْمه للاعترافِ فسلما
يراعُك يومَ السلم يَنهلُّ ديمةً ... وسيفُك يومَ الحرب يَنهَلُ في الدِّما
فعِشْ للوَرى واسلَمْ سعيداً مُهَنّأً ... فحظُّ الورَى في أن تعيش وتَسلَما
أَعَدْتَ زمَان البِشرِ والجود والثنا ... إلى أن مَلأت العينَ والكفَّ والفما

وقال المرحوم حافظ بك إبراهيم يرثي الدكتور يعقوب صروف صاحب مجلة المقتطف المتوفى سنة ١٩٢٧م[1]:

[السريع]

أبكي وعينُ الشرق تبكي معي ... على الأريب الكاتب الألمعي
جَرى عَصِيُّ الدمع من أجلهِ ... فزادَ في الجُود على الطيِّعِ
نقصٌ مِنَ الشرق ومن زَهوه ... فقدُ اليراع المُعجزِ المُبدعِ

(١) هو الدكتور يعقوب صروف بن نقولا. ولد في بلدة الحدث بقرب بيروت وتعلم بها ونبغ في العلوم والمعارف فنال الإجازات العالية سنة ١٨٧٠م. ثم نزح إلى القاهرة وأسس مع زميله الدكتور فارس نمر باشا مجلة «المقتطف» وجريدة «المقطم» ومات سنة ١٩٢٧م.

لـيـسَ لـمـصـرَ فـي رجـالاتـهـا حَـظٌ، ولا لـلـشـام فـي أرْوعِ
مُـصـابُ صـرُّوف مـصـابُ الـنـهـى فَـلْـيَـبْـكِـهِ كـلُّ فـؤادٍ يـعـي
صـروف لا تـبـعـد فـلـستَ الـذي يـطـويـه طـاوي ذلـك الـمـضـجـعِ
أسـكَـتَـكَ الـمَـوْتُ ولـكـنَّـه لـم يُـسكِتِ الآثارَ في الـمَجمعِ
ذِكـراكَ لا تـنـفَـكُّ مَـوْصُـولَـةً في معهد العلم وفي المصنعِ

الباب الثامن: في الحِكم والنصائح

قال عَبيد بن الأبرص:

[الطويل]

كَـفَـى زَاجـراً لـلـمـرء أيّـامُ دَهْـرِهِ تـروح لـه بـالـواعـظـاتِ وتـغـتـدي
إذا أنـت طـالـبـتَ الـرجـالَ نـوالـهـم فـعِـفّ ولا تـطـلـب بـجـهـد فـتـنـكـدِ
عـسـى سـائـل ذو حـاجـة إن مـنـعـتـه مـن الـيـوم سُـؤلاً أن يـسـرّك في غـدِ
ولا تـقـعـدن عـن سـعـي مـا قـد ورثـتـه وما استطعت من خير لنفسك فازددِ
إذا مـا رأيـت الـشـرّ يـبـعـث أهـلـه وقـام جـنـاة الـشّـرّ بـالـشّـرّ فـاقـعـدِ
وبـالـعـدل فـانـطـق إن نـطـقـت ولا تـجُـرْ وذا الـذمُّ فـاذمُـمـه وذا الـحـمـد فـاحـمـدِ
عـن الـمـرء لا تـسـأل وسَـلْ عـن قـريـنـه فـكـل قـريـن بـالـمـقـارن يـقـتـدي
ولا أبـتـغـي ودّ امـرء قـلّ خـيـره وما أنا عن وصل الصديق بأحيدِ
إذا أنـت حـمَّـلـتَ الـخـؤونَ أمـانـةً فـإنـك قـد أسـنـدتـهـا شـرّ مـسـنـدِ
ولا تـظـهـرن ودّ امـرء قـبـل خُـبْـرِهِ وبـعـد بـلاءِ الـمـرء فـاذمـم أو احـمَـدِ

وقال أبو بكر محمد بن الحسين بن دُرَيد الأَزْدِي المتوفّى سنة ٣٢١هـ:

[الرجز]

يـا ظَـبِـيـةً أشـبـهَ شـيءٍ بـالْـمَـهَـا تَرْعَى الخُزَامى بين أشجار النَّقا[1]

(١) الظبية: الأنثى من الغزلان. المها: جمع مهاة وهي الأنثى من البقر الوحشي. الخزامى: نبت معروف طيب الرائحة. النقا: اسم موضع.

إمـا تَـرَيْ رأسـيَ حـاكَـى لـوْنُـهُ طرَّة صُبحٍ تحت أذْيَال الدُّجى[١]
واشـتـعـلَ الـمُـبْـيَـضُّ فـي مُـسْـوَدِّه مثل اشتعال النّار في جَزْلِ الغَضى[٢]
فـكـان كـالـلـيـل الـبَـهـيـمِ حلّ فـي أرْجـائـهِ ضَـوءُ صَـبـاحٍ فـانـجـلـى[٣]
وغـاض مـاءَ شِـرَّتـي دَهـرٌ رَمـى خـواطرَ الـقـلـب بـتـبـريح الـجَـوَى[٤]
وآض رَوْضُ الـلّـهـو يَـبْـسـاً ذَاوِيـا من بعد ما قد كان مجّاجَ الثرَى[٥]
وضَـرّمَ الـنّـأيُ الـمُـشِـتُّ جَـذْوَةً مـا تـأتَـلِي تَـشْـفَـعُ أثـنـاءَ الـحـشَـى[٦]
واتَّـخـذَ الـتّـسـهـيـدُ عـيـنـي مـألَـفـاً لـمّـا جفا أجفانها طَيْفُ الكَرَى[٧]
فـكـلُّ مـا لاقِـيـتُـهُ مُـغْـتَـفَـرٌ في جَنبِ ما أسأرَهُ شَحطُ النّوى[٨]
لـوْ لابَسَ الـصّـخـرَ الأَصَـمَّ بعضُ ما يلقاه قلبي فَضَّ أصْلادَ الصّفَا[٩]

(١) إما: أصلها إن ما، فإنْ شرطية وما زائدة. تري: أصلها ترين، وتري فعل الشرط وجوابه قوله فيما بعد فكل ما... إلخ. حاكى: أشبه. طرة صبح: يعني وجه صبح، وطرة كل شيء: حافته وجانبه. أذيال: جمع ذيل وهو الطرف. الدُّجى: جمع دُجْيَة وهي الظلمة.

(٢) اشتعل: فشا وانتشر. جزل: ما غلظ من الحطب. الغضى: جمع غضاة وهي نوع من الشجر يبقى جمره طويلاً.

(٣) فكان كالليل البهيم: كناية عن المظلم جداً. والبهيم: هو الأسود الذي لا ضوء فيه. حل: نزل. أرجائه: جمع رجا بالقصر الطرف. فانجلى: فانكشف وظهر.

(٤) غاض: نقص أو ذهب. الشرة: الحدة والنشاط، استعيرت هنا للشباب. التبريح: البلوغ في المشقة إلى غايتها. الجوى: سقم في الجوف من طول المرض.

(٥) آض: رجع. يبساً: يابساً. ذاوياً: ذابلاً. مجاج: من قولهم مج الغصن الماء إذا ألقاه. الثرى: بالقصر التراب الندي، وبالمد الغنى والسعة.

(٦) ضرم: أشعل وأوقد. النأي: البعد. المشت: المفرق جذوة: هي الجمرة العظيمة. ما تأتلي: ما تقصر. تسفع: تحرق وتهلك. أثناء الحشى: يعني ما رق من البطن وأراد به القلب والجوف.

(٧) التسهيد والسهاد: السهر وهو عدم النوم. مألفاً: صاحباً، والمألوف هو الموضع الذي تقع فيه الألفة أي: الاجتماع والصحبة. جفا: هجر. الأجفان: أغطية العيون واحدها جفن. الطيف: ما يراه الإنسان من خيال المحبوب. الكرى: النوم.

(٨) مغتفر: متجاوز عنه. أسأره: أبقاه. شحط: البعد. النوى: البعاد.

(٩) لابس: خالط. الأصم: الصلب. فض: كسر. وأصل الانفضاض التفرق. أصلاد: جمع صلد وهي الحجارة الصلبة الشديدة. الصفا: الصخر الصلاب جمع صفاة والمذكر صفوان.

إذا ذَوَى الغصنُ الرطيبُ فاعْلَمَنْ ... أنّ قُصاراهُ نفادٌ وتَوَى[١]

شَجِيتُ لا بَلْ أجْرَضَتني غُصَّةٌ ... عُنُودُها أقتَلُ لي منَ الشَّجَى[٢]

إنْ يَحْمِ عن عيني البُكا تَجَلُّدي ... فالقلب موقوف على سُبْل البُكا[٣]

لو كانت الأحلام نَاجَتْنِي بما ... ألْقاهُ يَقْظانَ لأصْمانِي الرَّدى[٤]

مَنزلة ما خِلْتُها يرضى بها ... لنفسه ذو أدَبٍ ولا حِجَا[٥]

شَيْمُ سَحابٍ خُلَّبٍ بارقُهُ ... وَمَوْقِفٌ بين ارْتجاء وَمُنَى[٦]

في كلّ يوم منزلٌ مُسْتَوبَلٌ ... يَشْتَفُّ ماءَ مُهْجَتِي أو مُجْتَوَى[٧]

ما خِلْتُ أن الدّهر يَثْنيني على ... ضَرَّاءَ لا يَرضى بها ضَبُّ الكُدَى[٨]

أُرَمّقُ العيش على بَرْضٍ فإن ... رُمت ارتشافاً رُمتُ صعبَ المُنتَسَى[٩]

أراجعُ لي الدَّهرُ حولاً كاملاً ... إلى الذي عَوّد أم لا يُرْتَجَى

يا دهرُ إن لم تك عُتْبَى فاتّئِدْ ... فإنّ إرْوَادَكَ والعُتْبَى سِوَى[١٠]

---

(١) ذوى: جف وذبل. الرطيب: الناعم الرطب. قصاراه: آخر أمره وغايته. نفاد: فناء وذهاب. وتوى بالتاء: الهلاك.

(٢) شجيت: حزنت أو غصصت، والغصص الاختناق باللقمة، يقال: شجيت بالعظم أي: اختنقت به. أجرضتني: خنقتني غصة الموت، والجرض هو الاختناق بالريق. عنودها: معارضتها.

(٣) إن حرف شرط، يحم فعل الشرط بمعنى يمنع. تجلدي: تصبري، فالقلب جواب الشرط. سبل الطرق: واحدها سبيل، وعنى بذلك الهوى الذي يأتي البكاء من أجله وسببه.

(٤) الأحلام: جمع حلم وهو ما يراه الإنسان في منامه. ناجتني: أخبرتني. لأصماني: لقتلني مكاني بلا تأخير. الردى: الهلاك.

(٥) منزلة: درجة. ما خلتها: ما حسبتها. أدب: ظرف. الحجا: العقل.

(٦) شيم: النظر إلى البرق خاصة. خلب: الذي لا ماء فيه، ارتجاء: أمل. منى بالضم: جمع منية وهي المطلوب.

(٧) مستوبل ومجتوى: يقال اجتويت البلاد إذا كرهتها وإن كانت موافقة لك، واستوبلتها إذا لم توافقك وإن كنت غير كاره لها. يشتف: يستقصي.

(٨) يثنيني: يعطفني. ضراء: الصخرة الصماء. الكدي بالضم: جمع كدية وهي ما ارتفع من الصخور.

(٩) أرمق العيش: أعطى منه بقدر ما يسد رمقي. برض: العطاء القليل. الارتشاف: أن يستقصي شرب ما في الإناء. المنتسى: المطلب البعيد.

(١٠) العتبى: الرضى. فاتئد: ارفق. الإرواد: الرفق. سوى: مثل.

رفّهْ عليّ طالما أنْصَبتَني ... واستَبْقِ بعض ماءِ غصنٍ مُلتَحَى[١]
لا تَحْسَبَنْ يا دهرُ أني ضارعٌ ... لنكْبَةٍ تعرُقُني عَرْقَ المُدى[٢]
مارستَ منْ لو هوتِ الأفلاكُ من ... جوانبِ الجوّ عليه ما شَكَا[٣]
لكنها نفْثةُ مصدُورٍ إذا ... جاش لغَامٌ من نواحيها غَما[٤]
رضيتُ قسْراً وعلى القَسْرِ رِضَى ... من كان ذا سَخْطٍ على صرْف القَضَا[٥]
إن الجديدين إذا ما استَوْلَيَا ... على جديدٍ أدْنَياه لِلبلى[٦]
ما كنتُ أدري والزّمان مُولعٌ ... بشَتِّ مَلْموم وَتنكيثِ قِوَى[٧]
إنّ القضاءَ قاذِفي في هُوَّةٍ ... لا تَستَبِلُّ نفسُ مَنْ فيها هوى[٨]
فإنْ عثَرتُ بعدها إن وألتْ ... نفسيَ من هاتا فقولا لا لَعا[٩]
وإن تكن مُدّتها موصولةً ... بالحَتْفِ سَلّطتُ الأسَى عَلى الأَسى[١٠]

(١) رفه: وسع. أنصبتني: أتعبتني. استبق: ابق. ملتحى: الذاهب. لحاه: قشره الظاهر.
(٢) ضارع: ذليل خاضع خاشع. لنكبة: لمصيبة وشدة. تعرقني: تزيل لحمي عن عظمي. المدى بالضم: جمع مدية وهي السكين.
(٣) مارست بتاء الخطاب: عالجت. هوت: سقطت. الأفلاك: جمع فلك وهي التي تجري فيها الشمس والقمر والنجوم. جوانب: الأطراف. الجو: الفضاء الذي بين السماء والأرض.
(٤) لكنها: الضمير فيها كناية عن هذه القصيدة التي قالها. النفثة: ما يلقيه الرجل من فيه إذا بصق. مصدور: مَنْ يشتكي صدره. جاش: علا وارتفع. اللغام: الزبد وهو ما يلقيه البعير من فيه. نواحيها: جوانبها.
(٥) القسر: القهر. السخط: الغضب.
(٦) الجديدين: الليل والنهار. استوليا: غلبا وملكا. أدنياه: قرباه. للبلى: للأخلاق.
(٧) ما كنت أدري: ما كنت أعلم، وجاء بالمعمول في البيت الذي بعده، وهو أن القضاء... إلخ. والزمان: الواو للحال. مولع: ملازم ومغرى به. بشت: بتفريق. ملموم: مجموع. التكيث: النقض. قوى: جمع قوة.
(٨) قاذفي: رام بي. الهوة: الحفرة التي يتسع أسفلها ويضيق أعلاها. لا تستبل: لا تبرأ ولا تفيق. هوى: سقط.
(٩) عثرت: زللت. وألت: بحت وخلصت. هاتا: عائد على العثرة المضمرة الذي دل عليها قوله فإن عثرت. لا لعا: لا نجا، دعاء للعاثر بعدم السلامة.
(١٠) ضمير مدتها عائد على النكبة. بالحتف: الموت. الأسى بضم الهمزة: جمع أسوة وهي التعزية والتأسي. الأسى بفتح الهمزة: الحزن.

إنّ امرأ القيس جرى إلى مدًى فاعْتَاقَه حِمَامهُ دُون المَدَى[١]
وخامرتْ نفسُ أبي الجَبْرِ الجَوى حتى حواه الحَتْف فيمن قد حوى[٢]
وابنُ الأشجّ القيلُ ساق نفسَه إلى الرَّدى حِذَار إشْمات العدى[٣]
واختَرم الوضّاح من دون التي أمّلها سيفُ الحِمامِ المُنْتَضَى[٤]
فقد سما قبلي يزيدُ طالباً شَأو العلا فما وَهَى ولا وَنى[٥]
فاعترضَتْ دون الذي رام وقد جدّ به الجِدُّ اللهيمُ الأربَى[٦]
هل أنا بِدْعٌ من عَرَانِين عُلاً جار عليهم صرف دهر واعتدى[٧]

(١) امرؤ القيس معلوم أنه كان هو طريد أبيه لقوله الشعر. خلاصة قصته أن بني أسد قتلت أباه وكان ملكاً عليهم، فبعد عناء توجه إلى قيصر ملك الروم واستنجده على قتلة أبيه، فوعده. وكان قد تعشق ابنة قيصر، فحضر أحد أعدائه من بني أسد وأخبر قيصر بعشقه لها، فكره ذلك، وكره أن يقتله أو يخذله بعد ما وعده. فأرسل معه عكراً ثم أردفه بحلة ملوكية مسمومة فلبسها فمات. مدى: الغاية. فاعتاقه وعاقه: بمعنى عوقه. حمامه: بكسر الحاء موته.

(٢) خامرت: خالطت. أبو الجبر: من ملوك كندة. خلاصة قصته أنه تألّب قومه عليه فاستعان بكسرى فأعطاه جيشاً من أساورته، فرأوا بلاد العرب فاستوحشوها، فسموه فمرض. وعندها طلبوا الإذن بالرجوع، فأذن لهم. ثم بعدمدة مات على طريق اليمن بالمرض الذي نشأ من السم. الجوى: داء في الجوف. حواه: حازه. الحتف: الموت.

(٣) ابن الأشج هو عبد الرحمن بن الأشعث. خلاصة قصته أنه قد ولاه الحجاج سجستان فخرج عليه ثم هرب إلى ريتقل ملك الترك، فبذل الحجاج إلى ريتقل مالاً فسلمه إلى أعوان الحجاج. وكان في الطريق مقيداً معه رجل من بني تميم على سطح برج فرمى بنفسه من أعلى البرج فمات هو والتميمي وحمل رأسه إلى الحجاج. القيل: الملك دون الملك الأعظم. الردى: الهلاك. حذار: خوف.

(٤) اخترم: أهلك واقتطع. الوضاح يعني به جذيمة الأبرش وكان قتل أبا الزباء، فبعد مدة خطبته لنفسها فلما حضر قتله في قصة طويلة. المنتضى: المسلول.

(٥) سما: علا. ويزيد هو ابن المهلب. وخلاصة قصته أنه خرج على بني أمية وخطب له بالبصرة وسلم عليه بالخلافة، فدست بنو أمية رجلاً من كلب فقتله واستتب الأمر لهم. شأو: الغاية. العلا: الشرف. فما وهى: فما ضعف. ولا ونى: ولا فتر.

(٦) فاعترضت: عارضت. رام: طلب. جد بالفتح: أسرع. الجد بالكسر: العزم. اللهيم بالتصغير والأربى: اسمان من أسماء الداهية، وهما: فاعل اعترضت.

(٧) بَدع: الذي يكون أول من كل أمر. عرانين الأشراف: واحدها عرنين وهو الأنف. جار: عدل عن الحق. اعتدى: ظلم.

فإن أنَالَتْنِي المقاديرُ الذي أَكِيدُه لم آلُ في رأب الثُّؤَى[١]
وقد سما عمرو إلى أوْتَارِهِ فاحتَطَّ منها كلَّ عالي المسْتَمى[٢]
فاسْتَنْزَل الزَّبَّا قَسْراً وَهِيَ من عِقاب لُوح الجَوّ أعلى مُنتَمى[٣]
وسيفٌ استَعلتْ به هَمّتُهُ حتى رمى أبعد شأوِ المُرْتَمى[٤]
فجرّع الأحبُوش سُمّاً ناقعاً واحتلّ من غَمْدانَ مِحْراب الدُّمى[٥]
ثم ابن هند باشرتْ نِيرانُه يوْم أواراتٍ تميماً بالصلا[٦]

(١) أنالتني: أعطتني. المقاديرُ: جمع مقدار وهو القدر. أكيده: أطلبه وأحتال عليه. لم آل: لم أقصر. رأب: الإصلاح. الثأي: الفاسد.

(٢) سما: علا. أوتار: جمع وتر وهو طلب الدم. فاحتط: فأنزل. المستمى: المكان العالي المرتفع.

(٣) الزباء: اسم امرأة. قسراً بالسين: القهر والغلبة. عقاب: طائر معلوم وهو من سباع الطير وجمعه عقبان. لوح الهواء: الذي بين السماء والأرض. منتمى: موضع مرتفع إليه. وخلاصة قصة الزباء وعمرو أن الزباء لما قتلت جذيمة الأبرش قعد عمرو ابن أخته مكانه، وكان قصير وزيره كما كان لخاله، وكان وقت قتل خاله نجا على فرس تسمى العصا، فطلب قصير أن يجدع عمرو أنفه وأذنيه دهاء منه لأخذ ثأر خاله. فرحل قصير إلى الزباء على هذه الحالة فاستأمنت له، ثم بعد مدة وعناء أتى بالرجال مدججة بالسلاح في جوالق على ظهور الجمال، فهربت الزباء إلى نفق لها لتهرب منه، فرأت عمراً على باب النفق، فمصت خاتماً مسموماً كان بيدها، وقالت بيدي لا بيدك يا عمرو، وماتت مكانها، فاستولى على ملكها.

(٤) سيف: يعني به سيف بن ذي يزن ملك اليمن. استعلت: علت. شأو: الغاية. المرتمى: موضع المرمى وهو الذي يقال له الغرض والهدف والقرطاس.

(٥) فجرع: فسقي، والجرع: القليل من الماء. الأحبوش: ملك الحبش، ناقعاً: بالغاً، احتل: نزل بالمكان. غمدان: موضع بصنعاء اليمن. محراب ههنا غرفة بصنعاء، الدمى: الصور، جمع دمية. خلاصة قصة الحبش أن الملك سيفاً لما غلبت عليه الحبشة استعان بهرمز أحد الأكاسرة، فأرسل معه جيشاً من المسجونين ورأس عليه وزيراً من الأساورة المتقدمين، فأجلوا الأحباش عن اليمن وملكوا سيفاً في قصة طويلة.

(٦) ابن هند: هو عمرو عم النعمان بن المنذر، وكان له أخ مسترضع من بني تميم فقتل لهم ناقة فقتله صاحبها، فنذر عمرو المذكور أن يقتل من بني تميم مائة. فأجج ناراً وألقى فيها واحداً واحداً منهم إلى تسعة وتسعين. فبينما هم كذلك يرجون تمام المائة إذ جاء رجل من البراجم يظن هناك وليمة لقتار اللحم، فأُلقي في النار تماماً للمائة. باشرت: خالطت. يوم أوارات: يوم معروف من أيام العرب. أوارات: اسم موضع. تميماً: قبيلة. الصلا بالفتح: وهج النار.

ما اعتَنّ لي يأس يُناجِي هِمّتِي إلا تحداهُ رجاءٌ فاكْتَمى[١]
أليّة بالْيعملاتِ يَرْتمي بها النَّجاء بين أجوازِ الفلا[٢]
خُوص كأشباحِ الحنايا ضُمَّر يرعُفْن بالأمشاج مِنْ جذْب البُرى[٣]
يَرْسُبن في بحر الدُّجى وبالضُّحى يَطفُون في الآل إذا الآلُ طَفا[٤]
أخْفافُهنّ من حفًى ومن وجًى مرْثومةٌ تخضِبُ مُبْيضَّ الحَصَا[٥]
يحملْن كلّ شاحِبٍ مُحْقَوقِفٍ من طولِ تدْآب الغُدُوّ والسُّرى[٦]
بارٌّ برى طولُ الطوى جُثْمانَه فهو كقدْحِ النّبْع محْني القَرَا[٧]
يَنْوِي التي فَضَّلَها ربّ العلى لما دحا تُرْبتها على البُنَى[٨]
حتى إذا قابلها اسْتعْبَر لا يملك دمع العين من حيث جرى[٩]

(١) ما اعتن: ما اعترض. تحداه: اعتمده وقصده. فاكتمى: استتر وتغطى.
(٢) ألية: قسماً. باليعملات: جمع يعملة وهي الناقة الصلبة الشديدة؛ النجاء: السرعة؛ أجواز: جمع جوز، وجوز كل شيء وسطه؛ والفلا: جمع فلاة وهي الصحراء.
(٣) خوص الإبل: الغائرة العيون من الهزال. والأشباح: الأشخاص جمع شبح. والحنايا: جمع حنية، والحنية القوس. وضمر: جمع ضامر وهو المهزول. ويرعفن: يسلن مأخوذ من الرعاف وهو سيلان الدم من الأنف. والأمشاج: الأخلاط، جمع مشج وهو ما يسيل من الأنوف. ومن جذب: من سوق. والبرى: جمع برة وهي الحلقة التي تكون في أنف البعير.
(٤) يرسبن: يغبن، والرسوب: الخوض في الماء والمغيب فيه. والدجى: جمع دجية وهي الظلمة. ويطفون: يعلون. والآل: ما يرى كالماء عندما ترتفع الشمس. والسراب إنما يكون في انتصاف النهار كأنه ماء وليس بماء. وطفا: ارتفع.
(٥) أخفافهن: جمع خف، وهي للإبل بمنزلة الحوافر للخيل. وحفا مقصور: هو رقة أخفاف الإبل من كثرة المشي. ووجى: وجع في الرجل يصيبها من الحفا. ومرثومة: مشقوقة من الحجارة. وتخضب: تصبغ.
(٦) شاحب: متغير اللون من السفر وغيره. ومحقوقف: معوج. وتدآب: مداومة. والسرى: سير الليل.
(٧) بار: مطيع والجمع أبرار، نعت للشاحب. وبرى: من بري القلم وهو إضعافه وترقيقه. والطوى: الجوع. وجثمانه: جسمه. وقدح: عود صلب تعمل منه السهام. والنبع: شجر تعمل منه القسي واحدها نبعة. ومحني: معوج. القرا: الظهر.
(٨) ينوي: يقصد. والتي فضلها رب العلى: يعني مكة. ودحا: بسط. والبنى: جمع بنية وهو الشيء المبني.
(٩) استعبر: بكى وهو مأخوذ من العبرة وهي الدمعة.

ثُـمّـتَ طـاف وَانـثَـنَـى مُـسْـتـلـمـاً ثُـمَّـتَ جـاءَ الـمَـرْوتـيـنِ فـسـعَـى[١]
وأوجـب الـحَـجَّ وَثَـنَـى عُـمْـرةً مـن بـعـد مـا عـجَّ ولـبَّـى ودعـا[٢]
ثُـمَّـت راح فـي الـمُـلَـبّـيـن إلـى حـيـث تـحـجّـى الـمَـأْزِمـانِ ومـنـى[٣]
ثـم أتـى الـتّـعـريـف يَـقْـرُو مُـخْـبـتـاً مـواقِـفـاً بـيـن أُلال فـالـنَّـقـا[٤]
واسـتـأنـف الـسّـبـع وسـبـعـاً بـعـدهـا والسَّعي ما بين العِقابِ والصُّوى[٥]
وراح لـلـتَّـوْدِيـع فـيـمـن راح قـد أحْـرز أجـراً وقـلَـى هُـجْـر الـلَّـغـا[٦]
بـذاك أمْ بـالْـخَـيْـلِ تَـعْـدُو الـمـرطَـى نـاشـزةً أكْـتَـادُهـا قُـبَّ الـكُـلـى[٧]
شُـعُـثـاً تَـعـادَى كـسـراحـيـن الـغَـضـا مَـيْـل الـحَـمـالِـيـق يُـبـارِيـن الـشَّـبـا[٨]
يَـحْـمِـلـن كـلّ شـمَّـرِيّ بـاسـل شهم الجَنَانِ خائِضِ غَمْر الْوغى[٩]
يَـغْـشـى صَـلا الـحَـرْبِ بـحـدَّيْـهِ إذا كان لظى الحربِ كريه المُصْطلى[١٠]

(١) ثمت: هي ثم زيدت عليها تاء التأنيث. وانثنى: انعطف. ومستلماً: ماساً الحجر الأسود بيده أو بفمه. والمروتين المراد بهما الصفا والمروة. فسعى: فمشى.
(٢) أوجب الحج: ألزمه نفسه. وثنى عمرة: ألزم نفسه مع الحج عمرة. عج: رفع صوته بالدعاء والتلبية.
(٣) راح: خرج بالرواح وهو الخروج بالعشي؛ الملبين: جمع ملب وهو المجيب بالتلبية. تحجى: أقام، المأزمان: جبلان بين مزدلفة ومنى؛ ومنى: محل رمي الجمار بمكة.
(٤) التعريف وعرفات واحد، وهو اسم موضع من مناسك الحج. يقرو: يتتبع المواضع؛ مخبتاً: متواضعاً مخلصاً لله تعالى. أُلال: موضع بعرفات. النقا: الرمل.
(٥) استأنف: ابتدأ، السبع: رمي الجمار السبع: سبعاً: أراد الثانية التي تلي الأولى. السعي: المشي. العقاب: جمع عقبة، الصوى: الكدي تقدمت جمع صوة.
(٦) راح للتوديع: لتوديع البيت الحرام كما يفعل الحجاج بأن يطوف به سبعاً ويسعى بين الصفا والمروة. أحرز أجراً: ملكه وأصابه. قلى: أبغض. هجر بضم الهاء: القبيح من الكلام. اللغا: الباطل من الكلام.
(٧) أقسم بذاك أم بالخيل. تعدو: تجري. المرطى: ضرب من العدو وهو السهل منه. وناشزة: مرتفعة، ومنه قولهم: قعدت على نشز من الأرض أي: مرتفع. وأكتادها: جمع كتد وهو العظم الذي يكون في رأس الكتف. وقب: ضامرة. والكلى: جمع كلوة.
(٨) شعثاً: مغبرين، يعني مغبرين من الله تعالى. تعادى: أصله تتعادى تسابق. سراحين: ذئاب، الواحد سرحان. الغضا: شجر يدوم جمره. ميل الحماليق: مائلة العيون. يبارين: يعارضن. الشبا: جمع شباة، وشباة كل شيء حده، يريد بها هنا أطراف الرماح.
(٩) يحملن: أي: الخيل. شمرى: مأخوذ من التشمير. باسل: شجاع. شهم الجنان: حديد القلب. خائض: داخل. غمر: الماء الكثير. الوغى: صيحة الناس في الحرب.
(١٠) يغشى: يدخل. صلا: حر النار كلظى.

لَوْ مُثّل الحتْفُ لهُ قِرْناً لَمَا صَدَّتْهُ عنهُ هيبةٌ ولا انْثَنى[١]
ولوْ حَمَى المِقدار عنهُ مُهجة لَرَامَها يستبيح ما حَمى[٢]
تغدُو المنايا طائعاتٍ أمْرهُ ترضى الذي يَرْضى وتأبَى ما أبَى[٣]
بل قَسماً بالشمّ منْ يعْرُبَ هل لِمُقْسِمٍ مِنْ بعد هذا مُنْتَهى[٤]
هُمُ الألى إن فَخَرُوا قال العُلا بفِي امرئٍ فاخرَكم عَفر البَرَا[٥]
هُمُ الألى أجْرَوْا ينابيع النّدَى هامية لِمَنْ عَرَا أو اعْتَفَى[٦]
هُمُ الَّذِينَ دَوّخُوا من انْتَخَى وَقُوّموا مِنْ صَعَرٍ وَمِنْ صَغا[٧]
هُمُ الَّذِينَ جَرَعوا فما حَلُوا أفاوقَ الضَّيْمِ مُمرَاةَ الحَسا[٨]
أزَالُ حشْوَ نِثرةٍ موْضُونَة حتى أُوَارَى بين أثْناءِ الحَشى[٩]

(١) مثل: صور. الحتف: الهلاك. قرنك: الذي يقارنك في بطش أو قتال أو علم. صدته: منعته. هيبة: مخافة. انثنى: رجع.

(٢) حمى: منع. المقدار: القدر. المهجة: النفس. لرامها: لطلبها. أو: بمعنى حتى. يستبيح: يدرك ذلك الشيء نافذاً أمره فيه، منصوبة بأن مضمرة بعد أو.

(٣) تغدو: تأتي بالغدوة. وورد تعدو أي: تسرع. تأبى: تكره.

(٤) قسماً: يميناً. بالشم: بالطوال أو أشراف الناس. يعرب: قبيلة من العرب تنسب إلى يعرب بن يشجب بن قحطان؛ لمقسم: لحالف. منتهى: الغاية.

(٥) الألى: بمعنى هؤلاء. العلا: الفخر والرفعة. بفي امرئ: أي: بفمه؛ عفر: وجه الأرض. البرى: التراب.

(٦) ينابيع: جمع ينبوع؛ الندى: الجود والكرم؛ هامية: سائلة؛ عرا: قصد وتعرض للطلب. اعتفى: طلب من غير تعرض.

(٧) دوخوا: أذلوا. انتخى: تكبر. صعر: تكبر أيضاً، وأصل الصعر الميل وهو أن يميل الإنسان من التكبر. الصغا: الميل.

(٨) جرعوا: سقوا. ماحلوا: خاصموا. أفاوق: هو شرب مقطع بنفسٍ بعد نفس. الضيم: الذل، ممراة: مدرة؛ الحسا: جمع حسوة وهو أخذك الشيء بفمك متجرعاً له قليلاً قليلاً.

(٩) أزال: جواب القسم محذوف منه لا. حشو: ما أدخل في جوفه فكأنه صار حشواً إذا لبسها. نثرة: درع واسع. موضونة: محكمة النسج. أواري: أغطي. أثناء: جمع ثنا وهو ما تثنى منها أي تراكب على بعض. الحشى: جمع حشوة وهو الثوب المتجمع.

وصاحبيَّ صارِمٌ في مَتْنه ... مِثْلُ مدبّ النّمْل يعلو في الرُّبى[١]

أبيض كالمِلْح إذا انْتضَيْتهُ ... لم يلق شيئاً حدُّهُ إلاّ فَرَى[٢]

كأنّ بَين عَيره وَغَرْبِهِ ... مُفتأداً تأكّلَتْ فِيهِ الجُذَى[٣]

يُرِي المنونَ حين تَقْفُو إثْرَهُ ... في ظُلَمِ الأَكْبَادِ سُبْلاً لا تُرى[٤]

إذَا هَوَى في جُثّةٍ غادرها ... من بعدما كانت خساً وَهى زَكا[٥]

ومُشْرفُ الأقطار خاطِ نَحْضُهُ ... حابي القَصير جُرْشُعٌ عَرْدُ النّسَى[٦]

قَرِيبُ ما بين القَطاةِ والْمَطا ... بَعيدُ ما بين القَذَالِ والصَّلا[٧]

سامِي التَّلِيل في دَسيعٍ مُفْعَمٍ ... رحب اللّبانِ في أمِيناتِ العُجَى[٨]

---

(١) صاحبيَّ: يعني سيفه وفرسه. صارم: قاطع. في متنه: الجار والمجرور خبر مقدم لقوله: مثل، والجملة صفة لصارم؛ ومتنه: ظهره. مدب النمل ودبيبه: مشيه، يريد فرند السيف. يعلو: يرتفع. والربى: جمع ربوة وهي ما ارتفع من الأرض.

(٢) انتضيته: جردته من غمده. فرى: قطع.

(٣) العير: هنا الموضع الناتئ في وسط السيف. الغرب: الحد، يعني حد السيف. مفتأداً: موضع النار. تأكلت: أكل بعضها بعضاً. الجذى: جمع جذوة وهي الجمرة العظيمة.

(٤) المنون: المنية. تقفو: تتبع. سبلاً: طرقاً، يريد أن هذا السيف دليل المنية فهو يريها طرق الموت وهذا من رقيق الشعر.

(٥) هوى: وقع؛ في: بمعنى على. جثة: الجسد. غادرها: تركها. خساً: فرداً. زكا الزوج يعني به أنه إذا وقع هذا السيف على جسد جعله قطعتين بعد أن كان قطعة واحدة.

(٦) مشرف: مرتفع عال. الأقطار: النواحي. خاط. غليظ. النحض: اللحم. حابي: مرتفع. القصير: ضلع في الجنب وهي الضلع السفلى. جرشع: غليظ الأضلاع أو الضخم الصدر وهو محمود في الخيل. عرد: الشديد من كل شيء. النسى: عرق مستبطن الفخذ يمر بالساق والعروق حتى ينتهي إلى الرسغ.

(٧) القطاة: مكان الردف. والمطا: الظهر كله، سمي بذلك لأنه يُمطى أي: يركب. والقذال من رأس الفرس: معقد عذاره أي: حيث ينعقد عذاره، وهو ما بين الأذنين، والعذار هو اللجام. الصلا: العجز وهو آخر الوركين.

(٨) سامي: هو العالي المرتفع. والتليل: العنق. دسيع: مغرز العنق في الظهر. مفعم: ممتلئ. الرحب: الواسع. اللبان: الصدر. أمينات: القويات الصحاح السالمات الصلاب. العجى: جمع عجاية وهي عصب مركب به شيء كفص الخاتم.

رُكِّبْنَ في حَوَاشِبٍ مكْتَنّةٍ إلَى نُسُور مثل ملفوظِ النوَى[١]
يَرْضَخُ بالبِيدِ الحصى فإن رقى إلى الرُّبَى أوْرَى بها نارَ الحبا[٢]
يُدِيرُ إغليطَيْن في مَلْمُومَةٍ إلَى لَمُوحَيْنِ بألحاظِ اللأَى[٣]
مُدَاخَلُ الحَلْقِ رَحِيبٌ شجْرُهُ مُخْلولِقُ الصَّهوَةِ مُمْسُودٌ وَأى[٤]
لا صَكَكٌ يَشِينهُ ولا فجا وَلاَ دَخِيسٌ واهِنٌ ولا شَطا[٥]
يَجْرِي فتكْبُو الرّيح في غَايَاتِهِ حَسْرَى تَلُوذُ بِجَرَاثِيمِ السَّحَا[٦]
لو اعتسَفْتَ الأرض فوق مَتْنِهِ يَجُوبها ما خِفْتَ أن يشكو الوجَى[٧]
تَظُنُّهُ وهو يُرى مُحْتجباً عن العيون إن دأى أو إن رَدى[٨]
إذَا اجْتَهدْتَ نظراً في إثْرِهِ قلْت سَناً أوْمضَ أو برْقٌ خفا[٩]

---

(١) ركبن يعني العجى. حواشب: جمع حوشب وهو عظم في باطن الحافر. مكتنة: مستورة أو مكتنزة. نسور: جمع نسر، ولحمة ناتئة يابسة في باطن الحافر شبهها بالنواة لصلابتها. ملفوظ النوى: ما لفظه منه، أي: رمى به وطرح. والنوى: جمع نواة وهي التي داخل التمرة.

(٢) يرضخ: يكسر؛ البيد: جمع بيداء وهي القفر. رقى: ارتفع. الربا: جمع ربوة. أورى: أوقد بها. الحبا: دابة تضيء بالليل اسمها الحباحب فرخم لضرورة الشعر.

(٣) الإغليط: وعاء ثمر المرخ. شبه أذني الفرس بذلك وهو شبيه بقشور الباقلى الرطب تشبه آذان الخيل؛ وملمومة: هي الهامة المجتمعة المستوية. واللموحين: العينين. وألحاظ: نظرات جمع لحظة. واللأى: الثور الوحشي والأنثى لآة.

(٤) مداخل الحلق: مجموع الحلق. رحيب: واسع. شجر: هو مجتمع عظم اللحيين. مخلولق: أملس؛ الصهوة من الفرس: موضع السرج. ممسود: مفتول. وأى: الصلب الشديد أو هو السريع من الخيل.

(٥) الصكك: احتكاك العرقوبين أحدهما بالآخر. يشينه: يعيبه. فجا: تباعد ما بين العرقوبين كثيراً وهو الفجج أيضاً، والفجا أيضاً تشقق العصب وانتشاره لفساده وهو عيب. دخيس: تراكم اللحم على حافر الفرس. واهن: ضعيف. شطا: عظم لاصق بالذراع.

(٦) فتكبو: فتعثر. غايات: جمع غاية وهي منتهى جريه. حسرى: منكشفة. تلوذ: تلجأ. جراثيم: جمع جرثومة وهو التراب الذي يجتمع في أصول الشجر. السحا: ضرب من الشجر.

(٧) اعتسفت الأرض: قطعتها باعتساف منك أي: على غير هدى. متنه: ظهره. يجوبها: يقطعها ويخرقها؛ الوجى: أن يبلغ الوجع إلى باطن الرسغ.

(٨) دأى: جرى وكذا ردى. يقال: دأى يدأى دأياً، وردى يردى رديا إذا جرى جرياً سريعاً.

(٩) السنا: الضوء. أومض: أضاء أي: لمع لمعاً خفيفاً. الخفو: لمع البرق في نواحي الغيم.

كـأنّـمـا الـجـوزاءُ فـي أرْسـاغِـهِ والـنـجْـم فـي جَـبْـهَـتِـهِ إذا بـدا[١]
هُـمـا عِـتـادِي الـكـافـيـانِ فَـقْـدَ مَـنْ أعْـدَدْتُـهُ فَـلْـيـنـأ عَـنِّـي مـنْ نـأى[٢]
فـإن سـمِـعْـتَ بِـرحـىً مـنـصـوبـةٍ لِلحرْب فاعلم أنّني قُطب الرَّحى[٣]
وإن رأيـتَ نـار حـربٍ تـلْـتَـظـي فـاعـلـم بـأني مُـسْـعِرٌ ذاكَ اللَّظى[٤]
خـيـرُ الـنـفـوسِ الـسَّـائـلاتُ جَـهْـرَةً عـلى ظُـبـاتِ الـمُـرْهِـفَـاتِ والـقَـنـا[٥]
إنّ الـعِـراق لـم أُفـارِقْ أهـلـه عـنْ شَـنـآنٍ صَـدّنـي ولا قِـلَـى[٦]
ولا اطّـبَـى عـيْـنـي مُـذ فـارقْـتُـهُـمْ شيءٌ يروق العين من هذا الورى[٧]
هُـم الـشَّـنـاخـيـبُ الـمُـنـيـفـاتُ الـذرا والـنـاس أدْحـالٌ سـواهُـمْ وهُـوى[٨]
هُـمُ الـبُـحـور زاخِـرٌ آذِيُّـهـا والـناس ضَـحْـضَـاح ثِـعـابٌ وأضَـى[٩]
إنْ كـنـتُ أبـصـرتُ لـهـم مـن بـعـدهـم مِـثْـلاً فأغضَيْتُ على وخْز السّفا[١٠]

---

(١) الجوزاء: نجم معروف وهو التوأمان. وأرساغ: جمع رسغ وهو مفصل بين الحافر والوظيف من كل دابة. والنجم: هو الثريا. يصف غرة الفرس وتحجيله. وبدا: ظهر.
(٢) العتاد: ما يتخذ عدة للدهر. فليناً: فليبعد، من نأى إذا بَعُدَ.
(٣) برحى: منصوبة يريد برحى الحرب وهو موضع استدارة أهلها إذا تعاركوا. قطب: الحديدة أو الخشبة التي تدور عليها.
(٤) تلتظي: تشتعل. مسعر: موقد. اللظى: اللهب.
(٥) جهرة: عياناً. وظباة: جمع ظُبة كثبة: حد السيف. والمرهفات: السيوف الرقاق. القنا: الرماح واحدها قناة.
(٦) العراق: قطر معروف على شاطئ دجلة والفرات. وشنآن: بغض. وصدني: منعني وصرفني. والقلى: البغض.
(٧) أطبى: استمال. ويروق: يعجب.
(٨) الشناخيب: أطراف الجبال واحدها شنخوب. والمنيفات: المرتفعات الطوال وهي الشواهق. والذرا: جمع ذروة وهي أعالي الجبال. وأدحال: جمع دحل وهي الحفير الغامض من الأرض يتسع أسفله ويضيق أعلاه. وهوى: جمع هوة بمعنى الدحل.
(٩) زاخر: الماء الكثير الفائض. والآذي الموج. وضحضاح: الماء القليل. وثعاب: جمع ثعب وهو الموضع المطمئن في أعلى الجبال يستنقع فيه ماء المطر. أضى: جمع أضاة وهي الغدران الصغار، يعني أنهم البحور والناس ضحضاح أي: ماء قليل.
(١٠) أغضيت: صبرت على المكروه. وخز: طعن غير نافذ، وقيل: الوخز الطعن بسرعة. السفا: شوك شجر يوجد في البادية يدعى البهمى.

حاشا الأميريْنِ اللذينِ أوْفَدا عليَّ ظِلاًّ منْ نَعيمٍ قد ضَفا[١]
هما اللذان أثبتا لي أملاً قد وقف اليأسُ به على شفَا[٢]
تَلافَيا العَيْشِ الذي رنَّقهُ صرْفُ الزّمان فاستساغَ وصَفا[٣]
وأجْريا ماءَ الحيا لي رغَداً فاهْتزَّ غُصْني بعدما كان ذَوى[٤]
هما اللذان سَمَوا بِنَاظِرِي من بعد إغضائي على لَذْعِ القذَى[٥]
هما اللذان عمَّرا لي جانباً من الرّجاءِ كانَ قِدْماً قَدْ عَفا[٦]
وقلّداني مِنّةً لوْ قُرِنَتْ بشكر أهل الأرض عَنّي ما وَفَى[٧]
بالعُشر من مِعْشارها وكانَ كالـ ـحَسْوَة في آذِيّ بَحْرٍ قد طَمى[٨]
إنّ ابنَ ميكال الأميرَ انْتاشني من بعدما قد كنتُ كالشَيء اللَّقا[٩]
ومَدَّ ضَبْعَيَّ أبو العبّاس من بعدِ انْقباض الذَّرْعِ والباعِ الوَزَى[١٠]
ذاك الذي ما زال يسمو للعُلا بفعله حتى عَلا فوق العُلا[١١]

---

(١) أوفدا: أرسلا. ضفا: كثر، من قولهم: ضفا ذيل الفرس إذا كثر وطال.
(٢) شفا الشيء: طرفه وحرفه.
(٣) تلافياً: تداركاً. رنقه: كدره، والرنق: الماء الكدر. صرف الزمان: تقلبه من حال إلى حال. استساغ: سلس في الحلق وطاب.
(٤) الحيا مقصور: الغيث والخصب. رغداً: السعة في العيش. فاهتز غصني: طال وأصل الهز التحريك. ذوى: ذبل.
(٥) سموا بناظري: رفعا ناظري والباء للتعدية. إغضائي: تغافلي. لذع: حرقة. القذى: ما يقع في العين.
(٦) قدماً: قديماً. عفا: درس.
(٧) وقلداني منّة: جعلاها في عنقي وهو موضع القلادة. منّة: نعمة وجمعها منن. قرنت: قيست. ما وفى: ما قام ولا عدل شكرهم.
(٨) الحسوة: الجرعة مما يشرب. آذي: الموج. طمى: امتلأ وارتفع.
(٩) ابن ميكال: هو عبد الله بن محمد بن ميكال وهو فارسي من أمراء فارس. انتاشني: نعشني. واللقا: الشيء المطروح.
(١٠) ضبعي: عضدي. وأبو العباس: هو إسماعيل بن عبد الله المتقدم فمدح الأب والابن. والذرع والذراع واحد. والباع: قدر مد اليدين، ويطلق على الشرف والكرم. والوزى: القصير.
(١١) يسمو: يرتفع.

لـو كـان يَـرقَـى أحـدٌ بِـجُـوده ومـجـده إلـى الـسَّـمـاء لارْتَـقَـى[١]
مـا إنْ أتـى بـحـرَ نَـدَاه مُـعْـتـفٍ عـلـى أُوَارَى عَـلَـم إلا ارْتَـوَى[٢]
نـفـسـي الـفِـداءُ لأمـيـرَي وَمَـنْ تـحـت الـسـمـاءِ لأمـيـرَيّ الـفِـدَا
لا زال شُـكْـري لـهـمـا مُـواصِـلاً لفظيَ أو يَعتَاقني صَرْفُ المَنَى[٣]
إن الأُلـى فـارَقْـتُ مـن غـيـر قِـلًـى مـا زَاغَ قـلـبـي عـنـهـمُ ومـا هَـفَـا[٤]
لـكـنَّ لـي عـزمـاً إذا امـتـطَـيـتُـهُ لَـمُـبْـهَـمِ الـخـطـبِ فـآهُ فـانـفـأى[٥]
ولـو أشـاءُ ضـمَّ قَـطْـرَيْـه الـصَّـبـا عـلـيَّ فـي ظِـلٍّ نـعـيـمٍ وغِـنَـى[٦]
ولاعَـبـتْـنِـي غَـادةٌ وَهَـنَـانَـة تُضنِي وفي تَرْشافِها بُرْءُ الضَّنى[٧]
تَـفْـرِي بسيْفِ لَـحْـظـهـا إن نَـظـرتْ نظْرَةً غَضبى منك أثناء الحشا[٨]
في خدّها روضٌ من الورد على النِّسـ ـرِينِ بـالألـحـاظِ مـنـهـايُـجْـتـنَـى[٩]
لـو نـاجَـتِ الأعْـصَـمَ لانـحـطّ لـهـا طَوْعَ القيَاد في شَمارِيخِ الذُّرَا[١٠]

---

(١) يرقى: يرتفع.
(٢) الندى: الكرم. معتفٍ: طالب للرفد. أوارى: حرارة الشمس والنار. علم: جبل صغير. ارتوى: اكتفى من الماء وغيره.
(٣) أو يعتاقني: أو يصرفني، وأو: بمعنى حتى. والصرف: التقلب. والمنى بفتح الميم مقصور: المقدر.
(٤) من غير قلى: من غير بغض. ما زاغ: ما مال. ولا هفا: ولا زل.
(٥) عزماً: عقداً على فعل أمر. امتطيته: ركبته. المبهم من الأمور: المغلق. فَآهُ: شقه.
(٦) ضم قطريه: جمع ناحيتيه. نعيم: ما امتد عليه منه، والنعيم: ضد البؤس وهو طيب العيش وسعته.
(٧) لاعبتني: من اللعب ومعناه مازحتني. غادة: الفتاة الناعمة. وهنانة: ثقيلة القيام والقعود وقيل الطيبة الحديث. تضنى: تسقم. والضنى: الهزال من المرض. الترشاف: المص من الثغر أو فوقه. برء الضنى: ذهاب السقم أي: هي تضني: وفي تقبيلها البرء من السقم.
(٨) تفري: تقطع. اللحظ: النظر. غضبى: مغتاظة. أثناء الحشا: ما انثنى منها أي: ما انعطف، والحشا: الكبد وما اتصل بها.
(٩) النسرين: النور الأبيض. الألحاظ: النظرات جمع لحظة. يجتني: يقتطف.
(١٠) ناجت: كلمت. الأعصم: الوعل الذي في إحدى يديه بياض وربما كان البياض فيهما وسائر بدنه أسود أو أحمر. لانحط: لنزل. القياد: التذلل. شماريخ: رؤوس الجبال واحدها شمراخ؛ الذرا: أعالي الجبال واحدها ذروة.

أوْ صابَت الْقانِتَ في مُخلَوْلقٍ مُسْتَصْعَبِ المَلَكِ وعر الْمُرْتَقَى(١)
ألْهاهُ عنْ تَسْبِيحِهِ ودِينِهِ تأنيسُها حتى تَراهُ قدْ صبا(٢)
كأنّما الصّهباء مقْطوبٌ بها ماءُ جَنَى وزْدٍ إذا اللّيْلُ عسا(٣)
يَمْتاحُهُ راشفُ بَرْدٍ ريقها بين بياضِ الظَّلْم منها واللَّمى(٤)
سقَى العَقيقَ فالحَزيز فَالْمَلا إلى النَّحيتِ فالقُريّات الدُّنا(٥)
فالمرْبد الأعلى الذي تلْقى به مصارع الأسْدِ بألْحاظِ المَهَا(٦)
محلَّ كلّ مُقرمٍ سمتْ به مآثر الآباءِ في فرعِ العلا(٧)
من الأُلَى جَوْهَرُهُمْ إذا اعتزُوا منْ جوْهر منهُ النبيّ المصطفى(٨)
صلَّى عليه الله ما جَنَّ الدُّجى وما جرت في فلكٍ شمس الضحى(٩)
جَوْنٌ أعارتْهُ الجنُوبُ جانِباً منها وواصَتْ صَوْبهُ يدُ الصَّبا(١٠)

---

(١) صابت: صادفت. القانت: القائم بالعبادة. مخلولق: الجبل الأملس. مستصعب: صعب. الوعر: الصعب. والمرتقى: المصعد.
(٢) ألهاه: شغله. تأنيسها: أنسها وحديثها. صبا: مال ولها.
(٣) الصهباء: الخمرة. مقطوب: ممزوج. ماء جنى ورد: ما أخذ من الورد طرياً. عسا الليل: أظلم.
(٤) يمناحه: يتقيه. راشف: المتناول الشراب بشفتيه. الظلم: بفتح الظاء: الأسنان البيض حتى كأنها من شدة البياض يعلوها سواد. اللمى: سمرة الشفتين.
(٥) العقيق والحزيز والملا والنحيت: مواضع بالبصرة ونواحيها. القريات: جمع قرية مصغرة. الدنا: جمع دنيا مؤنث أدنى بمعنى القريب.
(٦) المربد: موضع بالبصرة بفتح الميم وكسر الباء. مصارع الأسد: مواضع سقوطها عند الموت، وأراد بالأسد الرجال وأراد أنهم صرعوا بألحاظ المها، أي: قتلتهم ألحاظ النساء الحسان البيض المشبهة بالمها وهي البقر الوحشي الواحدة مهاة. وألحاظ: نظرات.
(٧) مقرم: السيد الكريم وأصله فحل الإبل. ومآثر: جمع مأثرة الصنيعة الحسنة. وفرع كل شيء أعلاه.
(٨) من الألى: من الذين. وجوهرهم: أصلهم. وإذا أعثروا: إذا انتسبوا. والمصطفى المختار: محمد ﷺ.
(٩) جن الدجى: أظلم وستر. والدجى: الظلمة.
(١٠) جون: فاعل سقى المتقدمة وهي هنا السحاب الأسود، وتأتي للأبيض ضده. وأغارت: أنزلت. والجنوب: الريح القبلية تجيء بالمطر. وواصت: واصلت. والصوب: نزول المطر. والصبا: الريح الشرقية.

نأى يَمانِياً فلمَّا انتشرتْ أحْضانُهُ وامْتدّ كَراهُ غطا[١]
فجلّل الأفْق فكلُّ جَانِبٍ منها كأنْ مِن قُطْرِهِ المُزْن حَبا[٢]
وطبّق الأرض فكل بُقْعةٍ منها تقولُ الغيْثُ في هاتا ثوَى[٣]
إذا خَبتْ بُرُوقهُ عنّتْ لها ريحُ الصَّبا تُشِبُّ منها ما خَبا[٤]
وإنْ ونتْ رُعودُهُ حدا بها راعي الجنُوبِ فحدتْ كما حدا[٥]
كأنّ في أحضانِهِ وبَرْكِهِ برْكاً تداعى بينَ سجْرٍ ووَحَى[٦]
لم يَرَ كالمُزْنِ سواماً بُهَّلاً تَحْتسِبُها مَرْعِيَّةً وَهِي سُدا[٧]
تقولُ للأجْرَازِ لمّا استَوْسقتْ: بِسَوْقِهِ ثِقِي بريّ وَحيا[٨]
فأُوسعَ الأحدابَ سَيْباً مُحْسباً وطبّق البُطنان بالماءِ الرّوَى[٩]

(١) نأى يمانياً: طلع من ناحية اليمن، يريد الغنم. وانتشرت: كثرت. وأحضانه: نواحيه، وأصل الحضن ما دون الإبط إلى الكشح. وكسراه، تثنية كسر وهو طنب الخبا، وإنما كني بالكسرين عن أذيال السحاب، ويريد أن السحاب جرت على الأرض أذيالها. وغطا: ارتفع أو انبسط.
(٢) فجلل: فغطى. والأفق الناحية وجمعها آفاق. من قطره بضم القاف: من ناحيته وجمعه أقطار. والمزن: السحاب والواحدة مزنة. وحَبَا: امتلأ ودنا يريد السحاب.
(٣) طبق الأرض: غطى الأرض. فكل بقعة: فكل مكان. وفي هاتا: في هذه. وثوى: أقام.
(٤) خبت بروقه: خمدت وسكنت. وعنت: عرضت. وتشب: توقد.
(٥) وإن ونت: ضعفت وفترت. وحدا بها: ساقها بالحداء، وهو صوت السائق الذي يسوق الإبل بالغناء. وراعي: الذي يرعى الإبل أي: يحفظها. والجنوب: الريح القبلية. فحدت: فساقت. كما حدا: كما ساق.
(٦) كأن في أحضانه: في نواحي هذا الأفق، فالضمير عائد على الأفق أو على السحاب وهو أحسن. والبرك الأول الصدر والثاني الإبل. وتداعى: تتداعى والتداعي هو أن يدعو بعضها بعضاً. وسجر: حنين وهو طلب الناقة إلى ولدها وهو صوت شجي. ووحى: الصوت.
(٧) المزن: السحاب. وسواماً: بلا راعية. وبهلاً: هي التي لم تحلب فتركت ضروعها ملأى من ألبانها. وسدى: المهملة التي لا راعي لها.
(٨) الأجراز: جمع جرز وهي الأرض الصلبة التي لم يصبها المطر. واستوسقت: حملت ما يكفيها من الماء. وثقي بري: اطمئني بري أي: بشبع من الماء. وحيا: خصب.
(٩) الأحداب: جمع حدب وهو ما ارتفع من الأرض وغلظ. وسيباً: عطاء. محسباً: كافياً. وطبق: غطى. والبطنان: جمع بطن وهو الغامض من الأرض. والروي: الماء الكثير.

كأنما البَيْداءُ غِبَّ صَوْبِهِ بحرٌ طَما تَيّارُهُ ثمّ سجا (١)
ذاك الجِدا لا زال مخصوصاً به قوم هُم للأرض غيثٌ وجدا (٢)
لَسْتُ إذا ما بَهظتني غمْرةٌ ممن يقول بلغ السّيْلُ الزُّبى (٣)
وإن ثوتْ تحت ضلوعي زَفْرةٌ تملأ ما بين الرَّجا إلى الرَّجا (٤)
نهنهتُها مَكظومةً حتى يُرى مُخْضوْضِعاً منها الذي كان طَغا (٥)
ولا أقول إن عرتْني نكْبةٌ قول القنُوطِ انْقدّ في البطن السّلا (٦)
قد مارَسَتْ منّي الخطوبُ مارساً يُساوِرُ الهوْل إذا الهوْلُ علا (٧)
لِيَ التواءٌ إنْ مُعادِيّ التَوى وَلِي استواءٌ إنْ مُواليّ استوى (٨)
طعمي شَرِيٌّ للعدُوّ تارَةً والرَّاح والأَريُ لمن ودّي ابتغى (٩)
لَدْنٌ إذا لُوِينْتُ سَهْلٌ مَعْطفي أَلْوَى إذا خوشِنتُ مَرهوبُ الشّدا (١٠)
والحمد خير ما اتَّخذْتَ عُدّةً وأنفس الأذْخارْ من بعد التقى (١١)

(١)البيداء: القفر. وغب صوبه: عقب مطره، وانتصبت غب على الظرف. والصوب: نزول المطر. وطما: ارتفع. وتياره: موجه. وسجا: سكن.
(٢)الجدا الأول: النائل والعطاء، والذي في آخر البيت يحتمل أن يكون أراد به الجداء بالمد وهو الغناء، ثم قصره لضرورة الشعر، ويحتمل أن يكون المراد به المعنى الأول.
(٣)بهظتني: شقت عليّ. غمرة: الكربة والشدة واحدة الغمرات. الزبى: جمع زبية وهي حفرة تحفر للأسد في المكان العالي من الأرض وليس يبلغها إلا سيل عظيم، وهو مثل تضربه العرب إذا اشتد بأحدهم الأمر.
(٤)ثوت: أقامت. زفرة: هي ترجيع الصوت بالبكاء. الرجا: الجانب.
(٥)نهنهتها: كففتها وزجرتها. مكظومة: متجرعة. مخضوضعاً: متذللاً. طغا: كثر أو تكبر.
(٦)عرتني: أصابتني. نكبة، مصيبة. القنوط: اليأس. انقد: انقطع. السلا بفتح السين: المشيمة التي تتعلق بالولد وتسقط معه.
(٧)مارست: عاركت وضاربت. الخطوب: الأمور. مارساً: شديداً. يساور الهول: يغالبه ويطاوله، والهول: الشدة. علا: ارتفع.
(٨)التواء: انعواج. معادي: العدو. الموالي: الصديق الذي يوالي. استوى: اعتدل.
(٩)شري: حنظل. الأري: العسل الأبيض. ابتغى: طلب.
(١٠)لدن: لين. لوينت: أخذت باللين. معطفي: رجوعي. ألوى: شديد الخصومة. خوشنت: أخذت بالخشونة وهي الصعوبة أو صرعت. مرهوب: مخوف. والشدا: الحدة أو الأذى.
(١١)عدة: عمدة. والإذخار: جمع ذخر وهو المخبوء.

وكـلُّ قَـرْن نـاجـمٍ فـي زَمَـنٍ فـهـو شـبـيـهُ زمـن فـيـه بـدا[١]
والـنـاس كـالـنّـبْـتِ فـمـنـهـمْ رائـقٌ غَـضٌّ نَـضِـيـرٌ عُـودُه مُـرُّ الـجَـنـى[٢]
ومِـنْـهُ مـا تَـقْـتَـحِـمُ الـعـيـن فـإن ذُقْـتَ جَـناهُ انْـساغَ عَـذْباً في اللّهـا[٣]
يُـقَـوِّمُ الـشّـارِخُ مِـنْ زَيـغـانِـهِ فَـيَـسْـتَـوِي مـا انـعـاجَ مـنـهُ وانـحـنَـى[٤]
والـشّـيـخ إن قَـوّمـتَـهُ مِـنْ زَيـغـه لـمْ يُـقـم الـتـثـقـيـفُ مـنـه مـا الْـتَـوَى[٥]
كـذلـك الـغُـصـن يَـسـيـرٌ عَـطْـفُـهُ لَـدْنـاً شـديـدٌ غَـمـزُهُ إذا عَـسـا[٦]
مـن ظَـلَـمَ الـنـاس تـحـامَـوْا ظُـلْـمَـهُ وَعـزَّ عـمـهـم جـانـبـاهُ واحْـتَـمَـى[٧]
وهـم لـمـنْ لان لـهـم جـانـبُـهُ أظـلـمُ مـن حـيّـاتِ أنْـبـاثِ الـسّـفـا[٨]
عَـبـيـدُ ذي الـمـال وإن لـم يـطْـمَـعُـوا مِنْ غمره في جُرْعَة تَشْفِي الصدَى[٩]
وهـم لـمـنْ أمْـلَـقَ أعْـدَاءٌ وإنْ شـاركَـهـم فـيـمـا أفـاد وحَـوى[١٠]
عـاجَـمْـتُ أيّـامـي ومـا الْـغِـرّ كـمـن تـأزرَ الـدَّهْـرُ عـلـيـهِ واعْـتَـدَى[١١]
لا يَـرْفَـعُ الـلُّـبُّ بـلا جـدٍّ ولا يـحُـطُّـكَ الـجـهـل إذا الـجـدُّ عـلا[١٢]

---

(١) وكل قرن: أي: وكل أم.، وناجم: مرتفع.
(٢) رائق: معجب. والغضّ الطري: الأخضر الناعم وكذلك النضير. والجنى: ما قطف من الثمر.
(٣) تقتحم العين: تتركه كرهاً له وتعدوه إلى غيره. وجناه: ما اجتني منه. وانساغ: سهل بلعه. وعذباً: حلواً. واللها: جمع لهاة وهي اللحمة المعلقة بأصل الحنك.
(٤) الشارخ: الشاب والحدث المستقبل للشباب، وشرخ الشباب أوله. زيغانه: يقال: زاغ الشيء إذا مال. انعاج: انعطف، وانحنى مثله.
(٥) من زيغه: من ميله. لم يقم: أي: لم يقوَّم. التثقيف: التقويم. ما التوى: ما انعوج.
(٦) لدناً: ليناً. الغمز: التقويم. عسا: صلب.
(٧) تحاموا ظلمه: تباعدوا عنه. عز عنهم: امتنع عنهم، والعزة: القوة والشدة، احتمى: امتنع.
(٨) لان: ضعف وسهل. الأنباث: التراب المستخرج من البئر. السفا: ما تسفه الريح.
(٩) الغمر: الماء الكثير. الجرعة: القليل من الماء. تشفي: تبرأ. الصَّدى: العطش.
(١٠) أملق: افتقر.
(١١) عاجمت أيامي: اختبرتها. الغر: الذي لم يجرب الأمور. تأزر: من الإزار.
(١٢) لا يرفع اللب: من الرفعة أي: لا تعلو منزلته، واللب: العقل وجمعه ألباب. الجد بالفتح: الحظ والبخت.

مَنْ لم يَعِظْهُ الدَّهر لم ينْفعه ما ... رَاحَ به الواعظ يوماً أو غدا[١]

من لم تُفدْهُ عِبَراً أيَّامُهُ ... كان العَمى أوْلى به من الهُدَى[٢]

مَنْ قاس ما لم يَره بما يَرى ... أرَاهُ ما يدنو إليه ما نَأَى[٣]

مَنْ ملَّكَ الحرْصَ القيادَ لم يَزل ... يَكرَعُ مِنْ ماءِ الذُّلّ صَرَى[٤]

مَنْ عارض الأطماع بِالْيأسِ رَنَتْ ... إليه عينُ العزّ منْ حيثُ رَنا[٥]

مَن عطَف النَّفس على مَكروهِها ... كان الغِنَى قرينهُ حيثُ انتَوَى[٦]

مَنْ لم يقف عند انتهاءِ قَدْرِهِ ... تَقَاصرَتْ عنه فَسيحاتُ الخُطا[٧]

مَنْ ضيَّعَ الحزم جنى لنفسه ... نَدَامةً ألْذَعَ من سفْعِ الذَّكا[٨]

مَنْ ناط بالعُجْبِ عُرَى أخلاقه ... نيطت عُرى المقْتِ إلى تلك العُرَى[٩]

مَنْ طالَ فوقَ مُنْتهى بَسْطَتِه ... أعْجَزَهُ نَيْلُ الدُّنى بَلْهَ القُصا[١٠]

والناس ألفٌ منهمُ كواحد ... وواحدٌ كالألْف إن أمْرٌ عنى[١١]

وللفتى من مالِهِ ما قدَّمَتْ ... يداهُ قبل موتهِ لا ما اقْتنى[١٢]

---

(١) راح: أتى بالعشي. غدا: أتى بالغدو.

(٢) من لم تفده: أي: تكسبه. عِبراً: جمع عبرة وهي التذكرة.

(٣) من قاس: من مثل. واراه: ما يدنو أي: ما يقرب. ما نأى: ما بعد.

(٤) القياد: الطاعة. يكرع: يشرب بفيه بدون آلة. صرى: الماء الدائم الذي قد طال مكثه، جمع صراة.

(٥) الأطماع: جمع طمع. واليأس: انقطاع الرجاء. ورنت: نظرت.

(٦) عطف: أمال وردّ. وقرينه: صاحبه. وحيث انتوى: حيث نوى، من النية بمعنى القصد، وقيل من النوى وهو البعد.

(٧) تقاصرت: قصرت. وفسيحات: واسعات. والخطا: جمع خطوة.

(٨) الحزم: الاحتراس بالأفعال. ندامة: حسرة. ألذع: أشد حرقة. السفع، الإحراق. الذكا: التهاب النار.

(٩) ناط: علق وألصق. عرى: جمع عروة وهي ما يتمسك به. أخلاقه: طبائعه. نيطت: علقت. المقت: أشد الغضب.

(١٠) من طال: من ارتفع. البسطة: الفضيلة. أعجزه: أضعفه. نيل: إدراك. الدنى: جمع الدنيا وهي الشيء القريب له.

(١١) عنى: قصد أو لزم.

(١٢) اقتنى: اكتسب.

وإنما المرءُ حديثٌ بعدهُ فكن حدِيثاً حَسناً لمن وَعى[١]
إنّي حَلبْتُ الدّهر شَطْريهِ فقد أَمَرَّ لي حيناً وأحياناً حَلا[٢]
وَفرَّ عن تجربة نابي فَقُلْ في بازِلٍ راضَ الخطوبَ وامْتَطى[٣]
واللَّوم للحُرّ مُقيمٌ رادعٌ والعبْدُ لا يرْدعهُ إلاّ العصا[٤]
وآفة العقل الهوى فمن علا على هواهُ عقله فقد نجا[٥]
كم من أخٍ مسْخوطة أخلاقه أصْفيتُهُ الوُدَّ لخُلق مُرْتضى[٦]
إذا بلوتَ السَّيف محموداً فلا تذْمُمه يوماً أن تراه قد نبا[٧]
والطِّرْفُ يجْتازُ المَدَى وربّما عنَّ لِمعْداهُ عِثارٌ فكبا[٨]
منْ لك بِالمهذّبِ النّدْبِ الذي لا يجدُ العيبُ إليهِ مُخْتطى[٩]
إذا تصفَّحْتَ أمور الناس لم تُلْفِ أمرأً حاز الكمال فاكتفى[١٠]
عوّلْ على الصّبر الجميل إنّه أمْنعُ ما لاذ به أولو الحِجا[١١]

---

(١) لمن وعى: لمن حفظ.
(٢) حلبت الدهر: جربته. شطريه: نصفيه. وأراد بشطريه أول زمانه وآخره، أو نعيمه وبؤسه.
(٣) وفر عن تجربة نابي: أي: كشف عن أمره، وهذا مأخوذ من قولهم: فر عن الدابة إذ فتح فاها ليعرف سنها وينظر صغرها من كبرها. بازل: من الإبل التي أتت عليه تسعة أعوام. راض الخطوب: أذلها. امتطى الدابة: ركبها.
(٤) اللوم بالفتح: من الملامة وهي العتاب. مقيم: مصلح. رادع: كاف.
(٥) آفة العقل: مضرته ومفسدته. الهوى: الشهوة. علا: ارتفع.
(٦) مسخوطة: من السخط وهو ضد الرضا. أخلاقه: طبائعه. أصفيته الود: أخلصت له الود. مرتضى: مستحسن.
(٧) بلوت: اختبرت. نبا: ارتفع عن المضروب ولم يقطع فيه شيئاً.
(٨) الطرف بالكسر: الكريم من الخيل. يجتاز: يجوز. المدى: الغاية. لِمعْداهُ: لجريه. عثار: مصدرعثر يعثر عثاراً إذا كبا أي: سقط لوجهه.
(٩) المهذب: العاقل الظريف. الندب: الرجل الخفيف في الحاجة. مختطى: ممشى وهو من خطى يخطو إذا مشى.
(١٠) تصفحت: نظرت واستقصيت. لم تلف: لم تجد. اكتفى: اجتزأ به.
(١١) عول على الصبر: ارجع إليه واعتمد عليه. أمنع: أحمي وأقوي. الحجا: العقل.

obeikandl.com

وعَطْفِ النّفس على سُبُلِ الأسى إذا استفزّ القلْب تبريحُ الجوَى[١]
والدّهر يكبو بالفتى وتارة ينْهضُهُ منْ عَثْرةٍ إذا كبا[٢]
لا تعجبنْ من هالكٍ كيف هوى بلى، فاعجبنْ من سالِمٍ كيف نجا[٣]
إنّ نجوم المجدِ أمْستْ أفّلاً وظلّهُ القالِصُ أضحى قد أزَى[٤]
إلا بقايا مِنْ أناسٍ بهمُ إلى سبيلِ المكْرُمات يُقْتدى[٥]
إذا الأحاديث انتضتْ أنباءَهُم كانت كنشر الرَّوض غاداهُ السَّدى[٦]
لا يسمع السّامع في مجلسهم هُجراً إذا جالسهم ولا خَنَا[٧]
ما أنْعم العِيشة لو أن الفتى يقبل منه الموتُ أسنا الرُّشا[٨]
أو لو تحلَّى بالشّباب عمرُهُ لم يسْتلِبْهُ الشَّيبُ هاتيك الحُلى[٩]
والليل مُلْقٍ بالمَوامي بركَهُ والعِيس يُنْبئْن أفاحيص القطا[١٠]
بحيثُ لا تهدَى لسمعٍ نَبأة إلاّ نئيمُ البوم أو صوت الصَّدى[١١]
شايَعتُهم على السُّرى حتى إذا مالَت أداةُ الرّحْلِ بالجَبس الدّرى[١٢]

(١) الأسى: التصبر. استفز: استخف. تبريح: شدة. الجوى: فساد الجوف.
(٢) يكبو: يعثر. (٣) هوى: سقط.
(٤) أفلاً: غائبات. القالص: المرتفع، وفرس قالص طويل القوائم. أزى: قصر ونقص.
(٥) يقتدي: يتبع فعلهم.
(٦) انتضت: أظهرت من نضا الشيء إذا ظهر. الأنباء: الأخبار. النشر: الرائحة الطيبة. الروض: الموضع الذي يكون فيه ضروب من النبات. غاداه: باكره. السدى: الندى في هذا الموضع وهو المطر.
(٧) هجراً بضم الهاء: القبيح من القول وكذا الخنا أيضاً.
(٨) العيشة: الحياة أسنا الرشا: أرفعها وأعلاها، والرشا جمع رشوة وهي العطية التي يحابى بها الإنسان.
(٩) تحلى بالشباب: لبسه وتزيا به. لم يستلبه: لم يجرده. الحُلى: جمع حلية.
(١٠) الموامي: جمع موماة وهي القفر. البرك: الصدر. العيس: الأبيض من الإبل. ينبئن: يخرجن. أفاحيص القطا: أوكارها واحدها أفحوص.
(١١) نبأة: الصوت الخفي. نئيم البوم: صوته، والبوم: الهام، الصدى: ذكر الهام.
(١٢) شايعتهم: تابعتهم على رأيهم في سير الليل. أداة الرحل: حوائج الرحل. الجبس: الرجل الثقيل. الدوى: الأحمق.

قلت لهم: إنّ الهوَيْنا غِبُّها ... وَهْنٌ فجدُّوا تُحْمَدُوا غِبَّ السرى[١]

ومُوحِشِ الأقطار طامٍ ماؤهُ ... مُدعثرِ الأعْضادِ مَهزُومِ الجَبا[٢]

كأنما الرّيشُ على أرْجائِهِ ... زُرْقُ نِصالٍ أُرْهِفت لِتُمْتَهى[٣]

وَرَدْتهُ والذّئْبُ يَعْوِي حَولهُ ... مْسْتَكُّ سُمِّ السمع من طول الطّوى[٤]

ومُنْتَجٍ أُمُّ أبيهِ أُمُّهُ ... لم يَتخوَّنْ جِسْمهُ مَسّ الضّوى[٥]

أفْرشْتهُ بنتَ أخيه فانْثنت ... عن ولد يُورى به ويُشْتوى[٦]

وَمْرْقَبٍ مُخْلولَقٍ أرْجاؤهُ ... مُسْتَصْعبِ المسلكِ وعْرِ المُرْتَقَى[٧]

والشّخص في الآل يُرى لناظر ... تَرمقهُ حيناً وحيناً لا يُرى[٨]

أوفيتُ والشّمس تَمُجُّ رِيقها ... والظلُّ من تحت الحِذاءِ محتذى[٩]

وطارِقٍ يُؤْنِسُهُ الذّئبُ إذا ... تَضوّر الذّئبُ عِشاءً وانْضوى[١٠]

أوَى إلى ناريَ وَهِيَ مَأْلَفٌ ... يدعو العفاةَ ضوؤها إلى القرَى[١١]

---

(١) وهن: ضعف. فجدوا: فاجتهدوا.

(٢) موحش الأقطار: يعني به بئراً أو حوضاً، والموحش ضد المؤنس، والأقطار النواحي. طام: مرتفع. مدعثر: مهدوم. الأعضاد: ما حواليه من صفائح الحجارة التي تعضده. الجبا. بفتح الجيم: ما حول البئر أو الحوض.

(٣) أرجاؤه: نواحيه. زرق نصال: بيض نصال. أرهفت: رققت. تمتهى: تسقى بالماء.

(٤) وردته: يعني وردت هذا الماء، والهاء عائد على الماء في قوله طام ماؤه.

(٥) ومنتج: يريد رب غصن منتج أي: مولود. أم أبيه: أمه. يريد غصناً قطع من فرع من شجرة فتلك الشجرة أم الفرع والفرع جعله للغصن بمنزلة الأب على الاستعارة، والشجرة أم الفرع وأم الغصن لأنها منها فصارت أماً لأبيه وأماً له.

(٦) أفرشته بنت أخيه: حككت به غصناً آخر.

(٧) مرقب: الموضع العالي الذي ينظر منه إلى بعد. ومخلولق: أملس. وأرجاؤه: نواحيه. ومستصعب: صعب.

(٨) الشخص: سواد الإنسان وغيره تراه من بعد. والآل: السراب. وترمقه: تنظره.

(٩) أوفيت: أتيت ووصلت أي إليه. وتمج: تلقي. وريقها: لعابها، ولعاب الشمس إنما يكون في وقت الظهيرة.

(١٠) وطارق: الذي يجيء بالليل. وتضور: صاح من الجوع.

(١١) أوى إلى ناري: انضم إلى ناري. ومألف: الموضع الذي يجتمع فيه الأحباب. والعفاة: الفقراء.

لله مـا طَـيـفُ خـيـال زائِـرٍ تـزُفُّـهُ لـلـقـلـب أحـلام الـرُّؤَى[١]
يـجـوبُ أجـواز الـفـلا مـحـتـقـراً هَوْلَ دُجى اللّيل إذا اللّيل انبَرى[٢]
سـائـلُـهُ إن أفـصَـح عـن أنـبـائـهِ أنّى تسدَّى الليل أم أنّى اهتدَى[٣]
أو كـانَ يَـدْرِي قـبـلـهـا مـا فـارسٌ ومـامَـوَامِـيـهـا الـقِـفـارُ والـقُـرَى[٤]
وسـائـلـي بـمُـزعـجـي فـي وَطـنـي مـا ضـاق بـي جـنـابُـهُ ولا نَـبـا[٥]
قـلـتُ الـقـضـاءُ مـالِـكٌ أمـرَ الـفـتـى من حيث لا يدري ومن حيث درى
لا تـسـألَـنّـي واسـأل الـمـقـدارَ هـل يُـعْـصَـمُ مـنـه وَزَرٌ ومُـزْدَرَى[٦]
لا بُـدّ أن يـلْـقَـى امـرُؤٌ مـا خَـطّ، ذو الـعـرش مـمـا هـو لاقٍ ووَحـى[٧]
لا غَـرْوَ إن لَـحّ زَمـان جـائـرٌ فـاعـتَـرَق الـعـظـم الـمُـمـخّ وانـتـقَـى[٨]
فـقـد تـرَى الـقـاحِـلَ مُـخْـضـرّاً وقـد تَـلْـقـى أخـا الإقـتـارِ يـومـاً قـد نـمـا[٩]
يـا هُـؤَلـيّـا هـلْ نَـشَـدْتُـنَّ لـنـا نـاقِـبَـة الـبُـرْقُـع عـن عَـيْـنـي طَـلا[١٠]

---

(١) لله ما طيف: اللام في هذا بمعنى التعجب وما زائدة. والطيف: ما يراه النائم في صورة محبوبه. خيال الشخص: الذي يتخيل لك. وتزفه: تحمله.

(٢) يجوب: يقطع. وأجواز: أوساط. والفلا: جمع فلاة وهي القفر من الأرض. ودجى: جمع دجية وهي الظلمة. وانبرى: اعترض.

(٣) سائله: يعني الخيال. وعن أنبائه: يعني عن أخباره. وإن أفصح: إن أبان. وأنى: كيف. تسدَّى: قطع الليل بالسير.

(٤) أو كان يدري قبلها: يريد قبل هذه الذروة. وما فارس: يريد فارس. والموامي: واحدها موماة وهي الأرض المقفرة.

(٥) بمزعجي: بمزيلي ومخرجي، والباء بمعنى عن، فكأنه قال: وسائلي عن مزعجي. الجناب بفتح الجيم: الناحية. ولا نبا: ولا ضاق.

(٦) لا تسألني: يخاطب السائل الذي حكى عنه سؤاله عن انزعاجه عن وطنه. والمقدار: القدر، يعصم: يمنع. وزر: الجبل المنيع. مزدرى: محتقر.

(٧) ووحى: معطوف على خطه، ومعنى وحى: كتب.

(٨) لا غرو: لا عجب. لح: عرض. فاعترق العظم: أزال عنه اللحم. الممخ: الذي فيه المخ. انتقى: استخرج منه النقي وهو المخ.

(٩) القاحل: اليابس. أخا الإقتار: المقل من المال. نما: زاد واستغنى.

(١٠) يا هؤليا: تصغير هؤلاء. نشدتن. طلبتن. ناقبة البرقع: أي: المتقنع به. طلا بفتح الطاء: ولد البقرة الوحشية.

ما أنصفَتْ أم الصَّبِيَّينِ التي أصبتْ أخا الحِلْم ولما يُصْطَبَى[١]
استَحْي بيضاً بين أفوَادِكَ أن يَقتادَكَ البِيضُ اقْتياد المُهْتدَى[٢]
هيهات ما أسْفَعَ هاتا زَلّةً أطرَباً بَعدَ المَشيبِ والجَلا[٣]
يا رُبَّ ليل جَمَعَتْ قُطْرَيْهِ لي بِنتُ ثمانين عَرُوساً تُجْتَلَى[٤]
لم يَمْلِكِ الماءُ عليها أمرَها ولم يُدَنِّسها الضِّرَام المُحتَضَى[٥]
حيناً هي الدَّاءُ وأحياناً بها من دائها إذا يَهيجُ يُشْتَفى
قد صانَها الخَمّارُ لمّا اختارَها ضَنّاً بها على سِواها واختَبَى[٦]
فهي تُرى من طولِ عهدٍ إن بَدتْ في كأسِها لأعيُن الناس كلا[٧]
كأنّ قَرْن الشّمس في ذُرُورِها بفِعْلها في الصَّحن والكاس اقتدى[٨]
نازَعتُها أروَعَ لا تَطو على نَدِيمِهِ شِرَّتُهُ إذا انتَشَى[٩]

---

(١) ما أنصفت أم الصبيين: هذا لفظ تقوله العرب تمدح به المرأة الكاملة العقل. والصبيان: ما يتخايل في بؤبؤ العين. أصبت أخا الحلم: رددته إلى الصبا.

(٢) استحي: فعل أمر من الاستحياء بمعنى الحياء. بيضاً: شيباً بين أفوادك: جمع فود، والفودان جانبا الرأس أي: ناحيتاه من يمين وشمال. ويقتادك: يقودك. البيض الثانية: النساء. المهتدي: الأسير.

(٣) هيهات: كلمة تبعيد. هاتا: إشارة للمؤنث، زلة: خطيئة وسقطة. الجلا بفتح الجيم: انحسار الشعر عن مقدم الرأس.

(٤) جمعت قطريه: أي: جانبيه أول الليل وآخره. بنت ثمانين: هنا الخمر، وإنما سماها بنت ثمانين لأنها من شربها أوجبت عليه ثمانين جلدة. تجتلى: تجلى من جلوت العروس وهو إظهارها.

(٥) لم يملك الماء عليها أمرها: يريد لم تمزج بالماء فتكسر حدتها وسورتها. ولم يدنسها: أي: ولم يغيرها. الضرام: الحطب الدقيق يوقد به الحطب الغليظ. المحتضى: العود الذي تحرك به النار.

(٦) صانها: حفظها. ضناً: بخلاً. اختبى: ستر.

(٧) كلا: يعني أنه يعمى مَنْ نظر إليها فكيف من شربها.

(٨) قرن الشمس: شعاعها. ذرورها: طلوعها، يقال: ذرت الشمس إذا طلعت. والصحن: القدح الكبير الواسع. والكاس: القدح إذا كان فيه خمر. اقتدى: اتبع أثره.

(٩) نازعتها: ناولتها وأدرتها. أروع الحسن: المنظر الجميل. لا تسطو: لا تعدو. النديم: الصاحب. الشرة: الحدة. انتشى: سكر.

كأن نَور الرّوض نظْمٌ لفظه مُرْتجلاً أو منشِداً أو إن شدا[١]
من كلّ ما نال الفتى قد نلتُه والمرءُ يبقى بعده حُسن الثّنا[٢]
فإن أمُت فقد تناهت لذّتي وكلُّ شيء بلغ الحدّ انتهى[٣]
وإن أعِش صاحبت دهري عالِماً بما انطوى من صَرفِهِ وما انتشى[٤]

وقال المُثقّب العبدِيّ الجاهلي المتوفّى سنة ٥٨٧م، من قصيدة:

[الرمل]

لا تقولنّ إذا ما لم تُرِدْ أن تُتِمّ الوعد في شيء (نعمْ)
حَسَنٌ قولُ (نعم) من بعد (لا) وقبيحٌ قول (لا) بعد (نعمْ)
إن (لا) بعد (نعم) فاحشةٌ فبلا فابدأ إذا خِفت الندمْ
وإذا قلت (نعم) فاصبر لها بنجاز الوعد إن الخُلفَ ذمْ
أكرِمِ الجار وراعِ حقّه إن عِرفان الفتى الحقَّ كرمْ
لا تراني راتعاً مِن مجلسٍ في لحوم الناس كالسّبع الضّرِمْ
إن شرّ الناس من يَمدحُني حين يلقاني وإن غِبتُ شَتَمْ
وكلامٍ سيِّئٍ قد وقَرت عنه أذْنايَ وما بي من صَمَمْ
وَلَبَعْضُ الصفح والإعراض عن ذي الخنا أبقى وإن كان ظَلَم

وقال الأفوه الأودِي الجاهلي، المتوفى سنة ٥٧٠م:

[البسيط]

البيت لا يُبتنى إلا على عَمدٍ ولا عِماد إذا لم ترسُ أوتادُ
فإن تجمَّع أوتاد وأعمدة يوماً فقد بلغوا الأمر الذي كادوا
لا يصلح الناس فوضى لا سَراة لهم ولا سَراة إذا جهّالهم سادوا

---

(١) نور الروض: زهر الروض. مرتجلاً: الذي يأتي بما يخطر على باله على البديهة بغير استعداد. وشدا: غنى ومنه الشادي.
(٢) الثنا: المراد به هنا الثناء، وهو في الأصل أعم للخير والشر.
(٣) تناهت لذتي: بلغت النهاية. الحد: هو الشيء الذي لا يتجاوزه.
(٤) انطوى: استتر. انتشى: ظهر.

تُهدى الأمور بأهل الرأي ما صلُحت ... فإن تولّت فبالأشرار تنقادُ
إذا تولى سَراة الناس أمرهم ... نما على ذاك أمر القوم فازدادوا

وقال الإمام علي كرم الله وجهه:

[الوافر]

أمَا والله إن الظُّلم شُؤمٌ ... ولا زال المُسيءُ هو الظّلومُ
إلى الدّيّان يوم الدّين نَمضِي ... وعند الله تجتمع الخُصُومُ
ستعلم في الحساب إذا التقينا ... غداً عند المليك مَن الملومُ
ستنقطع اللّذَاذَةُ عن أناسٍ ... مِن الدُّنيا وتنقطع الهمومُ
لأمر ما تصرّمت الليالي ... لأمرٍ ما تحرّكت النّجومُ
سلِ الأيّام عن أمم تقَضّتْ ... ستُنبيك المعالم والرُّسومُ
تروم الخُلد في دار الدّنايا ... فكم قد رام غيرك ما تَرُومُ
تنام ولم تنم عنك المنايا ... تنبّه للمنيّة يا نَؤُومُ
لهوتَ عن الفناء وأنتَ تفنى ... فما شيءٌ من الدُّنيا يدومُ
تموت غداً وأنت قرير عين ... من الشّهوات في لُجَج تعومُ

وقال أيضاً:

[الطويل]

عليك بِبرّ الوالدَين كليهما ... وبرّ ذوي القُرْبى وبرّ الأباعدِ
ولا تَصحَبن إلاّ تقيّاً مُهذَّباً ... عفيفاً ذَكيّاً مُنجِزاً للمواعِدِ
وقارن إذا قارَنتَ حرّاً مؤدّباً ... فتى من بني الأحرار زين المَشَاهدِ
وكُفّ الأذى واحفظ لسانَك واتّقِ ... فدَيتك في وِدّ الخليل المساعدِ
ونافِسْ ببذْل المال في طلَب العُلى ... بهمّة محمود الخلائق ماجدِ
وكن واثقاً بالله في كل حادثٍ ... يَصُنْكَ مدَى الأيام من شرّ حاسدِ
وبالله فاستعصم ولا تَرْجُ غيرَه ... ولا تكُ في النّعماءِ عنه بجاحدِ

وغُضّ عن المكْرُوه طَرفَك واجتنبْ أذى الجارِ واستمسِكْ بحبل المحامدِ
ولا تَبْنِ في الدُّنيا بناءَ مُؤَمِلٍ خُلوداً فما حيٌّ عليها بخَالدِ

وقال أيضاً:

[الكامل]

قَدِّم لنفْسك في الحياة تَزَوُّداً فلقد تُفارقُها وأنت مُودّعُ
واهتمّ للسّفر القريب فإنه أنأى منَ السَّفر البَعيدِ وأشنعُ
واجعل تَزَوُّدَك المخافة والتُّقَى فلعلّ حتفك في مسائك أسرَعُ
واقنع بقوتك فالقَنَاع هو الغنى والفقر مقرون بمن لا يقنعُ
واحذر مصاحبة اللئام فإنهم مَنَعوك صفو ودادهم وتصنّعوا
أهلُ المودّة ما أنَلْتَهُمُ الرِّضا وإذا منَعتَ فسَمُّهم لك مُنقَعُ
لا تُفْشِ سراً ما استطعت إلى امرئ يُفشي إليك سرائراً يَستودعُ
فكما تراه بسِرِّ غيرك صانعاً فكذا بسرّك لا محالة يَصنعُ
لا تَبدَأنَّ بمنطق في مجلس قبل السُّؤَال فإن ذلك يَشنُعُ
فالصمت يُحسِنُ كل ظنّ بالفتى ولعلّهُ خَرِقٌ سَفِيهٌ أرقَعُ
ودَع المُزَاحَ فرُبَّ لَفظةِ مازِحٍ جلبتْ إليك بلابلاً لا تُدْفعُ
وَحِفاظَ جارٍ لا تُضِعْهُ فإنه لا يبلُغُ الشرَفَ الجسيمَ مُضَيّعُ
وإذا استقالك ذو الإساءَةِ عَثرةً فأقِلْهُ إن ثواب ذلك أوسَعُ
وإذا ائتُمِنْتَ على السّرائر فاخفها واستُرْ عيوب أخيك حين تَطلَّعُ
وأَطِعْ أباك بكلّ ما أوصى به إنّ المُطيع أباه لا يَتضَعْضَعُ

وقال أيضاً:

[الطويل]

صُن النّفس واحمِلها على ما يَزِينُها تعِشْ سالماً والقولُ فيك جميلُ
وَلا تُرِينَّ الناسَ إلا تجمُّلاً نبا بِكَ دهرٌ أو جفاك خَليلُ
وإن ضاق رزق اليوم فاصبر إلى غدٍ عسى نكبات الدّهر عنك تَزُولُ

يعزُّ غَنِيُّ النّفس إن قلّ مالُهُ ويَفنى غنيُّ المال وهو ذليلُ
ولا خير في وُدّ امرئٍ مُتلوّنٍ إذا الرّيح مالت مال حيث تميلُ
جوادٌ إذا استغنيت عن أخذِ مالِهِ وعند احتمال الفقر عنك بخيلُ
فما أكثر الإخوان حين تعُدُّهم ولكنّهم في النائباتِ قليلُ

وقال عبد الله بن جعفر الطالبي المتوفّى سنة ٨٠هـ:

[المتقارب]

إذا كُنتَ في حاجةٍ مُرسِلاً فأرسلْ حكيماً ولا تُوصهِ
وإنْ بابُ أمرٍ عليك التوَى فشاوِرْ لبيباً ولا تَعْصِهِ
وإنْ ناصحٌ مِنكَ يوماً دَنا فلا تَنْأ عنهُ ولا تُقْصِهِ
وذَا الحقّ لا تَنتَقِصْ حقّهُ فإنّ القطِيعةَ في نَقصهِ
ولا تذكر الدّهرَ في مجلسٍ حَدِيثاً إذَا أنت لم تُحصهِ
ونُصَّ الحديثَ إلى أهلهِ فإنّ الأمانةَ في نصّه
وكم من فتىً عازبٍ لُبُّهُ وقد تَعجبُ العَيْنُ من شخصهِ
وآخَرَ تحْسبُهُ أنْوَكاً ويأتيكَ بِالأمرِ من فصّهِ

وقال أبو الأسود الدُّؤَلي:

[الكامل]

حسَدُوا الفتى إذ لم ينالوا سَعْيَه فالقوم أعداءٌ له وخصومُ
وترَى اللبيبَ مُحْسَداً لم يَجترِم شتْمَ الرّجال وعِرْضُهُ مَشْتُومُ
وكذاكَ من عظُمتْ عليه نِعمةٌ حُسّادُه سيفٌ عليه صَرُومُ
فاترُكْ مجاراة السّفيه فإنها نَدَمٌ وغِبٌّ بعد ذاك وخيمُ
فإذا جريتَ مع السّفيه كما جرَى فكِلاَكُما في جَرْيه مذمومُ
وإذا عتبتَ على السّفيه ولُمتَهُ في مثل ما تأتي فأنت ظَلومُ
يا أيُّها الرّجلُ المعلّمُ غيرَهُ هلاَّ لنفْسك كان ذَا التعليمُ

تصفُ الدّواءَ لذي السّقام وذي الضّنَى كيما يَصحُّ به وأنت سقيمُ
وأراك تُصلحُ بالرّشاد عقولَنا أبداً وأنت من الرّشاد عقيمُ
لا تَنْهَ عن خُلقٍ وتأتي مثلَهُ عارٌ عليك إذا فعلت عظيمُ
ابدأ بنفسك فَانْهَها عن غَيّها فإذا انتهتْ عنه فأنت حكيمُ
فهناك يُقْبلُ ما وعظتَ ويُقتَدَى بالعلم منك ويَنفع التّعليمُ

وقال العباس بن مرداس المتوفّى سنة ١٦هـ:

[الوافر]

ترى الرجلَ النّحيف فتَزدَريه وفي أثوابه أسَدٌ مَزيرُ
ويُعجبك الطّرير فتبتليه فيُخلف ظنّك الرّجل الطريرُ
فما عِظَمُ الرّجال لهم بفخر ولكن فخرهم كرمٌ وخيرُ
بغاثُ الطّير أكثرها فِراخاً وأمّ الصَّقر مَقلاةٌ نزورُ
ضِعافُ الطّير أطولها جسوماً ولم تَطُل البُزَاة ولا الصُّقورُ
لقد عظُم البعير بغير لُبّ فلم يستغن بالعِظَم البعيرُ
يُصَرّفه الصّبيّ بكلّ وجهٍ ويحبسه على الخسف الجريرُ
فإن أك في شراركُم قليلاً فإني في خياركُم كثيرُ

وقال الإمام الشافعي المتوفّى سنة ٢٠٤هـ رضي الله عنه:

[الوافر]

دَع الأيّام تفعل ما تشاءُ وطب نفساً إذا حكم القضاءُ
ولا تجزَعْ لحادثة اللّيالي فما لحوادث الدنيا بقاءُ
وكن رجلاً على الأهوال جَلداً وشيمتُك السّماحةُ والسّخاءُ
يغطّى بالسّماحة كلّ عيب وكم عيبٍ يغطّيه السّخاءُ
ولا حزنٌ يدوم ولا سرورٌ ولا بأسٌ عليك ولا رخاءُ
ولا تُرِيَ الأعادي قطُّ ذُلاً فإنّ شماتَةَ الأعدا بلاءُ

ولا ترجُ السّماحة من بخيلٍ فما في النار للظّمآن ماءُ
ورزقك ليس ينقصُهُ التأنّي وليس يزيد في الرّزق العناءُ
إذا ما كنتَ ذا قلبٍ قنوعٍ فأنتَ ومالِكُ الدنيا سواءُ
ومن نزلَتْ بساحته المنايا فلا أرضٌ تقيهِ ولا سماءُ
وأرض الله واسعة ولكن إذا نزل القضا ضاق الفضاءُ

وقال عبدة بن الطيب المتوفّى سنة ٣٩هـ يوصي أبناءه:

[الكامل]

أبَنِيَّ إني قد كبِرتُ ورابني بصري وفيّ لمَنظرٌ مُستَمتَعُ
أُوصيكُمُ بتُقى الإله فإنّه يُعطي الرّغائب مَنْ يشاءُ ويمنعُ
وببرّ والِدِكُم وطاعَةِ أمرِهِ إنّ الأبَرّ من البنينَ الأطوعُ
إنّ الكبير إذا عصاهُ أهلُه ضاقت يداهُ بأمره ما يصنعُ
ودَعُوا الضّغائن لا تكن من شأنكم إنّ الضغائن للقرابة تُوضِعُ
يُزجي عقاربه ليبعث بينكم حرباً كما بعث العُرُوقَ الأخدَعُ
إنّ الذين تَرَوْنَهُم إخوانكم يشفي غليل صدورهم أن تُصرَعوا
وإذا مضيتُ إلى سبيلي فابعثوا رجلاً له قلب حديد أصمعُ
إنّ الحوادث تختَرِمْنَ وإنما عمرُ الفتى في أهله مُستَودعُ
يسعى ويَجمعُ جاهداً مُستهتراً جدّاً وليس بآكل ما يجمعُ

وقال قَيسُ بن الخطيم المتوفّى سنة ٦١٢م من قصيدة:

[الوافر]

وما بعض الإقامة في دِيارٍ يُهان بها الفتى إلا بلاءُ
وبعضُ خلائق الأقوام داءٌ كداءِ البطنِ ليس له دوَاءُ
يُرِيدُ المرءُ أن يُعطى مُناهُ ويأبى الله إلاّ ما يشاءُ
وكلُّ شَديدةٍ نزلت بقومٍ سيأتي بعدَ شِدّتها رَخاءُ

ولا يُعطى الحريصُ غِنىً لحرصٍ وقد ينْمى على الجُود الثَّراءُ
غنيُّ النّفس ما عمرَتْ غنيٌّ وفقرُ النّفس ما عَمرَتْ شَقاءُ
وليس بنافعٍ ذا البُخلِ مالٌ ولا مُزْرٍ بصاحبه السّخاءُ

وقال صالح بن عبد القدوس المتوفّى سنة ٨٥٥هـ:

[الكامل]

المرء يَجمعُ والزّمان يُفرّقُ ويظلّ يرقَع والخطوب تمزّقُ
ولأن يُعادِي عاقلاً خيرٌ له من أن يكون له صديقٌ أحمقُ
فاربأ بنفسك أن تصادق أحمقاً إن الصّديق على الصّديق مصدّقُ
وزن الكلام إذا نطقت فإنما يُبدي عقول ذوي العقول المنطِقُ
ومنَ الرّجال إذا استوت أخلاقهم مَنْ يُستَشار إذا استُشيرَ فيُطرِقُ
حتى يَحُلَّ بكلّ وادٍ قلبه فيرى ويعرف ما يقول فينطِقُ
ما النّاس إلاّ عامِلان فعامل قد مات من عطش وآخر يَغرَقُ
والنّاسُ في طلب المعاش وإنّما بالجدّ يُرْزق منهُم مَنْ يُرزقُ
لو يرْزقون الناس حسبَ عقولهم ألفَيتَ أكثرَ من ترى يتصدَّقُ
لكنه فضل المليك عليهم هذا عليهِ مُوَسَّعٌ ومُضَيّقُ

وقال أيضاً:

[الكامل]

صرَمتْ حِبالَكَ بعد وصلك زينبُ والدّهر فيه تصرُّمٌ وتقَلّبُ
وكذاك وصلُ الغانيات فإنّهُ آلٌ ببلقَعةٍ وبَرقٌ خُلّبُ
فدعِ الصّبا فلقد عداك زمانه واجهدْ فعمرُك مرّ منه الأطيَبُ
ذهب الشّبابُ فما له من عودةٍ وأتى المشيب فأين منهُ المهربُ
دَع عنك ما قد فات في زمن الصّبا واذكُرْ ذُنُوبَكَ وابكِها يا مُذنِبُ
واخشَ مُناقشةَ الحسابِ فإنّه لا بُدّ يُحصَى ما جَنَيتَ ويُكتبُ

والليل فاعلَمْ والنهارَ كلاهما أنفاسُنا فيهِ تُعَدُّ وتحسَبُ
لم يَنسَهُ المَلكان حينَ نِيتهُ بل أثبتاه وأنت لاهٍ تلعَبُ
والرُّوح فيك وديعة أودعتَها سَتردُّها بالرَّغمِ منك وتُسلبُ
وغُرور دُنياك التي تَسعى لها دارٌ حقيقتُها متاعٌ يذهبُ
وجميع ما حصَّلته وجَمَعْتَهُ حقّاً يقيناً بعد موتك يُنهبُ
تبّاً لدار لا يدومُ نعيمُها وَمشيدها عمّا قليل يَخرَبُ
لا تأمن الدّهرَ الخؤُون لأنه ما زالَ قِدْماً للرجال يُهذّبُ
وكذلك الأيام في غصَّاتها مَضَضٌ يذِلُّ له الأعزّ الأنجبُ
وَيفوز بالمال الحقيرُ مكانةً فتراه يُرْجَى ما لدَيه ويُرْغبُ
ويُسَرُّ بالتّرحيب عند قدومه ويُقامُ عند سلامه ويُقرَّبُ
لا تحرصنْ فالحِرص ليس بزائدٍ في الرّزق بل يُشقي الحرِيص ويُتعِبُ
كم عاجزٍ في الناس يأتي رزْقُهُ رغداً ويُحرَمُ كيِّسٌ ويُخيّب
فعليك تقوَى الله فالزمها تَفزْ إن التّقيَّ هو البَهيُّ الأهيبُ
واعملْ بطاعته تنَلْ منه الرّضا إن المطيعَ لربّه لَمُقَرَّبُ
أدّ الأمانة، والخيانة فاجتنِبْ واعدِل ولا تظلم يطيبُ المكسَبُ
واحذر من المظلوم سهماً صائباً واعلم بأن دعاءَهُ لا يُحجب
واخفِضْ جناحك للأقارب كلّهم بتذَلُلٍ واسمح لهم إن أذنبوا
وإذا أصابك في زمانك شدَّةٌ وأصابك الخطبُ الكرِيهُ الأصعَبُ
فادعُ لربّك إنه أدنى لِمَنْ يدعوه من حبلِ الوريدِ وأقرَبُ
واحذر مؤَاخاة الدَّنيّ لأنه يعدي كما يُعدي الصّحيحَ الأجرَبُ
واختر صديقك واصطفيه تفاخُراً إن القَرِينَ إلى المقارن يُنسَبُ
ودع الكذوبَ ولا يكُن لكَ صاحباً إن الكذوبَ لبئسَ خِلاً يُصحَبُ
وذَرِ الحَقودَ وإن تقادم عهدُهُ فالحِقدُ باقٍ في الصُّدُور مُغيَّبُ

واحفَظ لسانك واحترِز من لفظه فالمرءُ يسلم باللّسان ويَعطبُ
وَزِنِ الكلام إذا نطقتَ ولا تكن ثرثارَةً في كلّ ناد تخطبُ
والسرَّ فاكتُمه ولا تنطِقْ به فهو الأسيرُ لديك إذ لا ينشَبُ
واحرِصْ على حِفْظِ القلوبِ من الأذى فرُجوعُها بعد التنافُر يصعُبُ
إن القلوب إذا تنافر وُدُّها شِبْهُ الزُّجاجة كَسرُها لا يُشعَبُ
واحذر عدُوّك إذ تراه باسماً فاللّيثُ يبدُو نابُهُ إذ يغضَبُ
لا خير في ودّ امرئ مُتملّق حُلوِ اللّسان وقلبُهُ يتلَهَّبُ
يُعطيك من طرَف اللّسان حلاوة ويروغ منك كما يَروغ الثّعلبُ
يلقاك يحلِفُ أنه بك واثقٌ وإذا تَوَارى عنك فهو العقرَبُ
وإذا رأيتَ الرّزْقَ ضاق ببلدةٍ وخَشيتَ فيها أن يضيقَ المكسَبُ
فارحَلْ فأرضُ الله واسعةُ الفَضَا طولاً وعرضاً شَرْقها والمغربُ

ونال أبو الفتح البُسْتِي المتوفى سنة ٤٠٠هـ:

[البسيط]

زيادة المرء في دنياه نقصانُ وربحه غير محض الخير خُسرانُ
أحسِنْ إلى الناس تستعْبد قلوبَهُم فطالما استعْبدَ الإنسانَ إحسانُ
يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته أتطلبُ الرّبح ممّا فيه خسرانُ؟
أقبِلْ على النّفس واستكمِلْ فضائلَها فأنت بالنّفس لا بالجسم إنسانُ
وكن على الدّهْرِ مِعْوَاناً لذِي أمَلٍ يرجو نداك فإن الحرّ مِعْوانُ
واشدُدْ يديك بحبل الله مُعتصماً فإنه الركنُ إن خانتك أركانُ
مَن يتّقِ الله يُحمَد في عواقبه ويَكفه شرّ من عزُّوا ومن هانوا
مَن استعان بغير الله في طَلب فإنّ ناصره عجزٌ وخذْلانُ
مَنْ كان للخيْر منّاعاً فليس له على الحقيقة إخوانٌ وأخدانُ
من جاد بالمال مال الناس قاطبة إليه والمال للإنسان فتّانُ

من سالم النَّاس يسلم من غوائلهم ... وعاش وهو قرير العين جذلانُ
من يَزْرع الشرّ يَحصُد في عواقبه ... ندامة ولحصد الزَّرع إبَّانُ
من استَنام إلى الأشرار نام وفي ... ردائه منهُم صِلٌّ وثُعبانُ
كن رَيِّق البشر إن الحرّ همّتُهُ ... صحيفةٌ وعليها البشرُ عُنوانُ
ورافِق الرّفق في كل الأمور فلم ... يَندم رفيقٌ ولم يذْمُمهُ إنسانُ
ولا يغُرّنْكَ حظٌّ جَرّه خَرقٌ ... فالخرقُ هدمٌ ورِفق المرءِ بُنيانُ
أحسن إذا كان إمكانٌ ومقدرةٌ ... فلن يدوم على الإحسان إمكانُ
فالروضُ يزدان بالأنوار فاغِمُهُ ... والحرُّ بالعدل والإحسان يزدانُ
صُنْ حُرّ وجهِكَ لا تَهتِك غِلاَلَتَه ... فكلُّ حُرّ لحُرّ الوجهِ صوّانُ
دعِ التّكاسل في الخيرات تطلبها ... فليس يسعد بالخيراتِ كَسلانُ
لا ظِلّ للمرءِ يعرَى من نُهى وتُقىً ... وإن أظلّتهُ أوراق وأفنانُ
والناس أعوانُ من والَتهُ دولته ... وهم عليه إذا عادتهُ أعْوانُ
«سحبانُ» مِن غيرِ مال باقلٌ حَصرٌ ... و«باقلٌ» في ثَرَاءِ المال سَحْبانُ
لا تودِع السّرّ وشّاء بِهِ مِذلاً ... فما رَعى غنماً في الدَّوّ سِرْحانُ
لا تستَشِر غيرَ ندب حازمٍ يقظ ... قد استَوى فيه إسرَارٌ وإعلانُ
فللدّابيرِ فُرسان إذا ركضُوا ... فيها أبرُّوا كما للحرب فُرسانُ
وللأمور مواقيتٌ مُقَدّرَة ... وكلّ أمرٍ له حدٌّ وميزانُ
فلا تكن عجلاً في الأمر تطلبه ... فليس يُحْمَدُ قبلَ النُّضج بُحرَانُ
كفى من العيش ما قد سدّ مِن عَوَزٍ ... ففيه للحرّ قُنيانٌ وغُنيانُ
وذُو القناعةِ رَاضٍ من معيشته ... وصاحبُ الحرص إن أثرَى فغضبانُ
حَسْبُ الفتى عقله خِلاًّ يُعاشِرُهُ ... إذا تحاماه إخوانٌ وخُلاَّنُ
إذا نبا بكريم مَوطنٌ فله ... وراءَهُ في بسيط الأرض أوطانُ
يا ظالماً فرِحاً بالعزّ ساعَدَه ... إن كنت في سِنَةٍ فالدَّهر يقظانُ
ياأيُّها العالم المرضِيُّ سيرَتُهُ ... أبشر فأنت بغير الماءِ رَيانُ

ويا أخا الجهْل لو أصبحتَ في لُججٍ فأنت ما بينها لا شكَّ ظمآنُ
لا تَحسَبَنَّ سروراً دائماً أبداً من سرّهُ زَمَن ساءَته أزمانُ
وكلُّ كَسرٍ فإنَّ الدّين يَجْبُرهُ وما لِكسر قَناةِ الدّين جبرانُ

وقال ابن أبي بكر المقْري المتوفّى سنة ١٠٠١هـ:

[البسيط]

زيادة القول تَحكي النّقص في العمل ومنطق المرءِ قد يَهديه للزَّلَلِ
إنّ اللّسان صغيرٌ جِرمهُ وله جُرمٌ كبيرٌ كما قد قيل في المثَلِ
عقلُ الفتى ليس يغني عن مشاورةٍ كحِدَّة السَّيف لا تغني عن البطَلِ
إن المشاوِر إمَّا صائبٌ غرَضاً أو مُخطئٌ غيرُ منسوب إلى الخطلِ
لا تحقر الرّأيَ يأتيك الحقير به فالنحلُ وهو ذبابٌ طائر العَسَلِ
ولا يَغُرنك وُدٌّ من أخي أمَل حتى تُجرّبَهُ في غَيبةِ الأملِ
لا تَجزَعَنَّ لخطب ما بِهِ حِيَلٌ تغنى وإلاّ فلا تعجز عن الحيَلِ
وقدرُ شكر الفتى لله نِعمتُهُ كقدرِ صبرِ الفتى للحادِث الجللِ
وإنّ أخوف نَهج ما خشيت به ذَهاب حُريّةٍ أو مُرتضى عمَلِ
لا تفرحنّ بسقْطات الرّجال ولا تهزأ بغيرِك واحذر صَولة الدُّولِ
أحقّ شيءٍ بردٍّ ما تخالفه شهادةُ الدّين فافهَمْ صنعة الجَدَلِ
وقيمةُ المرءِ ما قد كان يُحسنُهُ فاطلب لنفسك ما تعلو به وصِلِ
وكلُّ علم جناه ممكنٌ أبداً إلاّ إذا اعتصم الإنسانُ بالكسلِ
والمال صُنْهُ وورّثْهُ العدوّ ولا تحتج حياتك للإخوان في الأكلِ
فخير مالِ الفتى مال يصون به عرضاً وينفقهُ في أشرف السُّبلِ
وأفضل البِرّ ما لاَ منَّ يتبعهُ ولا تقَدّمه شيءٌ من المَطلِ

وقال الإمام علي الرضا المتوفّى سنة ٧٧هـ:

[السريع]

وَاعجباً للمرء في لَذَّتِهْ يجُرُّ ذَيل التّيه في خَطْرتِهْ

يَـزجـره الـوعـظ فـلا يـنـتـهـي كـأنـه الـمـيـت فـي سـكـرتِـهْ
يـبـارز الله بـعِـصـيـانـه جَـهـراً ولا يـخْـشاه فـي خَـلـوتِـهْ
وإن يـقـع فـي شـدّة يـبـتـهـل فـإن نـجـا عـاد إلـى عـادتِـهْ
ارغـب لـمـولاك وكـن راشـداً واعـلَـمْ بـأنَّ الـعـزَّ فـي خـدمـتِـهْ
واتْـلُ كـتـابَ الله تُـهـدَى بـه واتـبـع الـشـرع عـلـى سُـنَّـتِـهْ
لا تحرصَنْ فالحرص يُزْرِي بالفتى ويُـذْهـب الـرّونـق مـن بَـهـجـتِـهْ
والـحـظُّ لا تـجـلـبـه حِـيـلـةٌ كـيـف يـخـاف الـمـرءُ مـن فـوتـتِـهْ
مـا فـاتـكَ الـيـومَ سـيـأتـي غَـدَا مـا فـي الـذي قـدّر مـن حِـيـلـتِـهْ
قَـضـاؤه الـمـحـتـومُ فـي خَـلْـقـه وحُـكْـمُـهُ الـنّـافـذُ مـع قـدرَتـه
والـرّزقُ مَـضـمُـون عـلـى واحـد مـفـاتـحُ الأشـيـاء فـي قـبـضَـتـهْ
قـد يُـرزقُ الـعـاجـزُ مـع عـجـزه ويُـحـرمُ الـكـيّـس مـع فِـطـنـتِـهْ
لا تَـنْـهـر الـمـكـيـن يـومـاً أتـى فـقـد نَـهـاك الله عـن نـهـرتِـهْ
إن عـضّـك الـدّهـر فـكـن صـابـراً عـلـى الـذي نـالـك مِـنْ عـضَّـتِـهْ
أو مـسّـك الـضـرُّ فـلا تَـشْـتـكِ إلاّ لـمَـنْ تـطـمَـع فـي رحـمـتِـهْ
لـسـانَـك احـفَـظْـهُ وصُـنْ نـطـقَـهُ واحـذر عـلـى نـفـسـك مـن عـثـرتِـهْ
فـالـصّـمـت زيـنٌ ووقـارٌ وقـد يُـؤتَـى عـلـى الإنـسـان مـن لـفـظـتِـهْ
مَـنْ أطـلـقَ الـقـولَ بـلا مُـهـلـة لا شـكّ أن يـعـثُـر فـي عـجـلـتِـهْ
مَـنْ لـزمَ الـصّـمـت نـجـا سـالـمـاً لا يـنـدمُ الـمـرءُ عـلـى سَـكـتـتِـهْ
مَـنْ أظـهـرَ الـنـاس عـلـى سـرّه يـسـتـوجـبُ الـكـيّ عـلـى مُـقْـلـتِـهْ
مَـنْ مـازحَ الـنـاسَ اسـتـخـفّـوا بـه وكـان مـذمـومـاً عـلـى مـزْحـتِـهْ
كُـنْ عـن جـمـيـع الـنـاس فـي مَـعـزِل قـد يَـسـلـم الـمـعـزُول فـي عُـزلـتِـهْ
مَـنْ جـعـل الـخـمـرَ شـفـاءً لـه فـلا شَـفـاهُ الله مِـنْ عـلّـتِـهْ
مـنْ نـازع الأقـيـالَ فـي أمـرهـم بـاتَ بـعـيـد الـرأس عـن جُـثَّـتِـهْ

مَن لاعب الثّعبَان في كفّهِ هيهات أن يسلَم من لَسْعتِهْ
مَنْ عاشر الأحمقَ في حالِهِ كان هو الأحمقَ في عِشرتِهْ
لا تَصحَب النّذل فترِدى بهِ لا خير في النّذل ولا صُحبتِهْ
مَن اعتراك الشّكُّ في جنسِهِ وحاله فانظُرْ إلى شِيمتِهْ
مَن غرس الحنظَل لا يرتجي أن يجتني السُّكر من غرستِهْ
من جعلَ الحقّ له ناصراً أيّده الله على نُصرتِهْ

وقال أبو العتاهية المتوفّى سنة ٢١١هـ:

[المتقارب]

أنلهُو وأيّامنا تذهبُ ونلعبُ والموتُ لا يلعبُ
عَجِبتُ لذي لعبٍ قد لَها عجبتُ وما ليَ لا أعجبُ
أيَلهو ويلعبُ مَنْ نفسهُ تموتُ ومنزِلُهُ يَخرَبُ
نرَى كلّ ما ساءَنا دائماً على كلّ ما سرّنا يغلبُ
نرى الليل يطلُبُنا والنّها ر ولم ندر أيّهما أطلبُ
أحاطَ الجدِيدان جمعاً بنا فليس لنا عنهما مَهْرَبُ
وكلٌّ له مُدَّةٌ تَنقضي وكلٌّ له أثرٌ يُكتبُ

وقال صلاح الدين الصّفدي المتوفّى سنة ٧٦٤هـ:

[البسيط]

الجَدُّ في الجدّ والحِرمان في الكسَل فانصَبْ تُصِبْ عن قريبٍ غاية الأملِ
واصبِرْ على كلّ ما يأتي الزّمان به صبرَ الحُسام بكفّ الدَّارعِ البطَلِ
وجانب الحِرْص والأطماع تحظَ بما ترجو من العزّ والتأييد في عَجلِ
ولا تكونَنْ على ما فات ذا حزنٍ ولا تَظلَّ بما أُوتيتَ ذا جذَلِ
واستشعِرِ الحلمَ في كلّ الأمور ولا تُسرِعْ ببادرةٍ يوماً إلى رجُلِ
وإن بُليتَ بشخصٍ لا خلاقَ له فكن كأنك لم تسمَع ولم يقُلِ

ولا تُمارِ سفيهاً في محاوَرة ولا حليماً لكي تُقصَى عن الزّلَلِ
ولا يغُرَّك من يُبدي بشاشَتَهُ إليك خَدْعاً فإن المّ في العسلِ
وإن أردت نجاحاً في كلّ آونة فاكتُمْ أمورك عن حافٍ ومنتعلِ
إن الفتى مَنْ بماضي الحزْم مُتَّصِفٌ وما تعوَّد نَقصَ القول والعَملِ
ولا يقيمُ بأرض طاب مسكنُها حتى يَقُدّ أديمَ السّهل والجبلِ
ولا يُضَيع ساعات الزَّمان فلن يعود ما فات من أيَّامه الأُوَلِ
ولا يراقب إلا مَن يراقبُه ولا يُصاحبُ إلاَّ كلَّ ذي نُبَلِ
ولا يَعُدّ عيوباً للوَرَى أبداً بل يعتني بالذي فيه من الخَللِ
ولا يظنُّ بهم سوءاً ولا حَسَناً بل التّجارِبُ تَهديه على مهلِ
ولا يصُدُّ عن التّقْوَى بصيرته لأنها للمعالي أوضحُ السُّبلِ
فمَنْ تكن حُلّةُ التقوى ملابسَهُ لم يَخش في دهره يوماً من العَطلِ
مَنْ لم تفِده صرُوف الدَّهر تجربةً فيما يحاول فلْيسكن مع الهَمَلِ
مَن سالمتْه اللّيالي فليثقْ عجلاً منها بحرب عدوٍّ جاءَ بالحِيَلِ
مَنْ ضَيَّع الحَزْمَ لم يَظفرْ بحاجتِهِ ومَن رَمى بسهام العُجب لم يَنلِ
من جاد ساد وأحيا العَالَمون له بديعَ حمدٍ بمدح الفعل متّصلِ

وقال حسام الدين الواعظي المتوفى سنة ٩٩٠هـ:

[البسيط]

مَنْ ضَيّع الحزْم في أفعاله نَدِما وظَلّ مُكتئباً والقلْبُ قد سقِمَا
ما المرءُ إلاَّ الذي طابَتْ فضائلهُ والدّينُ زَين يزين العاقل الفَهِما
والعِلمُ أنفس شيءٍ أنت ذاخرُه فلا تكن جاهلاً تورث النّدَما
تعلّم العلم واجلس في مجالسه ما خاب قطّ لبيبٌ جالس العُلَما
والوالدَين فأكرمْ تَنْجُ من ضرَرٍ ولا تكن نكداً توجب النّقَما
وَلازم الصَّمت لا تَنطِقْ بفاحشةٍ وأكرِم الجارَ لا تَهتِكْ له حُرُما

واحذرْ من المزْح كم في المزح من خطرٍ كم من صديقين بعد المزْح فاختصما
وصبّر النّفس وارشدها إذا جهِلَتْ وإن حضرْتَ طعاماً لا تكُنْ نَهِما

وقال عمر بن الوردي المتوفّى سنة ٧٤٩هـ مخاطباً ولده:

[الرمل]

اعتزل ذِكرَ الأغاني والغَزَلْ وقلِ الفصلَ وجانِبْ مَنْ هزَلْ
ودَع الذِكرَ لأيامِ الصِّبا فلأيام الصِّبا نجمٌ أفلْ
واتركِ الغادَة لا تَحفِلْ بها تُمسِ في عِزّ رفيع وتُجَلْ
وافتكِرْ في مُنتهى حُسْن الذي أنت تهواه تَجِدْ أمراً جَلَلْ
واهجُر الخمرةَ إن كنت فتىً كيف يسعى في جنونٍ مَنْ عقلْ؟
واتَّقِ الله فتقوَى الله ما جاوَرتْ قلب امرئٍ إلا وَصلْ
ليس مَنْ يَقطعُ طُرْقاً بَطلاً إنما مَنْ يَتَّقي الله البَطلْ
كُتبَ الموت على الخَلْقِ فكَمْ فَلَّ مِنْ جيشٍ وَأَفْنَى مِنْ دُولْ
أين نُمرُودُ وكنعانُ ومَنْ مَلَكَ الأرض ووَلَّى وعزلْ؟
أينَ مَنْ سادُوا وشادوا وَبنَوْا؟ هلك الكلّ ولم تُغنِ القُللْ!
أين أرباب الحجى أهل النُّهى؟ أين أهل العلم والقومُ الأوَلْ؟
سيُعيدُ الله كلاًّ منهمُ وسيَجْزي فاعلاً ما قد فعلْ
اطلُب العلم ولا تكسَلْ فما أبعدَ الخيرَ على أهل الكسلْ
واحتفِل للفِقْهِ في الدّين ولا تَشتغِلْ عنه بمالٍ وخوَلْ
واهجُر النَّوْم وحَصِّله فمَنْ يعرفِ المطلوبَ يَحْقِرْ ما بذَلْ
لا تَقُلْ قد ذهبَتْ أربابُهُ كلُّ مَنْ سار على الدّرْبِ وصلْ
في ازديادِ العلم إرغامُ العِدَا وجمالُ العلم إصلاحُ العملْ
جَمِّل المنطقَ بالنحوِ فمَنْ يُحرَمِ الإعراب بالنُّطْقِ اختَبلْ
انظِمِ الشّعر ولازم مَذهبي في اطِّرَاح الرّفدِ لا تَبغ النّحلْ

فهو عُنوانٌ على الفَضل وما ... أحسنَ الشّعرَ إذا لم يُبْتَذَلْ
أنا لا أختار تقبيل يدٍ ... قَطعُها أجملُ من تلك القُبلْ
مُلكُ كِسرى عنه تغني كسرةٌ ... وعن البحرِ اجتزاءٌ بالوَشَلْ
اطرَحِ الدنيا فمِن عاداتها ... تَخفِضُ العالي وتُعلي مَنْ سفلْ
عيشةُ الرّاغبِ في تحصيلها ... عيشةُ الجاهل فيها أو أقلْ
كم جهولٍ بات فيها مُكثراً ... وعليمٍ بات منها في عِللْ
كم شُجاعٍ لم يَنَل فيها المُنى ... وجبانٍ نال غاياتِ الأمَلْ
فاتْرُكِ الحيلةَ فيها واتّكِلْ ... إنما الحيلةُ في تَرْكِ الحِيَلْ
لا تقُلْ أصلي وفصلي أبداً ... إنما أصلُ الفتى ما قد حصلْ
قد يسودُ المرءُ من دون أبٍ ... وبحُسن السَّبكِ قد يُنفى الدَّغلْ
إنما الوردُ من الشوكِ وما ... يَنْبتُ النّرجس إلاّ من بَصَلْ
قيمةُ الإنسَان ما يُحسِنهُ ... أكثرَ الإنسانُ منه أم أقلْ
بين تَبذيرٍ وبخلٍ رُتبةٌ ... وكلا هَذينِ إن زَادَ قتلْ
لَيس يخلو المرءُ من ضِدٍّ ولو ... حاول العُزلةَ في رأس الجبلْ
دارِ جارَ السوءِ بالصبر وإن ... لم تجد صبراً فما أحلى النّقلْ
جانب السّلطان واحذَرْ بطشَهُ ... لا تُعانِدْ مَنْ إذا قال فَعَلْ
لا تلِ الأحكام إن هُم سألوا ... رَغبَةً فيك وخالِفْ مَنْ عذلْ
إن نِصفَ الناس أعداءٌ لِمَنْ ... وَلِيَ الأحكام هذا إن عدَلْ
قَصِّرِ الآمالَ في الدُّنيا تَفُزْ ... فدليلُ العقل تقصيرُ الأملْ
غِب وزُرْ غِبّاً تَزِد حُبّاً فمَنْ ... أكثرَ التَّرْداد أقصاهُ المَللْ
لا يَضُرُّ الفضلَ إقلالٌ كما ... لا يضُرُّ الشمسَ إطباقُ الطّفلْ
خُذ بنَصلِ السّيفِ واترُكْ غِمْدَهُ ... واعتَبِرْ فَضْلَ الفتى دُونَ الحُللْ
حبّك الأوطانَ عجزٌ ظاهرٌ ... فاغتَرِبْ تَلقَ عَن الأهل بدلْ

فبِمَكْثِ الماءِ يبقى آسناً وسُرى البدر به البدرُ اكتملْ

وقال العَميد أبو إسماعيل الطغرائي المتوفّى سنة ٥١٣هـ(١):

[البسيط]

أصالَةُ الرّأيِ صانَتنِي عن الخَطلِ وحِليَة الفَضلِ زَانَتني لَدى العَطلِ(٢)

مَجْدِي أخيراً ومجدِي أوّلاً شَرَعٌ والشّمسُ رَأدَالضّحى كالشّمس في الطَفَلِ(٣)

فيمَ الإقامَةُ بالزّوْراءِ لا سكني بها ولا ناقتي فيها ولا جَمَلِي

ناءٍ عن الأهل صِفرُ الكفّ مُنفرِدٌ كالسّيف عُرِّيَ مَتْناهُ عَنِ الخِلَلِ(٤)

فلا صديق إليهِ مُشْتَكَى حَزني ولا أنيس إليه مُنْتهى جَذَلِي(٥)

طالَ اغترابي حتى حَنَّ راحِلَتي وَرَحلُها وَقَرَ العَسَّالَةِ الذُّبُلِ(٦)

وَضَجّ مِنْ لَغَبٍ نِضوِي وَعَجّ لِمَا ألقى رِكابي ولَجّ الرَّكْبُ في عَذَلِي(٧)

---

(١) هو العميد أبو إسماعيل الحسين بن علي الملقب مؤيد الدين المشهور بالطغرائي المتوفى سنة ٥١٣ هجرية.

(٢) صانتني: حفظتني. والخطل: الخطأ. (المعنى) جودة عقلي حفظتني من الخطأ في قولي وفعلي. وصفة زيادتي في العلم والأدب حفظتني عند الخلو من الإمارة.

(٣) مجد: شرف. وشرع: سواء. ورأد الوقت: الذي فويقه الضحى. والطَّفل: الوقت الذي بعد العصر وقبل الغروب. (المعنى) شرفي وقت تجردي من الإمارة وشرفي وقت تسربلي بهما سواء كالشمس في كون ضوئها أو ارتفاعها لم ينقص منه شيء في هذين الوقتين المختلفين. يفتخر بدوام شرفه على اختلاف الأزمان.

(٤) الزوراء: اسم لبغداد. وناء: بعيد. وصفر: خالٍ. وعري: جرد. ومتناه: جانباه. والخلل: كسوة غِمد السيف. (المعنى) لأي شيء مكثي ببغداد مبتوت العلائق بعيداً فيها عن أقاربي فقيراً وحيداً رث المنظر كالسيف تجرد جانبا غمده من البطائن التي يتحليان بها.

(٥) الجزل السرور. (المعنى) اعتزلني الناس ببغداد فلم يأو إلي بها حبيب أبث إليه كدري من جور الزمان فيفرجه عني ويساعدني على صرفه، ولا سمير أوصل إليه فرحي فيزيد سروري ويدفع وحشتي.

(٦) حن: مال. والراحلة: ما يرحل عليه من الإبل مذكراً كان أو مؤنثاً. والرحل: العدة التي يركب عليها.

والعسالة: الاهتزاز. والذبل الجافة. (المعنى) امتد بعدي عن وطني بموالاتي السفر إلى أن مالت ناقتي للرجوع إلى وطنها وحن القتب لشدة تأثره بالرياح.

(٧) ضجَّ: صوَّت. واللغب: التعب. نضوى: أي: منضو بمعنى مهزول. وعجَّ: صوَّت. ولجَّ: تمادى. والعذل: اللوم. (المعنى) امتد بُعدي حتى صوَّت من أجل تعبه ركوبتي، وصوت

أُرِيدُ بَسْطَةَ كَفٍّ أستعين بها ... على قضاءِ حُقُوق للعُلى قِبلي
والدَّهرُ يَعكِسُ آمالي ويُقْنِعُني ... مِنَ الغَنيمَةِ بعد الكَدّ بالقَفَلِ[١]
وذِي شَطاط كصدْرِ الرُّمح مُعْتقِل ... بمثلِهِ غيرِ هيّاب ولا وَكِلِ[٢]
حُلْوِ الفكاهَةِ مُرّ الجِدّ قد مُزِجَتْ ... بشِدّة البأس منه رِقَّةُ الغَزلِ[٣]
طَرِدْتُ سَرْح الكَرى عن وِرْدِ مُقلَتِهِ ... والليلُ أغْرى سوَام النوم بالمُقل[٤]
والرّكبُ ميلٌ على الأكوار من طربٍ ... صاحٍ وآخرُ من خمر الكرى ثَمَلِ[٥]
فقلتُ أدعوك للجُلّى لِتَنْصُرني ... وأنت تخذلني في الحادث الجَلَلِ[٦]
تنامُ عنّي وعينُ النّجمِ ساهرَةٌ ... وتَستحيلُ وصِبْغُ اللّيل لَم يَحُلِ[٧]

= لمثل ما أصادف من تعب السفر، بل أصحابي الذين معي فيه وتمادوا في لومي على هذا السفر الذي امتد ولم ينته إلا طلب بامتداد بُعدي عن وطني ثروة لم تساعد بسببها على أداء عادة ثابتة ثبوت مروءة جهتي.

(١) يعكس: يرد. ويقنعني: يرضيني. والكد التعب. والقفل: الرجوع (المعنى) والزمن يرد على ما أرجوه ويجعلني بعد التعب في السفر والتغرب راضياً بالرجوع بدل الغنيمة التي هي مطمح نظري في تكبُّد المصاعب.

(٢) شطاط: اعتدال القامة. ومعتقل: قابض. وهياب: خواف. ووكل: عاجز. (المعنى) ورُبَّ صاحب اعتدال قامة كاعتدال صدر الرمح. معتقل برمح مثله لا يخاف المخاوف ولا يعجز عن شيء من شؤونه. التفت إلى وصف صاحب له بهذه الأوصاف وغيرها، وهو اقتضاب على عادة البلغاء من الالتفات من فن إلى آخر تنشيطاً للسامع.

(٣) مزجت: خلطت. والبأس: الشجاعة. ورقة الغزل: لطف الكلام. (المعنى) يصف صاحبه أيضاً بأنه قد ركب فيه لطف المزح بقوة الشجاعة (يضع كلاً منهما في موضعه).

(٤) طردت: أبعدت. وسرح الكرى: وثباته. والكرى: النوم. والورد: الوصول. والمقلة شحمة العين الجامعة للسواد والبياض وأغرى: أولع. وسوام: وثبات.

(٥) ميل: مُنْحَنٍ. وطرب: نشط. وثمل: سكران. (المعنى) وأصحابي منحنون على رحالهم. فريق منهم نشط يقظ لم يتغلب عليه النوم، وفريق آخر خمل متثاقل من تغلبه عليه.

(٦) الجُلَّى: الأمر العظيم. وتخذلني: تتركني. والحادث الجلل: العظيم. (المعنى) فقلت له موبخاً أأطلبك للأمر العظيم لتساعدني عليه وأنت تترك نصرتي في الأمر الحقير مع أن النفوس الكريمة مجبولة على تحقيق ما يرجى فيها.

(٧) تستحيل: تتحول. وصِبْغ: ظلام. ويحل: ينتقل.

فهل تُعِينُ على غَيٍّ هممْتُ به ... والغَيُّ يَزْجُرُ أحياناً عن الفَشَلِ[١]
إني أريدُ طُروقَ الحيّ من إضم ... وقد حماه رُماةٌ من بَني ثُعَلِ[٢]
يحمُون بالبيض والسُّمْر اللِّدان به ... سُودَ الغَدائرِ حُمْرَ الحِلْي والحُلَلِ[٣]
فسِرْ بنا في ذمام اللّيل مُعْتَسِفاً ... فنَفْحة الطيب تهدينا إلَى الحِلَلِ[٤]
فالحِبُّ حيثُ العِدَا والأُسْدُ رابِضةٌ ... حَوْلَ الكِنَاس لها غابٌ مِن الأَسَلِ[٥]
نَؤُمُّ ناشِئةً بالجِزْعِ قد سُقِيَتْ ... نِصالُها بمياه الغُنْجِ والكَحَلِ[٦]
قد زَادَ طيبُ أحاديث الكرام بها ... ما بالكرائم من جُبنٍ ومن بَخَلِ
تبيتُ نارُ الهوَى منهُنّ في كَبِدٍ ... حرَّى ونارُ القرَى منهم على القُلَلِ[٧]
يَقتلن أنضاءَ حُبٍّ لا حَرَاك بهم ... وينحَرُون كِرامَ الخيل والإبِلِ[٨]

---

(١) غي: ضلال. ويزجر: يمنع. (المعنى) قد غفرت ما حصل من تقصيرك في شأني بنومك، فهل تساعدني على ضلال أردته ولا تخشى عقباه بالذم على فعله.

(٢) الطروق: المجيء ليلاً. والحي: القبيلة. وإضم: اسم جبل. وحماه: منعه. ورماة كسعاة: خفراء. وثعل قبيلة من طيء (المعنى) إني أرغب النزول بالقبيلة المعهودة ليلاً من طريق هذا الجبل وقد منعها ممن يسطو عليها رجال يجيدون رمي النبال من أبناء قبيلة سعد.

(٣) البيض: السيوف. والسمر: الرماح. واللدان: اللينة. والغدائر: الضفائر من الشعر. والحلى: ما تتحلى به المرأة. والحلل: الثياب المزركشة. (المعنى) يمنع هؤلاء الرماة في الحي بالسيوف والرماح اللينة نساء سود الضفائر متحليات بالذهب الأحمر وملابس الحرير الحمراء.

(٤) زمام: كفالة. ومعتسفاً: متكلفاً طريقاً غير مألوف. والحلل: بيوت القوم التي يحلونها (المعنى) اذهب بنا في ضمانة الليل غير سالك طريقاً مألوفاً خشية من قطاع الطريق، ولا تخش الضلال في الوصول إلى الحي، فإن رائحة طيبة تدلنا عليه.

(٥) الحب: المحبوب. ورابضة: واقفة. والكناس: بيت الظبي. والغاب: شجر يسمى بالأسل ملتف على بعضه البعض ويكون مأوى الأسود. (المعنى) المحبوب في مكانه به الرقباء ورجال الحي مقيمة حول مكانه مستعدة برماح تصول بها على مَنْ يقرب منه.

(٦) نؤم: نقصد. والجزع: منعطف الوادي. والنصال: السيوف. والغنج. حسن شكل العيون. والكحل: سواد يعلو جفون العين خلقة. (المعنى) نقصد بسيرنا قبيلة تربض في منعطف لوادي قد أعطيت عيونها حسن الشكل والكحل.

(٧) القرى: الكرم. والقلل: جمع قلة أعلى الجبل.

(٨) إن نساء هذه القبيلة يقتلن ببراعة جمالهن عشاقهن حتى أعدم حركتهم عشقهم لهن، ورجالها بفرط كرمهم يذبحون جياد الأفراس والجمال لضيوفهن.

يُشْفَى لدِيغُ العَوالِي في بيُوتهمُ بنَهْلة من غَدير الخمر والعَسَلِ(١)
لعلّ إلمامةً بالجزْعِ ثانيةً يدِبُّ منها نَسيمُ البُرْءِ في عِلَلي(٢)
لا أكرهُ الطَعْنةَ النّجلاءَ قد شفِعَت برَشْقة من نِبال الأَعْيُن النُّجُلِ(٣)
ولا أهابُ الصفاحَ البيضَ تُعِدني باللمح من خلل الأستار والكِلَلِ(٤)
ولا أخلّ بغزلان تغازلني ولو دَهَتْني أُسود الغَيْل بالغِيَلِ(٥)
حُبُّ السلامَةِ يَثْنِي عَزْمَ صَاحِبِهِ عن المعالي ويغري المرءَ بالكَسَلِ(٦)
فإن جَنَحتَ إليه فاتخذْ نَفَقاً في الأرض أو سُلماً في الجَوّ فاعتزلِ(٧)
ودعْ غِمار العُلَى للمُقْدِمين على ركوبها واقتنعْ منهنَّ بالبلَلِ(٨)
يرْضى الذليلُ بخَفْضِ العيشِ مسكنةً والعِزُّ عند رسيم الأيْنقِ الذُّلُلِ(٩)
فاذْرأ بها في نحور البِيدِ جافِلةً معارضات مَثاني اللُّجم بالجُدلِ(١٠)

(١) أي يبرأ مَنْ قُتل في حبهن بأول شربة من ريق ثغرهن.
(٢) إلمامة: نزولاً. ويدب: يسري.
(٣) أكره: أبغض. والطعنة النجلاء: الجرح المتسع برمح. وشفعت: قرنت. ورشقة: رمية. ونبال: السهام، المراد بها هنا اللحاظ. والنجل: الواسعات. (المعنى) لا أبغض الوخزة الواحدة من رماح رجال هذه القبيلة مقرونة برمية من لحاظ الأعين الواسعات لنسائها.
(٤) الصفاح: السيوف، وخلل: الثقب الخفيف النافذ في الشيء. والكلل: ستر يخاط به شبه الناموسية. (المعنى) ولا أخاف ضرب السيوف من رجال هذه القبيلة مسعدة لي بخفيف نظري لها من ثقوب أستار بيوتهن وحجراتهن.
(٥) أي: لا أترك النظر من خلل الأستار إلى نساء هذه القبيلة التي تحادثني ولو أصابتني شجعانها بالهلاك فجأة.
(٦) أي: الرغبة في النجاة من المشاق تصرف عزم ملازمها عن مكاسب الشرف وتولعه بالتثاقل والفتور عنها.
(٧) النفق كجبل: سرب في الأرض له منفذ من مكان آخر. (المعنى) فإن ملت إلى حب السلامة فاجعل لك سرباً في الأرض تسكنه أو سلماً ترقى عليه في الجو فتسكن.
(٨) غمار: كثير. والبلل: القليل.
(٩) رسيم: سرعة. والأينق الذلل أي: الإبل المروضة التي ليست بجموحة.
(١٠) ادفع بهذه الأينق في أوائل الصحارى. مسرعة: مقابلات بأزمتها أعنة الخيل التي تصحبها في السير أي: غير متأخرة عنها فيه.

إن العلى حَدَّثتني وهي صادقةٌ ... فيما تحدّث أن العزَّ في النُّقَلِ[1]
لو أن في شرف المأوى بلوغَ منىً ... لم تَبرح الشمس يوماً دارة الحَمَلِ
أهبْتُ بالحظِّ لو ناديت مستَمِعاً ... والحَظ عَنّي بالجُهَّال في شُغُلِ
لعلّه إن بدا فَضلي وَنَقْصُهم ... لِعينهِ نام عنهم أو تنَبَّه لي
أعلِّلُ النفس بالآمال أرْقبُها ... ما أضيَقَ العيشَ لولا فسحةُ الأملِ
لم أرْتَضِ العيشَ والأيامُ مقْبِلَةٌ ... فكيف أرضَى وقد ولَّتْ علَى عَجَلِ
غالى بنفسيَ عِرْفاني بقيمتها ... فصُنْتها عن رخيص القَدْر مبتذَلِ
وعادة السَّيف أن يُزْهى بجوهَرِهِ ... وليس يَعْمل إلا في يَدَيْ بَطَلِ
ما كنت أوثر أن يمتدّ بي زَمني ... حتى أرى دولة الأوغاد والسّفلِ
تقَدَّمتْني أناسٌ كان شَوْطهم ... وراءَ خَطْوِي لو أمشي على مهلِ
هذا جزاءُ امرئ أقرانُه درجُوا ... من قَبله فتَمنّى فسْحَةَ الأجَلِ
فإن علاني من دوني فلا عَجَبٌ ... لي أسوةٌ بانحطاط الشمس عن زُحلِ
فاصبِرْ لها غير مُحتال ولا ضَجِرٍ ... في حادث الدَّهر ما يُغْني عن الحِيَلِ
أعْدى عدوّك أدنى مَنْ وثِقْتَ به ... فحاذِرِ النَّاسَ واصْحَبْهمْ على دَخلِ
فإنّما رَجل الدُّنيا وواحِدُها ... مَنْ لا يعوِّل في الدُّنْيا على رجلِ
وحُسن ظنّك بالأيام مُعْجِزَةٌ ... فَظنَّ شرّاً وكن منها على وَجَلِ
غاض الوفاءُ وفاض الغَدْر وانفرجت ... مسافة الخُلْفِ بين القوْل والعملِ
وشانَ صدقَك عند الناسِ كذبُهم ... وهلْ يُطابِق مُعْوَجٌّ بمعتدِلِ
إن كان ينجع شيءٌ في ثَباتهم ... على العهود فَسبْقُ السَّيفِ للعَذلِ
يا وارداً سُؤر عيش كلُّه كدرٌ ... أنفقْتَ صَفوك في أيامك الأولِ
فِيم اقتِحامُك لجَّ البحر ترْكبُهُ ... وأنت تكفيك منهُ مَصَّةُ الوشلِ
مُلك القناعة لا يخشى عليه ولا ... يحتاج فيه إلى الأنصارِ والخَولِ

(١) النقل: التحول والانتقال.

ترْجو البقاءَ بدار لا ثبات بها فهل سَمعت بظلّ غير منتقلِ؟
ويا خَبيراً على الأسرارِ مطَّلِعاً اصْمتْ ففي الصَّمت مَنجاةٌ من الزللِ
قدْ رشَّحوك لأمر إن فطِنْت له فارْبأ بنفسِك أن ترعى مع الهملِ

وقال المرحوم عبد الله باشا فكري يخاطب نجله أمين باشا:

[الطويل]

إذا نام غِرٌّ في دُجى الخطب فاسهرِ وقُمْ للمعالي والعوالي وشَمِّرِ
وَخلّ أحاديث الأماني فإنها علالة نفس العاجز المتحيِّرِ
وسارعْ إلى ما رمت ما دمت قادراً عليه فإن لم تُبصِرِ النَّجحَ فاصْبِرِ
ولا تأتِ أمراً لا تُرجّي تمامَه ولا مَوْرِداً ما لم تَجِدْ حُسنَ مَصْدرِ
وأكثِرْ من الشورَى فإنك إن تُصِب تَجدْ مادحاً أو تخطئ الرّأي تُعذَرِ
ولا تَسْتَشِرْ في الأمر غيرَ مُجَرِّبٍ لأمثاله أو حازمٍ مُتَبَصّرِ
ولا تَبْغ رأياً من خَؤُونٍ مُخَادِعٍ ولا جاهِلٍ غِرّ قليل التَّدبُّرِ
فمن يَتَّبعْ في الخَطْب خِدْعَةَ خائنٍ يَعضّ بَنانَ النّادم المتَحَسِّرِ
وَمَن يتّبعْ في أمرِهِ رأيَ جاهلٍ يقُدْه إلى أمر من الغيّ مُنكرِ
ولا تُصْغِ في وِدّ الصديق لكاذب نَمُوم وإن يَعرضْ لك الشّك فاخبرِ
ولا تَغترِرْ تَندمْ ولا تَكُ طامعاً تُذلّ ولا تَحقِرْ سِوَاك تُحْقَرِ
وعوّد مقالَ الصّدق نفسَك وارضه تصدق ولا تركن إلى قول مفتري
ودَعْ عنك إسراف العَطاء ولا يكن لكفّيك في الإنفاق إمساكَ مُقترِ
ولا تَقفُ زلاّت الرّجال تَعدّها فلستَ على هذا الوَرَى بمُسَيطرِ
ولا تتعرَّض لاعتراض عليهمُ دَع الخلْقَ للخلاَّق تسْلمْ وتُؤجرِ

وقال عبد القيس بن خفّاف البرجمي المتوفّى سنة ٥١هـ:

[الكامل]

أبُنَيّ إن أباك كاربُ يومه فإذا دُعيتَ إلى المكارم فاعجَلِ

أُوصيك إيصاء امرئٍ لك ناصحٍ طبٌّ برَيب الدَّهر غير مغفّلِ
الله فاتَّقِهِ وأوف بنَذْره وإذا حلَفتَ مُمارياً فتحَلَّلِ
والضّيفَ أكرِمْهُ فإن مَبيتَه حقٌّ ولا تَكُ لعنةً للنُّزّلِ
واعلم بأن الضّيف مُخبرُ أهله بمبيت ليلته وإن لم يُسألِ
وصِل المُواصلَ ما صفَا لك وُدّه واجذُذْ حبالَ الخائن المُتَبدّلِ
واحذَر محلّ السُّوء لا تحلُل به وإذا نبا بك منزل فتحوَّلِ
واستَأن تَظفر في أمورك كلّها وإذا عزمتَ على الهدَى فتوكَّلِ
واستغْن ما أغناكَ ربكَ بالغنَى وإذا تصِبك خصاصة فَتَحَمّلِ
وإذا افتقرتَ فلا تكن مُتخشّعاً ترجُو الفواضل عند غير المُفضِلِ
وإذا تشاجرَ في فؤادك مرّة أمران فاعمد للأعَفّ الأجملِ
وإذا هممت بأمر سُوءٍ فاتّئد وإذا هَممتَ بأمر خيرٍ فاعجَلِ

وقال فقيد اللغة الشيخ ناصيف اليازجي اللبناني المتوفى سنة ١٢٨٧هـ:

[البسيط]

دَع يومَ أمس وخُذ في شأن يوم غَدِ واعددْ لنفسك فيه أفضل العُدَدِ
واقنعْ بما قَسم الله الكريم ولا تبْسُط يديك لنيل الرّزق من أحدِ
والْبسْ لكلّ زمانٍ بُرْدَةً حضرَت حتى تُحاك لك الأُخرَى من البُردِ
ودُرْ مع الدَّهر وانظرْ في عواقبه حَذار أن تُبتَلى عَيناك بالرَّمدِ
متى تر الكلْبَ في أيام دولته فاجعَلْ لرِجْليْك أطواقاً من الزّردِ
واعلَمْ بأن عليك العارَ تَلبسهُ من عَضّة الكلْب لا من عَضّة الأسدِ
لا تأمَلِ الخيرَ من ذي نعمةٍ حَدَثَتْ فهو الحريصُ على أثوابه الجُدَدِ

وقال مؤلف هذا الكتاب معارضاً لامية الطغرائي:

[البسيط]

عليك بالصَّبر والإخلاص في العَمل ولازم الخيرَ في حلّ ومُرْتحلِ

وجانبِ الشّرَّ واعلمْ أن صاحبَهُ ... لا بدّ يجزاه في سَهل وفي جبَلِ
واثبُتْ ثبات الرّواسي الشّامخات ولا ... تركنْ إلى فشل في ساعة الوَهلِ
وكن كرَضْوَى لما يَعروك من نُوب ... ولا تكن جازعاً في الحادث الجَلَلِ
واصبِرْ على مِضضِ الأيام مُحْتملاً ... ففيه قرعٌ لباب النّجح والأملِ
تأنَّ مُتئِداً فيما تروم ولا ... تعجل وإن خُلِق الإنسان من عَجَلِ
لا تطلب العِزَّ في دار وُلِدت بها ... فالعزُّ عند رسيم الأينق الذلَلِ
شمّرْ وجِدَّ لأمر أنتَ طالبُهُ ... إذ لا تنال المعالي قطُّ بالكَسلِ
واحذَرْ مساوئ أخلاقٍ تشانُ بها ... وأسوءُ السُوءِ سُوءُ الخُلْق والبخلِ
واخفِضْ جناحَكَ للمولى وجُدَّ ونَلْ ... ما أسمَحَ الكِبرَ والإمساكَ بالرّجُلِ
لا تسأل النذلَ واقصدْ ماجداً حدباً ... في طلعة الشمس ما يُغنيك عن زُحَلِ
نوّر بلقياك مَنْ تَلْقى نواظِره ... ولا تكُن كالقذى في الأعيُن النُّجلِ
ولا تجادِل جَهُولاً ليس يفْهمُ ما ... تقولُ فالشرّ كل الشَّرّ في الجَدَلِ
ولا تكن لنزُول الخطب مُضْطرباً ... في حادث الدَّهر ما يُغني عن الحِيَلِ
الجودُ أحسنُ ما أُوليتَ من خُلُقٍ ... والعفوُ أنفى لداءِ الضِّغن والدَّخَلِ
والحِلمُ ملحُ فسادِ الأمر يُصلِحهُ ... والبذلُ خيرُ فِعالِ الماجدِ البَطَلِ
لا تقْتحِم غمراتِ البحر مُرتكباً ... وأنت يكفيك منه مَصّة الوَشَلِ
ولا تعاشر سوى حَزم أخا ثِقة ... واربأ بنفسك أن ترعى مع الهَمَلِ
لا تنخدِع لصديق يدّعي ملقاً ... فَحاذِرِ الناس واصحَبْهم على دَخَلِ
لا تأمنن أحداً واحذر مكائدهم ... وظنّ سرّاً وكن منهُم على وَجَلِ
لا تغرَّنَّك الدُّنيا بزهرتها ... فهل سَمِعت بظلّ غير منتقِلِ
إن الغنيّ غنيُّ النفس في كرم ... بالطبع لا باقتناء الشاء والإبِلِ
إنَّ الصنيعَةَ للأنذال تُفسدُهم ... كما تَضرّ رياح الوَرد بالجعلِ
مَرارة النصح تحلُو لي مَضَاضَتها ... ورُبّما صحَّت الأجسام بالعِلَلِ

دعِ التّكلّف لا يُجديك مَنفعةً ... ليس التّكَحّلُ في العَينين كالكحلِ
أرَى الرّعاءَ رعاءَ الشّاء في تَرَفٍ ... في أخفَضِ العَيش بين الخيل والخوَلِ
وسادةُ العَصر قد ألقَوْا مقالِدَهم ... إلى الطُّغاة شرَارِ الناس والسّفلِ
تحكّموا في قضايا الناس واحتكمُوا ... وحكّموا كلّ ذي جَهل أخي خبلِ
من كلّ غرٍّ جَهولٍ لا يرى رشداً ... كباقلٍ مثلاً في العيّ والخَطَلِ
تعْساً لشرّ زمان ظلّ طَوْعَ يد اللّـ ... ـئام يَسقيهمُ عَلاًّ على نَهلِ
القبضُ والبسطُ في أيدي ذَوي شَطَط ... من كلّ سكرانَ من خمر الهوى ثَملِ
تسطو الكلابُ على أسْد الشّرى سَفهاً ... والباز الأشهب يخشى صَولة الحجلِ
والقِرْد يضحَك من نمر على هزؤ ... والكَلبُ يُوعد لَيثَ الغَيل بالغيلِ
نالَ المرامَ علوجٌ لا خلاقَ لهم ... فوق المُؤَمّل من شبٍّ ومُكتهلِ
أملى لهم دهرُهُم فاستمهلُوا أمداً ... مرخّىً لهم في مُرُوج العيش والطولِ
شرُّ العُصُور زمانٌ يُستَمَدُّ به ... خِبٌّ لئيمٌ غَدَا في الشّرّ كالثّملِ
لا يعلَم الرُّشد من غَيّ وليس له ... سوَى الشرارة في قولٍ وفي عَمَلِ
يشكو الطَّوى كل ذي فَضل وذي أربٍ ... وسوقةُ الناس في خفض وفي جدلِ
اشددْ بها أزمة، الله يفرجُها ... ما أضيقَ العيشَ لولا فُسحَةُ الأملِ
مالي وللبلدة الحمقَاء أسكنُها ... مساكناً لذَوِي خَرْقٍ أولي حِيلِ
وليس لي ناقةٌ فيها ولا جَملٌ ... وليس لي ثمّ منْ ثَور ولا حَمَلِ
لا يستقيمُ وفاقٌ لي بمثلهم ... وهلْ يُطابق مِعوجّ بمُعتدلِ؟
قد ذُقتهم وبلوت الحال عندَهُمُ ... فما حَصلتُ على صابٍ ولا عسلِ
لا يفعلون إذا قالوا فقد بَعُدت ... مسافة الخُلف بين القول والعَملِ
أضْحت مواعيدُ عُرْقوب لهم مثلاً ... وما موَاعيدُهم إلاّ على دَخلِ
أشكو الزّمان وأهليه وأمقتهم ... إذ سُوءُ أفعالهم أوفى على القللِ
ساءتْ سريرتهم حالت طَريقتهم ... زاغت بَصيرتهم عن أقوَم السُّبُلِ

عِلْمٌ بلا عَمل حُكم بلا حَكم ظُلمٌ على عجل وعدٌ على مَهَلِ
الإفكُ والزُّورُ والبُهتانُ عندهمُ والسَّعيُ في الأرض بالإفساد والخَللِ
الكذبُ مستحسنٌ والصّدْق عندهمُ مُستَهجنٌ من صِفاتِ العاجز الوكِلِ
أهنا الطّعامِ لحومُ الناس عندهمُ والنّمّ فيما لديهم شَربة العَسَلِ
نَكْثُ العُهُود سَجاياهُم ودأبهم خلف الوُعُود وذا من أسوأ الثقلِ
يا دهرُ ما لَك والأحرار تقهرُهُم تذلّ كلّ كريم الأصل مُقتبلِ
حتى متى يا زمانَ السُّوءِ تفعل ما تشيب فيه النّواصي غير مُحتملِ
تؤَخّر الفاعلَ المرفوعَ تحفظه مقدّماً لمفاعيلٍ على البدَلِ
وساقة الجيش قد أضحت مقدّمة مثل التّليل غدا في مُؤخر الكفلِ
فلستُ أحفظُ في ذي الدهر من أسف أطال أيّام عُمري أو دنا أجلي
واهاً لقلبيَ يومَ البَيْن إذا ظعنوا فالعينُ في لُجَج والقلْب في شُعلِ
كيف التَّصبُّر من ناريْ نوىً وجوىً وفي الحشا أنكاءُ جُرح غير مُندملِ
فقد فقدتُ الألى كانتْ ببهجتهم نورُ النَّواظر في الأحداق والمُقلِ
لم أكتَحلْ بقرار بعدما ارتحلوا ولا ابتغيتُ لهم في الناس من بَدلِ
لم يُبقِ لي الدّهر بعد البَين من جَلَد ما أستطيعُ به تَوديع مُرتحلِ
ولا من الغمض ما أقري الخيال به ولا من الدّمع ما أبكي على طلَلِ
قَلْبي على لَهب والجسمُ في نَصَب والرُّوحُ في وَصَب واللُّبّ في ذهلِ
حسبي الغَرامُ حليفٌ والجوَى أبداً مُنادماً وسميرٌ غيرُ مُنفصلِ
خُذها محبّرة غيداء غانية أتتْ على عجل كالقابس العجلِ
جاءَت من (الهاشمي) لا تَبتغي مهراً من خاطب لبنات النّظم في عطلِ

وقال محمد اليمني الملقب بنجم الدين المتوفّى سنة ٥٦٩هـ:

[الطويل]

ولا تَحتقر كيدَ الضّعيفِ فرُبّما تموتُ الأفاعي من سُمُومِ العقاربِ

وقد هَدّ قِدْماً عَرْشَ بلقِيسَ هُدْهُدٌ ... وخرّب حفْرُ الفَأرِ سدَّ مآربِ
إذا كانَ رَأسَ المالِ عُمرُكَ فاحترزْ ... عليهِ من الإنفاق في غيرِ واجبِ
فَبين اختلافِ اللّيلِ والصُّبح مَعرَكٌ ... يَكُرُّ علينا جَيشُه بالعَجائبِ
وما راعَني غَدْرُ الشّبابِ لأنني ... أنِسْتُ بهذا الخلْقِ من كُلّ صاحبِ
وغدرُ الفَتى في عَهدِهِ ووفائه ... وغدْرُ المَواضي في نُبُوّ المضارِبِ

وقال الحريري المتوفّى سنة ٥١٦هـ:

[مجزوء الكامل]

سامِحْ أخاكَ إذا خَلَطْ ... منهُ الإصابَةَ بالغلَطْ
وتجافَ عن تعنِيفِهِ ... إنْ زاغَ يوْماً أو سقَطْ
واحفظ صَنِيعَك عندَهُ ... ثكَرَ الصَّنيعة أو غَمَطْ
وأطِعْهُ إنْ عاصَى وهُنْ ... إنْ عزَّ وادنُ إذا شَحَطْ
واقنَ الوَفاءَ ولوْ أخلّ بما اشترطْتَ وما اشترَطْ
واعلَمْ بأنكَ إن طلبـ ... ـت مُهَذَّباً رُمْتَ الشّطَطْ
مَنْ ذا الذي ما ساءَ قَطُّ ... وَمَنْ له الحُسنى فقَطْ؟

وقال أيضاً:

[الكامل]

اسْمعْ أُخَيَّ وصيَّةً من ناصحٍ ... ما شَاب مَحْضَ النُّصْحِ منه بغشّهِ
لا تعجلنْ بقَضيّةٍ مبْتوتةٍ ... في مَدْح مَنْ لم تبْلهُ أو خَدْشهِ
وقِفِ القَضِيَّة فيه حتى تجْتلي ... وصفَيْه في حالي رضاهُ وبطْشِهِ
فهناكَ إن تَرَ ما يَشِينُ فوارِه ... كرماً وَإنْ ترَ ما يزينُ فأفشِهِ
واعلم بأنّ التّبرَ في عِرْقِ الثَّرى ... خافٍ إلى أن يُنْتثار بنَبْشِهِ
وفضيلَةُ الدِّينارِ يظْهرُ سرُّها ... من حَكّهِ لا مِنْ مَلاحةِ نَقْشهِ
ومن الغَباوةِ أن تُعَظِّمَ جاهلاً ... لصِقالِ مَلْبسه وَرَوْنقِ رَقْشهِ
أو أن تُهينَ مُهذّباً في نَفْسه ... لِدُرُوس بزّتِهِ وَرِثّةِ فَرْشهِ

الباب التاسع: في العلم

قال مؤيد الدين الأصبهاني المعروف بالطغرائي المتوفى سنة ٥١٣هـ:

[الكامل]

من قاسَ بالعلم الثّراء فإنه ... في حكمه أعمى البصيرةِ كاذبُ
العلم تخْدُمُه بنفسك دائماً ... والمال يخْدُمُ عنك فيه نائبُ
والمال يُسْلَبُ أو يَبِيدُ لحادِثٍ ... والعلم لا يَخْشى عليه سالبُ
والعلم نقشٌ في فؤادك راسخٌ ... والمال ظِلٌّ عن فنائك ذاهبُ
هذا على الإنفاق يَغْزُو فَيْضُهُ ... أبداً وذلك حين تُنفِقُ ناضِبُ

[البسيط]

العلمُ أشرَفُ شيءٍ قاله رجلٌ ... مَنْ لم يكن فيه علم لم يكن رَجُلا
تعلَّمِ العلم واعمَلْ يا أُخيَّ به ... فالعلمُ زَيْنٌ لمن بالعلم قد عَمِلا

[البسيط]

العلم مُبلغ قوْم ذِرْوَةَ الشّرف ... وصاحبُ العلم محفوظٌ من التّلفِ
يا صاحبَ العلم مهلاً لا تُدَنِّسه ... بالمُوبِقات فما للعلم من خَلَفِ
العلم يَرفع بَيتاً لا عِمادَ له ... والجهلُ يَهْدِمُ بيتَ العزّ والشرفِ

[الكامل]

لو كان نور العلم يُدْرك بالمُنى ... ما كان يَبقى في البرِيّة جاهلُ
اجهدْ ولا تكسل ولا تك غافلاً ... فندامة العُقْبَى لمن يتكاسلُ

[الطويل]

وفي الجهل قبل الموت موتٌ لأهله ... وأجْسادهم دُون القبور قُبورُ
وإن امرأً لم يُحيِ بالعلم قلبه ... فليس له حتى النُّشور نشورُ

[الطويل]

لكلّ مُنجِدٌ في الورَى نفعُ فاضل ... وليس يُفيدُ العلم من دون عاملِ
يُسابق بعض النّاس بعضاً بجدّهم ... وما كلّ كرٍّ بالهوى كرّ باسلِ

إذا لم يكن نفعٌ لِذي العلم والحِجا فما هو بين النّاس إلاّ كجاهلِ
كذاك إذا لم ينفع المرءُ غيره يُعدّ كشوْك بين زهر الخمائلِ

[البسيط]

يا ساعياً وطلاب المال همّتُهُ إني أراك ضعيف العقل والدّينِ
عليك بالعلم لا تطلب له بدَلاً واعلم بأنك فيه غيرُ مَغْبونِ
العلم يجدي ويَبقى للفَتَى أبداً والمال يَفنى وإن أجدى إلى حينِ
هذاك عِزٌّ وذا ذُلٌّ لصاحبه ما زال بالبُعد بين العزّ والهونِ

[البسيط]

العلم زَيْنٌ وتشريفٌ لصاحبه فاطلُب هُديت فنون العلم والأدبا
كم سيّدٍ بطلٍ آباؤه نُجُبُ كانوا الرُّؤوس فأمسى بعدهم ذَنبا
ومقرفٍ خامل الآباء ذي أدبٍ نال المعاليَ بالآداب والرُّتبا
العلم كنزٌ وذخرٌ لا فناءَ له نِعمَ القرينُ إذا ما صاحبٌ صحبا
قد يجمع المال شخص ثم يحرمه عمّا قليل فيلقى الذُّلّ والحربا
وجامع العلم مغبوطٌ به أبداً ولا يحاذر منه الفَوْت والسّلبا
ياجامع العلم نعم الذخر تجمعه لا تعدلنّ به درأً ولا ذَهبا

[البسيط]

بالعلم والعقل لا بالمال والذّهبِ يزداد رَفْعُ الفتى قَدْراً بلا طلبِ
فالعلم طوْقُ النُّهى يَزْهو به شرفاً والجهَل قيدٌ له يَبْليه باللَّعِبِ
كم يَرْفعُ العلم أشخاصاً إلى رُتَبٍ ويخفضُ الجَهلُ أشرافاً بلا أدبِ
العلمُ كنزٌ فلا تَفْنى ذخائره والمرءُ ما زاد علماً زاد بالرُّتبِ
فالعلمَ فاطلبْ لكي يجديك جَوهرُهُ كالقوت للجسم لا تطلبْ غنى الذّهب

[البسيط]

العلم زينٌ فكن للعلم مكتسِباً وكن له طالباً ما عِشْت مُقتَبِسا
اركن إليه وثِقْ بالله واغنَ به وكن حَليماً رَزِين العقل مُحْترِسا

وكن فتىً سَالكاً مَحْضَ التّقى وَرِعاً ... للدّين مُغتنِماً في العلم مُنغمِسا
فمَنْ تخلّق بالآداب ظلّ بها ... رئيس قوم إذا ما فارق الرُّؤسا

[البسيط]

الناس من جهة التّمثال أكفاءُ ... أبوهُمُ آدمُ والأُمُّ حوّاء
فإن يكن لهم في أصلهم شرفٌ ... يُفاخرون به فالطّين والماءُ
ما الفخرُ إلا لأهل العلم إنّهمو ... على الهدَى لمن استَهدى أدِلاء
وقدرُ كلّ امرئ ما كان يُحسِنهُ ... والجاهلون لأهل العلمِ أعدَاء
وإن أتيتَ بجُودٍ في ذَوي نَسَبٍ ... فإنّ نسبَتَنا جُودٌ وعَلياءُ
ففُزْ بعلمٍ تَعِش حيّاً به أبداً ... الناسُ موتى وأهلُ العلم أحياءُ

[الكامل]

العلمُ يغرسُ كلَّ فضلٍ فاجتَهِدْ ... ألاّ يفوتَك فضلُ ذاك المِغْرسِ
واعلَمْ بأن العلمَ ليس ينالُهُ ... مَنْ همُّه في مَطعم أو مَلْبسِ
إلا أخو العلم الذي يزهُو به ... في حالَتيه عارياً أو مُكتسي
فاجعل لنفسك منه حَظّاً وافراً ... واهجُر له طيبَ الرُّقاد وعبِّسِ
فلعلّ يوماً إن حضرت بمجلسٍ ... كنتَ الرَّئيسَ وفخر ذاك المجلسِ

وقال المرحوم أحمد شوقي بك في العلم والمعلم والتعليم:

[الكامل]

قُم لِلمُعَلم وَفِّهِ التَّبجيلا ... كاد المعلم أن يكون رسولا
أعلِمْتَ أشرَف أو أجلَّ من الذي ... يبني ويُنشئ أنفساً وعقولا؟
سُبْحانك اللّهُمَّ، خيرَ مُعَلم ... علمت بالقلم القُرون الأولى
أخرجت هذا العقل من ظُلماته ... وهديته النورَ المُبينَ سبيلا
وطبعته بيدِ المعلم، تارة ... صدأ الحديدِ، وتارة مصقولا
أرسلت بالتوراة موسى مُرْشداً ... وابن البتول فعلَّم الإنجيلا
وفجرتَ ينبوع البيانِ محمَّداً ... فسقى الحديث وناول التنزيلا

علمت يوناناً ومصرَ فزالتا ... عن كلِّ شمس ما تريدُ أفولا
واليوم أصبحتا بحال طُفولةٍ ... في العلم تلْتَمسانه تطفيلا
من مشرِق الأرض الشموس تظاهرت ... ما بالُ مغربها عليه أُديلا
يا أرضُ مُذْ فقد المعلمُ نفسه ... بين الشموس وبين شرقك حيلا
ذهب الذين حَمَوْا حقيقة علمهم ... واستعذبوا فيها العذاب وبيلا
في عالم صحبَ الحَياة مُقَيَّداً ... بالفرد، مخزوماً به، مغلولا
صرعَته دنيا المُسْتبد كما هوَتْ ... من ضربة الشمْسِ الرؤوسُ ذهولا
سُقراط أعطى الكأس وهي منية ... شفتي محب يشتهي التقبيلا
عرضوا الحياة عليه وهي غباوةٌ ... فأبى وآثر أن يموت نبيلا
إن الشجاعة في القلوبِ كثيرةٌ ... ووجدتُ شجعان العقول قليلا
أمُعلمي الوادي وساسة نشئه ... والطابعين شبابهُ المأمولا
والحاملين إذا دُعوا ليُعلِّموا ... عبء الأمانةِ، فادحاً مَسؤولا
وَنِيَتْ خُطا التعليم بعد محمد ... ومشى الهُوَينا بعد إسماعيلا
حتى رأينا مصرَ تخطو إصبعا ... في العلم، إن مَشَتِ الممالكُ ميلا
تلك الكفورُ وحشوها أميةٌ ... من عهْدِ (خُو) لم تر القنديلا
نجدُ الذينَ بنى المِلةَ جدُّهُم ... لا يُحسنون لإبرة تشكيلا!
ويُدَلِّلونَ إذا أريدَ قيادُهم ... كالبُهْمِ تأنسُ إذ ترى التدليلا
يتلو الرجال عليهمو شهواتهم ... فالناجِحونَ ألذهم ترتيلا
الجهل لا تحيا عليه جماعةٌ ... كيف الحياة على يدي عِزريلا
رَبُّوا على الإنصاف فتيان الحمى ... تجدوهمُ كهف الحقوق كهولا
فهو الذي يبني الطباع قويمة ... وهو الذي يبني النفوس عُدولا
وتقيم منطق كلِّ أعوج منطق ... ويريد رأياً في الأمور أصيلا
وإذا المعلمُ لم يكن عدلاً مشى ... روح العدالة في الشباب ضئيلا

obeikandl.com

وإذا المعلمُ ساء لحظَ بصيرةٍ جاءتْ على يدهِ البصائرُ حُولا
وإذا أتى الإرشادُ من سبب الهوى ومن الغُرور فسمِّه التضليلا
وإذا أصيب القومُ في أخلاقهم فأقمْ عليهم مأتماً وعويلا
إني لأعذُركم وأحسبُ عِبْئَكم من بين أعباء الرِّجال ثقيلا
وجد الماعدَ غيرُكم وحرمْتُمو في مصرَ عون الأمهاتِ جليلا
وإذا النساء نشأن في أُميةٍ رضع الرجالُ جهالة وخمولا
ليس اليتيم من انتهى أبواهُ من همِّ الحياةِ، وخلَّفاهُ ذليلا
فأصاب بالدنيا الحكيمة منهما وبحُسْنِ تربية الزمان بديلا
إن اليتيم هو الذي تلقى له أُمّاً تخلَّتْ أو أباً مشغولا

الباب العاشر: في العقل

[الكامل]

لولا العقول لكان أدنى ضَيغَم أدنى إلى شَرف من الإنسان
ولربما طعنَ الفتى أقرانه بالرّأي قبلَ تطاعُن الأقران

[الطويل]

ألم تر أن العقل زينٌ لأهله ولكن تمام العَقل طولُ التّجارِب

[الطويل]

يقول لك العقل الذي زين الفتى إذا لم تكن تَقدِر عدوّك دارِهِ
ولاقِهِ بالتّرحيب والبِشر والقِرَى وبارِكْ له ما دُمتَ تحت اقتدارِهِ
وقبِّل يدَ الجاني التي لستَ قادراً على قَطعها وارقُبْ سقُوطَ جدارِهِ

[البسيط]

العقل حُلة فَخر من تسربلها كانت له نسباً تغني عن النسبِ
والعقل أفضلُ ما في الناس كلهم بالعقل ينجو الفتى من حَومة الطلبِ

[الطويل]

وأفضل قسم الله للمرء عَقلُهُ فليس من الخيرات شيءٌ يقاربُهْ

يَعيش الفتى بالعقل في الناس أنه على العقل يَجري علمهُ وتجارِبُهْ
يَشين الفتى في الناس قلّة عقلِهِ وإن كرمت أعراقُه ومناسبُهْ
إذا أكمل الرّحمن للمرء عقلَهُ فقد كَمَلَتْ أخلاقُه ومآربُهْ

[المنسرح]

ما وهب الله لامرئٍ هبةً أشرف من عقله ومن أدبِهْ
هما حياة الفتى فإن عدما فإن فقدَ الحياة أجمَلُ بِهْ

[الطويل]

يدُّ رفيع القوم مَن كان عاقلاً وإن لم يكن في قومه بحسيبِ
وإن حلّ أرضاً عاش فيها بعقلِهِ وما عاقلٌ في بَلدةٍ بغريبِ

[الطويل]

ومن كان ذا مال لم يك عاقلاً فذاك حمار حملوه من التبرِ
أرَى العقل مِرآةَ الطبيعة إذ به نرَى صُوَر الأشياء في عَالَم الفكرِ

[البسيط]

ذو العقل في مَعرك الأقدار مُقتَدِرٌ لكنّ ذا الجهل مغلوبٌ ومغلولُ
وعقل ذي الحزم مرآة الأمور بها يرَى الحقائق، والمجهول مجهولُ

[الخفيف]

وعقولُ الأنام لو تستوي لم يك فرقٌ بين الغَبيّ والنّبيهِ
محوَرُ الأرض لو غَدَا مستقيماً لتساوَى النّهارُ والليلُ فيهِ

الباب الحادي عشر: في الأدب

قال أبو تمام في مكارم الأخلاق:

[الوافر]

إذا جاريتَ في خُلقٍ دنيئاً فأنتَ ومَنْ تُجاريه سَواءُ
رأيت الحُرَّ يجتنبُ المخازي ويحميه عن الغدر الوفاءُ
وما مِن شدّة إلاّ سيأتي لها من بَعد شدَّتها رخاءُ

لقد جَرَّبتُ هذا الدَّهر حتى أفادتْني التّجارِبُ والعناءُ
يَعيش المرءُ ما استحيا بخيرٍ ويبقى العُود ما بقيَ اللّحاءُ
فلا والله ما في العيش خيرٌ ولا الدُّنيا إذا ذهب الحياءُ
إذا لم تخش عاقبة اللّيالي ولم تستح فاصنع ما تشاءُ

وقال أيضاً في الحرية:

[الطويل]

سأصرفُ وجهي عن بلاد غدا بها لسانيَ معقولاً وقلبيَ مُقفَلا
وإن صريحَ الحزم والرأي لامرئٍ إذا بلغته الشمسُ أن يتحوّلا

وقال أبو فراس الحَمداني في نتيجة الاختبار والتجارب:

[الكامل]

لا أشتري بعد التّجارِب صاحباً إلاّ ودِدْت بأنني لم أشْرِهِ
وتركتُ حُلو العيش لم أحفِلْ به لمّا رأيتُ أعزّه في مُرِّهِ
والمرءُ ليس بغانمٍ في أرضِهِ كالصَّقر ليس بصائدٍ في وَكْرِهِ

وقال أبو العَلاء المعَرّي في الشيوخ المتظاهرة بالصلاح:

[البسيط]

لَئِن قَدَرتَ فلا تفعلْ سوى حَسنٍ بين الأنام وجانبْ كلّ ما قبُحَا
فكم شيوخ غَدوا بيضاً مفَارقهُم يُسَبِّحُون وباتوا في الخنَا سَبَحَا
وليس عندهم دينٌ ولا نسكٌ فلا تغرّك أيدٍ تحمل السُّبَحا
لو تعْقلُ الأرض ودّت أنها صفَرَت منهم فلم يَر فيها ناظرٌ شبَحا

وقال الطغرائي في المقارنة بين العدو والحسود:

[الكامل]

جاملْ عدوّك ما استطعتَ فإنهُ بالرّفق يطمعُ في صلاح الفاسدِ
وَاحْذَرْ حسودَكَ ما استطعتَ فإنهُ إن نمتَ عنهُ فليس عنك براقدِ
إن الحسودَ وإن أراد تودّداً منه أضرُّ من العدوّ الحاقدِ

ولـربـمـا رضـي الـعـدوّ إذا رأى منكَ الجميلَ فصار غيرَ مُعاندِ
ورضا الحُسود زوالُ نعمتك التي أُوتيتَها من طارفٍ أو تالدِ
فاصبِرْ على غيْظِ الحسود فنارُهُ ترمي حشاه بالعذاب الخالدِ
أَوَمَا رأيت النار تأكل نفسَها حتى تعود إلى الرّماد الهامدِ
تضفُو على المحسود نعمة ربّه ويذوب من كَمدٍ فؤادُ الحاسدِ

وقال ابن الرومي في عدم الإكثار من الأصحاب:

[الوافر]

عدوّك من صديقك مستفَادٌ فلا تستكثرنَّ من الصّحابِ
فإن الدّاء أكثر ما تراه يكونُ من الطعام أو الشرابِ
إذا انقلبَ الصديق غَدَا عدوّاً مبيناً والأمور إلى انقِلابِ
ولو كان الكثير يَطيب كانت مصاحبة الكثيرِ من الصّوابِ

وقال في الانفرادِ والوحدة:

[الكامل]

ذُقت الطُّعومَ فما التذذتُ براحةٍ من صُحبةِ الأخيار والأشرارِ
أمَّا الصديقُ فلا أحبُّ لِقاءَه حَذرَ القِلى وكرَاهة الإعوارِ
وأرى العدُوّ قذًى فأكرهُ قُربه فهجرتُ هذا الخلق عن أعذارِ
من جور إخوان الزمان سرورهم بتفاضل الأحوال والأخطارِ
لو أن إخوان الصَّفاء تناصفوا لم يفرحوا بتفاضل الأعمارِ
أأحبّ قوماً لم يحبّوا ربّهم إلا لِلفردوس لديه ونارِ؟

وقال المتنبي يلفت نظر العقلاء إلى طلب المعالي:

[الوافر]

إذا غامرتَ في شرفٍ مَرومِ فلا تقنع بما دون النُّجومِ
فطعم الموت في أمر حقير كطعم الموت في أمر عظيمِ
يرى الجبناء أنَّ العجز عقلٌ وتلك خديعةُ الطّبع اللّئيمِ

وكلّ شجاعةٍ في المرء تُغني ولا مثل الشجاعة في الحكيمِ
وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيمِ

وقال بشّار بن بُرد في وصف الأخ الحقيقي:

[الخفيف]

خيرُ إخوانك المُشارك في المرْ رّ وأين الشَّريك في المرّ أينَا
الذي إن شهدتَ سرّك في الحيـ ـي وإن غِبتَ كان أُذناً وعينا
مثل سرّ الياقوت إن مسّه النّا ر جلاه البلاء فازداد زَينَا
أنتَ في معشرٍ إذا غبتَ عنهم بدّلوا كلَّ ما يزينك شَيْنا
وإذا ما رأوْك قالوا جَميعاً أنتَ مِن أكرم البرايا علينَا
ما أرى لِلأنام وُدّاً صحيحاً عاد كلّ الورَى زُوراً ومَينا

وقال أبو العتاهية في صنع الجميل مع الناس:

[الرمل]

خيرُ أيامِ الفتى يومٌ نفعْ واصْطِناعُ الخير أبقَى ما صنَعْ
ما يُنال الخيرُ بالشّرّ ولا يحصد الزَّارع إلا ما زرَعْ
خُذ من الدنيا الذي درَّت به واسْلُ عما بان منها وانقطَعْ
إنما الدُّنيا متاعٌ زائلٌ فاقتصد فيه وخُذْ منه وَدَعْ
وارضَ للناس بما ترضَى به واتّبع الحقّ فنِعم المُتّبَعْ

[المنسرح]

كن ابن من شئت واكتسب أدباً يغنيك محمودهُ عن النّسبِ
إن الفتى مَن يقول هَأنَذَا ليس الفتى من يقول كان أبي

[السريع]

لكلّ شيءٍ زِينةٌ في الوَرى وزِينة المرءِ تَمام الأدبِ
قد يَشرُف المرءُ بآدابه فينا وإن كان وضيعَ النّسبِ

وأنشد أبو عبد الله نفطويه لنفسه في التعلّم في الصغر كالنّقش في الحجر:

[الطويل]

أرانيَ أنسى ما تعلّمت في الكِبرْ ... ولست بناسٍ ما تعلّمت في الصّغرْ
وَمَا العلم إلا بالتعلّم في الصّبا ... وما الحلم إلا بالتّحلّم في الكبرْ
وَلَوْ فُلِق الْقلْبُ الْمُعَلَّمُ في الصّبَا ... لأَلْفَى فيهِ الْعلْمُ كالنَّقْشِ في الحجَرْ
وما العلمُ بعْدَ الشّيبِ إلاّ تَعسُّفٌ ... إذا كلَّ قلْبُ المرْءِ والسَّمْعُ والْبَصَرْ
وما المرءُ إلاّ اثْنَانِ: عَقْلٌ ومنْطِقٌ ... فمَنْ فاتهُ هذَا وَهَذَا فَقَدْ دَمَرْ[1]

ومما ينشَدُ لخلَف الأحمر[2] في ميراث العلم:

[الخفيف]

خيرُ ما ورَّثَ الرّجالُ بنيهمْ ... أَدَبٌ صَالِحٌ وحُسْنُ ثَنَاءِ
هُوَ خَيرٌ مِنَ الدَّنانيرِ والأوْ ... رَاق[3] في يَوْمِ شِدّةٍ ورخاءِ
تلك تفْنَى والدّينُ والأدبُ الصَّا ... لِحُ لا يَفنيان حتى اللّقَاءِ[4]
إنْ تأَدّبْتَ يا بُنَيَّ صَغِيراً ... كُنْت يَوْماً تُعدُّ في الكُبراءِ
وإذا ما أَضعْت نفسَك أُلْفِيـ ... ـتَ[5] كبِيراً[6] في زُمْرةِ الْغوْغاءِ
ليْس عَطفي لِلعُود إن كانَ رطْباً ... وإذا كانَ يابساً بِوَاءِ

ومن شعر المنصور الفقيه في العلم والعمل:

[الخفيف]

أَيُّها الطالِبُ الْحَرِيصُ تعلَّمْ ... إن للْحَقّ مَذْهباً قَدْ ضَلَلْتَهْ
ليْس يُجْدِي عليك عِلْمُك إنْ لمْ ... تَكُ مُسْتَعْمِلاً لِمَا قدْ عَلِمتَهْ

---

(١) دَمَرَ: هلك.
(٢) كان راوية للشعر والأدب، وشيخاً من شيوخ النحويين البصريين توفي سنة ١٨٠هـ.
(٣) الأوراق: جمع ورق مثلثة وهي الدراهم المضروبة من الفضة.
(٤) يوم اللقاء: أي: لقاء الله وهو يوم القيامة.
(٥) ألفيتَ: وجدت.
(٦) نصب على الحال.

قَد لَعمْري اغتربْتَ في طَلَبِ الْعلْـ ـمِ وَحاولْتَ جَمْعهُ فَجَمعْتَهْ
وَلقِيتَ الرّجالَ فيهِ وَزَاحَمْـ ـتَ عليهِ الجميعَ حتى سَمِعْتَهْ
ثُمَّ ضَيّعْتَ أَوْ نَسيتَ، وَمَا يَنْـ ـفَعُ عِلْمٌ نَسِيتَهُ أَوْ أَضَعْتَهْ
وَسَوَاءٌ عليك عِلمُكَ إنْ لَمْ يُجْدِ نفْعاً عَليكَ أَمْ مَا جهلتَهْ
كمْ إلى كمْ تُخادِعُ النفسَ جَهلاً ثُمَّ تُجرِي خلافَ مَا قدْ عَرَفْتهْ
تصِفُ الْحقَّ والطريق إليهِ فإذا مَا عمِلتَ خالَفْتَ سَمْتَهْ

وقال محمود سامي باشا البارودي في انتهاز الفرصة:

[الرمل]

بادر الفُرصة واحذر فوتَها فبلوغ العزّ في نَيْل الفُرَصْ
واغتَنِمْ عُمرك إبّان الصّبا فهو إن زاد مع الشّيب نَقَصْ
وابتَدِرْ مَعاك واعلَمْ أن مَن بادر الصيد مع الفجر قَنَصْ
واجتنِبْ كلَّ غَبِيّ مائق فهْوَ كالعَيْرِ[1]، إذا جَدّ قَمَصْ
إنّما الجاهلُ في العين قذىً حيثُما كانَ، وفي الصدر غُصَصْ
واختَبرْ مَن شئتَ تعرِفْه، فما يعرِفُ الأخلاق إلاَّ مَنْ فَحَصْ
إنّ ذا الحاجة إن لم يغتربْ عن حِماه مِثل طيرٍ في قَفَصْ

وقال أبو إسحاق إبراهيمُ الغَزِيُّ[2] في الحركة والجمود:

[الكامل]

بمَسيرهِ نَقصَ الهِلالُ، وزادا فاجعل كَراكَ[3] إذا اعتَزمتَ سُهادا[4]
لولا انصلاتُ[5] البِيض[6] من أغمادها[7] مَشْحُوذة لم تَفضُلِ الأغمادا

---

(١) العَيْر: الحمار.
(٢) هو إبراهيم بن يحيى بن عثمان الكلبي شاعر مجيد صاحب مطولات. وله ديوان اختاره لنفسه. ولد بغزة سنة ٤٤١هـ وتصرفت به الأحوال فذهب إلى المشرق ومات بين مرو وبلخ سنة ٥٢٤هـ.
(٣) الكرى: النوم. (٤) السهاد: السهر. (٥) انصلتَ: تجرد.
(٦) البيض: السيوف. (٧) أغماد: جمع غمد وهو قراب السيف.

وفضيلةُ الحيوان في حركاته لولا منافعهُ لكان جمادا
ما العمرُ إلاَّ راحلٌ، وأظنه اتّـ ـخذَ الشبيبةَ للمسافةِ زادا
لا تخلعَنَّ عن اللسانِ لجامَهُ وتوَقَّ فرط جماحهِ المُعتادا
فالله خصَّ الاستماعَ بآلةٍ مثنى، وجارحة الكلام فُرادَى

وقال أبو نصر عبدُ العزيز بنُ نُباتة السَّعديُّ[1] في طلب العلى:

[الكامل]

حاوِل جسيماتِ الأمور، ولا تقُل إن المحامدَ والعُلا أرزاقُ
وارغَب بنفسك[2] أن تكون مُقصّراً عن غاية فيها الطّلابُ سِباقُ
لا تشفِقنَّ[3] فإن يومك إن أتى ميقاتهُ لم ينفعِ الإشفاقُ
وإذا عجزتَ عن العدوّ فدارهِ وامزِج له إن المِزَاجَ وِفاقُ
فالنارُ بالماءِ الذي هو ضِدُّها تُعطِي النّضاجَ، وطبعُها الإحراقُ

وقال المعتمد بن عباد في وجوب التضحية لفدية الوطن:

[مجزوء الكامل]

إن يسلب القوم العِدى وطني وتسلِمْني الجموعُ
فالقلبُ بينَ ضلوعهِ لم تسلم القلبَ الضلوعُ
قد رُمت يوم نزالهمْ ألا تحَصِّنني الدروعُ
وبرزتُ ليس سوى القميص على الحشا شيءٌ دَفوعُ
أجلي تأخّر لم يكن بهَواي ذلّي والخضوعُ
ما سِرتُ قط إلى القتا ل وكان من أمَلي الرجوعُ
شِيَمُ الأولى أنا منهمُ والأصلُ تتبعه الفروعُ

---

(١) هو أبو نصر عبد العزيز بن عمر المشهور بابن نباتة. وينسب إلى سعد تميم. وعد في شعراء سيف الدولة الحمداني. وله ديوان حافل توفي سنة ٤٠٥هـ ببغداد. وهو القائل. **[الطويل]**

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تنوعت الأسباب والموت واحد

(٢) ارغَبْ بنفسِك: صن نفسك.
(٣) لا تشفقنَّ: لا تخفن.

وقال موسى بن عبد الله في وجوب عدم الثقة بالغير:

[مجزوء الوافر]

تَوَلت بَهْجة الدنيا فكلٌّ جديدها خَلقُ
وخان الناسُ كلُّهُمُ فما أدري بمن أثقُ
رأيتُ معالم الخير ات سُدّت دونها الطرقُ
فلا أدبٌ ولا كرمٌ ولا فضلٌ ولا خُلقُ
فلستُ مُصدِّق الأقوا م في شيء وإن صدَقوا

وقال الأبيوَرْدي الأموي المتوفّى سنة ٥٥٧هـ بخراسان في تقلب الزمان:

[الطويل]

مَلكنا أقاليمَ البلاد فأذعنتْ لنا رغبةً أو رهْبة عظماؤها
فلما انتهت أيامنا علقت بنا شدائدُ أيامٍ قليل رخاؤها
وصِرْنا نلاقي النائباتِ بأوجه رقاق الحواشي كادَ يقطر ماؤها
إذا ما هممنا أن نَبوح بما جنَتْ علينا الليالي لم يَدعْنا حياؤها

وقال القاضي عبد الوهاب في دوام الخير بين الناس ما داموا درجات فإذا تساوَوْا هلكوا:

[الوافر]

مَتى تَصلُ العطاشُ إلى ارْتواءٍ إذا استقتِ البحارُ من الرّكايا
ومَنْ يثني الأصاغرَ عن مرادٍ وقد جلس الأكابرُ في الزوايا
وإنَّ تَرَفُّعَ الوُضعاء يوماً على الرُّفعاء من إحدى البلايا
إذا استوَتِ الأسافلُ والأعالي فقد طابت مُنادمة المنايا

وقال سعيد بن محمد في كون عمل الإنسان يدل على أصله:

[الطويل]

ملكنا فكان العفوُ مِنّا سَجيَّة فلما ملكتمْ سالَ بالدّمِ أبطحُ
وحَلَّلتُم قتل الأسارى وطالما غدَونا على الأسرى نَمُنّ ونصفحُ

فحبُكم هذا التفاوتُ بَيننا وكل إناءٍ بالذي فيه يَنضحُ

وقال مَعن بن أوْفى في لزوم التحفظ بآثار الآباء والجدود:

[الوافر]

ورثنا المجدَ عن آباءِ صِدْقٍ أسأنا فْي جوارِهمُ الصنيعا
إذا المجدُ الرفيعُ توارَثتهُ بُناةُ السوءِ أوشك أن يضيعا

وقال الإمام الشافعي في المن والأذى وتعداد صنائع الإحسان:

[المجتث]

لا تحْمِلَنَّ لمنْ يَمْنـ نُ مِنَ الأنام عليك مِنّهْ
واخترْ لِنَفْسِكَ حظَّها واصبر فإن الصبر جنهْ
مِننُ الرجال على القلوبِ أشدُّ من وقْعِ الأسِنهْ

وقال علي بن عبد العزيز الجرجاني في وصف النفوس الأبية:

[الطويل]

وقالوا توصَّلْ بالخضوع إلى الغنى وما علموا أن الخضوع هو الفَقْرُ
وبيني وبين المال شيئان حرّما عليّ الغنى: نفسي الأبيةُ والدهرُ
إذا قيل هذا اليسر أبصرتُ دونَهُ مواقفَ خيرٌ من وقوفي بها العمرُ

وقال الشريف الرضي في كون المال خادماً للإنسان:

[مجزوء الرمل]

اشتَرِ العِزّ بما بيـ ع فما العزُّ بغالِ
لَيسَ بالمغْبونِ عقلاً مُشتَرٍ عزّاً بمالِ
إنما يُدّخَرُ المـ لُ لحاجاتِ الرجالِ
والفتى مَن جعَلَ الأمـ والَ أثمان المعالي

وقال أبو تمام في كون العز والمجد لا يُنالان إلا بالتعب والجد:

[الخفيف]

قد عَلمنا أن ليس إلا بشقِّ الـ نفس صار الكريمُ يُدعى كريما

طَلَبُ المجد يورِث المرْءَ خبلاً وهموماً تقَضْقِضُ الحيزوما
فتراه وهوَ الخَليّ شجيّاً وتراه وهو الصحيحُ سقيما
تَيَّمتْهُ العلى فليس يَعُدُّ البـ ـؤسَ بُؤساً ولا النعيم نَعيما

وقال مخيّس بن أرطأة في لزوم تجنُّب الإنسان كلّ ما يُعاب:

[الوافر]

عَرَضْتُ نَصحةً مني ليحيى فقال غَشَشْتَني والنصحُ مُرُّ
وما بي أن أكونَ أعيب يَحيى ويَحيى طاهرُ الأخلاق بَرُّ
ولكن قد أتاني أن يحيى يُقال عليه بقاءُ شَرُّ
فقلتُ له تجنَّبْ كل شيء يُعابُ عليك إن الحرّ حُرُّ

وقال ابن هانئ (متنبي الغرب) أن ليس للإنسان إلا ما سعى:

[الطويل]

ولم أجدِ الإنسانَ إلا ابنَ سعيهِ فمن كان أسعى كان بالمجدِ أجْدَرا
وبالهمة العلياء ترقى إلى العلى فمنْ كانَ أعلى همة كان أظهرا
ولم يتأخّر مَنْ أراد تَقَدّماً ولم يَتقدّمْ من أرادا تأخّرا

وقال بعضهم في كون التقليد في الخير فضيلة:

[المتقارب]

إذا أعجبتكَ خلال امرئ فكنْه تكنْ مثلَ منْ يعجبُكْ
وليسَ على المجد والمكرماتِ إذا جئتها حاجبٌ يحجبُكْ

وقال أبو روح ظفر بن عبد الله في الهمة والعزيمة الماضية:

[الكامل]

السيف يعلم أن لي في حَدِّه سِرّاً نَهاه الدهر عن إفشائهِ
والدهر يَعلم أن لي في صَدْره ناراً مضرمة على أحشائِهِ
ولو أنّ أطرافَ السّيوفِ وفينَ لي لأخذتُ حقّ الدّهْرِ من أبنائِهِ
همَمٌ مُؤرّقَةٌ جُفوفٌ كُلما أرْخَى الظلامُ عَليّ ذيلَ خِبائهِ

هِمَمُ النفوس مَنوطةٌ بِعنائها والمَرءُ يَخْدَعه لسانُ رجائهِ

وقال عمارة اليمني المتوفّى سنة ٥٦٩هـ في الشجاعة والإقدام:

[البسيط]

العِلمُ مذ كان محتاجٌ إلى العلمِ وشفرَة السّيف تَسْتغني عن القَلمِ
وخيرُ خيلك إن غامَرْتَ في شرف عزمٌ يُفرِّقُ بين السّاق والقدَمِ
لا يُدرِكُ المجدَ إلا كلّ مُقتحمٍ في مَوْج مُلتَطِم أو فوج مُضطَّرمِ
ورُبّ أمرٍ يَهاب الناس غايَته والأمر أهْوَنُ فيه من يَدٍ لِفَمِ
تَنمى قوى الشيء بالتَّدريج إن رزقت لُطفاً ويقوى شِرارُ النار بالضرِمِ

وقال أبو الحسن التُّهامي المتوفّى سنة ٤١٦هـ في الأدب العربي:

[البسيط]

لا تَحمَدِ الدّهْرَ في بأساء يكشفها فلو أردْتَ دوامَ البُؤسِ لم يَدُمِ
فالدهرُ كالطيف بُؤساهُ وأنعُمهُ عن غير قصدٍ فلا تحمدْ ولا تَلُمِ
لا تَحْسَبَنْ حسَبَ الآباءِ مكرُمةً لمن يُقَصّرُ عن غايات مجدِهمِ
حسنُ الرِّجال بحسناهم وفَخْرُهمُ بطَوْلِهِم في المعالي لا بطولهمِ
ما اغتابني حاسدٌ إلا شرفتُ به فحاسِدي مُنعِمٌ في زيِّ مُنتقمِ
فالله يَكلأ حُسّادي فأنعمُهُمْ عندي وإنْ وقعت عن غير قصدِهمِ

وقال أبو تمام في كون المرء يجمع والزمان يفرق:

[الطويل]

ولكنّني لم أحوِ وفْراً مُجمَّعاً فَفُزْتُ بهِ إلا بِشَمْلٍ مُبَدّدِ
ولم تُعْطِني الأيامُ نَوْماً مُسكَّناً ألذُّ بهِ إلا بنَوْمٍ مُشَرّدِ
وطولُ مقام المرء في الحيِّ مُخْلِقٌ لدِيباجَتَيْه فاغتَرِبْ تَتَجَدّدِ
فإني رأيتُ الشمسَ زيدت مَحبّة إلى الناس أن ليست عليهم بسَرْمدِ
وليس يُجلّي الكرْبَ رُمْحٌ مُسدَّدٌ إذا هوَ لمْ يؤنَسْ برأيٍ مُسدّدِ

وقال أبو تمام في كون الحركة بركة:

[الخفيف]

من أبَنَّ البيوت أصبح في ثو ... بٍ من العيش ليس بالفضفاضِ[1]
والفتى مَنْ تعرّفتْهُ الليالي ... في الفيافي كالحيةِ النضناضِ
صلتانٌ أعداؤه حيثُ كانوا ... في حديث من عزمه مستفاضِ[2]
كلّ يوم له بصَرْفِ الليالي ... فتْكةٌ مثلَ فتكة البرّاضِ

وقال بعضهم في أنَّ الأمور تسهل بالصبر والاطمئنان لا بالذل والهوان:

[الوافر]

إذا ضيَّقتَ أمراً ضاق جدّاً ... وإن هوّنتَ ما قد عزّ هانا
فلا تهلِكْ لشيء فات بأساً ... فكم أمرٍ تصعَّب ثم لانا
سأصبرُ من رفيقي إن جفاني ... على كل الأذى إلا الهوانا

وقال الحسين بن مطير في مكارم الأخلاق:

[الوافر]

أُحِبُّ مكارِم الأخلاق جُهدي ... وأكره أن أعيبَ وأن أعابا
وأصفحُ عن سباب النّاسِ حِلماً ... وشَرّ النّاسِ مَن يَهْوى السّبابا
ومَنْ هابَ الرّجالَ تَهَيَّبوهُ ... ومَنْ حَقَرَ الرّجالَ فلن يُهابا

وقال القطامي في التأني السّلامة وفي العجلة الندامة:

[البسيط]

والنّاسُ مَن يَلقَ خيراً قائلونَ له ... ما يَشْتهي، ولأم المُخطئ الهَبَلُ
قد يُدرِك المُتأني بَعضَ حاجَتهِ ... وقد يكون مع المسْتعجل الزّللُ
ورُبما فاتَ قَوْماً بعض أمرهم ... مِنَ التّأني وكان الحزمُ لو عجلوا
والعَيشُ لا عيشَ إلا ما تقَرُّ بهِ ... عينٌ ولا حالَ إلا سَوف تَنتقلُ

(١) أبَنَّ: لازمَ وأقام. الفضفاض: الشيء الواسع.
(٢) الصلتان: الرجل الجاد في أموره.

وقال رجل من بني أسد في أنه لا خير في ودٍّ يجيء تكلفاً:

[الطويل]

وما أنا بالنكس الدّنيّ ولا الذي إذا صدّ عني ذو المودَّةِ أحرَبُ
ولكنني إن دُمْت وإن يكن له مذهبٌ عَني فلي عنه مَذْهبُ
ألا إن خيرَ الودِّ وُدٌّ تطوَعتْ له النفس لا وُدٌّ أتى وهو متعبُ

وقال القاضي الجرجاني في كون النفس الأبية لا تقبل الدنايا وتستقبل المنايا:

[الطويل]

يقولون لي: فيك انقباضٌ وإنما رأوْا رجلاً عن موقف الذل أحجما
إذا قيل هذا منهلٌ قلت قد رَأى ولكن نفس الحرّ تحتملُ الظما
ولم أبتذل في خِدْمة العلم مهجتي لأخدم من لاقيتُ لكن لأخدما
أأشقى به غرساً؟ وأجنيهِ ذلة إذنْ فاتباعُ الجهل قد كان أحزما

وقال البعيث بن حريث في كون كرامة الإنسان متوقفة على حفظ الأوطان:

[الطويل]

وإن مسيري في البلاد ومنزلي لبالمنزل الأقصى إذا لم أقرّبِ
ولستُ وإن قربت يوماً ببائع بلادي ولا ديني ابتغاء التحبُّبِ
ويمتده قوم كثير تجارة ويمنعني من ذاك ديني ومنصبي

وقال عمرو بن الإطنابة في اقتحام الأخطار لنيل الفخار:

[الوافر]

أبت لي عفتي وأبى بلائي وأخذي الحمد بالثمن الربيحِ
وإقحامي على المكروه نفسي وضربي هامة البطل المشيحِ
وقَولي كلما جشأتْ وجاشَتْ رويدكِ تحمدي أو تستريحي
لأدفع عن مآثر صالحات وأحمي بعدُ عن عِرْضٍ صحيحِ

وقال أبو تمام في أنه لا يستحق الشكر والحمد إلا من تعب وجَدَّ:

[الكامل]

الحمد شهد لا ترى مشتارهُ يجنيه إلا من نقيع الحنظلِ

غلٌّ لحامله ويحسبهُ الذي لم يُوْهِ عاتقهُ خفيف المحملِ

وقال بعضهم في الفقير الصابر المتجمل بالعفاف والكفاف:

[الكامل]

كم فاقةٍ مستورةٍ بمروءَةٍ وضرورةٍ قد غُطِّيَتْ بتجمُّلِ
ومن ابتسامٍ تحتهُ قلبٌ شج قد خامرتهُ لوْعة ما تَنجلي

وقال أبو تمام في صدق اليقين:

[البسيط]

قلُّوا ولكنّهُمْ طابوا فأنجدهم جيشٌ من الصبرِ لا يُحصى له عددُ
إذا رأوا للمنايا عارضاً لَبِسوا من اليَقينِ دُروعاً ما لها زَرَدُ

وقال هدبة العذري في وجوب وضع الشيء في موضعه:

[الطويل]

ولا أتمنَّى الشرَّ والشرُّ تاركي ولكن متى أحمل على الشرِّ أركبِ
ولستُ بمفراحٍ إذا الدهر سرني ولا جازعٍ من صرْفه المتقلِّبِ

وقال بعضهم في وجوب الثبات على المبدأ:

[البسيط]

قد عِشْتُ في الدهر أطواراً على طرق شتى وقاسيتُ فيها اللينَ والفظعا
كلًّا بَلَوتُ فلا النعماء تُبطرني ولا تخشَّعتُ من لأوائها جزَعا
لا يملأ الهَوْلُ صدري قبل موقِعِهِ ولا أضيقُ به ذَرْعاً إذا وقعا

[البسيط]

عوِّد بنيك على الآداب في الصغر كيما تقرّ بهم عيناك في الكِبَرِ
فإنما مثلُ الآداب تجمعُها في عُنفوان الصبا كالنقش في الحَجَرِ
هي الكنوزُ التي تنمو ذخائرُها ولا يُخافُ عليها حادثُ الغِيَرِ
إن الأديب إذا زلَّتْ به قدمٌ يهوي على فرش الديباجِ والسُّرَرِ
الناس صِنفان: ذو علم ومُستمع واعٍ وسائرهم كاللَّغو والفِكَرِ

[المنسرح]

من لم يكن عقلُه مؤدِّبَهُ ... لم يغنه واعظٌ من النسبِ
كم من وضيعِ الأصول في أممٍ ... قد سوَّدوه بالعقل والأدبِ

[البسيط]

لا تيأسنَّ إذا ما كنتَ ذا أدب ... على خُمولك أن ترقى إلى الفَلَكِ
فبينما الذهبُ الإبريز مختلطٌ ... بالتربِ إذ صار إكليلاً على المَلِكِ

[البسيط]

السبعُ سبعٌ ولو كلَّتْ مخالبهُ ... والكلبُ كلبٌ ولو بين السباع رُبي
وهكذا الذهب الإبريز خالطهُ ... صفر النحاس وكان الفضل للذهبِ
لا يُعجبنك أثواب على رجل ... دع عنك أثوابه وانظر إلى الأدبِ
فالعود لو لم تَفُحْ منه روائِحه ... لم يفرِق الناسُ بين العود والحطبِ
وليسَ يسودُ المرءُ إلا بنفسه ... وإن عدَّ آباءً كراماً ذوي حسبِ
إذا العودُ لم يُثْمر ولو كان شعبةً ... من المثمراتِ اعتدّه الناس منْ حطبِ

[البسيط]

قد ينفعُ الأدبُ الأحداثَ من صغر ... وليسَ ينفعُ بعد الشيبة الأدبُ
إن الغصون إذا قومتها اعتدلت ... ولن يلين إذا قوّمْتَهُ الخشبُ

وقال حاتم الطائي في الكرم:

[الطويل]

أماويُّ إنّ المالَ غادٍ ورائحُ ... ويبقى من المال الأحاديثُ والذكرُ
أماويُّ إني لا أقولُ لسائلٍ ... إذا جاءَ يوماً حلّ في مالنا النذْرُ
أماويُّ إما مانعٌ فَمُبَيِّنٌ ... وإما عطاءٌ لا يُنَهْنِهُهُ الزَّجرُ
أماويُّ إن يصبح صداي بقفرةٍ ... من الأرض لا ماءٌ لديَّ ولا خَمْرُ
ترى أن ما أنفقتُ لم يك ضَرّني ... وأن يَدَيّ مِمَّا بَخِلْتُ به صفرُ

وقال حاتم الطائي أيضاً في الإيثار:

[الطويل]

وما أنا بالساعي بفضل زِمامها لتشرب ماء الحوضِ قبل الركائِبِ
وما أنا بالطاوي حقيبة رَحلها لأبعثها خفّاً وأترُك صاحبي
إذا كنت رَبّاً للقلوصِ فلا تَدَعْ رفيقك يمشي خلفها غيرَ راكبِ
أنِخْها فأرْدِفْهُ فإن حَمَلَتْكُما فذاك وإن كان العقابُ فعاقِبِ

وقال بعض الشعراء المتقدمين في ذم الغيرة:

[السريع]

ما أحسن الغيرَة في حينها وأقبح الغَيْرة في كلِّ حينْ
منْ لم يَزَلْ مُتَّهماً عِرسه مناصباً فيها لريْب الظنونْ
أوشك أن يُغْريها بالذي يخاف أن يبرزَها للعيونْ
حَسْبُكَ من تحصيها وَضعها منك إلى عِرض صحيح ودينْ
لا تطّلع منك على ريبةٍ فيتبعُ المقرونُ حبل القرينْ

وقال بعض الشعراء المتقدمين في كرم الضيافة:

[الطويل]

أُضاحِكُ ضيفي قبل إنزال رَحلِهِ ويَخْصُب عندي والمحلُّ جديبُ
وما الخِصْب للأضيافِ أن يكثر القِرى ولكنما وَجْه الكريم خصيبُ

وقالت ليلى الأخيلية في العِفة:

[الطويل]

وذي حاجةٍ قلنا له: لا تَبُح فليسَ إليها ما حييتَ سبيلُ
لنا صاحبٌ لا ينبغي أن نخونه وأنت لأخرى صاحبٌ وخليلُ

وقال ابن الرومي في القناعة:

[الخفيف]

مرحباً بالكفافِ يأتي هنيئاً وعلى المتعباتِ ذَيلُ العفاءِ

ضِلَّة لامرئٍ يُشَمِّر في الجمـ ـع لعيش مُشَمّر للفناءِ
دائباً يكنزُ القناطير للوا رث والعمر دائباً في انقضاءِ
يحسب الحظ كلهُ في يديه وهو منه على مدى الجَوزاء
ليس في أجل النعيم له حظ وما ذاقَ عاجل النعماءِ
ذلك الخائبُ الشَّقيُّ وإنْ كا نَ يَرى أنه مِنَ السُّعداءِ
حَسْبُ ذي إربةٍ ورأي جَليٍّ نظرت عينه بِلا غلواءِ
صِحة الدّين والجوارح والعِرْ ض وإحراز مُسْكة الحَوْباءِ
تِلكَ خيرٌ لعارفِ المجد مِمّا يجرع الناس من فضول الثراءِ

وقال بعض الشعراء المتقدمين في القناعة:

[الطويل]

أحِبُّ الفتى ينفي الفواحِشَ سمعُه كأن به عن كلِّ فاحشةٍ وقْرا
سليم دَواعي الصدر لا باسطاً أذى ولا مانعاً خيراً ولا قائلاً هُجْرا
إذا ما أتت من صاحب لك زلة فكن أنت مُحتالاً لِزَلَّته عُذرا
غنى النفس ما يكفيك من سدّ خلة فإن زاد شيئاً عاد ذاك الغنى فَقْرا

وقال بعض الشعراء المتقدمين في حب البنين:

[البسيط]

لولا أُميمة لم أجزع من العدَم ولم أُجبْ في الليالي حندس الظُّلَمِ
وزادني رغبة في العيش معرفتي أن اليتيمة يجفوها ذوو الرَّحِمِ
أحاذرُ الفقرَ يوماً أن يُلِمَّ بها فيهتِكَ الترَ عن لحمٍ وعن وضِمِ
تهوى حياتي وأهوى موتها شفقاً والموت أكرم نزال على الحُرَمِ

وقال مسكين في كتمان السر:

[الطويل]

وفتيان صِدْق لست مُطلعَ بعضهم على سر بعض غير أني جِماعها

لكل امرئٍ شِعب من القلب فارغ وموضع نجوى لا يُرام اطلاعها
يظلون شتى في البلاد وسِرُّهم إلى صخرة أعيى الرجالَ انصداعها

وقال أبو العتاهية في المغفرة:

[الكامل]

إني شكرت لظالمي ظلمي وغفرتُ ذاك له على علمي
ورأيتهُ أسدى إليَّ يداً لمّا أبان بجهله حِلمي
رَجَعَت إساءَته عليه وإحسـ ـاني فعاد مُضاعف الجُرمِ
وغدوتُ ذا أجْرٍ ومَحْمَدَةٍ وغدا بكَسْب الظلم والإثمِ
فكأنما الإحسان كان له وأنا المُسيء إليه في الحُكمِ
ما زال يظلمني وأرحمه حتى بَكيت له من الظُّلْمِ

وقال ابن مطير في إكرام النفس:

[الطويل]

ومَنْ يَتَّبع ما يُعجب النفس لم يزل مُطيعاً لها في فعل شيء يُضيرها
فنفسك أكْرِمْ من أمور كثيرة فما لكَ نفسٌ بعدها تستعيرها

وقال بشار في السعادة:

[الطويل]

وما خابَ بين الله والناس عامِلٌ له في التقى وفي المحامد سوقُ
ولا ضاق فضل الله عن مُتَعَفِّفٍ ولكن أخلاق الرجال تضيقُ

وقال أبو تمام في الصداقة الكاذبة:

[الكامل]

إن شئت أن يسود ظنك كلُّه فَأَجِلْهُ في هذا السواد الأعظمِ
ليس الصديق بمَنْ يعيرك ظاهراً متبسماً عن باطن مُتَجَهِّمِ

وقال بعض الشعراء المحدثين في الثقة:

[المنسرح]

فيَّ انقباضٌ وحشمةٌ فإذا صادفتُ أهلَ الوفاءِ والكرمِ

أرسلتُ نفسي على سَجيّتها وقلتُ ما قلتُ غيرَ مُحْتشمِ

وقال أبو تمام في القناعة:

[الكامل]

من زاحفَ الأيامَ ثم عبا لها غير القناعة لم يزل مَفْلولا
من كان مَرعى عَزمهِ وهمومه روض الأماني لم يزل مهزولا
لو جاز سلطان القنوع وحُكمه في الأرض ما كان القليلُ قليلا

وقال أبو العلاء المعري في الخمر:

[الطويل]

أيأتي نبيٌّ يجعل الخمرَ طَلْقةً فتحمل شيئاً من همومي وأحزاني
وهيهات لو حَلّتْ لما كنتُ شارباً مخفِّفةً في الحلم كفَّة ميزاني

وله أيضاً في أن الملك أجير الرعية:

[الكامل]

مُلَّ المَقامُ فكم أُعاشِرُ أُمَّةً أمَرت بغير صلاحها أُمَراؤها
ظلموا الرّعِية واستجازوا كَيْدها فعَدَوْا مصالحها وهم أجراؤها

وقال أيضاً في رياء الوُعّاظ:

[الوافر]

رُوَيْدَك قد غُرِرْت وأنت حُرٌّ يصاحِب حيلة يَعِظُ النساءَ
يُحَرِّمُ فيكم الصهباءَ صُبحاً ويشربُها على عَمدٍ مساءَ
يقول لكم: غَدَوْتُ بلا كساء وفي لذّاتها رهن الكِساءَ
إذا فعلَ الفتى ما عنه يَنْهى فمن جهتين، لا جهةٍ، أساءَ

وله أيضاً:

[الطويل]

إذا كان علمُ الناس ليس بنافع ولا دافعٍ، فالخُبْرُ للعُلَماءِ
قضى الله فينا بالذي هو كائن فتَمّ وضاعت حكمة الحكماءِ

وله أيضاً في سلطان العقل:

[الخفيف]

يرتجي الناس أن يقومَ إمامٌ ... ناطق في الكتيبةِ الخرساءِ
كذب الظنُّ لا إمامَ سوى العقـ ... ـل مُشيراً في صُبحهِ والمساءِ
إنما هذه المذاهبُ أسبا ... بٌ لجلب الدنيا إلى الرؤساءِ

وله أيضاً في رِياء العباد:

[الطويل]

لعَلّ أناساً في المحاريبِ خُوِّفوا ... بآي، كناسٍ في المشارب أطْربوا
إذا رامَ كيداً بالصلاة مُقيمُها ... فتَارِكُها عمداً إلى الله أقرَبُ

وله أيضاً:

[المتقارب]

أيا جَسَدَ المرءِ ماذا دهاك ... وقد كُنتَ من عنصرٍ طيِّبِ
تصيرُ طَهوراً إذا ما رَجَعْتَ ... إلى الأصل كالمطر الصيِّبِ

وقال أيضاً في قسمة الأرزاق:

[الطويل]

لقد جاءَنا هذا الشتاء وتحته ... فقيرٌ مُعَرَّى أو أمير مُدَرّجُ
وقد يُرْزق المجدود أقوات أمةٍ ... ويُحرم قوتاً واحدٌ وهو أحوَجُ

وقال أيضاً في ذم البطالة:

[الطويل]

ويُعجبني دأبُ الذين تَرَهّبوا ... سوى أكلهم كدّ النفوس الشحائحِ
فما حَبسَ النفس المسيحَ تعَبُّداً ... ولكن مَشى في الأرض مشية سائحِ

وقال أيضاً في الرّفق بالحيوان:

[الكامل]

قد رابَني مَغدى الفقير بجَهله ... على العَيْرِ ضرباً ساءَ ما يتقلّدُ

يحمّله ما لا يطيق فإن ونى أحال على ذي فَترة يتجلّدُ

وله أيضاً في أين الحقيقة:

[البسيط]

نُفارقُ العيشَ لم نظفر بمعرفة أيُّ المعاني بأهل الأرض مقصود
لم يعطنا العلمَ أخبارٌ يجيءُ بها نقلٌ ولا كوكب في الأرض مرصود
وابيضّ ما اخضر من نبت الزمان بنا وكلّ زَرْعٍ إذا ما هاجَ محصود

وقال أيضاً في حقيقة الإيمان:

[البسيط]

ما الخيرُ صومٌ يذوبُ الصائِمون له ولا صلاة ولا صُوفٌ على الجسدِ
وإنما هو ترك الشرِّ مُطّرَحاً ونَفْضُكَ الصَّدْرَ من غِلٍ ومن حَسَدِ

وقال أيضاً في خرافات النساء:

[الكامل]

سألَتْ مُنَجِّمَها عن الطفل الذي في المهد كم عائِشٌ من دهرِهِ؟
فأجابها مائة، ليأخذ درهماً وأتى الحِمامُ وليدها في شهرِهِ!

وقال أيضاً في راحة الموت:

[الكامل]

قدِمَ الفتى ومضى بغير تَئيّةٍ كهلال أوّل ليلة من شهرِهِ
لقد استراح من الحَياة مُعَجلٌ لو عاش كابدَ شِدّةً في دهرِهِ

وقال أيضاً في العفة:

[الكامل]

أحْسِنْ جِواراً للفتاة وعُدّها أختَ السماك على دُنوِّ الدارِ
كتجاور العينين لن تتَلاقيا وحجاز بينهما قَصيرُ جدارِ

وقال أيضاً في بقاءِ الملك:

[البسيط]

مضى الأنام فلولا علم حالهم لقلت قول زُهَيرٍ أيَّة سلكوا
في الملك لم يخرجوا عنه ولا انتقلوا منه فكيف اعتقادي أنهم هلكوا

obeikandl.com

وقال أيضاً في الصبر والأذى:

[الطويل]

إذا قال فيك الناس ما لا تحبُّه فصبراً يفيء ود العدو إليكا
وقد نطقوا مَيْناً على الله وافتروا فما لهُمُ لا يفترون عليكا

الدين المعاملة، للمعري أيضاً:

[الكامل]

سَبِّح وصلِّ وطُفْ بمكة زائراً سبعين لا سبعاً فلستَ بناسِكِ
جَهِلَ الديانةَ مَنْ إذا عَرضتْ له أطماعه لم يُلْفَ بالمتماسكِ

قتل الأفراد، وقتل الأمم، للمرحوم أديب بك إسحاق:

[مجزوء الرجز]

قَتلُ امرئٍ في غابةٍ جريمة لا تُغْتَفَرْ
وقَتل شَعب آمِنٍ مسألةٌ فيها نظرْ
والحقّ للقوّةِ لا يُعطاها إلا مَن ظَفِرْ
ذي حالة الدنيا فكن من شَرّها على حَذَرْ

الوطن، لابن الرومي:

[الكامل]

وطنٌ به صَحِبْتُ الشبيبة والصِّبا ولبستُ ثوبَ العيشِ وهو جديدُ
فإذا تمثَّل في الضمير رأيتُهُ وعليه أغصان الشباب تميدُ

البنات، لِمَعْن بن أوْس:

[الطويل]

رأيتُ رجالاً يكرهونَ بناتهم وفيهِنّ لا نغلو نساءٌ صوالحُ
وفيهنّ والأيامُ يعثرنَ بالفتى عوائد لا يَمللنَها ونوائحُ

الكرم، للبُستي:

[الطويل]

فسامح ولا تستوْفِ حقك كله وأبقِ فلم يستقصِ قط كريمُ

ولا تغلُ في شيء من الأمر واقتصِد كِلا طرَفي قصدِ الأمور ذميمُ

الشهيد حَيٌّ، والميت هو خائن الوطن، للأمير الجليل شكيب أرسلان:

[البسيط]

بالله لا تَندبوا قَتلي، ولا تهنوا بعدي، ولا تغرقوا في النّوحِ والحزنِ
إنّ الشهيدَ لَحَيٌّ عند خالقه وإنما الميتُ حقّاً خائنُ الوَطنِ

الدواة، للمرحوم إسماعيل صبري باشا:

[الخفيف]

يا دَواةُ اجعلي مِدادَكِ وِرداً لوفود الأقلام حيناً فحينا
وَلْيَكُنْ كالزمان حالاً وحالا تارةً آسِناً وأخرى مَعينا
أكرمي العلم وامْنحي خادميه ماءك الغاليَ النفيسَ الثمينا
وابذُلي الصافيَ المطهّرَ منه لِهُداة السرائر المرشدينا
وإذا الظلمُ والظلام استعانا يوم نحسٍ بأجهلِ الجاهلينا
واستَمَدّ من الشرور مِداداً فاجعليه من قِسْمَة الظالمينا
واقذفي النقطة التي بات فيها غضبُ القاهر المُذِلّ كمينا
لِيراعِ امرئ إذا خَط سطراً نبذَ الحق وارتضى المَيْنَ دينا
وإذا كان فيكِ نقطةُ سوءٍ كُوِّنتْ من خباثةٍ تكوينا
فاجعليها قِسط الذين استباحوا في السياسات حُرمة الأضعفينا
وإذا خِفتِ أن يكون من الصخـ ـر جلاميدُ تُرجمُ السامعينا
فابخلي بالمِداد بخلاً وإن أُعطيت فيه المئينَ ثم المئينا .
فإذا أعْوز المدادُ طبيباً يصف الداءَ دائباً مستعينا
فامنحيه المرادَ منا وعرفاً واستطيبي معونة المحسنينا
وإذا مهجة الحمائم أسدتْ نقطة سِرها الذكي المصونا
فاجعليها على المودّات وقفاً وَهبيها رسائلَ الشيِّقينا

فـإذا لـم تـكـن بـقـلـبـك إلا ما أعدّ الإخلاص للمخلصينا
فـاجـعـلـيـه حَـظـي لأكـتـب مـنـه شرحَ حالي (لـيـد المرْسلينا)

القِمار، للشيخ نجيب الحداد المتوفّى سنة ١٨٩٩م من قصيدة طويلة:

[الوافر]

لـكـلّ نـقـيـصـةٍ فـي الـنـاسِ عـار وشَـرّ مـصـائـب الـمـرء الـقِـمـارُ
هـو الـداء الـذي لا بُـرءَ مـنـه ولـيس لـذنـب صـاحِـبـه اغـتـفـارُ
تـشـادُ لـه الـمـنـازل شـاهـقـات وفـي تـشـيـيـد سـاحَـتِـهـا الـدمـارُ
تـصـيـب الـنـازلـيـن بـهـا سُـهـادٌ وإفـلاسٌ فـيـأسٌ فـانـتـحـارُ

الوطنية، للشاعر مصطفى أفندي الرافعي المتوفّى سنة ١٩٣٧م:

[الطويل]

بلادي هواها في لساني وفي دمي يُمجدها قلبي ويدعو لها فمي
ولا خيرَ فيمن لا يُحب بلادَه ولا في حليف الحبّ إن لم يُتَيَّمِ

الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل، لمصطفى لطفي المنفلوطي المتوفّى سنة ١٣٤٣هـ:

[الطويل]

إذا ما سَفيهٌ نالني منه نائلٌ من الذم لم يُحرجْ بموقفه صدري
أعودُ إلى نفسي فإن كان صادقاً عتَبت على نفسي وأصلحتُ من أمري
وإلا فما ذنبي إلى الناس إن طغى هواها فما ترضى بخير ولا شَرِّ

النفس الأبية، للشاعر الكبير أحمد أفندي نسيم:

[الطويل]

ولم أدّرع بالذُّلّ شيمة حازم عن العزِّ والعَلياء لا يتَنكبُ
كذا أنا يا نفسي فكوني أبيّة ومالكِ إلا مذهبُ الفضل مذهبُ

الجمال، لشاعر النَجف بالعراق الشيخ محمد رضا الشبيبي:

[الطويل]

لقد عصفتْ بالمكرُمات زعازعٌ وعفَت رسومَ الأكرمينَ رياحُ

إذا أظلمت أخلاقنا وتجهّمتْ فهل نافعٌ أن الوجوه مِلاحُ

الأدب، للمرحوم محمد أفندي إمام المتوفّى سنة ١٩١٧م:

[البسيط]

لم يثبت الخير مال ولا نسَب إنما الخير كل الخير في الأدبِ
مَزيةٌ تملأ الدنيا محاسِنها سُلم لكمال الفضل والحسبِ

الحكام، للسيد توفيق البكري المتوفّى سنة ١٣٥٣هـ:

[البسيط]

حُكم الألى يحكمون الناس يُضحكني وسوءُ فعلِهمُ في الناس يُبكيني
ما الذئبُ قد عاث بين الضأن أفتك من هذي الولاةِ بهاتيك المساكينِ

نشر العلم، لشاعر العراق الفيلسوف جميل الزهاوي المتوفّى سنة ١٩٣٦م:

[الطويل]

إذا كان نشر العلم ذَنباً مُعاقباً عليه فإني أُشهِدُ الله مذنبُ

الثبات على المبدأ، لشاعر الشام أسعد أفندي رستم:

[البسيط]

لا بدّ للمرء مما ليس يُرضيه إذا تداخل فيما ليس يَعنيهِ
فابدأ بتحسين مبدأ أنت صاحبه فالمرء يُعرف أصلاً من مباديهِ

طالب المحال، للشاعر الجليل أحمد أفندي محرم:

[الطويل]

صَرفت رجائي عن مطالبَ جَمَّةٍ وليس الذي يَرجو المحالَ بكيِّسِ
أقول لنفسي والأسى ليثيرها: مكانك إن النفسَ بالنفس تأتسي

وقال محمد بن بشير في الصبر الجميل:

[البسيط]

إن الأمور إذا انسدَّتْ مسالِكُها فالصبر يَفتق منها كل ما ارْتتجا
لا تيأسنّ وإن طالت مطالبه إذا استَعنت بصبر أن ترى فرجا

أخْلقْ بذي الصبر أن يحظى بحاجته ومُدمِنِ القرع للأبواب أن يَلِجا
قدِّر لرجلك قبل الخطو موضعها فمنْ علا زلقاً عن غرَّةٍ زلجا
ولا يَغرّنك صَفْوٌ أنت شاربه فرُبما كان بالتكدير مُمتزجا

وقال الأضبط بن قريع في الأدب العام:

[المنسرح]

لِكلِّ ضيق من الأمر سَعهْ والصُّبحُ والمسا لا فلاح معهْ
قد يجمع المالَ غيرُ آكِلِهِ ويأكل المالَ غيرُ من جَمَعَهْ
ويقطع الثوبَ غيرُ لابسِهِ ويلبَس الثوبَ غيرُ من قطعهْ
فاقبَلْ من الدهر ما أتاك به مَنْ قرّ عيناً بعيْشِه نَفَعَهْ
وصِلْ حِبال البعيد إن وصَل الـ ـحَبل وَأقْصِ القريب إن قَطَعَهْ
لا تعادِ الفقير عَلَّكَ أن تركعَ يوماً والدهرُ قد رَفَعَهْ

وقال عبيد بن الأبرص الأسدي أحد فحول شعراء الجاهلية في الصبر:

[الخفيف]

صَبِّرِ النفسَ عند كلِّ مُلِمٍّ إن في الصبر حيلةَ المحتالِ
لا تَضيقنّ بالأمور فقد تكـ ـشفُ غماؤها بغير احتيالِ
ربما تَكره النُّفوسُ من الأمر فرجة كَحلِّ العقالِ

الباب الثاني عشر: في الصبر والتأني

[الطويل]

تصبَّر ففي اللّأواءِ قد يحمدُ الصّبر ولولا صرُوف الدّهر لم يعرف الحرُّ
وإنّ الذي أبلى هو العون فانتَدِبْ جميل الرّضا يبقى لك الذّكرُ والأجرُ
وثِقْ بالذي أعطى ولا تَكُ جازعاً فليس بحزمٍ أن يروّعك الضرُّ
فلا نِعَمٌ تبقى ولا نِقَمٌ ولا يدوم كلا الحالين عسرٌ ولا يسرُ
تقلُّبُ هذا الأمر ليس بدائم لديه مع الأيام حُلوٌ ولا مُرُّ

[البسيط]

اصبِرْ على مَضَض الإدلاج في السَّحَر ... وفي الرّواح إلى الطاعات في البكرِ
إني رأيت وفي الأيام تجربة ... للصَّبر عاقبةً محمودَةَ الأثرِ
وقلّ مَنْ جدّ في أمرٍ يؤمِّلُهُ ... واستصحب الصّبر إلا فاز بالظفرِ

[الطويل]

عليك بإظهار التجلّد للعِدى ... ولا تظهرن منك الذبول فتحقرا
أما تنظرُ الرّيحان يشمُ ناضراً ... ويطرح في البيدا إذا ما تغيَّرا

[مجزوء الكامل]

صبْراً على نُوب الزما ... ن وإن أبى القلبُ الجريحُ
فلكلّ شيءٍ آخرٌ ... إما جميلٌ أو قبيحُ

[البسيط]

الدّهر أدَّبني والصَّبر ربّاني ... والقوت أقْنعني واليأس أغناني
وحنَّكتْني من الأيّام تجربةٌ ... حتى نهيتُ الذي قد كان ينهاني

[الكامل]

إني رأيتُ الصَّبر خير معوّل ... في النّائبات لمن أراد معوّلا
ورأيتُ أسباب القناعة أكّدت ... بعُرى الغِنى فجعلتها لي مَعقِلا
فإذا نَبا بي منزلٌ جاوَزتُهُ ... وجعلتُ منه غيره لي منزِلا
وإذا غلا شيءٌ عليَّ تركتُه ... فيكون أرخَصَ ما يكون إذا غلا

[الطويل]

إذا ما أتاك الدَّهر يوماً بنكبةٍ ... فأفرغ لها صبراً وأوسع لها صدرا
فإن تصارِيف الزّمان عجيبةٌ ... فيوماً ترى يُسراً ويوماً ترى عُسرا

[الطويل]

على قدْر فضل المرء تأتي خُطوبُهُ ... ويُحمَدُ منه الصّبر ممّا يُصيبُهُ
فمن قلّ فيما يَتّقيه اصطبارُهُ ... لقد قَلّ فيما يَرتجيه نَصيبُهُ

obeikandl.com

[البسيط]

اصبر قليلاً فبعدَ العُسر تيسيرُ وكلّ وقتٍ له أمرٌ وتدبيرُ
وللمُهيمن في حالاتنا نظرٌ وفوقَ تدبيرنا لله تدبير

[البسيط]

اصبرْ ففي الصّبر خيرٌ لو علمتَ به لكنْتَ باركتَ شكراً صاحِب النعمِ
واعلم بأنك إن لم تصطبرْ كرَماً صبرْتَ قهراً على ما خطّ بالقلمِ

[الخفيف]

كن حليماً إذا بُليتَ بغيظٍ وصبوراً إذا أتتك مُصِيبَهْ
فاللّيالي من الزّمان حَبَالَى مُثقلاتٍ يَلِدْن كل عجِيبَهْ

[الوافر]

تصبّرْ أيها العبدُ اللّبيبُ لعلّك بعد صبرك ما تخيبُ
وكل الحادثاتِ إذا تناهَتْ يكون وراءَها فرجٌ قرِيبُ

[الطويل]

أيا صاحبي إن رُمت أن تكسبَ العُلا وترقَى إلى العَلياءِ غيرَ مُزاحمِ
عليك بحُسْن الصّبر في كلّ حالةٍ فما صابرٌ فيما يرومُ بنادمِ

[الطويل]

بَنى الله للأخيار بيتاً سماؤه هموٌ وأحزانٌ وحيطانُه الصَّبرُ
وأدخلَهم فيه وأغلَق بابَه وقال لهم مِفتاح بابِكم الصَّبْرُ

[البسيط]

اصبرْ قليلاً وكن بالله مُعتصماً لا تعجلَنّ فإنّ العَجزَ بالعَجَلِ
الصّبر مثل اسمه في كلّ نائبةٍ لكنْ عواقبه أحلى من العسلِ

[الوافر]

إذا جَرَحَتْ مساوِيهِم فؤادي صبرْتُ على الإساءَة وانطوَيتُ
وجئتُ إليهمْ طَلْقَ المُحيّا كأني لا سمعتُ ولا رأيتُ

[الوافر]

تأنّ ولا تضقْ للأمر ذَرعاً فكم بالنّجح يظفَر مَنْ تأنّى

تـأنّ فـحـيـثـمـا الـمـرءُ تـأنّـى يَـنَـلْ نَـجـحـاً ويـدركْ مـا تـمـنّـى

[الطويل]

تـأنّ ولا تـعـجَـل بـلـوْمـك صـاحِـبَـا لـعـل لـه عُـذْراً وأنـتَ تـلـومُ

الباب الثالث عشر: في الصدق

[البسيط]

الصّدق عزٌّ فلا تعدلْ عن الصّدق واحذر من الكذِب المذموم في الخُلُقِ

[السريع]

عـلـيـك بـالـصّـدْق ولـو أنـه أحـرقـك الـصّـدقُ بـنـار الـوَعـيـدِ

[البسيط]

عليك بالصّدق في كلّ الأمور ولا تكذب فأقبَح ما يُزْري بك الكذِبُ

الباب الرابع عشر: في الكذب

[مجزوء الكامل]

لـي حِـيـلـة فـيـمـن يـنـمُّ ولـيـس فـي الـكـذّاب حـيـلَـهْ
مَـن كـان يَـخـلـق مـا يـقـو لُ فـحـيـلـتـي فـيـه قـلـيـلَـهْ

[البسيط]

نـعـم نـعـم إنّـمـا الـنـمـامُ ذو ضـرَر لكـنّـما الكاذب الجاني أشدّ ضرَرْ
أخو النميمة إن يَسمَعْ يَنِمُّ ومن يكذب يقل ما يشا قولاً بغير أثَرْ
لذاك لي حيلةٌ في مَن ينمّ وما لي حيلةٌ في كذوب ملءُ فيه شَرَرْ

[الكامل]

لـي حـيـلـةٌ فـي مـن يـنـمُّ فـإنّـنـي أطـوِي حـديـثـي دونَـه وخـطـابـي
لـكـنّـمـا الـكـذاب يـخـلُـق قـولَـه مـا حـيـلـتـي فـي الـمُـفـتـري الـكـذّابِ

[البسيط]

لا يـكـذِب الـمـرءُ إلا مِـن مَـهـانـتـهِ أو فـعـلـه الـسُّـوءَ أو مـن قِـلّـة الأدبِ
لـبـعـضُ جِـيـفـةِ كـلـبٍ خـيـرُ رائـحـةٍ مـن كـذْبـة الـمـرء فـي جـدّ وفـي لَـعِـبِ

obeikandi.com

[الكامل]

إياك من كَذِب الكَذُوب وإفكِهِ فلرُبّما مَزج اليقين بشكِّهِ
ولرُبّما كذب امرُؤٌ بكلامِهِ وبصَمْته وبُكائه وبضحكِهِ

[الطويل]

إذا عُرِف الإنسانُ بالكذبِ لم يزل لدى الناس كذّاباً ولو كان صادقا
فإن قال لم تصغ له جلساؤه ولم يسمعوا منه ولو كان ناطقا

الباب الخامس عشر: في التواضع

[الكامل]

إن شئت أن تبني بناءً شامخاً يلزم لذا البنيان أُسٌّ راسخُ
إن البناء هو الكمالُ وأُسُّه الـ ـصَّخريُّ فَهْو الاتّضاعُ الباذخُ

[الطويل]

تواضعْ لرَبّ العرش عَلّك تُرفعُ فما خابَ عبدٌ للمهيمنِ يخضعُ

[الطويل]

تواضع تكُنْ كالنَّجم لاح لناظر على صفَحات الماء وهو رفيعُ
ولا تَكُ كالدُّخان يعلو بنفسِه إلى طَبقات الجوّ وهو وَضيعُ

[الطويل]

إذا شئت أن تَزداد قَدراً ورفعَة فَلِنْ وتواضعْ واترُكِ الكِبر والعُجبا

[الطويل]

تواضع إذا ما نِلْتَ في الناس رِفعة فإنّ رَفيعَ القوْم من يتواضعُ

الباب السادس عشر: في الكرم والكرماء

[الوافر]

ونكرمُ ضيفنا ما دام فينا ونُتْبعهُ الكرامةَ حيثُ مالاَ

[الطويل]

فتًى كملت خيراتهُ غيرَ أنه جَوادٌ فما يبقي مِنَ المال باقيا

[البسيط]

إنّ الكِرَام إذا مَا أيسرُوا ذكروا مَن كان يألفهُم في المنزل الخشِنِ

[الطويل]

أبى الجُود في الدُّنيا سِواك لأنه تفرّع من جُود وأنتَ أبو الجُودِ
وأضدادك الوادي لهم سال واستوتْ سفينة بحرِ العلمِ منك على الجُودي

[البسيط]

إن الكريمَ الذي لا مَال في يده مثل الشُّجاع الذي في كفّه شَلَلُ
والمالُ مثل الحَصى ما دام في يدنا فليسَ ينفع إلاّ حين ينتقلُ

[البسيط]

لو أشبهتك بحار الأرض في كرم لأصبح الدُّرّ مَطروحاً على الطُّرُقِ
أو أشبه الغيثُ جُوداً منك مُنهَمِلاً لم ينجُ في الأرض مخلوقٌ من الغرَقِ

[المنسرح]

مَن قاسَ جَدْواك بالغمام فما أنصفَ في الحُكم بين ثَكلينِ
أنت إذا جُدْت ضاحكٌ أبداً وهو إذا جادَ دامعُ العينِ

[الخفيف]

ما نَوالُ الغمام وَقْت ربيعٍ كنوال الأمير وقْت سَخاءِ
فنوالُ الأمير بَدْرَةُ مال ونَوالُ الغمام قَطْرةُ ماءِ

الباب السابع عشر: في البخل والبخلاء

[البسيط]

يُفني البخيلُ بجَمْع المال مُدّته وللحوادث والأيّام ما يَدَعُ
كدُودة القزّ ما تبنيه يَهدمها وغيرها بالذي تبنيه يَنتفعُ

[الخفيف]

إن هذا الفتى يصُون رغيفاً ما إليه من ناظر من سبيلِ
في جراب في جوف تابوت موسى والمفاتيح عند ميكائيلِ

[الطويل]

شرابك مختُوم وخُبزك لا يُرى ولحمُك بين الفَرقدين مُعلّقُ
نديمك عطشان وضيفك جائعٌ وكلبك نباح وبابك مُغلقُ

[الوافر]

نوالك دُونه شوْكُ القتاد وخُبزك كالثُّرَيّا في البعادِ
ولو أبصرتَ ضيفاً في منامٍ لحرّمت الرُّقاد على العِبادِ

[البسيط]

قد شاب رأسي ورأس الدَّهر لم يَشِبِ إنّ الحريصَ على الدّنيا لفي تَعَبِ

[الوافر]

وذي حرص تراه يَلُمُّ وفراً لوارثه ويدفع عن حِمَاهُ
ككلب الصّيد يمسك وهو طاوٍ فريته ليأكلها سِوَاهُ

[مجزوء الرجز]

حسبي بعلمي إن نَفعْ ما الذلّ إلاّ في الطّمَعْ
مَن راقب الله نَزَعْ عن سوء ما كان صنَعْ
ما طار طيرٌ وارتفَعْ إلاّ كما طارَ وَقَعْ

[البسيط]

أصبحت أَجْوَعَ خَلْقِ الله كلّهِمُ وأفزعَ النّاس من خبز إذا وُضِعا
خبزُ البخيل لمكتوبٌ عليه ألا لا بارك الله في ضَيف إذا شَبعا
إني أحَذّركم من خُبز صاحبنا فقد ترون اليوم بحلقي ما صنَعا

[البسيط]

إيّاك والحرص إنّ الحرصَ مَتْعَبةٌ فإن فعلتَ فراع القَصْد في الطَّلَبِ
قد يُرْزَقُ المرءُ لم تَتعبْ رَواحلهُ ويُحرم المرءُ ذو الأسفار والتّعبِ

[الوافر]

إذا كُسر الرَّغيف بَكى عليه بُكا الخَنْساءِ إذْ فجعتْ بصَخْرِ
ودونَ رغيفه قلع الثّنايا وضربٌ مثل وقعةِ يومِ بَدْرِ

openkana.com

[الوافر]

تغيّرَ إذ دخلتُ عليه حتى فطِنْتُ فقلتُ في عَرْضِ المقالِ
عليَّ اليوم نذرٌ من صيامٍ فأشرقَ وجههُ مثل الهلالِ

وقال أبو محمد إسحاق الموصلي المتوفّى سنة ٢٣٥هـ في ذم البخل:

[الطويل]

وَآمِرةٍ بالبُخل قلت لها اقْصري فليس إلى ما تأمُرِينَ سبيلُ
أرى النّاسَ خُلاّنَ الجَواد ولا أرى بخيلاً له في العالمينَ خليلُ
وإني رأيتُ البُخل يُزْري بأهله فأكرمتُ نفسي أن يقال بَخيلُ
ومن خير حالات الفتى لو علمته إذا نال شيئاً أن يكون ينيلُ
عَطائي عطاءُ المُكثرين تجمُّلاً ومالي كما قد تَعلمين قليلُ
وكيف أخاف الفقر أو أُحرَمُ الغنى ورأيُ أميرِ المؤمنين جَميلُ

الباب الثامن عشر: في وصف الدنيا

[الوافر]

أيا مَن عاشَ في الدُّنيا طويلاً وأفنى العُمرَ في قيلٍ وقالِ
وأتعبَ نفسَه في ما سيفنى وجمعٍ من حرامٍ أو حلالِ
هَبِ الدُّنيا تقادُ إليك عَفواً أليس مصيرُ ذاك إلى انْتقالِ

[الرمل]

إنّ لله عِباداً فُطنا طلّقوا الدُّنيا وعافوا الفتنا
فكّرُوا فيها فلما عَلموا أنها ليست لحيّ وطنا
جعلوها لُجّةً واتَّخذُوا صالح الأعمال فيها سُفُنا

[البسيط]

عجبتُ للمَرء في دنياه تطمعه في العيش والأجلُ المحتُوم يَقطعُهُ
يُمسي ويُصبح في عَشواءَ يَخْبطها أعمى البَصيرة والآمالُ تخدعُهُ
يغترّ بالدَّهر مَسروراً بصُحْبَتِهِ وقد تيقّن أن الدّهر يَصرعُهُ

ويَجمع المالَ حِرصاً لا يُفارقُهُ وقد دَرَى أنّه للغير يجمعُهُ
تراه يُشفِقُ مِنْ تضييع دِرْهمه وليس يُشْفِق من دِينٍ يُضيّعُهُ
وأسوأُ الناس تَدْبيراً لعاقبة مَنْ أنفَقَ العُمر في ما ليس يَنفعُهُ

[الطويل]

ومن يَذُقِ الدُّنيا فإني طعِمتها وسيقَ إلينا عَذْبُها وعذابُها
فلَم أرها إلاّ غرُوراً وبَاطلاً كما لاحَ في ظَهر الفلاة سَرابُها
وما هي إلاّ جِيفَةٌ مستحيلةٌ عليها كِلابٌ همّهنَّ اجتذابُها
فإن تَجْتَنِبْها كنت سِلماً لأهلها وإن تَجْتَذِبْها نازعَتْكَ كلابُها
فَدَعْ عنك فضْلات الأمور فإنها حرامٌ على نفس التّقيّ ارتكابُها

[الطويل]

ومَن يَحمدِ الدنيا لشيءٍ يسرُّه فوف لعَمري عن قليل يلومُها
إذا أدْبرت كانت على المرء حسرةً وإن أقبلت كانت كثيراً همُومُها

[الوافر]

هي الدُّنيا تقولُ بملء فيها حَذَارِ حَذَار من بطشي وفتكي
فلا يَغرُركمو منّي ابتسام فقَوْلي مُضحكٌ والفعل مُبكي

[الكامل]

يا خاطبَ الدُّنيا الدَّنيّة إنها شَرَك الرَّدَى وقرارة الأكدارِ
دارٌ متى ما أضحكتْ في يومِها أبكَتْ غداً تبّاً لها من دارِ

الباب التاسع عشر: في السر

[الطويل]

ولستُ بمُبْدٍ للرّجال سريرتي ولا أنا عن أسرارهم بسؤُولِ

[البسيط]

لا يكتم السّرَّ إلا كلّ ذي ثِقَةٍ والسرّ عند خيار النَّاس مكتومُ
فالسّرّ عندي في بيتٍ له غَلَقٌ ضاعت مفاتيحُهُ والبابُ مختومُ

[المتقارب]

صُنِ السّرّ عن كل مُستَخْبرٍ وحاذِرْ فما الرّأي إلا الحَذَرْ
أسيرُك سرّك إن صُنْتَه وأنتَ أسيرٌ له إن ظَهَرْ

[الرمل]

كلّ علمٍ ليس في القرْطاس ضاعْ كلّ سِرّ جاوَزَ الاثنينَ شاعْ

[المتقارب]

إذا لم يكن في الورَى صاحبٌ وفيه ثلاثُ خِصال حَميدَهْ
وفاءٌ وسرٌّ وحفظُ الولا فصُحبته قطّ ليست مُفيدَهْ

الباب العشرون: في اللسان

[الكامل]

لا يُعجبنَّك من خطيبٍ خُطبةٌ حتى يكون مع الكلام أصيلا
إنّ الكلامَ لفي الفؤاد وإنما جُعل اللسان على الفؤَاد دليلا

[الطويل]

يُصاب الفتى من عَثرة بلسانِهِ وليس يُصاب المرءُ من عثرة الرِّجلِ
فعثرَتُه في القول تُذهِبُ رأسَهُ وعَثرتُه بالرّجل تَبرأ على مَهْلِ

[الكامل]

احفظْ لسانك أيها الإنسانُ لا يلدغنَّك إنه ثعبانُ
كم في المقابر من قَتيلِ لسانِهِ كانت تَهاب لقاءَه الشجعانُ

[الكامل]

الصَّمت زَينٌ والسّكوت سلامة فإذا نطقتَ فلا تكن مِكثارا
فإذا نَدِمت على سكوتك مَرّة فلتندمنّ على الكلام مرَارا

[الكامل]

احفظ لسانَك واستعِذْ من شرّه إنّ اللّسان هو العدُوّ الكاشحُ
وزِن الكلامَ إذا نطقتَ بمجلسٍ فإذا استوَى فهُناك حلمك راجحُ

[البسيط]

عَوِّدْ لسانك قولَ الخير تنجُ به ... في زلّة اللفظ أو من زلّة القَدَمِ
وَاحْذَرْ لسانَك من خلّ تُنادِمهُ ... إن النّدِيمَ لمُشتَقٌّ من الندَمِ

الباب الحادي والعشرون: في المعاشرة

قال الإمام الشافعي رضي الله عنه:

[الطويل]

إذا المرءُ لا يَرعاكَ إلا تكلُّفاً ... فدَعْهُ ولا تُكْثِر عليه التأسُّفا
ففي النّاس أبدالٌ وفي التّرك راحَةٌ ... وفي القلب صَبْرٌ للحبيب ولو جفَا
فما كلّ مَن تهواهُ يهواك قلبُهُ ... ولا كلُّ مَنْ صافيتَه لكَ قد صَفا
إذا لم يكُن صفوُ الوداد طَبيعةً ... فلا خيرَ في ودّ يجيء تَكَلُّفا
ولا خيرَ في خلّ يخونُ خليلَهُ ... ويَلقَاهُ من بَعْدِ المودّة بالجَفا
ويُنكرُ عيشاً قد تقادَم عهده ... ويُظهر سِرّاً كان بالأمس قد خَفا
سلامٌ على الدُّنيا إذا لم يكن بها ... صَدِيقٌ صَدوقٌ صادقُ الوعد مُنْصِفا

[الكامل]

صافِ الكرامَ فخيرُ مَنْ صافَيتهُ ... مَن كان ذا أدب وكان ظَرِيفا
واحذرْ مؤاخاة اللّئيم فإنه ... يُبدي القَبيحَ ويُنكرُ المعرُوفا
إن الكريمَ وإن تَضعضَعَ حاله ... فالخلْقُ منه لا يَزال شريفا
والنّاس مثل دراهمٍ قَلَّبتَها ... فأصَبْتَ منها فِضَّة وزُيوفا

[الطويل]

ولن يَصحَبَ الإنسانُ إلا نظيرَه ... وإن لم يكونا من قبيل ولا بَلَدْ
وما الغيُّ إلا أن تصاحِب غاوياً ... وما الرُّشد إلا أن تصاحِب ذا رَشَدْ

[الطويل]

أخو الفِسْق لا يغْرُرك منه تودُّدٌ ... فكلُّ جِبال الفاسقِين مهينُ
وصاحِبْ إذا ما كنت يوماً مُصاحباً ... أخا ثقة بالغيبِ منك أمينُ

[الكامل]

اجعلْ قرينَك مَنْ رضيتَ فِعالَهُ واحذَرْ مقارَنَةَ اللئيمِ الشائِنِ
كم من قرينٍ شائنٍ لقرينهِ ومُهجّنٍ منه لكلّ محاسنِ

[الطويل]

وعينك إن أبدت إليكَ مساوياً من النّاس قُل يا عينُ للناس أعينُ
وعاشرْ بمعرُوف وكن مُتودِّداً ولا تلقَ إلا بالّتي هي أحسنُ

الباب الثاني والعشرون: في القناعة

[الوافر]

وأكلُ كُسيرة في جَنبِ بَيتي أحبُّ إليّ مِنْ أكل الرّغيفِ
ولُبْسُ عَبَاءَة وتقرَّ عَيني أحبُّ إليّ مِنْ لبْس الشّفوفِ

[البسيط]

هي القناعةُ فالزَمْها تعِش ملكاً لو لم يكن منك إلا راحةُ البدنِ
وانظُرْ لمنْ مَلك الدُّنيا بأجمَعِها هل راحَ منها بغير القُطن والكَفنِ؟

[مخلّع البسيط]

قَنعتُ بالقُوتِ من زماني وصُنت نفسي عن الهوانِ
خَوْفاً من الناس أن يَقولوا فضلُ فلانٍ على فلانِ
مَنْ كنتُ عَن ماله غَنِيّاً فلا أُبالي إذا جَفاني
ومَنْ رآني بعين نَقصٍ رأيتُهُ بالّتي رآني
ومن رآني بعينِ تِمٍّ رأيته كامل المعَاني

[المتقارب]

إذا المرءُ عُوفيَ في جِسمه ومَلّكه الله قلباً قنوعا
وألقى المطامِع عن نفسِهِ فذاك الغنيُّ ولو مات جُوعا

[الكامل]

النفس تجزَعُ أن تكونَ فقيرةً والفقرُ خيرٌ من غِنىً يُطغيها

وغنَى النّفوس هو الكَفافُ فإن أبَت فجميعُ ما في الأرض لا يكفيها
[البسيط]

إن القَنُوع نفيسُ النّفس راشدُها وهو الغنيُّ الذي يَحيا بلا نَصَبِ
وذو المَطامع مَغرُورٌ ومُفتقرُ ولو حَوَى مُلكَ سلطانٍ وعِلْمَ نَبي
[الوافر]

أفادتني القَناعةُ كل عِزٍّ وهلْ عزٌّ أعزُّ من القَناعَهْ
[الكامل]

ولقد طلبتُ رضا البريّة جاهداً فإذا رضاهُم غايةٌ لا تُدْرَكُ
وأرَى القناعةَ للفَتى كنزاً له والبرُّ أفضلُ ما بهِ يُتمسّكُ

الباب الثالث والعشرون: في الحسد

[البسيط]

تخلّق الناس بالأدناس واعْتَمدُوا من الصّفات الدّها والمَكْرَ والحدا
كرهتُ منظرَهم من سُوء مَخْبرهم فقد تعاميْتُ حتى لا أرى أحدا
[مجزوء الكامل]

اصْبرْ على كَيدِ الحسودِ فإن صَبْرك قاتلُهْ
كالنّار تأكلُ نفسَها إن لم تجدْ ما تأكُلُهْ
[البسيط]

دَع الحسُود وما يَلْقاه من كَمَدٍ يكفيك منه لَهيبُ النار في كَبِدِهْ
إن لُمْتَ ذا حَسَدٍ نفَّثْتَ كُرْبَتَه وإن سَكَتَّ فقد عذَّبته بِيَدِهْ
[المتقارب]

أيا حاسداً لي على نِعْمتي أتدري على مَنْ أسأت الأدَبْ
أسأت على الله في حُكمِهِ لأنك لم تَرْضَ لي ما وَهَبْ
فأحمَد ربي بأن زادني وسدّ عليكَ وجوهَ الطلَبْ
[الكامل]

إن شئت قتل الحاسدين تعمّداً من غير ما ديَةٍ عليك ولا قَوَدْ

وبغير سمّ قاتلٍ وصوارمٍ وعقابِ رَبّ ليس يغفل عن أحَدْ
عظّم تجاه عيونهم مَحْسودهم فتَراهُمُ موتى النفوس مع الجَسَدْ

الباب الرابع والعشرون: في الحلم

[الطويل]

ألا إنّ حلم المرءِ أكرمُ نِسبةٍ تَسامَى بها عند الفخار حليمُ
فيا ربّ هبْ لي منك حِلماً فإنـ ـني أرَى الحِلم لم يندم عليه كريمُ

[الطويل]

ولا خيرَ في حِلم إذا لم يكن له بَوادرُ تحمي صفوه أن يكدّرا
ولا خيرَ في جهلٍ إذا لم يكن له حليمٌ إذا ما أورد الأمر أصدَرا

[الطويل]

إذا كنتُ محتاجاً إلى الحِلم إنّني إلى الجهل في بعض الأحايين أَحْوَجُ
وَلي فرسٌ للحلم بالحلم مُلجمٌ ولي فرسٌ للجهل بالجَهل مُسْرَجُ
فمن شاءَ تقويمي فإني مقوَّمٌ ومَن شاءَ تَعويجي فإني مُعوّجُ
وما كنتُ أرضى الجهل خِدْناً وصاحِباً ولكنني أرضى به حين أُحْرَجُ

[الطويل]

إذا كنت بين الحلم والجَهل ناشئاً وخُيرت أنّى شئت فَالحلمُ أفضل
ولكن إذا أنصفتَ مَن ليس مُنصفاً ولم يرض منك الحلمَ فالجهلُ أمثل

وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه:

[الطويل]

وعَينُ الرّضا عن كلّ عيبٍ كَليلَةٌ كما أنّ عين السُّخط تُبدي المساويا
ولستُ بهيّابٍ لِمَن لا يَهابُني ولست أرى للمرء ما لا يَرى لِيَا
فإن تَدنُ مِني تدنُ منك مَودّتي وإن تَنأَ عنّي تلقَني عنك نائيا
كلانا غنيٌّ عن أخيه حياتَه ونحن إذا مِتنا أشدُّ تَغانيَا

الباب الخامس والعشرون: في الحماقة

[البسيط]

لكلّ داءٍ دواءٌ يُستطبُّ بهِ إلا الحماقَة أعيتْ مَنْ يُداويها

[الكامل]

لا تَيأسنَّ من اللبيب وإن جَفَا واقطَعْ حبالَكَ من حِبال الأحمَقِ
فَعَداوَةٌ من عاقلٍ مُتَجمّلٍ أولى وأسلَمُ من صَداقةِ أخرَقِ

الباب السادس والعشرون: في الوطن

قال ابن الرومي:

[الطويل]

ولي وطنٌ آليت ألا أبيعَهُ وألا أرى غيري له الدَّهر مالكا
عَمرْتُ به شَرْخ الشّباب مُنعّماً بصحبة قوم أصبحوا في ظلالِكا
وحبّب أوطانَ الرّجال إليهمُ مآربُ قَضَاها الشباب هُنالِكا
إذا ذَكَرُوا أوطانَهم ذَكَرتهُمُ عُهُود الصّبا فيها فحنّوا لذلكا
قد أَلِفَتْهُ النفسُ حتى كأنه لها جسدٌ إن بان غُودِر هَالِكا

الباب السابع والعشرون: في المال

[المجتث]

إن الدّراهم كالمَرا هِم تَجبُرُ العَظْم الكَسيرا
لو نَالَهُنَّ ثُعيلَبٌ في صُبحِهِ أضحى أميرا

[البسيط]

إن قلَّ مالي فلا خلٌّ يُصاحبني إن زاد مالي فكلُّ الناس خِلاني
فكم عدُوٍّ لأجل المال صاحَبني وكم صديقٍ لفَقدِ المال عاداني

[الطويل]

لَعَمرُك إن المال قد يجعلُ الفَتى سرِيّاً وإن الفَقْرَ بالمرء قد يُزْرِي

وما رفع النفس الدّنية كالغِنَى ولا وضع النفس النفيسة كالفَقْرِ
[الكامل]

وإذا ما رأيت صُعوبةً في مطلبٍ فاحمِلْ صُعوبَتَهُ على الدّينارِ
وابعثْهُ فيما تشتهيه فإنه حجرٌ يُليّنُ قسْوةَ الأحجارِ
[البسيط]

الناس أتباعُ من دامتْ له نِعَمُ والويلُ للمرءِ إن زَلتْ به القَدمُ
المالُ زيْنٌ ومن قلّتْ دراهِمُهُ حيٌّ كَمنْ مات إلا أنهُ صَنَمُ
لما رأيتُ أخلاَّئي وخالِصَتي والكلُّ مُستترٌ عنّي ومُختَشِمُ
أبدَوا جفاءً وإعراضاً فقلتُ لهم: أذنبتُ ذنباً؟ فقالوا: ذنبُك العَدَمُ
[الطويل]

فصاحةُ حسَّان وخطُّ ابن مُقْلةٍ وحِكمةُ لقْمان وزُهدُ ابنِ أدهمِ
إذا اجتمعت في المرءِ والمرءُ مُفْلس ونودي عليه لا يُباع بدرهمِ
[المتقارب]

إذا كنت في حاجة مُرسلا وأنتَ بها كلفٌ مُغْرَمُ
فأرسل حكيماً ولا تُوصِهِ وذاك الحكيم هو الدّرهمُ
[مجزوء الرمل]

أظهرُوا للناس زهداً وعلى الدّينار دارُوا
وله صامُوا وصلُّوا وله حجّوا وزاروا
لو يُرى فوق الثريّا ولهم ريشٌ لطارُوا
[البسيط]

المالُ يَفرقُ بين الأُم والولدِ فذاك أدنى نسيبٍ عند كلّ يَدِ
عهدي به خادماً كالعبد نملِكُهُ فما لِعيني تراه سَيّد البَلَدِ؟
[البسيط]

مالٌ يميل إلى المرء من صِغَرٍ وكلما شَبَّ شبَّ الحبّ في الكبد

لو يَجمع الله ما في الأرض قاطبة عند امرئ لم يقلْ حسبي فلا تَزِدِ
كلٌّ يروح من الدُّنيا الغرُور كما أتى بلا عَدَد منها ولا عُدَدِ
لو كان يأخذُ شيئاً قبلَنا أحد لم يَبق شيءٌ لنا من سالِف الأمَدِ

[الطويل]

إذا المرء لم يَعتقْ من المال نفسه تملّكهُ المال الذي هو مَالِكُهْ
ألا إنما مالي الذي أنا مُنفِقٌ وليس ليَ المال الذي أنا تَارِكُهْ

[الكامل]

من كان يَملك دِرْهمين تعلّمت شفَتَاه أنواع الكلام فقالا
وتقدّم الإخوان فاستَمَعُوا له ورأيتَه بين الورى مختالا
لولا دراهمُه التي يَزْهو بها لوجدتَهُ في الناس أسوأ حالا
إنّ الغنيّ إذا تكلَّم بالخطا قالوا صَدَقْتَ وما نطَقْتَ مُحالا
أما الفقيرُ إذا تكلَّم صادقاً قالوا كذَبت وأبطلوُا ما قالا
إنَّ الدَّراهمَ في المواطن كلّها تكسو الرّجال مَهابةً وجمالا
فهيَ اللسان لمن أراد فَصاحةً وهي السّلاح لمن أراد قِتالا

الباب الثامن والعشرون: في السياحة والغربة

[الكامل]

وإذا البلاد تغيّرتْ عن حالها فَدَع المقام وبادِر التّحويلا
ليس المقامُ عليك فرضاً واجباً في بلدة تَدعُ العزيز ذليلا

[الطويل]

تَنقّل فلذّات الهوى في التّنقُّل وَرُدْ كلّ صافٍ ولا تَقِفْ عند مَنهلِ
ففي الأرض أحبابٌ وفيها مناهلٌ فلا تَبْكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ

[الطويل]

تغرّب عن الأوطان في طلب العُلا وسافرْ ففي الأسفار خمسُ فوائِدِ
تَفرُّجُ هَمٍّ واكتسابُ معيشةٍ وعِلمٌ وآدابٌ وصُحبةُ ماجدِ

وإن قيلَ في الأسفار ذلٌّ ومِحنَةٌ وقطعُ الفيافي واكتسابُ الشّدائِدِ
فموتُ الفتى خيرٌ له من حياته بدارِ هوانٍ بين واشٍ وحاسِدِ

[البسيط]

ارْحل بنفسك من أرضٍ تُضام بها ولا تكُن لفراق الأهل في حرقِ
مَن ذُلّ بين أهاليهِ ببلدتِهِ فالاغترابُ له من أحسَن الخُلقِ
الكحلُ نوعٌ من الأحجار مُنطرحاً في أرضه كالثرى يُرأى على الطرقِ
لمَّا تغرَّب نال العزَّ أجمعه وصار يُحمَل بين الجفن والحَدَقِ

وقال الإمام الشافعي:

[البسيط]

ما في المُقام لذي عقل وذي أدبٍ من راحةٍ فدَعِ الأَوطانَ واغترِبِ
سافرْ تجِد عوضاً عمَّن تُصاحبُه وانصَبْ فإن لذيذَ العَيش في النَّصبِ
إني رأيتُ وقوف الماءِ يُفسدهُ إن سال طاب وإن لم يَجْر لم يَطِبِ
الأسدُ لولا فراقُ الغاب ما قُنصَتْ والسهمُ لولا فراق القوْس لم يُصِبِ
والشمسُ لو وقفت في الفُلك دائمةً لملّها الناسُ من عُجمٍ ومن عَربِ
والبدرُ لولا أفولٌ منهُ ما نظرت إليه في كلّ حين عينُ مُرتقِبِ
والتِّبرُ كالتُّرْب مُلقىً في أماكنه والعودُ في أرضه نوعٌ من الحَطَبِ
فإن تغرّب هذا عزّ مطلَبُهُ وإن أقام فلا يعلو على رُتَبِ

[الوافر]

إذا ما ضَاقَ صَدْرُكَ من بلادٍ ترحّلْ طالباً أرضاً سوَاها
عجبتُ لمن يُقيم بدارِ ذلّ وأرضُ الله واسعةٌ فَضاها
فذاك من الرّجال قليلُ عَقلٍ بليدٌ ليس يعلم ما طحاها
فنفسَك فُزْ بها إن خفتَ ضيما وخلّ الدّار تَنعي مَن بَناها
فإنك واجدٌ أرضاً بأرضٍ ونفسك لم تجدْ نفساً سِوَاها
ومن كانت منيَّتُهُ بأرضٍ فليس يموتُ في أرضٍ سواها

وقال الحريري في الحث على السفر من مقامة له:

[البسيط]

لا تقعُدَن على ضَرٍّ ومَغْبَةٍ ... لكي يقالَ عزيز النفس مُصطبرُ
وانظرْ بعينيكَ هل أرضٌ مُعطَّلةٌ ... من النّبْات كأرض حفّها الشّجرُ
فعُد عمّا يثير الأغبياء به ... فأيُّ فضلٍ لعودٍ ما له ثَمَرُ
وارحل ركابك عن رَبع ظمِئتَ به ... إلى الجناب الذي يَهْمي به المَطَرُ
واستنزلِ الرّيَّ من دُرّ السَّحاب فإن ... بلتْ يداك به فليهنك الظفَرُ

[الوافر]

بلادُ الله واسعةٌ فضاءً ... ورزْقُ الله في الدُّنيا فَسيحُ
فقلْ للقاعدين على هوان ... إذا ضاقت بكم أرضٌ فَسيحوا

[الكامل]

وإذا رأيت الرزقَ ضاق ببلدة ... وخَشيت فيها أن يضيق المكسبُ
فارحلْ فأرضُ الله واسعةُ الفَضا ... طُولاً وعرضاً شرقُها والمغربُ

[الوافر]

إذا ما كنت في قوْم غريباً ... فعامِلْهُم بفعل يُستطابُ
ولا تحزن إذا فاهُوا بفحْش ... غريب الدّار تنبحُهُ الكلابُ

[الوافر]

وما طلبُ المعيشةِ بالتمنِّي ... ولكنْ ألق دلوك في الدِّلاءِ
تجيءُ بمثلها طَوْراً وطوْراً ... تجيءُ بحمأة وقليل ماءِ
ولا تقعُدْ على كسلِ التمنِّي ... تُحيلُ على المُقَدّر والقضاءِ
فإن مقادِر الرَّحمن تجري ... بأرزاق الرّجال مِن السّماءِ
مقدَّرة بقبضٍ أو بِبَسْطٍ ... وعَجْزُ المرْءِ أسبابُ البلاءِ

الباب التاسع والعشرون: في الغدر

[الكامل]

لا أشتكي زمني هذا فأظلمُهُ وإنما أشتكي من أهل ذا الزمنِ
همُ الذئابُ التي تحت الثياب فلا تكنْ إلى أحدٍ منهم بمُؤْتَمنِ

[الكامل]

وزهّدني في الناس معرفَتي بهم وطولُ اختباري صاحباً بعد صاحبِ
فلم تُرني الأيامُ خِلاً تسرُّني مباديه إلا ساءني في العواقبِ

[الكامل]

إني بلوتُ الناس أطلبُ منهُمُ أخا ثقة عند اعتراضِ الشدائدِ
فلم أر فيمَا ساءَني غيرَ شامتٍ ولم أر فيما سرّني غيرَ حاسِدِ

وقال علي بن الجهم وهو مسجون:

[الكامل]

قالوا حُبست فقلتُ ليس بضَائري حبسي وأيُّ مُهنَّد لا يُغمدُ
فالشمس لولا أنّها محجوبةٌ عن ناظريك لما أضاءَ الفرقَدُ
والبدر يدركه السّرار فتنجلي أيامه وكأنه متجدّدُ

الباب الثلاثون: في الدعاء الختام

[الوافر]

أراني الله وجهَك كلَّ يوم صباحاً للتّيمُّن والسُّرُورِ
وأمتعَ مُقلتيَّ بصفحتَيْهِ لأقرأ الحُسْنَ من تلك السّطورِ

[الطويل]

بَقيتَ مَدَى الدُّنيا ومُلكُكَ راسِخٌ وَطودُك ممدودٌ وبابك عامِرُ
يودّ سَناكَ البدرُ والبدرُ زاهرٌ ويقفو ندَاك البحرُ والبحرُ غامرُ
وهُنّئْتَ أياماً توالت سعودُها كما تتوالى في العُقود (الجَواهِرُ)

يقول مؤلفه: فرغت من تأليفه وترتيبه في ربيع الأول سنة ألف وثلثمائة وخمس عشرة هجرية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية.